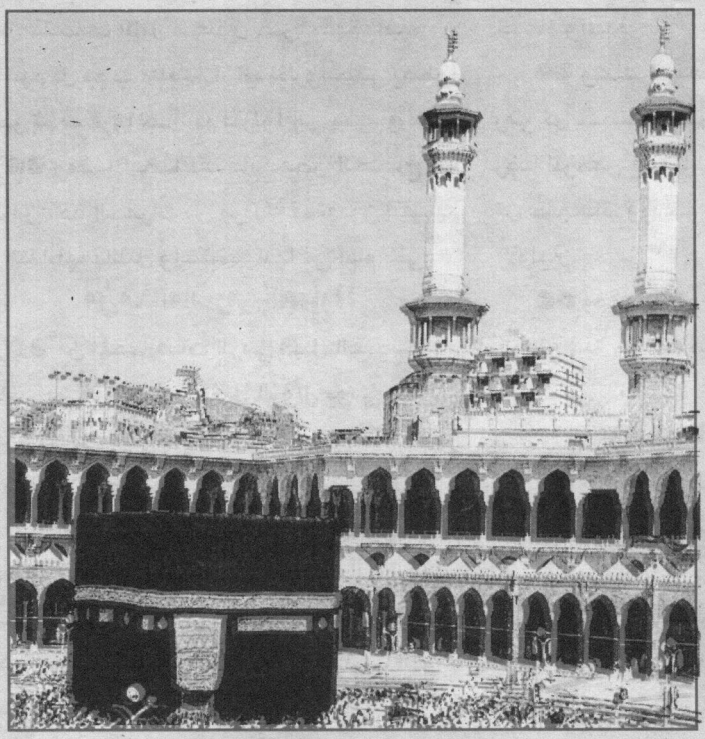
الأمة.. الأمل والعمل

لإمام الحرم المكي

فضيلة الشيخ الدكتور/ صالح بن حميد. حفظه الله.



الحمد لله أرشد وهدى. ووفق من شاء من عباده طريق الهدى، ومن أضل فلن تجد له وليا مرشدا. أحمده سبحانه وأشكره لا تحصى آلاؤه عددا، ولا تنقطع فضائله مددا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا أشرك به أحدا. وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله كَرُمَ رسولا وشَرُفَ محتدًا. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله أنوار الدجى وأصحابه مصابيح الهدى والتابعين ومن تبعهم بإحسان صلاةً وسلامًا وبركاتٍ دائمات سرمدًا.

أما بعد فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله عز وجل فاتقوا الله رحمكم الله واحذروا ضياع العمر في غير طاعة، وخافوا من التسويف فالتسويف بئست البضاعة، فكم من مؤجل لم يبلغ ما أمله، وحيل بينه وبين ما كان يرجو عمله. دارت عليه رحى المنون كم نُصح وهو معرض بات على تفريطه نادما يتمنى الرجوع فلا يقدر، قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون.

اقرأوا وتأملوا في أحوال الأمة مع مخالفيها: ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أيها المسلمون: إن الأمة تمر في حالها الراهن بأوضاع من الضعف والتشتت وظلام الطريق. بينما يمر الأخرون بموجات من الاستعلاء والقوة ونزعات التفرد.

إن كل ذلك على ظلامه وبأسائه يشير إلى أفق مضيء وسبيل عامر بالأمل بإذن الله. نعم لتي كان الباطل يزداد بطشا وطغيانا وغدرًا، وصورة ذلك جلية في عدوان اليهود في قلسطين المحتلة، فإن ذلك عند المؤمن في إيمانه وبمعرفته بسنن الله هو بدايةٌ للنهاية بإذن الله.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

إن المسلم لا يسرف في التعلق بالأماني وسراب التمنيات، ولكن في الوقت ذاته لا يكون منكس الرأس في مستنقعات الهزائم ومواطن الذل والمهانة.

إن أمل المسلم ليس مكابرة ولا تمردًا على الواقع والوقائع ولكنه عقيدة راسخة يؤمن بها ويعمل في إطارها سندها كتاب الله عز وجل ﴿وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.

إن اليأس حيلة العاجز الذي يؤثر الانسحاب والعزلة، إن البلاء يحتمل بعظم الرجاء، والفرج طريقه الثقة بالله العلي الأعلى. المومن الحق لا تزلزله المحن، ولا تهده المكائد بل يزيده ذلك عطاءً وبذلا وتضحية. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا

وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

معاشر المسلمين: إن أولويات أهل العلم والرأي والدعاة والمصلحين أن يشيعوا الأمل الصادق في نفوس الأمة.

الأمل الذي يدعو إلى الثبات على الدين والعض عليه بالنواجذ والعمل على نصرته والذب عن حياضه، واليقين بأن نصر الله ينزل على أوليائه لا بمعجزة خارقة ولكن بسنة جارية يمتحن فيها العباد ليبلوهم أيهم أحسن عملا.

وهذا لا يتحقق بموعظة تتلى أو خطبة تلقى فحسب ولكن بقدوات صالحة قوية في دين الله ذاقت حلاوة اليقين وصدّقت بموعود الله لأوليائه المتقين.

أيها المسلمون: أمة الإسلام تعيش غربة حقيقية بين الأمم وتنبع غربتها في تميزها وتمنعها على السير في ركاب الظلم والاستسلام وقد جر عليها هذا ضغوطا كبيرة وأحمالا ثقالا مادية وأدبية لا تكاد تطيقها، مستها فيها البأساء والضراء وزلزلت.

أيها المسلمون: طغيان القوة وغرورها يجعل صاحبه لا يبالي بمواقف الآخرين ولا بحقوقهم، بل إنه ليستهين بالأعراف وقواعد التعامل ويستكثر على غيره أن ينظر في مصالحه أو يتمسك بحقوقه أو يعتز بهويته وقيمه.

فالضعفاء في ميزان الظلم لا حق لهم إلا الخضوع والاستسلام، حين تضعف الأمم ينفجر الحقد المكبوت وينهض الخصوم يناوشون من كل مكان.

إن الإنسانية كلها مدعوة إلى التأمل في الأخطار الرهيبة التي تنتظرها إذا تجاهلت النذر المتصاعدة من الصدور الحاقدة التي تبث نيران العداوات والصراعات المدمرة وازدراء الأمم في معتقدها وفكرها وديانتها.

الظلم هو وقود الصراعات، والعنف لا يولد إلا العنف، وعقلاء البشر وقراء التاريخ يدركون أن قوة الظلم ما هي إلا كضوء شهاب سرعان ما ينطفئ.

إن الأمة الحية ولو كانت مستضعفة فإنها لن تقبل الظلم، بل قد تكون هذه الضغوط والمتغيرات سببا من أسباب يقظتها وحيويتها، فلا تهون عليها عزتها وكرامتها.

الأمة الكريمة الضعيفة وإن كانت لا تقوى علي المواجهة في مرحلة من المراحل لكنها لا ترضى بالدنية في عزتها ومبادئها ولن ترضى أن تنظر للآخرين باستجداء أو استخذاء.

أيها المسلمون: إن من دلائل الرشد والفقه استيعاب الأزمة وتوظيف دروسها لإحياء الأمة وبنائها بنفسية عزيزة وثابة من غير ضعف أو خور.

إن من الحق والحكمة الاعتراف بأن

الهزائم قد تكون لازمة من لوازم بناء الأمم من أجل القضاء على صور الاسترخاء ومظاهر الترف والفسق، ومن أجل الدربة (التدريب) على تحمل الظروف القاسية وزوال الطبقات الهشة من أجل الوصول إلى القواعد الصلبة، وقد تكون الهزائم أكثر ملازمة عندما تسود في الأمة الأمراض الاجتماعية ويحكمها الظلم وتشتد المظالم، وتهمل الحقوق ويفسق المترفون ويكثر الخبث فتكون الهزيمة عقوبة، وتسلُّط الأعداء بلاءً لتستيقظ الأمة وتوجه نحو العلاج فيكون التمحيص وتكون التنشئة على الجد والمسيرة المبصرة وحينئذ يستقيم المسار بإذن الله.

أيها المسلمون: الأمة لاشك بحاجة إلى إعادة ترتيب أمورها ودراسة أوضاعها بعمق، دراسة تتفهم المتغيرات، وإنها لمتغيرات كبيرة طفت على ساحاتها السياسية والاقتصادية والفكرية وغيرها مدركة إمكاناتها، مكتشفة مكامن قوتها وتأثيرها.

ومن أجل تلمس طريق المعالجة - معاشر المسلمين - لابد من التأكيد على أن أولى الأولويات؛ أن تعلم الأمة علم اليقين أنها لن ترتفع لها راية أو يعلو لها شأن إلا بصدق الإيمان وسلامة التوحيد وصفاء الإخلاص؛ إيمان يستنير به القلب وتستقيم به الجوارح وهذا لا يكون إلا بتربية جادة، وإنك لتحزن حين لا ترى إلا آثار تربية هشة، وأن طاقات الأمة تستنزف في أمور تذهب بحلاوة الإيمان وتضعف جذوته. وكيف يتصور التطلع إلى النصر بنفوس لم تذق حلاوة الإيمان «ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينًا».

كما يجب التأكيد أن الطريق الصحيح ومنهج التصحيح في مواجهة ضغوط الخارج وتحدياته ليس بالاشتغال بالرد عليها مما قد يجر أو جر إلى معارك خاسرة. ولكن الإصلاح الحقيقي والتصحيح الجاد يتمثل في التوجه نحو الداخل وتصفيته وتنقيته.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

ولا ريب أن ذلك شاق على النفس وثقيل في الممارسة.

لأن الإنسان في هذه الحالة سوف ينقد نفسه وسوف يصلحها أي أنه يجعل من نفسه الحجر والنحات في آن واحد.

وإن أصحاب الطريق المسدود والمتأزمين هم الذين يسلطون سياط نقدهم دائما نحو الخارج.

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ آية كريمة ومعلم بارز وراية مرفوعة في رسم الطريق لهذا الإصلاح الداخلي.

ويقترن بهذه الآية آية أخرى توجه إلى مواجهة الخارج بالنقد الداخلي والإصلاح والتحسين، اقرأوا في خبر غزوة أحد: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ إنه ليس من الحكمة تضخيم شأن العدو إلى الحد الذي يجعل تصور هزيمته شيئًا بعيدًا، فالعدو بشر له حساباته وله موازناته ومشكلاته

وإمكاناته، ﴿وَلاَ تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾.

إن النصر العام لابد أن يسبقه نصر خاص. إن الأمة المنتصرة على أعدائها هي أمة قد حققت قبل ذلك نصرًا داخليا.

ومما يجب التأكيد عليه أخيرًا سلاح الصبر. والمراد بالصبر هنا احتمال المشاق والديمومة في تأدية التكاليف مهما كانت قسوة الظروف. إن الصبر لا يعني الاستسلام للأحوال السيئة والظروف القاسية ولكنه يعني عدم اللجوء إلى الحلول السريعة، إن الجري وراء الحلول السريعة لمشكلات مستعصية مآله الإحباط واليأس أو الاندفاع والتهور مما يزيد المشكلات تعقيدا ويجعل الحل الحقيقي بعيد المنال.

إن الصبر توظيف صحيح للوقت والزمن لحل أوضاع لا يستطاع حلها في الوقت القريب.

وبعد أيها المسلمون فإن النصر مع الصبر وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا، وإن في رحم كل ضائقة أجنة انفراجها ومفتاحَ حلها، وطريق ذلك بإذن الله دين صحيح وعقل مستنير ومبضع جراح وحرقة والدة، وعلى الله قصد السبيل وهو الغالب على أمره.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾

إن من صعاب الأمور قياد الأمم أعقاب الهزائم وإحياء الأمل بعد الانكسارات، ولكن الرجال يستسهلون الصعب ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات.

نعم إن الأمة الحية اليقظة لا تكف عن مراجعة أمرها وقياس أدائها في أصولها وأساليبها كما لا تمل في البحث عن المعوقات والحلول.

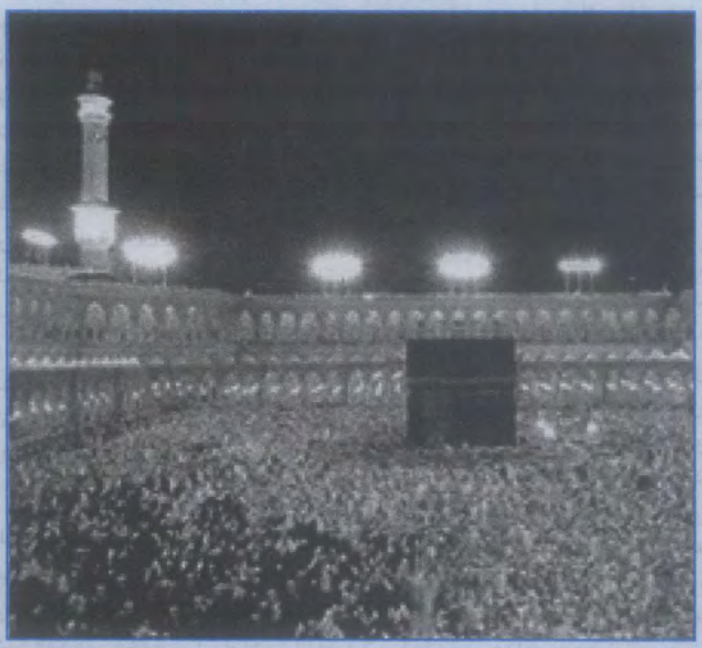
إن الأمة بحاجة إلى امتلاك الشجاعة الكافية للاعتراف بالأخطاء والتقصير في مسيرتها. وهي بحاجة إلى التفريق الدقيق بين الأعراض والأمراض حتى لا تعالج المظاهر والأعراض وتحمل الحقائق والأدواء.

لقد كشفت الأحداث المتوالية على الأمة اضطرابًا في الفهم واهتزازا في قراءة الأحداث واستسلام كثيرين للتضليل الإعلامي الذي يدير آلته الأعداء مما أثار اللبس وأشاع الشبهات فأنتج مع الأسف استسلامًا في بعض المواطن لاهتزاز الأقوياء ولضغوط إعلامية علا صوتها.

أيها المسلمون: الإصلاح يبدأ بالنفس وليس بضجيج الإعلام ولا هتاف الجماهير واندفاع الجموع. ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ إن الإصلاح يكمن في صلاح القلوب وارتباطها بصلاح العيوب، خضوع تام لله الواحد القهار عبادة وتذللا وانقيادًا وتسليمًا.

التطاول على محمد ﷺ تطاول على إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام

لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس
إمام وخطيب المسجد الحرام



استنكر إمام وخطيب المسجد الحرام فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن السديس في خطبة الجمعة الحملات التي تشنها بعض الجهات الغربية على الإسلام وشخص الرسول ﷺ فقال:

في خضم تنامي اللغط والتلاسن الكلامي، ووسط زخمٍ هائلٍ مغرضٍ من التحامل الإعلامي، وكيل الاتهامات جزافًا، وتعالي أصواتِ النُّشاز بضجيج مُسفٍّ محمومٍ، وفحيح مستعرٍ مسمومٍ عبر حملاتٍ مغرضة وهجماتٍ موتورة، أخرجت المكنون وأظهرت المدفون، ضد الإسلام ورسول الإسلام وأهل الإسلام، في ظل هذه الأجواء القاتمة يدرك الواعي اللبيب ويوقن الحصيف الأريب أن الأمة بل العالم بأسره بحاجة ماسَّة إلى التعرف على محاسن هذا الدين الفريدة، والتفهُّم لمزاياه وخصائصه الحميدة، تثبيتًا لأفئدة أهل الإيمان، وإحقاقًا للحق، وتصدياً لهذه الحملات الشرسة بالحُجج القاطعة والبراهين الساطعة، إسهامًا في التواصل الحضاري وتحقيق الأمن والاستقرار العالمي؛ لتسعد الإنسانية قاطبة بحياة أفضل، وتستشرف آفاقَ مستقبل أمثل: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

شجرة الإسلام طيبة ومباركة !!

معاشر المسلمين: أرأيتم إلى الشجرة الباسقة عميقة الجذور ذاتِ العروق المتعدِّدة والأغصان المتكاثرة، لا تقوى على زعزعتها الرياحُ العاتية والأعاصير الهوجاء، وهي مع ذلك دانيةُ القطوف، دائمةُ الأُكُل والظل، حلوةُ الثمار، نضيدة الطلع، طيِّبة الجنى، إنها مثلُ الإسلام في محاسنه الجمة ومزاياه القمة، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]، يقول ابن القيم رحمه الله: «والإخلاص والتوحيد شجرةٌ في القلب، فروعها الأعمال، وثمرها طيبُ الحياة في الدنيا والنعيمُ المقيم في الآخرة.

وأول ما يستوقف المتأملَ في محاسن هذا الدين ذلك الأصلُ المكين والأساس المتين في دوحة الإسلام الفيحاء وروضته الغناء، إنها العقيدة السمحة، عقيدةُ الصفاء والنقاء التي تسمو أن تكون مجرد فلسفات كلامية ونظريات جدلية وتعقيدات منطقية، إنها عقيدة تصل العالم كله بالله الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له ولا معبود بحق سواه، هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء لا يفنى ولا يبيد، ولا يكون إلا ما يريد، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، برهانُها النقلُ الصحيح والعقل الصريح، تتمشى مع الطباع السليمة والفطر المستقيمة.

محاسن دين الإسلام !!

لقد جمعت العقيدةُ الإسلامية خلاصةَ الشرائع السماوية وجملة الرسالات الإلهية: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣]، وحوت في أصولها ومبادئها ما يتواءم وحاجة الإنسانية ويتواكب ومصلحة البشرية في كل زمان ومكان، وما يحقق مصالح العباد في المعاش والمعاد.

جاءت بالإيمان بجميع رسل الله عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]، وجمعت الرسالات كلها في رسالة محمد، أخرج الشيخان من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

فأيُّ عقيدةٍ أحقُّ وأحكم وأرحب وأقوم من هذه العقيدة التي تسلِّم الإنسانيةَ كلَّها إلى مصير واحد وإله واحد ورسالة خاتمة؟! ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران:٦٤]، ولذا فإنَّ من كان نيِّرَ البصيرةِ مستقيم الفكر والنظر منصفَ الروَّى أدرك أنه الحق واليقين لما فيه من جميل المحاسن وجليل الفضائل.

إخوة الإيمان، ومنهلُ آخرُ عذب تظهر فيه محاسنُ ديننا بجلاء، ذلكم هو ما اشتمل عليه من عبادات سامية، تطهر النفوس، وتزكي القلوب، وتهذب السلوك، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وغير ذلك من العبادات، وهي مع ذلك في مقدور المكلف وحسب طاقته، لذلك يؤديها أهلُ الإيمان بنيةٍ خالصة وعزيمة صادقة، وتتشوَّف إليها نفوسُهم حفيَّةً بها مشتاقةً إليها.

ولم يقف الأمر في محاسن هذا الدين عند هذا الحد، بل تعدّاه إلى ميدان الحياة العملية، إذ هو ليس في عزلةٍ عن معترك الحياة وعن صور التعامل فيها بين بني البشر، بل هو الموجه لها بما يدفع إلى الغايات النبيلة والمقاصد الكريمة، وهذا يؤكد أن الإسلام في محاسنه نظامٌ كامل يشمل الدين والدنيا معًا، في تناسقٍ بديع وبناء محكم، نظَّم ما يقع بين الناس من ضروب تبادل المنافع وصور التعامل من بيع وشراء وإجارة وغيرها من العقود، وحث على العمل وشجع عليه، وجعله ضربًا من ضروب العبادة يُؤجر صاحبها عليه، فيا لله أيُّ نظام في محاسنه وفضائله أعظم من هذا؟! ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

وثمةَ جانبٌ مهمٌ تجلّت فيه محاسنُ ديننا بأبهى صورها وأسمى معانيها، ذلكم هو الجانب الأخلاقي، فقد ربَّى الإسلام أتباعه على خير السجايا وأحسن وأكرم الخصال وأنبل الشمائل والخلال، حيث ينشُد الإسلامُ إقامةَ المجتمع المسلم المتماسك، والكيانَ العالمي الشامخ الذي تُرفرف على جنباته راياتُ المحبة والوئام وأعلامُ المودة والإيثار والسلام، وتربط بين أبنائه وشائج الحب المتبادل وأواصرُ الود المشترك والتعاون المشاع، يرسِّخ مبادئَ الحق والعدل والمساواة، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٢]، وينهى عن الظلم والتسلط والبغي والعدوان والفساد في الأرض: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، كفل حقوق الإنسان بجدارة، وضمن له الحرية الشرعية، وصانه عن الانفلات والحياة

البهيمية، وقصد إلى حفظ دينه ونفسه وعقله وماله وعرضه، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠]، وهكذا، في مجال القضايا الاجتماعية أو ما يُعرف بالأحوال الشخصية، وقضايا المرأة والأسرة، وقل مثل ذلك في الحدود والجنايات، بل تعدى ذلك إلى الجماد والحيوان والبيئة والنبات، حيث تبرز في ذلك كلّه محاسنُ هذا الدين، ورعايته للمصالح، ودرؤه للمفاسد، والتزامُه بالقيم والفضائل، وردعُه للشرور والرذائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فضل الإسلام على الأنام !!

ومِشعلُ أخير آلِقُ لألاء، يُشع النورَ والضياء في بيان محاسن هذا الدين، ذلكم هو ما اشتمل عليه من مقاصد عظمى وقواعد كبرى، كما لها أثر بالغ في شموله وعمومه وخلوده وصلاحيته لكل زمان ومكان. فمن كبريات قواعده اليُسر ورفعُ الحرج، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وذلك أوضح سمات شريعتنا الغراء، بل وجهُها المشرق الذي يتألق بهاءً وجمالا وعظمة وجلالا، في اعتدالٍ وتوسط يعبر عن ميزة فريدة تجمع المحاسن والفضائل جمّة، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، وكلا المسلكين طارئ على المنهج الشرعي الصحيح المتميز بالتوسط والاعتدال، يقول ابن القيم رحمه الله: «فكل مسألةٍ خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، فالشريعة عدلُ الله بين عباده، ورحمتُه بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله.. إلى قوله رحمه الله: وهي العصمة للناس وقوام العالم وقُطب الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي الجملة فدين الإسلام يحوي خيري الدنيا والآخرة ونعيم العاجلة والآجلة، فما من خير وفضيلة إلا حث عليها، وما من شر ورذيلة وفساد وجريمة إلا حذر منها، فمن تمسك به عاش سعيدًا ومات حميدًا، ومن أعرض عنه عاش عصيا ومات شقيا.

تلك إضاءةٌ من محاسن هذا الدين الغامرة، وشُعاعة من إشعاعاته الفياضة المتدفقة، تقدم للعالم اليوم في وقت هو أحوج ما يكون إليها وللإنسانية الحائرة في منعطف تاريخي خطير ومرحلة من أشد مراحل تاريخها المعاصر، لعلها تُسهم في تفتُّح الأبصار والبصائر إلى هذا الدين القويم الذي نوقن أنه صمامُ الأمان ومركب النجاة للحيارى والتائهين الذين يتخبطون في دياجير الشك والظلمات ودهاليز النُّظم والشعارات، وما يحمل الغيور على التذكير بهذا الموضوع إلا حبُّ الخير للإنسانية جميعًا، فلقد منّ الله علينا فهدانا لهذا الدين، وتذوقنا حلاوة محاسنه، ونرى أن من العقوق للإنسانية الحيرى والتقصير في الدعوة إلى الحق أن لا ندل من ضل الطريق إليه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

وبعد: فيا أيها الناس، هذا هو ديننا، وهذا ما يتميز به إسلامنا، فلماذا الحملات عليه؟ وإلى متى الهجوم عليه؟ ولمصلحة من يستمر التطاول عليه؟

بيدَ أنَّ ثمّة ملحظًا مهمًا، ينبغي على المنصفين العقلاء الشرفاء الحكماء أن يتبصروه، وهو أن تقصير بعض المسلمين في الالتزام بهذه المحاسن والفضائل ليس عيبًا في الإسلام نفسه، فمن المسلّمات أن خطأ أي شخص في تطبيق نظام ما ليس عيبًا في النظام نفسه، فخطأ القاضي مثلا ليس قدحًا في الشرع ذاته، وتجاوز الطبيب ليس عيبًا في مهنة الطب، وهكذا دواليك، وليس يُعاب الدين من جهل مسلم.

وإذا قامت الحجةُ واتّضحت المحجة فقد حصل الإعذار، وليس يفيد الأعمى قوةُ الأنوار: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

وما علينا إذا سكنا الرّشادا
أصدودًا لقينا أو عنادًا

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور:٤٠].

فالله الله. عباد الله. في التمسك بدينكم والثبات عليه، لا سيما في عصر الفتن وغربة الإسلام، وفي زمن التحديات الجسام والأخطار العظام، وحذار من استفزازات المرجفين وإثارات حملات الموتورين: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفُّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ [الروم:٦٠].

ألا فاتقوا الله عباد الله، واجعلوا من أنفسكم صورًا مشرقة ومرايا صادقة تعكس محاسن هذا الدين وجمالياته، وتُترجم للعالم بصورةٍ عملية مزايا هذا الدين وإشراقاته وفضائله وأخلاقياته، والدعوة موجهةٌ إلى علماء الشريعة ورجال الدعوة والإصلاح ووسائل الإعلام لإبراز هذه المحاسن وترجمتها إلى واقع عملي

وسلوك تطبيقي، وهذا خير علاج وأنجع دواء تتصدى الأمة من خلاله لمواجهة الحملات المغرضة ضد دينها وعقيدتها وبلادها، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

القدوة في محمد ﷺ

عباد الله، الإمامُ القدوة والحجة والأسوة في تطبيق هذه المحاسن والدعوة إلى هذه الفضائل هو الشخصيةُ الفذّة التي تتضاءل أمامها شخصياتُ التاريخ، هو إمامُنا وقدوتنا سيدُ ولد آدم أجمعين، أفضل البشرية، وخير البرية، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه من الله أزكى صلاة وأفضل تحية، أرسله الله رحمة للعالمين، وبعثه مولاه ليتمم مكارم الأخلاق بأبائنا هو وأمهاتنا وأنفسنا وأزواجنا وذرياتنا وأموالنا والناس أجمعين. وحسبنا الله ونعم الوكيل على كل منتقص لرسالته أو متطاول على شخصيته.

يا أمة محمد عليه الصلاة والسلام، إن مما يملأ القلوب أسى وكمدًا أن يصل الأمر مداه ويبلغ السيل زُباه في شن الحملات المغرضة على هذا النبي ﷺ، فيوصف رسول الرحمة والهدى بأوصاف بشعة وألقاب بذيئة عبر رسوم ساخرة ومقالات ماكرة وقنوات فاجرة دعية موتورة، مازورة غير ماجورة، في تحدٍّ لمشاعر مليار ونصف مليار من المسلمين.

أي عين يجمل بها أن تُبقي دمعةً في ماقيها وهي ترى شخصيةَ قُرَّيتها عليه الصلاة والسلام يُنال منها ويُتطاول عليها؟!

ولله در خبيب رضي الله عنه القائل: (ما أحب أن يُشاك محمد بشوكة تضره في جسده).

إن أتباع رسول الإسلام والسلام ليستنكرون أشدَّ الاستنكار هذا الإسفاف والاستخفاف الذي يُعد نتيجة لتراكمات هائلة من النزعات العنصرية البغيضة، والذي يحمل في طياته من الأبعاد والأهداف ما يحرض الشعوب ضد الإسلام، وينفرها من حضارته المشرقة ورسالته المتألقة ذات القيم والفضائل الراسخة وما يبرر أعمال الحقد والكراهية ونظرات التمييز والتفرقة ضد المسلمين في وقت تعلي فيه قضايا الحوار الحضاري العالمي.

إن تكرار هذه الإساءات المتعمدة التي يثيرها بين الفينة والأخرى كل دعيٍّ مأفون وزنيم موتور من بعض متطرفي الملل لتأجيج الصراع ضد مبادئ الإسلام الحضارية وتعاليمه السمحة، ولتأليب الرأي العام العالمي ضد أهل الإسلام، وتكريس الصورة النبطية السلبية عنهم، إن من شأن ذلك أن يحول علاقات الشعوب من التعايش والتفاهم إلى الصراع والتصادم، مما يجرُّ الويلات للإنسانية والشقاء للبشرية، فأين الإنصاف والمصداقية؟! وأين الحيدة والموضوعية؟! ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

والحق ما شهدت به الأعداء !!

اسمعوا إلى شهادات بعض منصفيهم، يقول بعضهم: «ولسنا نجد في التاريخ كله معلمًا كمحمد..، ولقد ظلّ الإسلام بقيادة محمد.. وأتباعه يتزعم العالم كلّه في القوة والنظام وجميل الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى الحياة، وفي التشريع الإنساني الرحيم والتسامح الديني والآداب والبحث العلمي.. إلى آخر كلامه، ويقول آخر: «إن البشرية لتفتخر بالانتساب إلى رجل كمحمد.. إذ إنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بمنهج سنكون نحن أسعد ما نكون لو وصلنا إليه بعد كذا وكذا سنة» والفضل ما شهدت به الأعداء.

فأين هؤلاء المتخرصون بزعم عن المنصفين بدعم؟! ألا فليعلم هؤلاء أن التطاول على شخصية محمد تطاولٌ على إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، بل على مقام مرسلهم سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا.

واجب أتباع محمد ﷺ

ومع أن هذه التخرصات والترهات لن تنال من مقام النبوة ولن تحط من شرف الرسالة، بل لا تزيدها. والله، إلا رفعة وإشراقا، إلا أن الواجب على أتباع سيد الأنام عليه الصلاة والسلام التصدي الواعي لهذه الحملات المشبوهة، من خلال منهجية مدروسة وآلية مؤسسة مرسومة، تعتمد الحوار العلمي الراقي والمنهج الموضوعي الناضج والأسلوب الحكيم الواعي، لنشر المعلومات الصحيحة عن الإسلام وشخصية رسوله، واستثمار الترجمة ووسائل الإعلام وقنواته الفضائية وشبكاته المعلوماتية، وحشد طاقات الأمة أفرادًا ومجتمعات ومؤسسات للتنسيق والتصدي لهذه الحملات بالتأصيل الأمثل والأسلوب الأفضل، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

إن ارتكاب القبائح والموبقات سبب خطير في إزالة النعم وجلب النقم

لفضيلة الشيخ / حسين آل الشيخ
إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف



•• أكد فضيلته أن الذنوب والمعاصي من أعظم الأضرار على العباد والبلاد فقال:

إخوة الإسلام، إن الله جل وعلا لا يأمر إلا بما يتضمن كل خير للعباد، وما يحقِّق المصالح في المعاش والمعاد. ومن هنا فالذنوب والمعاصي من أعظم الأضرار على العباد والبلاد، بل كل شرٍّ في الدنيا والآخرة فأساسُه ارتكاب القبائح والموبقات، وسببُه اجتراحُ المعاصي والسيئات.

الذنوب والمعاصي كم أزالت من نعمة، وكم جلبت من نقمة، وكم أحلَّت من مذلة وبَلية. ••

مـعـاشـر المسلمين، للمـعـاصي من الآثار القبيحة المذمومة ما يعود على الفرد والجماعة، وما يصيب القلب والبدن، وما يعم الإنسان في الدنيا والآخرة، ما لا يعلمه إلا الله جل وعلا. وإن من أضرار الذنوب والآثار السيئة للمعاصي ما يعود على الناس كافة، ويضر بالمجتمع عامة.

فمن تلك الأضرار البالغة والآثار السيئة أن المعاصي سببٌ لحرمان الأرزاق، وسببٌ لفشو الفقر وحرمان البركة فيما أعطي العباد، جاء في المسند عن النبي: «إن الرجل ليُحرَم الرزقَ بالذنب يصيبُه». يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق).

المعاصي سبب هوان العبد على ربه

المعاصي والذنوبُ متى تفشَّت في المجتمع تعسَّرت عليه أمورُه، وانغلقت أمامَه السبل، فيجدُ أفرادُه حينئذ أبوابَ الخير والمصالح مسدودةً أمامهم، وطرقها معسَّرة عليهم، ولا غرو فالله جل وعلا يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

المعاصي سببٌ لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري رحمه الله «هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم» ومتى هان العبد على الله جل وعلا لم يُكرمه أحد كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

وإن المجتمع المسلم متى فشت فيه المعاصي والموبقاتُ وعمت بين أبنائه الذنوبُ والسيئات كان ذلك سببًا في ذلته وصغاره أمام المخلوقات جميعها، ففي مسند أحمد عن النبي: «وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري». فالعزَّة إنما هي في تحقيق طاعة الله وطاعة رسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

لما فتحت قُبرص بكى أبو الدرداء رضي الله عنه فقيل له: ما يبكيك في يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: (ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملكُ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى).

حب الدنيا وكراهة الموت

جاء في المسند عن النبي أنه قال: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلةُ على قصعتها»، قلنا: يا رسول الله، أمن قلة يومئذ؟ قال: «لا، وأنتم كثير ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، تنزع المهابة من قلوب عدوكم، ويُجعل في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهة الموت». وفي المسند أيضًا وسنن أبي داود بسند حسن عن النبي أنه قال: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلا، لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم». وفي رواية: «أنزل الله عليكم من السماء بلاء، فلا يرفعه عنكم حتى تراجعوا دينكم». ولذا كان من دعاء بعض السلف: «اللهم أعزَّني بطاعتك، ولا تذلَّني بمعصيتك».

إخوة الإسلام: من آثار الذنوب والمعاصي على البلاد والعباد أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في الماء والهواء والزروع والثمار والمساكن وغيرها، قال جل وعلا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. والمراد بالفساد في الآية النقصُ والشرور والآلام التي تحدث في الأرض عند معاصي العباد، فكلَّما أحدثوا ذنبًا أحدث الله لهم عقوبة، قال بعض السلف: «كلَّما أحدثتم ذنبًا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة»، قال مجاهد: «إذا ولي الظالمُ وسعى بالظلم والفساد فيحبس الله بذلك القطر، حتى يهلك الحرثُ والنسل»، ثم قرأ هذه الآية ثم قال: «أما والله، ما هو ببحركم هذا، ولكن كلّ قرية على ماءِ جارٍ فهو بحر»، وبمثله قال غيره من المفسرين.

جاء في سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال. قال ﷺ: «يا معشر المهاجرين، خمسُ خصالٍ أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرتِ الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتُلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قومٌ المكيال والميزان إلا ابتُلوا بالسنين وشدةِ المؤنة وجَور السلطان، وما منع قومٌ زكاةَ أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائمُ لم يُمطروا، ولا خفَرَ قومٌ العهد إلا سلَّط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم تعملْ أئمتُهم بما أنزل الله جل وعلا في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم) ، وفي المسند من حديث أم سلمة: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمَّهم الله بعذاب من عنده».

إخوة الإيمان: ومن آثار المعاصي على العباد تسلّطُ الأعداء وتمكّن الأشرار من الأخيار، جاء عن النبي أنه قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرُنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر، أو ليوشكنّ الله أن يبعثَ عليكم عذابًا من عنده، ثم تدعونَه فلا يُستجاب لكم»، [رواه الترمذي وقال: (حديث حسن) وحسنه المنذري وغيره].

المعاصي سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه؛ هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم

من آثار المعاصي على العباد تسلّط الأعداء وتمكن الأشرار من الأخيار

عقوبات الذنوب والمعاصي

معاشر المسلمين: من عقوبات الذنوب والمعاصي أنها تزيل النعم، وتحل النقم، وتقلب الأمن مخاوف، والسعادة شقاء والصلاح فسادًا، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، قال علي رضي الله عنه: (ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة) فمتى غيَّر العباد طاعة الله جل وعلا بمعصيته، وغيَّروا شكره بكفره وأسبابَ رضاه بأسباب سخطه غُيِّرت عليهم العقوبة بالعافية والذلُّ بالعز والشقاء بالسعادة والراحة والطمأنينة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

تأثير الذنوب في القلوب

أيها المسلمون: من عقوبات المعاصي والآثام انتشارُ الأمراض النفسية بين أفراد المجتمع، وحلول المخاوف والقلق، وحصولُ الهم والضجر. ذلكم أن الذنوب تصرف القلوبَ عن صحتها واستقامتها إلي مرضها وانحرافها، فلا يزال القلب مريضًا معلولا لا ينتفع بالأغذية التي بها حياتُه وصلاحُه، فتأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوبُ أمراضُ القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلا بتركها.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣،١٤]، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «ولا تحسبنَّ أنّ النعيم في هذه الآية مقصورٌ على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا ودار البرزخ ودارَ القرار.

فهؤلاء. أي: أصحاب الطاعة. في نعيم، وهؤلاء. أصحابُ العصيان. في جحيم، وهل النعيم إلا نعيمُ القلب؟! وهل العذاب إلا عذاب القلب؟! وأي عذاب أشدّ من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر؟!» انتهى كلامه رحمه الله».

ولذا، عباد الله، فأهلُ الطاعة والتقوى في مأمن من الهموم والغموم، وفي بعد عن الضجر والقلق، ذلك بأنهم حققوا طاعة الله، واجتنبوا معاصيه، فربنا جل وعلا يقول: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨]، ويقول عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣].

فاتقوا الله عباد الله، وحققوا طاعتَه تفلحوا، واجتنبوا معاصيه تسعدوا، ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧١].

أيها المسلمون، أوصيكم ونفسي بوصية الله جل وعلا للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

الذنوب والمعاصي تمحق البركة

إخوة الإيمان: الذنوبُ والمعاصي تمحقُ بركةَ الدنيا والدين، تمحقُ بركةَ العمر والرزق، وبركة العلم والعمل وغيرها، بل ما مُحقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، والله جل وعلا يقول: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

ولذا فيا عباد الله، إن معصية العاصي تعود على غيره بشؤم هذا الذنب، فيقع الضرر حينئذ على الجميع، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إن الحُبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم)، ويقول غير واحد من السلف: «إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدّت السنة وأمسك المطر، تقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم».

من عقوبات المعاصي والآثام انتشار الأمراض النفسية بين أفراد المجتمع وحلول المخاوف والقلق وحصول الهم والضجر

أهل الطاعة والتقوى في مأمن من الهموم والغموم وفي بعد عن الضجر والقلق وذلك لأنهم حققوا طاعة الله واجتنبوا معاصيه

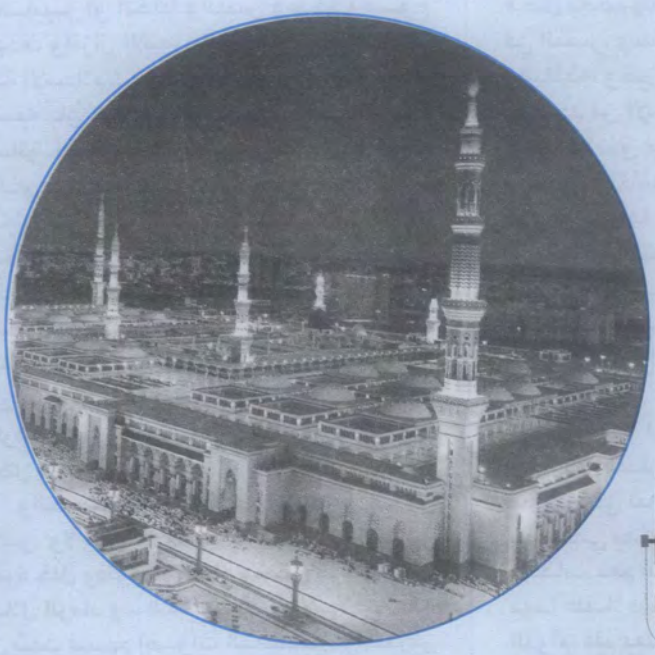
الذنوبُ والمعاصي تجرئ على العبد على ما لم يكن يجترئُ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين وتنسيه ما به مصلحتُه في ذكره ومضرّته في نسيانه، ويجترئ عليه حينئذ شياطينُ الإنس بما تقدر عليه من آذاه في غيبته وحضوره، بل ويجترئ عليه أهلُه وخدمه وأولادُه وجيرانه، قال بعض السلف: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلق دابّتي وامرأتي»، فلكم أن الله يدفع عن المؤمنين الطائعين شرور وأضرار الدنيا والآخرة، فالله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨].

والحمد لله رب العالمين.

باب: منبر الحرمين

المخرج من الهوان

للشيخ / سعود الشريم
إمام وخطيب المسجد الحرام



أيّها المسلمون، إنَّ مقارنةً سريعةً يقوم بها أيّ امرئ عاقلٍ بين واقع الفرد المسلم اليوم وبين واقع مثيله في صدرِ الإسلام الأوّل لتوضح لنا بوناً شاسعًا بين الواقعين دون بذل حدْس أو كبير تأمّل.

نعم أيّها المسلمون، قد نرى المسلمَ اليومَ أفخَر ملبساً وأدسَم مطعماً وأرفَه مركباً، ولكنّه من حيث الخصائصُ الروحية أقلُّ فؤاداً وأضعف وازعاً.

وقولوا مثل ذلك ـ عباد الله ـ في مقارنةٍ مثيلة بين المجتمعات المسلمة في القديم والحديث؛ إذ أمّتنا في الصدر الأول كانت قائدةً لا منقادة، متبوعَة لا تَابعة، دافعةً لا مدفوعة، يدُها هي اليد العليا وليست السفلى، بل كانت أمةَ العدلِ والقسط والخيار، لها ألقابُ مملكةٍ ودولة قد وُضعت موضعَها، ولم تكن يوماً ما كمثل سنَّورٍ يحكي انتفاخًا صولةَ أسدٍ هصور، أو كمثل جُملٍ قد استنوَق، كلا فلَم يصلْ بها الحدّ إلى ضربٍ من ضروب قلبِ المعايير أو الخلط واللَّبس وعدم وضوح الهدَف وإنزال الأمور منازلها كما هو مُصاب أمّة الإسلام في هذا الزمن الذي تحكي بعضُ ماسيه بأنَّ الرويبضةَ[1] يجب أن يُلقَّب بالعالم، وسائق السيّارة بالمهندس، والحلاق بالطبيب، والذي من أجله كثُرت آلام أمتنا المعاصرة، ونُكِئت جراحُها، حتى استُبيحت حرماتُها، فتجرّعت مجتمعاتها جراحَها في صياصِيها، وقُذف في قلوب بنيها الرعب، وهي لا تكاد تسيغ ذلك، ويأتيها الموتُ من كلّ مكان، بل إنها تُدعَى إلى الاستكانة والاستجداء دعًا، وتُؤزّ من قِبَل أعداء الإسلام أزًا، إلى أن تعترف مكرهةً حينًا ومستسلمةً حيناً آخر بأنَّ حقَّها باطل وأنَّ باطلَ غيرها حقّ.

والحقيقة أنَّ هذا كلَّه لم يكن بدْعًا من الأمر، ولا كان طفرةً بلا مقدّمات، وإنما هو ثمرة خللٍ وفتوق، وضرامُ ومِيضٍ قد كان بادياً خِلالَ الرماد وسطَ ميدانِ الأمة الإسلامية بعد أن بُحَّت فيهم أصواتُ الناصحين والمنذرين العريانين، غيرَ أن أمّة الإسلام لم تستبِن النصحَ إلا في ضحَى الغد، وهذا كلّه ـ عباد الله ـ ليس غريباً، وإنّما الغريبُ كلّ الغرابة أن تضعَ الأمة كلَّ أنواع الاستفهام في مسامعها حيناً بعدَ آخر «أنّى هذا»؟ ثمّ هيَ لا تهتَدي إلى السبب الرئيس لكلّ هذه البلايا، فصارت كالعِيس في البيداء يقتلها الظمأ والماءُ محمولٌ خلفَ ظهورها، وهذا السبب الرئيسُ هو الذي ذكرَه الله جل وعلا في خمس كلماتٍ لا سادسة لهنّ، لم ينسِب الباري ولا في كلمةٍ واحدة سببَ الهوان إلى جيشٍ أو معسكر، ولا إلى تحرّفٍ في قتال، وإنّما قالَ سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

ألا وإنَّ من المعلوم يقيناً أنَّ الله كتبَ النصرَ لرسله وأوليائه، فقال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٤١]، غيرَ أنَّ هذا الوعدَ والعهد لا يمكن أن يأتي هكذا جُزافاً دونما قيدٍ أو شرط، بل قد علّق الله هذا النصرَ بالإيمان واستيفاء مقتضياتِه في كلّ مناحي الحياة، تشريعاً وسياسة واقتصاداً وإعلاماً وتعليماً دون فصلِ بعضِها عن بعض، وهذه هي سنَّة الله في النصرِ، وسنتُه سبحانه لا تحابي أحداً ولا تصانعُه، وحين تقصّر الأمة وتفرّط وتتخاذَل أو تأخُذ من الإسلام ما تشاء وتهمّش ما تشاء كيفَما اتّفق فإنما هي تستجلب الخطر إلى أعتابها، وتكشِف أسقيَتَها لكلّ ناهبٍ والغ، ثمّ هي الهزيمةُ ما منها بدّ، ومن ثمّ فإنّ على الأمّة أن تتجرّع النتيجة المرّة على شرَق، وهي وإن كانت أمةً مسلمة في الأصل إلا أنّ ذلك لا يقتضي خرقَ السُّنَن وإبطالَ النواميس الإلهية، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

أيّها المسلمون، إنّنا في هذه الأيام العصيبة نعيش وسط زوابعَ يموج بعضُها في بعض، وفي ثنايا نوازل تتلاطمُ آحادها كموج بحرٍ لجيٍّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب، نعم أيّها المسلمون، فإنّ النسيمَ قد لا يهبّ عليلا داخلَ المجتمعات المسلمَة على الدّوام، فقد يعلو القتَر، ويطغى الكدَر، أو ترمق سماءَ المجتمعاتِ المسلمة غياياتُ فوّهاتِ البراكين المضطرمة، غيرَ أنَّ من العقل والحكمة توطينَ النّفس على مواجهة بعض النوازل على أمّة الإسلام، والتي تمثّلت في تَضييقِ الخناق على الإسلام والمسلمين من قِبَل أعدائهم، بل والاستعداد النفسي والحسّيّ لمجابهة أصابع الاتهام وعبارات اللّوم لديار المسلمين بعدَ كلّ حدثٍ سانح.

إنّ علينا جميعاً أن نقفَ أمامها بشجاعةٍ وإقدام وقناعةٍ واعتزاز بهذا الدين القويم، كما أنّ علينا أيضاً تركَ إضاعة الأوقات في مجرّد التعليق المرير عليها دونَ عمل جادٍّ في رفعِها أو دفعها بحزمٍ وعزم؛ لأنّ مجردَ التعليق لا

يفقأ عيناً ولا يقتل صيداً ولا يرد عدواً، فلا يصحّ أن تكونَ أمّـة الإسـلام أمـام الغـارة الكاسحة من اتّهامات أهل الكفر كالريشةِ في مهبِّ الريح، تتهادَى بها في كلّ اتّجاه، حتى تكون لقمةً سائغة لتمرير قناعاتِ التنازل عن بعض أمـور الدين، أو التّـخلي عن بعض ثوابتِه، أو التشكيك فيها، أو الاقتناع بإعادة النظر في هيكلة التربية والتنشئة والتعليم التي أثمَرَت صحوةً مرْضيَّة ومعرفةً سويّة لدى الجمهور من الناس.

إنّه لا ينبغي أن يكونَ ذلك لمجرّدِ تهويشٍ وتشويش يذكيهما الخوفُ والقلق من المصير، فيصدق فينا حينئذ قولُ ربّنا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، ولأجل هذا ـ عبادَ الله ـ كان لزاماً علينا أن نحذّر أمريْن مهمّيْن خطيرين:

أوّلهما: الحذر من الحملة المسعورة الشّعواء على أمّتنا وحياضِها من خلال تشكيك الأعداء بسموّ رسالتنا الإسلامية، أو الاستجابة لشيءٍ من المساوَمة مع غير المسلمين في عقيدتنا ومناهجنا؛ لأنّ ذلك خيانةٌ عظمى، وجنون لا عقل معه، وجُرم ما بعده جرم، فضلاً عن كونه نقضاً بعدَ غزل وحَوراً بعد كَور، يستحقّ صاحبُه وصفَ الباري جلّ شانه لمثل هذا بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٢٥-٢٨]، جاء عند أحمدَ وابن أبي شيبة من حديث جابر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضِب وقال: «لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيّة» الحديث، إلى أن قال: «والذي نفسي بيده، لو أنّ موسى كان حيًا ما وسِعه إلا أن يتّبعني».

فحذار حذار ـ عبادَ الله ـ من خطورة الركون إلى غير الإسلام، أو ميل العاطفة والقلب مع غير دينِ الله، أو التسلّل لواذا عن شعار الإسلام ولُبّه مهما كانت الظروف التي تحيطُ بالواقع، ومهما كانت زوابعُ الرغبة أو الرهبة مائلةً إلى مثل هذا، فإنّ ذلك لا يُعدّ مسوِّغاً للميل عن دين الله أو التنازل عن بعض ثوابته وعمادِه، فقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنّ من كان قبلَنا يُؤتى له بالمناشير، ويُقطع نصفين، ما يصدّه ذلك عن دينه، وفي حادث أصحاب الأخدود قال كبيرُهم: من رجع عن دينه فدَعوه، وإلا فاقحِموه في النّار، فجاءت امرأةٌ بابن لها تُرضعه، فكأنها تقاعَست أن تقعَ في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمّاه؛ فإنّك على الحق.

أمّا الأمر الثاني عباد الله: فهو أن نحذرَ اختراقَ صفوفِ المسلمين أو هزّ كيانِهم من قبَل جبهاتٍ داخليّة ممّن هم من بني الجلدَة ويتكلّمون بذاتِ اللغة، والذين يعرفُهم أولو الألبـاب في لحنِ القـول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٦]، ترونَهم كالقطعان يهرفون بما لا يعرفون، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ [الانشقاق:٢٣]، هم في الحقيقةِ لصوصُ حروبٍ ونشّالون وسطَ الأزمات، يجعلون من النوازلِ والتداعيات فرَصاً سانحَة لفتِّ العضُد من داخل المجتمع، وقلبِ الحقائق، وإشعال فتيل تغيير الواقعِ المسلم ليَخرج عن إطاره المشروع، يُعدّ أمثالُهم في دولٍ كبرَى طابوراً خامساً حسَب قواميسِهم، فهم يتّقونهم في مجتمعاتِهم بكلّ ما يملكون من سبُل، وهؤلاء هُم أشدّ خطراً من العدو الخارجي، بل إنّهم يقومون بما يُسمّى الحربَ بالوكالة، فهم أعرفُ بلغتنا وعلمِنا وواقعِنا من الأجنبيّ عنّا، فبالتالي يكون أثرُهم أشدّ بلاءً وأوقع فتكاً.

وإن تعجَبوا ـ عبادَ الله ـ فعجبٌ أفهام مثل هؤلاء، كيفَ يحمِلون اسمَ الإسلام وما تخطّه أيديهم وتلوكه ألسنتُهم غريبٌ كلَّ الغرابة عنه؟ فهم يشكّكون في بعض ثوابتِ الدين تشكيكاً مزوّقاً، يلمِزون مناهجَه

التعليميّة الشرعيّة، ويهمزون صحوتَنا المعتدلة المباركة، ويمشُون على أهل الإصلاح بنميم، عقولُهم في أقلامِهم وألسنتِهم، لا في أفهامِهم وحجاهُم[2]، فهم في الواقع كمثل السوس أو كطبّع السّوس، يأكل منَساةَ المجتمَع حتى يخرَّ صريعاً على وجهه، ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٤١]. وقد حذّر الله نبيَّه من أمثال هؤلاء بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢]، يقول ابن كثير رحمه الله: «أي: هذه سنّة الله في المنافقين، إذا تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم، ولم يرجعوا عمّا هم فيه، فأنّ أهلَ الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم».

ولأمثال هؤلاء نقول: إنّ الشرعة شرعةُ الله والمنهاج منهاجه، فهي شريعةٌ خالدة لا نرى فيها عوَجاً ولا أمتاً، ولكنّ الذين في قلوبهم زيغٌ يتّبعون ما تشابَه منه ابتغاءَ الفتنة وابتغاءَ تاويلِه، ونحن نقول: آمنّا به كلٌّ من عند ربّنا.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢-٢٤].

ما أحوجَنا وسطَ هذه المستجدّات والمتغيّرات الملتهبة إلى كلمةٍ سواء بيننا، تجمَع قلوبَنا، وتشدّ من أزرنا، وتلمّ شعثَنا، ولا يمكن أن تكون هذه الكلمة إلا في كلمة التوحيد الجامعة: "لا إله إلا الله، محمّد رسول الله"، بكلّ ما تحمِله من مدلولاتٍ ولوازم ومطابقات، والتي من لوازمِها الألفة والتآخي والتضامن والتآزر بين المسلمين أفرادًا وجماعات، إذ كيف نجتَمع وبعضنا يبغض بعضاً؟! وكيف نأتلف وبعضنا ينكِر بعضًا؟! بل كيف نتمازَج في مقترحاتٍ ومصالحَ أو في وسائلَ وغاياتٍ على دعاوَى وهميّة، ومتعلّقات عبَيّة[3] ليست من الإسلام ولا هي من بابته[4]؟!

ثمَّ إنّ تراجعَ المسلمين وتخاذلَهم إنّما يجيء بالدرجة الأولى من داخلِ أنفسِهم قبلَ أن يجيء من ضغوط من سواهم، ولسنا في الحقيقةِ أوّلَ أمّة تعالج الرزايا والبلايا ثمّ تؤمَر بأن تثبتَ على دينها وتكافحَ من أجل إعلاء كلمة الله عزيزةً شمّاء، كما أنّ علينا جميعاً أن ننخلَ مصادرَ ثقافتِنا ووعينا المشبوهة؛ لنستبعدَ الغثّ والسّمّ وكلّ ذي ورم، ونستبقيَ النافع الرافع الذي يكون مبنياً على التقريب لا التغريب، والتصحيح لا الإفساد، والرتق لا الفتق، وعلى دعم القيم الدينيّة والمثُل الاجتماعية والقضايا التربويّة السويّة، وردّ الشّبهات التي تُثار حول الإسلام ومناهجه الحقّة، وعلى أن تكونَ دعوتُنا لإحياءِ وحدةِ المسلمين مرهونةً بإماتة صيحاتِ الجاهليّة والأطروحات اللاملّيّة، وأن نُبرزَ العنوانَ الإسلاميّ الصحيح كمصدرٍ وحيد لا مجرّدَ مصدرٍ رئيس من عدّة مصادرَ كما هو الحال في كثيرٍ من ديار الإسلام.

إنّه بمثل هذا تكون النّصرة، وتحصل الرّفعة، ويسمو الفكر السّويّ.

هذه هي شرعةُ ربّنا الحقّ، وماذا بعد الحقّ إلا الضلال؟! ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٨، ٢٩].

اللهم صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد...

هوامش:

(١) الرويبضة: الرجل التافه يتكلم في أمور العامة. كما جاء بالحديث.

(٢) حِجاهُم: عقولهم وألبابهم.

(٣) العبّية: الكبر والفخر.

(٤) البابة: يقال من بابتك أي يصلح لك.

المرأة بين صيانة الإسلام وعبث اللئام

لفضيلة الشيخ / حسين آل الشيخ
إمام المسجدي النبوي

معاشر المسلمين، لم تعرف البشريةُ دينًا ولا حضارةً عُنيت بالمرأة أجملَ عناية، وأتمَّ رعايةٍ وأكملَ اهتمام كالإسلام. تحدَّث عن المرأة، وأكّد على مكانتها، وعظِم منزلتها، جعلها مرفوعةَ الرأس، عاليةَ المكانة، مرموقةَ القدْر، لها في الإسلام الاعتبارُ الأسمى، والمقامُ الأعلى، تتمتّع بشخصيةٍ محترمة، وحقوقٍ مقرّرة، وواجبات معتبرة. نظر إليها على أنها شقيقةُ الرجل، خُلِقاَ من أصل واحد، ليسعدَ كلٌّ بالآخر ويأنس به في هذه الحياة، في محيط خيرٍ وصلاح وسعادة، قال ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال». [السلسلة الصحيحة (٢٨٦٣)].

منزلة المرأة في الإسلام

المرأةُ في تعاليم الإسلام كالرجل في المطالبة بالتكاليف الشرعية، وفيما يترتب عليها من جزاءات وعقوبات: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

هي كالرجل في حمل الأمانة في مجال الشؤون كلها إلا ما اقتضت الضرورةُ البشرية والطبيعة الجبليّة التفريقَ فيه، وهذا هو مقتضى مبدأ التكريم في الإسلام لبني الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

إخوةَ الإسلام، لقد أشاد الإسلام بفضل المرأة، ورفع شأنَها، وعدَّها نعمةً عظيمةً وهبةً كريمة، يجب مراعاتها وإكرامُها وإعزازها، يقول المولى جل وعلا: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]، وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «من كان له أنثى فلم يئدها ولم يُهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة». [ضعيف سنن أبي داود (١١٠٤)].

عناية الإسلام بالمرأة

المرأةُ في ظل تعاليم الإسلام القويمة، وتوجيهاتِه الحكيمة، تعيش حياةً كريمة، في مجتمعها المسلم، حياةً مِلؤها الحفاوةُ والتكريم من أوّل يوم تَقْدم فيه إلى هذه الحياة، ومُرورًا بكل حال من أحوال حياتها.

رعى حقَّها طفلةً، وحثَّ على الإحسان إليها، فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تبلُغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين» وضمّ أصابعه. [مسلم (٢٦٣١)].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان له ثلاث بنات فرباهن وصبر عليهن وكساهن من جِدَته كُنَّ له حجابا من النار». [السلسلة الصحيحة (٢٩٤)].

رعى الإسلام حقَّ المرأة أُمًّا؛ فدعا إلى إكرامها إكرامًا خاصًا، وحثَّ على العناية بها: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

بل جعل حقّ الأمّ في البرّ آكدَ من حقّ الوالد، جاء رجل إلى نبينا ﷺ فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: «أمّك»، قال: ثم من؟ قال: «أمّك»، قال: ثم من؟ قال: «أمّك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك» متفق عليه.

رعى الإسلامُ حقَّ المرأة زوجةً، وجعل لها حقوقًا عظيمة على زوجها، من المعاشرة بالمعروف والإحسان والرفق بها والإكرام، قال ﷺ: «ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوان عندكم» متفق عليه.

وفي حديث آخر أنه قال: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا، وخيارُكم خياركم لنسائه». [السلسلة الصحيحة (٢٨٤)].

رعى الإسلامُ حقَّ المرأة أختًا وعمّةً وخالةً، فعند الترمذي وأبي داود: «ولا يكون لأحد ثلاثُ بنات أو أخوات فيُحسن إليهن إلا دخل الجنة». [حسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٩)].

وفي حال كونِها أجنبيةً فقد حثّ على عونها ومساعدتها ورعايتها، ففي الصحيحين قال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم الذي لا يفتُر، أو كالصائم الذي لا يفطِر». [البخاري (٦٠٠٧)، ومسلم (٢٩٨)].

معاشرَ المسلمين، المكانةُ الاجتماعية للمرأة في الإسلام محفوظةٌ مرموقة، منحها الحقوقَ والدفاعَ عنها، والمطالبةَ برفع ما قد يقع عليها من حرمان أو إهمال، يقول ﷺ: «إن لصاحب الحق مقالًا». [البخاري (٦٠٠٧)].

في شؤونها وفقَ الضوابط الشرعية والمصالح المرعية، قال جل وعلا: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء:١٩]، وقال ﷺ: «لا تُنكح الأيم حتى تُستأمَر، ولا البكر حتى تستأذَن في نفسها». [البخاري (٥١٣٦)].

والزوجة تستشار

المرأةُ في نظر الإسلام أهلٌ للثقة، ومحلٌّ للاستشارة، فهذا رسول الله أكملُ الناس علما وأتمُّهم رأيًا يشاور نساءَه ويستشيرهن في مناسبات شتى ومسائل عظمى.

إخوةَ الإسلام، في الإسلام للمرأة حريةٌ تامة في مناحي الاقتصاد كالرجل سواءً بسواء، هي أهلٌ للتكسُّب بأشكاله المشروعة وطرقه المباحة، تتمتّع بحرية التصرف في أموالها وممتلكاتها، لا وصايةَ لأحد عليها مهما كان وأينما كان، قال عزّ وجلّ: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

بل إن الإسلامَ يفرض للمرأة من حيث هي ما يسمَّى بمبدأ الأمن الاقتصادي مما لم يسبق له مثيلٌ ولا يجاريه بديل حينما كفل للمرأة النفقةَ أمًا أو بنتًا أو أختًا أو زوجةً وحتى أجنبية، لتتفرّغ لرسالتها الأسمى وهي فارغةُ البال من هموم العيش ونصب الكدح والتكسُّب.

معاشر المؤمنين، هذه بعضُ مظاهر التكريم للمرأة في الإسلام، وذلك غيْضٌ من فيض وقبضةٌ من بحر.

ماذا يريدون من المرأة؟

أيها المسلمون، إن أعداءَ الإسلام تُقلقهم تلك التوجيهاتُ السامية، وتقضّ مضاجعهم هذه التعليمات الهادفة، لذا فهُم بأنفسهم وبمن انجرّ خلفهم في حديث لا يكلّ عن المرأة وشؤونها وحقّها وحقوقها، كما يتصوّرون وكما يزعمون، مما يحمل بلاءً تختلف الفضائل في ضجّته، وتذوب الأخلاق في أزمّته، دعواتٌ تهدف لتحرير المسلمة من دينها والمروق من إسلامها، مبادئُ تصادم الفطرة وتنابذ القيمَ الإيمانية. دعواتٌ من أولئك تنبثق من مبادئَ مُهلكةٍ ومقاييسَ فاسدة وحضاراتٍ منتنة، تزيِّن الشرورَ والفساد بأسماء برّاقة ومصطلحات خادعة. وللأسف تجد من أبناء المسلمين من في فكره عِوَجٌ وفي نظره خلل ينادي بأعلى صوتٍ بتلك الدعوات، ويتحمّس لتلك الأفكار المضلّلة والتوجُّهات المنحرفة، بل ويلهج سعيًا لتحقيقها وتفعيلها. لذا تجد أقلامَهم تُفرز مقتًا للأصيل من أصولهم والمجيد من تراثهم.

إخوة الإسلام، لقد عرف أعداءُ الإسلام ما يحمله هذا الدين للمرأة من سموّ كرامةٍ وعظيم

صيانة، علموا أن في مقرراته المأصّلة أن الأصلَ قرارُ المرأة في مملكة منزلها، في ظل سكينة وطمأنينة، ومحيط بيوتٍ مستقرةٍ، وجوٍّ أسرة حانية. رأوا حقوقَ المرأة مقرونةً بمسؤوليتها في رعاية الأسرة، وخروجها في الإسلام من منزلها يؤخَذ ويمارَس من خلال الحشمة والأدب، ويُحاط بسياج الإيمان والكرامة وصيانة العرض، كما قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكما قال ﷺ: «وبيوتهن خير لهن». [صحيح سنن أبي داود (٥٣٠)].

حينذاك ضاقوا من ذلك ذرعًا، فراحوا بكلِّ وسيلة وسعوا بكل طريقة ليخرجوا المرأةَ من بيتها وقرارها المكين وظلِّها الأمين، لتطلق لنفسها حينئذ العنانَ لكل شاردةٍ وواردة، ولهثوا لهثًا حثيثًا ليحرّروها من تعاليم دينها وقيم أخلاقها، تارةً باسم تحرير المرأة، وتارةً باسم الحرية والمساواة، وتارةً باسم الرقي والتقدم الكاذب. مصطلحاتٌ ظاهرها الرحمة والخير، وباطنُها شرٌّ يُبنى على قلب القيم، وعكس المفاهيم، والانعتاق من كل الضوابط والقيم والمسؤوليات الأسَرية والحقوق الاجتماعية، وبالتالي تُقام امرأةٌ تؤوَل إلى سلعةٍ تُدار في أسواق الملذّات والشهوات.

فالمرأةُ في نظر هؤلاء هي المتحرِّرةُ من شؤون منزلها وتربية أولادها، هي الراكضةُ اللاهثة في هموم العيش والكسب ونصب العمل ولفْت الأنظار وإعجاب الآخرين، ولو كان ذلك على حساب تدمير الفضيلة والأخلاق وتدمير الأسرة والقيم، فلا هي حينئذ بطاعة ربٍّ ملتزمةٌ، ولا بحقوق زوج وافية، ولا في إقامة مجتمع فاضلٍ مُسهِمة، ولا بتربية نشءٍ قائمةٌ.

إخوةَ الإسلام، تلك نظراتُهم تصبُّ في بواتق الانطلاق التامِّ والتحرُّر الكامل، الذي يُغرق الإنسانَ في الضياع والرذيلة وفقدان القيمة والهدف والغاية.

أما في الإسلام فالمرأة أهمُّ عناصر المجتمع، الأصلُ أن تكون مربِّيةً للأجيال، مصنعًا للأبطال، ومع هذا فالإسلام - وهو الذي يجعل للعمل الخيِّر منزلةً عظمى ومكانةً كبرى - لا تأبى تعاليمُه عملًا للمرأة في محيط ما تزكو به النفس، وتُقوَّم به الأخلاق، وتحفظ به المرأة كرامتَها وحياءها وعفَّتها، وتصون به دينها وبدنَها وعرضها وقلبَها، وذلك من خلال ما يناسب فطرتَها ورسالتَها، وطبيعتَها ومواهبَها، وميولها وقدراتِها. ومن هذا المنطلق فالإسلام حينئذ يمنع المرأة وبكلِّ حزم من كلِّ عمل ينافي الدين، ويضادُّ الخلقَ القويم، فيشرط في عملها أن تكون محتشمةً وقورة، بعيدةً عن مظانِّ الفتنة، غيرَ بالرجال، ولا متعرّضةٍ للسفور والفجور. ولئن أردنا حقيقةَ الواقع الذي يخالف ذلك المنهج الإسلامي فاسمع لأحد كُتَّاب الغرب وهو يقول: إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجتَه كانت هادمةً لبناء الحياة المنزلية؛ لأنه هاجم هيكلَ المنزل، وقوَّض أركانَ الأسرة، ومزَّق الروابط الاجتماعية"، وتقول أخرى وهي دكتورةٌ تحكي أزماتِ مجتمعها، تقول: "إن سبب الأزماتِ العائلية وسرَّ كثرةِ الجرائم في المجتمع هو أن الزوجةَ تركت بيتَها لتضاعف دخلَ الأسرة، فزاد الدخلُ وانخفض مستوى الأخلاق"، إلى أن قالت: "والتجاربُ أثبتت أن عودةَ المرأة إلى المنزل هي الطريقةُ الوحيدة لإنقاذ الجيل الجديد من التدهور الذي هو فيه. انتهى.

فيا أيها المسلمون، الحرصَ الحرصَ على تعاليم هذا الدين، والحذرَ الحذر من مزالق الأعداء الحاقدين.

عناية الإسلام بالمجتمع

إخوة الإسلام، من أوجُه عناية الإسلام بالمجتمع حرصُه على منع الاختلاط بين الرجال والنساء في أيِّ مجال وفي أيِّ شأن، ذلكم أنه وباءٌ خطير، ما أصيبَ به مجتمع إلا ودبَّت فيه كلُّ بليَّة وعمَّ فيه الشرُّ والفساد، فما من جريمة نُهش فيها العرض وذُبح العفافُ وأُهدر الشرف إلا وكانت الخيوطُ الأولى التي نُسجت فيها هذه الجريمة، وسهَّلت سبيلها هي ثغرة حصلت في الأسلاك الشائكة التي وضعتها الشريعة في العلاقة بين الرجال والنساء، ومن خلال هذه الثغرة يدخل الشيطان ويقع الفساد.

ولنستمع لمقالة إحدى النساء التي عاشت في مجتمع الاختلاط، وهي تحكي تجارب بنات جنسها في مقال أسمته "امنعوا الاختلاط" قالت: "إن المجتمعَ العربيَّ كاملُ وسليم، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسَّك بتعاليمه وتقاليده التي تقيِّد الفتاة والشابَّ في حدود المعقول"، إلى أن قالت: "لهذا أنصح بأن تتمسَّكوا بتقاليدكم وأخلاقكم، وامنعوا الاختلاط، وقيِّدوا حريةَ الفتاة، بل ارجعوا إلى أصل الحجاب، فهو خيرٌ لكم من الإباحة والانطلاق والفجور" انتهى.

ألا فليتق اللهَ أهلُ الإسلام في مواليهم، وليحسِبوا خطواتِ السير في حياتهم، وليحفظوا ما استرعاهم الله عليهم من رعاياهم، والحذر الحذر من التفريط والاستجابة لفتنة الاستدراج إلى مدارج الغواية والضلالة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب: ٥٣].

والحمد لله رب العالمين.

الكلمة التي ألقاها فضيلة الشيخ عبد الرحمن السديس بالمركز العام لجماعة أنصار السنة المحمدية

في لحظات تاريخية يسجلها التاريخ؛ لحظات سعادة وسرور؛ يجدر بالمسلم ذكرها والحديث عنها، فبالأمس القريب شرفنا في مركز أنصار السنة بعابدين بالقاهرة فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن حميد رئيس مجلس الشورى وإمام الحرم امتدادًا للتواصل بين أنصار السنة والمشايخ والأمراء والعلماء.

واليوم نسعد بلقاء واحد من هؤلاء المخلصينَ نحسبهم كذلكَ وهو العالم الجليل، وإمام الحرم المكي فضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن السديس حفظه الله، في زيارة لجماعة أنصار السنة.

وقد ألقى فضيلته كلمة أثناء الزيارة قال فيها:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله... أما بعد:

حقيقة أنا عاجز عن إبداء شعوري ورصد مشاعري في هذه المناسبة.

فرصة سعيدة، ويعلم الله- بدون مجاملة ولا مزايدة- أنها تاج زيارتي، وأغلى ما رصد من جدولي في هذه الزيارة لمصر الحبيبة إلى قلوبنا جميعًا، والجماعة لها امتدادها التاريخي من أيام شيوخنا الأفاضل وعلمائنا الأجلاء رحمهم الله جميعًا.

وغني عن القول التأكيد على أن أهم مميزات هذه الجماعة ما تحلت به من صحة المعتقد وسلامة المنهج والحرص على نصرة السنة قولاً وفعلاً وعلمًا وخلقًا وأدبًا وسلوكًا، وهذه الجماعة في قلوب الجميع.

وهي في الحقيقة بلا مبالغة هي الجماعة الأُم التي يسعى كل محب للسنة وأهلها في اللقاء بمسئوليها وعلمائها وفضلائها، وإني سعيد لرؤيتي هذه الكوكبة المباركة المتميزة والفاعلة من إخواننا من العلماء والدعاة الحضور، ونحن معهم، وإن لم تكن هذه الزيارة في المحسوب لكنها في القلوب، ومنذ أن عرفنا هذه الجماعة واستفدنا من علمائها ومشايخها وتابعنا مجلتها المباركة «التوحيد»، الصغيرة في حجمها، الكبيرة في عطائها وأثرها، ونفعها، وخيرها، وأقول: لا أحب أن أكون ضيفًا على هذه الجماعة؛ لأني واحد من أهلها وأبنائها وأحبائها، بل من

خدمها، وأتشرف بكل ما تطلبه الجماعة وما يكون سببًا في النهوض ببرامجها ومشروعاتها وطموحاتها وتطلعاتها، مؤكدًا في الحقيقة على أهمية بذل المزيد من الجهود، لا سيما في هذه الآونة التي كثرت فيها الصوارف وتعددت فيها المتغيرات، وأصبحت المستجدات في الساحة متكاثرة ولا تعطي فرصة للتمهل.

نحن بحاجة إلى التأكيد على متانة هذه الجماعة ودعوتها وأصولها التي أسسها عليها أوائلها من علمائنا ومشايخنا، كما أن من الأهمية في نظري الحرص على زيادة مد الجسور في التعاون والتواصل بين هذه الجماعة وغيرها، ولا سيما من إخواننا في المملكة الذين يرون في هذه الجماعة أنها الجماعة الجديرة بالدعم والمؤازرة؛ لأن المنهج- والحمد لله والمنة- متفق، وكل يحرص على نصرة السنة ودعوتها قدر استطاعته.

وهذا في الحقيقة مع أنه تكليف، إلا أنه في غاية التشريف، الإنسان يرى الناس من حوله يتقلبون في الصوارف عن المعتقد الصحيح والمنهج السليم، أفرادًا أو جماعات، ونحمد الله عز وجل أن هدانا تبارك وتعالى إلى هذا المنهج الحق والسبيل القويم، وإن كان هناك من تأكيد فهو الحرص على تآلف القلوب، وسلامة الصدور والحرص على تآلف الكلمة، وسد المجال أمام كل من يريد التأثير في مسيرة هذه الدعوة، ومن يريد إيجاد الفرقة والخلافات بين الإخوة والعلماء، لا سيما من كانوا على منهج واحد، والحرص على تضامن الكلمة واجتماع الصف قضية مهمة جدًا، لا سيما مع كثرة النوازل والصوارف، وأن يكون هناك تقدير وسماع لما يكون من اختلاف في وجهات النظر بين طلبة العلم التي لا تخالف الأصل الثابت والمعتقد الصحيح وحرص صاحبها على نصرة السنة.

في الحقيقة ليست هذه كلمة، ولكنها ترحيب وإبداءً للمشاعر لجماعتنا وإخوتنا وأحبائنا وعلمائنا ومشايخنا ومعلمينا ورائدينا، وهذه الجماعة المباركة من فضل الله علينا وعلى المسلمين، وبفضل الله عز وجل أن يوفق الله الإنسان لعمل شيء من الخدمة لهذه الجماعة المباركة وأنشطتها، وهذا منهجها- ولله الفضل والمنة- على الجادة.

ليس عندي حقيقة في النهاية إلا الدعاء بمزيد من التوفيق والتسديد، وأن يعينكم الله عزَّ وجل ويثيبكم على الجهود المباركة، مؤكدًا الحقيقة على حرص محبيكم على التطلع إلى مزيد من المناشط والعطاء.

وأختم كلمتي بالشكر للإخوة الحضور جميعًا وأخص منهم: د. جمال في هذا الضحى المبارك، وقد شَرُفْتُ بزيارة هذا المقر الذي أعده حقيقة بيتي ومنزلي.

والعبرة ليست بالمباني ولكنها بالمعاني، أو أن العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني، فنشاط هذه الجماعة ومجهوداتها- ما شاء الله- شيء رائع جدًا، ولا يحتاج إلى إشادة، ولكن تحتاج الدعوة إلى المزيد من التقارب والتنافس والتآلف والتآزر، فهذه الدعوة تحتاج إلى كل بذل وجهد، ودعوة الله قائمة، سواء بنا أو بغيرنا؛ لذا فإن الإخلاص في القول والعمل له دور عظيم جدا في التأثير في المدعوين والقبول من رب العالمين، والعبد الفقير من خدم هذه الجماعة، وأشكر لكم حقيقة عن نفسي وعن إخواني تقديرنا وإعزازنا لما تقومون به.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الاعتقاد الصحيح يجمع شمل الأمة

خطبة الجمعة

لفضيلة الشيخ/ عبد الرحمن السديس ببلبيس

في يوم مشهود كان اللقاء الذي شهدته عشرات الآلاف حيث شرفت مدينة بلبيس بفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمن السديس بدعوة كريمة من فضيلة الشيخ السيد عبد الحليم رئيس أنصار السنة ببلبيس سابقا ورئيس جمعية الإيمان بنيويورك، وقد حضر الخطبة قيادات وزارة الداخلية وقيادات محافظة الشرقية. وقد ألقى فضيلة الشيخ السديس خطبة الجمعة بمسجد التوحيد ببلبيس.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله مجدد الحنيفية ورافع لواء الوحدانية ومحطم عروش الوثنية، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار والتابعين الأخيار ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه إلى يوم الدين... أما بعد:

فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، فإن تقوى الله تبارك وتعالى وصيته للأولين والآخرين من عباده، يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، من أراد عزًا وصلاحًا وقصد خيرًا ونجاحًا وأراد ثوابًا وفلاحًا فعليه بتقوى الله تبارك وتعالى، فإن تقوى الله هي العز والكرم، وحبكم للدنيا هو الذل والسقم.

معاشر المسلمين: الكل مدرك حاجة الناس إلى الطعام والغذاء والشراب والهواء والكساء والدواء، ولكن يا عباد الله، أتدرون ما هو أعظم من ذلك، وما هو أهم منه، وما الضرورة إليه أشد من كل ضرورة والحاجة إليه أعظم من كل حاجة؟ إنه الغذاء الحقيقي والزاد الروحي غذاء الإيمان وزاد العقيدة، العقيدة أيها الموحدون أساس أعلى وقاعدة الإسلام، من أجل العقيدة الصحيحة أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

معاشر المسلمين: إن قضية القضايا باتفاق وأساس القضايا على الإطلاق قضية التوحيد لله رب العالمين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

أمـا والله لو علم الأنام
لما خلقوا لما غفلوا وناموا
لقد خلقوا لأمر لو وعته
عيون قلوبهم قاموا وهاموا

إن العبودية لله رب العالمين، شرف أيما

شرف وعزٌّ أيما عز وفخارٌ أيما فخار.

بالعقيدة الصحيحة تصلح القلوب وتأمن المجتمعات وينتشر الخير في الأمة وتتلاشى الجرائم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

الحياة الطيبة لا تكون إلا في ظل العقيدة والإيمان وتحت ظلال الوحيين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وإن واجب العباد أن يعلموا عظم مسئوليتهم ورسالتهم في هذه الحياة، فقد خلقوا في هذه الحياة لرسالة عظمى وغاية كُبرى؛ ألا وهي تحقيق العبادة لله وحده: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

تتضاءل القضايا أمام قضية توحيد الله عز وجل، وإن المتأمل فيما عليه الناس من صراعات ليجد أنها لا تنطلق من منطلقات عقدية صحيحة بل إن المتأمل لنصوص الكتاب والسنة ليجد أن قضية التوحيد لله عز وجل أجل القضايا وأهم القضايا، من أجلها بدأ القرآن وأعاد، ومن أجلها أشاد صرح العقيدة والإيمان، والحياة لا تقوم إلا على أساس الاعتقاد الصحيح لله عز وجل في تصيير الأمور كلها لله.

يا من ألوذ به فيما أؤمله
وأستجير به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره
ولا يعيبون شيئًا أنت جابره

فالأمر لله عز وجل:: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ إليه سبحانه المفزع عند الشدائد والملمات وإليه الملجأ عند كل الأمور والكربات، فلا ملجأ من الله إلا إليه، هذا الحبيب المصطفى رسول الهدى ﷺ يخبر الله عنه أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

في ظل صحة المعتقد وسلامة المنهج يأمن الناس وتسعد المجتمعات وتبنى الحضارات وتشاد الأمجاد بإذن الله، اسألوا التاريخ؟!

ما الذي جعل من هذه الأمة وهم الأفراد حفاة الأقدام ورعاة الغنم من الذي صنع منهم بإذن الله أعظم حضارة عرفها التاريخ... إنه الإيمان بالله عز وجل.

العقيدة تنشئ بإذن الله جيل الأمن والسلامة وجيل المحبة والأمان، العقيدة الصحيحة تنشئ جيلاً مجتمعًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يخلص أعماله لله ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ لا يريد عرضًا ولا غرضًا من أغراض الدنيا وإنما يريد رفعة دين الله، لا يهمه أموره الخاصة ولا الأمور الشخصية والعادية لكن يُهمُّ رجل العقيدة أن تكون كلمة الله هي العليا، والمسلمون هم الذين لهم العزة والمكانة والخيرية في هذه الحياة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، دين الله الذي يُبنى على العقيدة الصحيحة والاتباع لحبيب الأمة رسول الله ﷺ ينشئ جيل الوسط المعتدل الذي لا يغلو ولا يفرّط: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

فواجبنا عباد الله أن نحمد الله عز وجل على أن هدانا لهذا الدين: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾، وأن هدانا إلى هذه العقيدة الصحيحة والأمة من حولنا تتخطفها اللوثات العقدية المنحرفة والأمور المخالفة لما عليه عقيدة التوحيد الخالص لله فعلينا أن نحمد الله وأن نشكره أن هدانا للكتاب والسنة وأن منَّ علينا باتباع طريق سلف هذه الأمة رحمهم الله ورضي عنهم، فلا خير لهذه الأمة ولا عز لها إلا بتمسكها بما تمسك به الأولون، قال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله وسنتي». لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولم يصلح أولها إلا بلزوم الكتاب والاعتناء بالسنة والاجتماع على ذلك.

أسس الوحدة الإسلامية

إن قضية الوحدة الإسلامية التي تنطلق من الكتاب والسنة لهي قضية مهمة جدًا في عصر علت فيه شعارات الفرقة والخلاف: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ

بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾.

العقيدة الصحيحة تجمع والأهواء تفرق، الكتاب والسنة هو الذي يوحد الأمة، والأهواء هي التي تشتتها، فعلينا عباد الله أن تجتمع قلوبنا على كتاب الله وعلى سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن نحلي أنفسنا بالإخلاص لله وبالمتابعة للحبيب عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

لا طريق للجنة إلا سنة المصطفى، والنبي المجتبى عليه صلوات الله وسلامه القائل: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

فعليكم عباد الله باتباع كتاب ربكم وسنة نبيكم ﷺ، ففيها الخير والفلاح والعز والصلاح والثواب والنجاح في هذه الدنيا وفي الآخرة.

في الحديث من حديث جابر رضي الله عنه عند مسلم وغيره: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار».

أبعد ذلك عباد الله، يشكك بعض الناس في الاهتمام بالعقيدة الصحيحة ومدى أهميتها وضرورتها في هذه الحياة، إذا كان عز الدنيا وجنة الآخرة لا تتحقق إلا لأهل الاعتقاد الصحيح ولأنصار سنة رسول الله ﷺ فلماذا يغفل بعض الناس عن الطريق الصحيح والله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وإن أشد الأزمات وأخطر الفتن والظلمات هي ما صرف عن الاعتقاد الصحيح والسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليم.

ماذا جنت الأمة يوم أن ضيعت العقيدة الصحيحة؟! ويوم أن ضعف الإيمان في نفوس أبنائها؟! ويوم أن ضربت البدع والخرافات والمخالفات والشركيات في كثير من المجتمعات؟!

إنك أصبحت ترى قطعانًا من الناس لا يحملون غاية ولا يعملون لهدف ولا يحرصون على إقامة دين.

خواء في الروح وفراغ في النفس وازدراء بالعقل وفي ذلك خسارة الدنيا والآخرة: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، أيكون أهل الباطل أشد تمسكًا بعقائدهم الباطلة من أهل الحق بعقيدتهم الصحيحة؟

إن الناظر فيما يفعله اليهود في مقدسات المسلمين وفي الأرض المباركة فلسطين ليجد أنهم ينطلقون من منطلقات عقدية، يريدون أن تحل التوراة والتلمود والمزاعم المحرفة الباطلة مكان التوحيد والقرآن.

وفي هذا عياذًا بالله ازدراء بالأمة الإسلامية التي تحمل الخيرية والشهادة على العالمين أن تكون في ذيل القافلة، لكنَّ ذلك أيها المسلمون ليس مدعاة إلى أن تحكم العواطف البعيدة عن العقل والدليل، بل لا بد أن تربى الأمة على العلم، العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وأن تربى على العمل الصالح، وأعظم ذلك الصلاة المفروضة والقيام بأركان الإسلام، وأن تربى الأمة على حب الخير للأمة وأن تصفو النفوس من الغل والحقد والشحناء والحقد والبغضاء: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

يجب أن تتربى الأمة على أخوة الإسلام: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، هذه التربية التي تحفظ للمسلم عرضه وماله وحقوقه كلها بعيدًا عن الأحقاد والضغائن التي عبثت بالأمة يوم أن صرفت عن التربية الإيمانية.

أيها المسلمون: إن علينا أن نجتمع على كتاب الله وعلى سنة رسوله عليه الصلاة والسلام وعلى فهم السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

إننا في عصر الفتن وفي عصر المحن، فتن في الشهوات وفتن في الشبهات فتن من تسلط الأعداء وفتن من انحلال جبهة الأمة الداخلية وتفرق الأمة شيعًا وأحزابًا، فالله الله في الاجتماع على الكتاب والسنة وعلى سنة الحبيب رسول الله عليه الصلاة والسلام.

يقول الإمام النيسابوري رحمه الله شيخ البخاري ومسلم: الذب عن السنة أفضل من الجهاد، ألا ما أحوج الأمة إلى أن يعود إليها ضعفاؤها، وإلى أن يعود إليها لواؤها، وإلى أن

ترتفع معالم السنة باطنًا وظاهرًا وأن تجتمع الأمة على كتاب الله وعلى سنة رسول الله ﷺ.

فإياك والاستغراق في الشبهات والاسترسال في الشهوات، فالدنيا متاع، ومتاع الدنيا قليل، والدنيا ابتلاء وامتحان، وعليك أن تتقرب إلى الله وأن تأتي إلى طريق الله وأن تحرص على الاجتماع بإخوانك في الله وأن تحرص على أن تكون جنديًا من جنود الدعوة إلى الله عز وجل بكل ما تحمله الكلمة من معنى وبالمنهج السليم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ نفعني الله وإياكم بالقرآن العظيم وبسنة نبيه الكريم.

فاتقوا الله عباد الله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، واعلموا أن خير الحديث كتاب الله وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وعليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذ في النار.

أيها المسلمون: إن قضية الإيمان بالله والتوحيد لله رب العالمين والاعتقاد الصحيح والمتابعة لرسول الله ﷺ أهم القضايا على الإطلاق متى تحققت في الأمة انطلقت الأمة من قدم راسخة ومن أصول ثابتة، إذا صلحت العقيدة صلح الأفراد والمجتمعات وصلحت سائر أمور الناس في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وأمورهم الاجتماعية وفي أمورهم كلها.

فالله الله عباد الله في السير على ما سار عليه الأوائل، وكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف، وخير الأمور السالفات على الهدى، وشر الأمور المحدثات البدائع.

لا بد أن تكون البيوت صروحًا لإشاعة التوحيد وبناء الأمة على العقيدة الصحيحة، يجب أن تقوم الأسرة بدورها وواجبها في تنشئة الأجيال على هذا المنهج السليم، يجب أن تكون المدارس منارات للعلم والتعليم والمعرفة على منهج صحيح على منهج كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وفيما لا يخالف ذلك من العلوم المباحة ويجب أن تكون وسائل الإعلام ومنهاج التعليم وأن تكون منطلقات الأمة كلها مبنية على العناية بهذا الأصل الأصيل والركن الركين في الأمة، ومتى تحقق ذلك تحقق للأمة خيرها بإذن الله.

من قوى إيمانه حسن خُلُقه وحسن تعامله، ومن صحت عقيدته كان فردًا عاملاً في أنحاء أمته ومجتمعه لا معول هدم فيها.

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك كله: أين الجنود المجهولون من رجال العقيدة الصحيحة الذين يعملون لله ويبذلون من أجله؟ يقومون لله، يتحركون لله، لا يريدون جزاءً ولا شكورًا، يقومون ويعملون كما عمل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومصعب وأسامة وبلال وخبَّاب، ينطلقون لنصرة عقيدتهم لا يريدون من أحد جزاءً ولا شكورًا، يصيرون على أشواك الطريق: ﴿الم(١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾، لا بد من العقبات، لكن لا بد من الصبر، ولتعلموا أيها المسلمون أن المبشرات أكثر من العقبات: «ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار حتى لا يدع بيت شجر ولا مدر إلا دخله بعز عزيز أو ذُلّ ذليل». وهذا من بشائر نصرة دين الله عز وجل، فدين الله بالغ ما بلغ الليل والنهار ومنصور بنصر الله له، لكني أنا وأنت والآخر، كلنا جنود ينبغي أن نعمل لنصرة دين الله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، حذاري من اليأس، حذار من الإحباط، حذار من ترك العمل، بل علينا أن نعمل لله ولنبشر بتوفيق الله عز وجل، أبشروا أيها المسلمون، أبشروا أيها الموحدون، أبشروا يا أيها السائرون على منهج رسول الهدى ﷺ بالفوز المظفر والنصر والتمكين.

هذه نصوص الشرع وهذه شهادات الواقع، فحذار من التخذيل، وحذار من المعوِّقين.

ولتكن دعوتنا بالأسلوب الحسن والحكمة والموعظة الحسنة وإعطاء الأمور مواقعها الشرعية، ألا وصلوا وسلموا رحمكم الله على الهادي البشير والسراج المنير كما أمركم بذلك اللطيف الخبير فقال عز من قائل: «إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليمًا».

والحمد لله رب العالمين.



الهدي الملائم في الزواج والولائم

لفضيلة الشيخ / عبد المحسن القاسم
إمام المسجدي النبوي

أيّها المسلمون، الأسرةُ أساسُ المجتمَع، عنها تتفرع الأمَم والشّعوب، نواةُ بنائها الزّوجان، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات:١٣]. والشريعة مبناها على الحِكَم ومصالح العباد، لذا دَعَتِ الشبابَ لإعفاف أنفسِهم بالزّواج، قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشرَ الشّباب، منِ استطاعَ منكم الباءةَ فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصيام؛ فإنّه له وجاء» متّفق عليه.

حثَّ الدّين على اختيار الزّوجةِ الصّالحة ذاتِ الخلُق الرّاقي والتعامل الهادي، لا ترفعُ صوتًا ولا تؤذي زوجًا.

والسؤالُ عن حالِ الخاطب والمخطوبة أمرٌ لازم لبيان ما قد يخفى في أحدهما من مثالبَ قادِحة، وعلى المسؤول الصّدقُ في الجواب والبيانُ بكلّ وضوحٍ وأمانة لإبداء خوافي المحاسنِ والمساوئ، وكتمانُ معايبِ أحدِهما عندَ السؤال ضربٌ من الغشّ للمسلمين.

وإذا عزَم الخاطبُ على الخِطبة أُبيحَ له النَّظر إلى مخطوبته بحضُور محرمِها ودونَ خَلوة بها، من غير تدليسٍ عليه في زينةٍ أو تجمّل، يقول المصطفى ﷺ: «إذا خطَب أحدُكم امرأةً فلينظر إليها؛ فإنّه أحرى أن يؤدَم بينهما» رواه مسلم.

وليحذَر الخاطب قبلَ العقدِ الخلوةَ بمخطوبتِه أو الحديثَ معها بمهاتفةِ الاتّصال أو إلباسَ المخطوبة خاتمًا أو مسَّ جسدها أو الخروج بها من دارها، فإنّ ذلك من المعاصي وركضةٌ من الشّيطان يغوي بها الخاطبَين، وكثيرًا ما تتبدّد أحلامُهما بتلك السيّئات.

والإسلامُ دين عدلٍ وقصد، أمَر الشبابَ بالزّواج، وحثَّ على تيسير مهرِه، وإذا قلَّ المهرُ علَت المرأة، وشرُفَت عندَ الزوج مكانتُها وزادت بركتُها، يقول عليه الصلاة والسلام: «خير النكاح أيسره». [صحيح أبي داود (١٨٥٩) من حديث عمر] وأثرياءُ الصّحابة لم يغالوا في مهورهم، يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: تزوّجتُ على وزنِ نواةٍ من ذَهب، ولمّا علِم النبيّ عن صداقِه قال له: «بارَك الله لك».

والمَهر حقٌّ للمرأة لا يجوز للآباء أو الأولياء أن يخصوا أنفسهم به، قال سبحانه: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾[النساء:٤].

وجمالُ المرأة في سترِها، وبهاؤها في حيائها، ورونقُها في عفافِها، والإسلامُ جاء أمرًا بستر المرأة، وبعضُ النّساء يقعنَ في المحرّمات في مواطنِ فرح، فتجوّز لنفسِها ما ضاقَ من المَلبس، وأخرى تلبسُ ما رقَّ منه ممّا لا يستر جسدَها، ومنهنّ من تُبدي شيئًا من ساقِها وفخذِها، ومنهنّ من لا تستُر أعلى جسدِها، يزيّن لهنّ الشيطان سوءَ عملهنّ.

والمرأةُ لا يحلّ لها أن تبديَ للمرأة إلاّ ما أبيح كشفُه أمامَ محارمِها من الرجال ممّا جرت العادةُ بكشفه في دارها من الرّأس واليدين والعنُق والقدَمين، ولا تبدي المرأة عندَ النّساء أكثرَ من ذلك.

ومن النّساء من تكشِف عورتَها لامرأةٍ أخرى لإزالةِ خوافي شعرِ جسدها، وهذا منكرٌ غليظ فيه اطّلاعٌ على العورات وخديعةٌ للزّوج وضياع لحقِّه في غيبته، فهذه عليها تهديدٌ من ربّ العالمين، يقول عليه الصلاة والسلام: «أيّما امرأةٍ وضعت ثيابَها في غير بيتِ زوجِها فقَد هتكت سترَها فيما بينها وبين الله» رواه الحاكم.

والدّين وسطٌ في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، يُعلن النكاحَ ولا يقَع في المحذور، ومن النّساء من تتباهى في زينةِ الملبَس والتبرّج والتجمّل، تبدِّد الأموالَ وتهدر الأوقات بشهرةٍ زائفة أو رياءٍ ممقوت.

واحذري - أيّتها المرأة - من الخُيَلاء في الملبَس، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ يمشي في حلّةٍ تعجِبه نفسُه مرجّلٌ رأسَه يختال في مشيَته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة» متّفق عليه.

والمرأة المسلمةُ متميّزة بزينتِها وملبسِها وشعرها، بعيدةٌ عن تشبّهها بالرّجال أو غير المسلِمات، وتشبهها بغير جنسِها يعرّضها للوعيد، فقد لعن رسول الله ﷺ المتشبّهات من النّساء بالرجال، ولكلّ جنسٍ من الرّجال والنّساء خصائصُه وأحواله وملبسُه وزينتُه. المرأة تفخَر بانوثتِها، والرّجل يعتزّ برجولتِه، وفي التّقليد ضعفٌ في النّفس وعدمُ رضًا بالخصائص ونقصٌ في إدراكِ حكمةِ الخالق.

وحواجبُ العينين زينةٌ من ربّ العالمين، وبعضُ النّساء تعمد إلى إزالةِ بهاء وجهِها وجمالِ عينيها بنتفِ حواجبها، وقد لعن الله مَن أزالت شعرَ حاجبها، يقول النبي ﷺ: «لعن الله النامصةَ والمتنمِّصة».

وبعض النّاس لضعفٍ في النّفس مولَع بالتّقليد، يضاهي غيرَه حتى في أفراحه، والرّجل محرّم عليه رؤيةُ المرأة الأجنبيّة في النكاح وغيره، ودخول الزّوج ليلةَ الزفاف على النساء الأجانب وجلوسُه على علوٍّ مع زوجتِه وهو يتطلّع إلى نساءِ المسلمين بكاملِ زينتهنّ منكرٌ رذيل، يقول النبيّ ﷺ: «إيّاكم والدخول على النّساء» متّفق عليه.

وجلوسُ الزّوج مع زوجته أمامَ النّساء تقليدٌ مقيت، دافِعه الهوى، وظاهرهُ الخُيَلاء، وثمرتُه الشّقاء، فما حالُ الزّوجين أمام النساء وهنّ ينظرنَ إليهما؟! والناظر للزّوجين من الحضور ما بين شامتٍ في الخِلقة، وما بين حاسدٍ على النعمة، تقول فاطمة رضي الله عنها: (خيرٌ للمرأة أن لا

ترى الرجالَ ولا يراها الرِّجالُ).

وإرخاءُ ذيلٍ طويل يُحمَل خلفَ الزَّوجة ليلةَ زفافِها تشبّهٌ بغير المسلمين، حرامٌ عليها فعلُه.

والمعازف والغناءُ لا تدني من الربِّ، بل هي من أسبابِ قسوةِ القلب، وحجابٌ كثيف عن الرحمن. وما يفعله بعضُ النّاس من المعازف ليلةَ النكاح جحودٌ لنِعمة الله وعصيانٌ له، ومِن السَّرَف استئجار عازفةٍ للغناء لعصيان ربِّ العالمين في دُجى السَّحَر زمنِ نزول العظيم جلّ جلاله إلى السّماء الدنيا، والعُبّاد في محاريبهم.

والمسلمُ حرامٌ عليه حضورُ مناسبةٍ فيها منكر، يقول الأوزاعي رحمه الله: "لا تدخلْ وليمةً فيها طبلٌ ومعازف".

وفي أحكام الإسلام غنيةٌ عن الحرام، وديننا أباح ضربَ الدفّ للنّساء خاصّة في وقتٍ مِن اللّيل بكلامٍ لا محذورَ فيه.

والتّصوير مِن كبائرِ الذّنوب، موجبٌ للّعنة والغَضب، قال عليه الصلاة والسلام: «لعن الله المصوِّرين والمصوَّرات». والمصوّر أشدّ الخلقِ عذابًا، قال ﷺ: «أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة المصوّرون» متفق عليه.

وتصويرُ النّساء يجني مفاسدَ وخيمة، وقد تسري صورُ النّساء إلى غير المحارم من الرّجال، فتنهار بذلك بيوت، والأبُ اللّبيب من يمنعُ زوجتَه وبناته من ورود أماكنِ التّصوير.

والعدلُ في المأكل والمَشرب وعدم البذَخ فيه دأبُ الفضلاء، سنّةُ خيرِ البشر ﷺ، تصفِ صفيّة رضي الله عنها وليمتَه بقولها: أولمَ النبيّ على بعضِ نسائِه بمُدَّين من شعير.

ومِن مجانبةِ الصّواب أن تكونَ مبذِّرًا في الزّواج، شحيحًا في البذل في أوجُه الخيرات.

وتكرار ولائم مناسبات النّكاح في ظاهرها أفراح، وفي حقيقتِها على الزّوج أتراح، للخِطبةِ وليمةٌ، وفي يوم إلباس المخطوبة خاتمًا من قِبل خاطبِها مأدُبة- ومسّ يدها محرّم- وليلة عقد النكاح دعوة، وفي ليلةِ الزّفاف مآكل ومشارب متنوّعة، إرهاقٌ لمؤونة الزّوج، هل مَن يسعى لبناء بيتٍ زوجيّة مُحاطٍ بالسّتر والعفاف تُستنزَف أموالُه أم تخفّف عنه الأعباء لإضافةِ لبنةٍ صالحة في المجتمع؟! والاكتفاءُ بوليمة واحدةٍ ليلةَ الزفاف أحبّ للزّوجين وأسلم وأكملُ وأوفق.

والله عزّ وجلّ جعل الليلَ لباسًا والنومَ سُباتا، والنبيّ ﷺ كان يكرَه النومَ قبل العشاء والحديثَ بعدها. متفق عليه.

ولحظات الفرَح يُظهر التعبير عنها من غير سهَر فاحِش، وإعلانُ النكاح لا حاجة إلى امتداده إلى السّحر، وساعاتٌ في الليل غنيةٌ عن جميعه.

وبعد: أيّها المسلمون، فمَن أسّس بنيانَه على التّقوى أزهى وأربى، ومن أحاطه بالمحرّمات آذِن بحلول الشّقاء، والزّوجان يستويان في لظى العِصيان ليلةَ زفافِهما، يقول الفضيل بن عياض رحمه الله: "إنّي لأعصي الله فأرَى ذلك في خلُق امرأتي ودابّتي".

والمرأةُ الحاذِقة لا تزلزل بيتَها بمعصيةِ الله أوّلَ ليلتِها، فالذّنوب تعسِّر الأمورَ، وتوحِش القلبَ بين الزّوجين، وكلّما كان الزّواج أقربَ إلى الصّواب كانَ أحرى بالتّوفيق.

وجملة المخالفات في النّكاح داعيها عُقدةُ الشّعور بالعَجز والنّقص، وبعضُ النّاس قد لا يدرك حقيقةَ النّكاح، يظنّ أنّ مِن مستلزماتِه البذخ والتفنّن في المآكل والتّباهي في الملابس. وليس الأمر كذلك، بل النّكاح عقدٌ موثّق غليظ بين زوجين، لا يُشاب بخطيئة، ولا يعرّض للانهيار بمعصية.

وعلى الآباء أن لا يُرخوا العنانَ للنّساء لارتكاب المعاصي بما يزيد النّكاح عقبات. والمرأةُ مستضعَفةٌ، إن لم تُؤخذ بيَد وليِّها جنحت مع نفسِها لهواها، وعلى النّساء الإذعان لأوامرِ الله وعدمُ الوقوع في المحرّمات، وعلى المرأة أن تشتغل بمعالي الأمور لإصلاح قلبها في طاعة ربّها، فمَوطنُها أمٌّ وراعية أسرةٍ وموجِّهة، ينبغي أن تُعليَ مِن فِكرها، وترقَى باهتماماتِها، فاليومَ عملٌ ولا حِساب، وغدًا حسابٌ ولا عمَل.

أيّها المسلمون، الإسلامُ هو منبَع الحضارةِ والسُّؤدَد، والتمسُّك به يثمِر الرُّقيَّ والتقدّم، يبني الأمَمَ، وينشئ الأجيالَ بأمثل السّبُل، يسّر مسالكَ النّكاح ودروبَ المودّة بزواج سعيدٍ يبهج الزوجَين وأهلهما، ويسرُّ المجتمع بأكملِه.

يختار الزوج امرأةً ذات دين وخلقٍ راق وأدبٍ رفيع، وإذا تقدّم خاطبٌ كفءٌ متّسمٌ بالدين والخُلُق لم يردّ، وبعدَ استشارةٍ لذوي النّهى واستخارة

وعزم على الاختيار يرى الخاطبُ مخطوبتَه بحضورِ محرمِها. ومع انشراح صدرٍ وتوكُّل يُعقد النِّكاح، وفي ليلةِ الزِّفاف فرحٌ مَعتدِل، لا مباهاةَ فيه ولا مفاخرة، يُعلَن فيه النِّكاح ويدعَى إليه ويصنَع طعامٌ بقدرهم، لا إسرافَ فيه ولا تبذير، وتُزَفّ المرأة إلى زوجها، والمرأةُ الواعيَة ذات العقلِ الرّاجح والروح السامية تسعى إلى منع المحرّم في زواجِها لعلمِها أنّ المعصيةَ لها أثرٌ على حياتِها مع زوجها. والإسلامُ يسَّر النكاحَ وسهّل أبوابَه على الشّباب، النبيّ تزوّج صفيّةَ وهو في سفر، يقول أنس رضي الله عنه: حتّى إذا كان بالطّريق جهّزتها له أمّ سليم، فأهدتها له في اللّيل، فأصبح النبيّ ﷺ عروسًا.

ومِن قبائح الصّنائع تأخيرُ الأبِ تزويجَ ابنته مع تقدُّم الكفءِ لها، أو حجرها على ابن عمّها، واعلم - أيّها الأب - أنّ ابنتَك مستضعفة في دارك، منعَها حياؤها من إبداء مكنونِ نفسها، تصبح أسيفةً وتمشي حزينة، تتألّم من دخول بوّابة العنوسة، والمرأةُ زهرة لها زمن قصيرٌ ثمّ تذبُل، ومِن الهدي القويم تزويجُها في سنّ مبكّرة، ولا غضاضة في عَرض الرّجل ابنتَه أو أختَه على الرّجل الصالح، وهذا من تمام الرّعاية والقيام بالولاية، وعمرُ الفاروق رضي الله عنه عرض ابنتَه حفصة على عثمان فردّها وما غضِب، فعرضها على أبي بكر فردّها وما أيِس، فعرضها على النبيّ ﷺ فتزوّجها. رواه البخاري.

ومنعُ الآباء الخاطبَ ذا الدين والخُلُق مخالفٌ لأمرِ الشّريعة، يقول النبيّ ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» [الصحيحة (١٠٢٢)].

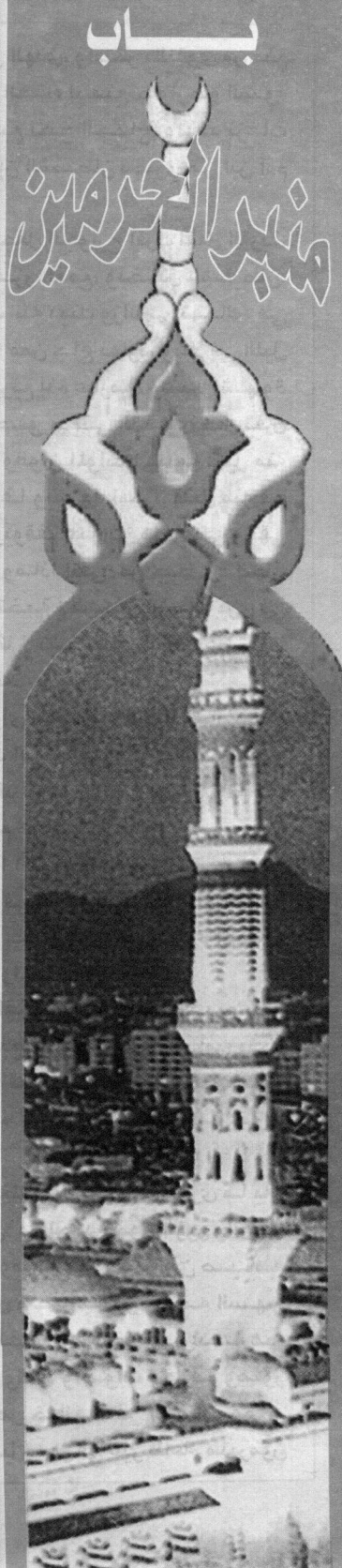
فالرّشَد في اتّباع الهُدى، واللّبيب من رجَا السعادةَ من أبواب الطاعة.

اللهمّ صلِّ وسلِّم على نبيّنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

معرض ابن تيمية السابع للكتاب

يسر مكتبة ابن تيمية أن تعلن عن معرضها السابع بمقرها الجديد ٢٢ شارع أبو عميرة متفرع من شارع عثمان محرم - بالطالبية - ت : ٥٨٦٤٢٤٠ وذلك في يوم الخميس ٢٠ شعبان ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠٠٣/١٠/١٦م حيث توفر المكتبة كميات هائلة من الكتب القديمة والجديدة والنواقص من المنشورات المحلية والخارجية وسوف يستمر المعرض بعون الله تعالى حتى ابتداء معرض القاهرة الدولي ٢٠٠٤/١/١٤م.

كما يتوفر بالمعرض مجلات ومجلدات التوحيد



صوموا لعلكم تتقون

لفضيلة الشيخ / صالح بن حميد
إمام المسجد الحرام

الحمد لله جعل الصيام جنة، وسببًا موصلاً إلى الجنة، أحمده سبحانه وأشكره؛ هدى إلى خير طريق وأقوم سنة. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله بعثه إلينا فضلا منه ومنّة، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم ونفسي أيها الناس بتقوى الله، فالعز والشرف في التقوى، والسعادة والعلا عند أهل التقوى.

التقوى أيها السلمون كنز عظيم، وجوهر عزيز. خير الدنيا والآخرة مجموع فيها: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧].

القبول معلق عليها: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، والغفران والثواب موعود عليها: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق:٥]، أهلها هم الأعلون في الآخرة والأولى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

غير أن أزمنتنا المتأخرة، وعصورنا المادية كست قلوب أصحابها طبقات من الغفلة، وغشت على أبصارها سحب من الصدود كثيفة. فعموا عن الطريق، وحسن ظنهم بالترقي في جاه الدنيا وسلطانها، فالشقي في ميزانهم من قلت مادته وقدر عليه رزقه. وهذا لعمر الحق غفلة شنيعة، وجهل في المقاييس عريض. ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣١،١٣٢].

نعم أيها الإخوة، المتقون تقر أعينهم بالطاعات في الدنيا، وبعُلَى الدرجات من الجنة في الأخرى.

يقال ذلك أيها المسلمون وقد أظلكم هذا الشهر الكريم المبارك؛ شهر فرض الله عليكم صيامه لعلكم تتقون.

أيها المسلمون، غاية الصيام تقوى الله عز وجل. تقوى يتمثل فيها الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل. تقوى صادقة دقيقة يترك فيها الصائم ما يهوى حذرًا مما يخشى. ولئن كانت فرائض الإسلام وأحكامه وأوامره ونواهيه كلها سبيل التقوى، فإن خصوصية الارتباط بين الصيام والتقوى شيء عجيب.

أيها المسلمون، جوارح الإنسان عين وأذن ويد ولسان وبطن وفرج، والقلب من ورائها أصلها وحاكمها.

صام القلب واتقى إذا جرد العبودية لله وحده، خضع لجلاله، وسعى لقربه، وأنس بمناجاته. خلص من الشرك، وسلم من البدع، وتطهر من المعاصي. قلب تقي يرى الهوى والشهوة والظن والبغي والعداوة والبغضاء، والغل والحسد والجدل والمِراء - أمراضًا قلبية فتاكة تقتل الأفراد وتهلك الأمم. القلب التقي يرفضها وياباها ويتقيها ويتقيؤُها، وصيامه ينفيها ويجفوها.

قلب صائم متدين لله بالطاعة، مستسلم له بالخضوع والاستجابة، منقاد لتنفيذ الشرع في الأمر والنهي. عبودية لله خالصة لا يصرفه عنها شهوة ولا شبهة، ولا يشوش عليه فيها أمان ولا طمع، قلب قوي تقي لله صلاته وصيامه ونسكه ومحياه ومماته فإنه «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»(١).

وإذا صلح القلب صلحت الجوارح، فقامت بحق الطاعة وكفت عن الآثام. فالبطن محفوظ وما حوى، ترك الطعام والشراب والشهوة من أجل الله، تقيٌ عالٍ يقي النفس جماح غرائزها، وإرادة مستعلية مستحكمة تأخذ أمر ربها بقوة، وتزدجر عن النواهي باستسلام.

لقد كان على الهدى، وائتمر بالتقوى من منع جسده تخمة الغذاء ليمنع جوارحه السوء والأذى. قلة الشبع تكبح الجماح، وتبعد نزغات الشياطين، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم(٢).

قلة الشبع تجعل الجوارح أقرب لفعل القربة، يرق القلب، ويغزر الدمع، ويخذل الشيطان. وانظر - حفظ الله دينك وزاد في تقاك - في ضعافٍ مهازيلَ؛ ممن جاع نهاره، وملأ في الليل بطنه، فهو صريع لذة عارمة، وعبد لشهوة جامحة. هل حقق معنى التقوى حين تفنن بأطايب الطعام وألوان الموائد؟! بينما قليل منه قد يشبع جياعًا ويسعد أسرًا، قليل منه قد يكفكف دموعًا ويوقف عبرات؟ هل أعطى واتقى أم كيف أعطى؟ وماذا اتقى؟ من جعل رمضان تبذيرًا، وفطره تخمة ! مسكين بائس لا يرى في الصوم إلا جوعًا لا تتحمله معدته، وعطشًا لا تقوى عليه عروقه.

أي تقوى وأي مقاومة عند أمثال هؤلاء المهازيل؟! أولئك أقوام انهزمت عزائمهم أمام جوع بطونهم. لقد أورثهم الشبع قسوة، فجعلهم نَؤُومِين، وأقعدهم كسالى.

ألا فاقعدوا أنتم الطاعمون الكاسون، من أعلن استسلامه في معركة لقيمات لا تدوم سوى سويعات فليس جديرًا بأن يعيش عزة المتقين، وعلياء الشهداء والمجاهدين.

الله أكبر؛ لقد فرض الصيام لتمحيص التقوى، وليصبح المسلم صائمًا بقيامه بترك مطعمه ومشربه؛ قصده رضا محبوبه، قال تعالى في الحديث القدسي: «الصوم لي وأنا أجزي به»(٣).

هذا حال البطن وما حوى. فيا ترى ما بال الرأس وما وعى؟ من لم يدع قول الزور والعمل به كيف صام؟ وماذا اتقى؟ حظه من صيامه الجوع والعطش ونصيبه من قيامه السهر والنصب. أين التقوى في أسماعهم وأبصارهم؟ لغو ولهو وقيل وقال، وأصوات معازف، وصور ماجنة، وقصص خالعة. في النهار نوم في تقصير، وفي الليل سهر في غير طاعة، متبرمون

في أعمالهم، سيئون في معاملاتهم، ويتثاقلون في أداء مسؤولياتهم، نشاط في اللهو والسمر، وكسل في الجد والعبادة.

أيها الأحبة، شهركم شهر التقوى، شهركم موسم عظيم للمحاسبة، وميدان فسيح للمنافسة، تصفو فيه نفوس من داخلها، وتقترب فيه قلوب من خالقها. تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق أبواب النار، وتصفد الشياطين، وتكثر دواعي الخير وأسباب المثوبة.

رحمة ومغفرة وعتق من النار. فأقبلوا على الطاعة، وتزودوا من التقى، واستروحوا روائح الجنة، وتعرضوا للنفحات.

الصائمون المتقون لا يزالون في صلاة وصيام وتلاوة وذكر وصلة وإحسان وجدٍ وعملٍ. فاطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات ربكم، فخيركم من طال عمره وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وساء عمله.

أيها المتقون الصائمون، فتشوا عن المحتاجين من أقربائكم والمساكين من جيرانكم والغرباء من إخوانكم، لا تنسوا برهم وإسعادهم، أشركوهم معكم في رزق ربكم. اذكروا جوع الجائعين، ولوعة الملتاعين، وعبرات البائسين، وغربة المشردين ووحشة المهجرين.

اسألوا في شهر التقوى والمحاسبة: هل قام بحق التقوى من بات شبعان وحوله جائع يستطيع إشباعه فلم يفعل؟ وهل قام بحق الشهر من رأى نفسًا مؤمنة بائسة يستطيع إسعادها فلم يفعل؟!!

أيها المسلمون، صوموا حق الصيام لعلكم تتقون. ومن يتق الله يكن معه، ومن كان الله معه فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وإذا كان الله معك يا عبد الله فمن تخاف ؟! وإذا كان عليك فمن ترجو؟!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٣-١٨٥].

فاتقوا الله أيها الناس، فالشهور والأعوام والليالي والأيام مواقيت الأعمال ومقادير الآجال، تمر سريعًا، وتنقضي جميعًا. إنها أيام الله خلقها وأوجدها وخص بعضها بمزيد من الفضل، فما من يوم إلا ولله فيه على عباده وظيفة من وظائف طاعاته، ولطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بفضله ورحمته من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم. وإن بين أيديكم شهرًا عظيمًا، وأيامًا فاضلة ولياليَ شريفة، فأحسنوا فيها الوفادة وجدُّوا فيها بالعمل. فلم يكن سلفكم يستعدون لها بمزيد من الأكل والشرب، ولكن بالطاعة والعبادة والجود والسخاء، فهم مع ربهم عباد طائعون، ومع إخوانهم بررة محسنون، والأسوة في ذلك والإمام نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام فلقد كان أجود ما يكون في رمضان(٤)، ويجتهد فيه ما لا يجتهد في غيره، يحيي ليله ويوقظ أهله ويشد المئزر(٥)، ذلكم هو مسلك التقوى، وهذه مراسم الاستقبال فاعملوا وأحسنوا وأبشروا.

هوامش:

(١) صحيح، أخرجه البخاري: كتاب الإيمان - صوم رمضان احتساباً من الإيمان، حديث (٣٨)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الترغيب في قيام رمضان... حديث (٧٦٠) و (٢٢٠٣ - ٢٢٠٥).

(٢) صحيح، أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف - باب زيارة المرأة زوجها... حديث (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام - بيان أنه يستحب لمن رئي... حديث (٢١٧٤).

(٣) صحيح، أخرجه البخاري: كتاب الصوم - باب فضل الصوم، حديث (١٨٩٤)، ومسلم: كتاب الصيام - باب فضل الصيام، حديث (١١٥١).

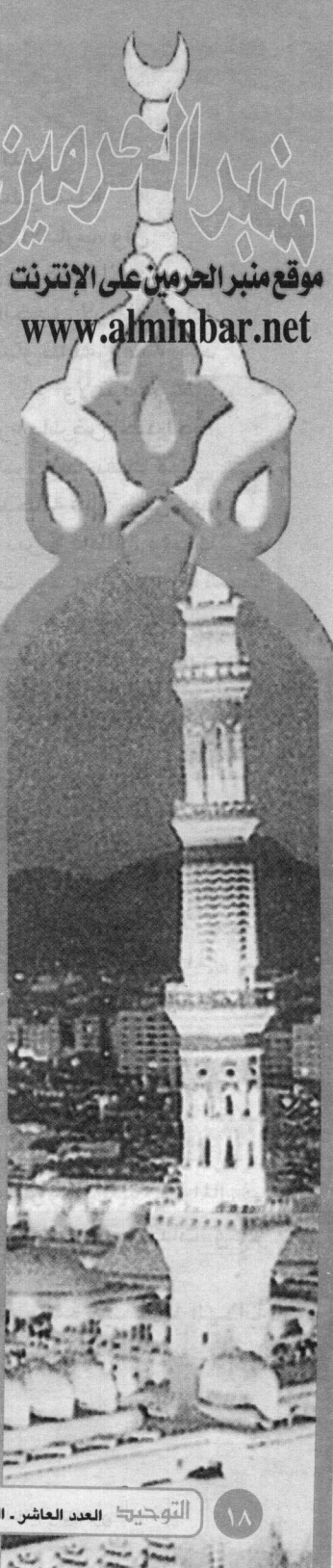
(٤) صحيح، أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي - باب بدء الوحي (٦)، ومسلم: كتاب الفضائل - باب كان النبي ﷺ أجود الناس (٢٣٠٨).

(٥) صحيح، أخرجه البخاري: كتاب صلاة التراويح - باب العمل في العشر الأواخر من رمضان، حديث (٢٠٢٤)، ومسلم: كتاب الاعتكاف - باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان، حديث (١١٧٤).

الإحسان بعد شهر القرآن

لفضيلة الشيخ / عبد المحسن القاسم
إمام المسجد النبوي

منبر الحرمين
موقع منبر الحرمين على الإنترنت
www.alminbar.net



أيها المسلمون، إن الشهورَ والليالي والأعوام مقاديرُ للآجال ومواقيتُ للأعمال، تنقضي حثيثاً وتمضي جميعاً، والموت يطوف بالليل والنهار، لا يؤخّر من حضرت ساعته وفرغت أيامه، والأيام خزائن حافظةٌ لأعمالكم، تُدعَون بها يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران:٣٠]، ينادي ربكم: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه» رواه مسلم.

لقد رحل شهركم بأعمالكم، وخُتم فيه على أفعالكم وأقوالكم، فمن كان مسيئاً فليبادر بالتوبة والحسنى قبل غلق الباب وطيِّ الكتاب، ومن كان في شهره إلى ربه منيباً وفي عمله مصيبا فليُحكم البناءَ ويشكر المنعمَ على النعماء، ولا يكن كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، وما أجملَ الطاعة تعقبها الطاعات، وما أبهى الحسنة تُجمع إليها الحسنات، وأكرِم بأعمال البر في ترادف الحلقات، إنها الباقيات الصالحات التي ندب الله إليها ورغّب فيها، وكونوا لقبول العمل أشدَّ اهتماماً منكم بالعمل، فالله لا يتقبل إلا من المتقين، وما أقبح فعل السيئة بعد الحسنة، ولئن كانت الحسنات يُذهبن السيئات فإن السيئات قد يحبطن الأعمال الصالحات.

أيها المسلمون، كنتم في شهر البر والخير، تصومون نهارَه، وتقومون ليلَه، وتتقرَّبون إلى ربكم بأنواع القربات طمَعاً في الثواب وخشيةً من العقاب، وقد رحلت تلك الأيام،

وكأنها ضربُ خيال، لقد قطعت بنا مرحلةً من حياتنا لن تعود، هذا هو شهركم، وهذه هي نهايته، كم من مستقبلٍ له لم يستكمله، وكم من مؤمّلٍ أن يعودَ إليه لم يدركه، وهكذا أيام العمر مراحلُ نقطعها يوماً بعد يوم في طريقنا إلى الدار الآخرة.

إن استدامةَ أمر الطاعة وامتدادَ زمانها زادُ الصالحين وتحقيق أمل المحسنين، وليس للطاعة زمنٌ محدود، ولا للعبادة أجل معدود، بل هي حقّ لله على العباد، يعمرون بها الأكوان على مرّ الأزمان، وشهر رمضان ميدانٌ لتنافس الصالحين وتسابق المحسنين، يعملون بأرواحهم إلى الفضائل، ويمنعون عنها الرذائل، ويجب أن تسير النفوس على نهج الهدى والرشاد بعد رمضان، فعبادة ربِّ العالمين ليست مقصورة على رمضان، وليس للعبد منتهى من العبادة دون الموت، وبئس القوم يعبدون الزمان لا يعرفون الله إلا في رمضان.

أيها المسلمون، إن للقبول والربح في هذا الشهر علاماتٍ، وللخسارة والردّ أمارات، وإن من علامة قبول الحسنة فعلَ الحسنة بعدها، ومن علامة السيئة السيئة بعدها، فأتبعوا الحسنات بالحسنات تكن علامةً على قبولها، وأتبعوا السيئاتِ بالحسنات تكن كفارة لها ووقايةً من خطرها، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]، ويقول عليه الصلاة والسلام: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنةَ تمحُها، وخالق الناسَ بخلق حسن» رواه الترمذي.

ومن عزم على العود إلى التفريط والتقصير بعد رمضان فالله حيّ لا يفنيه تداولُ الأزمان وتعاقب الأهلة، وهو يرضى عمن أطاعه في أي شهر كان، ويغضب على من عصاه في كلِّ وقت وآن، ومدار السعادة في طول العمر وحسن العمل، ومداومة المسلم على الطاعة من غير قصرٍ على زمان معيّن أو شهر مخصوص أو مكان فاضل من أعظم البراهين على القبول وحسن الاستقامة.

أيها المسلمون، إن انقضى موسمُ رمضان فإن الصيام لا يزال مشروعاً في غيره من الشهور، فقد سنَّ المصطفى صيام الاثنين والخميس، وقال: «إن الأعمال تعرض فيها على الله، وأحبُّ أن يُعرض عملي وأنا صائم»، وأوصى نبيُّنا محمد ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وقال: «صوم ثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر كله» متفق عليه.

وأتبعوا صيام رمضان بصيام ست من شوال، يقول عليه الصلاة والسلام: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر» رواه مسلم. ولئن انقضى قيام رمضان فإن قيام الليل مشروع في كل ليلة من ليالي السنة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كلَّ ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، و«أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»، والمغبون من انصرف عن طاعة الله، والمحروم من حُرم رحمةَ الله.

عباد الله، مع انغماس بعض الشباب في شهر الصيام في الشهوات والمنكرات، وتقلّبهم في المعاصي والسيئات، ترى فتيةً قد سلكوا طرقَ الخيرات، وسعوا للتزوّد من الباقيات الصالحات، لزموا الاعتكافَ في بيوت الله، وقطعوا العلائق عن الخلائق للاتصال بالخالق، جعلوا رضا الله فوقَ أهوائهم، وطاعتَه فوق رغباتهم،

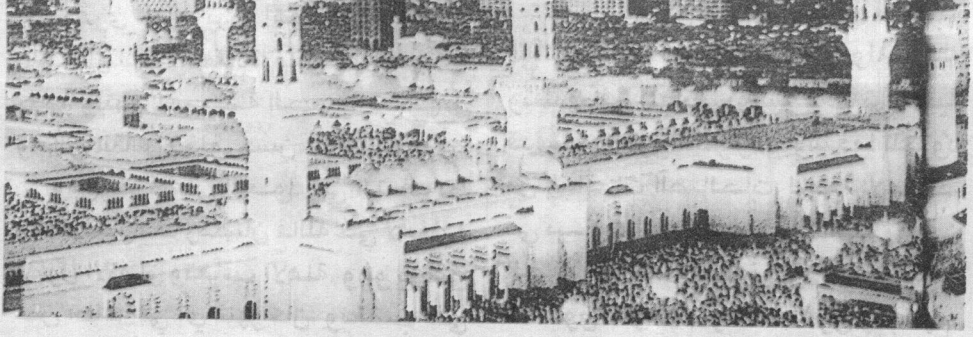
تراهم ما بين راكع وخاشع وساجد ودامع، يتلون كتاب ربهم، ويكثرون من ذكر خالقهم، بهم يُفتخر، وبمثلهم يُعتزّ، إنهم يعيدون الأملَ للأمة، والصلاح في أبناء الملة، فليُحذَ حذوهم في الاستقامة والنقاء، وليهنؤوا فهذا فعل النبلاء، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

أيها المسلمون، اتقوا الله فإن تقواه رأس الأمر كله، واعملوا بطاعته تفوزوا بمرضاته، واجتنبوا محارمه تنجوا من غضبه وعقابه، ولا تعودوا إلى الانغماس في معصيته، فإن الانغماس في المعاصي يوجب عذابَه، وقد ودّعتم موسماً مباركاً عظيماً من مواسم المتاجرة مع ربكم في الأعمال الصالحة، وامتنّ على أهل هذه القبلة بفيض رحمته ورضوانه، وأعتق رقاباً قد أرّقتها جرائر سيئاتها، فاستأثرت بالسعادة ونجت من الشقاوة، وهنيئاً لمن فاز بجائزة ربه، ويا ويح من عاد بالخيبة والندامة، وكأنكم بالأعمال قد انقضت، وبالدنيا قد مضت، فاستعدّوا بذخائر الأعمال لما تلقَون من عظيم الأهوال، وقد آن وقتُ التحويل إلى الوقوف بين يدي الملك الجليل، فأنفاسكم معدودة، وملك الموت قاصدٌ إليكم، يقطع آثاركم ويخرّب دياركم، فرحم الله عبداً نظر لنفسه وقدّم لغده من أمسه، فترحلْ من مواطن غيّك وهلاكك إلى مواطن رشدِك وسدادك، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين بزخارف الدنيا، ولا تستوحش من الحقّ لقلة السالكين.

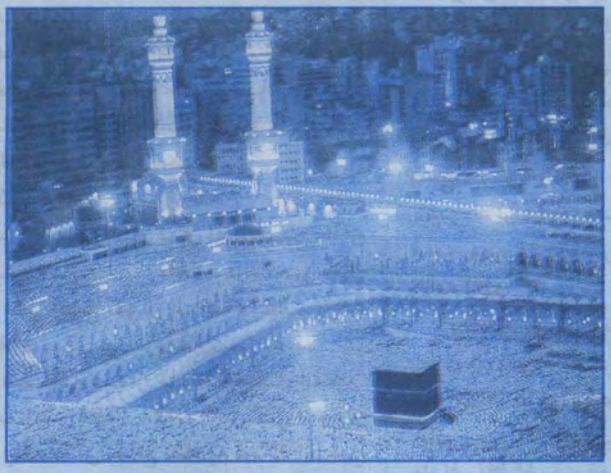
واشكروا ربكم على تمام فرضكم، وابتهجوا بعيدكم بالبقاء على العهد وإتباع الحسنة بالحسنة، وإياكم والمجاهرة في الأعياد بقبيح الفعال والآثام، فذلك ماحق للنعم، يقول أحد السلف: "كل يوم لا يُعصى الله فيه فهو عيد، وكل يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره وشكره فهو عيد".

والحمد لله رب العالمين



وقفات مع حجة النبي ﷺ

للشيخ / سعود الشريم
إمام وخطيب المسجد الحرام



أيّها المسلمون، حجاجَ بيت الله الحرام، الحجّ في الإسلام الأغرّ يُعدّ نقطةَ ارتكاز في ميدان التجرّد والإيثار والأخوة والمساواة، إضافةً إلى دقة أحكامه الشرعية ومسائله الفقهية كبابٍ من أبواب العبادات. وعامّة أهل العلم مطبقون على أنَّ النبي لم يحجَّ إلا مرة واحدة، وهي حجة الوداع المشهورة قبل وفاته بأشهر، غيرَ أنَّ أحادَ هذه الحجة وصورَها كانت وما تزال منهلاً للاعتبار ومنبَعاً للادّكار ومرتعاً خصباً لجمع الأوابد فيها ولقط النُّثار، المتمثّل كلّه في الدروس والعبر والمواقف الموقظة للضمير المسلم الحيّ المهيّا لفهم سيرة المصطفى واتّباعها حذوَ القذّة بالقذّة، مع اعتقادنا الجازم بأنَّ هذه الدروسَ والعبر برمّتها لا يمكن أن تُستوعَب في مجرّد خطبة واحدة أو كلمات عابرة، ولا جرَم فإنَّ حجته هي كالبحر من أي النواحي أتيتَه فإنما لجُتُه المعروفُ وساحلُه البرُّ والتقوى.



عباد الله، الرأفة والرحمةُ والحرص على راحة الغير وسلامته من الأذى أمرٌ منشود بين أهل الإسلام على وجه التاكيد، ولربما ازداد هذا التاكيدُ بوضوح إذا كان الالتقاء الأخوي يسوده جوٌّ من أجواء العبادات الروحية، وفي حجة النبي يُسمع التوجيه المبارك من النبي إلى الفاروق رضي الله عنه حينما وجّهه لتقبيل الحجر الأسود، ونهاه أن يزاحم الناسَ، فإن وجد فرجة وإلا فليستقبله ويكبّر ولا يزاحم كما روى ذلك الطبراني وغيره. [وقواه الألباني]

وفي هذا الموقفِ يتجلّى حرص النبي ودعوته لعموم المؤمنين بالتخلّق باللين والرحمة والرأفة والرفق، وأن لا يكونوا سبباً في الإيذاء أو المزاحمة أو التنغيص لأجواءِ العبادة التي لا تكتمل إلا بالطمأنينة والصفاء والبُعد عن كل ما من شأنه تكديرُها وتشويشها.

ومن ذلكم - عباد الله - المزاحمةُ والاقتتال في حال أداء بعض النسك في الحج، كتقبيل الحجر أو رمي الجمرات أو سدّ الطرقات في المساجد والممرات، دون مراعاة لأجواء السكينة في العبادة، أو احترام لشعور الآخرين وحقوقهم، والنبي يقول: «إنّ الرفقَ لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم.

وتحصيل الأجر في النسك - عباد الله - لا يبلغ الكمالَ إلا بالرفق واللين؛ لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، كما صحّ بذلكم الخبر عن النبي عند مسلم في صحيحه.

أيها المسلمون، في حجة الوداع المباركة يصعد النبي على الصفا فينظر إلى الكعبة ويستقبلها ثم يوحّد الله ويكبّره ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحدَه»، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه. لقد قال هذه الكلمات في أرض آمن وأمان، في زمن استقرّ فيه سلطانُه وغلبت فيه رسالته، وهو حينما يذكر اللهَ جل وعلا بهذه الألفاظ إبّان النسك فإنما هو بهذا يثير في النفس كوامنَ الإيمان بقوةِ الله وقدرته وأثر الاعتماد عليه وحده ونسبة القوة والغلبة له سبحانه دونَ سواه، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠].

إن النبيَّ حينما يكبّر اللهَ عند كلّ شوط في الطواف ويكبّر الله عند الصفا والمروة ويكبّر الله عند رمي الجمار ويكبّر الله في أيام التشريق ليبعث في النفوس شعورًا عميقاً واستحضاراً لقيمة ذكر الله وتكبيره في حياة المرء المسلم. وإن كلمة "الله أكبر" لهي رأسُ الذكر وعماده، وهي أوّل ما كلّف به النبي حين أمر بالإنذار: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:١-٣].

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، إنها لكلمةٌ عظيمة تحيي موات النفس الهامدة، لصوتها هديرٌ كهدير البحر المتلاطم أو هي أشدُّ وقعاً، بل إنها سلاحٌ فتاك في وجوه أعداء الملة ولصوص الأرض، وهي سيفُ الحروب الذي لا يُثلم، كيف لا! وقد ذكر النبي أن مدينة تفتتح في آخر الزمان بهذه الكلمة، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «فإذا جاءوها نزلوا - أي: المسلمون -، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحدُ جانبيها، ثمّ يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبُها الآخر، ثم يقولوا في الثالثة: لا إله إلا الله واللهُ أكبر، فيفرَّج لهم، فيدخلوها فيغنموا» الحديث. رواه مسلم.

وعلى صخرات الصفا والمروة - عباد الله - يذكر النبي نعمةَ ربّه عليه وعلى المؤمنين، ويحمده على أن ردّ كيد الأحزاب وحده ونصر عبده وأعزّ جنده، وذلك يوم الخندق الذي قال عنه الباري جل شأنه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً إِذْ جَاءوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَاً هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب:٩-١١].

إن الإيمانَ بقدرةِ الله وحدَه وقهره وغلبته هو الشعورُ الذي ينبغي أن يخامرَ قلوبَ المسلمين في كلّ حين وآن، لأن ذلك يثمر الإقدامَ والاعتمادَ عليه وحدَه، ويبعث في النفس خلقَ الشجاعة وعدم الاستخذاء لصروفِ الأيام وتكالب الأعداء وتحزّبهم ضدّ أمة الإسلام، وأنه لا ينبغي أن تكونَ الآذان رَجْعَ صدىً للذين يقولون: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، بل ينبغي أن يزيدَهم ذلك إيماناً مع إيمانهم وتعلقاً بالله ويقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ولا غروَ أنّ من يعتقد أنّ الأجل محدودٌ والرزق مكفول والأشياء بيد الله يقلّبها كيف يشاء فلن يرهبَ الموت والبلى، ولن يخشى الفقر والفاقة، مهما طقطقت أرجلُ الأعداء الحاقدين، بل سيكون حديثه [دائمًا] قولَ الله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا﴾ [التوبة:٥١]، أو قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢]، يعنون بذلك كسبَ المعركة بالنصر أو الموت دونَ الظفر بها وهو حسنٌ كذلك لأنه شهادة في سبيل الله، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص:٦٠].

أما الذين لا إيمانَ لهم بالله ولا بقضائه وقدره بل طغوا وبغوا وعتَوا عتوًّا كبيراً، فهؤلاء إن انتصروا أو انهزموا فهم بين عذابين: آجل أو عاجل: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢].

وأمثالُ هؤلاء سيحيَون بافئدة هواء، تلعب بهم

الأحداثُ والظنون، وتقف لهم أشباحُ الموت والمصائب عند كلّ أفق، بل هم: ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٦، ٥٧].

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، لما غربت شمسُ يوم عرفة، وذهبت الصُّفرة قليلاً حتى غاب القرصُ دفع النبي من عرفة، وقد شنق لناقته القصواء الزمامَ حتى لا تسرعَ وهو يقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينةَ السكينةَ، السكينةَ السكينةَ» [رواه مسلم].

إنَّ هذا الموقفَ الجليل الذي تتسابق فيه النفوس إلى الخير، وهي أينما حلت في عرصات المشاعر فهي في نسك ومع نسك ووسط نسك، غير أن الهدوءَ والطمأنينةَ والتأنيَ والسكينة وعدمَ الاستعجال هو الشعور الإيجابيّ المربّي، وهو الطريقة المباركة لكلّ نجاح أمثل. فالسكينة لا يعدِلها شيء، إذ العجلةُ هي داء المجتمعات، وهي الألغام الموقوتة التي لا تثمر إلا الأشلاءَ والدُّمار، بل هي من مقتضيات حظوظ النفس البغيضة والجهل بالعواقب وسوءِ المغبّة، وذلك لخروجها عن الإطار المشروع حتى في حال العبادة، يقول الباري سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١]، بل حتّى في أدقّ مواضع العبادة يقول النبي : «إن الله يستجيب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجَب لي» رواه البخاري ومسلم.

لقد جاء لفظُ العجلة في القرآن متصرّفا في سبعة وثلاثين موضعاً، كلها على سبيل الذم إلا موضعًا واحداً، وهو قوله جل شانه: ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:٢٠٣].

فالعجلةُ ـ عباد الله ـ من الخلال المذمومة في أعمال المرء العبادية والحياتية. والواجب على العاقل أن يلزمَ التأنيَ في الأمور كلها؛ لأنَّ الزيادةَ على المقدار في المبتغى عيبٌ كما أن النقصان فيما يجب من المطالب عجزٌ، ومن لم تصلحه الأناة فلن تنفعَه العجلة، بل تضرُّه، وصفاتُ العَجل أنه يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهَم، ويحمَد قبل أن يجرّب، ويذمّ بعدما يحمَد. المرءُ العجِل تصحبه الندامة، وتخذله السلامة، وقد كانتَ العربُ في القديم تكنّي العجلة أم الندامات، ففي العجلة الندامةُ، وفي التأني السلامة، ولقد صدق الله: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءايَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧].

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين وحجاج بيت الله الحرام، وخذوا من هدي نبيكم تفلحوا وتحسِنوا، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧].

فيا حجاج بيت الله الحرام، لقد تمثّل النبي في حجته بأعظم معاني التيسير والتسهيل والرحمة للعالمين والرأفة بالمؤمنين. ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً أشدّ الحرص على أمته بأن لا يكلّفهم ما لا يطيقون أو أن يفعلوا ما لا يستطيعون، ففي يوم العيد يوم الحجّ الأكبر ما سئل عن شيء قدِّم ولا أخِّر في ذلك اليوم إلا قال: «افعل ولا حرج»، فجاءه رجل وقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، قال: «اذبح ولا حرج»، وجاءه آخر فقال: لم أشعر فنحرتُ قبل أن أرمي، قال: «ارم ولا حرج»، فما سئل يومئذ عن شيء قدِّم ولا أخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج» حديث متفق على صحته، ويقول : «نحرتُ ها هنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف، ووقفتُ ها هنا وجمعٌ كلها موقف» رواه مسلم.

هذا هو ديننُه ، فلقد كان يأمر دعاتَه ورسلَه باليسر والتيسير، فقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا» رواه البخاري.

وهذا التيسيرُ منه هو فيما كان جاريًا وفق الشرع والعدل، لا وفق الأهواء والرغبات، إذ لو كان الأمرُ كذلك لما كان هناك تكليف أصلاً، لأن في التكليف نوعَ مشقة ونَصَب.

فالواجب على الناس بعامة أن يراعوا مثلَ ذلك، فلا يضيّقوا على أنفسهم فيما جعل الله لهم فيه سعَة، كما ينبغي أن لا يضيِّق المرءُ على نفسه في وقتٍ يخصّصه للطواف مثلاً فيزاحم ويشاغب، وقد جعل الله له فسحةً في الوقت ليتخيّر أيسرَه وأرفقه، وقولوا مثلَ ذلك في الهدي وفي الرمي ونحوهما.

كما أنَّه ينبغي للمفتين والمرشدين في الحجّ أن لا يعسِّروا على الناس بفتاوى لم يصحّ الدليل فيها، أو بفهم شخصيّ للمسألة دون دليل يجب الرجوع إليه، أو أنْ يتوسّعوا في فتاوى ليس لهم فيها سعَة، أو أن يستقلّ بعضُهم برأي أو فتيا تتعلّق بمصير كثير من الحجاج دون تروٍّ أو مراعاة لنصوص الشريعة، وبدون مشورةٍ عامة لأهل العلم، لا سيما في موسم الحج لئلا يحدث الخلل بين الحجيج، ويقعوا في التذبذب بين الفتاوى والآراء، فالمفتون مسئولون أمام الله عن فتاواهم، وقد قال النبي : «من أُفتي له بغير علم كان إثمه على من أفتاه» رواه أبو داود.

وإنَّ من الأخطاء المشهورة بين بعض المرشدين عدمَ التفريق بين الدم في ترك الواجب وبين التخيير في فدية الأذى أي: في ارتكاب محظور من محظورات الإحرام عدا الجماع، حيث يفتي بعضهم في الجميع بالدم، وهذا خطا بيّن، فإن الحاجّ إذا ارتكبَ محظوراً عدا الجماع فإنه مخيّر بين أن يذبح شاةً أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين بنصّ حديث النبي . وأما إيجابُ الدم استقلالاً فإنما هو في حق من ترك واجباً من واجبات الحج كترك المبيت بمنى أو ترك رمي الجمار ونحو ذلك كما قرره جمهور أهل العلم.

تقبل الله من الحجاج حجَّهم، ويسّر نسكهم.

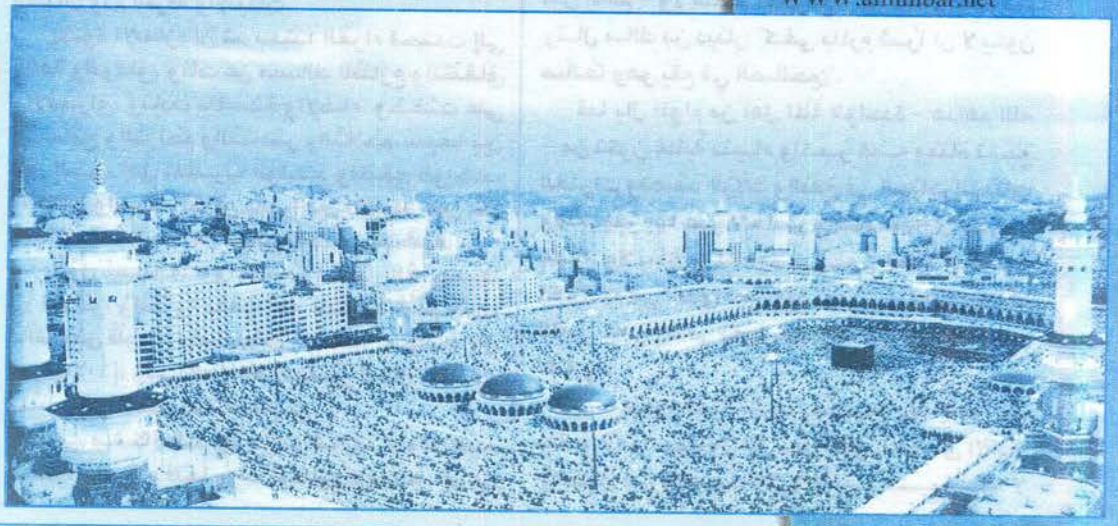
حاجة الأمة إلى الوحدة والتواصي بالحق

لفضيلة الشيخ / عبد الرحمن السديس
إمام وخطيب المسجد الحرام

■■ الحمدُ لله الواحدِ الخلاّق، أمرَنا بالتّآلفِ والوِفاق، ونَهانا عن سُبُل التفرّق والشّقاق، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَمـلأ النفوسَ مِن الخشيةِ والإشفاق، وأصلّي وأسلّم على نبيّنا محمّد بن عبد الله صلاةً وسلامًا تامّين كاملين ما تعاقب أُفول وإشراق، وعلى آله وصحبِه أئمّة الهدَى باتّفاق، ومَن تبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ التّلاق.

أمّا بعد: فأوصيكم - عبادَ الله - ونفسي بتقوَى اللهِ عزّ وجلّ، فإنّ التّقوَى هي الحَبلُ الأقوَى للفوزِ بجنّة المَأوَى، تربِط على القلوب ساعةَ الفتَن، وتُنير الدروبَ أوقاتَ الأزَمات والمِحَن. مَن غمرتِ التّقوى قلبَه سلِمت طويّتُه من الضّغَن، وهُدِي إلى خيرِ سبيلٍ وأقوَم سَنَن. ■■

موقع منبر الحرمين على الإنترنت
WWW.alminbar.net



Upload by: altawhedmag.com

أيّها المسلمون، لا يجد النّاظر في تاريخ أمّتنا عناءً في الوقوفِ على تميُّز حضارتها وتحقُّق قيادتها وسيادتها وريادتها على العالَم بأسره رَدحًا من الدّهر وأحقابًا من الزمان، ومَردُّ تلك الغَلَبة وهذا العلُوّ إلى الاعتصام بالوحيَين الشّريفَين ولزوم قاعدةِ الوَحدة والائتلاف ونَبذ الفُرقة والاختلاف، تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢].

كما لا يلقى المتأمّل في وضعها الراهن عَناء في القول: إنّ أمّتنا أظلّها زمان حالِكٌ بالغوائل والمدلهمّات، تتناوشها نِصال أعداءٍ ألدّاء، وترمقُها مُقَلٌ حاسِدة وأحداق حاقِدة أضمَرَتِ الكيدَ والعداء، مع ما تعانيه من شتاتٍ ذاتيّ ونفور داخليّ وصراع بينيّ وفهم آحاديّ لكثير من القضايا وطُفُوّ أفكارٍ منحَرفة هدّامة وظهور فئام مرقت عن صفّ الملّة والجماعة، فلم يزد ذلك في جسَد الأمّة إلاّ أوصابًا وتفريقًا وجروحًا وتمزيقًا.

ولله سبحانه في ذلك كلّه الحكمة البالغةُ كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. وكم للمِحن والأزماتِ من شأنٍ عريض في صقل الأمَم ورُقيّها، ولكن كلّ يوم يمضي من حياةِ الأمّة لا تشخّص فيه عِللَها ولا تأخُذ فيه بأسباب النهوض من كبوتها لَيؤخّرها أمدًا بعيدًا ويزيدُ من تمكُّن اليأس والقنوط لدى كثيرٍ من الشرائح والأوساط في جَدوَى تماثُلها للشّفاء واستئنافِ تسنُّمها لذُرَى العلياء.

أمّة الإسلام، وتلك وقفة تذكيرٍ لتثبيتِ أهمّ المعالم على جَنَبات طريقِ النّهضة الواعِية التي ينبغي أن ينتهجَها أهلُ الحقّ، بيانًا للآسي وتذكرةً للنّاسي وتعليمًا للجاهِل وتنبيهًا للذّاهل وإسهامًا في لمّ الشتاتِ ونبذ الفُرقة والانبتات.

إخوةَ الإيمان، إنّ شريعتَنا الغرّاءَ قصَدت إلى الألفةِ والوِفاق، ونأت عن مسالكِ التّنازع والشّقاق والافتراق، ونادَت بالمحبّة والإخاء، وحَضّت على التّسامُح والتّراحُم والتّناصُر والتّلاحُم، سيما بين أهلِ الحقّ، أهلِ المشرَب الواحدِ والمنهَج الواحد، والكتابُ والسنّة زاخران بالبراهين المشرقةِ على تلك الصفاتِ المتوهّجة بكلّ معاني الغاياتِ السامية.

يقول سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وفي ذلك امتنانٌ بتغيير الحالِ المتشتّت الشّنيع إلى الحالِ المنتظِم البَديع.

ومن مشكاةِ النبوّة وإشراقاتها قولُه عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاريّ ومسلم: «إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلسًا يومَ القيامة أحاسِنَكم أخلاقًا، الموطّئون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون».

أمّة القرآن والسنّة، مَن كتمَ داءَه أسهَده وأضناه وأضجَره وعنّاه، وإنّ من الأدواء التي ينبغي أن تُشخّصَ في عُنفوان الأسَى واللّوعةِ ما هو كائنٌ من وَحشة وتنافُر وجفاءٍ وتدابُر بلغ حدّ التجريح والتّحذير والتسفيهِ والتّشهير من قِبَل أهلِ الملّة بَعضِهم بعضًا، ممّن سلكَ سبيلَ الحقّ عقيدةً وعبادة وسلوكًا، وممّن ينتسِبون إلى الخيرِ والدّعوة والغيرةِ على الحُرُمات، الحريصين على سلامةِ الأمّة من التعثُّر والانزلاق، الوَجِلين على وَحدة الصفّ من التصدُّع والانشقاق.

وإنّ من المصائبِ الفادِحة أن يتطاولَ بعض أهلِ الملّة الواحدةِ على مقاماتِ إخوانهم من العلماءِ الأجلاّء والدّعاة النُّبلاء، حطًّا من أقدارهم ووقيعةً في أعراضِهم وإيضاعًا خِلالَهم ونزعًا للثقة والمرجعيّة منهم.

وإنّ الرّزيّة لتعظُم حين يكون ذلك على قصدِ الازدراء والتّعيير والثّلب والتّشهير عبرَ قنواتٍ سيّارة من صُحفٍ ومجلات وفضائيّات وشبكاتِ معلومات، يقول ﷺ محذّرًا ومتوعّدًا: «يا معشرَ من آمن بلسانِه ولم يدخل الإيمان قلبَه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عَوراتِهم، فإنّه من تتبّع عوراتِهم تتبّع الله عورتَه، ومن تتبّع الله عورتَه فضحه ولَو في جوفِ بيتِه» أخرجه أحمد وأبو داود والترمذيّ، وقال الإمام أحمد رحمه الله: "الوقيعةُ في أهلِ العلم - ولا سيّما أكابرهم - من كبائر الذنوب"، وقال مالك بن دينار: "كفى بالمرءِ شرًّا أن لا يكونَ صالحًا وهو يقَع في الصالحين".

فما بال أقوامٍ من أهلِ الملّة الواحِدة - هداهم الله - من تكون غايةُ دنياه وأكبرُ همّه ومُناه تتبّعَ العثراتِ وتصيُّدَ الزّلاّت والنّفخَ في الهنَاتِ الهيّنات والتشهيرَ بها عبرَ المجالس والمنتديات؟! لا يفتؤون هَمزًا، ولا ينفكّون لمزًا، ولا يبرَحون غمزًا. يطعَنون إخوانَهم في الخواصِر، ويصوّبون سهامَهم تلقاءَ القفى. إذا رأَوك في نعمةٍ حسَدوك، وإن توارَيتَ عنهم اغتابوك.

إن يسمَعوا هَفوةً طاروا بها فرحًا وما علِموا من صالحٍ كتَموا، يعمَلون ليلَ نهارَ على الحطّ من الأقدار والنّيلِ من الكفاءات والأصفياء. لا

Upload by: altawhedmag.com

يلتمسون المعاذير، ويسعَون لإسقاطِ أهل الفضل والمشاهير، يبثّون عنهم الشائعات، ويختلقون ضدَّهم الوشايات، زاعمين بيانَ الحقِّ والإصلاح، والواقعُ أنّهم مثلُ الذّباب يراعي موضعَ العِلَل.

وعلى إثرِ تلك الأوهام والهفواتِ التي تقبَل التأويلَ والاغتفار في غَزيرِ الحَسَنات يكون الولاء والبراء والهجرُ والجفاءُ والودّ والعداء، عبرَ التصنيف والتعصُّب والتحيُّز والتحزّب.

ويُشغَل بذلك طلبةُ العلم المبتدئون والمثقّفون والمصلحون بلهَ العوامّ، ويَتلقّفُها في كلّ الأصقاع الشانئون والمغرضون، وتهدر ملكاتٌ وأوقات بين رادٍّ ومردودٍ عليه، وتُعقد المجالس فريًا في الأعراض بكلماتٍ جارحة وعبارات مسفّة قاسيةٍ وقذائفَ كأنّها شواظٌ من نار، تشي بسوءِ الدَّخلة والمأرب، ضاربةً بعفّة اللّسان نزاهةُ النفس كلَّ مضرَب، كان الأولى فيها صرفَها شطرَ الفِرقِ المنحرفة المناوئة لأهل الإسلام الساعيةِ في تقويض أمنها وخلخلة صفّها، وإنّي أعيذ الأصفياءَ وطلّابَ الخير وشداته أن يتشبّهوا بصفة فرقة ضالّة حذّرنا منها المعصومُ فيما أخرجَه أحمد والشّيخان: «قومٌ يقرؤون القرآنَ، لا يجاوز حناجرَهم، يمرقون من الإسلام كما يمرُق السّهم من الرميّة، يقتلون أهلَ الإسلام ويَدَعون أهلَ الأوثان».

المسلم يستر وينصح والمنافق يهتك ويفضح هذا في حق آحاد المسلمين فكيف إذا كان من أنصار السنة ودعاتها.

ومن الومَضات اللّطيفة للقاضي إياس بن معاوية الذي صارَ مثلاً في الفِطنة والذّكاء ما أوردَه الحافظ ابن كثير رحمه الله عن سفيان بن حسين قال: ذكرتُ رجلاً بسوءٍ عندَ إياس بن معاوية، فنظر في وجهي وقال: أغزوتَ الروم؟! قلت: لا، قال: السّندَ والهند والتّرك؟! قلتُ: لا، قال: أفسلِم منك الرومُ والسّند والهندُ والتّرك ولم يسلَم منك أخوك المسلم؟! قال: فلم أعُد بعدَها أبدًا. وقال ابن سيرين رحمه الله: "ظلمُك لأخيك أن تذكرَ منه أسوأ ما تعلَم وتكتُمَ خيرَه". وقال ابن المبارك: "المؤمن يلتمس المعاذيرَ، والمنافق يتتبّع الزّلّات". وقال آخر: "المسلم يستُر وينصَح، والمنافق يهتك ويفضَح". هذا في حقّ آحاد المسلمين وعوامّهم، فكيف إذا كان من أنصار السنة ودعاتها أهل العلم والفضل والخير والسّبق والدعوة وقضى سَحابةَ عمره عالمًا محقّقًا أو داعيًا متألّقًا أو كان من ذوي الهيئات والمروآت؟! فإنّ إمساكَ اللّسان عنهم وصونَهم عن الرّشَق والتوهين آكدُ وأوجب، وفي ستر الزّلّة وسدّ البادرة والخَلّة ما وَرَد عن عمَر رضي الله عنه أنّه قال: (لا تظنّنّ بكلمة صدرَت من أخيكَ سوءًا وأنتَ تجد لها في الخير محمَلاً). وعن سعيد بن المسيّب رحمه الله قال: "ليسَ من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلاّ وفيه عَيب، ولكن مَن كان فضلُه أكثرَ من نقصِه ذهبَ نقصُه لفضلِه".

ومن الكلام الذهبيّ للإمام الذهبيّ في ترجمة الحافظ محمد بن نصر قوله رحمه الله: "ولو أنّا كلّما أخطأ إمامٌ في اجتهادِه في آحادِ المسائل خطأً مغفورًا له قمنا عليه وبدّعناه وهجرناه لَما سلِم معنا ابن نصر ولا ابن مَنده، ولا مَن هو أكبر منهما، والله هو هاديَ الخَلق إلى الحقّ، وهو أرحمُ الرّاحمين، فنعوذ بالله من الهوَى والفَظاظة".

وهُنا صرخةُ تحذيرٍ وتنبيهٍ وتنذيرٍ لأهل الإسلام أن كفانا جفاءً واختلافًا، وحيْهلاً اعتصامًا وتجرُّدًا وائتلافًا، ماذا دهَانا؟! عجيبٌ أمرُنا ذا الزّمانا،

مرادُ النّفوس أعلى من أن نتعادَى فيه أو نتفانَى لوسائل الإعلام المؤتمَنة على الأفكار والأقلام أن تتّقيَ الله في صدقِ الكلمة وانتقاء النشر وعُمق الطّرح، فليسَ كلّ مَن خطّ سوادًا في بياض نُشر له، فوضَع وخبَّ في أعراض الفضلاء والعُلماء والنّبلاء، وليس هو من طرازهم ولا من علمِهم في قبيل ولا دبير، حتّى غدَا الثّلب والسّلب مركبًا وطيئًا وسَابلةً لمن تعرف وتُنكر.

ألا كلاّ ثمّ كلاّ للتّعقّبات والرّدود الرّعناء التي تثيرُ كوامنَ النّفوس والشّحناء، وتوري زنادَ الكوامن والبغضاء، ورحِم الله امرأً عرَف قدرَ العلماءِ وقدرَ نفسِه، وتابَ ممّا خطّته يده في طرسِه، ولْيَكِل شأنَ النّقد والتّقويم إلى مَن رسَخت في العِلم أقدامُهم، وأتقَنوا ضوابطَ النّقد والحِوار، وقاموا على آداب الخلاف وقواعدِه خيرَ قيام، وهَل يملِك ميزانَ الاعتدال في نقدِ المنهَج والرّجال إلاّ العلماء الأفذاذُ الذين تُنَاخُ بعلمِهم الرّحال وتُحدَى بهم المطايا والآمال؟! يقول الإمام الذهبيّ: "الكلامُ في العلماء مفتقِر إلى العدلِ والورَع، ألا ما أحوجَه في زمنِنا هذا إلى لجانٍ متخصّصةٍ وهيئاتٍ عاليَة.

أيّها المسلمون، إنّ السّاحة العلميّة والحلائبَ الدعويّة والمجالسَ والمنتدياتِ المعرفيّة والحواريّة ووَحدةَ الأمة المفكّكة لا يزالان في ظَمَا هائل لترسيخ حقائق التآخي الوَريف والتناصُح الشفيف المرتكزين على الصّدقِ والإنصافِ والتواضُع والحِرص على إظهار الحقّ دونَ زُخرفٍ في القول مموّه، أو باطنٍ بالحسَد مشوّه، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨].

ومن الرّوائع الكثيرةِ في أدب أسلافِنا عندَ

Upload by: altawhedmag.com

الاختلاف وحِفاظِهم على المودّة والصّفاءِ والإذعان للحقّ حيث استبانَ ما أوردَه الذهبيّ عن الحافظِ أبي موسَى الصّدَفي أنّه قال: ما رأيتُ أعقلَ من الشافعيّ، ناظرتُه يومًا في مسألةٍ ثمّ افترقنا، ولقيَني فأخذَ بيدي - تأمّلوا يا رَعاكم الله، ألا ما أزكاه من أدَب - ثمّ قال: يا أبَا موسى، ألا يستقيمُ أن نكونَ إخوانًا وإن لم نتّفِق في مسألة؟!، علّق الذهبيّ قائلاً: "هذا يدلّ على كمالِ عَقل هذا الإمام وفِقهِ نفسِه، فما زال النُظراء يختلفونَ" انتهى كلامه رحمه الله.

ألا مَا أحوجَنا إلى مثل هذه الأفهام والعقول، وذاك السّمت والهَدي، وتلك المنهجيّة والإصابة، لا كثرة الهَذر والاسترسالِ في الطّعون، وليسَ العهد ببعيدٍ عن سيرةِ أئمّتنا وعلمائنا، رحِمَ الله أمواتَهم ووفّق أحيَاءَهم.

فيا أهلَ السنّة الميامين، حنانيكم ببعضكم حنانَيكم، ولُطفًا لطفًا بإخوانِكم، ورفقًا رفقًا بالعلماءِ والدّعاة وأهلِ الخيرِ والصّلاح والإصلاح، والقصدَ القصدَ تبلُغوا، فإنّ المنبتّ لا أرضًا قطع، ولا ظَهرًا أبقى. ورحِم الله امرءًا أنصَفَ من نفسِه فبادر باتّهامها، وأنصف إخوانَه فحفِظ ودَّهم، وأحبَّ الخيرَ والإصابةَ لَهم، ولم يُعِن الشيطانَ عليهم.

إنّ مِن النّبل والشّجاعة مواجهةَ إخوانِك بأخطائِهم إن خَصلت، وإنّ من اللّؤم والخِسّة والدّناءةِ الطّعونَ الخلفيّة وبثّ الكوامنِ النفسيّة وتغليبَ النظراتِ الحزبيّة والاحتكامَ إليها في تقويمِ أهلِ الفضل، فلا يعرِف الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلاّ ذووه، وليَكُن ملءَ دواخِلِكم وشغلَ جوارِحِكم قولُ الحقّ سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩].

وحيّهلاً بالنّقدِ العلميّ البنّاء والحوارِ المؤصّل النّزيه، ولكن مِن المؤهّلين والأكفاء، حوارِ هادفٍ ونصحِ بنّاء، تحفّه مشاعرِ الودّ وترفُّه نسائمُ الإنصاف، قد خلِيَ من الهوَى والعصبيّة، وعَريَ عن التّصنيف والحزبيّة، وساعتئذ ستكتالُ لكم أمّتُكم جزيلَ الدعاءِ والثّناء، والله وحدَه المستعان، وهو القائل سبحانه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

بارك الله لي ولكم في القرآنِ والسنّة، ونفعَني بما فيهما من الآياتِ والحِكمة، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيمَ الجليل لي ولكم ولوالديّ ووالديكم ولجميع المسلمين والمسلمات، من جميع الذنوب والخطيئات، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنّه هو التوّاب الرحيم.

فاتّقوا اللهَ عبادَ الله، وليكُن منكم بحسبانٍ لا يَريب أنّ أمّتكم الإسلاميّة لفي أشدّ ما تكون حاجةً إلى التّواصي بالحقّ والتّجرُّد والتّوافُر على الكلمةِ الطيّبة البنّاءة التي تشعّ منها الخشيةُ والتقوَى وإحسانُ الظنّ بالبُرآء الأتقياء والالتفاف حولَ الولاةِ والعلماء وتأكيدُ المواثيق والعُرى في عمقِ مصداقيّتهم ومكينِ مرجعيّتهم، مع الترصُّد صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص ضدّ التيّارات الجارفة والأفكار المسمومة القاتلة التي لا تزال عقابيلها تؤرّق النفوسَ وتزعزع أمنَ المجتمع.

وإنّ من العارِ والحماقة أن ينشغلَ الأخ بأخيه والعدوّ يتفرّج من حولِهم، وليس هذا - وايم الله - لخطأ إقرارًا أو على باطلٍ إصرارًا، ولكنّه عين الحكمة وتحقيقِ المصالح للأمة ودرء المفاسد عنها.

أيّها الأحبّة في الله، علينا جميعًا أن نتنادى - الدعاةُ والعلماء، أهلُ الحسبة والأدباء، أربابُ الفكرِ والأقلام والثقافة والإعلام - إلى الشّعور بروحِ الجسَد الواحد الذي إن اشتكَى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسَد بالسّهر والحمّى، حمايةً لسفينةِ المجتمع من الإغراق بأيدي أقوامٍ سفهت أحلامُهم وارتكَست في حمأة التّبديع التّفسيق والتّكفير أقدامُهم، بل تعدّى الأمر إلى حمل السّلاح والتّفجير وسفك الدّماء والتّدمير، فسفينةُ الأمّة كلّها لا ترسو إلاّ على جوديّ الأمنِ والإيمان في منأى عن مِطرقةِ الجَهل وسِندان الهَوى.

فيا ساهيًا قد غرّه الجهلُ والهوى
صريعَ الأماني عمّا قريبٍ ستندمُ
أفِق قبل أن يأتيَ اليوم الذي ليس
بعده سوى جنّةٍ أو حرّ نار تضرّمُ

وهيهاتَ أن تجنيَ بعض الأقلام ثمرًا يانعًا في علقم النّيل من ثوابت الأمّة أو التمرّغ في [أوحال] الوقيعة برُموزها تحتَ أيّ دعوًى عريضة.

عبادَ الله، الدّعوةُ موجّهة من منبر المسجدِ الحرام حِفاظًا على الأمّة وأمنِ المجتمع إلى الفارّين من وجهِ العدالةِ والمطلوبين أمنيًا أن يبادروا إلى تسليم أنفسِهم ليحكمَ فيهم شرعُ الله المطهّر وحكمُه العادل، وفي ذلك تحقيقُ الخيرِ لهم ولأُسَرهم ومجتمَعهم وبلادِهم في العاجل والآجل، وأيّما مسلمٍ في كلّ مكان تلقّى ما أنيط به من أمانةٍ ومسؤوليّةً بعزم وصدق وبصيرةٍ نافذةٍ فلن تعجزَه الأوهامُ عن الوصول إلى الحقّ والحقيقة، ولن يثنيَه الديجور عن مواصلةِ طريقِ التقدّم والعبور، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواءِ السّبيل.

والحمد لله رب العالمين

Upload by: altawhedmag.com

أثر الطاعات في جلب البركات

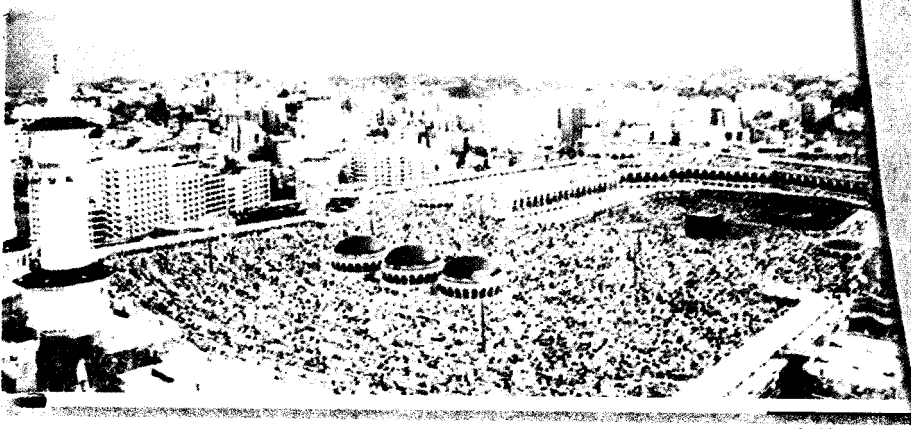
لفضيلة الشيخ: عبد المحسن القاسم
إمام المسجد النبوي

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيما لشانه، وأشهد أنّ نبيّنا محمّدا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلّم تسليما مزيدا.

أمّا بعد: فاتّقوا الله- عبادَ الله- حقّ التقوى، فتقوى الله نورُ البصائر، وبها تحيى القلوبُ والضمائر.

أيّها المسلمون، يسعَى الخلائقُ في هذه الحياة بألوان من الأعمال شتّى، يضمَحلّ منها ما كان في معصية الله وسخَطه، ويزكو ما كان في مرضات الله وطاعته، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

وكلُّ شيء لا يكونُ لله فبركتُه منزوعة، والربُّ هو الذي يُبارك وحدَه، والبركةُ كلُّها منه، وهو سبحانه تبارك في ذاته، ويبارك فيمن شاء من خلقه.



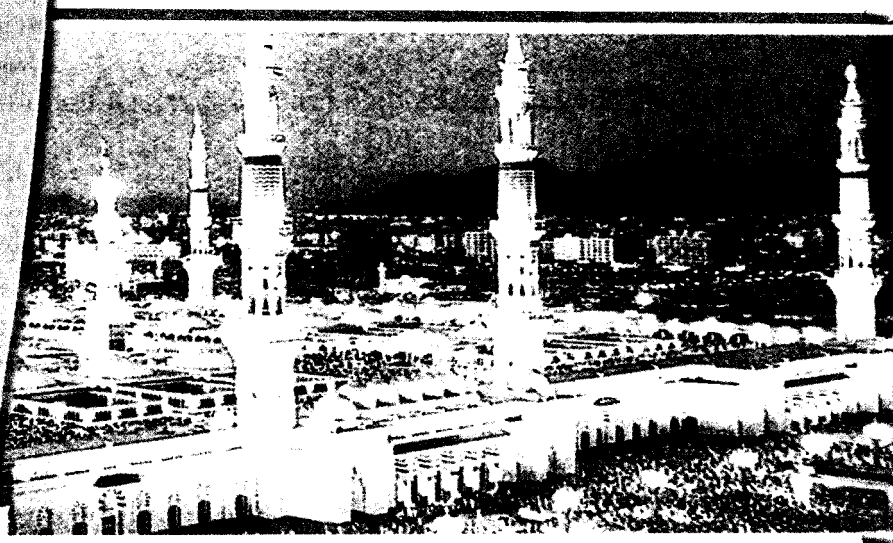
قال جلّ وعلا: ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف:٨٥]، وكلُّ ما نُسِب إليه فهو مبارك، واسمه تعالى مبارك تُنال معه البركة، قال عزّ وجلّ: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:٧٨].

والله جلّ وعلا برحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعِف البركات، وليستَ سَعةُ الرّزق والعملِ بكثرته، ولا زيادةُ العمر بتعاقُب الشهور والأعوام، ولكن سعةُ الرزقِ والعمُر بالبركة فيه.

بالعمَلِ المبارَك يُكتسَب الذّكر الجميل في الحياة، وجزيلُ الثوابِ في الآخرة، فيه طهارةُ القلبِ وزكاةُ النفس وعليُّ الخلُق.

والبركةُ ما كانت في قليلٍ إلاَّ كثَّرته، ولا في كثير إلا نفَعَته، ولا غِنَى لأحدٍ عن بركةِ الله، حتى الأنبياء والرسل يطلبونها من خالقِهم، يقول النبيّ ﷺ: «بينما أيّوبُ يغتسِل عرياناً، فخرَّ عليه جرادٌ من ذهَب، فجعل أيّوب يحتسي في ثوبه، فناداه ربّه: يا أيّوب، ألم أكن أغنيتُك عمّا ترى؟! قال: بلى وعزّتِك، ولكن لا غِنى بي عن بركتك» رواه البخاري.

والرسُل والدعاةُ مبارَكون بأعمالهم الصّالحةِ ودعوتهم إلى الخيرِ والهدى، قال عيسَى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم:٣١] .ونوحٌ عليه السّلام أُغدِق ببركاتٍ من الله: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ [هود:٤٨]، ودعا نوحٌ عليه السلام ربَّه بالمنزلِ المبارَك: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ [المؤمنين:٢٩] .وألقَى الله البركةَ على إبراهيمَ وآله، قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ [الصافات:١١٢، ١١٣]، وبارَك فيه وفي أهل بيته، قال عزّ وجلّ: ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود:٧٣]، قال ابن القيم رحمه الله: «هذا البيتُ المبارَك المطهَّر أشرفُ بيوت العالم على الإطلاق، فلم يأتِ بعدَ إبراهيمَ نبيٌّ إلاَّ من أهل بيتِه، وكلُّ من دخل الجنّةَ من أولياء الله بعدَهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوَتهم». ودعا نبيّنا ربَّه بالبركة في العطاء في قوله عليه الصلاة والسلام: «وبارِك لي فيما أعطيتَ» رواه الترمذي.



□□ كلُّ شيءٍ لا يكونُ لله فبركتُه منزوعة، والربُّ هو الذي يُبارك وحدَه، والبركةُ كلُّها منه، وهو سبحانه تباركَ في ذاته، ويبارك فيمن شاء من خلقه.

■■ لحرص الإسلام على الأسرة وحلول البركة فيها وعليها من أول نشأتها شرع الدعاء للزوجين بالبركة عند النكاح.

□□ البركة يتحرّاها العبدُ في مأكله في يومه وليلته، فالطعام المبارَك ما أكلته مما يليك، وتجنبت الأكلَ من وسط الصحفة، وذكرت اسم الله عليه.

■■ إذا أظهر العبادُ ذنوباً تتابعت عليهم المصيبات وكلما قلت المعاصي في الأرض ظهرت فيها آثار البركة من الله.

وتحيّة المسلمين بينهم عند اللّقاء طلبُ السّلام والرحمة والبركة.

أيّها المسلمون، القرآنُ العظيم كثيرُ الخيراتِ واسع المبرّات، كتابٌ مباركٌ محكَم، فصلٌ مهيمِن، أنزله الله رحمة وشفاءً وبيانًا وهُدى، قال سبحانه: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء:٥٠]. وسورةُ البقرة سورة مباركة، مأمورٌ بتعلّمها، قال عليه الصلاة والسلام: «تعلّموا سورةَ البقرةِ، فإنّ أخذَها بركَة، وتركَها حَسرة، ولا تستطيعها البطَلَة» أي: السّحرة. رواه أحمد.

وسَعة الرّزق وبركةُ العمُر في صلةِ الرحِم، يقول المصطفى: «مَن أحبّ أن يُبسَط له في رزقه وينسَأ له أثره فليصِل رحمه» رواه البخاري.

والصادقُ في البيع والشراءِ والمعاملات مباركٌ له في الكَسب، مترادفٌ عليه الخير، يقول النبي: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرّقا، فإن صدَقا وبيّنا بُورك لهما في بيعِهما، وإن كذبا وكتَما مُحِقت بركة بيعِهما» متفق عليه.

و الإسلام على الأسرةِ وحلولِ البركة فيها وعليها مِن أوّل نشأتها شُرع الدّعاء للزوجين بالبركة عند النكاح، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبيّ إذا رفّأ الإنسانَ إذا تزوّج قال له: «بارَك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير» رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وأوفرُ الزوجاتِ بركةً ما قلّت المؤونة في نكاحها، والزواجُ السعيد ما صاحبه اليسرُ والتسهيلُ، يقول المصطفى: «أعظمُ النّساء بركةً أيسرُهنّ مؤونة» رواه أحمد.

والزوجةُ المباركة هي المطيعةُ لله القائمة بحقوق زوجها في غير معصيةِ الله. والولدُ المبارك هو الناشئ على طاعة ربّه، المستمسِك بسنّة نبيه عليه الصلاة والسلام، الصائنُ لنفسِه عن الذنوب والعِصيان.

وإذا دَخل ربُّ الأسرةِ دارَه شُرع إفشاءُ السلام على أهله رجاءَ البركة، يقول أنس رضي الله عنه: قال لي رسول الله: «يا بنيّ، إذا دخلتَ على أهلك فسلّم، تكُن بركةً عليك وعلى أهل بيتك» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

والرجلُ المبارَك هو الذي ينتفَع به حيثُما حلّ، وإذا قرُب العبد من ربّه بورِك في وقته وعمِل أعمالاً كثيرةً في زمنٍ يسير. أبو بكر الصديق رضي الله عنه قبل صلاة الفجر عاد مريضًا وتبِع جنازةً وأطعَم مسكينًا وأصبح صائمًا، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله: «من أصبَح منكم اليومَ صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن تبِع منكم اليومَ جنازَة؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمَن أطعمَ منكم اليومَ مسكينًا؟» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمَن عاد مِنكم اليومَ مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله: «ما اجتَمَعت في امرئ إلا دخل الجنة» رواه مسلم.

وخير الصُّحبةِ صُحبةُ الصالحين، وأزكى المجالس مجالسُ الذّكر، تحضرُها الملائكة، ويُغفَر لجليسها، «فتقول الملائكة لربّها: فيهم فلانٌ ليس مِنهم، وإنما جاء لحاجةٍ، قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسهم» متفق عليه. فهذا من بركَتهم على نفوسهم وعلى جليسهم.

والمالُ المبارَك ما كثُر خيرُه وتعدّدَت منافعه وبُذِل في طُرقِ البرّ والإحسان ابتغاءَ مرضاته، ومن قنع بربح حلال قليل وتحرّى الصدقَ في معاملاته ظهرتِ البركة في ماله وفي أولاده، قال النبيّ: «من أخذه بحقّه ووضعه في حقّه فنِعمَ المعونة» رواه البخاري.

وسرورُ الدنيا وبهجةُ زينتِها لا تتمّ إلا بكسبٍ حلال، والمالُ يكثُر عددُه بالبذلِ والعطاء في الخيرات، قال المصطفى: «ما نقصَت صدقةٌ مِن مال» رواه مسلم. وقالَ عليه الصلاة والسلام: «أنفِق ينفَق عليك» رواه البخاري. ومن أخذ ما أُعْطِي بتعفُّف وغِنى نفسٍ من غَير مسألةٍ ولا استشرافٍ له بالقلب بورِك له فيه، قال: «من أخذه بطيب نفسٍ منه بورِك له فيه، ومن أخذَه بإشرافِ نفسٍ له لم يبارَك له فيه» رواه ابن حبان.

والبركةُ يتحرّاها العبدُ في مأكلِه في يومه وليلتِه، فالطّعام المبارَك ما أكلتَه ممّا يليك، وتجنّبتَ الأكلَ من وسط الصحفَة، وذكرتَ اسمَ الله عليه، قال عليه الصلاة والسلام: «البركةُ تنزل وسطَ الطعام، فكُلوا من حافتيه، ولا تأكلوا من وسطه» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وأمَر رسول الله بلَعقِ الأصابع والصحفة بعد الفراغ من الطعام رجاءَ البركة، وقالَ: «إنّكم لا تدرون في أيّها البركة» رواه مسلم.

وفي الاجتماع على الطعام بركة، وفي التفرّق نزعُ لها، يقول وحشيّ بنُ حرب: قالوا: يا رسولَ الله، إنّا نأكل ولا نشبع، قال: «فلعلّكم تفترقون»، قالوا: نعم، قال: «فاجتمِعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله، يبارَك لكم فيه» رواه أبو داود.

وسيّد المياه وأنفعُها وأبركُها ماءُ زمزم، قال عليه الصلاة والسلام: «إنها مباركة، إنها طعامُ طُعم» رواه مسلم.

أيّها المسلمون، اصطفى الله من الدهر أزمنةً، ومن البقاع أمكنة، خصّها بالتشريف والبركة، فليلةُ القدر ليلةٌ مباركة رفيعةُ القدر عظيمةُ المكانة، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، وأوّلُ النهار بعد صلاةِ الفجر زمنُ الغنيمة المبارك ووقتُ نزول الأرزاق وحلول البركات، أقسَم الله به في كتابه بقوله جلّ وعلا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧، ١٨]، والنبيّ دعا بالبركةِ في بُدُوّ الصباح، قال عليه الصلاة والسلام: «اللهمّ بارك لأمّتي في بكورها» والنومُ بين صلاة الصبح وشروقِ الشمس تفويتٌ لزهرة اليوم.

وبيتُ الله الحرام مبارك، ليس في بيوتِ العالمَ أبرك منه ولا أكثرَ خيرًا ولا أدوم ولا أنفعَ للخلائق، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦].

ومدينةُ المصطفى مدينةٌ مباركة، الصلاةُ في مسجدِ النبيّ تعدل ألفَ صلاةٍ فيما سواه، وصاعُها ومدُّها مبارك فيه، وتمرُ عاليتها شِفاء، يقول النبيّ: «اللهمّ بارك لنا في مدينتِنا، وبارك لنا في صاعِنا ومُدّنا» رواه مسلم، وفي لفظٍ له: «اللهمّ اجعَل مع البركة بركتين»، وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهمّ اجعَل بالمدينة ضِعفَي ما جعلتَ بمكّة من البركة» متفق عليه. قال النوويّ رحمه الله: «الظاهرُ أنّ البركةَ حصلت في نفسِ المكيل، بحيث يكفي المدّ فيها من لا يكفيه في غيرها، وهذا أمرٌ محسوسٌ عند من سكنها».

وبارَك الله في مواطنَ من أرضه كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:١].

والفضيلة الدائمةُ في كلّ زمانٍ ومكان بالإيمانِ والعملِ الصّالح، وأيّ مكانٍ وعملٍ كان أعونَ للشّخص كان أفضلَ في حقّه، يقول سلمان رضي الله عنه: (إنّ الأرضَ لا تقدّس أحدًا، وإنما يقدّس الرجلَ عملُه).

أيّها المسلمون، إذا أظهَر العبادُ ذنوبًا تتابعَت عليهم العقوبات، وكلّما قلّتِ المعاصي في الأرض ظهرَت فيها آثار البركة من الله، وانتشارُ المعاصي وفشوّها سببٌ لنزع الخيراتِ والبركات، قال جلّ وعلا: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُواْ عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن:١٦، ١٧].

وللمعصيةِ أعظمُ تأثير في محقِ بركةِ المال والعمُر والعلم والعمَل، يقول النبيّ: «وإنّ العبدَ ليُحرَم الرزقَ بالذنبِ يصيبه» رواه ابن ماجه، قال ابن القيم رحمه الله: «وفي الجملةِ فالمعصيةُ تمحق بركةَ الدين والدنيا ممّن عصى الله، فلا تجد بركةً في عمُره ودينه ودنياه».

ولا يُنال ما عند الله إلا بطاعتِه، والسعادةُ في القربِ من الله، وبالإكثار من الطاعات تحُلّ البركات، وبالرجوع إليه تتفتّح لك أبوابُ الأرزاق.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

بارَك الله لي ولكم في القرآنِ العظيم، ونفعني وإيّاكم بما فيه من الآياتِ والذكر الحكيم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين من كلّ ذنب، فاستغفروه وتوبوا إليه، إنّه هو التواب الرحيم.

أيّها المسلمون، محقُ البركةِ يجلِب قلّةَ التوفيقِ وفسادَ القلب، وأنفعُ الأشياءِ أبركُها، ومن بارَك الله فيه وعليه فهو المبارَك، ولا تُرتَجى البركة فيما لم يأذَن به الشرع الحكيم. وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تزكو النفس وتصلح الأحوال وتحلّ البركاتَ على المجتمعات. ومن التزم الصدقَ في البيان أُلقِيت الحكمةُ على لسانه والسدادُ في أفعاله. ومن أخذ المال بغير حقّه بارَ نفعُه، قال النبيّ: «ومن أخذه بغير حقّه كان كالذي يأكل ولا يشبع» رواه البخاري.

والرّبا عديمُ النفعِ ماحقٌ للمالِ مُجلِب للهمّ، يجري أكلُهُ خلفَ سَراب، قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الْرِّبَوا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦].

والحلِف منفقةٌ للسلعة ممحقٌ للكَسب، ومنعُ الصدقة خشيةَ النفادِ تلفٌ للمال، قال: «اللهمّ أعطِ ممسكًا تلفًا» رواه البخاري.

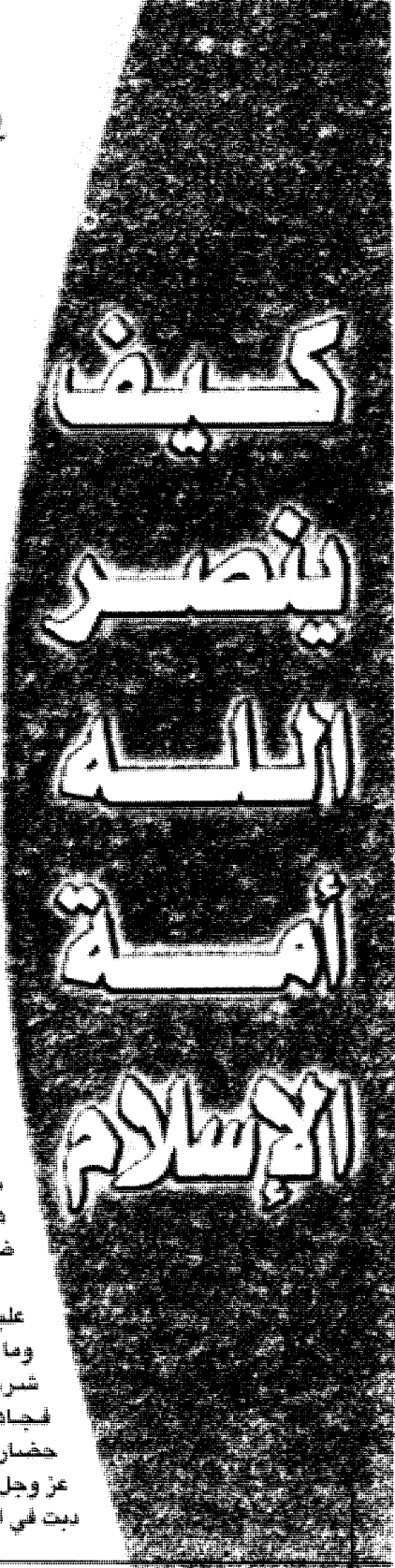
فالزَم جانبَ العبودية والاتباع، وابتعِد عن المحرّمات والشّبهات في المال وغير المال، يبارَك لك في الأخذ والعطاء.

ثمّ اعلَموا أنّ الله أمركم بالصلاة والسلام على نبيّه، فقال في محكَم التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على نبينا محمّد، وارض اللهمّ عن خلفائه الراشدين.

خطبة الجمعة لفضيلة الشيخ السديس

بمسجد التوحيد بمدينة العاشر من رمضان



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

فإن هذه الخطبة الجامعة، ألقاها فضيلة الشيخ/ عبد الرحمن السديس إمام وخطيب بيت الله الحرام بمكة المكرمة يوم الجمعة ١٩ صفر ١٤٢٥هـ بمسجد التوحيد بمدينة العاشر من رمضان بمصر.

وقد بين فيها - حفظه الله - سبل خروج الأمة من أزمتها، ووسائل تحصيل نصر الله تعالى، مجيبا بذلك عن التساؤلات التي تختلج في صدور الغيورين من أهل الإسلام.

وجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر عامة؛ ولسان دعوتها مجلة التوحيد خاصة إذ تقدم الخطبة لقراء المجلة: لا تنسى في هذا المقام تقديم الشكر والامتنان لرجال الأمن في مدينة العاشر من رمضان الذين كانوا على أعلى مستوى من المسئولية والكفاءة والنظام لتسهيل أداء الوفود الحاشدة لفريضة الجمعة وسماع خطبة ضيف مصر المباركة، كما تشكر القائمين على مسجد التوحيد بالمدينة لما قاموا به من أعمال ولما بذلوه من جهود، كما نخص بالشكر فضيلة الدكتور سيد عبد الحليم - حفظه الله - الذي كان سببا في وفود فضيلة الشيخ عبد الرحمن السديس ضيفا على أهل مصر أكثر من مرة ونسأل الله تعالى المزيد من فضله، وإلى الخطبة حياكم الله.

أيها المسلمون: أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، فإنها وصيته سبحانه وتعالى للأولين والآخرين، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

أيها المسلمون، سر هذه الأمة وسعادتها وصلاحها وهدايتها منوطٌ بتمسكها بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾.

معاشر المسلمين: لقد بعث الله نبيه محمدًا بالهدى ودين الحق فبلغ عليه الصلاة والسلام رسالة ربه، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وما مات عليه الصلاة والسلام إلا وقد دل أمته على كل خير وحذرها من كل شر، ثم حمل لواء الدعوة بعده عليه الصلاة والسلام صحابته الكرام، فجاهدوا في الله حق جهاده ودعوا إلى دين الله تبارك وتعالى وانطلقت حضارة الإسلام ورفرفت رايتها على جميع أقطار المعمورة، كل ذلك بفضل الله عز وجل ثم بجهاد الصحابة رضي الله عنهم، ثم إنه بعد القرون الأولى المفضلة دبت في الأمة المحن، وكثرت فيها الفتن، واتبعت الأهواء، وأعرض كثير من الناس

عن نور الوحيين كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وتمضي الأيام والسنوات والقرون، وترسو سفينة هذه الأمة على شاطئ واقعنا المعاصر وعالمنا الحاضر، وقد آل أمر هذه الأمة إلى ما يراه الغيورون ضعفًا من داخلها وتحديات من خارجها، وتساءل المحبون الغيورون عن سبل النجاة وعن طريق الخلاص.

إن ذلك كله مرهون بتمسك الأمة بما تمسك به الأوائل، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، إن هناك أمورًا متعددة تمثل زمام الأمر وطوق النجاة لهذه الأمة في الخروج من مأزقها وأزماتها، ومحنها ونكباتها.

أولا: التوحيد الخالص سبب نصر الأمة

أول هذه القضايا وأساسها وأصلها وأهمها وأعظمها توحيد رب العالمين والقيام بعبودية الله عز وجل التي هي سر وجودنا في هذه الحياة، يقول سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾.

فواعجبا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

التوحيد حق الله على العبيد، فالخلق لله والأمر لله: ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

إن الإيمان بالله عز وجل وتوحيده وطاعته والاستقامة على شرعه وتقواه حق تقاته سبيل الخلاص.

ثانيا: تقوى الله والإيمان بربوبيته

الإيمان بربوبية الله عز وجل وتحقيق التقوى كما شرع الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾، بالإيمان والتقوى تتحقق الخيرات وتحل البركات وترتفع الذنوب والآفات: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ... ﴾.

ثالثا: العناية بالقرآن

العناية بالقرآن الكريم والتمسك بكتاب الله عز وجل فيه الهداية، والتي هي أقوم من كل أمر من أمور الحياة: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾، ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾، ينبغي أن تستقيم أمورنا وتتشبع نفوسنا بكتاب الله حفظًا وتدبرًا وعملاً وسلوكًا وفكرًا.

رابعا: التمسك بالسنة المحمدية

التمسك بالسنة، سنة الحبيب رسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾. لا عز للأمة إلا باتباع نبيها محمد صلى الله عليه وسلم القائل: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

إن حفظ الدين مقصد من مقاصد هذه الشريعة الغراء ولا يمكن أن تنصر هذه الأمة إلا بتمسكها بالكتاب والسنة، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾، ويقول ﷺ: «من عملاً عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». إن نصرة السنة والعناية بها تاج على رءوس أهل الإسلام، كل منا يحب الله عز وجل ويحب رسوله ﷺ، ومقتضى هذا اتباع كتاب الله وأمر رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾، ولهذا فإن الأمة جمعاء مطالبة بنصرة سنة رسول الله ﷺ اتباعًا والتزامًا وبعدًا عن الحدثات

لكن في حاجة ماسة إلى أن تسلم قلوبنا وأن تتوحد صفوفنا وأن تكون أمة واحدة ضد أعداء أمتنا.

■■■

بهذا نزلت الصيحة العالمية بالإسلام والمسلمين فالنصر قادم بإذن الله، والله غالب على أمره.

■■■

علينا أن نتعاون جميعا على دفع سفينة هذه الأمة أيام هذه الأمواج والفتن العاتية التي تريد أن تنحرف بها عن جادة الصواب.

والمخالفات.

خامساً:

ومما يكون سببًا في خروج الأمة من أزماتها ونكباتها العلم النافع: وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ، يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ .

العلم بكتاب الله وسنة رسول الله ، والعلم الذي تحتاج إليه الأمة في كل مجالاتها وفي كل أزمانها وأماكنها.

سادساً

إتباع العلم بالعمل لقوله تعالى: وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ، والعمل الصالح يبدأ بتوحيد الله عز وجل والمحافظة على هذه الصلوات الخمس والعناية بأركان الدين والحذر كل الحذر مما حرم الإسلام، فالمسلم حريص كل الحرص على أن يعمل الصالحات في هذه الحياة: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

سابعاً:

يقول الله عز وجل في حق رسوله : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . وعلى كل مسلم أن يحفظ لإخوانه في الدين أموالهم وأعراضهم وأن يكف عن أذاهم وأن يسلم قلبه لله عز وجل، وأن يُسَلِّم قلبه لعباد الله وإخوانه في الله تبارك وتعالى.

ذكر الحافظ ابن كثير: أن رجلاً ذكر رجلاً بسوء عند أحد الصالحين فقال له: أغزوت الروم. قال: لا. قال: أغزوت الفرس؟ قال: لا. قال: أغزوت الترك؟ قال: لا. قال: أيسلم منك الروم والفرس والترك ولا يسلم منك أخوك.

فنحن بحاجة ماسة إلى أن تسلم قلوبنا وأن تتوحد صفوفنا على أعدائنا وأن نكون أمة واحدة كما أراد الله عز وجل.

ثامناً:

وذلك بتحقيق أخوة الإسلام والعناية بجمع كلمة المسلمين، والحذر من التفرقة والاختلاف: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .

فلماذا الخلاف؟ والرب واحد والنبي الخاتم واحد، والقبلة واحدة، فينبغي على المسلمين أن يتقوا الله عز وجل وأن يحذروا من الخلافات التي تمزق صفوفهم وتثير العدو ضدهم.

تاسعاً:

فكلٌ له حق في هذه الشريعة، فينبغي أن يُعتَنَى بترتبيهم تربية إسلامية صحيحة انطلاقًا من قول الحق تبارك وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

عاشراً:

فهو سبحانه ناصرٌ دينه ومعزٌ أولياءه، مهما طال الزمان أو قصر، ومهما احلولكت الظلمات فالفجر قادم بإذن الله والمستقبل للإسلام وأهله، مهما سعت الصهيونية العالمية للوقيعة بين أهل الإسلام، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

إنه مما ينبغي أن يلتزم به المسلم منهج الوسطية في هذا الدين، يقول الله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسط لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ، فلا غلو في دين الله، ولا جفاء، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، إن كل مسلم يؤرقه ما آل إليه أمر أمة الإسلام في فلسطين والعراق وفي أجزاء كثيرة من الأمة، لكن ينبغي أن يكون واثقًا بنصر الله، يقول الله تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

وينبغي أن تتوحد كافة الجهود وكل القنوات في خدمة دين الله عز وجل؛ الولاة والعلماء والزعماء والقادة والدعاة والمصلحون والإعلاميون ورجال التربية والتعليم، وحملة الأقلام والفكر والثقافة، كل أولئك يسيرون في سفينة واحدة هي سفينة هذه الأمة، أمة محمد ، وكل خرق في السفينة سيغرقها ولا شك، فعلينا أن نتعاون جميعًا: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .

بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، وإننا ولله الحمد والمنة نجد في طول البلاد وعرضها وفي عالمنا الإسلامي كله، نجد هذا الخير موجودًا، ونجد في هذه الأمة المباركة الحرص على الإسلام وأهله، وكل

ذلك ولله الحمد والمنة، ليس بغريب على هذه الأمة، فأمة الإسلام أمة معطاءة، تقف أمام التحديات، فإن فيها والحمد لله من يجدد لها دينها، فعلينا الجد والعمل، وعلى الله سبحانه وتعالى التوفيق، والسداد والنصر والتمكين: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

والمسلمون في كل مكان يتعرضون لحملات إعلامية مغرضة، فالوقوف أمام هذه المعارك يكون بصدق انتمائنا لهذا الإسلام، وبتطبيق إسلامنا تطبيقًا صحيحًا على كتاب الله وعلى سنة رسوله ، داعين للخير والسلام والوئام، ليس للمسلمين فقط بل للإنسانية جميعًا؛ لأن رسالة الإسلام رسالة عالمية، ونحن مطالبون أن نكون بحسن أخلاقنا ونبل شيمنا محققين ذلك إلى خُلق إسلامي عظيم، نحب الخير للناس، ونرد الشر والفتن عن العباد والبلاد، هذا هو منهج المسلم.

ولقد رأينا ولله الحمد والمنة في إخواننا في مصر الإسلام ومصر الإيمان هذه الهمة العالية وهذه العاطفة المجبولة على حب الإسلام وأهله وبلاد الحرمين وأهلها.

ثم الدعاء الدعاء... ينبغي أن نتسلح جميعًا بسلاح الدعاء.

قال الحق تبارك وتعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ .

أصلح الله الحال والمآل، ووفق الجميع لما فيه الخير في الدارين والسعادة في الحياتين وحفظ أمة الإسلام من شرور الفتن والمحن، إنه جواد كريم.



تحت إشراف فضيلة الشيخ محمد صفوت نور الدين رئيس قطاع الشئون الإسلامية

المستوى الأول:

-
-
-
-
-

المستوى الثاني:

-
-
-
-
-

تسجّل الأسماء وتسدد الاشتراكات في كل فرع ثم تورد بمعرفة مندوب الفرع إلى إدارة شئون القرآن بالمركز العام، أو مُجمع التوحيد ببلبيس.

قيمة الاشتراك ١٥ جنيه للمستوى الأول، ١٠ جنيه للمستوى الثاني.

آخر موعد لقبول الطلبات يوم السبت ٣١ / ٧ / ٢٠٠٢م

موعد الامتحان يوم الثلاثاء ٣١ / ٨ / ٢٠٠٢م بمسجد بلبيس ابتداءً من الساعة التاسعة صباحًا.

باب: منبر الحرمين

لفضيلة الشيخ / حسين آل الشيخ
إمام الحرم النبوي

تعريف الأنام بمقاصد الإسلام

الحمد لله على إحسانِه، والشكرُ له على توفيقه وامتنانِه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له تعظيمًا لشأنه، وأشهد أنَّ نبيّنا وسيدنا محمّدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، اللهمّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

أمّا بعد: فيا أيّها المسلمون، أوصيكم ونفسي بتقوَى الله عزّ وجلّ، فبها يحصل المخرجُ مِن كلِّ ضيق والتيسيرُ من كلِّ أمر عسير.

معاشرَ المسلمين، إنّ الشريعةَ الإسلامية ومِن منطَلَق حِرصها على إسعادِ البشريّة وتحقيق الخير والفلاح للخليقة قد جاءت أحكامُها لمقاصدَ عاليةٍ وتحقيق غاياتٍ فاضلةٍ وأهدافٍ سامية، تلكم هي المقاصدُ الشرعيّة التي هي علمٌ من علوم الشريعة، حظِيت من المحقِّقين باهتمام بالغ وعناية فائقة، ذلكم أنّ أيّ تصرُّفٍ يتصرّفه المسلم مهما حسُنت النوايا يجب أن يكونَ متّفِقا مع مقاصدِ الدين، متمشّيًا مع سنّة سيّد الأنبياء والمرسلين، حتى لا يهدم المرءُ إسلامَه من حيث لا يشعُر، ولا يُفسِد دينَه من حيث لا يعقِل، وحينئذٍ متى حصلتِ المخالفة لمقاصد الدين حصَل الضلال والإضلال والضررُ والفساد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في حَقّ الخوارج الذين خرَجوا على صحابةِ رسول الله: "وقلَّ من خرَج على ذي السُّلطان إلاّ وتولّد على فِعله من الشرِّ أعظمُ ممّا تولّد من الخير - إلى أن قال رحمه الله: - فما أقاموا دنيا، ولا أبقَوا دينًا" انتهى(١)، ويقول ابن القيم رحمه الله بعد أن قرّر مجيءَ الشريعةِ لمصالح العباد: "وهذا فصلٌ عظيمُ النفع جدًا، وقع بسبَب الجهل به غلطٌ عظيم على الشريعة" انتهى(٢).

وإنّ أمّتنا وهي تعاني ما تعاني من الشدائدِ والمِحن لفي ضرورةٍ لتفهُّم المقاصد العامّة لهذا الدين، وفي حاجةٍ ماسّة لدراسة أهداف شريعة الإسلام والتعمُّق فيها والعَمل على وقفها؛ لإصلاح المنهَج النظريّ العلميّ والمنهج العمليّ الاجتماعي التطبيقي، خاصّة شباب الإسلام الذين هم عِماد الأمة ومصدرُ قوّتها. نعم، إنّ الواجبَ عليهم التبصُّر في مقاصد دينهم والوعيُ التامّ لها؛ ليتجنّبوا سوءَ المأخَذ وفساد الاستنتاج وقُبحَ الأعمال، وحتى تترقّى مداركُهم وتظهرَ جهودُهم في أجمل المظاهرِ التي أرادها هذا الدين، ولتنبع أفعالهم من روح الإسلام وتنساق من مقاصِده وتوفي بحاجات الدّعوةِ وتواكِب مقتضياتِ الزمان وتغيُّرات العصر.

مقاصد الشريعة

معاشرَ المسلمين، مقاصِدُ الشريعة ترجِع في أصلها وتعود في مُجمَلها إلى تحقيق القاعدةِ الكلّية الكُبرى: الحرصُ الشديد على جَلب المصالح وتكثيرها، والتأكيدُ البالغ على دَرء المفاسد وتقليلها. ومِن هنا فالغاية الجامعةُ والمقصَد العامّ من التشريع

في الإسلام بعد تحقيق العبُوديّة لله هو حِفظ نظام الأمّة واستدامةُ صلاحها بعمارةِ الأرض، وحِفظُ نظام التعايُش فيها، والحرصُ على حَفِظ نظام العالمَ وضبطِ تصرُّفات الناس فيه على وجهٍ يعصِم من التفاسُد والتهالك، يقول جل وعلا: وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا (الأعراف:٥٦)، ويقول سبحانه: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (محمد:٢٢، ٢٣)، ويقول جل وعلا: وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (المائدة:٦٤).

إخوةَ الإسلام، من المقاصدِ العليا للإسلام في هذه الحياة إقامةُ العدلِ بشتَّى صُوَره وإشاعة الرحمةِ بين الخلق بأوسَع معانيها وتحقيقُ الإحسان في جميع مجالاته، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى (النحل:٩٠)، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء١٠٧)، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا (البقرة:٨٣)، ونبينا يقول: «إنَّ الله كتَب الإحسانَ على كلِّ شيء»(٣).

معاشرَ المسلمين، ومِن المقاصدِ الكبرى لشريعة محمّد تلك الملقَّبة عند العلماءِ بالضروريات الخمس: حفظُ الدين والنفوس والأموال والعقول والأنساب، تلك الكلِّيات الخمس التي هي بمنزلةِ الثوابت المطَّردة والقِيَم الخالدة في هذا الدين، والتي بها قِوام حياة الإنسان، وعليها مدارُ العمران، وبها انتظامُ الإسلام، لا يستقيم النظام باختلالها، ولا يهنأ عيشٌ بدون سلامتِها، بل إذا انخرمت تَؤول حالُ الأمّة إلى فسادٍ وتلاش وضعفٍ وهوان، ونصوصُ الشريعة في مراعاةِ هذه الضروريّات أشهرُ من أن تُذكَر، وأبرز ما أن تُحصَر، ولذا ففي التطبيقاتِ العملية من سيِّد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام ومن خلفائه الراشدين ممّا هو متواترٌ وشيء ظاهر مشتهِر في مراعاتها والعمل في وفقها:

إنَّ النبيَّ وهو في حالة الحرب مع الكفار الحربيِّين ينهى عن قتلِ النساء والصبيان ومن ليس مِن أهل القتال حِفظًا للنفوس من الإهدار والإفساد.

وهذا عمر الفاروق رضي الله عنه ينطلِق في نظراته من هذه المقاصد، يقول: (والذي نفسي بيده، ما يسرُّني أن تفتَحوا مدينةً فيها أربعةُ آلاف مقاتِل بتضييع رجلٍ مسلم) أخرجه سعيد بن منصور في سننه(٤)، ونراه يرسل إلى عمّالِه كاتبًا لهم: (لا تستعمِلوا البراءَ بنَ مالك على جيشٍ من جيوش المسلمين؛ لأنّه كان شديدَ الجراءة، يقتحم المهالكَ بأمّة محمد)(٥).

وها هم علماءُ الإسلام يقرِّرون انطلاقًا من القرآن والسنّة بأنّ الكفار الحربيِّين متى تترسّوا بمسلمين ولو بواحدٍ أو تترسوا بذمّيِّين يعيشون في ديار الإسلام فلا يجوز رميُهم صيانةً للنفوس إلاّ في حالات ضرورة قصوى يقرِّرها وليُّ أمر المسلمين، بل وهكذا الحكمُ عندهم لو تترّس الكفّار الحربيّون بنسائهم وأطفالهم، حِفظًا من الشريعة للنفوس البشرية التي خلقها الله جلّ وعلا، وما خلقه مكرَّمٌ كما قال: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ (الإسراء:٧٠).

ومِن مقاصد الإسلام الحرصُ على درءِ كلِّ ما يعود على هذا الدين بالتنفير منه، ومَنع إظهار أيّ صورةٍ قد تكون سببًا للمَنع من دخول الناس في دين محمّد، وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ (الأنعام:١٠٨)، والنبيّ قد كفّ عن قتل المنافقين في المدينةِ مع كونه مِن أعظم المصالح ذاك الوقت لئلاّ يكون ذريعةً إلى تنفير الناس عن دين الإسلام وقولهم: إنّ محمّدًا يقتل أصحابه.

قال العلماء: لأنّ مفسدةَ التنفير أكثرُ من مفسدةِ (ترك) المنافقين، ومصلحةُ التأليف أعظمُ من مصلحة القتل؛ ولذا ففي عالم اليوم تجد المتربِّصين للإسلام يتصيَّدون لكلِّ تصرُّفٍ يصدُر من أبناءِ الإسلام لينالوا من الإسلام وخصائصِه ونبيِّه، مع أنّ تلك التصرُّفات لا تمتُّ للإسلام بصلة؛ كترويع الآمنين وسفك الدماء وتخريب العمران.

ومِن مقاصدِ شريعة الإسلام تحقيقُ وَحدة المسلمين والتأليف بين قلوبهم وجمعُ كلمتهم ومنع كلِّ ذريعة للتفرُّق والاختلاف والتنازُع، قال ابن القيم: "وهذا مِن أعظم مقاصد الشرع، وقد سدَّ الشرع الذريعةَ إلى ما يناقضه بكلِّ طريق حتى في تسوية

من مقاصد الإسلام حفظ الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والمال والعقل والنسل، ومن مقاصده إقامة العدل وإشاعة الرحمة، وحفظ نظام الأمة، واستدامه صلاحها.

الصفِّ في الصلاةِ لئلاّ تختلفَ القلوب، وشواهدُ ذلك أكثر من أن تُذكَر" انتهى(٦)، يقول الله جلّ وعلا: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا (آل عمران:١٠٣)، ويقول جل وعلا: وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ (الأنفال:٤٦)، ونبيُّنا يقول فيما رواه مسلم: «مَن خرَج من الطاعة وفارقَ الجماعةَ فمات ماتَ ميتةً جاهلية»(٧) والعياذ بالله.

ومن هنا حرص الأعداءُ بكلِّ طريقٍ على تعميق الهوّة بين أفرادِ الأمة وبين علمائها وولاةِ أمورها، حتى يحصل الشرّ العظيمُ بالأمّة ويتحقّق للأعداءِ ما يريدون، لذا فالضرورةُ اليومَ داعيةٌ إلى التكامُل والتعاضد بين العلماء والحكّام والمجتمع ككلّ على منوال الشريعةِ لتحقيق المقاصدِ الشرعيّة والأهداف المرعيةَ التي جاء بها سيّد البشر محمد.

إخوةَ الإيمان، ومن مقاصد شريعة الإسلام سدُّ الفِتَن وأبوابها ومنعُ الشرور وطُرُقها، يقول ابن القيم رحمه الله في تأصيل قاعدةِ سدّ الذرائع: "الوجه الثامن والتسعون: نهيُ النبيِّ عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة وإن ظلموا أو جاروا ما أقاموا الصلاة، سدًا لذريعة الفسادِ العظيم والشرِّ الكثير بقتالهم كما هو الواقع، فإنّه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم أضعافُ أضعافِ ما هم عليه، والأمّة في بقايا تلك الشرور إلى الآن" انتهى كلامه المتين(٨)، ويقول أيضًا في النهي عن إنكار المنكَر إذا كان يلزم منه ما هو أنكرُ منه، يقول رحمه الله في كلام عليه نور: "وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنّه أساسُ كلِّ شرٍّ وفتنة إلى آخر الدهر - إلى أن قال: - ومن تأمّل ما جرى على الإسلام في الفِتن الكبار والصِّغار رآها من إضاعةِ هذا الأصل وهو إنكار المنكر إذا كان يترتّب عليه ما هو أنكرُ منه، ومن عدم الصبر على المنكَر، فيطلب إزالتُه، فيتولّدُ منه ما هو أكبر منه" انتهى(٩).

وانطلاقًا من هذا المبدأ قرّر محقّقو العلماء مبدأً مهمًا يجب أن يُفعَّل في واقع المسلمين، وهو قولهم: ليس كلُّ ما هو حقّ معلومٌ يجوز نشرُه ممّا يؤدّي إعلانُه إلى مفسدةٍ من فتنةٍ وفوضى وشرّ، قال الشاطبي رحمه الله: "ومنها - أي: العلوم - ما لا يُطلَب نشرُه بإطلاق، وذلك ممّا يتضمّن ضررًا محضًا" انتهى(١٠)، خاصةً عند العامّة وشباب الأمة ممّن قد يكون لبعضهم فتنةً لعدم وجودِ العلم الكافي لديهم، وعدم الإدراك الكامل، وهذا منهَج معروف عند سلفِ هذه الأمّة، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (ما أنتَ بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلُغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)(١١)، وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في حادثةٍ يقول لعمر حينما أراد عمر رضي الله عنه التحذيرَ من النفَر الذين تكلّموا في مسألةٍ من مسائل الإمامةِ وهو في موسم الحجّ، قال عبد الرحمن: (لا تفعَل، فإنّ الموسمَ يجمع رعاعَ الناس، ويغلبون على مجلسك - أي: يقترّبون منك -، فأخاف أن لا يُنزلوا مقالتَك على وجهها، وأن يُطيروها كلَّ مطير، وأمهِل - يا عمر - حتى تقدُم المدينة، فتخلصَ إلى أصحابِ رسول الله، فيحفظوا مقالتَك، وينزلوها على وجهها)، فوافقه عمر وهو الموفَّق الملهَم(١٢).

ومن مقاصد الإسلام تحريرُ العقول من التقليدِ والتَّبعيّة المجرّدة، تلك التبعيّةُ التي تستعبد الأفكارَ وتستأسر العقولَ من باب الإعجابِ بالآراء ليس إلاّ، وتنزيهها من الخطأ، وبالتالي تنعدِم عند المسلمين ملكةُ النقد، وتسود عقليةُ التسليم مهما كانت الآراءُ المتلقّاة لا تنهَض على حجّةٍ ولا يقودها دليلٌ سوى العاطفة والحماس.

لذا حريٌّ بشبابِ الأمّةِ شبابِ محمّد أن يتّقوا الله جلّ وعلا في دينهم، وأن لا يأخذوا الفتاوى والآراءَ إلا من أهلِها أصحابِ الدّراية والروايةِ، وليحذَروا من تلك الشّبكاتِ العنكبوتية التي تبرز الغثّ والسمين والصوابَ والخطأ، لا يُعلَم مصدرُها، ولا يوثق بخبرها، والله جل وعلا يقول: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (النحل:٤٣)، وفي الحديث: «حتى إذا لم يُبقِ عالمًا اتّخذ الناسُ رؤوسًا جهّالا، فأفتوا فضلّوا وأضلّوا»(١٣) عياذًا بالله.

معاشرَ المسلمين، استقراءُ الشريعة في أقوالها وتصرّفاتها حجّةٌ قاطعة بأنّ من مقاصدها العليا أن يوجَد للأمة ولاةٌ يسوسون مصالحها ويقيمون العدلَ وينفّذون أحكامَ الله فيها، لذا كانت الولايةُ السلطانية من لوازم الشريعة، لئلاّ تكون في بعضِ الأوقات معطّلةً، يقول عليّ رضي الله عنه وهو من مدرسةِ محمّد: (إنّ الناسَ لا يُصلحهم إلا إمامٌ برّ أو فاجر)(١٤).

ومن هنا ألزمتِ الشريعةُ الحاكمَ بتقوى الله عز وجل في كلّ أموره، وبالسّعي في جلب مصالح الأمة ودرء المفاسد عنها، وأوجبت على الرعيّةِ طاعةَ الحاكم في غير معصية الله، وعدمَ الخروج أو الافتيات عليه، بل له في الشريعة الدعاءُ والنّصحُ الصادق برفقٍ ولُطفٍ مع المعاونة له على الحقّ.

أيّها المسلمون، أمّةَ الإسلام، شبابَ الإسلام، ها هي بعضُ مقاصدِ سيّد الخلق ودين محمّد، حينئذٍ فكلّ عاقلٍ وكلُّ متبصّر لا يشكّ أدنى شكٍّ أنّ هذه الأعمالَ الإجرامية التي وقعت في أماكنَ من بلاد الحرمين كحادثة الرياض ثم حوادثِ جدّة ثم ما وقع أخيرًا في مدينة ينبع كلُّها أعمالٌ شنيعة، جمعت من القبائح ما لا يُحصَى، ومن مخالفةِ أمر الله ورسوله ما لا يعَدُّ ولا يُحصَر. أعمالٌ لا تستقيم مع مقاصد

الشريعة التي سمعنا بأيّ وجهٍ من الوجوه، بل هي مضادّة لها، مصادِمةٌ لمُجملها وتفصيلها، بل إنّ هذه الأعمالَ وأمثالها لا تصبُّ إلا في وخدمة أعداء الإسلام وتحقيق مصالحهم في ضرب الإسلام وأهله، ولذا فما فرح أعداء الإسلام بمثل فرحتهم بمثل هذه الأعمال، فيا خيبةَ من كان وسيلةً للأعداء وآلةً سهلةً لهم في هدم مقاصدِ الإسلام، والله جلّ وعلا يقول: وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النحل:٩٤).

ولنستمع إلى النور من مشكاةِ النبوّة، يقول: «من خرج من الطاعةِ وفارقَ الجماعة فمات ماتَ ميتةً جاهلية، ومن قاتل تحتَ راية عمّيّة يغضَب لعصبيّة أو يدعو إلى عصبية أو ينصُر عصبية فقُتل فقتلته جاهلية، ومَن خرج على أمّتي يضربُ برّها وفاجرَها ولا يتحاشى من مؤمنِها ولا يفي لذي عَهدٍ عهدَه فليس مني ولستُ منه» أخرجه مسلم(١٥).

وعن رفاعة بن شدّاد قال: كنتُ أقوم على رأس المختار، فلمّا تبيَّنتُ كذبَه - وهو الذي ادّعى النبوة - هممتُ - وايم الله - أن أسلّ سيفي فاضربَ عنقَه، حتى ذكرتُ حديثًا حدّثناه عمرو بن الحمِق قال: سمعتُ النبيَّ يقول: «من أمّن رجلاً على نفسِه فقتله أُعطيَ لواء الغدر يومَ القيامة»(١٦).

فيا أيّها المسلمون، أذكّر نفسي وإياكم بتقوى الله عزّ وجلّ، فهي وصيّة الله للأوّلين والآخرين.

معاشرَ المسلمين، من مقاصدِ شريعة الإسلام التركيزُ على الفقهِ في الدّين ومداولةِ تعاليمه بعلمٍ شرعيٍّ فيه من الله برهانٌ مبين، فالخير كلُّ الخير للأفرادِ والأمّة جميعًا بثّ العلوم الشرعيّة والمعارف السُّنّيّة، فرسولنا يقول: «من يُردِ الله به خيرًا يفقّهه في الدين»(١٧).

والأمّة على مستوى آحادِها ومجتمعاتها ينبغي أن لا تصدُر ولا ترِد إلاّ بعلمٍ دقيقٍ وفقهٍ ضليعٍ في عباداتها وفي جميع شؤون حياتها، وذلك لا يكون إلاّ عن طريق التلقّي من العلماء ذوي النظرِ السديد في فقه الشريعة والتمكُّن الدقيق في معرفةِ مقاصدها، مع الخبرة بمواضع الحاجة في الأمّة والمقدِرة على إمدادِها بالمعالجة الشرعية لاستبقاءِ عظمتِها واسترفاء خُروقها.

وحينئذ فقضايا الأمّة ومسائلُها النازلة لا ينبغي بأيّ حالٍ عَرضُها على الاجتهادات الفرديّة، بل لا بدّ من جمع مجامعَ علميّةٍ من أكابر علماء الإسلام، ليبسطوا بينهم حاجات الأمة، ويصدروا فيها عن وفاقٍ فيما يتعيَّن عملُ الأمة عليه، فكفانا وكفانا تفرّقًا واختلافًا.

فتحقيقُ مقاصد الشريعة التي هي أمانةٌ على كلّ فردٍ من أفراد الأمة، تحقيقُها على نحوٍ أكمل غيرُ ممكنٍ بدون استيعابٍ لواقع الأمّة السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ وتقديرٍ دقيقٍ لحاجاتها وإحاطةٍ شاملةٍ لعلاقاتها مع غيرها من الأمم، وذلك كلُّه لا سبيلَ إليه إلاّ بالدراية العلميّة المتخصِّصة الحصيفة، والعمل الدؤوب في إطارِ عملٍ جماعيّ مؤسَّسي.

قال أهل التحقيق من علماء الإسلام قديمًا: "ومعرفة المقاصد الشرعيّة المتعلّقة بالأمّة توكَل إلى نظر علماء الأمة وولاةِ أمورها الأمناءِ على مصالحها أهلِ الحلّ والعقد ليُعيّنوا لها الوصفَ الجدير بالاعتبار في أحد الأحوال دون غيره". يقول هذا القولَ قبلَ أكثرَ من سبعين سنة.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وممّا ينبغي أن يُعلَم أنّ أسبابَ هذه الفتنة تكون مشتركةً، فيرد على القلوب من الواردات ما يمنع القلوبَ من معرفةِ الحقّ وقصدِه" انتهى(١٨).

وحينئذٍ فلا مفرَّ من ذلك إلاّ بالعلم وعدَم الإقدام على ما يمسّ قضايا الأمّة إلاّ بالاجتهادات الاجتماعية لا المعارف الفردية.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/٥٢٧-٥٢٨). (٢) إعلام الموقعين (٣/٣).
(٣) أخرجه مسلم في الصيد (١٩٥٥) عن شداد بن أوس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الشافعي في الأم (٤/٢٥٢)، ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٩/٤٢).
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٧/١٦)، والحاكم في المستدرك (٥٢٧١) عن محمد بن سيرين قال: كتب عمر بن الخطاب وذكره.
(٦) إعلام الموقعين (٣/١٤٥). (٧) صحيح مسلم: كتاب الإمارة (١٨٤٨) عن أبي هريرة.
(٨) إعلام الموقعين (٣/١٥٩). (٩) إعلام الموقعين (٤/٣). (١٠) الموافقات (٤/١٨٩).
(١١) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه. (١٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢٣).
(١٣) أخرجه البخاري في العلم (١٠٠)، ومسلم في العلم (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو.
(١٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/٤٦٣). (١٥) صحيح مسلم: كتاب الإمارة (١٨٤٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(١٦) أخرجه أحمد (٥/٢٢٣، ٢٢٤، ٤٣٦)، والنسائي في الكبرى (٥/٢٢٥)، وابن ماجه في الديات (٢٦٨٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣٤٥)، والبزار (٢٣٠٦)، والطحاوي في شرح المشكل (١/٧٧)، وقال البوصيري في الزوائد (٣/١٣٦): "إسناده صحيح، رجاله ثقات، وهو مخرج في السلسلة الصحيحة (٤٤٠).
(١٧) أخرجه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧) عن معاوية . (١٨) منهاج السنة (٤/٥٣٨).

باب: منبر الحرمين

خطورة التكفير

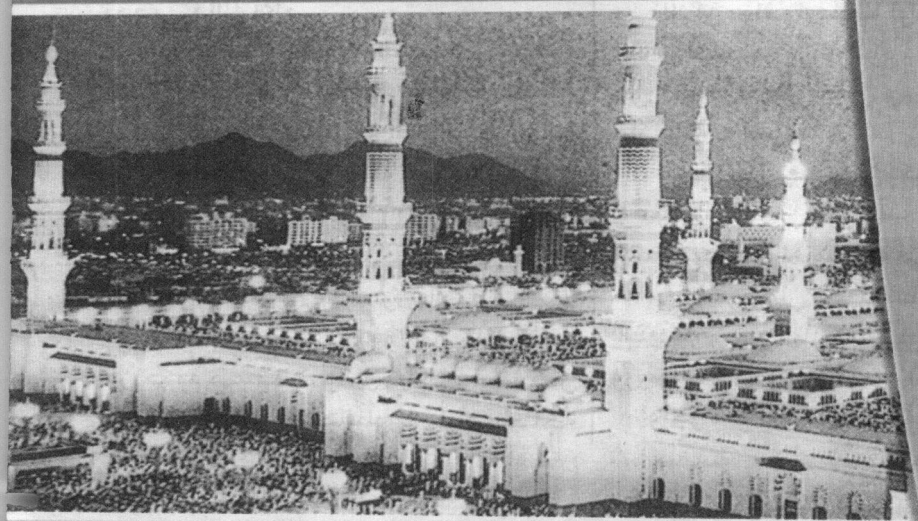
لفضيلة الشيخ/ عبد الرحمن السديس

إمام الحرم المكي

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أمّا بعد: فيا عبادَ الله، العيشُ الوثير والخير الوفير والرزق الكثير ثمرةُ تقوَى المولى اللطيف الخبير، فاتقوا الله رحمكم الله، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الحديد:٢٨].

أيّها المسلمون، لا يرتابُ الغيورون على أحوال الأُمّةِ أنها تعيش زمنَ طوفانِ الفِتن، وأنّ واقعَها المريرَ يعُجّ بفتنٍ عمياء ودَواهٍ دَهياء، قد انعقد غمامُهَا وادلهمّ ظلامُها، غيرَ أنّ هناك فتنةً فاقرة وبليّة ظاهرة، فتنةً امتُحِن المسلمون بها عبرَ التاريخ، فتنةً عانت منها الأمّة طويلاً وذاقت مرارتَها وتجرّعت غُصصَها ردحًا من الزمن، فتنةً طال ليلُها وأرخى سدولَه بشتّى همومها وناءت بكَلكلِها وغمومها، كم نجَم عنها من سفكِ الدماء وتناثُر الأشلاء وحلّ جرّاءها من نكباتٍ وأرزاء، وبالجملة فهي محيطٌ ملغوم ومركَب مثلوم ومستنقعٌ محموم وخطر محتوم، زلّت فيها أقدام وضلّت فيها أفهام، وبالتالي فهي جديرةٌ بالتّذكير حفيّة بالتفكير قمِنَة بالتبصير، بَلْهَ صرخة نذير وصيحة تحذير، حتى لا تتجدّد فواجعُ الأمّة في العنف والتدمير والإرهاب والتفجير.

أجزمُ أنه لم يعُد يخفى على شريفِ علمكم أنها الظاهرةُ الجديرة بالتنديد والتفكير والمعالجة والتغيير، إنها فتنةُ التكفير، وكفى بها من فتنةٍ تولّد فِتنًا.



خطورة التكفير

إخوةَ الإسلام، المجازفةُ بالتكفير شرٌّ عظيم وخطر جسيم، كم أذاق الأمّةَ من الويلات ووبيل العواقب والنهايات، لا يسارع فيه مَن عِنده أدنى مَسكة من ورع وديانة أو شذرة من علم أو ذرّةٍ من رزانة، تتصدّع له القلوب، وتفزَع منه النفوس، وترتعِد من خطره الفرائص، يقول الإمام الشوكانيّ رحمه الله: "وها هنا تُسكَب العبرات ويُناح على الإسلام وأهلِه بما جناه التعصّبُ في الدين على غالبِ المسلمين من الترامي بالكُفر لا لسنّةٍ ولا لقرآن، ولا لبيانٍ من الله ولا لبرهان، بل لما غلَت به مراجلُ العصبيّة في الدين وتمكّن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين، لقّنهم إلزاماتِ بعضِهم لبعض بما هو شبيهُ الهباء في الهواء والسّراب بقيعةٍ، فيا للهِ والمسلمين من هذه الفاقرة التي هي أعظمُ فواقرِ الدين والرّزيةِ التي ما رُزِئ بمثلِها سبيلُ المؤمنين... - إلى أن قال رحمه الله: - والأدلّة الدالّة على وجوب صيانةِ عِرض المسلم واحترامِه تدلّ بفحوى الخطاب على تجنُّب القدح في دينه بأيٍّ قادح، فكيف إخراجه عن الملّة الإسلاميّة إلى الملةِ الكفريّة؟! فإنّ هذه جنايةٌ لا يعْدلُها جناية وجرأةٌ لا تماثِلها جرأة، وأين هذا المجترئ على تكفير أخيه من قول رسول الله: «المسلمُ أخو المسلم؛ لا يظلِمه ولا يُسلمُه»(١) وقوله عليه الصلاة والسلام: «سِبابُ المسلم فسوقٌ وقِتالُه كفر»(٢) وقوله: «إنّ دماءَكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»(٣)" انتهى كلامه رحمه الله(٤).

إخوةَ الإيمان، لقد جاءتِ النصوصُ الزاجرة عن هذا المرتع الوخيم والمسلَك المشين، يقول سبحانه: فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [النساء:٩٤]، وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «إذا قال الرجلُ لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدُهما، فإن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه»(٥)، وفيهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسولَ الله يقول: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدوّ الله وليس كذلك إلا حارَ عليه»(٦)، وعند الطبرانيّ بسند صحيح أنّ رسولَ الله قال: «مَن رمى مؤمِنًا بكفرٍ فهو كقتلِه»(٧).

المنهج الشرعي تجاه التكفير

وعلى هذا المنهَج الناصع الوضيء سارَ صحابةُ رسول الله، خرّج الإمام أحمد والطبرانيّ وغيرهما عن أبي سفيانَ قال: سألتُ جابرًا وهو مجاورٌ بمكّة: هل كنتم تزعُمون أحدًا من أهل القبلة مشركًا؟ فقال: معاذ

ينبغي الاحتراز من التكفير ما وُجد إلى ذلك سبيلاً، لما يترتب عليه من استباحة الدماء. والخطأ في ترك ألف كافر أحياءً، أهون بكثير من سفك دم مسلم واحد!!



الله، وفَزع لذلك، فقال رجلٌ: هل كنتم تدعون أحدًا منهم كافرًا؟ قال: لا(٨).

وعلى هذا المسلَك المشرِق اللألاء سارَ السلف الصالح رحمهم الله، فوضَعوا لهذا الحكم أصولاً وشروطًا وضوابط، ورسموا له حالاتٍ وموانع، لا بدّ من مراعاتها والتثبُّت فيها، وما ذلك إلاّ لخطورته ودقّته.

وأهمُّ هذه الضوابط أنّ التكفيرَ حكم شرعيٌّ ومحضُ حقّ الله سبحانه ورسولِه، يقول الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله:

الكفرُ حقُّ الله ثم رسولِه
بالنصِّ يثبت لا بقولِ فلانِ
من كان ربُّ العالمين وعبدُه
قد كفّراه فذاك ذو الكفران(٩)

ويقول الإمام الطحاويّ رحمه الله: "ولا نكفّر أحدًا من أهل القبلةِ بذنبٍ ما لم يستحلَّه"(١٠)، قال ابن أبي العزّ رحمه الله: "إنّ بابَ التكفير وعدم التكفير بابٌ عظُمت الفتنةُ والمحنةُ فيه، وكثر فيه الافتراق، وتَستَّتت فيه الأهواء والآراء، وتعارضَت فيه دلائلُهم، فالناس فيه على طرفين ووسَط"(١١)، ثم قال: "وإنه لمن أعظم البغي أن يُشهَد على معيَّن أن اللهَ لا يغفر له ولا يَرحمه، بل يخلّده في النار"(١٢)، وقال الغزاليّ رحمه الله: "والذي ينبغي الاحترازُ منه التكفيرُ ما وجد إليه سبيلا، فإنّ استباحةَ الدماء والأموال من المصلّين إلى القبلةِ المصرّحين بقول: لا إله إلا الله محمّد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألفِ كافرٍ في الحياة أهونُ من الخطأ في سفكِ دم لمسلم"(١٣)، وقال الإمام النوويّ رحمه الله: "اعلم أنّ مذهبَ أهل الحقّ أنه لا يكفّر أحدٌ من أهل القبلةِ بذَنب، ولا يُكفّر أهلُ الأهواء والبدَع وغيرُهم"(١٤)، ويقول الإمام القرافيّ رحمه الله: "كونُ أمرٍ ما كفرًا- أيّ أمرٍ كان- ليس من الأمور العقليّة، بل هو من الأمور الشرعيّة، فإذا قال الشارع في أمرٍ ما: هو كفر فهو كُفر"، ويقول شيخ الإسلام ابن تيميّةَ رحمه الله: "فلهذا كان أهلُ العلم والسنّة لا يكفّرون من خالفَهم وإن كان ذلك المخالِف يُكفِّرهم؛ إذِ الكفر حكمٌ شرعيّ، فليس للإنسان أن يعاقبَ بمثلِه كمن كذب عليكَ وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه ولا تزني بأهله، لأنّ الكذبَ والزنا حرامٌ لحقّ الله تعالى، وكذلك التكفير حقُّ الله، فلا يُكفّر إلاّ من كفّره الله ورسوله"(١٥)، وقال الشيخ المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "وبالجملةِ فيجب على كلّ من نصَحَ نفسَه أن لا يتكلّم في هذه المسألةِ إلا بعلمٍ وبرهانٍ منَ الله، وليحذَر من إخراج رجلٍ من الإسلامِ بمجرّد فهمِه واستحسان عقله، فإنّ إخراجَ رجلٍ من الإسلام أو إدخالَه من أعظم أمور الدّين، وقد استزلّ الشيطان أكثرَ الناس في هذه المسألة"(١٦).

الله أكبر، هذا هو ورَعُ السلف في هذا الباب، فكيف يسوغ بعدَ هذه النقول كلِّها لمن لم يبلُغ في مقدار علمهم وفضلهم نقيرًا ولا قطميرًا أن يتجاسَر على المسارعةِ إلى الحكم بالكفر الصُّراح في حقّ إخوانه المسلمين جملةً وتفصيلاً عياذًا بالله عياذًا، أوَما علِم هؤلاء ما يترتّب على التسرُّع في التكفير من أمورٍ خطيرة مِن استحلال الدم والمال ومنع التوارُث وفسخ النكاح وتحريم الصلاةِ عليه وعدَمَ دفنه في مقابر المسلمين، مع ما يستوجبه من الخلودِ في النارِ والعياذ بالله، إلى غير ذلك ممّا هو مزبورٌ في مظانّه؟! فلا جرَمَ بعد ذلك كلّه أن يقفَ الشرعُ منه موقفًا صارمًا، يسدُّ الطريقَ على أحفاد ذي الخويصرة وحرقوص بن زهير ومَن خرج مِن ضئضِئهم ممّن يكفّرون أهلَ الإسلام ويدَعون أهلَ الأوثان، بل يوزّعون صكوكَ جهنّم على الخليقة وهم لا يشعرون، والله المستعان.

أمةَ الإسلام، ومِن الضوابط المهمّة في هذه المسألةِ الخطيرة أنّ المسلمَ لا يُكفَّر بقولٍ أو فِعل إلاّ بعد أن تقامَ عليه الحجّة وتُزالَ عنه الشُّبهة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فليس لأحدٍ أن يكفّر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلِط حتى تُقامَ عليه الحجّة ويبيَّن له المحجّة، ومن ثبت إسلامُه بيقين لم يزل عنه ذلك بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامةِ الحجة وإزالة الشبهة"(١٧).

ومِن الضوابطِ أنه يجب التفريق بين الفِعل والفاعل والإطلاق والتعيين وتنزيل النصوص على الوقائع والأشخاص، جاء في مجموع الفتاوى ما نصُّه: "فإنّ نصوصَ الوعيد التي في الكتاب والسنة ونصوصَ الأئمة بالتكفير والتفسيق ونحوِ ذلك لا يستلزم ثبوتَ موجبِها في حقّ المعيَّن إلاّ إذا وُجدت الشروط وانتفَت الموانع، لا فرقَ في ذلك بين الأصول والفروع"(١٨).

ومنها أنّ الكفرَ نوعان: أكبر وأصغر، اعتقاديّ وعمليّ، وهذا ممّا التبس على كثيرٍ ممّن يتراشقون بالتكفير، فغفلوا عن الجمع بين النّصوص والمنهجِ الصحيح فيما ظاهره التعارض.

ولهذا ذهَب جماهير العلماءِ سَلفًا وخلَفًا إلى التفصيل في قضيّة الحاكميّة، وهو مذهبُ حَبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما حيث يقول رضي الله عنهما: (ليس بالكفرِ الذي يذهبون إليه، وإنما هو كفرٌ دون كفر)(١٩)، وإليه ذهب الطبريّ وابن كثير والقرطبيّ وعِكرمة ومجاهد وعطاء وطاوس والزجّاج والآجريّ وابن عبد البرّ والسمعانيّ والجصّاص وأبو يعلى وأبو حيّان وابن بطّة وابن عطيّة وابن الجوزيّ وشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وأئمة الدعوة والمحقّقون قديمًا وحديثًا.

وعدَّ أهلُ العِلم أربعَ حالاتٍ في هذه المسألة على تفصيلٍ نفيس يحقّق الجمعَ بين النصوص، ممّا

يؤكّد الإجماعَ على براءةِ أهل السنة من تكفير عُصاةِ الأمّة، مع أنّ وجوبَ الحكم بما أنزل الله لا يتمارى فيه مسلمان، وكلُّ مسلم للحُكم بغير الشريعةِ من القالين، بيدَ أنّ هذا الجُرمَ المستبين لا ينبغي أن يُخرجنا لحماسةٍ مشبوهةٍ وعاطفة جيّاشةٍ عن قواعدِ أهل العِلم والإيمان وأصولِ أهل السنة والقرآن ومنهج السلف في النظرَ والاستدلال، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال؟!

ومن الضوابطِ في هذه المسألة أنّه لا يُكفَّر باللوازم من الأقوال، ولا يُعتبَر بما تؤول إليه مِن أفعالَ، يقول الإمام الشاطبيّ رحمه الله: "مذهبُ المحقّقين من أهلِ الأصول أنّ الكفرَ بالمآل ليسَ بكفرٍ في الحال"، وقالَ الحافظ ابن حجر: "إنّ الذي يُحكَم عليه بالكفر مَن كان الكفرُ صريحَ قوله، وكذا من كان لازمَ قوله وعُرِضَ عليه فالتزمَه، أمّا من لم يلتزمه وناضَل عنه فإنّه لا يكون كافرًا ولو كان اللازم كفرًا"(٢٠).

وأخيرًا - يا رعاكم الله - فإنّه لا يكفَّر إلاّ من أجمع أهل الإسلام على تكفيره أو قام على تكفيره دليلٌ لا معارضَ له، حكاه ابن عبد البرّ وابن بطّال وشيخ الإسلام ابن تيمية والإمام المجدّد محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله إذ يقول: "ولا نكفّر إلاّ ما أجمع عليه العلماء كلُّهم"(٢١).

مع أنّ من مسلّماتِ هذه القضيّة العلمَ بأنّ هذا العملَ كفرٌ، فالجاهلُ لا يكفَّر حتى تقومَ عليه الحجّة، يقول الإمام أحمد في الجهمية: "لو قلتُ قولَكم لكفرتُ، ولكنّي لا أكفّركم لأنّكم عندي جُهّال"(٢٢)، ويقول شيخ الإسلام: "وهذا المتأوّل ينبغي إقامةُ الحجّة عليه أوّلاً وإظهارُ خطئه وإعلامُه بالحقّ، كما ينبغي أن تُعلَمَ الموانع المانعةُ من التكفير، ومنها الجهلُ والخطأ والإكراه، قال تعالى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ [النحل:١٠٦]، ومنها التأويل السائغ، ولهذا اتّفقَ الصحابة رضي الله عنهم على عدَم تكفير من استحلُّوا الخمرَ لوجود الشبهةِ لديهم، وهي تأويلُهم قولَ الله عزّ وجلّ: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا الآية [المائدة:٩٣]"(٢٣).

الإسلام لا يقر الفوضى والإجرام

وبعدُ: أيها المسلمون، فإنّ الغيورن حينما يبيّنون خطورةَ المجازفةِ في التكفير ويذكرون شروطَ التكفير وضوابطَه فإنهم يُعلِنون للعالَم بأسره أنّ الإسلام بريء من هذا المعتقَد الخاطئ، وأنّ ما جرى في بلادِنا المحروسَة ويجري في بعض بلاد المسلمين من سَفك الدماء المعصومة وإزهاقِ الأنفس البريئة وأعمال التفجير والتدمير والتخريب والإفساد والإرهاب لهُو من الأعمال الإجراميّة المحرّمة، ولا يجوز أن يُحمّل الإسلام وأهلُه المعتدلون جَريرةَ هذه الأحداث التي هي إفرازُ فِكرٍ تكفيريّ منحرف، ممّا تأباه الشريعة السَمحةُ والفُطر السليمة والعقول المستقيمة.

أيّها الإخوةُ في الله، إنّ ظاهرةَ الغلوّ في التكفير والاعتساف لهي من أخطرِ ما بُليت به الأمّة فحوّلها إلى إسرافٍ في أطراف.

لقد بدأت هذه الفتنةُ بحَرب كلام، وانتهت إلى استحلال الدم الحرام، وزاد شططُها حينما حُمِلَ السلاحُ في وجه الأمّة، وأذكي أُوارُها حينما برزت في صورةِ فتاوًى تكفيريّة تحريضيّة، تلقّفها حُدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، فسلكوا مسالكَ أهل البغي والإجرام، فهل بعدَ هذا يسَعُ السكوتُ من أهلَ الإسلام؟!

التكفير والتدمير تنعكس آثاره السلبية على العالم بأسره

لقد كان الغيورُ على أبناءِ أمّته يرى خلال الرمادِ وميضَ نارٍ وأنّ الحربَ أوّل ما تكون فتيّةً، واليومَ نرى الأمرَ أمرًا منكرًا، فما زال الفِكر التكفيريّ يسري بقوّةٍ في صفوف شباب الأمة الذين نظر بعضُهم إلى المجتمعات نظرةً سوداويّة قاتمة، وأنّه لا مَخرجَ من المِحَن والبلايا التي رُزئت بها الأمّة إلا بالتكفير ثم التفجير والتدمير.

ومما يزيد في الأسَى ما يُرى من تسرُّب هذه اللوثةِ الخطيرة إلى بعض شباب الأمّة، ويعظُم الأمرُ حينما يكون الحكم بالتكفير جزافًا على وُلاةِ أمر المسلمين ومَن بايعهم على الكتاب والسنة من العلماء الربانيّين، فرُموا بالعَمالة والمداهَنة، بل لقد سَرى الخطَر إلى عوامّ المسلمين وناشئتهم.

العلماء هم أولى الناس بمواجهة ذلك الخطر والعنف لا يواجه بالعنف

وممّا مدّ في أجل هذا الفكرِ المتهافتِ وبسَط رواجَه هو التقصيرُ في التصدّي له وذكرِ أسبابه، والتي من أهمّها ضحالةُ العِلم وقلّةُ الفهم والخطأ في منهجيّة الطلَب والتحصيل، فلم يُؤخَذ العلم من أهلِه المعروفين، بل زُهِّد فيهم، وأُفقِدتِ الثقةُ بهم، مع عدَم الدراية بمقاصِد الشريعة وقواعدِ الفقه ورعاية المصالح العليا في الأمّة والتعلّق بشُبَه ومتشابهات، مع تركٍ للنصوص المحكمات الواضحات، إضافةً إلى ما يعُجُّ به واقِع الأمّة من صُور من الظلم والاضطهاد، غيرَ أنّ ذلك ليس بمبرِّر ولا مُسوِّغ للخَطأ، فالعُنف لا يعالجُ بالعُنف، وإذا كان المصلِحون يرَونَ الأمّة ممزّقةً والممتلكات مغتصَبة والمقدّسات مستلَبَة فهل المخرَجُ من هذه الرزايا بتكفير الوُلاة والخروج على الجماعة وحمل السلاح في وجه الأمة؟! ألا يفيق هؤلاء؟! ألا يعتبِرون بمن

حَولهم؟! ألم يقرؤوا التاريخَ ليدركوا كم أضرَّ هذا الفكرُ بالأمّة وصدّها عن دينها وخوّف شبابها من التمسُّك بالسنة والتزام الشريعة؟! ماذا قدّم هذا الفكر الأحاديّ للأمّة؟! وماذا أثمرَ في مسيرةِ الدعوةِ والعملِ الخيريّ والإصلاحي؟! فاللهمَّ غُفرًا غُفرًا، أفلا يَسَع هؤلاءِ ما وسِع أنبياءَ الله ورسلَه وصحابةَ رسول الله والسلفَ الصالح ومن تبعهم بإحسان، فشغلوا أنفسهم تعلُّمًا وتعليمًا ودعوةً وإصلاحًا؟!

أيّها الإخوةُ في الله، أمّا العلاجُ فبالعِلم العِلم، وبالفهم الفهم، وبالحِوار الحوار، حتى لا تخربَ الديار ويحلّ الدّمار ويلحَق بالأمّة العارُ والشّنار، وما أشبهَ الليلةَ بالبارحة، فلقد كفّر أسلافُ هؤلاء خيارَ هذه الأمة من صحابة رسول الله، ورضي الله عنهم وأرضاهم، وجازى من كفّرهم وعاداهم بما يستحقّ دنيا وأخرى.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أنّ الناس في هذه القضيّة طرفان ووسَط، فأهلُ السنّة والجماعة وسطٌ بين الخوارج والمرجئة، وكما عانتِ الأمّةُ من فِكر التكفير عانت من الإرجاء والتأخير، ولهذا وضَع أهلُ العلم بابَ الردّة ونواقض الإسلام، غيرَ أنّه لا بدّ أن يتصدّى لذلك ذوو العِلم والبصيرة.

وطالَب بعضُ المنهزمين فكريًا بتمييع الدين وذوبان الشريعة بدعاوي فجّة، ونسبوا إلى مناهج التعليم الشرعيّة النقصَ والثّلب، لا بلّغهم الله ما يرومون.

والدعوةُ موجّهةٌ بحرارةٍ إلى شباب الأمّة باليقظة والانتباه وأخذِ الحذر من كلِّ انحرافٍ فكريّ يجانب منهجَ الوسطية والاعتدال.

والنداءُ موجّهٌ إلى شبابِ بلاد الحرمين خاصة وشباب المسلمين عامة الذين نشؤوا على صحّةِ المعتقد والسنّة ومنهج أئمة الدعوة الإصلاحيّة المباركة أن يحذَروا اللوثاتِ الفكريّة المنحرفة، وأن يثبُتوا على منهجهم الصحيح رغم التحديات والمتغيِّرات، وأن يلتحِموا بولاتهم وعلمائهم، وأن يحذَروا من أن يُستغَلّوا أو يستهدَفوا ويستفزُّوا، في أفكارٍ دخيلةٍ أو مناهجَ هزيلة.

وإلى المصطادين بالماء العَكِر المستغلِّين كلَّ هفوةٍ من بعض الأخيار والصالحين أن كُفُّوا عن تعميم الأحكام، وعلى رسلِكم عن الوقيعة في شبابِ الإسلام، فوالله لن يصلُحَ حالُ الأمّة إلا بالقيام بأمرِ الدين ونُصرة حَملتِه والذبِّ عن أعراض الصالحين المصلحين والدعاة الصادقين وإعلاءِ رايةِ الحسبة والدعوة إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويعلم الله الذي لا إلهَ غيرُه أنّ ذلك عينُ النُّصح للأمّة والسعي في براءةِ الذمّة وإن شرِق بذلك أناسٌ وطار فرحًا آخرون، فليس يخلُو المرء من قدحٍ ومَدح وإن كان أقومَ من قِدح، لكن العزاء الانتصارُ للحقّ بدليله وإن سخِط الناسُ كلُّ الناس، وحسبُنا أنه محضُ النصيحةِ الموافِقة للنصوص الصحيحة والنقولِ الصريحة، إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود:٨٨].

الهوامش

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر (٢٥٨٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٦٧)، ومسلم في القسامة (١٦٧٩) عن أبي بكرة رضي الله عنه، وثبت عن غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم.

(٤) السيل الجرار (٤/٥٨٤-٥٨٥).

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب (٦١٠٤)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٦٠).

(٦) صحيح البخاري: كتاب الأدب (٦٠٤٥)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٦١) واللفظ له.

(٧) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٥) من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه.

(٨) المعجم الأوسط (٧٣٥٤)، وأخرجه أيضا أبو يعلى في مسنده (٢٣١٧)، قال الهيثمي في المجمع (١/١٠٧): "رجاله رجال الصحيح"، ولم يعزه لأحمد.

(٩) من الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، المشهورة بنونية ابن القيم.

(١٠) العقيدة الطحاوية (ص١٩). (١١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٦). (١٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٨).

(١٣) التفرقة بين الإيمان والزندقة، انظر: انظر: فتح الباري (١٢/٣٠٠).

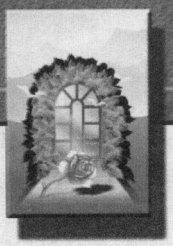
(١٤) شرح صحيح مسلم (١/١٥٠). (١٥) الرد على البكري (٢/٤٩٢). (١٦) انظر: الدرر السنية ().

(١٧) مجموع الفتاوى (١٢/٤٦٦). (١٨) مجموع الفتاوى (١٠/٣٧٢).

(١٩) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣)، والطبري في تفسيره (٦/٢٥٦)، والبيهقي في الكبرى (٨/٢٠)، وصححه الحاكم (٣٢١٩).

(٢٠) انظر: فتح المغيث (٢/٦٩). (٢١) انظر: الدرر السنية (١/٦٥).

(٢٢) قال نحوه ابن تيمية للجهمية من الحلولية والنفاة، انظر: الرد على البكري (٢/٤٩٤).



الخلافات الزوجية: أسبابها وعلاجها

إعداد
د. صالح بن عبد الله بن حميد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فاعلم- وفقك الله- أن من أعظم نعم الله وآياته أن البيت هو المأوى والسَّكَن؛ في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة، والحصانة والطُّهر، وكريم العيش والسِّتر.. في كنَفه تنشأ الطفولة، ويترعرع الأحداث وتمتد وشائج القربى، وتتقوَّى أواصر التكافل.

ترتبط النفوس بالنفوس.. وتتعانق القلوب بالقلوب: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

في هذه الروابط المتماسكة، والبيوتات العامرة، تنمو الخصال الكريمة، وينشأ الرجال الذين يُؤتمنون على أعظم الأمانات، ويُربَّى النساء اللاتي يَقُمن على أعرق الأصول.

من أسباب الخلاف بين الزوجين

غير أن واقع الحياة وطبيعة البشر- كما خلقهم الله سبحانه، وهو أعلم بمن خلق- قد يكون فيها حالات لا تؤثِّر فيها التوجيهات، ولا تتأصَّل فيها المودَّة والسَّكَن، مما قد يصبح معه التمسُّك برباط الزوجية عَنَتًا ومشقةً، فلا يتحقق فيه المقصود ولا يحصل به صلاح النَّشء؛ وهذه الحالات من الاضطراب، وعدم التوافق، قد تكون بواعثها داخلية أو خارجية. فقد ينبعثُ من تَدَخُّل غير حكيم من أولياء الزوجين أو أقاربهما، أو تَتَبُّع للصغير والكبير من أمورهما، وقد يصل الحال من بعض الأولياء وكُبَرَاءِ الأسرة إلى فرض السَّيطرة على من يَلُونَ أمرهم؛ مما قد يقود إلى الترافع إلى المحاكم؛ فتفشو الأسرار وتنكشف الأستار، وما كان ذلك إلا لأمرٍ صغيرٍ أو شيء حقير؛ قاد إليه التدخُّل غير المناسب، والبعد عن الحكمة، والتعجل والتسرُّع، وتصديق الشائعات وقالة السوء. وقد يكون منبع المشكلة: قلة البصيرة في الدين والجهل بأحكام الشريعة السمحة، وتراكم العادات السيئة والتمسك بالآراء الكليلة.

فيظن بعض الأزواج- مثلاً- أن التهديد بالطلاق أو التلفظ به هو الحل الصحيح للخلافات الزوجية والمشكلات الأسرية، فلا يعرف في المخاطبات سوى ألفاظ الطلاق، في مدخله ومخرجه، وفي أمره ونهيه، بل في شأنه كله، وما درى أنه بهذا قد اتَّخَذ آيات الله هزوًا؛ يأثم في فعله ويهدم بيته ويخسر أهله.

إن طلاق السُّنَّة الذي أباحته الشريعة لا يُقصد منه قطع حبال الزوجية، بل قد يقال إنه إيقاف لهذه العلاقة ومرحلة تريُّثٍ وتدبر ومعالجة: ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ١، ٢].

هذا هو التشريع، بل إن الأمر ليس مقتصرًا على هذا، إن طلاق السُّنة هو الوسيلة الأخيرة في المعالجة وتسبق ذلك وسائل كثيرة.

من وسائل علاج الاختلاف بين الزوجين

حينما تظهر أمارات الخلاف وبوادر النشوز أو الشقاق فليس الطلاق أو التهديد به هو العلاج.

إن أهم ما يُطلب في المعالجة: الصبر والتحمُّل، ومعرفة الاختلاف في المدارك والعقول، والتفاوت في الطباع. مع ضرورة التسامح والتغاضي عن كثير من الأمور، ولا تكون المصلحة والخير دائمًا فيما يحب الزوج ويشتهي، بل قد يكون الخير فيما لا يحب ولا يشتهي: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

ولكن حينما يبدو الخلل ويظهر في الأواصر تحلل، ويبدو في المرأة نشوز وتَعَالٍ على طبيعتها وتوجه إلى الخروج عن وظيفتها، حيث تَظْهر مبادئ النفرة، ويتكشَّف التقصير في حقوق الزوج والتنكر لفضائل البعل، فعلاج هذا في الإسلام صريح، ليس فيه ذكر للطلاق لا بالتصريح ولا بالتلميح. يقول الله سبحانه في محكم التنزيل: ﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ

وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٣٤].

يكون العلاج: بالوعظ والتوجيه وبيان الخطأ، والتذكير بالحقوق، والتخويف من غضب الله ومَقْتِه، مع سلوك مسلك الكَيَاسة والأناة ترغيبًا وترهيبًا.

وقد يكون الهجر في المضجع والصدود، مقابلاً للتعالي والنشوز، ولاحظوا أنه هَجْرٌ في المضجع وليس هجرًا عن المضجع، إنه هَجْرٌ في المضجع وليس هجرًا في البيت، ليس أمام الأسرة أو الأبناء أو أمام الغرباء.

الغرض هو المعالجة وليس التشهير أو الإذلال أو كشف الأسرار والأستار، ولكنه مقابلةٌ للنشوز والتعالي بهجر وصدود يقود إلى التضامن والتساوي، وقد تكون المعالجة بالقصد إلى شيء من القسوة والخشونة، فهناك أجناس من الناس لا تغني في تقويمهم العِشرة الحسنة والمناصحة اللطيفة، إنهم أجناس قد يبطرهم التلطُّف والحلم، فإذا لاحت القسوة سكن الجامح وهدأ المهتاج.

نعم، قد يكون اللجوء إلى شيء من العنف دواءً ناجعًا، ولماذا لا يلجأ إليه وقد حصل التنكُّر للوظيفة والخروج عن الطبيعة؟

ومن المعلوم لدى كل عاقل أن القسوة إذا كانت تعيد للبيت نظامه وتماسُكه، وتردُّ للعائلة أُلْفَتَها ومودَّتها فهو خير من الطلاق والفراق بلا مِراء؛ إنه علاج إيجابي تأديبي معنوي، ليس للتشفي ولا للانتقام، وإنما يُسْتَنْزل به ما نشز، ويُقَوَّم به ما اضطرب، وإذا خافت الزوجة الجفوة والإعراض من زوجها فإن القرآن الكريم يرشد إلى العلاج بقوله: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، العلاج :بالصلح والمصالحة، وليس بالطلاق ولا بالفسخ، وقد يكون بالتنازل عن بعض الحقوق المالية أو الشخصية محافظةً على عقدة النكاح، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾... الصلح خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق.

هذا عرضٌ سريعٌ، وتذكير موجزٌ، بجانب من جوانب الفقه في دين الله والسير على أحكامه، فأين منه المسلمون؟ أين تحكيم الحَكَمين في الشقاق بين الزوجين؟ لماذا ينصرف المصلحون عن هذا العلاج؟ هل هو زُهد في إصلاح ذاتٍ، أو رغبةٌ في تشتيت الأسرة وتفريق الأولاد؟ إنك لا ترى إلا سفهًا وجَوْرًا، وبعدًا عن الخوف من الله ومراقبته، وهجرًا لكثير من أحكامه وتلاعبًا في حدوده.

أخرج ابن ماجه وابن حبان وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بال أحدكم يلعب بحدود الله؛ يقول: قد طلّقت قد راجعت؟ أيُلعب بحدود الله وأنا بين أظهركم». [سنن ابن ماجه ٢٠١٧، صحيح ابن حبان ٤٢٦٥].

الوسيلة الأخيرة في معالجة الاختلاف

عندما تفشل جميع الوسائل في علاج الاختلاف، ويصبح الإبقاء على رباط الزوجية شاقًا وعسيرًا بحيث لا يتحقق معه الأهداف والحكم الجليلة التي أرادها الله تعالى، فمن سماحة التشرع وتمام أحكامه أن جعل مخرجًا من هذه الضائقة، غير أن كثيرًا من المسلمين يجهلون طلاق السُّنَّة الذي أباحته الشريعة، وصاروا يتلفَّظون بالطلاق من غير مراعاة لحدود الله وشرعه.

إن الطلاق في الحيض محرَّمٌ، وطلاق الثلاث محرَّمٌ والطلاق في الطهر الذي حصل فيه وطء محرَّم، فكل هذه الأنواع طلاقٌ بدعيٌّ محرَّم يأثم صاحبه، ولكنه يقع طلاقًا في أصح أقوال أهل العلم.

أما طلاق السنة الذي يجب أن يفقهه المسلمون فهو: الطلاق طلقةً واحدة، في طُهر لم يحصل فيه وطء، أو الطلاق أثناء الحمل.

إنَّ الطلاق على هذه الصفة علاجٌ؛ حيث تحصل فتراتٌ يكون فيها التريُّث والمراجعة.

والمطلِّق على هذه الصفة يحتاج إلى فترة ينتظر فيها مجيء الطُّهر، ومَن يدري... فقد تتغير النفوس، وتستيقظ القلوب، ويُحدث الله من أمره ما شاء.

وفترة العِدَّة- سواءً كانت عِدَّةً بالحيض أو الأشهر أو وضع الحمل- فرصةٌ للمعاودة والمحاسبة قد يُوصل معها ما انقطع من حبل المودة ورباط الزوجية.

ومما يجهله المسلمون: أن المرأة إذا طُلقت رجعيًا فعليها أن تبقى في بيت الزوج، لا تَخْرج ولا تُخرج.

بل إن الله جعله بيتًا لها: ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ تأكيدًا لحقهنَّ في الإقامة. فإقامتها في بيت زوجها سبيلٌ لمراجعتها، وفتح أملٍ في استثارة عواطف المودة، وتذكير بالحياة المشتركة، فالزوجة في هذه الحالة تبدو بعيدةً في حكم الطلاق، لكنها قريبة من مرأى العين.

وهل يراد بهذا إلا تهدئة العاصفة، وتحريك الضمائر، ومراجعة المواقف، والتأنِّي في دراسة أحوال البيت والأطفال وشئون الأسرة: ﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

فاتقوا الله أيها المسلمون، وحافظوا على بيوتكم، وتعرَّفوا على أحكام دينكم، وأقيموا حدود الله ولا تتجاوزوها، وأصلحوا ذات بينكم.



البيت..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فكثير من الناس يطلب السعادة، ويلتمس الراحة وينشد الاستقرار وهدوء النفس والبال، كما يسعى في البعد عن أسباب الشقاء والاضطراب، ومثيرات القلق، ولا سيما في البيوتات والأسر.

وليعلم أن كل ذلك لا يتحقق إلا: بالإيمان بالله وحده، والتوكل عليه، وتفويض الأمور إليه، مع الأخذ بما وضعه من سنن وشرعه من أسباب.

أهمية بناء الأسرة والالفة في بيت الزوجية

وإن من أعظم ما يؤثر في ذلك على الفرد وعلى الجماعة: بناء الأسرة واستقامتها على الحق؛ فالله سبحانه بحكمته جعلها المأوى الكريم الذي هيأه للبشر من ذكر وأنثى، يستقر فيه ويسكن إليه، يقول جل جلاله وتقدَّست أسماؤه- ممتنًا على عباده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

نعم، ليسكن إليها، ولم يقل ليسكن معها، مما يؤكد معنى الاستقرار في السلوك والهدوء في الشعور، ويحقق الراحة والطمأنينة بأسمى معانيها؛ فكلٌّ من الزوجين يجد في صاحبه الهدوء عند القلق، والبشاشة عند الضيق.

إن أساس العلاقة الزوجية: الصحبة والاقتران القائمان على الودّ والأُنس والتآلف. إنَّ هذه العلاقة عميقة الجذور بعيدة الآماد، إنها أشبه ما تكون صلة للمرء بنفسه، بينها كتاب ربنا بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فضلاً عما تُهيئه هذه العلاقة من تربية البنين والبنات وكفالة النشء، التي لا تكون إلا في ظلِّ أمومة حانية وأبوة كادحة.

وأي بيئة أزكى من هذا الجو الأسري الكريم؟

دعائم بناء الأسرة المسلمة

هناك أمور كثيرة يقوم عليها بناء الأسرة المسلمة وتتوطَّد فيها العلاقة الزوجية، وتبتعد فيها عن رياح التفكك، وأعاصير الانفصام والتصرم:

١- الإيمان بالله وتقواه:

وأول هذه الأمور وأهمها: التمسك بعروة الإيمان الوثقى، الإيمان بالله واليوم الآخر، والخوف من المطلع على ما تكنه الضمائر، ولزوم التقوى والمراقبة، والبعد عن الظلم والتعسف في طلب الحق.

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ويقوى هذا الإيمان: الاجتهاد في الطاعة والعبادة والحرص عليها والتواصي بها بين الزوجين، تأملوا قوله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء- يعني رش عليها الماء رشًا رفيقًا- ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». [أحمد في المسند ٢/٢٥٠، ٤٣٦].

إن العلاقة بين الزوجين ليست علاقة دنيوية مادية، ولا شهوانية بهيمية، إنها علاقة روحية كريمة، وحينما تصح هذه العلاقة وتصدق هذه الصلة، فإنها تمتد إلى الحياة الآخرة بعد الممات: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

٢- المعاشرة بالمعروف:

إن مما يحفظ هذه العلاقة ويحافظ عليها: المعاشرة بالمعروف، ولا

السعيد

د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

يتحقق ذلك إلا بمعرفة كل طرف ما له وما عليه، وإن نُشْدان الكمال في البيت وأهل البيت أمر متعذر، والأمل في استكمال كل الصفات فيهم أو في غيرهم شيء بعيد المنال في الطبع البشري.

دور الزوج في الحفاظ على بيت الزوجية والمعاشرة بالمعروف:

ومن رجاحة العقل ونضج التفكير توطين النفس على قبول بعض المضايقات، والغض عن بعض المنغصات، والرجل- وهو رب الأسرة- مطالبٌ بتصبير نفسه أكثر من المرأة، وقد علم أنها ضعيفة في خَلْقها وخُلُقها، إذا حوسبت على كل شيء عجزت عن كل شيء، والمبالغة في تقويمها يقود إلى كسرها، وكسرها طلاقها، يقول المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن خُلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا». [البخاري ٥١٨٦، ومسلم ١٤٦٨]، فالاعوجاج في المرأة من أصل الخلقة، فلابد من مسايرته والصبر عليه.

فعلى الرجل ألا يسترسل مع ما قد يظهر من مشاعر الضيق من أهله وليصرف النظر عن بعض جوانب النقص فيهم، وعليه أن يتذكر جوانب الخير فيهم، وإنه لواجدٌ في ذلك شيئًا كثيرًا.

وفي مثل هذا يقول الرسول ﷺ: «لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة- أي لا يبغض ولا يكره- إن كره منها خلقًا رضي منها آخر». [مسلم ١٤٦٩]، وليتأن في ذلك كثيرًا فلئن رأى بعض ما يكره فهو لا يدري أين أسباب الخير وموارد الصلاح.

يقول عز من قائل: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وكيف تكون الراحة؟ وأين السكن والمودة؟ إذا كان رَبُّ البيت ثقيل الطبع، سيئ العشرة ضيّق الأفق، يغلبه حمق، ويعميه تعجُّل، بطيء في الرضى، سريع في الغضب، إذا دخل فكثير المنّ، وإذا خرج فسيئ الظن، وقد عُلم أن حسن العشرة وأسباب السعادة لا تكون إلا في اللين والبعد عن الظنون والأوهام التي لا أساس لها، إن الغيرة قد تذهب ببعض الناس إلى سوء ظنٍّ.. يحمله على تأويل الكلام والشك في التصرفات، مما ينغص العيش ويقلق البال من غير مستند صحيح.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]. كيف وقد قال ﷺ: «خيركم، خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي». [رواه الترمذي: ٣٨٩٢، وابن ماجه ١٩٧٧، وابن حبان في صحيحه ١٣١٢].

دور الزوجة في الحفاظ على بيت الزوجية والمعاشرة بالمعروف:

أما المرأة المسلمة: فلتعلم أن السعادة والمودة والرحمة لا تتم إلا حين تكون ذاتَ عفةٍ ودين، تعرف ما لها فلا تتجاوزه ولا تتعداه، تستجيب لزوجها؛ فهو الذي له القوامة عليها يصونها ويحفظها وينفق عليها، فتجب طاعته وحفظه في نفسها وماله، تتقن عملها وتقوم به وتعتني بنفسها وبيتها، فهي زوجة صالحة وأمٌ شفيقة، راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، تعترف بجميل زوجها ولا تتنكر للفضل والعشرة الحسنة. يحذر النبي ﷺ من هذا التنكر ويقول: «أُريت النار فإذا أكثر أهلها النساء، يَكْفُرن»، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «لا، يَكْفُرن العشير؛ لو أحسنت لإحداهن الدهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط».

فلابد من دَمْح- أي غفران- الزلات والغض عن الهَفَوات، لا تسيء إليه إذا حضر ولا تخونه إذا غاب.

بهذا يحصل التراضي وتدوم العِشرة ويسود الإلف والمودة والرحمة. و«أيُّما امرأةٍ ماتت زوجها عنها راضٍ دخلت الجنة». [رواه الترمذي: ١١٦١ وحسنّه، وابن ماجه: ١٨٥٤].

فاتقوا الله، واعلموا أنه بحصول الوئام تتوفَّر السعاة، ويتهيأ الجو الصالح للتربية، وتنشأ الناشئة في بيتٍ كريم مليء بالمودة عامر بالتفاهم، بين حنان الأمومة وحدب الأبوة، بعيدًا عن صخب المنازعات والاختلاف، وتطاول كل واحد على الآخر، فلا شقاق ولا نزاع ولا إساءة إلى قريب أو بعيد.. ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فَرَحِمَ الله رجلاً محمود السِّيرة، طيِّب السَّريرة، سهلاً رفيقًا، ليِّنًا رؤوفًا، رحيمًا بأهله حازمًا في أمره، لا يكلف شططًا ولا يرهق عُسرًا، ولا يهمل في مسئولية.

ورحم الله امرأة لا تطلب غلطًا ولا تكثر لغطًا صالحةً قانتةً حافظةً للغيب بما حفظ الله.

والحمد لله رب العالمين

باب: منبر الحرمين

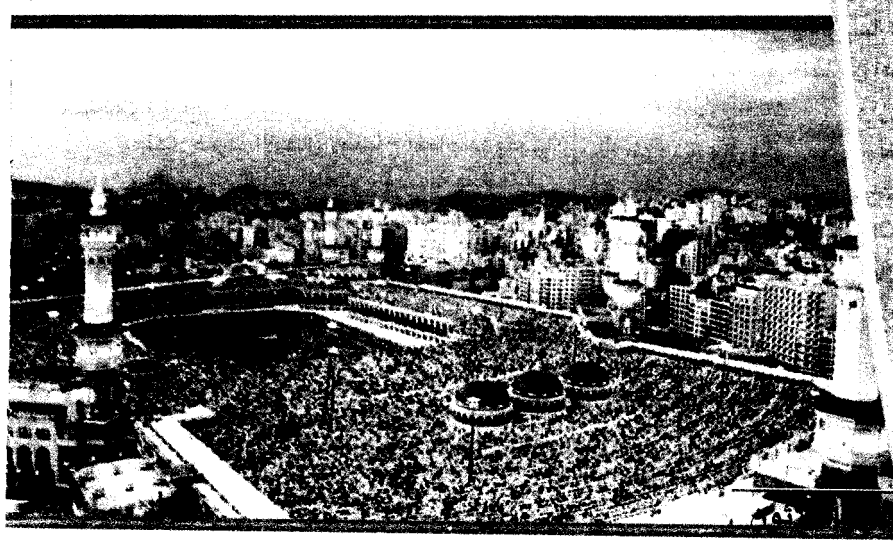
المال الحرام وتنقية المكاسب

لفضيلة الشيخ/ حسين آل الشيخ
إمام المسجد النبوي

الحمدُ لله على إحسانِه، والشكر له على توفيقِه وامتنانه، وأشهَد ان لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له تعظيمًا لشانه، وأشهَد انَّ سيّدنا ونبيّنا محمّدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله واصحابه وإخوانه.

معاشرَ المسلمين، إنَّ عالمَ اليوم عالمٌ تغيَّرت فيه كثيرٌ من القيَم الصَّحيحة وتبدَّلت فيه المفاهيمُ المستقيمة، عالمٌ تتغالب فيه البشَر على التنافس في جلبِ المصالح واستحصال المنافع، الدّنيا هي المُنيَة وتحصيلُها هو الغاية، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم:٢٩، ٣٠].

والغريبُ أنّ بعضًا من المسلمين استهوته تلك الموجةُ العاصفة فزلَّت به القدمُ ومالَت به النفسُ الأمّارة بالسّوء، فراح يجمع الدّنيا بكلِّ طريق ويستكثِر منها بأيِّ سبيل، حتى صدَق على بعضٍ وليس بالقليلِ إخبارُ المصطفى بقولِه: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يُبالي المرءُ بما أخَذَ المالَ أمِن الحلال أم مِنَ الحرام» رواه البخاري، ولذا حرَص الإسلامُ على التوجيهِ الصريح والإرشادِ الجليّ حتى يكونَ المسلم حريصًا أشدَّ الحرص على تنقية مكاسبِه من كلِّ كسبٍ خبيثٍ أو مالٍ محرَّم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا



أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ [النساء:٢٩] ولا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ [البقرة:١٨٨]، ورسولُنا يقول: «مَن أكل طيِّبًا وعمِل في سنَّةٍ وأمِن الناسُ بوائقَه دخَل الجنَّة» صحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

معاشرَ المسلمين، المكاسبُ المحرَّمة ذاتُ عواقبَ وخيمةٍ وآثارٍ سيِّئة، أخطرُها وأشدّها أنها سببٌ من أسبابِ دخول النار ومن أسبابِ غضَب الجبّار، فرسولنا يقول لكعبِ بنِ عُجرة رضي الله عنه: «يا كعبُ، إنّه لن يربوَ لحمٌ نبت من سُحتٍ إلا كانتِ النّار أولى به» حديث صحّحه الحاكم ووافقه الذهبيّ! . والسّحتُ - يا عباد الله - مصطلح شرعيّ يشمل كلَّ مال اكتُسِب بالحرام.

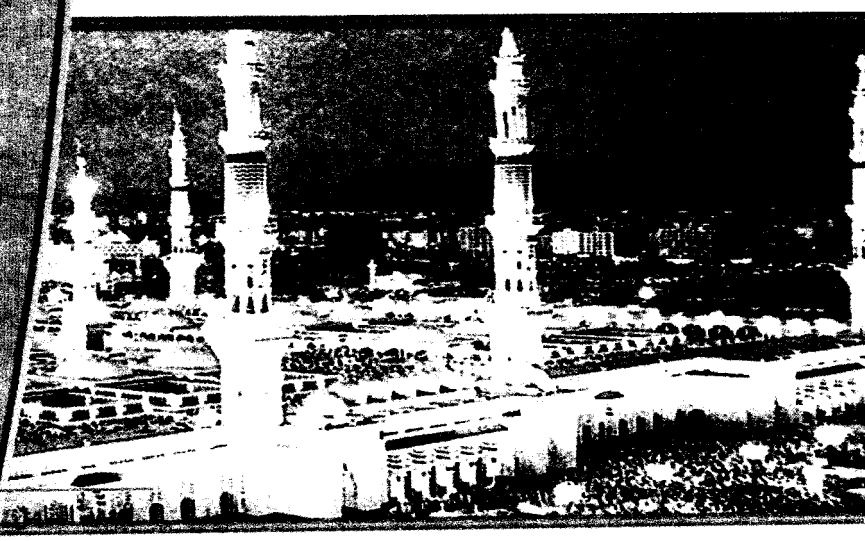
عبادَ الله، إنّ المالَ الحرامَ مِن جميع طرُقه شؤمٌ على صاحبه وضَرَر على جامعه، فرسولنا يقول: «لا يكسِب عبدٌ مالاً من حَرام فينفِق منه فيبارَك له فيه، ولا يتصدّق به فيقبَل منه، ولا يتركُه خلفَ ظهرِه إلاّ كان زادَه إلى النار» رواه أحمد والبيهقي وسنده حسن! ولهذا فمِن أسبابِ الشّقاء الشامِل وعوامِلِ الخذلان المستمرِّ على بلدانِ المسلمين جمعُ الأموال من طريقِ المكاسب المحرَّمة والوسائلِ الخبيثة، وإلاّ فهل مُنِعت الاستجابةُ إلاّ بسبَبِ المكاسب المحرّمة؟! وهل وقعتِ المصائب والإحَن إلاّ بانتشارِ الخبائثِ والموبقات. روى مسلم في صحيحه أن النبيَّ ﷺ ذكَرَ الرجلَ يطيل السّفرَ «أشعثَ أغبرَ يمدّ يدَيه إلى السّماء يقول: يا ربِّ يا ربّ، ومطعمُه حرام، وملبسه حرام، وغذيَ بالحرام، فأنى يستَجاب لذلك؟!» رواه مسلم!. وفي الحديثِ عند الترمذيِّ بإسنادٍ صحيح: «لا تقبَل صلاةٌ بغير طهور، ولا صدقةٌ من غُلُول»! والغلول عندَ أهلِ العلم مصطلحٌ لكلِّ ما اكتُسب من طريقٍ غيرِ شرعيّ عن طريق النّهب والسّلب. قال مالكُ بن دينار: "أصابَ الناسَ في بني إسرائيلَ قحطٌ فخرجوا مِرارًا فلم يسقَوا، فأوحى الله إلى نبيِّهم أن أخبِرهم أنّكم تخرجون إليَّ بأبدانٍ نجِسة وترفعون إليَّ أكُفًّا قد سفَكتُم بها الدماءَ وملأتم بطونكم من الحرام، الآنَ قد اشتدَّ غضبي عليكم، ولن تزدادوا مني إلا بُعدًا.

أيّها المسلمون، أكلُ الحرام منزوعُ البَركة مسلوبُ الاستقرار والطمأنينة، لا يقنَع بخير يأتيه، ولا يعينه كثيرٌ يجنيه، عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله خطيبًا فقال: «لا والله، ما أخشى عليكم - أيّها

حرص الإسلام على أن يتنقى المسلم مكاسبه من كل كسب خبيث ومال محرم

أكل الحرام لا بركة فيه ولا استقرار ولا طمأنينة فضلاً عن أن صاحبه لا تصلح استجابة دعائه

ليحذر المسلم الاعتداء على مال العام والتخوض في أموال المسلمين فإن التخوض في مال الله بغير حق فيه الوعيد الشديد



الناس - إلاّ ما يخرج الله لكم من زهرةِ هذه الدنيا» إلى أن قال: «فمن يأخُذ مالاً بحقِّه يبارَك له فيه، ومن يأخُذ مالاً بغير حقِّه فمثَلُه كمَثل الذي يأكُل ولا يشبَع» رواه البخاري ومسلم! وفي الحديثِ الصحيح أيضًا: «فإن كذَبا وكتَما مُحِقت بركةُ بيعهما».

فيا أيّها المسلم، إن كنتَ تحبّ نجاتَك وترجو سعادتك فاطِب كسبَك ونقِّ مالَك وتخلَّص من حقوق غيرك، فرسول الله يقول: «من كانت عندَه مظلمةٌ لأخيه من مالٍ أو عِرض فليأته فليستَحلِله من قبلِ أن يؤخَذَ منه وليسَ ثَمّ دينارٌ ولا درهم، فإن كانَت له حسناتٌ أخِذَ من حسناتِه لصاحبِه، وإلاّ أخِذ من سيّئات صاحبه فطُرِحت عليه فطرِح في النار» رواه البخاريّ!

فالحذَر الحذَر من كَسبِ الأموال من غير سُبُلِها المباحَة ونيلِها من غيرِ طُرُقِها المشروعة، فلقد أتتِ المكاسبُ المحرَّمة على بيوت آكليها فخرَّبتها، ودكّت صروحَ عزِّهم ومجدِهم فهَدَمتها، فبماذا يكون الجوابُ إذا وقفوا غدًا بين يدي الله جلّ وعلا وسألهم عن هذه الأموال بأيّ وجهٍ أخذوها؟ وبأيّ دينٍ استباحوها؟ فأنت - أيّها المسلم - مسؤول عن مالك: من أينَ اكتَسَبتَه؟ وفيم أنفَقتَه؟ كما صحّ بذلك الخبر عن المعصومِ صلوات الله وسلامه عليه.

فاجتنِبوا - عباد الله - في جمعكم للأموالِ المسالك المعوجّة والطرقَ الملتوية والمخالفةَ للأحكام القرآنيّة والتوجيهاتِ النبويّة والقواعدِ الشرعية. تبصَّروا فيما تقدِمون عليه وما إليه تتَّجهون من طرُقٍ للمكاسب بحثًا عن حكمِ الشرعِ الصحيح مِن مصادره المعتَمَدة وعلمائه الثِّقات الربانيّين، فمن اتّقى الله وقاه الله ورَزَقه من حيث لا يحتسِب ومن حيث لا يخطُر له على بال، ومَن ترك شيئًا لله عَوّضه الله خيرًا منه.

اللهمّ أغنِنا بحلالك عن حَرامك، وبفضلِك عمّن سواك.

معاشرَ المسلمين، مِن أعظم الخيانةِ وأقبحِ الأعمال أن يشرِّفَك الله - أيّها المسلم - بحَملِ أمانةِ عملٍ من أعمالِ المسلمين، ثم تتَّخِذ من ذلك العمَل مطيّةً لجمع الأموالِ ونيلِ المصالح الخاصّة بالنّهب والسّلب والتحايُل على ما ليس بحقّ.

فيا أيّها المسلم، اعلم علِمًا جازمًا أنّ أيّ وظيفة من الوظائف كبيرة أو صغيرة فهي أمانةٌ عظيمة ومسؤوليّة كبرى لا يجوز بأيّ حالٍ منَ الأحوال أن تجمَعَ الأموالُ بسبَبِها أو أن تُكتَسَب بواسطتها، فالحذرَ الحذرَ من ذلك، فلقد أرسَى رسول الله وهو صاحبُ الإصلاح الشامل، لقد أرسى قاعدةً لا تقبل تأويلَ المتأوّلين ولا تعسُّفَ المتعسّفين قاعدةً تتضمّن تحريمَ كسبِ الأموالِ عن طريق الوظائفِ والأعمال التي للمسلمين، فلقد استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدِ على الصّدقة، فلمّا قدِم قال: هذا لكُم وهذا أُهدِيَ إليّ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمِد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: «ما بالُ عامِلٍ أبعثُه فيقول: هذا لكم وهذا أهدِيَ إليّ؟! أفَلا قعَدَ في بيتِ أبيه أو بيتِ أمّه حتى ينظرَ أيُهدَى إليه أم لا؟! والذي نفسِ محمّدٍ بيَدِه، لا ينالُ أحدٌ منكم فيها شيئًا - أي: في الأعمال - إلاّ جاءَ بهِ يومَ القيامَة يحمِلُه على عُنُقه» الحديث رواه البخاري ومسلم! وقد بوّب له البخاريّ بقوله: "هدايا العُمّال غُلول"، قال ابنُ حجر رحمه الله: "وفيه إبطالُ كلّ طريقٍ يَتَوصّل بها مَن يأخُذ المال إلى محاباةِ المأخوذِ منه والانفرادِ بالمأخوذ"!

واعلَم - أيّها المسلم في كلّ مكان - أنّ المالَ العامّ في ديار المسلمين من أراضٍ وعقاراتٍ وأموالٍ ومنقولات كلّها الأصلُ فيها العِصمةُ، لا يجوز الانتفاعُ بها في غيرِ محلّها، ولا يجوز بأيّ حالٍ الاعتداءُ على شيءٍ منها إلا بطريقٍ شرعيّ معتبَر عند أهل العلم. فاستمع - أيّها المتهاون بذلك - إلى تحذيرِ الشّرع وزَجرِه وردعه، يقول: «إنّ رجالاً يتخوّضون في أموالِ الله بغير حقٍّ فلهم النارُ يومَ القيامة» رواه البخاري! والمعنى أي: يتصرّفون في أموالِ المسلمين بالباطل، وجاء عند الترمذي وقال: "حديث حسن صحيح" أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ هذا المالَ خضِرة حلوَة، مَن أصابَه بحقّه بورِك له فيه، ورُبّ متخوّضٍ فيما شاءت نفسُه مِن مال الله ورسولِه ليس له يومَ القيامة إلاّ النار»! والعياذ بالله.

والله من وراء القصد

باب: منبر الحرمين

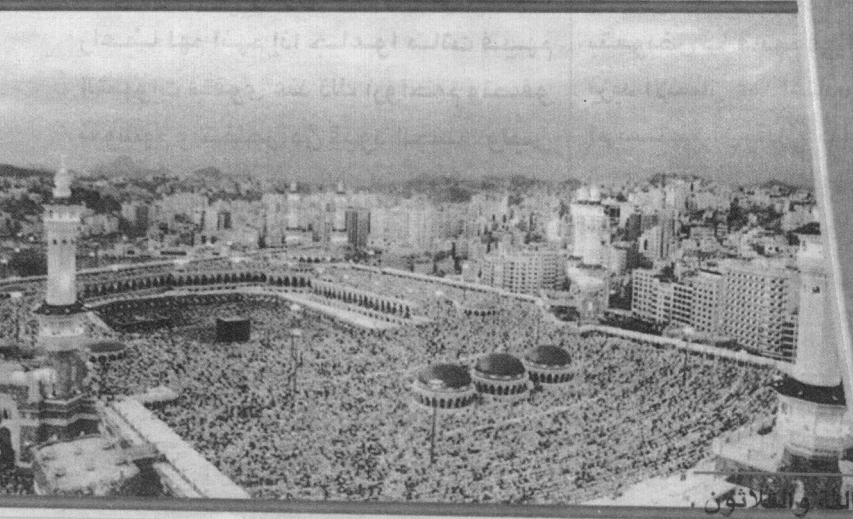
لفضيلة الشيخ/ عبد المحسن القاسم
إمام المسجد النبوي

مع اقتراب الرحيل

لقد يسّر الله طرقَ الخيرات، وتابع لعبادِه مواسمَ الحسنات، وربُّنا وحدَه هو مصرِّف الأيّام والشهور، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، جعل لكلِّ أجلٍ كتابًا، ولكلِّ عملٍ حسابًا، وجعل الدّنيا سوقًا يغدو إليها النّاس ويروحون، فبائعٌ نفسَه فمعتِقها أو موبِقها، والأيّام أجزاءٌ من العُمر ومراحل في الطّريق تفنى يومًا بعد يوم، مُضيُّها استنفادٌ للأعمار واستكمال للآثار وقربٌ من الآجال وغَلَقٌ لخزائن الأعمال.

مضَت ليالٍ غرٌّ بفضائلها ونفحات ربّها، وأوشك باقيها على الرّحيل وكأنّها ضربُ خيال، لقد قطعت بنا مرحلةً من حياتنا لن تعود. هذا هو شهرُكم، وهذه هي نهايته، كم من مستقبلٍ له لم يستكمِله، وكم من مؤمّلٍ أن يعودَ إليه لم يدركه، فاغتنِم ما بقي من الشّهر بمضاعفةِ الطّاعات، فأيّام رمضانَ تسارع مؤذنةً بالانصراف والرّحيل، وما الحياة إلاّ أنفاسٌ معدودة وآجال محدودة، وإنّ عمرًا يقاس بالأنفاس لسريعُ الانصرام.

ومرورُ الأيّام يذكّر بقربِ الرحيل، واحذَر الاغترارَ بالسّلامة والإمهالِ ومتابعة سوابغ المُنى والآمال، فالأيّام تُطوى والأعمار تفنَى، فاستلِفِ الزمن وغالِبِ الهوى، واجعَل لك في بقيّة الليالي مدَّخرًا فإنّها أنفس الذّخر، وابكِ على خطيئتِك واندَم على تفريطِك، واغتنِم آخرَ ساعاتِه بالدّعاء، ففي رمضانَ كنوزٌ غالية، وسلِ

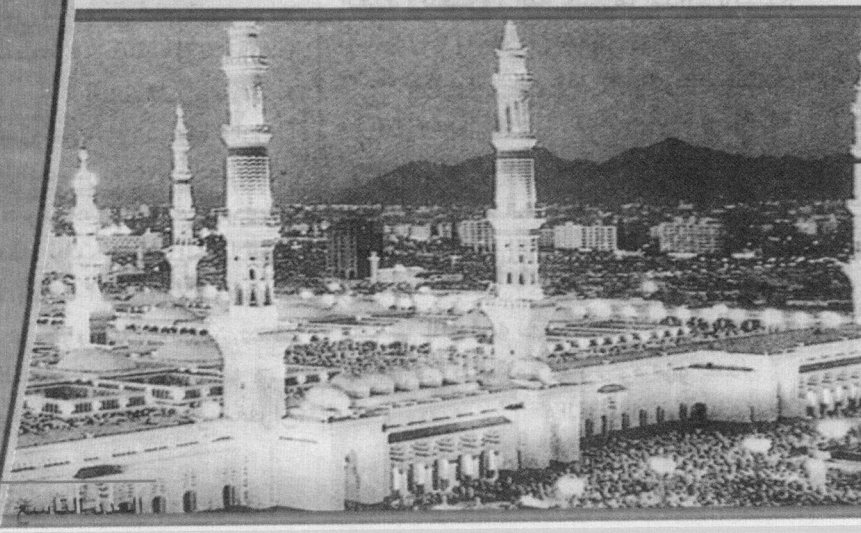


الكريمَ فخزائِنه ملأى ويداه سحّاء الليل والنّهار، واستنزِل بركةَ المالِ بالصدقة، وحصِّن مالَك بالزكاة، وكن للقرآن تاليًا، وودِّع شهرَك بكثرةِ الإنابة والاستغفار وقيام لله مخلص في دُجى الأسحار، وإن استطعتَ أن لا يسبقَك إلى الله في بقيّة شهرك أحدٌ فافعل، فلحظاتُ رمضانَ الأخيرة نفيسة، ولعلّك لا تدرك غيرَه، وافتَح صفحةً مشرقة مع مولاك، واسدِل الستارَ على ماضٍ نسيتَه وأحصاه الله عليك، وعاهِد نفسَك في هذا الشّهر بدوام المحافظةِ على الصّلوات الخمس في بيوتِ الله وبرِّ الوالدين وصلةِ الأرحام وتطهير مالِك عن المحرّمات والشّبهات وحفظِ لسانِك عن الكذب والغيبة وتطهير القلب من الحسَد والبغضاء وغضّ البصر عن المحرّمات والقيام بشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستدرك هفواتِ الفوات، فالترحُّل من الدنيا قد دنا، والتحوّل منها قد أزف، والرشيد من وقف مع نفسه وقفةَ حساب وعِتاب، يصحّح مسيرتَها ويتدارك زلّتها، يقول ابن حبّان رحمه الله: "أفضل ذوي العقولِ منزلةً أدومُهم لنفسه محاسبة، والسعيدُ من استودع صالحًا من عملِه، والشقيّ من شهدت عليه جوارحه بقبيح زَلَله".

والطاعة ليس لها زمنٌ محدود، ولا للعبادةِ أجل معدود، ويجب أن تسير النفوسُ على نهج الهدى والرّشاد بعد رمضان، فعبادة ربِّ العالمين ليست مقصورةً على رمضان، وليس للعبد منتهى من العبادةِ دون الموت، وبئس القوم لا يعرفون الله إلاّ في رمضان.

أيها المسلمون: إنّ للقبول والرِّبح في هذا الشّهر علامات، وللخسارة والردّ أمارات، وإنّ من علامة قبول الحسنةِ فعلُ الحسنة بعدها، ومِن علامةِ السيّئة السيّئة بعدها، فأتبِعوا الحسنات بالحسنات تكن علامةً على قبولها، وأتبِعوا السيّئات بالحسنات تكن كفارةً لها ووقايَة من خطرها، قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، ويقول النبيّ: «اتّقِ الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنة

إنّ للقبول والرّبح في هذا الشّهر علامات، وللخسارة والردّ أمارات، وإنّ من علامة قبول الحسنةِ فعلُ الحسنة بعدها، ومِن علامةِ السيّئة السيّئة بعدها، فأتبعوا الحسنات بالحسنات تكن علامة على قبولها، وأتبعوا السيّئات بالحسنات تكن كفارةً لها



تمحُها، وخالقِ الناسَ بخلقٍ حسن» رواه الترمذي. ومَن عزم على العودِ إلى التّفريط والتقصير بعد رمضان فالله يرضى عمّن أطاعه في أيّ شهر كان، ويغضَب على من عصاه في كلّ وقت وآن، ومدارُ السعادةِ في طول العمر وحسنِ العمل، يقول المصطفى : «خير النّاس من طَال عمره وصلح عملُه». ومداومة المسلم على الطاعة من غير قَصر على زمنٍ معيّنٍ أو شهر مخصوص أو مكان فاضل من أعظم البراهينِ على القبول وحسنِ الاستقامة.

إن انقضى موسم رمضانَ فإنّ الصيام لا يزال مشروعًا في غيره مِن الشهور، فقد سنّ المصطفى صيامَ يوم الاثنين والخميس، وقال: «إنّ الأعمالَ تعرَض فيها على الله، فأحبّ أن يعرَض عملي وأنا صائم»، وأوصَى نبيّنا محمّد أبا هريرة رضي الله عنه بصيام ثلاثةِ أيّام من كلّ شهر وقال: «صوم ثلاثةِ أيّام من كلّ شهر صومُ الدهرِ كلّه» متّفق عليه. وأتبِعوا صيامَ رمضان بصيام ستّ من شوال، يقول عليه الصلاة والسلام: «مَن صام رمضانَ ثمّ أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدّهر» رواه مسلم.

ولئن انقضى قيامُ رمضان فإنّ قيامَ الليل مشروع في كلّ ليلة من ليالي السّنة، وقد ثبت عن النبي أنّ الله ينزل إلى السّماء الدنيا كلّ ليلة حين يبقى ثلثُ الليل الآخر ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟.

وأحبّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ، والمغبون من انصرَف عن طاعةِ الله، والمحروم من حُرِم رحمةَ الله، والخطايا مطوّقة في أعناقِ الرّجال، والهلاك في الإصرار عليها، وما أعرَض معرضٌ عن طاعتِه إلّا عثَر في ثوب غفلتِه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبينَ الخلق، فإيّاك والمعاصيَ بعد شهرِ الغفران، فالعاصي في شقاءٍ، والخطيئة تذلّ الإنسانَ وتخرِس اللّسان، يقول أبو سليمان التّيميّ: "إنّ الرجلَ يصيب الذنبَ في السرِّ فيصبح وعليه مذلّته"، وأقبِح بالذّنب بعدَ الطاعة والبُعدِ عن المولى بعدَ القرب منه.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

أيّها المسلمون، فالأعمال بالخواتيم، وفي ختام شهركم اجتهِدوا في الإكثار من الاستغفارَ يُغفَر لكم ما اقترفتم من خللٍ وتقصير، ومَن أحسن وأصلح فيما بقي غُفر له ما أسلف، ومن داوم على التقصير أُخِذ بما سلف وبما بقي.

وإنّ مِن مسالك الإحسان في ختام شهركم إخراجَ زكاة الفطر، ففيها أُلفة القلوب وعطف الغنيّ على أخيه الفقير، فرضها رسول الله طهرةً للصّائم وطُعمة للمساكين، ومقدارها صاع من طعام من غالب قوتِ البلد، ووقتُ إخراجها الفاضلُ يوم العيد قبلَ الصلاة، ويجوز تقديمها قبل ذلك بيومٍ أو يومين، فأخرِجوها طيّبةً بها نفوسكم، وأكثروا من التكبير ليلةَ العيد إلى صلاة العيد تعظيمًا لله وشكرًا له على التّمام، قال عز وجل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

واشكروا ربَّكم على تمام فرضكم، وليكن عيدُكم مقرونًا بتفريج كربةٍ وملاطفةٍ ليتيم، وابتهجوا بعيدكم بالبقاء على العهدِ وإتباع الحسنةِ بالحسنة، وإيّاكم والمجاهرةَ في الأعياد بقبيح الفعال والآثام، يقول أحد السلف: كلّ يوم لا يُعصَى الله فيه فهو عيد، وكلّ يوم يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذكره فهو عيد.

والحمد لله رب العالمين.

باب: منبر الحرمين

لفضيلة الشيخ/ علي عبد الرحمن الحذيفي

إمام المسجد النبوي

العيد مقاصد وحِكَم

اعلموا عبادَ الله أنَّ لكلِّ أمّةٍ مِن الأمَم عيدًا يعود عليهم في يومٍ معلوم، يتضمَّن عقيدتَها وأخلاقَها وفلسفةَ حياتِها، فمِن الأعيادِ ما هو منبثِق مِن الأفكارِ البشريّة البعيدة عن وحي الله تعالى، وهي أعيادُ الأمم غيرِ الإسلاميّة، وأمّا عيد الفطر وعيد الأضحى فقد شرعه الله تعالى لأمّة الإسلام، قال الله تعالى:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ [الحج:٣٤]، روى ابن جرير في تفسيره عن ابن عبّاس قال: (منسكًا أي: عيدًا)، فيكون معنى الآية أنّ الله جعل لكلّ أمّة عيدًا شرعيًا أو عيدًا قدريًا.

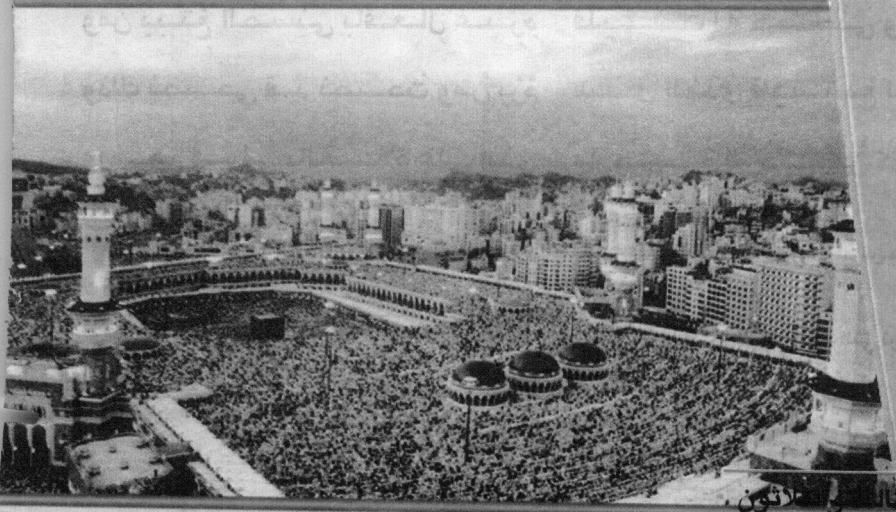
بالأمس فرَض الله عليك الصومَ، واليومَ أوجب الله عليك الفطر، عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّ رسول الله نهى عن صيام يومين: يوم الفطر ويوم النّحر. رواه البخاري ومسلم. لتستسلمَ وتنقادَ أيّها المسلم لشرع الله استسلامَ العبدِ الخاضع لمولاه الذي يرجو رحمةَ الله ويخاف عذابَه.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

من معاني العيد

أيّها المسلمون، العيدُ يتضمّن معانيَ ساميةً جليلة ومقاصدَ عظيمة فضيلة.

أُولى معاني العيدِ في الإسلام توحيدُ الله تعالى بإفراده سبحانه



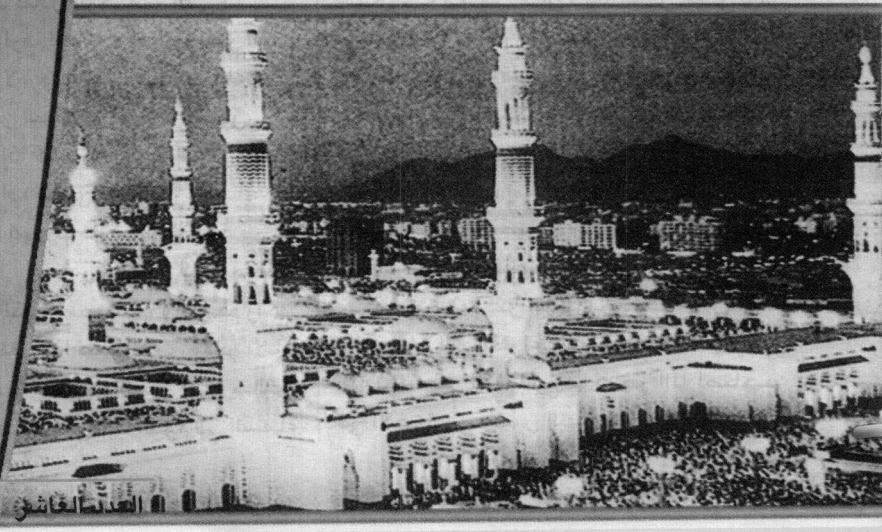
بالعبادةِ في الدّعاء والخوف والرّجاء والاستعاذة والاستعانة والتوكّل والرغبة والرهبة والذّبح والنذر وغير ذلك من أنواع العبادة، وهذا التوحيدُ هو أصل الدّين الذي ينبني عليه كلُّ فرعٍ من الشريعةَ، وهو تحقيق معنى "لا إله إلا الله" المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، الذي نقرؤه في صلاةِ العيد وفي غيرِها من الصّلوات، والتوحيدُ هو الأمر العظيم الذي بتحقيقه يدخل الإنسان جنّاتِ النعيم، وإذا ضيّعه الإنسان لا ينفعه عمَل.

والمتأمّل في تاريخ البشريّة يجِد أن الانحرافَ والضلالَ والبدع وقع في التّوحيد، فتمسّك أيّها المسلم بهذا الأصلِ العظيم، فهو حقّ الله عليك، وعهدُ الله الذي أخذه على بني آدم في عالَم الأرواح، وقد أكّد القرآنُ العظيم توحيدَ الله بالعبادَة وعظّم شأنَه، فما من سورةٍ في كتاب الله تعالى إلاّ وهي تأمر بالتوحيد نصًا أو تضمّنًا أو التزامًا، أو تذكر ثوابَ الموحّدين أو عقوباتِ المشركين، فمن وفى بحقّ الله تعالى وفى الله له بوعدِه تفضُّلاً منه سبحانه وتعالى، عن معاذٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «حقّ الله على العبادِ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحقّ العباد على الله أن لا يعذّبَ من لا يشرك به شيئًا» رواه البخاري. فالتّوحيد أوّل الأمر وآخره.

وثاني معاني العيدِ تحقيق معنى شهادة أنّ محمّدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام التي ننطق بها في التشهّد في صلاةِ العيد وغيْرها من الصلوات، إذ معنى شهادةِ أنّ محمّدًا رسول الله طاعة أمره واجتنابُ نهيه وتصديق أخباره وعبادةُ الله بما شرَع مع محبّته وتوقيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينِ﴾ [النور:٥٤].

ومِن حكم العيدِ وعظيم فوائدِه التكافلُ الاجتماعيّ بين المسلمين، ومِن مظاهر هذا التّكافل الإسلاميّ زكاةُ الفطر التي فرضَها النبيّ ﷺ على المسلم صَغيرًا كان أو كبيرًا، كما في حديث أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: كنّا نخرج زكاةَ الفطر صاعًا من طعام أو صاعًا من شعير أو صاعًا من تمر أو صاعًا من أقِط أو صاعًا من زبيب. متّفق عليه. ويجزئ هذا المقدارُ من كلّ حبٍّ يقتاتُه أهل كلّ بلد كالأرز والذّرة والدُّخن ونحو ذلك، وقد استحبّ كثير من أهلِ العلم إخراجَ هذه الزكاة يومَ العيد قبل

الناس في العيد إما محسنٌ فيما مضى؛ فليحمد الله وليستقم فيما بقي، وإما مسيء فيما مضى؛ فباب التوبة مفتوح فليُصلح عمله، فإنه لا يدري متى يأتيه أجله



الصلاة، وإن كان جائزًا إخراجُها قبل العيد بيوم أو يومين. وهي طهرةٌ للصّائم من اللّغو والرّفث وطعمة للمساكين، ومع أنّها بهذه الصّفة فهي مع ما يتصدّق به المسلم لتأمين مطالبِ العيد للمحتاجين سدٌّ لحاجة الفقراءِ والمساكين وتراحمٌ وتعاطفٌ بين أعضاءِ المجتمع الإسلاميّ كما روى البخاري ومسلم من حديث النّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمِهم وتعاطفهم مثَل الجسدِ الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسّهر والحمّى».

ومِن حكمِ العيد وعظيمِ نفعِه التواصلُ بين المسلمين والتّزاور وتقاربُ القلوب وارتفاع الوحشة وانطفاء نارِ الأحقادِ والضغائن والحسَد. فاقتدارُ الإسلامِ على جمعِ المسلمين في مكانٍ واحد لأداء صلاةِ العيد آيةٌ على اقتداره على أن يجمعَهم على الحقّ، ويؤلّفَ بين قلوبِهم على التقوى، فلا شيءَ يؤلّف بين المسلمين سِوى الحقّ لأنّه واحد، ولا يفرّق بين القلوبِ إلا الأهواء لكثرتِها.

والمحبّةُ بين المسلمين غايةٌ عظمى من غاياتِ الإسلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «لا تدخلوا الجنّة حتى تؤمِنوا، ولا تؤمِنوا حتّى تحابّوا، أوَلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟! أفشوا السلامَ بينكم» رواه مسلم.

ومِن حِكَم العيدِ ومنافعِه العظيمةِ شهودُ جمع المسلمين لصلاةِ العيد، ومشاركتُهم في بركة الدّعاء والخير المتنزّل على جمعِهم المبارك، والانضواءُ تحت ظلال الرحمَة التي تغشى المصلين، والبروزُ لربّ العالمين، إظهارًا لفقر العبد لربّه، وحاجته لمولاه، وتعرُّضًا لنفحات الله التي لا تُحدُّ ولا تُعدُّ، عن سعيد بن أوس الأنصاريّ عن أبيه مرفوعًا: «إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبوابِ الطّرق فينادون: اغدوا يا معشرَ المسلمين إلى ربٍّ كريم، يمنّ بالخير ثمّ يثيب عليه الجزيل، لقد أمِرتم بقيام الليل فقمتُم، وأمِرتم بصيام النهار فصمتُم، وأطعتم ربّكم، فاقبضوا جوائزَكم، فإذا صلّوا نادَى منادٍ: ألا إنّ ربكم قد غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى رحالِكم، فهو يوم الجائزة، ويسمّى ذلك اليوم في السماء يوم الجائزة» رواه الطبراني في الكبير، وروي عن ابن عبّاس مرفوعًا: «إذا كان عيد الفطر قال الله لملائكته: ما جزاءُ الأجير إذا عمِل عمله؟ قالوا: إلهنا وسيّدنا، أن توفّيَه أجرَه، قال الله: أشهدكم أنّي قد جعلتُ ثوابَهم من صيامِهم وقيامهم رضواني. فوعزّتي وجلالي، لا يسألوني في جمعِهم هذا لآخرتهم إلاّ أعطيتهم إيّاه، ولا لدنياهم إلاّ نظرتُ لهم، انصَرفوا مغفورًا لكم».

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

أيّها المسلمون، إنّ من غايات العيد أيضًا ومنافعه إعلانَ تعاليم شرائع الإسلام ونشرَها في المجامع ومشاهدِ المسلمين، وتبليغها على رؤوس الأشهاد، ليأخذها ويتلقّاها الجيل عن الجيل، والآخرُ عن الأوّل، علمًا وعملاً تطبيقيًا، فتستقرّ تعاليمُ الإسلام في سويداء القلوب، ويحفَظها ويعمل بها الكبير والصغيرُ والذّكر والأنثى، وخطبةُ العيد التي شرعها رسول الله ﷺ تشتمِل على أحكام الإسلام السّامية وتشريعاتِه الحكيمة. وظهور فرائضِ الإسلام وتشريعاته وأحكامِه هي القوّة الذاتية لبقاء الإسلام خالدًا إلى يوم القيامة، فلا يُنسى، ولا يُغيَّر، ولا تُؤوّل أحكامه، ولا تنحرف تعاليمه.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

عبادَ الله، الصلاةَ الصلاةَ فإنّها عِماد الإسلام، وناهيةٌ عن الفحشاء والآثام، وهي العهد بين العبد وربّه، من حفظها حفظ دينه، ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيَع، وأوّل ما يُسأل عنه العبد، فإن قُبِلت قبل غيرها من الأعمال، وإن ردّت رُدّ سائر العمل. وأدّوا زكاةَ أموالكم طيّبةً بها نفوسُكم، تطهّروا بها نفوسَكم، وتحفَظوا بها أموالَكم من المهالِك، وتحسِنوا بها إلى الفقراء والمساكين من المسلمين، وتثابوا على ذلك أعظمَ الثّواب، فقد أعطاكم الكثير، وأمركم بإخراج اليسير. وصوموا شهرَ الصيام، وحجّوا بيتَ الله الحرام، فإنّهما من أعظم أركانِ الإسلام.

وعليكم ببرّ الوالدين وصِلة الأرحام والإحسان إلى الفقراء والأيتام، فذلك عملٌ يعجّل الله ثوابَه في الدنيا مع ما يدّخر الله لصاحبه في الآخرة من حُسن الثّواب، كما أنّ العقوقَ

والقطيعة ومنعَ الخير ممّا يعجّل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يؤجّل لصاحبه في الآخرةِ من أليمِ العقاب.

وارعَوا معشرَ المسلمين حقوقَ الجار ففي الحديث: «لا يؤمِن من لا يأمَن جاره بوائقَه» أي: شرَّه. ومُروا بالمعروف، وانهَوا عن المنكر، فإنّهما حارسان للمجتمع وسياجان للإسلام وأمان من العقوباتِ التي تعمُّ الأنام. وإيّاكم وأنواعَ الشرك التي تبطِل التّوحيد، التي يقع فيها من لا علمَ له كدعاء الأنبياء والصالحين والطواف على قبورهم وطلب الغوث منهم، أو طلب كشفِ الكربات والشدائد منهم، أو دعائهم دون الله بجلب النفع أو دفع الضرّ، أو الذبح أو النذر لغير الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

وإيّاكم وقتلَ النّفس المحرّمة والزّنا، فقد قرن الله ذلك في كتابه بالشّرك بالله فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٦٩]، ومعنى أثامًا بئرٌ في قعر جهنّم، وفي الحديثِ عن النبي ﷺ: «لا يزال المرء في فسحةٍ من دينه ما لم يصِب دمًا حرامًا»، وعن الهيثم بن مالك الطائيّ عن النبيّ قال: «ما من ذنب بعد الشّرك أعظم عند الله من نطفةٍ وضعها رجل في رحمٍ لا يحلُّ له» رواه ابن أبي الدنيا.

وعملُ قوم لوط أعظم من الزّنا، فقد لعن عليه الرسول . والسّحاق نوعٌ من الزنا وخبثٌ من الخبائث المحرّمة. وإيّاكم والربا فإنّه محق للكسب وغضبٌ للرب، عن البراء بن عازب رضي الله عنه مرفوعًا: «الرّبا اثنان وسبعون بابًا، أدناها مثلُ إتيان الرّجل أمّه» رواه الطبراني في الأوسط.

وإيّاكم والتعرضَ لأموالِ المسلمين والمستضعفين، فإنّ اختلاطَه بالحلال دمارٌ ونار. وإيّاكم والرشوةَ وشهادةَ الزور فإنّها مضيّعةٌ للحقوق مؤيّدة للباطل، ومن كان مع الباطل أحلّه دارَ البوار وجلّله الإثمَ والعار، فقد لعن رسول الله ﷺ الراشيَ والمرتشي، وقرن الله شهادةَ الزور بالشّرك بالله.

وإيّاكم والخمر وأنواعَ المسكرات والدّخان والمخدّرات، فإنّها تفسِد القلب، وتغتال العقل، وتدمّر البدن الذي هو أمانة عندك، وتمسَخ الخُلُق الفاضل، وتُغضِب الربَّ، وتفتِك بالمجتمع، ويختلّ بسببها التدبير، عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «كلّ مسكرٍ حرام، وإنّ على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيَه من طينة الخبال»، قالوا: يا رسول الله، وما طينةُ الخبال؟ قال: «عرَق أهل النار» أو «عصارة أهل النار» رواه مسلم والنسائي.

وإياكم والغيبة والنميمةَ فإنّ المطعون في عرضِه يأخذ من حسناتِ المغتاب بقدرِ مظلمتِه، عن حذيفةَ مرفوعًا: «لا يدخل الجنة قتّات» يعني: نمّام. متفق عليه.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

اعلموا عبادَ الله أنّكم في عيدكم هذا إمّا محسنٌ فيما مضى فليحمَدِ الله على ما منّ عليه من الطاعات، وليستقِم على الصّراط المستقيم حتّى يأتيَه الموت وهو على ذلك، وليخشَ على خاتمتِه، وإمّا مسيء فيما مضى فبابُ التوبةِ مفتوح، فليُصلح عمله فيما بقي من أجله، فإنّ أحدَنا لا يدري متى يأتيه رسولُ ربّه.

يا نساءَ المسلمين، اتّقين اللهَ تعالى في واجباتكنّ التي طوّقت أعناقكنّ، أحسِنّ إلى أولادكنّ بالتربية الإسلاميّة النافعة، واجتهدنَ في إعداد الأولاد إعدادًا سليمًا ناجحًا، فإنّ المرأة أشدُّ تأثيرًا على أولادها من الأب، وليكن هو مُعينًا لها على التّربية، وأحسِنّ إلى الأزواج بالعشرة الطيّبة، وبحفظ الزوج في عرضه وماله وبيته، ورعاية حقوق أقاربِه وجيرانه وضيفه، ففي الحديث عن النبيّ ﷺ قال: «إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحجّت بيت ربها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجَها، قيل لها: ادخلي الجنة من أيّ الأبواب شئتِ».

وعليكِ أيّتها المرأة المسلمة أن تشكري نعمةَ

الله عليك حيث حفظ لك الإسلام حقوقَك كاملة، ولا تنخدِعي بالدّعايات الوافدة فإنّ مكانتك في هذه البلاد الإسلامية أحسنُ مكانةٍ في هذا العصر، وتأمّلي أيتها المؤمنة حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدتُ الصلاة يومَ الفطر مع رسول الله، فنزل نبيّ الله حتى أتى النساء مع بلال فتلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٢]، ثم قال: «أنتنّ على ذلك؟» فقالت امرأة: نعم يا رسول الله. رواه البخاريّ. ولأحمد من حديث أميمة بنت رقيقة: «ولا تنوحي ولا تبرّجي تبرّجَ الجاهلية الأولى»، ولأحمد أيضا من حديث سلمى بنت قيس: «ولا تغششن أزواجكن». ومعنى "بهتان يفترينه": لا يلحِقن بأزواجهنّ غيرَ أولادهم، وهذا التشريع لكُنّ للعمل بالآية أبدًا.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

عبادَ الله، يُسنّ الغسل للعيد بعدَ الفجر، وإذا اغتسل قبلَ الفجر كأهلِ الحرمَين لمشقّة الرجوع إلى البيت فقد أجزأه، وأن يمسّ من الطّيب، ويتهيّأ في سمتِه على ما أمر الشرع، ويخرجَ إلى العيد ماشيًا إن تيسّر وعُدِمت المشقّة، ويرجع إلى بيته من طريقٍ أخرى استحبابًا، ويُسنّ التكبيرُ حتى يخرج الإمام للصّلاة، ويبتدئ من أوّل ليلة عيد الفطر، وصفته: الله أكبر يكرّره، أو يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، ونحوه.

ومعنى التكبير تعظيم الله وتقديسه وتنزيهُه عن مشابهةِ خلقه، وتعظيم أمره فلا يضيَّع، وتعظيم نهيِه فلا ينتهَك، ومن حِكم التكبير إعلانُ انتصار نوازع الخير وصفاتِ الفضل في النّفس البشريّة على نوازع الشرّ وصفاتِه ومغالبةُ الهوى وقمعه وأسره واستصغار ما يحول بين المسلم وبين التقرّب إلى الله ويصدّ عن سبيلِ الله من هوًى أو شهوات أو أهل أو مال أو شيطان أو إنسان، فإنّ المسلم في جهادٍ مع نفسه لربّه، وفي جهادٍ مع شيطانه، وفي جهادٍ مع المعوّقات التي تحول بينه وبين مرضاة ربّ العالمين، ألا ترى أنّ التكبير يُشرَع في الجهادِ الأكبر ومشاهدةِ النّصر على الأعداء؟! فإنّ الاستعلاء على هوى النفس وعلى المعوّقات عن القربات انتصارٌ على الشرّ وأسبابه، فما أعظمَ المناسبة بين تمام الصّيام والتكبير، فالحمد لله الذي شرع لنا ما ينفعنا وعلّمنا ما لم نكن نعلم.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

عبادَ الله، إن عدوكم إبليس وجنودَه كانوا مأسورين في رمضانَ، ويريد اللعين أن يأخذَ بثأره فيجعلَ الأعمال هباءً منثورًا، فادحروه بعزّة الله خائبًا مثبورًا، بالدّوام على التّقوى ليكون سعيُكم مشكورًا، ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل:٩٢].

أيّها المسلمون، اشكُروا الله واحمدوه على نعمه الظّاهرة والباطنة، اشكُروه على نعمة الإسلام، واحمدوه على نعمةِ الأمن والإيمان وتيسُّر الأرزاق وتوفّر المنافع والمرافق والتمتّع بالطيّبات التي لا تحصَى، واشكروا الله على اجتماع الكلمة في بلادكم هذه، واشكروه على إطفاء الفتَن عنكم التي تُستحلُّ فيها الحرمات وتختلف فيها القلوب. وشُكر الله على ذلك بطاعة الله واجتناب معصيته وملازمة التوبة.

أيّها المسلمون، اعلموا أنّه ليس السعيد من تزيّن وتجمّل للعيد فلَبِس الجديدَ، ولا من خدمته الدنيا وأتَته على ما يريد، لكنّ السعيد من فاز بتقوى الله تعالى، وكتب له النجاةَ من نار حرّها شديد، وقعرها بعيد، وطعام أهلها الزقّوم والضريع، وشرابهم الحميم والصّديد، وفاز بجنّات الخلدِ التي لا ينقص نعيمُها ولا يبيد.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

باب منبر الحرمين

فضل التوبة

لفضيلة الشيخ
علي عبد الرحمن الحذيفي
إمام المسجد النبوي

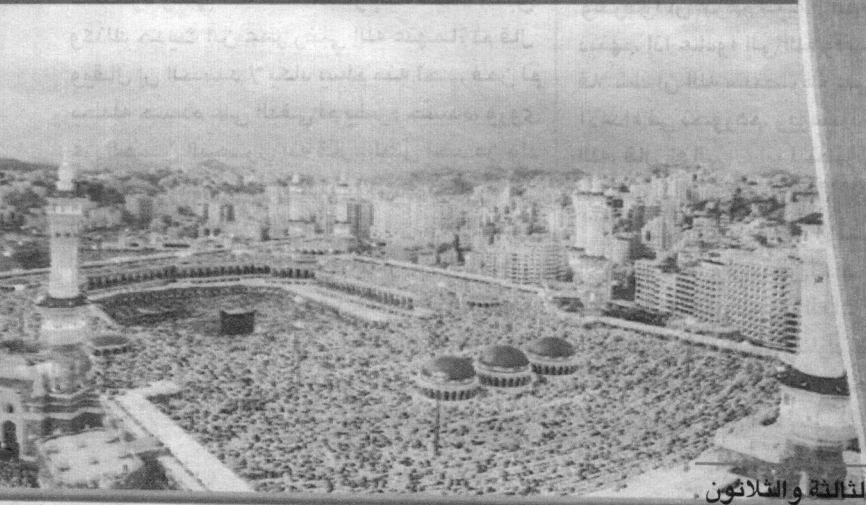
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أمّا بعد: فاتقوا الله أيّها المسلمون، فإنَّ تقواه فوزٌ وفلاحٌ وسعادة ونجاح.

واعلموا - عبادَ الله - أنَّ عزَّ العبد في كمالِ الذلّ والمحبّة للربّ جل وعلا، وأنَّ هوان العبد وصَغاره في الاستكبارِ والتمرّد على الله والخروجِ على أمره ونهيِه، بمحبَّةِ ما يكرهُه الله وبُغض ما يحبّه الله، فإنّه بذلك يناله الصَّغار والعَذاب من ربِّه.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

والعبادة بجميعِ شُعبها وأنواعِها هي التي يتحقَّق بها الذلُّ والخضوع والمحبَّة لله تعالى.



ومن أعظم أنواع العبادةِ التوبةُ إلى الله، بل إنَّ التوبةَ العظمى هي أفضلُ العِبادة وأوجبُها على العبدِ، وهي التوبةُ من الكفرِ والنِّفاق، قال الله تعالى عن هودٍ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:٥٢]، وقال تعالى داعيًا المنافقين إلى التوبة: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:٧٤].

والتوبةُ واجبةٌ على المكلَّفين جميعًا من كلِّ ذنبٍ كبيرٍ أو صَغير، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

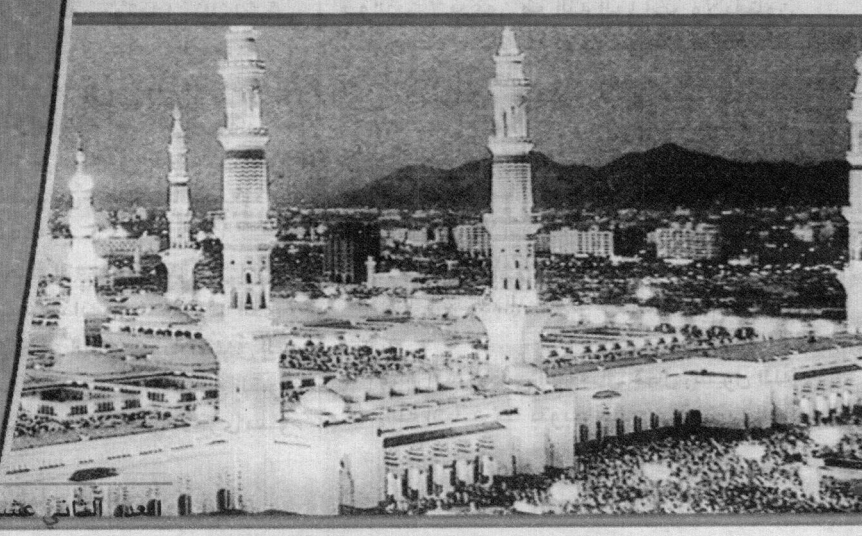
ومعنى التّوبةِ الرّجوعُ إلى الله بتركِ الذّنب الكبير أو الصغير، والتوبةُ إلى الله مما يَعلَم من الذنوب ومما لا يَعلَم، والتوبةُ إلى الله من التّقصير في شكرِ نِعَم الله على العبد، والتوبةُ إلى الله مما يتخلَّل حياةَ المسلم من الغفوةِ عن ذكرِ الله عز وجل، عن الأغرِّ المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيّها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليومِ مائةَ مرّة» رواه مسلم(١).

قال أهل العلم: "للتّوبةِ النصوح ثلاثةُ شروط إن كانت بين العبدِ وربِّه، أحدُها أن يقلعَ عن المعصية، والثاني أن يندَمَ على فِعلها، والثالث أن يعزمَ أن لا يعودَ إليها أبدًا، وإن كانت المعصيةُ تتعلّق بحقِّ آدميٍّ فلا بدَّ أن يردَّ المالَ ونحوه ويستحلّه من الغيبة، وإذا عفَا الآدميّ عن حقِّه فأجرُه على الله.

واللهُ قد رغَّب في التوبةِ، وحثَّ عليها، ووعَد بقَبولها بشروطها، فقال تعالى: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى [طه:٨٢]، وأخبر النبيّ بأنَّ جميعَ ساعاتِ اللّيل والنّهار وقتٌ لتوبةِ التائبين وزمَنٌ لِرجوع الأوّابين، عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى يبسُط يدَه بالليل ليتوبَ مسيءُ النهار ويبسُط يدَه بالنهار ليتوب مسيءُ الليل حتى تطلعَ الشّمس من مغربها» رواه مسلم(٢).

ما أعظمَ كَرمَ الرّحمن، وما أجلَّ فضلَه وجودَه على العبادِ، هؤلاء خلقُه يعصونه بالليل والنهار، ويحلمُ عليهم، ولا يعاجِلهم بالعقوبة، بل يرزُقهم ويعافِيهم، ويغدِق عليهم النّعَم المتظاهِرة ويدعوهم إلى التّوبَة والنّدَم على

اسم الله التّوّاب يدل على اتصاف الله تعالى بقبول التوبة مهما تكررت، وكل اسم من أسمائه سبحانه يقتضي ظهور آثاره في هذا الكون.



ما فرَط منهم، ويعدُهم المغفرةِ والثّواب على ذلك، ويفرَح بتوبةِ العبد أشدَّ الفرح، فإن استجاب العبدُ لربّه وتاب وأناب وجَد وعدَ الله حقًّا، ففاز بالحياةِ الطيّبة في الدّنيا وحسنِ الثواب في الأخرى، وإن ضيّع التوبةَ زمنَ الإمهال وغرَّته الشهواتُ والآمال عاقبَه الله بما كسَبَت يداه، ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، ولا خيرَ فيمن هلَك مع رحمةِ أرحم الراحمين.

حكمة محبة الله توبة عبده

أيّها المسلم، هل لك أن تعلَمَ بعضَ الحِكَم لمحبّةِ الله لتوبةِ عبده وفرَحِه بها أشدَّ الفرح؟! نعَم، مِنَ الحِكَم العظيمة لمحبّة الله لتوبةِ التائبين أنَّ أسماءَ الله الحسنى تتضمّن صفاتِه العلا، وتدلّ على هذه الصّفات العظمى، وهذه الأسماءُ تقتضِي ظهورَ آثارها في الكَون، فاسمُ الله الرّحمنُ الرّحيم يدلّ على اتّصاف الله جلّ وعلا بالرّحمة كما يليق بجلالِه، ويقتضي أن يوجدَ مخلوقًا مرحومًا، واسمُ الله الخالقُ يدلّ على اتّصاف الله تعالى بالقدرةِ على الإيجادِ والخَلق، ويقتضي إيجادَ الله للمخلوقات من العَدَم، واسمُ الله الرازقُ يدلّ على اتّصاف الله بإمدادِ الخَلق بالرّزق، ويقتضِي وجودَ مخلوقٍ مرزوق، واسمُ الله التوّابُ يدلّ على اتّصال الله بقَبول التوبةِ مهما تكرَّرت، ويقتضِي إيجاد مذنبٍ يتوب من ذنبه فيتوب الله عليه، وبقيّةُ أسماءِ الله الحسنى على هذا النّحوِ، كلٌّ منها يدلّ على ذاتِ الله العَظيم، ويدلُّ على صفةِ الله العُظمى التي يتضمّنها ذلك الاسم، ويقتضِي كلُّ اسم من أسماءِ الله الحسنى ظهورَ آثاره في هذا الكونِ، قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم:٥٠].

والمقصودُ أنَّ قبولَ توبةِ المذنبِ مُقتضَى اسم اللهِ التوّاب، وثوابُ التّائب أثرٌ من آثار هذا القَبول، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى:٢٥].

ومِنَ الحِكَم لمحبّةِ الله لتوبة التائبين أن الله تعالى هو المحسن لذاته ذو المعروف الذي لا ينقطع أبدًا، فمن أطاع الله بالتوبة أحسن إليه وأثابه في الدنيا والآخرة، ومن ضيع التوبة أحسن إليه في الدنيا وعاقبه في الأخرى بسوءِ عمله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن الحِكَم لمحبّةِ الله تعالى لتوبةِ عبدِه عفوُ الله وشمول رحمتِه للعصاة مع قدرتِه على العقاب، وفي الحديث: «إن الله كتَب كتابًا عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي سبَقت غضبي» رواه البخاري(٣)، إلى غير ذلك من الحِكَم التي لم نطّلع إلاّ على القليل منها.

وتصحُّ التوبة من بعض الذنوب، ويبقى الذنبُ الذي لم يتُب منه مؤاخَذًا به، والتّوبةُ بابُها مفتوحٌ لا يغلَق ولا يُحَال بين العبدِ وبينها حتى تطلعَ الشمس من المغرب، فعند ذلك يغلَق بابُ التوبة ولا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنَت من قبلُ أو كسَبت في إيمانها خيرًا، عن زِر بن حُبيش عن صفوانَ بن عسّال رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إن الله فتح بابًا قِبَل المغرب، عرضُه سبعون عامًا للتوبة، لا يغلَق حتى تطلعَ الشمسُ منه» رواه الترمذيّ وصححه والنسائي وابن ماجه(٤).

وقد وَعَد الله على التوبةِ أعظمَ الثواب وحُسن المآب، فقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم:٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان:٦٨-٧٠]، قال بعض المفسرين: يجعل مكانَ السيّئةِ التوبة، فيعطيهم على كلّ سيّئة عمِلوها حسنةً بالنّدم والعَزم على عدَم العودةِ فيها.

وعن أنس رضي الله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «للهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبده حين يتوب إليه

من أحدِكم كان على راحلته بأرضٍ فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابُه، فأيِس منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلِّها وقد أيِس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمةٌ عندَه، فأخذ بخِطامها ثم قال من شدّةِ الفرح: اللهم أنت عبدِي وأنا ربُّك، أخطأ من شدّةِ الفرح» رواه مسلم(٥).

وأسعدُ الساعاتِ والأيّام على ابنِ آدم اليومُ الذي يتوبُ الله فيه عليه؛ لأنه بدون توبةٍ كالميّت الذي انقطع عملُه، وبالتوبة يكون حيًا، عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لما أنزل الله توبتَه في تخلُّفه عن غزوة تبوك: وانطلقتُ أتيمم رسولَ الله يتلقّاني الناسُ فوجًا فوجًا، يهنّئونني بالتوبةِ ويقولون لي: لتَهنِك توبةُ الله عليك، فسلَّمتُ على رسول الله وأساريرُ وجهِه تبرُق، وكان إذا سُرَّ استنارَ وجهُه كأنه فِلقةُ قمر، فقال: «أبشِر بخيرِ يوم مرَّ عليك منذ ولدَتك أمّك» رواه البخاري ومسلم(٦).

والتوبةُ عبادةٌ عاليةُ المقام، قام بها الأنبياءُ والمرسَلون والمقرَّبون والصّالحون، وتمسّكوا بعُروتها، واتّصفوا بحقيقتِها، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١١٧]، وقال تعالى عن الخليلِ إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٢٨]، وقال عن موسى عليه الصلاةُ والسلام: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

والمسلمُ مضطرّ إلى التوبة ومحتاجٌ إليها في حالِ استقامتِه أو حالِ تقصيره، يحتاج إلى التوبةِ بعد القُربات وبعدَ فعل الصالحات، أو بَعد مقارَفةِ بعضِ المحرّمات.

يا أمّةَ الإسلام، أذكّر نفسي وأذكّركم جميعًا بالتوبةِ إلى الله عزّ وجل، بالتمسُّك بالكتابِ والسنة والبُعد عن البِدَع والخرافاتِ والمحدَثات في الدِّين التي قطّعت أوصالَ الأمة الإسلامية، وأحذّركم ونفسي من كبائرِ الذنوب ليحفظَكم الله عزّ وجل من شرورِ أعداء الإسلام ومكرِهم وكيدِهم، فإنّ أعداءَ الإسلام لن ينالوا من المسلمين إلاّ بغياب التّوبةِ عن الأمّةِ، ولم تتفرّق الأمّةُ الإسلامية إلاّ باختلافِ مشاربها وباختلافِ أفهامِها، فاجعَلوا مشربكم من معينِ كتاب الله وسنّةِ رسولِه ، واجعَلوا أفهامكم تبَعًا لفَهم الصحابةِ والتابعين ومن تَبِعهم بإحسانٍ؛ يُصلح الله لكم دنياكم وأُخراكم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:٣].

فسارِع ـ أيّها المسلم ـ إلى التوبةِ من كلّ ذنب، السّرُّ بالسرّ والعلانية بالعلانية، وداوم عليها بعد القرُبات أو الإلمام بشيءٍ من المحرمات، قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٤-٥٨].

وإيّاك أيها المسلم، إيّاك وأماني الشيطانِ وغرورَ الدنيا وشهواتِ النفس والطّمَعَ في فُسحةِ الأجَل، فتقول: سأتوب قبلَ الموت، وهل يأتي الموت إلاّ بغتةً؟! وأكثرُ الناس حِيل بينَه وبين التّوبةِ ـ والعياذ بالله ـ لعَدَم الاستعدادِ للموت وغَلَبة الهوى وطولِ الأمل، فأتاهم ما يوعَدون وهم على أسوَأ حال، فانتقلوا إلى شرِّ مآل. ومِنَ النّاس مَن وفّق للتوبة النصوح بعد أن أسرفوا على أنفسِهم أو قصّروا في حقِّ الله أو حقوقِ العباد، فصاروا من الصالحين والصّالحاتِ، ذكرُ سِيرتهم توقِظُ القلوبَ الغافلة، ويقتدي بها السائرون على الصّراط المستقيم والآمّون للنهج القويم.

الهوامش:

(١) صحيح مسلم: ح (٢٧٠٢).
(٢) صحيح مسلم: ح (٢٧٥٩).
(٣) صحيح البخاري: ح (٧١١٤، ٧١١٥).
(٤) سنن الترمذي: كتاب (٣٥٣٥)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٣٧).
(٥) صحيح مسلم: ح (٢٧٤٧).
(٦) صحيح البخاري: ح (٤٤١٨)، صحيح مسلم: ح (٢٧٦٩).

صفات الفرقة

الحمد لله علاّم الغيوب غفّار الذنوب، يفرّج الكروب ويهدي القلوب، أحمد ربي وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأثني عليه الخيرَ كلّه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، وأشهد أنّ نبيّنا وسيّدنا محمدًا ﷺ عبده ورسوله، خيرتُه من خلقه، اللهمّ صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فاتقوا الله أيّها المسلمون، وأطيعوا الله ورسوله لعلكم تفلحون.

عباد الله، إنّ ربكم جلّت عظمته وتقدّست أسماؤه بعث صفيَّه محمدًا ﷺ على فترةٍ من الرّسُل، وأنزل عليه الكتابَ والحكمة، ودعا إلى ربّه على بصيرة، فعلِم الناس من القرآن، وعلِموا من السنّة، وفقهوا في دين الله تعالى، وما لحِق رسولُ الله بالرّفيق الأعلى حتى ترك أمّته على المنهاج الواضح والصّراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال النبي ﷺ: «تركتُكم على المحجّة البيضاء، ليلُها كنهارِها، لا يزيغ عنها إلا هالك».

فبيّن الله تعالى أصولَ الإيمان وصفاتِ المؤمنين، فقال جلّ ذكره: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]. وبيّن الرسولُ مراتبَ الدين في الحديث لمّا سأله جبريلُ عليه الصّلاة والسلام وهي الإسلام والإيمان والإحسان، وسنّ عليه الصلاة والسلام السّنَن، وشرَع الأحكام، وفصّل الحلال والحرام، وبيّن مسائل العقيدة أكملَ بيان، وحقّق عليه الصلاة والسلام مقاماتِ العبودية لربّه، وكفى نبيّنا محمدًا شرفًا وقدرًا ثناءُ الله تعالى عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

والصّحابة رضي الله عنهم تربيةُ رسول الله ونقلَةُ الشريعةِ والمجاهدون في سبيل الله، اختارَهم الله لصُحبة نبيّه عليه الصلاة والسلام، ووصَفهم الربُّ تبارك وتعالى بالإيمان الكامل والسّبق إلى الخيراتِ وفِعل الصّالحات فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وأثنى عليهم في قوله: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» [متفق عليه].

فالسّلف الصّالح حقّقوا الحياةَ العمليّة للإسلام، وعمِلوا بالدين في حياتهم الخاصّةِ والعامّة، وطبّقوه التطبيقَ الكامل، وهم القدوةُ في العمل بتعاليم الإسلام لمن أتى بعدَهم، فكانت سيرتهم منارًا للأجيال بعدَهم في العِلم والعمَل، فمن اتّبع طريقَهم اهتدى وفاز بجنّاتِ النعيم، ومن خالفهم ضلّ وغوَى وكان من الخاسرين.

ولما كان السلف رضي الله عنهم أكملَ الناس علمًا وعملاً وأشدَّ الناس اقتداءً بالنبيِّ رغّب عليه الصلاة والسلام في لزوم ما كان عليه هو وصحابتُه، وأمر بالتمسّك بما كانوا عليه من الهدَى، وأخبر أنّ الفِرقة الناجية عند اختلافِ الأمة هي ما كان عليه الرسول وأصحابه، فقال: «افترقَتِ اليهود على إحدَى وسبعين فرقة، وافترقتِ النصارى على اثنتَين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمّة على ثلاثٍ وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلا واحدة»، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي». وقوله: «كلُّها في النار» هذا من الوعيدِ المعلوم تفسيرُه عند السلف، وهذه الزيادةُ وهي قوله: «مَن كان على مِثل ما أنا عليه وأصحابي» رواها الآجري من طُرق، ومعناها لا شكَّ في صحّته.

وقد وقع ما أخبرَ به النبيّ من الاختلاف والفُرقة، ولكنّنا كُلِّفنا بالاعتصام بالكتاب والسنّة ونَبذ الخلاف والفُرقة، وأُمِرنا أن نكونَ من الفرقة الناجية التي علِمت الحقَّ وعمِلت به، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وكلُّ فِرقة من الفِرَق الإسلاميّة تزعم أنها على الحقّ وغيرها على الباطل، ولكن ليس للدّعاوى وزنٌ عند الله ما لم يكن لها بيِّناتٌ من العِلم النافع والعمَل الصّالح، وقد بيّن الله تعالى في كتابه صفاتِ هذه الفِرقةِ النّاجية، وجلّى أمرَها رسولُ الله؛ ليكونَ

الناجية

لفضيلة الشيخ
علي عبد الرحمن الحذيفي
خطيب المسجد النبوي

المسلم على بصيرةٍ من دينه وعلى نورٍ من ربِّه، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور:٤٠].

• فمن صفات هذه الفرقة الناجية الاتباعُ بإحسانٍ لسلف الأمّة السابقين رضي الله عنهم، قال الله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠].

والاتباعُ هو الاقتداء بهم في توحيدِ العبادة لله تعالى بإفرادِ الدعاء لله وحدَه وإفرادِ الاستعانة والاستغاثة بالله وحدَه والاستعاذة، فلا يُدعَى مع الله غيره، ولا يُستعان بغيرِ الله، ولا يُشرَك مع الله عزّ وجلّ في أيِّ نوعٍ من أنواع العبادة، وإثباتِ صفات الله عزّ وجلّ التي وصف بها نفسَه ووصفه بها رسوله إثباتَ معنى، لا إثباتَ كيفيّة، وتنزيهِ الربّ تبارك وتعالى عن كلّ ما لا يليق به، فإنّ السلف رضي الله عنهم كانت معاني صفاتِ الله تعالى أظهرَ عندهم من معاني الأحكام العمليّة، ولذلك لم يسألوا عن معانيها كما سألوا في الأحكام، والوقوفِ حيث انتهَوا إليه في أمور العبادة وأحكامِ الدّين.

• ومن صفات فرقة الحقّ الناجية الاعتصامُ بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله وردُّ التنازع والاختلافِ إلى ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال عز وجل: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء:٥٩]، وتأويلُ القرآن وتفسيره بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة والتابعين، فإنّ الله تعالى ذمّ من اتّبع المتشابهَ وأوّل بالرّأي، ومدح الرّاسخين في العلم المتّبعين غيرَ المبتدعين.

• ومن صفات فرقة الحقّ الناجية التمسُّك بما أجمع عليه السلفُ وما أجمع عليه علماء الأمّة وعدمُ المشاقّة لله ولرسوله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:١١٥].

• ومن صفات هذه الفرقة الناجية تعظيمُ قول رسول الله وسنّته والعنايةُ باثاره بحفظها والذبِّ عنها والرضا بتحكيمها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور:٥١]، وقال تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]،

وروى الآجري بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه أنّه قال لرجل يقول: لا أعمَل إلا بما في كتاب الله تعالى: (إنّك أحمَقُ، أتَجِد في كتاب الله عزّ وجلّ الظهرَ أربعًا لا يُجهَر فيها بالقراءة؟ ثم عدَّد عليه الصلاةَ والزكاة ونحوهما، ثم قال: أتَجِد هذا في كتاب الله عز وجلّ مفسّرًا؟! إنّ كتاب الله جلّ وعلا أحكَمَ ذلك، وإنّ السنة تفسّر ذلك)، وروَى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال في الواشمة والمستوشمة والمتنمّصة: (ما لي لا ألعنُ من لعن رسول الله وهو في كتاب الله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر:٧].

• ومن صفات فرقة الحقّ الناجية بذلُ الجهد في معرفةِ الحقّ ودلائله وعدمُ الرضا بأقوالِ الرجال في دين الله ممّا لا يؤيِّده كتابٌ ولا سنّة ولا أصلٌ أصّلَه علماء المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:١٨]، وقال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣].

• ومن صفات هذه الفرقة الناجية محبّةُ المؤمنين ورحمة المسلمين ونُصحهم وكفُّ الأذى والشرِّ عنهم، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

• ومن صفات هذه الفرقة الناجية سلامةُ قلوبهم وألسنتهم لسلفِ الأمّة رضي الله عنهم ومحبّتُهم، قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر:١٠]. وهذا بخلاف ما عليه طوائفُ من الفِرَق الإسلامية من سبِّهم ولعنهم للصّحابة وسبِّهم لخيار الأمة وسادات الأولياء رضي الله عنهم.

• ومن صفات هذه الفرقة الناجية القيامُ

بالدين عمَلاً به ودعوةً إليه وإقامةً للحجة على المخالفين وجهادًا في سبيله، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]، وروى مسلم في صحيحه أنّ النبيّ قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحقّ ظاهرين، لا يضرّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتيَ أمر الله وهم على ذلك» [رواه مسلم].

● ومن صفات هذه الفرقة الناجية النصيحةُ لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم، وطاعةُ ولاة الأمر وأمرُهم بالمعروف ونهيُهم عن المنكر بالحكمة والصّواب، وطاعتُهم في المعروف وعدمُ الخروج عليهم ما لم يكن كفرٌ بواح فيه من الله برهان، بخلاف بدعةِ الخوارج الذين يستحلّون دماءَ المسلمين وأموالهم، ويرَوْنَ الخروجَ على الأئمّة ويستحلّون قتلَ النفوس المعصومة.

ثم إنّ أهلَ البدع قسمان: أئمّةٌ وأتباع، والأئمّة من أهل البدع منهم من انتحلَ مذهبَه بسوءِ قصدٍ وكيد للإسلام، ومنهم من انتحلَه بحسن نيّةٍ، وكلٌّ هالك إلاّ أن يتوبوا ويكونوا مع المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧].

أيّها المسلم، تمسّك بما كان عليه سلفُ الأمّة الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ووعدَهم الجنّة، وشهد لهم بالإيمان الكامل، وعَضَّ على ذلك بالنواجذ، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين، ولا تستوحِش من قلّة السالكين.

● ومِن صفاتِ هذه الفرقة الناجية الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر والدّعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتبليغُ الحقّ للناس، قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]، ويقول: «مَن رأى مِنكم منكرًا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان» رواه مسلم، والتّغييرُ باليدِ للسّلطان ونُوّابه. ويقول تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

هذه صفاتُ الفرقة الناجية من الفِرق الإسلامية التي تسير على نهجِ سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومَن تبعهم بإحسان، فكونوا على نهجهم وسبيلِهم تفوزوا بخيرَي الدنيا والآخرة.

يا معشر المسلمين، قد حذّر رسولُ الله من مخالفةِ هديه وهدي أصحابه الأخيار، فقال عليه الصلاة والسلام: «وإياكم ومحدثاتِ الأمور؛ فإنّ كلّ بدعةٍ ضلالة»، قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١٢].

أيها المسلمون، لقد حذّر الله تعالى من الفِتَن، ونهى عن الفُرقة والاختلاف، وأمر بالاجتماع والتعاون على الخير والائتلاف، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وتحذيرُ القرآن والسنّةِ من الفتن ومِنَ الفُرقة لأنّها تذهَب بالدين أو تُضعفه أو تُنتهَك فيها الحرُمات والأعراض أو تَذهب بالأموال وتفسِد الحياةَ الدنيا.

ومِن الفِتن في هذا الزمان القنواتُ التي تهدِم الدينَ والأخلاق وتدعو إلى الانحراف، وكذلك المواقعُ الضارّة في شبكة المعلوماتِ وما أكثرَها، فإنها تدعو إلى كلّ شرٍّ وتصدُّ عن كلّ خَير، وتُحَسَّن محاكاةَ الأمَم غيرِ الإسلامية في كلّ شيء، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «لتتبعُنّ سَنن من كان قبلكم حذوَ القُذّة بالقذّةِ حتى لو دخَلوا جحرَ ضبٍّ لدخلتموه» رواه البخاري ومسلم، وإخبارُه بذلك لتحذيرِ أمّته من التشبّه بالكفار.

وإنّ من القنواتِ المفسِدة التي يجب على المسلم الحذرُ منها ومُقاطعتُه لها هي وأمثالها قناةُ الإصلاح وفقيهُها التي تبثّ السمومَ بين المسلمين وتدعو بين وقتٍ وآخر إلى المظاهراتِ والتخريب، كما نحذّر كلّ مسلمٍ ممّن ينتهج هذا النّهج الذي يدعُو إلى الفوضَى والإفساد في الأرض، فإنّ هذه المظاهراتِ عملٌ غوغائيّ فوضويّ ممقوت، لا تجوز المشاركةُ فيها شرعًا، ولا الذهابُ إلى مكانها للمشاهَدةِ والتّسلية؛ لأنّه تكثير لسوادِ أهلها، ولأنّ فيه نوعًا من تأييدِها، ولأنها تعرّض المسلمين للخطر في الأنفس والأموال، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]. وإنها لا مكانَ لها في بلادنا ولله الحمد، ويجب أن لا يكونَ لها مكانٌ في بلاد المسلمين، وكلّ من ينتهج نهجَ التخريب والإفساد والعُدوان والظلم لا يمتُّ عملُه هذا إلى الإسلام بأيِّ صلةٍ وإن سمّى عملَه جهادًا وإصلاحًا، فالعِبرة بالمعاني والمسمَّيات، وليستِ العبرةُ بالأسماء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



دروس من التاريخ الإسلامي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد:

فأوصيكم - عبادَ الله - ونفسي بتقوَى الله عز وجلّ، فمن رامَ خيرًا كثيرًا وأراد رزقًا وفيرًا ونشد مَقامًا كبيرًا فعليه بتقوى الله، فمن حقَّقها حقَّق في الدنيا مجدًا كثيرًا، وجزاه ربّه في الآخرة جنّة وحريرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [الحشر:١٨].



أيها المسلمون، وعلى إثر هذه الوصية الجامعةِ نبارك لأمتنا الإسلامية بإشراقةِ شمسِ هذا العام الهجريّ الجديد العام السادس والعشرينَ بعد الأربعمائةَ والألف من هجرة المصطفى ﷺ، ونبتهلُ إلى المولى جلّ في علاه أن يُهلَّ هذا العامَ على أمّةِ الإسلام بالأمن والأمان، والسلامة والإسلام، والتوفيقِ لما يحبّه ويَرضاه، فإنّه إذا استُعين أعان، وأن يجعلَ هذا العامَ عامَ نصر للإسلام والمسلمين في كلّ مَكان، وأن يَعمَّ بالخير والعَدل والسّلام كافّةَ بني الإنسان، وأن يجعلَ حاضرَ أيّامنا خيرًا من ماضيها، ومستقبَلها خيرًا من حاضرِها، وأن يحفظَ أمّةَ الإسلام من شرور الفتَن والحوادث وغوائلِ المحن والكوارث وظواهرِ العنفِ والإرهاب، إنّه سبحانه المولى الكريم الوهّاب.

معاشرَ المسلمين، في ظلّ ازدلاف الأمّة إلى سنةٍ جديدة وتطلُّعها لأوضاع مستقبَليّة مشرقةٍ رغيدةٍ تبرز بجلاء قضايا حوليّة موسميّة، جديرةٌ بالإشادة والتّذكير، وحفيّةٌ بالوقوفِ والتّبصير، علّها تكون محرّكا فاعلاً يستنهض هممها، ويشحذ عزائمَها لمراجعةِ ذاتها وتدقيق حساباتها وتحديد رؤاها ومواقفها وتقويم مسيرتها؛ لتستعيدَ تأريخَها المجيد ومجدَها التليد وما امتازت به من حضارةٍ عَريقة وعالمية فريدة، بوّأتها في الطّليعةِ بَين أمم الأرض جميعًا والإنسانيّة قاطبة.

إخوةَ الإيمان، إنّ أجلى قضايا المناسبةِ تكمُن في وقفةِ المراجعة والمحاسبة، فاستقبالُ الأمّة لعامٍ جديد هو بمجرّدِه قضيّةٌ لا يُستهان بها، وإن بدا في أنظار بعض المفتونين أمرًا هيّنًا، لطولِ الأمل والغفلةِ عن صالح العمل، وإنّ في مراحلِ العمُر وتقلّبات الدّهر وفجائع الزمان لعِبَرًا ومزدجرًا ومَوعظة ومُدّكرًا، يحاسِب فيها الحصيف نفسَه، ويراجع مواقفَه، حتى لا يعيشَ في غَمرة ويؤخَذَ على غِرّة، ويكون بعد ذلك عِظةً وعبرة. ولئن أُسدِل الستار على عام مضى وحولٍ انقضى بأحداثه ووقائعه وآلامه وآماله فإنّ كلّ ماضٍ قد يُستَرجَع إلا العمُر، فإنّه نقص في الأعمالِ ودَنوٌّ في الآجال.

فكم من خطوات مشيناها وأوقاتٍ صرفناها ومراحل قطعناها، ومع ذلك فالإحساسُ بمضيّها قليل، والتذكّر والاعتبار بمرورها ضئيل، مهما طالت مدّتها وعظُمت فتراتُها ودامت بعد ذلك حسراتها.

معاشر الأحبّة، إنّ عجلةَ الأعمار وقطارَ الزّمن يمضي بسرعةٍ فائقة، لا يتوقّف عند غافِل، ولا يحابي كلَّ ناسٍ ذاهِل، كم ودّعنا في العام المنصرم من أخ أو قريب، وكم فقدنا من عزيزٍ وحبيب، سبقونا إلى القبور، وتركوا عامرَ الدّور والقصور، فإلى متى الغفلةُ يا عباد الله؟! وماذا ران على قلوبنا؟! وماذا غشي أبصارنا وبصائرنا؟!

إنّ الموفّق الواعي من سَعى لإصلاح حالِه ليسعَدَ في مآله، والكيّسَ الملهَمَ من أدام المحاسبةَ وتفقّد رصيدَ الآخرة وحاذَر كلَّ لوثةٍ عقديّة وفكرية وسلوكيّة؛ ليحيا حياةَ السعداءِ ويُحقّق نزُلَ الشهداء، وما ذلك بعزيزٍ على ذي المنّ والعطاء.

إخوة الإسلام، ولئن دار الزمان دورتَه فإنّ العامَ الهجريّ الجديد ضيفٌ محبَّب لطيف ومَغنَم أهلٌ وريف، فيه الأمَل والانشراح، والتفاؤل والارتياح، وهجرٌ للمآسي والجراح، ولكن بكلّ أسى انبلَج صُبحُ هذا العام الجديد ولم تختطَّ أمّتُنا الإسلاميّة بعدُ سبيلاً يبلُغ بها معارجَ العزّة والصلاح، ولم تقِم لها عزًا يعصِمها من تطاول الطامع والمجتاح، ومع هذهِ

لفضيلة الشيخ
عبد الرحمن السديس
إمام المسجد الحرام

الخطوبِ الوشيكةِ الملمّة والعواصفِ المحْدقة المدلهمّة يبقى التفاؤل ديدنَنا، والأملُ المشرق رائدَنا، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [الصف:٨]. وإنّنا لنرجو الله سبحانَه أن تكونَ مناسبةُ الهجرةِ النبويّة خيرَ أوانٍ للتّصحيح والمراجعة، وأفضلَ زمانٍ للتّصفية والمحاسبة، لتدركَ الأمّة أن تأسيسَ الأمور وإحكامَها وتمهيدَ القواعدِ وإتمامَها رهينُ استعصامِها بكتاب ربّها واستمساكها بسنّة نبيّها، كيف وفيهما الفلَقُ والسناء، والفَرقُ بين النعيم والشقاء؟! في معتقدٍ صحيح ومنهج سليم، ليس يعروهما ريبٌ ولا امتراء، ومن تطلّب المجدَ والكمالَ في سواهما فقد رامَ المحالَ، وباء بالوبالِ، وليس له من دون الله من وليٍّ ولا وال.

أيها المؤمنون، إنّه لن تستبدلَ الأمة ضعفَها بالقوّة وهوانها بالعزّة إلا إذا عادت إلى ذلك الطّرازِ العالي الذي سطّره السّلفُ في العصور الخوالي، أعني إبرازَ الحقائقِ والمحاسن لهذا الدّين التي سعِد بها المصطفى وأصحابُه رضي الله عنهم، وأسعَدوا بها العالَم قرونًا من الزمان، وسيُصلح الله شأنَنا إذا نظرَنا في مرآةِ الشريعة ما شَانَنا، وممّا يعين على امتثالِ ذلك لزومُ الصدق مطلقًا مع النفس والمجتمع والأمّة في القول والعمَل والملّة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وما ازدهارُ الأمَم ورفعتُها إلا ثمرةُ الأعمال الصادقة المخلِصة التي يقدّمها رجالُها المخلصون البرَرَة وبنوها الصادقون المهَرَة.

إخوةَ العقيدة، ما أحوجَ الأمّةَ الإسلاميّة اليومَ وهي تتفيّأ ظلالَ عام جديد مفعَم بالتفاؤل والتّطلّعات للخروج من الفتَن والمشكلات وتجاوُز العقبات والأزمات ومَواجهة التحدّيات والنكبات أن تقرأ تاريخها؛ إذ فيه العبَر.

اقرؤوا التاريخ الإسلاميّ لتدركوا كيف كانت أحداثُه العظام ووقائعُه الجسام نقطةَ تحوّلٍ كبرى، لا في تاريخ الأمّة الإسلاميّة فحسب، بل في تاريخ البشريّة قاطبة. اقرؤوا التّاريخ لترَوا كيف كانت وقائعُه العظيمة منعطفًا مهمًا غيّر مجرَى التاريخ الإنساني برُمّته. اقرئي - يا أمّتي - تاريخَك المجيد لتعلَمي كيف أرسَت مصادره وأحداثه مبادئَ الحقّ والعدل والأمن والسّلام، وكيف رسَخت وقائعُه منذ ما يزيد على أربعةَ عشَرَ قرنا من الزمان مفاهيمَ الحوار الحضاري التي يتنادى بها العالمُ اليومَ.

أيّتها الإنسانيّة الحائرة، لتخرجي منَ الأحكام الجُزاف الجائرة اقرئي تاريخ حضارتِنا الإسلامية، لتَرَيْ بأمّ عينيك كيف كفَل الإسلام حقوقَ الإنسان بجدارةٍ، أزال الطبقاتِ، ومحا العنصريّات، وألغَى الفروقَ والتّمايزات، في وحدةٍ تتضاءَل أمامَها الانتماءاتُ العنصريّة والأواصر والعلاقاتُ المادية، بل تضمحلّ أمامها كلُّ دعاوى الجاهلية.

إخوةَ الإيمان، الارتباطُ التّأرخي الوثيق والانتماء الحضاريّ العريق يؤكّد أنّه ليس غيرُ العقيدةِ الإسلاميّة الصحيحة جامعًا للعِقد المتناثر، ومؤلّفًا للشّتات المتناكر، وناظمًا للرّأي المتنافر، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]. فهل تعي الأمّة بعد هذا التمزّق المزري والتخلّف المخزي والتيه في الأنفاق المظلمة وسراديب الغواية المعدمة أنّه لا دربَ سوى الإسلام، ولا إمامَ غير القرآن، ولا نهجَ إلا نهج سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام؟! ألم تستيقنِ الأمّةُ أنّ التخلّيَ عن العقيدة والتساهلَ بأمر الشريعة والتفريطَ في الثوابت والمبادئ والتقصيرَ في المثُل والقِيَم مالُه شقاءُ المجتمعات وانتقاضُ الحضارات وهلاك العباد وخَراب البلادِ وطريقُ البوار وسبَبُ الانهيار وحلول الدّبار، وبالتالي قرّة عيون الأعداء وتحقّقُ الدّمار؟! فهل يدرك أصحاب الرأي والنّظَر ودهاقنة الحلّ والفكر أنّ التحدّيات السابقةَ والمعاصرةَ والتّصادمَ الحضاريّ والعِداء الثقافي والفكري إنما مردُّه إلى ثوابتَ عند الغير، لا يتحقّق الانتصارُ عليها إلا بالتمسّك بمَوروثِنا الحضاريّ العريق الذي ينضَح خيرًا وسلامًا للبشرية كافّة، وأمنًا وسعادةً للإنسانية قاطبةً، في بُعدٍ عن مسالك العنفِ والإرهاب التي أقضّت مضاجعَ العالم، ولا مخلّصَ له منها إلاّ إعلاءُ القِيَم الإنسانيّة والإسلاميّة والتّأكيدُ على مبدأ الحوار الحضاريّ، بلا تميُّع ولا انهزاميّة.

اقرؤوا التاريخ لتدركوا أنّ الحوارَ مع الآخر يجب أن يُبنى على الإصلاح من داخلنا وقناعاتنا، لا بإملاء غيرنا علينا، حينما تمتلئ النفوس محبّةً

ونزاهةً ومودّةً وحنانًا، وتوضَع اللّوائحُ المرعيّة وتُرسَم الضّوابط الشرعيّة لحركةِ الانفتاح الفكريّ والثقافيّ والتّربويّ والإعلاميّ.

أمّةَ الإسلام، ومِن غيوم الفِتن التي تصاعدَ دُخانُها في سماءِ الأمّة ويُرجى مع بدايةِ العام انقشاعُ هذه الغُمّة ما مُني به الإسلام والمسلمون مِن حملةٍ إعلاميّة ظالمة وهجمة دعائيّة عاتية من أقوام غلا الكيدُ من مراجِل قلوبهم، فطفح زَبدُ أقلامهم، وعَلا فحيحُ إعلامهم، ولم يهتَدوا للوقوف على معاني الإسلام وحقائقِه، فناصَبوه الهجوم، وبدا على سُبُحاتِ وجوهِهم الوُجوم!.. وفي مقابلِ أولئك جماعاتُ الغلوّ والتكفير وفئات العنف والتدمير.أمّةَ الإسلام، ومِنَ الظواهر الخطِرة التي مُنِيَ بها العالَم اليومَ ويترقّب كلُّ محبٍّ للخير والسلام تواريَها خلالَ هذا العام ظاهرةُ الإرهاب العالميّة الذي يعدُّ بحقٍّ جريمةَ هذا العصر. ولقد سعِد المتابعون لقضايا أمّتهم بما تحقّق من إنجازٍ يستحقّ الإشادةَ خلالَ ما عُقِد في رحاب بلاد الحرمين - حرسها الله - من المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب، وما نتج عنه من توصياتٍ وقراراتٍ جديرة بالمتابعة والتنفيذ لعلاج هذه الظاهرة العالمية الخطيرة التي تجاوزت حدودَ الزمان والمكان والدّيانة والجنسيّة؛ لكي يفيءَ شباب الأمة إلى منهج الاعتدال والوسطية وإظهار سماحة الإسلام وما ينضَح به من معالي الشيَم وفضائل القيَم للإنسانية جمعاء، فما كان العنف يومًا محقّقًا لمجد، ولا صانعًا لحضارة، ولا محافظًا على إنجازات، ولا مبقيًا على مكتسبات، بل جرثومة قذرة وحربٌ مدمِّرة تقضي على الأخضر واليابس، ولعلّ إخضاعَ هذه الظاهرة للدراسات المستفيضة عبر مراكز علمية متميّزة وهيئات استشارية متخصّصة يُسهم في علاج الإرهاب وتجفيف منابعه عبرَ أسلوب ناجحٍ ودواء ناجع، يحقّق المصالح ويدرأ المفاسد.

ولقد قرّتِ الأعينُ بالمقترَح الموفّق بإنشاء مركزٍ دوليٍّ لمكافحةِ الإرهاب وحملةِ التضامن التوعويّة لمعالجته في أنموذج مشرق، يشدّ الأكفَّ بالأكفّ من جميع شرائح المجتمع وأطيافه وقنواته؛ لاستئصال شأفته والقضاء عليه.

فهل يعي المتورّطون والمزايِدون والمحرِّضون والسّاكتون خطورةَ الأمر، فيرجعوا إلى صوابهم ويفيئوا إلى رشدهم؟! فالعود أحمد والفيء أرشد. وهل يقرأ أولئك التاريخ وينظرون في السنن الشرعية والنواميس الكونية؟! وهل يكفُّ المصطادون بالماء العكِر عن كلّ ما يزيد الطينَ بلّة والداء علّةً؟! وهل تكفّ وسائل المعلومات والفضائيات والتقانات عن كلّ بواعثه وأسبابه ومهيِّجاته، وتحذرَ المواقف المتشنِّجة والملاسنات المسِفّة وكلّ ما يبعث على العنف والجريمة، ويتواصى الجميع بالعودة إلى الله والخروج من المظالم العامّة والخاصّة؛ ليتواردَ الجميع سفينة النجاة بمنهج الاعتدال الذي لا غلوَّ فيه ولا جفاء؟! حينذاك تنجلي سحابة الإرهاب القاتمة، وتعيش البلاد والعباد في مأمنٍ من غوائل الشرور وسوء العواقب في الأمور.

أمّةَ الإسلام، إنّه حينما تتقاذف سفينةَ الأمّة أمواجُ الفتن فإنّ قواربَ النجاة وصِمامات الأمان مرهونةٌ بولاءِ الأمة لدينها وتمسُّكها بعقيدتها، وحينَما يُجيل الغيور نظرَه في واقعِ أجيالٍ من المنتسبين إلى أمّتنا اليومَ ويرى التبعيةَ والانهزامية أمام تيّارات العصر العولميّة ومبادئ المدنيّة الزائفةِ ويُقارن بينهم وبين جيلِنا التأريخي الفريدِ يدرك كم كانت وقائع تأريخنا المشرق الوضاء وحوادثُ سيرتنا العَطِرة سببًا في العزّة والكرامة وسبيلاً للبذلِ والتضحية والفداء.

وإنّ من التطلّعات الملحّة استتبابَ الأمن والأمان في سائر ديار الإسلام، لا سيما في الأرض المباركة فلسطين وفي بلاد الرافدين والشعوب المستضعفة والمضطهدة في كلّ مكان.

وفي خِضَمّ هذه الظروف الحوالك التي اختلطت فيها المسالك يتأمّل قُرّاء التاريخ ويتساءلون: أين دروسُ الهجرة وعِبَرها من شعاراتِ العصر بإنسانيّته الزائفة وديمقراطيّاته المزعومة وحرّيّاته الموهومة التي تُحسَب على دعاتها مغانِم وعلى [غيرهم] مغارم، في غيابِ المنهجية الشوريّة المصطفويّة؟! أين دروس التأريخ وعِبَر الهجرة وأخوّة المهاجرين والأنصار من أناسٍ مزّقهم التشرذم، وأحلّوا العداوة والخِصام محلّ المحبة والوئام، وترسّبت في سويدائهم الأحقاد، وتأجّج في قلوبهم سعير الحسَد والبغضاء والغِلّ والشحناء، حتى تمزّقت الأواصر وساد التفكّك الأسريّ والاجتماعيّ كثيرًا من المجتمعات؟!

منبر الحرمين

اقرؤوا التاريخ - يا رعاكم الله - لتجدوا كم تحتاج العقيدةُ والرسالة إلى وطنٍ ودولة وسلطان ينافح عن كيانها، ويذبّ عن بيضتها، ويذود عن حماها. ألا فليتيقّن دعاةُ الإصلاح في الأمّة أن لا عقيدةَ ولا تمكينَ إلاّ بجماعَة، ولا جماعَةَ إلاّ بإمام، ولا إمامَ إلاّ بسمع وطاعة، لتُدرأ عن الأمّة غوائل الشرور والفتن وعادياتُ الاضطراب والمحن.

وفي الميدان التربويّ يجب أن يقرأ التربويّون تاريخَنا ليَرَوا كيف تربّى البيتُ المسلم على نُصرة العقيدة والولاء للقيادة، وكيف كان للشباب المسلم والمرأة المسلمة دورٌ أيّما دور في نصرة العقيدة والقيم والفضائل، وأن السعادةَ والصلاح والخير والنجاح يكمن في التمسّك بالمبادئ والأصول والثوابت.

وبعد: أيها المسلمون، فتلك إلماحةٌ إلى شيءٍ من وقائع التاريخ ودروس السّيرة وعِبَرها، تظهر في حدثِ الهجرة النبويّة، تُقدَّم للأمّة في مستهلّ عامها وفي مرحلة من أخطر مراحلها، علّها تكون نواةً لمشروع حضاريّ إسلاميّ إنسانيّ، يُسهم في صلاح الحال وتقويم المسار، ويمثّل بلسَمًا شافيًا لعلاج الحملات الإعلاميّة المسعورة وسهام الحقد الطائشة ضدّ ديننا وأمّتنا ومجتمعنا وبلادنا، التي ما فتئ أعداءُ الإسلام يصوّبونها تجاهَنا، مستغلّين نقاطَ الضّعف في الأمة، ويتصيّدونَ أخطاءَ بعضِ أبنائها النّشاز.

ألا ما أشدّ حاجتَنا - ونحن نستشرف آفاقَ العام الهجريّ الجديد - إلى وقفاتِ تأمُّلٍ ومحاسَبة، ومراجعةٍ جادّة لاستثمار كلّ ما يعزّز مسيرةَ أمتنا؛ لتزدلفَ إلى عام جديد وهي أكثر عزمًا وأشدُّ مضاءً لفتح آفاقٍ مشرقة لإسعادِ الإنسانية لتتبوّأ مكانتها الطليعيّة ومنزلتَها الرّيادية فوقَ هذا الكوكب الأرضيّ الذي ينشُد سكّانُه مبادئَ الحقّ والعدل والأمن والسّلام، ولن يجدوه إلاّ في ظلّ الإسلام وتعاليم الشريعة، زادُها في ذلك موروثٌ حضاريّ وتاريخيّ متميّز ونسيج عقديّ متأصّل ومعينٌ قِيَمي لا ينضب ومنظومةٌ اجتماعيّة متآلّقة، تنهل من مُعطيات العصر وتِقاناته في خدمة دينِ الأمة ومُثُلها وقِيَمها.

والله المسؤول أن يجعلَ هذا العامَ عامَ خيرٍ وبركة ونصرٍ وتمكين للإسلام والمسلمين، وعامَ أمنٍ وأمان وعدلٍ وسلام للإنسانيّة قاطبة، وأن يجمعَ فيه كلمةَ المسلمين، ويوحّد صفوفهم، ويطهّرَ مقدساتهم، وينصرهم على أعدائهم، إنّه خير مسؤول وأكرم مأمول.

أيها الإخوة الأحبة في الله، تعيشون - يا رعاكم الله - هذه الأيّامَ غرّةَ شهور العام، إنه شهر الله المحرم، شهرٌ من أعظم الشهور عند الله تبارك وتعالى، مكانته عظيمة، وحرمته قديمة، فاتحةُ العام وشهر الله الحرام، فيه نصَر الله موسى وقومَه على فرعون وقومِه، وقد ندبكم نبيُّكم إلى صيامه، فقال عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه مسلم في صحيحه: «أفضلُ الصيام بعدَ رمضان شهرُ الله المحرم»!.. لا سيّما يوم عاشوراء الأغرّ، ففي الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدِم النبيّ المدينةَ، فوجد اليهودَ صيامًا يومَ عاشوراء، فقال لهم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» قالوا: هذا يومٌ عظيم أنجَى الله فيه موسَى وقومَه، وأغرق فرعونَ وقومَه، فصامه موسى شكرًا، فنحن نصومُه، فقال: «نحن أحقُّ بموسى منكم»، فصامه وأمَر بصيامه!.. وفي صحيح مسلم عن أبي قتادةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله سئل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «أحتسِب على الله أن يكفّرَ السنةَ التي قبله»!..الله أكبر، يا له من فضلٍ عظيم ونفحة من نفحات المولى الكريم، وقد عزَم على أن يصومَ يومًا قبلَه مخالفةً لأهل الكتاب، فقال عليه الصلاة والسلام: «لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصومنّ التاسع»!.. يقول الإمام العلاّمة ابنُ القيم رحمه الله: "فمراتبُ صومِه ثلاثة: أكملها أن يُصام قبلَه يوم وبعدَه يوم، ويلي ذلك أن يُصامَ التاسع والعاشرُ، وعليه أكثر الأحاديث، ويلي ذلك إفراد العاشر وحدَه بالصيام"!..فينبغي للمسلمين أن يصوموا ذلك اليوم اقتداءً بأنبياء الله، وطلبًا لثواب الله، وأن يصوموا يومًا قبله أو يومًا بعدَه مخالفةً لأهل الكتاب، وعملاً بما استقرّت عليه سنّة المصطفى الأوّاب عليه الصلاة السلام، وإنّ صيام ذلك اليوم لمِن شكر الله عزّ وجلّ على نعمه، واستفتاح هذا العام بعملٍ من أفضل الأعمال الصالحة التي يُرجَى فيها ثواب الله عزّ وجلّ، فأين المشمّرون؟! جعلني الله وإياكم منهم بمنّه وكرمه.

ألا فاتقوا الله عباد الله، واستفتحوا عامَكم بالتوبة والإنابة والمداومة على الأعمال الصّالحة، وخذوا من مرور الليالي والأيام عِبرًا، ومن تصرُّم الشهور والأعوام مدّكرًا ومزدجرًا، وإياكم والغفلةَ عن الله والدارِ الآخرة.

تحذير العقل في

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

لقد جاء الأمر بطاعة الرسول ﷺ، ولزوم سنته في آيات كثيرة من كتاب الله وأحاديث شريفة من سنة رسول الله ﷺ، وكلها نصوص صريحة في وجوب طاعته واتباع سنته، والتسليم له دون اعتراض وعدم الخروج عن أوامره وزواجره بأي حالٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه محذرًا من يخالف أمره عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور].

كما زخرت سنة المصطفى بما يدل على وجوب طاعة الرسول ﷺ، واتباع السنة، والتحذير من البدع في الدين.

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنه من يعش منكم، فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ فتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

فتجلى لكل مسلم- من هذه النصوص والآيات الكريمة التي يقصر المقام عن ذكرها كلها أن المسلم مأمور بالاتباع، ومنهي عن الابتداع، وإحداث الأمور المخالفة للدين؛ فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» .متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أي: مردود عليه، غير مقبول.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة».

وقال بعض السلف: «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام».

ومن البدع المحدثة في دين الله، التي كثر انتشارها ورواجها اليوم، بل وضربت أطنابها في أقطار كثيرة جدًا من العالم الإسلامي، واستحكمت في قلوب كثير من الناس، وصارت عندهم من المعروف الذي لا مرية فيه- ما يفعل في شهر ربيع الأول من الاحتفالات والاجتماعات التي ما أنزل الله بها من سلطان، ويسميها أصحابها: احتفالات بذكرى مولد الرسول الأعظم ﷺ! بل وصل الأمر ببعضهم: أن يُخصصوا هذا الشهر لشد الرحال إلى مكة والمدينة؛ قربًا من مواطن المصطفى- بزعمهم- وهذا عملٌ لا بُرهان له، وتخصيصٌ لا دليل عليه، ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة].

فتخصيص ليالي هذا الشهر أو بعضها بالاحتفالات لا يجوز شرعًا؛ لأدلة كثيرة:

الأول: أن ذلك من البدع المحدثة في الدين؛ لأن الرسول ﷺ لم يفعله، ولا خلفاؤه الراشدون، ولا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم ولا التابعون

حكم الاحتفال

عبد الرحمن السديس

لهم بإحسان في القرون المفضلة، وهم أعلم الناس بالسنة، وأكمل حبًا لرسول الله ﷺ ومتابعة لشرعه، ممن جاء بعدهم؛ فيسعنا ما وسعهم، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

الثاني: ما ثبت من الآيات والأحاديث في كتاب الله وسنة رسوله، التي توجب طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام والوقوف عند سنته، وتحذر من الابتداع في الدين.

الثالث: أن الله سبحانه أكمل لنا الدين، ورسوله ﷺ بلغ البلاغ المبين، وإحداث مثل هذه الموالد يُفهم منه أن الله لم يكمل الدين، وأن الرسول ﷺ لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه، حتى جاء هؤلاء المتأخرون بعد القرون المفضلة، فأحدثوا في شرع الله ما لم يأذن به؛ زاعمين أن ذلك مما يقربهم إلى الله، وكفى بهذا اعتراضًا على الله سبحانه، وتنقصًا لشرعه، وقدحًا في تبليغ رسوله، عليه الصلاة والسلام.

الرابع: أن إقامة مثل هذه الاحتفالات خروج عن جادة الصواب، وتشبهٌ بالكفار من أهل الكتاب في أعيادهم؛ وقد نُهينا عن التشبه بهم.

الخامس: أن العبادات توقيفية؛ ليس لأحد أن يشرع فيها، وإنما يشرع منها ما شرع الله ورسوله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

السادس: أن قواعد الشريعة ومقاصد الدين، تردُّ مثل هذه الاحتفالات، فمن القواعد المقررة في الشريعة: «رد ما تنازع الناس فيه إلى الكتاب والسنة»، وقد رددنا مثل ذلك إليها، فوجدنا فيها التحذير عن مثل ذلك، وكذلك قاعدة: «سد الذرائع» و«إزالة الضرر» وأكبر الضرر: الضرر في الدين، أضف إلى ذلك ما يجري فيها من المنكرات التي أعظمها: الشرك الأكبر بالله، من دعاء الرسول ﷺ وطلب الحاجات وتفريج الكربات منه، وإنشاد القصائد الشركية بمدحه والغلو فيه، كما يحصل فيها الاختلاط، والإسراف وتبذير الأموال، ورفع الأصوات بلغو القول وساقط المقال. هذا مع أن الشهر الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ هو بعينه الذي تُوفي فيه، فليس الفرحُ بأولى من الحزن فيه.

وتخصيص ليلةٍ من ليالي هذا الشهر بالاحتفالات خلطٌ وهوًى؛ لتضارب أقوال المؤرخين في تحديد يوم ميلاده عليه الصلاة والسلام، ومن حدد ليلة بعينها للاحتفال، فعليه الدليل، وليس ثمة دليل، ولعلماء الإسلام المعروفين باتباع السنة- قديمًا وحديثًا مؤلفات وأقوال كثيرة في إنكار هذه الاحتفالات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «أما اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية؛ كبعض ليالي شهر ربيع الأول، التي يُقال: إنها ليلة المولدِ فهي من البدع التي لم يستحبها السلف الصالح، ولم يفعلوها». وقال رحمه الله: «إن هذا- أي اتخاذ المولد عيدًا- لم يفعله السلف، مع قيام المقتضى له، وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيرًا محضًا، أو راجحًا، لكان السلف أحق به منا؛ فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتعظيمًا له منا، وهم على الخير أحرص». وقال: «فأما الاجتماعُ في عمل المولد على غناء ورقص ونحو ذلك، واتخاذهُ عبادةً: فلا يرتاب أحدٌ من أهل العلم والإيمان في أن هذا من المنكرات التي يُنهى عنها، ولا يستحب ذلك إلا جاهل أو زنديق».

وخشية الإطالة أحجمت عن ذكر أقوال كثيرة للسلف، تنهي عن هذه الاحتفالات، وتُحذر منها.

إخوة الإسلام، بقي أن تعلموا أن الذين

يحتلفون بهذه الأمور البدعية هم ثلاثة أصناف:

الأول: جهلة مقلدون، لسان حالهم يقول: رأينا الناس يفعلون شيئًا ففعلناه، وكفى بهذا ضلالاً، وقد قال الله فيهم وفي أمثالهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

الثاني: مرتزقة أكالون، يريدون إشباع شهواتهم من وراء هذه الاحتفالات؛ بالأكل والشرب، واللهو واللعب، والاجتماع الباطل.

الثالث: دعاة سوء وضلال مغرضون، يريدون الدس على الإسلام، وصرف الناس عن السنن، وإشغالهم بالبدع والخرافات.

فاتقوا الله يا أمة الإسلام إلى متى التخبط في مثل هذه الترهات، وفي مثل هذه الضلالات؟! إلى متى الإحداث في دين الله والتغيير؟! أين الغيرة على عقيدة التوحيد؟ أين الرغبة في التمسك بسنة المصطفى ﷺ ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون؛ «إن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء».

وقد زين الشيطان لأرباب هذه البدع شبهات يتبجحون بها؛ ليلبسوا على العامة وقليلي العلم، وهي في الحقيقة أوهام كنسج العنكبوت؛ لمخالفتها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة.

فمن شبهاتهم: زعمهم أن فعلهم هذا تعبيرٌ عن الحب لرسول الله ﷺ ، والفرحة بذكرى مولده، وأن من لم يفعل ذلك فلا يحب رسول الله عليه الصلاة والسلام وتلك حجة واهية، إن يتبع قائلوها إلا الظن وما تهوى الأنفسُ؛ فحب رسول الله ﷺ إنما هو باتباع شرعه، ولزوم سنته، لا بالاحتفالات البدعية المنكرة؛ قال جل في علاه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن شبهاتهم: قولهم: «إن هذه الاحتفالات بدعة حسنةٌ»، وذلك قول باطل، فإن كل بدعة ضلالة، كما ثبت عن المصطفى ﷺ ، ومن أين لهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن في الإسلام بدعة حسنة؟!

ومن شبهاتهم: دعواهم أن الناس تعارفوا عليها، وأصبحوا يفعلونها، من غير نكير، ويرد على ذلك: بأنا لم نتعبد بأفعال الناس وعاداتهم المخالفة للدين، وإنما تعبدنا بما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ومن العجائب والغرائب: أن الشيطان قد زين هذه المنكرات لأصحابها، وأغوى قلوبهم، فجعلهم ينشطون ويجتهدون في حضور هذه الاحتفالات، ويتعصبون لها، ويدافعون عنها، ويتهجمون على من أنكرها، وربما تركوا كثيرًا من الواجبات الشرعية، ولا يرفعون لذلك رأسًا، ولا شك أن ذلك من قلة البصيرة في الدين، ومن الجهل المبين.

ومن ذلك: أن بعضهم يظن أن رسول الله ﷺ يحضر بدعهم؛ ولهذا يقومون له محيين ومرحبين، وهذا من أبطل الباطل، وأقبح الجهل، والعياذ بالله.

بهذه الأدلة الناصعة، وهذه الردود الواضحة، يتجلى لنا تهافت هذه البدعة ودحضها وتفنيدها، ويتبين لمن له أدنى بصيرة وإنصاف واتباع للحق أنها من الخطأ في دين الله، وأنها من الأمور المبتدعة، ولم يبق إلا أن ننادي المسلمين بنداء العقل والإشفاق، لترك التعصب، وللبحث عن الحقيقة، واتباع ما دل عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، ننادي بهجر هذه البدع فهي لا تزيد أصحابها من الله إلا بعدًا، ولا من رسوله وسنته إلا صدودًا، وأن يستمسكوا بسنة نبيهم، فطالما شوّه الإسلام الناصع بهذه الاحتفالات الباطلة، وأمثالها من البدعيات التي حرفت كمال الإسلام، وشوّهت جماله وجوهره؛ إنه نداءٌ يملؤه التجرد عن التعصب والهوى، والدعوى إلى الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة]، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [القصص].

هذا وبالله التوفيق.

حديث عن المصطفى المختار

أيها المؤمنون، لسنا في نجوى عن القول: إنّ أمّتنا الإسلاميّة العتيدة إنما شدّت ركابها شطرَ المجد والعلياء وتسنّمت قِمَم السؤدد والإباء وساقت الإنسانيّةَ إلى مرابع الحضارة والمدنيّة والهناء وأفياءِ الأمن والرّخاء والعدل والإخاء ساعةَ استعصَمَت بالوحيَين الشريفين، واستمسكت بالهديَين النيّرين، وكانت ملءَ سمعها وبصرها، ومُفعَم روحها ومُستولَى مشاعرها، سنّةُ نبيّها الغرّاء وسيرتُه وشمائلِه الفيحاء.

بعض شمائل المصطفى

خُلُقٌ كما خطَر النّسيم فهزّ
أعطافَ النبات وشمائلٌ علويّة أصفى من الماء الفرات

ويومَ أن شطّ بها المزار عن ذلك الهدي المتلألئ المدرار فاءت الأمّةُ إلى يَباب التبعيّة والذيليّة والوهَن، وصارت والتنافرَ والتناثرَ في قَرَن، والْتأمتْ مع الأسَى المميضِ أمّةُ الاقتداء والوحي والاقتفاء على دعاوَى منَ الحبِّ مسطّحةٍ زَيفاء، تكاد عند المحاقّة لا تبارح الألسنة والشّفاه، وذلك من مكامن دائها العُياء، فَدَاءُ الأمّة فيها، ولو أنها اعتصَمَت بالكتاب والسنّة ما استفحَل داؤها ولتحقّق دواؤها.

إخوةَ الإيمان، ولئن ازدانَت الغبراء فَبُدّلت وضّاءةً خضراء منذ ما يربُو على أربعةَ عشر قرنًا من الزّمان ببعثة سيّد الأنبياء وعطّرت سيرته المونِقة الأقطارَ والأرجاء.

فالكونُ أشرقَ والفضاءُ تعطّرا
والأفْق ظلّله السرور فهل ترى

بما تضمّنته من حقائق المهابةِ والجمال والخشية والجلال ومسدّدِ الحكمةِ في الأقوال والفعال، فإنّ تلكم السيرةَ المشرقة الجبينِ المتلألئةَ المُحَيّا لا تزال تُهيب بوُرّادها مناشِدةً: إليّ إليّ، وحيَّهلاً عليّ عليّ، نهلاً وفهمًا، واقتباسًا وريًا.

معاشر المحبين، إنّ الحديثَ عن الحبيب المصطفى والرسول المجتبى والخاتم المقتفى صلواتُ الله عليه وآله وسلّم لهو حديثٌ عَذبُ المذاق، مُجرٍ لدموع المآق، بَلسَم لجفوة القلوب ولقَسوَتها تِرياق، كيف لا وهو رسول الملِك العلام وحامِل ألوية العدل والسّلام ومُخرج البشريّة بإذن ربّها من دياجير الانحطاطِ والوثنية والظلام ووهاد الأرجاس والآثام إلى أنوار التوحيدِ والإيمان والوئام؟! صلوات الله وسلامه عليه ما ذرّ شارق، وحنّ إلى إلفِه المفارق، نبيُّ المعجزات، وآخذُنا عن النار بالحُجُزات، أمَنّ النّاس على كلّ مسلم ومسلمة، وأحقّهم نَقلاً وعقلاً بالمحَبّة الوادقة والطاعة الصادقة، صاحبُ المقام المحمود واللّواء المعقود والحَوض المورود.

تجود بالدّمع عيني حين أذكرُه
أمّا الفؤاد فللحوض العظيم ظَمِي

لا يتمّ دينُ المرءِ إلاّ بإجلاله والانقيادِ له وحبِّه، ومن صغّر خدَّه هدم دينَه واتُّهم في لُبِّه، يقول عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه الشيخان: «لا يؤمِن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالدِه والناس أجمعين»(١).

تلكم هي المحبّةُ الصادقة التي أفضَت إلى أصلِ الطّاعة والتسليم الذي دلّ عليه قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥] أحبّه مولاه واجتباه، وميّزه على سائر الخليقة واصطفاه.

فكم حَباه ربُّه وفضّله وخصّه سبحانه وخوّله
أبى الله إلاّ رفعه وعُلُوّه
وليس لما يُعليه ذو العرش واضعُ

بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام. أظهرُ الخليقة بشرًا وأنسًا، وأطيبُهم نَفَسًا ونفْسًا، وأجملُهم وصفًا، وأظهرهم لُطفًا، لا يطوي عَن بَشَر بِشْرَهُ، وحاشاه أن يشافِهَ أحدًا بما يكره، والبِشْرُ عنوان البشير، صلّى الله عليه ما همَى رُكام وما هَتن غَمام، كان ذا رأفةٍ عامّة وشفَقَة سابغة تامّة، أجملُ الناس ودًا، وأحسنُهم وفاءً وعهدًا، تواضَعَ للناس وهمُ الأتباع، وخفض جناحه لهم وهو المتبوع المطاع، كان شديدَ الخوف والعبادة، وافرَ الطاعة والقنوت والإفادة، له شجاعةٌ ونجدة وبسالة في الحقّ وشِدّة، يبذُل الرّغائب، ويعين على الصروفِ والنوائب، ما سئِل عن شيء فقال: لا، وما

لفضيلة الشيخ

عبد الرحمن السديس

إمام المسجد الحرم

أشاحَ عن مُعتَفٍ ولا قَلَى. فيا لله، هل في طوق الأبيناء من غَطارفة البيان أن يتفرَّدوا بوصفِ نبيٍّ نُزِّه عن المثالب والنقائص وكُرِّم ببديع الشمائل والخصائص؟! كلا لعَمرو الحقِّ كلاّ.

مَلكت سَجاياه القلوبَ محبَّةً
إنَّ الرسول إلى القلوب حَبيبُ

نبيٌّ تقيٌّ، ورسول نقيٌّ، زكّى الباري لسانه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:٣]، وزكّى بصره فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:١٧]، وزكّى صدره فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، ﴿وزكّى فؤادَه فقال: مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١]، وزكّى جليسَه فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم:٥]، وزكّاه كلَّه فجاءت الشهادة الكبرى التي شرُف بها الوجود وانزوَت لها كلُّ الحدود، إذ يقول البَرّ الودود: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

خُلُق عظيمٌ اشتُقَّ من عظمة هذه الرسالة العالمية الإنسانية، خُلُق لا يؤوده بلاغ الرحمة والعدل والفضيلة والقوّة والعزة والرفق والحكمة، وشعار المحبّ دائمًا يعلو:

خيالُك في ذهني وذِكراك في فمي
ومَثواك في قلبي فأين تغيب؟!

إخوةَ الإيمان، ولسيرةِ النبيِّ المختار هَديُها ورواؤها في سُويداءِ النفوس التي أحبَّته وأجلَّته والأفئدةِ المولَّهة العميدَةِ بخصاله، وإبلالاً لذلك الصَّيهَج من الحبّ الطهور نُزجي للعالَم ومضاتٍ ولُمَعًا من سيرتِه المنشَّرة بالرحمة والحنان، وهيهات أن يبلُغَ المرامَ بنان.

مشاهد من السيرة العطرة

فيومَ أن اشتدَّ أذى قومِه له، فانطلَقَ وهو مهمومٌ على وجهه عليه الصلاة والسلام، فلم يستفِق إلاّ وهو بقرن الثعالب، فنَاداه ملك الجبال وقال: يا محمّد، إن شِئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشبين، فقال وهو الرؤوف الرحيم: «بل أرجو أن يخرجَ الله من أصلابهم من يعبدُه وحدَه لا يشرك به شيئًا» [أخرجه الشيخان](٢).

فسبحان الله عبادَ الله، انظروا كيفَ قابلوه بالتَّهجّم والنكران، فنحَلَهم العفوَ والغفران، وصدق الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّما أنا رحمةٌ مهداة» خرَّجه البخاري(٣).

هو رحمةٌ للناس مهداة فيا
ويلَ المعاندِ إنّه لا يُرحَم

قوم تنكبوا طريقه ﷺ

وصرخةُ مَفؤودٍ متوجِّع ولَوعةُ مصدورٍ متفجِّع ممّن يقتّلون الأنفس المعصومة البريئة، لا يُتلذَّذون إلا بإراقةِ الدماء وتناثُر الأشلاء، في جهالاتٍ تتلوها حماقاتٌ، فيا لها من قِحَة جريئة وقلوب قاسيَة قبيحة، معاذَ الله ثم معاذَ الله أن يكونَ الفساد والدمار والإرهابُ والبوار من هدي النبوّة وشمائلها في وردٍ أو صدر.

وفي فتح مكّةَ حين اشتدَّ الفزعُ الهالع بمشركي قريش وظنّوا كلَّ الظنّ أنّ شافتَهم مستأصلة وقف منهم الرسولُ الشاكر الرحيم المانّ الحليم وقال: «ما تظنّون أنّي فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا؛ أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال: «اللّهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلَمون، اذهَبوا فأنتم الطلقاء»(٤).

الله أكبر، يا له من نبيٍّ ما أعظمَه، ومِن رسولٍ ما أكرمه.

لَه الصلاةُ والسلام تترَى ما شرى
برقٌ على طيبةَ أو أمَّ القرى
إنّه المثل الأعلى للإنسانيّة؛ انتَصَر فرحِم وعفا، وقدَر فصفَح وما جفا.

مَعالٍ جارَت الجوْزا جوازًا
وحُسْنٌ قد حوَى الحُسْنى وجازا

وغيرُ خافٍ - يا أولي الألباب - ممّا يسهِّدكم تفصيلُه ويؤلمكم قليله ما مُني به بعضُ العُلاة حينَ استبدَّ العتاة، فأهدَروا إنسانيّةَ الإنسان، وحطَّموا في صلَفٍ وعنجهيّة كلَّ المواثيق والحقوق، فأينَ الحَضيض من السِّماك الأعزل؟! وشتّان شتّان بين الاهتداء المنير والادِّعاء المبير.

ونظيرُ ذلك مما ينتظِم في أسلاك الصَّفح والنُّبل والشهامة من نبيِّ الرحمة والكرامة ما كان منه إزاءَ ثمامَة وهِندٍ والثلاثة، ويكفي من القلادةِ ما أحاط بالعنق.

وصفوةُ القول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، أسوةٌ في جميع ضروب الحياة وتصاريف الأمور والمعاملات، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

إنّها النفس التي عانقَت السماء، وعاشَت على الثُّرى دانيةً من الناس، ملؤُها الإحسان المديد والعقلُ السديد والرأي الرَّشيد والقول اللطيف الوئيد، في أقصى آمالِ الحِرص والإخلاص

والصدق والأمانة.

فعن حبِّه حدِّث عن البحر إنَّه
لبحرٌ ولكن بالمعاني انسيابُه.

معاشرَ المسلمين، ثلاثةٌ وعشرون عامًا بل دُرَّةٌ من الدعوة والصبر والتعليم والجهاد تقف شامخةً على قمَّة الزمن والحضارة والتاريخ، لا تجد فيها ساعةً أو خطوةً توصَف بالضياع أو الإهدار.

أئمة الضلال والهجوم على سيد البشر

يا ربَّنا فاجمَعنا معًا بنبيِّنا
في جنَّةٍ تثني عيونَ الحُسَّد
في جنَّةِ الفردوس فاكتبها لنا
يا ذا الجلالِ وذا العلا والسُّؤدَد.

أمَّةَ الإسلام، أحباب سيِّدِ الأنام، ومع كلِّ هذا الجلاء في سيرةِ خيرِ الورَى والبهاء لا يزالُ أحلاسُ النِّفاق وشُذَّاذ الآفاق ومَردَة الكُفر والاستشراق ومُسوخ العولمة والتغريب ينشرون أباطيلَهم وحقدَهم الأرعن عبرَ الحمَلات والشبكات حِيالَ الجناب المحمديِّ الأطهر والهدي المصطفويِّ الأزهَر، فيا وَيحهم، يا ويحهم يَرمون من أرسلَه الله رحمةً للعالمين بالقَسوة والجفاء والإرهاب والغِلظة والشناءَة، في رسوم ساخِرة ودِعايات سافِرة وحملات ماكِرة، فالله حسبنا وحسيبُهم.

وهَل أنكروا إلاَّ فضائلَ جمَّةً؟!
وهل يبصر الخفَّاش والنورُ ساطع؟!

وما عُدتُهم إلاَّ الافتراء والزور، ينفثُها صدرُ كلِّ مأفونٍ موتور، تشكيكًا في النبوَّةِ والرِّسالة، فويلٌ لهم من وَصفِهم أشرفَ الورى بما اختلَقوا من عندهم والتَّزعُّم. وقد علِموا يقينًا قاطعًا أنَّ النبيَّ الأمِّيَّ الهاشميَّ القرشيَّ صلوات ربي وسلامُه عليه قد جاء للبشريَّة بأسمى الحقائق الكونية وأزكى الآداب الخُلُقيَّة وأرقى النُّظُم الاجتماعيَّة وأجلى الشرائع التعبديَّة، ولكن ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]. الله أكبر، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، ولله درُّ حسَّانَ رضي الله عنه:

هجوتَ مباركًا برًّا حنيفًا
أمينَ الله شيمتُه الوفاءُ
فإنَّ أبي ووالدَه وعِرضي
لعِرض محمَّدٍ منكم وقاء

أمَّةَ الإسلام في كلِّ مكان، وإذا كانت المآسي تلفَح وجوهَنا في كلِّ شبرٍ وواد من كلِّ باغٍ وعادٍ فإنَّه لزامًا على الأمَّة وقد رضِيَت بالركون إلى هذه الدنيا والإخلاد ورَثَّ حبلُ صِلَتِها بهذه السِّيرةِ الهادية أو كاد وغدَت سيرةُ الحبيب بعد الجدَّة والإشراق أشبهَ بالأخلاط أن تَنثني إلى السيرة النبوية في شمولٍ وعُمق وجِدٍّ وصِدق، وأن تكونَ أشدَّ تعلُّقًا بنبيِّها وسيرتِه عليه الصلاة والسلام تأسِّيًا وفهمًا وسلوكًا واستبصارًا واعتبارًا؛ لتنتشلَ نفسَها من كلاكل العجزِ والتمزُّق والفِتن والانحدار التي مُنِيت بها في هذهِ الآونةِ العصيبة، ولْتعلِنها مدوِّيَة خفَّاقةً وشَجًى في اللَّهواتِ المغرِضة الأفَّاكة أنَّ السيرة النبويَّة والمناقب المحمَّديَّة على صاحبها أزكَى سلام وأفضل تحيَّة هي مناط العزِّ والنصر وأجلَى لُغاتِ العصر التي تعرُج بالأمة إلى مداراتِ السُّؤدَد والتمكين، وهي التي تقضي على جدلِ كلِّ عنيد وخداع كلِّ ماكر ونَزَق كلِّ دعيٍّ، وهي الحجَّة القاطعة لدحرِ المتقحِّمين على أصول الشريعة والأحكام من قليلي البصيرة وسُفَهاء الأحلام.

سيرة النبي ﷺ شمس ساطعة

والسيرةُ النبويَّة - يا رعاكم الله - هي الشمسُ الساطعة التي تربَّى عليها الأجيالُ بمنهج الوسَطِ والاعتدال بعدَ أن تلقَّفتهم جحافِل الغرائزِ والشهوات في رائيَات وفضائيَّات، وطوَّقتهم فيالقُ الشَّبهات في شبكاتٍ ومنتدَيات، وغرَّتهم كتائبُ الانهزاميَّة والفرقة والشَّتات، حتَّى جفَّت في قلوبهم ينابيعُ الحبِّ المورِق لنبيِّهم وشمائلِه وصَحبِه إلاَّ مَن رحم الله. ومنهَج المحبِّ الصادق:

لي فيك حبٌّ ليس فيه تملُّق
أملاه دينٌ ليس فيه تكلُّف

يا أمَّة الحبيب المصطفى، ولن يتحقَّق الحبُّ النبويُّ المكين في أكمل معانيه وأحكم مبانيه إلاَّ إذا كانت لُحمتُه الاتِّباعَ والاقتداء، وسُداه الائتِساءَ والعمل والاهتداء.

إنِّي أرى حبَّ النبيِّ عبادةً
ينجو بها يومَ الحساب المسلم
لكن إذا سلَك المحبُّ سبيلَه
متأسِّيًا ولِهديه يترسَّم

واضَيعتاه لأمَةٍ ضيَّعت مبعثَ آمالها ومُنتهى آلامها. يا لَضيعة السنَّة السنيَّة أن تكونَ من قبيل الغلوِّ والإطراء وإنشادِ القصائدِ الحوليَّات وسَردِ القصَص والرِّوايات والترانيم والمدائح التي لا تغادِر الشَّفاه في ليلةٍ مخصوصةٍ أو شهرٍ معيَّن، من فئاتٍ رامت الإجلالَ فوقعت في الإخلال، فهم أقربُ ما يكونون إلى طلب العافيَة والبُعد عن ميدان الدَّعوة والمصابَرة وتحمُّل التَّبِعات، والحبُّ الصادق:

حبٌّ مدَى الأيَّام يُنشَر ذكرُه
ويُذاع في كلِّ البقاع وينقَل

إنَّ السيرةَ الفَيحَاء لهي أعذبُ الموارد وأجَلّ من أن تؤسّنَها بدَع الموالِد، ومن للسنّة أحَبّ نافِح عنها وذبّ، فمن ادّعى المحبّة ألزم صدقَ الشهداء، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾ [النور:١٣].

فإن كنتَ في دَعوى المحبّةِ صادقًا
فَفِي شرعِنا برهان دعوَى المحبّةِ
وفِي شرعِنا أنّ المُحبّة طاعة
وسيرٌ على منهاج خيرِ البريّة

فيا أيّها الجيل المحبّ في كلّ مشرق ومغرب، خِفّوا للتحلّي بشمائل نبيّكم وأخلاقِه، وتزيّنوا بمناقبِه وآدابِه، وتمثّلوا هديَه، وترسّموا سنّتَه، وعَضّوا عليها بالنواجذ، تغنَموا وتنعَموا وتسودوا وتقودوا.

يا مسلمون لسنّة الهادي ارجِعوا
واسترشِدوا بدروسها وتعلّموا

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢].

أيها المسلمون: اعلَموا أنّ من مقتضَى محبّة رسول الله محبّةَ آله الأطهار وصَحبه الأخيار المهاجرين منهم والأنصار، وودّ أهل بيته الطيّبين الطاهرين وزوجاته الطاهرات أمّهات المؤمنين وصحابَتِه الغرّ الميامين، فلَيس في الأمّة كالصحابة في الفضل والمعروف والإصابة؛ أبرُّ الناس إيمانًا، وأهداهم قلوبًا، وأجفاهم لله جنوبًا، انتَهوا في محبّتهم لخير البريّة إلى تفديَتِه بالآباء والأمّهات، وإلى أعالي الدّرجات وسامي الغايات التي تمتنع إلاّ على النفوس المشرقة باليقين.

ربّيتَ جيلاً أبيًا مؤمنًا يقظًا
حَسَوا شريعتَك الغرّاء في نهَمِ

فمَنْ أبو بكر قبل الوحي مَنْ عُمرُ؟
ومَنْ عَلِيٌّ ومَنْ عثمانُ ذو الرحم؟

فمن أحبّهم وأثنى عليهم برئ من النّفاق وكان له من منازل الإيمان على قدر محبّته لهم والائتساء بهم، يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨].

إذا الله أثنَى بالذي هو أهلُه عليهم
فما مقدار ما يمدح الورى؟!

وفي صحيح الخبَر عن سيّد البشَر في بيان حقّهم وعظيم قدرهم: «لا يحبُّهم إلا مؤمن، ولا يبغِضهم إلاّ منافق، ومن أحبّهم أحبّه الله، ومن أبغضَهم أبغضه الله»(٥).

أولئك أحبابي وصَحبي ومَعشَري
وقومي وإخواني وأعلامُ أمّتي

فمَن تطاول عليهم وافترى فقد ظلَم واجترى وجاء بأعظم الفِرى، فهم - وايمُ الله - لا يذكَرُون إلاّ بالجميل، ومَن ذكرهم بغير الجميل فهو على غير السّبيل.

وختامًا، فلتعلَموا - يا رعاكم الله - أنّ من أحبّ شيئًا أجراه دومًا على لسانه ومكّنه من سويداء جنانه.

يا ربّ صلّ على النبيّ المصطفى
ما غرّدَت في الأيكِ ساجعةُ الرُّبى
صلّوا على من تدخلون بهديه
دارَ السلامة تبلغون المْطلَبَا
يا أيّها الراجون خيرَ شفاعةٍ
من أحمدٍ صلّوا عليه وسلّموا
صلّى وسلّم ذو الجلال عليه
ما لبّى ملبٍّ أو تحلّل مُحْرِم

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإيمان (١٥)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٤٤) عن أنس رضي الله عنه، ليس فيه قوله: «من نفسه».

(٢) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق (٣٢٣١)، صحيح مسلم: كتاب الجهاد (١٧٩٥) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه ابن سعد (١٩٢/١)، وابن أبي شيبة (٣٢٥/٦)، والدارمي في المقدمة (١٥)، والبيهقي في الشعب (١٤٤/٢) عن أبي صالح مرسلا، ووصله الطبراني في الأوسط (٢٩٨١) والصغير (٢٦٤)، وابن عدي في الكامل (٢٣٠/٤)، والقضاعي (١١٦٠، ١١٦١)، والرامهرمزي في الأمثال (١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الحاكم (١٠٠)، ووافقه الذهبي، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٩٠). وفي الباب عن أنس وجبير بن مطعم وابن عمر رضي الله عنهم.

(٤) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (٤١٢/٤) فقال: "حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله قام على باب الكعبة فقال:..." فذكره في حديث طويل، وهذا سند معضل، وروي عن قتادة السدوسي مرسلاً، أخرجه الطبري في تاريخه (١٦١/٢) من طريق ابن إسحاق، وليس فيهما قوله: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(٥) صحيح البخاري: كتاب المناقب (٣٧٨٣)، صحيح مسلم: كتاب الإيمان (٧٥) عن البراء رضي الله عنه، قاله في الأنصار رضي الله عنهم.

فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم



لفضيلة الشيخ
عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام المسجد النبوي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فاتقوا الله - عبادَ الله - حقَّ التقوى، فتقوَى الله ذِكرَى لكلّ أوّابٍ ونجاةٌ للعبادِ من العَذاب.

أيّها المسلِمون، تسعَد المرأةُ المسلِمة باقتِفاءِ أثرِ خَيرِ نِساءٍ عِشنَ في أفضلِ القرون وتربَّين في أجلِّ البيوتِ بيتِ النّبوّة، أعلَى الله مكانتَهن، وأجلَّ قدرَهن، ونزَل القرآن بالثّناءِ عَليهنّ، قال عزّ وجلّ: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ [الأحزاب:٣٢]، زَوجاتٌ مبارَكات، ونِساء عظيمَات.

أُولاهنّ المرأة العاقِلَة الحاذِقة ذاتُ الدين والنسب خديجة بنت خُويلدٍ رضي الله عنها، نشأت على التخلُّق بالفضائل والتحلّي بالآداب والكرَم، واتّصفت بالعفّة والشرف، كانت تُدعَى بين نساءِ مكّة بالطاهرة. تزوّجها المصطفى ﷺ فكانت نِعمَ الزوجة له، آوَته بنفسِها ومالها ورجاحةِ عقلها، وفي أحزانه ﷺ كان يأوي إليها ويبُثّ إليها همومَه. نزل عليه الوحيُ أوّلَ نزوله فرجَع إليها يرجُف فؤادُه من هَول ما رأى، وقال لها: «ما لي يا خديجة؟! لقد خشِيتُ على نفسي»، فتلقّته بقلبٍ ثابت وقالت له: كلاّ والله، لا يخزيكَ اللهُ أبدًا!

لاحَ الإسلام في دارها فكانت أوّلَ من آمن من هذه الأمة، قال ابنُ الأثير رحمه الله: "خديجة أوّلُ خلقِ الله إسلامًا بإجماعِ المسلمين، لم يتقدّمها رجلٌ ولا امرأة"!

عظُمَت الشّدائد على النبيّ ﷺ في مطلَعِ دعوتِه، واشتدّ الإيذاء، فكانت له قلبًا حانيًا ورأيًا ثاقبًا، لا يسمَع من الناس شيئًا يكرهه ثم يرجِع إليها إلاّ ثبّتَته وهوّنت عليه، يقول النبيّ ﷺ: «آمنت بي إذ كَفَر بي النّاس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواسَتني بمالها إذ حرَمني الناس، ورزقني الله ولدَها إذ حرمني أولادَ النساء». [رواه أحمد]

عظيمة بارّةٌ بزوجها وأمّ حنون، جميع أولادِ النبيّ منها سوى إبراهيم، أدبُها رفيعٌ وخُلُقها جمّ، لم تراجِع المصطفى يومًا في الكلام، ولم تؤذِه في خِصام، يقول النبيّ ﷺ: «أتاني جبريل فقال: بشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصب - أي: لؤلؤ مجوّف، لا صخَبَ ولا نصَب» [متفق عليه]

قال السّهيليّ رحمه الله: "إنما بشّرها ببيتٍ في الجنة لأنها لم ترفَع صوتَها على النبيّ، ولم تُتعِبه يومًا من الدهر، فلم تصخَب عليه يومًا، ولا آذته أبدًا"!

كانت راضيةً مرضيّة عند ربِّها، يقول ﷺ: «قال لي جبريل: إذا أتتك خديجة فأقرئ عليها السلام من ربِّها ومنّي» متفق عليه!خطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.. قال ابن القيّم رحمه الله: "وهي فضيلةٌ لا تعرَف لامرأةٍ سِواها"!خطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.. أحبّها الله وأحبّتها الملائكة وأحبّها النبيّ ﷺ يقول: «إنّي رُزِقت حبَّها» [رواه مسلم]

كان إذا ذكرَها أعلَى شأنَها وشكَر صُحبتَها، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبيّ ﷺ إذا ذكَر خديجةَ لم يكن يسأم من ثناءٍ عليها واستغفارٍ لها!خطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.. حفظ لها وُدّها ووفاءها، فكان يكرِم صاحِباتها بعدَ وفاتها، تقول عائشة رضي الله عنها: وربّما ذبح الشاة، ثم يقطّعها أعضاءً، ثمّ يبعثها إلى صديقاتِ خديجة، فربما قُلتُ له: كأنّه لم يكن في الدّنيا امرأةٌ إلاّ خديجة! فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد» [رواه البخاري]

سمع النبيُّ ﷺ صوتَ أختِها بعد وفاتها فحزِن كثيرًا وقال: «ذكّرتني بخديجة».

كمُلَت في دينها وعقلِها وخلُقها، يقول ﷺ: «كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسيةُ امرأة فرعون، وخديجة بنتُ خويلد». [رواه ابن مردويه]

سبَقَت نساءَ هذه الأمة في الخيريّة والشرف والسناء، يقول ﷺ: «خيرُ نسائها - أي: في زمانها - مريمُ بنت عمران، وخير نسائِها - أي: مِن هذه الأمّة - خديجة». [متفق عليه]

صَلحت في نفسِها وأصلَحَت بيتَها، فجَنَت ثمرةَ جُهدها، فأصبَحَت هي وابنتُها خيرَ نساء العالمين في الجنّة، يقول ﷺ: «أفضلُ نِساء أهلِ الجنّة خديجةُ وفاطمة ومريمُ وآسية». [رواه أحمد]

كانت عظيمةً في فؤادِ النبيّ ﷺ، فلم يتزوّج امرأةً قبلَها ولم يتزوّج امرأةً معها ولا تسرّى إلى أن قضَت نحبَها، فحزِنَ لفَقدِها، يقول الذهبيّ رحمه الله: "كانت عاقلةً جليلةً ديّنةً مَصونةً كريمةً من أهل الجنة".

وفي بَيتِ الصّدقِ والتّقوَى ولِدَت عائشة بنتُ أبي بكر الصديق رضي الله عنها، ونشأت في بيتِ الإيمان، فأمُّها صحابية، وأختُها أسماء ذاتُ النطاقين صحابيّة، وأخوها صحابيّ، ووالِدُها صِدّيق هذه الأمة. ترعرَعت في بيتِ علم، كان أبوها علّامةَ قريش ونسّابَتها، منحَها الله ذكاءً متدفّقًا وحفظًا ثاقبًا، قال ابن كثير رحمه الله: "لم يكن في الأمَم مِثلُ عائشةَ في حفظها وعلمِها وفصاحتها وعَقلها"اخطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.، فاقَت نساءَ جِنسها في العِلم والحكمة، رزقَت في الفقه فهمًا وفي الشعر حِفظًا، وكانت لعلوم الشّريعة وعاءً، يقول الذهبي رحمه الله: " أفقَهُ نساءِ الأمّة على الإطلاق، ولا أعلَمُ في أمّة محمد بل ولا في النّساء مطلقًا امرأةً أعلَم منها".

سمَت على النساء بفضائلِها وجميلِ عِشرتها، يقول المصطفى ﷺ: «فضل عائشةَ على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [متفق عليه]

أحبَّها النبي ﷺ، وما كان ليحبّ إلا طيّبًا، يقول عمرو بن العاص : أيّ النّاس أحبّ إليك يا رسول الله؟ قال: «عائشة»، قلت: فمن الرجال؟ قال: «أبوها». [رواه البخاري]

لم يتزوّج بِكرًا غيرَها، ولا نزَل الوحيُ في لحافِ امرأةٍ سِواها، عَفيفةٌ في نفسها، عابدةٌ لربِّها، لا تخرُج من دارِها إلاّ ليلاً لئلا يراها الرّجال، تقول عن نفسِها: كنّا لا نخرُج إلاّ ليلاً!اخطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.، محقّقةً قولَ الله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣]، قال القرطبيّ رحمه الله: "والشريعةُ طافحة بلزوم النّساءِ بيوتهنّ والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة.. فإن مَسّت الحاجةُ إلى الخروج فليكُن على تبذّلٍ وتستّر تامّ".

والله يبتَلي من يحبّ، والابتلاء على قدر الإيمان، بُهِتَت رضي الله عنها وعُمرُها اثنا عشرَ عامًا، قالت: فبكيتُ حتى لا أكتحِل بنوم ولا يرقأ لي دَمع، حتى ظنُّ أبواي أنّ البكاءَ فالقٌ كبدي، واشتدّ بها البلاء، قالت: حتى قلَصَ دمعي فلا أحسّ منه قطرة!اخطأ الإشارة المرجعية غير معرفة.. قال ابن كثير رحمه الله: فغارَ الله لها، وأنزَل براءتها في عشر آيات تتلَى على الزمان، فسمَا ذكرُها وعلا شأنها؛ لتسمعَ عَفافها وهي في صباها. فشهِدَ الله لها بأنها من الطيّبات، ووعَدَها بمغفرةٍ ورزق كريم.

لم تزل ساهِرةً على نبيِّنا ﷺ، تمرِّضُه وتقوم بخدمتِه، حتى توفيَ في بيتها وليلَتِها وبين سَحرِها ونحرِها.

وسَليمةُ القلب سَودةُ بنت زمعَة رضي الله عنها، أوّلُ من تزوّجَ بها النبيّ ﷺ بعد خديجَة، وانفردَت به نحوًا من ثلاثِ سنين، كانت جليلةً نبيلَة، رزقَت صفاءَ السّريرة، وَهَبت يومَها لعائشةَ رضي الله عنها رِعايةً لقلب النبي ﷺ تبتَغي رِضَا ربِّها.

والقوّامَةُ الصوّامة حفصةُ بنت أمير المؤمنين عمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه، نشَأت في بيتِ نُصرةِ الدين وإظهار الحق، سَبعةٌ مِن أهلها شَهدوا بدرًا، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: هي التي كانت تُساميني من أزواجِ النبيّ ﷺ.

والمُنفقةُ زينبُ بنت خُزيمة الهلاليّة، ذات البذل والمسارعة في الخيرات، مكثت عند النبيّ ﷺ شهرَين ثم توفّيت.

والمهاجرة المحتسبَة أمّ حبيبة رملة بنت أبي سفيانَ رضي الله عنها، ليس في أزواجِه مَن هي أقربُ نسبًا إليه منها، ولا في نسائِه مَن هي أكثرُ صَداقًا منها، ولا فيمَن تزوّج بها وهي نائيةُ الدار أبعدَ منها، عقَدَ عليها وهي في الحَبَشة فارّةً بدينها، وأصدَقَها عنه صاحبُ الحبَشة وجهّزها إليه.

والصّابرة الحييّة أمّ سلمة رضي الله عنها هندُ بنت أبي أميّة مِنَ المهاجرات الأوَل، ولمّا أرادت الهجرةَ إلى المدينة مع زوجِها أبي سلمة فرّقَ قومُها بينها وبين زوجِها وطِفلِها، قالت: فكُنتُ أخرج كلّ غداة وأجلس بالأبطَح، فما أزال أبكي حتى أمسي سنةً كاملة أو قريبًا منها، حتى أشفَقوا عليّ فأعادوا إليّ طفلي.

يقينُها بالله راسِخ، توفيَ عنها زوجها أبو سلمة فقالت دعاءً نبويًا، فعوّضها الله برسول الله ﷺ زوجًا لها، تقول: سمِعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما مِن مسلم تصيبُه مصيبةٌ فيقول: إنّا لله وإنا إليه



راجعون اللّهمّ أجُرني في مصيبتي وأخلِف لي خيرًا منها إلا أخلَف الله له خيرًا منها»، قالت: فلمّا مات أبو سلمة قلت: أيّ المسلمين خير من أبي سلمة أوّل بيت هاجر إلى رسول الله؟! ثمّ إني قلتها فأخلَف لي رسولَ الله ﷺ. [رواه مسلم]

فاجعَل هذا الدعاءَ ذُخرًا لك عندَ حلولِ المصاب يعوّضْك خيرًا من مصيبَتِك.

وأمّ المساكين زَينبُ بنتُ جَحش بنت عمّةِ رسول الله، نَعِمت بالحسَب والنّسب والشرف والبَهاء، زوّجَها الله نبيَّه بنصّ كتابه، بلا وليٍّ ولا شاهد، قال عزّ وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧]. زواجُ النبيِّ ﷺ بها بركةً على المسلِمات إلى قيام الساعة حين فُرِض الحجابُ على بناتِ حوّاء بَعد أن تزوّجها؛ ليكونَ صيانة للشرَف والعفاف والنقاء.

سخيَّة العطاءِ للفقراءِ والضّعفاء، كثيرةُ البرّ والصدقة، ومع شريف مكانتِها وعلوِّ شأنها كانت تعمَل بيدها تدبَغ وتخرزُ وتتصدَّق من كسبِها، قالت عنها عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ امرأة خيرًا في الدّين من زينب؛ أتقى لله وأصدَق حديثًا وأوصَل للرّحم وأعظم صدقة.

والعابدة جويرية بنت الحارث رضي الله عنها من بني المصطلِق، أبوها سيّدُ مطاع في قومه، وهي مباركَة في نفسها وعلى أهلها، تقول عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ امرأةً كانت أعظمَ بركةً على قومِها منها.

كثيرةُ التعبُّد لربِّها، قانتةٌ لمولاها، كانت تجلِس في مصلاّها تذكرُ الله إلى نصفِ النّهار، تقول: أتى عليَّ رسول الله ﷺ غَدوة وأنا أسبِّح، ثم انطلَق لحاجته، ثمّ رجع قريبًا من نصف النهار، فقال: «أما زلتِ قاعدة؟» يعني: تذكرينَ الله، قالت: نعم. [رواه مسلم]

والوجيهةُ صفيّة بنت حيَيّ رضي الله عنها، من ذرّيّة هارونَ عليه السلام، كانت شريفةً عاقلة ذاتَ مكانةٍ ودين وحِلم ووقار، قال لها النبي ﷺ: «إنك لابنةُ نبيّ - أي: هارون، وإنّ عمّك لنبيّ - أي: موسى، وإنّك لتحت نبيّ». [رواه الترمذي]

كانت وليمةُ النبيِّ ﷺ عليها في زواجِها السّمن والأقط والتمر، فكان زواجًا ميسَّرًا مباركًا.

وواصلةُ الرّحِم أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلاليّة رضي الله عنها من عظماءِ النساء، منحَها الله صفاءَ القلب ونقاء السريرة وملازمةَ العبادة، تقول عائشة رضي الله عنها: أما إنّها كانت من أتقانا لله وأوصلِنا للرحم.

وبعد: أيها المسلمون، فتلك سيرةُ الخالداتِ في الإسلام أمّهات المؤمنين، مَناقبهنّ مشرقة، جمعَن بين المحاسن والفَضائل، حقيقٌ بنساءِ المسلمين أن يجعلنَهنّ نِبراسًا للحياة، يرتَشِفن من معين مآثرهن، ويقتدينَ بهن في الدين والخُلق ومراقبةِ الله والانقياد التام لله ورسوله وملازمةِ العبادة والإكثار من الطاعات والصّدق في الحديث وحفظ اللسان والبذل للفقراء وتفريج كُربات الضعفاء والسعي لإصلاح الأبناء والصّبر على تقويمِ عِوَجهم والتحصُّن بالعلم وسؤال العلماء الراسخين وملازمة السّتر والعفاف والقرار في البيوت والحِجاب والبعد عن الشبهات والشهوات والحذر من طول الأمل والغفلة في الحياة أو الاعتناء بالظاهر مع فسادِ الباطن وإطلاق البصر في المحرّمات والخضوع بالقول مع الرجال، وليَحذَرن من الأبواق الدّاعية إلى التبرّج والاختلاط بالرّجال، فشموخُ المرأة وعزّها في دينها وحِجابها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

زوجاتُ النبي ﷺ عِشن معه في بيتٍ متواضع، في حجرات بنيت من اللبن وسقف النخل، ولكنه مليء بالإيمان والتقوى، صبرن مع النبي ﷺ على الفقر والجوع، كان يأتي عليهن الشهر والشهران وما يوقد في بيوتهن نار، وتأتي أيام وليس في بيوتهن سوى تمرة واحدة، ويمر زمن من الدهر ليس فيها سوى الماء بدون طعام، قناعة في العيش وصبر على موعود الله، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤].

أجورهن مضاعفة مرتين: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣١].

خمس منهن تزوّجهنّ عليه الصلاة والسلام وأعمارهنّ من الأربعين إلى الستين عامًا، حقّق بذلك رعاية الأرامل وكفالة صبيانهنّ الأيتام.

تزوّج خديجة رضي الله عنها وعمرها أربعون عامًا ولها ثلاثة أولاد من غيره، وهو لم يتزوج بعد، وتزوج زينب بنت خزيمة وهي أرملة ناهزت الستين من عمرها، وتزوج أم سلمة وهي أرملة ولها ستة أولاد، وتزوج سودة وهي أرملة وعمرها خمسة وخمسون عامًا.

تزوّج من الأقارب ببنات عمه وبنات عماته، وتزوّج من الأباعد، وكان لهن زوجًا رحيمًا برًا كريمًا جميل العشرة معهن دائم البشر متلطفا معهن، فمن طلب السعادة فليجعل خير البشر قدوةً له، ولتلحَق المسلمة بركاب زوجاتِه الصالحات، فلا فلاح للمرأة إلا بالاقتفاء بمآثرهنّ في الستر والصلاح والتقوى والإحسان إلى الزّوج والولد.

والحمد لله رب العالمين.

التحذير من الاغترار بالدنيا

الحمدُ لله ذي العزّة والإكرام، والعزّة التي لا تُرام، أحمد ربي وأشكره على عظيم الإنعام، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له الملك القدّوس السلام، وأشهد أن نبيّنا وسيّدنا محمّدًا عبده ورسوله المبعوث رحمةً للأنام، اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمّد، وعلى آله وصحبه الكرام.

أمّا بَعد: فاتّقوا الله- عبادَ الله- حقَّ تقواه، وتمسّكوا بها، فنِعمَ العملُ والذُّخر والفَوز في دنيا العبدِ وأخراه.

أيّها المسلمون، لقَد خلقَ الله الخَلقَ لتنفُذَ فيهم قدرتُه، وتجريَ عليهم أحكامُه الشّرعيّة والقدريّة، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ «الأنعام:١٨». خَلَقَ الكونَ بالحقِّ ليُطاعَ الربُّ، ويُعمَر الكونُ بالصّلاح والإصلاح، وجعَل الله للمكلَّفين مشيئةً واختيارًا أناطَ به التّكليفَ، ولا يخرُج العبدُ بتلك المشيئةِ عن قدرةِ الله ومشيئتِه، فمَن وافقَ مرادَ الله المحبوبَ لَه وعمِل بالحقّ الذي لأجلِه خلَقَ الكونَ، وأطاع ربَّه جَزاه الله الجزاءَ الحسَن في الدنيا وفي الآخرة، كمَا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «النحل:٩٧». ومَن ضادَّ مُرادَ الله المحبوبَ له، وعارَضَ شريعةَ الإسلام وعصَى ربَّه، عاقبَه الله في الدنيا والآخرة، قال عزّ وجل: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى× وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ «طه:١٢٣، ١٢٤».

الأعمال محصاة والجزاء من جنس العمل

وأعمالُ العِباد مُحصاةٌ عليهم صَغيرُها وكبيرُها ليُجازَوا عليها، كما قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ «النجم:٣١». فالجزاءُ الحَقيقيّ الدّائمُ في الآخِرة، وأمّا الدّنيا وإن كان فيها جَزاءٌ على الخير أو على الشرّ فإنّه جزاءٌ قليل وجزاء منقطع، تتصرّم أيّامُه وتسرعُ ساعاتُه، حتّى إنّ عُمرَ الدنيا كلِّها يراه العُصاةُ مِقدارَ ساعةٍ من نهار، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ «الروم:٥٥»، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ «يونس:٤٥». ولكنَّ الجزاءَ الأبديَّ السّرمديّ الذي لا ينقطع في الآخرةِ؛ إمّا دارُ نعيم وإمّا دار جحيم.

والجزاءُ بالجنّة على الأعمالِ الصالحة والعقابُ بالنار على الأعمالِ الشرّيرة، في غايةِ المناسَبَة والمجانسة والعدل من رب العالمين، فإنّ الجزاءَ من جنس العمَل، فكلمّا كانَت الأعمالُ صالحة كان الجزاء أعظم، ولمّا كانَت الأعمالُ الصّالحة تتنوّعُ في حقائقِها ومنافِعِها، كان نعيمُ الجنّة منوّعًا في حقائقه ومنافِعه وطُعومِه ولذّاتِه، ولما عَبَد أهلُ الجنّةِ ربَّهم بالغَيب ولم يرَوه تجلّى الله لهم، فأكرَمهم بلذّة النظر إلى وجهِه الكريم، وأسمَعهم جلالَ كلامِه العظيم، ولمّا علِم الله مِنهم العَزمَ والتّصميم والإرادةَ الجازمة على دَوام عبادةِ الله وطَاعتِه أبدًا، أدامَ اللهَ عليهم النّعيمَ المقيمَ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً× خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ «الكهف:١٠٧، ١٠٨». ولما كانَت الأعمالُ الشرّيرة

لفضيلة الشيخ

علي بن عبد الرحمن الحذيفي

إمام المسجد النبوي

تتنوَّع في حقائقِها المُرَّة ومَضارّها وخُبثِها وشَرِّها على الناس وعلى الكون، كانَ عذابُ النار منوّعًا في شِدَّتِه وألمِه ومَرارتِه بحسَب الأعمال، ولما حجَبوا قلوبَهم عن الهدَى والإيمانِ احتجَب الله عن أهل النار فلا يرَونَه، قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ «المطففين:١٥». ولما علِم الله أنّ أهلَ النّار دائمو العَزم والإرادة على الكفرِ والمعاصي، وأنهم إن رُدّوا إلى الدنيا عَادوا إلى الكفرِ والمعَاصي، لما علِم الله منهم ذلك أدامَ عليهم العذابَ الأليمَ، قال عز وجلّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ × بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ «الأنعام:٢٧، ٢٨».

إنّ أصفَى ساعاتِ المسلم وأفضلَها وأرقى درجاتِه أن يستوليَ على قلبه الطمَعُ في الجنةِ والخوفُ من النار، وقد كان السّلفُ الصالح رضي الله عنهم يغلِب على قلوبهم الخوفُ من النّار والطمعُ في الجنّة، فصَلحت أعمَالهم واستنارت سرائرهم.

هذا عبدُ الله بنُ رواحة رضي الله عنه يودِّع أصحابَه في غزوةِ مؤتَة، فيبكي ويقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله، ما أبكي صَبابةً بكم ولاَ جزَعًا على الدّنيا، ولكن ذكَرتُ قولَ الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ «مريم:٧١»، فكيف لي بالصَّدرِ بعد الورود؟!«١». وعُمير بن الحمام رضي الله عنه لما قال النّبيّ ﷺ في غزوةِ بَدر: «قوموا إلى جنّةٍ عرضُها السموات والأرض» كان في يدِه تمراتٌ فرمى بهنّ، وقال: لئِن بقيتُ حتى آكلَ تمراتي هذه إنها لحياةٌ طَويلة، فقاتل حتى قُتِل «٢». وأنسُ بن النّضر رضي الله عنه قال: (إني لأجدُ ريحَ الجنّةِ من دونِ أُحُد)«٣».

ذكر الجنة والنار لمواجهة الفتن

والكلامُ عنهم في هذا يطول، ونحن بحاجةٍ إلى ذكر الجنة والنّار في قلوبِنا ونوادينا وفي ليلنا ونهارنا لتستقيمَ أحوالنا وتصلح أعمالُنا، ولا سيّما في هذا العصرِ الذي طغت فيه المادّة، وتظاهرت الفتَن، وقلَّ الناصحُ، وضعُف الإيمان، وتزيّنت الدنيا بزُخرفها وزهرَتها، وأثقلتِ الكواهلَ بكثرةِ مطالبها، وأرهقتِ الأعصابَ بتشعُّب حاجاتها، حتى صار التحابُّ من أجلِها والتباغُض من أجلها والتواصلُ لها والتقاطُع لها إلا من شاء الله تعالى، فكانت أكبرَ ما يصُدُّ عن الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ × أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «يونس:٧، ٨».

حال أهل الجنة

الطّمَع في الجنّة قائِد، والخَوفُ من النّار زاجرٌ وسائق. الجنّة حُقَّ أن يطلبَها المسلمُ جُهدَه، ففيها ما لا عينٌ رأَت ولا أذُنٌ سمعَت ولا خطَر على قَلبِ بَشَر، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله: «ألا هَل مشمِّرٌ للجنة، فإنّ الجنةَ لا خَطَر لها، هي- وربِّ الكعبةِ- نورٌ يتلألأ، وريحانَة تهتزّ، وقَصرٌ مَشيد، ونهر مُطَّرد، وثمرةٌ نضيجَة، وزوجةٌ حسناء جميلة، وحُلَلٌ كثيرة، ومَقامٌ في أبَد في دارٍ سليمَة، وفَاكهةٍ وخُضرة وحَبرة ونِعمَة في محَلَّةٍ عالية بهيَّة»، قالوا: نعَم يا رسولَ الله، نحن المشمِّرون لها، قال: «قولوا: إن شاءَ الله»، فقال القوم: إن شاء الله. «رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي»«٤».

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «بِناءُ الجنة لبنةُ ذهَب ولبنَة فِضّة،

وملاطُها المِسك- وهو ما يكون بين اللَّبِن، وحصباؤُها اللؤلؤ والياقوت، وترابُها الزّعفران، ومَن يدخُلها ينعَم ولا يبأس، ويخلُد ولا يموت، ولا تبلَى ثيابُه، ولا يفنى شبابُه»«٥».

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إنّ للمؤمن في الجنّةِ لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدة مجوّفة، طُولُها في السّماءِ سِتّون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يَرى بعضُهم بعضًا» رواه البخاري ومسلم«٦».

وأمّا شرابُهم فكما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ «محمد:١٥».

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رَسول الله ﷺ في أزواج أهلِ الجنّة: «يضَع أحدُهم يدَه بَين كتفَيها، ثم ينظُر إلى يده من صدرها من وراءِ ثيابها وجلدِها ولحمِها، وإنّه لينظُر إلى مُخّ ساقِها كمَا ينظُر أحدكم إلى السّلك في قصبَةِ الياقوت، كبدُه مرآةٌ لها، وكبدُها مرآة له» رواه أبو يعلى والبيهقي«٧».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه: «إنّ أسفلَ أهل الجنّةِ أجمعين مَن يكون على رأسِه عشرةُ آلاف خادِم، معَ كلّ خادم صحفتان: واحدةٌ من ذهَب وواحدةٌ من فضّة، في كلّ صَحفةٍ لونٌ ليس في الأخرى مثلُها، يأكل من آخره كما يأكل من أوّله، يجد لآخره من اللذّة والطّعم ما لا يجد لأوّله، ثم يَكونُ فوقَ ذلك رشحُ مِسكٍ وجُشاء مِسك، لا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخِطون» رواه الطبراني وابن أبي الدنيا«٨».

وقد وصَف الله تعالى ما في الجنّةِ من النعيم المقيم في كتابِه بما لم يُوصَف في كتابٍ منزّل، ووصف ذلك رسولُ الله ﷺ بما لم يصِفه نبيّ لأمته؛ لنعمَلَ بأعمال أهل الجنّة ولنسارعَ إلى الخيرات ونطلبَ جنةَ ربِّنا بجُهدَنا، ونَسأل الله تبارك وتعالى أن لا يكلنا إلى أنفسنا، ونَسأل ذلك من ربِّنا.

وأعظمُ مِن نعيم الجنة رضوانُ ربِّ العالمين على العبد، والنّظرُ إلى وجهِهِ الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ «التوبة:٧٢».

حال أهل النار

وأمّا النّار وما أدراك ما النّار، فهي مثوَى الأشرار، ومكانُ الخُبث والذلّة والخزي والصّغار، بعيدةُ القَعر، لو أنّ الحَجرَ يُلقى من شَفيرها ما أدرك لها قَعرًا سبعين خريفًا. رواه مسلم«٩».

شديدةُ الحرّ، «نارُ الدّنيا جزءٌ واحِد من سبعين جزءًا من نار جهنّم»«١٠».

طعامُ أهلِها الزّقّوم من شجرةٍ تنبتُ في أصل جهنّم، يأكل منها أهل النار ويشربون عليها من الحميم، وطعامهم الضّريعُ لا يُسمِن ولا يُغني من جوع، خبيثُ الطّعم، مُرُّ المذاق، شديدُ الحرارَة، ينشَبُ في الحَلق فلا يسيغه إلى جوفِه إلاّ بالماءِ البالغ الحرارة، فإذا وصل إلى الجوف قطّع الأمعاء والعياذ بالله.

ومِن شَرابهم المُهلُ والغسّاق وهو الصّديد من القيح والدّم، ولباسُهم القطِران والحديد، قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ × يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ × وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ × كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ «الحج:١٩-٢٢». عَن عبد الله بن الحارث بن جزء رضي الله عنه قال: (إنّ في النار حيّات- أي ثعابين- كأمثال أعناقِ البُخت تنهَش الرّجل، فيجِد حرَّ سُمّها سبعينَ خريفًا)

رواه أحمد«١١». وفيها العقارب التي وصفها النبي ﷺ كأنها الخيل الدهم.

قال عز وجلّ: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «التوبة:١٠٥».

أيها المسلمون، لقد دعاكم مولاكم إلى جنّاتِ النعيم، بتقديم الأعمالِ الصالحات ومجانبة السيّئات، فقال عز وجلّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ × الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ «آل عمران:١٣٣، ١٣٤»، وفي الحديث عن النبيّ: «كلّكُم يدخُل الجنة إلا مَن أبى»، قالوا: ومن يأبى يا رسولَ الله؟! قال: «من أطاعني دخلَ الجنة، ومن عصاني فقد أبى»«١».

فلا يركنَنَّ أحدٌ إلى الدّنيا ونعيمِها؛ فإن الركون إليها يَصدُّ عن الآخرة، فما هي إلاّ أضغاثُ أحلام وظلُّ شجرةٍ زائل ومتاعُ غرور، ففي الحديثِ عن النبيّ: «يؤتَى بأشدِّ الناس في الدنيا بؤسًا ويغمَس في الجنّة فيقال له: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ بؤسًا قطّ؟ فيقول: لا والله، ما رأيتُ بؤسًا قطّ ويؤتى بأشدّ الناس تنعُّمًا في الدنيا ثم يُغمَس في النار، ويقال له: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ نعيمًا في الدنيا قطّ؟ فيقول: لا والله، ما رأيتُ نعيمًا قط» رواه مسلم«٢».

الأمن هبة إلهية

أيها الناس، إن الأمن نعمة كبرى ومنّة عظمى، وإنه تنتظم به مصالح الدنيا والدِّين، وإن من يريد أن يخترق سياجه فإن مسؤولية ذلك على المجتمع كلّه، وإن الأخذ على يدي المُفسد والعابث بالأمن واجبٌ على كل فردٍ من أفراد المجتمع، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ «الأعراف:١٤٢». وإن من أعظم الإفساد السطو على الأرواح أو الأموال أو الأعراض أو انتهاك الحرمات، إن ذلك كلّه مسؤولية الجميع، فيجب الأخذ على يدي الظالم، وفي الحديث عن النبي: «لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يدِ السفيه أو الظالم، ولتأطرُنَّه على الحقِّ أطرًا، أو ليضربنَّ الله قلوبِ بعضكم ببعض»«٣».

فاتقوا الله أيها المسلمون، وكونوا على الخير أعوانًا، حاربوا الشرَّ أينما كان وممن كان، وأحبّوا الخير ممن كان وأين كان، فإنكم لن تفلحوا إلا بمحاربة الشرِّ وأهله.

فاتقوا الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

«١» رواه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية (٣٧٣/٤).
«٢» رواه مسلم في الإمارة (١٩٠١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
«٣» رواه البخاري في الجهاد (٢٨٠٦)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٣).
«٤» سنن ابن ماجه: كتاب الزهد (٤٣٣٢)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٣٥٨).
«٥» صحيح سنن الترمذي (٢٠٥٠).
«٦» صحيح البخاري: كتاب التفسير (٤٨٨٠)، صحيح مسلم: كتاب الجنة (٢٨٣٨) واللفظ له.
«٨» السلسلة الضعيفة (٥٣٠٣).
«٩» صحيح مسلم: كتاب الجنة (٢٨٤٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه بمعناه.
«١٠» صحيح البخاري: (٣٢٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٨٤٣).
«١١» السلسلة الصحيحة (٣٤٢٩).
«١» أخرجه البخاري (٧٢٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
«٢» صحيح مسلم (٢٨٠٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
«٣» أخرجه أحمد (٣٩١/١)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"، وقد اختلف في إرساله ووصله، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٠٥).
«٤» أخرجه مسلم (٣٨٤)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

رمضان شاهد لك

أيّها المسلمون، الأيّام تمرُّ عجلَى، والسّنون تنقضي سِراعًا، وكثيرٌ من الناسِ في غَمرةٍ ساهون وعن التّذكرة معرضون، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

ولما كان العُمر - يا عبادَ الله - محدودًا وأيّامُ العَبدِ في هذه الدّنيا معدودةً فقد امتنَّ الله على عبادِه بمواسمِ الخيرات ومِنَح النّفَحات، وأكرَمَ بأيّام وليالٍ خصَّها بمزيدٍ منَ الشَّرَف والفَضلِ وعَظيمِ الثّوابِ ومُضَاعَفة الأجر، وجعَل فيها بمنِّه وكرَمِه ما يُعوِّض فيهِ الموفَّق قِصَرَ حياتِه وتقصيرَ أعماله. وإنّ أيّامَكم هذه من أفضلِ الأيّام، وهذه العَشرُ الأخيرةُ هي الأفضَلُ والأكرَم.

محاسبة النفس

ما أحوجَ العبدَ إلى موقفِ المحاسبة في هذه الأيّام الفاضلة، إنها مناسَبَة مناسِبَة من أجل التّغيير والتصحيح والإصلاح في حياة الفرد وفي حياةِ الأمة، يقولُ رسول الله صلّى الله عليه وعلى آلِه وصحبه وسلّم: «إذا دخل رمضانُ فتِّحت أبواب الجنّة وغُلِّقت أبوابُ النار وسُلسِلت الشياطين» أخرجه الترمذي، وفي روايةٍ أخرى: «إذا كانَ أوّل ليلة من رمضانَ صُفِّدت الشياطين ومردَةُ الجنّ، وفُتِّحت أبواب الجنة فلم يغلَق منها باب، وغلِّقت أبواب النار فلم يُفتَح منها باب، وينادي منادٍ: يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشرّ أقصر، ولله عتقاءُ من النّار، وذلك كلَّ ليلة». إنها فرصة للمحاسبة وفرصةٌ للإصلاح وفرصة للتغيير، «يا باغيَ الخير أقبِل، ويا باغيَ الشرّ أقصر».

ومن أجلِ مزيدٍ منَ التأمُّل واستشعارٍ جادٍّ للمحاسَبَة وإدراكٍ عميق لهذه الفرصَةِ السانحة هل تأمَّلتم في دعاءٍ يردِّده المسلمون في هذا الشهرِ الكريم، وبخاصّةٍ في مثل هذه الأيام حين تبدأ أيّام الشهر في الانقضاءِ وهِلاله بالأفول، ويستشعرون فِراقَه ويعيشون ساعاتِ الوداع ومشاعِرِ الفِراق، دعاءٌ يصاحبه دفقٌ شعوريّ مؤثِّر من القلوبِ الحيَّة والنفوسِ المحلِّقةِ نحوَ السموّ بشعورٍ إيمانيّ فيّاض، يرفعون أيديَهم مُناشدين ربَّهم ومولاهم: "اللهمَّ اجعله شاهدًا لنا، لا شاهدًا علينا". هل تأمَّلتم هذا الدعاء؟! وهل فحَصتم مضامينَه وعواقبَه وحقيقتَه ونتيجتَه؟!

أيّها الصائمون، إنّ شهادةَ شهرِ رمضان غيرُ مجروحةٍ، إنّه موسم يتكرّر كلَّ عام، يشهد على الأفرادِ، ويشهَد على الأمة، إنّهُ يشهَد حالَكم، فهل سيشهَد لنا أو يشهَد علينا؟! يرقب حالَنا؛ هل سوف يزدرينا أو سوفَ يغبطنا؟! ماذا في استقبالنا له؟! وماذا في تفريطنا فيه، بل في كلّ أيّام العام والعُمر؟ هل نجتهد فيه ثم نضيِّع في سائرِ أيّام العام؟!

الأيّام تشهَد، والجوارح تشهد، والزّمان يشهد، والمكان يشهَد، إنّ تأمُّلنا في شهادة هذا الشهر الكريم لنا أو علينا فرصَة عظيمةٌ صادقة جادّة في المحاسبة ومناسبةٌ حقيقيّة نحو التغيير والتعويض، «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشرّ أقصر». وقد يكون لشهادةِ رمضان المعظَّم نوعٌ من التميُّز ولونٌ

أو عليك

لفضيلة الشيخ
صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام

من الخصوصيّة، لماذا؟ لأنَّ شهرَ رمضانَ هو شهر الصّبر، شهر مقاومة الهوى وضبطِ الإرادة ومقاومَة نزوات النفس ونوازعها.

شهر رمضان - معاشرَ الصائمين - ميدانُ التفاوت بين النفوسِ الكبيرة والنفوسِ الصغيرة، بين الهِمَم العالية والهِمَم الضعيفة. هذا الشهرُ الشاهد فرصةٌ حقيقيّة لاختبار الوازِع الداخليّ عند المسلم، الوازع والضمير هو مِحوَر التربية الناجحة.

خصائص الصيام

ومن أجل مزيد من التأمُّل والنظَر والفحص في هذه الشهادةِ الرمضانية فلتنظُروا في بعض خصائصِ الصّيام وأحوال الصائمين. الصّوم سرٌّ بين العبدِ وبين ربِّه، وقد اختصَّه الله لنفسِه في قوله سبحانَه في الحديث القدسي: «الصّوم لي وأنا أجزِي به، يدَع طعامَه وشرابه وشهوتَه من أجلي».

أيّها الإخوة في الله، الصومُ عن المفطّرات الظاهِرَة يسيرٌ غير عسير لكثيرٍ من الناس، يقول ابن القيم رحمه الله: "والعبادُ قد يطّلعون من الصائم على تركِ المفطرات الظاهرةِ، وأما كونه تركَ طعامَه وشرابه وشهوتَه من أجل معبودِه فهو أمر لا يطّلع عليه بشَر، وتلك حقيقة الصوم".

واقرِنوا ذلك - رحمكم الله - بقوله : «من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفِر له ما تقدّم من ذنبه، ومن قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفِر له ما تقدّم من ذنبه، ومن قام ليلة القدرِ إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه». مَن - تُرى - يحقِّق الإيمانَ والاحتساب على وجهه يا عباد الله؟! «يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

أحوال الناس في رمضان

تأمّلوا أحوالَ بعض الصائمين مع الطعام وفضول الطعام، يسرِفون على أنفسِهم في مطاعمهم ومشاربهم ونفقاتهم، يتجاوَزون حدَّ الاعتدال والوسَط، ساعدهم في ذلك إعلامٌ هَزيل قد جعَل مساحاتٍ هائلةً للأكل والموائد مع ممارساتٍ غير سويّة من التجار والمستهلكين.

وتأمّلوا - حفظكم الله - وأنتم في رحابِ هذا الشهرِ الشّاهد، تأمّلوا أحوالَ بعض الغافِلين الذين يضيِّعون هذه الأوقاتَ الفاضلةَ والليالي الشريفة مع اللهوِ والبطّالين فيما لا ينفَع، بل إنّ بعضها فيما يضرّ ويُهلك ويفسِد الدّينَ من الغيبة والنميمةِ والمسالك المحرَّمة، انقلبت عليهم حياتهم ليجعَلوا نهارَهم نومًا وليلَهم نهارًا في غير طاعةٍ ولا فائدة، لا لأنفسِهم ولا لأمّتهم، تجمّعاتٌ ليليّة، إمّا تضييع للواجباتِ والمسؤوليات، وإمّا وقوع في المنهيّات والمهلكات، يعينهم في ذلك قنواتٌ وفضائيّات في مسلسلاتٍ هابطة وبرامجَ للتسلية هزيلة.

بل إنَّ التأمّلَ في فضول الكلام - أيّها الصائمون - لا ينقضي منه العجَب، حتى في أحوالِ بعض الصالحين والمتعبِّدين ممن ينتسِب للعلم والدّين والدعوة، فلا يكاد

الغافلِ منهم يُفكِّر في فضولِ الكلام فضلاً عن أن يفكِّر في تجنُّبه، ولكثرةِ كلامهم فقَدوا السَّمتَ وقلَّت عندهم الحِكمة وخلَطوا الجدَّ بالهزل، ناهيكم في الوقوع في داء الغيبةِ والنميمة والكذِب والرياء والسمعة.

همسة في أذن المعتكفين

ومن المعلوم أنَّ كثرةَ الخُلطةِ وبخاصَّة في أوقات التعبُّد تدعو إلى فضولِ الكلام وتضييع الأوقات وكثرةِ الانشغالات وتقعِد عن المناجاة، ولاحظوا ذلك في أحوالِ بعض المعتكِفين هداهم الله وأصلَح بالَهم، يعتكِفون جماعاتٍ، فينفتح بينهم الحديث وتتَّسع أبوابه، بل قد يكون المعتكَف مجلبَةً للزائرين ومكانًا للتَّجمّع مما يُبعِد عن هدي الاعتكافِ وحِكمته، يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله: "كلُّ هذا تحصيل لمقصودِ الاعتكاف وروحِه عكسَ ما يفعَله الجهَّال من اتِّخاذ المعتكَف موضعَ عشرةٍ ومَجلَبَة للزائرين وأخذهم بأطراف الحديث بينهم، فهذا لونٌ والاعتكاف النبويّ لونٌ آخَر". وفي هذا يقول بعض الحكماء: "إذا أردتَ أن يعتزلَك الناس فدَع الحديثَ معَهم، فإنّ أكثرَ مُواصلةِ الناس بينهم بالكلام، فمن سكَت عنهم اعتزلوه".

معاشرَ المسلمين، هذه إشاراتٌ ووقَفات لما قد تكون عليه هذه الشهادات في أحوالِ بعض الصائمين والمتعبِّدين، «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشر أقصر».

أيّها المسلمون، هل ندرك ونحن نتأمَّل هذه الشهاداتِ الرمضانية أننا أصبَحنا في أمسِّ الحاجة إلى التغيير وأننا لا نزال يملؤُنا التفاؤل بغدٍ أفضَل وواقع أمثَل. إنّ وسائلَ العلاج وأدواتِ النجاح ليست عنّا ببعيد، فنحن أمّةُ القرآن وأمّة محمّد ، أمّة هذا الشهر الكريم الشاهدِ، ونحن الأمّةُ الشاهدة.

منهجُ التغيير والإصلاح يتمثَّل في هذه الآيَة الكريمة الجامعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وفي النداء الرمضانيّ الصادح: «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

ليس الإصلاحُ بالاكتفاء بالنقد والتلاوُم وتحويل المسؤولية على الأعداءِ والخصوم، إنّ على المسلم الصادقِ الجادّ المحبِّ الخيرَ لنفسه وصادقِ الغيرة على أمّته أن يتَّقيَ الله ربَّه ويدركَ الغاية من هذه الحياة والوظيفةَ في هذه الدنيا، فيحفظ وقتَه ويستغلّ شريف أيّامِه وفاضلَ أوقاته وينطلِق نحو التغيير والإصلاح، فيعيش حياةً جادّة حازمة متوازنَة، فلا يغرَق في المباحاتِ على حساب الفرائض والواجبات، كما يجب ترويضُ النفس وتدريبها على ملازَمَة الأعمال الصّالحة وتحرِّي السنّة وصِدق المتابعة لهدي المصطفى.

الاجتهاد في العشر الأواخر

أيّها الإخوة المسلمون، إنّ هذه العشرَ الأخيرة فرصةٌ حقيقيّة لاختبارِ النفس في التّغيير نحوَ الأفضل والأحسن. ليس من الصعبِ بتوفيق الله وعونه تغييرُ النفس وقطعُها عمّا اعتادته لمن أخلصَ نيّته وصدقَ في عزيمته، يقول المنذر بن عبيد:

تولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعد صلاة الجمعَةِ فأنكرتُ حالَه في العصر.

وإنّ من الدلائلِ على التغييرِ ومَظاهر الهمّة وقوّة العزيمة وضَبط الإرادة في هذا الشهرِ شهرِ الصبر الاجتهاد في العمَل والإحسان في هذه الأيّام العشر تأسِّيًا بالقدوةِ والأسوة نبيّنا محمّد ، فقد جعل رمضانَ كلَّه فرصةً للاجتهاد، كما خصّ العشرَ باجتهاد، تقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله يجتهِد في رمضان ما

لا يجتهد في غيره، وكان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها.

وتسمُو الهمّة ويتجلّى التوجّه نحوَ التغيير حينما يجتهد العبدُ ليفوزَ بإدراك ليلة القدر، فيعمَل ويتحرّى، فتسمو النّفس وتعلو الرغائِب للوصول إلى أسمى المراتِب وأعلى المطالِب؛ توبةٌ وإقلاع وعزمٌ على الإصلاح والإحسان، وتأمّلوا هذا الحديثَ العظيم وما فيه من الحثّ ووقفاتِ المحاسبة: «رغِم أنفُ رجلٍ دخَل عليه رمضانُ ثم انسلَخَ فلم يُغفر له».

معاشرَ الأحبّة، أَروا الله من أنفسِكم خيرًا؛ صيامُ نهارٍ وقيامُ ليلٍ واعتكاف وقراءةُ قرآن وذِكرٌ وصدَقات ودُعاء ومحاسبة ومراجعة وندمٌ وتوبَة وعزمٌ على فعلِ الخيرات، «يا باغيَ الخير أقبِل، ويا باغيَ الشرّ أقصِر».

وبعد: أيّها الصائمون، فلِحكمةٍ عظيمة جاءت آيةُ الدعاء في ثنايا آياتِ الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، ولحكمةٍ عظيمة وسِرّ بليغ خُتِمت آيات الصّيام بهذه الآية الواعظة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧].

الهمة العالية سبيل إشراق القلب بنور ربه

أيّها المسلمون، والحديثُ عن الشهادةِ الرمضانية وفُرصِ التغيير والإصلاح، فإنّ شهرَ رمضان موسِمٌ عظيمٌ من مواسم الخير وزمَنٌ شريف من أزمِنَة النفحات، يغتَنِمه الأتقياء الصالحون للاستزادَة من صالح العمل، ويُلقي بظلّه الظليل على العصاةِ الغافلين والمقصّرين فيتذكّرون ويندَمون ويتوبون، فالسعيدُ السعيد من كان شهرُه مجدِّدًا للعزم والطاعةِ وحافزًا للتمسّك بحبل الله وفرصةً للتزوّد بزاد التقوى، حاديه في ذلك وسائقُه همّةٌ عالية ونفسٌ أبيّة لا ترضى بالدّون من العزم والعمَل، يقول ابن القيم رحمه الله: "إذا طلع غَيمُ الهمّة في ليل البَطالة وأردَفه نور العزيمةِ أشرقت أرضُ القلب بنور ربها".

على أنّه ينبغي - أيّها المسلمون - لذوي الهِمَم العالية وطلاّب الكمالاتِ أن يعرفوا الطبيعةَ البشرية والضّعفَ الإنساني، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٧، ٢٨]، وفي مثل هذا يقول بعض أهلِ العلم والحكمة: إنّ مِنَ الخطأ والخَطَل أن ينزعَ الرجل إلى خصلَةٍ شريفةٍ من الخير، حتى إذا شعَر بالعجز عن بلوغ غايتِها انصرَف عنها والتحَق بالطائفة الكسولةِ التي ليس لها همّة في هذه الخصلة ولا نصيبٌ، ولكن الطريقَ الصحيح ونهجَ الحكمة ومنهجَ السعادة أن يذهبَ في همته إلى الغاياتِ البعيدة ثم يسعَى لها سعيَها ولا يقِف دونَ النهاية إلا حيث ينفَد جهده ويستفرغ وسعَه.

إن إدراكَ هذا الشهر والإحسان فيه نعمةٌ عظيمة وفضلٌ من الله كبير، لا يحظى به ولا يوفَّق إلا مَن منَّ الله عليه بجودِه وإحسانه وفتَحَ عليه أبوابَ الخيرات، فتنافسوا - رحمكم الله - في الطاعاتِ، وازدادوا من الصالحات، وجِدّوا وتحرّوا ليلةَ القدر، وتعرّضوا لنفحاتِ ربّكم.

تقبّل الله منا ومنكم الصيامَ والقيام وسائرَ الطاعات، إنه سميع مجيب.

الغفلة عن شكر



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن الشكرُ عبادة عظيمةٌ وخلُق كريم، الشكر نِصف الإيمان، والصَّبر نِصفه الثاني. الشكر من شُعَب الإيمان الجامعة؛ وذلكم أنَّ كثيرًا من شعَبِ الإيمان مردُّها إلى حقيقةِ الشكر أو آثارِه أو مظاهِرِه، بل إنَّ الصبرَ والشكر يتقاسمَان الشعبَ كلَّها، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

لقد أمَرَ الله بالشكر ونهى عن ضدِّه: وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ [البقرة:١٥٢]، وأثنى علَى أهلِه، ووصَفَ به خواصَّ خلقه، وجعَلَه غايةَ خلقِه وأمرِه، ووعَد أهلَه بأحسن جزائِه، وجعله سببًا للمزيدِ من فضلِه وحَارسًا وحافظًا لنعمَتِه، وأخبر أنّ أهلَه هم المنتفِعون بآياته، بل أخبر أنّ أهلَه هم القليلون مِن عبادِه، واشتقَّ له اسمًا مِن أسمائه فسمّى نفسه شاكِرًا وشكورًا، بل تفضَّل سبحانه وأنعَم فسمَّى الشاكرين مِن خلقه بهذين الاسمَين، فأعطاهم مِن وصفه وسمّاهم باسمه، وحَسبُك بهذا محبّةً للشاكرين وفَضلاً ومنزلة.

وحقيقةُ الشكر الاعترافُ بالإحسان والفضلِ والنِّعَم وذِكرُها والتحدُّث بها وصَرفها فيما يحبّ ربُّها ويرضَى واهبها. شُكرُ العبد لربِّه بظهورِ أثَر نعمتِه عليه، فتظهَر في القلب إيمانًا واعترافًا وإقرارًا، وتظهَر في اللسان حمدًا وثناء وتمجيدًا وتحدّثًا، وتظهَر في الجوارح عبادةً وطاعة واستعمالاً في مَراضي الله ومُباحاتِه.

إذا ما امتَلأ القلبُ شُكرًا واعترافًا ورَصدًا للنِّعَم ظهر ذلك نطقًا ولهجًا بذكر المحامِد، وعليكم أن تتأمّلوا كم جاءَ في السنة من أذكارِ الشكر والحمد والثناءِ على الله ربِّ العالمين في أحوالِ العبدِ كلِّها؛ يَقظَةً ومَناما، وأكلاً وشُربًا ولبسًا، ودخولاً وخروجًا وركوبًا، وحَضرًا وسَفرًا، بل في أحوال العبد كلِّها أفعالاً وأقوالاً.

استعرِضوا على سبيلِ المثالِ: أوّلَ ما يستيقِظُ العبدُ من منامِه يبادر بهذا الذِّكر الجميل الرقيق معلِنًا الاعترافَ بالفضل والنِّعمة والشكر للمنعِمِ المتفضّل قائلاً: الحمد لله الذي عافاني في جسدِي وردَّ عليَّ روحي وأذِن لي بذكرِه، ويقول: اللّهمّ ما أصبح بي من نِعمة أو بأحدٍ مِن خلقك فمنك وحدك لا شريكَ لك فلَك الحمد ولك الشكر، في أذكارٍ رقيقة إيمانية كثيرةٍ من أذكار الصباح والمساء والأكلِ والشرب والدخول والخروج والسفرِ والإقامة، يختِمها إذا أوى إلى فراشه بقوله: الحمدُ لله الذي أطعَمَنا وسَقانا وكَفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا ومؤوِي، سبحانك ربَّنا لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيتَ على نفسِك، نسألك أن تعينَنا على ذكرِك وشكرِك وحسن عبادتك.

تُعرَف النِّعَم بدَوامها، وتعرَف بزوالها، وتُعرف بمقارَنَتها بنظيراتها، وتعرَف بمزيدِ التفكّر فيها، كما تعرَف بتوافرِها وعظيم الانتفاع بها، ولكن مَع الأسف كلّ الأسف أنَّ

النعم

لفضيلة الشيخ
صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام

الغفلةَ عن هذه النِّعَم بل عن المنعِم بها سِمَةَ أكثرِ البشَر، وقليلٌ من عبادِ الله الشاكرون.

إنَّ نِعَم الله تحيطُ بالعبادِ مِن كلِّ جانب ومن كلِّ جِهة؛ مِن فوقِهم ومن تحتِ أرجلِهم وعن أيمانهم وعَن شمائلِهم، وكثرتُها ومظاهرِ آثارِها لا تقَع تحت حَصرٍ؛ في البرِّ والبحرِ والأرض والسَّماء والنَّفس والناس، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل:٨٠-٨٣].

عبادَ الله، وأهلُ هذا الزمان أحدَثَ الله لهم من النِّعَم وزاد لهم في الفضل وكاثر عليهم من الخيراتِ ما لم يكن في السابقين من أسلافهم، جُمِعت لهم النِّعَمُ السابقة والنِّعَم الحاضِرة، وما تأتي به المكتَشفات والمخترَعات والعلوم والمعارف أعظمُ وأكبر في شؤون دنياهم كلِّها؛ عِلمًا واقتصادًا وفِكرًا وإنتاجًا وكَسبًا واحترافًا ونَقلاً واتِّصالاً وطبًّا وعِلاجًا، نَباتًا وحَيوانًا، في المأكلِ والمشرب والملبَس والمسكَن والمركَب، فتحٌ في العلوم والمعارف والآلاتِ والأدوات، تحسَّن بها أسبابُ المعاش، ومع كلِّ هذا لا تجِد أكثرَهم شاكرين، فَرِحين بما عِندهم من العِلم.

يجدُر بالعبد أن ينظُر ويتفكَّر في أسباب التَّقصير في الشكرِ والدُّخول في دائرةِ كُفران النِّعَم والغفلةِ عنها وعدَم الإحساس بها واستحضارِ وجودها والنَّظر في أثرِها، فكثيرٌ مِنَ النِّعَم لا يعرفها الإنسان إلاَّ حين يفقِدها كالمصباح لا تعرف فَضلَه إلاَّ حين ينطفِئ؛ ومِن أجلِ هذا فإنَّ رصدَ النِّعَم وبذلَ الجُهد في تعدَادها والإحاطة بما يمكِن الإحاطةُ به منها ممَّا يبعِد عن الغفلةِ والنكران، فيَعتَبِر بما عَرَف وأحصَى؛ ليكتَشِف كثرَتَها والعَجزَ عن الإحاطةِ بها وإحصائِها، وربُّنا سبحانه عدَّد علينا جملةً من نِعَمه في موضعين من كتابه ثمَّ قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨]، ممَّا ينبِّه أنَّ علينا أن نبذُلَ ما نستطيع لتذكُّرِ نعمةِ ربِّنا؛ لعلَّنا نقوم بما نقدِر عليه من الشكر والبُعد عن الغفلةِ والنكران.

وانظروا - رَحِمكم الله - في بعضِ التأمُّلات، فلو تأمَّل العبدُ في نعمةِ الإيمان وآثارِه لانتقَل إلى الأمنِ والسكينة والبركةِ والرَّاحة والرِّضا والصَّلاح، ولو تأمَّل في نعمةِ الصِّحة وتشعُّبها وآثارها لانتقل إلى نِعَم لا حصرَ لها من سلامةِ الجوارح والعقلِ والقوَى والحركة والمشي والعمَل والأكل والشرب والنَّوم والتعلُّم، ولو كان سقيمًا لتكدَّر عليه ذلك كلُّه وأكثر منه.

ومِن أسباب الغفلةِ عن الشكر نِسبةُ النِّعمة إلى غيرِ مُوردِها والمنعِمِ بها، فتَرَاه ينسِبها إلى نفسه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٧٨] وبسبب جِدِّي واجتهادي وكفاءَتي وصبري وكِفاحي، أو ينسِبها إلى أسبابِها وينسَى مسبِّبَها وربَّها، ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. غَفَلوا فضَلّوا، وظنّوا أنَّ العلومَ والمهارات والآلاتِ هي الموجِدة والمحدِثة؛ ممّا أدّى إلى قسوةٍ وغفلة، بل أدّى إلى نُشوبِ صراعاتٍ وحروب. غاب عن الغافِلين أنهم وما يملِكون وما يعلَمون وما يعمَلون كلُّهم لله ومِنَ الله وبالله وحدَه لا شريكَ له، لا يملِكون ضرًا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك:٣٠]، ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٧٧]. والأسبابُ لا يُنكَر أثرُها ولا الأخذُ بها، ولكنّ المنكورَ الغفلةُ عن ربِّ الأرباب ومسبِّب الأسباب لا إلهَ إلا هو.

يا عبدَ الله، ومما يضعِف الشكرَ ويورث القسوةَ والغفلة والجفاءَ أن يُبتلَى العبدُ بالنظر إلى ما عند غيره وينسَى ما عندَه أو يحتَقِرُ ما عنده ويتقالُّه، ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢]، وفي الحديث: «انظُروا إلى من هو أسفَلَ منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقَكم؛ فهو أجدَر أن لا تزدَروا نعمةَ الله عليكم»[٢]. فحقٌّ على العبدِ أن يشتغلَ وينصرف إلى ما أعطاه الله، بل إلى ما ابتلاه الله به منَ النِّعَم والفضل، ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠]، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ﴾ النَّعِيمِ [التكاثر:٨]، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة:٤٨].

ألا فاتَّقوا الله رحمكم الله، واختبروا أنفسَكم، واعملوا واشكروا وافعَلوا الخيرَ وأروا الله من أنفسِكم خيرًا.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

إنَّ من آثار الشكر امتلاءَ القلب بالإيمان والرِّضا بالله سبحانه والثِّقةَ فيما عندَه والشعورَ بالحياةِ الطيِّبة وسلامةَ القلبِ من الغلّ والحسَد وضيقِ الصدر والبُعدَ عن الاشتغال بعيوبِ النّاس والتّطلُّع إلى ما عِندهم وما في أيديهم، ناهيكم بالشعور بالعِزّة والقناعة والكفايةِ والسلامة من الطّمَع وذلّ الحِرص، ومن ثَمَّ تظهر الآثارُ في القبول عند الناس وحبِّهم ومعرفةِ الدنيا وقدرِها ومنزلتها، بل يترقَّى الحال بالعبدِ الشكور إلى بلوغِ اليقين بالله والرِّضا بأقداره في رِزقِه وحُكمِه وحِكمته وتَفاوتِ الناس في أعمالهم وكُسوبِهم، بل تتجلَّى حِكمةُ الله البالغةُ في أنّه لم يجعَل مكاسبَ الناس وأعمالَهم خاضِعةً لمقاييسِ البشَر في ذكائِهم وعلومِهم وسعيِهم.

سبحانك ربنا وبحمدك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك، اللّهم أعِنّا على ذكرِك وشكرِك وحُسن عبادتك.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٠)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

السُّنَّة النبوية وأثرها



الحمد لله العزيز العليم، التواب الرحيم، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويضل من يشاء بعدله وحكمته وعلمه، أحمد ربي وأشكره على فضله العميم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، العلي العظيم، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدًا عبده ورسوله، المبعوث بالهدي القويم، اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه ذوي الخلق الكريم.

إنَّ الله تفضل وتكرَّم على الخلقِ ببعثة سيد ولد آدم محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالمسلمُ مرحومٌ رحمةً خاصة برسالة محمد ﷺ؛ لأنه آمن بها واتَّبعها وعمل بها، والكافر مرحومٌ رحمةً عامة برسالة الإسلام؛ لأن تمسك المسلمين بدينهم وتطبيقهم لتعاليمه، يخفف الله به شر الكافرين، ويخفف الله به منابع فساد المفسدين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

وقد أنزل الله على نبيّه أعظمَ كتاب، وأنزلَ عليه أعظمَ تفسيرٍ للقرآن الكريم وهو السنّة النبويّة، وحفِظَ الله القرآن والسنة من التغيير والتّبديل، وحفظهما من فاسدِ الآراء والتأويل الباطل، وأقام الله الحجّةَ على العالمين بسيِّد المرسَلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهدَى الله نبينا محمّدًا ﷺ إلى أحسَن الهَدي، ويسَّره لأحسنِ السّبل وأسهل المناهج، قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى:٨]، وروى مسلمٌ من حديث جابر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلُّ بدعة ضلالة»(١).

وقد وفَّى النبيّ ﷺ مقاماتِ العباداتِ كلَّها ومراتبَ الدّين، وفضائل الأعمال والخصال المحمودة والأخلاق المرضية، قد وفَّى هذه الأمورَ كلَّها حقَّها، وأتى بالغايةِ في ذلك كلِّه، فرسول الله هو القدوةُ للعابد، والقدوةُ للداعية، والقدوة للمعلِّم، والقدوةُ للحاكم، والقدوة للقائد، والقدوةُ للجنديّ، والقدوةُ للزّوج وللأب، والقدوةُ في المعاملات وفي كلّ حالٍ يتقلّب فيه الإنسان، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن»(٢)، أي: يعمَل به في كلّ صغيرةٍ وكبيرة، ويتَّصف ويعمَل بما يدعو إليه القرآن، ويجانبُ ما ينهى عنه القرآن.

وسنّة رسول الله ﷺ معالم هُدى في

في صلاح الأمة

لفضيلة الشيخ
علي عبد الرحمن الحذيفي
إمام المسجد النبوي



الصراط المستقيم، يقتدي بها المسلمون، ولقد جمعت سنةُ رسول الله ﷺ الفضائل كلّها والخيراتِ والكمالاتِ كلَّها، فمن عمل بالسنة فقد جمع الله له الخير كله، ومن ترك السنةَ فقد حُرم الخيرَ كلَّه، ومن ترك بعضَ السنة فقد فاته من الخير بقدرِ ما ترك من السنة النبوية.

وإذا كانت هذه منزلة السنة النبوية، وهذا فضلها ومكانها السني وشرفها العلي، فما معنى هذه السنة؟

السنة- يا عباد الله- معناها في اللغة: الطريق المسلوك والعادة المتَّبعة، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٧].

ويرادُ بالسنة في الشرع: التمسكُ والعمل بما كان عليه رسول الله ﷺ هو وخلفاؤه الراشدون المهديون وصحابتُه السابقون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، كما يُرادُ بالسنة أقوالُ رسول الله ﷺ وأفعالُه وتقريراته؛ لأن ذلك أصلُ الاعتقاد والعمل.

أمة الإسلام، إنَّ الحال التي وصل إليها المسلمون يحزن لها قلبُ كلّ مؤمن، وتدمع العين، وتأسى النفس، فقد تكالب عليهم الأعداءُ، ونال هؤلاء الأعداءُ من المسلمين ما يغيض المسلمين في كل مجال، واستهانوا بحقوقهم وتجرءوا عليهم واستخفوا بقيمهم، وتمادوا في الظلم والعدوان عليهم، ومزّقت المسلمين نزعات التعصب المذهبي والمناهج الحزبية، والقوميات الجاهلية والبدع المحدثة، وأضعف المسلمين تناحرهم وتفرقهم والأهواءُ الضالة واتباع الشهوات المحرمة، وليس ذلك الضعفُ والانحطاط والذُّل لقلة عدد المسلمين، فهم أكثرُ أهل الأديان عددًا، وإنما مُصابُ المسلمين بالتقصير في العمل بدينهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

وإنّ الوضع الذي عليه المسلمون اليومَ من كيد أعدائهم لهم، وإنزالِ أنواع البلايا والمِحَن عليهم، إنّ تلك الحالَ وذلك الوضع قد أيقظَ الهِمَمَ العالية، وأوجب النصائحَ الصادقة أن ارجعوا- أيها المسلمون- إلى ربّكم، وتوبوا إلى بارئكم، وتمسّكوا بدينكم، واعملوا بكتابِ ربّكم وسُنَّة نبيكم، يرحمكم ربُّكم ويرفَع ما نزل بكم.

وإنَّ أسباب أمراضَ المسلمين قد كثُرت، وإن أسبابَ انحطاطِهم قد تعدَّدت، ومصائبهم قد توالت والعقوبات قد عظُمت، وقد يزداد الأمرُ سوءًا ولكنَّ العاقبةَ للإسلام.

إنَّ أدواءَ المسلمين ليس لها دواءٌ إلاَّ السنَّة النبوية، إنَّ اتباعَ سنةِ رسول الله ﷺ والتمسّك بمنهج السلف الصالح، عِلاجُ الأمراض وزوالُ المكروهات ونزُول البركات

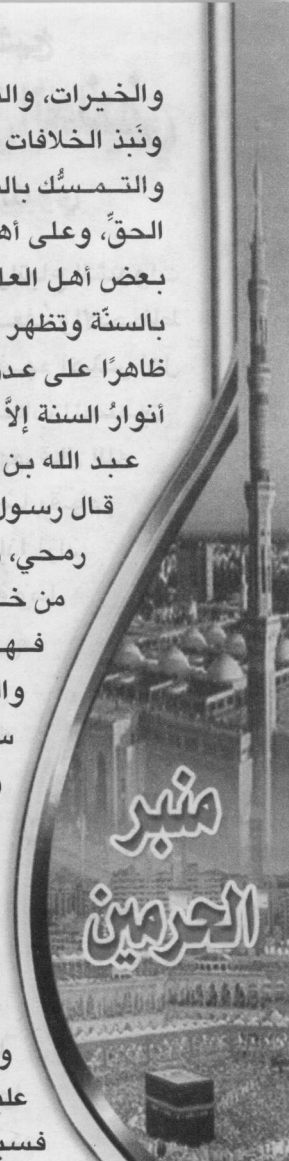
والخيرات، والتمسُّك بالسنة هو الاجتماع ونَبذ الخلافات وتوادُّ القلوب واتفاق النيات، والتمسُّك بالسنة هو النصرُ على أعداء الحقِّ، وعلى أهلِ الغيّ والشهوات، قال بعض أهل العلم: "ما مِن بلدٍ يعمَل أهلُه بالسنّة وتظهر فيه أنوارها إلاَّ كان منصورًا ظاهرًا على عدوِّه، وما مِن بلدٍ تنطفئ فيه أنوارُ السنة إلاَّ غلَب عليه عدوُّه". وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «جُعِل رزقي تحتَ ظلِّ رمحي، وجُعلت الذِّلَّة والصَّغار على من خالف أمريِ، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم»(٣)، وروى أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية -رضي الله عنه-، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوبُ وذرَفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظةُ مودِّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمعِ والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد، فإنّه من يعِش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتيّ وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإن كلّ بدعة ضلالة»(٤).

إنّ الدعوةَ للسنّة النبوية هي للناس كلِّهم، ففرضٌ على كلّ مسلم أن يقومَ بذلك، فدعوةُ المسلم لأخيه المسلم بتكميل نقصِ تمسُّكِه بالسنة، واستدراكِ ما فاته مِن العمل بالسنة، وجَبر تقصيرِه في دينه وتذكيره بغفلته وتعليمه ما يجهله، ومعاونته على الخير وتحذيره من الشر، ودعوةُ المسلم للكافر ببيان محاسنِ الإسلام وإقامة الحجّة عليه، وأن يكونَ المسلم قدوةً صالحة في دينه.

وأنتم- أيها المسلمون- في هذه البلاد عافاكم الله مما ابتُلِيت به بعض البلدان من كثير من الشرور، فاحمدوا الله على ذلك، ولكن احذَروا أن تفتَحوا على أنفُسكم أبوابَ الشرِّ الذي فُتِح على غيركم، فإن الأمة ما تزال بخير ما لم تفتح على نفسها باب الشرِّ، فإذا انفتح باب شر فلن يُغلق، واعتبروا بما وقع فيه العالَم من الفتن التي يرقق بعضها بعضا، والتي أفسدت الحياة ودمرت المجتمعات، والسعيد من وُعِظَ بغيره والشقيُّ من وُعِظَ به غيره، واحذروا التهاونَ بالذنوب، فإنها سببُ العقوبات، وليكُن المسلم في يومِه خيرًا منه في أمسِه، وفي غدِه خيرًا منه في يومه، ولا يرضَى لنفسِه بالتأخُّر في الطاعة والتساهل في المعصية.

وإياكم- معشر المسلمين- والموانعَ من اتّباع السنَّة، وأعظمُ مانعٍ من اتّباع السنةِ اتباعُ الهوى، قال الله تعالى عن المعاندين للحق: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠]. وأهلُ البدَع يُسمِّيهم السلفُ أهلَ الأهواء لمباعدتهم السنَّة. وإياكم وفتنةَ الدنيا وركوبَ الشهواتِ المحرمة، فإنَّ ذلك يصدُّ عن السنة، قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وممّا يصُدُّ عن سنَّة المصطفى ﷺ تقليدُ



الضالّين المُضِلِّين من ذوي التعصُّب المذموم، وأربابِ الطُّرُق الضالّة والأهواء المنحرفة، قال الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وممّا يصُدُّ عن سنّةِ المصطفى ﷺ الجهلُ بها، وفي الحديث: «من يُردِ الله به خيرًا يفقّهه في الدين» رواه البخاري ومسلم من حديث معاوية - رضي الله عنه -.

فلا يحُلْ بينك وبين السنّة- أيها المسلم- حائل، ولا يصدَّنَّك عنها شيء، فإنه لا يأمَن من الشر والعقوبات ولا يفوز بالخير والجنات، إلاَّ من تمسَّك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابُه، فتمسك بهذه السنَّة في كل صغيرة وكبيرة من حياتك، واحفظ من القرآن واحفظ من الحديث ما تحتاجه في عباداتك ومعاملاتك، وكلما ازددت فهو خير لك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠، ٢١].

عبادَ الله، اغتنموا الأوقات في الأعمال الصالحات، ولا تضيعوا الأعمار بتفويت فرص القدرة على فعل الخيرات والتمكن من الحسنات، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «نعمتان مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناس، الصِّحَّة والْفَرَاغُ». وإذا أرخى المسلم لنفسه الزمام فلا يتعدى المباح إلى المحرم، فطوبى لمن لم يتجاوز المباح إلى المحرمات. وأحسنوا الرعاية على من ولاكم الله أمره من الرعية، فمسؤولية الأولاد مسؤولية عظيمة، فلا تتركوهم يتعرضون للشرور والضياع، ولا تغفلوا عن إصلاح بيوتكم، فإن الأسرة لبنة المجتمع، ولا ترتادوا في السياحة إلا البلاد المأمونة من الفساد، وفي بلادكم مبتغىً لمريد الاصطياف والسلامة والأمان.

عبادَ الله، إنّ الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]. وقد قال: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً». فصلُّوا وسلِّموا على سيّد الأولين والآخرين وإمام المرسلين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمّد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وسلِّم تسليمًا كثيرا.

---

(١) صحيح مسلم (ح٨٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح٧٤٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٥٠)، والحديث صححه الألباني في الإرواء (١٢٦٩).

(٤) سنن أبي داود (ح٤٦٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٧).

الأخوة الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فاتّقوا الله وأطيعوه، واخشوا يومًا يجازي الله فيه كلاً بعمله، فلا تظلَمَ نفس شيئًا وإن كان مثقالَ حبّة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:١٨].

أيّها النّاس، إنّ الإسلامَ مبنيٌّ على أن لا نعبدَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، فلا نشرك معه أحدًا في أيّ نوع من أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، قالَ الله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود:٢]، ومبنيٌّ كذلك على أن لا نعبدَ الله إلاّ بما شرَع، لا نعبده بالبدع والمحدثات، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧]، وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رَسول الله : «مَن عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ»، و«من أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» رواه البخاري ومسلم.

ألاَ وإنّ مِن أصول الدّين أخوّةَ الإسلام، فأخوّةُ الإسلام رابطةٌ متينَة ودرع حصينَة ونُصرة مبينة، أخوّةُ الإسلام بها يتواصل المسلمون، وبها يتناصرون ويقوَون، وبها يتراحمون ويتعاطفون، وبها يتوارثون، وبها يتعاونون، وبها يتناصحون، ذكرها الله تعالى بعد الأمر بتقواه فقال عزّ وجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٧١]، وعن النّعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له الجَسَد بالحمّى والسّهَر» رواه البخاري ومسلم، وعن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا» [رواه البخاري ومسلم]، وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسَدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابَروا، ولا يبع بعضكم على بيع بَعض، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، المسلِم أخو المسلمِ؛ لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرّات -، بحسب امرئٍ من الشّرّ أن يحقرَ أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلمِ حرام: دمه وماله وعِرضُه» رواه مسلم.

ومن عنايةِ الله العظمى بأخوّة الإسلام أنّ الله أمر بالإصلاح بين المسلمين إذا شجَر بينَهم خلافٌ والقضاءِ على النزاع الذي يقع بينَهم بالعدل والحقّ والقِسط، ومن بغى وَاعتدَى على الأخوّةِ الإسلاميّة أمَر الله مَن له قدرةٌ أن يقاتلَه بقدر ما يندفع به بغيُه وعدوانه حتى يرجعَ إلى حكم الله تعالى ويدخلَ في حِصن الأخوة الإسلاميّة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات:٩، ١٠].

ولِعِظَم أمر الأخوّة الإسلاميّة آخَى النبيُّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوّةً عامّة وأخوّةً خاصّة، فكان يؤاخي بين المهاجريِّ والأنصاريّ أوّلَ قدومِه إلى المدينة النبويّة، وكانوا يتوارثون بهذه الأخوّة الإيمانيّة، ثم نسخَ التوارث بالأخوّة الإسلاميّة فصار التوارُث بالقرابة، وأخبرَ النبيّ ﷺ أنّ كمالَ الإيمان أن يحبَّ المسلم لأخيه ما يحبّ لنفسه، فقال : «لا يؤمِن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه» رواه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه.

أيّها المسلمون، إنّ الله تعالى لم يؤكّد على تقوية أواصر الأخوّة بين المسلمين ويقوِّ رَوابطَها إلاّ لإعزاز دين الله تعالى وحمايةِ مصالح المسلمينَ الدينيّةَ والدّنيويّة؛ ولذلك أمر الله بالاجتماع والائتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، ويقول النبيّ ﷺ: «وكونوا عبادَ الله إخوانًا».

وإذا اجتمع المسلمون لبحث قضاياهم ومشكلاتهم بتوجيهٍ وحضٍّ من دينهم فهم لا يريدون

لفضيلة الشيخ

علي عبد الرحمن الحذيفي

إمام المسجد النبوي

الظلمَ والعدوان على أحد؛ لأنّ الإسلامَ ينهى عن العدوان وينهى عن الظلم كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

والإسلام لا يريد للبشرية إلاّ الخير والصلاحَ، والمؤمنون خير الناس للناس، وأرحمُ الناس بالناس. وأخوّةُ الإسلام يحمي الله بها العدوانَ على الإسلام، وينصر بها الحقَّ والعدلَ، ويحفظ بها المصالحَ العامّة والخاصّة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٢، ٦٣]؛ لأن الناسَ لا تأتلف قلوبهم ولا يجتمعون إلاّ على الحقّ الذي بعَث الله به محمدًا ﷺ، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]، ويقول ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم».

في وقتٍ تضعضَع فيه حالُ أمّة الإسلام، وهانت على غيرها من الأمَم، وتفرّقت كلمتها، وأُهملت قضاياها في المحافلِ الدوليّة، واشتدّ الهجومُ على دينها الإسلاميّ دينِ العدل والرحمة والخير والسلام للبشريّة، وأُلصِقَ به ما ليس منه، في هذا الوقت تتطلّع شعوب العالم الإسلاميّ إلى قادة هذه الشعوب أن يقفوا صفًا واحدًا لصدّ الهجماتِ الشرسة الحاقدة على عقيدة أمّة الإسلام التي هي عقيدةُ رسول الله ﷺ وعقيدةُ الصحابةِ رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ومن تبعهم بإحسان، وأن يدافعوا عن هذه العقيدةِ النقيّة المضيئة، وأن يدافعوا عن أخلاق الأمّة أخلاق الفضائل الإسلاميّة والمكرُمات المحمّدية وأن يظهروا وجهَ الإسلام الحقيقيّ لغير المسلمين بما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه وبالاستقامة على دينه، ويبرّئوه من كلّ فريةٍ وبدعة مخالفةٍ لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، والشعوب الإسلاميّة تتطلّع إلى الأفضل في كلّ شيء، والإصلاح لا يكون إلاّ من داخل الشعوب الإسلاميّة، نابعٌ من القرآن والسنة، بتعاون المجتمعاتِ مع حكّامها وتوافقهم على مصالح الأمّة وتفاهُمِهم، مع حذرهم من العُنف والفتن المدمّرة التي لا تخدم إلاّ أعداءَ الإسلام، ومع الحرص على تحكيم الشريعةِ الإسلاميّة في كلّ صغيرة وكبيرة.

وللشعوب الإسلاميّة أملٌ ومطلب أن يرحّب قادتُها بنصح العلماء ومشورتِهم وتقريبِهم في كلّ ما يخدم الدينَ والمجتمَع، ومن التحدّثِ بنعمة الله علينا أنّ بابَ المناصحةِ مفتوح بين العلماءِ وبين ولاةِ الأمر في بلادنا وفّقهم الله، بل بينهم وبين أفرادِ الرعيّة عبرَ قنوات متعدّدة، فتحقّق بذلك مصالحُ عظيمة واندفع مفاسدُ جسيمة ولله الحمد؛ لأنّ الشريعةَ توجب ذلك، وهي مرجع الجميع، قال النبيُّ ﷺ: «الدّين النصيحة، الدّين النصيحة، الدّين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «للهِ ولكتابه ولرسولِه ولأئمّة المسلمين وعامّتهم».

[رواه مسلم من حديث تميم الداري رضي الله عنه]

وندعوا علماء المسلمين أيضًا إلى تبصير الناس بمنهَج سلفِ الأمّة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، والدّعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وتفقيه الناس وتعليمهم الإسلامَ بالأدلّة من القرآن والسنّة، فلن يصلح آخرُ هذه الأمة إلاّ بما صلح به أوّلُها، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤-١٠٧].

أيّها المسلمون، إنّ الله تبارك وتعالى ربط مصالحكم كلّها وسعادةَ دنياكم وآخرتكم بدينكم واستقامتكم عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢،٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف:١٣]، وعن سفيانَ بن عبدِ الله رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم» رواه مسلم. واجتماع كلمة المسلمين تتحقّق بها المصالح كلُّها، وتنتفي معها المفاسد كلّها، ويندحر بها كيدُ أعداءِ المسلمين.

عبادَ الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، وقد قال: «مَن صلّى عليَّ صلاة واحدة صلّى الله عليه بها عشرًا».

فصلّوا وسلّموا على سيّد الأوّلين والآخرين وإمام المرسلين. والحمد لله رب العالمين

يا أمة المليار

للشيخ/ عبد الرحمن السديس

إمام المسجد الحرام

الحمد لله الذي أسبغ علينا نِعمًا عِدادًا، وبعث فينا سراجًا وقَّادًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له توعَّد الأفَّاكين لظى مِهادًا، فقد رضّوا للمؤمنين أكبادًا، وأشهد أنَّ نبيَّنا وسيّدنا محمّدًا عبد الله ورسوله أعظم البريّة قدرًا وشرفًا، وأرأفهم فؤادًا، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه الذين عزّروه ووقّروه وأمضوا في محبّته أرواحًا وأجسادًا، وكانوا في نصرته ضَراغمَ وآسادًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد: يا أيها الناس اتّقوا الله عز وجل حقّ التقوى، فمن اتّقاه أفلح في دنياه وسلِم، واستبشر في أخراه وغنِم، ومن أعلى مراتب تقواه التي نبلغ بها القِمَم الانتصارُ لسيِّد العرَب والعجَم والذبُّ عن صفوة هذه الأمّة وخيار الأمم، فبذلك تُنال غاياتُ المُنى ونَعِم، ونِعمًا ذلك نِعِمّ.

الإسلام نور البشرية

أيّها المسلِمون، تبصُّرًا في أغوارِ التاريخ واستكناها لحِقَب الحضَارات يُلفي المتأمّلُ أممًا لفّها ظلامٌ من الاستبدادِ مطبقٌ مُريع، بيدَ أنه يحمل في طيّاتِه نورًا يُرتقَب وأمّة في سموِّها تُزاحِم الشُّهُبَ. فها هي الرسالةُ المحمّدية العالميّة - على صاحبِها أفضلُ الصلاة وأزكى التّسليمات - تترَى بُكرةً وعشيًا، يُصيخ بلهفٍ لها الزمان، وها هو فجرُ الأمّة الإسلامية يشرِق في كلّ مكان، وتتفتّح لها غِلَق الأذهان، ويرِفّ ببركتِها وعظمتها كلُّ جَنان، قد حمَلت هذه الرسالةُ الخيرَ كلّه والبرَّ بقِّه وجلّه والهدى أجمَعَه والعَدلَ أكتَعَه؛ فبالإسلام أشرَق التاريخ، وبهدي سيّد الأنام عرفتِ الإنسانيّة معنى وجودِها، وعلى هدي مُثُلنا وقِيَمنا رتقَت الحضاراتُ صدعَها ولُمّت شعثَها، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

ولا يزالُ هذا الغيثُ الصيِّب المنهمِر يفتح المجاهِلَ بلا هَادٍ، ويعبُر القارّات دونَ انثِناد، ولقد اقتضَت حكمتُه سبحانه أن يكونَ المبلِّغ الأمين عن ربِّ العالمين الرحمةُ التامّة والنِّعمَة العامّة محمّدَ بنَ عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه، النّبيَّ الرؤوفَ الرحيم الوَصول، زاكيَ الفروع وساميَ الأصول، وكان الهمُّ الذي بجَع نفسَه واسترقَّ حِسَّه - يا أمّة الإسلام - انتشالَ البشريّة من مَومَات البغي والعنصريّة والأوثان إلى العدل والرحمة والإحسان، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ولا تزال عظمةُ رسالته وخصائص نبوّته

ميدانًا فسيحًا للمتأمّلين ومَنهلاً رويًا للبَاحثين المنصفين، كما هي نديّةٌ نضيرة على الدوام، بل كلّما تمكّن الصّراع بين الحقّ والبَاطل - وها انتم تعايشونه - ازدادت عَبقًا واخضرارًا.

حب الصحابة للنبي ﷺ

معاشر المسلمين، احبابَ سيّد المرسلين، وهَذا النبيّ الأمّيّ الزّكيّ الرّضيّ مبشّرٌ بصفاتِه البلجاء وشريعته الغرّاء من قِبَل إخوانه الأنبياء والمرسَلين، يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف:١٥٧].

فيا عَجبًا! كيف يجحَد ذلك الجاحِدون ويَلغ فيه المستَهزِئون؟! وليس ذلك فحَسب، بل إنّ هَديَه عليه الصلاة والسلام هو الجامع لما تفرّق فيهم من الفَضائل والمحامِد، وشريعتُه ناسِخَة وخاتمةٌ لجميع الملل والشرائع، وقد توعّد سبحانه من خدش قدسيّة رسالاتِ الله في أشخاص حملَتها ومُبلِّغيها منَ الأنبياء والمرسلين بالعذاب الأليم، وهو محادٌّ كلّ المحادّةِ لجلال الله وعظمَته، كيف وهم عليهم الصلاة والسلام موضعُ حفاوته واصطفائه لبلاغ وحيه جلّ وعلا؟!

إخوةَ الإيمان، ومن تمام منّة الكريم الوهّاب أن سوّر هذا النبيّ الأوّاب بكرام الصحابة ذوي النخوة والنجابة والفضلِ والإصابَة، أصفياء أخيارٌ كُماةٌ أبرار، على عظمة كلّ فردٍ منهم تقوم دولة وتنهض أمّة، وحبُّهم لِنبيِّهم ﷺ أمرٌ تجرِض به اللّهاةُ، وتتقصّف دونه الأسَلات، سَال أبو سفيانَ زيدَ بنَ الدَّثِنَّة رضي الله عنه وهو في الأسرِ قائلا: انشدكَ اللهَ يا زيد، أتحبُّ أنّ محمّدًا الآنَ عندنا في مكانك تُضربُ عنُقُه وانت في أهلك ومالك؟ فرجف زيد قائلاً: والله، ما أحبّ انّ محمّدًا الآنَ في مكانِه الذي هو فيه تصيبُه شوكةٌ تؤذيه وانا جالسٌ في أهلي ومالي، فصَاح ابو سفيانَ دهشًا وقال: واللهِ، ما رأيتُ من الناسِ أحدًا يحبّه أصحابُه كما يحبّ أصحاب محمّد محمّدًا. الله اكبر، زيدٌ أحبّ، ففَدَى الحبيبَ وعنه ذبّ.

تزِن الجِبالَ رزانةً أحلامُهم
وأكفُّهم خَلَفٌ من الأمطارِ
والباذلين نفوسَهم لنبيِّهم
يومَ الْهِياجِ وسَطوةِ الجبّارِ

وما ذاك إلاّ كِفاءَ نفسٍ غَنِيَت بالرّحمة والسّلم والحبّ والحِلم، وخلصت إلى أعلَى مراتب الصدقِ والطهر والعلم، فللّهِ ما أعظمَ هذا الدّين، وما أقوى إيحاءَه، ولله ما أكرمَ هذا النبيّ الجليل وأبهرَ بهاءَه، وما أجلَى هديَه وسناءَه.

لو أطلق الكونُ الفسيح لِسانَه
لسرَت إليك بمدحِه الأشعارُ
لو قيل: من خيرُ العباد؟ لردّدت
أصواتُ من سمِعوا: هو المختارُ
عليه الصلاة والسلام.

استطالة أهل الكفر على النبي ﷺ

معاشرَ المسلمين في كلّ الأصقاع، إخوة العقيدة في كلّ البقاع، يُذكّر بذلك - أيها المحبون - في هذه الآونة الأخيرةِ التي غشّى الكونَ فيها ليلٌ ثقيل، ولفّه صَمتٌ مكدودٌ عَليل، وتصدّع فجر المسلمين عن فاجعةٍ تاريخيّة سَفعاء، حيث نعَبَت أصوات بالإفكِ والبهتان، وجرت أقلامٌ في أودية الزّور والضلال والعصيان برسوماتٍ حاقدةٍ ماكرة، تنهدّ لها القَامة، وتتزلزل لها الهامَة، لقد استطالوا ويَا ويحهم، وتعجرفوا ويا ويلهم، فسخِروا من أعظم جَناب وأكرم من وطئَ الترابَ نبيّنا محمّد ﷺ، استهزءوا عَثكَلٌ عُمروط برسول ربّ العالمين ورحمةِ الله للخلائق أجمعين، إمامِ الأنبياءِ في الأرض وفي السماء، أبرّ الأمم على الإطلاق، وأعظمهم بإطباق، صاحبِ المعجزات الظاهرات والآياتِ الباهرات.

سقطت مكانةُ شاتمٍ وجزاؤه
إن لم يثُب مما جنَاه النارُ

ربّاه ربّاه، أيَهزؤون برسول ربّ الأرض والسماوات؟! أيَهزؤون بسيّد البريّات؟! أيتطاولون على الرحمة المهداةِ؟! أيَنتقِصون النعمة المسداةَ؟!

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٧].

لَقد جاءَت تلك النفوسُ الباغيَة التي لَو صُوِّر الرِّجس والخبَثُ كِيانًا لما تَعدّاها، لقد جاءَت شيئًا إدًا، يخرّ له الكون هدًا، تبُت لهم يدًا، وخُفِئوا أبدًا، يَستهزئون ويشتَفون، ويشهِّرون ولا يكتفون، ويتبجّحون بما ائتُفِك ولا يختفون، قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة:٦١]، ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر:٣].

بأبي وأمّي أنتَ دونَك مُهجتي
في صدرِ من سلقوك أغرسها مُدَى
ما أنقصوك فأنت أجلّ خَلْـ
ـقِ الله منزلةً وأكمل سؤددًا

هيهاتَ أن تطيبَ لنا حَياةٌ، وأنّى نؤمّل نصرًا أو نجاةً ولم نتقحّم لنصرةِ الهادي الحبيب لجّةً ولا فَلاة؟! يا لَلبهيسَة وعظيم الفرية! أين الأعراف الدوليّة؟! أين العالَم بهيئاتِه ومنظّماته حيال هذه الجريمةِ النكراء والفعلةِ الشنعاء؟! أين عقلاءُ العالم ومنصفو الإنسانيّة حيال هذا الاستهزاء؟! أين المواثيق العالميّة التي تصدُّ هذا البهتان والافتراء؟!

واجب أمة الإسلام

فيا أمّة المِليار، ماذا قدّمتِ لنصرةِ المصطفى الحبيب المختار؟!

إنّا ليؤلمنا تطاولُ فاجرٍ
ملأت مشاربَ نفسه الأقذارُ
ويزيدنا ألمًا تخاذلُ أمّةٍ
يشكو انذحارَ غثائها المِليارُ

تجريم سب الأنبياء

إنّ دُوَل الإسلام وما فوقَها وما دونها أطرافَها وحُصونها والغبراءَ سهولَها وحُزونَها يجرّمون هذا الفعلَ الأثيم، ويستفظعونَ هذا الجرمَ اللئيم. وإنّنا نوجّه ألهبَ النداء من منبر المسجد الحرام من منشَا رسول الإسلام ومبعثِه ومَرباه، ونستَصرخ باسم المسلمين جميعًا مُطالبين بإيقاعِ العقوبات المغلّظةِ دونَ هوادةٍ على المستهزئين بالجناب المحمّديّ والمقام المصطفويّ، بُؤبؤِ العيون، المنزّهِ عن كلّ وصمة ودون، وكلّ من واطأ الباغي وأعاد نشر تلك الرسوم؛ كي تُصانَ شرائع السّماء وتعظَّم مقاماتُ الأنبياء في كلّ زمان ومكان، مع المطالبة بتفعيل القراراتِ الدولية التي تَدين وتجازي تلك الجرائمَ والمخازي. لا بدَّ من تطبيق المواثيق العالميّة والقرارات الدولية التي تحاكم كلَّ مَن يتجرّأ على الله ورسلِه وأنبيائه ومُقدّساته، وتقاضي كلّ من يتطاول على الشرائع والرسل والمقدّسات.

إنّ هذا الهزءَ والإقداعَ عبرَ الشبكات والصّفحات - وايمُ الله - لو قوبل به غيرُ نبيّنا ﷺ لأراق فيهِ أحبابُه أنهارًا من الدّماء، ولكان لهم مُنّةٌ من برهان وحجّة من سُلطان، فما بالُنا بأعظم الأنبياء قدرًا وأفضلِهم فضلاً وأعلَمهم بالله وأكرمهم على الله محمّدٍ خيرِ الأنام عليه من ربّه أفضل صلاة وأزكى سلام، النبيِّ الأكرم والمصطفى الأعظم، صاحبِ المقام الأطهر والسّنى الأغرّ؟!

هَجوتَ مُباركًا بَرًا حنيفًا
أمينَ الله شيمتُه الوفاءُ
فإنّ أبي ووالدَه وعِرضي
لعِرض محمّد مِنكم وِقاءُ

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولا ريبَ أنّ من أظهر سبَّ الرسول ﷺ وشتْمَه فإنّه يغِيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثرَ ممّا لو سفَك دماءَ بعضهم وأخَذَ أموالهم، فإن هذا يثير الغضبَ لله والحميّةَ له ولرسولِه ﷺ"، ويقول رحمه الله: "من سنّة الله أن من لم يتمكّن المؤمنون أن يعذّبوه منَ الذين يؤذون الله ورسوله فإنّ الله سبحانه ينتقِم منه لرسوله ويكفِيه إيّاه، وكلّ من شانَاه وأبغضه وعاداه فإنّ الله يقطَع دابرَه ويمحَق عينَه وأثرَه".

ألا فلتعلم الأمة جمعاء والعالم بأسرِه أن الله عزّ وجلّ ناصرٌ حبيبَه ومصطفاه وخليلَه ومجتباه، ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر:٩٥].

ما نالَ منك مُنافق أو كافِر
بل منه نالت ذلّةً صَغارُ
حلَقتَ في الأفقِ البعيد فلا يدٌ
وصلَت إليك ولا فمٌ مِهذَار
أعلاك ربُّك همّةً ومكانةً
فلَك السموُّ وللحسود بَوار

المعايير المزدوجة

أيها المؤمنون، وإنّ هذا الحدث الذي أرجف العالمَ ليُعَجِّب الغُيُر ويحملهم على الاصطراخ والنداء: خبِّرونا - يا هؤلاء - عن حريّة التعبير وضوابطها؛ فإنّا في زعمكم نسيناها، ولتُنبِّئونا عن مواثيق قدسيّة الرسل والرسالات؛ فإنّا في ظنّكم أغفلناها، أفلا تكون حريّةُ التعبير إلا حينما تُسَبّ مقدّسات المسلمين ويُنال من عظمائهم ويوقَع في أنبيائهم؟! لكنّها المعايير المزدَوَجة والمكاييل المضطربة.

عجبًا لهذا الحقد يجري مثلما
يجري صديدٌ في القلوب وقارُ

وإذا سُخِر من عظيم الدّنيا برمّتها بين من يزعمون الالتئامَ على المبادئ والحقوق والرقيّ والشرف فهيهات أن لا تُخفَر بينهم العهود وتخيس الذِّمَم.

ويحكم يا هؤلاء، أحيُوا العدلَ والصدقَ وانشروه، وأميتوا الصُّلَف والزَّيفَ واقبروه؛ تامنوا البوائقَ التي يُخشَى اندلاعُها.

وإنّه لا يخفى على النّصفةِ والعقلاء أنّ هذه الآفةَ الخُلُقيّةَ الدنسةَ التي انتهكت باستهزائها بالنبيِّ ﷺ حرمةَ مليارٍ ونصف من المسلمين وتهكّمت بمشاعرهم لتهوي بالأمل في النهوض بدَعاوى احترام الآخر ودعاوى التسامُح وحوارِ الحضارات ودعاوى نشرِ السلام والوئام وما إليها من شناشنِ أخزميّة، نعم تهوي بذلك كلّه إلى يَهماءَ قَرِق، لا بَاطلاً تردُ، ولا زورًا تَقي.

ولقد استبان لكلِّ ذي بَصيرة من الذي يغذّي التطرّفَ والإرهاب، ويُذكي العنصريّةَ والعنفَ والكراهية بين الشعوب، ويؤجّج الإقصاءَ وصِراع الحضارات. وأمّا الذين استنامُوا وأصمّوا آذانهم عن نِداءات الاستفظاع لهذا الحِقد الدفين، واستدبَروا صرخاتِ التجريم واستنجازِ التحكيم فقد خانوا أماناتهم ودياناتهم، ولن يضرَّ الإسلام وسيدُ الأنام شيئا، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١].

بشريات

أمّةَ الإسلام، وإنّ تِلكم الهبّات الصارمة والغضبات العارمة لنصرة خيرِ العباد في أقصى البِقاع وشتى البلاد بمتنوّع الوسائل والطّرائق لا سيّما موقف بلاد الحرمين الشريفين الرسميّ الحازم والشعبيّ الحاسم وسائر البلاد الإسلاميّة وأحباب رَسول الله صلى الله عليه وسلم في كلّ مكان لشدّ ما أبهجتِ الغيور، وشَرحت بالبِشر الصدور، وكذا ما خطّته الأسَلات، فقد نوّرت من المحبِّ المُقَل، وأستِ الكلمَ وحلّتِ العُقَل.

الله أكبر، بصوتٍ واحد ملايين المسلمينَ في الأرض ترفع الشعار التاريخيّ: "إلاّ رسولَ الله"، وترفُض الاعتذارَ، وتطالِب بالمحاكمةِ. يا لها من مَواقفَ مؤثِّرة، تُذكي عزّةَ المسلمين ووَحدتهم، وتعزِّز مكانَتَهم دوليًا وهيبتهم عالميًا، ولقد قال الله عز وجل في إفك أسلافهم: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور:١١].

ولَعمرو الحق، لقد زَفّت لنا تلكُم الهبّاتُ والغضبات موقفَ المقاطَعةِ السياسيّة والاقتصاديّة الصارمِ منظومَ الأكاليل، وهذا القرارُ الحاسم وسواه سيتلُّ هؤلاء إلى قُضبان الذلّة والمحاكَمة تلاً، وأمّا الذين اثّاقلوا عن نُصرة المجتبى والتّنديد ولم يُبالوا بالَه فليتّقوا الله عزّ وجلّ، وليفيئوا إلى هذا المسعى الحميد.

ألا فلتشلّ الأيدي وتخرَس الألسن وتتقصّف الأقلام وليجفّ المداد ولينا الإعلام إن لم يجِدّ في الدفاع عن سيّد الأنام رسول الهدى والرحمة عليه الصلاة والسلام.

ضبط العاطفة والانفعالات

وليكن منكم بحسبان - يا رعاكم الله - أنّ التهاب العواطف دون أناةٍ وروّيةٍ هو الهُوجُ القواصف التي تُسلِم الحججَ السائغة للعدوّ الكمين المتربّص على أنّنا أمّة - بزعمهم - لا تَني، تصطَخِب وتضطرب دون ضابط أو رابط. فالله الله في ضبطِ العواطف وترشيد الانفعالات وعدم الاسترسال وراءَ أحلامٍ ومنامات ورسائل هواتِف محمولات وما إليها وتفعيل نُصرة المصطفى ﷺ تفعيلاً منهجيًا وتاصيلا إيجابيًا، ينطلِق من عقيدةٍ راسخة ونصرةٍ دائمة، لا تمليها ردودُ أفعال طارئة، فلتلجِموا - يا أحباب رسول الله ﷺ - العواطفَ بلِجام التعقّل والحِكمة والتحرّك الإيجابيّ العمليّ في نصرةِ النبيّ الهاشميّ بأبي [هو] وأمي ﷺ.

إنّي أقـــول وللدُمـــوع حِكاية
عَن مـثلهـا تتـحـدّث الأمطار
إنّا لنعلم أن قـدرَ نبـيّنا أسـمى
وأنّ الشـانئـيـن صِـغـار
لكنّه ألَم المحبِّ يزيده شـرفًـا
وفـــيـه لِمن يُحبّ فَـخـار

فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. استرجاعٌ على ضُلوعٍ من الإساءة لنبيّنا تحترق، ودموعٍ هامية تستبق. نعم استرجاعُ سنّة وثقةٍ وبَاس، لا قنوطٍ ويَاس، فالألسن الغضاب تفري فَريَ الصوارم العضاب، فالله المستعان، وإليه المشتكى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

فاتقوا الله عبادَ الله، وأطيعوه، وتوبوا إليه واستَغفروه، ونافِحوا عن حياض الحبيب المجتبى، وكونوا خيرَ من شفى في ذلك وكفَى، وحقّقوا النصرةَ والوفا في الذبِّ عن جناب النبي المصطفى.

أيها الإخوة الأحبة في الله، وما تخوضه الأمّةُ من قمع الإساءةِ لنبيِّها ﷺ فلِما أوجبه الله عز وجل من تعزيره وحبِّه وتوقيره وحمايته من كلّ مؤذٍ وشاني، ومن المتقرِّر أنّ المولى الحقّ سبحانه قد أغناه عن نصرةِ الخلق، ولكن ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥].

حقيقة نصرة النبي ﷺ

ولتدركوا - يا أحباب رسول الله ﷺ رعاكم الله - أن نصرةَ رسول الله ﷺ ليست في زعومٍ ودعاوى تُنشر، ولا عواطفَ وانفعالات تُبَثّ وتُنثر فحسب، كلاّ، فلن يغنِيَنا صَفّ الحروف إذا لم ننكِر بسنّته المنكرَ ونعرف المعروف. إنّ نصرته الحقيقيّة في اتّباع هديه وسنته عليه الصلاة والسلام واقتفاء سَنَنه ومحجّته وعَدم مخالفته.

ودعوةٌ ملتَهِبة حرّاء أن يا قادةَ المسلمين في كلّ مكان ائتلفوا على نصرةِ نبيكم حقًا، وهبُّوا لتجريم هذه الفِرى النُكرا بكلّ ثِقَلكم السياسي والاقتصاديّ، حكّموا شرعَ الله عز وجل وسنّةَ نبيّه ﷺ، وارمُقوا احبابَه بمقلةِ الوِداد والإخاء، وعلى محبّته وطاعتِه فليكن الولاء والبراء.

لن تهتدي أمّة في غير منهجه
مهما ارتضَت من بديع الرأي والنُظُم

خاطِبوا بعزم عقلاء العالم وشرفاءَه للتحرك الجادّ في صدّ هذهِ التطاولات وردِّ هذه التجاوزات والاستفزازات.

أيّها العلماءُ والدعاة، طلاّب العلم الكفاة، نبّوا عن جناب المصطفى الكريم، وانشروا سنّتَه خفّاقةً في العالمين، اعقدوا الدروس والمحاضرات والندوات لتعريفِ العالم بشمائله وفضائِله، وجِّهوا الأمّةَ إلى حقيقة الائتساء به ومحبّته.

أيّها المؤتمنون على وسائل الإعلام، أيّها المفكّرون وحملة الأقلام، اغتنموا هذه النُهزَةَ السانحة لنشر سيرته العطِرَة بمختلف اللغات والترجمات؛ لتعبرَ العالَم والقارّات، خبِّروهم أنه رسولُ الإسلام والسّلام وأمين وحيِ الملك العلاّم، وأنه - بأبي هو وأمّي - جاوز في الشرفِ والقدر الجوزاء، وفي العظمةِ والسناء بُلَغًا في السماء، وَشِّعوا في بركاتِ رسالته وهديه المؤلّفات والنشرات والقنوات والشّبكات، انبرُوا خفافًا وثِقالا لبيان محاسن الدين، اشهِدوا الدنيا والتاريخَ أن سيرة الحبيب ﷺ دونها الشمسُ إشراقًا، ودونها السِّماك سموًا وائتلاقا. وعسى الله أن يُقرَّ الأعين ويشفِيَ الصدور بقنواتٍ إسلامية فضائيّة عالمية تبثُّ بلغةِ القوم، تقول للعالم: هذا دينُنا الوضّاء، وهذا نبيّنا ذو الشمائل القعساء، ودون هذه هممُ ذوي اليسار والثراء.

فيا رجال المال والأعمال، أنفِقوا مما آتاكم الله في نصرة سيِّد المرسلين ودَعم الخطَط التي تنسف مكائد المستهزئين بخيرةِ الخيَر وسيّد البشر عليه الصلاة والسلام.

أيّتها الأخوات المسلمات الفُضليات، انصرن نبيكنّ وسنّتَه بالتمسّك بالحجاب والحِشمة والعفاف والحَذر من التبرج والسفور والاختلاط المحرّم ومكائد التغريب ودعاوى الإسفاف، نشِّئن الأجيال أحلافَ محبّته وطاعتِه، وروّوهم من معينِ منهجه وسيرتِه ﷺ، وبذلك تتحقّق نصرة الأمّة بكافة أطيافها وشرائِحها لنبيِّها وحبيبِها محمّد ﷺ.

هذا، والحمد لله رب العالمين.

المسلمون بين التميز والتميع

لفضيلة الشيخ
سعود بن إبراهيم الشريم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

إنّ قوّةَ المسلم ورفعتَه وعلوَّ شانه لتكمُنُ بوضوحٍ في مدى اعتزازه بدينه وتمسُّكِه بعقيدتِه وأخلاقِه ومبادئه، وبُعدِه عن لوثةِ التقليد الأعمى والتبعيةِ المقيتة وراء المجهول. وإنّ على رأس الاعتزاز والرفعةِ التي هي مطلَب منشود لكلّ مجتمع - بله المجتمعات المسلمة - هو الاتباعَ والاقتداء بهدي المصطفى ﷺ والبُعدَ عن الإحداث والابتداع، اتّباعًا مِلؤه التاسّي المخلِص والمحبّة الدّاعيةُ إليه، اتباعًا يُشعِر كلَّ مسلم ومسلمةٍ أن الخضوعَ في الدين والخلق والأدب إنما هو لله الواحدِ الأحد؛ إذ كيف يحلو دين لا خضوعَ فيه ولا اتباع؟! ومن هذا المنطلق جاءت الوصيّة الكبرى من الخالقِ جلّ شانه لعبادِه المؤمنين بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

فكلُّ سبيلٍ غير صراط الله عليه شيطانٌ يدعو إليه، فيحبِّب سالكيه إلى البدَع، ويبعِدهم عن السنّة، وهي مرحلة من مراحل المراغمة بين الشيطان وبني آدم، وغوايةُ الشيطانِ وحبائلُه كالكلاليب التي تتخطّف السالكين إلى مستنقعاتِ الدون والعَطَب؛ ليقع فيها المرتابُ المتردّد الذي خلي وفاضه عن أسس الاتّباع والتمسك بالسنة النبوية، فإمّا أن يكونَ ضحيّةَ النكوص والاستهتار لأول وهلة، أو أن يصبح ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١].

المحبة الحقيقية للنبي ﷺ

أيّها المسلمون، لقد كان من أسُس محبّة الله جل وعلا من قِبَل عباده أن يجعلوا من وسائل هذه المحبة الاتباعَ الصادقَ لنبيّه ﷺ؛ ليحسنَ القصد ويصدُق الزّعم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ × قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١، ٣٢].

ولذا - عبادَ الله - كانت البِدَع والمحدثاتُ التي تقع في المجتمعاتِ كالطوفان المغرق، بيدَ أن السنّةَ الصّحيحة والاتّباع الصادق هما سفينةُ نوح التي من ركبها فقد نجا ومَن تركها غَرِق، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

في الصحيحَين من حديث عائشةَ رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليسَ منه فهوَ ردّ»، وفي روايةٍ لمسلم: «كل عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردّ».

فهذا الحديث - عبادَ الله - أصل عظيم جامع من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، فكلُّ عملٍ لا يكون عليه أمرُ الله ولا أمرُ رسوله ﷺ فليس مِنَ الدين في شيء. قال النوويّ رحمه الله: "هذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعمالُه في إبطال المنكرات وإشاعةُ الاستدلال به كذلك".

الدور الحقيقي لأمة الإسلام

إنّ الناظرَ في أحوال المسلمين ومبادئِهم ليَحكُم حكمًا لا ريبَ فيه ولا فُتون بأنّ أهل الإسلام لا بد أن يراجعوا أوضاعَهم ليصحّحوها، وأنّ عليهم أن يكونوا أمّةً متبوعة لا تابعة، أمّةً لها ثقلُها الثقافيّ والأخلاقي، أمّة لها مصدرها ووِردها الخاصّ الذي لا يساويه وِرد ولا مصدر في الوجود، أمّةً تسبق جميعَ الثقافات والحضارات بما لديها من مقوّمات الاعتزاز والرفعة والغلبة، لا سيّما على المستوى العقديّ والأخلاقيّ.

ولقد جرَت عادة الأمم والمجتمعات أن تأنفَ من الخضوع لمن يُبايِنها في الأخلاق والعادات والمشارب وإن لم يكلّفها من يمارسُ هذا الإخضاعَ بزيادةٍ عمّا تدين به، بل إنها تستنكره حتى تنأى عنه وتبتَعِد، وكلّما ابتَعَدت عنه كلّما اقتربت آدابُ ذويها وأخلاقُهم

من بعض، فلم يعد للعوائد الأجنبيّة عنهم وردٌ ولا صَدر، ولا تلتفت إليها همم النّاس.

الإعلام وخطره على ذوبان هوية المسلمين

إن من المؤسف حقًا جدًا أن يتمكن هذا من إحداث تمازج تسبّب في أخذ الرّعاع واللّهازم من المسلمين بأيديهم عاصبين أعينهم إلى ما لم يكن من أصول دينهم وعوائدهم، ولا هو من مُرتكزاته، فمحوا بذلك الفوارقَ بين المسلمين وغير المسلمين، فاختلط الحابل بالنابل، وعظُم التأثر بالثقافة الإعلامية المستوردة، وصارَ البَعضُ من المسلمين منهومين في تلقّي كلّ جديد وغريب دون فرز ولا إدراك للكُنه وما يحمل في طيّاته من مسخ وإضعاف للانتماء.

كلّ ذلك إبّانَ انحسار في التوعية أورثَ إرسال الحبال على الغوارب؛ ليحلّ ببعض المجتمعات ما ذكره المصطفى ﷺ بقوله: «لتركبنّ سننَ من كان قبلكم حذوَ القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحرَ ضبٍّ لدخلتُموه»، قالوا: يا رسولَ الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟!» رواه البخاريّ ومسلم، وليصدُقَ فيهم ما ذكره ابن مسعود رضي الله تعالى عنه حينَ قال: (أنتم أشبَه الأمَم ببني إسرائيل سمتًا وهَديًا، تتّبعون عملَهم حذوَ القذّة بالقذّة، غير أني لا أدري اتعبدون العجل أم لا).

ومَع ذلك كلّه - عبادَ الله - فإنّ لدى الناس من الفطرة والنشأة المتينة والتأصيل ما يمكن من خلاله يقظةُ الوسنانين وإذكاء مبدأ تدافع العوائد والعقائد، والغلبةُ بلا شكّ للحقيقة التي لا تنقطع بالمرّة، وإن خفَتَ توهّجُها حينًا بعد آخر إلا أنّنا نرى وميضَ برقها يلوح في أفئدة الغيورين من بني الإسلام وسطَ تلك الغيابات العارضة كلّما لاح في الأفق الوجه الناصح والنذير العريان؛ حتى يتّضح لكل راموق أنّ صراع الثقافات وإن كان قويَّ الفتك لأوّل وهلة إلا أنّه سريع العطَب أمام المعتزّ بدينه وهويّته؛ إذ الهوية المسلمة قد يعتريها المرض أحيانًا غير أنها لا تموت قطعًا، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية:١٨-٢٠].

الاحتفال بأعياد أصحاب الجحيم

واعلموا أنّ من الأمور المحزنة والقضايا المفزعة انسياقَ بعض المسلمين وراءَ طبائع وعاداتِ ومعتقدات غير المسلمين، من خلال الانخراط معهم في أعيادهم وعوائدهم التي حرّمها ديننا الحنيف، وحذّرنا أشدّ التحذير من الوقوع في أتونها.

وعلى رأس ما ينكره المرءُ العاقل هو التأثر والتأثير في أعيادِ غيرِ المسلمين واستسهال مثل ذلك الأمر بحجّة أنّ الانفتاح العالميّ لم يضع بين الناس فوارقَ وخصائص، وأنّ الاشتراك في الأعياد والمناسباتِ العقديّة لا ينبغي أن تقفَ دونه المِلَل، وهذا أمرٌ جدّ خطير.

وإن شئتم فانظروا - يا رعاكم الله - ما وقَع من التأثير فيما يُسمّى: "عيد الحبّ" أو "عيد الأمّ" أو ما شاكَل ذلك بين صفوف المسلمين دون أن يعلَموا حقائقها وما تتضمّنُه في طيّاتها من مخاطرَ على عقيدة المسلم وخلُقه، وما يقع فيه معاقِروها من مخالفةٍ لهدي النبي ﷺ وارتكابٍ لما نهى عنه من مخالفةِ غير المسلمين.

عيد الحب وعيد الأم

والمشاهدُ لأصداءِ ما يُسمّى: "عيد الحبّ" ليوقن حقًا درجةَ الغفلة والسّذاجة التي تنتاب شبابَ المسلمين وفتياتهم في السباق المحموم وراء العوائد الأجنبية عن دينهم، دون أن يكلّفوا أنفسَهم معرفةَ أصول تلكم العوائد.

ويَزداد الأسف حين يغيب الوعيُ عن كثير من ضحايا ذلكم التغريب بأنّ أصلَ عيدِ الحبّ عادة احتفاليّة يرجع تاريخها في بعض الروايات إلى القرن الثالث الميلاديّ؛ إحياءً لذكرى رجلٍ رومانيّ كان يبرم عقودَ الزواج سرًا لجنود الحرب الذين مُنِعوا من ذلك لئلاّ ينشغلوا بالزواج عن الحروب، حتى افتضحَ أمر ذلك الرجل، وحُكم عليه بالإعدام، فجعلوا يومَ إعدامه عيدًا وذِكرى يتهادَون فيها الوردَ ورسائلَ الغرام، بل تجاوز الأمرُ أبعدَ من ذلك، حتى صارَ يومًا للإباحيّة عند بعض غير المسلمين، وهو في الوقت الحاضر يُعَدّ يوم عيد للعشّاق والمحبّين، يعبّرون من خلاله باللّون الأحمر في لباسهم وورودهم ورسائلهم وغير ذلكم.

وديننا الحنيف دينٌ سماويّ ورسالة عالميّة، لها أثرها الإيجابيّ في المجتمعات، فلم يكن الإسلامُ يومًا ما محلاً لحصرِ المحبّة في يوم واحد، أو محلاً للبرّ بالأم في ليلةٍ واحدة، بل إنّه دينُ المحبّة والبرّ والمودّة في كلّ آنٍ وحين، فلقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا».

ثم إنّ للإسلام من الخصوصيّة والامتياز ما لا يجوزُ في مقابله الوقوع في خصائص غيره، فإنّ النبيّ ﷺ قدِم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «ما هذان اليومان؟»، قالوا: كنّا نلعب فيهما في الجاهليّة، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد أبدلكما خيرًا منهما: يومَ الأضحى ويوم الفطر» رواه أحمد وأبو داودَ والنسائيّ، وفي الصحيحَين أن النبي ﷺ قال: «إنّ لكل قوم عيدًا، وهذا عيدنا»، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّه قال: «من تشبّه بقومٍ فهو منهم» رواه أحمد وأبو داودَ.

ومن هنا نعلم - عبادَ الله - أنّ المشاركين في مثل هذه الأعياد من المسلمين قد وقَعوا فيما نُهي عنه، ويكونونَ بذلك قد ارتكبوا مفسدتين: أولاهما: مفسدة موافقة غير المسلمين، والثانية: مفسدة ترك مصلحة مخالفتهم، والله جلّ وعلا يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٧].

الشمائل المحمدية



الحمد لله الذي أبان الطريق وأوضح المحجة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، كساه من حُلل النبوة ما زاده مهابةً وبهجة، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الذين فدوه بكل ما لديهم من نفسٍ ومهجة، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما أمَّ هذا البيت زائر واعتمره وحجه.

أما بعد: فيا أيها المسلمون، حينما يتعاظم رُكام الفتن في الأمة وتخيّم على سمائها الصافية غيومُ الغمة فيلتبس الحق بالباطل، وتخفى معالم الحق على كثير من أبناء الملة، ويختلط الهوى بالهدى، فإن تقوى الله سبحانه هي التي تنير طريق الهداية، ويبدّد نورها ظلماتِ الجهل والغواية. من وهبة الله التقوى فقد وهبه نوراً يمشي به على درب النجاة في سلامةٍ من المؤثرات العقدية والمنهجية، وفي بُعدٍ عن اللوثات الفكرية والسلوكية. ألا ما أحوج الأمة اليوم إلى أن تُعمر قلوبُ أبنائها بالتقوى واليقين؛ ليتحقق لها بإذن الله النصر والتمكين.

معاشر المسلمين، قضيتُنا الكبرى التي يجب أن لا تُنسى في جديد التحديات وفي زخَم الحوادث والمؤامرات، حيث إنها الركيزة العظمى التي تُبنى عليها الأمجاد والحضارات، بل وتتحقق بها التطلعات والانتصارات، وتخرج بها الأمة من دوامة الصراعات، هي أننا أمة عقيدةٍ إيمانية صافية، ورسالةٍ عالمية سامية، أمةُ توحيد خالص لله، واتباع مطلق للحبيب رسول الله ﷺ.

هذه القضية الكبرى هي حديثُ المناسبة وكلِّ مناسبة، والتذكير بها موضوع الساعة وكلِّ ساعةٍ إلى قيام الساعة. وإن خير ما عُني به المسلمون وتحدَّث عنه المصلحون العقيدةُ الإيمانية والسنة المحمدية والسيرة النبوية، فهي للأجيال خيرُ مربٍّ ومؤدِّب، وللأمة أفضل معلم ومهذِّب، وليس هناك أمتعُ للمرء من التحدث عمن يُحبّ، فكيف والمحبوب هو حبيب رب العالمين وسيد الأولين والآخرين، فهو مِنة الله على البشرية، ورحمته على الإنسانية، ونعمته على الأمة الإسلامية. فبالله ثم بمحمد بن عبد الله قامت شريعةٌ وشُيِّدت دولةٌ وصُنِعَت حضارةٌ وأسُّست ملةٌ من ملل الهدى غراءُ.

بُنيت على التوحيد وهي حقيقةٌ
نادى بها الحكماء والعقلاء

وليس هناك أحدٌ من البشر نال من الحب والتقدير ما ناله المصطفى ﷺ، فباسمه تلهج ملايين الألسنة، ولذكره تهتزّ قلوب الملايين، ولكن العبرة أن يتحول هذا الحب إلى محض اتباع دقيق لكل ما جاء به عليه الصلاة والسلام، كما قال الحق تبارك وتعالى مبيناً معيار المحبة الصادقة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

إخوة الإيمان، ولم تكن حاجةُ الأمة في عصرٍ ما إلى الاقتباس من مشكاة النبوة والسنة المباركة ومعرفة السيرة العطرة معرفة اهتداء واقتداء أشدَّ إليها من هذا العصر الذي تقاذفت فيه الأمةَ أمواجُ المحن، وتشابكت فيه حلقات الفتن، وغلب فيه الأهواء، واستحكمت المزاعم

والآراء، وواجهت فيه الأمة ألواناً من التصدي السافر والتحدي الماكر والتآمر الجائر من قبل أعداء الإسلام الذين رموه عن قوس واحدة، والذي تولى كبره منهم ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، من اليهود المعتدين والصهاينة الغاشمين، ويوالي مسيرتهم دعاةُ التثليث وعبدة الصليب، ويشد أزرهم المفتونون بهم المتأثرون بعفن أفكارهم وسموم ثقافاتهم، من أهل العلمنة ودعاة التغريب.

ويزداد الأسى حين يجهل كثير من أهل الإسلام حقائق دينهم وجوهر عقيدتهم، ويسيرون مع التيارات الجارفة دون تمحيص ولا تحقيق، أو يجمدون على موروثات مبتدعة دون تجلية ولا تدقيق، وقد صح عن المعصوم ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [خرجه مسلم في صحيحه]

بعض شمائل المصطفى ﷺ

أيها الإخوة في الله، يا أحباب رسول الله ﷺ، هذه وقفاتٌ ومقتطفات مع جانب من أهم جوانب السنة العطرة والسيرة المباركة، ذلكم هو جانب الشمائل النبوية والسجايا المحمدية والآداب المصطفوية، فهي معينٌ ثرٌّ، وينبوع صافٍ متدفق، يرتوي من تميزه كلُّ من أراد السلامة من لوثات الوثنية والنجاة من أكدار الجاهلية، بل هي المنظومة المتألفة والكوكبة المتلألئة والشمس الساطعة والسنا المشرق والمشعل الوضاء الذي يبدّد ركام الظُّلْم والظُّلَم، ولئن فات كثيرين رؤيتُه ﷺ بأبصارهم، فإن في تأمُّلِ شمائله لعزاءً وسلوانا، فالمطبقون لشمائله إن لم يصحَبوا نفسَه أنفاسَه صحِبوا.

إن فاتكم أن تروه بالعيون فما
يفوتكم وصفُه هاذي شمائله
مكمَّل الذات في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ
وفي صفاتٍ فلا تحصى فضائله

إخوة العقيدة، إننا بحاجة إلى تجديد المسار على ضوء السنة المطهرة، وتصحيح المواقف على ضوء السيرة العطرة، والوقوف طويلا للمحاسبة والمراجعة. نريد من مطالعة السنة والسيرة ما يزيد الإيمان، ويزكي السريرة،

لفضيلة الشيخ
علي عبد الرحمن السديس
إمام المسجد المكي

ويعلو بالأخلاق ويقوِّم المسيرة.

يخطئ كثيرون حينما ينظرون إلى المصطفى ﷺ وسيرته كما ينظر الآخرون إلى عظمائهم في نواحٍ قاصرة، محدودة بعلمٍ أو عبقرية أو حنكة. فرسولنا ﷺ قد جمع نواحي العظمة الإنسانية كلها في ذاته وشمائله وجميع أحواله، لكنه مع ذلك ليس رباً فيقصَد، ولا إلهًا فيُعبَد، وإنما هو نبي يُطاع ورسول يُتَّبع، خرَّج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله».

إن من المؤسف حقاً أن بعض أهل الإسلام لم يقدروا رسولهم ﷺ حقَّ قدره حتى وهم يتوجهون إليه بالحب والتعظيم، ذلك أنه حبٌّ سلبي لا صدى له في واقع الحياة، ولا أثر له في السلوك والامتثال.

أمة الإسلام، تأملوا هديه وشمائله - بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام - في جوانب الدين والدنيا بأسرها.

ففي مجال توحيده لربه صدَع بالتوحيد ودعا إليه ثلاث عشرة سنة بمكة وعشرا بالمدينة، كيف لا وهو المنزَّل عليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ × لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]. وإن أول واجب على محبيه أن يُعنَوا بأمر الدعوة إلى توحيد الله التي قامت عليها رسالته عليه الصلاة

والسلام، ومحاذرة كل ما يخدش صحيح المعتقد وصفو المتابعة، من ضروب الشركيات والبدع والمحدثات.

وفي مجال عبوديته لربه قام من الليل حتى تفطرت قدماه، فيقال له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟!».

[خرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه]

يا أمة محمد ﷺ، وفي مجال الأخلاق تجده مثال الكمال في رقة القلب، وسماحة اليد، وكفِّ الأذى، وبذل الندى، وعفة النفس، واستقامة السيرة. كان عليه الصلاة والسلام دائم البشر، سهل الطبع، ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

زانتْه في الخلق
العظيم شمائلٌ
يُغرى بهن
ويولَع الكرماء

وأعظم من ذلك وأبلغ ثناءُ ربه عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، يقول أنس رضي الله عنه: ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألينَ من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أحسنَ من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍ قط، ولا قال لشيء فعلتُه: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا.

تلك لعمرو الحق عراقةُ الخلال وسمو الخصال، وكريم الشمائل وعظيم الفضائل، فسبحان من رفع قدره، وشرح صدره، وأعلى في العالمين ذكره.

وشقَّ له من اسمه ليجلَّه
فذو العرش محمود وهذا محمد

فهل من يتغنون اليوم بسيرته يقتفون أثره في هديه وشمائله؟!

وهناك صفحة أخرى يا رعاكم الله، في معاملاته لأصحابه وأهل بيته وزوجاته، يقول ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم». [خرجه أحمد وأهل السنن]

وهكذا في سياسة الدولة الإسلامية وفي عبادته لربه، وفي نفقته وبذله، وفي قوته وجهاده، وحرصه على أداء رسالة الله وتبليغ دعوة ربه تبارك وتعالى.

وهاكم - رعاكم مولاكم - أنموذجاً على حكمته في الدعوة، ورفقه بالمدعوين ورحمته بالناس، مسلمين وغير مسلمين، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ومراعاته لحقوق الإنسان، بل ورفقه حتى بالحيوان، في وقت تتغنى فيه حضارة اليوم بدوس كرامة الإنسان ورعاية أحطِّ حيوان، فالله المستعان.

ويتجلى هذا الأنموذج الرائع في قصة الأعرابي الذي بال في ناحية المسجد، حين نهره الصحابة رضي الله عنهم، فقال ﷺ: «دعوه، لا تزرموه»، أي: لا تنهروه، فقال لهم ﷺ: «إنما بُعثتم مبشرين، ولم تبعثوا معسرين» وأرشده برفق وحكمه، وكانت النتيجة أن قال الأعرابي: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً.

[متفق عليه]

وفي قصة ثمامة بن أثال حينما أُسر ورُبط بسارية المسجد وهو مشرك وسيد قومه، ورسول الله ﷺ يمر به ويقول: «ماذا عندك يا ثمامة؟» فيقول: عندي خير يا محمد، إن تقتلْ تقتلْ ذا دم، وإن تنعمْ تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فيقول ﷺ بعد أن أكرمه ورفق به وأحسن معاملته: «أطلقوا ثمامة»، فانطلق ثمامة فاغتسل ثم دخل المسجد، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، والله يا محمد، ما كان على وجه الأرض وجهٌ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك اليوم أحبَّ الوجوه كلها إليَّ، وما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك اليوم أحبَّ الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد كلها إليَّ.



[خرجه الشيخان]

الله أكبر، تلك آثار الدعوة بالرفق والرحمة والحسنى، والبعد عن مسالك العنف والغلظة والفظاظة، وهو درس بليغ للدعاة إلى الله إلى قيام الساعة.

بنيتَ لهم من الأخلاق ركناً
فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جَنابهم فيها مُهابا
ولَلأخلاق أجدرُ أن تهابا

ولما قيل له عليه الصلاة والسلام: ألا تدعو على المشركين؟! قال: «إني لم أُبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة للعالمين». [خرجه مسلم]، وقال لهم: «ما تظنوني أني فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخ كريم، قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ألا فلتعلم الإنسانية قاطبة والبشرية جمعاء هذه الصفحات الناصعة من رحمة الإسلام ورسول الإسلام والسلام عليه الصلاة والسلام، الذي يجدون ذكر شمائله في توراة موسى وفي بشارة عيسى، وليعلم من يقفُ وراء الحملات المغرضة ضد الإسلام ورسول الإسلام وأهل الإسلام ما يتمتع به الإسلام من مكارم وفضائل، ومحاسن وشمائل، ومدى البون الشاسع بين عالميته السامية وعولمتهم المأفونة في إهدارٍ للقيم الإنسانية وإزراءٍ بالمثل الأخلاقية.

وهل تدرك الأمة الإسلامية اليوم الطريقةَ المثلى للدعوة إلى دينها وإحياء سنة رسولها ﷺ إحياءً عملياً حقيقياً، لا صوريا وشكلياً؟!

وإن الأمة اليوم بأمس الحاجة في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخها إلى التمسك الصحيح بدينها وسنة رسولها ﷺ، في محبة وتآلف واعتصام، وفي سماحة ويسر ووئام، وبذلك تتحقق وحدة الصف وجمع الشمل وتوحيد الكلمة على منهج الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة رحمهم الله، فلن يصلح أمرُ آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وبذلك تنكشف الغمة عن هذه الأمة، وما ذلك على الله بعزيز.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب:٢١].

فاتقوا الله عباد الله، وروّوا قلوبكم وأرواحكم من شمائل نبيكم ﷺ، وتأمّلوا خصاله العظيمة وشمائله الكريمة، واربطوا أنفسكم وناشئتكم وأسَرَكم بها رباطاً محكماً وثيقاً يسمو عن التخصيص في أوقات، والتعيين في مناسبات، فليس هذا من منهج السلف الثقات.

واعلموا - رحمكم الله - أن هذه الشمائل المصطفوية والسجايا النبوية ينبغي أن يكون لها تأثير عملي في إصلاح المنهج، وأثرٌ تطبيقي في إحكام المسيرة والبناء، في عصرٍ كثرت فيه المتغيرات، وتسارعت فيه المستجدات عبر كثيرٍ من القنوات والشبكات، فالسنة خير عاصم من شرور هذه القواصم.

وإن الأمة اليوم بحاجة أكثرَ من أي زمان مضى إلى الاتحاد على منهج الكتاب والسنة حتى تتلاقى الجهود في ميدان واحد نحو الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مسلم لقيادة سفينة الأمة إلى برّ الأمان وشاطئ السلامة بعيداً عن كل ما يعكّر صفوَ ورودها. وإن كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام في خدمة دينه وعقيدته وسنة رسوله ﷺ بحسب مكانه ومسؤوليته.

فأروا الله - أيها المسلمون - من أنفسكم خيراً، سيروا بخطى متوازنة يتوّجها العلم الشرعي، الذي من خلاله يُبنى الوعي الواقعي؛ لتأخذ هذه الأمة دورها القيادي ومكانها الريادي من جديد في مقدمة الركب، ولتقود البشرية الحيرى مرةً أخرى إلى مواطن العز والشرف، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

=صلوا عليه صلاةَ متَّبع له محبٍّ له مقتفٍ آثارَه متمسّك بسنته، فلا إطْراء ولا جفاء، كما أمركم بذلك ربكم جل وعلا، فقال تعالى قولاً

حاجتنا إلى الصبر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أما بعد:

أيّها المسلمون، دَيدنُ المؤمن الحقّ وسِمَته التي يمتاز بها ونهجُه الذي لا يحيدُ عنه شكرٌ على النّعماء وصَبر على الضراء، فلا بَطَرَ مع النعَم، ولا ضَجر مع البلاء، ولِمَ لا يكون كذلك وهو يتلو كتابَ ربه الأعلى وفيه قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، وفيه قولُه عزّ اسمه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]، وقولُه سبحانه: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، إلى غير ذلك من الآياتِ الكثيرة الدالّة على هذا المعنى.

وبيَّن رسول الله جميلَ حال المؤمن في مقام الشكر والصبر وكريمَ مآله، فقال: «عجبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابَته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له» [أخرجه مسلم في صحيحه]، فالعَبد ما دام في دائرة التكليف فمناهج الخير مُشرعَةٌ بَين يديه، فإنّه متقلّبٌ بين نِعمةٍ وَجب شُكرُها ومُصيبة وجَب الصبر عليها، وذلك لازمٌ له في كلِّ أشواط الحياة.

ولقد كان للسّلف رضوان الله عليهم أوفرُ الحظّ وأروع الأمثال في الشّكر والصبر، ممّا جعل منهم نماذجَ يُقتَدَى بها ومناراتٍ يُستَضاء بها وغاياتٍ يُنتهَى إليها في هذا البابِ، حيث كان لهم في صدرِ الإسلام وقفاتٌ أمام صولةِ الباطل وما نالهم منه من أذى ونكال وما صبَّ عليهم هذا الباطل من عَذاب، فلم يزدهم الأذى والنّكال والعذاب إلا صبرًا وثباتًا على الحقّ وصمودًا وإصرارًا على مقارعةِ المبطلين.

وكان رسول الله ﷺ يشحَذ عزائِمَهم ويحفز هممَهم إلى لزوم الجادّة والاستمساك بالهدى وعدَم الحيدة عن صراطِ الله مهما اعترَض سبيلَهم من عوائق ومهما نزلَت بهم المحن ونجمَتِ الخطوب، فلمّا سأل خبّاب بن الأرتّ رضي الله عنه رسول الله ﷺ حين اشتدّ عليه وعلى أصحابه الأذى، حين سألَه أن يدعوَ لهم ويستنصرَ لهم، قال صلوات الله وسلامه عليه: «لقد كان من قبلكم يؤخَذ الرجل فيحفر له في الأرض حفرة، فيجعَل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضَع على رأسه فيجعَل نصفين، ويمشَط بأمشاطِ الحديد ما دونَ لحمه وعَظمه، ما يصدّه ذلك عن دينه» [أخرجه البخاري في صحيحه]

وأورثهم ذلك تمكينًا في الأرض وعزًا وانتصارًا تهاوَت معه عروش الأكاسرَة والقياصرة تحت أقدامهم، فكانت لهم الحياة الطيّبةُ التي كتَبها الله لهم كِفاءَ ثباتهم وصبرهم وشكرِهم على ما خوّلهم ربهم من وافرِ النِّعَم وكريم الآلاء.

ثم خلف من بعدهم خلفٌ فَتّ في عضدهم صروفُ الدهر ونوائب الأيام، ونالت من عزائِمهم وحادَت بهم عن الجادّة مضلاّت الفِتن، فإذا هم لا يعرفون بشكر إزاءَ نِعمة، ولا بصبرٍ أمام محنةٍ، فهم داخلون فيمن وصف سبحانه واقعَه بقوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

فترى منهم الذي يجوِّز على الله الظلمَ في حكمه ويتَّهمه في عدلِه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، لا حديثَ له في غير الاعتراض على ربِّه أن أغنى فلانًا أو أفقرَ فلانًا أو رفَع هذا ووضَع ذاك، وربما قال: لِمَ هذا يا ربِّ؟! وكأنَّه يتغافل أو يغفل عن قوله سبحانه: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف:٣٢]، وعن قوله عز من قائل: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣].

وترى منهم من استولى عليه اليأسُ واستبدَّ به القنوط، فحين تنزل به نازلة أو تؤرِّق ليلَه مشكلةٌ أو تثقل كاهِلَه ديونٌ أو يصاب بخسارةٍ ماليّة في صفقة عقَدَها أو حكمَ عليه بحكم في قضية أو مُنِيَ بفشل في حياته الزوجيّة أو فُقِدَ حبيبا في سقوطِ طائرة أو غرق سفينة أو حادثِ سَير فربما مضى مندفِعًا بقصدِ وضع حدٍّ لشقائِه في زعمِه ونهايةٍ لمتاعبه وآلامه، ويتبعُ خطوات الشيطان، ويقَع فريسةً لتزيينه وتسويله، ويقتل نفسَه، ويتجرَّع كأس الموت بيده، إمّا بشنقٍ أو باحتساءِ سمٍّ أو بالتردّي من شاهق أو بغير ذلك من الوسائل، ولا يكون من وراء ذلك إلا غضَب الله سبحانه وسخَطه وأليم عِقابه؛ إذ ظنّ هذا أنّه بقتل نفسه يفضي إلى عيش لا نغصَ فيه وحياةٍ لا كَدَر فيها، لكن الله تعالى بمقتضى عدله وحكمته عامَله بنقيض مقصودِه، فأعدّ له عقابًا من جنس عمله، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: «من قتل نفسَه بحديدة فحديدتُه في يده يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنّم خالدًا مخلّدا فيها أبدًا، ومن شرب سمًّا وقَتل نفسَه فهو يتحسّاه في نار جهنم خالدًا مخلّدا فيها أبدًا، ومن تردّى من جبل فقَتل نفسَه فهو يتردّى في نار جهنّم خالدًا مخلّدا فيها أبدا»، وقال عليه الصلاة والسلام أيضًا: «كان فيمن كان قبلَكم رجلٌ به جُرحٌ فجزِع، فأخذ سكّينًا فحزّ بها يدَه، فما رقَأ الدّم حتى مات، فقال الله تعالى: بادرني عبدي بنفسِه، حرّمتُ عليه الجنة». [أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما]

وإنه - يا عبادَ الله - لوعيدٌ تقضّ له مضاجعُ أولي النهى وتهتزّ له أفئدة أولي الألباب، فأيُّ وعيدٍ وأيّ حِرمان أعظم من هذا الوعيد وهذا الحرمان؟!

فاتّقوا الله عبادَ الله، واقطعوا أشواطَ الحياة بإيمان راسخ ويقين ثابتٍ وتوكّل على ربّكم الأعلى وتسليمٍ له وإنابةٍ إليه وتصديق بأن كلّ قضاءٍ يقضي الله به ففيه الخير لعبده عاجلاً كان ذلك أو آجلا، فإنّه سبحانه أرحم بعبادِه من الأمّ بولدها، وأعلَمُ بما ينفعُهم على الحقيقةِ ممّا يضرُّهم، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

واذكروا أنَّ من آياتِ الإيمان الصبرَ على البلاء والشكرَ على النعماء، وصدَق سبحانه إذ يقول: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

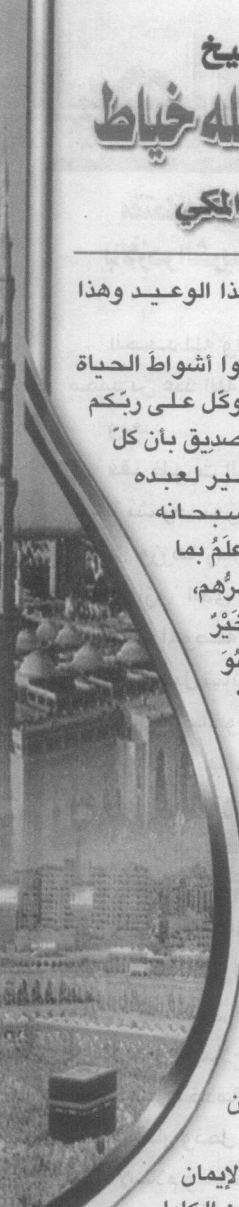
جاء في تفسيرها قولُ بعض السّلَف: "هو العبدُ تصيبه المصيبةُ فيعلَم أنها من عند الله فيرضَى ويسلّم".

إنّه - يا عباد الله - معيارُ الإيمان الصادق الذي لا يتزلزَل واليقينِ الكامل الذي لا تُضَعضِعه صروف الدّهر وفواجعُ الأيام.

فاتقوا الله عباد الله، واذكروا على الدَّوام أنَّ الله تعالى قد أمَركم بالصّلاةِ والسّلام على خير خلقِ الله محمد بن عبد الله، فقال سبحانه في كتاب الله: إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللّهمَّ صلِّ وسلِّم على عَبدِك ورَسولِك محمَّد، وَارضَ اللّهمَّ عَن أصحاب النبي أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لفضيلة الشيخ
أسامة بن عبد الله خياط
إمام الحرم المكي



أهمية القيم في



الحمد لله والصلاة

والسلام على رسول الله ﷺ.

أمّا بعد: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

تَرِد القِيمُ مُفردًا مَصدرًا، ومِنه: ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام:١٦١]، وكذلك وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥]، ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ في قراءة نافع، أي: بها تقومُ أموركم.

الشيء القيِّم الذي له قيمةٌ عظيمة، وتبعًا لهذا فإنَّ القِيَم هي تلك المبادئ الخُلُقِيّة التي تُمتَدَح وتُستَحسَن، وتُذَمّ مخالفتها وتُستَهجَن.

أعظم القِيَم وأساسُها الإيمان بالله تعالى، منهُ تنشأ، وبه تقوَى، وحين يتمكَّن الإيمان في القلبِ يجعل المسلِم يسمو فيتطلَّع إلى قيَمٍ عُليا، وهذا ما حدَث لسحرة فرعون؛ فإنهم كانوا يسخِّرون إمكاناتهم وخِبراتهم لأغراضٍ دنيئة، ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف:١١٣]، فلما أكرمهم الله بالإيمانِ انقلَبت موازينُهم وسمَت قيمهم، هدّدهم فرعون فأجابوا بقولهم: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:٧٢].

الثَّباتُ على القِيَم حَصانةٌ للمجتمع من الذَوبَان، وتُفيضُ عليه طمأنينةً، وتجعل حياتَه وحركتَه إلى الأمام، ثابتةَ الخطى، ممتدّةً منَ الأمس إلى اليوم؛ لأنها في إطارِ العقيدة وسياجِ الدِّين.

للقيَم فوائد جمّة، فهي التي تشكّل شخصيةَ المسلم المتّزنة، وتوحِّد ذاتَه، وتقوّي إرادته، والذي لا تهذِّبه القيم متذبذبُ الأخلاق مشتَّت النفس، ينتابه الكثيرُ من الصراعات، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

القِيَم تحفظ الأمنَ، وتقي من الشرور في المجتمع؛ لأنَّ تأثيرَها أعظم من تأثيرِ القوانين والعقوبات، فالقيَم المتأصِّلة في النفس تكون أكثرَ قدرةً على منع الأخطاءِ مِن العقوبة والقانون.

بناء الأفراد والأمم

لفضيلة الشيخ
عبد الباري بن عوض الثبيتي
إمام المسجد النبوي



أصحابُ القيَم يؤدّون أعمَالهم بفعاليّة وإتقان، وسوء سلوكِ القائمين على العمَل راجعٌ إلى افتقادهم لقِيَم الإيمان والإخلاصِ والشعور بالواجب والمسؤوليّة.

القيَم تجعل للإنسانِ قيمةً ومنزلة، ولحياته طعمًا، وتزداد ثقةُ الناسِ به، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

عندما تنشأُ القيَم مع الفردِ مِن إيمانِه وعقيدتِه وخشيته لله ينمو مع نموِّ جسده فكرٌ نقيّ وخلق قويم وسلوكٌ سويّ، وتغدو القيَم ثابتةً في نفسه، راسخةً في فؤاده، لا تتبدّل بتبدُّل المصالح والأهواء كما هو في المجتمعاتِ الماديّة، ويصغُر ما عداها من القيَم الأرضية الدنيويّة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

موضوعُ القِيَم ممتدٌّ في حياة المسلمين، فلا يقومُ مجتمَعٌ مسلم تقيّ نقيّ حتى تحتلَّ فيه القيَم منزلتها الرفيعة في سلوكِ الفرد والأمّة والمجتمع.

من القيَم بر الوالدين، الإنفاق، الصِّدق، الوفاء، إعمار الأرض، استثمارُ الوقت، إتقانُ العمل، الإنصاف، الشعور بالمسؤوليّة، أداءُ الفرائض، الامتناع عن المحرمّات. مِن قيَم الإسلام الخالدَة الصبر، حبُّ الخير، جهادُ النفس والهوى والشّهوة. من القيَم الحياء، العِفّة، الاستقامة، الفضيلةُ، الحجاب.

لقد كانت هذه القيَمُ وغيرها مغروسةً في أجيال السلَف الصالح قولا حكيمًا وفعلا ممارسًا من حياته التي كانت مصابيحَ تربويّة في ليلِه ونهاره وصبحِه ومسائه. أضاءَت سيرتُه الطريقَ لأجيال الصحابة، فتشرَّبوا القيمَ الخالدة، حتى غدت نفوسهم زكيّةً وعقولهم نيّرة، وغيَّروا بذلك الدنيا وأصلحوا الحياة. لم يعرفِ الخلقُ منذ النشأةِ الأولى مجتمعًا تجلّت فيه القيَمُ بأسمى معانيها مثل المجتمعاتِ الإسلامية.

الدعوةُ الإسلامية رسَّخت القيَم، انتشرت بالقيم، تغلغلت في النفوس بما تحمِل من قيم، شملت مختلفَ جوانب الحياة؛ الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والفكريّة، منظومةً متكاملة لا يمكن فصلُها.

إخوةَ الإسلام، إنَّ لدينا من الفضائل والقيَم ما لو أحسنّا عرضَها للآخرين وامتثلناها في حياتنا لكان لنا السموُّ

والرِّيادة، وأسهمنا في نشر الإسلام قِيَمًا ومُثُلا مشرقة.

تظهر الأيّامُ عظمةَ القيم في الإسلام، فهذه الأمَم اليومَ تترنّح ويتوالى الانهيار منذ فجرِ التأريخ، تنهار الأمَمُ لِضمور المبادئ وهشاشَة القيَم التي أقيمَت عليها، وتقِف أمة الإسلام شامخةً بإسلامها، قويَّةً بإيمانها، عزيزةً بمبادئها؛ لأنها أمّة القيم والمثُل والأخلاق. انهيارُ الأمم والحضارات المادية دليلٌ على أن قيَمَها ومثُلها ضعيفة نفعيّة، بل هي مفلِسة في عالم القيم، كيف لا وهي من صُنع البشر؟! كم مِن القتلى! كم منَ الجرحى! كم من التدمير يمارَس اليوم باسمِ الحريّة والحفاظ على المصالح!

القيَم تدفع المسلمَ وإن كان في ضائقة ماليّة إلى إغاثة الملهوف وإطعام الجائع، وتجد المسلمَ المؤمنَ يمتنع عن الرشوةِ والسرقة، والمرأةَ تحافِظ على كرامَتِها وتصون عِفَّتَها وتنأى بنفسِها عن مواطن الفتنةِ والشبهة ولا تستجيب للدّعاوَى المغرِضة والمضلِّلة؛ ذلك أن الإيمانَ هو النبعُ الفيّاض الذي يرسِّخ القِيَم وتُبنى به المجتمعات ويوفِّر لها الصلاح والفلاحَ والأمن والتنمية.

أيُّ عملٍ اجتماعيّ أو اقتصاديّ لحلّ مشكلات المجتمع يهتمُّ بالقيَم المادية ويتجاهل القيَم الإيمانيّة فإنه يسلك طريقَ الضَّعف ويقذف بالجيل إلى حياةِ الفوضى والعبث، ويقتلُ فيه روحَ المسؤولية والفضيلة. وما أصاب المسلمين اليومَ مِن قصورٍ ليس مرجعُه قيَمَ الإسلام ومبادِئَه ومقاصدَه وغاياته، وإنما سببُه الفرقُ بين العِلم والعمل والفصلُ بين العقيدة والمبادئ والقِيَم، واللّحاقُ بركب الحضارة لا يكون على حساب الثوابت، إنَّ ثوابتَنا وقِيَمنا نحن المسلمين هي سببُ عزِّنا وهي سببُ تقدُّمنا، ويجب أن يعرفَ كلُّ فردٍ في الأمّة التي تريد النهوضَ إلى المجد أنَّ العقيدة هي التي تبني القوى وتبعثُ العزائمَ وتضيء الطريقَ للسالكين. إنَّ الحفاظَ على قِيَم الحياء والحِشمة والعفافِ والبُعدَ عن الاختلاط وعدَم ابتذالِ المرأةِ تَظلّ أحدَ أكبر صمّامات الأمان للمجتمع إزاءَ الكوارث الخلُقيّة التي أصابت العالَمَ اليومَ في مقتَل.

لقد تعرَّضت القيَم الإيمانية على امتدادِ التأريخ لموجاتٍ متتالية من العبَث وتيّارٍ جارف من الانهيار، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

إخوةَ الإسلام، يتقوّى المجتمع بتَحصينِ القِيَم من ضررٍ يصيبها أو تيّارٍ جارف يهدِمها، وذلك بتَأسيسِ الجيل منذ نشأتِه على القِيَم وإبرازِ القدواتِ الصالحة للأجيال المؤمنة، والله تعالى يبيِّن لنا نماذجَ من القدوة الصالحةِ التي يجب أن تقدَّم للأجيال حتى يتخلَّقوا بأخلاقها ويسيروا على نهجِها، أجلُّ القدوات رسولُنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]. ولم

يحفَل تاريخُ بخيرةِ الناس وعظمائهم الذين زكّى الله نفوسَهم وطهّر قلوبهم مثلَما حفَل به تاريخُنا الإسلاميّ، فلِمَ تعمى الأبصار عنهم؟! ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام:٩٠].

أخطر ما يهدِّد القيَم ويزعزِع بنيانَها القدواتُ السيّئة المزيّنَة بالألقاب من الوضيعين والوضيعات، الذين يفتَقِد الواحد منهم إلى التحلّي بأبجديّات الآداب والأخلاق الإسلاميّة، هذه القدواتُ السيّئة تعمل على خَلخَلة القِيَم وتشكّلُ نفوسًا فارغة من القِيَم سابحةً في الضّيق، كما تروِّج له القنواتُ الفضائيّة من عريٍ فاضح وسلوكٍ منحط وتحلّل خاطئ يحطِّم القِيَم ويدمّر الأخلاقَ، ودَعوةٌ صريحة لنبذِ الفضيلة، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

إخوةَ الإسلام، تذبُل القيم وتتوارَى في المجتمع إذا ضعُف التديُّن في الفرد والمجتمع، فعقوقُ الوالدين، الكذِب، الغشّ، تضييع الأوقات، الاختلاطُ، خروج المرأة عن سياجِ الحِشمة والعفاف، الانكباب على الدنيا، وغيرُ ذلك أثرُ ضعفِ التديّن ووَهن علاقةِ الناس بربهم؛ لأنهم يفقِدون الطاقة الإيمانيّةَ والشعور بالجزاء الأخرويّ، فأزمةُ الأمّة اليوم أزمةُ قيَمٍ إيمانية، لا قيَم مادية، وقد سجّلت الأمّةُ في فتراتِ رسوخ الدّين وعلوِّ الإسلام مبادَراتٍ مِنَ الأعمال الخيِّرة والسّلوك الرشيد أثارتِ الإعجابَ وأدهشتِ المنصفين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

المزرعَة الأولى لبناءِ القيم أسرةٌ يقودها أبوان صالحان، يتعلّم الولد في البيت والمدرسةِ القيَم ويمتثِلها، يمارس الفضيلة ويناى بنفسِه عن الرذيلة.

وعمليّة بناء القيَم عملية دائِمة مستمرّة لا تتوقّف، وهي أساسُ التربية في البيت والمدرسة والأسواقِ وكافّة نواحي الحياة، كما يجب التحذيرُ من المفاهيمِ التربويّة المستوردَة التي تتعارَض مع قيَم الإسلام، ولا سيّما في ظلّ العولمة، وإزالَة كلّ ما يخدِش الحياءَ ويحطّم القيَم، كما نطالب المجتمعَ بكل أفراده وجميعِ مؤسّساته العامّة والخاصّة أن يتعاونوا في نشرِ القيم وتثبيتها في النفوس، ثم متابَعَتها حتى تصبح جزءا أصيلا في سلوكِ الناس وتعامُلِهم. غرسُ القيَم بالقدوة والسلوك أكبرُ أثرًا وأعظم استجابةً وأسرعُ قبولا، ومن أجلِ ذلك قدّم ربُّ العزة وحيَه وجعل الدعوةَ على أيدي الرسلِ ليكونوا قدوةً لأمَمِهم، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

ألا وصلّوا - عباد الله - على رسولِ الهدى ومعلّم البشرية محمد بن عبد الله.

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، وارض اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين...

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه، وبعد:

فإن الخطيب والواعظ له دور كبير وأثر بالغ في بيئته ومجتمعه وسامعيه وقومه، فهو قرين المربي والمعلم، ورجل الحسبة والموجّه، وبقدر إحسانه وإخلاصه يتبوأ من قلوب الناس مكانًا، ويضع الله له قبولاً قد لا يزاحمه فيه أصحاب الوجاهات ولا يدانيه فيه ذوو المقامات، ومردُّ ذلك إلى حسن الإجادة، وجودة الإفادة والقدرة على التأثير المكسو بلباس التقوى والمُدَثَّر بدثار الإخلاص والورع.

وهذه كلمات في النموذج الأمثل في إعداد الخطبة وصفات الخطيب، وقد حرصت أن تكون شاملة لخصائص الخطيب والخطبة ووجوه التأثير في الخطبة وإحسان إعدادها مقدمًا لذلك بمقدمة في مهمة الخطيب الشاقة وتعريف الخطبة وأنواعها وبيان أثرها.

المنهج الأمثل لخطبة الجمعة

إعداد
فضيلة الشيخ
د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

الاستعداد الكافي للخطيب:

مهمة الخطيب مهمة شاقة ولا ريب، مشقة تحتم عليه أن يستعد الاستعداد الكافي في صواب الفكر وحسن التعبير وطلاقة اللسان وجودة الإلقاء.

مطلوب من الخطيب أن يُحَدِّث الناس بما يمسُّ حياتهم ولا ينقطع عن ماضيهم، ويردهم إلى قواعد الدين ومبادئه، يبصرهم بحكمه وأحكامه برفق ويُعرفهم آثار التقوى والصلاح في الآخرة والأولى، مهمته البعد عن المعاني المكرورة وجالبات الملل.

الدعوة إلى التجديد والتحديث والبعد عن المكرور، لا يغير من الحقيقة الثابتة شيئًا، وهي أن حياة الناس وأحوالهم في كل زمان ومكان صورة واحدة؛ من تصارع الغرائز، واضطراب النفوس، وغليان الأحقاد، وفي مقابل ذلك تلقي أحوالاً من البرود والانصراف والغفلة وعدم المبالاة.

والخطيب عليه أن يُهَدِّئ الثائر، ويبعث الفاتر، يطفئ ثورة الغريزة ويخفض حدة الأحقاد، ويشيع روح المودة، ويبث الإخلاص والتعاون.

نعم إن حياة الناس صورة معادة وتغيرات متناوبة، فأحداث اليوم هي أحداث الأمس، والبواعث والمثيرات في الماضي هي ذاتها في الحاضر.

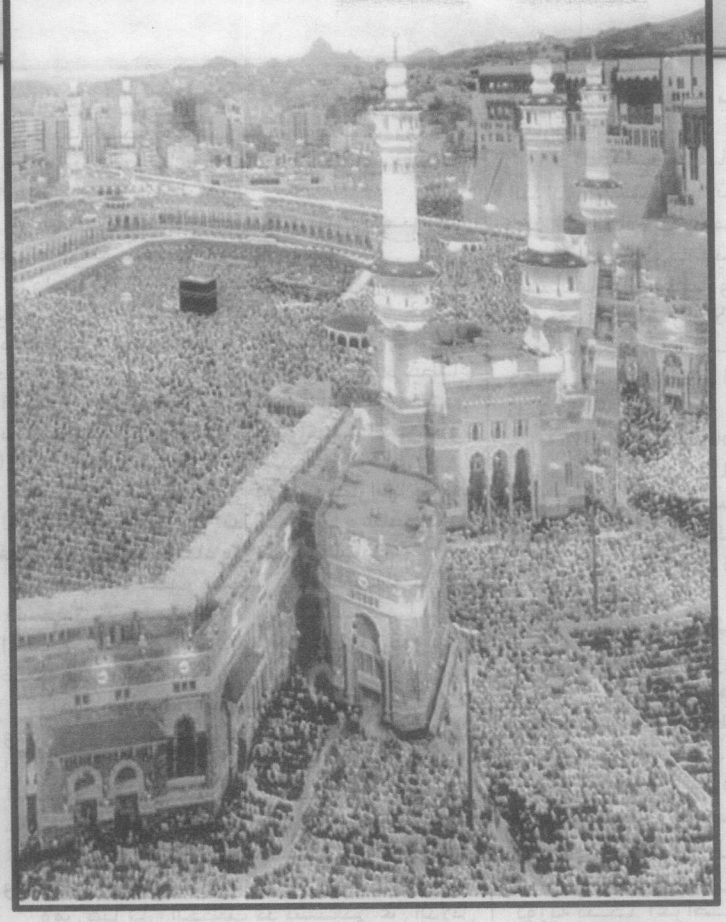
فإنسان الغابة هو إنسان المدنيَّة، غير أن الأول يحارب بحجر والثاني يرمي بقنبلة، والأول قد يقتل واحدًا أو اثنين، والثاني يقتل عشرات ومئات، القوي في الغابة يستولي على مرعى أو بئر، أما قوي المدنية فيستولي على قطر بأكمله، ويأكل قوت شعب بجملته، وشعوب برمتها ويستبدّ بمصادر طاقة، وموارد حياة مصيرية.

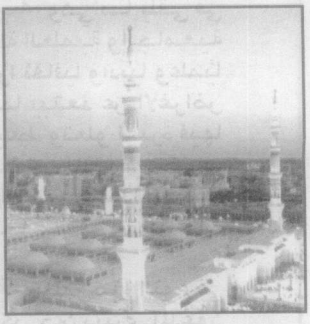
إذا كان ذلك كذلك فكيف يكون الحال لو نجح الدعاة المصلحون في تهذيب الغرائز والتسامي بها.

إنَّ خطيب المسجد وواعظ الجماعة أشد فاعلية في نفوس الجماهير من أي جهاز من أجهزة التوجيه والحكم في المجتمع سواء أكان واليًا أو رجل عسكر أو حارس أمن، إن الجمهور قد يهابون أمثال هؤلاء لكنهم قد لا يحبونهم، أما الخطيب بلسانه ورقة جنانه وتجرده، يقتلع جذور الشر في نفس المجرم ويبعث في نفسه خشية الله، وحب الحق، وقبول العدل، ومعاونة الناس، إن عمله إصلاح الضمائر، وإيقاظ العواطف النبيلة في نفوس الأمة، وبناء الضمائر الحية، وتربية النفوس العالية في عمل خالص وجهد متجرد، يرجو ثواب الله ويروم نفع الناس.

ومن هذا فإنك ترى أن أداء الخطيب عمله على وجهه يكسوه بهاءً وبِشْرًا، ويرفعه إلى مكان عليّ عند الناس.

ولتعلم أن هذا ليس إطراءً ولا مديحًا، ولكنه تنبيه إلى شرف العمل ومشقته وعظم مسئوليته وثقل رسالته، وما تتطلبه من حسن استعداد وشعور صادق بالمسئولية.





الحلقة الأولى

وكيف لا يكون ذلك وهذه هي رسالة الأنبياء والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ولا غرابة أن يصادف إيذاءً وعداءً، وحسبه أن يكون مقبولاً عند الله والصفوة من عباد الله.

مدخل:

لا يقصد من الكتابة عن الخطابة وأسسها ومبادئها وآدابها، أن تكون مادة ليدرسها الدارس لتجعل منه خطيبًا مفوهًا ومتحدثًا مصقعًا، إن الكتابة والأبحاث والمناهج لا تجعل من العييّ فصيحًا ولا اللسان المعقود طليقًا، ولكن هذه الكتابات والدراسات والبحوث نبراس ومنار يضيء لصاحب المواهب والاستعداد مشعلاً ينمي الموهبة ومصباحًا ينير السبيل فلا يكون حاطب ليل.

هذه الكتابات والبحوث يتكون منها علم ينير الطريق ولا يحمل على السلوك، يرشد إلى الدرب ولا يقسر على السير.

وأنت خبير بأن السراج المنير لا يستفيد منه غير البصير، أما ذو الرمد فغير منتفع، ويكفيك إشارة بأن الكاتب في علم الاقتصاد والعالم في أسسه وقواعده قد يكون أقل الناس مالاً وأضعفهم موردًا.

تعريف الخطبة:

الخطبة: بضم الخاء كلام منثور مسجوع ومرسل، أو مزدوج بينهما غايته التأثير والإقناع.

ويقصد بها هنا الخُطب التي تلقى على المنابر يوم الجمعة، بقصد حمل الناس على الخير، وترغيبهم فيه، وصرفهم عن الشر ودواعيه، وتبصيرهم بأحوالهم وواقع أمرهم حسب ما يقتضيه أمر الشرع.

والخطبة من جانب الخطيب مقدرة على التصرف في فنون الكلم، مرماها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه.

أغراضها:

الدعوة إلى الصلاح والإصلاح، والاستمساك بأمور الشريعة، وإقامة الحق والعدل، ونشر الفضائل، وتسكين الفتن، وفضّ المشكلات، وتهدئة النفوس الثائرة، وإثارة النفوس الفاترة، ترفع الحق، وتخفض الباطل، هي صوت المظلومين، وواعظ الظالمين، ولسان الهداية، ولقد نادى موسى عليه السلام ربه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥- ٢٨]، فجاء الجواب الرباني: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

والغرض هنا الإشارات إلى مجمل الأغراض، وسوف يُزاد الأمر بيانًا من خلال الحديث عن أنواع الخطب وخصائص الخطب المنبرية، والفقرة التالية في أثر الخطبة تعطي مزيد بسط في المقصود.

أثرها:

لا يكاد ينجح صاحب فكرة، أو ينتصر ذو حق، أو يفوز داعية إصلاح إلا بالكلمة البليغة، والحجة الظاهرة، والخطبة الباهرة.

الخطيب المفوّه يلحق بحجته، ويسبق إلى غايته، فيعلو سلطانه، ويتسع ميدانه.

ولهذا فإنّ القائد المحنّك في الجيش يتميز فيما يتميز بذرابة لسانه وحسن خطابه، فيكون خطيبًا مصقعًا ولسنًا مفهوهًا، ولا يُذكر حين يُذكر إلا منذر الجيش نبينا محمد ﷺ، ومن بعده خطباء أصحابه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ثم من بعدهم من صالح سلف الأمة وأئمتها ممن علَوْا المنابر فأصغت لهم الآذان ودانت لهم الرقاب.

ولئن كانت الخطابة في بعض مساراتها طريقًا للمجد الشخصي في نيل غايتها وعظيم أثرها فإنها طريق للنفع العام والإصلاح الشامل.

والخطابة مظهر حضاري للمجتمع الراقي المستنير، يعلو قدرها، ويروج سوقها برقي المجتمع، وانتشار الثقافة فيه، كما أنها تخبو حين ضعفه وذلته.

وثمت جانب في التأثير آخر ينبغي مراعاته، وهو أن تأثير الخطيب في سامعيه ليس بالإلزام أو الإفحام، بل مردّه إلى إثارة العاطفة، وحمل السامع على الإذعان والتسليم، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية تُساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، ولكنه بإثارة العاطفة ومخاطبة الوجدان.

ومن هنا فإنّ الخطيب قد يستغني عن الدلائل العقلية ولكنه لا يمكن أن يستغني عن المثيرات العاطفية، ولعلك تدرك أن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد مخاطبة وجدانهم والتأثير في عواطفهم.

إنّ الخطيب المرموق - كما هو معلوم - يأخذ سامعيه باستدراجه اللبق وكلماته الساحرة وصوته العذب المتردد انخفاضًا وارتفاعًا وإثارة وهدوءًا يُنشئ جوًا عاطفيًا مشحونًا، وهذا معين في التأثير لا ينضب ولا يُملّ.

أما البراهين العقلية فجافة تجلب السآمة.

وحينما يذكر خطاب العاطفة وأثرها فلا يخطر بالبال أن ذلك يعني دغدغة العواطف بالكذب والتزييف، ومخالفة الأقوال للأفعال، فهذا حبله قصير بل ضعيف واهٍ، وهذا ما سيبدو موضحًا في صفات الخطيب إن شاء الله تعالى.

أنواع الخطابة:

الناظر في أغراض الخطبة ومقاصدها ومتطلبات المجتمع من ذلك يستطيع إدراك أنواعها، وهذا سردٌ لأهم أنواعها:

١- الخطب النيابية، وهي الخطب التي تكون في دور النيابة والشورى عاكسة ما يجري داخل هذه القاعات من مناقشات ومداولات وأسئلة واستجوابات مؤيدة ومعارضة.

٢- الخطب الانتخابية، وهي خطب تعد وتلقى من أجل الترشيح والتزكية لشخص أو حزب أو مبادئ، مع ما يشتمل عليه ذلك من رد على المعارضين.

٣- الخطب الثقافية: وهي ما يلقى في النوادي الثقافية والأنشطة العلمية والجامعية وهي في العادة تتخذ مسارًا ثقافيًا وأدبيًا وعلميًا واجتماعيًا وتوجيهيًا بما يبتعد عن الأغراض السياسية والقضائية والوعظ، وتعلو النبرة فيها بما يعرف بالمعارك الأدبية بين المنتدبين حسب اتجاهاتهم الأدبية، شعرًا ونثرًا وتليدًا وجديدًا وهي في العادة خطب لطبقة مثقفة متأدبة ذات تميز ثقافي خاص.

٤- الخطب القضائية، ويظهر هذا النوع في دور القضاء وقاعات المحاكم، حين ينبري المدعون بإلقاء حججهم والسعي في إثبات دعواهم، فيقابلهم المحامون بالدفاع عن موكليهم بأسلوب خطابي بليغ مؤثر ذي ألفاظ منتقاة وإلقاء متميز وحركات مدروسة.

٥- الخطب العسكرية: وهي ما يلقيه قائد العسكر على جنده وزملائه بغرض بث الروح المعنوية والقتالية فيهم وبيان شرف موقعهم وكرم موقفهم وشرح خططه العسكرية والميدانية بأسلوب انفعالي مؤثر.

٦- خطب المنبر والمواعظ: وهذا هو محل البحث والنظر والتفصيل هنا، وهذا النوع يتجلى في أبهى صوره وكامل هيئته وانتظام شكله في خطب الجمعة المنبرية، وهي خطب أسبوعية دورية تتخذ أغراضًا عدة وترمي إلى مقاصد متنوعة، نشير في هذا التعريف إلى نماذج منها، إذ من المعلوم أن هذه المقاصد والأغراض تتجدد وتتنوع حسب حاجات الناس وتغير الأحوال وتقلب الظروف ودواعي التذكير.

أغراض الخطب المنبرية:

من هذه الأغراض:

أ- تثبيت العقيدة وتقوية الإيمان.

ب- الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه وبيان مزاياه.

جـ- خطب الإصلاح ومحاربة المنكرات.

د- خطب ذات موضوع خاص أو مسألة مفردة من مسائل الإسلام كالصلاة والصوم وحقوق الوالدين والجوار وحرمة الزنا والخمر والسرقة ونحو ذلك، مما مقصده التذكير والوعظ والتعليم، ونحو ذلك.

هـ- معالجة القضايا المستجدة بنظرة شرعية.

٧- أنواع أخرى من الخطب: الأنواع السابقة ليست أنواعًا حاصرة ولكنها تشير إلى الأنواع البارزة السائدة المتميزة في موضوعاتها ومقاصدها، وثمت أنواع أخرى للخطبة غير شهيرة ذات موضوعات ومقاصد أخرى، كخطب النكاح والصلح والمدائح والمراثي والمناسبات الاجتماعية والمحافل الشعبية.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

الإنسان بين العبودية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

اتقوا الله أيها المسلمون، وراقبوه في السر والنجوى والخلوة والجلوة، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٥، ٦]، أما بعد:

فيا عباد الله، إن الباريَ سبحانه وتعالى بحكمته وعلمه خلق هذا الكون عُلويّه وسفليّه ظاهره وباطنه، وأودعه من الموجودات الملائكة والإنسَ والجن، والحيوانَ والنبات والجمادات، وغيرها من الموجودات التي لا يعلمها إلا هو. كلُّ ذلك لأجل أمرٍ واحد لا ثاني له، ولأجل حقيقةٍ كبرى لا حقيقة وراءَها، إنه لأجل أن تكون العبودية له وحده دون سواه، ولأجل أن تعترف هذه الموجودات بربوبيته وتحقِّق ألوهيتَه، وتُقِرَّ بفقرها واحتياجها وخضوعها له جل شأنه. ومن ثمَّ فإن تحقيق العبودية لا يمكن أن يبلغ مكانَه الصحيح إلا بتحقيق الطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم، ليكون الدين لله والحكم لله والدعوة إلى الله. كلُّ ذلك يقوم به من جعلهم الله مستخلَفين في الأرض مستعمَلين فيها، ومثل هذا لا يتم لبني الإنسان من بين سائر المخلوقات إلا من خلال قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح على حدٍّ سواء. كما أنه لا يمكن إتمام العبودية على أكمل وجه إلا بتكميل مقام غاية الذل والانقياد مع غاية المحبة لله سبحانه وتعالى. فأكملُ الخلق عبودية لله هو أكملهم له ذلاً وانقيادًا وطاعةً.

وجماع العبودية - عباد الله - أنها هي الدين، فالدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وهذا هو سرّ خلق الله للخلق، وغايةُ إيجاده لهم على هذه البسيطة، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

أيها المسلمون، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ويقول عائبًا فئة من البشر غافلةً ساهية لم تأخذ العبرة والعظة مما تشاهده ليلاً ونهارًا في أنحاء هذا الكون المعمور: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٥، ١٠٦].

فيا سبحان الله، أفلا يرون الكواكب الزاهرات والأفلاك الدائرات والجميع بأمره مسخرات؟! وكم في الأرض من قطع متجاوراتٍ وحدائق وجنات وجبال راسيات وبحار زاخرات وأمواج متلاطمات وقفار شاسعات، ثم هم يجعلون لله البنات، ويعبدون من دونه من هو كالعزى واللات، فسبحان الواحد الأحد خالق جميع المخلوقات. وثمَّ أمرٌ لذي اللبِّ المتأمّل يجعل العجب يأخذ من نفسه كلَّ مأخذ حينما يرى أمرَ هذا الكائن البشري وهو ينكص على عقبيه ويولّي الدّبر، منصرفًا عن عبودية خالقه ومولاه، منشغلاً بالأولى عن الأخرى والفاني عن الباقي، يتقلّب بين الملذات والشهوات، ملتحفًا بأكنافها بعد أن أكرمه الله وكرّمه وحمله في البر والبحر وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وبعد أن أسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة، وبعد أن خلقه وصوّره وشقَّ سمعه وبصره، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤]، ومع ذلك يستكبر الإنسان، ويكفر الإنسان، ويجهل الإنسان، ويقتر الإنسان، ويجادل الإنسان، فيقول الله عنه: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب:٧٢]، ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧]، ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]، ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٤]، ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:٦، ٧]، ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة:٥]، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:٢].

وقد كان الأجدر بهذا الإنسان وقد كرّمه الله ونعّمه أن يكون عابدًا لا غافلاً، طائعًا لا عاصيًا، مقبلاً إلى ربه لا مدبرًا، شكورًا لا كفورًا، محسنا لا ظالمًا.

إن المتأمّل في كثير من المخلوقات في هذا العالم المشهود ليرى أنها لم تُعطَ من العناية والرعاية والعمارة والاستخلاف كما أُعطي الإنسان، ولا كُلِّفت كتكليف ابن آدم، بل جعلها الله خادمة مسخرةً له، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، بل حتى الملائكة سخرها الله لابن آدم، فجعل منهم الكتبةَ عليهم والدافعين عنهم من معقّبات من بين

والطغيان

لفضيلة الشيخ
سعود بن إبراهيم الشريم
إمام الحرم المكي

أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم من أمر الله، وجعل منهم المسخَّرين لإرسال الريح والمطر، كما جعل الله من أكبر وظائفهم الاستغفار لبني آدم، ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥].

ومع ذلك - عباد الله - فإن هذه المخلوقات عدا ابن آدم قد كمُلت في عبوديتها لله جل شأنه، وخضوعها له، وذلِّها لقهره وربوبيته وألوهيته، إلا بعض المخلوقات العاصية كالشياطين وعصاة الجن وبعض الدواب كالوزغ والذي قال عنه النبي ﷺ: «اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ النار على أبينا إبراهيم». [رواه احمد][1].

غير أن أولئك مع عصيانهم إلا أنهم لا يبلغون مبلغَ عصيان بعض بني آدم، وما ذاك إلا لأنه قد وُجد في بني آدم من يقول: أنا ربكم الأعلى، ووُجد فيهم من يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن الله ثالث ثلاثة، ووُجد فيهم من يقول: أنا أحيي وأميت، ووُجد من يقول: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، ووُجد فيهم من يقول عن القرآن: إنْ هذا إلا قول البشر، ومن يقول: إنْ هذا إلا أساطير الأولين، ناهيكم - عباد الله - عمن يقول: يد الله مغلولة، ومن يجعل الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، فكيف إذًا بمن يقول: إن الله فقير ونحن أغنياء.

وهكذا - عباد الله - تمتدّ حبال الطغيان والجبروت في بني الإنسان إلى أن يخرج من يقول: إن الشريعة الإسلامية غيرُ صالحة لكل زمان ومكان، أو من يقول بفصل الدين عن الدولة، فلا سياسة في الدين ولا دين في السياسة، أو من يقول: الدين لله والوطن للجميع، أو من يقول: دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، أو من يصف الدين بالرجعية، والحدود والتعزيرات بالهمجية والغلظة، أو أن يصفه بالمقيِّد للمرأة والظالم لها والمحجِّر على هويَّتها، أو من يرى حريتَها وفكاكها من أسرها إنما يتمثَّل في خروجها من حدود ربها، وإعلان عصيانها لشريعة خالقها ومولاها، وجعلها نهبًا لكل سارق وإناءً لكل والغ ولقيطًا لكل لاقط جسدًا للإغراء والمتاجرة، وحُبًّ شيوع الفاحشة في الذين آمنوا.

هذه هي بعض مقولات بني الإنسان، فهل من التفاتة ناضجة إلى مواقف إبليس اللعين في كتاب ربنا لتروا: هل تجدونه قال شيئًا من ذلك غير أنه وعد بالغواية؟! بل إن غاية أمره أنه فضَّل جنسه على جنس آدم، فاستكبر عن السجود لمن خُلق طينًا، بل إنه قد قال لبعض البشر: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.

فلله ما أعظمَ عصيان ابن آدم، وما أشد استكبارَه ومكره السيئ، ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّيءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

ويؤكد الباري جل شأنه حقيقةَ عصيان بعض بني آدم من بين سائر المخلوقات واستنكافهم أن يكونوا عبيدا لله الذي خلقهم وفطرهم فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨]، فدل على أن أكثر بني آدم عصاةٌ مستكبرون ضالون، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الانعام:١١٦]، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبا:١٣]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

أيها المسلمون، من أجل أن نصل وإياكم إلى غايةٍ واحدة، وهي استشعار عبوديتنا لله سبحانه وتعالى، وأن منا مفرّطين ومستنكفين، وأن من أطاع الله بشيء من العمل أخذه الإعجاب بنفسه كلَّ مأخذ، وأقنع نفسه ومجتمعَه بأنه يعيش أجواءَ الأمن والأمان والاستقامة والهداية وأنه أدى ما عليه، فليس هناك دواع معقولةٌ للتصحيح والارتقاء بالنفس إلى البُلغة المرجوَّة، إنه لأجل أن نعلم ذلك، ولأجل أن نزدري عملَنا مهما كان صالحًا في مقابل أعمال المخلوقات الأخرى من جمادٍ ونباتات وحيوان، فإن من المستحسن هنا أن نسلط الحديث على بعض أمثلة متنوعة لمخلوقات الله سبحانه، لنبرهن من خلالها على الهوَّةِ السحيقة بيننا وبينهم في كمال العبودية لله والطاعة المطلقة له.

فمن ذلك - عباد الله - ما أودعه الباري سبحانه بعض الجمادات من الغيرة على دينه والتأذي من انتهاك ابن آدم لحرمات الله سبحانه، ففي الحديث أن النبي ﷺ مُرَّ عليه بجنازة فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منه»، فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح؟

وما المستراح منه؟ قال: «إن العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب». [رواه البخاري][٢].

انظروا - يا رعاكم الله - كيف يتأذى الشجر والدواب من الرجل الفاجر وما يحدثه في الأرض من فساد وتخريب، وإعلانٍ لمعصية الله تعالى، والتي لا يقتصر شؤمُها على ابنِ آدم فحسب.

وفي مقابل ذلك فإن بعض الدواب تفرح بالتديُّن، وتشعر بأثره في ابن آدم، وببركته على وجه الأرض، ولذلك فهي تدعو له، وتصلي عليه، وتستغفر له، فقد روى الترمذي في جامعه أن النبي ﷺ قال: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلُّون على معلِّم الناس الخير»[٣].

بل إن الدواب جميعًا لتشفِق من يوم القيامة وتفرَق من قيام الساعة خوفًا من هولها وعرصاتها، فقد قال النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة خشيةَ أن تقوم الساعة». [رواه أحمد[٤] والمصيخة هي المنصتة]

ولقد ورد أيضًا ما يدل على عبودية الديك لله ودعوتِه للخير والفلاح، فقد قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الديك، فإنه يدعو إلى الصلاة».

[رواه أحمد وأبو داود][٥].

وقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه ليس من فرس عربيٍّ إلا يؤذَن له مع كل فجر يدعو بدعوةٍ يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من ابن آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه»، فيقول: «إن هذا الفرس قد استجيب له دعوته» [رواه أحمد][٦].

وأما النمل - يا رعاكم الله - فتلك أمةٌ من الأمم المسبحة لله سبحانه، مع صغر خلقتها وهوان حالها وازدراء البشر لها، وهي التي قال الله عنها: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

هذه النملة يقول النبي ﷺ عنها: «قرصت نملةٌ نبيًا من الأنبياء، فأمر بقريةِ النمل فأُحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أنْ قرصتك نملة أحرقتَ أمةً من الأمم تسبِّح لله؟!» [رواه البخاري][٧].

وأما الشجر وهو من النبات عباد الله، فقد قال الله عنه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:٦]، وروى ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من ملبٍّ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر، حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا»[٨].

وأما ولاءُ الحجر والشجر للمؤمنين ونصرتُه لدين الله حينما يستنطقه خالقه فيُنبئ عن عمق عبوديته لربه وغيرته على دينه، فإن رسول الله قد قال عنه: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله» رواه البخاري[٩].

فانظروا - يا رعاكم الله - إلى هذه المخلوقات الآنفة، إضافةً إلى الجبال الراسيات والأوتاد الشامخات، كيف تسبح بحمد الله، وتخشع له، وتشفق وتهبط من خشية الله، وهي التي خافت من ربها وخالقها إذ عرضَ عليها الأمانةَ فأشفقت من حملها، وكيف أنه تدكْدك الجبل لما تجلى ربنا لموسى عليه السلام، فهذه هي حال الجبال، وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتُها وخشيتها وتدكدُكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر الله أنه لو أنزل عليها القرآن لتصدعت من خشية الله.

فيا عجبا من مضغةٍ لحم أقسى من صخر صلب، تسمعُ آيات الله تتلى عليها ثم تصرُّ مستكبرة كأن لم تسمعها، كأن في أذنيها وقرًا، فهي لا تلين ولا تخشع، ولا تهبط ولا تصدّع، ولو وعظها لقمان أو تليت عليها آيات القرآن، ولكن صدق الله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول ما تسمعون، وأستغفر الله إنه كان غفارًا.

أيها الناس، تكلّم ذئبٌ كلامًا عجيبًا إبانَ حياة النبي ﷺ، كلاما يفيد بأن الذئب يؤمن بأن الرزق من عند الله، بل قد أمر هذا الذئب راعيَ الغنم بتقوى الله سبحانه، إضافةً إلى علم هذا الذئب بنبوة محمد ﷺ ورسالته.

فلقد أخرج أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا ذئبٌ على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إلي؟! فقال: يا عجبي، ذئبٌ مقع على ذنبه يكلمني كلامَ الناس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجبَ من ذلك؟! محمدٌ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق... الحديث[١٠] وفي رواية للبخاري: فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم! فقال: «فإني أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر»[١١].

فاتقوا الله أيها المسلمون، واقدروه حقَّ قدره، واستشعروا أثرَ عبودية الجماد والنبات والحيوان، وكمالها لله تعالى، وهي أقل منكم فضلاً وتكريمًا.

واعلموا أنكم مقصِّرون مهما بلغتم، وظالمون لأنفسكم مهما ادعيتم القصدَ أو الكمال، فإن بُعد البشر عن المعرفة الحقيقية، وضعفَ يقينهم بالآمر الناهي، وغلبةَ شهواتهم مع الغفلة، تلك كلها تحتاج إلى جهاد أعظمَ من جهاد غيرهم من المخلوقات الطائعة المسبِّحة لله تعالى.

يصبح أحدنا وخطابُ الشرع يقول له: استقم في عبادتك، واحذر من معصيتك، وتنبَّه في كسبك، وقد قيل قبلُ للخليل عليه السلام: اذبح ولدك بيدك، واقطع ثمرةَ فؤادك بكفِّك، ثم قم إلى المنجنيق لتُرمى في النار، ويقال للغضبان: اكظم، وللبصير: اغضض، ولذي القول: اصمت، ولمستلذِّ النوم: تهجّد، ولمن مات حبيبه: اصبر، وللواقف في الجهاد بين الغمرات: لا يحلُّ لك أن تفرّ، وإذا وقع بك مرض فلا تشكُ لغير الله.

فاعرفوا - أيها المسلمون - شرفَ أقدار بني آدم بهذا الاستخلاف، وصُونوا هذا الجوهر بالعبودية الحقة عن تدنيسها بشؤم الذنوب ولؤم التفريط في الطاعة، واحذروا أن تحطِّكم الذنوب إلى حضيض أوهد، فتخطفكم الطير أو تهوي بكم الريح في مكان سحيق. ﴿ذَالِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

والعجب - يا عباد الله - ليس من مخلوقاتٍ ذُلِّل لها الطريق فلا تعرف إلا الله، ولا من الماء إذا جرى، أو من منحدرٍ يُسرع، ولكن العجب من متصاعدٍ يشقُّ الطريق شقا، ويغالب العقبات معالجة، ويتكفّأ الريح إقبالاً، ولا عجب فيمن هلك: كيف هلك؟ ولكن العجب فيمن نجا: كيف نجا؟ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

والعبد كلما ذل لله وعظُم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقربَ له، وأعزَّ وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله، يقول النبي ﷺ: «قال الله سبحانه وتعالى: يا ابن آدم، تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسُدَّ فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدَّ فقرك» رواه ابن ماجه(١٢).

هذا، وصلوا - رحمكم الله - على خير البرية وأزكى البشرية، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، وأيّه بكم أيها المؤمنون، فقال عز من قائل عليم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد...

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٢٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وهو أيضا عند ابن راهويه في مسنده (١١٠٣)، والنسائي في المناسك (٢٨٣١)، وابن ماجه في الزهد (٣٢٣١)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٦١٦)، ويشهد له حديث أم شريك رضي الله عنها عند البخاري (٣٣٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٢) من حديث أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه، وهو أيضا عند مسلم في الجنائز (٩٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٥) من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة رضي الله عنه، وقال: "حديث حسن غريب صحيح"، وهو أيضا عند الطبراني في الكبير (٨/٢٣٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/١٢٤) وقال: "فيه القاسم أبو عبد الرحمن وثقه البخاري وضعفه أحمد". والحديث في صحيح الترغيب (٨١).

(٤) أخرجه أحمد (٢/٤٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أيضا عند أبي داود في الصلاة (١٠٤٦)، والنسائي في الجمعة (١٤٣٠)، وصححه ابن خزيمة (١٧٢٧)، وابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم (١٠٣٠)، والضياء في المختارة (٣٩٦)، وهو في صحيح النسائي (١٣٥٤).

(٥) أخرجه أحمد (٥/١٩٢)، وأبو داود في الأدب (٥١٠١) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، وهو أيضا عند النسائي في الكبرى (١٠٧٨٢)، والطبراني في الأوسط (٣٦٢٠) والكبير (٥/٢٤٠)، وصححه ابن حبان (٥٧٣١)، وكذا النووي في الأذكار، ورمز له السيوطي بالحسن، وجود إسناده العجلوني في الكشف (٢/٤٧٨)، وهو في صحيح الترغيب (٢٧٩٧).

(٦) أخرجه أحمد (٥/١٧٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وهو أيضا عند النسائي في الخيل (٣٥٧٩)، والبزار (٣٨٩٣)، والبيهقي (٦/٣٣٠)، وصححه الحاكم (٢٤٥٧، ٢٦٣٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٤١٤). وليس فيه أن النبي ﷺ قال: «إن هذا الفرس قد استجيب له دعوته».

(٧) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٨) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٢٩٢١) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، وهو أيضا عند الترمذي في الحج (٨٢٨)، وصححه ابن خزيمة (٢٦٣٤)، والحاكم (١٦٥٦)، وهو في صحيح الترغيب (١١٣٤).

(٩) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أيضا عند مسلم في الفتن (٢٩٢٢) واللفظ له.

(١٠) أخرجه أحمد (٣/٨٣)، وهو أيضا عند عبد بن حميد (٨٧٧)، قال الهيثمي في المجمع (٨/٢٩١): "رجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح". وانظر: السلسلة الصحيحة (١٢٢).

(١١) أخرجها البخاري في المزارعة (٢٣٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أيضا عند أحمد (٢/٣٥٨)، والترمذي (٢٤٦٦) وقال: "حديث حسن غريب"، وصححه ابن حبان (٣٩٣)، والحاكم (٣٦٥٧)، وهو في صحيح ابن ماجه (٣٣١٥).

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

بعد ما سبق من مقدمات وممهدات في تعريف الخطبة وغرضها وأنواعها وأثرها هذا دخول في جزء مهم من مقاصد هذا البحث، ذلكم هو جزء الإعداد والبناء، وسوف ينتظم ذلك الحديث عن: عناصر البناء وطريقة البناء.

توطئة: لا يتوهم متوهم أن إعداد الخطبة وتحضيرها مما يعيب القدرة أو يشكك في الأهلية، ولكن أن يتفوه المتصدر للخطابة وحديث الناس بكلام مبتذلٍ لا قيمة له هزيل في معناه متهدم في مبناه. فهذا مما لا يرتضيه عاقل.

المنهج الأمثل لخطبة الجمعة

إعداد
فضيلة الشيخ
د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

على الخطيب أن يعلم أنه كالخائض غمار معركة، فليتدرع بدروعها ويترس بتروسها ويلبس لها لأمتها، ولا يكون ذلك إلا بالاستعداد والتهيوء وأخذ العدة لكل موقف.

إن ذا الاطلاع الواسع والعلم الغزير إن لم يراجع نفسه حينًا بعد حين ويُفكر طويلاً فيما يعتزم قوله ويزوق في نفسه أو قرطاسه من الألفاظ والعبارات المناسبة، فلسوف يهتز موقفه ويضعف أسلوبه ويتراخى أداؤه، ويتناقص عطاؤه، وينحدر في منجرف الابتذال السحيق وتكون معالجاته سطحية تفقد تأثيرها وتخسر جمهورها.

عناصر البناء:

من المعلوم مما سبق ويتأكد فيما سيأتي أن الخطبة وسائر الأعمال العلمية والأدبية تحتاج إلى أسس ثلاثة:

قلب مفكر، وبيان مصور، ولسان معبر.

فالأول يكون به إيجاد الموضوع وابتكاره وتوليده، وبالثاني تنسيقه وترتيبه ورصه، وبالثالث عرضه والتعبير به.

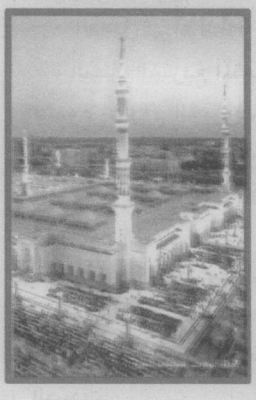
وهذا بسط لهذه العناصر.

١- الإيجاد والابتكار (القلب المفكر).

وقد يعبر عنه بالاختيار (اختيار الموضوع).

من المعلوم أن بواعث الاختيار متعددة، والخطيب كلما كان صادقًا في قصده مهتمًا بجمهوره وسامعيه جادًا في طرحه فسوف يحسن الاختيار ويقدح زناد فكره بجدية نحو الابتكار وحسن الاختيار، يُضاف إلى ذلك الظروف المحيطة والأحوال المستجدة والأغراض الباعثة التي تستدعي الحديث عن بعض الوقائع والتعليق على بعض الأحداث والتفسير لبعض المواقف وتصحيح بعض المفاهيم، ونظر الخطيب الحصيف يدله على تقديم بعض وتأخير بعض وحسن التفسير ونوع التعليق.





الحلقة الثانية

٢- التنسيق والترتيب: (البيان المصور):

لا يخفى أن طريق البيان المصور هو الأسلوب.

للأسلوب سلطان على القلوب والأسماع، الأسلوب ألفاظ وجمل ينطق بها المتكلم، ويتحدث بها الخطيب، لا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين، وتمتد الأعناق له احترامًا، ألفاظ وجمل تثير في النفوس صورًا لا حدّ لها ولا انحصار، محفوفة بالإكبار والتقدير، إذا كان هذا هو بعض أثر الأسلوب وتأثيره فكيف يكون الشأن في المعنى المحكم وقد كسي بلفظ جميل، وألقي بأداء منسجم، وعبارات تثير في النفس أخيلة وأماني.

وينبغي أن يلحظ أن ثمت فرقًا بين أسلوب الخطابة وغيرها من ألوان الكتابة والأدب، فالمستمع يتوجه نحو الخطيب بسمعه وذوقه وفكره، فللكلمات أثر على السمع، وللجرس في النفس وقع.

ومن أجل هذا فينبغي أن تكون ألفاظ الخطبة سهلة النطق لا يتعثر اللسان في إبرازها، ولا تتزاحم حروفها فلا تتقارب مخارجها ولا تتباعد، كما ينبغي أن تكون ذات جرس خاص يهز النفس ويثير الشعور، وتكون الجمل ذات مقاطع قصيرة كل جملة كاملة في معناها.

إن من أهم خصائص الأسلوب الخطابي عنصر الشعور والوجدان، والإثارة والتشويق وإذا فَقَدَ ذلك فَقَدَ أكبر خصائصه.

أسلوب التكرار والتفنن في التعبير عنصر في الخطابة هام، فالخطيب محتاج إلى تكرار فكرته ومغايرة تصويره، فمرة بالتقرير ومرة بالاستفهام وأخرى بالاستنكار ورابعة بالتهكم.

أما فن الإيجاز والإطناب فيختلف من حال إلى حال فيراعي حال السامعين في إقبالهم ومللهم ونوع الموضوع وظروف الإلقاء وردود الفعل عند السامعين.

أما ألفاظ الخطبة وعباراتها فينبغي أن تتسم بالوضوح والبيان لتكون سهلة الإدراك من السامعين سريعة الإيصال إلى المقصود بعيدة عن التكلف.

وفي ذات الوقت تبقى محترمة غير مبتذلة تحفظ للخطيب وخطبته الهيبة والوقار وللموقف مكانته وجلاله.

فهي ألفاظ منتقاة في غير إغراب، أسلوبها سهل ممتنع يفهمه الدهماء ولا يجفو عنه الأكفاء.

ومن الحذق في المعرفة أن يُدرك الخطيب أن خطاب الحماس غير خطاب التألم، وحديث الترغيب غير حديث الترهيب، وأسلوب تعداد المفاخر وزرع الثقة غير أسلوب التواضع وذم الكبر والمتكبرين، والخطيب المتمرس هو الذي يضع كل نوع في موضعه ويختار لكل كلمة قالبها وميدانها.

أما السجع فيجمل منه ما ليس بمتكلف، قصير الفقرات، سهل المأخذ، يخف على السمع، ويحرك المشاعر بحسن جرسه، ويكون خفيفًا سهلاً إذا سلم من الغثاثة وجانب الركاكة، اللفظ فيه تابع للمعنى وليس المعنى تابعًا للفظ، ذلك أن السجع حلية والحلية لا تحقق غرضها في الجمال ما لم تكن قليلة غير متكلفة حسنة التوزيع تبرز المحاسن ولا تغطيها.

ويرتبط بالسجع رعاية المقاطع والفواصل فتكون جملاً قصيرة نظرًا للفائدة عند الوقف في آخرها، والجملة إذا طالت وتأخرت إفادتها للسامع أدركه الثقل والملل، وضاعت عليه الفائدة وحسن المتابعة.

اللسان المعبر:

ويقصد به الإلقاء وحسن الإجابة فيه، وقبل أن نبسط القول فيه يحسن التطرق لحديث مقارنة بين الارتجال والكتابة.

بين الارتجال والكتابة:

كثير من الكاتبين والناقدين يستحسنون في الخطيب أن يلقي خطبته ارتجالاً، فهذا عندهم أعظم أثرًا وأكثر انفعالاً وأقدر على إعطاء الموقف متطلباته من خفض ورفع وتهدئة وزجر، وقد يدون المرتجل عناصر مقولته في كلمات أو جمل يعاود النظر إليها بين فينة وفينة.

وقد يوجد في الخطباء من يعد الخطبة ويحسن تحبيرها ثم يحفظها حفظًا عن ظهر قلب.

والارتجال بأنواعه وطرقه لا يكون مؤثرًا ما لم يسبقه إعداد محكم وحبك للعناصر في النفس على نحو ما سبق في الكلام عن الأسلوب.

وثمت فئة من الناس تكتب الخطبة وتلقيها من القرطاس وهو مسلك مقبول، ولكن ذلك لا يؤتي ثمرته ولا يحقق غايته، ما لم يكن الخطيب أحسن الإعداد وتأمل فيما كتب وأعاد النظر فيه تأملاً وقراءة وإصلاحًا وتخيرًا للألفاظ وانتقاءً للعبارات، بحيث يكون في إلقائه متفاعلاً مع ما يقول مستوعبًا لما يلقي ليحرك المشاعر ويثير العواطف ويستحسن أن يكون في قراءته وإلقائه مشرفًا على السامعين بنظره بين فترة وأخرى ليعرف حالهم ويسبر مشاعرهم وانفعالاتهم.

الإلقاء:

هو الغاية التي ينتهي إليها الإعداد والبناء، وهو الصورة التي يتلقى بها السامع، حصيلة ما جاد به خطيبه فلا يبقى للخطبة أثرها ولا لحسن الأسلوب وقعه ولا لجودة التحضير ثمرتها ما لم يُصب في قالب من الإلقاء يحفظ الجهد ويبقي المهابة ويشنف الأسماع، ومن أجل تحقيق ذلك يحسن مراعاة ما يلي:

جودة النطق:

فيخرج الحروف من مخارجها من غير تشدق أو تكلف فيلقيها حسنة صحيحة واضحة في يسر وترفق وتدفق.

مجانبة اللحن:

ينبغي للخطيب أن يعتني عناية تامة باللغة العربية صرفًا ونحوًا فينطق لغة عربية صحيحة، فصيحة فاللحن يفسد المعنى ويقلب المقصود، وإذا فسد المعنى أو التبس ذهب رونق الخطبة وبهاؤها وحُسْن وقعها إضافة إلى فساد المعنى من حيث يدري أو لا يدري.

التمهل في الإلقاء:

النطق السريع المتعجل يفقد المتابعة كما أنه قد يشوه إخراج الحروف فيختلط بعضها ببعض وتتداخل المعاني وتلتبس العبارات وقد يؤدي به التعجل إلى إهمال الوقوف عند المقاطع ورعاية الفواصل.

ومن جهة أخرى فإن التمهل والترسل في الأداء من أول الدلائل على رباطة الجأش فيجتمع للخطيب الهدوء في الكلام، والأناة في النطق، والجزالة في الصوت.

وهذا التمهل الذي ندعو إليه لا ينبغي أن يقود إلى هدوء بارد وتثاقل مميت ولكنه تمهل لا يعارض ما يُطلب من الخطيب من خفض ورفع وعلو نبرات مما يبعث على الحياة وحسن المتابعة ودفع السآمة.

الحركات والإشارات:

للإشارات والحركات أثرها أثناء الحديث والخطابة، ومن هذه الحركات ما هو لا إرادي فالغاضب يقطب جبينه ويعبس وجهه، وذو الحماس تنتفخ أوداجه وتحمر عيناه، ومنهم من تنقبض أصابعه وتنبسط، ومنهم من يبكي خشوعًا ورقة ويعلو صوته حماسًا وتفاعلاً.

وبعضها إرادي من إشارات توجيهية يحتاج إليها في تنبيه لبعيد أو قريب إشارات تعكس الانفعال والمشاعر وتعين على مزيد من المتابعة والتوضيح.

وينبغي أن تكون إشارات منضبطة بقدر معقول وانفعال غير متكلف ومتساوية مع الشعور الحقيقي.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فنكمل حديثنا حول الإعداد والبناء لخطبة الجمعة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

طريقة البناء:

تبنى الخطبة عادة من ثلاثة أجزاء: المقدمة والموضوع والخاتمة، وهي عناصر لا يصرح بها أثناء الكتابة أو الإلقاء، كما أنها عناصر متداخلة متناسقة، يبلغ الترابط بينها جودته حسب مقدرة الخطيب وغزارة علمه وخبرته فتنتظم أجزاء الخطبة ويحكم تركيبها.

وهذا الانتظام والإحكام يجعل المعاني واضحة والمقاصد ظاهرة، ويضمن للمتحدث حسن الإصغاء، من سامعيه وكمال الانتباه من جالسيه.

المنهج الأمثل لخطبة الجمعة

إعداد
فضيلة الشيخ
د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

وقد لا يلزم مراعاة هذه الأجزاء في كل خطبة لكن خطبة الجمعة غالبًا ما تحتاج إليها نظرًا لأنها خطبة طويلة غير قصيرة.

المقدمة:

ينبغي أن يهتم الخطيب بمقدمته وافتتاحيته، فيأتي بعبارات الاستهلال التي توحي للسامع بمقصود الخطبة، مما يشدّ الانتباه ويهيئ النفوس، وقد يكون ذلك بآيات قرآنية زاجرة أو مرغبة أو بعض الحكم البليغة، والافتتاحية هي أول ما يلقيه الخطيب على جمهوره، فإذا ما فاجأهم بحسن التقديم استطاع متابعة بقية خطبته بانطلاق ونشوة وعاش مع جمالها اللفظي وسبكها الفني ومعناها الدقيق.

وإن الناظر في افتتاحيات أوائل السور في القرآن الكريم، يدرك ما تثيره في النفس من الإجلال والشوق والرغبة في المتابعة، فترى الافتتاح حينًا بالثناء على الله عز وجل وتسبيحه وتنزيهه، وحينًا بالنداء أو الاستفهام أو القسم مما يُولد الرغبة في المتابعة ويُولد اللهفة في الاستكشاف لدى كل ذي ذوق رقيق وحس مرهف.

والمقصود أن يكون في صدر الكلام ما يدل على غاية المتحدث، على أن من المعلوم أن خطبة الجمعة تفتتح بحمد الله والثناء عليه والشهادتين والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ويكون في هذه الألفاظ من حسن الانتقاء ما يدل على موضوع الخطبة ومقصودها.

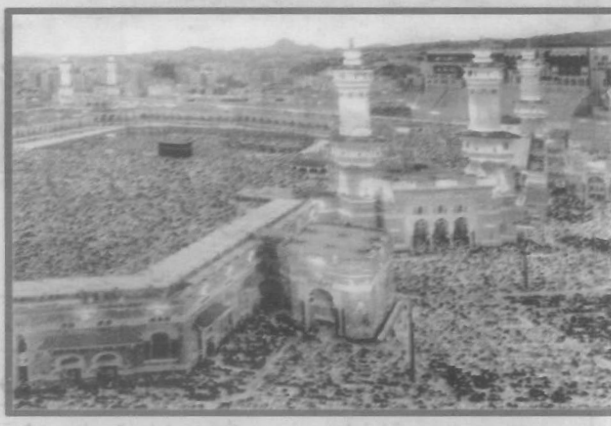
ومعروف عند المتقدمين من السلف - رحمهم الله - أن ما لا يبتدأ بالحمد فهو الأجذم الأبتر، وما لم يزين بالصلاة على رسول الله ﷺ فهو المشوّه.

الموضوع:

وهو مقصود الخطبة الأعظم، وقد أشرنا في الكلام على أنواع الخطب إلى معظم مقاصد خطبة الجمعة.

وقد يكون من المناسب التصريح به في مبتدأ الخطبة كأن يقول: أريد أن أحدثكم عن كذا، إذا كان من قضايا الساعة التي يخوض فيها المجتمع ويتطلع إلى كلام شاف فيها.

وقد لا يحسن التصريح به، إما لأنه شائك أو يوجب انقسام الناس، وفي هذه الحالة ينبغي أن يدخل إليه الخطيب دخولاً متدرجًا، ويتناوله تناولاً غير مباشر، ليأخذ السامعين بتسلسل منطقي فيصل





الحلقة الثالثة

إلى مبتغاه باعتدال وتوازن متحاشيًا الإثارة والانقسام، ومن ثمّ يبلغ الخطيب غايته من تهيئة النفوس إن كانت عنه معرضة وإليه غير مقبلة أو كان حديثًا في غير ما تالفه نفوسها .

وموضوع الخطبة عادة ما ينبني على ركنين أساسيين هما التعريف والإيضاح والاستدلال.

• أما التعريف والإيضاح: فلا يقصد به ما يعتني به الباحثون المختصون من اللغة والاصطلاح، ولكنه يكون بذكر الصفات والخواص والمزايا لذات الموضوع، وقد يكون بذكر الاستعارات والتشبيهات وضرب الأمثال والإجمال ثم التفصيل وبالصلة والتضادّ والتقابل، وانظر إلى هذا التعريف من علي رضي الله عنه للمتقين من خلال أوصافهم ونعوتهم فهو يقول: [المتقون هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضّوا أبصارهم عن الحرام، ووقفوا أسماعهم على النافع من العلم، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، ولولا الأجل الذي كُتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقًا إلى الثواب وخوفًا من العقاب].

أما الاستدلال: فغالبًا ما يحتاج إلى ما يُدعمه بالأدلة والحجج والبراهين والشواهد وهي عادة ما تكون من الكتاب والسنة وأقوال السلف، وإيراد بعض الوقائع والأحداث من باب القياس والاعتبار بل إن زيادة الإيضاح والبسط والبيان نوع من التدليل وكسب إقناع المستمعين بصدقها أو أهميتها أو خطورتها، ومما يدخل في هذا الباب دخولاً أوليًا ربط الحاضر بالماضي وبخاصة تاريخ السلف الماضين، فإن من النفوس مَنْ تحفظ تقديرًا وإكبارًا لسلفها المجيد وأصحابه الأماجد، ولأمر ما قال الكفار: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقالوا: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة:١٧٠].

ويُفيد في هذا الباب النقل عن مشاهير الأئمة وحكمائها ممن عرفوا بالصلاح والإمامة والمروءة والزهد والشجاعة والورع حسب ما يقتضي المقام ويناسب المقال.

الخاتمة:

بعد أن يفرغ الخطيب من عرض موضوعه، وسوق أدلته، وضرب أمثلته وبيان دروسه، وعبره، وترغيبه وترهيبه، يحسن أن يُنهي خطبته بخاتمة مناسبة تجمع أفكاره، وتلخص موضوعه، بعبارات مغايرة، وطريقة مختصرة، لأن الإطالة في هذه الحالة تجلب الملل وتشتت الفكر.

ولا ينبغي أن تحتوي على أفكار جديدة وأدلة جديدة لأنها حينئذ لا تكون خاتمة وإنما جزء من الخطبة وامتداد لها.

وتكون الخاتمة قوية في تعبيرها وتأثيرها، لأنها آخر ما يطرق سمع السامع ويبقى في ذهنه، وإذا كانت ضعيفة في تركيبها فاترة في إلقائها، ذهبت فائدة الخطبة، ذلك أن من نجاح الخطيب أن يلقي خاتمته بثقة وطريقة مؤثرة ومقنعة، وكأنه يشعر جمهوره بأنه قد انتهى إلى رأي ومسألة لا تقبل الجدل ولا تحتمل النظر.

وقد تكون الخاتمة آيات قرآنية لم يسقها من قبل تجمع موضوعه في الترغيب أو الترهيب أو التدليل والإثبات، وقد تكون حديثًا نبويًا يفيد ما يفيده الآيات القرآنية.

وقد يكون إعادة لعناصر الخطبة بأسلوب مغاير - كما أسلفت - وبطريقة جامعة واضحة ذات تأثير قوي، هذا ما يتعلق في بناء الخطبة.

وثمت مسائل لا يسع الكاتب إغفالها من أجل استكمال التصور الشامل عن الخطبة وحسن إعدادها وهي مسائل ثلاث، نتكلم عنها في العدد القادم بإذن الله تعالى .

فضل قيام الليل

الحمد لله لا تغيض ينابيع فضله، فليس لإحسانه حدٌ، والى على عباده كرمَه وإنعامَه، فليس لآلائه عدّ، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله، أفضل رسول وأشرف عبد، صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه، سارعوا في الخيرات وشمّروا عن سواعد الجد، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:



فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله عز وجل، فاتقوا الله رحمكم الله، تقربوا إليه بطاعته، والإكثار من ذكره وشكره، وحسن عبادته، تودّدوا إليه بالتحدث بنعمه، والإحسان إلى خلقه، تعرفوا إليه في الرخاء يعرفْكم في الشدة، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، ومن خاف اليوم أمِن غداً، والربح لمن باع الفاني بالباقي، والخسران لمن سدّت مسامعه الشهوات، وآثر الحياة الدنيا.

أيها المسلمون، القارئون للتاريخ، والناظرون في أحوال الأمم يرون أن هذا العصر هو أعنف عصور البشرية، وأغزرها دماً، وأشدّها دماراً، إن من المفارقات العجيبة، والمقارنات اللافتة أن يكون ذلك في وقتٍ وصلت فيه الثقافة والعلوم والتعليم والمخترعات والمكتشفات إلى قوةٍ غير مسبوقة، فمن غير المنكور ما يعيشه العالم كلُّه من تقدم ماديّ له منجزات خيّرة وآثار نافعة في الاتصالات والمواصلات، والآلات والتقنيات، والصحة والتعليم وأسباب المعيشة، في آثارٍ إيجابية مشهودة في حياة الناس، ولكن ومع كلّ هذا النفع المشهود يصبح هذا العصر أعظم العصور قسوةً ووحشية، غريب وعجيب أن يكون التنوير سبيل التدمير، ولكن يزول العجب وترتفع الغرابة إذا استرجع المسلم قول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧]، غفلوا عن الآخرة، فنسوا ربهم، وجهلوا حقيقة مهمّتهم، شرّعوا لأنفسهم، واستبدّوا في أحكامهم، ﴿وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً﴾ [الفرقان:٢١]. لقد كَدّوا ذكاءهم، وسخروا علومهم، ووظّفوا مخترعاتهم في أسلحة الدمار، والصراع على موارد الخيرات، والتنافس غير الشريف.

إن الذي يستحق التوقف والتأمل أن هذا الجهد وهذا التنافس والتصارع الذي يُبذل على وجه هذه الأرض في هذه الميادين لو بُذِل أقل من نصفه في الأدب مع الله وتوقيره وابتغاء مرضاته لكسب الناس الدنيا والآخرة جميعاً، ولأظلهم الأمن الوارف، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولكن كُثيراً منهم كذبوا وظلموا وآذوا وأفسدوا وأوقدوا حروباً وأشعلوا صراعات وأثاروا مشكلاتٍ اقتصادية وسياسية، واستضعفوا أمماً، واستنقصوا حقوقاً، فأُخذوا بما كانوا يكسبون، ولا يزالون تصيبهم بما صنعوا القوارع.

إن أهل الإسلام - وهم في هذا الشهر المبارك - ليُعلنون أن باب الصلاح والإصلاح يكمُن في صلاح القلوب، وارتباطها بعلاّم الغيوب. طريق الصلاح والإصلاح لا يكون ولن يكون إلا بالخضوع التام لله الواحد القهار، عبادةً وتذللاً وانقياداً وتسليماً.

العبادة في الإسلام ذات مدلولٍ واسع، إيمانٌ صادق، وعملٌ صالح، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ

لفضيلة الشيخ

صالح بن عبد الله بن حميد

إمام الحرم المكي

بالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

ثم بعد ذلك امتلاك الحياة، والأخذ بالأسباب، مع الاعتماد على الله، وحسن التوكل عليه، وتسخير ذلك في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، وليكون الدين كله لله، وحتى لا تكون فتنة.

أيها الإخوة المسلمون، الإنسان ضعيف لا قوة له إلا حين يتصل بربه، الإنسان تواجهه قوى الشر، وتثقل عليه المقاومة بين دفع الشهوات وإغراءات المطامع، يثقل عليه مجاهدة الطغيان، وتطول به الجادَّة، وتبعد عليه الشُقَّة، ليس له في هذه الأمواج العاتية، ولا مفزع من التيارات الجارفة إلا الاعتصام بالله، واللياذ بجنابه.

أيها المسلمون، إن مناسبة الزمان الشريف الذي يعيشه المسلمون هذه الأيام تستدعي الحديث عن أهمِّ العبادات في الإسلام، وأعظمها اتصالاً بالله سبحانه، تلكم هي العبادة التي يفزع إليها نبينا محمد إذا حزبه أمر[1]، وقرّة عينه إذا ضاقت عليه المسالك.

الصلاة مورد النبع الذي لا يغيض، والكنز الذي يغني ويقني ويفيض حين تستحكم الأمور، ويشتد هجير الحياة، «يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها»[2].

الصلاة هي عمود الإسلام، وهي بإذن الله مفزع التائبين وملجأ الخائفين، ونور المتعبّدين، وبضاعة المتاجرين، تجلو صدأ القلوب بأنوارها، وتزيل حُجُب الغفلات بأذكارها، وتنير الوجوه بأسرارها وآثارها، ومن كان أقوى إيماناً كان أحسن صلاة، وأطول قنوتاً، وأعظم يقيناً.

جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قال: «الصلاة خير موضوع، فمن استطاع أن يستكثر منها فليستكثر» [أخرجه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن][3].

عباد الله، وتأتي صلاة الليل والتهجد في الأسحار ليتجلى هذا الاتصال بالله العلي الأعلى، في صورة من التعبّد بهية بهيجة، فقد صح في الخبر عن رسول الله أنه قال: «أفضل الصلاة بعد الصلاة المفروضة صلاة الليل».

[أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه][4]

ولقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، والقدوة الأولى والأسوة العظمى نبينا محمد كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه الشريفتان.

[مُخرَّج في الصحيحين][5]

أما في رمضان فكان يجتهد فيه ما لا يجتهد في غيره، وإذا دخل العشر أحيا ليله، وأيقظ أهله، وشد المئزر[6]، «ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[7]، «وربنا ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك من الذي يدعوني فأستجيب له؟! من الذي يسألني فأعطيه؟! من الذي يستغفرني فأغفر له؟!»[8]، وفي حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»[9]، بل «إن في الليل ساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه، وذلك كل ليلة»[10].

في صلاة الليل يحيا بها - بإذن الله - ميّت القلوب، وتشحَذ بها فاتر الهمم، قربةً إلى الله، ومنهاةً عن الإثم، وتكفيرٌ للسيئات، ومطردةٌ للداء عن الجسد، وفي الحديث: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم»[11]، يقول وهب بن منبه رحمه الله: «قيام الليل يشرف به الوضيع، ويعزُّ به الذليل، وصيام النهار يقطع عن صاحبه الشهوات، وليس للمؤمن راحة دون الجنة»[12]، ويقول ابن عباس رضي الله عنهما: (من أحب أن يهوِّن الله عليه طول الوقوف يوم القيامة فليره الله في ظلمة الله ساجداً وقائماً، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه)[13].

إنهم عباد الرحمن يبيتون لربهم سجداً وقياماً، انتزعوا نفوسهم من وثير الفرش، وهدوء المساكن، وسكون الليل، وسكون الكون، غالبوا هواتف النوم، وآثروا الأنس بالله، والرجاء في وعد الله، والخوف من وعيده، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ الَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩].

عبادٌ لله قانتون متقون، ﴿قَلِيلاً مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧، ١٨].

لصلاة الليل عندهم أسرارها، وللأذكار في نفوسهم حلاوتها، وللمناجاة عندهم لذّتها، يقول أبو سليمان الداراني رحمه الله: «أهل الليل في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل لما أحببت البقاء في الدنيا»[14]، ولما حضرت ابن عمر رضي الله عنهما الوفاة قال: (ما آسى على شيء من الدنيا إلا عن ظما

الهواجر، ومكابدة الليل)[١٥].

قيام الليل انقطاعٌ عن صخب الحياة، واتصال بالكريم الأكرم جل وعلا، وتلقي فيوضه ومنحه، والأنس به والتعرض لنفحاته والخلوة إليه.

الله أكبر، ما طاب لهم المنام لأنهم تذكروا وحشة القبور، وهول المُطَّلع يوم النشور، يوم يُبعَث ما في القبور، ويُحصَّل ما في الصدور، ولهذا قال قتادة رحمه الله: «ما سهر الليل بالطاعة منافقٌ»[١٦].

عبادٌ لله صالحون، ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦، ١٧].

لقد تعددت مقاصدهم، واختلفت مطالبهم، وتنوعت غاياتهم، والليل هو منهلهم وموردهم، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:٦٠] . فهذا محبٌ يتنعَّم بالمناجاة، وذلك محسنٌ يزداد في الدرجات، ويسارع في الخيرات، ويجدّ في المنافسات، وآخر خائفٌ يتضرَّع في طلب العفو، ويبكي على الخطيئة والذنب، ورَاجٍ يلحّ في سؤاله، ويصبرّ على مطلوبه، وعاصٍ مقصّر يطلب النجاة، ويعتذر عن التقصير وسوء العمل، كلهم يدعون ربهم، ويرجونه خوفاً وطمعاً، فأنعم عليهم مولاهم، فأعطاهم واستخلصهم واصطفاهم، وقليل ما هم.

اكتفوا من الليل بيسير النوم، مشتغلين بالصلاة والقرآن والذكر والصوم، تلكم هي همم القوم، وتأملوا هذه الآيات العظيمة: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً إِنَّ هَؤُلاَء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ [الإنسان:٢٦، ٢٧] .الليل ميدان ذوي الهمم العالية من أصحاب العبادات والدعوات، هو الزاد الصالح لرحلة الحياة، أما الذين يحبون العاجلة، فصغار الهمم صغيرو المطالب، يغرقون في العاجلة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾، وفي هذا يقول بعض السلف: «كيف يرجو النجاة من سوء الحساب من ينام الليل ويلهو بالنهار؟!!».

أما كثير من أبناء هذا العصر فلهوهم قد استغرق الليل والنهار، نعوذ بالله من الخذلان.

أيها الإخوة والأحبة، بضعف النفوس عن قيام الليل تقسو القلوب، وتجفّ الدموع، وتستحكم الغفلة، ذُكر رجلٌ عند رسول الله فقيل: ما زال نائماً حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه».

[متفق عليه][١٧]

إذا أظلم الليل نامت قلوب الغافلين، وماتت أرواح اللاهين، من لم يكن له ورد من الليل فقد فرّط في حق نفسه تفريطاً كبيرا، وأهمل إهمالاً عظيما، أيُّ حرمان أعظم ممن تتهيّا له مناجاة مولاه، والخلوة به، ثم لا يبادر ولا يبالي؟! ما منعه إلا التهاون والكسل، وما حرمه إلا النوم وضعف الهمة، ناهيك بأقوام يسهرون على ما حرم الله، ويقطّعون ليلهم في معاصي الله، ويهلكون ساعاتهم بانتهاك حرمات الله، فشتان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

روى البيهقي في سننه الكبرى بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إن الله يبغض كل جعظري جوّاظ، سخاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهلٍ بأمر الآخرة»[١٨].

لقد عشتم حتى رأيتم أجيالاً من المسلمين تُقطّع ليلها، وتسهر على العبث واللهو، في قنوات ماجنة، وغناء ساقط، وتمتّع هابط، لماذا تشكو بعض البيوت من ضعف الهمم عن قيام الليل، وتقفر منازل من المتهجدين المتعبدين؟ قيل لابن مسعود رضي الله عنه: ما نستطيع قيام الليل !!قال: (أقعدتكم ذنوبكم)[١٩]، وقال رجل لأحد الصالحين: لا أستطيع قيام الليل، فصف لي في ذلك دواءً، فقال: «لا تعصه بالنهار، وهو يقيمك بين يديه في الليل»[٢٠].

فاجتهد - حفظك الله - أن تصلي ما تيسر من الليل، اجتهد أن تصلي التراويح، تصلي ما تيسر من الليل، والقليل من صلاة الليل كثير، واصبر على ذلك، وداوم عليه، فبالصبر والمداومة والإخلاص تنال من ربك التثبيت والمعونة، واعلم أن دقائق الليل غالية، فلا تُرخصها بالغفلة والتواني والتسويف، ومن أرخص الدقائق الغالية ثقلت عليه المغارم، وضاقت عليه المسالك، وكان أمره فرطاً، ولا تنس - حفظك الله - أهلك فأيقظهم لا ليلتفوا حول مسلسل هابط أو منظر خالع، ولكن ليقفوا بين يدي خالقهم، تائبين منيبين، يغسلون خطيئاتهم بدموع نادمة، وقلوبٍ باكية، لعلها أن تمحو الذنوب، ففي الحديث: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت، ثم أيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»[٢١].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا

﴿آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٥-١٧].

واعلم - رحمك الله وأرشدك لطاعته - أن من الأسباب الميسرة لقيام الليل والمعينة عليه الإقبال على الله، وصدق التعلق به، مع حسن الظن به سبحانه، وعظم الرجاء فيما عنده، والحرص على الابتعاد عن الذنوب، فالذنوب تقسّي القلوب، وتُقعد الهمم، وحسبك من طعامك لقيمات، فمن أكثر من الطعام ثقلت نفسه، وغلبه نومه، وقد قال وهب بن منبه رحمه الله: «ليس أحبّ للشيطان من الأكول النوام»[٢٢].

واحرص - وفقك الله - على سلامة القلب من الحقد والحسد، واجتناب البدع، ولزوم السنة، والحرص عليها، وامتلاء القلب من الخوف من الله، مع قصر الأمل.

ولتعلم أن أشرف البواعث وأعظمها حبّ الله ومناجاته، وحب رسوله، وحب كتابه.

أما وقت صلاة الليل فهو ممتد من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر، ومن كل الليل صلى رسول الله، واستقرّ ورده في السحر[٢٣]، و«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[٢٤]، وفي المأثور من أحوال السلف منهم من يصلي الليل كله، ومنهم من يصلي نصفه، ومنهم ثلثه، ومنهم خمسه، ومنهم سدسه، ومنهم من يصلي ركعات معدودات، و«من أيقظ أهله فصليا ركعتين كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»[٢٥].

ومن الآداب التي ينبغي رعايتها في صلاة الليل وقيامه أن يستفتح بركعتين خفيفتين، ثم يصلي ما كتب له، مثنى مثنى، يسلم بعد كل ركعتين، ويستحب أن يطيل القراءة، والركوع والسجود، ويقرأ ويتدبّر، ويجتهد في الذكر والدعاء، ويكثر ولا يشق على نفسه، فإن رسول الله يقول: «عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملّوا»[٢٦]، «وسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة»[٢٧].

وإن مما يحُثّ الهمة ويبعث القوة أن تعلم أنك في أيام فاضلة، وأوقات شريفة، في شهر مبارك، المغبون من فرط فيه، والخاسر من لم ينافس فيه، هو ميدان التسابق لقُوّام الليل، وساحات التنافس للركّع السجود، هذه الأيام من أرجى الأيام، فليست قيمة الأيام بساعاتها، ولا قدر الليالي بطولها وعددها، وإنما قيمة الأوقات بما تحمله من خير للبشر، وسعادة للنفوس.

ألا فاتقوا الله رحمكم الله، واغتنموا أوقاتكم، وأروا الله من أنفسكم خيراً، وتعرضوا لنفحات ربكم، «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[٢٨].

ثم صلوا وسلموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبيكم محمد رسول الله....

١- أخرجه أحمد، وأبو داود، وحسّنه الألباني في صحيح أبي داود (١١٦٨).
٢- أخرجه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٧١).
٣- أخرجه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني بشواهده في صحيح الترغيب (٣٩٠).
٤- مسلم، كتاب الصيام.
٥- البخاري كتاب تفسير القرآن.
٦- أخرجه البخاري في صلاة التراويح (٢٠٢٤)، ومسلم في الاعتكاف.
٧- أخرجه البخاري في الإيمان.
٨- أخرجه البخاري في الجمعة.
٩- أخرجه الترمذي في الدعوات، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٨).
١٠- أخرجه مسلم في صلاة المسافرين.
١١- أخرجه الترمذي في الدعوات، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٤).
١٢- أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد (٢٨)، والمروزي في قيام الليل (٥٠ - المختصر).
١٣- ذكره القرطبي في تفسيره (٢٣٩/١٥).
١٤- أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٣٦/٩ - المخطوط).
١٥- أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٨٥/٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٠/٧)، وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للسير (٢٣٢/٣): «إسناده صحيح».
١٦- أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٣) قال: أخبرنا همام، عن قتادة قال: «كان يقال» فذكره.
١٧- أخرجه البخاري في الجمعة.
١٨- أخرجه ابن حبان، والبيهقي في الكبرى، وصححه الألباني كما في السلسلة الصحيحة (١٩٥). والجعظري الفظ الغليظ المتكبر، والجواظ الجموع المنوع، والسخاب كالصخاب كثير الضجيج والخصام.
١٩- أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد.
٢٠- قال الحسن: «إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل». أخرجه ابن أبي الدنيا في التهجد.
٢١- أخرجه أحمد واللفظ له، وأبو داود في الصلاة، باب: والنسائي في قيام الليل.
٢٢- أخرجه أحمد في الزهد (٢١٩٥) عن يونس بن عبد الصمد بن معقل قال: أخبرني إبراهيم بن حجاج قال: سمعت وهبًا يقول: «ليس من بني آدم أحب إلى شيطانه من الأكول النوام».
٢٣- أخرجه مسلم في صلاة المسافرين.
٢٤- أخرجه البخاري في الجمعة، ومسلم في الصيام.
٢٥- أخرجه أبو داود في الصلاة، وابن ماجه في إقامة الصلاة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٦٢٦).
٢٦- جزء من حديث أخرجه البخاري في الإيمان.
٢٧- جزء من حديث أخرجه البخاري في الإيمان.
٢٨- أخرجه أحمد، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيهما، والمقدسي في الأحاديث المختارة (٤٣١/٦).

المنهج الأمثل لخطبة الجمعة

الحلقة الرابعة

إعداد
فضيلة الشيخ
د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فنكمل حديثنا حول الإعداد والبناء لخطبة الجمعة، فنقول مستعينين بالله تعالى:

١- وحدة الموضوع:

ينبغي الاقتصار على موضوع واحد تستوفى عناصره وتُحبّره كلماته وتعمق معالجته، لأن تشعب الموضوعات وتعدد القضايا في المقام الواحد يُشتت الأذهان ويُنسي بعضها بعضًا، ويقود إلى الإطالة المملة والصورة الباهتة وسطحية المعالجة.

٢- الجدة والتغيير:

ويعني ذلك ألا يلتزم الخطيب طريقًا واحدة أو وتيرة واحدة في أسلوبه وطريقة إلقائه، بل يكون استفهاميًا تارة، وتقريريًا أخرى، وضربًا للأمثال وتلمسًا للحكم والأسرار، مع ما يطلب من معايشة الأحداث ومتابعة المتغيرات، وتلمس حاجات الناس وتوجيههم وتبصيرهم تمشيًا مع أثر هذه المتغيرات عليهم.

على أن الخطب المنبرية بطبيعتها قد تستدعي تكرارًا لبعض موضوعاتها إن لم تكن كثيرًا منها؛ لأن من أعظم أغراضها ومقاصدها الدعوة والتذكير، والتذكير في حقيقته يعني الحديث عن شيء سبق علم السامع به فهو تنبيه لغافل، وحثٌ لمقصر، مما يستدعي التجديد في الطرق والأسلوب والمعالجة، كالتوحيد والعبادة والصلاة والصوم والزكاة وبر الوالدين والمحرمات من الربا والخمر والزور وأكل أموال الناس بالباطل، وأمثالها، مما يجب مراعاة التجديد في طرقها والتغيير في عرضها.

طول الخطبة:

من المعلوم أن معالجات الموضوعات تختلف باختلاف محتواها وظروفها وسامعيها، ففي بعض الظروف يحسن البسط والإطناب، ويكون السامعون مستعدين للاستماع، كما هو مشاهد في ظروف الأزمات والأوضاع ذات النقاشات الحادة والأحوال المتوترة، كما أن بعض الخطباء عنده من الجاذبية وحسن العرض والإلقاء ولطف الترديد والأخذ بالألباب ومجامع العقول ما يجعلهم يطلبون المكوث حول خطيبهم ويقبلون منه الإطالة، إن هذه ظروف وأوضاع لا تنكر، ولكن الحال الأغلب والواقع الأعم أن النفوس لها حد تحسن فيه الاستماع وتدرك فيه المعاني بعده تتشبع وتقف ويصبح الكلام عندها مملولاً، والأداء ثقيلاً، وينسي بعضه بعضًا، فالوصية العامة للخطباء أن يجتنبوا الإطالة ويجنحوا إلى الاعتدال وتغليب جانب الاختصار على الإطناب في أعم الأحوال، وقد قال ﷺ: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه».

ويحسن من الخطيب أن يعود سامعيه على زمن معتدل ثابت يلتزمه فإنهم إذا خبروه بانضباطه ودقة التزامه أحبوه ولازموا حضوره.

ومن الخير للخطيب وجمهوره أن ينفضوا وهم متعلقون بخطيبهم من غير ملل أو سآمة.

صفات الخطيب وآدابه:

لكل خطيب متميز خصوصيته، ومهما كانت الأفكار بديعة، والابتكارات متميزة، والاختيارات قوية، والأسلوب رصينًا، والإلقاء عاليًا، فلن تتحقق المثالية والأنموذجية للخطبة بهذه العناصر وحدها؛ لأن هناك عاملاً مهمًا لا يجوز إغفاله، إنه خصوصية الخطيب وانفراديته، وبعبارة أخرى انصهارية هذه

العناصر وانسجامها وهذا لا يتأتى إلا من خلال الخطيب وشخصيته وتكامل موهبته وخصائصه العلمية والفنية(١).

إن الخطيب كاللباس المفصل على القامة لا يظهر جماله ولا يتكامل بناؤه إلا بقدر انسجامه على بدن اللابس.

إن جودة اللباس وحسن لونه ونوع خياطته ودقة تفصيله لا تكفي في إعطاء الملبس الحُسْنَ إلا بعد اتساق ذلك مع قامة اللابس وبدنه، ولهذا فإن الخطبة الجيدة مستوفية العناصر لو ألقاها غير صاحبها لما ظهرت بذات القوة والتأثير والجمال والتأثر.

إذا كان الأمر كذلك فينبغي للخطيب المتطلع للنبوغ والإبداع أن يعرف مواهبه الخاصة ويحسن صقلها وتنميتها، ويستقل بالابتكار والاختبار والأسلوب والإلقاء؛ لأن المداومة على التقليد والمحاكاة وإطالة الاقتباس لا تنتج خطيبًا متميزًا ذا خطب مثالية، والله المستعان على الإحسان والإخلاص.

وهذا عرض لما ينبغي أن يكون عليه الخطيب من صفات وما يتحلى به من آداب:

تنقسم الصفات المبتغاة في الخطيب إلى نوعين: صفات فطرية وصفات مكتسبة.

الصفات الفطرية:

ويقصد بها الصفات الذاتية لدى الخطيب من الاستعداد الفطري، والسليقة الطبيعية، من طلاقة اللسان، وفصاحة المنطق، وثبات الجنان وصوت جهوري، وأداء متوثب، ولسان مبين سليم من عيوب الكلام كالفأفأة والتأتأة لتكون مخارج الحروف عنده صحيحة.

والخطيب كغيره من المربين والموجهين يحتاج إلى عقل راجح يقوده إلى البحث المركز، والملاحظة الدقيقة، وحسن المقارنة، والمعرفة بطبائع الأشياء، وسلامة الاستنتاج، مع يقظة حية وبديهة نيِّرة، يُضمّ إلى ذلك الجرأة والشجاعة والثقة بالنفس ورباطة الجأش وهذه الصفات تتوثق مع قوة التكوين العلمي وجودة التحضير وطول الخبرة.

الصفات المكتسبة:

وهي صفات ينالها الخطيب من الدراسة والمران والدُّربة، ويمكن تفصيل ذلك فيما يلي:

١- القراءة والاطلاع والتحصيل الكافي من العلم:

لابد للخطيب صاحب الموهبة الفطرية من تهذيب فطرته هذه وصقلها بالعلم والدراسة ويتركز ذلك في عدة مسارات:

أ- علوم القرآن والسنة، وهذا هو لبّ بضاعته، والسبيل إلى تحقيق غايته، ينضم إلى ذلك إلمامه بالسيرة وتاريخ الأمة وأئمتها ودراية بأحكام الشريعة، وقد تحسن العناية بأنواع من العلوم التي تفيد في معرفة أحوال الأمم وسنن الله في التغيير كالعلم بمناشئ الأمم ومراحل التاريخ وعلم الأخلاق والنفس والاجتماع.

ب- الإكثار من الاطلاع على الكلام البليغ والنظر في أقوال البلغاء متأملاً في مناحي التأثير وأسرار البلاغة، متذوقًا جمال الأسلوب وحسن التعبير، فهذا مما يشحذ القريحة ويذكي الفطنة.

جـ- تحصيل ثروة كثيرة من الألفاظ والأساليب، فالخطيب يحتاج إلى عبارات وأساليب متنوعة للمعنى الواحد ليتمكن من إيصال المعنى لطبقات السامعين ورفع السآمة عن نفوسهم، ولا يخدمه في ذلك إلا ثروة لغوية من أجل أن يأخذ بنواصي البيان، فيلقي جملاً تُثير خيال النفس، وتهزّ مشاعر الوجدان، فتنشط الأسماع وتشرئب الأعناق وتتفتح القلوب للعبارات المحكمة والمعاني المتقنة، وبهذا ينطق اللسان، ويظهر البيان، وتتشنف الأسماع.

٢- الدربة والمران:

الخطابة ملكة لا تتكون دفعة واحدة، بل إنها معاناة وممارسة ومران، وإذا كانت الخطابة فكرة وأسلوبًا وإلقاء محكمًا فإن المران ينبغي أن ينتظمها كلها، ففي باب الفكرة عليه أن يتعود ضبط أفكاره ووزن آرائه وحسن الربط بينها ليأخذ بعضها برقاب بعض ويوصل بعضها إلى بعض بتسلسل منطقي مرتب.

وفي باب الأسلوب - كما سبق - الإحاطة بالقول البليغ وحفظ كثير من فنونه وحسن استخدامها.

أما الإلقاء - فكما سبق أيضًا - يجمل بالخطيب إجادة الدقة في مخارج الحروف وحسن أدائها بترسل وتخير نبرات الصوت الملائمة انخفاضًا وارتفاعًا غير هيَّاب ولا وجل.

وإذا ما تم له ذلك أصبح واثق العلم رصين الأسلوب، رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابت الجنان، ولو حصل عكس ذلك أو قلّ مرانه لأحاط به الاضطراب والضعف وهان في أعين الحضور واضمحل تأثيره وذهب كلامه هباءً وتصبب عرقًا وغرق في الحيرة والدهشة وعلاه الارتجاج والإفحام.

وللحديث بقية بإذن الله.

---

(١) يقصد الشيخ هنا إلى مدى انفعال الخطيب وتأثره بخطبته وتفاعله معها؛ لتنتقل هذه المشاعر والأحاسيس إلى سامعيه.

أحكام الزكاة

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، الرَّحمَن الرَّحيم، مالِكِ يَومِ الدِّين، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له القويّ المتين، وأشهد أنّ نبيّنا وسيّدنا محمّدًا عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين، اللّهمّ صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: لقد بيَّن الله لَكم كلَّ خيرٍ وأمركم بهِ، وبيَّن لَكم كلَّ شرٍّ وحَذَّركم مِنه، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].



ألاَ وإنَّ مِن شَرائعِ الإسلام ما كان إحسانًا من الله تعالى إلى المكلَّف نفسِه، وإحسانًا من المكلَّف إلى الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥]. فتوحيدُ ربِّ العالمين بعبادَتِه وَحدَه لا شَريك له فرضٌ على العَبدِ، مَن حقَّقه دخَل الجنةَ، ومن أشرَك بالله في عبادَتِه دخَل النار. والتوحيدُ أعظمُ إحسان إلى النفس، ومثلُه الصلاةُ والصيام والإخلاصُ والذّكر وأعمالُ القلبِ وغيرُ ذلك. والإحسانُ إلى الخلقِ بكلِّ عبادةٍ يتعدَّى نفعُها إلى الغيرِ، مِثل تعليم العلمِ والأمر بالمعروفِ والنّهي عن المنكَر وبرِّ الوالدين وصِلةِ الأرحام وكفِّ الأذى عن الناسِ وحُسنِ الخلُق ونحوِ ذلك.

إنَّ منَ العباداتِ التي يُحسِن بها المكلَّف إلى الخلقِ ويعود نفعُها إلى فاعلِها أيضًا الزكاةَ المفروضة والنفقاتِ الواجبةَ والمستحبّة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٩٢] أي: فيجازيكم عليه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠].

أهمية الزكاة ومكانتها في الإسلام

فالزكاةُ قرينةُ الصلاة، لا يقبَل من العبد صلاةٌ حتى يؤدِّيَ الزكاةَ. وهي فرض وحقٌّ في الإسلام لنفع الفقيرِ، حقٌّ وفرض في الإبل والبقَر والمعزِ والضّأن والذهب والفضّة وما يقوم مقامَها من العملات المتداولة وفي الخارج من الأرض من الثّمار وفي عروضِ التجارة إذا بلغ كلٌّ من ذلك نصابًا على ما هو مفصّل في الأحاديث النبوية الثابتة.

وعقوبة مانعها

لفضيلة الشيخ
علي بن عبد الرحمن الحذيفي
إمام المسجد النبوي

والزكاة أحدُ أركان الإسلام، عن أبي أيّوب رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال للنبي: أخبرني بعملٍ يدخلني الجنّة، قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتصِل الرحم» [رواه البخاري]، وعَن الحسن بن عليّ رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله: «صِّنوا أموالَكم بالزّكاةِ، وداووا مرضَاكم بالصّدقة، واستقبِلوا أمواجَ البلاءِ بالدعاء والتضرُّع» رواه الطبرانيّ والبيهقيّ، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول اللهِ، أرأيتَ إن أدّى الرجل زكاةَ ماله، فقال رسول الله: «مَن أدّى زكاةَ ماله فقد ذهبَ عنه شرُّه» رواه الحاكم والطبرانيّ في الأوسط واللفظ له وابن خزَيمة.

عقوبة مانع الزكاة

وصاحبُ المال إذا لم يؤدِّ زكاتَه صار عذابًا له ووبالاً عليه في الدّنيا وفي الآخِرة، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رَسول الله: «ولاَ صاحِب إبلٍ لا يؤدّي حقَّها - يعني زكاتها -، ومِن حقِّها حلبُها يومَ وِردِها، إلاّ إذا كان يوم القيامة بُطِح لها بقاعٍ قَرقَرٍ - أي: بأرضٍ مُستوية - أوفرَ ما كانت، لا يفقِد منها فصيلاً واحدًا، تطؤُه بأخفافِها وتعضّه بأفواهِها، كلّما مرَّ عليه أخرَاها ردّ عليه أُولاها، في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضيَ الربّ بين العباد، فيرى سبيلَه إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار»، قيل: يا رسول الله، فالبقرُ والغنَم؟ قال: «ولا صاحِب بَقرٍ ولا غَنَم لا يؤدّي منها حقَّها إلا إذا كانَ يَوم القِيامَة بُطِح لها بِقاعٍ قَرقَرٍ أوفرَ ما كانت، لا يفقِد منها شيئًا، ليسَ منها عَقصاء - أي: مُنحنية القَرن - ولا جَلحاء ولا عَضباء، تنطحُه بقرونها وتَطؤُه بأظلافها، كلّما مرّ عليه أُخراها رُدَّ عليه أولاها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضيَ بين العباد، فيرى سبيلَه إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار»، قيل: يا رسول الله، فالخيلُ؟ قال: «الخيلُ ثلاثة: هي لرجلٍ وِزرٌ، وهي لرجلٍ سِترٌ، وهي لرجلٍ أجرٌ، فأمّا التي هي له وِزرٌ فرجلٌ ربطَها رِياءً وفخرًا ونِواءً لأهلِ الإسلام، فهي له وِزرٌ» [رواه البخاري ومسلم]، وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أيضًا عن النبيّ قال: «مَن آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاتَه مُثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعًا أقرَع - أي: ثُعبانًا عظيمًا - له زبيبتَان، يُطوَّقُه يومَ القيامَة، ثم يأخُذ بلِهزِمَتَيه - يعني شِدقَيه -، ويقول: أنا مَالُك أنا كنزُك» [رواه البخاري ومسلم]، وقال تعالى عن المنافقين: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

فيا أيّها الناس، شأنُ الزكاةِ في الإسلام عظيمٌ، وعَدَم أدائها محقٌ بركةِ المال وعَذابٌ أليم، فأعطوها - رحمكم الله - لمستحقِّيها، فقد أعطاكُم الله الكثيرَ من المال، وطلب منكم اليسير، ووَعدكم بالثواب عليه، ووعدكم أن يخلِفَ ما أنفقتم.

مصارف الزكاة

وقد بيَّن الله تعالى مصارفَ الزكاة وأهلَها، فلم يكِلْها إلى أحدٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

فالواجبُ في الذهبِ والفضّة ربعُ العُشرِ في كلٍّ، وما زادَ على النّصاب فبِحِسابِه، وإذا أدى من العملات الورقيّة مِن كل مائة ربعَ العشر أي: اثنين ونصفًا في المائة فقد برِئَت ذمّتُه وأدّى أكثرَ ممّا عليه.

والنفقاتُ التي تلزم المسلمَ في غير الزكاةِ يُثاب عليها، وفي الحديث عن النبيِّ: «دينارٌ أنفقتَه على أهلِك، ودينار تصدَّقتَ به، ودينار أنفقتَه في سبيل الله، أعظمُهُنّ أجرًا الذي أنفقتَه على أهلِك».

والصّدقاتُ في سبُلِ الخيرِ يجلِبُ الله بها الخَيراتِ ويدفَع بها المكروهاتِ، عن أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله: «صَنائعُ المعروفِ تَقِي مَصارِعَ السوءِ، وصَدقةُ السِّرِّ تُطفِئ غَضَبَ الرَّبِّ، وصِلةُ الرحم تزيد في العمر» رواه الطبرانيّ بإسنادٍ حسن، وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «ما مِن يومٍ يصبِح العبادُ فيه إلا ملَكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللّهمّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللّهمّ أعطِ ممسكا تلفًا» [رواه البخاريّ ومسلم]، ويقول: «اتّقوا النّارَ ولو بشقِّ تمرَة». ويعظم ثوابُ الزكاة والنفقةِ إذا وقعت في موقعها.

ثواب الزكاة وثواب النفقة

فيا أيّها الناسُ، من خفِي عليه من شأن الزكاة وتفاصيلها فليسأَل عن ذلك أهلَ العلم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، والرّسولُ يَقول: «مَن يردِ الله به خيرًا يفقِّهه في الدين».

إنَّ الزكاة والنفقة إذا وقَعَت في مَوقِعِها فإنّه يعظم ثوابُها أكثَر وأكثر، وإذا نفَّس صاحبها بهَا كربَ مكروب وانتفعت بها أسرةٌ محتاجة كان ذلك عند الله عظيمًا.

المستحقون للزكاة

ألا وإنَّ ممن هو أهلٌ وموقِع للزّكاة والصدقة والعَطف والإعانَة الذين أثقَلتهم الديونُ وتحمّلوا من الغير في أمورٍ مباحةٍ شرعًا، والذين أوقَعهم الدَّين في السجون وتركوا وراءَهم عَوائِلَ لاَ كافِلَ لهم، فضاعَ بعدَهم كثيرٌ مِن عيالهم، واحتاجوا إلى رعايةٍ وكفَالة، واستدانوا في إصلاح أحوالِهم استدانةً مباحة، أو وقَع عليهم غرمٌ لأسبابٍ قدَر وقضاءٍ، فهؤلاء من أهلِ الزكاة والصّدَقة، والتّكافلُ الإسلاميّ يوجب علينا إنقاذَهم مما وقَعوا فيه ورعايةَ أسَرِهم والسعيَ في تفريجِ كربَتِهم، ولا سيّما في هذا الشهر المبارك الذي تضاعَف فيه الحسنات والذي تكفَّر به السيِّئات، فإنّ رعاية أولئك من أفضلِ الأعمال عندَ الله تبارَك وتَعالى، والمؤمِنون في توادّهم وتراحمهم وتعاطُفهم كالجسد الواحد، إذا اشتكَى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحمّى.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

اللّهمّ صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد:

فنكمل حديثنا عن الإعداد لخطبة الجمعة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إضافات:

هذه أساسيات التحصيل العلمي والدربة، وهناك ملاحظات متعلقة بها يحسن بالخطيب رعايتها منها:

تجنب الخوض فيما لا يعلم:

على الخطيب الابتعاد عن الخوض فيما لا يعلم، فإن هذا مُوقع في الارتباك والحديث غير المفهوم، فتضيع الهيبة والوقار ويصبح محل التندر مما يمنع الاستفادة والقبول وينفر الجمهور.

المنهج الأمثل لخطبة الجمعة

إعداد
فضيلة الشيخ
د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

مخاطبة الناس بما يعرفون:

من الخطأ وقلة الفقه في خطاب الناس الخوض في دقائق العلوم والمعارف، وتفاصيل المباحث إثباتًا أو نفيًا ونقاشًا علميًا والغوص في الخلافات العلمية والفقهية مما مجاله حلق العلم وقاعات الدراسة ناهيك بمن يخوض في العلوم التجريبية والعلوم البحتة من طب وتشريح وفلك وجيولوجيا ودقائق خلق الإنسان والحيوان ومكونات الأرض والصخور مما لا تدركه فهوم عموم المستمعين فهذا يمنع الفائدة ويجرئ على الاستهانة بالخطيب وموضوعه.

مراعاة مقتضى الحال وأحوال السامعين:

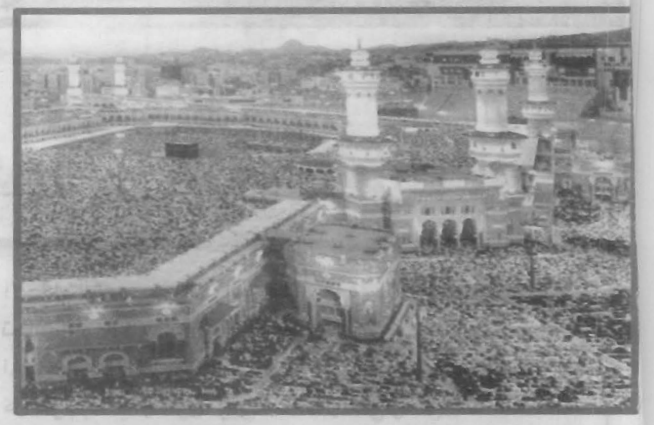
لكل مقام مقال: ولكل جماعة لسان، فالحديث إلى العلماء غير الحديث إلى الأغنياء، والحديث إلى العامة غير الحديث إلى العِلْيَة، وخطاب الأميين غير خطاب المثقفين، والكلام في حالات الأمن يختلف عنه في حالات الخوف، وقل مثل ذلك في اختلاف الظروف وتقلبات الأحوال من غنى وفقر وصحة ومرض ورخاء وجدب، ومخاطبة الثائرين غير مخاطبة الفاترين، فالثائر يُقمْع والفاتر يُستثار.

والمتكلم المجيد يعرف أقدار المعاني ويُوازن بينها وبين أقدار السامعين وأقدار الأحوال، فيجعل لكل طبقة كلامًا، ولكل حال مقامًا، فيقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدار المعاني على أقدار المقامات.

ناهيك بمراعاة الفروق بين خطاب أهل القرية النائية والمدينة المكتظة فصخب المدينة وأحداثها غير عزلة القرية ومحدوديتها.

آداب يلتزم بها:

يضاف إلى ما سبق من الصفات فطريها ومكتسبها بعض آداب تفيد في تحقيق النفع وبلوغ الأثر وحصول القول:





الحلقة الخامسة

١- صدق اللهجة:

لابد أن يظهر الخطيب مخلصًا صادقًا حريصًا على قول الحق والعمل به والدعوة إليه، فهذا ينبت الفقه؛ فلا يُسرف في مدح ولا ذم ولا وعد ولا وعيد، ويُبتعد عن فاحش القول وبذيئه، يستغني بالكناية عن التصريح فيما يستهجن فيه الإفصاح، فعفة اللسان ونزاهته دليل على نزاهة القلب وصفائه.

٢- التودد للسامعين:

ينبغي للخطيب أن ينحو منحى الرفق والتبشير والتيسير قدر المستطاع، ومن أظهر المحبة كان أجدر بأن يُستجاب له، ومن أغضب واستثار كان أحرى بأن يُرد قوله.

ومما يدخل في هذا الباب: البُعد عن العُجْب والحديث عن النفس وتجنب الأغراض الشخصية، فظهور الغرض الشخصي يجعل للريبة مدخلاً، فحقه أن يسبقهم في المكارم، ويَقْدُمَهم في المغارم، ويُقَدِّمهم في المغانم.

٣- الورع والصلاح:

الورع والتدين والعفة والصلاح من أدلّ الدلائل على الصدق والإخلاص وتجرد الإيمان والبعد عن الأغراض والأهواء، فعلى الخطيب أن يتسربل بسربال التقوى، ويتدثر بدثار الاستقامة.

٤- اليقين العميق والاقتناع الشخصي:

يجب أن يكون الخطيب شديد الثقة بما يقول، صادق اليقين بما تفيض به نفسه وينطق به لسانه، إذ لا يُؤثر إلا المتأثر، وما كان من القلب فهو يصل إلى القلب.

إن قوة الاعتقاد وصحة اليقين تُكسب الكلام حرارة، والصوت تأثيرًا، والألفاظ قوة والمعاني روحًا، وكل ذلك يُولّد جوًا عاطفيًا حول الخطيب يجعل كلامه متصلاً بوجدانه.

٥- صفات وآداب عامة:

ما سبق لم يكن حصرًا للصفات والآداب، ولكنها إشارات بينها ترابط وفي ثناياها إشارات إلى غيرها مما قد تراه مبسوطًا في مراجع أخرى، فالحديث في مثل هذه الصفات والآداب يعمق ويتشعب، وبخاصة في مثل الخطيب والموجه والمربي والمعلم ورجل الدعوة، فهم للمستمع أمثلة تحتذى يوجهونه بأعمالهم وصفاتهم قبل أقوالهم وعلومهم، وهاك سردًا لبعض الصفات لتدلّك على ما قلنا، مما لا ينبغي أن يغفل عنه الخطيب وأمثاله ويتعاهد نفسه بفحصها وتجديد تقويتها في ذاته والالتزام بها مثل الحلم، وسعة الصدر، والتواضع، والصبر، والقوة، والحنو على الناس، وخدمتهم وإظهار الشفقة عليهم، وتجنيبهم الجدل والخصام، وأثر ذلك على عمله ومهمته وقومه لا يخفى إيجابًا في الالتزام وسلبًا في الخلل والتقصير، والله المستعان.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين، وآله وصحبه وسلم.

وبعد:

فقد تحدثنا في العدد السابق عن الإعداد لخطبة الجمعة، وذكرنا ما يجب على الخطيب من تجنب الخوض فيما لا يعلم، ومخاطبة الناس بما يعرفون، ومراعاة أحْوالهم، وثقافاتهم.

وما يزال حديثنا موصولاً حول المنهج الأمثل لخطبة الجمعة، ونتكلم في هذا العدد - بعون الله- عن:

المنهج الأمثل لخطبة الجمعة

إعداد
فضيلة الشيخ
د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

مصادر الخطبة:

يتم إعداد الخطب المنبرية وجمع عناصرها من المصادر والمراجع الإسلامية، والكتابات الاجتماعية والتربوية والثقافية، وإليك استعراضًا إجماليًا لبعض هذه المصادر وكيفية الاستفادة منها:

القرآن الكريم وتفسيره:

ويمكن أن تكون الاستفادة في تقديري على طريقين:

أحدهما: باستعراض النصوص القرآنية وجمعها وحسن ترتيبها، وهذا يكون في موضوعات الخطب التي عرض لها القرآن بتفصيل واسع، كالإيمان والتوحيد والتقوى وأحوال القيامة واليوم الآخر والجنة والنار وقصص الأنبياء، وأشباه ذلك، فجمع الآيات واستعراضها يعطي تكاملاً وشمولاً وبيانًا لدى السامع، قد لا يدركه لو قرأ الآيات في مواضعها من المصحف.

ويتبع الجمع الاطلاع على تفسير هذه الآيات ألفاظًا وإجمالاً، ومن ثمَّ الربط بين هذه الآيات، ومن المعلوم أن حسن الربط يعطي مزيد إيضاح وبيان حتى كأن السامع لم يقرأ الآيات من قبل.

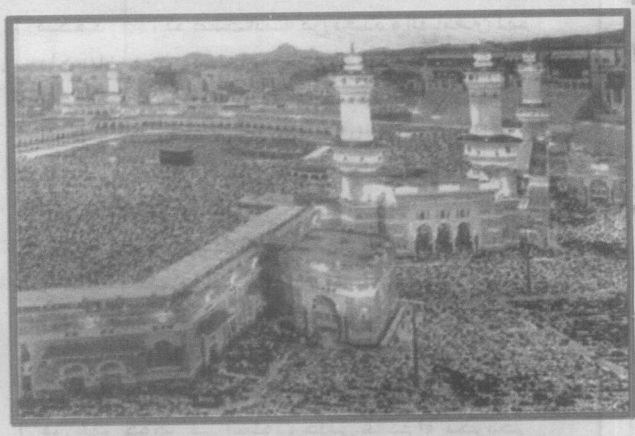
ثانيها: إذا كان موضوع الخطبة مما لم يرد تفصيله في القرآن الكريم ولكن يستدل له بآيات من القرآن.

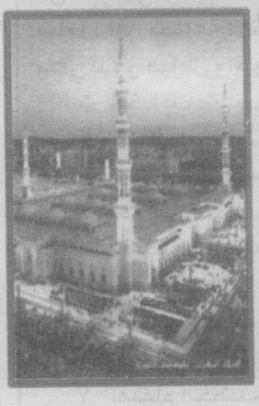
فهذه يفيد فيها استعراض المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ليكون الاستيعاب أتم وأوفى، فاللفظة ترد في القرآن الكريم على وجوه وتصريفات متعددة، ومن المفيد جدًا استعراض هذه الوجوه وتدقيق النظر فيها وربطها بنظائرها، ومراجعة أقوال أهل العلم من المفسرين وغيرهم، ولسوف يجد الخطيب إشارات قرآنية بليغة وفهومًا للعلماء دقيقة وأسرارًا من المعاني عميقة تجعل خطبته تحتلُّ مكانًا مرموقًا لدى سامعيه ومتابعيه.

وغني عن البيان أنَّ كتب التفسير تتنوع في تناولها وطرائق تفسيرها، فمنها ما يهتم بالمأثور ومنها ما يعتني بالرأي وفيها اللغوي والإجمالي وغير ذلك من أنواع التفسير في كتب التفسير قديمه وحديثه.

الحديث الشريف وشروحه:

ما قيل في القرآن الكريم يُقال في الحديث الشريف، فهو المصدر الثاني من مصادر الإسلام،





الحلقة السادسة والأخيرة

والحديث النبوي أكثر تفصيلاً وسعة من القرآن الكريم، فهو شارح القرآن ومبينه، وقد حوى من التفصيل والبيان ما زخرت به مدونات السنة، يُضمُّ إلى ذلك شروح أهل العلم وفهومهم واستنباطاتهم، مما يوفر للخطيب معينًا لا ينضب فيما يتوجه إليه من موضوعات.

مصادر إسلامية قديمة:

وهي ما عدا التفسير وشروح السنة من كتب العقائد والأحكام والمواعظ والأخلاق والرقائق وغيرها، يختار منها الخطيب ما يُناسب موضوعه تأصيلاً واستدلالاً وأسلوبًا، ويُذكر على سبيل المثال مدارج السالكين، وزاد المعاد لابن القيم - رحمه الله-، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، والإحياء للغزالي ومختصراته، مع ما ينبغي من الحيطة في بعض ما في الكتاب من ملاحظات، وصيد الخاطر لابن الجوزي، وأدب الدنيا والدين للماوردي، وروضة العقلاء للبستي، وجامع العلوم والحكم لابن رجب.

كتب الأدب القديم والحديث:

وهذه يعتني بها الخطيب من أجل رقيّ الأسلوب، وتخير الألفاظ، وانتقاء الكلمات والعبارات الجزلة الأخاذة ذات الوقع المتميز على السامع، ومن هذه الكتب القديمة البيان والتبيين للجاحظ، وصبح الأعشى للقلقشندي، والخطب المنسوبة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - فأسلوبها متميز والصناعة اللفظية فيها عالية، على ما يتعين على الخطيب من ملاحظة المعاني الصحيحة التي لا تُخالف مقاصد الشرع وأصوله.

ومن الكتب الحديثة مؤلفات الرافعي، والخضر حسين، ومحمد محمد حسين، والعقاد، وأحمد حسن الزيات، والسيد أحمد الهاشمي وأمثالها.

الكتب المؤلفة في الإسلام والقضايا المعاصرة

تزخر الساحة العلمية والأدبية بكتب إسلامية معاصرة جيدة، توفر للخطيب ثروة هائلة في إعداد موضوعاته وبخاصة الاجتماعية منها والتربوية وقضايا العصر وأحداث الوقت، فهي تتحدث بلغة معاصرة جيدة وبمعالجات مناسبة يحسن من الخطيب كثرة المطالعة فيها، وبخاصة كتب المعروفين بحسن إسلامهم، وصحة منهجهم، وسلامة قصدهم.

المؤلفات في الخطب:

وهي مؤلفات خاصة تشتمل على خطب الجمعة، ألقاها مؤلفوها في موضوعات متنوعة، والأسواق المكتبية ملأى بهذا النوع من المؤلفات يجدر بالخطيب وبخاصة في بدايات عمله الخطابي أن يطلع عليها، وهذه المؤلفات غالبًا ما تحتوي على موضوعات متشابهة في الطرح من الإيمانيات والمواعظ والقضايا الاجتماعية، مما يُتيح للخطيب المبتدئ فرصة المقارنة بين مناهج الخطباء وطرق عرضهم وأساليب طرحهم مما يعينه على رسم خط متميز لنفسه، ولهذا ينبغي الاطلاع على هذه المؤلفات في بدايات الممارسة الخطابية، حتى إذا اشتد عوده واتسعت مداركه ومعارفه استقل بنفسه، وتوجه إلى المصادر الأصلية، فصار ينشئ الخطب ويرسم لنفسه خطًا خاصًا وطريقًا منفردًا، ومن المؤلفات في هذا الباب خطب المراغي، والبيجاني، والشيخ عبد الله خياط، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ صالح الفوزان، والشيخ محمد بن سبيل، والدكتور أحمد الرياحي، والشيخ محمد الغزالي.

الصحف والمجلات:

يجدر بالخطيب مواكبة الأحداث ومسايرة الوقائع، ويفيده في ذلك الاطلاع على الصحف والمجلات ليتُابع الأحداث المستجدة، ويُمعن النظر في المقالات والتعليقات التي تواكب الحدث، ففيها ثراء وتوسيع لمدارك المتابع، ويعرف بتفسير

الأحداث، مما يهدي الخطيب إلى النظرة المتوازنة وبخاصة إذا كثر اطلاعه على الكتابات والتعليقات الصحفية للكُتَّاب المرموقين.

وقد تكون المجلات أكثر إفادة لأنها تعالج بعمق أكبر، فإذا كانت الصحافة تهتم بالحدث اليومي السريع، فإن المجلة تدخل إلى الحدث بعمق أكبر.

وهناك مجلات إسلامية وعلمية متخصصة ينبغي مزيد الاعتناء بها لما تحتويه من مادة علمية مؤصلة مدللة تعين الخطيب على غايته، مثل مجلة البحوث الإسلامية، والدعوة، والبيان، والإصلاح، والمجتمع.

خلاصة ونتائج

ويمكن تلخيص مجمل الصفات والخصائص التي ينبغي أن تشتمل عليها الخطبة في النقاط التالية:

١- يحسن الاقتصار على موضوع واحد غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا، إذ أن ذلك في الغالب يُشتت الأذهان ويُنسي بعضه بعضًا، فمهما كانت العبارة بليغة، والأسلوب منمقًا، والفكر متدفقًا، فإنه لا يستطيع مع الإطالة وتنوع الموضوعات إعطاء صورة متكاملة مجتمعة الأفكار واضحة المعالم.

٢- ينبغي عدم التعرض لذكر الخلاف في الفروع، والانطلاق من المسلمات في الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم، وفي ذلك متسع ثرٌ في الوعظ والإرشاد والتوجيه، وبهذا تؤدي الخطبة دورها في جمع الكلمة، والتمسك بشعب الإيمان، وما أكثر الفضائل والعزائم التي تناسب ميادين التوجيه والتذكير والمواعظ.

٣- الحرص قدر الإمكان أن يُلائم موضوع الخطبة الأحداث الجارية والملابسات الواقعة في دنيا الناس ومخاطبة جماهير السامعين، وأن مما يزري بالخطيب أن تكون الخطبة في وادٍ والناس والزمان في وادٍ آخر، وأن في نزول كتاب الله منجمًا مما يُنبه إلى ذلك.

٤- مجاراة الأحداث والتمشي مع الواقع لا ينافي المطالبة بأن يتخول الخطيب جمهوره بالتذكير بفرائض الإسلام ترغيبًا وبمحرماته ترهيبًا من الصلاة والزكاة والصوم وحقوق الوالدين والجوار ووجوه البر وأنواع الصلات وتحريم الزنا والخمر والسرقة وأكل أموال الناس بالباطل وأمثالها، وتعطير أسماعهم بين فينة وفينة بذكر سير السلف الصالح بدءًا بالقدوة الأولى والرحمة المهداة نبينا محمد ﷺ، ثم صحابته من بعده والتابعين لهم بإحسان، وذكر أمجاد المسلمين والتنبيه إلى ينابيع الحضارة الإسلامية اليانعة المتجددة، ففي ذلك زرع للفقه في النفوس وربط للمستقبل المأمول بالماضي المجيد وتأكيد للإيمان بالرسالة العالمية وتأصيل للهوية الإسلامية.

٥- يحتاج الخطيب في بعض الظروف والأحوال والمجتمعات إلى تنبيه المسلمين إلى الأخطار الإلحادية والفلسفات الأجنبية والنزعات المنحرفة والنِّحَل الباطلة، وفي هذا الباب والمسلك يحسن بالخطيب أن يتوجه إلى بيان حقائق الإسلام بقوة من غير خوص في أسلوب جدلي عقيم أو تجريحي مبلبل؛ ففي نصاعة الإسلام وقوته - بحمد الله - ما يكفي لدحر الباطل وافتراءات أهله.

٦- الخطيب طبيب فعليه قبل وصف الدواء تشخيص الداء، فيتعرف على العلل والأمراض الشائعة ويشخص الداء ويعرف الدواء، فإذا استبان له ذلك رجع إلى الكتاب والسنة فوضع الدواء، وكلما دق التشخيص سهل العلاج، ومعلوم أن الواعظ غير المتبصر سيأتي بما لا يناسب وإذا أخطأ في تحديد العلة فقد تكون الخطبة لغوًا، على الرغم من شمولها على نصوص صحيحة.

٧- اهتمام الخطيب بخطبته وعنايته بالتحضير الجيد دليل على احترامه نفسه وسامعيه.

٨- الحرص على الإيجاز قدر الإمكان، والقدرة على ذلك تنبع من عمق الثقافة وقوة التحصيل والإدراك التام لما يريد الحديث عنه، والنفس البشرية لا تزكو فيها المعاني إلا إذا أمكن تحديدها وتقويمها، أما كثرة الكلام وبعثرة الحقائق فتحول السامع إلى شبه إناء قد امتلأ وبدأت تسيل منه الكلمات مهما بلغت نفاستها، ومن الخطأ الفادح أن يظن الخطيب أن عليه أن يقول ما عنده وعلى الناس أن ينصتوا طوعًا أو كرهًا.

وبعد، فهذا ما تيسر جمعه وتدوينه، سائلاً المولى جلت قدرته وعز شأنه أن يهدي للتي هي أقوم من العمل والأحسن من القول، ويوفق للإخلاص في القول والعمل، وما كان من صواب هنا فمن الله، وما كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، ورحم الله من أهدى إليَّ عيوبي، ولا عدمت أخًا يكشف زلة، وينبه إلى غلطة، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا، وصلى الله وسلم على خير خلقه، نبينا محمد وآله وصحبه وسلم. انتهى.

والحمد لله رب العالمين.

وقفات مع حجة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وعلى آله وأصحابه.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله سبحانه، فاتقوا اللهَ ربكم، واشكروه على ما أولاكم من نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة، فلقد تأذّن سبحانه بالمزيد لمن شكر من عباده، ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧].



أيها المسلمون، حجاجَ بيت الله الحرام، الحجّ في الإسلام الأغرّ يُعدّ نقطةَ ارتكاز في ميدان التجرّد والإيثار والأخوة والمساواة، إضافةً إلى دقة أحكامه الشرعية ومسائله الفقهية كباب من أبواب العبادات. وعامّة أهل العلم مطبقون على أنّ النبي ﷺ لم يحجَّ إلا مرة واحدة، وهي حجة الوداع المشهورة قبل وفاته بأشهر، غيرَ أنّ آحادَ هذه الحجة وصورَها كانت وما زالت منهلاً للاعتبار ومنبعاً للادكار ومرتعاً خصباً لجمع الأوابد فيها ولقط النُّثار، المتمثل كلّه في الدروس والعبر والمواقف الموقظة للضمير المسلم الحيّ المهيّأ لفهم سيرة المصطفى ﷺ واتّباعها حذوَ القذّة بالقذّة، مع اعتقادنا الجازم بأنّ هذه الدروسَ والعبر برمّتها لا يمكن أن تُستوعَب في مجرّد خطبة واحدة أو كلماتٍ عابرة، ولا جرَم فإنّ حجته ﷺ هي كالبحر من أي النواحي أتيتَه فإنما لجُّتُه المعروفُ وساحلُه البرُّ والتقوى.

رحمة الحجيج بعضهم بعضًا

عباد الله، الرأفة والرحمةُ والحرص على راحة الغير وسلامته من الأذى أمرٌ منشود بين أهل الإسلام على وجه التأكيد، ولربما ازداد هذا التأكيدُ بوضوح إذا كان الالتقاء الأخوي يسوده جوٌّ من أجواء العبادات الروحية، وفي حجة النبي ﷺ يُسمع التوجيه المبارك من النبي ﷺ إلى الفاروق رضي الله عنه حينما وجّهه لتقبيل الحجر الأسود، ونهاه أن يزاحم الناسَ، فإن وجد فرجة وإلا فليستقبلْه ويكبّر ولا يزاحم كما روى ذلك الطبراني وغيره[1].

وفي هذا الموقفِ يتجلّى حرص النبي ﷺ ودعوتُه لعموم المؤمنين بالتخلّق باللين والرحمة والرأفة والرفق، وأن لا يكونوا سبباً في الإيذاء أو المزاحمة أو التنغيص لأجواءِ العبادة التي لا تكتمل إلا بالطمأنينة والصفاء والبُعد عن كل ما من شأنه تكديرُها وتشويشها.

ومن ذلكم - عباد الله - المزاحمةُ والاقتتال في حال أداء بعض النسك في الحج، كتقبيل الحجر أو رمي الجمرات أو سدّ الطرقات في المساجد والممرات، دون مراعاة لأجواء السكينة في العبادة، أو احترام لشعور الآخرين وحقوقهم، والنبي ﷺ يقول: «إنّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه» رواه مسلم[2].

وتحصيل الأجر في النسك - عباد الله - لا يبلغ الكمالَ إلا بالرفق واللين؛ لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، كما صحّ بذلكم الخبر عن النبي ﷺ عند مسلم في صحيحه[3].

توحيد الله وتكبيره

أيها المسلمون، في حجة الوداع المباركة يصعد النبي ﷺ على الصفا فينظر إلى الكعبة ويستقبلها ثم يوحّد الله ويكبّره ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحدَه»[4]، بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه. لقد قال هذه الكلمات في أرضِ أمنٍ وأمان، في زمن استقرّ فيه سلطانُه وغلبت فيه رسالتُه، وهو حينما يذكر اللهَ جل وعلا بهذه الألفاظ إبّان النسك فإنما هو بهذا يثير في النفس كوامنَ الإيمان بقوةِ الله وقدرته وأثر الاعتماد عليه وحده ونسبة القوة والغلبة له سبحانه دونَ سواه، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠].

إن النبيَّ ﷺ حينما يكبّر اللهَ عند كلّ شوط في الطواف ويكبّر الله عند الصفا والمروة ويكبّر الله عند رمي الجمار ويكبّر الله في أيام التشريق لهو يبعث في النفوس شعورًا عميقاً واستحضاراً أسيفاً لقيمة ذكر الله وتكبيره في حياة المرء المسلم. وإن كلمة "الله أكبر" لهي رأسُ الذكر وعماده، وهي أوّل ما كلّف به النبي ﷺ حين أمر بالإنذار: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ × قُمْ فَأَنذِرْ × وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:١-٣].

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، إنها لكلمةٌ عظيمة تحيي موات النفس الهامدة، لصوتها هديرٌ كهدير البحر المتلاطم أو هي أشدُّ وقعاً، بل إنها سلاحٌ فتاك في وجوه أعداء الملة ولصوص الأرض، وهي سيفُ

فضيلة الشيخ
سعود الشريم
إمام المسجد الحرام

الحروب الذي لا يُثلم، كيف لا! وقد ذكر النبي ﷺ أن مدينةً تفتَتح في آخر الزمان بهذه الكلمة، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه: «فإذا جاؤوها نزلوا - أي: المسلمون -، فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط أحدُ جانبيها، ثمّ يقولوا الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر، فيسقط جانبُها الآخر، ثم يقولوا في الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرَّج لهم، فيدخلوها فيغنموا» الحديث. رواه مسلم(٥).

وعلى صخرات الصفا والمروة - عباد الله - يذكر النبي ﷺ نعمةَ ربِّه عليه وعلى المؤمنين، ويحمده على أن ردَّ كيد الأحزاب وحده ونصر عبده وأعزَّ جنده، وذلك يوم الخندق الذي قال عنه الباري جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً × إِذْ جَاءوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَاْ × هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب:٩-١١].

إن الإيمان بقدرةِ الله وحدَه وقهره وغلبته هو الشعورُ الذي ينبغي أن يخامرَ قلوبَ المسلمين في كلّ حين وآن، لأن ذلك يثمر الإقدامَ والاعتمادَ عليه وحدَه، ويبعث في النفس خلقَ الشجاعة وعدم الاستخذاء لصروفِ الأيام وتكالب الأعداء وتحزّبهم ضدَّ أمة الإسلام، وأنه لا ينبغي أن تكونَ الآذان رَجْعَ صدىً للذين يقولون: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، بل ينبغي أن يزيدَهم ذلك إيماناً مع إيمانهم وتعلقاً بالله ويقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ولا غروَ أنَّ من يعتقد أنَّ الأجل محدودٌ والرزق مكفول والأشياء بيد الله يقلّبها كيف يشاء فلن يرهبَ الموت والبِلى، ولن يخشى الفقر والفاقة، مهما طقطقت أرجلُ الأعداء الحاقدين، بل سيكون حديثه [تترى] قولَ الله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا﴾ [التوبة:٥١]، أو قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢]، يعنون بذلك كسبَ المعركة بالنصر أو الموت دونَ الظفر بها وهو حسَن كذلك لأنه شهادة في سبيل الله، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص:٦٠].

أما الذين لا إيمانَ لهم بالله ولا بقضائه وقدره بل طغوا وبغوا وعتَوا عتوًا كبيراً، فهؤلاء إن انتصروا أو انهزموا فهم بين عذابين: آجل أو عاجل: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢].

وأمثالُ هؤلاء سيحيَون بأفئدة هواء، تلعب بهم الأحداثُ والظنون، وتقف لهم أشباحُ الموت والمصائب عند كلّ أفق، بل هم: ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ × لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٦، ٥٧].

إفاضة النبي ﷺ من عرفة

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، لما غربت شمسُ يوم عرفة، وذهبت الصُّفرة قليلاً حتى غاب القرصُ دفع النبي ﷺ من عرفة، وقد شنق لناقته القصواء الزمامَ حتى لا تسرعَ وهو يقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينةَ السكينة، السكينة السكينة»(٦).

إنَّ هذا الموقفَ الجليل الذي تتسابق فيه النفوس إلى الخير، وهي أينما حلت في عرصات المشاعر فهي في نسك ومع نسك ووسط نسك، غير أن الهدوءَ والطمأنينةَ والتأنيَ والسكينة وعدمَ الاستعجال هو الشعور الإيجابيّ المربّي، وهو الطريقة المباركة لكلّ نجاح أمثل. فالسكينة لا يعدِلها شيء، إذ العجلةُ هي داء المجتمعات، وهي الألغام الموقوتة التي لا تثمر إلا الأشلاءَ والدمار، بل هي من مقتضيات حظوظ النفس البغيضة والجهل بالعواقب وسوءِ المغبّة، وذلك لخروجها عن الإطار المشروع حتى في حال العبادة، يقول الباري سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١]، بل حتّى في أدقّ مواضع العبادة يقول النبي ﷺ: «إن الله يستجيب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجَب لي» رواه البخاري ومسلم(٧).

لقد جاء لفظُ العجلة في القرآن متصرّفا في سبعة وثلاثين موضعاً، كلها على سبيل الذم إلا موضعًا واحداً، وهو قوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:٢٠٣].

فالعجلةُ - عباد الله - من الخلال المذمومة في أعمال المرء العبادية والحياتية. والواجب على العاقل أن يلزمَ التأنيَ في الأمور كلها؛ لأنَّ الزيادةَ على المقدار في المبتغى عيبٌ كما أن النقصان فيما يجب من المطالب

عجزٌ، ومن لم تصلحه الأناة فلن تنفعَه العجلة، بل تضرُّه، وصفاتُ العَجل أنه يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهَم، ويحمَد قبل أن يجرِّب، ويذمّ بعدما يحمَد. المرءُ العجِل تصحبه الندامة، وتخذله السلامة، وقد كانت العربُ في القديم تكنّي العجلة أم الندامات، ففي العجلة الندامة، وفي التأني السلامة، ولقد صدق الله: ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءايَاتِى فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء:٣٧].

يُسر الإسلام

حجاج بيت الله الحرام، لقد تمثّل النبي ﷺ في حجته بأعظم معاني التيسير والتسهيل والرحمة للعالمين والرأفة بالمؤمنين. ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً أشدّ الحرص على أمته بأن لا يكلّفهم ما لا يطيقون أو أن يفعلوا ما لا يستطيعون، ففي يوم العيد يوم الحجّ الأكبر ما سئل عن شيء قدِّم ولا أخِّر في ذلك اليوم إلا قال: «افعل ولا حرج»، فجاءه رجل وقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح، قال: «اذبح ولا حرج»، وجاءه آخر فقال: لم أشعر فنحرتُ قبل أن أرمي، قال: «ارم ولا حرج»، فما سئل يومئذ عن شَيء قدِّم ولا أخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج» حديث متفق على صحته[٨]، ويقول ﷺ: «نحرتُ ها هنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفت ها هنا وعرفة كلها موقف، ووقفتُ ها هنا وجمعٌ كلها موقف» رواه مسلم[٩].

هذا هو ديدنُه ﷺ، فلقد كان يأمر دعاتَه ورسلَه باليسر والتيسير، فقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا» رواه البخاري[١٠].

وهذا التيسيرُ منه ﷺ هو فيما كان جاريًا وفق الشرع والعدل، لا وفق الأهواء والرغبات، إذ لو كان الأمرُ كذلك لما كان هناك تكليف أصلاً، لأن في التكليف نوعَ مشقة ونصَب.

فالواجب على الناس بعامة أن يراعوا مثلَ ذلك، فلا يضيّقوا على أنفسهم فيما جعل الله لهم فيه سعَة، كما ينبغي أن لا يضيِّق المرءُ على نفسه في وقتٍ يخصّصه للطواف مثلاً فيزاحم ويشاغب، وقد جعل الله له فسحةً في الوقت ليتخيّر أيسرَه وأرفقه، وقولوا مثلَ ذلك في الهدي وفي الرمي ونحوهما.

تنبيهات للمرشدين والمفتين

كما أنَّه ينبغي للمفتين والمرشدين في الحجّ أن لا يعسِّروا على الناس بفتاوى لم يصحَّ الدليل فيها، أو بفهم شخصيّ للمسألة دون دليل يجب الرجوع إليه، أو أن يتَّوسَّعوا في فتاوى ليس لهم فيها سعَة، أو أن يستقلّ بعضُهم برأي أو فتيا تتعلّق بمصير كثير من الحجاج دون تروٍّ أو مراعاة لنصوص الشريعة، وبدون مشورةٍ عامة لأهل العلم، لا سيما في موسم الحج لئلا يحدث الخلل بين الحجيج، ويقعوا في التذبذب بين الفتاوى والآراء، فالمفتون مسؤولون أمام الله على فتاواهم، وقد قال النبي ﷺ: «من أُفتي له بغير علم كان إثمه على من أفتاه» رواه أبو داود[١١].

وإنَّ من الأخطاء المشهورة بين بعض المرشدين عدمَ التفريق بين الدم في ترك الواجب وبين التخيير في فدية الأذى أي: في ارتكاب محظور من محظورات الإحرام عدا الجماع، حيث يفتي بعضهم في الجميع بالدم، وهذا خطأ بيّن، فإن الحاجَّ إذا ارتكبَ محظوراً عدا الجماع فإنه مخيّر بين أن يذبح شاةً أو يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين بنصّ حديث النبي ﷺ. وأما إيجابُ الدم استقلالاً فإنما هو في حق من ترك واجباً من واجبات الحج كترك المبيت بمنى أو ترك رمي الجمار ونحو ذلك كما قرره جمهور أهل العلم.

تقبل الله من الحجاج حجَّهم، ويسّر نسكهم. والحمد لله رب العالمين.

١- أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/٤١١)، وقواه الألباني في مناسك الحج (٣٨).
٢- أخرجه مسلم في البر (٢٥٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٣- أخرجه مسلم في البر (٢٥٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
٤- أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنهما.
٥- أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٦- أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنهما.
٧- أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
٨- أخرجه البخاري في العلم (٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٠٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
٩- أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنهما.
١٠- أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٣٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وهو أيضا عند مسلم في الأشربة (١٧٣٣).
١١- أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣١٠٥).

صاحب الخُلُق العظيم



الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه.

أما بعد: فيا أيها المسلمون، أوصيكم ونفسي بتقوى الله جل وعلا.

معاشرَ المسلمين، إنَّ في تاريخ العظَماء لخَبرًا، وإنَّ في أحوالِ النُبَلاء لَمُدكرا، وإنّه ليحلو الحديث ويطيب الكلام حينما يكون عن الشمائلِ المحمديةِ والحياة النبويّة والسيرة الزّكيّة لخيرِ البشرية. كيف لا يحلو الحديثُ عن رسولٍ منَحَه ربُّه من الشمائل أحسنَها وأبهاها، ومِنَ الفضائل أسماها وأرضَاهَا، ومِن محاسنِ الأخلاق أعلاهَا وأزكاها، ومن الآدابِ أشرَفها وأكرَمَها، ومن الخصالِ الحميدة أتمَّها وأكملَها؟! فربنا جلّ وعلا يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]. روى أحمد أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنما بعِثتُ لأتمِّم مكارمَ الأخلاق».

نبيٌّ وصفَه ربُّه جلّ وعلا بقولِه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، قال المفسرون: «رحمة للجنِّ والإنس ولجميع الخلق». روى أحمد أنّ رسولَ الله ﷺ وقفَ عند بعيرٍ وقال: «أينَ صاحبُ البعير؟» فجاء فقال: «بعْنِيه»، قال: بل أهبُه، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّه شكَا كثرةَ العمل وقِلّةَ العلَف، فأحسنوا إليه» رواه أحمد.

كيف لا يكون رَحيمًا وقد أحسنَ برحمته حتى الجمَاد، ففي قصةِ جذعِ النخلة الذي كانَ يتّكئُ عليه وهو يخطب أنَّ الجذعَ حَنَّ لرسولِ الله ﷺ لمَّا تركَه، قال الرّاوي: حَنَّ ذلك الجذعُ حتى سمِعنا حنينه، فوضع رسولُ الله ﷺ يدَه عليه فسكَنَ، وفي روايةٍ: أنّه لما حنَّ احتضَنَه ﷺ وقال: «لو لم أحضِنه لحنَّ إلى يوم القيامة» رواه الدارمي.

نبيٌّ بعثه الله بشيرًا بالخيراتِ والمسرّات، ونذيرًا عن الشرور والموبقات، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]. له الخصائصُ الجليلة التي تتّفق مع مكانتِه العظمى عند ربِّه ومنزلته العُليا عند خالقِه، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]. يأمُر بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، وينهى عن القبائح والموبقات، فوصفه ربُّه بقولِه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. روى البخاريّ عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدَ الله بنَ عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ، قال: أجَل، والله إنَّه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفته في القرآن: (يا أيّها النبيّ، إنّا أرسلناك شاهدًا ومبشّرًا ونذيرًا وحِرزًا للأمّيّين، أنت عبدِي ورَسولي، سميتُك المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخّابٍ في الأسواق، ولا يدفَع بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفِر، ولن يقبِضَه الله حتى يقيمَ به الملّةَ العوجاء، بأن يقولوا: لا إلهَ إلا الله، ويفتح به أعيُنًا عُميًا وآذانًا صُمًا وقلوبًا غُلفًا).

حازَ خِصال الكمالِ في الأنبياءِ كلِّهم واجتمَعت فيه، وتخلّق بجميع أخلاقهم ومحاسنِهم وآدابهم حتّى صارَ ﷺ أكملَ الناس وأجملَهم وأعلاهم قدرًا وأعظمَهم محلاً وأتمَّهم حُسنًا وفضلاً. جمع محاسنَ البشرية كلَّها، واتّصف بالبرِّ الشامِل والرّقق الكامِل. روَى البيهقيّ وأبو نُعيم والطّبراني عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قامَ النبيّ ﷺ فقال: «أتاني جبريلُ فقال: قلّبتُ مشارقَ الأرض ومغاربها فلم أرَ رجُلاً أفضَل من محمّد»، وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «أُتِيَ بالبراق لَيلةَ أسريَ بي، فاستُصعِبَ عليه، فقالَ جبريل: أبِمحمّدٍ تفعل هذا؟! فما ركِبَك أحدٌ أكرم على الله من محمّد».

رسولٌ هو أفضَل الخَلق خَلقًا وخُلقًا، أدّبه ربُّه فأحسن تأديبه، وآواه فهَداه، وأعلى ذكره، فقال جل وعلا: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾. {يصِف جعفر بنُ أبي طالبٍ النبيَّ ﷺ أمام النجاشيّ فيقول: (أيّها الملِك، كنّا في جاهليّة؛ نعبُد الأصنام، ونأكُل الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوارَ، يأكُل القويّ منّا الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعَث الله إلينا رَسولاً نعرِف نَسَبَه وأمانَتَه وعَفافَه، فدعا إلى الله لنوحِّده ونعبدَه ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونِه من الحجارة والأوثان، يأمُرنا بصدقِ الحديث وأداءِ الأمانة وصِلَة الأرحام وحُسن الجوار والكفِّ عن المحارم والدِّماء، وينهانا عن الفواحش وقولِ الزور) إلى آخر قوله.

هو ﷺ أجودُ الناس وأكرمُهم وأسخَاهُم عطاءً، يعطِي عطاءَ من لا يخشى الفقر، زهِد في هذه الدنيا زُهدًا لا نظيرَ له ولا مثيل، يمرّ الشهر والشهران وما أُوقِد في أبياتِه نارٌ، إنما عيشُه الماء والتّمر، متواضعٌ،

وهجمة ذوي الحقد الذميم

متقشِّفٌ، يدخل عليه الفاروق يومًا فيجده ﷺ جالسًا على حصيرٍ عليه إزارٌ ليس عليه غيرُه، وقد أثَّر في جنبه، ويرى قليلاً من الشعير في مسكنِه، فيبكي عمر، فيسأله النبيُّ ﷺ عن سببِ بُكائه فيقول: يا نبيَّ الله، ما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثَّر في جنبك، وهذه خزانتُك لا أرى فيها إلاَّ ما أرى من الشعير، وذاك كِسرى وقيصَر في الثمار والأنهار، وأنت نبيُّ الله وصفوته، وهذه خزانتك؟! فقالَ النبي ﷺ: «أمَا ترضى أن تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدنيا؟!».

كرامتُه للإنسان بلَغت مبلغًا عظيمًا وشأنًا كَبيرًا، قال أنس: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشرَ سِنين ما قال لي: أفّ قط، وما قال لشيء صنعتُه: لم صنعته؟ ولا لشيءٍ تركتُه: لم تركتَه. يقِف للصَّغيرِ والكبيرِ والذَّكر والأنثى حتى يسمعَ كلامَه ويَعرض مسألته ويقضي حاجته، يزور المرضى ويخالِط الفقراء ويصادِق المساكين، بعيدٌ عن التكبّر والتفاخر والتباهي، قالت عائشة: كان ﷺ يخصِف نعلَه ويخيط ثوبَه ويعمَل بيَده كما يعمَل أحدُكم في بيته وكان بَشرًا من البَشَر، يفلِي ثوبَه ويحلب شاتَه ويخدم نفسه، وتقول أيضًا: ما عَاب رسول ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكلَه وإن لم يشتهِه سكَت، وما ضرَب رسول الله ﷺ شيئًا قطّ بيَدِه ولا امرأةً ولا خادِمَه إلا أن يجاهِدَ في سبيل الله، وما نيل منه شيءٌ قطّ فينتقم من صاحبِه إلا أن يُنتهَك شيء من محارم الله فينتقم لله.

عَطوفٌ على الأطفال والصغار، يسلِّم عليهم ويقبِّلهم ويحمِلهم ويداعِبهم ويلاطِفهم، ويقول: «من لا يرحم لا يُرحم». محبٌّ للتيسير والتسهيل والسماحة، وما خُيِّر بَين أمرَين إلا اختَار أيسرَهما ما لم يكن إثمًا. مَشهورٌ بالحياء، قال أبو سعيد الخدريّ: كان ﷺ أشدَّ حياءً مِنَ العذراء في خِدرِها، وكان إذا كرِه شيئًا عَرفنَاه في وجهه.

بعيدٌ - هو بأبي وأمي - عن الفحش والتفحُّش، يقول عبد الله بن عمرو: إنّ النبي ﷺ لم يكن فاحِشًا ولا متفحِّشًا، ويقول: قال ﷺ: «إنَّ مِن خياركم أحاسِنَكم أخلاقًا». ولما قيل له: يا رسول الله، ادعُ على المشركين قال: «إني لم أُبعَث لَعّانًا، وإنما بُعثتُ رحمة». ويقول: «إنَّ الله رفيق يحبّ الرفقَ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه». لا يقِرُّ الظلمَ ولا يرضَى به، ويقول: «إنَّ الله يعذِّب الذين يعذِّبون الناسَ في الدنيا». وما أحسنَ قولَ القائل فيه ﷺ:

أنصفتَ أهلَ الفقرِ من أهلِ الغِنى
فالكل فِي حقِّ الحَياة سواء

لفضيلة الشيخ
حسين بن عبد العزيز آل الشيخ
إمام المسجد النبوي

يعِين أصحابَه، ويمازحهم بحقٍّ، ويربِّيهم على أحسن السَّجايَا وأكرم الطبائع. كانَ في سَفرةٍ واتَّفق أصحابه على طَبخ شاةٍ، فقال له أحدُهم: عليَّ ذبحها، وقال الآخر: عليَّ سلخُها، وقال الآخر: عليَّ طَبخها، فقال هو ﷺ: «وعليَّ جمعُ الحطَب»، فقالوا: نحن نكفيك يا رسول الله، قال: «قد علمتُ أنكم تكفوني، ولكن أكرَه أن أتميَّز عليكم»، فقام بجمع الحطب.

كانت أخلاقُه طبعًا لا تطبُّعًا، وسلوكًا لا يعرِف زمانًا دونَ زمان ومكانًا دون مكان وغنيًا دون فقير وكبيرًا دون صغير ورئيسًا دون مرؤوس، فهو ﷺ رحمة لا تجارَى وإحسان لا يُبارَى وعطفٌ لا ينتهي أمده ولا ينقطع عطاؤه، قال حسان:

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلى اسْمِه
إذَا ما قال في الخمسِ المؤذِّن أشهدُ
وشقَّ له من اسمِه ليُجلَّه
فذو العرش محمودٌ وهذا محمّدُ

وقال أيضًا:

نبيٌّ أتانا بعد يأسٍ وفَترةٍ
من الرسل والأوثان في الأرض تعبدُ
فأمسى سراجًا مستنيرًا وهَاديًا
يَلوح كما يلوح الصقيل المُهنَّدُ

ويقول كعب في بُردته:

أُنْبِئتُ أنَّ رسولَ الله أوعَدَني
والعفوُ عِند رسولِ الله مأمولُ

إلى أن قالَ:

إنَّ الرسول لنورٌ يستضاء به
مهنَّد من سيوفِ الله مسلولُ

هذه كَلِماتٌ موجزة ومعانٍ مقتَضَبةٌ، وهي [غيضٌ من فيض] مِن صفاتِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي ارتَضاه خالق البشَر ليكونَ خاتمًا لرسلِه ونبيًا لكافّة خلقه، فاصطفَاه واجتباه وخصَّه بالخصائص الكبرى والصِّفات العظمى. وفي تفاصيل سيرتِه وجزئيّات

حياته وهديه من الخصائص الأخلاقية والسمات الأدبية ما تسابق العلماء إلى كتابته وتسطيره، وتنافست الأقلامُ في ذِكره وتعداده، وتبارت الأفكار في عرضه وإيضاحه؛ حتى أصبح بحقٍّ مثالاً أعلى للخلق الكريم من جميع وجوهه ولِقِيَم الخير والفضيلة من شتّى جوانبها.

معاشرَ الناس، من أعجَب العجب في عالم اليوم الذي ينادي أهلُه بالحريّة والمساواة واحترام الآخرين أن تنخرطَ جهاتٌ كثيرة بعضُها عن جهلٍ وكثيرٌ منها عن مكرٍ وسوءِ نية وحِقد دفين في الصدور، تنخرط بتهمة الإسلام ونبيِّه العظيم وتصويره بالإرهاب والعنف وسيِّئ الأوصاف في حملةٍ شرسة ضدَّ الإسلام ونبيِّ الإسلام، حملةٌ شرسَة تحمل اتّهامات كاذبةً وتشكيكات باطلة ومثالب ساقطة وتجريحاتٍ وقِحة، حَمَلات تثير زوابعَ منتِنة وتَنفثُ سمومًا متنوّعة. كلّ ذلك وهم يعلمون أنّ ما يزعمونه كذبٌ فاضح وقَلبٌ للحقائق وتحريضٌ على الصِّراع بين الحضارات، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء:٨٩].

ومن هذا المنطلَق ننادي من على منبره ﷺ، ننادي إلى العمل بالإنصاف والحياديّة، ندعو عقلاءَ الإنسانيّة إلى التعرُّف على هذا النبيِّ العظيم؛ ليعلموا أنه نبيٌّ أصلُ دعوته تحريرُ الإنسان من عبوديّة غير الله والإخلاصُ للخالق المعبود وإقامة المثُل العليا والمبادئ العظمى من مبادئ المساواة بين البشر وإرساء مبادئ العدل وتكريم المرأة والكفّ عن كلّ أنواع الظلم والالتزام بمكارم الأخلاق وأفضَل السجايا والدعوة إلى تحقيق الأمن والأمان والعَدل والسلام.

إنّ على عقلاء العالم وحكمائه أن يتبصّروا في الحقائق التاريخيّة؛ ليعلموا أن الإسلام ونبيَّه قد ظلِمَا واتُّهما زورًا وظلمًا وبهتانًا في ظلّ ضَعف المسلمين، فالإسلام لم يكن يومًا مَا وَراء أيّ كارثةٍ من كوارث التاريخ، ومن أقربها لعالم اليوم الحروبُ العالمية التي قُتِل فيها عشراتُ الملايين، لم يكن الإسلامُ سَببًا لجرائم التّمييز العنصريّ التي ثارَت في كثيرٍ من بقاع العالم، والتي لا تخفى على سياسيٍّ ولا عالم اجتماعي، لم يكن الإسلام على علاقةٍ بأيٍّ من الكوارث النوويّة الهائلة التي شهدَها القرن الماضي والحالي، والتي تهدِّد العالم واستقرارَه وأمنه. ولم يكن الإسلام ولا نبيُّه سببًا لما يعانيه العالم في كثيرٍ من بقاعِه من فقر وتخلّفٍ وأمراض، بل إنّ الإسلام وتعاليمَ نبيِّ الإسلام بكلّ ما تضمَّنته من خيراتٍ ورحمة ولين ورفقٍ وإحسان لو تمسّكت بها البشريّةُ حقَّ التمسك لما حصل لها ما حصل من هلاك ودمار وشقاء وظلم وعَناء، بل لحصلَت كلّ خير وسعادةٍ وأمنٍ وسلام، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

معاشر المسلمين، ليَعلَمْ كلُّ ناعقٍ ويستَيقِن كلُّ حاقد أنّ الإسلام قويٌّ قوةَ الجبال الراسيات، لا تهزُّه عبرَ التاريخ حملة عاتيَةٌ تستهدف تشويهَ ضيائه وإطفاءَ نوره، بل لا تزيدُه تلك المكايدُ والدّسائس إلاّ انتشارًا وسَريانا، ولا غروَ في ذلك فسنّةُ الله في هذا الدين في كلّ وقت وحين أنّه منصور محفوظ عزيزٌ، فربّ البشرية يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢]، ورسول الله ﷺ يقول: «ليبلُغَنّ هذا الدينُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ إلاّ أدخله الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل، عزًا يعزّ الله به الإسلام، وذلاً يذلّ به الكفر» رواه أحمد والحاكم والبيهقي.

وليعلَم خفافيش الظلام أنّ الإسلام سيظلّ صامدًا في وجه أي حملة عاتيةٍ تستهدف صفاءَه المتألّق ونوره المشرق، فهناك سرٌّ عظيم يجب أن يدركه الحاقدون وهو أن الإسلام من عند الله، وأنّه رضيَه لخلقه بوابةَ سعادةٍ وإصلاح، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، محفوظٌ بحفظ الله إلى يوم القيامة، ﴿وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

بل العالمُ بأسره وهو يضلّ في متاهات الماديّات وجحيم الحروب وجفافِ الأرواح والقلوب ويحيطُ به الشقاءُ المعنويّ والحسّيّ وتُنذر به أسبابُ الهلاك والدّمار وتعصف به المطامع الدنيويّة والقوة المادية وتتحطّم فيه المبادئ السامية لفي أمسّ الحاجة إلى الرجوع إلى خالقه والرجوع إلى ربّه والاهتداء بهذا النبيِّ الذي ارتضاه خالقُه نبيًا ورسولاً إليه كافّة، رحمةً مهداة ونعمة مجتباة.

والحمد لله رب العالمين

الأقصى بين العدوان المشين والخذلان المهين

لفضيلة الشيخ
عبد الرحمن السديس
إمام الحرم المكي



الحمد لله الأحد الواحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو المستعان على ما نرى ونشاهد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقد عظم البلاء وقلّ المساعد، وحسبنا الله ونعم الوكيل وقد عظم الخطب والكرب زائد، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله أفضل أسوة وأكرم مجاهد، صلى الله عليه وعلى آله أولي المكارم والمحامد، وصحبه السادة الأماجد، والتابعين ومن تبعهم بأحسن السبل وأصح العقائد، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فأوصيكم - عباد الله - ونفسي بتقوى الله تبارك وتعالى، تدرّعوا بها شدةً ورخاءً، سرّاءً وضراءً، واعمروا بها أوقاتكم صباحاً ومساءً، فبها تُدفع المحن والبلايا، والفتن والرزايا، وبها تُبوّأ الجنان عاقبةً وجزاءً.

أيها المسلمون، في ذروة تداعيات الأحداث في الأمة، وفي ظل التهاب الأوضاع في المنطقة، بل وفي خضمّ تفجّر القضايا في العالم، ووسط هذا الصمت العالمي، والتخاذل الدولي، والغليان في الشارع الإسلامي، لا بد من وقفة حازمة، نستقرئ فيها التاريخ، ونتأمل في سنن الله الكونية والشرعية، لتُقوّم من خلالها مسيرةُ الأمة، ونقف طويلاً مع الذات للمحاسبة الدقيقة والمراجعة الشاملة، بمصداقيةٍ وشفافية، ثم الأخذ بزمام المبادرات للعمل الجاد لتحقيق مصالح الأمة أفراداً ومجتمعات، حفاظاً على المكتسبات، وتوطيداً للأمجاد والحضارات، قبل أن يجرفها تيار المتغيرات، وتضمحل في أتُون المستجدّات.

معاشر المسلمين، وللتفاعل الإيجابي مع الحدث، وللعيش مع القضية عن كثب، أستسمحكم - يا رعاكم الله - أن أنتقل بكم نقلة شعورية من هنا حيث المسجد الحرام، حيث تعيشون الأمن والأمان، إلى هناك وما أدراك ما هناك، حيث المسجد الأقصى المبارك، وما يعيشه في هذه الأيام من أوضاع مأساوية، وما نكاته الأحداث الأخيرة من جراحات دموية، لا يسع الغيورين على أحوال أمتهم السكوتُ عليها، والتغاضي عنها، ولله الأمر من قبل ومن بعد. ولعل ذلك الإسراء المشاعري يؤكّد الارتباط الشرعي والتاريخي الوثيق بين هذين المسجدين الشريفين، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

إخوة العقيدة، لم يُبرز التاريخ قضيةً تجلّت فيها ثوابتُنا الشرعية وحقوقنا التاريخية وأمجادنا الحضارية كما برزت فيها الأحقاد الدولية وظهرت فيها المتناقضات العالمية وانكشف فيها حرب المصطلحات وتعرّى فيها بريق الشعارات وسقط القناع عن التلاعب فيها بالوثائق والقرارات كقضية المسلمين الأولى، قضية فلسطين المسلمة المجاهدة الصامدة، والقدس المقدسة، والأقصى المبارك، حيث تشابكت حلقات الكيد في سلاسل المؤامرة،

لتمثل منظومةً شمطاءَ من العداء المعلن، والكره المبطّن، في تآمر رهيب من القوى العالمية، كان من أبرز إفرازاته الخطيرة انخداعُ كثير من بني جلدتنا بخطط أعدائنا، ويتجلى ذلك في إقصاء قضية فلسطين والقدس والأقصى من دائرتها الشرعية ومنظومتها الإسلامية، إلى متاهاتٍ ومستنقعات من الشعارات القومية والإقليمية، والنعرات الحزبية والطائفية، وذلك - لعمرو الحق - بترٌ لها عن قوّتها المحرّكة، وطاقتها الدافعة المؤثرة، حتى تاهت القضية في دهاليز الشعارات، والتواء المسارات، وظلام المفاوضات، ودياجير المساومات، وأنفاق المراوغات، في معايير منتكسة، وموازين منعكسة، ومكاييل مزدوجة، تسوّي بين أصحاب الحقوق المشروعة و[أصحاب] الادعاءات الممنوعة، حتى خُيّل لبعض المنهزمين أن القضية غامضة شائكة، لغياب التأصيل العقدي والشرعي لهذه القضية.

أولسنا أمةً لها مصادرها الشرعية، وثوابتها العقدية، وحقوقها التاريخية؟!

إخوة الإيمان، ماذا يؤكدّ قرآننا وسنة نبينا ﷺ؟! ماذا تقرّر عقيدتنا؟! ماذا يدوّن تأريخنا عن القضية وأطرافها؟! مما يؤكد بجلاء أن الصراع بيننا وبين اليهود صراع عقيدة وهوية ووجود.

ألم نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة:٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]؟!

اقرؤوا التاريخ لتدركوا أن يهود الأمس سلف سيئ، ويهودَ اليوم خلف أسوأ، كفّارُ النعم، ومحرّفو الكلم، عُبّاد العجل، قتلة الأنبياء، مكذّبو الرسالات، خصوم الدعوات، شُذّاذ الآفاق، حثالة البشرية، مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ [المائدة:٦٠].

هؤلاء هم اليهود، سلسلةٌ متصلة من اللؤم والمكر والعناد، والبغي والشر والفساد، وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [المائدة:٦٤].

حلقات من الغدر والكيد، والخسة والدناءة، تطاولوا على مقام الربوبية والألوهية، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾ [آل عمران:١٨١]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة:٦٤]، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

لقد رموا الرسل بالعظائم، واتهموهم بالشناعات والجرائم، آذوا موسى، وكفروا بعيسى، وقتلوا زكريا ويحيا، وحاولوا قتل محمد ﷺ، عملوا له السحر، ودسّوا له السمّ، بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

أمة الإسلام، واليوم تواجه الأمة الصراع على أشدّه مع أعداء الأمس واليوم والغد، مع أحفاد بني قريظة والنضير وقينقاع، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. فهل يعي بنو قومنا حقيقةَ أمةِ الغضب والضلال بعد أن تفاقم شرهم وتطاير شررهم وطفح بالعدوان كيلهم؟! فالصراع أخذ يتفجّر ويتعاظم، والاستغلال والأطماع تزداد وتتفاقم، والتمادي في الاستخفاف بالعرب والمسلمين ومقدساتهم بلغ أوج خطورته من جرذان العالم، نقضةِ العهود والمواثيق، مَنْ عشّش الغدر والتخريب والمكر في عقولهم، وسرى الظلم والطغيان في عروقهم، فأبوا إلا الصَلَف والرعونة والفساد والأذى، فاستحقوا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

لما جنحت الأمةُ للسلم تحقيقاً للمصالح الكبرى ودرءاً للمفاسد العظمى لم يجنحوا لها. ولا عجب، فهو سلام مع جهة لا يرضيها إلا تصفية الخصم، واستلاب أرضه، وتشريد أهله،

والعبث باقتصاده، وإلغاء كرامته، وانتقاص سيادته، وتقطيع أوصاله، وتناثر أشلائه.

ألا فلتعلم الأمة أن هؤلاء القوم قومٌ تاريخهم مقبوح، وسجلهم بالسواد مكلوح، ولن يرضوا إلا بتحقيق أطماعهم، لا بلّغهم الله مرادهم.

يريدون إقامة دولة إسرائيل الكبرى، وأن تكون القدس عاصمةً لها، كما يطمحون ويطمعون إلى هدم المسجد الأقصى، وبناء هيكلهم المزعوم على أساسه، يريدون إبادة دولة التوحيد والقرآن، وإشادة دولة التوراة والتلمود على أنقاضها، عليهم من الله ما يستحقون. فعلى مبادرات السلام السلام، مع قومٍ هذا ديدنهم عبر التاريخ، وتلك أطماعهم ومؤامراتهم.

ولعل ما حدث على الساحة الفلسطينية من مشاهد مرعبة ومآسي مروِّعة حيث المجازر والمجنزرات، والقذائف والدبابات، جُثثٌ وجماجم، حصار وتشريد، تقتيلٌ ودمار، في حرب إبادة بشعة، وانتهاك صارخ للقيم الإنسانية، وممارسة إرهاب الدولة الذي تقوم به الصهيونية العالمية، مما لم ولن ينساه التاريخ، بل سيسجله بمداد قاتمة، تسطّرها دماء الأبرياء، الذين رويت الأرض بمسك دمائهم، من إخواننا وأخواتنا على أرض فلسطين المجاهدة، الذين يُذبَحون ذبح الشياه. عشراتُ المساجد دمِّرت، ومئات البيوت هُدِّمت، وآلاف الأنفس أُزهقت، كم نساءٍ أيِّمت، وأطفالٍ يُتِّمت، ومقابر جماعية أقيمت، فإلى متى الذل والمهانة والضعف والهزيمة والاستسلام؟! أما آن لهذا الهوان أن ينتهي، وللضعف والذل أن ينقضي، والليل الطويل أن ينجلي؟! فهل تفيق أمتنا من سباتها؟! نداءٌ حار إلى قادة المسلمين أن أدركوا فلسطين قبل أن تضيع، واعملوا على إنقاذ الأقصى قبل أن يُستقصى.

إن من يشنّ هذه الحرب الضروس ومن يقف وراءها انطلاقاً من فلسفة الإبادة العنصرية لن يفلت من قبضة الجبار جل جلاله، كما لن يسلم من غضب الشعوب، وسخط التاريخ. إنها مأساة يعجز اللسان عن تصويرها، ويخفق الجنان عند عرض أحزانها، ويعيى البيان عن ذكر مآسيها، ويقصر الوصف عن بيان أبعادها وخطورتها، مأساةٌ بكل المقاييس، ومعضلةٌ بكل المعايير، ليس لها من دون الله كاشفة، فرحماك ربنا رحماك، واللهم سلم سلم.

إن هذه الكارثة من أوضح الدلائل على سجية القوم، وما يكنُّونه لأمتنا ومقدّساتنا، إنه لأمر تبكي له العيون دماً، يُقتَل الأبرياء العزّل على أيدي سفاحي الصهاينة، ورثة النازية والفاشية، فأيُّ حقٍّ لهم في فلسطين؟! الأرضِ العربية الإسلامية التاريخية إلى قيام الساعة، التي تبوّأت منذ فجر التاريخ مكانتها المرموقة لدى المسلمين، بل هي جزء من ثوابتهم، وأمانة في أعناقهم، ولن يفرّطوا بشبر من أرضها - بإذن الله - ما دام فيهم عرق ينبض، وإن الحق الذي يدعيه يهود في فلسطين خرافةٌ لا سند لها، وصلافةٌ لا مبرِّر لها، لقد مضى أكثر من خمسة عقود من الزمان على قضية المسلمين الكبرى، والمأساة تتجدد يوماً بعد آخر، فأين المسلمون؟!

إني أنادي والرياح عصيبة
والأرض جمرٌ والديار ضِرام
يا ألف مليون ألا من سامع؟!
هل من مجيب أيها الأقوام؟!
قد بُحّ صوتي من نداكِ أمتي
هلا فتًى شاكي السلاح هُمام؟!

لقد نكأت الأوضاع المستجدة الجراح، فأين منا خالد والمثنّى وصلاح؟! يا ويح أمتِنا ماذا أصابها؟! أيطيب لنا عيش، ويهدأ لنا بال، ويرقأ لنا دمع، ومقدساتنا تئنّ، وقدسُنا تستنجد، وفلسطيننا تنادي، والأقصى يستصرخ قائلاً:

كلُّ المساجـــد طُهِّـرت
وأنا على شـــرفي أُدنَّس؟!

كل ذلك يحدث على مسمع من العالم ومرآه، وكأن المسلمين لا بواكي لهم، أين العالم بهيئاته ومنظماته؟! أين مجلس أمنهم وهيئة أممهم؟! أين هم من بكاء الثكالى، وصراخ اليتامى، وأنين الأرامل، واغتصاب الأرض، وتدنيس العرض؟! أين شعارات ومنظمات حقوق الإنسان الزائفة؟! ماذا يردّ الضمير العالمي؟! وأين هي المقاطعات السياسية والاقتصادية على مجرمي الحرب والمستهترين بالأعراف الدولية والقرارات العالمية؟!

يا صناع القرار، يا قادة العالم، يا أصحاب الرأي، يا من تدّعون محاربة الإرهاب، ماذا تسمون ما فعله هؤلاء المجرمون بالمسلمين في فلسطين؟! وسيرجع إليك الطرف خاسئاً وهو حسير، حينما يتّهمون أصحاب الحق المشروع المقاومين للظلم والبغي والاحتلال بالإرهابيين، فهل تطلُّعات أكثر من مليار من المسلمين في الحفاظ على مقدساتهم تُعدُّ وحشية وإرهابا؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

أيها الإخوة المرابطون على أرض فلسطين المجاهدة الصامدة، أرض العز والشموخ والفداء، والتضحية والجهاد والإباء، يا أهلنا في الأرض المباركة فلسطين، يا أحبتنا في أرض الإسراء والمعراج، عُذراً إن وجدتم من كثير من أبناء أمتكم التخاذل والتثاقل، لكم أرّقنا أنّ أقصانا أسير بأيدي البغاة الطغاة العتاة، فما يُذكر الأقصى - أقر الله الأعين بفكّ أسره وقرب تحريره - إلا وتعتصر قلوبُنا حسرةً وأسى على ما جرى له ويجري، مما فطّر الأكباد، وأدمى القلوب، فصبراً صبراً أيها المرابطون.

لقد أعددتم الأمل في النفوس، فثِقوا بنصر الله لكم، متى ما نصرتم دينه، ﴿إِن تَنصُرُواْ اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]. قلوبنا معكم، والله ناصركم، والمال نبذله، فواصلوا دربكم، واستنهضوا الهمما. هنيئاً لكم تقديمُ الأرواح رخيصةً في سبيل الله، ودعاؤنا أن يتقبل الله قتلاكم شهداء، وأن يكتب لمرضاكم عاجل الشفاء، وأن يحيينا وإياكم حياة السعداء. لا تيأسوا من روح الله، فالنصر قادم بإذن الله، ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

لا بد من الجدِّ في مسالك الإصلاح، والاستيقاظ من الغفلة والتغفيل، وبعث الوعي العميق والتأصيل الوثيق بخطىً مؤصلة، ومنهجية مدروسة، تواجه دسائس اليهود، بكل حزم وحكمة.

أمةَ الجهاد والفداء، إن واجب المسلمين الوقوف مع إخوانهم في العقيدة في فلسطين وغيرها، ودعمهم مادياً وعينياً ومعنوياً، والإنفاق في سبيل الله، فالجهاد بالمال مقدَّمٌ على الجهاد بالنفس في كثير من آي الكتاب وسنة النبي الأواب كما لا يخفى على أولي الألباب، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ × تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١]، وقال ﷺ: «جاهدوا المشركين بألسنتكم وأموالكم وأنفسكم» خرجه مسلم في صحيحه[١].

والمسلم الحق لا يتردد في البذل والعطاء في مواطن الجهاد والفداء، ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُم﴾ [محمد:٣٨].

أيها الأحبة في الله، ألا وإن مما يبعث على التفاؤل هذا التفاعل الإسلامي، والتعاطف الإيماني، والترابط الأخوي الشعبي والرسمي لأمتنا الإسلامية مع إخوانهم المسلمين هناك، مع ما يؤمَّل من بذل المزيد في نصرة الحق وأهله،

وردع الظلم وأهله، فهنيئاً لهذه البلاد المباركة مبادراتها الإيجابية العملية البناءة، ولا غرو فلها القدح المعلّى والدور المجلّى في نصرة قضايا المسلمين ووقوفها معهم، لا سيما عند الكوارث؛ تشدّ أزرهم، وتضمّد جراحهم، انطلاقاً من واجبها الإسلامي في كونها قبلة المسلمين، ومحطّ أنظارهم، ولقد كانت قضية فلسطين إحدى ثوابت سياستها الخارجية، في مؤازرة شتى قضايا أمتنا الإسلامية، جعله الله في موازينها، وزادها من الخير والهدى والتوفيق بمنه وكرمه.

والدعوة موجهة إلى المسلمين جميعاً في دعم هذه الحملات الخيرية المباركة، لنكون يداً واحدة تسبق أفعالُنا أقوالَنا في نصرة الإسلام والمسلمين، والدفاع عن مقدساتنا، وعدم التفريط بأيٍّ من ثوابتنا العقدية والشرعية وحقوقنا التاريخية مهما كلفنا ذلك من ثمن، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، والذلة الصغار على أعداء الإسلام والمسلمين من اليهود والوثنيين وسائر المفسدين، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

واجب الأمة في المرحلة الحالية

أيها الإخوة في الله، لعلّ اللبنة الأولى في مواجهة هذا الصراع مع العدو الصهيوني الغاشم هي العودة إلى الذات، إصلاحُ بناء الأمة من الداخل، اعتصامُها بحبل الله وسنة رسوله ﷺ، والوقوفُ صفاً واحداً أمام العدو المتربّص، والتفطّنُ للعدو من الصديق، في الوقت الذي تواجه فيه الأمة ألواناً من التحديات، يتولى كبرها والتخطيط لها حكام صهيون، وأذنابهم وأفراخهم، في حروبٍ معلنة وخفية، حتى بلغوا مبلغاً خطيراً، أنجبت هذه المخططات نوابتَ في بلاد المسلمين، ترفض الشريعة، وتعبث بالأخلاق والقيم، سُخِّرت أقلامٌ وأفلام ووسائل إعلام لخدمة هذه المخططات الآثمة، وفي الأمة من لا يزال سادراً في غيّه وضلاله، يُثبّط ويُخذّل، ولا تمثّل عنده مقدسات الأمة شيئاً، لا تثير فيه عاطفةً إسلامية، يرى الأقصى كأيّ مبنى آخر، في وجه علمانيٍّ كالح، وآخرون في الأمة أشتاتٌ متنافرون، لعبت بهم الفرقة والخلافات والأهواء، واكتوت قلوبهم بالحسد والبغضاء، والتباغض والشحناء، وأشغل كثير منهم بالبدع والمحدثات، ولربما تشاءموا من بعض الشهور والأيام، وذوي العاهات والأسقام.

إنها دعوة للأمة إلى أنه لا يستردُّ مجدٌ ولا يُطلب نصرٌ إلا بالسير على خُطى سلف هذه الأمة، فليس يصلُح آخرُ هذه الأمة إلا بما صلَح به أولها، وإن التفريط في الثوابت ودخول النقص على الأفراد والمجتمعات في عقيدتها وقيمها وأخلاقها وفضائلها سببٌ لحلول الهزائم في الأمم، والانتكاسات في الشعوب والمجتمعات، فلن يُحرِّر الأقصى إلا بالقيام بما أمر الله به ووصى، ولن تُستردَّ المقدسات إلا برعاية العقيدة والشريعة والمكرمات، في محافظةٍ على سياج الفضائل، ومجانبةٍ للشرور والرذائل، في محافظةٍ على قيم أبناء المسلمين وفتياتهم، ومجانبَتهم دسائسَ اليهود، ومسالك الشر والفساد، والسفور والتبرج والاختلاط.

والله المسؤول أن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، وأن يهيِّئ لهم من أمرهم رشدا، إنه جواد كريم، ألا قد بلّغت، اللهم فاشهد.

والحمد لله رب العالمين.

الصورة المضيئة لسلف الأمة

الحمد للهِ مَلأ قلوبَ المؤمنين إيمانًا، أحمده سبحانَه وأشكرُه على ما أنعمَ وأعطى فضلاً منه وإحسانًا، وأشهَد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تبلِّغ الزلفى لدَيه جنَّة ورِضوانًا، وأشهد أن سيِّدنا ونبيَّنا محمّدًا عبد الله ورسوله أنزل عليه الكتاب معجزةً وحجّة وبرهانًا، صلّى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الرحماء بينَهم كانوا على الحقِّ أنصارًا وأعوانًا، ونزع ما في صدورِهم من غلٍّ فكانوا إخوانًا، والتّابعين ومَن تبِعَهم بإحسانٍ فاستقامَ دينًا وأعلى شانًا، وسلّم تسليمًا كثيرًا.



سوء الأحوال في كثير من بلاد الإسلام

أيّها المسلِمون، إنَّ ما تشهَدُه ساحَةُ المسلمين اليومَ يُسرّ العدوَّ ويحزن الصديق، ويفرح مبتغِي شقاءِ الأمّةِ وفُرقَتها، يسوء محبَّ الدينِ والقرآن ونبيِّ الإسلام محمّدٍ ﷺ والأئمّةِ المهديِّين وآلِ البيت الطاهرين والصَّحبِ الأكرمين والمتَّبعين بإحسان. إنَّ ما يجري مصيبةٌ عُظمى في الأمّة ومجدِها وناصِع تاريخها وصادِقِ فتوحاتها وسِيَر أئمّتها وخلفائها ورجالاتِها وعوامِلِ بنائها واجتماعِها. إن استِمزاجَ ذلك وقبولَه والسماحَ به ناهيكم بالتمكينِ له كلُّ ذلك إعانة وخيانةٌ ومسلَك عدائيّ لا تصلح به دنيا ولا يقوم به دينٌ. إنَّ وحدة المسلمين لا تقوم على التحريش والتحريض واستدعاء المثالِب لطرفٍ وإبرازِ المناقبِ لآخر والانكفاء على العصبيّة والرموزِ المذهبية والنّعَرات الطائفيّة. إنَّ ذلكم - وربِّكم - هو قاصمةُ الظهر، وهو الذي يَنبذ الأمّةَ خارجَ التاريخ.

عبادَ الله، يا أمّةَ محمّد، يجب التفكير الجادُّ الصادق الأمين دينيًا وفكريًا وسياسيًا وأمنيًا،فلا يستهينُ عالم ولا مفكّرٌ ولا سياسيٌ ولا صاحب رأيٍ أو قلم، لا يستهين بهذه الألغام الخطِرَة المدمِّرة التي إن لم تحاصَر وتُكبَت فإنها - والله - ستجعَل الأمّةَ شَذَرَ مَذر، وسوف تعيش في ظلام دامِس ومستقبلٍ أشدّ ظلامًا في الدين والدنيا إلاّ أن يرحمَنا الله.

استفادة العدو من خلافات المسلمين

إنَّ العدوَّ الخارجيَّ والغازيَ الأجنبيَّ لم يوجِد الخلافَ في الأمّة، ولكنّه وجَد فيه أرضًا خصبةً ليزرعَ مكرَه وكيده؛ فيمزِّق الأمّةَ ويفتّت القوّة ويستبدَّ بالسيطرة.

إنَّ نجاح العدو في استثمارِ الخلاف ليس لشدّة ذكائه وعظَم دهائه فحسب، ولكنَ لتقصير الأمّة، وقد يكون لعِظَم غفلَتِها وسذاجتها، وأخشى أن أقول: لضعفِ دينها وقِلّة أمانتها. فحذارِ - رحمكم الله - ثم حَذارِ أن تُزَجَّ الأمّةُ في الزّلزال الطائفيّ والبركان المذهبيّ، يجبُ الإصرارُ ثم الإصرار على نهج الوَحدة والعيش الجماعي والتعايش السلميّ وأمن ديار الإسلام والحفاظ على بَيضَة المسلمين وعَدم التّمكين للعدوِّ المتربِّص. نعم ثم نَعَم، إنَّ هناك سلَبيّاتٍ وعوائقَ ونكساتٍ تعتَرِض المسيرةَ، غيرَ أنَّ وجودَها أمرٌ طبيعيّ لتأثيراتِ التاريخ وسلبيّاتِ التّراث عند مختلفِ الأطراف والفِئاتِ والمذاهبِ والطّوائف.

المناظير السوداء لا ترى إلا كل ما أحزن وأساء

إنَّ مِن الخذلان والخيانةِ أن لا ينظرَ طالبُ علم أو مثقّف أو مشتغِل بتاريخ الفرَقِ والمذاهب في أهلِ الإسلام أن لا ينظُرَ هؤلاء إلاّ إلى بعض صُوَر المظالم والتقاتُل والمثالبِ والنقائص، كيف إذا كان مثلُ هذا الاشتغالِ والنظَر يتوجّه إلى تاريخ صدرِ الإسلام وسِيَر السابقين الأولين من المهاجرينَ والأنصار وتابعيهم بإحسانٍ والأئمةِ والخلفاء ممّن رضيَ الله عنهم ورَضوا عنه؟! كيف وقد قالَتِ الحكماء: من تلمّس عيبًا وجدَه، ومن اشتغَل بعيوبِ الآخَرين هلَك وأهلَك؟! كيف إذا كانَت عيوبَ نُبَلاء وعَثَراتِ كِرام وأخطاءً هي من طبائع البشر والأمَم والسياسَات؟! كيف وقد نزَعَ الله ما في صدورِهم من غلٍّ وألّف بين قلوبهم؟!

الحضارة والرقي العقلي في نبذ الأساطير والخرافات

معاشرَ الأحبة، إنَّ من النُّصح للأمّة والصّدق في جمع الكلِمَة من العالمِ المؤمنِ والمفكّر الناصح والمحبِّ للدّين والأمّة وللمُصطفى وأهلِه وأصحابه إعادةَ

(تذكير للروافض، وتحذير لأهل الخلاف والتباغض)

لفضيلة الشيخ
صالح بن عبد الله بن حميد
إمام الحرم المكي

النظر في رواياتِ التكفيرِ والتحريفِ والسبِّ والطعن وروايات الغلوّ والشطح والانحراف والتراث الأسطوريّ الخرافي الذي تعجُّ به كتب الغلاة والمتعصّبين وأشباههم؛ ممّا يستدعي محاولةً جادّة لاستبعادِ ذلكَ الركام الأسود الذي يدعو إلى سبِّ الصحابة والنيل من القرابه واحتقار التاريخ المجيد والمسيرة المضيئة لدينا ورجالاتنا وأئمّتنا وخلفائنا وفتوحاتنا. يجبُ ردُّ وصدّ الروايات المدسوسة والبدع المنكرة المفضوحة التي لم يكن هدفُ واضعها ولا غرضُ مقترفها إلاّ هدمَ الدّين والعقيدةِ ونشرَ الفُرقة والتناحُر بين المسلمين.

الصفحات المشرقة

في مقابل ذلك يجب التوجُّه نحوَ عرض الحقِّ المشرق الصحيح الثابتِ لمجتمع الصحابة والقرابة ومن تبعهم بإحسان، ففي كُتُبنا جميعًا رواياتٌ صحيحة مُضيئةٌ يثبتُها النّقل ويصدّقها العقل ويألفُها الحسُّ المؤمن والذّوق الطيّب النصوح وتتّفق مع آي القرآن الكريم وهدي محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلّم وهدايته وتوجيهه وسيرته.

صورة قبيحة متناقضة

أيّها المسلمون، وإنّ من العجَب العُجاب وما يدفعُ الرّيبَ والارتياب، ويسرُّ الصديقَ ويؤكّدُه منهج التّحقيق أن الناظرَ والباحث كلما تقدّم متوغّلاً في القِدَم راجعًا إلى عصور الإسلام الأولى يجدُ التطابُقَ والتّماثُلَ والتوادَّ والتحابُب من آل بيت رسول الله ﷺ وصحابة رسول الله ﷺ، وكلّما تأخّر بالأمة الزّمنُ بدَت السنةُ الدخانَ ومَناطقُ الظّلام وصُوَر التشويش والتحريش ومظاهرُ العنف الفكريّ والتعصّب المذهبيّ والطائفيّ.

نماذج من الصور المشرقة لسلف الأمة

يا أحبابَ القرابة والأصحاب، وهذا إيرادٌ لنماذجَ يبتهج معها قلبُ المؤمن ويأنس بذكرها محبُّ الدين وتقرُّ بها عينُ المشفق على الأمّة. نهجٌ إيمانيّ سارَت عليه تلكُم المواكب الإيمانيّة الخيّرة والقدواتُ الحسنةُ من الصحب والقربى، فليس في قلوبهم ولا في صدورهم غِلّ، بل كانوا على الحقّ والخير إخوانًا وأعوانًا.

هذا أبو بكر يقول لعليٍّ رضي الله عنهم جميعًا: (والذي نفسي بيده، لقرابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصلَ من قرابتي)، ويقول: (ارقُبوا محمّدًا ﷺ في أهل بيتِه)، ويقول: (أفتِنا يا أبا الحسَن). ثم انظروا إلى هذه الصورةِ الحميمةِ الرقيقةِ، فقد صلّى أبو بكر رضي الله عنه العصرَ ثم خرج يمشي، فرأى الحسَنَ يلعَب مع الصبيان، فحمَلَه على عاتقه وأخذَ يرتجل:

بأبي شبيهٌ بالنّبيِّ
ليس شبيهًا بعليٍّ

وعليٌّ رضي الله عنه معَه يَضحَك.

أمّا عمرُ رضي الله عنه فهو الذي يقول: (لولا عليٌّ لهلَك عمر، ولا مكان لابن الخطاب في أرضٍ ليس فيها ابن أبي طالب).

وحينما رفع الديوانَ ليوزّع بَيتَ المال بدأ بآلِ بَيت رسول الله ﷺ، وقد ظنَّ الناسَ أنه يبدأ بنفسه، بل قال: (ضَعوا عمرَ حيث وضعَه الله)، فكان نصيبُه في نوبةِ بَني عديّ وهم متأخّرون عن أكثر بطونِ قريش.

أمّا عائشة رضي الله عنها فأصحُّ الطرق في مناقبِ عليٍّ رضي الله عنه كانَ من روايَتها، فقد روَت حديثَ الكساء في فضلِ عليّ وفاطمة والحسَن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، وكانت تحيل السائلين والمستفتين إلى عليٍّ رضي الله عنه، وطلبَت رضيَ الله عنها بعد استشهادِ عُثمان رضي الله عنه أن يلزَمَ الناسُ عليًا؛ فقد سألها عبد الله بن بديل بن وَرقاء الخزاعي: من يبايع؟ فقالت: (الزَم عَليًا رضي الله عنه).

وقالَ رَجلٌ لعبدِ الله بن عمَر رضي الله عنهما: إني لأبغِضُ عليًا، فقال له ابنُ عمَر: (أبغَضَكَ الله، أتُبغِض رجلاً سابقةً من سوابقه خير من الدنيا وما فيها؟!).

هذه بعضُ الدُّرَر المتلألئة من مَعين الصّحب الكرام في عليّ رضي الله عنه وأهل البيت الأئمّة الكرام الأطهار.

أمّا علي رضي الله عنه وآلُ البيت فاسمعوا إلى دُررٍ من درَرِهم في الصّحب الكرام:

عن أبي جُحيفة - وهو الذي كان عليٌّ رضي الله

عنه يسمّيه وَهبَ الخير - قال: قال لي عليٌّ رضي الله عنه: يا أبا جُحيفةَ، ألا أخبرك بأفضل هذه الأمّة بعد نبيِّها؟ قال: فقلت: بلى- قال أبو جحيفةَ: ولم أكن أرَى أنَّ أحَدًا أفضل منه- قال: أفضلُ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر، وبعد أبي بكر عمر، وبعدهما آخر ثالث لم يسمِّه. وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وُضِع عمرُ على سريره - يعني بعد وفاتِه -، فتكنَّفَه النّاس يدعون ويصلّون قبل أن يرفعَ، قال ابن عباس: وأنا فيهم، فلم يَرُعْني إلاّ رَجلٌ آخَذ بمنكبي فإذا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فترحّم على عمر وقال: ما خلّفتُ أحدًا أحبّ إليَّ أن ألقى الله بمثل عَمَله منك، وايمُ اللهِ إن كنتُ لأظنّ أن يجعلَكَ الله مع صاحبَيك، وحَسِبتُ أني كثيرًا أسمع النبيَّ ﷺ يقول: «ذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر» و«دخلتُ أنا وأبو بكر وعمر» و«جِئتُ وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر».

أمّا عائشةُ رضي الله عنها فإنَّ عليًا رضي الله عنه كان يكرمها ويجلُّها ويحفَظ لها مكانها من رسول الله ﷺ، فقد وقَف رجلان على بابِ دارها في البصرة، فقال أحدهما: جُزِيتِ عنّا أمَّنا عقوقًا، وقال الآخَر: يا أمَّنا، توبي فقد أخطأتِ، فبلغ ذلك عليًا رضي الله عنه، فبَعَث القعقاعَ بنَ عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كانَ عليه، فأحالوا على الرّجلين، فضربهما مائةَ سَوط وأخرجهما من ثيابهما.

ويَروي جعفرُ بن محمّد عن أبيه رضي الله عنهم جميعًا قال: لقد رَأى عليّ رضي الله عنه طلحةَ في وادٍ ملقى - يعني بعد حرب -، فنزل فمسَح الترابَ عن وجهه وقال: (عزيزٌ عليَّ - أبا محمّدٌ - أن أراك مجندَلاً، إلى الله أشكو عُجَري وبجَري)، فترحَّم عليه ثم قال: (ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة)، وكان يقول: (إني لأرجو أن أكونَ وطلحةُ والزّبير ممّن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

ولمّا سئِل رضي الله عنه عن أهلِ النّهروان من الخوارج: أمشركون هم؟ قال: هم من الشّرك فرُّوا، قيل: أفمُنَافقون هم؟ قال: إنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما هم يا أمير المؤمنين؟ قال: إخوانُنا بَغَوا علينا.

والموضوعُ ذو شُجون، والحديثُ مُضيءٌ ممتع في كتُبِ الصِّحاح والتّاريخ الثابتِ الموثّق في كتب أهل الإسلام كلِّهم، مَليءٌ بما بين أصحابِ رسول الله ﷺ وأهلِ بيتِه والتابعين بإحسانٍ من مودّة ومحبَّة واعتراف بالفضل متبادَل.

نماذج عملية من الترابط والحب بين السلف

يَا أحبابَ الصّحابةِ والقُربى، ولم يقِف الإعجاب والحبُّ والمودّة عند الأقوال على أهمّيّتها وعظيم أثرها وصِدق مخرَجها، ولكنهم سجّلوا لنا من الأفعال والسلوك ما يُتَغنَّى به في الاقتداء ولزوم الأدب وحُسن الأسوة، فرسولُ الله ﷺ تزوّج عائشةَ وحَفصَة ابنتي أبي بكر وعمر ورَملةَ بنت أبي سُفيان، وعليٌّ تزوّج فاطمةَ بنتَ رَسول الله ﷺ، وعثمانُ تزوّج رقيَّة وأمَّ كلثوم ابنتي رسولِ الله ﷺ، وعليٌّ رضي الله عنه سمَّى ثلاثةً من أبنائه أبا بكرٍ وعمرَ وعثمان، وزوّجَ ابنَتَيه فاطمةَ وأمَّ كلثوم لعمرَ بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين، والحسنُ بن علي سمّى أولاده أبا بكر وعمرَ وطلحة، والحسين سمَّى ولدَه عمر، والحسن تزوّج أمَّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، وتزوّج حفصةَ بنت عبدِ الرّحمن بن أبي بكر، ومعاويةُ بن مروانَ بنِ الحكم الأمويّ تزوّج رَملة بنت عليّ، وعبدُ الرّحمن بنُ عامر بنِ كريز الأموي تزوّج خديجة بنتَ علي.

واستمرّ هذا المسلك الراشدُ إلى أجيال متعاقبةٍ، فهذا الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه وعن آبائه جدُّه لأمّه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأمُّه فَروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمُّ القاسم هي أسماءُ بنتُ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر، ولهذا كان الإمامُ جعفَر يقول: "ولدَني الصِّدِّيق مرّتَين"، وجعفر بن موسى الكاظِمُ رضي الله عنه وعن آبائه سمَّى ابنَتَه عائشةَ.

إنَّ هذه الأجيال المباركةَ في قرون الإسلام المفضّلةِ لم يسمّوا أولادَهم وفلذاتِ أكبادهم لمصالح دنيويّة ولا ابتغاءَ مناصب ومطامعَ، ولكنّهم سموهم بأسمائِهم وصاهَروهم في أنسابهم لأنهم رجالٌ كرام يُقتَدَى بهم، بل كانت المصاهرة والمزاوجةُ مثالاً شامخًا وأنموذجًا يحتذى في سلامةِ الدِّين وصفاءِ القلوب وتلمُّس رضا اللهِ ورضا رسوله ﷺ ورضا أهلِ بيتِه ورضا أصحابه.

نعم والله، إنَّ هذا الترابُطَ والتراحم والتلاحُم الأسريَّ المبارك من آل بيت رسول الله ﷺ ومن الصحابةِ وذرّيّاتهم والتابعين بإحسان نسبًا وصهرًا



كلُّه تجسيد للمودّة وأخوّة الدين واتّباع سُنَن سيّد المرسلين.

وبعد: أيّها المسلمون، فيجب أن تُفجَّر أنهارُ السلسبيل الدّافِق من ثقافةِ التسامُح والقَبول المتبادَل والنظر إلى إيجابياتِ التاريخ والرجال، يجب الزّرعُ والنّشرُ للصّوَرِ الحقيقيّة المشرقة الجامِعة المانِعة، لا أن تُتَتبَّع العثرات والزلاتُ والهفوات التي لا يمكن أن يخلوَ منها بشرٌ أو أمّة أو دولةٌ أو سياسة. هذا إذا كانت ثابتةً واقعة، فكيف إذا كانت مَدسوسةً مكذوبة أو كانت تَفسيرًا لمغرضٍ أو تَأويلاً من صاحبِ هوى أو قليلِ علم أو دين؟!

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

التيارات الفكرية المنحرفة

فيا أيّها الإخوةُ، الشّكوَى من تيّارات ثلاثة: الغلاةُ والجُفاة والغُزاة، فالغُلاة سلَكوا مسالكَ التعصّب والعنف والتكفير والقتل والتفجير، والجفاة يريدون قطعَ الأمّة وبترَها عن دينها وأصولها وأصالتها وثوابتها، أمّا الغُزاةُ فيتّخِذون بين هذَين الفريقين سبيلاً؛ لتمزيق الأمة وهزِّ ثوابتِها وفَرض ثقافَتِهم والعَبَث بثروات الأمة ومقدّراتها.

إنّ الحساب السياسيّ المسؤولَ والأمانةَ الدينيةَ الصادِقة والحسَّ الوطنيَّ المرهَف والتبصُّر العقلانيّ يقضي بالتحرّي الكامل من خِداع النفس والذات، والذي يتصوّر بهِ هذا المخدوعُ أنّ الغزاةَ سوف يقِفون عند قُطرٍ دون قُطر أو دَولة دونَ دولة، كم هي المناطقُ المشتَعِلة اليومَ في ديارِ المسلمين؛ في أفغانستان والعراق ولبنان والسّودان والصومال، وكنتُ كتَبتُ: فلسطين ثمّ شَطبتُها. لن تنعَمَ المنطقة ولن تَستقرَّ الأمّة ولن يتحقّق الأمن والأمان إلاّ بالوحدةِ والاجتماع والتعايُش الكَريم.

احذروا خداع المسكنات

عِبادَ الله، إنّ ما يجري في الساحةِ من أحداثٍ نذيرٌ خطير لا تفيد فيه مسكّنات، قد تؤخّر المعاناةَ ولكنّها لا تمنَع وقوعها؛ من أجلِ هذا كلّه - أيّها المسلمون - فيجب أن تكونَ وحدةُ المسلمين والحوار والتعايشُ فيما بينها على اختلافِ مذاهبها ومكوّناتها يجب أن يكونَ غاية كبرى وهدفًا أساسًا ومصلحةً عُليا ونهجًا ثابتًا وخُطّة دائمة لا تَقبل المساوَمة.

خطر الطائفية

إنّ مما ينبَعِث في المنطقةِ من روائح الطائفيّة المنتِنَة الهوجاء يجب أن ينبذَه أهلُ العلم والإيمان والفضل والعقل والرأي والصلاح، يجب الحفاظُ على كيانِ الأمّة في أهلِها وأمنِها ومحاصرةُ كلّ بوادِر الفتنةِ وسدّ أبوابها، على كلّ صادقٍ في دينه وناصحٍ لأمته وساعٍ بجدٍّ وإخلاص وإيمانٍ لمصلحتها أن يعلنَ براءَتَه إلى الله عز وجل من كلّ دعوةٍ تخاصم شريعةَ الله وتجاهِرُ في عدائها لتاريخِها وصحابَتِها وأئمّتِها ورجالها وصالح سلفها. يجبُ أن يُعلَن أنّ مثلَ هذه الدّعوات والمسالك إمّا نهجٌ استعماريّ أو مَسارٌ نِفاقيّ أو طَريق زَندَقة أو مسلَك جاهِل، إنها عند التحقيقِ لا يمكن أن تجتمِع مع أصلِ الإسلام والدين والتوحيد والنهجِ الذي جاء بهِ محمّدٌ ﷺ.

بارقة أمل

ها هو رَجُلُ الأمّة والدين والدّولة والمبادراتِ الكبرَى وليُّ أمرِ هذه البلاد خادِمُ الحرمين الشريفَين وراعيهما الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود وجّهَ نداءَه الحارّ الصّادق المخلِص يومَ العاشر من المحرَّم الحرام إلى إخوانه قِيادات الشعبِ الفلسطينيّ وفصائِله، فهو الرّجلُ حين تشتَدّ الخطوب، وهو القائدُ بإذن الله حين تعصِفُ الملمّات، رجلُ العروبة والإسلام والإنسانية، وجّهَ نداءه ليجتمِعوا في رِحاب بيت الله الحرام في البلد الحرام وفي الشهر الحرام؛ ليبحَثوا ويتحاوَروا بصدقٍ وإخلاص وأمانة وتجرُّد ومسؤوليّة، والتزَم لهم - حفظه الله - أن يهيِّئ لهم أجواءَ الحوار المثاليّة، بمنأى عن أيِّ تدخُّلات أو ضُغوط أو تأثيرات، أجواء محبّةٍ وأخوّةٍ وحياديّة في الموقِف وحُريّة في القرار، مع تَقديم كلّ سُبُل العَون وأدواتِه وبذلِ المشُورةِ والتعاطي الإيجابيّ. وعلى بركةِ الله وبعونِه وبتوفيقِه التّام الشمل واجتمَعَ الأشقّاءُ الفُرَقاء على طاولَة الحوار والسّلام في بلدِ الإسلام في وساطةٍ نزيهةٍ لم تَستغِلّ القَضيّة ولم ترُم كَسبًا شخصيًا أو سياسيًا.

والحمد لله رب العالمين.

منبر الحرمين

الإمامة العظمى في الإسلام

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد: فأوصيكم- أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فهي العُدّة في الأمور، والزاد إذا بُعْثِر ما في القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.

عباد الله، إن الشريعة الإسلامية الغرّاء هي الشريعة الخاتِمة التي أكمل الله بها الدين وأتمّ بها النعمة، وجعلها صالحة للخلافة في الأرض في كل زمان ومكان، لا تَبْلَى نصوصُها، ولا تهتزّ قواعدُها، ولأجل ذا صارت هي الأُسّ في حفظ الضرورات الخمس في الحياة البشرية، وهي الدين والنفس والعِرض والعقل والمال، فهي شريعة جُلّى تسعى لتحصيل المصالح وجلبها لتلك الضرورات، كما أنها في الوقت نفسه تقوم بالدفع قبل الرفع لأي مفسدة تخل بضرورة من الضرورات، بَلْهَ الضرورات الخمس برُمَّتها.

ولما كانت أمور الناس ومصالحهم تدور رَحَاها حول تلك الضرورات الخمس، وتحصيل مصالحها، ودَرْء مفاسدها، وحراسة ذلك وسياسته؛ كان لزامًا أن يكون للمجتمع المسلم رأس يجتمعون عليه، ويضعون كفوفهم على كفّه؛ ليقيم الحق فيهم، ويزهق الباطل، ويسُوسَهم على مِلّة الإسلام، يجتمعون بالبيعة الشرعية على إمامته وولايته أمرهم، وهذا ما يُسمَّى في الشريعة بالإمامة العُظْمَى، التي أجمع العلماء قاطبة على أنها واجبة، خلافًا لبعض الخوارج والمعتزلة.

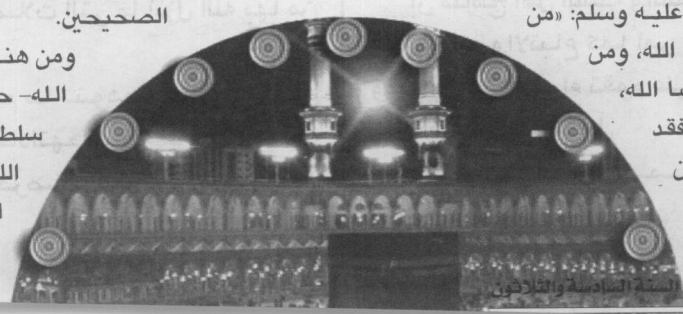
والمصلحة في تَنْصِيب الإمام ظاهرة جَليّة، لا تحتاج إلى كبير تأمّل وبحث؛ لأنه لا يمكن أن يستقيم أمر الناس، ويصلح حالهم، ويُحْفَظ الخير لهم، ويُدْرَء الشر عنهم إلا بها، بل إنها مطلب شرعي ديني قبل أن تكون مطلبًا سياسيًا دنيويًا؛ لأن قيامها وقيام الطاعة لها من طاعة الله ورسوله؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني، وإنما الإمام جُنَّة يُقاتَل من ورائه، ويُتَّقَى به، فإن أمر بتقوى الله وعدَل فإن له بذلك أجرًا، وإن قال بغيره فإنّ عليه مِنْهُ» رواه مسلم.

إن لم يكن مثل هذا الأمر- عباد الله- فليس للناس إلا الفوضى، وغَلَبة الأهواء، وتقاذف الفتن من كل جانب، والتعدّي على الدين والأنفس والعقول والأعراض والأموال، ولقد صدق القائل الأول:

لا يَصْلُحُ الناسُ فوضى لا سَرَاةَ لهم
ولا سَرَاةَ إذا جُهّالُهم سادُوا

ولذا فإنّ الأمم مع تعاقب الأزمان لا تَدَعُ واقعها سَبَهْلَلاً دونما سلطان يرأسها، فلقد قال النبي: «إن بني إسرائيل كانت تَسُوسُهم الأنبياء، كلّما هلك نبي خَلَفَه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وإنه سيكون خلفاء فيكثرون»، قال: فما تأمرنا؟ قال: «فُوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم الذي جعله الله عزّ وجلّ لهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» أخرجاه في الصحيحين.

ومن هنا يتّضح لنا- عباد الله- حاجة الناس إلى سلطان يسُوسُهم بشرعة الله ومنهاجه؛ حماية لهم من الفتن والأهواء أن



تعتريهم، ولقد صدق الإمام أحمد بن حنبل حين قال: «الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس».

أيها الناس، لقد أكرم الله أمة الإسلام من بين سائر الأمم بأن جعلها وسطًا بينهم عَدْلاً خِيارًا، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، وإن من وسطية هذه الأمة وعدلها نظرتها للإمامة والولاية، حيث تراها عهدًا واجبًا بين السلطان وعموم المسلمين، وهذا العهد يقتضي السمع والطاعة في المَنْشَط والمَكْرَه والعُسْر واليُسْر ما لم يكن في معصية أو منكر وإلا فلا. لتكون الأمة وسطًا بين بعض أهل الجاهلية الذين يظنّون أنّ مخالفة السلطان وعدم الانقياد له فضيلة ورِفْعة، وأن السمع والطاعة والانقياد دُونٌ وذِلّة ومهانة ونقصٌ في الرجولة والعلم والكرامة، وبين بعض أهل الكتاب الذين يغالون في السمع والطاعة حتى في معصية الله سبحانه، كما في حديث عدي بن حاتم قال: سمعت النبي يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، فقلت: إنا لسنا نعبدهم! فقال: «أليس يحرمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتحلّونه؟» فقلت: بلى. قال: «فتلك هي عبادتهم» رواه أحمد والترمذي.

كما أن منهج أهل الحديث والحق في الإسلام بين سائر الفرق هو المنهج الوسط في الإمامة والولاية، خلافًا لمن ذهب إلى تكفير الأئمة، والخروج عليهم، وعدم السمع والطاعة بالمعروف لهم، وخلافًا لمن يرى المغالاة فيهم، ويجعلهم معصومين من الخطأ والنقيصة، والحق كل الحق، والعدل كل العدل، ما كان عليه أئمة الهدى والدين من السلف الصالح والتابعين الذين قالوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير. ديدنهم في ذلك سنة المصطفى في السمع والطاعة والألفة والاجتماع، لا في المعصية والعناد والفرقة والابتداع، لعلمهم الجازم بأن النبي بيّن أن من خرج من السلطان شِبْرًا مات مِيتة جاهلية، كما في الصحيحين وغيرهما.

ومن هذا المنطلق- عباد الله- عُنِيَ السلف الصالح بمسألة الإمامة، وجعلوها من جملة أبواب الاعتقاد وأصول الدين، وأكثروا الحديث



إعداد فضيلة الشيخ سعود بن ابراهيم الشريم إمام الحرم المكي

عنها، وفصّلوا فيها القول، وما ذاك إلا لعظم شأنها وخطورة سوء الفهم تجاهها، وأن مبدأ التعامل مبني على العلم والأثر لا على العاطفة والنظر؛ لما يترتب على ذلك من مراعاة المصالح والمفاسد العامة الطاغية على المفاسد والمصالح الخاصة، ولهذا بيّن أهل العلم حاجة الأمة إلى السلطان، ووجوب بيعته البيعة الشرعية، كما بيّنوا وجوب السمع والطاعة في غير معصية الله، عملاً بما جاء عن النبي أنه بعث جيشًا وأمَّرَ عليهم رجلاً فأوقد نارًا، فقال: ادخلوها. فأرادوا أن يدخلوها، وقال آخرون: إنما فررنا منها. فذكروا للنبي فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة»، وقال للآخرين: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف» رواه البخاري ومسلم.

وقد بيّن أهل العلم أيضًا حرمة الخروج على السلطان أو ملاقاته بالسيف، وأنه يجب على الرعيّة مَحْضُ النصح له؛ لقول النبي: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن لا تعبدوا إلا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم» رواه أحمد. ولم يكتف أئمة العلم والهدى بمطلق النصح لولي الأمر، بل قيّدوا ذلك في السّر دون العلانية؛ درءًا للفتنة وخروجًا من التشهير والتعيير، لما رواه ابن أبي عاصم في كتاب السُّنّة مرفوعًا إلى النبي أنه قال: «من أراد أن ينصح لذي سلطان في أمر فلا يُبْدِهِ علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدّى الذي عليه له». ولما جاء في الصحيحين في الذين قالوا لأسامة: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: قد كلمته ما دون أن أفتح بابًا أكون أول من أفتحه، وما أنا بالذي أقول لرجل بعد أن يكون أميرًا على رجلين: أنت خير... الحديث. وقد نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله كلامًا عن معنى هذا الحديث: «وهو أن [illegible] بقوله: [illegible] سرًا دون أن أفتح

بابًا)، أي باب الإنكار على الأئمة علانية؛ خشية أن تفترق الكلمة، ثم عرّفهم أنه لا يُداهِن أحدًا، ولو كان أميرًا، بل ينصح له في السّر جهده» انتهى كلامه رحمه الله.

وقد نقل ابن عبد البر عن أيوب ابن القَرْيَة قال: «أحق الناس بالإجلال ثلاثة: العلماء والإخوان والسلطان، فمن استخفّ بالعلماء أفسد مروءته، ومن استخفّ بالسلطان أفسد دنياه، والعاقل لا يستخفّ بأحد».

ثم اعلموا- رحمكم الله- أن البيعة الشرعية فيها حقّان: أحدهما حق للإمام كما ذكرناه آنفًا، وأما الآخر فهو حق للرعية بإقامة شرع الله فيهم، ونشر الحق والعدل بينهم، والسعي في مصالحهم العامة والخاصة، وتدوين الدواوين ومراعاة المصالح المرسلة التي تعتري الناس بين الحين والآخر، ومنع الظلم والبغي والفساد، وما يسبّب الفرقة بين المسلمين.

وحاصل الأمر- عباد الله- أنّ استقامة الناس، واستقرار المجتمع، وحفظ الضرورات لا يكون إلا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر منا؛ لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء:٥٩]، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره: «أن أولي الأمر هم أصحاب الأمر ذووه وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام، فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء، فإذا صلحوا صلح الناس، وإذا فسدوا فسد الناس».

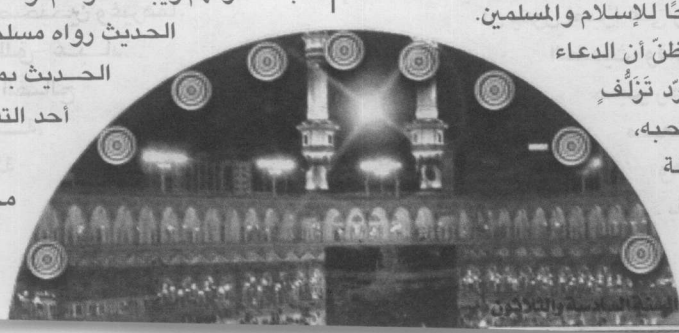
فاتقوا الله عباد الله، واعلموا أن ثَمَّةَ حقًا يجب على الرعية تجاه سلطانهم وولي أمرهم المبايَع بالبيعة الشرعية، متمثّلاً ذلكم الحق في محض الدعاء له بالتوفيق والسداد والصلاح للمسلمين؛ لأن في صلاحه صلاحًا للإسلام والمسلمين.

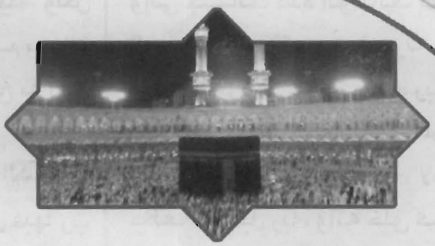
وإنه ليخطئ من ظنّ أن الدعاء للسلطان مُجرّد تَزَلُّفٍ ومَذْقٍ يَشِين بصاحبه، كلا بل هو ديانة واعتقاد بأهمية ذلكم وأثره في صلاح المسلمين. وقد أشار جملة من أئمة الدين إلى هذه المسألة من باب الديانة وتصحيح الفهم تجاه هذه المسألة، فقد ذكر الطحاوي رحمه الله في متن الاعتقاد عن الأئمة والولاة قوله: «وندعو لهم بالصلاح والمعافاة». وقد أخرج الخلّال في كتاب السنة بسند صحيح عن الفُضَيل بن عياض أنه قال: «وددت أن الله عزّ وجلّ زاد في عمر هارون الرشيد»، وقد وجّه الإمام أحمد مقولة الفُضَيل هنا بأنها لما يُخاف من الشر الذين يكون بوفاة الإمام، فإذا ما جاء إمام آخر هَدَأَ الأمرُ وسَكَن. وقد تحدّث الإمام أحمد رحمه الله عن الخليفة المتوكل قائلاً: «إني لأدعو الله له بالصلاح والعافية»، وقال: «لأنْ حَدَثَ به حَدَثٌ لتنتظرنّ ما يحل بالإسلام». وقد دعا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لسلطان زمانه بالتأييد والتسديد والزيادة في العلم. وكلام أهل العلم في هذا الباب متواطئ على القول باستحباب الدعاء لولاة الأمور بالتوفيق والصلاح والمعافاة دون مجازفة، ومن أشهر من قال بذلك الطحاوي والفُضَيل وأحمد والبيهقي والبَرْبَهَاري وابن قدامة والنووي وابن تيمية والحافظ العراقي والحافظ ابن حجر، وخلق كثير من العلماء وأئمة الدين.

وإنما نقول مثل هذا- عباد الله- لنؤكّد موقف أئمة الدين من أهل السنة والجماعة تجاه هذه المسألة، ولنصحّح بعض المفاهيم المشوّشَة في هذا الجانب من باب الديانة والالتزام بالحق ليس إلا، لاسيما في هذا الزمن الذي غاب فيه الوعي الديني فيما يخص حقوق الراعي والرعية، والذي قَلَّ فيه الألفة والتناصر.

وجامع الأمر في هذا- عباد الله- هو قول النبي: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم» الحديث رواه مسلم. والصلاة في هذا الحديث بمعنى الدعاء على أحد التفسيرين.

اللهم صلِّ على محمد، وآله وصحبه وسلم.





منبر الحرمين

من دروس

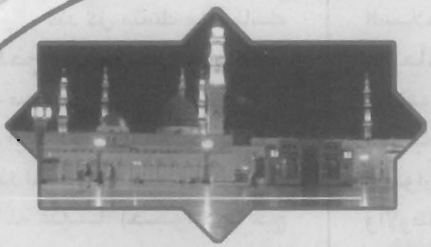
الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشأنه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

معاشر المسلمين، شرع الله جل وعلا العباداتِ لحكمٍ عظيمة ومقاصد سامية، وأسرار كثيرة، منها ما يعرفه الخلق، ومنها ما لم يدركوه.

وإن من تلك المنظومةِ فريضةَ الحجّ، تلكم الفريضةُ التي عظمت في مناسكها، وجلّت في مظاهرها، وسمت في ثمارها، عظيمةُ المنافع، جمّة الآثار، تضمّنت من المنافعِ والمصالح ما لا يُحصيه المحصون، ولا يقدر على عدّه العادّون، انتظمت من المقاصد أسماها، ومن الحكم أعلاها، ومن المنافع أعظمَها وأزكاها، مقاصدُ تدور محاورها على تصحيح الاعتقاد والتعبّد، وعلى الدعوة لانتظام شملِ المسلمين ووحدة كلمتهم، وعلى التربية الإصلاحية للفرد والمجتمع، والتزكية السلوكيّة للنفوس والقلوب والأرواح والأبدان.

وبالجملة ففي الحج من المنافع التي لا تتناهى والمصالح التي لا تُجارَى ما شملَه عمومُ قول المولى جل وعلا: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٨]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: (منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله جل وعلا، وأما منافعُ الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات) انتهى. [أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/٣٧].

وثمة منافعُ يجب على الأمة الإسلامية أفراداً ومجتمعات حكاماً ومحكومين أن يعُوها وأن يدركوا كنهَها، وأن يحقّقوها في حياتهم سلوكاً عملياً ومثالاً واقعياً، فيومَ تكون الأمة مستلهمَةً رشدَها على نحو تلك الأهداف والمقاصد فستنال عزاً وشرفاً وخيراً ومجداً، قال أحدهم: «سيظلّ الإسلام صخرةً عاتية تتحطّم عليها سفن التبشير ما دام للإسلام هذه الدعائم: القرآن؛ واجتماعُ الجمعة؛ ومؤتمر الحج». فما أحوجَ الأمةَ اليوم وهم يعانون فتناً متلاطمةً وشروراً متنوّعة وبلايا متعددة، ما أحوجهم أن يستلهموا من فرائض الإسلام العبَرَ والعظاتِ والدروس الموجّهات لحياتهم وسلوكهم ونشاطهم وتوجّهاتهم. ما أجدرَ المسلمين أن يوجّهوا حياتهم من منطلقاتِ دينهم، وأن يديروا شؤونَهم من حقائقِ قرآنهم، وأن يعالجوا مشكلاتهم وأدواءهم على ضوء ما يوجّههم إليه خالقُهم، ويرشدهم إليه نبيهم.



لفضيلة الشيخ/
حسين بن عبدالعزيز آل الشيخ
إمام وخطيب المسجد النبوي

عباد الله، في دروس الحج تذكيرُ الأمة بأن أعظمَ ما يجب أن تهتمّ به وأن تحافظ عليه وأن تغرسه في النفوس وتبثّه في المناشطِ كلّها والأعمالِ جميعها تحقيقُ التوحيد لله سبحانه، تحقيق الغايةِ القصوى في الخضوع والتذلل له عز شانه توجّهاً وإرادة، قصداً وعملاً. فهذه التلبية رمزُ الحج ومفتاحه التي أهلّ بها سيّد الخلق وإمام الأنبياء حين افتتح حجّته بالتوحيد كما يقول جابر: فأهلّ بالتوحيد: «لبيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». [مسلم ١٢١٨].

إهلالٌ يتضمن كلماتِ التلبية، ذاك المعنى العظيمُ والمدلول الدقيق ألا وهو روح الدين وأساسُه وأصله، وهو توحيد الله جل وعلا ونبذ الإشراك به بكلّ صوره وشتى أشكاله.

فالواجبُ على أفراد الأمة جمعاء أن يستحضِروا ما دلّت عليه هذه الكلمات من معنى، وأن يعرفوا ما تضمّنته من دلالة، وأن يكونَ المسلم على دراية عظيمة بهذا المعنى في حياته كلّها، محافظاً عليه في كلّ حين وآن، مراعياً له في كلّ جانب، لا يسأل إلا اللهَ، لا يستغيث إلا بالله، لا يتوكّل إلا على الله، لا يطلبُ المدد والعون والنصر إلا من الله، مستيقناً أنّ الخير كلّه بيد الله، وأزمّة الأمور بيده، ومرجعها إليه، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. يقول ابن القيم رحمه الله: «وقد اشتملت كلماتُ التلبية على قواعدَ عظيمة وفوائد جليلة... - إلى أن قال في سياق تعداد فوائدها:

ومنها أن التلبية تتضمّن التزامَ دوام العبودية، ولهذا قيل: هي من الإقامة أي: أنا مقيم على طاعتك، ومنها أنها تتضمّن الخضوعَ والذل، ومنها أنها تتضمّن الإخلاصَ لله جل وعلا» انتهى. [الحاشية على سنن أبي داود ١٧٨/٥].

فحريٌّ بالمسلم الموفّق أن يهتمّ بتلك المعاني كلها، وأن يحققها في حياته بشتى جوانبها.

وإذا كان الأمرُ كذلك في حق الأفراد فالأمة أجمع حري بها أن تستلهم من الحج تلك الدروسَ والعبر، ولتعلمْ أن القاعدةَ الثابتة لاستقرار حياتها والمستقرّ الآمنَ الذي يؤوبون إليه هو تحقيق التوحيد لله جل وعلا في كل شأن من الشؤون، في مناشط الحياة كلّها، وأن تحقق الخضوع التّامّ لله والذل المتناهيَ له سبحانه، ترسيخاً للعقيدة الصحيحة في واقع الحياة وتأصيلا لها في النفوس، وإلا فبدون ذلك تتخطّفها الأهواء تخطّف الجوارح، وتتقاذفها الأوهام تقاذف الرّياح.

ألا فلتصبغ الأمة حياتَها كلّها وأنشطتَها جميعَها بقاعدة العقيدة الصحيحة والتوحيد الخالص، فلا تخطو خطوةً ولا تتحرك حركة إلا وهي تنظر من منظار القرآن الكريم، ومن مرآة السنة ورضا الربِّ جل وعلا، فالله جل وعلا يقول: ﴿الَّذِينَ ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَـٰنَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

عباد الله، من دروس الحجّ أن تعلم الأمة وتتذكّر وأن تستشعرَ وتستيقن أنه لا سعادة لها ولا نجاح في هذه الحياة الدنيا ولا في الآخرة ولا توفيقَ ولا سدادَ إلا باتباع النبي ﷺ، والسير على نهجه والمسيرة الجادة على هديه في الاعتقاد والأعمال، في الحكم والتّحاكم، في الأخلاق والسلوك، وفي هذا الصدَد يقول سيدنا

ونبينا محمد ﷺ عند كل منسك من مناسك الحج: «خذوا عني مناسككم». [أخرجه مسلم ١٢٩٧].

وانظر - أيها العبد المسلم - كيفَ حقق الصحابة هذا المقصدَ حينما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (حجّوا كما حجَّ النبي ﷺ، ولا تقولوا: هذا سنَّة وهذا فرض) انتهى.

فأعظمُ أهداف الحج تذكر هدي المصطفى ﷺ ولزوم طريقه في هذه الحياة دونَ إفراط ولا تفريط ولا غلوٍّ أو جفاء، «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». [أخرجه مسلم ١٧١٨].

معاشر الأحبة، من الدروس العظيمة في الحجّ أهميةُ الاعتدال والتوسّط في الأمور كلها، ومجانبة الغلوّ والجفاء أو الإفراط والتفريط، روى أحمد وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة: «الْقُطْ لي حصًى» قال: فلقطتُ له حصىً من حصى الخذف، فجعل ينفضهنّ في كفّه ويقول: «بأمثال هؤلاء فارموا»، ثم قال: «يا أيها الناس، إياكم والغلوّ في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين». [صحيح سنن أبي داود ٢٤٥٥].

فالاعتدال في الأمور كلّها والتوسطُ فيها والبعد عن الغلو والجفاء هو المنهج القويم والصراطُ المستقيم الذي ينبغي أن يسلكه جميع المؤمنين، وذلك ليس بالأهواء، وإنما يكون بالأخذ بحدود القرآن والسنة وما فيهما من الهدي والبيان.

ألا فلتكن مثلُ هذه المناسبة العظيمة التي يجتمع فيها المسلمون على أداء عبادة عظيمة من معالم الدين، لتكن درساً يراجع فيه المسلمون أنفسَهم، ويتبصّرون فيه في أحوالهم، ليقيموها على المنهج الحق والصراط المستقيم، من منبعه الصافي ومورده العذب الزلال، كتاب الله جل وعلا وسنة سيّد الأنبياء سيدنا ونبينا ورسولنا محمد ﷺ.

عباد الله، الحجُّ مؤتمر جامعٌ للمسلمين قاطبة، وهو مؤتمرُهم وملتقاهم الأكبر، مؤتمر يجدون فيه أصلَهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ إمام الحنيفيَّة أبينا إبراهيم عليه السلام، يجدون محورَهم الذي يشدّهم إليه جميعاً، هذه القبلة التي يتوجَّهون إليها جميعاً، ويلتقون عليها جميعاً، ويجدُون أيضاً رايتَهم التي يفيئون إليها، رايةَ العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلّها فوارقُ الأجناس والألوان والأوطان، ويجدُون قوتَهم والتي قد ينسونها حيناً، قوةَ التجمع والتوحّد والتي تضمّ الملايين التي لا يقف أمامها أحد لو فاءت إلى رايتِها الواحدة التي لا تتعدَّد.

فالواجبُ على المسلمين اليوم وهم تتقاذفهم أمواجُ الفتن، وتتحدّاهم قوى الطغيان والعدوان، الواجبُ عليهم أن يتخذوا من مثلِ هذا الموسم مؤتمراً للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى وتبادُل المنافع والمعارف والتجارب. فلا يجد العالَم كلُّه مهما حاولت جهوده وتنسّقت، ومهما بلغت خططُه وتنوّعت أن يجد موسماً كالحج منظّماً لعالم إسلامي واحد كاملٍ متكاملٍ مرّة في كل عام، في ظل الله، بالقرب من بيت الله، وفي ظلال الطاعات القريبة والبعيدة، والذكريات الغائبة والحاضرة، في أنسب مكان وأنسب جوّ وأنسب زمان.

فلا بدَّ أن تدرك الأمة على مُخْتَلِفِ مسؤولياتها أنهم على مُخْتَلِفِ مشاربهم وتنوع أشكالهم لا رابطةَ تربطهم إلا رابطةُ التوحيد، ولا نسبَ ثابت إلا نسبُ الدين، فيجب أن تكونَ صبغته هي الصبغة السائدة التي يجبُ معها النبذ الصارخ لحميَّة الجاهلية وفخارها، ولهذا يقول الله جل وعلا في سياق آيات الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:١٩٩].

فحريٌ بالأمة أن تستثمرَ مثلَ هذا الموسم العظيم فرصةً للتوجيهات العامة النافعةِ والنظرِ في قضاياها المهمة.

إخوة الإسلام: الحجُّ مؤتمر ذو مقاصدَ سياسية للبشرية كلها، مؤتمر يربّي البشرية على أسس السلام والأمن والحياة الطيبة، ويدعوهم لتحريم الحرمات والممتلكات والنفوس والمقدّرات، فربّنا جل وعلا يقول: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج:٣٠].

مؤتمرُ الحج مؤتمر يغرس في النفوس حياة تراعى فيها حرمات الله، لتقوم في الأرض حياةٌ يأمن فيها البشر من البغي والاعتداء، حياة يجدون فيها مثابةَ أمنٍ ودوحةَ سلام ومنطقة اطمئنان، فهذا سيّد البشرية وإمام الحنيفية سيدُنا ونبينا محمد ﷺ يعلنها جليةً ويطلقها صريحة في خطبة الوداع فيقول: «إن دماءكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

[البخاري ٦٧، ومسلم ١٦٧٩].

فيا أيها المسلمون، أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، فهي وصية الله اللازمة للأولين والآخرين.

عباد الله، تعيشُ الأمةُ الإسلامية أياماً عظيمةً فضلها كبير مقدارُها، إنها العشر الأول من ذي الحجة، أقسم الله بها تنويها بفضلها وإشارة إلى عظيم أجرها فيقول الله جل وعلا: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١، ٢]، ونبينا ﷺ يقول: «ما من أيامٍ العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام» يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟! قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء» أخرجه البخاري.

والعملُ الصالح - عباد الله - يشمل كلّ خير ومعروف وبر وإحسان من الأقوال والأفعال والسلوك، ومن أعظم ذلك تفقد أحوال المسلمين في كلّ مكان، والاهتمام بشؤونهم، والتخفيف من كرباتهم، وسدّ حاجاتهم، وصرفُ صالح الدعاء لهم بإصلاح الأحوال وكشف المضار والنصر على الأعداء.

ويشرع للحاج وغيره الإكثارُ من ذكر الله جل وعلا في هذه العشر، ففي المسند أنه عليه الصلاة والسلام سئل: أيُّ الحاجّ أعظم عند الله؟ قال: «أكثرُهم لله ذكراً».

[ضعيف الترغيب ٨١٠، ٩٠٦].

والله جل وعلا يقول: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٧، ٢٨]، والأيام المعلومات عندَ جماهير أهل العلم هي أيام عشرِ ذي الحجة، وقد أمر الله جل وعلا بذكره كثيراً في أيامِ الحج كما دلّت عليه آيات سورة البقرة وسورة الحج.

والأمرُ بالذكر يشمَل غيرَ الحاج كما قال ﷺ: «ما من أيامٍ أعظم عند الله ولا أحبّ إلى الله [العمل] فيهن من أيام العشر، فأكثروا فيهنّ من التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد» رواه أحمد بسند حسن. [ضعيف الترغيب ٧٣٣].

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم أنهما كانا يخرجان إلى السوق، فيكبران ويكبِّر الناس بتكبيرهما [فتح الباري ٨/٩].

وكان فقهاءُ التابعين يقولون في أيام العشر: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد. فيستحبُّ للرجال رفعُ الصوت في هذا الذكر في الأسواق والدور والطرقات والمساجد.

ثم اعلموا - عباد الله - أنَّ من أراد أن يضحّي فيمسِك عن شعره وأظفاره وبشرته إذا دخلت العشر حتى يضحّي، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم هلالَ ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره حتى يضحّي»، وفي رواية: «فلا يمسّ من شعره وبشرته شيئاً». [مسلم ١٩٧٧] وهذا النهيُ خاصٌّ بالمضحّي، أما من يُضحَّى عنه من أهل البيت فلا يدخل في هذا النهي وحتى لو [شاركوا] ربُّ البيت في أضحيته.

فاتقوا الله سبحانه، وعظّموا شعائرَه، تفلحوا وتسعدوا في الدنيا والآخرة.

ثم اعلموا أن الله جلّ وعلا أمرنا بأمر عظيم ألا وهو الصلاة والسلام على النبي الكريم.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد، وارض اللهم عن الخلفاء الراشدين.



منبر الحرمين

الشهادات الرمضانية

لفضيلة الشيخ/ صالح بن عبدالله بن حميد
إمام الحرم المكي

الحمد لله، أرشَدَ النفوس إلى هُداها، وحذَّرها من رداها، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:٩، ١٠]، أحمده سبحانه وأشكره على نعمٍ لا تُحصَى وآلاء لا تتناهَى، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له رضينا به ربًا وإلهًا، وأشهد أنّ سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله أعلى الخلقِ منزلة وأعظمُهم عند الله جاهًا، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ما طلعت شمس بضحاها، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أمّا بعد: فأوصيكُم- أيّها النّاس- ونفسي بتقوَى الله عزّ وجلّ، فاتقوا اللهَ رحمكم الله، واغتنموا مواسمَ الأرباحِ فقد فُتحت أسواقها، وداوموا قرعَ أبواب التوبة قبل أن يحينَ إغلاقها. الغَفلةُ تمنَعُ الرِّبحَ، والمعصيةُ تقودُ إلى الخُسران. الواقفُ بغير بابِ الله عظيمٌ هوانُه، والمؤمِّل غيرَ فضلِ الله خائبٌ آماله، والعاملِ لغير الله ضائعةٌ أعمالُه. الأسباب كلُّها منقطعة إلا أسبابه، والأبوابُ كلّها مغلَقة إلا أبوابُه. النّعيمُ في التلذُّذ بمناجَاةِ الله، والرّاحة في التّعَب في خدمةِ الله، والغِنى في تصحيحِ الافتقارِ إلى الله.

أيّها المسلمون، الأيّام تمرُّ عجلَى، والسّنون تنقضي سِراعًا، وكثيرٌ من الناسِ في غَمرةٍ ساهون وعن التّذكرة معرِضون، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢].

ولما كان العُمر- يا عبادَ الله- محدودًا وأيّامُ العَبدِ في هذه الدّنيا معدودَة فقد امتنَّ الله على عبادِه بمواسمِ الخيرات ومِنَح النّفَحات، وأكرَمَ بأيّامٍ وليالٍ خصَّها بمزيدٍ منَ الشَّرَف والفَضلِ وعَظيمِ الثّوابِ ومُضَاعَفة الأجرِ، وجعَل فيها بمنِّه وكرَمِه ما يُعوِّض فيهِ الموفَّق قِصرَ حياتِه وتقصيرَ أعماله. وإنّ أيّامَكم هذه من أفضلِ الأيّام، وهذه العَشرُ الأخيرةُ هي الأفضَلُ والأكرَم.

أيّها المسلمون، ما أحوجَ العبدَ إلى موقفِ المحاسبة في هذه الأيّام الفاضلة، إنها مناسَبَة مناسِبَة من أجل التّغيير والتصحيح والإصلاح في حياة الفرد وفي حياةِ الأمة، يقول رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم: «إذا دخل رمضانُ فتِّحت أبواب الجنّة وغُلِّقت أبوابُ النار وسُلسِلت الشياطين» أخرجه الترمذي، وفي روايةٍ أخرى: «إذا كانَ أوّل ليلة من رمضانَ صُفِّدت الشياطين ومردَةُ الجنّ، وفُتِّحت أبواب الجنة فلم يغلَق منها باب، وغلِّقت أبواب النار فلم يُفتَح منها باب، وينادي



منادٍ: يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشرِّ أقصر، ولله عتقاءُ من النّار، وذلك كلَّ ليلة». إنها فرصة للمحاسبة وفرصةٌ للإصلاح وفرصة للتغيير، «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشرّ أقصر».

معاشرَ المسلمين، ومن أجلِ مزيدٍ منَ التأمُّل واستشعارٍ جادٍّ للمحاسَبَة وإدراكٍ عميق لهذه الفرصَة السانحة هل تأمَّلتم في دعاءٍ يردِّده المسلمون في هذا الشهرِ الكريم، وبخاصّةٍ في مثل هذه الأيام حين تبدأ أيّام الشهر في الانقضاءِ وهلاله بالأفول، ويستشعرون فراقَه ويعيشون ساعاتِ الوداع ومشاعرِ الفراق، دعاءٌ يصاحبه دفقٌ شعوريّ مؤثِّر من القلوبِ الحيَّة والنفوسِ المحلِّقة نحوَ السموّ بشعورٍ إيمانيّ فيّاض، يرفعون أيديَهم مُناشدين ربَّهم ومولاهم: «اللهمَّ اجعله شاهدًا لنا، لا شاهدًا علينا». هل تأمَّلتم هذا الدعاءَ؟! وهل فحَصتم مضامينَه وعواقبَه وحقيقتَه ونتيجتَه؟!

أيّها الصائمون، إنّ شهادةَ شهرِ رمضان غيرُ مجروحة، إنّه موسم يتكرّر كلَّ عامٍ، يشهد على الأفراد، ويشهَد على الأمة، إنّه يشهَد حالَكم، فهل سيشهَد لنا أو يشهَد علينا؟! يرقب حالَنا؛ هل سوف يزدرينا أو سوفَ يغبطنا؟! ماذا في استقبالنا له؟! وماذا في تفريطنا فيه، بل في كلّ أيّام العام والعُمر؟ هل نجتهد فيه ثم نضيِّع في سائرِ أيّام العام؟!

عبادَ الله، الأيّام تشهَد، والجوارح تشهد، والزّمان يشهد، والمكان يشهَد، إنّ تأمُّلَنا في شهادة هذا الشهر الكريم لنا أو علينا فرصَة عظيمةٌ صادقة جادّة في المحاسبة ومناسبةٌ حقيقيّة نحو التغيير والتعويض، «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشرّ أقصر». وقد يكون لشهادةِ رمضان المعظَّم نوعٌ من التميُّز ولونٌ من الخصوصيّة، لماذا؟ لأنَّ شهرَ رمضانَ هو شهر الصّبر، شهر مقاومة الهوى وضبطِ الإرادة ومقاومَة نزوات النفس ونوازعها.

شهر رمضان- معاشرَ الصائمين- ميدانُ التفاوت بين النفوسِ الكبيرة والنفوسِ الصغيرة، بين الهمَم العالية والهمَم الضعيفة. هذا الشهرُ الشاهد فرصةٌ حقيقيّة لاختبار الوازع الداخليّ عند المسلم، الوازع والضمير هو محوَر التربية الناجحة.

ومن أجل مزيد من التأمُّل والنظَر والفحص في هذه الشهادةِ الرمضانية فلتنظُروا في بعض خصائصِ الصّيام وأحوال الصائمين. الصّوم سرّ بين العبدِ وبين ربِّه، وقد اختصَّه الله لنفسه في قوله سبحانَه في الحديث القدسي: «الصّوم لي وأنا أجزي به، يدَع طعامَه وشرابه وشهوتَه من أجلي».

أيّها الإخوة في الله، الصومُ عن المفطّرات الظاهرَة يسيرٌ غير عسير لكثيرٍ من الناس، يقول ابن القيم رحمه الله: «والعبادُ قد يطَّلعون من الصائمِ على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامَه وشرابه وشهوتَه من أجل معبودِه فهو أمر لا يطّلع عليه بشَر، وتلك حقيقة الصوم».

واقرنوا ذلك- رحمكم الله- بقوله ﷺ: «من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفِر له ما تقدّم من ذنبه، ومن قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غفِر له ما تقدّم من ذنبه، ومن قام ليلة القدرِ إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدّم من ذنبه». مَن- تُرى- يحقِّق الإيمانَ والاحتساب على وجهه يا عباد الله؟! «يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

تأمّلوا أحوالَ بعض الصائمين مع الطعام وفضول الطعام، يسرفون على أنفسِهم في مطاعمهم ومشاربهم ونفقاتهم، يتجاوَزون حدَّ الاعتدال والوسَط، ساعدهم في ذلك إعلامٌ هَزيل قد جعَل مساحاتٍ هائلةً للأكل والموائد مع ممارساتٍ غير سويّة من التجارِ والمستهلكين.

وتأمّلوا- حفظكم الله- وأنتم في رحابِ هذا الشهرِ الشّاهد، تأمّلوا أحوالَ بعض الغافلين الذين يضيِّعون هذه الأوقاتَ الفاضلةَ والليالي الشريفة مع اللهوِ والبطّالين فيما لا ينفَع، بل إنّ بعضها فيما

يضرّ ويُهلك ويفسد الدّينَ من الغيبة والنميمة والمسالك المحرَّمة، انقلبت عليهم حياتهم ليجعَلوا نهارَهم نومًا وليلَهم نهارًا في غير طاعة ولا فائدة، لا لأنفسهم ولا لأمّتهم، تجمّعاتٌ ليليّة، إمّا تضييع للواجبات والمسؤوليات، وإمّا وقوع في المنهيّات والمهلكات، يعينهم في ذلك قنواتٌ وفضائيّات في مسلسلاتٍ هابطة وبرامجَ للتسلية هزيلة.

بل إنّ التأمّلَ في فضول الكلام- أيّها الصائمون- لا ينقضي منه العجَب، حتى في أحوال بعض الصالحين والمتعبّدين ممن ينتسب للعلم والدّين والدعوة، فلا يكاد الغافل منهم يُفكّر في فضول الكلام فضلاً عن أن يفكّر في تجنُّبه، ولكثرة كلامهم فقَدوا السَّمتَ وقلّت عندهم الحكمة وخلَطوا الجدَّ بالهزل، ناهيكم في الوقوع في داء الغيبة والنميمة والكذب والرياء والسمعة.

ومن المعلوم أنّ كثرةَ الخُلطة وبخاصّة في أوقات التعبُّد تدعو إلى فضول الكلام وتضييع الأوقات وكثرة الانشغالات وتقعد عن المناجاة، ولاحظوا ذلك في أحوال بعض المعتكفين هداهم الله وأصلَح بالَهم، يعتكفون جماعات، فينفتح بينهم الحديث وتتّسع أبوابه، بل قد يكون المعتكَف مجلبةً للزائرين ومكانًا للتّجمّع مما يُبعد عن هدي الاعتكاف وحكمته، يقول الحافظ ابن القيم رحمه الله: «كلُّ هذا تحصيل لمقصود الاعتكاف وروحة عكسَ ما يفعلَه الجهّال من اتّخاذ المعتكَف موضعَ عشرةٍ ومَجلبَة للزائرين وأخذهم بأطراف الحديث بينهم، فهذا لونٌ والاعتكاف النبويّ لونٌ آخَر». وفي هذا يقول بعض الحكماء: «إذا أردتَ أن يعتزلَك الناس فدَع الحديثَ معَهم، فإنّ أكثرَ مُواصلة الناس بينهم بالكلام، فمن سكَت عنهم اعتزلوه».

معاشرَ المسلمين، هذه إشاراتٌ ووقفات لما قد تكون عليه هذه الشهادات في أحوال بعض الصائمين والمتعبّدين، «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغيَ الشر أقصر».

أيّها المسلمون، هل ندرك ونحن نتأمّل هذه الشهاداتِ الرمضانية أننا أصبَحنا في أمسِّ الحاجة إلى التغيير وأننا لا نزال يملؤُنا التفاؤل بغدٍ أفضَل وواقع أمثَل. إنّ وسائلَ العلاج وأدواتِ النجاح ليست عنّا ببعيد، فنحن أمّةُ القرآن وأمّة محمّد ﷺ، أمّة هذا الشهر الكريم الشاهد، ونحن الأمّةُ الشاهدة.

منهجُ التغيير والإصلاح يتمثّل في هذه الآيَة الكريمة الجامعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]، وفي النداء الرمضانيّ الصادح: «يا باغيَ الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر».

ليس الإصلاحُ بالاكتفاء بالنقد والتلاوُم وتحويل المسؤولية على الأعداء والخصوم، إنّ على المسلم الصادقِ الجادّ المحبِّ الخيرَ لنفسه وصادقِ الغيرة على أمّته أن يتّقيَ الله ربَّه ويدركَ الغاية من هذه الحياة والوظيفةَ في هذه الدنيا، فيحفظ وقتَه ويستغلّ شريف أيّامه وفاضلَ أوقاته وينطلق نحو التغيير والإصلاح، فيعيش حياةً جادّة حازمة متوازنة، فلا يغرَق في المباحات على حساب الفرائض والواجبات، كما يجب ترويضُ النفس وتدريبها على ملازَمة الأعمال الصّالحة وتحرِّي السنّة وصدق المتابعة لهدي المصطفى ﷺ.

أيّها الإخوة المسلمون، إنّ هذه العشرَ الأخيرة فرصةٌ حقيقيّة لاختبار النفس في التّغيير نحوَ الأفضل والأحسن. ليس من الصعب بتوفيق الله وعونه تغييرُ النفس وقطعُها عمّا اعتادته لمن أخلصَ نيّته وصدقَ في عزيمته، يقول المنذر بن عبيد: تولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعد صلاة الجمعةَ فأنكرتُ حالَه في العصر.

وإنّ من الدلائل على التغيير ومَظاهر الهمّة وقوّة العزيمة وضَبط الإرادة في هذا الشهر شهرِ الصبر الاجتهاد في العمَل والإحسان في هذه الأيّام العشر



تأسّيًا بالقدوةِ والأسوة نبيّنا محمّد ﷺ، فقد جعل رمضانَ كلَّه فرصةً للاجتهاد، كما خصّ العشرَ باجتهاد، تقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يجتهِد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وكان يجتهِد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها.

وتسمُو الهمّة ويتجلّى التوجّه نحوَ التغيير حينما يجتهِد العبدُ ليفوزَ بإدراك ليلة القدر، فيعمَل ويتحرّى، فتسمو النّفس وتعلو الرغائب للوصول إلى أسمى المراتب وأعلى المطالب؛ توبةٌ وإقلاع وعزمٌ على الإصلاحِ والإحسان، وتأمّلوا هذا الحديثَ العظيم وما فيه من الحثّ ووقفاتِ المحاسبة: «رغِم أنفُ رجلٍ دخَل عليه رمضانُ ثم انسلَخَ فلم يُغفر له».

معاشرَ الأحبّة، أروا الله من أنفسكم خيرًا؛ صيامُ نهارٍ وقيامُ ليلٍ واعتكاف وقراءةُ قرآن وذِكرٌ وصدَقات ودُعاء ومحاسبة ومراجعة وندمٌ وتوبة وعزمٌ على فعلِ الخيرات، «يا باغيَ الخير أقبِل، ويا باغيَ الشرّ أقصِر».

وبعد: أيّها الصائمون، فلحكمةٍ عظيمة جاءت آيةُ الدعاء في ثنايا آياتِ الصيام: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، ولحكمةٍ عظيمة وسرٍّ بليغ خُتِمت آيات الصّيام بهذه الآية الواعظة: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧].

نفعني الله وإيّاكم بالقرآنِ العظيم وبهدي محمّد ﷺ، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كلّ ذنب وخطيئة، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم.

أيّها المسلمون، والحديثُ عن الشهادةِ الرمضانية وفُرصِ التغيير والإصلاح، فإنّ شهرَ رمضان موسمٍ عظيمٌ من مواسم الخير وزمَنٌ شريف من أزمنة النفحات، يغتَنِمه الأتقياء الصالحون للاستزادة من صالحِ العمل، ويُلقي بظلّه الظليل على العصاةِ الغافلين والمقصّرين فيتذكّرون ويندَمون ويتوبون، فالسعيدُ السعيد من كان شهرُه مجدِّدًا للعزم والطاعةِ وحافزًا للتمسّك بحبل الله وفرصةً للتزوّد بزاد التقوى، حاديه في ذلك وسائقُه همّةٌ عالية ونفسٌ أبيّة لا ترضى بالدّون من العزم والعمَل، يقول ابن القيم رحمه الله: «إذا طلع غَيمُ الهمّة في ليل البَطالة وأردفه نور العزيمةِ أشرقت أرضُ القلب بنور ربها».

على أنّه ينبغي- أيّها المسلمون- لذوي الهِمَم العالية وطلّاب الكمالات أن يعرفوا الطبيعةَ البشرية والضّعفَ الإنساني، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٧، ٢٨]، وفي مثل هذا يقول بعض أهلِ العلم والحكمة: إنّ مِنَ الخطأ والخَطَل أن ينزعَ الرجل إلى خصلةٍ شريفةٍ من الخير، حتى إذا شعَر بالعجز عن بلوغ غايتها انصرَف عنها والتحَق بالطائفة الكسولة التي ليس لها همّة في هذه الخَصلة ولا نصيبٌ، ولكن الطريقَ الصحيح ونهجَ الحكمة ومنهجَ السعادة أن يذهبَ في همته إلى الغاياتِ البعيدة ثم يسعَى لها سعيَها ولا يقِف دونَ النهاية إلا حيث ينفَد جهده ويستفرغ وسعَه.

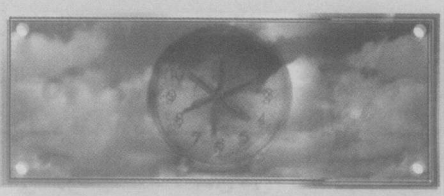
ألا فاتقوا الله رحِمكم الله، واعلموا أنّ إدراكَ هذا الشهر والإحسان فيه نعمةٌ عظيمة وفضلٌ من الله كبير، لا يحظى به ولا يوفّق إلا مَن منّ الله عليه بجوده وإحسانه وفتَح عليه أبوابَ الخيرات، فتنافسوا- رحمكم الله- في الطاعاتِ، وازدادوا من الصالحات، وجِدّوا وتحرّوا ليلةَ القدر، وتعرّضوا لنفحاتِ ربّكم.

تقبّل الله منا ومنكم الصيامَ والقيام وسائرَ الطاعات، إنه سميع مجيب.



رحيل شهر رمضان

إعداد/ سعود الشريم
إمام وخطيب الحرم المكي



الحمد لله ربِّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيِّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد: فأوصيكم - أيّها الناس - ونفسي بتقوى الله عزّ وجلّ؛ إذ بها المعتَصَم وإليها الملتزَم، فما خاب من عمل بها، ولا حار من لامَست شغافَ قلبه، بها النّجاة وفيها الحياة، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٤، ٥٥].

أيّها المسلمون، إنّ مثَل شهرِ رمضان المبارك كمثَل حبلٍ متين وثيقِ الفَتل، من تمسّك به فكأنّما هو يُمدِد بسبب إلى السّماء من الإيمانِ والمسارعة إلى الخيرات، ثمّ إنّ الانسجام المتكاملَ مع رَوحانية هذا الشّهر لا يكفله إلاّ الانسجامُ التامّ مع أُطُر الشريعة الغرّاء وثوابتها المتينة والمفهوم الصحيح لمعنى شهرِ رمضان المبارك ومعنى حرمتهِ وعظمته، وإلاّ فهيهاتَ هيهاتَ أن تستجلَب القشعريرة المصاحبةُ لهذا الشّهر وسطَ زوابع وهَت فيها حبالُ التمسّك الصريح بشرعةِ الله ومنهاجه، وحاضرُ الأمّة ومستقبلها مرهونٌ بمقدارِ الفهمِ الصّحيح لحقيقةِ هذا الشهر وما يحمله من المعاني المؤثّرة سلبًا وإيجابًا على واقعها، وإذا ما تحقّقت في المجتمعات المسلمة صورةُ الالتزام بصبغة الله فإنّها حينذاك تُعَدّ مجتمعاتٍ حيّة بتلاؤم شرائحها وانتظامها كانتظام خَرَز قلادةٍ طوِّقت حول العُنق، في حالةٍ يسودها رضَا النّاس بربّهم ثمّ رضاهم بأنفسهم وولاتهم وعلمائهم وذوي الإصلاحِ فيهم، والرّضا عن الآخرين من خلالِ ما يُشاهَد في هذا الشّهر المبارك من ممارساتٍ حياتيّة باديَة للعيان، تعدّ محكًا ولا شكّ في الحكم على مثلِ هذه المجتمعات قُربًا من الله أو بُعدًا.

أيّها المسلمون، إنّ شهركم هذا قد تقارب تمامُه وتصرَّمت لياليه الفاضلةُ وأيّامه، وآذن للملأ برحيله، وإذا لم يكن هذا الشهر هو شهرَ التّوبة فمتى تكون التّوبة إذًا؟! وإذا لم يكن هذا الشهرُ هو شهرَ التصحيح والتغيير إلى الأحسن فمتى يكون التصحيح إذًا؟! وسنظلّ نقول: متى إذًا؟ ومتى إذًا؟ ومتى إذًا؟!

إنّ المجتمعاتِ المسلمة مهما غفلت عن المحاسبةِ والتّصحيح تجاهَ التّقصير أو تناءت عن الوصولِ إليه أو تجاهلَت الإحساسَ الصادقَ بالذّنب والتفريط في جنب الله فستظلّ أسيرةَ الفوضى والعشوائيّة، منقادةً لا قرارَ لها، تتهاوى بها مضاربُ اللاعبين بها في كلّ اتجاهٍ ومسلك، فإذا هي تُصعِد ولا تلوي على شيء، بل هي موثّقة بكلكَلها وكأنّها وسطَ عُنقِ زجاجة لا تستطيع الحِراك من خلاله.

ألا إنّ العقولَ السويّة والفطرَ السّليمة لن تخرجَ عن إطارها المرجوِّ لها إذا اعتبرَت البحثَ عن الصّلاح هو البرنامجَ الوحيد لكلّ إصلاح، وإذا كانت صبوةُ المجتمعاتِ المتدنّية دائمةَ الإلحاح على ذويها تحاولِ العوجَ بسلوكهم بين الحين والآخر فلن يُكفكِفَ شرَّ هذه الصبوةِ علاجٌ مؤقّت أو خلق مسبَّباتٍ في غير موضعها أو بردود أفعالٍ لا تلبَث أن تذهبَ أدراجَ الرّياح، بل إنّها تحتاج إلى عاملٍ لا يقلّ قوّةً عنها ليعيدَ التوازنَ على عجلٍ عند الاختلال، ألا وهو عاملُ المحاسبة والتّصحيح، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد:١١].

أيّها المسلمون، كتابُ الله جلّ وعلا هو إعلامُ المسلمين الصادقِ ومنبَع التوجيه والتربيّة الصافية، الذي لا تشوبه مطامعِ ولا تكدّره حظوظ، فهو ليس إعلامًا يُذكي الخنَا أو يُضرم الجريمةَ أو يحلق الأخلاقَ الفاضلة والمُثُل السامية، كلا، إنّه إعلامٌ من ربّ العالمين، لا تطفأ مصابيحه، ولا يهزَم أنصاره، هو الحقّ ليس بالهزل، بالحقّ أنزله الله، وبالحقّ نزل، مَن عمل به أُجِر، ومن حكَم به عدَل، ومن ابتغى الهدى من غيرِه أضلّه الله، به يرفَع الله أقوامًا ويضَع آخرين.

إنّ جموعَ المسلمين عن اليمينِ وعن الشّمال عزين شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا قد أمضَوا خمسةً وعشرين يومًا مع كتابِ ربّهم، ينهلون من منابعه ويرَون عجائبَه وأمثالَه وأقسامَه وإعجازَه، ولقد أخذَت بألبابهم قصصُ القرآن كلَّ مأخذ، حيث تنوّعت في قصصِ الأنبياء والمرسلين وفي قصصٍ قرآنيّ يتعلّق بحوادث غابرة، كقصّة الذين خرَجوا من ديارِهم وهم ألوفٌ حذرَ الموت فقال لهم الله: موتوا، ثمّ أحياهم، وقصّةِ طالوت وجالوت وابنَي آدم وأهل الكهف وذي القرنين وقارونَ وفرعون وهامان وأصحابِ السّبت وأصحاب الأخدود وغيرهم. ومحصّلةُ هذه القصصِ كلّها العاقبة الحسنى للمؤمنين والخسرانُ والبوار للمعاندين المستكبرين ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٤٩].

كلُّ هذا القصصِ - عبادَ الله - ليثبّت الله به أفئدةَ العباد ويذكي روحَ الإيمان في قلوبهم وليبيّن لهم أنّه إنّما خلقَ الجنَّ والإنس ليعبدَ وحدَه في الأرض، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١١١].

عبادَ الله، من خلالِ عرضِ المسلمين للكتابِ المباركِ في هذا الشّهر فإنّهم يدركون جيّدًا أنّ الله فضّل هذه الأمّة من بين الأمم الغابرة برسالةِ محمّد ﷺ، وشعارُها هو الوسطية، فهي الأمّة الوسَط التي تكون شهيدةً على الناس ويكون الرّسول عليها شهيدًا، والوسَط كما قاله المفسرون هو العَدل الخيار، لا كما يفهمه البعضُ من أنّ الوسطَ هو الشيء الذي يكون بين طرفين، كلاّ، بل هو الحقّ ولو تعدّدت الأطراف، وهو الحقّ ولو لم يكن ثمّة إلاّ طرفان، فالوسَط هو ما وافق أمرَ الله وأمرَ رسوله ﷺ وإن كنتَ وحدَك، ومن هذا نعلم يقينًا غلطَ فئتين من الناس، إحداهما فئةٌ مغالية متنطّعة سالكة مسالكَ يعلوها الشططُ والعريّ عن الأثارة العلمية، فهي تجتهد دونَ علم وتعمل دون رويّة، فتفسُد وتُفسِد، ومن ثمّ تقع فيما عاب الله به أهلَ الكتاب بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]. والفئةُ الأخرى فئةٌ منحرفة تشنشن حولَ الفئةِ الأولى، فتدعو بسببِ ذلك إلى وسطيّةٍ ابتدعوها ما كتبَها الله عليهم، بل هي متطرّفة أيضًا عن الحقّ؛ لأنّها ترى الوسطيّة في التخلّي عن الثوابتِ الشرعيّة والتّشكيكِ في مسلّمات الدين والدّعوة إلى تهميشِ الأسُس والركائز التي قامت عليها أمَم الإسلام ودولَ الإسلام رَدحًا من الزمن، ليُجهز عليها إبّانَ ممارساتٍ شاذّة من الفئةِ الأولى ليست هي من أصولِ الإصلاح ولا هي من بابته، وإنّما علّق عليها الهادمون المعاولَ ليشوّشوا بها على بني الملّة ويهوّشوا، ولتكونَ للحاسدين تكأةً للقضاء على البقيّة الباقية من صورِ التديّن الذي لا تحيَى المجتمعاتُ إلاّ به، ومن ثمّ تقع هذه الفئةُ فيما عابَ الله به اليهودَ بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٨٥].



ولذا - عبادَ الله - فإنّ أيَّ هَبوبٍ لرياح التّغيير التي تتلو الزّوابع والمدلهمّات ينبغي أن يكونَ مبعثَها كتابُ الله وسنّة رسوله ﷺ، عملاً بوصيّة النبيّ ﷺ لأمّته في حجّة الوداع: «وإنّي قد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعدي إن اعتصمتم به: كتاب الله» رواه أبو داود وابن ماجه.

إنّه بمثل هذا علّمنا القرآن، وبهذا يشهَد كلّ من كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد من خلالِ عرضِ هذا القرآن في هذا الشهر المبارك، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

إنّ القرآنَ هو الحياةُ وهو النّجاة في زمنٍ أفلستَ فيه النُظم ووهنَت فيه العولمةُ الحرّة المزعومة في السّياسة تارةً وفي العلوم الدنيويّة

أخرى وثالثةً في القهرِ والجبروت ورابعة في الغزوِ الأخلاقيّ والثقافيّ المترجَم عبرَ وسائل تتلقّفها أقطار المسلمين يمنةً ويسرة إلاّ من رحِم الله. ويا ليت شعري هل تدرك أفئدةُ الكثيرين قولَ النبيّ ﷺ لعائشة رضي الله عنها في ليلةٍ من الليالي: «يا عائشة، ذريني أتعبَّد لربّي»، قالت: قلت: والله، إنّي لأحبُّ قربَك وأحبّ ما يسرّك، قالت: فقام فتطهّر، ثمّ قام يصلّي فقرأ القرآنَ، ثمّ بكى حتّى رأيتُ دموعَه قد بلغت حقويه، ثمّ جلس فحمدِ الله وأثنى عليه، ثمّ بكى حتّى رأيتُ دموعَه قد بلغت حجرَه، ثمّ اتّكأ على جنبه الأيمن ووضع يدَه تحت خدّه، ثمّ بكى حتّى رأيت دموعَه قد بلغت الأرض، فدخل عليه بلال فآذنه بصلاةِ الفجر وقال: ما يبكيك؟ قال: «لقد نزلت عليَّ الليلة آيات، ويلٌ لمن يقرؤها ولم يتفكّر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩٣]» رواه ابن حبّان بسند جيّد.

اللهمّ اجعل القرآنَ العظيم ربيعَ قلوبنا ونورَ صدورنا وجلاءَ أحزاننا وذهابَ همومنا وغمومنا، برحمتك يا أرحمَ الراحمين.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإيّاكم بما فيه من الآيات والذّكرِ الحكيم، قد قلتُ ما قلت، إن صوابًا فمن الله، وإن خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنّه كان غفّارًا.

أيّها المسلمون، اعلَموا أنّ عشركم هذه عناقد تناقصت وخرزُ عقدٍ لم يبقَ منها إلا القليل، فمن كان منكم محسنًا فيه فعليه بالإكمال، ومن كان مقصّرًا فليختمها بالإنابة والاستغفار، فهنيئًا لمن تفكّر في ذنوبه فبكى، وأسف على ما كان منه فرفع أكفّ الضّراعة إلى ربّه وشكا.



ألا فاتّق الله - أيها المسلم - فيما بقي، وأقبِل على ربّك إقبالَ التائبَ الآيب، وانظر كيف سار المتّقون في هذا الشهرِ ورجعتَ، ووصَلوا إلى المقصدِ وانقطعتَ، وأجابوا الداعيَ لكنّك قد امتنعتَ، لقد تفكّروا في تفريطهم فأنّوا، وتلهّفوا إلى رحمةِ الباري فحنّوا.

ألا ترى - أيّها المسلم - أنّ منزلةَ شهر رمضان مع بقيّة الشهور كمنزلةِ يوسفَ عليه السلام مع إخوانه الأحدَ عشر، وأنّ يعقوبَ عليه السّلام لم يرتدّ بصره بشيءٍ من ثيابهم، وارتدّ بقميصِ يوسفَ عليه السلام بصيرًا، فكذلك المذنب إذا شمّ روائحَ رمضان وجلسَ فيه مع الذّاكرين وقرأ القرآنَ فإنّه يرتدّ إليه قلبه وتحيَى

فيه نفسُه المطمئنّة، ويا لله ما أسعدَ من وفّقه الله لقيام ليلة القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر. فهل لك - أيّها المسلم - أن توافقَ هذه الليلةَ إن كانت فيما بقي، لتحظَى بثوابِ عبادةٍ تعادِل ثلاثةً وثمانين عامًا. ألا إنّ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

صعد رسول الله ﷺ درجاتِ المنبر، فلمّا رقِي عتبةً قال: آمين، ثم رقِي عتبةً أخرى فقال: آمين، ثم رقِي عتبةً ثالثة فقال: آمين، ثم قال: «أتاني جبريلُ فقال: يا محمّد، من أدركه رمضانُ فلم يُغفَر له فأبعدَه الله، قلتُ: آمين» الحديث رواه ابن حبان وغيره.

ثمّ اعلموا - أيّها المسلمون - أنّ الله قد فرَض عليكم صدقةَ الفطر على الحرّ والعبد والذكر والأنثى والصغيرِ والكبير، صاعًا من برٍّ أو أقِط أو تمر أو زبيب أو شعير أو ممّا يقتاتُه أهلُ البلد، والصاع النبويّ يساوي من الأرز بالوزن المتعارَف اثنين من الكيلو ومائتين غرامًا بالاحتياط.

ووقتُ وجوبِها يبدأ من ليلةِ العيد، والمستحبّ من صُبح العيدِ قبلَ الصلاة، ولا بأس في إخراجِها قبلَ العيد بيومٍ أو يومين.

كما يُسَنّ التكبير ليلةَ العيد إلى الصلاة واستحباب أكلِ ثلاثِ رُطَبات قبل أداء صلاة العيد اقتداءً بنبيّنا ﷺ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

تقبّل الله منّا ومنكم صالحَ الأعمال، وجعلنا وإيّاكم وإخواننا المسلمين مِن عتقائه من النّار، إنّه سميع مجيب.

اللهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنّك حميد مجيد

إشهار

تشهد مديرية التضامن الاجتماعي أنه قد تم إشهار الفروع التالية:
١- فرع أنصار السنة المحمدية بمطوبس ، بكفر الشيخ، بتاريخ ١٤/٨/٢٠٠٨م.
٢- فرع أنصار السنة المحمدية بالكوم الأحمر، أوسيم، جيزة بتاريخ ١٣ / ٩ / ٢٠٠٨م .
طبقًا للقانون (٨٤) لسنة ٢٠٠٢ بشأن الجمعيات والمؤسسات الأهلية واللائحة التنفيذية لذلك القانون. والله الموفق.

إنا لله وإنا إليه راجعون

توفي يوم الجمعة ٥/٩/٢٠٠٨م فضيلة الشيخ عبد الفتاح توفيق، من دعاة الجماعة، ومن مؤسسي فرع شبين الكوم.
نسأل الله تعالى له المغفرة والرحمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقفات مع آيات الحج

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده.

أمّا بعد: فأوصيكم - أيّها الناس - ونفسي بتقوى الله سبحانه، فاتقوه في الغيب والشهادة والغضب والرضا والفرح والترح، ألا فاتقوا الله - يا أولي الألباب - لعلّكم تفلحون.

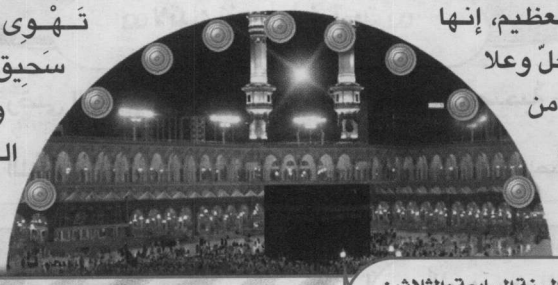
أيّها المسلمون، في هذه الأيام تترقّب نفوسُ المسلمين بعامّة حلولَ شهر ذي الحجة، وأفئدتهم تشرئبّ إلى انبثاق هلاله الوليد، وأسرابُ الحجيج بدأت تتوافد إلى البيت العتيق لأداء مناسك الرّكن الخامسِ من أركان الإسلام. إنهم يفدون إليه بخطَى الطاعةِ والاستجابة لأمر الله جلّ وعلا لخليله إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٣٧]. إنهم يفدون إليه ليشهَدوا منافع لهم ويذكروا اسمَ الله جلّ شأنه ونفوسُهم في الوقت ذاته مليئةٌ بحبّ الاستطلاع على معاني الحجّ وحِكَمه وأسراره من خلال أجواءِ النسكُ والتنقّل في عرصاتِ المشاعر المقدّسة.

عبادَ الله، إنّ وقفاتٍ يسيرةً مع آيات الحجّ في كتاب الله تعالى لهي كفيلةٌ في كشف شيء من أسرار الحج وحِكَمه وما تحويه من معاني التكامُل والتهذيب وأصولِ التخليَة المفضية إلى التحلية.

تتمثّل هذه الوقفاتُ في أعظم الحِكَم والمقاصد لهذا النُسُك العظيم، إنها الوقفةُ مع توحيد الله جلّ وعلا الذي بُني البيتُ العتيق من أجلِه وجُعل قصدُ الناس إليه من أرجاءِ المعمورة لإذكاء شعيرةِ توحيد العبادة وخلوصها لله سبحانه لا شريكَ له، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦].

إنّ التوحيد الخالصَ هو عماد خلافة الإنسان في الأرض، وهو أفضلُ ما يُطلب وأجلُّ ما يُرغب وأشرفُ ما يُنسَب، لا يُشيدُ الملك العتيدُ إلا على دعائم التوحيد، ولا يزول ويتلاشى إلا على الشرك. ما عزّت دولةُ الإسلام إلا بانتشاره، ولا ذلّت واستكانت إلا باندثاره.

إنّه التوحيد الخالصُ الذي يأرِز بالناس إلى برّ الأمان والوقايةِ من زوابع الشرك بالله في ألوهيته وربوبيته والإلحاد في أسمائه وصفاته. إنّه توحيدٌ يعلّق الرجاء بالله والخوف منه والاستعانةَ والاستغاثة به وأن لا يُحكم في الأرض إلا بما شرع الله سبحانه. إنّه التوحيدُ الذي يغمر قلوبَ المسلمين باليقين الخالص، والذي شُرع الحج لأجله حيث يقول الباري سبحانه: ﴿حُنَفَاء للَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].



ولذا جعل الله الكعبةَ البيتَ الحرام قيامًا للناس، وما الحجَر

الأسودُ إلا موضعُ الابتداء ونقطة التمييز في هذا البناء المبارك، وليس للبركة والتبرّك محلٌ مع الأحجار غير الاقتداء بالنبيّ ﷺ بتقبيله والطواف بالبيت، ولقد صوَّر الفاروق رضي الله عنه هذا الفهمَ الحسَن بقوله: (إني أعلمُ أنك حجرٌ لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيتُ رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتك). [أخرجه البخاري في الحج (١٥٩٧، ١٦١٠)، ومسلم في الحج (١٢٧٠)]

والمسلمُ ينبغي أن يعلمَ علمَ اليقين عندما يطوف بالبيت ويقبِّل الحجر الأسودَ ويستلم الركن اليمانيَّ أنّ النافع الضارَّ هو الله وحدَه، وأن أيَّ إخلالٍ بهذا المفهوم فإنّه يوقع في براثن الشرك بالله الذي ما أُسِّس البيت العتيق إلا لنفيه وإزالته، ولذلك بعثَ النبيّ ﷺ أبا بكر رضي الله عنه في العام التاسع بالحجّ لينادي في الناس يومَ النحر أن لا يحجَّ بعد العام مشرك ولا يطوفَ بالبيت عُريان. رواه البخاري ومسلم. ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠].

الوقفة الثانية

ووقفةٌ أخرى ـ عبادَ الله ـ مع آيات الحجّ، حيث يبيّن الله جلّ وعلا أحكامه وآدابَه ليعلمَ الناسُ ما يجب عليهم في تلك العرَصات، وما لأوامر الله من التعظيم والامتثال والتحذير من الإخلال بها أو التكاسُل عنها أو التساهُل بآحادها؛ إذ العبادةُ ليست محلاً للعبَث ولا للإخلال بها من أيّ وجهٍ كان، فلهذا جاء قول الباري سبحانه دالاً على توعُّد المقصِّر فيها والمتهاون عنها حيث يقول سبحانه بعد سرد شيء من أحكام الحج: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦]، ولم يقل: واعلَموا أنّ الله غفور رحيم، وذلك لأجل التأكيد على حرمة الحجّ وعلى حُسنِ الأداء على الوجه الأكمل؛ لأنّه يقع ضمنَ حدود الله جلّ وعلا التي شرعَها وهو القائل: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]، وليطالَ نفسَ المؤمن الانتباهُ إلى أنّ العقابَ في مقابل التهاون.



الوقفة الثالثة

ووقفةٌ أخرى مع آيات الحجّ عبادَ الله، تتَّضح في جعل الحجّ محلاً للتعاون والبذل والإحساس بالآخرين وسدِّ حاجتهم حتى في مواطن العبادة، فتأتي الآيةُ في سياق ذكر الحجّ دالّةً على عِظَم التعاوُن والحاجة إلى العطف على الفقراء والجوعى وسدِّ مسغبتهم، فيقول الله سبحانه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨]، وفي الآية الأخرى يقول: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج:٣٦]، والقانع هو الذي لا يسأل الناسَ إلحافًا مع جوعه وإملاقه، والمعترُّ هو الفقير الذي يتكفَّف الناس.

الوقفة الرابعة

ووقفةٌ رابعة عباد الله، تتجلّى في قيمة التقوى وعِظَم أثرِها وأنها هي الميزانُ الذي توزَن به الأعمال ويوزن به الناس، ولذا كثُرت الوصية بالتقوى في آيات الحج، فقد قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقال أيضًا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ

إعداد/ فضيلة الشيخ
سعود الشريم
إمام الحرم المكي

يـا أُولِي الأَلْبَـابِ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:٢٠٣]، وقال أيضًا: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]. إنها التقوى - عبادَ الله - التي هي جماعُ الخير كلِّه.

إنك - أيها المسلم - إذا عبدتَ الله على نورٍ من الله ترجو ثوابَ الله وتركتَ محارمَ الله على نورٍ من الله تخشى عقابَ الله فقد حقّقتَ التقوى بحذافيرها في واقعِ حياتك، والتي من خلالها تقوم بالحقوق المنوطةِ بك تجاهَ خالقك وتجاه إخوانك في الدين.

الحج وثمار التقوى

ومظاهرُ الحجِّ - عباد الله - كلُّها دالّة على هذا المقصد، فالمسلمون كلُّهم كالجسد الواحد، وهم كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا، والمسلمون في عرصَات الحجّ المبارَك يعيشون لحظاتٍ تتجسَّد فيها معاني التقوى المفرزة لأساس الأخوّة الوثيقة العُرى، التي تؤلِّف بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، فحينما يستبدل الحجّاج زيَّهم المعتادَ بزيِّ الحجِّ الموحَّد فيصبحون حينها بمظهرٍ واحد، ويتوجّهون إلى ربٍّ واحدٍ بتلبيةٍ واحدة، ويُسقطون بهذه التّلبية كلَّ هُتافٍ وطنيٍّ وكلَّ شعارٍ عِبِّيٍّ، يطوفون حولَ بيت واحدٍ، ويؤدّون نسكًا واحدًا. إنّ هذه الصورة الحيّةَ لتُعدُّ ثمرةً يانعة من ثمرات التقوى التي توحي إلى الناس بأنّه ليست هناك دواعٍ معقولةٌ تجعلهم يعيشون متناكرين متنافرين، عن اليمين وعن الشّمال عزين، وليس هناك دواعٍ إلى أن يتكبَّر المتكبِّرون ويتجبَّر المتجبِّرون، وليس هناك دواعٍ إلى التفاخُر بالأحساب والأنساب والألقاب، بل إنّ تمكّنَ التقوى من نفس العبد المؤمن ليجعله يستحضر بداهةً أنّ الله عزّ وجلّ قد ردَّ أنسابَ الناس وأجناسَهم إلى أبوين اثنين، ليجعلَ من رَحِم حوّاء ملتقًى رحبًا تتشابك عنده الصِّلاتُ وتستوثق العُرى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ﴾ [الحجرات:١٣].

إنّه التعارف والتآلفُ والتعاون، وليس للّون ولا للّسانِ ولا للّقَب محلٌ بينها، ولا للُّغة ولا للجنس والوَطن من حسابٍ في ميزان الله، إنما هناك ميزانٌ واحد تتحدَّد به القيَم ويُعرَف به فضلُ الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

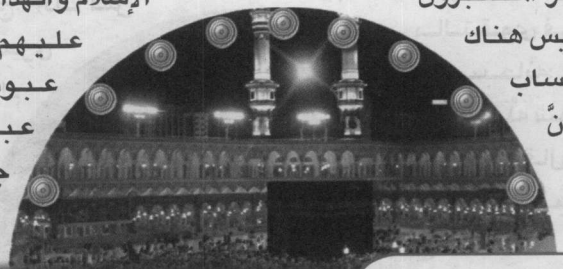
بالتقوى - عبادَ الله - يعلو المرءُ ويشرُف كما عَلا صهيبٌ وشرُف سلمان رضي الله تعالى عنهما، وبزوالها يتحقّق الذلُّ والهوان ويضَع الله تاركَها كما وضَع أبا لهبٍ بالشرك والكفر.

إنها التّقوى - عبادَ الله - التي جعلت محمّدًا ﷺ وهو من سادَة قريش يزوِّج ابنةَ عمّته زينبَ بنت جحش الأسدية بزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه وقد كان مولى للنبيِّ ﷺ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه لبعض أصحابه: [يا بني بَياضة، انكحوا أبا هندٍ وانكحوا إليه] وقد كان حجّامًا رضي الله عنه. رواه أبو داود والحاكم، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٤٦).

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

الوقفة الخامسة

ولنا وقفة خامسةٌ مع آيات الحجّ في كتاب الله تعالى، يذكّر الله من خلالها المسلمين بنعمة الإسلام والهداية التي منَّ الله بها عليهم؛ حيث أنقذهم من عبوديّة غير الله إلى عبوديّته وحدَه، ومن جَور الأديان إلى



عدلِ الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَعة الآخرة.

إنّه جلّ وعلا يذكّرهم بذلك وهُم في غمَرات المناسك يجولون ولرحمَة ربِّهم يرجون: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة:١٩٦]. وقال أيضًا: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:٣٧].

إنها نعمةُ الهداية للدين عبادَ الله، إنه الخروجُ من الظلمات إلى النور ومن الموت إلى الحياة، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

إنّ استقرارَ الفرد والمجتمعات لا يمكن أن يتحقّق إلا بالالتزام بالدين والتمسُّك بالإسلام تمسُّكَ الغريق بطَوق النجاة. وإنّ موسمَ الحج المبارك ليشدُّ الناسَ إلى الدين ويذكّرهم بحقّ الله. إنه يرفَع في النفوس السّويّة درجةَ الاستعداد لتغيير ما في النفس ليُغيِّر الله ما حلّ بهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

الدين أعظم الضرورات للناس

إنّ اللهَ يذكّرهم في آيات الحجّ بضرورة هذا الدّين لهم، وأنّ كلّ أمّة تهمل أمرَ دينها وتعطّل شرعَ ربها أو تستخفّ به أو تأخذ به على استحياء أو على شَرَقٍ فإنما هي تهمل أعظمَ طاقاتها وأسَّ العزّ فيها، وتعطّل أسبابَ فلاحها في الدنيا والآخرة، وكلّ أمّة يُفقَد التديُّن في مجتمعها أو تعلو راياتُ التراجُع بين صفوفها فإنها تضطرب لا محالة، ويموج بعضُها في بعض، ويقلب الله عزَّها ذُلاً وأمنَها خوفًا، فإن تولّت يستبدِل الله أقوامًا غيرَها ثم لا يكونوا أمثالها.

والمجتمعُ الذي لا يشعُر بحاجته للالتزام بالدّين يُعدُّ مجتمعًا عديمَ الإيمان بعيدًا من الرحمن لأنّ النبيَّ ﷺ يقول: [ثلاثٌ من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكرَه أن يقذَف في النار] رواه البخاري ومسلم.

إنه لا أهونَ على الله من أمّة لامسَ التدينُ شغافَها وبلغ مسامعَ بنيها وأبصارَهم، ثمّ هي تتناقص وتتخاذل وتقع في الحور بعد الكَور والضعف بعد القوة. ألا إنّ هدايةَ الله لدينه لا ينالها كلُّ أحد، بل هي منّة من الله ورحمةٌ ينبغي لمن أعطيَها أن يعضَّ عليها بالنواجذ أفرادًا ومجتمعات، وأن لا يكونَ لحظوظ النفس ودعاوى المغرضين سبيلٌ في إضعاف مقوِّمات الدّين في النفوس أو رجع الصّدَى لأصوات الناعقين بالتّراجع عن الدين بدعاوَى التحرُّر أو الإصلاح أو غير ذلك من الأساليب المقنَّعة، فإنّ الصبغةَ الحقيقية هي صبغةُ الله، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة:١٣٨]. وأمّا الحاقدون والمغرضون ولصوصُ الحروف الذين كرهوا ما نزّل الله فهم آفاتُ الفتَن وخرق السفينة الماخرة، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٢، ٤٣].

والحمد لله رب العالمين.



من
أعلام الجماعة

العلامة الشيخ
عبدالرزاق عفيفي
رحمه الله

ومعالم منهجه الأصولي

الحلقة الأولى

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس
إمام الحرم المكي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه وسلك سبيله إلى يوم الدين

أما بعد: فإن للعلماء في هذا الدين مكانة كبرى، ومنزلة عظمى، فهم ورثة الأنبياء، وخلفاء الرسل، والأمناء على ميراث النبوة، هم كواكب الأرض المتلألئة وشموسها الساطعة، وأطنابها القوية، وأوتادها المتينة، هم للأمة مصابيح دجاها، وأنوار هداها، هم الأعلام الهداة والأئمة التقاة، أضواء تنجلي بهم غياهب الظلم، وأقطاب تدور عليهم معارف الأمم، تتبدد بنور علمهم سحب الجهل، وغيوم العي، هم أهل خشية الله، كما قال الله سبحانه: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» [فاطر: ٢٨]، قرنهم الله بنفسه في الشهادة على وحدانيته فقال تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [آل عمران: ١٨].

وضمن الله لهم العلو والرفعة، فقال جل وعلا: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [المجادلة: ١١].

كما أنهم شهداء الله في أرضه وخلفاء رسوله في أمته والمحيون لما مات من سنته، بهم حفظ الله الدين، وبه حفظوا، وما عزت الأمم وبلغت القمم وشيدت الحضارات وقامت الأمجاد إلا بالعلماء، مثلهم في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة.

وفي المسند والسنن من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». (المسند ٣ / ٣١٧).

يقول الإمام أحمد رحمه الله في معرض فضائلهم ومآثرهم: «يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى،

ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». [الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله].

وإنما تبوأ العلماء هذه المكانة لما يضطلعون به من تبليغ علوم الشريعة التي هي مادة حياة القلوب والمقربة لعلام الغيوب، فبالعلم الشرعي تبنى الأمجاد وتشاد الحضارات وتبلغ القمم وتمحى غياهب الظلم، قال الله تعالى: «أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» [الأنعام: ١٢٢].

وإن من أهم علوم الشريعة وأجلها قدرًا وأعظمها أثرًا وأكثرها فائدة وأكبرها عائدة علم أصول الفقه؛ لأنه الطريق لاستنباط الأحكام الشرعية، فهو منهل الأئمة ومأوى المجتهدين ومورد المفتين لا سيما عند النوازل والمستجدات.

ولقد زخر تاريخ الإسلام بكوكبة من علماء الأصول في مختلف العصور مثلوا منارات عالية في سماء العلم والمعرفة، كما شهد عصرنا الحاضر نخبة مميزة من علماء الأصول يعدون امتدادًا لسلفهم من الأصوليين، بل إنه نتيجة لاستقرار المناهج الأصولية ونضج التفكير الأصولي المرتبط بالمنهج الصحيح لدى صفوة منهم أصبح من المهم إبراز منهج هؤلاء ودراسة حياتهم العلمية ومناهجهم الأصولية، لما لذلك من الأثر الكبير والخير الوفير على الباحثين وطلاب العلم عامة، والمهتمين منهم بالأصول على سبيل الخصوص.

ولقد كان من أعلام هذا العصر في العلوم الشرعية كافة وعلم الأصول خاصة شخصية علمية أصولية نادرة جديرة بالدراسة والإبراز والاهتمام، ذلكم هو العلامة الأصولي الشيخ عبد الرزاق عفيفي، رحمه الله.

ونظرًا لما يمثله الشيخ من مكانة علمية وأصولية، ولما يتمتع به من منهج متميز، وحاجة المكتبة الأصولية فيما أرى إلى بحث مستقل يبرز منهجه ويجلي طريقته، فقد عزمت على أن أقدم بحثًا في ذلك ؛ إسهامًا في البحث العلمي ومشاركة في إبراز المنهج الأصولي لعلمائنا الأفذاذ، وفاء بحقهم علينا وربطًا للأجيال بعلمهم ومنهجهم، وقد رأيت أن يكون عنوان هذا البحث: «الشيخ عبد الرزاق عفيفي ومعالم منهجه الأصولي».

المطلب الأول: اسمه ونسبه

هو الشيخ عبد الرزاق بن عفيفي بن عطية بن عبد البر بن شرف النوبي المصري أصلاً ومنشأ، والنجدي موطنًا ووفاة.

المطلب الثاني: مولده ونشأته

ولد رحمه الله في مصر في قرية تسمى «شنشور» في محافظة المنوفية سنة ١٣٢٣هـ، ونشأ رحمه الله نشأة دينية علمية، فحفظ القرآن صغيرًا، وأقبل على المتون العلمية في العقيدة والحديث والفقه واللغة ونحوها، فاستظهرها لما منَّ الله عليه بالذكاء وقوة الحافظة، وكان مجتمع القرية الصغيرة المحافظ والجو الأسري المترابط خير معين له على هذه النشأة الدينية العلمية.

المطلب الثالث: طلبه للعلم وحياته العلمية

تدرج الشيخ رحمه الله في سلك التعليم، فالتحق أولاً بالكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة، وهي ما يعرف اليوم بالمرحلة الابتدائية، وبعدها التحق بأحد المعاهد الأزهرية التي تعادل المتوسطة والثانوية، ثم التحق بالجامع الأزهر قبل أن يكون جامعة وتخرج ونال الشهادة العالية، ثم حاز شهادة التخصص، ثم حصل على الشهادة العالمية العالية، وجمع رحمه الله بين الدراسة النظامية والأخذ من الشيوخ مع حرصه الخاص على القراءة والتحصيل حتى بز الأقران، وفاق الخلان، وأشير إليه بالبنان بين زملائه ومجالسيه.

المطلب الرابع: شيوخه وأقرانه

تتلمذ الشيخ في مختلف المراحل النظامية لا سيما العليا على كوكبة من علماء الأزهر آنذاك، حيث كان يضم نخبة مميزة ممن اشتهروا بالعمق العلمي والتأصيل المنهجي، كما استفاد كثيرًا بعد قدومه للمملكة من سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله.

وكان من أشهر أقرانه سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز، والشيخ عبد الله بن حميد، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ محمد حامد الفقي، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والشيخ عبد الرحمن الأفريقي، والشيخ عبد الظاهر أبو السمح، والشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، والشيخ محمد خليل هراس، وغيرهم.

المطلب الخامس: حياته العملية

مزج الشيخ رحمه الله حياته العلمية بالعملية منذ كان طالبًا، خاصة في المراحل العليا، فكان يقوم بأعمال مباركة في الدعوة إلى الله والتدريس

والمشاركة في أعمال الخير، وعمل بعد تخرجه مدرسًا في المعاهد الأزهرية في بعض القرى ومدينة الإسكندرية، وقد انضم رحمه الله إلى جماعة أنصار السنة المحمدية ؛ لما عرف عنها من حرص على نشر العقيدة الصحيحة ودعوة الناس إلى الكتاب والسنة، وقد رشح رحمه الله في سن مبكرة نائبًا لرئيس لجماعة في الإسكندرية، ثم رئيسًا لجماعة أنصار السنة في مصر كلها خلفًا للشيخ محمد حامد الفقي، ورأس تحرير مجلة التوحيد المشهورة (التي كانت تصدر بعنوان الهدي النبوي) سنوات عدة، ثم يسر الله له القدوم إلى المملكة العربية السعودية فشرفت به وشرف بها وعمل مدرسًا في دار التوحيد بالطائف، ثم في عنيزة، ثم في معهد الرياض العلمي، ثم في كلية الشريعة بالرياض، وأسندت إليه مهمة وضع عدد من المناهج في المعاهد العلمية وكلية الشريعة، ولما افتتح المعهد العالي للقضاء عين أول مدير له وقام بوضع مناهجه، ثم بعد ذلك انتقل إلى رئاسة البحوث العلمية والإفتاء وعين نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء وعضوًا في هيئة كبار العلماء، وأشرف على عشرات الرسائل في الماجستير والدكتوراه، وشارك في أعمال التوعية الإسلامية في الحج مفتيًا ومدرسًا في المسجد الحرام والمشاعر في الموسم.

كما قام بالإمامة والخطابة والتدريس في مسجده بالرياض.

وهكذا كانت حياته رحمه الله مليئة بالتدريس والإرشاد والدعوة والإفتاء شأن العلماء العاملين المخلصين لدينهم وأمتهم، رحمه الله رحمة واسعة.

المطلب السادس: صفاته وأخلاقه

لقد جبل الشيخ رحمه الله على صفات كريمة ومزايا عظيمة قل أن تجتمع في رجل، فكان رحمه الله مثالاً في الشمائل الحميدة والأخلاق الحسنة، متسمًا بالورع والتواضع والزهد والبعد عن الأضواء مع ما وهبه الله من عمق في العلم وقوة في الحجة، كما كان رحمه الله عف اللسان، منصفًا للمخالف، حكيمًا في الرأي، بعيد النظر، مع قوة في الحق وتعامل بالحسنى وإنزال الناس منازلهم، كما كان رحمه الله مهيبًا ذا وقار وخشية.

أما الصفات الخَلْقية فكان رحمه الله ربعة من الرجال إلى الطول أقرب، أبيض البشرة، تزينه لحية طويلة تشعر بالبهاء والجلال والحرص على السنة في مظهره ومخبره، رحمه الله.

وله مواقف عظيمة ولطيفة، كما له إسهامات في البذل والجود في أعمال الخير والإنفاق على طلبة العلم، كما عرف بالصبر والتحمل والاحتساب فكسب حب الناس وثناءهم وتقديرهم، رحمه الله.

المطلب السابع: تلاميذه

يُعد الشيخ رحمه الله أستاذ جيل يعتبر اليوم النواة المباركة في نهضة هذه البلاد علميًا وقضائيًا وإداريًا، فلا نبالغ إذا قلنا إن الطبقة التي هي كبار علمائنا هم تلاميذ الشيخ رحمه الله، فقد استفاد من الشيخ رحمه الله كل من درس في المعهد والكلية والمعهد العالي للقضاء، وهم جمع غفير أذكر من أشهرهم:

١- سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ.
٢- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن غديان.
٣- د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.
٤- الشيخ صالح بن محمد اللحيدان.
٥- الشيخ د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.
٦- الشيخ د. صالح بن فوزان الفوزان.
٧- الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرام.
٨- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام.
٩- الشيخ عبد الله بن سليمان بن منيع.
١٠- الشيخ عبد الله بن حسن بن قعود.

وغيرهم كثير، بارك الله فيهم ونفع بهم الإسلام والمسلمين.

المطلب الثامن: وفاته

قدر الله على الشيخ رحمه الله الإصابة بأمراض في آخر حياته، وفي يوم الخميس الخامس والعشرين من الشهر الثالث سنة ١٤١٥هـ أدخل المستشفى إثر تردي حالته الصحية، وبقي فيه مدة وجيزة حتى فاضت روحه إلى بارئها عن عمر يناهز التسعين عامًا قضاها مجاهدًا بقلمه ولسانه معلمًا مدرسًا مفتيًا مرشدًا، وقد أم المصلين عليه سماحة مفتي عام المملكة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ بحضور جمع غفير من طلابه ومحبيه، ودفن في مقبرة العود في الرياض، رحمه الله رحمة الأبرار، وقد عزاه ولاة الأمر وفقهم الله والعلماء وطلاب العلم، وأثنوا على ما كان يتمتع به رحمه الله من مكانة علمية عالية وما لفقده رحمه الله من أثر على الساحة العلمية والإسلامية.

عوض الله المسلمين فيه خيرًا، ورفع درجاته في عليين، إنه خير مسئول وأكرم مأمول.

والحمد لله رب العالمين.

من أعلام الجماعة

العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمه الله

ومعالم منهجه الأصولي

الحلقة الثانية

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس
إمام الحرم المكي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه وسلك سبيله إلى يوم الدين.

أما بعد: فنكمل حديثنا حول العلامة الشيخ عبدالرازق عفيفي - رحمه الله.

آثار الشيخ العلمية ومؤلفاته

كان للشيخ رحمه الله ندرة في التأليف سببها تواضعه وتورعه رحمه الله، فمع غزارة علمه وسعة إدراكه وتبحره في علوم شتى، إلا أنه لم يعرف له إلا آثار قليلة، منها: «مذكرة في التوحيد»، و«حاشية على تفسير الجلالين»، وتعليق على كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي، كما أن له تعليقات يسيرة محفوظة على عدد من كتب العقيدة، كما أن له مقالات وكتابات في مجلة التوحيد والهدي النبوي، وله مجموعة من المحاضرات والدروس والمناقشات العلمية وفتاوى متنوعة جديرة بالعناية والرعاية والاهتمام، وعسى الله أن ييسر إخراجها حتى ينفع الله بها طلاب العلم والباحثين والمهتمين بالتحقيق، إنه جواد كريم.

وسنتكلم عن أهمية المنهج في مباحث على النحو التالي:

معالم منهج الشيخ عبدالرزاق الأصولي

ومع استفادة الشيخ رحمه الله من مناهج من سبقه، إلا أنه تميز بعدد من المعالم التي تميز منهجه رحمه الله.

وقبل أن أذكر هذه المعالم تفصيلاً أذكر منهجه إجمالاً كما ذكره هو رحمه الله في مقدمة تعليقه على كتاب الإحكام، فقد تحدث في مقدمته عن علم الأصول وأهميته ومناهج العلماء فيه، وأثنى على كتب المحققين منهم، ودعا إلى الاستفادة من طريقتهم لسلامة عقيدتهم، وحرصهم على النصوص، وسلوكهم مسلك الإيضاح والبيان والاختصار، وبعدهم عن الجدل وعلم الكلام، وعنايتهم باللغة العربية وكثرة الأمثلة والتفريع.. إلى آخر ما ذكره رحمه الله عن منهجهم الذي سار عليه، ثم بين عمله في الكتاب بعد أن أثنى على كتاب الآمدي وعلو أسلوبه ووضوح عبارته، فقال: «لذا اقتصرت على نقد دليل أو التنبيه على خطأ في رأي أو تأويل نص أو بيان ضعف حديث أو تصحيح لتحريف في الأصول التي طبع عليها قدر الطاقة مع الإيجاز ولم أستقص في ذلك».

ومما يرسم منهجه إجمالاً قوله أيضًا بعدما ذكر مناهج الأصوليين: «وأسعدهم بالحق من كانت نزعته إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ووسعه ما وسع السلف مع رعاية ما ثبت من مقاصد الشريعة باستقراء

نصوصها، فكلما كان العالم أرعى لذلك، وألزم له كان أقوم طريقًا وأهدى سبيلاً».

ومن يقرأ مقدمته رحمه الله يجد ملامح ومعالم منهجه مجملة، لذلك فسأفصل القول فيما أجمله عن طريق وضع معالم رئيسة مدعمة بالنماذج الحية على ما رسمه رحمه الله.

المبحث الأول: المعلم الأول: اهتمامه رحمه الله بإبراز عقيدة السلف ونقده ما يخالفها:

وهذا هو المعلم المهم والرئيس في منهج الشيخ رحمه الله، فمن المعلوم أن مناهج الأصوليين قد تأثرت بعلم الكلام واستقت من بعض المناهج العقدية المخالفة لمنهج السلف في العقيدة لا سيما المعتزلة والأشاعرة.

لذا كان الشيخ رحمه الله مهتما بإبراز عقيدة السلف في المسائل الأصولية التي لها علاقة بالعقيدة، ولما كان سيف الدين الآمدي رحمه الله علمًا في مذهب الأشاعرة تعقبه الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة، أذكر منها نماذج تثبت أهمية هذا المعلم في منهج الشيخ رحمه الله.

النموذج الأول: عند كلام الآمدي عن العلم وانقسامه إلى قديم وحادث، وجعله علم الله تعالى من القديم، عقب الشيخ رحمه الله بقوله: «وصف علم الله أو غيره من صفاته بالقدم لم يرد في نصوص الشرع وهو يوهم نقصًا».

ويزيد الشيخ رحمه الله هذه القضية جلاء في تعليق له على إطلاق الآمدي اسم القديم على الله سبحانه، فيقول الشيخ رحمه الله ما نصه: «أسماء الله وصفاته توقيفية ولم يرد في كتابه سبحانه ولا في سنة رسوله ﷺ تسميته بالقديم ولا إضافة القديم إليه أو إلى صفة من صفاته سبحانه، فيجب ألا يسمى سبحانه بذلك وألا يضاف إليه، وخاصة أن القدم يطلق على ما يذم كالبلي وطول الزمن وامتداده في الماضي وإن كان لمن اتصف به ابتداء في الوجود».

النموذج الثاني: وفي مسألة التحسين والتقبيح استدل المصنف الآمدي على مذهب الأشاعرة في منع التحسين والتقبيح العقليين بقوله: «السابعة: أن أفعال العبد غير مختارة له»، ثم رد عليه بكلام عقلي لا يفيد الرد على الجبرية، فعلق الشيخ رحمه الله بقوله: «وأيضًا هو مبني على أن العبد مجبور على ما يصدر من الأفعال وهو باطل».

وكلام الشيخ كما ترى يبين مذهب السلف في باب القدر، وأن للعبد مشيئة واختيارًا خلافًا للجبرية، وأنهم مجبورون على ما يصدر منهم من أفعال.

كما بين الشيخ رحمه الله في مبحث التكليف بما لا يطاق مذهب السلف في القدر ومخالفتهم للمعتزلة والجبرية.

وفصل مذهب السلف في القدرة من العباد على الأفعال في كلام نفيس لولا خشية الإطالة لنقلته بنصه.

النموذج الثالث: ونموذج ثالث في حرص الشيخ رحمه الله على إبراز عقيدة السلف والرد على المخالفين لها يظهر في مبحث المتشابه، حيث عد الآمدي جملة من آيات الصفات من المتشابه بإطلاق، وادعى أنها مجازات تحتاج إلى تأويل، كمثل قوله تعالى: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ» [الرحمن: ٢٧]، «مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا» [يس: ٧١]، «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» [البقرة: ١٥]، «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ» [آل عمران: ٥٤]، «وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ» [الزمر: ٦٧]. ثم قال بعدها: «ونحوه من الكنايات والاستعارات المؤولة بتأويلات مناسبة لإفهام العرب».

وقد علق الشيخ رحمه الله على ذلك بقوله: «لله سبحانه وجه ويمين حقيقة على ما يليق بجلاله، فإسنادهما إليه في الآيات والأحاديث لا يجوز فيه، ويطوي سبحانه السماوات بيمينه، ويجيء هو نفسه يوم القيامة حقيقة على ما يليق بكماله، وجاء إسناد البقاء إلى الوجه في الآية على معهود العرب في كلامهم وتعريبهم بمثل ذلك عن بقاء الشيء وصفاته جميعًا، واستهزاء الله ومكره بمن استهزأ بأوليائه وسخر منهم ومكر بهم حق على وجه يليق به مع كمال علم بما دبر، وإحكام له وعدل فيه، وقدرة على الانتقام بدونه بخلاف عباده، فقد يكون في مكرهم وتدبيرهم قصور وضعف في التنفيذ وجور في الخصوم وعجز عن الانتقام بدونه، إلا بعناية من الله وتسديد لعبده، فمن خطر بفكره عند تلاوة نصوص الأسماء والصفات استلزامها أو إيهام ظاهرها ما لا يليق بالله من تشبيه بخلقه فذلك من سقم فكره ووقوفه عند معهود حسه وقياسه ربه على خلقه، لا من كلام الله ولا من حديث رسوله ﷺ، فشبه أولاً، وظن السوء بالله وبرسوله ونصوص الشريعة ثانيًا، فاعتقد أن ظاهر ما ثبت عنهما يدل على التشبيه، واجتهد في تحريفها عن مواضعها وتاويلها على غير وجهها ثالثًا، دون بينة من الله تهديه الطريق، فانتهى به التعسف إلى التعطيل ونفى ما رضيه الله تعالى لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا».

وهكذا أبان الشيخ رحمه الله في هذا الأنموذج عقيدة السلف في صفات الله عز وجل وأنها حق تثبت على حقيقتها من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل على حد قوله سبحانه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: ١١].

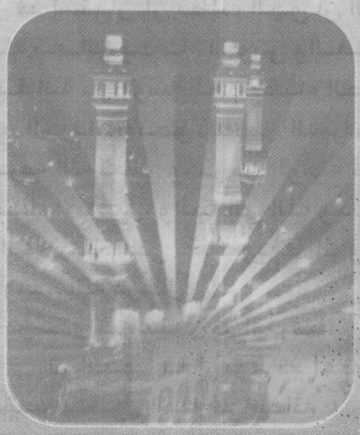
خلافًا لما عليه المعتزلة المعطلة والأشاعرة المؤولة، فأبدع رحمه الله وانتصر لعقيدة السلف بالدليل النقلي لا بالعقل المجرد.

ونكمل حديثنا عن منهج الشيخ - رحمه الله - في الحلقة القادمة بإذن الله تعالى.

منبر الحرمين

بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان

إعداد/ أسامة بن عبدالله خياط
إمام المسجد الحرام



إن الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فيا عباد الله، قال الله تعالى: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» [الحشر: ٧]، وقال عزّ شأنه: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [آل عمران: ٣٠].

فكلُّ ما يصدر من المسلم - يا عباد الله - يجب أن يوزَنَ بهذا المعيار الرباني، ألا وهو طاعة رسول الله ﷺ فيما جاء به، واتباعه فيما أمرَ به ونهى عنه، وإن رسول الرحمة والهدى صلوات الله وسلامه عليه قد نهانا عن الإحداث والابتداع في دين الله بأن نعبدَ الله بما لم يشرعه ولم يأذن به، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول في خطبة الجمعة: «أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». [أخرجه مسلم في صحيحه].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

وفي لفظ لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وفي هذا بيانٌ أن الله تعالى قد أكمل لهذه الأمة الدين وأتمَّ عليها النعمة، ولم يقبِض نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلا بعد أن بيَّن للأمة كلَّ ما شرعَه لها من الأقوال والأعمال، ومن ذلك بيانُه ﷺ أن كلَّ ما يحدثه الناس بعده من أقوال وأعمال هو مبتدَع مردود على مَن ابتدعه وأحدثه كائنًا من كان وإن نَسبه إلى الإسلام، وإن حسُن قصدُه في ذلك، فكل ذلك لا يغير من بدعية هذا العمل المحدث، ولا يعطيه حجية ولا قبولاً.

وإن مما ابتدعه بعض الناس في شهر شعبانَ هذا بدعةَ الاحتفال بليلة النصف منه وتخصيص يومها بالصيام وتخصيص ليلها بالقيام، وكلا الأمرين لم يقُم عليه دليلٌ صحيح ينهض للاحتجاج، إذ إنَّ كلّ ما ورد في فضل هذه الليلة وفي فضل الصلاة فيها أو فضل صيامها هو ما بين موضوع مخترع لا أصل له، وبين ضعيفٍ واهن لا يُحتج بمثله، وفي ذلك قال الحافظ

العراقي رحمه الله: «حديث صلاة ليلة النصف من شعبان موضوع على رسول الله ﷺ وكذبٌ عليه». وقال العلامة الإمام النووي رحمه الله: «الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب، وهي اثنتا عشرةَ ركعة بين المغرب والعشاء ليلةَ أول جمعة من رجب، وصلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة، هاتان بدعتان منكرتان، لا يُغترّ بذكرهما في بعض المصنفات ولا بالحديث المذكور فيهما، فإنّ كلَّ ذلك باطل». انتهى كلامه رحمه الله.

وكلا الإمامين الكبيرين - يا عباد الله - هما من الأعلام المشاهير المحققين في مذهب الإمام الشافعي رحمه الله.

وكذا صنّف الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي كتابًا هامًا في إبطال هاتين الصلاتين وبيان بدعيتهما، فأحسَن فيه حتى لم يدَع زيادةً لمستزيد.

وعلى تقدير أنها مفضلة، يعني على القولِ بأنها ليلة مفضلة إن سلمنا بذلك، فإن هذا لا يقتضي تخصيصها بعبادة مخصوصة بها دون غيرها، فإنّ يوم الجمعة هو خير يومٍ طلعت عليه الشمس كما ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خيرُ يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة». أخرجه مسلم في صحيحه.

ومع هذا الفضلِ العظيم له - يعني ليوم الجمعة - فقد نهى النبيّ ﷺ عن تخصيصه بصيام أو تخصيصِ ليله بقيامٍ كما ثبت في صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصّوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، إلا أن يكون في صوم يوم أحدكم».

فلو كان تخصيص شيء من هذه الليالي بشيء من العبادة جائزًا لكانت ليلةُ الجمعة أولى بذلك من سواها.

أما الليلة المباركة الواردة في قوله عز اسمه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» [الدخان: ٣]، فهذه الليلة هي ليلة القدر، وليست هي ليلة النصف من شعبان، كما بينت آية سورة القدر: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» [القدر: ١]، وهذه الليلةُ التي ورد الكلام عليها في قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»، هي في رمضان لا في شعبان كما هو معلومٌ يا عباد الله.

فاتقوا الله عباد الله، واحرصوا على العمل بالثابت المشروع، وحذارِ من الانسياق وراء المبتدَع المحدَث مهما زيّنه المزيّنون وزخرفه المزخرفون؛ إذ لا عبادةَ إلا بما شرع الله ورسوله ﷺ، فاتبعوا - أيها المسلمون - ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم.

جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي وابن ماجه في سننهم بإسناد صححه الألباني عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

فقوله صلوات الله وسلامه عليه: «كلّ بدعة ضلالة» - هو - كما قال أهل العلم - من جوامعِ الكلم، لا يخرج عنه شيء، وهو أصلٌ عظيم من أصول الدين، وهو كقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، فكل من أحدث شيئًا ونسبَه إلى الدين ولم يكن له أصلٌ من هذا الدين يُرجع إليه فهو ضلالة والدّين منه بريء، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

ألا فاتقوا الله عباد الله، وحذارِ من الابتداع فإنه شؤمٌ منذرٌ بسوء العاقبة، واستمسكوا بالثابت المشروع من دينكم، فإن العمل بالسنة يُمنٌ وبركة ومآل كريم ورضوان من الله رب العالمين.

واذكروا على الدّوام أن الله قد أمركم بالصلاة والسلام على خير الأنام، فقال في أصدق الكلام: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن خلفائه الأربعة.

من
أعلام الجماعة

العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي رحمه الله ومعالم منهجه الأصولي

الحلقة الثالثة

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس
إمام الحرم المكي

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره واهتدى بهداه وسلك سبيله إلى يوم الدين.

أما بعد: فنكمل حديثنا حول العلامة عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - فنقول وبالله تعالى التوفيق:

عنايته بالنصوص وصحة الأحاديث والآثار:

وهذا من المعالم المهمة في منهج الشيخ رحمه الله، بل من المرتكزات والأسس التي بنى عليها رحمه الله منهجه الأصولي، وإذا كان كثير من الأصوليين يبنون منهجهم على مدارس كلامية عقلية أو مذهبية فقهية فالشيخ رحمه الله يرفع لواء تعظيم النصوص والأدلة النقلية والتركيز على الاستدلال بها والاستنباط منها وطرح كل ما يخالفها، ومن النماذج على ذلك تعقبه الآمدي رحمه الله عند مقابلته الدليل العقلي بالشرعي حينما ذكر بعض الأمور المجمع عليها عقلاً وشرعًا. (الإحكام: ١/٢٨٣).

قال الشيخ رحمه الله ما نصه: «... ثم مقابلة العقلي بالشرعي، تشعر بأن رؤية الله وتنزيهه عن الشريك ونحوهما إنما ثبت بالدليل العقلي لا بدليل الشرع، وهذه طريقة كثير من المتكلمين، فإنهم يرون أن أدلة النصوص خطابية لا برهانية لا تكفي لإثبات القضايا العقلية والمسائل الأصولية، وهذا غير صحيح فإن نصوص الشرع كما جاءت بالخبر الصادق في القضايا العقلية وغيرها جاءت بتقرير الحق في ذلك بأوضح حجة وأقوى برهان، لكنها لم تجئ على أسلوب الصناعة المنطقية المتكلفة، بل على أسلوب من نزل القرآن بلغتهم بأفصح عبارة وأعلى بيان وأقرب طريق إلى الفهم وأيسره لأخذ الأحكام...» إلى قوله: «فاللهم أغننا بكتابك وسنة نبيك عن موارد الوهم ومزالق الضلال».

وفي نموذج آخر لما أجاب الآمدي إجابة عقلية محضة على اعتراض ورد في الاحتجاج بالتواتر، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «هذا الجواب لا يصلح ضابطًا ولا مقنع للخصم، بل يفتح باب الفوضى والتطاول على النصوص وردها بدعوى عدم العلم بها».

وفي موضع آخر عند الاحتجاج بخبر الواحد واعتراض الآمدي على من قال بحجيته، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «والنصوص تشهد لمن قال بأن خبر الواحد حجة في إثبات أصول الشريعة وفروعها».

وفي المبحث نفسه رد الآمدي قبول أخبار الآحاد وأجاب عن أدلة المحتجين به بأن المكلفين إنما يقبلون ما يخبرهم به الآحاد من جهة عقولهم، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «هذا غير صحيح، فالحجة إنما قامت بالأدلة النقلية وإلا كانوا مكلفين بذلك قبل ورود الشرع وقبل بلوغه مجرد الأدلة العقلية».

وإذا كان هذا كله في مجال التأصيل فالشيخ رحمه الله يحرص على النصوص حتى في مجال التمثيل، ومن النماذج على ذلك أن الآمدي رحمه الله لما مثل في باب الأمر المعلق على الشرط، كقوله: «إذا زالت الشمس فصلوا»، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «لو مثل بأمثلة من النصوص، كقوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» [المائدة: ٦]، وقوله: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا» [النور: ٥٩]، لكان أولى.

وإذا كان ما سبق ذكره في هذا المعلم في شقه الأول وهو عناية الشيخ بالنصوص، فإن الشق الثاني وهو اهتمامه بصحة الأحاديث والآثار لا يقل شأوًا عنه.

وذلك يتجلى في تعقب ما استشهد به الأصوليون عامة والآمدي خاصة من الأحاديث والآثار الضعيفة بل والموضوعة أحيانًا، فقد أمسك الشيخ رحمه الله بقلم الناقد البصير والمخرِّج القدير، غيرة على سنة النبي ﷺ واجتهادًا في أن تبنى مسائل الأصول على ما صح فيه الخبر عن سيد البشر عليه الصلاة والسلام، والنماذج في هذا أكثر من أن تحصر، بل إن الشيخ رحمه الله يتوسع أحيانًا في التخريج والحكم على الحديث، فيأخذ الصفحتين وأكثر، استطرادًا في الروايات، ونقدًا للرواة، ونقلاً عن علماء هذا الفن وحكمهم على الحديث سندًا ومتنًا.

وبعد: هذا هو المنهج الصحيح الذي ينبغي أن يحتذى؛ ليكون علم الأصول مؤسسًا على صحيح المنقول مع صريح المعقول، والله المستعان.

المعلم الثالث: تركه الإغراق في الجدل والمنطق والفرضيات والعقليات:

وهذا من المعالم البارزة جدًا في منهج الشيخ رحمه الله، بل يكاد يكون فيصلاً بين منهجه ومنهج عامة الأصوليين الذين تأثروا بعلم الكلام وأولعوا بالجدل والمنطق، واسترسلوا في المسائل الفرضية والمباحث العقلية.

ولقد كان الشيخ رحمه الله قوي المأخذ شديد الإنكار على صرف لب علم الأصول إلى مباحث كلامية ومسائل عقلية.

ولأضرب بعض النماذج على ذلك:

أولاً: في تعريف الكتاب وبيان حقيقة القرآن لما أطال الآمدي النفس في ذكر تعريفات الأصوليين له علق الشيخ رحمه الله بقوله: «كتاب الله أو القرآن من الكلمات الواضحة التي يفهم المراد منها الأميون وصبيان الكتاتيب، فتعريفه بمثل ما ذكر من التكلف الذي لا يليق بعلماء الشريعة مع ما فيه من غموض احتاجوا معه إلى سؤال وجواب، وإخراج ما يجب إخراجه بما فيه من قيود، فما كان أغناهم عن ذلك، لكنها الصناعة المنطقية المتكلفة تغلغلت في نفوس الكثير من العلماء».

ثانيًا: في إنكاره رحمه الله الافتراضات الخاطئة علق على اعتراض أورده الآمدي هو: «فإن قيل: فلو بعث رسول وظهرت المعجزة القاطعة الدالة على صدقه...» إلخ.

علق رحمه الله بقوله: «هذا من الفروض الممقوتة التي لا ينبغي الاسترسال فيها ولا ترتيب حكم عليها ولا الإجابة عنها، فإن البحث فيها بحث في غير واقع ودخول فيما لا يعني».

كما أنكر رحمه الله الأمثلة الافتراضية مثل ما أورده الآمدي بقوله: فلو قال: «نهيتك عن ذبح شاة الغير بغير إذنه لعينه، ولكن إن فعلت حلت الذبيحة، ونهيتك عن استيلاد جارية الابن لعينه».

علق رحمه الله بقوله: «هذه أمثلة فرضية لم يأت بمثلها الشرع».

ثالثًا: وفي مبحث قوادح القياس أورد الشيخ رحمه الله تعليقًا على ما له صلة وثيقة منها بالأصول، ثم قال رحمه الله: «وما لم يندرج تحت ما ذكرناه فهو نظر جدلي يتبع شريعة الجدل التي وصفها الجدليون باصطلاحهم، فإن لم يتعلق بها فائدة دينية فينبغي أن نشح على الأوقات أن نضيعها بها وبتفصيلها، وإن تعلق بها فائدة فهي ليست من جنس أصول الفقه بل هي من علم الجدل فينبغي أن تفرد بالنظر ولا تمزج بالأصول التي يقصد بها تذليل طرق الاجتهاد للمجتهدين».

رابعًا: وفي الاحتجاج بشرع من قبلنا لما ذكر الآمدي تكافؤ الأدلة، قال: «كيف وإن هذه الآيات متعارضة والعمل بجميعها ممتنع».

وقد علق الشيخ رحمه الله على ذلك بقوله: «هذا مسلك سيء وجدل ممقوت؛ لما فيه من ضرب آيات الله بعضها ببعض، وبمثل ذلك استولت الحيرة والشكوك على كثير ممن أولع بالجدل حتى تركوا النصوص الصحيحة إلى ما يزعمونه أدلة عقلية قاطعة، وقد تكون أوهامًا وخيالاً، واعتمدوا عليها وآثروها على النصوص، فازدادوا حيرة واختلافًا بينهم وتناقضًا في آرائهم، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور».

ولا أجد بعد هذه النماذج الحية تعليقًا على هذا المعلم المهم في منهج الشيخ رحمه الله، وقد تركت كثيرًا منها للاختصار.

التزامه المنهج العلمي الرصين:

لقد تميز منهج الشيخ رحمه الله في التعليق على المسائل الأصولية بالتزام الطريقة المثلى - في نظري - ومع التسليم بأنه رحمه الله لم يدرس المسائل دراسة متكاملة، إلا أنه ركز على لب المسائل وجوهرها وما ينعكس على المتلقي بالفائدة المرجوة بحيث يفهم المسألة فهمًا صحيحًا في أقرب صورة؛ ذلك لأنه رحمه الله سلك مسلك التعليق، ومع ذلك فقد جاء تعليقه ملتزمًا المنهج العلمي الرصين، ويتضح ذلك من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: عنايته بتحرير محل النزاع.

المطلب الثاني: تركيزه على التطبيق وكثرة الأمثلة وتخريجه الفروع على الأصول.

المطلب الثالث: اهتمامه بالتقعيد والتأصيل وبيان مقاصد الشريعة وحكمها وأسرارها.

المطلب الرابع: إيراده لثمرة الخلاف.

وسأورد في كل مطلب نماذج مختصرة تدل عليها في العدد القادم بمشيئة الله تعالى.

باب التراجم

الحلقة الثالثة

من أعلام الجماعة

العلامة الشيخ عبدالرزاق عفيفي

رحمه الله

معالم منهجه الأصولي

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس

إمام الحرم المكي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فنكمل حديثنا حول العلامة عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - فنقول وبالله تعالى التوفيق:

عنايته بتحرير محل النزاع

وتلك قضية مهمة يُغفلها كثير من الأصوليين، فلا يعلم المتلقي الجزئية التي وقع فيه الخلاف مما كان محل اتفاق، وذلك في المسائل الخلافية، ولذلك كان الشيخ رحمه الله كثيرًا ما يلفت النظر في تعليقاته على هذه القضية المهمة، ومن النماذج على ذلك:

١- في مسألة التحسين والتقبيح ذكر الآمدي إطلاقات العلماء واعتباراتهم في معنى التحسين والتقبيح، ثم علق الشيخ على ذلك بقوله: «الصحيح أن محل النزاع الحُسْن والقبح، بمعنى اشتمال العقل على مصلحة كان بها حسنًا، أو على مفسدة كان بها قبيحًا، ثم نشأ عن ذلك خلاف آخر: هل تثبت الأحكام في الأفعال من حسن أو قبح، ولو لم يرد شرع، أو يتوقف ذلك على ورود الشرع؟» ثم ذكر الأقوال في المسألة.

٢- كما كان الشيخ رحمه الله يعلِّق على ما ليس في محل النزاع في المسألة المراد بحثها، ومن ذلك أنه لما استدل الآمدي على منع تأخير البيان بقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «الأمر في هذه الآية للوجوب قطعًا، وليس من محل النزاع فيما تقتضيه صيغة الأمر؛ إذ محله الأمر المجرد من القرائن، وهو في الآية قد اقترن بالتهديد على الترك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

وهناك نماذج كثيرة تركتها؛ رغبة في الاختصار، وسأحيل على مواضعها إن شاء الله.

تركيزه على التطبيق وكثرة الأمثلة وتخريج الفروع على الأصول:

كان الشيخ رحمه الله حريصًا على وصول المعلومة للقارئ بأقرب طريق، فكان أن سلك مسلك القاعدة والمثال؛ إذ بالمثال يتضح الاستدلال. فكان كثيرًا ما يُورِد الأمثلة، ويعيب على الأصوليين تقصيرهم في ذلك، كما كان رحمه الله يركز على الجمع بين التأصيل والتفريع بربط المسائل الأصولية العلمية بالمسائل الفرعية العملية التطبيقية.

ومن النماذج على ذلك أن الآمدي رحمه الله لما أطال النَّفَس في تعريفات القياس، والاعتراضات عليها والإجابات عنها، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «ولو سلكوا في البيان طريقة القرآن، وسنة الرسول عليه

الصلاة والسلام، ومعهود العرب ومألوفهم من الإيضاح بضرب الأمثلة -وهذا محل الشاهد- لسهل الأمر وهان الخطب».

وحين يجنح الأصوليون إلى أمثلة افتراضية يطالبهم بالأمثلة الشرعية الواقعية، ومن النماذج على ذلك:

أنه حينما مثَّل الآمدي على مسألة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب بقوله: «كما لو قال الشارع: أوجبت عليك الصلاة إن كنت متطهرًا».

علَّق الشيخ رحمه الله على ذلك بقوله: «لو

> **كان الشيخ رحمه الله حريصاً على تجلية الثمرة العملية في مسائل الخلاف العلمية، وإذا لم يكن ثمَّ ثمرة أشار إلى أن الخلاف لفظي لا تترتب عليه ثمرة عملية**

مثَّل بأمثلة واقعية، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٥٩]، لكان أنسب وأنفع.

وفي ذلك كفاية إن شاء الله على الاستشهاد على هذا المطلب المهم.

اهتمامه بالتأصيل والتقعيد وبيان مقاصد الشريعة وحِكَمها وأسرارها:

وذلك مطلب مهم نحى فيه الشيخ رحمه الله منحى العناية بالجوهر واللباب لهذا العلم المهم، فقد جمع رحمه الله بين الاستدلال بالنصوص، وبين العناية والنظر في مقاصد الشريعة وحِكَمها، وذلك جمع بين الحسنيين في المنهج الأصولي، فهو لم يُغرِق في الجدل والمنطق ولم يجمد على ظواهر النصوص ولم يغفل المقاصد والقواعد والحِكَم والأسرار، وتلك واللَّه لا تتحقق إلا لمن أُوتِي المنهج الصحيح، ووُفِّق للطريق العلمي السليم.

ومن النماذج على ذلك أنه لما أورد الآمدي مسألة شكر المنعم عقلاً وردَّ على المعتزلة في الوجوب العقلي، علَّق الشيخ رحمه الله على ذلك ببيان مذهب أهل السنة في جمعهم بين النصوص وحِكَم الشريعة ومقاصدها، فقال رحمه الله: «والمخالف يعترف بذلك في تعليله الأحكام، وبيان حِكَمها وأسرارها، وخاصة في القياس، وبيان ميزة الشريعة الإسلامية على غيرها».

ومن النماذج المهمة في ذلك عناية الشيخ رحمه الله بالإحالة إلى مبحث المقاصد في كتاب الموافقات للشاطبي رحمه الله.

إيراده لثمرة الخلاف

كان الشيخ رحمه الله حريصًا على تجلية الثمرة العملية في مسائل الخلاف العلمية، وإذا لم يكن ثَمَّ ثمرة أشار إلى أن الخلاف لفظي لا تترتب عليه ثمرة عملية.

ومن النماذج على ذلك:

في مسألة المندوب هل هو من الأحكام التكليفية؟ فحينما ذكر الآمدي الخلاف في ذلك، علَّق الشيخ رحمه الله بقوله: «الخلاف في أن الندب والكراهة والإباحة من الأحكام أو لا؟ اختلاف في تسمية اصطلاحية لا فائدة عملية من ورائه».

وكذا في مسألة المباح وهل هو داخل في مسمى الواجب أو لا؟ علَّق الشيخ رحمه الله عليها بأن الخلاف فيها لفظي لا يترتب عليه ثمرة عملية تطبيقية.

كل ذلك وغيره كثير دليل على ترسُّم الشيخ رحمه الله المنهج العلمي الرصين، مما لا يسمح الاختصار بالاسترسال في بيانه وذكر النماذج عليه، وهي بادية للعيان بحمد الله لكل من قرأ عن الشيخ، وقرأ تعليقاته ومنهجه فيها. رحمه الله رحمة واسعة.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

العلامة الشيخ

عبد الرازق عفيفي

رحمه الله

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فنكمل حديثنا حول العلامة عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- فنقول وبالله تعالى التوفيق:

تميزه بالدقة واستقلال الشخصية

الحق أن كل قارئ لتعليقاته -رحمه الله- يلمس ذلك بجلاء، بل لا أبالغ حينما أقول: إنك واجد ذلك في كل تعليق له رحمه الله، فكلها تبين استقلال شخصيته العلمية والمنهجية والأصولية، وحينما يتأملها القارئ يجد الدقة بأجلى صورها.

وسأكتفي بنماذج قليلة محيلاً من أراد الاستطراد على أرقام الصفحات.

لقد كان -رحمه الله- حينما يذكر مسائل الخلاف يعلِّق مُبديًا رأيه، وشخصيته بأن الراجح كذا، أو الصحيح كذا، مرجحًا ومدللاً، ومعللاً ومفصلاً.

ففي مسألة التكليف بما لا يطاق، يعلق الشيخ -رحمه الله- فيقول: «الصحيح أن التكليف بما لا يُطاق لاستحالته عقلاً، أو عادة، غيرُ جائز، ولا واقع شرعًا، أما ما لا يطاق لما فيه من الحرج فقد يقع التكليف به إما عقوبة، وإما امتحانًا واختبارًا فقط».

ومن النماذج على ذلك: موقفه المتميز في مسألة الاحتجاج بخبر الواحد، فقد ذكر الآمدي حجج القائلين بإفادته العلمَ، ثم فنَّدها، فعلق الشيخ -رحمه الله- على ذلك، بقوله: «.. إلا أنه غير مسلَّم، فإنه قد يوجد من أخبار الآحاد ما يفيد بمجرده العلم، لكنه غير مطَّرد في كل خبر ولا لكل أحد؛ لتفاوت الرواة في صفات القبول، وتفاوت السامعين في المعرفة، وبُعد النظر ودقته».

والنماذج على ذلك أكثر من أن تُذكر في هذا المقام الموجز.

كما تبدو شخصيته -رحمه الله- بنقد الأقوال المرجوحة، والاستدلالات الضعيفة، والاستنباطات البعيدة، ونحو ذلك مما لا أجد مجالاً للإفاضة فيه، لكن سأكتفي بالإحالة إلى أرقام الصفحات كنماذج حية على ذلك. [انظر: ١ / ٣٥، ٧١، ٨٠، ١٢٨، ١٤٤، ٢٣٦، وغيرها].

المعلم السادس: ميله إلى التيسير والتسهيل وسلوكه مسلك الاختصار والوضوح:

وهذا المعلم وضَّاء في منهج الشيخ رحمه الله، فهو بعيد عن التكلف والإطالة، شغوف بالاختصار والوضوح، شديد الإنكار على مسالك المتكلمين والجدليين والمناطقة، وإليك بعض النماذج على ذلك:

١- ففي تعريف العلم والفقه حين ذكر الآمدي تعريفهما في أول كتابه، علق الشيخ -رحمه الله- على ذلك بقوله: «أولع الكثير بالتعاريف المتكلفة التي تورث العبارةَ غموضًا، والقارئَ لها حيرةً، ومن ذلك تعريف العلم والفقه ونحوهما مما ذكر المؤلف، ولذلك تراهم يحتاجون إلى شرح التعريف، وإخراج المحترزات، ويُكثرون من الاعتراض والجواب، ولا يكاد يخلص لهم تعريف من الأخذ والرد، والواقع أصدق شاهد».

وعلق بمثل ذلك عند تعريف القرآن.

وإذا ورد في المسائل الأصولية أمر يحتاج إلى توضيح بيَّنه بأيسر عبارة، وأوضح أسلوب بكلمات مختصرات مفيدات مصدَّرة بقوله: بيانه، أو توضيحه، أو نحوهما.

ومن النماذج على ذلك:

أن الآمدي رحمه الله في مبحث العلة المستنبطة مثَّل بقوله: «كتعليل وجوب الشاة في باب الزكاة بدفع حاجة الفقراء؛ لما فيه من رفع وجوب الزكاة». فعلق الشيخ -رحمه الله- على ذلك توضيحًا لمراد المؤلف، فقال: «بيانه: أن وجوب الشاة زكاة عن أربعين شاة، إذا كان المقصود منه مجرد دفع حاجة الفقراء، ولو ببذل القيمة، ارتفع وجوب

> الصحيح أن التكليف بما لا يطاق لاستحالته عقلاً أو عادة؛ غير جائز ولا واقع شرعًا، أما ما لا يطاق لما فيه من الحرج فقد يقع التكليف به إما عقوبة وإما امتحانًا واختبارًا له

معالم منهجه الأصولي

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس

الشاة على التعيين في الزكاة».

ولعل فيما سبق أكبر الشواهد على هذا المعلم، وإيثارًا للاختصار فسأكتفي بذكر أرقام الصفحات المبينة لنماذج أخرى في ذلك. [انظر: ١ / ٧، ١٦٠، ٢ / ٧١، ٣ / ٧٧، ١٩٠، ٢٤٤، ٢٨١، ٤ / ٢١، ٨٥، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٦٢، ١٩٨، ٢٢٧].

المعلم السابع: مجانبته التعصب والتقليد:

تبين مما سبق -لاسيما في المعلم الثاني- حرص الشيخ -رحمه الله- على الدليل، وتعظيمه للنصوص، وبناؤه منهجه الأصولي عليها؛ ولذلك كان -رحمه الله- بعيدًا عن التعصب لمذهب أو الجمود على مشرب، أو التقليد للغير بدون دليل صحيح، أو نظر سليم.

وإذا كان للأصوليين آراء ومناهج بنوا عليها مسائلهم واستنباطاتهم، وسار عليها الخلف اقتداءً بالسلف، فإن الشيخ -رحمه الله- كان له تميزه في ذلك، فلم يتعصب لمدرسة أصولية -متكلمين أو غيرهم- ولم يُسلم عقله ومنهجه لمذهب فقهي لا يحيد عنه، كما عليه كثير من الفقهاء والأصوليين، لكنه -رحمه الله- جانَب ذلك كله، وجعل الدليل منهجه، والنظر الصحيح مسلكه، فجاء منهجه متميزًا بمجانبة التعصب والتقليد المجرد، وهذه بعض النماذج على ذلك:

١- في محاولة الآمدي -رحمه الله- أن يقصر الرد للكتاب والسنة على المجتهدين فقط، وهو يومئ -ولو من طرف خفي- للتقليد للمذاهب، دون رجوع مباشر إلى الوحيين.

علق الشيخ -رحمه الله- على ذلك بقوله: «.. إن وجوب الرد إلى الله والرسول لم يُخَصَّ بحالٍ، ولا زمن، ولا بأحد، فيجب بقاؤه على عمومه، ولا يخرج منه إلا الرد إليه بسؤاله بعد وفاته لتعذره، وإلا من عجز عن الرد إليه لضعف استعداده أو مؤهلاته فلا يُكلَّف ذلك..». وهو ظاهر في اتباع الدليل وطلبه من كل أحد. ويتجلى هذا المعلم كثيرًا في مبحث الاجتهاد والتقليد عند الأصوليين يمثلهم الآمدي رحمه الله، فكان الشيخ -رحمه الله- يعلق على المسائل الخاصة بذلك، مما يؤكد هذا المنهج بجلاء.

خذ على سبيل المثال:

أول تعليق في باب التقليد أحال الشيخ -رحمه الله- القارئ إلى كلام المحققين من أهل العلم في هذه المسألة، الذين حققوا مناطها، وفصّلوا القول فيها حسب قوة الدليل وسلامة التعليل، وحذروا من التعصب والتقليد. [تعليق رقم ١، ٤ / ٢٢١ منه].

وفي التعليق الثاني فصل الشيخ -رحمه الله- في مسألة من يجوز له التقليد ممن يحرم عليه.

> حرص الشيخ -رحمه الله- على الدليل وتعظيمه للنصوص، وبناؤه منهجه الأصولي عليها، ولذلك كان -رحمه الله- بعيدًا عن التعصب لمذهب أو الجمود على مشرب أو التقليد للغير بدون دليل صحيح أو نظر سليم

إمام الحرم المكي

[كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، انظر: ١٩ / ٢٦٠، ٢٠ / ١٥ من مجموع الفتاوى، وكالعلامة ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين ج٢، أثناء كلامه عن التقليد وعقده مناظرة بين مقلد وصاحب حجة].

وفي التعليق الرابع حثّ على الدليل، وعظّم السنة، وعدّ مساواتها بالإجماع تسامحًا أو تحريفًا كما أورده المصنف، رحمه الله. [٤ / ٢١١، وانظر: تعليق رقم ٤].

وفي التعليق الخامس لما سوّى المصنف بين التقليد والاتباع والاستفتاء، وعدها خلافًا في عبارة، علق الشيخ -رحمه الله- بقوله: «ليس هذا مجرد اختلاف في العبارة والاصطلاح، بل الاختلاف بين حقائق ومدلولات تلك العبارات، يتبعه اختلاف في حكم بعضها، واتفاق على حكم بعض آخر». [تعليق رقم ٥، ٤ / ٢٢١].

وفي مسائل الاجتهاد فصّل الشيخ الكلام فيها بقول نفيس خلاصته: أنه لا يخلو منه زمان، وأنه لا ينقطع. [تعليق رقم ٢، ٤ / ٢٣].

وتلك دعوة إلى تحرِّي الحق في مسائل الاجتهاد، والنظر فيها على حسب أدلة وقواعد الشريعة الغراء.

ولعله بذلك قد تبين حرص الشيخ -رحمه الله- على تحقيق هذا المعلم المهم؛ حرصًا على ما دل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح، بعيدًا عن التعصب والتقليد، وفتحًا لباب الاجتهاد بالضوابط الشرعية والشروط المرعية.

وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.



الحلقة الخامسة

العلامة الشيخ

عبد الرزاق عفيفي

رَحِمَهُ اللهُ

معالم منهجه الأصولي

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس

إمام الحرم المكي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فنكمل حديثنا حول العلامة عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- فنقول وبالله تعالى التوفيق:

عنايته الفائقة باللغة العربية

اللغة العربية لغة القرآن الكريم، بها نزل، وبها أبان التوحيد وأوضح الأحكام، وبمعهود العرب ومألوفهم وأسلوبهم جاء الخطاب الشرعي، ولما كانت الألفاظ قوالب للمعاني، واللغة وعاء المعنى، فإن للغة العربية أثرًا كبيرًا وأهمية كبرى ومنزلة عظمى عند العلماء لاسيما علماء الشريعة، خاصة علماء الأصول؛ لأنها عمدة في معرفة دلالات الألفاظ وبناء الأحكام عليها، كما يحتاجها المجتهدون والمُفْتُون للنظر في دلالات اللفظ ومن ثَمَّ بناء الحكم عليه، ولهذا كانت اللغة مصدرًا يستمد منه علم الأصول، ومعينًا للأصوليين يبنون من خلاله استنباطاتهم وأحكامهم، وكذلك سلك الشيخ رحمه الله، فكان حريصًا على اللغة العربية، مجانبًا البعد عنها وتركها إلى فلسفات منطقية ومذاهب كلامية يبني عليها بعض الاستدلالات الشرعية.

فها هو رحمه الله يعيب على بعض الأصوليين خروجهم عن منهج الكتاب والسنة واللغة العربية إلى صناعات منطقية ومباحث كلامية لاسيما في الحدود والتعريفات.

فعند إغراق الآمدي في التعريفات للقياس والاعتراضات عليها والمناقشات والإجابات، علق الشيخ رحمه الله بقوله: «هذه التعاريف دخلتها الصناعة المنطقية المتكلفة، فصارت خفية غامضة واحتاجت إلى شرح وبيان، ومع ذلك لم تسلم من النقد والأخذ والرد، ولو سلكوا في البيان طريقة القرآن وسنة الرسول ﷺ ومعهود العرب ومألوفهم - وهذا هو الشاهد - من الإيضاح بضرب الأمثال لسهل الأمر... إلخ».

كما اعتنى رحمه الله ببناء الدلالات الأصولية - كدلالة الأمر والنهي، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والمنطوق والمفهوم، وغيرها - على ظاهر اللغة، فتبقى على دلالتها اللغوية حتى يأتي ما يصرفها عنه، كالدلالة الشرعية أو العرفية أو نحوها، وهذا هو المتمشي مع الأصل الذي سار عليه علماء الأصول.

كما كان رحمه الله كثيرًا ما يعلق على ملحوظات لغوية ونحوية مما تسامح فيه الآمدي؛ وذلك غيرةً من الشيخ رحمه الله على اللغة، وحرصًا على الالتزام بها، وبعدًا عن اللحن فيها.

والنماذج على ذلك كثيرة لا يسمح المقام بسردها، ولذلك فسأكتفي بالإحالة على بعض أماكن وجودها. [١ / ٢٤، ٣٠، ٣٢، ٣٦، ٥٢، وغيرها].

ولأختم هذا المعلم بهذه اللطيفة اللغوية، فقد أورد الآمدي لفظة: «ذات» على الله سبحانه وتعالى، فعلق الشيخ رحمه الله على ذلك بقوله: «جرى علماء الكلام والأصول على إطلاق كلمة: «ذات» على نفس الشيء وعينه وحقيقته، وأن يُدخِلُوا عليها الألف واللام، وهذا لا يصح في اللغة العربية، فإن كلمة «ذات» مؤنث كلمة «ذو»، وكلتاهما لا يدخل عليها الألف واللام، ولا تطلق على نفس الشيء وحقيقته، إنما تنسب إليه نسبة الصفة إلى الموصوف، وتضاف إلى ما لها به نوع ملابسة واتصال».

تأثره بمنهج المحققين من الأصوليين

من المتقرر أن من العلماء من لم يسلك منهجي المتكلمين والفقهاء المعروفين في علم الأصول، بل استفاد من إيجابيات كل منهما، وجانب المؤاخذات عليه، والتزم بصحة الدليل وسلامة التعليل والعناية بالتطبيق والتمثيل، مع وضوح العبارة، ومجانبة الولوغ في الجدل، فأخذ اللباب، واهتم بالجوهر؛ فكانت طريقته متميزة ومنهجه سليمًا، بل منهم من هو مدوِّن علم الأصول، لكن نهج من جاء بعده - في الغالب - نهج المتكلمين.

وذلك هو الإمام الشافعي رحمه الله؛ ولقد أثنى شيخنا رحمه الله عليه في المقدمة؛ فقال: «وكان أول من عُني بتدوين أصول الفقه فيما اشتهر بين العلماء أبو عبد الله محمد بن إدريس، فأملى كتابه المعروف بالرسالة، وقد جمع فيه بين أمرين:

الأول: تحرير القواعد الأصولية، وإقامة الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وإيضاح منهجه في الاستدلال، وتأييده

بالشواهد من اللغة العربية.

الثاني: الإكثار من الأمثلة لزيادة الإيضاح والتطبيق لكثير من الأدلة على قضايا في أصول الشريعة وفروعها، مع نقاش للمخالفين تزيده جزالة العبارة قوة وتُكسبه جمالاً، فكان كتابه قاعدة محكمة بنى عليها من جاء بعده، وكان منهجه فيه طريقًا واضحًا سلكه من ألَّف بعده في هذا العلم..».

وتوسع فيه إلى أن قال رحمه الله: «ولو سلك المؤلفون في الأصول بعد الشافعي طريقته في الأمرين تقعيدًا واستدلالاً وتطبيقًا وإيضاحًا بكثرة الأمثلة، وتركوا الخيال وكثرة الجدل والفروض، واطرحوا العصبية في النقاش والحجاج، ولم يزيدوا إلا ما تقتضي طبيعة النماء في العلوم إضافته من مسائل وتفاصيل لما أُصِّل في الأبواب، وإلا ما تدعو إليه الحاجة من التطبيق والتمثيل من واقع الحياة للإيضاح.. لسهل هذا العلم على طالبيه، ولانتهى بمن اشتغل به إلى صفوف المجتهدين من قريب».

وممن استفاد منه شيخنا رحمه الله الإمام أبو محمد ابن حزم رحمه الله، فقد أثنى عليه وعلى كتابه في الأصول من حيث العناية بالأدلة النقلية، والإكثار منها وربطها بالفروع، غير أنه رأى أنه لا يبلغ مبلغ الشافعي رحمه الله، وأنه أخذ عليه الجمود على الظاهر، وإغفال المقاصد والحِكَم الشرعية مع شدته في المعارضة والنقاش.

وإليك ما قاله الشيخ رحمه الله عنه وعن كتابه، والمقارنة بينه وبين الشافعي، فيقول: «وقد تبعه - يعني الشافعي - في الأمرين، وهما العناية بالقواعد الأصولية والاستدلال عليها، والتمثيل والتطبيق - أبو محمد علي بن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام، بل كان أكثر منه سردًا للأدلة النقلية مع نقدها، وإيرادًا للفروع الفقهية مع ذكر مذاهب العلماء فيها وما احتجوا به عليها، ثم يُوسع ذلك نقدًا ونقاشًا ويرجِّح ما يراه صوابًا، غير أن أبا محمد وإن كان غير مدافَع في سعة علمه واطلاعه على النصوص، وتمييز صحيحها من سقيمها، والمعرفة بمذاهب العلماء وأدلتها، وإيراد ذلك في أسلوب رائع وعبارات سهلة واضحة لم يبلغ مبلغ الشافعي، فقد كان الشافعي أخبر منه بالنقل، وأعرف بطرقه، وأقدر على نقده، وأعدل في حكمه، وأدرى بمعاني النصوص ومغزاها، وأرعى لمقاصد الشريعة وأسرارها وبناء الأحكام عليها، مع جزالة في العبارة تُذكِّر بالعربية في عهدها الأول، ومع حسن أدب في النقد، وعفة لسان في نقاش الخصوم والرد على المخالفين.

ولقد كان منهج الشيخ رحمه الله وموقفه من ابن حزم موقف المنصف، فأثنى عليه بما أصاب فيه، وانتقده حين أخطأ، والكمال لله وحده، بل إنه رحمه الله أحال على كتابه في كثير من المواضع، فعندما ذكر الآمدي أدلة المنكرين للقياس أحال إلى كلام ابن حزم في الإحكام؛ لأنه ذكرها وتوسع فيها، والنماذج على ذلك كثيرة.

ومن العلماء الذين تأثر الشيخ بهم العالم الإمام والمجاهد الهمام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، بل أكاد أقول: إنه الحائز لقصب السبق وصاحب القدح المعلَّى في تأثر الشيخ به، وليس هذا إلا توفيقًا من الله لهما، فشيخ الإسلام ابن تيمية لا يستطيع القلم في هذه العجالة ذكر أفضاله ومآثره في كل فن، لاسيما علم الأصول، مما حدا بشيخنا، بل بكل سالك مسلك التحقيق والتدقيق والعلم العميق، أن ينهل من معين علمه، وأن يستفيد من منهجه وطريقته، فقد جمع رحمه الله ما قل أن يجمعه غيره، ولقد استفاد منه الشيخ رحمه الله في تعليقاته، سواء منها ما يتعلق بالعقيدة، أو بالأصول أم بغيرها، حتى بلغ ما أحال الشيخ إلى كتبه وعلمه نحوًا من ستين موضعًا يصعب سردها في هذه العجالة؛ لذلك سأكتفي بالإحالة إلى نماذج من أرقام الصفحات في ذلك. [١ / ١٠، ٢٦، ٣٢، ٣٥، ٤٥، ٤٦،... وغيرها].

ومن العلماء الذين استفاد الشيخ منهم وتأثر بهم الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله، ولا غرو فهو تلميذ شيخ الإسلام وأشد طلابه ولعًا به وشغفًا بملازمته والنهل من علمه، وقد كان لابن القيم رحمه الله لمسات قيمة في علم الأصول، نهج فيها نهج شيخه رحمه الله، ولقد استفاد شيخنا رحمه الله من منهجه، وأحال في كثير من المواضع على كتبه، لاسيما إعلام الموقعين، وبدائع الفوائد وغيرهما، ولقد وصلت إحالة الشيخ إلى كتب ابن القيم إلى قرابة العشرين موضعًا.

ومن العلماء المحققين الذين استفاد الشيخ رحمه الله من علمهم ومنهجهم الإمام الشاطبي رحمه الله، الذي تميز منهجه بالنظر في مقاصد الشريعة، وجمع مسائل الفقه، ولو اختلفت أبوابها، تحت قضية أصولية، وقد أثنى الشيخ رحمه الله على منهج الشاطبي في مقدمة تعليقه على الإحكام، فلما ذكر المناهج الأصولية وأورد منهج الفقهاء وطريقة الحنفية قال: «ولو سلك هؤلاء طريق الاستقراء، فأكثروا المسائل الفقهية من أبواب شتى على أن يجمعها وحدة أصولية، كما فعل ذلك الشاطبي أحيانًا في كتاب الموافقات، وقصدوا بذلك الشرح والبيان والإرشاد إلى ما بينها من معنى جامع يقتضي اشتراكها في الحكم دون تقيُّد بمذهب معين ليخلصوا إلى القاعدة الأصولية، وأتبعوا ذلك ما يؤيده الاستقراء من أدلة العقل والنقل لكان طريقًا طبيعيًا تألفه الفِطَر السليمة وتعتمده عقول الباحثين المنصفين، ولاكتسبوا من قرأ في كتبهم استقلالاً في الحكم، وفتحوا أمامهم باب البحث والتنقيب، ويسَّروا لهم تطبيق القواعد الأصولية على ما جدَّ ويجد من القضايا في مختلف العصور».

ولهذا الإعجاب من شيخنا بالشاطبي رحمه الله فقد أحال إلى كتابه القيم «الموافقات» في مواضع شتى تزيد على العشرة لاسيما في كتاب المقاصد.

كما أحال الشيخ رحمه الله على كتاب الاعتصام للشاطبي رحمه الله.

وبذلك المعلم تتبين الكوكبة العلمية الوضاءة التي استنار الشيخ رحمه الله بمنهجها، واستقى من حسن طريقتها ومسلكها، فرحم الله الجميع ووفقنا للاستفادة من علمهم ومنهجهم.



الحلقة السادسة

العلامة الشيخ

عبد الرزاق عفيفي

رحمه الله

معالم منهجه الأصولي

بقلم: د/ عبدالرحمن السديس

إمام الحرم المكي



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فنكمل حديثنا حول العلامة عبد الرزاق عفيفي -رحمه الله- فنقول وبالله تعالى التوفيق:

موقفه المنصف من المخالف، وفقهه لأدب الخلاف

العلم والأدب صنوان لا يفترقان، بل أقول: ينبغي ألا يفترقان؛ لأن جمال العلم أدب جمّ يزين صاحبه ويدفعه للمعالي، ويبعده عن السفاسف، وعميق العلم لا يحتاج إلى لجاج في إثبات دعواه ولا تشنج في الرد على خصمه. وعفة اللسان منقبة كبيرة من وُفِّق إليها فقد وُفِّق للصواب، وكان حريًا بالأثر العظيم في نشر علمه وفقهه ومنهجه، وقد يُحرَم العالم من نشر علمه وإفادة الآخرين بسبب تقصيره في هذا المجال.

ولذلك لما فقه الصحابة أدب الخلاف ومن بعدهم الأئمة العظام؛ كان لذلك الأثر الفاعل في قبول الناس لقولهم والإفادة منه، وعلى ذلك سار أهل العلم والإيمان إلى يومنا هذا، ولله در النخبة والصفوة المميزة من علماء هذه الأمة كيف فقهوا العلم والأدب معًا، وما أحسن وأبلغ منهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك، فله فيه القدم الراسخة والقمة السامقة، وعلى ذلك درج العلماء، يأخذ الخلف بمنهج السلف.

وكان شيخنا رحمه الله من هؤلاء الأئمة الذين جمعوا بين العلم وأدبه، فكان لمنهجهم التميز الموفق، والأثر العظيم، فكان الشيخ رحمه الله يسلك مسلك الحجة والدليل والبرهان الناصع مع عفة لسان وحسن أدب، لاسيما عند نقد المخالف، بل لعله أن يعتذر عن مخالفه، فانظر إليه رحمه الله عند إيراده القصة التي رُمِيَ فيها الآمدي بترك الصلاة، فعمد إليه بعضهم وأوقع على رجله شيئًا من الحبر فبقيت نحو يومين. فينبري الشيخ انبراء المنصف فيلتمس العذر له فيقول: «قد يبقى الحبر أيامًا على العضو مع تتابع

الوضوء والغسل، وخاصة عضو من لا يرى التدليك فرضًا في الطهارة، بل يكتفي بإسالة الماء في غسله ووضوئه». ثم يختم القصة فيقول: «وعلى كل حال؛ فالأصل البراءة حتى يثبت النقل».

الله أكبر، هذا هو المنهج المتميز الذي يتلألأ أدبًا وأخلاقًا، أين هو من منهج كثير من الناس الذين أغرقوا بتتبع السقطات، وأولعوا بتصيُّد العثرات، فسوء الظن طويتهم، والمبادرة بالاتهام مطيتهم، فالله المستعان.

وقد كان الشيخ رحمه الله في تعليقه على مواضع من الإحكام مترسمًا منهج الأدب، فكان يصحح الخطأ، وينبه على الرأي المرجوح، فيقول مثلاً: الصحيح كذا، أو فيه نظر. ويبين الصواب، ولا يتهم أو يسيء الظن أو يعنِّف أو يقسو في العبارة، نعم قد يمسك المخالف من مأمنه، ويحتج عليه بنفس دعواه، ويتألم لمواضع التناقض عند من يخالفه، أو التعسف في الاستدلال أو تطويع النصوص لخدمة مذهب، أو الإقناع برأي معين.

وهذا نموذج يثبت ذلك: وهو أن الآمدي رحمه الله كثيراً ما يكرر أن مسائل الأصول قطعية، فيخالفه الشيخ رحمه الله، ويختار أن مسائل الأصول فيها ما هو قطعي، وفيها ما هو ظني، وقد تعقب الشيخ الآمدي رحمه الله في مواضع صرح الآمدي واعترف بأن بعض المسائل ظنية وأحيانًا يتوقف، ولم يكن الشيخ رحمه الله في ذلك معنفًا ولا متعسفًا، بل يوقف القارئ بكل أدب على خطأ المؤلف وتناقضه في المسألة.

ولعلي أختصر القول في ذلك بالإحالة إلى بعض النماذج الحية في هذا المعلم المهم، وهي كثيرة منها:[١ / ٨٨-١٣٣، ٢ / ٣٤-١١٧، ٣ / ٣٥-١٠٠، ٤/ ٣٢-٤٠، وغيرها].

وهكذا ينتهي الحديث عن هذا المَعْلَم، وبانتهائه تنتهي المعالم العشرة الرئيسة في منهج الشيخ الأصولي رحمه الله، وأعترف أنها خطوط عريضة وملامح خاطفة بحاجة إلى التعمق والدراسة والاستقصاء، وإني لأرى أن كل معلم منها بحاجة إلى بحث مستقل يتم من خلاله الشرح والبسط والاستقراء والتعليق والاستقصاء، لكن لعلي وُفِّقت بجهد المقل لأن

عفة اللسان منقبة كبيرة من وُفق إليها فقد وُفق للصواب، وكان حريًا بالأثر العظيم في نشر علمه وفقهه ومنهجه، وقد يُحرَم العالم من نشر علمه وإفادة الآخرين بسبب تقصيره في هذا المجال

أرسم صورة مختصرة عن منهجه رحمه الله، وإني لأطالب بدراسة آراء الشيخ الأصولية ومنهجه العلمي بشكل موسع ومقارن؛ ليفيد منه الباحثون وطلاب العلم عامة والمتخصصون في علم الأصول خاصة، فهو بحر محيط - بلا مبالغة - جدير بإبحار المختصين للحصول على دُرره ولآلئه وأصدافه، رحم الله الشيخ عبد الرزاق رحمة واسعة.

الخاتمة:

وفي الختام: إن كان هناك توصيات في هذا الصدد فإنها تكمن في الحاجة الماسة إلى إيلاء علم الشيخ ومنهجه في مختلف الفنون، لا سيما في العقيدة والأصول والفقه ونحوها - العناية والإبراز من قبل المتخصصين وطلاب الدراسات العليا، وضرورة نشر ذلك للباحثين وربط الناشئة والأجيال العلمية المعاصرة بعلمائهم ومشايخهم ذوي الاعتقاد الصحيح والمنهج السليم.

وقبل أن أضع القلم أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى للشيخ رحمه الله سابغ الرحمة والرضوان والفردوس الأعلى في الجنان، وأن يجزيه عن المسلمين وطلاب العلم خير الجزاء، وأن يوفق الباحثين للاستفادة من علمه ومنهجه، وأن يجمعنا به في دار كرامته، وأن يوفقنا لرد شيء من جميله؛ وفاءً لبعض حقه علينا؛ إنه جواد كريم، وهو سبحانه خير مسئول وأكرم مأمول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

منبر الحرمين

البركة وأثرها..

الحمد لله الكبير المتعال ذي العزة والجلال.. نحمده في النعماء كما نحمده في البلاء.. إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله.. إمام المتقين وسيد الأولين والآخرين صاحب المقام المحمود والحوض المورود، عليه من الله أفضل صلاةٍ وأزكى تسليم.. صلاةً وسلامًا دائمين ما تعاقب الجديدان وآله وصحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن الوصية المبذولة لي ولكم عباد الله هي تقوى الله سبحانه إذ هي الأنس عند الوحشة، والقوة عند الضعف، والبركة عند المحق والعلم عند الجهل ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

حضارة وتقدم بلا سعادة ولا راحة

أيها الناس.. إننا نعيش في زمنٍ بلغت فيه الحضارة المادية أوجها، بل بلغت مبلغًا لم تبلغه من قبل، ولم يخطر على بال البشر ممن قد غُمر سعةً في الكسب، ورغدًا في العيش ورفاهيةً في الوسائل، وتقدمًا ثائرًا في الضروريات والحاجيات والتحسينات، وتنوعًا في الأسباب الموصلة إليها منقطع النظير..

حياة عجيبة معاصرة تدهش العقول وتبهر العيون.. ما بين غمضة عينٍ وانتباهتها ترى جديدًا في عالم التطور المعيشي والمادي، بيد أن هذه الحضارة وهذا البركان الهائج في المسارات المادية لم تجعل المرء الذي يعايشها أسعد من المرء في أزمانٍ سابقة، ولم تجعله أهنأ من غيره، ولا أكثر أمنًا، ولا أشرح صدرًا مما مضى.

وما ذلكم عباد الله إلا لغياب أمرٍ يُعدُّ غاية في الأهمية.. ليس للحياة معنى بدونه لا في كسبٍ ولا في علمٍ ولا في طعامٍ ولا في شراب، بل ولا في الحياة برُمّتها.. إذن ما هو هذا الغائب الذي يستحق هذه الإشادة، ويستدعي مادة الإطراء؟

إنه يا عباد الله حلول البركة في ذلكم كله.. البركة عنصرٌ أساسٌ في تمام وجود الإنسان، لا قوام لحياته بدونها؛ إذ ما قيمة كسبٍ لا بركة فيه؟ وما قيمة وقتٍ مُحِقَتْ بركته؟ وما فائدة علمٍ وجوده وعدمه على حد سواء؟ وما نتيجة طعامٍ وشرابٍ لا يسمن ولا يغني من جوع.. لا يطفئ ظمأً ولا يروي غليلاً؟

البركة وأثرها

البركة ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد ولا في العلم المادي.. إنها قيمةٌ معنويةٌ لا تُرى بالعين المجردة، ولا تُقاس بالكمّ ولا تحويها الخزائن، بل هي شعورٌ إيجابيٌ يشعر به الإنسان بين جوانحه يثمر عنه صفاء نفسٍ وطمأنينة قلبٍ وانشراح صدرٍ وقناعةٍ ظاهرةٍ ورضا آمن.. وإذا كان أمان المرء في سربه، وتحصيله قوت يومه واستدامة صحته وعافيته.. إذا كان كل ذلك ضالة كل حيٍّ على هذه البسيطة

إعداد/ د. سعود الشريم
إمام وخطيب المسجد الحرام

وشجرة يستظل بها الأحياء.. فإن البركة هي ماء هذه الشجرة وغذاؤها وهواؤها وضياؤها.

إن الله جل جلاله قد أودع هذه البركة بفضله خاصيةً خارجةً عن عون المال ومدد الصحة بحيث يمكن أن تحيل الكوخ الصغير إلى قصرٍ رحب، وحين نفقد هذه البركة فسيرى صاحب القصر أن قصره كالقفص أو كالسجن الصغير.. كل ذلك بسبب البركة وجودًا وعدمًا؛ فالقليل يكثر بالبركة، والكثير يقل بفقدانها !

البركة يا عباد الله هي الزيادة والنماء، وهي في الوقت اتساعه وإمكان استغلاله، وفي العمر طوله وحسن العمل فيه، وفي العلم الإحاطة به والعمل بمقتضاه والدعوة إليه، وهي في المال وفرته مع الكفاية منه، وفي الطعام إشباعه، وفي الشراب إرواؤه، وفي الصحة تمامها وسلامتها من الأدواء.. وقولوا عنها مثل ذلكم في شئون الحياة كلها.

معاناة من قلة البركة

أيها الناس.. غالبية الناس وجمهورهم يعانون قلة البركة في معاشهم العام والخاص.. يرون أنهم في عالم الوفرة وتقريب البعيد وتسهيل الصعب، غير أن الرضا عن الحال خداج غير تمام.. مال يأتي وطعام يؤكل وذرية تولد، لكنها تذهب سبهللا دون بركة؛ فهذا كثيرٌ راتبه ولا بركة فيه.. وهذا كثيرٌ ولده ولا بركة فيهم، وهذا واسع علمٍ ولا بركة فيه ولا نفع.. بل إن ذلكم قد تجاوز حدود الأفراد ليصل إلى المجتمع بمجموعه؛ ففي الحضارة المعاصرة نرى العالم الأول والثاني يقرضان شعوب العالم الثالث أموالاً ثلثها ثمن لسلعٍ هي من صنعهم، والثلث الآخر أجور العاملين والمشرفين من العالم المقرض على هذه السلع، وبقية القرض للنفقات المرتقبة مع ثبوت ضريبة القرض بالنسبة المئوية للمبلغ كله، ثم تمضي السنون والمدين البائس يؤدي أكثر مما اقترض، والقرض باقٍ لم ينقص، أما الدائن المقرِض فقد باع سلعه، وأعمل أفراده، وبقي ممسكًا برقبة المدين يلوح له بالخنق بين الحين والآخر.. فأي بركةٍ تراها تلك المجتمعات في واقعها وحالها كالذي يشرب الماء المالح.. كلما شرب منه كلما ازداد عطشا؟!

حلول البركة

عباد الله.. لو رجعنا قليلاً إلى الوراء لوجدنا أمثلةً كثيرة لحلول البركة وتواجدها في عصر النبي ﷺ وعهد أصحابه رضي الله عنهم وعهود من بعدهم إلى زمنٍ ليس عنا ببعيد.. فقد كان النبي ﷺ يجد البركة في الرغيف والرغيفين، وربما شبع هو وأصحابه من صحفةٍ واحدة.. وكان عثمان رضي الله عنه الذي جهّز جيش العسرة قد بلغت ثمرة نخله مائة ألف أو تزيد.. حيث بارك الله له إنفاقه في سبيله، وهذا الزبير بن العوام قد أوصى ولده عبد الله أن يقضي دينه الذي يبلغ ألفي ألف ومائتي ألف- يعني مليونين ومائتي ألف- وقد قال لولده عبد الله: «يا بني.. إن عجزت عنه في شيءٍ فاستعن عليه بمولاي؛

فوالله ما وقعت في كربةٍ من دينٍ إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه دينه، وكان لم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين له، ودارت الأيام وبارك الله في أرض الزبير وبيعت، فبلغت تركة الزبير خمسين ألف ألف ومائتي ألف- يعني خمسين مليونًا ومائتي ألف- وكان له أربع نسوة.. فصار نصيب كل واحدةٍ منهن ألف ألف ومائتي ألف- يعني مليونًا ومائتي ألف- كنصف مقدار الدَّيْن الذي عليه. هذه القصة رواها البخاري في صحيحه.

مصدر البركة

فانظروا- يا رعاكم الله- كيف تكون البركة.. وقد جاء في مسند أحمد: أنه وُجد في خزائن بني أمية حنطة.. الحبة بقدر نواة التمر.. وهي في صرةٍ مكتوب عليها: «هذا كان ينبت في زمن العدل».. فلاحظوا - يا رعاكم الله- كيف رهنت البركة في ذلك الزمن بالقسط والعدل وترك المظالم، ولقد قال أبو داود - صاحب السنن - عن نفسه: «شبرت قثاءة بمصر ثلاثة عشر شبراً، ورأيت أترجة على بعير قطعتين.. قُطعت وصيرت على مثل عدلين».. وذكر معمر بن راشد: «أنه رأى باليمن عنقود عنبٍ حِمْل بغلٍ تام»..

هذه بعض الشذرات - عباد الله - تفيد في أمر البركة عند المتقدمين على هذه الحضارة الهائجة التي تشح فيها البركة لتجعلنا بين زمنين مباركين: زمنٍ سابقٍ لنا، وزمنٍ لاحقٍ بعدنا.. كما في صحيح مسلم من قول النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا كما كانت مروجًا وأنهارًا»، وكما في صحيح مسلم أيضًا: «ما يكون في آخر الزمان من البركات التي تنزل على الناس حتى تستظل الجماعة من الناس تحت قشرة الرمانة لعظم حجمها، وحتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس؛ أي الجماعة الكثيرة».

ألا فاتقوا الله عباد الله، والتمسوا لأنفسكم مواضع البركة في حياتكم وراجعوا أنفسكم باحثين عن أسباب فقدانها، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم..

عوامل تحصيل البركة

أيها الناس.. إن من ينشد البركة في نفسه وماله وشأنه كله، ما عليه إلا أن يلتمس مظان هذه البركة، ويتتبع أسبابها، وإن من استقرأ شرعة المصطفى ﷺ ليجد أن جماع البركة يحصل في الأمور الآتية:

أولاً: أن يتقي المجتمع المسلم ربه، ويؤمن به على ما أراد الله له، وأراد له رسوله ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وثانيها: الشكر على الرزق؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقد قال النبي ﷺ: «ما أنزل الله من السماء من بركةٍ إلا أصبح فريقٌ من الناس بها كافرين». رواه مسلم.

وثالثها: الكسب الحلال واجتناب التعامل بالربا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

والنبي ﷺ يقول: «إن هذا المال خضرةٌ حلوة.. من أصابه بحقه بُورك له فيه، ورُبَّ متخوضٍ فيما شاءت به نفسه في مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار» رواه الترمذي.

ورابع هذه الأسباب عباد الله: القصد وعدم

الإسراف المذموم؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].. وكل شيء داخله الشيطان فلا بركة فيه؛ ولذا يقول النبي ﷺ: «أعظم النساء بركةً أيسرهن صداقا». رواه البيهقي والنسائي.

وخامس الأسباب عباد الله: يكون في الصدق؛ فإن الله يبارك في الإنسان الصادق باطنًا وظاهرا، حاكمًا أو عالمًا، أو تاجرًا أو كائنًا من كان.. فإن النبي ﷺ يقول: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا.. فإن صدقا وبيَّنا بُورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقتْ بركة بيعهما» رواه البخاري ومسلم.. وقد ذكر ابن القيم رحمه الله: «أن بركة العالم في صدقه: تبليغه للحق، وعدم كتمانه للعلم، وإن كان حاله بعكس ذلكم؛ فإن الله قد أجرى سنته أن يمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك».

وسادس الأسباب عباد الله: الدعاء واللجوء إليه؛ فإنه سبب من أسباب البركة كما في قصة الزبير الآنف ذكرها..

وآخر هذه الأسباب عباد الله هي: القناعة المتمكنة من قلب المؤمن، وقد فسر بعض أهل العلم قول الله تعالى ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً...﴾ [النحل: ٩٧] قالوا: هي القناعة؛ إذ لم يُعط المرء شيئًا مثل القناعة.

قال أبو حاتم البستي: إن تمكن المرء بالمال القليل مع قلة الهمّ أهنأ من الكثير للتبعة.

يتنافس التجارُ في الإكثار
من درهمٍ في المال أو دينار
لو يُرزقُ التجارُ بعض قناعةٍ
لرأوا بأن الفرقَ في الأصفار

هذا، وصلوا - رحمكم الله - على خير البرية وأزكى البشرية محمد بن عبد الله صاحب الحوض والشفاعة؛ فقد أمركم الله بأمرٍ بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال - صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى علي صلاة صلّى الله عليه بها عشرًا».

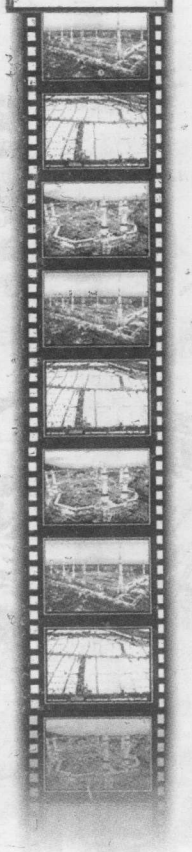
اللهمّ صلِّ وسلِّمْ وزِدْ وبارِكْ على عبدك ورسولك محمدٍ صاحب الوجه الأنور والجبين الأزهر، وارض اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين - أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - وعن سائر صحابة نبيك محمدٍ - ﷺ - وعن التابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين. اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين واخذل الشرك والمشركين.. اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك وعبادك المؤمنين.. اللهم فرج هم المهمومين من المسلمين ونفس كرب المكروبين واقض الدين عن المدينين، واشف مرضانا ومرضى المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك يا رب العالمين.. اللهم وفق ولي أمرنا لما تحبه وترضاه من الأقوال والأعمال يا حي يا قيوم، اللهم أصلح له بطانته يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم ما سألناك من خير فأعطنا، وما لم نسألك فابتدئنا، وما قصرت عنه آمالنا من الخيرات فبلغنا.. ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار.. سبحان ربنا رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فقه السياسة الشرعية

لفضيلة الشيخ
حسين بن عبد العزيز آل الشيخ
إمام المسجد النبوي

الحمدُ لله وحدَه، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهَد أنَّ سيِّدنا ونبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آله وصحبه... وبعدُ:

فمنَ الأصولِ العُظمَى في هذا الدين: وجوبُ أداء الأمانة بشتَّى صورِها، ومِن القواعد الكُبرى: تحريمُ الخيانةِ بمختلَف أشكالها، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ويقول ﷺ: «كلُّكُم راعٍ، وكلَكم مسئولٌ عن رعيَّته، والإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيَّته» [متفق عليه].

ومن هنا فأعظمُ أسباب كوارث الأمّة وفساد أوضاعها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغيرها: الإخلالُ بهذه الأصول العُظمى والقواعد الكُبرى، فكم وقَع من المصائب في الأبدان، والآلام في البلدان والكوارث في المُقدَّرات بسببِ تضييع الأمانة والوقوع في الخيانة!!!

وإنَّ أعظمَ الأمانات: أمانةُ الولايَة بمختلف مستوياتها، وتنوُّع مراتبها من الولاية العُظمَى إلى الولايات الصغرى؛ ولهذا جاء التشديدُ على أهميَّة الولاية والعناية العظيمة في الإسلام، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ الله، ألا تستعملُني؟ فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذرٍّ، إنَّك ضعيف، وإنها أمانة، وإنَّها يومَ القيامة خِزيٌ وندامَة، إلا من أخذها بحقِّها وأدَّى الذي عليه فيها» [مسلم ١٨٢٥]، وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامَة يومَ القيامَة» [البخاري ٧١٤٨].

ومن هذا المنطلَق أحاطَ الشرعُ العظيمُ جميعَ الولايات وكافّةَ المناصب بسياجات من الأوامرِ والنواهي التي متى رُوعيت أُدِّيَت الأمانةُ على أكمل وجهها، وتحقَّقت بهذه الولايَة المصالحُ المتنوِّعَة، واندرأت بها المفاسد المختلفةُ، فكانت العاقبةُ حميدةً والسيرة طيِّبة والنتائج مرضيّةً، وصدق الله ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وإنَّ من هذه السِّياجات أنَّ الإسلام أوجبَ على صاحبِ الولاية -حاكمًا كان أو غيره- العدلَ التام في جميع مسئوليّات ولايته، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقد مدحَ النبيُّ ﷺ العادلَ في ولايته القائمَ بالقسط في منصبه، فقد ذكر ﷺ في السَّبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: «إمامٌ عادل» [متفق عليه]، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وعن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المُقسطين عندَ الله على منابرَ من نور؛ الذين يعدلون في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا» [مسلم ١٨٢٧].

ومن الأصول التي جاء بها الشرعُ في باب الولاية: التحذيرُ من الظُّلم بشتَّى صوره، ففي الحديث القدسي فيما يرويه ﷺ عن ربِّه أنَّه قال: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم مُحرَّمًا، فلا تظالَموا» [مسلم ٢٥٧٧]، وفي توجيه النبيِّ ﷺ لمعاذٍ رضي الله عنه حين بعثَه إلى أهل اليمن قال: «واتَّقِ دعوةَ المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين الله حجابٌ» [متفق

عليه].

ويُوجِّهُ الرسولُ ﷺ التَّحذيرَ لمن تولَّى للمسلمين عملاً -حكَّامًا كانوا أم غيرهم- أن ينهَجوا أيَّ صورةٍ من صورِ الظلم في ولايتهم، فيقول ﷺ: «إنَّ اللهَ ليُملي للظَّالم حتى إذا أخذَه لم يُفلتْه»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] [متفق عليه].

ومن السِّياجات-أنَّ الشريعةَ فرضَت على كلِّ من تولَّى أيَّ ولايةٍ للمسلمين أن ينصحَ لهم ويُخلصَ في خدمتهم، وأن يصدُقَ في رعايةِ حاجاتهم، قال ﷺ: «ما من عبدٍ يسترعيه الله رعيةً يموت يومَ يموت وهو غاشٌّ لرعيَّته إلا حرَّم الله عليه الجنَّةَ»، وفي روايةٍ: «فلَم يَحطْها بنُصحه لم يجدْ رائحةَ الجنة» [متفقٌ عليه]، وفي روايةٍ لمسلم: «ما من أميرٍ يلي أمورَ المسلمين ثم لا يجهَدُ لهم وينصَحُ لهم إلا لم يدخلِ الجنةَ معهم» [مسلم ١٤٢].

ومن السِّياجات التي جاءَ بها الإسلامُ في هذا الجانب: وجوبُ الرِّفق بالرعيَّة والشفقةِ عليهم والرَّحمة بهم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللَّهمَّ من وليَ من أمرِ أمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم، فاشقُق عليه، ومن وليَ من أمرِ أمَّتي شيئًا فرفَقَ بهم، فارفُق به» [مسلم ١٨٢٨]، وعن عائذ بن عمرو رضي الله عنه أنه دخَل على عُبيد الله بن زياد فقال له: أيْ بُنَيَّ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ شرَّ الرِّعاء الحُطَمة»، فإياك أن تكون منهم. [متفق عليه]. والحُطَمة: هو العنيفُ القاسي الذي يظلمُ رعيَّته، ولا يرقُّ لهم ولا يرحمهم.

وإنَّ من التوجيهات الإسلاميَّة لمن تولَّى للمسلمين ولايةً أنه يجب عليه أن يسمعَ لحاجاتهم، وأن يحرصَ على البحث عن شئونهم، والتحرِّي عن كلِّ ما يُصلحُ أوضاعَهم، وأن لا يجعلَ بينه وبينهم ما يحجبُه عن أحوالهم ومعرفةِ أوضاعهم، فعن أبي مريمَ الأزديِّ رضي الله عنه أنَّه قال لمعاوية رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن ولاَّه الله شيئًا من أمورِ المسلمين فاحتَجبَ دون حاجاتهم وخلَّتهم وفَقرهم، احتَجبَ الله دونَ حاجَته وخلَّته وفقره يوم القيامة»، فجعل معاويةُ رضيَ الله عنه رجلاً على حوائجِ النَّاس. [رواه الترمذي ١٣٣٢ وصححه الألباني].

ومن التوجيهات في الإسلام لأهل الولايات أنه أوجبَ عليهم أن يحرِصوا على تقريبِ أهلِ الخيرِ والهُدى وذوي الصلاحِ والتقوى، وأن يبعُدوا عن أهلِ الشَّرِّ والفسادِ والهوى، روى البخاري عن أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

«مَا بعَثَ اللهُ من نبيٍّ ولا استخلَفَ من خليفةٍ إلا كانَت له بطانتانِ: بطانةٌ تأمرُه بالمعروفِ وتحضُّه عليه، وبطانةٌ تأمرُه بالشرِّ وتحضُّه عليه، والمعصومُ من عصَمَه الله» [البخاري٦٦١١]، وعن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أرادَ اللهُ بالأمير خيرًا جعَل له وزيرَ صدقٍ؛ إن نسيَ ذكَّره، وإن ذكرَ أعانَه، وإذا أرادَ به غيرَ ذلك جعَلَ له وزيرَ سوءٍ؛ إن نسيَ لم يُذكِّره، وإن ذكرَ لم يُعِنْه» [أبو داود ٢٩٣٢، وصححه الألباني].

ومن أصول الشريعة في باب الولاية:

أنَّ الإسلام حرَّم أشدَّ التَّحريم أن يستغلَّ صاحبُ الولايةِ - أيًّا كانَت مرتبتُه- هذا المنصبَ لتحقيقِ مصالحه الشخصيَّة ومنافعه الذاتية، قال ﷺ: «إنَّ رجالاً يتخوَّضون في مال الله بغير حقٍّ، فلهم النَّارُ يومَ القيامة» [البخاري ٣١١٨].

فمن أخَذ مالاً من الأموالِ العامَّة مُستغلاً منصبَه مُتوصِّلاً بولايته إلى ما لا يحلُّ له: فليستَمِع إلى الزجرِ الشديدِ والوعيدِ الأكيدِ من سيِّدِ الثَّقَلَيْن ﷺ حينما قال: «من استعمَلناه منكم على عمَلٍ فكتَمَنا مخيطًا -أي: إبرةً- فما فوقَه، كانَ غُلولاً يأتي به يومَ القيامة» [مسلم ١٨٣٣].

ومن أصول التَّشريع في هذا الجانب:

أنَّ صاحبَ الولايةِ يجب عليه أن يسمعَ لصوتِ الحوارِ الصادقِ المُخلص، الحوارِ الهادفِ المُنبثقِ من ثوابتِ الشريعة ومنابعِ الإصلاح، فالله جلَّ وعلا يقول لسيِّد الحُكَّام: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

على وليِّ أمرِ المسلمين أن يتقي الله في اختيارِ بطانته

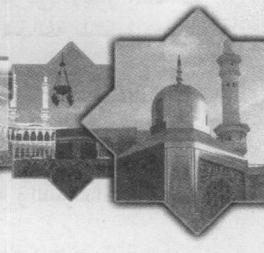
فعلى مَن تقلَّد للمسلمين ولايةً أن يتَّقيَ الله جلَّ وعلا في اختيارِ عُمَّاله ومُوظَّفيه الذين تحتَ ولايته، فيحرصَ على اختيارِ الأكفاءِ ذَوي القوَّة والأمانة الذين يُختارُون لكفاءتهم وعدالَتهم وأمانتهم، دونَ نظرٍ لمحسوبيَّةٍ مقيتة، ولا اعتبارٍ لمصالحَ شخصيَّةٍ أو عرقيَّة، فالله جلَّ وعلا يقول: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وفي الخبر: «من ولَّى على عصابةٍ وفيهم من هو أرضَى لله منه فقد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنين» [الحاكم وصححه وسكت عنه الذهبي].

ثم إنَّ الله جلَّ وعلا أمرَنا بالصَّلاة والتَّسليم على النبيِّ الكريم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.



سبيل النجاة وطريق السعادة

فضيلة الشيخ
أسامة بن عبد الله خياط



إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينُه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومِن سيِّئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

فاتقوا الله عباد الله؛ فإنَّ المرءَ لا يزالُ بخيرٍ ما اتقى الله، وخالفَ نفسَه وهواه، ولم تُشغِله دنياه عن أُخراه.

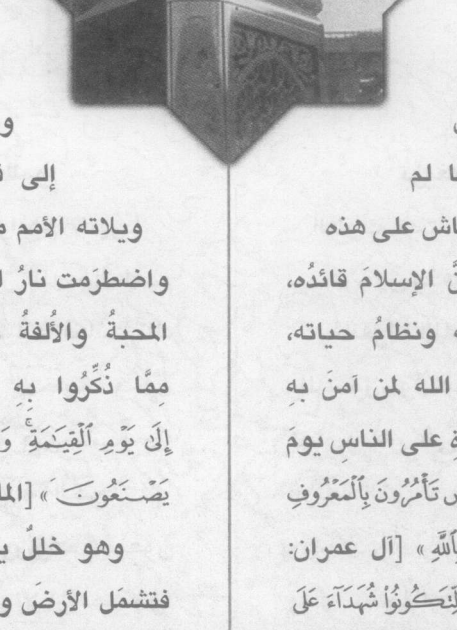
حياة القلوب وطمأنينة النفس

أيها المسلمون، حياةُ القلبِ وطُمأنينةُ النفس وسُمُوُّ الروحِ مطمَحُ كلِّ عاقلٍ، ومقصدُ كل لبيبٍ، ومُبتغَى كلِّ أوَّاب، ومُنتهى أمل كل راغبٍ في حيازةِ الخيرِ لنفسه، ساعٍ إلى خَلاصها مِن أغلال الشقاء، واستنقاذها من ظلماتِ الحَيرة ومسالكِ الخيبَة وأسباب الهلاك.

وإذا كان لكلِّ امرئٍ في بلوغ ذلك وِجهةٌ هو مُولِّيها وجادَّةٌ يسلُكها فإنَّ المُوفَّقين من أُولي الألباب الذين يسيرون في حياتهم على هُدًى من ربهم واقتفاءٍ لأثر نبيِّهم لا يملِكون إلا أن يذكُروا - وهم يلعَقون الجراح، ويتجرَّعون مرارةَ الفُرقةِ وغُصَص التباغُض والتقاتُل- لا يملِكون إلا أن يذكُروا آياتِ الكتابِ الحكيم وهي تدلُّهم على الطريق وتقودُهم إلى النجاة حين تُذكِّرُهم بتاريخ هذه الأمة المُشرقِ الوضِيء، وتُبيِّنُ لهم كيفَ سمَت وعلَت وتألَّق نجمُها وأضاءَ منارُها، وكيف كان الرَّعيلُ الأوّل منها مُستضعَفًا مهيضَ الجناح، تعصِفُ به أعاصيرُ الباطل، وترميه الناسُ عن قَوسٍ واحدة، فآواه الله ونصرَه نصرًا عزيزًا مُؤزَّرًا، وأسبغَ عليه

نعَمَه، وأفاضَ عليه البركات، ورزقَه من الطيِّبات، «وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [الأنفال: ٢٦].

إنه إيواءٌ إلهيّ، وتأييدٌ ربَّانيّ منَ الله القويِّ القادر القاهر الغالب على أمره، تأييدٌ مُحقِّقٌ وعدَه الذي لا يتخلَّفُ لهذه الأمة بالاستخلافِ في الأرض والتمكين، وتبديل خوفِها أمنًا إن هي آمنت بالله وعملت الصالحات، «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ» [النور: ٥٥].



كيف بلغ الرعيل الأول من التقدم والرقي مبلغًا لم يسبقه إليه أحد

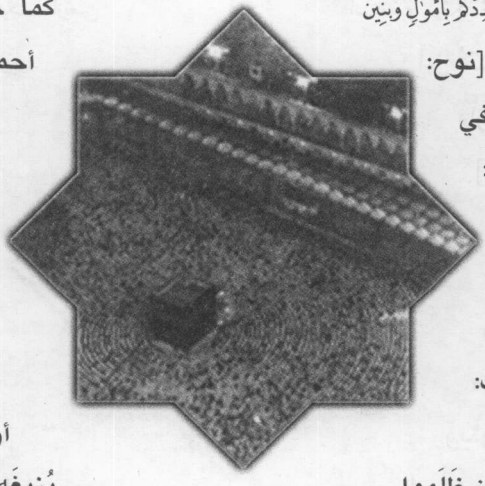
ولا غروَ أن يبلُغَ ذلك الرعيلُ الأوّل من التقدُّم والرُّقيّ مَبلغًا لم يسبقه إليه ولم يلحَق به أحدٌ عاش على هذه الأرض؛ لأنَّ الإيمانَ دليلُه، ولأنَّ الإسلامَ قائدُه، ولأنّ الشريعةَ المُباركة منهجُه ونظامُ حياته، فاستَحقَّ الخيرية التي كتبَها الله لمن آمنَ به واتَّبع هُداه، وتبوَّأ مقامَ الشهادةِ على الناس يومَ القيامة، «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ» [آل عمران: ١١٠]، «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: ١٤٣].

وإنَّ آياتِ الكتابِ الحكيم لتُذكِّرهم أيضًا أنَّ الاستقامةَ على منهجِ الله واتباعَ رضوانه وتحكيمَ شرعِه لا يكون أثرُه مُقتصرًا على الحَظوةِ بالسعادةِ في الآخرة ونزول جنات النعيم فيها فحسب؛ بل يضمنُ كذلك التمتُّع بالحياة الطيبة في الدنيا، وتلك سنةٌ من سُنن الله في عباده لا تتخلَّفُ ولا تتبدَّل، «مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» [النحل: ٩٧]، وقال سبحانه: «الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» [هود: ١ ٣].

فحين تكون حَيدةُ الخلق عن دينِ الله، والجَفوةُ بينهم وبينَ ربِّهم بالإعراضِ عن منهَجه؛ هنالك يقَع الخلَلُ، ويثور الاضطرابُ المُفضي إلى فَسادٍ وشرٍّ عظيم، عانَت من ويلاته الأمم من قبلنا، فحَلَّ الخِصامُ بينهم، واضطرَمت نارُ العداوةِ والبغضاء بعدما كانت المحبةُ والأُلفةُ تُظلُّهم بظلالها، فنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ «فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ» [المائدة: ١٤].

وهو خللٌ يتجاوز فسادُه وتتسعُ دائرتُه، فتشمَل الأرضَ والبيئةَ كلَّها، «ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [الروم: ٤١].

ذلك أنَّ الصلةَ وثيقةٌ بين الكونِ وبين ما نأتي وما نَذَر من أعمالٍ، فإن مشَت على سَنَنٍ قويم وطريقٍ مُستقيم بإدراكِ الغاية من خلق الإنسان، وتحقيقِ العبودية لله ربِّ العالمين، والمُسارَعة إلى مَرضاته، والاستقامةِ على منهجه؛ فإنَّ الله يُفيضُ عليهم من خزائنِ رحمته، ويُنزِّلُ عليهم بَركاتٍ من السَّماء، ويُفيءُ عليهم خيراتِ الأرض، كما عبَّر عن ذلك نوحٌ عليه السلام في دعوته لقومِه وحثِّه لهم على الإيمان بربهم والاستغفارِ لذنوبهم: «فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا» [نوح: ١٠-١٢]، وقال عزَّ اسمُه في شأن المُعذَّبين من أهل القرى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ» [الأعراف: ٩٦].



وتلك مساكنُ وآثارُ الذين ظَلَموا أنفسَهم بنبذِ كتاب الله وراءَهم ظِهريًا، واتخاذِهم أهواءَهم آلهةً من دون الله، واتِّباعهم ما أسخَط اللهَ، وكراهَتهم رضوانه؛ فكانت تلك الديارُ مشاهدَ عِظةٍ وذكرَى لأولي الألباب، «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ» [الحج: ٤٥].

ولذا فإنَّ أُولي النُّهى لا يملكون وهم يسمَعون نداءَ الله يُتلى عليهم في كتابه إلا أن يُصيخوا ويَستجيبوا لله وللرسول ؛ إذ هي دعوةٌ تحيا بالاستجابة لها القلوب، القلوبُ التي لا حياةَ لها إلا بالإقبال على الله تعالى، وتحقيق العبودية له، ومحبته وطاعته، والحذر من أسباب غضبه، وبمحبَّة رسوله واتِّباع سنّته، والاهتداء بهَديه، وتحكيم شرعه، « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » [الأنفال: ٢٤]. فإنّه سبحانه يحُول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، أي: فلا يستطيع أن يُؤمن ولا يكفر إلا بإذنه عز وجل.

كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد في «مسنده» والنسائي وابن ماجه في «سننهما» بإسناد صحيح عن النواس بن سمعان أنّه قال: سمعتُ النبي يقول: «ما من قلبٍ إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين، إذا شاء أن يُقيمَه أقامَه، وإذا شاء أن يُزيغَه أزاغَه»، وكان يقول: «يا مُقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك»، قال: «والميزانُ بيد الرحمن يخفِضه ويرفعه».

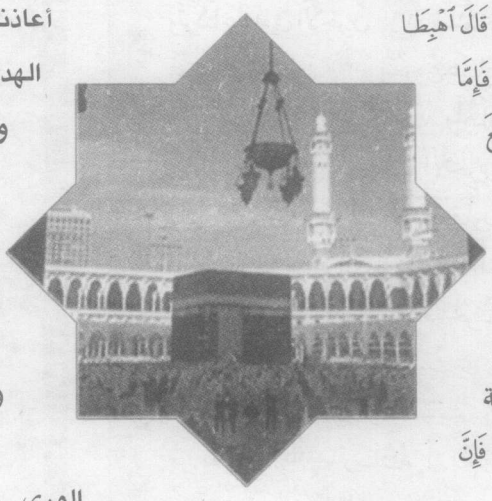
فاتقوا الله عباد الله، واستجيبوا لله وللرّسول، واذكروا أنَّ ربَّكم قد ضمِن لمن اتَّبع هُداه وسار على منهجه أن يُؤتِيَه المجدَ ويُبلِّغه الرِّفعةَ التي تَصبُو إليها نفسُه، فقال عزَّ اسمُه: « وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ » [الزخرف: ٤٤]، وقال سبحانه: «لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [الأنبياء: ١٠]، أي: شرفكم ومجدُكم ومكارمُ أخلاقكم ومحاسن أعمالكم وفوزُكم في

الدنيا والآخرة.

فيا عبادَ الله، إنَّ المؤمنَ حين يقفُ على مُفترَق طرقٍ، وحين تُعرضُ عليه شتَّى المناهِج؛ لا تعتريه حيرةٌ ولا يُخالجه شكٌّ في أنَّ منهج ربِّه الأعلى وطريقَه هو سبيلُ النجاة وطريقُ السعادة في حياتِه الدنيا ويومَ يقوم الناس لرب العالمين.

وفي آياتِ الكتابِ الحكيمِ مما قصَّ الله علَينا نبأه في شأنِ أبينا آدمَ عليه السلام حين أُهبط من الجنّة بتأثير إغواء الشيطان وتزيين المعصية له أوضَحُ الأدلة على ذلك. فأمَّا المُتَّبعُ هُدى ربِّه فهو السعيدُ حقًا، « قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ » [طه: ١٢٣]، وأما المُعرِضُ عن ذكرِ ربِّه بمخالفةِ أمرِه وأمرِ رسوله وبالأخذِ من غيرِه فعاقبةُ أمرِه خُسرًا ومعيشة ضنكًا، « وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا » [طه: ١٢٤-١٢٦].

إنها معيشةٌ يُصوِّر واقعَها الإمامُ الحافظُ ابن كثيرٍ رحمه الله بقوله: «أي: ضنكًا في الدنيا؛ فلا طمأنينةَ له، ولا انشراحَ لصدره؛ بل صدرُه ضيِّقٌ حرجٌ لضَلاله وإن تنعَّم ظاهرُه، ولبِسَ ما شاءَ، وأكلَ ما شاءَ، وسَكنَ حيث شاء؛ فإنَّ قلبه ما لم يخلُص إلى اليقينِ والهُدى فهو في قلقٍ وحيرةٍ وشكٍّ، فلا يزالُ في ريبه يتردَّد، فهذا من ضنك المعيشة» اهـ.



أعاذنا الله منها، ومن العمى بعد الهدى، وجعلنا ممن أنابَ إلى ربِّه وتابَ إليه فهَدى.

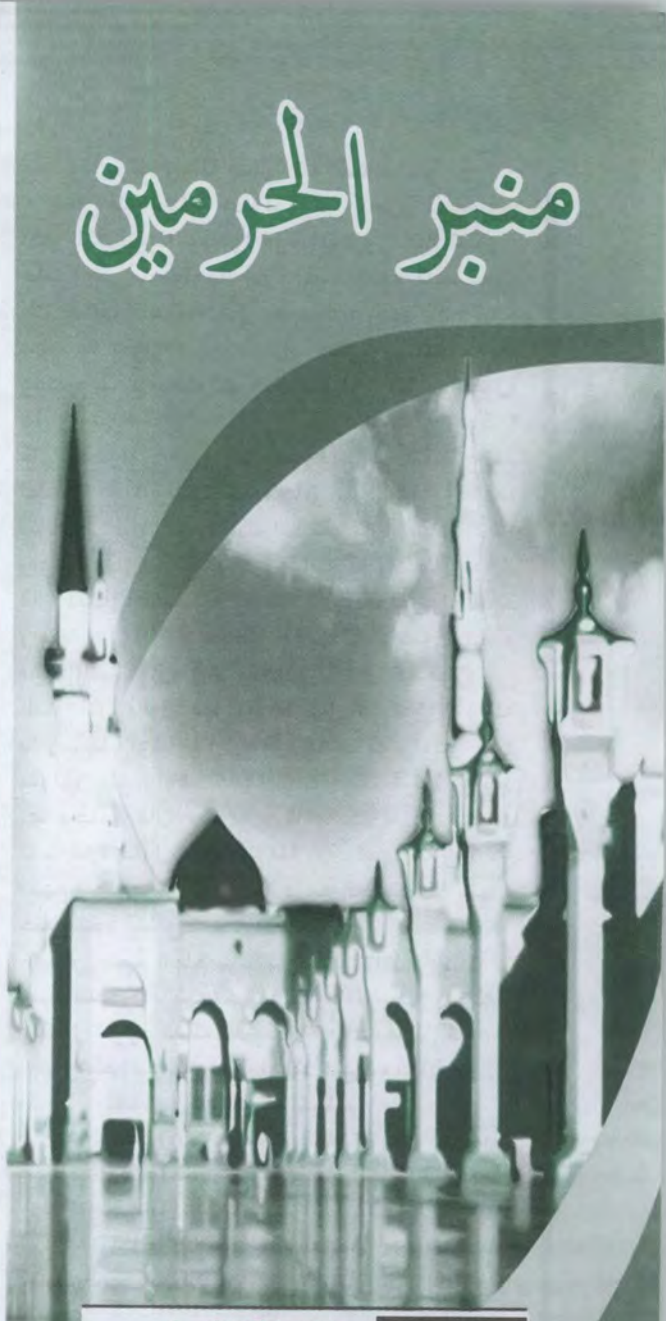
فاتقوا الله عبادَ الله، واتَّخذوا مما جاءكم من ربِّكم من البينات والهُدى خيرَ عُدَّةٍ تبلغُون بها سعادةَ الآخرة والأولى.

وصلُّوا وسلِّموا على خيرِ الورى...

اعتذار

يعتذر رئيس تحرير مجلة التوحيد عن كتابة كلمة التحرير هذا الشهر، وذلك لسفره إلى تركيا لحضور فعاليات مؤتمر رابطة الصحافة الإسلامية بتركيا، ويواصل معكم الشهر القادم بإذن الله تعالى وحوله وقوته.

منبر الحرمين



إعداد/ فضيلة الشيخ
سعود بن إبراهيم الشريم

لا مساومة على الإسلام ولا تنازل عن مبادئه

الحمد لله الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، وصلوات الله وسلامه على الرءوف الرحيم محمد بن عبد الله وآله وصحابته أجمعين، الذين كانوا يقضون بالحق وكانوا به يعدلون.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه، والتوكل عليه، والاستغاثة به، والاعتماد عليه، والتذلل بين يديه، فبذلك تكون الرفعة، وتحصل المنة، وتُنال الدرجة، وتكون العاقبة المحمودة في الأولى والأخرى، «أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ» [يونس:٦٢، ٦٣].

أيها الناس، إن المترقب في مجموع العالم اليوم بقضه وقضيضه، والذي يلقي بثاقب نظره صوب الفُلك الماخرة وسط زوابع يموج بعضها في بعض، ونوازل تتلاطم كموج من فوقه موج من فوقه سحاب، ليوقن من خلال سبره للأحداث العامة والمدلهمات المتكاثرة على كافة مناحي الحياة بلا استثناء، نعم إنه ليوقن أن الذين يفهمون أن مبدأ ما من المبادئ أو حركة ما من الحركات أو دعوةً ما من الدعوات المنبثقة هنا وهناك يُمكن أن تكبح جماح المظالم بشتى صورها، مهما زُوِّقت وزُيِّف للناس مفادُها، أو أن تسُد ثلمة المجتمعات الشارخة، دون أن يكون ذلك كله من خلال الإسلام وروح الإسلام وشريعة الإسلام، من يفهم خلاف ذلك فهو شاذ برمته، إما أنه مريض خرّاص، أو عِرق دخيل دسّاس، لا يُعوّل على مثله، ولا يوثق به.

إن الإسلام في صميمه -عباد الله - شريعةٌ حرة، قد حرّرت العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ودلّت على أن العزة مرهونة بها، والهوان والدون نتيجة للنأي عنها. يبدأ ذلك جليًا من ضمير الفرد، وينتهي في محيط ضمير المجتمعات بأسرها، ومهما يكن الأمر فإن الإسلام لا يمكن أن يعمر قلبًا بحلاوته، ثم هو يدعه مستسلمًا خاضعًا لسلطان في الأرض غير سلطان الواحد القهار، «وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ» [الزخرف:٨٤].

«إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ» [آل عمران:١٩]، «وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ

فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » [آل عمران:٨٥]، وتلك هي صبغة الله، «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً» [البقرة:١٣٨].

إننا - أيها المسلمون - إذا ما رأينا المظالم تقع على الأرض حثيثة، وإذا سمعنا المنكوبين وذوي الديار المغتصبة والأراضي المتخطَّفة يئنون ويصرخون، يهرعون ويتوجعون، حتى تلامس صيحاتهم أسماع أمة الإسلام، غير أنها لم تلامس أسماع نخوة أمة حاضرة، تهبُّ لرفع ما نزل، ودفع ما قد يقع، فلنا حينئذ أن تساورنا الشكوك جميعًا تجاه خلل ما، هو السر الكامن في وجود هذا الوهن العظيم، وسكون من له حق، وحراك من لا حق له، والذي من خلاله فُتَّ عضد الأمة، ونُكثت جراحها، وجعلها شذر مذر، ولا جرم أن من استطبَّ لواقعه فلن يُعدم معرفة الداء ومحله.

نعم - أيها المسلمون - النسيم قد لا يهبّ عليلاً داخل المجتمعات المسلمة على الدوام، فقد يتعكّر الجو، وقد تثور الزوابع، وتضطرب فوّهات البراكين، كما أن ارتقاب الراحة الكاملة إنما هو نوع وهم وطيف وتخييل. ومن العقل والحكمة توطين النفس على مواجهة بعض المضايقات على الإسلام والمسلمين، والاستعداد لتحمّلها، والوقوف بحزم أمامها، وترك إضاعة الأوقات في التعليق المرير عليها، والذي قد يفقأ العين ولا يقتل صيدا.

ثم إن الفتن التي تعترض أمة الإسلام حينًا بعد آخر إنما هي في حقيقتها تمحيصٌ وابتلاء، «لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ» [الأنفال:٣٧]. وقد شرع الله لنا أن نقابل ابتلاءه بالسراء بقوله عن سليمان: «هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ» [النمل:٤٠]، وكذلك أن يكون موقفنا في الضراء مغايرًا لما ذكره الله على وجه الذم بقوله: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ» [الحج:١١]، وقوله سبحانه: «وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ» [العنكبوت:١٠].

إن غير المسلمين - عباد الله - لن يرضوا عن أمة الإسلام، إلا أن تترك دينها، وتبتعد عن شريعتها، أو لا أقل من أن تتراجع، أو أن تقدم تنازلات قد لا تُبقي من الإسلام إلا اسمه، وهذا أمر ينبغي أن لا يختلف فيه اثنان، ولا يجادل فيه متفيهقان.

جاء عند أحمد وابن أبي شيبة من حديث جابر رضي الله عنه، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني» [أحمد والبيهقي وحسنه الألباني].

ومن هذا المنطلق - عباد الله - فإن المساومة على الانتماء للدين صورةً ومعنى، أو المساومة على الثوابت التي لا تقبل الخلاف والجدل والتي يخضع لها كل زمن، وليست تخضع هي لكل زمن، إن المساومة على مثل هذا لهو خيانة عظمى، وجنون لا عقل معه، وإغماء لا إفاقة فيه؛ إذ شرف المرء وشرف المجتمع إنما هو في الانتساب إلى الإسلام، والعمل به، والدعوة إليه، والثبات عليه حتى الممات.

من غيّرته صروف الحياة، أو هز كيانه خطوب وتداعيات، ورغبةٌ أو رهبة، ثم زلت قدمه عن دينه بعد ثبوتها، فإنما هو مفرّط ضائع، ناقض بعد غزل، وحال بعد عقد، حتى يصبح فريسة الحور بعد الكور، والذل بعد العز، «إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ» [محمد:٢٥-٢٨].

فمن هنا - عباد الله - جاءت شريعة الإسلام بالتحضيض على الثبات على الدين، والعضّ عليه بالنواجذ حتى الممات، «وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ» [الحجر:٩٩]، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «اللهم إذا أردت بالناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون» [مالك في الموطأ (٥٠٨)]، بل كان يحدّث عن المؤمنين ممن كان قبلنا فيقول: «كان الرجل فيمن كان قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيُشق باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه» [متفق عليه].

فالعجب كل العجب - عباد الله - ممن يعلم خطورة الركون إلى غير الإسلام، أو ميل القلب

أو العاطفة تجاه من هم على غير ملة الإسلام مهما كانت الظروف التي تحيط بالواقع، ودوافع الرغبة أو الرهبة الداعية إلى مثل هذا. فإن هذا وإن كان لا يُعد مسوّغًا للميل إليهم، والخنوع لهم، وتحبير الأقلام والأفهام لهم، أو الانسياق خلف مطامعهم وتطلعاتهم، أو الاستجابة لدعواتهم المتكررة في لمز دين الإسلام وهمزه، أو التنازل عن بعض ثوابته وعماده، أو التشكيك المزوّق في مناهج التعليم الشرعية، وثمار الصحوة المأتية، فإن الانسياق مع مثل هذا جرمٌ فاضح، وإحسان الحديث عنه زورٌ وبهتان، وما مُحبو مثل هذا في عالمنا الإسلامي إلا كأنوف أزكمها غبار الافتتان، فاستوت عندها الروائح، أو كجسوم تندّت ولم يُنزع مبلولها، فما هي إلا الحمى، ما منها بدّ.

وإن تعجبوا - عباد الله - فعجبٌ تلك الأفهام التي تحمل اسم الإسلام، وما يخطّه بنانها وتلوكه ألسنتها غريبٌ كل الغرابة عنه، يدفعهم إلى مثل هذا كونهم منهومي المال، مفتوني الجاه، أو رائمين شهوات مشبوهة، قد رُكّبت تركيبًا مزجيًا يمنعهم من الصرف والعدل. وإن أحسن الظن بهؤلاء فهم من صرعى الأفئدة المقلّدة، الذين لا يفرقون بين الثوابت والمتغيرات، أو ممن يضيفون الأسباب إلى غير مسبّباتها، ويستسمنون كل ذي ورم، ثم هم يغفلون عن حقيقة هذا وذاك، فلو سرق إنسان في المسجد لعلت صيحاتهم تدعو إلى هدم المساجد أو إغلاقها، لئلا تتكرر السرقة زعموا، ولو أن امرأة محجبة غشت وخدعت لتنادوا إلى نزع الحجاب، وبيان خطره، وأنه مظنة الغش والخداع، فلا هم في الحقيقة قطعوا يد السارق، ولا عزّروا تلك التي غشت وخدعت، وإنما دعوا لهدم المسجد ونزع الحجاب، وهذا هو سرّ العجب، وهو ما يثير الدهشة حينما ترى مثل هذا الفكر المقلوب، الذي لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح، وأحسن ما فيه أنه غير حسن.

قدم أبو سفيان رضي الله تعالى عنه المدينة قبل أن يُسلم، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ورضي عنها، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله طوته عنه فقال: يا بُنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟! قالت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس. [أخرج القصة ابن إسحاق كما في السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٦/٢)].

هكذا فعلت أم المؤمنين رضي الله عنها في أبيها بكلمة حق خرقت بها مثلاً عربيًا مشهورًا: كل فتاة بأبيها معجبة. وما فعلها هذا - عباد الله - إلا لأن الإيمان لم يخامر قلب أبيها، وكلمة التوحيد لم ينطق بها لسانه، ولم يكن لنسب الأبوة حقّ عندها في أن يلامس ولو مجرّد الفراش.

ألا إن رسالة المصطفى كفراشه، فمن أجلس عليه من ليس منه أو طواه حياءً أو استجداءً فما رعى حق الله ولا حق نبيه، ولا حق دينه وأمته، ولأجل هذا فمن البدهي قطعًا أنه لا يمكن أن نتصوّر نُضجًا إنسانيًا مع انقطاع الصلة بالله، وإضمار الكراهية لشريعته. وما يشاع بين الفينة والأخرى من أن ثمة أفكارًا ومستجدات تضع إمكانية مقاطعة المرء المسلم لدينه أو مجاملته بكلمات باهتة أو مجرد التمسك بخيط واحد من حبله المتين، ثم هو يختط لنفسه طريقًا لا يعرف من خلاله المسجد، ولا يقيم وزنًا لحدود الله، لهو فكر خطر الملمس، يثير تساؤلات واسعة النطاق، من قبل الباحثين عن الحق، هل قضية الإيمان بالله من السهولة بمكان بحيث يستوي فيها النفي والإثبات، والأخذ والترك، والشرك والتوحيد؟! هل هذه القضية من خفة الوزن بحيث لا يفرّق فيها بين الثابت والمتغيّر، وبين العدل والجور، وبين الصدق والريبة؟!

إننا لو سمعنا برجل ما يقول: إن الأرض مربّعة، أو يزعم أن مياه البحار والمحيطات غاية في العذوبة، فإننا ولا شك نزري بعقله، ونرميه بالجنون والسفه، فإذا كان الخطأ في فهم بعض الحقائق الدنوية له هذا الوزن في الإنكار، فكيف بالخطأ الجسيم في الحقائق العلوية المتصلة بمن استوى على العرش ويعلم السر وأخفى؟! ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

فيا ليت شعري، أين ذوو الأقلام النيّرة والأفهام السوية، يدلون الناس على ما يحفظ لهم دينهم، ويحصّن كيانهم، ويزرع الثقة في مبادئهم وشريعتهم ومناهج تعليمهم، ويحذرونهم من شرور المبغضين وحسد الحاسدين، ويقيمون لهم ميزان العدل في القول والعمل، فيرجعون عقلاء مميزين، يعرفون ما يأخذون وما يذرون؟!

فبلاد الإسلام مستهدفة، وثوابت الشريعة الغراء تواجه تضليلاً وتشكيكًا من خارجها

وداخلها، بل وممن على أرضها ويتكلمون بلغتها، وبلاد الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومعقل الإسلام المعاصر لم تسلم براجمها من هذه الأوخاز، حتى طالتها الاتهامات والهجمات، غير أنها - بحمد الله - لن تكون علكًا ملتصقًا يلوكه كل مشكك في دينها وثوابتها وصحوتها ومناهجها الشرعية، وصحوتُها من شباب وكهول إنما نهلوا تربية إسلامية غير معوجّة، وأفكارهم وأطروحاتهم مبنية على ركائز العقيدة الصحيحة، والولاء لله والبراء فيه، وهم في ذلك ثمرة علمائها، وشعب حكامها، ولن يكون أهلها - بإذن الله - أبواقًا ينفخ من خلالها المغرضون، ومطايا يمتطيها الحاقدون ضد هذه البلاد ومناهجها الشرعية وعقيدتها الراسخة، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولله الأمر من قبل ومن بعد، «وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ» [الشعراء:١٢٧]، «ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» [النساء:١٤١].

فيا أيها الناس، إن لكل نظام من النظم على أرض الواقع فلسفته وفكره، وحَلّه وعقده، وله حلوله الخاصة التي يواجه بها مشكلاته، بقطع النظر عن صحتها من سقمها، أو زينها من شينها، بيد أنه ليس من المنطق ولا من المعقول، فضلاً عن أنه ليس من الإنصاف جدلاً، أن تُقحم الشريعة الغراء متهمةً في مشكلات وتبعات لم تنشئها أمة الإسلام، وليست من بداتها، وإنما فجّرتها نظم وممارسات أجنبية عن أمة الإسلام، ثم تريد هي من أمة الإسلام أن تفكر بعقلها لا بالعقل الإسلامي، وأن تحس بقلبها لا بالقلب الإسلامي.

ولكي نعمّق الولاء للإسلام والبراء فيه، وتردم الهوة التي تفصل الكثيرين عن ماضيهم ومجدهم الزاهر، والوقوف أمام كل نابتة تنبت في هذا الطريق الخِضمّ المائج، ولئلا تقدم الأمة تنازلات فكرية أو عقدية أو تعليمية غير مبررة ولا مفهومة، بل هي من نسج الحاقد واضحة النشوز في مسار الصحوة الفكري، ورفض التبعية والتغريب، إنه لأجل أن ندرك ذلك كله، فلا بد لنا أن نضع الحقائق التالية نصب أعيننا.

أولها: أن عقيدتنا - أيها المسلمون - أساسها التوحيد لله، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهيهات هيهات أن يكون أي تجسيد عقيدي سوى ذلك أرجح منه وأولى بالقبول، «لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» [المائدة:٧٢].

وثانيها: أنه لا يمكن إدراك تضامن إسلامي ناجح بين أفراد ومجتمعات بعضها يبغض بعضًا، أو ينفر من بعض، أو يكره الإسلام، أو يرفض بعض تعاليمه في ساحات كثيرة أو قليلة.

وثالثها: أنه ينبغي لأي وحدة منشودة أو تمازج مقترح في المصالح الشرعية أو في درء المفاسد أن يتفق في الوسيلة أو في الغاية وفق الحق والشريعة، وإن أي وحدة صف أو أي هدف منشود فإنه يعتبر وهمًا مع هذا الخروج على المقررات الإسلامية والثوابت الشرعية.

ورابعها: أن التراجع والتخاذل بين المسلمين إنما يجيء بالدرجة الأولى من داخل النفس قبل أن يجيء من ضغوط من سواهم، ولسنا أول أمة ابُتليت وفرض الله عليها أن تثبت على دينها، وتكافح لأجل أن تحيى عزيزة شمّاء.

وخامسها: أن تكون ثقافتنا المذاعة والمنشورة قائمة على التقريب بيننا لا على المباعدة، وعلى الرتق لا الفتق، وعلى الاعتزاز لا الابتزاز، وعلى دعم القيم الدينية ورد الشبهات التي تُثار حول أمة الإسلام ومناهجها، وعلى أن تكون دعوتها لإحياء وحدة المسلمين في أن تميت صيحات الجاهلية، وأن تبرز العنوان الإسلامي وحده أساساً للنهضة النباءة والفكر السوي، «أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ» [ص:٢٨]، «أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ» [القلم:٣٥-٣٨].

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. اللهم أعز الإسلام والمسلمين. والحمد لله رب العالمين.



امتحان الله تعالى للإسلاميين في الانتخابات

إعداد / محمد صالح المنجد

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد، فقد اقتضت حكمة الله تعالى وسننه في خلقه: أن يُحدث كلَّ هذا التغيير في عالم المسلمين العربي في زمن قصير، وبكيفية مباغتة، وآثارٍ مدهشة، نتج عنها ارتفاع شأن الصف الإسلامي، وعلوِّ صوته، وبروز شعبيته، مما أثمر عن تفوّق في نتائج الانتخابات التي دخلتها بعض الأحزاب والتجمعات الإسلامية.

ومعلوم أن هذه المسألة تحتاج إلى معرفة حكم الانتخابات، والتصويت، والبرلمانات، والمشاركة في الحكومات، وعقد التحالفات، وغير ذلك مما لا يتسع له المجال، ولا تبلغ القدرة لتبيينه الآن، ولكن أذكر هاهنا كلمات وتنبيهات؛ نصيحةً في الدين، وسعياً لإصلاح شأن إخواننا المسلمين، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

إن الله تعالى يمتحن الإسلاميين في مواقفهم، وتكتب ملائكته كلماتهم وتصريحاتهم قبل وأثناء وبعد الانتخابات التي دخلوها.

وقد تفاوتت أحوالهم في ذلك، فمنهم من قال قولا حسناً يُشكر عليه، ومنهم من زلت ألسنتهم وأقدامهم، ومن ذلك ما سمعناه من قول بعضهم هداهم الله: «لن نمنع الخمر.. لن نمنع الملاهي الليلية.. لن نمنع شواطئ التعري..» إلخ.

ونقول ردًا:

هذا سقوط في الفتنة، والسكوت خير من هذا والله.

ففرق عظيم بين أن تَسكت عن الشيء وتتحيّن الفرصة المناسبة لمعالجته، وبين أن تُعلن الباطل وتُصادم الشريعة لطمأنة مخالفيها واسترضاء الغرب والشرق.

وبعض هؤلاء يقول: نخشى أن تصيبنا دائرة، وإن نتبع الهدى معك نُتخطف من أرضنا، سينقلب الناس علينا، لن يتحمّل الشعب الأحكام الإسلامية!!

فنقول: لا تنسوا أن الناس اختاروكم لدينكم، ووثقوا بكم؛ لأنكم تطلبون تحقيق عدل الشرع في البلد، وحصلتم على الأغلبية و(الثقة الشعبية!) من أجل إقامة الدين الذي تدعون إليه، وتتميزون به.. فلا تهنوا ولا تضعفوا، وإن توليتم فعسى أن يأتي الله بقوم آخرين، أو يأتي بالفتح أو أمر من عنده، فيمكّن لعباده بلادًا آمنة حاكمة بشرعه، وقيادة راشدة تسوسهم بنوره وهداه.

وفيما يلي ذكر لبعض الطرق الشرعية في معالجة الأوضاع والتي تُفيد - إن شاء الله- من وصل إلى الحكم أو شيء منه، ويريد نصرة الدين:

أولا: البدء ببناء قواعد الإيمان في نفوس الشعب، وذلك اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم المؤيد في طريقته في الدعوة والسياسة والحكم بالوحي من ربه، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «إِنما نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ، نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا لَقَالُوا لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا» [البخاري (٤٩٩٣)].

قال الحافظ -رحمه الله- في بيان أوليات الدعوة: «الدُّعَاء إِلَى التَّوْحِيد، وَالتَّبْشِير لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُطِيع بِالْجَنَّةِ، وَلِلْكَافِرِ وَالْعَاصِي بِالنَّارِ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ النُّفُوس عَلَى ذَلِكَ أُنْزِلَتْ الْأَحْكَام، وَلِهَذَا قَالَتْ: «وَلَوْ نَزَلَ أَوَّل شَيْء لَا تَشْرَبُوا الْخَمْر، لَقَالُوا لَا نَدَعهَا»، وَذَلِكَ لَمَّا طُبِعَتْ عَلَيْهِ النُّفُوس مِنْ النُّفْرَة عَنْ تَرْك الْمَأْلُوف».

وتهيئة البيئة الشعبية للعمل بأحكام الشريعة يستلزم خطوات كثيرة وأعمالاً مضنية هي في الحقيقة لبّ العمل الذي يجب أن يكون أول ما يشتغل به الإسلاميون إذا وصلوا إلى الحكم من البيان والتعليم والدعوة، بل هو قاعدة المكسب الحقيقي من بلوغهم؛ وذلك للوصول إلى تحكيم الشرع مجتمعيًا في النهاية.

ثانيًا: إصلاح دنيا الناس طريق لإصلاح دينهم:

فينبغي لمن تولى أمر المسلمين في بلد أن يسعى في إصلاح وتوفير ما يحتاجه الناس في دنياهم ومعاشهم؛ ليطمئنوا ويتفرغوا لإصلاح دينهم.

وفي الدعاء النبوي: «أصلح لنا ديننا الذي هو



عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا».

ومن الأمور المهمة في إصلاح دنيا الناس:

× توفير الوظائف، ومحاربة البطالة.
× الحد من التضخم وغلاء الأسعار.
× تعيين الأكفاء في المناصب.
× محاربة الرشوة والمحسوبيات.
× استرداد العقول المهاجرة.
× النظر في المظالم وإنصاف المظلومين.
× فتح سبل العمل الاجتماعي الخيري.
× توفير الإعانات، وحل أزمة السكن.
× توفير القروض الخيرية، ومعالجة أزمة الديون.
× إصلاح القطاعات المختلفة خاصة: التعليم، والصحة، والبلديات.
× إصلاح القضاء، وتحقيق العدل.
× توفير الخدمات العامة: الكهرباء، الماء، الاتصالات، المواصلات.. وغيرها.

ثالثًا: الاستفادة من التدرج في التشريع:

فمعلوم أن تحريم الخمر مرّ بمراحل من: تمييزها عن الرزق الحسن، ثم بيان أن إثمها أكبر من نفعها، ثم تحريم صلاة السكران، ثم التحريم الشامل القاطع.

وكذلك تحريم الربا، فبدأ بذكر أنه لا يربو عند الله بخلاف الصدقة، ثم تحريم أكله أضعافًا مضاعفة، ثم تحريمه الشامل القاطع قليله وكثيره.

ومن المعلوم أن التشريع قد استقر، والأحكام قد تقررت وانتهت، وأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال تطبيق التدرج المذكور في التحريم، فكيف سنستفيد منه إذن؟

الجواب في أمور:

× التدرج في محاربة المنكر.
× مراعاة الأولويات.
× التأجيل عند العجز إلى حين التمكن والقدرة.

هذا مع التسليم التام بالحكم الذي استقر عليه التشريع وعدم إعلان خلافه.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أنه يجوز السكوت عن أمر بمعروف أو نهي عن منكر إذا كان ذلك يؤدي إلى فوات معروف أعظم، أو حصول مفسدة أعظم، وأن هذا السكوت أو التأجيل ليس تحليلاً لحرام أو إلغاء للحكم الشرعي، وإنما سبب هذا السكوت أو التأجيل «أَنْ يَكُونَ فِي نَهْيِهِ عَنْ بَعْضِ الْمُنْكَرَاتِ تَرْكًا لِمَعْرُوفٍ هُوَ أَعْظَمُ مَنْفَعَةً مِنْ تَرْكِ الْمُنْكَرَاتِ، فَيَسْكُتُ عَنْ النَّهْيِ خَوْفًا أَنْ يَسْتَلْزِمَ تَرْكُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِمَّا هُوَ عِنْدَهُ أَعْظَمُ مِنْ مُجَرَّدِ تَرْكِ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ. فَالْعَالِمُ تَارَةً يَأْمُرُ وَتَارَةً يَنْهَى، وَتَارَةً يُبِيحُ، وَتَارَةً يَسْكُتُ عَنْ الْأَمْرِ أَوْ النَّهْيِ أَوْ الْإِبَاحَةِ، كَالْأَمْرِ بِالصُّلَاحِ الْخَالِصِ أَوْ الرَّاجِحِ، أَوْ النَّهْيِ عَنْ الْفَسَادِ الْخَالِصِ أَوْ الرَّاجِحِ، وَعِنْدَ التَّعَارُضِ يُرَجِّحُ الرَّاجِحَ - كَمَا تَقَدَّمَ - بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ».

وقد يكون السكوت والتأجيل انتظارًا للتمكن من تطبيق الحكم والعمل به، قال رحمه الله: «فَرُبَّمَا كَانَ الْأَصْلَحُ الْكَفَّ وَالْإِمْسَاكَ عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، كَمَا قِيلَ: إنَّ مِنْ الْمَسَائِلِ مَسَائِلَ جَوَابُهَا السُّكُوتُ كَمَا سَكَتَ الشَّارِعُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ عَنْ الْأَمْرِ بِأَشْيَاءَ وَالنَّهْيِ عَنْ أَشْيَاءَ، حَتَّى عَلَا الْإِسْلَامُ وَظَهَرَ. فَالْعَالِمُ فِي الْبَيَانِ وَالْبَلَاغِ كَذَلِكَ؛ قَدْ يُؤَخِّرُ الْبَيَانَ وَالْبَلَاغَ لِأَشْيَاءَ إلَى وَقْتِ التَّمَكُّنِ كَمَا أَخَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ إنْزَالَ آيَاتٍ وَبَيَانَ أَحْكَامٍ إلَى وَقْتِ تَمَكُّنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا إلَى بَيَانِهَا» [مجموع الفتاوى ٢٠/٥٧-٦١].

وآخر كلامه رحمه الله يبين تمامًا كيفية الاستفادة الصحيحة من التدرج في التشريع.

رابعًا: الاستفادة من سير الخلفاء الراشدين وأئمة العدل والإصلاح:

ومن أعظم التركات والإرث التاريخي في وصول إمام عادل إلى بيئة طرأت عليها انحرافات: خلافة الخليفة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- والسياسة الشرعية التي سار عليها.

فعن خارجة بن عبيد الله العمري قال: قدم عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه وهو ابن تسع عشرة سنة، وأبوه يروض الناس على الكتاب والسنة، وقد قطع بذلك فهو يداريهم كيف يصنع معهم؟

فقال له عبد الملك حين قدم عليه: يا أمير المؤمنين ألا تُمضي كتاب الله وسنة نبيه، ثم والله ما أبالي أن تغلي بي وبك القدور؟

فقال له: يا بنيّ إني إنما أروّض الناس رياضة الصعب -أي الجمل الفحل العنيد- إني أريدُ أن أخرج الباب من السُنّة (أي أحملهم على شيء من الدين) فأضع الباب من الطمع (أي أقرنه بشيء من الدنيا ترغيبًا لهم)، فإن نفروا للسنة سكنوا للطمع، ولو عُمِّرت خمسين سنة لظننت أني لا أبلغ فيهم كل الذي أريد، فإن أعش أبلغ حاجتي، وإن مت فالله أعلم بنيتي. انتهى

ومع دقة الأمر وصعوبته وحساسيته، لكن من صدق مع الله، وأحسن النية، واتبع الكتاب والسنة، وسياسة الخلفاء الراشدين المهديين، فسييسّر الله له الأمر، وإنها والله مسئولية في الآخرة ومستقبل أمة في الدنيا لا يُعين عليها إلا الله.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره».

اللهم اهدنا فيمن هديت، ووفق من أراد نصرة دينك وتحكيم شرعك وأعنه وانصره يا رب العالمين.



إعداد/
فضيلة الشيخ
محمد صالح المنجد

استنهاض الهمم للعمل للإسلام

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالعمل، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم، والعمل للدين -يا عباد الله- هو حياة الإنسان المسلم الذي يعبد الله سبحانه وتعالى على بصيرة.. العمل وترك البطالة والكسل ينبغي أن يكون منهج حياتنا.. العمل للإسلام واغتنام الفرص لأجل ذلك.. العمل لإعزاز دين الله.. العمل لرفع راية لا إله إلا الله.

إن العمل -أيها المسلمون- هو ما ينبغي علينا أن نقوم به، لأن من حق الله عز وجل علينا أن نعمل لدينه، وأن نقوم بما يريده منا سبحانه وتعالى، ولذلك خلقنا لأجل أن نعمل.

العمل للإسلام واجب لا مفر منه

إن العمل للإسلام واجب لا مفر منه، وإن المعوقات عن هذا الواجب لا بد من إزالتها والتغلب عليها، والعمل للإسلام في جميع مراحل العمر، فإن من نعم الله علينا في هذا الدين أن العمل له صالح في كل الأعمار، للصغير والكبير، والذين يقولون: إن السن قد تقدم ولا مجال للعمل، وقد رق العظم، وظهر الشيب، فلنتركه للشباب.. إن هؤلاء ما فقهوا دين الله تعالى، وقد قال عز وجل: « وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾» [الحجر:٩٩]. قال الحسن البصري رحمه الله: «لم يجعل الله للعبد أجلاً في العمل الصالح دون الموت»، فالنهاية التي نقف عندها هي الموت، ألم تر أن ورقة بن نوفل رضي الله تعالى عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً». هذا مع كبر سنه وذهاب بصره، وتمنى أن يكون فيها جذعاً قوياً عندما يظهر أمر الدعوة، ليقوم بالواجب.. إن مثل هذه الأمنية تنفع صاحبها عند الله، لأن الأعمال بالنيات. وقال أبو طلحة الأنصاري لما قرأ سورة براءة، وأتى على هذه الآية: «ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا» [التوبة:٤١] قال: «أرى ربنا عز وجل استنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني أي بني. فقال بنوه: يرحمك الله! قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع

أبي بكر رضي الله عنه حتى مات، ومع عمر رضي الله عنه حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فجهزوه فركب البحر، فمات غازياً في البحر في سبيل الله، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد سبعة أيام، ولم يتغير، فدفنوه فيها». [صحيح ابن حبان: ٧١٨٤].

متى يجد العبد طعم الراحة؟

إن العبد لا يجوز له أن يطعم طعم الراحة التامة والنهائية من العمل ولا يستريح إلا بالموت، بل قال الإمام أحمد -رحمه الله- لما سئل: متى يجد العبد طعم الراحة؟ قال: عند أول قدم يضعها في الجنة. وهؤلاء الأنبياء بعثوا بعد الأربعين، وعملوا إلى الموت، وهذا عمر رضي الله عنه يعمل في مصالح المسلمين، وهو مطعون وجرحه يثعب دماً!!

إن الدنيا تشغلنا عن العمل للإسلام كثيراً، وإن أوقات الكثيرين لتذهب في قضايا الدنيا، وبعضهم يعمل مع أنه يكسب أكثر من حاجته، لكن الطمع في الدنيا يجعله يعمل زيادة، ولو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى أن يكون له ثان، وهكذا... فإذا قنعك الله -يا عبد الله- بما رزقك، فاستعمل بقية وقتك في خدمة دينك، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». [ابن ماجه ٢١٤٤، وصححه الألباني].

وإن الانهماك التام في الأعمال الدنيوية يضيع على العبد فرصاً عظيمة لنيل الأجر والثواب، فكيف بمن ينشغل بالدنيا عن عمل الآخرة؟! وقد مدح الله المؤمنين الذين يتركون عمل الدنيا عند حضور عمل الآخرة، فقال: « فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ » [النور:٣٦-٣٧].

وترى بعض الطلاب ينهمكون في دراسات قد لا تعود عليهم بفائدة في أمتهم ودينهم، ويعملون أكثر من المطلوب، ويستهلكون وقت اليوم كله في أمور الدنيا، كما يستهلكه أولئك التجار وغيرهم من العاملين للدنيا، من عمل إلى عمل، ومن قضية إلى قضية، إلى آخر اليوم.. فماذا بقي للآخرة إذاً؟

أين العمل للآخرة في برنامجك اليومي؟

يا أخا الإسلام: أين العمل للآخرة في برنامجك اليومي؟ هذه الصلوات تؤديها، لكن العمل لإعزاز الدين ونشره والدعوة إليه أين هو في حياتك؟ أين إقامة الإسلام؟ أين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ أين تعليم الشرع؟ أين نصح الناس في حياتك؟ لما تخاذل أكثر المسلمين عن نشر الدين؛ صرنا في هذه المنزلة الوضيعة بين الخلق، وكثيرٌ من الموظفين لا يغتنمون مجالات الدعوة في وظائفهم لنشر الإسلام، والدعوة إليه، ونصح الخلق. خذ على سبيل المثال: هؤلاء الأطباء الذين يحتكون يومياً ويتعاملون مع المرضى، ومن أسهل شيء عليهم أن يقوموا بدعوة المرضى للتمسك بالدين، من خلال المعالجة التي يقومون بها، فماذا قدم هؤلاء وغيرهم من أصحاب المكاتب لأجل الدين، حتى في وسط العمل، وفي وسط الموظفين الذين يعملون معهم؟ كم أمروا شخصاً بإقامة الصلاة؟ وكم نهوا شخصاً عن منكر ومعصية؟ وكم نصحوا للدين وأخلصوا لله؟ أيها المسلمون: إنها مسئولية سوف نحاسب عليها، يقول تعالى: « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ » [الزخرف:٤٤].

إن بعض الناس أتوا من فساد تصورهم، فتركوا العمل للدين، وقالوا: إن القضية ليست قضيتنا، ونحن نتركها للدعاة العاملين، وأنا مقصر لست ملتزماً بكثير من الأحكام، فليست الدعوة من شأني ولا من وظيفتي، وليس إقامة الدين والنصح من أمري.. كيف -أيها الأخ المسلم- تقول ذلك؟ إن نشر الدين ليس مقتصراً على طبقة دون طبقة، ولا على مستوى دون مستوى، ولا على نوعية من المسلمين دون أخرى، بل كلنا دعاة وكلنا ناصحون، وكلنا يجب أن نقوم بأمر الدين، قال الله: « وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ » [المطففين:٢٦]..

أين المسارعة في الخيرات؟ «أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾» [المؤمنون:٦١]، كل واحد يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر، فإذاً لا بد لكل إنسان أن يقوم بذلك، ليس نهياً عن المنكر فقط، وإنما أمر بالمعروف أيضاً، وإنما هو تعليم للدين، وإرشاد ونصح».

كم من الخلل والعيب يكون عندما ينشغل الإنسان عن العمل بنقد الآخرين، فيكون شأنه أن يلمز هذا، ويسخر من هذا، وينتقص هذا من الدعاة

العاملين، وهو لا يعمل شيئاً؟!

إن الذي يعمل هو الذي يخطئ، والذي لا يعمل قد لا يُرى منه خطأ، فلا يغرنك ألا ينتقد شخص، فربما يكون سبب عدم انتقاده أنه لا يعمل أصلاً.

حساسية بعض الناس من النقد

إن حساسية بعض الناس من النقد تجعله يترك العمل، ويقول في نفسه: لماذا أصبر على لوم الناس؟ وما الذي يجبرني على تحمل هذه الانتقادات؟ فيترك العمل، وهل الدين إلا مناصحة، ودل على العيوب؟ كما قال عمر رضي الله عنه داعياً ربه: «رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا»، وكذلك كان الصالحون يطلبون النقد لأعمالهم والتصحيح، ولذلك قال ميمون بن مهران رحمه الله: «قولوا لي ما أكره في وجهي؛ لأن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره». وليس المقصود إساءة الأدب، ولا التطاول والتعدي، ولكن يكون النصح في بعض الأحيان ثقيلاً على النفس؛ لأن فيه نوع انتقاد، ألا فلا ينبغي أن يمنع هذا، أو أن يترك الإنسان العمل لأجل خوف نقد الآخرين، فإن شخصية المسلم ليست شخصية هزيلة، وإن مرضاة الناس لا تقدم عنده على مرضاة الله عز وجل. ثم إن بعض هؤلاء يقولون: إن الآخرين لا يقدرون جهودنا.. سبحان الله! وهل نحن نعمل لأجل أن يقدر الآخرون جهودنا؟ إننا نعمل لوجه الله.. «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾» [الإنسان:٩] وكل ما لا يُرَاد به وجه الله يضمحل ويذهب.

فإذا كان القصد أن يثني الناس على أعمالنا فقد هلكنا والله، فينبغي أن نعمل سواءً قدّر الآخرون جهدنا وأثنوا علينا، أو لم يثنوا علينا، ذكرونا بخير أو ذكرونا بغيره، فإنه ينبغي علينا أن نعمل؛ لأن الثناء من الله هو مقصودنا، وكذلك ينبغي أن يكون الثواب من الله عز وجل هو الباعث لنا على العمل، لا ثناء الناس ولا مدحهم. أيها الإخوة: إننا في حال نحتاج فيه إلى أن نصبر أنفسنا مع العمل للإسلام، وألا نتغير مزاجياً مع الأمور والأودية والأنواع والمجالات، فلا نتم هذا ولا نتم هذا، بل «إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه» فإذا أمسكت بعمل -يا عبد الله- فأتمه وأتقنه.

ولم ار في عيوب الناس عيبا
كنقص القادرين على التمام

فاثبت عليه وأتمه وأتقنه، وعند ذلك تكون منجزات تحسب لك عند الله عز وجل، أما الانقطاع في منتصف الطريق، والتغير من مكان إلى مكان، دون أن يكون في ذلك مصلحة شرعية، فهي من خدع إبليس، يريدك ألا تتم هذا ولا تكمل هذا، حتى لا تظهر الثمرة ولا يُنتفع بالعمل.

فبعض الناس يريد الحياة أن تكون سهلة مريحة، خالية من كل ما يكدر الخاطر ويتعب البال، وهذه حياة ليست والله بحياة كريمة، فإن المسلم ينبغي أن يسعى في طاعة ربه، ولو كان ذلك متعباً، ولو كان ذلك قاسياً، ولو كان ذلك شاقاً؛ لأنه يريد الحياة المريحة في الجنة.

فإذا أحس الإنسان بأن ما يتجرعه المسلمون من الذل اليوم هو من ماء صديد، فإنه يرفض أن يتجرع الكأس مع الآخرين، فينهض للعمل، وينفض عنه غبار النوم والكسل، ويقوم لله تعالى بالواجب والمطلوب.

أهمية الصلة القوية بالله تعالى

إن العمل لا يعظم ولا يندفع الإنسان له -ونتحدث عن عمل الآخرة بالذات- إلا إذا كان للمرء صلة قوية بربه، ولذلك كان العابدون أعظم المندفعين للعمل؛ لأن صلتهم القوية بالله عز وجل كانت تجعلهم يغتنمون أوقاتهم في العمل للدين. قال الوليد بن مسلم رحمه الله تعالى: رأيت الأوزاعي يثبت في مصلاه، يذكر الله حتى تطلع الشمس. وأخبروا عن بعض السلف أنهم كان هذا هديهم، في ذكر الله إلى طلوع الشمس، ثم يقوم بعضهم إلى بعض -بعد الخلوة والعبادة الفردية- يفيضون في ذكر الله تعالى، والتفقه في دينه، قال ضمرة بن ربيعة: «حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة، فما رأيته مضطجعا في المحمل، كان يصلي فإذا غلبه النوم استند إلى القتب، وكان يحيي الليل صلاة وقرآناً وبكاءً، حتى إن أمه كانت تدخل منزله وتتفقد موضع مصلاه، فتجده رطباً من دموعه في الليل». قال ابن جريج: «صحبت عطاء ثماني عشرة سنة، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية من البقرة، وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك».. فكيف إذا كان لما كان قوياً؟! وكان الربيع بن خثيم يبكي حتى يبل لحيته من دموعه ثم يقول: أدركنا قوما كنا في جنبهم لصوصا. أي:

إذا نسينا أنفسنا إليهم، وأعمالنا إلى أعمالهم، كنا في جنبهم لصوصاً، وهكذا يقول مع شدة عمله.

إن العمل في النهار يحتاج إلى عبادة بالليل، والعمل في الضحى يحتاج إلى ذكر بعد الفجر، وهكذا إذا كان الإنسان حسن الصلة بالله قوي العبادة، كان ذلك زاداً له في طريق الدعوة، وتحصيل العلم، ونشر الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم إن من أكثر ما ذبح أولئك الذين يريدون العمل: زوجات غير صالحات، أشغلنهم في أمور الدنيا، وأركبنهم مطاياها، وذهبن بهم في أوديتها، كما قال الإمام مالك رحمه الله: «ينطلق أحدهم فيتزوج امرأة قد سمّنها أبواها وترفوها، حتى كأنها زبدة، يتزوجها فتأخذ بقلبه، فيقول لها: أي شيء تريدين؟ فتقول: كذا وكذا. فيأتي به، ثم يقول: أي شيء تريدين؟ فتقول: كذا وكذا. فيأتي به، فتمرط والله دينه وتمزق، ولو أنه تزوج يتيمة ضعيفة كساها أجر على ذلك». إذاً: ينبغي أن يكون إرضاء الله مقدماً على إرضاء الزوجات والأولاد، ولكل حقٌ يجب القيام به، فـ «إن لربك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، فأعطِ كل ذي حق حقه». [البخاري: ١٦٨٧].

الأسباب الداعية لمواصلة العمل للإسلام

إن من أعظم الأسباب الداعية إلى مواصلة العمل للإسلام وعدم تركه: أن يكون الإنسان مع العاملين المخلصين.. أن يؤاخيهم، ويرافقهم، وألا ينفصل عنهم.. المحيا محياهم، والممات مماتهم، وهكذا يكون معهم أخاً صادقاً.. «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» [الحجرات:١٠] يكونون كالبنيان المرصوص في مواجهة كيد الأعداء، ويكونون كالجسد الواحد في التآخي فيما بينهم، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.. إن الانفصال عن الأخيار العاملين هو الداء الوبيل، وهو الشر الكبير. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» [الحاكم ٧٦٥، وصححه ووافقه الذهبي]، وذكّرنا بأن يد الله مع الجماعة، وذكّرنا بأن البركة في ثلاث: في الجماعة، والثريد، والسحور. إذاً: الجماعة المجتمعون على الخير بركة، فإذا كنت مع الأخيار عملت، وأججوك وأزوك للعمل ودفعوك، واقتديت بهم، ونلت نصيحة أو حافزاً وحماساً، أو تسديداً وستراً على عيب، وتكميلاً لشخصية، واقتباس خلق، وعلم، ونحو ذلك من الفوائد العظيمة.

شر ما يقطع الإنسان عن العمل للدين

إن المعاصي من شر ما يقطع الإنسان عن العمل للدين، وإن الشيطان ليستثمر المعصية استثماراً ويرابي فيها، بحيث تكون قاطعة عن الله والدار الآخرة، ولا يزال يقول لمن اتبع دربه ومشى في ركبه: أنت عاص مقصّر، لا يليق بك أن تدعو وتعمل وتنصح.. ولا شك أن هذا في الحقيقة إضافة تقصير إلى تقصير، فلو أن المقصر ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأجل هذه الحجة الواهية، التي ليست بحجة أصلاً، فماذا سيحدث أيها الإخوة؟ إنه سيضيف إلى معاصيه وتقصيره معصية وتقصيراً آخراً، وهو ترك إنكار المنكر الواجب، وترك النصيحة الواجبة في الدين. وهكذا يتنقل الشيطان بالمرء من حفرة إلى حفرة، وينزل به سلم الدرج حتى يورده قاع الذل والهزيمة والمعصية، فإياكم -يا عباد الله- من الاستجابة لهذه الخدعة الإبليسية!!

إن الإنسان المسلم قد تعرض له عوارض، فيعرض له ضعف، ويعرض له شيء من الكسل والخمول، فعليه أن يزيله بالإقبال على الله، والانطراح بين يديه، والذل عنده.. يقف ويناشد ربه أن يعيد إليه إيمانه جذوة مشتعلة، وحماسة متقدة، وأن يأخذ بيده إلى سبيل الطاعة والنهوض بنفسه مرة أخرى، ويطلب من إخوانه المسلمين أن يكونوا عوناً له ومدداً في تجاوز هذا الحال المؤقت.

إن هذه المنعطفات الموجودة في طريق الطاعة عند كثير من الناس ينبغي أن يتغلب عليها لا أن يستسلم لها، وأن نأخذ من كتاب ربنا ومن سيرة سلفنا ونبينا إمامهم وقدوتهم العلاج في مواجهة مثل هذه الحالات التي تحدث لدينا من كسل أو خمول أو تباطؤ أو فتور، بل حتى وانتكاس، لنعود مرة أخرى متغذين بهذه المحفزات لأعمال الخيرات، وأن نرجع مرة أخرى إلى الطريق كما كنا وأفضل مما كنا، والسعيد من عرف كيف يعالج نفسه، ولو أنك لم تهتد إلى علاج فسألت من إخوانك من يدلك على الطريق والعلاج لكان ذلك من الحكمة العظيمة.

إن القضية تحتاج إلى مكابدة، وإلى تعب نفس.. «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» [العنكبوت:١٤] فهذا نوحٌ يدعو قومه تسعمائة وخمسين عاماً من غير كلل ولا ملل، هذه الهمة العالية من نبي الله الكريم في القيام بالواجب، وحتى التغلب على عيوب النفس يحتاج إلى مصابرة، قال ابن المنكدر: «كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت». وكذلك قال ثابت البناني عن الصلاة: «كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة». وهذه العبارة توضح لك -يا عبد الله- كيف تتم المصابرة في موضوع مثل قيام الليل، الذي يكون شاقاً على النفس، ومُراً عندما يحاول الإنسان أن يفعله وأن يطيل فيه، ولكن الحل والعلاج هو الاستمرار حتى تأتي الحلاوة، فإن الحلاوة قد لا تأتي إلا بعد وقت من الزمن.

إن الاستمرار في الأعمال يرزق الإنسان به حلاوة إيمان يستشعر طعمها حتى يفارق الدنيا، فهذا ربيعة بن يزيد ما أذن المؤذن لصلاة الظهر أربعين سنة إلا وهو في المسجد، إلا إذا كان مريضاً أو مسافراً. وهذا بشر بن الحسن الصفي، سمي بالصفي؛ لأنه كان يلزم الصف الأول في مسجد البصرة خمسين سنة. وهكذا كانت الأعمال ترتقي بهم من مرحلة إلى مرحلة حتى يحس المعاشر لهم أنهم يزدادون كل يوم، وهذه هي القضية العظيمة. قال إبراهيم الحربي -رحمه الله- وهو من أصحاب الإمام أحمد عن شيخه: «ولقد صحبته عشرين سنة صيفاً وشتاء، وحراً وبرداً، وليلاً ونهاراً، فما لقيته في يوم إلا وهو زائد فيه عما بالأمس».

أين أنت والطريق؟!

يا مطعوناً في العزم: أين أنت والطريق؟! طريق تعب فيه آدم، وبكى لأجله نوح، ورُمي في النار الخليل، وأضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونُشر بالمنشار زكريا، وذُبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد على المقدار بكاء داود، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف نحن باللهو واللعب؟!

عباد الله: ليكن شعارنا: «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ» [النحل:١٢٧].. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾» [آل عمران:٢٠٠] كيف يهنأ المسلم بعيش ويرتاح له بال؟! وهو يرى أفراد أمته يجرون وراء اليهود والنصارى والكفار تشبهاً بهم. وما جرى في يوم عيد الحب ببعيد، عندما رأيت أنواع هذه الترهات يبيعها الناس في أسواقهم، الورود والبطاقات، وترسل التهاني عبر شبكة نسيج العنكبوت، وغير ذلك من أنواع التبادل، وتتحدث القنوات عن قضية عيد الحب، وتنتهي الورود الحمراء من المحلات، وتتقاذف القلوب الأوراق المقصوصة وغيرها على هيئة القلوب، تتنقل في أيدي شبابنا وبناتنا. هذه الغيرة التي تأخذ بنفس الإنسان المسلم، والحسرة والغصة مما يتجرعه من هذا المرأى الشنيع لبنات وشباب من آباء وأمهات مسلمين، يعيشون مع المسلمين، ثم يصل بهم الانحدار إلى أن يركبوا مركب الكفار، ويسيروا في ركبهم، ثم تعمل الحفلات، وتسمع عن الديجيه وغير ذلك من أنواع الموسيقى والرقصات.. أناسٌ يهيمون في أودية إبليس، والشيطان يستجرهم.. هذا مثل واحد. ثم تجد في المقابل مذابح الشيشان، وتجد الطعن في العيون، وبقر البطون، وأنواع الاغتصاب، والإذلال والمجاعة.. مدن تُهدم باكملها على رءوس قاطنيها، وعاصمتهم تغلق، ومحصورون في الجبال وفي الثلوج والجوع، ثم هؤلاء يهيمون في الأسواق والمراكز التجارية وعلى الشواطئ يلعبون بالكفر والتشبه بالكفرة.. تهدم العقيدة، ويزلزل الدين، ويتشبه بالكفرة الذين يقاتلوننا.

القضية والله تدفع المسلم للعمل، وتحثه على المنازلة، والإقدام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، كفى لعباً، وكفى لهواً ونوماً وكسلاً، انفضوا ذلك الغبار، وقوموا لله بالواجب، وإلا فإن السفينة ستغرق والله.

اللهم إنا نسألك الهداية لنا وللمسلمين جميعاً، اللهم ردنا إلى الإسلام رداً جميلاً، ونعوذ بك من غضبك وعقابك، ومن أراد المسلمين بسوء اللهم فأرنا فيه عجائب قدرتك يا رب العالمين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

منبر الحرمين

ما أكثر العبر وأقل المعتبرين!

إعداد/ فضيلة الشيخ
محمد بن صالح المنجد



الحمد لله مصرف الأقدار لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، خضعت لهيبته الأكاسرة وكل شيء عنده بمقدار، يكور النهار على الليل ويكور الليل على النهار، قد أرانا ما فيه تذكرة وعبرة لأولى الأبصار، وخص بالفضل أصحاب النظر والعقول، وخاطبهم فقال: «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ» [الحشر: ٢].

يا عباد الله: إن خير ما شُغلت به الأفكار والأعمار: التدبر والاعتبار، فهي الحياة مليئة بالعبر ومن جال بفكره عرف ربه فآمن به وزاد يقينه وعظم إيمانه، ولكن ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار! ففي العالم حروب ومآسي وفيما حولك مصابون وحوادث، ولكن كم مرة نعتبر؟!

إذا تأملنا رأينا تقلب الدهر بأهله وفجائع الزمان، ولكن القلوب إذا قست لم تستقبل، فينبغي علينا أن نجلو صدأ القلوب بالاستغفار والعبادة للواحد القهار حتى نتمكن من الاعتبار، فالمؤمن مشغول بالعبر والتفكر، والمنافق مشغول بالحرص والأمل.

يا عباد الله: هذه المواعظ قد خلت من بين أيدينا ومن خلفنا من مسموع ومشهود،

وما نظرت إلى الأيام معتبرًا
إلا وأعطاك كنز العبرة النظر

فهذا التفكر وهذا التأمل وهذا الالتقاط للمشهد لحادث أو مريض أو مصيبة، أو نكبة تقع تجعل للمسلم إقبالا على الله، وأعظم ذلك التفكر والاعتبار بما في آيات الكتاب العزيز الذي أنزله الله تعالى في آياته الفكر والعبر، ومن تأمل حوله رأى فيه ما يطابق الواقع..

عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح.. وعجب لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك.. وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، وهذه الدار تحدثك عن أهلها كما تحدثك القبور عما في بطونها، وهذا كتاب الله يحدثك عن الآخرة وعن الجنة والنار ومن يسكنهما..

أيها المسلمون: حتى ننتفع لا بد أن نتدبر، وأن نفرغ القلب لذلك، حتى

ننتفع لا بد أن نشكر الله تعالى على نعمه، وحتى نعتبر لا بد أن نتعلم سنن الله تعالى حتى يتجدد الإيمان في قلوبنا وحتى نتواضع لربنا وحتى تكون لنا خشية، ويكون عندنا علم، العلم الشرعي بمعاني الكتاب والسنة يعيننا على ذلك.

أهل الاعتبار هم أهل الخشية لله والعلاقة بين الاعتبار والخشية واضحة كما في قوله تعالى «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ» [النازعات:٢٦] فالذي يعتبر هو الذي امتلأ قلبه من خشية ربه، وأيضا لا يعتبر إلا أصحاب العقول «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» [يوسف:١١١]، فهذا العقل لا بد من المحافظة عليه يا عباد الله حتى نستطيع الاعتبار «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾» [ق:٣٧].

ولابد لنا من بصر واع «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» [آل عمران:١٣] فكم يعتبر البصير صاحب البصيرة والله عز وجل قد قص علينا في القرآن قصصاً كثيرة فيها عبر ما قصها علينا عبثا أو لمجرد التسلي والتفكر، وإنما لننظر فيها ونأخذ منها ما نستفيد منه في حياتنا.

قص علينا من قصص الأنبياء، وقص علينا من قصص المكذبين، وقص علينا من قصص الأمم والأفراد والطوائف، قص علينا قصة مريم ولقمان، وذي القرنين وقارون، وأصحاب الكهف وأصحاب الفيل، وأصحاب الجنة، وصاحب الجنتين، وأصحاب الأخدود..

وغير قصص الأنبياء الكثيرة جدًا في القرآن، كذلك حدثنا ربنا ما حصل بالغزوات من بدر وأحد وحنين وتبوك، وما حصل في الهجرة والإسراء وحادثة الإفك، ونحو ذلك... لماذا؟ حتى نتفكر فيها .

هذه القصص للأمم والأنبياء «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الأعراف:١٧٦] فليس المقصود فقط من القرآن أن نحفظ وأن نجود وإنما أن نفكر وأن نعتبر وأن يكون لنا في التاريخ عبرة..

ألا ترون الأحداث تتشابه؟ ألا ترون أن هؤلاء القرامطة الذين جاءوا إلى موسم الحج في موسم في القرن الرابع الهجري، وأغاروا على مكة وقتلوا الحجاج حول الكعبة، ورقوا فوق الكعبة، وسال ميزاب الكعبة دمًا، وقتلوا الحجاج وهم يتعلقون بأستار الكعبة، وجعلوا الجثث في بئر زمزم، وهلك من الحجاج من هلك من العطش، وكان قائدهم أبو طاهر لعنه الله يقتل الناس بين يديه وهو يقول: «أنا بالله، وبالله أنا، يحيي الخلق وأفنيهم أنا» فجعل نفسه قسيمًا لله، يعني كان الله يحيي وهذا هو الذي يميت..!!

فكيف يفعل الآن أحفاده في إبادة المسلمين؟ ماذا يفعلون الآن في محو الأحياء؟ ماذا يفعلون الآن في قتل الأجنة في بطون أمهاتها؟

فمن اعتبر من التاريخ وعرف ماذا فعل الأجداد لن يستغرب ماذا يفعل الأحفاد وهي ذرية بعضها من بعض.

عباد الله: أين التفكر؟ أين الاعتبار؟ أين السير في الأرض كما أمرنا الله؟ وأين النظر في السماء؟ وأين التأمل في النعم؟ وأين.. وأين التفكر في مصائر الأمم الغابرة وأخبارهم، وإن ذلك والله يبعث على التوبة؛ لأنك إذا اعتبرت بنزول العذاب وما كان فيه «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ» [غافر: ٨٤-٨٥].

ما في قرية في العالم إلا سيهلكها الله قبل يوم القيامة «وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» [الإسراء:٥٨].

وبناءً عليه يا عباد الله، فإن ما يكون الآن في العالم عن الأمم المكذبة الخارجة عن الوحي فلهم عذاب شديد سيأتيهم، فلذلك لا يغتر المغتر بما عندهم من الدنيا ولا يقلدهم المقلدون..

والله لو عرف شباب قومي ما يعذب الله به أولئك الذين خرجوا عن شرعه ما تشبهوا بهم ولا صاروا على منوالهم، ولا أعجبوا بهم، بل إذا رؤوا ما هم فيه من الكفر والفسوق خافوا نزول عذاب الله «وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا

الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » [الإسراء:١٦].

وعندما نرى بالمقابل في بعض بلاد المسلمين اليوم ما يحدث فيها من الجرائم، فإنك تتأمل في مثل قوله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » [الأنعام:١٢٣].

وعندما تتأمل ما يحدث من التدافع سنة المدافعة بين الكفار والمسلمين والمشركين والموحدين وأهل السنة وأهل البدعة، عندما تتأمل تتذكر ذلك في قوله تعالى: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ » [البقرة:٢٥١]، «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ » [الحج: ٤٠].

سيخرج معك من الفوائد ما لا يعلمه إلا الله، لما تتأمل في قوله: « الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ » [الحج:٤١] تعرف كيف يؤتى البلد الأمان من الله عز وجل.

عندما نتأمل في نهاية الطغاة المتكبرين كما حصل لفرعون عليه لعنة الله: « فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾» [النازعات: ٢٠-٢٦].

وهذه نهاية كل ظالم تعدى وجار.. فما راعى الأهل ولا الجار.. بينا هو يعقد عقد الإصرار.. حل به الموت فحل من حلته الأزرار.. ما صحبه سوى الكفن إلى بيت البلى والعفن.. لو رايته وقد حلت به المحن وشين ذلك الوجه الحسن.. فلا تسال كيف صار.. سال في اللحد صديده، وبلي في القبر جديده، وهجره نسيبه ووديده.. وتفرق حشمه وعبيده والأنصار.. اين مجالسه العالية؟ اين عيشته الصافية؟ اين لذاته الحالية؟ كم تسفى على قبره سافية.. ذهبت العين واخفيت الآثار.. تقطعت به جميع الأسباب.. وهجره القرناء والأحباب.. وصار فراشه الجندل والتراب.. وربما فتح له في اللحد باب النار.. خلا والله بما كان صنع.. واحتوشه الندم وما نفع.. وتمنى الخلاص وهيهات قد وقع.. وخلاه الخليل المصافي وانقطع.. واشتغل الأهل بما كان جمع.. وتملك الضد المال والدار..فاعتبروا يا أولي الأبصار.

من تأمل الطغاة وما وقع لهم يسلي نفسه عن إجرام هؤلاء الحاليين بما حصل لاسلافهم الماضيين:

باتوا على قلل الجبال تحرسُهم
غلبُ الرجالِ فلم تنفعهمُ القُللُ
واستنزلوا بعد عزٍّ عن معاقلهم
وأودعوا حفرًا يا بؤس ما سكنوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما دفنوا
اين الاسرّةُ والتيجانُ والحللُ
اين الوجوه التي كانت محجبة
من دونها تضربُ الاستارُ والكللُ
فافصحَ القبرُ عنهم حين ساءلهم
تلك الوجوه عليها الدودُ يقتتلُ
قد طالما اكلوا فيها وما شربوا
فاصبحوا بعد طول الاكلِ قد أُكلوا
وطالما كنزوا الاموال وادّخروا
فخلّفوها على الأعداء وارتحلوا
وطالما عمّروا دورًا لتُحصنهم
ففارقوا الدورَ والأهلينَ وانتقلوا
اضحت مساكنهم وحشا معطلة
وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
اين الكنوز التي كانت مفاتحها
تنوء بالعصبة المقوين لو حملوا
اين العبيد التي ارصدتهم عددا
اين الحديد وأين البيض والاسل
اين الفوارس والغلمان ما صنعوا
اين الصوارم والخطية الذبل
هيهات ما كنفوا ضيما وما دفعوا
عنك المنية إن وافى بها الأجلُ

وكما أهلك الله الأولين من الطغاة يهلك الآخرين، وسيتبع أولئك بأولئك، ثم يتبعهم لعنة ولهم سوء الدار..

والمهم أن يحقق المؤمنون شروط النصر؛ لأن من العبرة العظيمة في كتاب الله «إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ» [محمد:٧] ووعد وهو لا يخلف الميعاد «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» [الروم:٤٧].

فعليك أخي أن تتعلّم دين الله والعمل به والدعوة إليه وتحكيم الشرع في الواقع والصبر والمصابرة، وسيأتي النصر ولا بد.

مواعظ وعبر من التاريخ

إن في التاريخ لعبرًا وإن في قصص المجرمين ممن سبق مواعظ كثيرة، سواء ممن استكبر أو ممن أجرم.

عن عمرو بن شيبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة، فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمانه يعنّفون الناس، ثم عدت بعد حين إلى بغداد فدخلتها فكنت على الجسر، فإذا أنا برجل حافي حاسر طويل الشعر، فجعلت أنظر إليه وأتأمله، فقال لي: ما لك تنظر إليّ؟ فقلت له: شبهتك برجل رأيته بمكة ووصفت له صفته، فقال له: أنا ذلك الرجل، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس.

وكم كان في التاريخ من عبر لمن خانوا الأمة كابن العلقمي الذي تحالف مع التتار ضد المسلمين، وكاتبهم حتى دخلوا فقضوا على الخليفة ومن معه من المؤمنين، ولكن ماذا حصل له بعد ذلك؟ حصل له الإهانة والذلة والقلة على أيدي التتار الذين خدمهم ووالاهم على المسلمين، وقد رأته امرأة وهو في الذل والهوان يركب برذونًا وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه، وقالت له: يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟! وانقطع في داره إلى أن مات كمدًا.

وكذلك فإن المجرمين الطغاة الذين يعذبون أهل الإسلام لله فيهم شأن عظيم «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ» [آل عمران:٢٦] فسبحانه يضع من يشاء ويرفع من يشاء.

وقد أذل الله أقوامًا من الجبابرة، أين النمرود؟ وأين فرعون؟ وأين أبو جهل؟ وأين هامان؟ وأين قارون؟ وأين أبو لهب؟ «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» [المسد: ١].

الدنيا لا تدوم لأحد والله يمهل ولا يهمل، وهذه الدنيا عجيبة في تقلباتها وتغيرها على أربابها، وفي التاريخ قصص ومن ذلك ما كان عليه بعض الناس من القوة فصاروا في ذلة ومن الغنى فصاروا في فقر.

والبطاش منهم بطش الله به، وكان أحدهم ممن يبطش بالناس سلط الله عليه ظالمًا مثله فخلعه وثمل عينيه وأودعه دارًا حتى صارت حاجته شديدة ثم أطلقه، فكان يحبس ويطلق ويحبس ويطلق، فوقف يومًا بجامع المنصور بين الصفوف، وقال: تصدقوا عليَّ فأنا من قد عرفتم..

أيها المسلمون: إن هذا الاعتبار يخفف عن المؤمن الآلام التي يجدها، وإن التأمل في عواقب المجرمين التي ذكرها الله في كتابه يخفف أيضًا، هؤلاء الذين يطلقون على حمص بالقنابل والصواريخ الحرارية والكيماوية، والقصف الجوي، وهؤلاء الذين يهددون بالإبادة وأسلحة الدمار الشامل، الله فوقهم.. والله أقدر منهم، والله عليهم قادر، والله قوي، والله كبير، والله متعال، والله منتقم، والله عز وجل سريع الحساب.

«إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [هود:١٠٢] إذا بطش لا يقوم لبطشته أحد، «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾» [هود:١٠٢]. وفرعون أخذه الله أخذًا وبيلاً.

عباد الله: إن لجهنم أهلاً ومن هم؟ المجرمون يوم يسحبون في النار على وجوههم، هؤلاء يحشرون يوم القيامة زرقًا، زرق العيون، هؤلاء لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط.

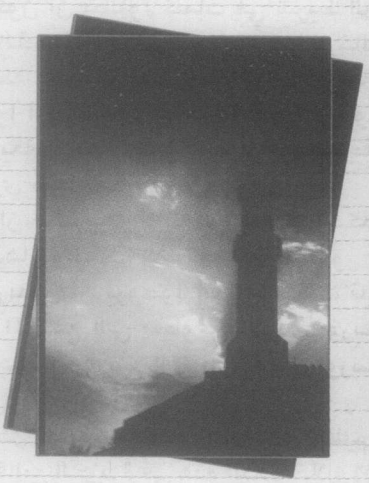
«إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾» [القمر:٤٧]، هؤلاء إذا رؤوا النار «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا» [الكهف:٥٣] يعني أيقنوا «أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» [الكهف:٥٣] خلقها الله لمثل هؤلاء في هذه الدركة من دركات جهنم.

اللهم إنا نسالك يا أرحم الراحمين أن تنصر إخواننا المستضعفين بالشام وسائر الأرض يا أرحم الراحمين..

منبر الحرمين

تحديات تواجه الأمة

إعداد/ فضيلة الشيخ
محمد بن صالح المنجد



الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

المبشرات كثيرة والآمال عظيمة

عباد الله: المبشرات كثيرة، والآمال عظيمة، وبقدر ما نجد في الواقع من مكر الأعداء؛ فإننا نجد من رحمة الله أكثر، وبقدر ما نجد من الخطط الخبيثة ضد الإسلام وأهله، فإننا نجد من التفاؤل به وبمستقبله أكثر.. والله من ورائهم محيط.. غالب على أمره، سبحانه.

ومن هنا كان لا بد لأهل الإسلام من التصدي للتحديات الكثيرة التي تواجههم، ومن ذلك مقاومة نشر الإلحاد، فإن الله سبحانه وتعالى رب السماوات والأرض، مالك الملك، خالق كل شيء، هو الله الواحد القهار.

التصدي لنشر الإلحاد

وقد اتجهت خطط أعداء الله نحو نشر الإلحاد عداوةً لله عز وجل، فأنكروا وجوده وشكّكوا في ذلك، فليس النقاش في توحيد الإلوهية، بل في توحيد الربوبية الآن.. وقد تولى ربنا عز وجل الرد على هؤلاء فقال لهم: « أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ » [الطور: ٣٥- ٣٦].

هؤلاء الذين يقولون: لا إله، أو يشككون في وجوده كما يدرسون ذلك في جامعاتهم الكبرى في الغرب والشرق، والذين تسري بعض أفكارهم في أدمغة بعض أبناء المسلمين وبناتهم، مع الأسف الشديد، ويعتصر القلب ألما لمثل هذه الخطوب.

إلحاد يُبث في مقررات، في روايات، في أفلام ومواقع، إلحاد يبث عبر رؤوس ضلالة يسوّقونه ويروّجونه بين المسلمين، يتجسسون إلينا تارة في اجتماعات مشبوهة في هذه المقاهي الحديثة، وتارة في منتديات يجتمعون فيها باسم الحرية، وأنه لا يوجد سقف للنقاش ولا خطوط حمراء، وأنه لا ثوابت للحديث؛ ترويجًا للإلحاد لإنكار وجود الله سبحانه وتعالى..

فماذا يبقى للمسلم بعد ذلك من المقدسات؟ وهذه الحرية المطلقة والليبرالية الشرسة المتوحشة قد أطلت برأس الإلحاد بعد ما كانت قد أطلت علينا في فصل الدين عن الحياة..

فما هو آخر مشوار الليبرالية إذًا؟ الإلحاد

كما ظهر ذلك عيانًا بيانًا، فماذا يجب على أهل الإسلام في التصدي لهذا؟

إن هنالك واجبات كثيرة.. إن هنالك يا عباد الله مسئوليات وأعمالاً عظيمة، إنه يجب علينا أن نعظّم الله في نفوس الناشئة والأولاد، إنه يجب علينا أن نقرر التوحيد، أتدري ما الله؟ سبحانه جل وعلا، «وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » [الزمر: ٦٧]، « أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ » [الرعد: ٣٣]، «ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ » [البقرة: ٢٥٥]، «فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ » [الأنعام: ٩٦] «إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ » [فاطر: ٤١] هو الله «لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » [الزمر: ٦٣] « هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ » [الحشر: ٢٣].

هو الله «مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا» [نوح: ١٣] هنا الرد على الملاحدة ومناقشتهم في جميع أنواع الأدلة، هنا تحصين الأولاد ذكورًا وإناثًا من آفة الإلحاد، هنا الرد على الذين يشككون في حكمته تعالى ويشككون في قضاءه وقدره سبحانه: «أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » [الأعراف: ٥٤]«فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ »[يس: ٨٣].

لا بد من تأسيس قواعد الإيمان في النفوس لمواجهة لتيار الإلحاد الذي يغزو كل شيء.

تحدي تحكيم الشريعة

عباد الله: وإن من التحديات التي تواجه الأمة أيضًا، والتي تطل برأسها عليهم، تحدي تحكيم الشريعة، وجعل الشريعة الإسلامية هي الدستور والقانون الحاكم بين الناس، هذه الشريعة التي يشن عليها الأعداء هجماتهم يطعنون فيها في صلاحيتها، في حكمتها، في مناسبتها.. يطعنون في شمولها، يطعنون في تلبيتها للاحتياجات، هؤلاء الأعداء الذين لا يريدون تحكيمها، ومع الأسف أنه وُجد ممن يسمى بالإسلاميين من يصرح بعدم الرغبة في تطبيق الشريعة، وأنهم يريدونها ديمقراطية لا شريعة إسلامية، وأنهم لا يريدون تحكيمها..!!

يا عبد الله! إذا كنت مسلمًا حقًا ولا تستطيع أن تقول الحق، ولا أن تجهر به لأيّ سبب من الأسباب، إذا قدرت في نفسك أنك لم تصرّح بوجوب تحكيم الشريعة الآن، إذا لم تستطع قول الحق، فلماذا تقول الباطل؟!

لماذا تقول كلامًا فيه التخلي عن الشريعة؟ لماذا تصرح بتصريحات؟! وتطلق عبارات فيه التأكيد على عدم تطبيق الشريعة.. لماذا؟ ألهذه الدرجة سارت الشريعة رخيصة؟! ألهذه الدرجة سارت أحكام الدين هينة؟!

هل هي عيب نريد أن نستره؟! «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا » [المائدة: ٣] «أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ » [المائدة: ٥٠]، قال تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا » [النساء: ٦٥].

أليس من أسماء الله «الحكم»؟ ألم يقل في كتابه «إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » [الأنعام: ٥٧]؟ ألم يحذر بقوله «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ » [المائدة: ٤٤]، «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ » [المائدة: ٤٥] «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » [المائدة: ٤٧].

وهنا يجب على علماء الشريعة وعلى طلبة العلم وعلى عامة الناس الذين تدور أصابعهم بين أزرار لوحات المفاتيح، والذين يمتلكون أن يطلقوا كلمات في شريط الرسائل في الفضائيات، أو تعليقًا في برنامج أو مداخلة يجب عليهم أن ينصروا الشريعة، وأن يبينوا أنهم مع الشريعة، وأنهم لا يريدون غير الشريعة، وأنه لا يجوز الفرار من الشريعة ولا التبري منها..

إن الشريعة لا تعني إلغاء الحكمة في تنفيذها، وليست الشريعة كما يتصور هؤلاء أو يريدون أن يروجوا أنها إذا نُفّذت فيتحول ربع المجتمع إلى مقطوعي الأيدي، وربع إلى مسجونين، وربع إلى مرجومين، وربع إلى مطلوبين مقتولين...

هل تعلمون يا عباد الله أنه في إقليم واحد من أقاليم الجزيرة في هذه البلاد خلال ٢٦ سنة لم يطبق إلا ثلاثة عشر حكمًا بقطع اليد فقط؛ بمعدل كم بمكان يحكم بالشريعة؟ وإذا ثبت عند

القاضي شرائط توفرت شرائط قطع اليد أمر بقطعها..

في ٢٦سنة ثلاثة عشر حدًا فقط للسرقة في مكان يحكم الحدود، فعن أي شيء يتحدث هؤلاء؟! فهنا يجب أن نبين بالحقائق الشرعية والتاريخية والواقعية أن نقوم بالرد على هؤلاء العلمانيين المنافقين الذين تسلموا منابر الإعلام؛ يخوّفون من الشريعة.

منهج تربوي في التغيير

وهذا منهج تربوي في التغيير عن عبد الملك بن عمر بن عبدالعزيز أنه دخل على أبيه، فقال: «يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فأخلني..» أريد أن أكلمك، مع أنه أبوه، لكن يدخل عليه كأحد الرعية.. فلما جلس بين يديه قال عبدالملك لأبيه: «يا أمير المؤمنين! ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها أو سنة لم تحيها؟»

فقال: «يا بني أشيء حملتك الرعية إليّ؟ أم رأي قلته من قِبل نفسك؟» قال: «لا والله، ولكن رأي رأيته من قِبل نفسي وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل؟ «

أنا أشاهد يا أبتي أن بعض الأشياء أنت لم تنفّذها بعدُ، هناك منكرات لم تقض عليها بعد، والله سيحاسبك على ذلك، ماذا ستقول يوم القيامة؟ عبدالملك شاب متحمس ومؤمن يخشى على أبيه ويريد أن تنفذ الأمور كلها فورًا..

فقال أبوه: «رحمك الله وجزاك الله من ولد خيرًا، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بني: إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدةً عقدة..» يعني قبل أن أتولى هناك أشياء حبكت وترسخت وتجذرت..

«...قد شدوا هذا الأمر عقدةً عقدة، وعروةً عروة، ومتى أردتُ مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم..» كأخذ بعض ما في أيدي بني أمية مما سلبوه من بيت المال بغير حق فيما سبق.

«.. ومتى أردتُ مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليَّ فتقًا تكثر فيه الدماء. والله لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يُهراق في سببي محجمة من دم، أوَما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يُميتُ فيه بدعة ويُحيي فيه سنةً حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟!».

هذه الطريقة العمرية في كيفية تنفيذ الأحكام ومواجهة المنكرات عندما يقوم هذا الإمام العادل في وسط قد تجذرت فيه الانحرافات، فهو لا يستطيع أن يقضي عليها جميعًا في يوم وليلة، لكنه في كل يوم يحيي سنة ويميت بدعة، يقيم معروفًا ويقضي على منكر.. وهكذا.. أما إعلان الإلغاء وإعلان الرفض والوعد بعدم تطبيق الشرع، هذه مصيبة والله؛ لأن هذا وكلام الكفار سواء..

الخطر الباطني المجوسي

ومن التحديات التي تواجه الأمة هذا الخطر الباطني المجوسي، هذا الخطر الحاقد المهلك الوحشي الذين يسعون في الأرض بالفساد يهلكون الحرث والنسل هؤلاء التتر، هؤلاء الأوباش الوحوش القادمون للقضاء على أهل السنة (قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) [آل عمران: ١١٨] في تاريخهم الأسود حتى قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم - من جهة هؤلاء الباطنية- وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين».

هذا التحدي الكبير الذي يواجه الأمة اليوم في دينها وفي سنة نبيها وفي وجودها، في بلادها وبيوتها وأهلها، في دمائها وأعراضها وأموالها، هذا التحدي الذي يواجه الأمة اليوم في حقد باطني سلطه الغرب واليهود اليوم عمدًا وكلوا بها الباطنية حتى لا يلوثوا أيديهم مباشرة بالقتل والتدمير سلطوا وكلاء، يجوسون خلال ديارنا، يقتلون أبناءنا ويستحيون نساءنا، ويخربون بيوتنا..

ويستغيث المسلمون رجالا ونساء وولدانا ويقولون: ربنا أخرجنا، اجعل لنا من لدنك سلطانا، اجعل لنا من لدنك وليا، اجعل لنا من لدنك نصيرا..

هذا التحدي الكبير الذي يتطلب اليوم بيان حكم هؤلاء الباطنية، وحقيقة عقيدتهم وتاريخهم الأسود، وماذا فعلوا بالمسلمين، لما تسموا بالعبيديين تارة وبالفاطميين تارة، وبالبويهيين تارة، وبالصفويين تارة، وبالقرامطة تارة.. الذين تسموا بالحمدانيين... تسموا وتسموا بغير ذلك.. كلهم طينة واحدة حقدًا باطنيًا عظيمًا على أهل الإسلام، من

الذي أنشأهم أليس عبدالله بن سبأ؟ أليسوا هذه البذرة اليهودية فقط عرف اليهود، ماذا يصنعون في وسط هذه الأمة، وكيف يسلطونهم بعد ذلك.. فقد أنشئوهم ورعوهم وسلطوهم، مكنوهم، وأتاحوا لهم المجال..

ومن هنا يا عباد الله: فإن مواجهة هذا الخطر تحدٍّ عظيم جدًا للأمة الآن، يكاد يكون أكبر تحدٍّ الآن على مستوى الأمة هذا، وقد ظهرت بلاد تحويلهم بلاد المسلمين إلى ساحات مذابح ومعارك تغيرون من خلالها على أهل الإسلام.

وعندما يقول الله عن المسلمين الذين يناشدون إخوانهم «وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ» [الأنفال: ٧٢]، فإن ذلك يبين واجب الإمداد، الإمداد بالمال، الإمداد بالغذاء، الإمداد بالكساء، الإمداد بالدواء، الإمداد بالدعاء، الإمداد بالإعلام، الإمداد بالرأي، والإمداد بالفتوى، والإمداد...

وأنواع الإمداد الكثيرة التي يجب على المسلمين أن يقوموا بها تجاه إخوانهم؛ لأن الدور علينا بلا شك، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم» [أبو داود (٢٥٠٦) وصححه الألباني].

الواجبات أمام كثرة التحديات

عباد الله: إن التحديات والله كبيرة، إنها تتطلب منا وعيًا عظيمًا وإيمانًا راسخًا وعلمًا مبينًا، تتطلب منا حشد الطاقات وتنظيم الصفوف، تتطلب منا سهرًا بالليل وعملاً بالنهار ورباطًا على الثغور، تتطلب منا حراسة، تتطلب منا وحدتنا على الحق، وإلا ستؤكل الأمة.. ونحن نعرف ونوقن ونؤمن بأن المستقبل للإسلام، وأن الله ناصر دينه وأنه سبحانه تعالى قد وعد، وهو لا يخلف الميعاد، أن يتم هذا الأمر، وأن يُدخل هذا الدين كل بيت وأن يبلغ ما بلغ الليل والنهار.. لكن يا عباد الله الأمور بأسباب، النتائج لا تأتي بدون عمل فلا بد أن تبذل الجهود، لابد أن نقوم بالأسباب..

خطر التقسيم والتفتيت

عباد الله: ومن التحديات والمؤامرات العظيمة التي تواجهه الأمة اليوم خطر التقسيم والتفتيت، فإن أعداءها بلا ريب ولا شك قد أعدوا العُدة لتقسيم المقسمات التي قسموها بعد سقوط الخلافة، آن الأوان عندهم لتقسيمات أخرى وإثارة للفوضى والبلبلة، وهذا واضح جدًا من قبل ومن بعد في الأحداث الجديدة..

فإن ما جرى في السودان والعراق وغيرها من قبل لا شك أنهم يريدون تعميمه، يريدون نشر الفوضى، يريدون تفتيت بلاد المسلمين؛ لأنهم يعلمون أن ربنا قال في كتابنا الذي أنزله عليها «إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً» [الأنبياء: ٩٢] «ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» [الحجرات: ١٠] «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟» [آل عمران: ١٠٣].

مؤامرة إثارة الشهوات

من المؤامرات العظيمة اليوم التي تواجهها الأمة مؤامرة إثارة الشهوات، مؤامرة تحرير المرأة من شرع الله، مؤامرة تعميم التبرج والسفور والصنف الذي ما رآه عليه الصلاة والسلام في حياته يريدون أن يعمموه بعد وفاته «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها» رواه مسلم.

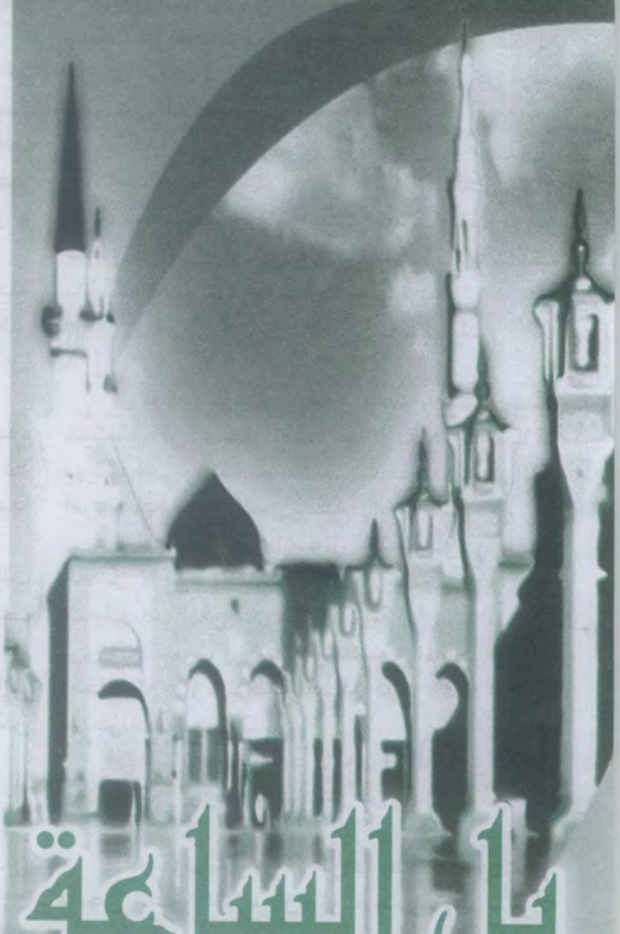
يريدون أن تخضع بالقول والله قال «فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ» [الأحزاب: ٣٢]، يريدونها أن تفتن «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ» [النور: ٣١] فكيف إذا كان المراد الكشف بجميع أنواعه؟!

الله يريدها عفة وطهارة «وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا» [النساء: ٢٧] فيريدونها اختلاطا عامًا، يريدونه سفورًا وتبرجًا وانحلالاً، يريدونها إقامة علاقات محرمة ونشرًا للفساد وهكذا..

فمن ذا الذي يتصدى لهذا اليوم ويبين حكم الله في العلاقات، حكم الله في الحجاب والألبسة، حكم الله في النظر، حكم الله فيما بعد ذلك «وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ» [الإسراء: ٣٢] من الذي سينشر في الأمة روح الفضيلة وريحها الشريعة والطهر والعفاف الذي جاءت به؟!

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.. اللهم أعنا على القيام بشرعك.. اللهم أعز دينك وانصر أمتك، وأحسن ختامنا أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

منبر الحرمين



بل الساعة موعدهم

إعداد/ فضيلة الشيخ
أحمد بن عبد العزيز الشاوي
إمام مسجد عوف بن مالك بالقصيم

الحمد لله الغفور الشكور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يحيي الموتى، ويبعث من في القبور، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الشكور الصبور، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه دعاة الهدى والنور وسلم تسليمًا.

الدنيا ليست دار جزاء:

يعيش المؤمن في دنياه في همّ وعناء يصارع الابتلاءات والأدواء، ويعاني من ظلم وكيد الأعداء ويتذوق الفقر واللؤم، ويموت ولم يذق من الحياة زينتها، ولم يتذوق من الشهوات طيبها.

يعيش المجرمون في رغدٍ من العيش يستعبدون الناس يقتلون فريقًا، ويؤثرون فريقًا، قد حيزت لهم الدنيا بحذافيرها، يحاربون دين الله ويؤذون أولياء الله، ثم يفارقون الحياة، ولم يجدوا على طغيانهم عقابًا، ولم يروا حسابًا ولا عذابًا.

يعيش الداعية والمحتسب يقاوم الفساد والانحلال، ويقابل بالظلم والإذلال، وقد يغادر الحياة دون أن يذهب غيظ قلبه، ويشفي صدره ممن ظلمه، فهل ربنا يخذل أولياءه؟! حاشاه ربي وهو الحكم العدل الذي قضى وحكم وسنته لا تتبدل (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر: ٥١].

وقضاؤه لا يتحول (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) [إبراهيم: ٤٢].

أجل، فالله هو الحكم العدل، وربك لا يخلف الميعاد، لكنه لم يجعل الدنيا دارًا للمكافأة والجزاء، ولا محلًا للثواب والعقاب، وإنما أخر ذلك ليوم موعود (ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) [التغابن: ٩] يوم يقوم الناس لرب العالمين، وما يرسله من عقوبات عاجلة، فإنما هي جنة في مقابل عذاب يوم عظيم.

ثمرات الإيمان بالآخرة:

إن الذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة يعيش في عذاب نفسي لا أمل له، ولا رجاء ولا عدل ولا جزاء ولا عوض عما يلقاه في الحياة..

وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان

على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة وثوابها للمحسن وعقابها للمسيء وابتغاء وجه الله، والتطلع إلى رضاه في ذلك العالم الآخر الذي لا تضيع فيه صغيرة ولا كبيرة.

إن الإيمان بالآخرة يؤدي دوره الأساس في إفاضة الأمن على روح المؤمن وعالمه، ونفي القلق والسخط والقنوط.

إن الحساب الختامي والجزاء الأكبر ليس في هذه الأرض، والجزاء الأوفى ليس في هذه العاجلة، إن الحساب الختامي هناك، والعدالة المطلقة مضمونة في هذا الحساب؛ فلا ندم على الخير والجهاد في سبيل الله إذا لم يتحقق في الأرض أو لم يلق جزاءً..

ولا قلق على الأجر إذا لم يوفَّ في هذه العاجلة بمقاييس الناس فسوف يوفى بميزان الله (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) [إبراهيم: ٤٧].

الإيمان بالآخرة حاجز دون الصراع المحموم الذي تداس فيه القيم وتداس فيه الحرمات بلا تحرج ولا حياء، فهناك الآخرة فيها عطاء وفيها غَنَاء، وفيها عوض عما يفوت..

الإيمان بالآخرة هو الضمان ليقظة القلب وتطلعه إلى ما عند الله واستعلائه على متاعب الأرض وترفعه على متاع الدنيا، ومراقبة الله في السر والعلن، وفي الدقيق والجليل والوصول إلى درجة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..

إنه ليس شيء يدفع للعمل والبذل والعطاء والإخلاص ولا شيء يردع عن العصيان والتقصير والطغيان مثل تذكر ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا..

أو لم يكفِ ذلك اليوم شدة وهولاً أن الشمس فيه تكور والنجوم تنكدر والبحار تُسَجَّر والجبال تسير والعشار تعطل والوحوش تحشر.. و(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) [الحج: ٢].

أو ليس كافيًا في شدته أنه يوم تنشغل فيه كل نفس بأمرها ولا تلتفت إلى سواه (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) [النحل: ١١١].

والتبعة فردية والحساب شخصي، وكل نفس مسئولة عن نفسها ولا تغني نفس عن نفس شيئًا، التبعة فردية فلا تنال نفس إلا ما كسبت ولا تحمل إلا ما اكتسبت (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم: ٩٣- ٩٥].

هول ذلك اليوم يقطع أواصر الرحم والنسب، ويشغل الوالد عن الولد، ويحول بين المولود والوالد، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة مجردة من كل عون، ومن كل سند، موحشة من كل قربة، ومن كل وشيجة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا) [لقمان: ٣٣]، إنها تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها، وللنفوس أن تختار طريقها ومصيرها وهي مأخوذة بما تكسبه باختيارها مرهونة بأعمارها وأوزارها (لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) [المدثر: ٣٧- ٣٨].

كل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها، يتقدم بها أو يتأخر يكرمها أو يهينها فهي رهينة بما تكسب مقيدة بما تفعل (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [النازعات: ٣٧].

أو لم يكف من أهوال ذلك اليوم أنه يوم الفصل لا يوم الاعتذار (هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) [المرسلات: ٣٥- ٣٦] في ذلك اليوم لا ترى إلا الصمت الرهيب، والخشوع المهيب الذي لا يتخلله كلام، ولا يقطعه اعتذار، فاليوم يوم العقاب والجزاء لا يوم العتاب..

في ذلك اليوم الرهيب لا ترى إلا البكاء والعويل والأمنيات والتوسلات ما أكثر من يقول: (لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) [الزمر: ٥٨] .

إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة والإقرار بالحق الذي طالما نسوه أو جحدوه (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) [السجدة: ١٢].

الآمال والأماني الضائعة:

ما أعظمه من يوم يتجلى فيه الرب جل جلاله، ويتولى الحكم والفصل والملائكة تقف صفًا صفًا ثم يجاء بجهنم فتقف هي الأخرى متأهبة..

(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ) يومئذ يتذكر الإنسان ويتعظ، يومئذ يتذكر الإنسان الحق ويتعظ بما يرى ولكن بعد فوات الأوان، (وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ) [الفجر: ٢٣] وحين تتجلى الحقيقة يقول (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) [الفجر: ٢٤] هنا فهي الحياة الحقيقة..

إنها الآمال والأماني الضائعة (فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) [الأعراف: ٥٣]!!

ولكن يا حسرة على العباد تتاح لهم فرص النجاة فيعرضون عنها، ويفتح الله لهم أبواب رحمته ولكنهم يتجافون عن أبواب الرحمة وهو يناديهم (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ) [الشورى: ٤٧].

ما أعظم ذلك اليوم (يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا) [المزمل: ١٤] (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا) [المزمل: ١٧- ١٨].

ما أعظم ذلك اليوم الذي ترى فيه الأنبياء على جلالة قدرهم ونداؤهم وشعارهم «ربِّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

ما أعظم ذلك اليوم حين تقع الواقعة (لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ) [الواقعة: ٢- ٣] تخفض أقدارًا كانت رفيعة في الأرض، وترفع أقدارًا كانت خفيضة في دار الفناء، حيث تختل الاعتبارات والقيم ثم تستقيم في ميزان الله.

ما أعظم ذلك اليوم (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) [طه: ١٠٨] ويخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر ويخيم الجلال على الموقف كله وتغمر الساحة، التي لا يحدها البصر تغمرها رهبة وصمت وخشوع، والسؤال خافت، والخشوع ضاف، والوجوه عانية، وجلال الحي القيوم يغمر الوجوه بالجلال، والظالمون يحملون ظلمهم فيلقون الخيبة والضلال والعمى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) [طه: ١٢٤].

إنه يوم زحام وخصام، يوم ذُل ومهانة، يوم عصيب، يوم عسير على الكافرين والظالمين غير يسير، حيث تنشر صحف الأعمال (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) [التكوير: ١٠] فلم تعد خافية ولا غامضة، وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى..

فكم من سوءة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكرها. فإذا هي في ذلك اليوم منشورة مشهودة..

إنه يوم عسير، يوم يقوم الناس لرب العالمين، حسبك هولا وشدة أن في ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق قدر ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فاستدفعوا يا عباد الله حر ذلك اليوم بعمل يظلكم بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله..

يا معشر الدعاة والمحتسبين إذا أوذيتم وعوديتم فتذكروا أن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون (إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) [إبراهيم: ٤٢].

وويل ثم ويل ثم ويل لمن قضى أو حكم ظلمًا ويل لهم من (يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ) [غافر: ١٨- ٢٠].

يا معشر الأغيار إذا رأيتم أهل التغريب والعلمنة وقد أظهروا في الأرض الفساد، فقاوموا فسادهم وواجهوا باطلهم، فإذا أوذيتم أو لم يتحقق مرادكم فلا تعجلوا عليهم إنما يعد لهم ربهم عدًا، ويملي لهم ليزدادوا إثمًا، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون..

ويوم القيامة تراهم خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي، وسيبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وسيبدو لهم سيئات ما عملوا وسيحيق بهم ما كانوا به يستهزئون.

يا معشر الدعاة والمربين.. إذا رأيتم المذنبين والمفرطين في جنب الله فلا تخوفوهم بالأمراض والأعراض والخسف والمسخ، فإنهم ربما رأوا ضدها وإنما أنذروهم يوم الحسرة وقولوا لهم: ألا تظنون أنكم مبعوثون (لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [المطففين: ٤- ٥].

يا معشر المسلمين حينما نضعف أمام الشهوات ونتراخى عن العبادات فليس من رادع ينفع وليس من وازع يدفع أعظم من تذكر يوم الدين يوم يقوم الناس لرب العالمين، فحلقوا في سماء الآخرة وتذكروا يوما يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه..

يوما لا ترى فيه إلا وجوها مسفرة ضاحكة مستبشرة، أو وجوها عليها غبرة ترهقها قترة، فانظر لنفسك ماذا أنت تختار، وإن سولت لك نفسك أمرًا فقل (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الأنعام: ١٥].

ولو أننا جعلنا الآخرة أكبر همنا ومنتهى أمانينا وقصارى تفكيرنا لما وجدنا القلوب القاسية والنفوس المعرضة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

إن تذكر الآخرة والإيمان بها يستلزم الاستعداد لها بالعمل الصالح، إن التخويف بالآخرة لا يعني أن يعيش الناس فزعين قلقين يرتجفون من الشدائد والأهوال، فالفزع الدائم من المجهول والقلق الدائم من المستقبل منغصات قد تشل طاقة البشر وتبددها، وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمل والإنتاج

وتنمية الحياة وعمارة الأرض..

إنما يريد الله منهم اليقظة والإحساس والتقوى ومراقبة النفس والعظة بتجارب البشر وإدامة الاتصال بالله وعدم الاغترار بطراوة العيش ورخاء الحياة.

إن تذكر الآخرة والاستعداد لها يعني التوبة والرجوع إلى الله والتسابق إلى الخيرات والمنافسة على الجنات إن الأبرار يطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، ودافعهم أنهم يخافون (يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا) [الإنسان: ٧] ويقولون (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) [الإنسان: ١٠].

وإن رجال المساجد لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والسبب لأنهم (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ) [النور: ٣٧].

وإن القانتين آناء الليل سجدًا وقيامًا إنما يحدوهم الحذر من الآخرة ورجاء رحمة الله، (أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ) [الزمر: ٩].

يا معشر المسلمين ما لنا نرى الناس يتصارعون في سبيل الدنيا، ومن أجلها يوالون ويعادون ومن أجل حطامها يكدحون ويتعبون، ما للناس اليوم (يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ) [الروم: ٧].

هل رواد المساجد كرواد الأسواق؟ وهل المترددون على الحلقات كالساهرين بالاستراحات؟ وهل من يصطفون عند البنوك كعدد الذين يصلون الفجر؟ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) [الحج: ١].

يا أيها الناس استيقظوا من رقدتكم إن هناك ربًا سيحاسب، وإن هناك تقديرًا وإن هناك ابتلاءً وإن هنالك تبعات، وإن هنالك حسابًا وجزاءً، وإن هنالك عذابًا شديدًا ونعيمًا كبيرًا..

كثيرون هم المسلمون اليوم، ولكن قليل من يؤمن بالآخرة عين يقين، قليل من يخشى ذلك اليوم ويعمل له، وإن الإيمان الصحيح متى استقر في القلب ظهرت آثاره في السلوك.

قال الحسن البصري رحمه الله «هيهات هيهات! أهلك الناس الأماني، قول بلا عمل، ومعرفة بغير صبر، وإيمان بلا يقين، ما لي أرى رجالاً ولا أرى عقولاً! وأسمع حسيسًا ولا أرى أنيسًا! دخل القوم والله ثم خرجوا، وعرفوا ثم أنكروا، وحرموا ثم استحلوا، إنما دين أحدكم لعقة على لسانه، إذا سُئل أمؤمن أنت بيوم الحساب؟ قال: نعم! كذب، ومالك يوم الدين..»

ويقول بلال بن سعد: «يَا أَهْلَ الْخُلُودِ، وَيَا أَهْلَ الْبَقَاءِ، إِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا لِلْفَنَاءِ، وَإِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِلْبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ، كَمَا نُقِلْتُمْ مِنَ الْأَصْلَابِ إِلَى الْأَرْحَامِ، وَمِنَ الْأَرْحَامِ إِلَى الدُّنْيَا، وَمِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْقُبُورِ، وَمِنَ الْقُبُورِ إِلَى الْمَوْقِفِ، وَمِنَ الْمَوْقِفِ إِلَى الْخُلُودِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ».

يا ابن آدم خفف من ظهرك، إن ظهرك لا يطيق كل الذي تحمله عليه من ظلم هذا وأكل مال هذا أو شتم هذا..

يا أيها الإنسان: إن عبارات الندم والتحسر وكلمات التمني والرجاء عند الموت ويوم الحساب ليست لأجل دنيا أو شهوة نفس، ولكنها ندم على طاعة قد فوتت ومعصية قد ارتكبت وأمنية بتاخير الأجل لإحسان العمل (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ) [المؤمنون: ٩٩] (وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى) [الفجر: ٢٣- ٢٤].

أخي المسلم: فكر فيما كنت تكابد من ألم الطاعة، فإذا الألم يذهب وسيبقى الثواب، وانظر إلى ما استمتعت به لذة المعصية، فإذا هو سيذهب ويبقى الحساب، فستندم على كل لحظة لم تجعلها في طاعة.

إن المقاييس كلها تتبدل ساعة الموت وإذا كل ما كنت تحبه وتنازع عليه قد صار عدمًا وإذا لم تأخذ منه معك شيئًا..

بنيت دارًا فما حملت معك منها حجرًا، واقتنيت مالاً فما كان لك منه إلا ما ظننت من قبل أنك خسرته وهو ما أخرجته لله، وعرفت لذائذ الحياة كلها فما الذي بقي في يدك حين الموت من لذائذ الحياة كلها؟!

إن المسلم الحق لا تغره الحياة ولا تخدعه فيكون عمله لها واطمئنانه بها، وليس هو بالشارد عن الحياة الهارب إلى قمم الجبال والفلوات يتعبد لله في صومعة، وهو يدرك أن الدنيا معبر وطريق، وأنها فانية زائلة فيجعلها مزرعة للآخرة، ويستعمرها بأمر الله، ويسيرها كما يحب الله ويكون في الدنيا بجسده ويعمل هنا وقلبه وغايته، هناك يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدًا.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا..

والحمد لله رب العالمين.



منبر الحرمين

أيها المتكلمون!!

لفضيلة الشيخ
أحمد بن عبد العزيز الشاوي
إمام مسجد عوف بن مالك بالقصيم

الحمد لله الذي هدانا للإسلام وجعلنا خير أمة أخرجت للأنام وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد: فاتقوا الله معاشر المسلمون فمن اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ» [الطلاق: ٢- ٣].

وسطية الاحترام والتقدير

ما بين يمين يمارسون الغلو في التقديس وشمال يصدرون سياسة الإسقاط والتدنيس، ضاعت وسيطة الاحترام والتقدير، وما بين فئة شعارها: فلان خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، وفئة قائلة عن نفس الشخص: فلان هو شرنا وابن شرنا وظالمنا وابن ظالمنا..

ضاعت بين الفئتين فئة سطر منهجها شيخ الإسلام بقوله: «فأما الصديقون والشهداء والصالحون فليسوا بمعصومين، وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم وخطؤهم مغفور لهم، وأهل الضلال يجعلون الخطأ والإثم متلازمَيْن، وأهل العلم والإيمان لا يُعصمون ولا يُؤثَمون».

في عصرنا فئة إن لم تكن عندهم رقم مائة فانت صفر بلا مراء، وضاعت بين الرقمين أرقام يمكن من خلالها الالتقاء، فلا وسطية ولا عدل ولا أنصاف حلول، ولا مراعاة للجوانب المضيئة، إنما هو النظر بعين البخس والجور والإلحاد.

لقد حفلت مجالس الناس ومنتدياتهم بمظاهر من النقد الهدام والحديث بمسائل الأحياء والأموات، وصور من التجني المغلف بغلاف الغيرة على الدين!!!

رأينا الجرح بلا دليل فيتعرض البعض لجرح الآخرين من غير حجة ولا برهان، وإنما للتشفي وليصبح النقد مهنة لذلك المنتقد في نقد المخالفين..

ورأينا النقد والسب وقد اعتمد على حجج واهية؛ إما لعدم التثبت، أو لعدم عدالة الناقل أو لأنه يهم في خبره، أو تحميل الكلام ما لا يتحمل، وهذا ملحوظ والله المستعان.

رأينا صورًا من تتبع العثرات وعدم الموازنة بين الهفوة والفضائل، ورأينا الطعن في النيات والمقاصد بدعوى أن مقصد ذلك الإنسان سيء، والحكم عليه في نيته بالظن، وهذا مسلك خطير فمعرفة ما في السرائر موكول إلى الله سبحانه وتعالى.

رأينا التندر على الدعاة في المجالس واستغلال أي فرصة للغمز والطعن بحجة بيان الحق وتعرية الباطل وأهله.

سمعنا التهويل في نقد بعض العلماء أو الدعاة، ورميهم بالكذب أو البدعة أو المداهنة وتمييع الدين كما سمعنا الجور والإفك في رميهم بالخروج واتهامهم بالإرهاب تجاوبًا مع زيف

الإعلام وزيغه.

سمعنا صورًا من الخلل في التربية على احترام الآخرين وتفهم وجهات نظرهم.

إذا خالفت رأي عالم أو داعية قالوا: أنت عدو للعلماء والدعاة، وإن عاتبت مجاهدًا وخالفته في رأي من آرائه أو عمل نُسب إليه قالوا: أنت من خذلة المجاهدين، وإن ظللت سنين عددًا تسير على الحق الذي يوافقونه ثم خالفتهم يومًا في مسألة اجتهادية رفعوا أمامك شعار كفارات العشير: «ما رأينا منك خيرًا قط».

تلك المظاهر نتجت عن غيرة محمودة في بدايتها، لكنها قد تجر صاحبها إن لم يتحرز شيئًا فشيئًا حتى يقع في لحوم إخوانه ودعاته من حيث لا يشعر، أو هي نتاج حسد أو هوى أو ثمرة تقليد وتعصب أو إفراز للتعالم الذي كثر في عصرنا أو سببها النفاق وكره الحق وسوء الظن مع بعد الأمة عن علمائها.

موقف المسلم من الأشخاص والهيئات والمؤسسات

لقد عُني ديننا عناية كبيرة بموقف المسلم من الأشخاص والهيئات والمؤسسات جرحًا وتعديلاً، ولم يترك للعواطف الشخصية والحمية الجاهلية مكانًا في الحكم على الناس حتى ولو اختلف معهم وأضمر لهم البغضاء أو أظهر لهم العداء « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ » [النساء: ١٣٥].

ومن الميثاق الذي واثق الله به الأمة المسلمة: القوامة على البشرية بالعدل المطلق الذي لا يميل ميزانه مع المودة والشنآن؛ ولا يتأثر بالقرابة أو المصلحة أو الهوى في حال من الأحوال... العدل المنبثق من القيام لله وحده بمنجاة من سائر المؤثرات.. والمنبثق الشعور برقابة الله وعلمه بخفايا الصدور.

إن المسلم تحكمه في الكلام عن إخوانه ممن تربطهم به عقيدة واحدة ومنهج واحد تحكمه قواعد وأسس منطلقها كتاب الله وسنة رسوله.

يا أيها المتكلمون: قبل أن تتكلموا وتحكموا على غيركم تذكروا أن كل بني آدم خطاء، فالخطأ صفة لازمة لا ينجو منها أحد من البشر ما عدا الأنبياء، ولو نجا منها أحد من الناس لنجا منها خير القرون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يا أيها المتكلمون: تذكروا «إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ» [الحجرات: ٦]، فمن العدل والإنصاف أن يتثبت المسلم من كل خبر وظاهرة قبل الحكم عليها، وإن من الظلم والاعتداء الحكم على أمر بمجرد الظنون والأوهام وقبل التثبت التام منه « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ » [الإسراء: ٣٦]، فلا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين وما لم تتثبت من صحته من قول يُقال ورواية تُروى، ومن ظاهرة تُفسر أو واقعة تُعلل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية.

وآيات الكتاب وأحاديث السنة تتضافر على تقرير هذا النهج المتكامل، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية ولا يحكم العقل حكمًا، ولا يبرم الإنسان أمرًا إلا وقد تثبّت من كل جزئية، ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة، فلم يبق هناك شك ولا شبهة في صحتها.

قال ابن حجر رحمه الله: «إن الذي يتصدى لضبط الوقائع من الأقوال والأفعال والرجال، يلزمه التحري في النقل. فلا يجزم إلا بما يتحققه، ولا يكتفي بالقول الشائع وإن كان في الواقعة أمر فادح، سواء كان قولاً أو فعلاً أو موقفًا في حق المستور، فينبغي ألا يبالغ في إفشائه، ويكتفي بالإشارة، لئلا يكون وقعت منه فلتة، ولذلك يحتاج المسلم أن يكون عارفًا بمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم: فلا يرفع الوضيع، ولا يضع الرفيع». انتهى كلامه.

يا أيها المتكلمون: قبل أن تتكلموا تذكروا « ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ» [الحجرات: ١٢] إن أمر المسلم في الأصل قائم على الستر وحسن الظن به، وفي حادثة الإفك عندما قيل ما قيل بين الله سبحانه الموقف الصحيح الذي ينبغي لكل مسلم أن يقفه فقال « لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا » [النور: ١٢].

يا أيها المتكلمون: قبل أن تتكلموا فلا يغب عن ضمائركم قول الحق جل وعلا: « مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا

لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» [ق: ١٨] وتذكروا تحذير الله لعباده «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا» [الحجرات: ١٢].

لا تنسوا «وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخريهم إلا حصائد ألسنتهم» لا يغب عن بالكم «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يظن أن تبلغ ما بلغت يهوي بها في النار أبعد من بين المشرق والمغرب».

إن المسلم يخاف من الله عز وجل قبل أن يتكلم في إخوانه أو يحكم عليهم وعلى مقاصدهم، إن المسلم الذي يحفظ قول الله «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا» [الحجرات: ١٢] ويسمع قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ».

إن مسلمًا يدرك هذا، لحري أن يكف لسانه عن الخوض في أعراض إخوانه المسلمين، ويمسك لسانه عن التجريح لعلماء الأمة ودعاتها «وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم».

يا من تقع في غيبة إخوانك بحجة التقويم والإصلاح قبل أن تتكلم اسأل نفسك بصدق وتجرد ما هو الدافع الحقيقي لهذا الكلام أهو الإخلاص والنصح لله ولرسوله وللمسلمين أم هو الهوى والحسد والكراهية؟!

تأمل في جوابك عند الله يوم يسألك عن قولك هذا وتذكر قول الحق: « وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ» [البقرة: ٢٣٥].

قواعد الكلام في الناس

يا أيها المتكلمون: هل نسيتم وأنتم تتكلمون أو تحكمون «وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ» [الأنعام: ١٥٢]..

إن الكلام في الآخرين والحكم عليهم يجب أن يكون بعلم وعدل وإنصاف « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ» [المائدة: ٨].

قال شيخ الإسلام: «والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم كحال أهل البدع».

المنصفون فقط هم الذين يذكرون المرء بما فيه من خير أو شر ولا يبخسونهم حقه ولو كان الموصوف مخالفًا لهم في الدين والاعتقاد أو في المنهج والانتماء، فكيف إذا كان من إخواننا وعلمائنا ممن نتهمهم في عقيدتهم أو سلوكهم.

قال الذهبي رحمه الله: «ونحب السنة وأهلها ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ وإنما العبرة بكثرة المحاسن».

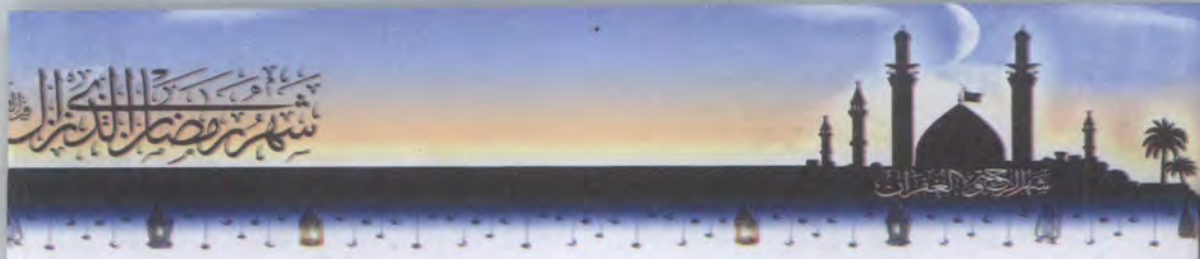
وقال ابن القيم رحمه الله: «فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه لفسدت العلوم والصناعات والحكم وتعطلت معالمها».

وهكذا منهج القرآن والسنة فكتاب الله ينصف أهل الكتاب «وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ» [آل عمران: ٧٥]، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينصف حاطبًا وقد أفشى سرًا من أسرار الدولة فيقول لعمر: «أليس من أهل بدر، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ».

إن الكلام في الآخرين بدون علم ولا عدل بل بظلم وهوى، سبب لكثير من التفرق بالقلوب وحدوث الشحناء والحسد والتباغض بل سبب الفشل وذهاب وحدة الصف وقوته.

يا أيها المسلمون: إن من العدل في الأحكام العدل في المفاضلة، والتفضيل بين الناس على وجهين: مطلق ومقيد، فالمطلق أساسه التقوى وقوة الإيمان ولنا الظاهر والله يتولى السرائر.

والتفضيل المقيد حسب قيده فالناس يتفاضلون في أمور ومواهب وقدرات، والتفضيل المطلق في كل الأمور يصعب الحكم به في كثير منها بلا تفصيل؛ لأن التفضيل بدون التفصيل لا يستقيم ورُب صفة هي كمال لشخص وليست كمالاً لغيره، بل كمال غيره بسواها، فكمال خالد بشجاعته، وكمال ابن عباس بفقهه وعلمه وكمال أبي ذر بزهده وورعه.



وتفضيل الأنواع على الأنواع أسهل من تفضيل الأشخاص على الأشخاص، وأبعد من الهوى والغرض.

يا أيها المتكلمون: تذكروا عند كلامكم وأحكامكم «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا» [النساء: ١٣٥] كلنا نؤمن أن الحق معصوم وثابت، وأما الرجال فأعراض زائلون يقاسون بالحق ولا يقاس الحق بهم.

وكثير منا يعلم ويردد قول مالك رحمه الله: «يؤخذ من قول كل أحد ويُرَدّ إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم» فأين واقعنا مما نؤمن به، وأين ممارستنا مما نعلم؟!

لنتأمل في أنفسنا ما هو محور الولاء فيها أهو الرجل أم الحق، وماذا نفعل حين تقدم لنا فكرة الرجل الذي نحبه تحت اسم الرجل الذي نكرهه؟ ألا يدفعنا ذلك إلى رفضها ربما دون النظر فيها؟ وهل يسهل علينا أن نرى الرجل الذي نحبه يخطئ أو نصف رأيه بأنه خطأ؟

ولنتأمل في واقعنا: ما الروح التي تسيطر على عملنا الإسلامي؟ أليست روح القائد الملهم الوحيد الذي يصنع المعجزات ولا نتصور بقاء العمل مع غيابه؟ هل نتصور إمكانية تنحيته عن العمل؟ أو نتصور وفاته؟ أم أننا نربط بينه وبين العمل ربطًا مصيريًا مهما كانت أعماله وتصرفاته.

إن واقعنا يؤكد أننا نسلك عمليًا ما نرفضه نظريًا من شعارات المبتدعة كقولهم: المريد أمام شيخه كالميت بين يدي مغسله، وكقولهم: من قال لشيخه: لِمَ، فلن يفلح أبدًا..

بل إن بعضنا قد ينحدر إلى درك سحيق فيكون شعاره في العمل: وافق أو نافق أو فارق، ولا شك أن هذا خطأ تجب التوبة منه، فالرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتَّبَع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين بل نجله ونحترمه وندعو له وننتفع بعلمه.

هذه هي ميزة أهل السنة والجماعة دون غيرهم، إن انتسابهم وانتماءهم للكتاب والسنة، ومتبوعهم هو محمد صلى الله عليه وسلم، وأما الرجال عندهم فأدلاء على الحق فما وافق من كلامهم الحق أخذوا به وما لا فلا.

إن المقصود بذلك هو التعلق المرضي بالأشخاص الذي لا يستقيم معه حال ولا يرجى له مآل وليس القصد تجريح العلماء أو انتقاصهم بل المطلوب المتابعة والمحبة للعلماء للعاملين والدعاة المخلصين والاستفادة من تجربتهم واحترامهم وتوقيرهم.

وثمة فرق بين التقدير والتقديس، والهدف أن نعرف جميعًا أن الحق حق دائمًا وأما الشخص فيمكن أن يكون محقًا أو مبطلاً، وهذا هو الموقف السليم بين الحق والرجل، والحق وإن كان قويًا بذاته فلا بد من أشخاص يحملونه، فإذا سألت كيف نعرف هؤلاء من أولئك حتى نستفيد من الدعاة العاملين فأقول لك: من ثمراتهم تعرفهم.

ضوابط الحكم على الآخرين

أيها الإخوة: إن من قواعد الحكم على الآخرين الانشغال بأخطائنا نحن عن أخطاء غيرنا، قال ابن قتيبة رحمه الله:» قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس؛ لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منه، والمبالغة والتهويل في نقد الغير غفلة عن عيب النفس».

ومن تلك القواعد: عدم التهويل في الأمور الخلافية التي يسوغ فيها الاجتهاد، فقد تكون الأمور التي ينتقد عليها بعض الدعاة أو العلماء أمورًا اجتهادية يسوغ فيها الخلاف، وقد يكون الخلاف فيها قد حصل عند السلف فيأتي بعضهم مهولاً أن فلانًا قد خالف في المسألة الفلانية، وأن هذا خلل في المنهج وانحراف عنه، وليس الأمر كذلك فلا ينبغي أن تجرنا الخصومة إلى هذا الحد، وحل القضايا

وعلاجها ليس بالفضح والتشهير وإنما بالرغبة الصادقة في الإصلاح والصدق في التناصح.

ضرورة الانشغال بعيوبنا عن الآخرين

وأخيرًا: وقبل أن نعاتب الآخرين ونخوض في أعراض المسلمين ونحمل أنفسنا إثم التجريح والغيبة والتلطخ بالذنب ينبغي أن نضع أنفسنا مكان إخواننا.

فكم من أناس كانوا يذمون فلانًا؛ لأنه لم يفعل كذا، ويتهمون فلانًا لأنه فعل كذا فلما وصلوا إلى ما وصل إليه فلان وفلان فعلوا أسوأ مما فعل!!

أفليس لنا ذنوب مثل ما للمجروحين نخشى أن تهلكنا إن لم يرحمنا ربنا، فما الذي يجعلنا برجاء المغفرة أحق منهم، أفلا نتذكر قول معاوية رضي الله عنه لمسور رضي الله عنه: « لا أبرأ من الذنب فهل تعد لنا يا مسور ما نلي من الإصلاح فإن الحسنة بعشر أمثالها أم تعد الذنوب وتترك الإحسان؟..»

عندما يمارس الواحد منا هذا الأسلوب التربوي في عتابه للناس ومعالجة أخطائهم الحاصلة بحكم الضعف وتغليب الهوى لا تلك الأخطاء الواقعة إصرارًا ومكابرة وعنادًا، عندما نمارس هذا الأسلوب فإن الوئام والألفة ستحل محل الفرقة والشحناء، وهو أسلوب ينفع مع مختلف طبقات الناس وشرائحهم.

ولو أننا طبقنا هذا الأسلوب في معالجة الخطأ ووضع الناقد نفسه مكان صاحب الخطأ، وبحث عن الملابسات التي أحاطت به في خطئه لتضامن الناقد، وعذر صاحب الخطأ إن وجد له عذرًا، أو أنه يضع خطأه في حجمه الطبيعي من غير تضخيم ولا تهويل.

ولا يعني هذا تمرير الأخطاء وتبريرها، وإنما يعني معالجتها معالجة عادلة تضع الخطأ في مكانه الطبيعي، ولا تُنسى حسنات المخطئ، كما لا ينسى الناقد أن عليه ذنوبًا كما على غيره، «والسعيد من لم تشغله عيوب الناس عن عيوب نفسه».

إن على كل مسلم أراد الحكم على غيره بدافع شرعي، أن يراعي هذه القواعد، فيتقي الله في نقده وألفاظه، ويخلص النية لله ويتجرد عن الهوى وحظوظ النفس؟

ولنتذكر أننا جميعًا بين الله تعالى موقوفون ومحاسبون، والله حكم عدل وسيجزي كل عامل بما عمل فلسنا بموكلين بخلق الله نسب هذا ونجرم هذا..

ولنتذكر مقولة الحسن البصري رحمه الله لرجل سمعه يسب الحجاج بعد وفاته فقال له: « يا ابن أخي فقد مضى الحجاج إلى ربه، وإنك حين تقدُمُ على الله ستجدُ أن أحقرَ ذنبٍ ارتكبتَه في الدنيا أشدَ على نفسك من أعظم ذنبٍ اقترفه الحجاج « لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» [عبس: ٣٧] واعلم يا ابن أخي أن اللهَ عز وجل سوف يقتصُ من الحجاج لمن ظلمَهم، كما سيقتصُ للحجاج ممن ظلموهَ، فلا تشغلنا نفسك بعد اليوم بعيبِ أحد ولا تتبعَ عثراتِ أحد».

فمن سلك هذا السبيل فيرجى له الثواب والسداد وعدم التبعة يوم القيامة بما يقول، ومن أخل بشيء مما سبق فقد وقف على حفرة من حفر النار فلينظر موضع قدمه أن تزل وهو لا يشعر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إننا من خلال هذه القواعد لا ندعو إلى السكوت عن أخطاء العلماء وكتاباتهم، ولكن بطرح هادئ هادف يحاط بسياج من الأدب والتثبت والعدل بعيدًا عن القيل والقال والانفعالات والمهاترات.

فما أحرانا بأن نتربى على هذه المعالم ونربي عليها أجيالنا وشبابنا قبل أن نستيقظ يومًا فنجدنا أمة مشتتة يلعن بعضها بعضا وبلا مرجعية شرعية ولا قيادة علمية فيتخذ الناس رؤوسًا جهالاً وتنشأ التصرفات الهوجاء.

نسأله تعالى أن يجعل العدل لنا ميزانًا، والحق لنا فرقانًا، وأن يخلصنا من حقوق العباد، إنه الهادي إلى سبيل الرشاد.

اللهم صل وسلم على نبينا محمد...

منبر الحرمين

عمل يسير وأجر كبير

إعداد/ فضيلة الشيخ
محمد بن صالح المنجد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

سبحان واسع الفضل والعطاء

عباد الله: ربنا كريم، ومن أسمائه تعالى المنان، يمن على عباده عز وجل، ومن أسمائه البر، والبر واسع العطاء، ومن أسمائه الوهاب يعطي بلا سؤال، ومن أسمائه الشكور فيعطي الأجر الكثير على العمل القليل، وهو سبحانه وتعالى كريم وهاب يهب واسع الفضل والعطاء بلا حدود سبحانه وتعالى، وهذا الكرم من الله يدفع المؤمن إلى المزيد والمزيد من العمل؛ لأنه إذا علم بأن ربه بهذه الأسماء وهذه الصفات فالعبد يتحفز للعمل.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم مقنّع بالحديد على مشارف المعركة، فقال: يا رسول الله أسلم أو أقاتل؟ ولم يكن الرجل قد أسلم، فقال: «أسلم ثم قاتل» فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عمل قليلاً وأُجر كثيراً»[رواه البخاري٢٨٠٨]، فإنه ليس بينه وبين الجنة إلا هذه الشهادة، وهذه الشهادة، الشهادة الأولى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والشهادة الثانية هذا القتل الذي حصل في المعركة فدخل الجنة ولم يسجد لله سجدة؛ لأنه لما أسلم كان أول واجب عليه حضور هذه المعركة.

فضائل التجارة مع الله

عباد الله: بيننا وبين الله تجارة، والتجارة مع الله ما فيها خسارة، والتجارة مع الله أرباحها مضاعفة، (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) [سورة الصف:١٠]، وهذه المضاعفات إلى عشرة، إلى مائة، إلى سبعمائة، إلى أكثر من ذلك، والله يضاعف لمن يشاء، أعمال قليلة من جهة الجهد والوقت، والأجر عظيم، وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن صلى الفجر وقعد وقام ليدخل بيته فوجد جويرية رضي الله عنها من بعد الفجر جالسة كما هي، سألها: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟» قالت: نعم، قال: «لقد قلت

بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم» طيلة الوقت هذا الماضي «لوزنتهن، سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته» [رواه مسلم٢٧٢٦]، كم تأخذ حتى تقولها ثلاثاً يا عبد الله؟

ميزان الناس في الدنيا

يا مسلم: الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يصل فيه رحمه، ويعرف حق الله من جهة الزكاة، والواجبات الأخرى كفارات، نفقات، يعرف حق الله، والآخر رزقه الله علماً، ولم يرزقه مالاً، لكنه قال: لو أن لي مال فلان لعملت بعمله، فهما في الأجر سواء، عجيب هذا ما عنده مال، وما الذي فعله؟ نية حسنة، وقال بلسانه: لو أن لي مال فلان لعملت بعمله، بنيت المساجد، ورتبت لمحفظي القرآن الرواتب، وجعلت للأسر والعوائل هذه الرواتب الشهرية، ونشرت علماً، ودعوة ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، قال: «فهما في الأجر سواء»[رواه ابن ماجه٤٢٢٨]، يعني من جهة الأصل، أما من جهة المضاعفة فلا شك أن الفاعل يمتاز بميزة، لكن من جهة الأصل أصل الأجر قبل المضاعفة، «هما سواء» ما الذي رفعه هذه الرفعة، ما الذي أعطاه هذا الأجر؟ حسن نيته، ليست قضية عسيرة، وشاقة، ولا تأخذ وقتاً، لكنها جمع القلب والرجاء من الله سبحانه وتعالى.

«إن بالمدينة رجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم» شركوكم في الأجر، لماذا؟ قال: «حبسهم العذر» [رواه البخاري٤٤٢٣]؛ لأنهم فعلاً عندهم صدق نية، لو كانوا مستطيعين لخرجوا، «الحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض» [رواه مسلم٢٢٣] كم تأخذ من الجهد؟ كم تأخذ من الوقت؟ الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه يتنافس عليها بضع وثلاثون ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً، عبد قالها مرة مؤتجراً مخلصاً يبتغي وجه الله، تنافس عليها أكثر من ثلاثين ملكاً أيهم يكتبها أولاً، ما هذا الكرم ما هذا الشرف، الله عز وجل يرسل ملائكته من أجلنا، لتكتب أعمالنا، وترفع أقوالنا، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر١٠].

ما أضعف الهمم!!

عباد الله: ماذا يأخذ من الوقت والجهد أن يقول الإنسان بعد الوضوء: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، لكن ماذا له؟ تفتح أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل، تفتح أبواب الجنة الثمانية، الجنة التي عرضها السماوات والأرض، الثمانية كلها تفتح لأجل أنه قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله بعد الوضوء، ما أكرمه ما أوهبه، ما أبره، ما أمنّه سبحانه.

عباد الله: عندما يقول نبينا صلى الله عليه وسلم: «من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم ذنبه» [رواه البخاري٧٨٠ ومسلم٤١٠]، كلمة (آمين) كم تأخذ لتقال؟ كم ثانية؟ آمين المد الطبيعي حركتين (آمين) ست حركات، كم تأخذ حتى تقال؟ «من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»، على كلمة واحدة إذا قال الإمام في الأرض: آمين، قالت الملائكة في السماء: آمين، ومن وافق تأمينه تأمين الملائكة، لكن بعض الناس يشرد ذهنه فيفوته أجر عظيم، أو لا يقولها في الوقت الذي من السنة أن تقال فيه، أو يمد أكثر أو يقصر أكثر، «من وافق تأمينه تأمين الملائكة».

أعمال يسيرة لها أجر كبير

يا مسلمون: والله إنها أعمال يسيرة وأجور عظيمة، وهكذا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن بقيام ليلة القدر، قيام ليلة واحدة، الليلة كم يعني؟ عشر ساعات؟ إحدى عشر ساعة؟ اثنا عشر ساعة؟ ثم تقوم بعد صلاة العشاء، قيام ليلة ولا يشترط أن تقوم كل الليل، قيام ليلة أكثر من أجر عبادة ثلاثة وثمانين سنة، هل هناك كرم بعد هذا؟!

عباد الله: صيام يوم واحد، يوم عاشوراء يكفر سنة، ويوم عرفة يكفر سنتين، والصيام كم ساعة؟ اثنا عشر ساعة، ثلاثة عشر ساعة، يكفر سنتين، إذا كان هذا في صيام النافلة عاشوراء وعرفة، يا ترى رمضان الواجب الفرض الركن كم يكفر؟.

أيها المسلمون: بالوضوء تخرج الخطايا حتى تخرج آخر خطيئة مع آخر قطرة ماء، لمن نوى واحتسب، وأتقن الوضوء، وكذلك نجد أنه إذا قعد بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وبعد ارتفاعها صلى ركعتين، بعد الفجر إلى طلوع الشمس كم الوقت؟ كم ستجلس؟ ساعة ونصف، «أجر حجة أجر عمرة تامة تامة تامة».[رواه

الترمذي٥٨٦].
يا مسلم عندما تذهب وأنت هنا إلى الحرم لتصلي فريضة واحدة كم يأخذ منك من الوقت والجهد؟ لكن يكتب الله لك بها مائة ألف صلاة من الصلاة في المساجد الأخرى، مائة ألف، وفي النبوي ألف، وصلاة ركعتين في مسجد قباء تعدل عمرة، الله أكبر، صلاة ركعتين كم تأخذ من الوقت في مسجد قباء تعدل عمرة، تشد الرحال إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، فإذا صرت في المدينة كان قباء بجانبك.
أيها المسلمون: عندما يقول ربنا عز وجل: (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) [سورة الزلزلة٧]، يعني: أن هذه الذرة الهباء الصغيرة جداً لا تضيع، حتى هذه لا تضيع، ولذلك لما جاءت مسكينة أو مسكين إلى عائشة وكان عندها عنقود عنب فأخذت حبات من العنب وأعطتها للمسكين حبات قليلة، تعجبت بعض النسوة عندها، فقالت عائشة لهن: تتعجبن تضحكن كم في هذه الحبات من مثاقيل الذر.
وهكذا سعد الصحابي لما جاء سائل وأعطاه تمرتين، وقبض يده، قال له: إن في التمرتين مثاقيل ذر كثيرة. اللهم إنا نسألك أن توفقنا إلى ما تحب وترضى، وأن ترزقنا الاستمساك بالعروة الوثقى.

أسس وقواعد التجارة مع الله تعالى

عباد الله: الله يعامل عباده على أسس، التجارة مع الله لها شروط فيها بنود، فيها عقد، ومن أدرك شروط العقد حاز الأرباح العظيمة من وراء هذا العقد:
أولاً: لا أجر بلا توحيد، فإذا كان العبد موحداً لله نال الأجور العظيمة؛ لأن الأساس موجود، فالبناء عليه سهل، ويتصاعد بسرعة، فإذا كان أساسك قوياً كان البنيان عالياً مرتفعاً، ولذلك مهما عمل الكافر والمشرك من الأعمال الخيرية ليس له مقابل عليها في الآخرة، يأخذه في الدنيا الآن، أولاد، صحة، منصب، شهرة، مال، يأخذه في الدنيا، حتى الكافر لو عمل أعمالاً خيرية يعطيه، لكن لا يعطيه في الآخرة؛ لأن سلعة الله غالية، والجنة لا يعطيها لكافر ولا مشرك... اجتنبوا الشرك، يوم القيامة الكافر مهما كان عنده من أعمال خيرية، (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) [سورة الفرقان٢٣]، (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) [سورة النور٣٩].
ثانيا: لا أجر بلا عمل، فالذين لا يعملون بماذا سيؤجرون، والأعمال منها أعمال قلب ومنها أعمال جوارح، وينبغي التفطن لهذا؛ لأن أعمال القلب فيها أجور عظيمة، الخشية، والإخلاص، والحياء من الله، والتوكل عليه، والخوف منه، ورجاء ثوابه، أعمال القلب عظيمة، وكذلك أعمال الجوارح، وهذه دليل على صحة هذه.
أيها المسلمون: إن من قواعد التعامل بين الله وخلقه أن الله يضاعف الأجر، والمضاعفة ؛ قال بعض العلماء: من خصائص هذه الأمة، يعني لم يكن العاملون في الأمم من قبلنا مثلنا في المضاعفة إلى مائة إلى سبعمائة إلى أضعاف أخرى، وهذا من منة الله علينا، احمد ربك أنه جعلك في هذه الأمة، ولم تكن في أمم سابقة، شرف وفخر أن نكون من أمة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فلا ذوبان في أعمال الكفار، وشخصيات الكفار، وأنظمة الكفار، نحن أمة مستقلة لنا تاريخ، لنا قائد، لنا كتاب، لنا دستور، لنا شخصية مستقلة واضحة بعقيدتها، وأخلاقها، وعباداتها.

شروط قبول العمل

أيها المسلمون: إنه لا بد من الإخلاص في العمل، ولو حصل رياء أو سمعة ذهب العمل، بل إنه جاء في الحديث أن من سمَّع سمَّع الله به يوم القيامة مسامع خلقه، وصغّره وحقّره؛ لأنه في الدنيا كان يريد الهالات الإعلامية، كان يريد الفخر، كان يريد الاستعلاء على العباد، كان يريد الشهرة، ما كان يريد وجه الله، فلا بد من الحذر من محبطات الأعمال؛ كالمن، والعجب، والرياء، ومنقصات الأعمال، مثل من اتخذ كلباً دون حاجة نقص من أجره كل يوم قيراطان.
كلما كان العمل أكثر نفعاً كلما كان أكثر أجراً، فالأعمال متعدية النفع؛ كالعلم، والدعوة إلى الله أجورها كبيرة جداً.
التحسر على فوات الأجر لو فاتتك جماعة المسجد، مثلاً التحسر على فوات الأجر يمكن أن ينتج أجراً؛ لأنه دليل الصدق.
الفاعل المباشر لا شك أنه أعظم أجراً ممن نوى فقط، ولكن من رحمة الله وكرم الله، أنه ينزل العاجز منزلة الفاعل في الأجر مع أنه ما عمل،

لماذا؟ لأنه كان له عادة، ولذلك «إذا مرض العبد أو سافر كتب له من الأجر مثلما كان يعمل صحيحاً مقيماً» [رواه البخاري٢٩٩٦]، فمن رحمة الله وكرم الله أنه نزّل العاجز منزلة الفاعل على حسب عادته التي كان عليها قبل أن يصاب بالعجز. هذه التعويضات، لا تعويضات وقوانين الأرض، هذه أعظم بكثير يا مسلم.

المسلم يُؤجر على الفعل والترك!!

يا عبد الله: المسلم يؤجر على الفعل والترك، حتى من كف شره عن الناس له أجر، فالترك لله يؤجر عليه وليس فقط الفعل لله، يؤجر على المباحات بحسن النية، لكن ليس هذا كل عمل المسلم أن يقول: أنام بنية الاستعانة، وآكل بنية الاستعانة على العبادة، وأستروح بنية الاستعانة، بنية العبادة، الاستروحات بالنية الحسنة لها أجر، لكن بقي الشيء الذي من أجله استروحت لا تنسه.

كلما اشتدت المشقة عظم الأجر، لكن المشقة لا تُقصد، فالإنسان إذا كان عنده طريق صعب وطريق سهل إلى مكة لا يذهب من الطريق الصعب، الأجر لا يكتب على مشقة متعمدة منك، لكن إذا حصلت المشقة فذهبت إلى مكة فازدحم الطريق فأخذ وقتاً مضاعفاً قدرًا من الله عند ذلك يضاعف الأجر «أجرُك على قدر نصبك» [رواه بمعناه مسلم ١٢١١].

والأعمال الموافقة للسنة أجرها أكبر من أعمال أطول أو أشق، فمثلاً قصر الصلاة للمسافر أكثر أجراً من إتمامه لها، مع أن هذه اثنتين وهذه أربع، تخفيف سنة الفجر أكثر أجراً من تطويلها لماذا؟ لأنها سنة محمد صلى الله عليه وسلم، بينما نجد من السنة في صلاة الفجر يوم الجمعة قراءة السجدة والإنسان وتأخذ وقتاً وجهداً، فإذن الشأن هو اتباع السنة سواءً ازدادت المشقة أو نقصت، المشي في الظلمات إلى المساجد الفجر والعشاء فيه أجر لمشقة الظلمة، ولا تزيلها الكهرباء كما قال العلماء، ولله الحمد، الأجر ما زال موجوداً في مشيك للفجر والعشاء حتى في هذا الزمان.

أيها المسلمون: الأكل من الأضحية والصدقة بالباقي أفضل من الصدقة بكل الأضحية؛ لأن من السنة الأكل من الأضحية ولو لقيمات، وهكذا نجد أن تكفير السيئات منصب على الصغائر؛ لأن الكبائر تحتاج إلى توبة خاصة، ونجده في كل حديث فيه «غفر له» يعني الصغائر، ولذلك لا بد من الانتباه للكبائر.

أنواع الأجور والميزات

ثم ماذا تريد يا عبد الله من أنواع الأجور والميزات فهو موجود، تريد مغفرة الذنوب هناك أعمال لها، تريد نيل محبة الله هناك أعمال لها، تريد مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم والقرب منه، فالذي يكفل يتيماً ويعول أرملة يكون بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة،.... من كظم غيظاً ؛ أنت تكون في الطريق في السيارة يعاكسك شخص، «من كظم غيظا ولو شاء أن ينفذه أنفذه» ما عنده عجز «يخيره الله من الحور العين يوم القيامة ما شاء»[رواه الترمذي٢٠٢١].

تكظم غيظاً عن خادم، عن سائق، عن مخطئ، عن إنسان تجاوز عليك، تكظم غيظاً.... تريد رفع المنزلة تواضع لله.

تريد طول العمر وسعة الرزق صل رحمك.

تريد أن تكون في حراسة الله صل الفجر في جماعة.

تريد أن تصلي عليك الملائكة صل على النبي صلى الله عليه وسلم، انتظر في المسجد من المغرب إلى العشاء، رابط من صلاة إلى صلاة، الملائكة طيلة الوقت وأنت جالس تستغفر لك.

تريد قصراً في الجنة اقرأ (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ) [سورة الإخلاص١] عشر مرات يبنى لك قصر في الجنة، وهكذا تريد السلامة من حر النار والموقف أَنْظِر معسراً، تريد العتق من النار ذُبّ عن عرض أخيك في مجلس، كل شيء بمقابل، ما في أشياء تضيع عند الله (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ) [سورة الزلزلة: ٧- ٨].

اللهم بارك لنا في القرآن العظيم، واجعلنا من أهله يا رب العالمين، اللهم اغفر لنا الذنوب والسيئات، وكفّر عنا الزلات، وضاعف لنا الحسنات، اللهم إنا نسألك أن تجعل أعمالنا خالصة لوجهك يا رب العالمين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



كيف الـ

الحمد لله كاشفِ الضرَّاء ورافعِ البَلوى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيِّدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ من تضرَّع إلى ربِّه ودعا، اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آله وأصحابِه أهلِ التقوى. أما بعد:

فيا أيها المُسلمون: أُوصيكم ونفسي بتقوى الله -جل وعلا-؛ فهي سبيلُ الفلاح في الدنيا وفي الأُخرى.

أيها المسلمون: إن البشرَ على مُستوى مُجتمعهم وأفرادهم يمُرُّون في هذه الدنيا بأحوالٍ؛ منها حال البأساء والضرَّاء، حال المِحَن والمتاعب والبلاء، وهكذا حال هذه الدنيا الفانية الزائلة، الدنيا التي تتنوَّعُ فيها الهُمومُ، وتتَلوَّنُ فيها الغُموم.

وإن المُسلمين اليوم يُعانُون من مضائق لا نهاية لها، ويُقاسُون آلامًا لا حدَّ لها، وإلى الله المشتكَى، وهو المُستعان، وعليه التُّكلان.

إن واقعَ المُسلمين اليومِ يمُرُّ بمراحل خطِرة، وأزماتٍ مُتتابعة؛ فكم هي المِحن التي تقع؟! وكم هي الفتنُ التي تعصِف؟!

أسأل اللهَ أن يُفرِّجَ الكربةَ ويكشِفَ الغُمَّة، إنه هو وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

سبيل النجاة من المحن

إخوة الإسلام: إن المُتأمِّل في حال المُسلمين مع هذه الحال التي وصفْنا يجدُ عجبًا من الغفلة عن المنهج القُرآنيِّ الذي رسمَه للمُسلمين، وخطَّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منهجًا واضحًا عند نزول الكُرُوب والشدائد الخطوب. فالمسلمون لا يُمكنُ بأي حال أن يجتازُوا محنةً أو أن يسلَموا من مُصيبةٍ إلا من مُنطلق مبادئَ قُرآنيَّةٍ وأُصولٍ نبويَّة.

المُسلمون لا تحلُّ قضاياهم المتعقِّدة، ولا يتخلَّصُون من مصائبهم المُتعدِّدة بالتعلُّق بأي قوةٍ بشريَّةٍ مهما كانتْ بمَنأى عن المنهج القرآني والتوجيه النبويِّ.

المُسلمون أصحابُ رسالة وذوو عقيدة متينة تقوم على الإخلاص بالتعلُّق بالخالق -عز وجل-، والتقوِّي بالقادر على كل شيءٍ -تبارك وتعالى-، والتوكُّل على القاهر فوق عبادِه -جل وعلا-.

إن الأصلَ الأصيل والرُّكنَ الركينَ عند وقوع الكوارث ونزول المصائب أن يقطعَ المُسلمون علائقَهم إلا باللَّه -جل وعلا-، إخلاصًا وصدقًا، رغبًا ورهَبًا، تضرُّعًا ودُعاءً؛ فالأمةُ -حُكَّامًا ومحكومين، شعوبًا وأفرادًا- لا نجاةَ لهم من ضرَّاء، ولا مخلَصَ لهم من شقاء إلا حينما يتيقنون بأن المخلَصَ لا يُمكنُ إلا من الخالق -جل وعلا-، المدعُوِّ عند الشدائد، المرجُوِّ عند النوازل، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

إن المسلمين لم يستردُّوا أرضًا مُحتلَّة، ولم يتخلَّصُوا من عدوٍّ مُتغلِّب إلا حينما تستقرُّ في

ـنجاة من الواقع المر؟!

بقلم/ الشيخ حسين بن عبد العزيز آل الشيخ

إمام المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة

قلوبهم عقيدةٌ راسيةٌ رُسُوَّ الجبال، هي عقيدةُ التوحيد التي جاء بها محمدٌ -صلى الله عليه وسلم-، التي تتضمَّنُ أن الضرَّ لا يكشفُه سوى الخالق، وأن البأساء لا يدفعُها إلا البارئُ القادرُ، (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) [النمل: ٦٢].

أخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه[وفي سنده ضعف] : أن مالك الأشجعيّ جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: أسرَ ابني عوفٌ، فقال له رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «أرسل إليه بأنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يأمُرك أن تُكثرَ من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله». فأتاه الرسولُ، فأخبرَ عوفًا بذلك، فأكبَّ عوفٌ يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكانوا -أي: الأعداء- قد شدُّوه بالقدِّ، فسقط القدُّ عنه فخرَج، فإذا هو بناقة لهم فركِبَها فأقبَلَ، فإذا هو بسَرح القوم الذين كانوا شدُّوه، فصاحَ بهم، فاتبعَ آخرُها أولها، فلم يفجعِ أبوَيْه إلا وهو يُنادي بالباب. فقال أبوه: عوفٌ وربِّ الكعبة. فقالت أمُّه: عوفٌ كئيبٌ يألَمُ لما فيه من القدِّ. فاستبقَ الأبُ والخادمُ إليه فإذا عوفٌ قد ملأَ الفناءَ إبلاً، فقصَّ على أبيه أمرَه وأمرَ الإبل، فأتى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرَه بخبر عوفٍ وخبر الإبل. فقال له رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «اصنَع بها ما أحببتَ كما كنتَ صانعًا بإبلك»، ثم نزل قولُه -جل وعلا-: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق: ٢، ٣].

فيا تُرى من يقف عند هذه القصة من أبناء المُسلمين عند الشدائد والكُروب؟!

ما لكم عن طوق النجاة غافلين؟!

يا أمة سيد الثَّقَلَيْن: ما لكم عن طوق النجاة غافلين؟! وعن سبيل الفرَج لاهين؟! أنيبُوا إلى العزيز الغالب عند حدوث الحادثات: (وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ) [الأنبياء: ٧٦].

تضرَّعوا إلى المولى -جل وعلا- عند نُزول المُلمَّات، (وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ) [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

بالدعاء الصادق، بالتوجُّه إلى الله -جل وعلا- تحصُل السَّعة بعد الضيق، والعافيةُ بعد البلاء، (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ) [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

أفلا نستجيبُ إلى ربِّنا كما كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يفعلُ؟! ففي الحديث الصحيح: «اللهم رحمتَك أرجُو فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين، وأصلِح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت». [أبو داود وحسنه الألباني].

فمن أحسنَ الظنَّ بربِّه مُلتجئًا إليه فرَّجَ عنه الكُربات، وأزاحَ عنه المُلمَّات، وسهَّلَ له الصعوبات. في الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، فليظُنَّ بي خيرًا» [متفق عليه].

وصدق من قال:

وإني لأرجُو الله حتى كأنَّني
أرَى بجميل الظنِّ ما اللهُ صانِعُ

يا أمة الإسلام: يا من أحاطت بها الكُربات من كل جانب! توجَّهُوا إلى الله وحدَه، وارجُوه -جل وعلا-، تضرَّعوا إليه، اطلُبوه -عز وجل-، حقِّقوا دُعاءَ المسألة ودُعاءَ الطلب بصدق وإخلاص ويقين تتحقَّقُ لكم عزَّتكم وأمنُكم وفلاحُكم وصلاحُكم، وإلا فمن رجَا غيرَ الله خابَ، ومن لاذ بجناب غيره وُكِل إلى سراب، وواقعُ الأمة عبرَ تاريخها أكبرُ شاهد. قال -صلى الله عليه وسلم-: «من تعلَّق شيئًا وُكِل

إليه».

يقول أبو يزيد البسطامي: «عشتُ مع الناس أربعين سنة فوجدتُهم أمواتًا غيرَ أحياء وما يشعُرون أيَّان يُبعَثون، فكبَّرتُ عليهم أربعَ تكبيرات، ونفضتُ يدي منهم، وجدتهم لا يقطعون ولا يصلون، لا يُميتون ولا يُحيُون، لا يُقرِّبون ولا يُبعِدون، لا يُعزُّون ولا يُذلون، لا ينفعون ولا يضرُّون». ثم قال مُتمثلًا:

لا تسألَنَّ بُنَيَّ آدم حاجةً
وسَل الذي أبوابُه لا تُحجَبُ
اللهُ يغضبُ إن تركتَ سُؤالَهُ
وترى ابنَ آدم حين يُسألُ يغضبُ

فيا تُرى هل يكونُ واقعُ الأمة -حُكَّامًا ومحكومين- أن يُراجعوا أنفسَهم وأن يُغيِّرُوا الحالَ عن الحال السابقة مَن التعلُّق بغير الله -جل وعلا- يمينًا ويسارًا، شرقًا وغربًا؟!

ليس لها من دون الله كاشفة

نعم، المُسلمون لا تنقشعُ عنهم مُلِمَّةٌ إلا بالتضرُّع الصادق إلى العزيز القدير، لا تُكشَفُ عنهم غُمَّةٌ إلا إذا أطاعُوا اللهَ مُخلصين، وانقطعوا إلى جنابه، فهو على كل شيء قديرٌ.

جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له: إلامَ تدعُو؟! قال: «أدعُو إلى الله وحده الذي إن مسَّك ضرٌّ فدعوتَه كشفَ عنك، والذي إن ضللتَ بأرض قفر فدعوتَه ردَّ عليك، والذي إن أصابَتك سنةٌ فدعوتَه أنبتَ لك».

وصدق من قال:

صبرًا جميلاً ما أقربَ الفرَجَ
مَن راقبَ اللهَ في الأمور نجَا
من صدَّقَ اللهَ لم ينَلْهُ أذى
ومن رجاهُ يكونُ حيثُ رجَا

أيها المسلم: إن أصابَك مرضٌ فالتجئ إلى الله الشافي الكافي، وإن أصابَتك فاقةٌ فتوجَّه إلى الله الغنيِّ الكافي.

عن عُبيد بن أبي صالح قال: دخلَ عليَّ طاوسٌ يعُودُني، فقلتُ له: ادعُ اللهَ لي يا أبا عبد الرحمن. فقال: ادعُ لنفسك؛ فإنه يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاه.

وقال وهبُ بن مُنبِّه: «قرأتُ في الكتاب الأول: أن اللهَ -جل وعلا- يقول: بعزَّتي إنه من اعتصمَ بي فإن كادَته السماوات بمن فيهنَّ والأرضون بمن فيهنَّ فإني أجعلُ له من بين ذلك مخرَجًا، ومن لم يعتصِم بي فإني أخسِفُ به من تحت قدمَيْه الأرض، فأجعلُه في الهواء، فأكِلُه إلى نفسه».

يا شُعوبَ المُسلمين: إنكم تُعانُون وتُعانُون، فالتجِؤوا إلى الله -جل وعلا-.

يا من يُعاني من المصائب: الجَأ إلى الله بصدق وإخلاص. يا من أصابَته الضرَّاءُ: ابتهل إلى العزيزِ القهَّار: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ذكرَ الحافظُ ابنُ عساكر عن رجل قال: «كنتُ أُكاري على بغل لي من دمشق إلى بلد الزَّبداني، فركِبَ معي ذاتَ مرة رجلٌ، فمرَرنا على بعض الطريق غير مسلوكة، فقال لي: خُذ في هذه فإنها أقرب، فقلتُ له: لا خبرةَ لي فيها، فقال: بل هي أقربُ، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ووادٍ عميق وفيه قتلى كُثُر. فقال لي: أمسِكْ رأسَ البغل حتى أنزل، فنزل وتشمَّر وجمعَ عليه ثيابَه، وسلَّ سكينًا معه وقصدَني، ففررتُ من بين يديه، وتبعَني فناشدتُه اللهَ وقلتُ: خُذ البغلَ بما عليه، فقال: هو لي، إنما أُريدُ قتلَك. فخوَّفتُه اللهَ والعقوبةَ فلم يقبَل، فاستسلَمتُ بين يديه، وقلتُ: إن رأيتَ أن تترُكَني حتى أُصلِّيَ ركعتين؟! فقال: عجِّل. فقمتُ أُصلِّي، فأُرتِجَ عليَّ في القراءة فلم يحضُرني منه حرف واحدٌ، فبقيتُ واقفًا مُتحيِّرًا، وهو يقول: هيه ابرُك. فأجرى اللهُ على لساني قولَه -جل وعلا-: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

فإذا أنا بفارس قد أقبلَ من فم الوادي وبيده حربةٌ، فرمَى بها الرَّجُلَ فما أخطأَت فؤادَه، فخرَّ صريعًا، فتعلَّقتُ بالفارس وقلتُ: بالله من أنت؟! فقال: أنا رسولُ الذي يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاه ويكشفُ السُّوءَ. قال: فأخذتُ البغلَ والحملَ ورجعتُ سالمًا».

الثقة واليقين برب العالمين

أيها المسلمون: بالتوجُّه الصادق إلى الله -جلَّ وعلا- يحصُل الفرَجُ بعد الشدَّة، ويحُل اليُسرُ بعد العُسر، وإذا أوقدَت المكارهُ، وأرسَت الخُطوب، وانقطعَت الحِيَل بالأريب؛ أتى اللُّطفُ من اللطيف المستجيب.

فافرَحوا -أيها المسلمون-، وتيقَّنوا بمُناجاة الله وبدُعائه، وتحقيق التوحيد الخالص، والعمل الصالح، والنيَّة الصادقة؛ تُفلِحُ الأمة، وتقوَى شوكتُها، ويشتدُّ جانبُها، مهما أحاطَ بها من خُطوب وكُروب.

وكلُّ الحادثات وإن تناهَت
فموصولٌ بها فرجٌ قريب
ولربَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى
ذرعًا وعند الله منها المخرَجُ
ضاقَت فلما استحكمَت حلقاتها
فُرِجَت وكنتُ أظنُّها لا تُفرَجُ

فيا أمة الإسلام، يا من أصابهم الضرَّاء والبلواء: لا تقنَطوا من رحمة الله، لا تيأسُوا من روح الله، فمهما وقع بكم فاعلَموا أن لكم ربًّا عظيمًا، وإلهًا قادرًا، كلَّ يوم هو في شأن، يُزيل الكُرُبات، ويُفرِّج المُلمَّات، حتى عن المشركين إذا أخلَصوا، ألم يقل الله -جل وعلا-: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فكيف بمن أسلمَ! فكيف بمن أُوذِيَ وهو مؤمن وتوجَّهَ إلى الله سرًا وجهرًا، شدَّةً ورخاءً؟! فالشأن الأعظمُ هو الإخلاصُ، والتوجُّهُ الصادقُ إليه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وما حصلَ من قريب لكثير من المُسلمين خيرُ شاهد، واللهُ -جل وعلا- هو القادر على كل شيء.

يا مَن يُعاني من ظُلم الظالمين، وعُتوِّ الطغاة والجبَّارين: لا تيأسُوا من النصر؛ فالنصرُ عند الله للمؤمنين وعدٌ غيرُ مكذوب.

قصَّة وعبرة

ذُكر أن عجوزًا في عهد ابن الفُرات اعتدَى على بُستانٍ لها وأخذه ابنُ الفرات، فقالت له: اتَّقِ اللهَ فالدارُ داري، والله لأدعُونَّ عليك. فقال مُستهزئًا: انتظري الثلثَ الأخيرَ. فانتظرَت الثُّلُثَ الأخيرَ وهي تدعُو، فجاء الخليفةُ وغضبَ وأخذَ ابنَ الفُرات، وجلَده وقطعَ يدَه وعلَّقها عند باب الخلافة. ومرَّت عليه وإذا هو يُجلَدُ في الظهيرة، فقالت: جزاك اللهُ خيرًا على نصيحتك بثلث الليل الأخير، ثم قالت:

إذا جارَ الوزيرُ وكاتباهُ
وقاضِ الأرض أجحفَ في القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ
لقاضِي الأرض من قاضِي السماءِ

وصدقَ من قال:

لطائف الله وإن طالَ المدى
كلمحة الطَّرف إذا الطَّرْفُ بدَا

وجوب الأخذ بالأسباب المشروعة

فيا أيها المسلمون: خُذوا من الأسباب المشروعة الحسِّيَّة والمعنويَّة ما يُفرِّجُ الكَرب، ويُذهِبُ الهمَّ، وينصُر على الأعداء، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «عبادَ الله تداوَوا، لا تتداوَوا بحرام».

ولكنَّ الشأن كلَّ الشأن في تحقيق التقوَى والإنابة إلى المولَى، والتوكُّل على الباري -جل وعلا-، والتعرُّف عليه في الشدَّة والرخاء، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فمتى قوَّت الأمةُ إيمانَها بالله -عزَّ شأنُه-، ووثَّقت الصِّلةَ به -سبحانه- في كل شأن، في جميع الأمور صغيرِها وكبيرِها، وحسُنَ ظنُّها بربِّها كشف عنها الضرَّاءَ، وأبدل شِدَّتَها رخاءً، وهمَّها فرجًا، وعُسرَها يُسرًا.

يا أيتها الأمة: أين الله والقدَر؟! فقدرُكم أنكم مربوطون بالقرآن، مربوطون بسُنَّة سيد ولد عدنان، فما ابتعدتُم عنهما أصابَكم الذل، وأصابَتكم الكُروبُ والخُطوبُ مهما تعلَّقتُم بأيِّ قوَّة من قُوى البشر.

إن المؤمنَ متى استبطأ الفرَجَ وأيسَ منه بعد كثرة دُعائه وتضرُّعه، ولم يظهَر عليه أثرُ الإجابة؛ فإن الواجبَ أن يرجعَ على نفسه باللائمة، وأن يقول لها: إنما أُوتيتُ من قِبَلك، ولو كان فيكِ خيرًا لأُجبتِ من الله -جل وعلا-.

قال ابنُ رجب: «وهذا اللومُ حينئذ أحبُّ إلى الله من كثير من الطاعات؛ فإنه يُوجِبُ انكسارَ العبد لمولاه، واعترافَه له بأنه أهلٌ لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهلٍ لإجابة الدُّعاء، فلذلك تُسرِعُ إليه حينئذ إجابة الدعاء، وتفريجُ الكَرب؛ فإنه تعالى عند المُنكسرة قلوبُهم من أجله، مُجيبًا سميعًا».

تعذَّرَ على جيش المُسلمين حين فتح كابُل الفتحَ، فدعا قائدُ الجيش: يا حيُّ يا قيُّوم -بصوت مُرتفع-، فارتجَّ الجيشُ بذلك صادقًا ومُخلصًا، داعيًا إلى الله سرًا وجهرًا، ففُتِحَ على المُسلمين ما أرادوا، وأصبحَت بلادًا إسلاميَّةً بحمد الله.

ثم إن الله -جل وعلا- أمَرَنا بأمر عظيم، ألا وهو: الصلاة والسلامُ على النبي الكريم، اللهم صَلِّ وسلِّم وبارك وأنعم على سيِّدنا ونبيِّنا محمد، اللهم ارضَ عن الصحابة أجمعين، وعن الآل ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

يعتذر السيد رئيس التحرير عن كتابة مقاله في هذا العدد لظروف ألمت به ، وسيواصل الكتابة في العدد القادم ان شاء الله

منبر الحرمين

الشائعات وأثرها السيئ في الأمة

إعداد/ الشيخ / صالح بن حميد
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فالكيِّسُ من دانَ نفسَه وعملَ لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني.

في مُرور الأعوام تصرُّم الأعمار، فما أسرعَ انقضاء الليالي والأيام، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]. جعلَنا الله وإياكم ممن طالَ عُمرُه، وحسُنَ عملُه، وغُفِر ذنبُه، وثقُل ميزانُه.

ضرورة تحري الصدق في نقل الأخبار:

أيها المسلمون: وإن من أعظم ما يستوقفُ الناظر، ويبعثُ على المحاسَبة الجادَّة: قولُ نبيِّنا -صلى الله عليه وسلم- كما في الحديث الصحيح: «كفى بالمرء إثمًا أن يُحدِّثَ بكل ما سمع». رواه مسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-. إنها المُحاسبة الجادَّة، والفحصُ الدقيق.

خطورة استخدام التقنيات الحديثة في نقل الشائعات:

معاشر المسلمين: للكلمة أثرُها، وللصورة مفعولُها في أي وسيلة، في خُطبة أو مقالة، أو مُحاضرة أو تغريدة، من خَطيب أو مُتحدِّث، أو كاتب أو داعية، أو مُعلِّق أو مُتابِع، وفي أي وسيلة من وسائل الإعلام والتواصُل.

وفي هذا الزمن بتقنيَّاته واتصالاته، وتدويناته وتغريداته، ومواقعه وشبكاته، وإعلامه وقنواته، ومواقعه وسيلتها كلها: الكلمة والصورة؛ فويلٌ للمُتهاونين من المغرِّدين والمُتابعين!

كم هي العواقبُ التي تُكلِّف الكثيرَ والكثيرَ من الأنفس والأموال والجهود؟!

مساوئ انتشار الشائعات:

معاشر الأحبَّة: إن تهاوُن الناس -ولا سيَّما الفتيان والفَتيات- مما ينعتُونه بالتَّرثرة الجماعيَّة من خلال المجاميع التي يُنظِّمُونها أو ينتظمون فيها في هواتفهم وأجهزتهم؛ بل يتسارَعون لإحراز قصَب السَّبْق في نشر المعلومات أو تلقيها، بقطع النَّظر عن صحَّتها أو دقَّتها أو خطرها، بل الخطرُ فيما تؤولُ إليها من نتائج خطيرة على الدين والعقيدة، وعلى البلاد وأهلها، وعلى الأمن والاستقرار، ما ينشرُ الإرباك والاضطراب، بل الخوف والإرهاب.

ويزدادُ الخطرُ والخوف وسوءُ العواقب حين لا تُعرفُ مصادرُ هذه الأخبار والشائعات، ولا أغراض مَنْ نشرَها وأهدافهم، فلا مصداقيَّةَ ولا موثوقيَّة، «كفى بالمرء إثمًا أن يُحدِّثَ بكل ما سمع».

هذه الوسائل والمواقع وسطٌ خصبٌ، وبيئةٌ للشائعات والأخبار المُختلفة والمختلَقة والآراء والرُّؤى غير المسؤولة، ناهيكم بأنَّ كثيرًا ممن يشتغلُ بنقل هذه الكلمات والصُّور والأخبار الخطيرة هم الفارغون البطَّالون الذين ليس لديهم ما يشغلون به أوقاتَهم من الخير والنفع لهم ولدينهم وأمتهم وأوطانهم.

ويعلمُ المتابعُ العاقل -فضلًا عن المتخصِّص- أنهم لا في العير ولا في النَّفير، الواحدُ منهم مُتَّكِئٌ على أريكته، ومُلازمٌ للوحته، وعاكفٌ على جهازه، يُلقي الكلامَ على عواهنه هنا وهناك.



كم كلمة أو تغريدة قالت لصاحبها: دعني! وكم تدوينة تهوي بقائلها في نار جهنم أبعدَ ما بين المشرق والمغرب!

كلماتٌ تخرجُ كالسِّهام من أفواه البنادق يقتلُ بها نفسَه، ويُهلك أهلَه، ويُفسدُ بلدَه، ويُجرِّئُ الأعداءَ، ويُمكِّنُ للخُصوم، ويبذرُ بذورَ الفُرقة، وينفخُ في أبواق الفتنة.

زاحمَ البَنانُ عنده اللسان ليُوغِلَ في التعقيب والتصنيف، والهدم والإفساد.

في كلمات وصور ومقاطع تستهزئ وتسخرُ من مُكوِّنات مُجتمعه، وكأنه قد تطوَّعَ ليُسوِّدَ صُورته أمام الآخرين، ويُوثِّقَها صوتًا وصورةً، وكأنه مأجورٌ ليُدمِّرَ نفسَه، ويهدمَ بيته، ويتنكرَ لهويَّته.

إذا سمعَ خبرًا طارَ به كلَّ مطار، ينشرُه ويبثُّه يُفاخرُ بأنه حازَ السَّبْقَ في نشرِه، والكلمةُ تبلغُ الآفاقَ مُتخطيةً حواجزَ الزمان والمكان في أجزاء من الثواني بلمسة بَنَان أو غمزة أزرار. بل حقُّه أن يُحاسبَ نفسَه قبل أن يُطلقَ لسانَه، أو يغمزَ بنانَه، أو يخُطَّ مقالَه، أو يُغرِّدَ تغريدتَه.

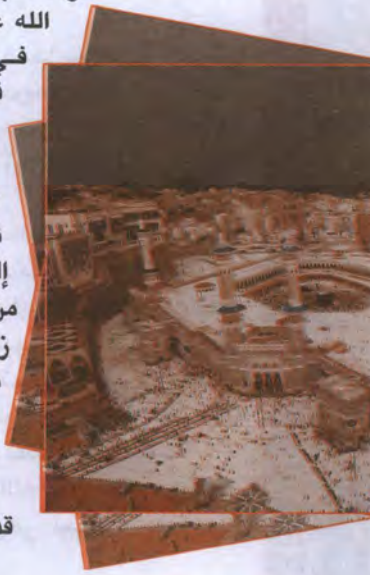
أين الحقيقة؟! وأين المصلحة؟! وأين الديانة؟! وأين الأمانة؟!

يا تُرى هل هؤلاء يُوسِّعون الآفاق أو يحفُرون الأنفاق؟! هل هم يَبنُون أو يهدمون؟! هل هم يجمَعون أو يُفرِّقون؟! هل يزرَعون الأمل أو يقودون لليأس؟! هل يرفعون من مقام أهلِهم وأوطانهم أو يُحقِّرون الذوات ويسحَقون النفوسَ؟!

إن ما يُفسدُه هؤلاء المساكينُ الأغرار في لحظات قد لا يُمكنُ علاجُه في سنوات، وقد يُكلِّفُ أموالًا ونفوسًا، وقد يستعصِي على العلاج. فلا حول ولا قوة إلا بالله!

معاشر المسلمين: «كفَى بالمرء إثمًا أن يُحدِّثَ بكلِّ ما سمع»، «ولا يزالُ الرجلُ يصدُقُ ويتحرَّى الصدقَ حتى يُكتبَ عند الله صدِّيقًا، ولا يزالُ الرجلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكذِبَ حتى يُكتبَ عند الله كذَّابًا».

وقد أخبَرَنا نبيُّنا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- كما في الحديث الصحيح فيما رآه من أحوال الآخرة أنه: «يرَى الرجلَ يكذِبُ الكذبَةَ فتبلغُ الآفاقَ، فيُنشرُ شدقُه ومنخَرُه وعينُه إلى قفاه». فما أشدَّه من عذاب، وما أطولَه من زمان!!



معاشرَ الأحبَّة: هذه قضيةٌ، وثمَّة قضيَّةٌ أخرى مُرتبطةٌ بها، وهي أكبرُ وأخطرُ؛ بل قد تكونُ أثرًا من آثارها، أو هدفًا من أهدافها، إنها: أمنُ المعلومات؛ بل الأمنُ على الدين وثوابته وأصُوله، والأمنُ على الأوطان ووحدتها وتماسُكها.

هذه التِّقنيَّاتُ والآلاتُ والوسائطُ والمواقعُ جعلَت المسؤوليَّةَ أعظمَ، وجعلَت مفهوم الحرية أدق، فالحرُّ هو المسيطرُ على نفسه، الضابطُ لها بضوابط العقل والدين والعلم. الحريةُ هي التخلُّص من قيود الشهوات، وسجون الرَّغبات. الحرُّ هو المسؤولُ الذي يُفكِّرُ بانضباط لا بانفلات.

إن هذه التِّقنيَّات فضحَت بعضَ الذين يودُّون التفلُّتَ من عيون الرَّقيب، ناهيكم برقيب الدين والضمير والأخلاق والمبادئ.

الإيمانُ دينٌ صحيحٌ، والمُواطَنةُ عقلٌ راشدٌ، والمسؤوليَّةُ أمانةٌ وثباتٌ وسعيٌ في المصالح العُليا والدُّنيا، وسيرٌ في دُروب الخير والرشاد، والحثُّ عليها.

أيها العُقلاء: الهدمُ سهلٌ، والانحدارُ إلى الهاوية لا يُكلِّفُ -عياذًا بالله-، تأمَّلُوا في بعض جيرانِنا الذي يُصبحون على العبوَّات الناسفة، ويُمسُون على قذائفَ مُدمِّرة تستهدفُ المنازلَ والمتاجرَ والمعابدَ والمكاتبَ والطوائف.

إن المُراقبَ لبعض القُوى الإقليمية والدولية الذين يُحاولون أن يُذكُوا الصراعات الطائفيَّة القَبَليَّة والمذهبيَّة والمناطقيَّة في منطقتنا يُحاولون أن يُذكُوا الصراع، ثم يُوظِّفُوه ليُقطِّعوا الدول، ويُبعثروا الشعوبَ، ويُشرِّدوا الناسَ، ليتوزَّعوا الغنائمَ، ولا يُهمُّهم البَتَّة ولا يكترثون لمصالح شعوب المنطقة وأهلها أماتُوا جوعًا، أو تفرَّقُوا شيَعًا، أو تناثَرُوا طوائفَ، أو تقطَّعُوا أحزابًا!! والسعيدُ الحكيمُ من وُعِظَ بغيره.

التحذير من خطباء الفتنة والتحريض:

الحَذَرَ ثم الحَذَرَ من خُطباء الفتنة والتحريض، دُعاة تمزيق الأوطان، والعبَث بوحدتها، السُّعاة إلى تأجيج الفتنة وإثارة الفُرقة، في تُهم باطلة، وطعون ظالمة، وناصية كاذبة خاطئة، يُصفون أوطانَهم وأهلَيهم ورجالَهم بأقبَح الأوصاف، في أسلوب فجٍّ، وسوءٍ من القول.

يقومُ قائمٌ مأفونٌ هو الأغشُّ للأمة والأئمة، والأشدُّ على جماعة المسلمين ليهدِم الشوكة، ويُضعف القوة، ويخدم الأعداء، يزعُمُ أنه يُطالبُ بحقوق، ولن يكون نَيلُ الحقوق بفحش القول، والتحريض، وامتطاء مطيَّة العُنصريَّة والطائفيَّة، والاستقواء بالسمَّاعين والدول

الأجنبيَّة وأعداء الأمة، يُثيرُ الفتن، ويجرُّ الأغراب، ويتقوَّى بالخارج، وهذه خيانة ظاهرة، وتفريط بالبلاد ومؤسَساتها وأهلها، ومثل هذا لا بُدَّ من الحزم معه وأطره على الحق وإلزامه جادَّة الصواب، وحفظ أمن البلاد والعباد، ووحدة الصف والكلمة.

مسئولية الدولة عن أمن الناس واستقرارهم:

أيها المسلمون: إن من مسؤولية الدولة وواجبها أن تضربَ بيدٍ من حديد على كل من يقتربُ من هذه الثوابت ليهزَّها أو ينال منها، إنه عبثٌ غيرُ مسؤولٍ ينال من الدين والوطن، الدولة مسؤولة عن أمن الناس وحمايتهم وصيانة حقوقهم ومُمتلكاتهم، وتنظيم شؤونهم في أسواقهم وبيوتهم ومرافقهم.

الدولة بأجهزتها القضائيَّة والتنظيميَّة والتنفيذيَّة مسؤولة عن أمن الناس واستقرارهم، وتحقيق العيش الكريم لهم، مسؤولة عن تحقيق العدل وتهيئة أسباب الحياة الطيِّبة.

عباد الله: فالحقوقُ مُتكافئة، والحياةُ مُنظَّمة، والمصالحُ مُعتبَرة، ولا يتحقَّقُ ذلك إلا في وطنٍ قويٍّ هادئ، مُستقرٍّ آمن، تحكمُها دولة قويَّة مُهيمنة بقضائها وأجهزتها وعدالتها.

وليحذَر المُسلمُ أن يكون مطيَّةً للإفساد وبثِّ روح الفُرقة، والخذلان لدينه، والخيانة لوطنه ولسائر أهله.

الحَذَر ثم الحَذَر أن يكون الإنسان -من حيث يشعُر أو لا يشعُر- وقودًا أو حطَبًا لمثل هذه الدعوات الفئويَّة الضيِّقة التي لا تأخُذُ حسابًا لأهلها وبلدِها وأمنها وسلامتها، والضررُ سيلحقُ بالجميع، والنارُ ستُحرقُ الجميع، ومن يتقاعسُ عن التصدِّي لهؤلاء الشُّذَّاذ والمُرجفين والمتطرِّفين، أو يُحاول إيجادَ أعذارٍ أو مُسوِّغات أو ينقدهم بضعف أو استحياء فهو شريك في إضعاف الوطن وهزِّ كيانه.



ووحدةُ الأوطان وسلامتُها والحفاظُ على دينها وأمنها لا يجوزُ المساسُ به أو العبَثُ به، بأي حالٍ وتحت أي مُسوِّغ.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٥، ٢٦].

الفرق بين حرية التعبير والتحريض:

المُطالبةُ بالحقوق حقٌّ، وبابُ التناصُح مشروعٌ ومُشرَعٌ، وللناس حقوقهم ومطالبُهم، والنقصُ يجبُ أن يُسدَّد، والمطالبُ تُرفعُ وتُسمَعُ، ومسالك النقد والمطالبة بالإصلاح حقوقٌ مشروعة إذا سُلِك بها المسالك الصحيحة.

حقُّ النقد والتعبير والرأي كلُّ ذلك مشروعٌ مكفولٌ، ويجبُ أن يكون مبذولاً ومُتاحًا ما دام مُلتزمًا بالثوابت من المحافَظة على الدين بأصوله، والوطن بوحدته، والأمة بمُكوناتها.

من المقبول أن يقسُو الناقدُ والمُصلحُ بعضَ القسوة في ألفاظه وعرضه، ولكن لا يُمكنُ أن يُقبَل الاستقواء بالأغراب، واستعداء الأعداء، وامتطاء مطيَّة الكذب والتلبيس والتدليس.

إن في أوطاننا وبُلداننا كُتَّابًا وخُطباء ونُقَّادًا يكتُبون وينتقدون بجُرأة وقوَّة وعقل ويُطالبون، لكنَّهم لا يتجاوَزون ثوابتَ دينهم ومصالحَ بُلدانهم، ولاؤهم لأهلهم لا يُساوِمون، ولا يُدارُون، والقُصورُ واردٌ، والكمالُ عزيزٌ، والاجتهاداتُ تخطئُ وتصيبُ.

يجبُ أن يكون الفرقُ واضحًا بين حرية التعبير وحرية الرأي، وبين التحريض والتحريش ودق معاول الهَدم والتفريق. فرقٌ بين النقد البنَّاء والدعوة للإصلاح، وبين زرع بُذور الفتن الطائفيَّة والقَبَليَّة والمناطقيَّة.

أصحابُ الحقوق والمطالب المشروعة حقٌّ أن يُسمَع لهم، وأن تُستنهَض كلُّ المؤسَّسات المتخصِّصة الرسمية وغير الرسمية ليُستمَع إليهم، ويُنظَر في مطالبهم، فما ثبَتَ من حقٍّ فيجبُ المسارعة إلى تحقيقه حسبَ إمكانات الزمان والمكان والقدرات، وما كان غير ذلك فيكونُ الردُّ بالحسنى، وتقدير حقِّ المُطالبة.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فالسعيدُ من وُعِظ بغيره، والحكيمُ من نظرَ في العواقب.

منبر الحرمين

الفساد .. آثاره وكيفية مكافحته

إعداد/
الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد أيها الناس أوصيكم ونفسي بتقوى الله سبحانه فاتقوه سبحانه وأطيعوه واستعينوا بربكم على تصريف الأمور.

الرّقابة مسؤوليّة يتحمّلها الفرد كما تتحمّلها الجماعة:

أيها المسلمون: حين يكونُ المُسلمُ الصالحُ في موقع المسؤوليّة فهو الحارسُ الأمينُ -بإذن الله- لمصالح البلاد والعباد، يحفظُ الحقَّ، وينشُر العدل، ويُخلِصُ في العمل، ويُحافظُ على مُكتسَبات الأمة. صاحبُ المسؤولية المُخلِصُ صالحٌ في نفسه مُصلِحٌ لغيره، يأمرُ بالصلاح، وينهى عن الفساد.

والإسلام قد جعلَ من الرّقابة مسؤوليّةً يتحمّلُها الفردُ كما تتحمّلُها الجماعة، وهذا هو الاحتسابُ في بابه الواسع، فالاحتسابُ بسَعته وشمُوله رَقابةٌ ومُراقبةٌ يحمِي الفردَ والمُجتمعَ والمُنشآت والدولة، يحميها -بإذن الله- من الفساد والإفساد: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم مُنكرًا فليُغيِّرهُ بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان» رواه مسلم.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وفي الحديث: «إن اللهَ لا يُعذِّبُ العامَّةَ بعملِ الخاصَّة، حتى يرَوا المُنكرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن يُنكِروه فلا يُنكِرونه، فإذا فعلوا ذلك عذَّبَ الله الخاصَّة والعامَّة» رواه ابن المبارك في الزهد.

الاحتساب عمل رقابي توجيهي إرشادي:

معاشر المسلمين: وظيفةُ الاحتِساب وظيفةٌ رقابيَّة في ميادين الأخلاق والدين والسياسة والاجتماع، والإدارة والاقتصاد، وغيرها.

وقد قال أهلُ العلم: «إن الاحتساب هو الأمرُ بالمعروف إذا ظهرَ تركُه، والنهيُ عن المُنكَر إذا ظهر فعله؛ تحقيقًا للعدل، ونشرًا للفضيلة، ومُكافحةً للفساد والرَّذيلة، وحمايةً للنَّزاهة والصلاح».

معاشر الإخوة: الاحتسابُ عملٌ رقابيٌّ توجيهيٌّ إرشاديٌّ لكل نشاط مُجتمعيٍّ عامٍّ أو خاصٍّ؛ لتثبيت أصول الدين وأحكام الشرع، ومعايير الأخلاق، ورفع كفاءة الأداء كفاءةً وأداءً يتحقَّق به السلوك الرشيد، وتُعظَّمُ به المصلحةُ الفردية والاجتماعيَّة في الدنيا والآخرة.

إن العاملَ الصالحَ، والمُوظَّف الصالحَ، والمُواطنَ الصالحَ بإيمانه بربِّه وبوازعٍ من دينه يجتهدُ في أداء عمله، ويحرصُ على منعِ المُمارسات الخاطئة، أو يكشفُ عنها لمَن يستطيعُ منعَها.

العاملُ الصالحُ عنده من الصدق في دينه، والأمانة في عمله، والولاء لمُجتمعه، والحِرص على المصلحة العامَّة ما يدفعُه إلى الإحسان وإلى الجدِّ وحُسن الإنتاج، وعدم الرِّضا بالفساد والانحراف.

الفسادُ سلوك مُنحرف في الأفراد والفئات:

ذلكم -معاشر الأحبَّة- أن الفسادَ بكل أنواعه سلوكٌ مُنحرفٌ في الأفراد وفي الفئات، يرتكبُ صاحبُه مُخالفاتٍ من أجل أن يُحقِّقَ أطماعًا ماليَّةً غير شرعيَّة، أو مراتبَ وظيفيَّة غيرَ مُستحقَّة؛ ما يُؤدِّي إلى الكسبِ الحرام، وإضعافِ كفاءة الأجهزة والمؤسَّسات والمُنشآت.

الفسادُ منهجٌ مُنحرفٌ مُتلوِّنٌ مُتفلِّتٌ مُتستِّرٌ، مُحاطٌ

بالسريَّة والخوف، يدخلُ في كل مجال: في الدين، وفي السياسة، وفي الاقتصاد، وفي الاجتماع، وفي الثقافة، وفي الإدارة.

الفسادُ تواطؤٌ وابتزازٌ، وتسهيلٌ لارتكاب المُخالفات الممنوعة والمُمارسات الخاطئة. الفسادُ استغلالُ مقيتٌ للإمكانات الشخصيَّة والرسميَّة والاجتماعية، يستهدفُ تحقيقَ منافع غير شرعيَّة، ومكاسب مُحرَّمة لنفسه ولمن حوله. سوءُ استغلالٍ للسُّلطة والصلاحيَّة، في مُخالفة للأحكام الشرعيَّة، والقيَم الأخلاقيَّة، والأنظمَة المرعيَّة.

الفسادُ داءٌ مُمتدٌّ لا تحدُّه حدودٌ، ولا تمنعُه فواصلُ، يطالُ المُجتمعات كلَّها مُتقدِّمها ومُتخلِّفها بدرجات مُتفاوتة، وفي التنزيل العزيز: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١].

كل انحراف بالوظائف عن مسارها فهو فساد:

معاشر المسلمين: وكل انحراف بالوظيفة العامَّة أو الخاصَّة عن مسارِها الذي وُضِعَت له ووُجِدت لخدمته فهو فسادٌ وجريمةٌ وخيانةٌ، بالفساد تضطربُ الأولويات في برامج الدولة، وفي برامج الدول ومشاريعها، وتُبدَّدُ مواردُها، وتُستنزَفُ مصادرُها.

مضار الفساد على الفرد والمجتمع:

بالفساد تتدنَّى مُستوى الخدمات العامَّة، وتتعثَّرُ مشاريع، ويسُوءُ التنفيذ، وتضعُفُ الإنتاجيَّة، تُهدَرُ مصالحُ الناس، ويضعُفُ الاهتمامُ بالعمل وقيمة الوقت، ويضطربُ تطبيقُ الأنظمة وعدالةُ المعايير.

الفساد يُؤدِّي إلى التغاضي عن المخاطر التي تلحَقُ الناسَ في مأكلهم وفي مشاربهم وفي مرافقهم الصحيَّة والتعليمية، وفي طُرقهم، وفي أنظمة الأمان والحصول على الخدمات العامَّة.

الفسادُ يُزعزِعُ القيَم الأخلاقيَّة القائمةَ على الصدق والأمانة والعدل وتكافؤ الفرص وعدالة التوزيع، وينشُر السلبيَّة، وعدمَ الشعور بالمسؤولية، والنوايا السيئة، وينشُر الشعورَ بالظلم، ما يُؤدِّي إلى حالات من الاحتقانِ والحقدِ والتوتُّر والإحباط واليأس من الإصلاح.

الفسادُ يجعلُ المصالحَ الشخصيَّة تتحكَّمُ في القرارات، ويضعُفُ الولاءُ الصادقُ للحق وللأمة وللدولة، ويُعزِّزُ العصبيَّةَ المذمومة مذهبيَّةً أو قبَليَّةً أو حزبيَّةً، فهو يُهدِّدُ الترابُط الأخلاقيَّ، وقِيَم المُجتمع الحميدة المُستقرَّة.

الفسادُ يُولِّدُ مُشكلات خطيرةً على استقرار المُجتمعات وأمنِها وقِيَمها الأخلاقيَّة، وسيادة الأنظمة.

الفسادُ يتواصَلُ مع أشكال الجريمة المُنظَّمة والجرائم الاقتصادية بما فيها ما يُعرَفُ بـ«غسيل الأموال».

الفسادُ يُعيقُ تطبيقَ الخُطط الصحيحة، والسياسات الإيجابيَّة، كما يُعرقِلُ جهودَ التغيير نحو الأفضل؛ بل إنه يُقوِّضُ الدول والمؤسَّسات، ويُبعثِرُ الثروات، ويخترُ في الإدارات، ويتناسَبُ طردًا مع الانحرافات والمُنكَرات والأمراض المُجتمعيَّة والأخلاقيَّة.

مظاهر الفساد بالمجتمع:

معاشر الأحبَّة: وللفساد مظاهرُ كثيرة، وصورٌ عديدة، ومسالكُ مُتنوِّعة؛ من الاختلاس، والرَّشوة، وسوء استخدام السُّلطة والصلاحيات، وإفشاء أسرار العمل، أو كتمان معلومات حقُّها أن تكون معلومةً مُعلَنةً؛ سواء في شأنٍ ماليٍّ أو وظيفيٍّ، والتزوير، والعبث بالوثائق والمُستندات والقرارات، وعدم احترام العمل وأوقات الدَّوام حُضورًا أو انصرافًا، وضعف الإنجاز، والتشاغُل أثناء العمل بقراءات خارجيَّة، أو استقبال من لا علاقةَ لهم بالعمل، والبحث عن أعذار، والتهرُّب من تنفيذ الأنظمة والتعليمات والتوجيهات، وعدم المُبالاة، والعُزوف عن المُشاركة الفاعلة، والإسراف في استخدام المال العام -ولو كان يسيرًا- في الأثاث والأدوات المكتبيَّة، والمُبالَغة في إقامة المُناسَبات، وسُوء توظيف الأموال، وإقامة مشاريع وهميَّة، والعبَث بالمُناقصات والمُواصَفات، في صُور وأشكال لا تقعُ تحت حصر.

وجوب محاربة الفساد:

أيها المسلمون: إذا كان الأمرُ كذلك؛ فلا بُدَّ من مُحاربة الفساد ومُكافحته، والتزام الصلاح والإصلاح

والنزاهة والشفافية، وذلك هو المِفتاحُ القائدُ -بإذن الله- لأسباب الخير والفلاح، والتوفيق والصلاح، والأمن والطمأنينة، وانتشار العدالة.
ومُحاربةُ الفساد ليست وظيفةً لجهةٍ مُعيَّنة أو فئة خاصَّة؛ بل هي مسؤوليَّةُ الجميع ديانةً وأمانةً وخُلُقًا ومسؤوليَّة.

مقاييس النزاهة:

النزاهةُ والعدالةُ في الإصلاح تحفَظُ هيبةَ الدول وكرامتَها وتُؤكِّدُ التلاحُم بينَها وبين مُواطنيها، وتغرسُ الثقةَ في الأجهزة والأنظمة. النزاهةُ تُعطي قياداتِ الدول دفعًا أكبر في مُحاربة الفساد في جميع صُوره وأشكاله؛ إداريًا وماليًا وأخلاقيًا.
مقاييسُ النزاهة هي: الديانة، والصدق، والعدالة، والوضوح والشفافية. في أجواء النَّزاهة تكونُ المُنافسات النزيهة، والتنافس الشريف على تقديم الأفضل والأجود والأنسَب.

المعينات على الإصلاح:

أيها المسئولون: ومما يُعينُ على ذلك: تحديدُ مسؤوليَّات المَوظَّف، وإصدارُ الأدلَّة الإرشاديَّة، والتوعيَّة المُنظَّمة، وتبصيرُ الناس بحقوقهم، وتشجيعُهم على المُساعَدة في كشف المُفسِدين.
ومما يُعينُ على ذلك كذلك: إصلاحُ أجهزة الرَّقابة، وتقويتُها، ودعمُها في كفاءاتها، وتبسيطُ أساليب العمل الإداريِّ، وتقويةُ الرَّقابة المُحاسبيَّة الإداريَّة والنظاميَّة والماليَّة، وسنُّ الأنظمة الصارمة في مُواجَهة الفساد، وتطبيقُها بحزم وعدالة وحياديَّة، والبُعدُ عن المُجاملات المُضعِفة، والعناية ببرامج الإصلاح الإداريِّ ومنحُها الأولوية، وتوسيعُ دائرة تكافُؤ الفرص والمُساواة على أساس معايير الجدارة والاستحقاق: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وغرسُ قِيَم الجدِّ في العمل، وحِفظ الوقت، والتواصي بالحقِّ، والتزام الأخلاق؛ من الصِّدق، والأمانة، والإخلاص، وحُسن الظنِّ، بعد الإيمان بالله وصدق التعلُّق به والاعتماد عليه، والاهتمام بالمصلحة العامَّة، والشعور الحقِّ بالمسؤوليَّة، وزرع الثِّقة من الجميع، مع بثِّ أجواء حرية الرأي والمناقشة والمُكاشفة.

إن الخللُ ليس في الأنظمة والقوانين والنُّصوص، ولكنَّه في الإدارات والمُجتمعات والنفوس.

النية في الإصلاح:

أيها المسلمون: في حماية النَّزاهة وأهلِها ومُحارَبة الفساد ومُكافَحة المُفسِدين ليس الهدفُ محصورًا في البحث عن المُذنبين والفاسِدين؛ بل يُضمُّ إلى ذلك ويتوازَى: إيجادُ الوعي الفعَّال بحجم الأضرار الناجمة عن الفساد، وهي أضرارٌ دينيَّةٌ وسياسيَّةٌ وماليَّةٌ وأمنيَّةٌ وثقافيَّةٌ واجتماعيَّةٌ، في برامج إصلاح شاملة، وتعاوُن من الأجهزة كلِّها العامَّة والخاصَّة، ومُشاركة المُجتمع بكل مُؤسَّساته، وإعطاء الفُرص للاستماع إلى آراء العاملين ومُلاحظاتهم ومُقترحاتهم وشكاواهم ومُناقشاتهم.

دور الإعلام في مقاومة الإفساد:

وفي هذا الباب للإعلام دورُه الفعَّال في نشر الوعي الصحيح، والمعلومات والحقائق، في تثبُّت وتحرٍّ وحياديَّة ووقار، وعدم التسرُّع في توجيه الاتهام للأفراد أو الجهات، مع الثَّناء على ما يستحقُّ الثَّناء، والإشادة بالصالحين والشرفاء، وأصحاب الأداء الحسن والإيجابيَّة في العمل، وهم كثيرٌ في بلاد المُسلمين -ولله الحمد-، والحفاظ على العلاقات الطيبة والإيجابيَّة بين زُملاء العمل، والتعاوُن فيما بينهم، وتجنُّب تصيُّد الأخطاء وتتبُّعها، وتغليب حُسن الظنِّ.
ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-، وأصلحوا واعمَلوا صالحًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].
هذا؛ وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُّكم في محكم تنزيله، فقال -وهو الصادق في قيله- قولًا كريمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

منبر الحرمين

أصول منهج السلف الصالح

إعداد/ الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله، الحمد لله كتب على نفسه الرحمة، وأفاضَ على الخلائق سوابغَ النِّعمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه، وصفيُّه وخَليلُه، رحمةُ الله للعالمين، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، واعلَموا أن أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-، وشرَّ الأمور مُحدثاتُها، وكلَّ مُحدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار، وما قلَّ وكفَى خيرٌ مما كثُرَ وألهَى، وإن ما تُوعَدون لآت وما أنتم بمُعجزين، «وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» [البقرة: ٢٣٥].

أعداء الإسلام يواجهون كل دعوة تدعو للحق:

أيها المسلمون: إن من العقلِ والحكمة: إدراكَ أن أعداءَ الإسلام والمتربِّصين به يقِفُون موقفًا صارمًا من كل دعوةٍ تدعُو إلى الحق، وإلى الرجوع إلى أصول الإسلام وثوابته ومبادئه وحقائقه التي تبعثُ روحَ العزَّة في الأمة، وتقودُ إلى المجد والمَنَعة، حتى قال قائلٌ منهم: «إننا لا نُحارِبُ الإرهاب، ولكنَّنا نُحارِبُ من أجل أن نُقرِّرَ الإسلام الذي نُريد».

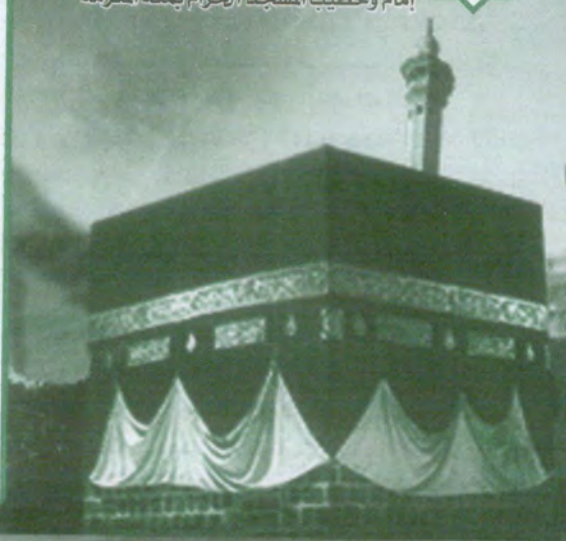
انتشار التفرق الفكري والعقائدي:

وفي عالَمنا تجتاحُه موجاتٌ من التغيير، وطُوفاناتٌ من التحديات؛ يبرُزُ منهجُ الاتباع عند وجود الأضداد المتخالِفة والمتنافِرة؛ من التكفير والتنفير، وتعظيم الأشخاص، وتصنيف الأحزاب والانتماءات.

يبرُزُ منهجُ الاتباع حين يأخذُ التفرُّقُ الفكريُّ والعقائديُّ في الانتشار، وتنمُو مذاهبُ ومناهِج، وتياراتٌ وفلسَفاتٌ يتميَّزُ فيها منهجُ السلف الصالح، وتظهرُ معالِمُه؛ فهو يأوِي -بقوة الله وحوله- إلى جبلٍ من الأصول والأدوات والاستعدادات، يعصِمُه به من الزلَّات والانحِرافات، بإدراك لفقه الواقع وأدوات التمكين، مع اللِّين والحزم والرحمة، والدفع بالتي هي أحسن.

فضائل السلف الصالح وخصائصهم:

السَّلفُ الصالحُ هم الصدرُ الأول، الراسِخون في



العلم، المُهتدون بهدي النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، الحافظون لسُنَّته، مُقدَّمُهم صحابةُ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم أجمعين-، اختارَهم الله لصُحبة نبيِّهم، وانتخبَهم لإقامة دينه، ورضِيَهم أئمةً للأمة.

يقول -عزَّ شأنه-: «وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [التوبة: ١٠٠].

يقول السفَّارينيُّ -رحمه الله-: «المرادُ بمذهب السَّلَف: ما كان عليه الصحابةُ الكرامُ، وأعيانُ التابعين بإحسان، وأتباعُهم من أئمة الإسلام العُدُول، ممن شُهِدَ لهم بالإمامة، وعُرِف عظيمُ شأنهم في الدين، وتلقَّى الناسُ كلامَهم خلفًا عن سلَف، دون رمي ببدعة، أو شهر بلَقَب غير مرضيٍّ».

ويقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «إنكم قد أصبَحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستُحدِثون ويُحدَثُ لكم، فإذا رأيتُم مُحدثةً فعليكم بالعهد الأول».

ويقول أيضًا -رضي الله عنه-: «من كان مُستنًّا فليستنَّ بمن قد ماتَ؛ فإن الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد -صلى الله عليه وسلم-، كانُوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقَهم علمًا، وأقلَّهم تكلُّفًا».

ويتساءَلُ إمامُ الحرمين عبد الملك الجُوينيُّ -رحمه الله- يتساءل: «ما الحقُّ الذي يحمل الإمامُ الخلقَ عليه في الاعتقاد إذا تمكَّن منه؟!»، ثم يُجيبُ -رحمه الله- بقوله: «إن الذي يحرِصُ الإمامُ عليه جمعَ عامَّة الخلق على مذاهب السَّلَف السابقين قبل أن نبَغَت الأهواء، وزاغَت الآراء، وكانُوا ينهَون عن التعرُّض للغوامض، والتعمُّق في المُشكلات، والإمعان في مُلابَسَة المُعضلات، والاعتناء بجمع الشُّبُهات». انتهى كلامُه -رحمه الله-.

ويقول الإمامُ الذهبي: «فالذي يحتاجُ إليه الحافظُ أن يكون تقيًا ذكيًا نحويًا لُغويًا حييًا سلفيًا».

السَّلَفُ ليس لهم لقبٌ يُعرَفُون به، ولا نسَبٌ ينتسبُون إليه، كما قال بعضُ الأئمة -وقد سُئِل عن السُّنَّة- فقال: «السُّنَّةُ ما لا اسمَ له سوى السُّنَّة، أما غيرُهم فينتسبُون إلى المقالة أو إلى القائل».

يُوضِّحُ ذلك الإمامُ مالك -رحمه الله-، وقد جاءَه رجلٌ فقال: يا أبا عبد الله: أسألُك عن مسألة أجعلُك حُجَّةً فيما بيني وبين الله -عز وجل-. قال مالك: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ سَلْ». قال: من أهلُ السُّنَّة؟! قال: «أهلُ السُّنَّة الذين ليس لهم لقبٌ يُعرَفون به، لا جهميٌّ ولا قدَريٌّ».

قال أهل العلم: «إنما برَزَ الانتسابُ إلى السَّلَف الصالح حينما ظهرَت الفِرقُ في الأمة التي قال فيها رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «وستفترقُ هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فِرقة»، ثم بيَّن -عليه الصلاة والسلام- النهجَ الحقَّ في قوله: «ما أنا عليه وأصحابي».

الصحابةُ وتابعُوهم بإحسانٍ هم خيرُ هذه الأمة، وأزكاها دينًا، وأعلاها مقامًا، وأعلمُها بما كان عليه رسولُ الله -صلى الله عليه وآله وسلم-.

المراد بمذهب السلف:

معاشر المسلمين: منهجُ السَّلَف الصالح ليس حقبةً تاريخيَّةً محدودة، ولا جماعةً مذهبيَّةً محصورة؛ بل هو منهجٌ مُستمرٌّ لا يتقيَّدُ بزمَان، ولا ينحصرُ بمكان. وعليه؛ فإن هذا المنهجَ ليس حِزبًا، ولا تيَّارًا، ولا حركةً، وليس تكتُّلاً سياسيًا، هو منهجٌ لا جماعة.

يُوضِّحُ ذلك: أن المُنضوين تحت هذا المنهَج قطاعٌ عريضٌ من المُسلمين شُعوبًا وديارًا؛ بل هم الأصل في عُموم المُسلمين؛ فالمُسلمُ يتَّبعُ الدليلَ ويسيرُ خلفَه، ويُعظِّمُ السَّلَفَ الصالحَ، ويُحبُّهم ويقتدي بهم، وكلُّ إمامٍ من أئمة المُسلمين يقول: «إذا صحَّ الحديثُ فهو مَذهبي».

يقولُ شيخُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ العزيز بن باز -رحمه الله-: «السَّلَفُ الصالحُ هم الصحابةُ -رضي الله عنهم-، ومن سلكَ سبيلَهم من التابعين وأتباع التابعين من الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحنابلَة، وغيرهم ممن سارَ على الحقِّ، وتمسَّك بالكتاب العزيز والسُّنَّة المُطهَّرة في باب التوحيد وباب الأسماء والصفات، وفي جميع أمور الدين».

معالم وأصول منهج السلف الصالح:

ومن القُصور في النظر والفهم: حصرُ منهج السَّلَف الصالح في قضايا مُعيَّنة، أو علمٍ مُعيَّن، أو بلدٍ مُعيَّن، أو فئة مُعيَّنة.

السَّلَفُ الصالحُ ليس يدَّعي تمثيلَهم أحدٌ، ولا ينطقُ باسمهم عالمٌ، فليس ثمَّة جماعة محصورة تُمثِّلُ هذا المنهجَ، وإنما يوجدُ أفرادٌ وجماعاتٌ ينتَمون إلى هذا المنهَج، وينتسبُون إليه، ويسعَون لتحقيق مذهب السَّلَف الصالح. إنه منهجٌ ليس محصورًا في انتساب، وعدمُ الانتساب لا ينفي الانتساب؛ لأنه

منهجٌ ورُؤيةٌ.

وهذا المنهجُ ليس مسؤولاً عن أخطاء بعض المُنتسبين إليه، وإنما تُنسَبُ الأقوالُ والأفعالُ والتصرُّفات إلى أصحابها وجماعاتها لا إلى المنهَج.

معاشر المُسلمين: منهجُ السَّلَف الصالح يعتمدُ النصَّ الشرعيَّ، وفهمَ السَّلَف الصالح، وطُرُقَ استدلالهم، ومصدرَ التلقِّي عندهم، وليس ذلك محصورًا في فهم عالمٍ بعينه.

أُصولُ منهج السَّلَف الصالح ومبادئُه لم يُولِّدها فكرٌ بشريٌّ، ولا ظرفٌ تاريخيٌّ، ولا اجتهادُ مُجتهِدٍ؛ بل عمادُها الكتابُ والسُّنَّة.

١- ومن معالم هذا المنهج: لُزومُ اتباع الكتاب العزيز والسُّنَّة الصحيحة الثابتة، والحذَرُ من اتباع الهَوَى والبِدَع، على حدِّ قوله -صلى الله عليه وسلم-: «فإنه من يعش منكم فسيرَى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخُلفاء الراشدين المهديِّين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمور؛ فإن كلَّ بدعة ضلالة». أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وغيرُهم من حديث العِرباض بن سَارِيَة -رضي الله عنه-، وقال الترمذي: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

٢- ومن معالم هذا المنهَج: العنايةُ بلُزوم الجماعة، والسَّمع والطَّاعة بالمعروف في المنشَط والمَكرَه، على حدِّ قوله -عزَّ شأنُه-: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا » [النساء: ٥٩].

وحديث عُبادة بن الصَّامت -رضي الله عنه- قال: دعانا النبيُّ -صلى الله عليه وسلم-، فبايَعناه، فقال فيما أخذَ علينا: «أن بايَعَنا على السَّمع والطاعة في منشَطنا ومكرَهنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثَرَة علينا، وأن لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه، إلا أن تَرَوا كُفرًا بواحًا عندكم من الله فيه بُرهانٌ». أخرجه البخاري في صحيحه.

وهو بيانٌ جليٌّ في عظيم أثَر السَّمع والطاعة، وضرورة تقديمها مهما احلَولَكت الظروف، وأظلَمَت الدُّروب، غيرَ أنَّ الذي ينبغي تبيُّنُه وبيانُه: أن السمعَ والطاعةَ لا تعني ضياعَ الحقوق أو التفريطَ فيها، فمع لُزوم السَّمع والطاعة من حقِّ الناس المُطالَبةُ بحُقوقهم من الوُلاة ظلَمَةً كانوا أو عادلين، ولا تنافي بين لُزوم السَّمع والطاعة وظُهور بعض المظالم وحقِّ المطالَبة بالحقوق ورفع المظالم.

٣- ومن معالم هذا المنهَج: النصيحةُ المدلولُ عليها بقوله -عليه الصلاة والسلام-: «الدينُ النَّصيحة، الدينُ النَّصيحة، الدينُ النَّصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله؟! قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المُسلمين وعامَّتهم». أخرجه مسلم في صحيحه من حديث تميم الداريِّ -رضي الله عنه-.

نصيحةٌ فيٌّ إخلاص وصدق وديانة، وحفظِ الحقِّ والمكانة، والبُعد عن التَّشنيع والتَّشهير، أو سُلوك مسالكَ تُؤدِّي إلى التفرُّق والشَّحناء.

٤- ومن معالم هذا المنهَج: الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المُنكَر، كما قال -عزَّ شأنُه-: « كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ » [آل عمران: ١١٠]، وقوله -عزَّ شأنُه-: « وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ » [التوبة: ٧١]، وقوله -جل وعلا-: « ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ » [الحج: ٤١].

٥- ومن معالم هذا المنهَج: توحيد مصدرُ التلقِّي وهو الوحيُ، ويُعرِضُون عقولَهم وفُهومَهم وآراءَهم على الكتاب والسُّنَّة؛ فما وافقَها قبلُوه، وما خالَفَها أعرَضُوا عنه، ونصُّ الشارع هو الأصلُ، تنقادُ إليه النفوسُ، وتعتمدُ عليه، تتبَعُه ولا يتبعُها، «لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى يكون هواهُ تبَعًا لما جِئتُ به». حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، أخرجه الأئمة في مسانيدِهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-.

والحُجَّةُ للنصِّ الشرعيِّ، وظاهرُ النصِّ يُؤخَذُ به، ويُصارُ إلى التأويل بدليل، وحُجَّةُ النصِّ لا تُرَدُّ، قطعيًا كان النصُّ أو ظنيًا، والالتزامُ بنُصوص الكتاب والسُّنَّة لا يُنكِرُ العقلَ ومنزلتَه؛ فالعقلُ أعظمُ ما منَحَ الله الإنسانَ وميَّزَه به، فبه يُتعرَّفُ على الأحكام الشرعيَّة، وهو مَناطُ التكليف وأداةُ الاستنباط.

وهذا المسلكُ المُستقيمُ هو الذي يُحقِّقُ التوازُنَ بين لفظ النصِّ ومعناه، وظاهره وفحواه، هذا منهجُ السَّلَف حين يأخُذون بظواهر النُّصوص عملاً لا يُنافي الاستفادة المنضبطة من إشاراتها ودلالاتها ومقاصدها.

هذا هو الوسطُ بين جفاء الحرفيَّة، ونوَبَان التأويل البعيد المُتعسِّف، في مسلكٍ توافُقيٍّ لا يسمَحُ بإهدار أحد الجانبَيْن على حساب الآخر، ولا يطغَى أحدُهما على الآخر، فيُحفَظُ للنصِّ حقُّه ومكانتُه، كما تُقدَّرُ أبعادُه ودلالاتُه ومقاصدُه، مع الاستفادة مما يُمكنُ الاستفادةُ منه من العلوم والمعارف القديم منها والجديد.

يقول الشاطبيُّ -رحمه الله-: «والعقلُ إذا لم يكن مُتَّبِعًا للشرع لم يبقَ إلا الهوى والشهوة».

ذم التعصب وآداب الخلاف:

٦- معاشر المُسلمين: ومن معالم هذا المنهَج: أنه لا تعصُّب إلا للحقِّ وما جاء في كتاب الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وعدمُ التعصُّب يقترنُ بعدم ادِّعاء العصمة لأحد كائنًا من كان من عُلماء الدينَ وأئمَّته من الصحابةِ ومن بعدَهم، فضلاً عن غيرهم. فلا عصمةَ إلا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيما يُبلِّغُ عن ربِّه -عز وجل-.

ومن هنا؛ فإنهم لا يمنَعون من الخلاف فيما يسُوغُ فيه الخلاف، بناءً على فهم النصِّ وتقدير المصالح والمفاسد، وتحقيق الغايات والمقاصد، إذا صدرَ الاجتهادُ من أهله في محلِّه. ولهذا كان السَّلَفُ الصالحُ يختلفون ويعذرُ بعضُهم بعضًا.

عدم حصر منهج السلف في قضية أو جماعة:

٧- ومن معالم هذا المنهَج: التفريقُ الظاهرُ بين الحُكم على الأوصاف والحُكم على الأعيان؛ فالحُكمُ على الأعيان فيه من الضَّبط والتورُّع والاحتياط ما هو معلومٌ في هذا المنهَج المُبارَك.

وبعدُ: عباد الله: فإن سَعَة هذا المنهَج وثراءَ موروثه لا تعني ذوَبَانَه أو عدمَ وُضوح معالمه، غيرَ أن مساحَة الاجتهاد في مُحيطه واسعة، وكلَّما وفَّق اللهُ العبدَ واقتربَ من السُّنَّة ولُزومها كان أكثرَ مُتابعةً ومُوافقةً واقتداءً، وكلَّما زادَ صلاحُ العبد والتزامُه بالسُّنَّة كان أعمقَ علمًا، وأقلَّ تكلُّفا، وأكملَ بصيرةً، مع الحِرص على أصول العلوم وقواعدها ومعاقدها، وقد جعل الله لكل شيءٍ قدرًا، وفي ذلك كله يكونُ المرجعُ أهلَ الذِّكر من حمَلَة الكتاب وحُفَّاظ السُّنَّة، ليعلمَه الذين يستنبطونه منهم المدلولُ عليه بقوله -جل وعلا-: «وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: ٨٣].

شمول المنهج السلفي:

أيها المسلمون: فإن منهجَ السَّلَف هو الدينُ بجميع شرائعه في التوحيد والإيمان، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحجِّ، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكَر، في العلاقات والحقوق، والمُعاملات، والسياسة في حقائقها وحُدودها وشرائطها، في وحدةٍ لا تفرُّق فيها.

يقول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- في كلمة جامعة: «سَنَّ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- وُلاةُ الأمر من بعده سُنَنًا؛ الأخذُ بها اتِّباعٌ لكتاب الله -عز وجل-، واستكمالٌ لطاعة الله، وقوةٌ على دين الله، ليس لأحدٍ من الخلق تغييرُها ولا تبديلُها، ولا النظرُ في شيءٍ خالَفَها. من اهتدَى بها فهو مُهتدٍ، ومن استنصَرَ بها فهو منصورٌ، ومن تركَها واتَّبَعَ غيرَ سبيل المُؤمنين ووَلاه الله ما تولَّى وأصلاهُ جهنَّم وساءَت مصيرًا».

أئمةُ أهل العلم وأساطينُه مُجدِّدون لا مُؤسِّسُون، فأيُّ دعوةٍ تُعظِّمُ النصَّ الشرعيَّ وتصُونُ دلالَته وتقِفُ دونَ تحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المُبطلين فهي دعوةُ حقٍّ.

ولا يُوصَفُ سُلوكُ المرء بالاعتدال والوسَط والسَّماحة إلا إذا سلِمَ من نوعَي التطرُّف: التشدُّد والتنطُّع، والمُيُوعَة والذَّوبان، وإدخالُ نزاعات النفس والقناعات الشخصية في الأحكام سُلوكٌ لا يمُتُّ للعلم بصلَة، ولا لحُرِّيَة الفكر بنَسَب.

فإذا قال عالِمٌ بتحريم ما يرَى غيرُه حِلَّه، أو وجوب ما يرَى زميلُه استحبابَه لا يُوصَفُ بأنَّه مُتشدِّد؛ فهذا ليس من العلم ولا من الاتِّصاف به، ناهيكُم إذا كان ما يقولُ به هو قولُ جماهير أهل العلم.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-، والزَموا الجادَّة، وخُذوا بالسُّنَّة، واستمسكوا بالهدي الأول.

ثم صلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُّكم في محكم تنزيله، فقال -وهو الصادقُ في قيله- قولاً كريمًا: «إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد الحبيب المصطفى، والنبي المُجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.



وحدة الكلمة والحذر من الفُرْقَة

إعداد/ الشيخ صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله، الحمد لله فالق الإصباح، ومُجري السحاب ومُرسِل الرياح، أحمده -سبحانه- وأشكرُهُ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الحق والفوز والفلاح، وأشهد أن سيدَنا ونبيَنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أوضحَ معالمَ الهُدى وهدَى إلى طريق الصلاح، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وأتباعه بإحسان، ما أغطش ليل وأضاءَ صباح، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، ومن استطاعَ منكم أن يلقى اللهَ خفيف الظهر من دماء المسلمين، خميصَ البطن من أموالهم، كافَ اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم فليفعل.

واعلَموا أن من تركَ الحرامَ وهو قادرٌ عليه فهو الخائف، ومن جدَ في العمل واجتنبَ الأماني فهو الرَاجي، ومن ركنَ إلى حوله وقوَته ذل، ومن أعجبَ بعمله ضل، ومن اعتمدَ على ربه وركنَ إلى مولاه فما ذل ولا ضل: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ » [فاطر: ٥، ٦].

تأسيس دول الإسلام على المؤاخاة:

أيها المسلمون: أسَس نبيُنا محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- في المدينة النبوية المُنوَرة؛ أسَس دولةَ الإسلام -بعد توحيد الله- أسَسها على المؤاخاة، فكان المُهاجرون غرباء الدار إخوة الأنصار ممن تبوَؤوا الإيمانَ والدار، وكان -عليه الصلاة والسلام- شديدَ الرعاية بهذه الأُخُوَة، عظيمَ الغيرة عليها، سريعَ المُعالجة لبوادر الخروج عليها.

اختلفَ غُلامان في إحدى المغازي، فقال أحدُهما: يا للمُهاجرين! فقال الآخر: يا لَلأنصار! فبادرَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- قائلا: "أبدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهُركم؟! دعُوها فإنها مُنتِنةٌ". أخرجه البخاري.



مع أن لقبَ المُهاجرين ولقبَ الأنصار ألقابٌ إسلاميةٌ كريمةٌ.

وحينما ضلَ بنُو إسرائيل وعبَدوا العجلَ، قال موسى نبيُ الله وكليمُه لأخيه هارون نبي الله ووزير أخيه -عليهما السلام-: «قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي» [طه: ٩٢، ٩٣]، فكان جوابُ هارون جوابًا لطيفًا رقيقًا حكيمًا: «قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي» [طه: ٩٤].

ومعاذ الله أن يُتهم نبيُ الله هارون بانحراف المنهَج، أو التقصير في المُوازنات، ثم يُقِرُه أخوه مُوسَى وهو الذي دعا ربَه: «وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي» [طه: ٢٩- ٣٢]، فأجابَه العليُ الأعلى: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ» [طه: ٣٦].

يقول الإمام البغوي -رحمه الله-: "بعثَ الله الأنبياءَ كلَهم بإقامة الدين، والألفَة والجماعة، وترك الفُرقة والمُخالَفة".

مضارُ تفرق الكلمة على استقرار الديار:

معاشر المسلمين: وليس أشد ضراوةً على الأمة وعلى استقرار الديار من اختلاف الكلمة، وتنافُر القلوب، وتنازُع الآراء. وحدةُ الكلمة سببُ كل خيرٍ، والفرقةُ والخلافُ سببُ كل شرٍ.

إن مِن كمال الدين وكياسَة العقل وسلامةَ الفهم: أن لا ينساقَ المرءُ مع من يُريد تصديعَ وحدة الأمة، لما قد يرَى من ظُلم قد وقعَ، أو حقٍ قد انتُقص؛ لأن من فقدَ بعضَ حقه في حالَة الوحدة سيفقدُ كل حقه إذا وقعَت الفُرقة -معاذ الله-، ولن يأمَن -والله- على نفسه، ولا على أهله، ولا على عِرضه ولا على ماله.

لنا إخوةٌ أعِزة في بلادٍ مُجاورة -لطفَ الله بهم وحفظَهم، وأعانَهم على ما يُعانُون- تفرَقت كلمتُهم، وفقَدوا استقرارَهم، وانفرَط عقدُ وحدتهم؛ ففارقوا ديارَهم، وتشرَدوا مُخلفين وراءَهم دُورَهم وأموالَهم وزُروعَهم وتجاراتهم، تركُوا الغالِيَ والنفيس، ينشدون الأمنَ والاستقرار، يعيشُون مُغتربين مُعدَمين.

مع التشرُد والخوف والفُرقة لا قيمةَ للدُور ولا للقُصور ولا للأموال ولا للضياع، أتُراهم ينزَحون من ديارهم لو وجَدوا مُستقرًا وأمنًا؟!

حين فقَدوا استقرارَ الدولة حلَت في ديارهم الفوضَى، وفي أجواء الفوضَى يتفرَق الجمع، ويتخاصمُ الحلفاء، ويتخندقُ الفرقاء، ومن ثمَ يُصبحُ الفشلُ مُحيطًا بالجميع، ويصيرُ العجزُ هو النتيجةَ التي يتحمَلها الجميع.

أجواء الفوضَى تنتج الأمراض المجتمعية:

معاشر الأحبَة: في أجواء الفوضَى تُولَد التكتُلات، وتنبُت المُخالفات، وتلكم هي معاولُ الهدم، وقوةُ الهدم أقوَى من قوَة البناء وأبلَغُ وأسرع.

في الفوضَى وعدم الاستقرار تذوب المعاييرِ الضابطة، وتغيبُ السياساتُ العاقلة، وتذهل الآراءُ الواعية، ويكونُ التناقض هو المُسيطر، والاضطرابُ هو السائد، والضياعُ هو المُهيمن.

إن غوغائيَة الجماهير هي الطريقُ السريعُ إلى الفوضَى، ونعوذُ بالله من فتن تدَعُ الحليمَ حيرانًا، فالإنسانُ في أجواء الفتن قد يظنُ أن لديه إيمانًا يعصمُه، أو عقلاً إلى رُشدٍ يهديه، ولكن مع الفتن وبخاصَة في تقنيَات العصر الجارفة، ووسائله الطاغية، وتغريداته المُضطربة، لا يشعُر إلا وقلبُه قد تشرَبَ ما تشرَب، فإذا هو قد زُجَ في نارها، وغرِق في لُجتها، وأحرقه لهيبُها.

ونعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ألم تفقَهوا توجيهَ نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- وهو يُحذرُ من فتنَة المسيح الدجَال، مع أنه قد بيَن لنا أوصافه وذكرَ لنا علاماته بما لا يلتبسُ ولا يشتبهُ، ومع هذا كله فإننا نستعيذُ بالله منه في صلواتنا كلها، وقال: "إن خرجَ وأنا فيكم فأنا حَجيجُه، وإلا فكلُ حَجيجُ نفسه". فلا حول ولا قوة إلا بالله.

لزوم الجماعة عاصم من الفتن:

معاشر المسلمين: وليس مخرجًا من الفتن إذا استحكمَت، والبلايا إذا ادلهمَت، إلا لزومُ

الجماعة، والتزامُ الطاعة، وقد قال ذلك نبيُنا محمدٌ -صلى الله عليه وآله وسلم- لحُذيفة -رضي الله عنه-: "تلزمُ جماعةَ المُسلمين وإمامَهم".

ومن أرادَ بَحبُوحَة الجنة فليلزَم الجماعة.

ولُزومُ الطاعة والتمسُك بالجماعة ليس مُجاملةً، ولا مُمالأةً، ولا ضعفًا، ولا مُداهنةً، ولا مُعاوَضةً، ولكنَه -والله- من أجل الحفاظ على الدين، وعلى الأمة، وعلى الأمن والاستقرار، وعلى الأهل والأنفُس، "من رأى من أميرِه ما يكرَه فليصبر؛ فإنه من فارقَ الجماعةَ شبرًا فماتَ ماتَ ميتةً جاهليةً". متفق عليه.

إخوتي في الله: ونحن في هذه البلاد المباركة في رحاب الحرمين الشريفين، في المملكة العربية السعودية، الدينُ هو الظاهرُ، وشرعُ الله هو المحكم، أسبغَ الله علينا نعمَه ظاهرةً وباطنةً، صحةً في الأبدان، وأمنًا في الأوطان، غذاءً وكساءً ودواءً وصحةً وتعليمً، تمشي على قدمَيك وقد قُطعت أقدام، تنامُ ملء عينيك وقد أطارَ الخوفُ والهلَعُ النومَ عن أقوامٍ كثيرين، أمنٌ وافرٌ، وعافيةٌ سابغةٌ وقد نَغَّصَ الألمُ والخوفُ المشرَدين.

بلادٌ آمنةٌ مُستقرَة يفِدُ إليها الوافدون، ويرغبُ إليها الراغبون، يبذلون الغاليَ والنفيس لسُكناها والعيش فيها ابتغاءَ ظلِ أمنها الوارف، وعيشِها الكريم.

استقرار الدول ضرورة مجتمعية:

لماذا يتفكرُ الغافلون في المفقود ولا يشكُرون الموجود؟! لا بُدَ من الحفاظ على هيبَة الدولة وهيبَة الحكم وهيبَة الأنظمة.

ولا يكونُ استقرارُ الدولة وأمنُ الأمة إلا بالحفاظ على الهيبَة حفظًا للدين والدنيا، والأنفُس والأموال، والاقتصاد والإعمار، والصحة والتعليم، وكل المناطق والخدمات.

يجبُ استصحابُ حفظ الدولة، ووحدة الأمة في أي تحرُك أو نظرٍ أو تفكيرٍ أو مُطالَبةٍ، وما أجدرَ الغيورين على وحدة الأمة ومصالحها واستقرارها أن يُمسكوا عن كثيرٍ من ألوان الجدَل واللَغَط الذي تَموجُ به الساحة.

إن كثيرًا من مواطن الخلاف ينشأ من مُجانبَة الاعتدال، فيرَى المُنتقِد أنه ما دام على الحق فهذا يُسوغُ له أن يقولَ ما يشاء وأن يفعل ما يشاء ومتَى شاء وكيف شاء. وتلكم هي الغفلةُ القاتلة.

وكثيرٌ من مواطن النزاع مبدؤُها خطأٌ يسيرٌ، أو تقصيرٌ محدود، فيُغذيه الهوَى، وينفخُ فيه الغلُوُ، ناهيكم بمن يعتقِدُ التلازُم بين الغلظة على من أخطأ والحميَة على الدين. وتغليطُ الكبار لا ينبغي أن يُجاهرَ به الأغمار.

مَعاشِر الأحبَة: إن مما يُدعَى إليه طلبةُ العلم، وأهلُ الفضل والصلاح، وأصحابُ الرأي والنظر المُقتدَى بهم يُدعَون أن يكونوا قُدوةً لطُلابهم وأتباعهم في الحرص على وحدة الأمة وهيبَة الدولة؛ بل أن يكونوا قدوةً في التنازُل عن بعض حقوقهم الشخصية من أجل هذا الهدف السامي العظيم.

والمسؤوليةُ مُشتركةٌ -حكومةً وإعلامًا وشعبًا- في التعاوُن وسلوك سبيل المؤمنين، وهدي الشرع، ورعاية الأنظمة، وتحقيق العدل، والرحمة والإحسان والحزم.

وبعد -حفظكم الله-: فليُعلَم أن الناصحَ مسؤوليَتُه تقديمُ النصيحة المُخلصة والرأي النَصُوح، وصاحبُ القرار له آليَتُه في صُنعَ القرار واتخاذه.

وأهلُ العلم والرأي والناصحون تختلفُ وجهاتُ نظرهم وآراؤهم، وكلُهم مُجتهدون ناصحون مُخلصون، وصاحبُ القرار يستمعُ من الجميع، ويتفهَمُ ما يتقدَمُ به الجميع، ويتَخذُ ما يراهُ مُحققًا للمصلحة، وحافظًا للدولة، وخادمًا للأمة.

والناصحُ وذو الرأي وصاحبُ القرار كلُهم غيرُ معصُومين، وإذا علمَ الله منهم صحةَ الديانة، وصدقَ النيَة والإخلاص سدَدَهم ووفقهم وهداهُم للتي هي أقوم، وأثابَهم على خطئهم وعلى صوابهم.

فمسؤوليةُ الجميع الصدق والنصح وبذلُ الجهد قدر المستطاع، أما الصوابُ فيهدي إليه الله من يشاء، وهو يهدي من يشاءُ إلى صراط مُستقيم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » [الأنفال: ٢٤- ٢٦].

واجبات الدولة إزاء حقوق الناس وحرياتهم:

حقُ الناس مكفولٌ في التعبير، والمُطالبةُ بالحقوق وإزالةُ المنكرات والمفاسد ورفع الظُلم، وإيصالُ الحقوق إلى أهلها كلُ ذلك مكفولٌ من غير منة بضوابطه وبالطرق المشروعة والنظاميَة، وبما يحفظُ البلدَ وأمنَه وأهلَه وهيبتَه ووحدتَه، وبما يمنعُ تدخُل أهل الفُضول والأغراض والأغراب.

وعلى الدولة العناية بحفظ حقوق الناس وحُرماتهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وكرامتهم، في شفافية ورحمة وعدل وإحسان، يُحاسَبُ الكبيرُ كما يُحاسَبُ الصغيرُ، ويُجازَى الرئيسُ كما يُجازَى المرؤوس، وليس أحدٌ فوق الخطأ أو النقد أو المحاسَبة أو المساءلة، مع إصدار الأحكام العادلة بما يقتضيه نظرُ الشرع الشريف المُطهَّر. والعدلُ هو سبيلُ الأمن وقاعدتُه وبوابتُه.

وبعد: وفي أجواء هذه الوحدة المُتماسكة التي تعيشُها بلادُنا ومُقدساتُنا، والأمن الوارف، والعيش الكريم للمواطن والمُقيم والوافد، يظهرُ من يبيعُ نفسَه ضدَ أهله ووطنه، يُريد أن يُنغِصَ عليهم أمنَهم، ويُكدرَ صفاءَ عيشهم، سالكًا أحقرَ المسالك؛ ليكونَ صنيعةً وضيعةً بيدِ من يُريد بأهله وبلده شرًا.

أهكذا ترخُص المقدَسات والديار والأهلُ والعشيرةُ؟! ليمتهنَ هذا المخذولُ التجسُسَ والتلصُص على أهله وعشيرته وداره لمصلحة عدو مُتربص.

هل يُتصوَرُ مُخلِصٌ مهما كان نقدُه، ومهما كانت مطالبُه، هل يُتصوَرُ أن يمُدَ يدَه إلى يدِ عدو يُريدُ الشرَ والأذى بوطنه!!

إنهُ الدرسُ البليغُ الذي يزيدُ المُخلصين يقظةً وجدًا في رص الصُفوف والمصلحة العُليا، لحفظ الدين، والأهل، والبلاد، والمُقدَسات، ضدَ كل الأعداء والعُملاء.

ثم تبقَى سياسةُ هذه البلاد وإدراتُها على يقظتها وكفاءتها وحكمتها وحَزمها ومسارها الهادئ الرَصين، فلله الحمدُ والمنّة.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-، واعتصموا بحبل الله جميعًا، وكونُوا عبادَ الله إخوانًا، وانصَحوا وأخلصُوا لدينكم ولأنفسكم ولأوطانكم ولوُلاة أموركم.

ثم صلُوا وسلموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُكم في محكم تنزيله، فقال -وهو الصادقُ في قيله- قولاً كريمًا: « إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا » [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد الحبيب المصطفى، والنبي المُجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، واخذُل الطغاة والملاحدة وسائر أعداء الملة والدين.

اللهم آمنا في أوطاننا، اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل اللهم ولايتَنا فيمن خافك واتقاك، واتبع رضاك يا رب العالمين.



منزلة الصحابة رضي الله عنهم في الكتاب والسنة

إعداد/
فضيلة الشيخ الدكتور
أسامة بن عبدالله خياط
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله الذي أعزّ أولياءَه، وجعل لهم في قلوب الخلائق وُدًا، أحمده -سبحانه- القاهرُ فوق عباده والأعزُّ جُندًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولم يتّخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأشهد أن سيّدَنا ونبيّنا محمدًا عبدُه ورسوله أتقى الخلق طُرًا وأسخاهم يدًا، اللهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وصحبه صلاةً وسلامًا دائمَين أبدًا.

أما بعد: فاتقوا الله -عباد الله-، واعبُدوه واشكُروا له وأنيبُوا إليه، واعلموا أنكم مُلاقُوه، فأعدُّوا لهذا اليوم عُدّتَه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

من ثمرات الإيمان محبة المؤمنين:

أيها المسلمون: إن آثار الإيمان الصادق والعمل الصالح الذي يُبتغَى به وجهُه -سبحانه-، ويُقتدَى فيه بنبيّه -صلوات الله وسلامُه عليه- لتربُو على العدّ، وتجلّ عن الحصر، وإن من حُلو ثمار الإيمان وطيب غِراسه ما يجعل الله لأهله في قلوب خلقه من محبّة راسخة، ووُدّ مكين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

محبة المؤمنين دليل محبة الله:

وأعظمُ ما في هذا الوُدّ - يا عباد الله- أنه آيةٌ بيّنة على حبّ الله تعالى، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما -واللفظُ لمُسلم رحمه الله- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «إن اللهَ إذا أحبّ عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلانًا فأحِبّه»، قال: «فيُحبُّه جبريل، ثم يُنادي في السماء فيقول: إن اللهَ يحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء، ثم يُوضعُ له القبولُ في الأرض، وإذا أبغضَ عبدًا دعا جبريلَ فيقول: إني أبغِض فلانًا فأبغضه، فيُبغضه جبريل، ثم يُنادي في أهل السماء: إن اللهَ يُبغِضُ فلانًا فأبغِضُوه»، قال: «فيُبغِضُونه، ثم يُوضَع له البغضاءُ في الأرض».

ويقول التابعيُّ الجليل زيدُ بن أسلم العدويُّ -رحمه الله-: «من اتّقى اللهَ أحبّه الناسُ ولو كرهوا»، أي: أن لا تجدُ في الناس إلا مُحبًّا له، مُثنيًا عليه، مادحًا له، ولو أراد بعضُهم أن يُبغِضَه لم يستطع إلى ذلك سبيلا.

ولا عجبَ، فهذه عاقبة الإيمان والتقوى التي أورثت أهلَها منزلةَ الولاية التي بشّرهم بها ربُّهم، وأخبرَ أنهم لا يخافُون ما يستقبلون من أهوالِ يوم القيامة، ولا يحزَنون على ما تركوا خلفَهم في الحياة الدنيا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

كما بلغَ من كريم مقامِهم عند مولاهم

-سبحانه- أن جعلَ من ناصبَهم العداءَ مُحاربًا له -عز وجل-، كما جاء في الحديث الذي أخرجَه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله تعالى قال: من عادَى لي وليًا فقد آذنتُه بالحرب...». الحديث.

أي: أعملُ به ما يعملُه العَدوُّ المُحاربُ. والمقصودُ: أنه تعرّض بهذه المُعاداة لإهلاك الله إياه.

وفيه -كما قال أهل العلم-: تهديدٌ شديدٌ؛ لأن من حاربَه الله أهلكَه. وإذا ثبتَ هذا في جانب المُعاداة، ثبتَ في جانب المُوالاة أيضا؛ فمن والَى أولياء الله أكرمَه الله.

الصحابة أعظم من تجب موالاتهم:

وإن من أعظم من تجبُ محبّتُه ومُوالاتُه -يا عباد الله-، ويجبُ الحذرُ من مُعاداته: صحابةُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذين اختارَهم الله لصُحبة نبيّه -عليه الصلاة والسلام-، وجعلَهم نَقَلَة دينه، وحمَلَة كتابه، ورضيَ عنهم وأفاضَ في الثناء عليهم وتزكيتهم، فقال -عز اسمُه-: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال -سبحانه-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾. الآية [الفتح: ٢٩]، وقال -عز وجل-: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

آداب التعامل مع الصحابة الكرام:

نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن سبِّ أحدٍ منهم، مُبيّنًا أنه لا يبلغُ أحدٌ من المُسلمين مبلغَهم في المنزلة والفضل ولو أنفقَ ما أنفقَ من ماله، فقال -عليه الصلاة والسلام-: «لا تسبُّوا أصحابي؛ فلو أن أحدَكم أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهبًا ما بلغَ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه». أخرجه الشيخان في صحيحيهما.

وفي الصحيحين أيضًا من حديث عمران بن حُصين -رضي الله عنه- أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلُونَهم، ثم الذين يلُونَهم». قال عمران: فلا أدري أذكَر بعد قرنِه قرنَيْن أم ثلاثة.

وأخرج الشيخان عن أبي سعيد الخُدري -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «يأتي على الناس زمانٌ فيغزُو فئامٌ من الناس، فيقولون: هل فيكم من صاحبَ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-؟! فيقولون: نعم، فيُفتحُ لهم. ثم يأتي على الناس زمانٌ فيغزُو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحبَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فيقولون: نعم، فيُفتَحُ لهم. ثم يأتي على الناس زمانٌ فيغزُو فئامٌ من الناس، فيقال: هل فيكم من صاحبَ من صاحبَ أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟! فيقولون: نعم، فيُفتَحُ لهم».

وبيّن رسولُ الهُدى -صلوات الله وسلامه عليه- أن حُبَّ الأنصار من علامة الإيمان الصادق، وأن بُغضَهم من علامات النفاق، فقال -صلوات الله وسلامه عليه-: «آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بُغضُ الأنصار». أخرجه الشيخان في صحيحيهما.



ومن ثَمّ كانت هذه النصوصُ الصحيحة الصريحة مُستنَد أهل الحقّ في موقفهم من صحابة خير الورَى -صلوات الله وسلامه عليه-، فقال الإمام الطحاويُّ -رحمه الله-: «ونحبُّ أصحابَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا نُفرط في حبِّ أحد منهم، ولا نتبرّأ من أحد منهم، ونُبغض من يُبغضهم وبغير الحقّ يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبُّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبُغضهم كفرٌ ونفاق وطغيان».

وإنما كان حبُّهم دينًا وإيمانًا وإحسانًا -يا عباد الله-؛ لأنه امتثالٌ لأمر الله وأمر رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ولأنهم نصَروا دينَ الله، وجاهَدوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبذَلوا في ذلك الدماءَ والأموالَ والأرواحَ؛ فكان لهم على الأمة في أعقاب الزمن -مع كمال المحبّة لهم- دوامُ العناية بسِيَرهم، للإسفار عن وجه جمالها وجلالها، وما حفلت به من مناحي السمُوّ والشرَف والرِّفعة، ومعالم الأُسوة والقُدوة.

والإمساك عن الخوض فيما شجَرَ بينهم، والكفّ عن الحديث عما وقعَ بينهم، واعتقادُ أنهم مُجتهدون مأجورون في كل ذلك، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجزاهم عن الإسلام وأهله خيرَ ما يجزي عبادَه الأبرارَ المتقين الأخيار.

وجوب الاستنان بسننهم ومعرفة فضائلهم:

فيا عباد الله: جاء عن الصحابيّ الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قوله: «من كان منكم مُستنًّا فليستنّ بمن قد ماتَ؛ فإن الحيّ لا تُؤمنُ عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد -صلى الله عليه وسلم-، كانوا أفضلَ هذه الأمة، وأبرّها قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلّها تكلُّفًا، قومٌ اختارَهم الله لصُحبة نبيّه وإقامَة دينه، فاعرفوا لهم فضلَهم، واتّبعوهم في آثارهم، وتمسّكوا بما استطعتُم من أخلاقهم ودينهم؛ فإنهم كانوا على الهُدى المُستقيم».

وجاء عنه -رضي الله عنه- أيضًا قولُه: «إن اللهَ تعالى نظرَ في قلوب العباد، فوجدَ قلبَ محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- خيرَ قلوب العباد، فاصطفاهُ لنفسه، وابتعثَه برسالته، ثم نظرَ في قلوب العباد بعد قلب محمد -صلى الله عليه وسلم-، فوجدَ قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعلهم وُزراءَ نبيّه، يُقاتلون على دينه».

فاتقوا الله -عباد الله-، واعرفوا لهؤلاء الصحب الكرام حقّهم وفضلَهم وسابقتهم، فلمُقام أحدهم ساعةً مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كما يقول حبرُ الأمة عبد الله بن العباس -رضي الله عنهما-: «لمُقامُ أحدهم ساعة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- خيرٌ من عمل أحدكم أربعين سنة». وفي رواية: «خيرٌ من عبادة أحدكم عُمُره».

واذكروا على الدوام أن الله تعالى قد أمركم بالصلاة والسلام على خير الورَى، فقال -جل وعلا-: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن خُلفائه الأربعة: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وعن سائر الآل والصحابة والتابعين، ومَن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنّا معهم بعفوك وكرمك وإحسانك يا خيرَ من تجاوزَ وعفا.

اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، واحمِ حوزةَ الدين، ودمّر أعداء الدين، وسائرَ الطغاة والمُفسدين، وألِّف بين قلوب المسلمين، ووحِّد صفوفهم، وأصلح قادتهم، واجمع كلمتَهم على الحق يا رب العالمين.

منبر الحرمين



النزاهة والرشوة وأثرهما على الأمم والشعوب

الشيخ الدكتور:
عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس
إعداد/
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

إن الحمد لله، نحمدُك ربّنا ونستعينُك ونستغفرُك ونتوبُ إليك، ونُثني عليك الخيرَ كلّه، سبحانك وبحمدك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أولى النُّزَهاءَ سموًّا ورفعةً وإحسانًا، وأعقبَ المتخوّضين في زهرة الدنيا سُوءًا وخُسرانًا، وأشهد أن نبيّنا وسيدَنا محمدًا عبدُ الله ورسوله من دامَ بالطُّهر مُصانًا وبالنقاء مُزدانًا، اللهم فصلِّ عليه وعلى آله الطيبين خِلالاً، الزّاكين جلالاً، وصحبه الأُلَى نشروا النزاهة في العالمين أفنانًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، وسلّم تسليمًا مُباركًا مُؤَرّجًا ريّانًا.

أما بعد: فيا عباد الله: من رامَ بلوغ الذُّرَى، والفوزَ بين الورَى، والعزّ والسموّ بلا مِرَا؛ فليستمسك من التقوى بأوثقِ العُرى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

النزاهة والشفافية وقيمتها في المجتمع:

أيها المسلمون: في هذا الزمان المُضطرم بتباريح الماديات، الزخّار بمَشوب المقاصد والنيّات، المُشتغل بصُنوف المبادئ والخِلال، والمناقب والخصال، تأتلقُ بين ذيّاك الاحتدام قيمةٌ عزيزةٌ كريمةٌ، أناخت في نبيل النفوس ركائبها، فحازت بالصدق منها شريفَ مآربها، قيمةٌ أشرقت بالصّفاء والجمال، والطُّهر الأخّاذ المُنثال، فغدَت في العالمين كتبر الأمثال، وما أمر بها الكتابُ العظيمُ والسنّة إلا لأنها النورُ الهادي في الدُّجُنّة.

تلكم هي قيمةُ الشفافية والنّزاهة، وما أدراكم ما النّزاهة؟! إنها صفةٌ وخُلّة؛ بل تاجُ وحُلّة، جمعَت من الخير أكملَه، ومن العفاف أجملَه، ومن المروءة أرفعَها، ومن شِيَم النُّبْل أنفعَها. ومن براهين النّزاهة ودلالاتها، وعظيم حُجَجها وآياتها: قولُ الحق -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ

مُّبِينٌ) [البقرة: ١٦٨]، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ) [البقرة: ١٧٢].

ويقول -عليه الصلاة والسلام- فيما أخرجه البخاري: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكنّ الغنى غِنى النفس»، ويقول - صلى الله عليه وسلم -: «دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك»، ويقول -عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم- كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: «ومن يستعفف يُعِفّه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله».

الله أكبر! إنها السّجايا العذاب، كالسّحر المُذاب. الله أكبر! إنه البيانُ المُوجزُ الباهرُ، السنيُّ الطاهر لمعالم الشفافية والنّزاهة، وملامح العفاف والنّباهة.

فيا لله! ما أكرمَها من شيمة محمودة، وخَصلة أليتُها بالفوز معقودة، لا تظهر إلا من نَدبٍ شهم كريم، ذي قلب رؤوم سليم.

يقول الإمام الماوَرديُّ -رحمه الله-: «العفّةُ والنّزاهةُ والصيانةُ من شروط المُروءة والدّيانة».

تفشي الرشوة في الأمة:

أيها الأحبة الأكارم: ويُقابلُ النّزاهةَ ويُضادُّها: فَعلةٌ وبيلةٌ رديئةٌ، وخَصلةٌ شنيعةٌ قميئة، ما أمَرّ أمرَها، وأضرّ درّها، ما تفشّت في أمة إلا أذنت بهلاكها، وأوقعَتها في الورَطات وأشراكها، إنها «الرّشوة» -يا عباد الله-. بُرهانُ دناءة النفس ولُؤم الطّباع، وحيلةُ المكر والخداع، وهي من كبائر الذّنوب بالإجماع.

الرّشوة خيانة للأمة، وبلاءٌ على المجتمع، هي فخُّ الشهامة، وشباكُ المروءة، وشراكُ الأمانة وقلّة الديانة، تُصيبُ مصالحَ الأمة بالإرباك والفشل، ومشروعاتها بالعثار والشلل، وجهودَ المُخلصين بالفُتور والخَور، وأعمالَهم بالجحود والضّرر.

فكم من مظالمَ انتُهكت، وحُقوق ضُيّعَت بسببها؟! وكم فقدت ثروات، وهُدّمَت أُسرٌ وبُيوتات، وأُهدرَت كفاءات، وضُيّعَت طاقات من جرّائها وأهلِها -لا كثّرهم الله-، وهو -سبحانه- حسبُنا وحسيبُهم، (فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ) [البقرة: ٧٩].

يقول تعالى: (وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ) [البقرة: ١٨٨].

يقول الإمام القرطبي -رحمه الله-: «أي: لا تجمَعوا بين أكل المال بالباطل وبين الإدلاء إلى الحكّام بالحُجَج الباطلة».

زجر الشريعة عن الرشوة وأكل مالها:

وفي زجرٍ آخر شنيع، ووصف للرّاشين مُريع، يقول -عزّ اسمُه-: (وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) [المائدة: ٦٢].

فحرّم -جل شأنُه- سُحتَ الأموال، وأوجبَ على مُنتهكها بئسَ العقوبة والنّكال.

فكم من أقوامٍ -وا أسفاه- عفّروا وجوهَهم بالرّشوة في الرّغام، وارتكَسُوا بجمرةٍ من الحرام، من الذّروة والسّنام؟!

وحسبُكم منها تخويفًا وتهديدًا، وتهويلاً لجرمها ووعيدًا: ما رواه عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: «لعنَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم - الرّاشيَ والمرتشي». أخرجه الترمذي وصحّحه. وزاد ابن حبان والحاكم بسند صحيح: «والرّائش». وهو الذي يسعى بينهما يستزيدُ وينقُص.

واستحقّ الثلاثةُ اللّعنَ والإبعادَ؛ لأنهم أتَوا فسادًا وأيّ فساد، فأيُّ خيرٍ يُرجَى من هؤلاء للبلاد والعباد؟!

إن لواءَ الحَرْي والمفاسد
وما يدُكّ معقلَ الأماجد
في الرّشوة المأفونة المطرود
صاحبُها من رحمة المعبُود

أثر الرشوة وتفشّيها في المجتمع:

لأن الرّشوة -يا عباد الله- تجعل الباطلَ هو الأحقّ، والحقّ مرامَه لا شك، بها تروجُ سوقُ الفساد، ومسالكُ الباطل، وأساليبُ السُحت، وتستمرئُ الأمةُ أبوابَ الحرام، وطرقَ الإجرام، والجرأةَ على الآثام، فتُشتّتُ كل مجموع،

وتُكدِّرُ كل يَنبوع، وتُزهِقُ كلّ مشروع، وتُبيحُ كلّ ممنوع، وتعتاق كل إبداع يلوحُ، وتغتال كل نبوغ وطموح، مُروّجة بعبارات خلابة، ومعاني مُموّهة كذابة: هدية تارة، ومُكافأة أخرى، وإكراميّة وتشجيعًا، وتقديرًا للجُهد تارة أخرى.

ولكنّ الرّشوة رشوة، وإن زُخرفت مناظرها، وتلوّنت مظاهرها، واختلفت أسماؤها، وتعدّدت مُسمّياتها.

عن أبي حُميد الساعديّ -رضي الله عنه- قال: استعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من الأزْد يُقال له (ابنُ اللُّتبيّة) على صدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أُهديَ إليّ. فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فصعدَ المنبرَ، فحمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما بالُ العامل نبعثُه فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا أُهديَ إليّ، أفلا جلسَ في بيت أبيه وأُمّه فينظر هل يُهدَى إليه أم لا؟! والذي نفسي بيده؛ لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحملُه على رقبته...». الحديث. أخرجه البخاري في صحيحه.

انتشار الرشوة في المجتمع:

أمة الإسلام: وقد عمّ هذا البلاءُ واستشرَى لدَى فئام من الناس في أعقاب الزمن، الذين شُوِّهَ منهُم الباطن دون العلَن، فلم يرقبُوا في المؤمنين إلاً ولا ذمّة، ولم يجلوا من أحكام الشريعة وما تقتضيه النزاهَةُ وعلوُّ الهمّة، فدنّسُوا ذواتَهم وأقواتَهم بخبيث الرّشوة والمهانة، والسُحْت والخيانة، وظنّوا أن قد أخصبَ مرعاهم وتحقّق مُناهم، ولكن أنّى وهيهات؟! فلهم الخزيُ في الدنيا، وإن لم يتوبوا فالنارُ مثواهم -عياذا بالله-.

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «من شفعَ لأخيه بشفاعة فأهدَى له هديّة عليها فقبلَها فقد أتَى بابًا عظيمًا من أبواب الرّبا».

فسُبحان الله -عباد الله-، وعجبًا -إخوتي في الله-؛ رشوةٌ في الوظائف والترقيات، ورشوةٌ في المُؤهّلات والشهادات، ورشوةٌ في المعاملات والمقاولات والمناقصات، والإخلال بالعقود والمُواصَفات، رشوةٌ لتمزيق الصفّ الجميع، رشوةٌ في الإعمار والمشاريع.

بل غدَا هذا المنكرُ الشنيعُ عند ضعاف النفوس أمرًا واجبًا، وحتمًا لازبًا، وتلك الفواقرُ والجنايات مُنذرة بفناء قيَميّ ذريع، يُرعبُ المجتمعات ويُهدّدُها، ويفتكُ بمواردها ويُبدّدُها؛ إذ الأمجادُ والحضاراتُ لا تُبنَى إلا على دعائم القيَم المُثلَى والمُثُل العُليا.

وحينما تُبتلَى الأمم بالأمراض المعنويّة والأدواء الاجتماعيّة يضعُفُ شأنُها وتُقوّض دعائمُها، وإن من شرّ ما تُصابُ به المجتمعات أن يخوضَ فئامٌ من ذوي المسؤوليات في أموال الأمة العامة بغير حق، وأن تُعطّل الحقوق وتتعثّر المشروعات تطلّعًا إلى ابتزاز الجُيوب دون عناء أو لُغوب.

فيا مَن رشوتَ بشرر السّعير لتنالَ العرَضَ الحقير! لقد أتيتَ على دينك بالتّتبير. ويا مَن ارتشيتَ: لقد بُؤتَ بالخسران والثبور، بفعلٍ لئيم وعملٍ يبُور.

لا يُلفِيَنّكَ ذو الجلال مُحاولاً
تبيينَ مطموسٍ وطمسَ مُبينِ
ماذا تقولُ إذا سُئلتَ مُحاسَبًا
والمُرتشُون على شفا سِجّينِ

عوامل انتشار الرشوة في المجتمع:

إخوة الإيمان: ومن أهم عوامل الإيغال في هذا السُلوك السّخيف: تنصُّل فئام في الأمة عن مسؤولية النّزاهة والإرشاد، والتولّي عن شرف الزّجر عن مُستنقعات الارتشاء والفساد، والمداهنَة فيها دون تمعّر ونُكران؛ بل لربّما رُمق المُفسد بعين مكحولة بتبسُّم واستحسان، ووُصف بكياسة ودهاء واستِرهان. فاللّهُ المستعان.

فحقيقٌ بذوي الحزم والنّزاهة الأعلام الأخذُ على أيدي المرتشين الفدام، ومن يقومون بإهدار المال العام، واستغلال المناصب والوظائف الرسمية في المصالح الذاتية، والمكاسب الشخصية.

فما شُرعت الزواجر ووُضعَت النُظُم إلا لتحقيق أعلى المقاصد، ودفع الشرور والمفاسد،

وأطر كل من هو كاسد، (وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) [القصص: ٧٧]، (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ) [يونس: ٨١]، (وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) [البقرة: ٢٠٥].

لا تلطفنّ على الرّاشي فتطريه
واغلظ له يأت مطواعًا ومعوانًا
إن الحديدَ تُريدُ النارُ قسوتَه
ولو صببتَ عليه البحرَ ما لانَا

سبل تعزيز النزاهة ونشرها في المجتمع:

أمة الإسلام: وهذا الواقعُ الأليمُ المُثخَن بالمثالب والمزالِ ليستصرخُ المجتمعات جمعاء لتعزيز قيَم الشفافية والمُراقبَة والنّزاهة والمحاسَبة، وتحصين الأمة بوازع الدين، وقوة اليقين، والخوف من الجليل ذي القوة المتين، وأن تتآلف الجهود وتتوارَد الأمم على تمزيق مفاسد الرُّشى ودحضها، ونبذها ورحضها، وبذلك تزكو الأمم وتسُود، وتُحقّقُ أسمَى الأماني والقصود، وتبلغُ مجدَها المعقود -بإذن الله الواحد المعبود-.

تلك الرجاءات والآمال، ومن الله نستلهمُ صالحَ الأقوال والأعمال، وبلوغَ الفلاح في الحال والمآل، وما ذلك على الله بعزيز المنال، فهو -سبحانه- وليُّ الفضل والنوال.

إخوة الإيمان: وملاك تعزيز النّزاهة ودرء الفساد: إحقاقُ الحقّ الخفيّ والجليّ، والتمسُّك بالعفاف السَّنِيّ، الذي هو قوّة الأمين وأمانةُ القويّ، وأن تُربّى الأمة كافّةً على أكرم الأخلاق والسّجايا، وأنبَل الخلال والمزايا، وأن يتنزّه ذوو المسؤوليات والأمانات عما وضح من شبهات المال وكمَن، ويخفُوا لقضاء مُعاملات المُراجعين دون تلاعُب بالمواعيد، أو تلكُؤ أو تعقيد، أو تسويف أو مَنّ، أو تعثير في المشاريع بكل عُذر شنيع، يعود بالضّرر على الجميع، أو استشراف لاسترشاء، أو رُنُوّ لاستهداء.

وحينئذٍ يا بُشرى للمُوظّف الضّمين، والمسئول الأمين الذي اتّخذ النّزاهة شعارَه، والأمانة دثارَه، وإحقاقَ الحقوق بدارَه، وسمَا عن دَنيء الأعراض، وسفاسفَ الأغراض، وجدّ وسعَى في نزاهة رُوحه ونفسه، ونظافة يده ومسّه، وشفافية مشاعره وحِسّه، واعتبَرَ بغده وأمسه، وتزوّد بخير الزاد لسُؤال رمْته؛ فكان بذلك في مُجتمعه أوسع إصلاحًا، وأسرع نجاحًا.

وفي مأثور الحِكَم: «من استشرفَ اللُّهَا وهَى قدرُه، ومن لزمَ النّزاهةَ زها بدرُه».

هذا؛ وإنا لنَحمدُ الله -عز وجل- في هذه البلاد المُبارَكة أن خُصّت للنّزاهة ومُكافحة الفساد الهيئات والمؤسّسات، وجُسّدت أجهزةُ الرّقابة والمسؤوليات بذوي الكفاءة والقدرات، وعُزّزت النّزاهةُ بخيرَة أماثل أماجد أفاضل.

فواجبُ الجميع أفرادًا ومُؤسّسات: التعاوُن معهم في تعزيز قيَم النّزاهة، ومُكافحة جميع ألوان وضُروب الفساد؛ لنبلغ بالمُجتمع مراقيَ الفلاح والرّشاد.

ألا وصلّوا وسلّموا -رحمكم الله- على سيد المُرسَلين والأنبياء، وقدوة الأتقياء الأنقياء، وأُسوة النُّزهاء الأصفياء، كما أمرَكم المولَى -جل وعلا-، فقال تعالَى قولاً كريمًا: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦]، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «من صلّى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشرًا».

اللهم ارضَ عن الخُلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، الذين قضَوا بالحق وبه كانوا يعدلون، ذوي الشرف الجليّ والقدر العليّ: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعَلي، وعن سائر الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنّا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، وأذلّ الشرك والمشركين، ودمّر أعداءَ الدين، واجعل هذا البلدَ آمنًا مُطمئنًا، وسائرَ بلاد المسلمين.

منبر الحرمين

معالم الهدى في أجواء الفتن

الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حميد
إعداد/
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة



الحمد لله، الحمد لله المُتفرِّد بكمال القدرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبدُه ورسوله.

فاتقوا الله -رحمكم الله-، واسمعوا وأطيعوا؛ فطُوبى لمن سمع فوعَى، ثم طُوبَى لمن تذكَّر لحدَه يوم يُوضَع فيه وحده، يوم يُنفَخ في الصور، ووُضِع الكتاب، وتقطَّعت الأسباب، فشخَصَت الأبصار؛ فإما إلى جنة وإما إلى النار، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

من فضل الله على الأمة توحيد مصدر التلقي:

أيها المسلمون: إن من منة الله على أهل الإسلام: أن وحَّد لهم مصدرَ التلقي، فلا تذبذُب ولا اضطراب في تلقِّي حقائق العقائد والأحكام وسُبل الهدى، المصدر: هو الوحي المعصوم الثابت من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وما صحَّ من سنة رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، يُؤمِن أهل الإسلام بكل ما ثبتَ به اللفظ وصحَّ به الخبر فيما هو شاهد وفيما هو غائب، ما عقَلناه وما جهلناه، ما أحطنا بحقائقه وما لم نُحط، ومن طلبَ الحق في أمور الدين من الأحكام والعقائد والهُدى من غير هذا المصدر فقد ضلَّ سواء السبيل.

ومن ظنَّ أنه يعتمِد على فهمه في هذه النصوص والأخبار دون النظر في فهم السلف الصالحين وأهل العلم الأثبات الراسخين، وأن فهمَه مُقدَّمٌ على فهومهم فقد سلكَ المسالكَ المعوجَّة.

حجب حقائق الغيب عن العباد:

يُقال ذلك -أيها المسلمون- ويُقرَّر حين يكون الحديثُ عن الفتن وتبيُّنها وأخبار الملاحم وأنباء الحوادث الكُبرى، أخبارٌ وأنباءٌ تتعلَّق النفوس بها وتبحث عن تأويلها وأوقات حُدوثها ومواعيد وقوعها، ومما يستدعِي الإيضاحَ والبيان: أن من قواعد البشر التعلق بالغيبيات والتشوُّف لاستشراف المستقبل والتتبُّع لمعرفة أنباء مخبوء الغيب؛ من تأويل النوازل، وتفسير الأحداث، وأعمار الدول، وفناء الأمم؛ بل تراهم يتعلَّقون بالرُّؤى والمنامات وأنباء الغيب، حتى إنهم ليلجؤون إلى الكهَّان والمُنجِّمين والمُشعوذين والمُعبِّرين وأضرابهم بُغية استكشاف ما وراء

الحُجُب؛ ذلك أن العلة بما سيكون والتطلُّع لحوادث المستقبل أمرٌ تنجذب إليه النفوس؛ فهو حلوُ المذاق، عذبُ الطعم، وفي مقدمة ذلك: أحاديث الفتن والملاحم وأخبار آخر الزمان، تتشوّق لها نفوسهم، وتتشوَّف لها رغباتُهم، وتمتدُّ إلى سماع أخبارها أعناقُهم.

غير أن الله سبحانه طوَى عن الخلق حقائق الغيب، وضربَ دونه الأسداد، وحجَبَه عن أكثر العباد، وفتحَ لهم بابًا يكون لهم فيه نفعُهم في أمور دينهم ودنياهم، لا يدخل عليهم ضرر، ولا يشغلهم عن مهماتهم ووظائفهم.

من معالم الهدى في أجواء الفتن:

أيها المسلمون: وهذا بيانٌ لمعالم هُدى يتبيَّنها المسلم وهو ينظر في أحاديث الفتن ويستمعُ إليها ويقرأ عنها؛ فمن معالم الهُدى: أن نبينا محمدًا -صلى الله عليه وآله وسلم- يُخبرنا عن حلول الفتن واضطراب الأحوال وأنباء الهَرْجَ والمَرج وحوادث آخر الزمان وأشراط الساعة، فليس من «أل» التخويف والإنذار وحده، ولا لمجرد الإخبار باقتراب الزمان وتغيُّر الناس وحُلول الهَرْج والمَرْج؛ بل لأجل الاشتغال بالعمل وبذل مزيدٍ من الصالحات.

ألم تروا إلى نبيكم محمد -صلى الله عليه وسلم- حين سُئل عن الساعة، فقال للسائل: «ماذا أعددتَ لها؟!»، وفي لفظ: «ويلكَ؛ ما أعددتَ لها؟!».

فتأمَّلوا هذا التوجيهَ النبوي من المعلِّم الهادي -صلى الله عليه وسلم-، فقد صرفَ السائلَ إلى ما يعنيه ويُفيده.

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: «والحكمةُ من هذه الأحاديث والأنباء إيقاظُ الغافلين، والحثُّ على التوبة، والاستعداد؛ فهذه الأخبار مواعظُ تزجُر القلوب لتُقبل على علاَّم الغيوب -جل وعلا-».

فالعبدُ الحازمُ المؤمنُ من إذا سمع ما صحَّ من هذه الأخبار قادَه ذلك إلى العمل والحزم والاستعداد.

والخُسران والدَّمار لمن أعرضَ واشتغل بالتأويلات والتخييلات الصارفة، فهي أخبارٌ وأنباءٌ لزيادة الإيمان وإقامة الحجَّة ومزيد العمل والعبادة.

وتأمَّلوا هذا التوجيهَ النبوي في قوله -عليه الصلاة والسلام- وهو يذكر الفتن: «فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبرُ فيهن مثلُ قبضٍ على الجمر، للعامل فيهن مثلُ أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم». قالوا: يا رسول الله: أجر خمسين منهم؟! قال: «أجر خمسين منكم». أخرجه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، والطبراني في الكبير والأوسط من حديث أبي ثعلبَة الخُشنيِّ -رضي الله عنه-.

وفي حديث معقِل بن يسار -رضي الله عنه- في صحيح مسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «العبادة في الهَرْج كهجرةٍ إليَّ».

قال أهل العلم: «أي: العبادة في وقت اختلاف الناس واشتغالهم»، قالوا: «وعظُم الفضل لأن الناس يغفلونَ عنها ويشتغِلون بها، ولا يتفرَّغ إلا من رحِم الله وعصَم».

وتأمَّل ما تفعلهُ وسائلُ الإعلام في صرف الناس وإنشغالهم بمُتابعتها ليلاً ونهارًا، يشغَل بها المبتَلى نفسَه وفكرَه وأصحابه في تحليلات وتعليلات وتخييلات وهو ليس فيها من قبيلٍ ولا دبير؛ هل هذا خير أم انصراف المرء إلى الإحسان في عَمله ومسؤولياته المُؤتَمن عليها والمسؤولِ عنها والمُحاسَب عليها.

شغلَ نفسَه بقراءة الصحف وسماع المذياع ومُشاهَدة القنوات ومُتابعة المواقع، ومن انشغلَ بما لا يعنيه انصرف عما يعنيه.

ولعلَّ المُتأمِّل يُدرك لماذا شبَّه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- العبادَة بالهجرة؟!

قال أهل العلم: «لأن الهجرة فرارٌ بالدين من المكان المَخوف المُضطرب إلى المكان الآمِن الذي يُقيم فيه المسلمُ دينَه».

والعبادةُ في أزمان الفتن فرارٌ من هذه الموجات، فرارٌ إيجابي وليس انهزامًا وسلبية؛ بل هو البناءُ والعمل، اشتغالٌ بالعمل الصالح والعبادة والإصلاح ونُصرة الدين وجمع الكلمة والتحذير من الفُرقة، في أبواب من عمل الخير وأنواع من العبادات الواسعة مفتوحة؛ من صلوات، وصَدقات، وصيام، وحجٍّ، وعمرة، وزيارة، وإحسانٍ في المعاملات، وصدقٍ في العلاقات، وصفاءٍ في القلوب، وحبٍّ في الخير، والنُصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من كل ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، من أعمال مالية وبدنية وقولية وقلبية، وما فتحَ الله من أنواع الأعمال والطاعات، ولكل عملٍ بابٌ من أبواب الجنة.

فشمِّر الصالحون المُوفَّقون عن ساعد الجدِّ، وتلمَّسوا أبوابَ الخير والنجاة والثبات، واتقَوا الفتن، واجتنَبوا أبوابَ الشر، «وإذا قامَت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها».

أيها المسلمون: ومن معالم الهُدى في أوقات الفتن وسماع أخبار الملاحم: التأني في الفهم والتأويل، والتأني في تنزيل الأخبار على الوقائع والأحداث، يقول عبد الله: «إنها ستكون هنَاتٌ وأمورٌ مُشتبهات؛ فعليك بالتُّؤدة، فلأن تكون تابعًا في الخير خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر».

فالعاقل الزاكي من يُدرك الأمور بعقله وبصيرته، والجاهل يندفعُ بعاطفته وغفلته، العاقل المتثبِّت يلزمُ الهدوء والسكينة والاعتدال، ويجتنبُ العجلة والخفة، لا يقنط عند المصيبة، ولا يضطربُ عند النازلة، ولا يتعدَّى حدود الشر ولا سيما ذوو الرأي والرِّيادة ومن هم في مقام الرئاسات والتوجيه وذوي الشأن.

ولقد قال الحبيبُ المُصطفى -صلى الله عليه وآله وسلم- لأصحابه -وقد سمعوا اضطرابًا في المدينة-: «لن تُراعوا».

وتأمَّلوا ثبات أبي بكر -رضي الله عنه- عند موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهل هناك مُصابٌ جلَلٌ أعظمُ منه؟! لقد جمع الله لأبي بكر -رضي الله عنه- الصبرَ والثباتَ واليقينَ، يقول أنس -رضي الله عنه-: «خطبَنا أبو بكر -رضي الله عنه- وكنا كالثعالب، فما زال يُشجِّعُنا حتى صِرنا كالأسود»، ثم كان من أبي بكر ما كان؛ من بعثِ جيش أسامة، وحروب الرِّدَّة ومانعي الزكاة، فثبَّتَ الله به الدين والأصحابَ، وقوَّى العزائم، وحفظَ الإسلام.

ومن التثبُّت: التروِّي وعدم التعجُّل في إعطاء الرأي أو إبداء الحكم أو التفسير؛ بل قد لا يلزمُ إبداء الرأي ولا التكلم في كل نازلة، فما كل رأي يُجهَر به، ولا كل ما يُعلَم يُقال، ولا كل ما يصلح للقول يُقال عند كل أحد.

وقد قال بعض الحكماء: «إن لابتداء الكلام فتنةً تروق، وجدَّةً تُعجب، ومن سكت لا يكاد يندَم، ومن تكلَّم لا يكاد يسلَم، والعجل يقول قبل أن يعلَم، ويُجيبُ قبل أن يفهَم، ويعزم قبل أن يُفكِّر، ويمضي قبل أن يعزم، وخَميرُ الرأي خيرٌ من فطيره، والخطأُ زادُ العَجول، ورُبَّ رجل واسع العلم بحرٍ لا يُزاحَم، لكنه قصير النظر، يُؤتَى من جُرأته وتسرُّعه وقلَّة أناته وتدبُّره».

ومن معالم الهدى -يا عبد الله-: إن كنتَ ممن لم يتبيَّن له موقفٌ واضحٌ من تلقاء نفسه، أو من توجيه علماء خُبراء ثقات؛ فلتعتزل الخوضَ في ذلك والاشتغال به، ولتلتفت إلى خاصَّة نفسك، وفي مثل ذلك جاء الحديث الصحيح في سنن أبي داود عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن بين أيديكم فتنًا كقطع الليل المُظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي». قالوا: فما تأمرنا؟! قال: «كونوا أحلاسَ بيوتكم».

وفي خبر آخر في سنن الترمذي: «أمسِك عليك لسانَك، وليسَعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتك».

وعند أبي داود أيضًا: «إن السعيدَ لمن جُنِّب الفتن، إن السعيدَ لمن جُنِّب الفتن، إن السعيدَ لمن جُنِّب الفتن، ولمن ابتُلي فصبَر».

ومن أظهر مظاهر الاعتزال: كفُّ اللسان؛ فقد أخرج ابن ماجه في سننه عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «تكون فتنة تستنظف العرب -أي: تقتلهم-، قتلاها في النار، اللسانُ فيها أشدُّ من وَقع السيف».

وكم للإعلام في ذلك بوسائله من ضحايا وهَلْكى وقتلى؟!

وفي هذه الأجواء والظروف جاء توجيه الشرع الحكيم بأن يأخذ الإنسان ما يعرف ويترك ما يُنكِر؛ ففي صحيح البخاري -رحمه الله- عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال: شبَّك النبي -صلى الله عليه وسلم- أصابعَه وقال: «يا عبد الله بن عمرو: كيف بك إذا بقيتَ في حُثالة الناس؟!». قلتُ: يا رسول الله: كيف ذلك؟! قال: «إذا مرَجَت عهودهم وأماناتُهم، وكانوا هكذا»، وشبَّك يونس أصابعَه. قلتُ: ما أصنع عند ذلك يا رسول الله؟! قال: «اتق الله -عز وجل-، وخذ ما تعرف ودع ما تُنكِر، وعليك بخاصَّتك، وإياك وعوامَّهم».

معاشر المسلمين: ومن معالم الهُدى: أن لا تُربَط كل حادثة كبرى أو نازلة عامة أو واقعة غريبة بنصٍّ شرعيٍّ أو خبرٍ سمعيٍّ، فقد تحصُل الواقعة وتنزل النازلة ولا يُقابلُها نص، وقد يرد النصُّ ولم يقع تأويله بعدُ، وقد حدثت في تاريخ الأمة الطويل أحداثٌ جِسام وواقعاتٌ عِظام لم يتكلَّف السلف مُقابلتها بالنصوص؛ فقد ضربَ الحجَّاجُ الكعبةَ بالمنجنيق، وأخذ القرامطةُ الحجرَ الأسود، وجرَت حروبُ التتار، والحروب الصليبية، واحترقَ المسجدُ الأقصى، فلا ينبغي تكلُّف البحث والتعسُّف في التأويل والانشغال بالتفسير، وإنما المطلوب العمل، والأخذ بالأسباب، ومُدافعة الأقدار بالأقدار، وحفظ الدين وحماية أهل الإسلام، وأخذ الحيطة والحذر: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

ومن معالم الهُدى -يا عباد الله- الثقةُ بأهل العلم وتقديرُهم، والعلمُ بأن براءة الذمَّة وسلامة الدين تحصُل بالرجوع إليهم وسؤالهم؛ فيجبُ توقيرُهم وحفظُ حقوقهم وتجنُّب الانتقاص من أقدارهم،

أو الحطّ من منازلهم ومقاماتهم وإن كانوا غيرَ معصومين.

وحينما حذّر معاذٌ -رضي الله عنه- من زيغة الحكيم قال: «ولا يَثنينّك ذلك عنه؛ فلعله أن يرجع، وتلقّ الحقّ إذا سمعتَه؛ فإن على الحق نورًا».

ومما يحفظ حقّهم: البُعد عن مجالس الجدال ومجالس الوقيعة، وبخاصة في أوقات الفتن التي يكثُر فيها القيل والقال.

وأيُّ فتنة أشد حين ينتقصُ الناسُ من علمائهم والراسخين منهم والربانيين ليُعجَب كل ذي رأي برأيه، فيُشمِّر عن ساعده، ويحسُر عن ساقه ليقول: ها أنذا، لا يلتفتُ بعضُهم إلى بعض، ولا يرى بعضُهم لبعض حقًا ولا منزلة ولا علمًا ولا رأيًا، يتقدَّمُ الأصاغرُ على الأكابر، كلهم يزعُم أنه المتكلم في مصالح الأمة، وأنه الذي يفهمُ واقعَها، وكلهم يرى أنه الأحقّ ليقود السفينة.

ناهيكم بالمتعجِّلين المتكلِّفين ممن لا يُراعي ما يرعاه القوم من الأصول وضبط القواعد وشدّ المعاقد؛ فهذا الغافل في شأن وأهل العلم الأثبات في شأن، وقد جعل الله لكل قوم قدرًا، فالحذر الحذر من مُناكفة أهل العلم والحكمة، فأيُّ خُذلان أن لا يعرف المرءُ مقدارَ أهل العلم وعُمق علومهم وقلةَ تكلفهم ونورَ بصائرهم، وكل ذلك يحتاجُ إلى مُراوضة وإلى تمسُّك بأدب الإنصاف؛ لتكون الرحمة والإصلاح وحُسن التقويم وتزكية النفوس واحترامُ العقول.

وبعدُ -حفظكم الله ورحمكم-: فإن حقيقة الفتنة: كل ما يكشفُه الابتلاء والامتحان، ويتبيَّن به حالُ المسلم؛ من خير أو شرٍّ أو خوف أو أمن أو ثبات أو اضطراب، وهذه الفتن تنشأ من فهمٍ فاسد أو نقل كاذب أو غرض مُنحرف أو هوًى مُتَّبع، والفتنُ يقعُ فيها ضعيفُ البصيرة قليل العلم، لا سيما إذا اقترنَ بذلك سوءُ القصد وغلبةُ الهوى، فهنا الفتنةُ العظمى والمصيبةُ الكبرى، والأمةُ تخرج -بإذن الله- بعد الإيمان به والاعتصام بحبله، تخرج بالتفكير المستنير، والنظر الثاقب، وفقه الأسباب والمسببات، والعواقب والمقدّمات، وإتيان البيوت من أبوابها.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وإن من معالم الهُدى في أجواء الفتن: السمعَ والطاعة لولاة الأمور بالمعروف، ولزومَ جماعة المسلمين، والاجتماع على الدين، والحذرَ من الفُرقة وشقّ صفّ الأمة المجتمع؛ فالجماعةُ رحمة والفُرقة عذاب، وأكثرُ ما تتجلّى عوامل الفُرقة في أجواء الفتن والاضطراب في مسلكَيْن: البغي وسوء التأويل.

أما البغي: فبمُجاوزة الشرع، وأما التأويل: فبتفسير من غير مُستند شرعيٍّ صحيح.

أيها المسلمون: هذه معالمُ هُدى يدخلُ بعضُها في بعض، ويدلّ بعضُها على بعض، ويُفسِّرُ بعضُها بعضًا، ويُنبِّهُ ما ذُكر منها على ما لم يُذكر، مع ما يجمعُ هذه المعالم مما يجبُ من محبة المسلمين والشفقة عليهم والنُصرة لهم؛ ففي الحديث عند مسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدلّ أمتَه على خير ما يعلمُه لهم، ويُنذرهم شرَّ ما يعلمُه لهم، وإن أمتكم هذه جُعل عافيتُها في أولها، وسيُصيبُ آخرَها بلاءٌ وأمور، وتجيءُ فتنةٌ فيُرقّق بعضُها بعضًا، وتجيءُ الفتنة فيقول المؤمنُ: هذه هذه، فمن أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ الناسَ الذي يحبُّ أن يُؤتَى له».

والوصية الوصية -عباد الله-، الوصيةَ الوصيةَ في الإخلاص، والإحسان، والنصح، والصدق، وترك ما يَريب، والتثبُّت فيما يُسمع ويُنقل، وعدم الاغترار بالكثرة في الموافقة والمخالفة، والحذرَ الحذَر من الاندفاع والحماس غير المُنضبط، مع لزوم الرفق والأناة والصبر وحفظ اللسان وصدق اللجوء إلى الله، والتوبة، والإنابة، والدعاء، والاستغفار، وحُسن التوكّل، والاعتصام بالكتاب والسنة.

وليُعلَم أن الصبر في الأزمات، والحلمَ في النكبَات، والتثبُّت إذا ترادَفت الضوائق، والأناة إذا تكاثرت العوائق، كل أولئك فرسانُ -بإذن الله- لا تكبو، وصوارم لا تنبُو، وجنودٌ لا تُهزَم، وحصونٌ لا تُهدَم، واستجماعُ ذلك كله -بعون الله- لا تزيغُ معه الأبصار، ولا تطيش به الأحلام، ولا تضلّ فيه الأفهام؛ بل تتبيَّن الأمور بحقائقها، والأحداثُ بدوافعها.

ألا فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فمن علمَ الله من قلبه الصدقَ والنصحَ والإخلاصَ وإرادة الصلاح والإصلاح وفقه وسدّده وثبّته وأنارَ بصيرته: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

والحمد لله رب العالمين.

لزوم الطاعات بعد انتهاء موسم الخيرات





الشيخ
علي عبد الرحمن الحذيفي
إعداد/
إمام المسجد النبوي في المدينة المنورة

الحمد لله الذي خلقَ الخلقَ بقدرته، ومَنّ على من شاء بطاعته، وخذل من شاء بحكمته، فسبحان الله الغني عن كل شيء، فلا تنفعه طاعةُ من تقرّب إليه بعبادته، ولا تضرُّه معصيةُ من عصاه لكمال غناه وعظيم عزّته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في إلهيّته، وأشهد أن نبيّنا وسيّدنا محمدًا عبدُه ورسولُه خيرتُه من خليقته، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحابته صلاةً وسلامًا كثيرًا.

أما بعد: فاتقوا الله تعالى بدوام الطاعات، وهجر المحرّمات؛ فقد فاز من تمسّك بالتقوى في الآخرة والأولى، وخابَ وخسرَ من اتّبعَ الهوى.

عباد الله: اذكروا نعمَ الله عليكم التي لا تُعدُّ ولا تُحصَى، وقابلوها بالشكر لتدومَ وتبقَى، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال تعالى في الحديث القُدسي: «يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها؛ فمن وجدَ خيرًا فليحمَد الله، ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يلومنّ إلا نفسَه». رواه مسلم من حديث أبي ذرّ -رضي الله عنه-.

أيها المسلمون: في رمضان صفّت لكم الأيام والليالي، وتلذذتم بأنواع الطاعات في تلك الساعات الخوالي، ووفق الله من وفق لهجر المحرّمات خوفًا من عقاب الكبير المتعال، فلا تتبدّلوا العصيان بطاعة الرحمن، ولا تتبدّلوا الغفلة بذكر الله وتلاوة القرآن، ولا يدخلنّ عليكم في الفرائض النقصُ بالتقصير فيها أو الكسل عنها.

فالصبرُ على الطاعات، والصبرُ عن المعاصي هو صفاتُ المؤمنين، وشعارُ المتّقين، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

ولا يتحوّل أحدٌ مما يحبُّ الله تعالى منه إلى ما يكرهُ الله -عزّ وجل- منه؛ لئلا يتحوّل الله له إلى ما يكره، ولا يُغيّرنّ أحدٌ ما كان عليه من الاستقامة والسّداد والطاعة إلى اتباع الهوى والشيطان ومُقارفة المنكرات والمحرّمات، فيُغيّر الله عليه

أحواله، و تنتكس عليه أموره.

قال الله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ) [الرعد: ١١]، وقال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأنفال: ٥٣]، وقال تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ) [الصف: ٥].

وليُجاهد المسلمُ نفسَه على أن يكون على أحسن الأحوال مُستعينًا بالله -تبارك وتعالى-، وليسأل من ربّه العونَ والتوفيقَ على أن يُعينَه عل طاعته، ويحفَظه عن معاصيه.

أيها المسلمون: ألا تعلَمون أن أحسنَ أمور المُسلم: أن يكون على طاعة بعد طاعة؟! وأن يُتبع الحسنات الحسنات مع مُجانبةِ السيئات؟! قال الله تعالى: (وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ) [محمد: ١٧].

ثم إن دون هذه المنزلة أن يُتبع السيئةَ الحسنة لتُكفّرَها، قال الله تعالى: (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ) [هود: ١١٤].

وفي حديث مُعاذٍ وأبي ذرّ -رضي الله تعالى عنهما- قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «اتّقِ الله حيثما كنت، وأتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخَالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسَنٍ». رواه الترمذي.

وأسوأ أحوال الإنسان: أن يُتبع السيئات السيئات، أو يُتبع الحسنات السيئات، وقد ذُكر عن السلف أنهم كانوا يدعون الله ستةَ أشهر أن يتقبّل منهم رمضان، ويدعون الله -تبارك وتعالى- ستة أشهر أن يُبلّغهم رمضان.

ومن كيد الشيطان: أن يُزيّن للإنسان التهاوُن في الطاعات، والضعف أمام المحرّمات في غير رمضان، فيَنال منه ما لم ينَلْ في رمضان؛ لأنه كان في رمضان مأسورًا.

قيل لبشر الحافيّ: ما تقول في قوم يجتهدون في رمضان، فإذا ولّى تركوا! قال: «بئس القوم؛ لا يعرِفون الله إلا في رمضان».

وأعظمُ الكرامة: أن يمُنّ الله على العبد بالاستقامة في كل أيام عُمره، فذلك هو الفوزُ كلُّه والسعادة التامة، قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) [الأحقاف: ١٣، ١٤].

وعن سُفيان بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: قلتُ: يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحدًا بعدك. قال: «قُل: آمنتُ بالله، ثم استقِم». رواه مسلم.

وربُنا -عز وجل- هو الذي يُعبَد في كل زمان ومكان، وهو الذي يجبُ أن يُطاعَ فلا يُعصَى، قال الله تعالى: (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) [الحجر: ٩٩].

قال المُفسّرون: «اعبُد ربّك دائمًا حتى يأتيَك الموتُ».

قال الحسنُ البصريُّ -رحمه الله-: «ليس للمؤمن وقتٌ ينتهي إليه حتى يأتيَه الموتُ».

ومن فهِمَ من الآية أن التكاليفَ تسقُط عن العبد بعد وصولِه إلى اليقين -وهو عدمُ الشكّ-، فهو من الزنادقة الذين يهدِمون بالبدع الدينَ.

وإذا كان رمضان قد انقضى فرضُ صيامه، وشُرع في شهره أنواعُ الطاعات؛ فقد شرعَ الله فيما بعد رمضان فعلَ الخيرات، فشُرع صيامُ ستة أيام من شوال، وأخبر النبي أنها كصيام الدهر فهنيئًا لمن صَامها.

وشُرع صيامُ ثلاثة أيام من كل شهر ، وشُرع صيامُ الاثنَين والخميس، وصيامِ عرفة، وعاشوراء، وصيامُ عشر ذي الحجّة، وشُرع الذّكرُ مع تلاوة القرآن، وأفضلُ التطوّع الصلاةُ في جوفِ الليل، وشُرعت الصدقةُ وأنواعُ النفقات.

فالأعمالُ الصالحات كما هي في رمضان هي مشروعةٌ فيما بعد رمضان، والسابقون هم المستكثرون منها.

ومن مكر الشيطان: أن يُصابَ بعضُ الناس بالكسل عن صلاة الفريضة، فيُصلّي في رمضان ويترك الصلاة بعده، أو يُصلّي بعض الصلاة ويترك بعضها

ومن نامَ عن الصلاة وصلاها بعد الاستيقاظ على وجه العادة، أو أخّرها إلى آخر وقتها، أو تركَ صلاةَ الجماعة؛ ماتَ على غير سُنّة.

عباد الله: إنّ عدوّكم الشيطان كان عنكم مأسورًا، ويُريدُ أن يأخُذ منكم بثاره ليجعلَ الأعمالَ هباءً منثورًا، فردُّوه بالاعتصام بالله والثبات على الصراط المُستقيم خائبًا مدحورًا.

واعلموا أن السعادة والفلاح الأبديّ هو صبرُ ساعة على الطاعة وعن المعصية، وأن الخُسران والشقاء الأبديّ اتباع الهوى ساعة، ولو تفكّر ابنُ آدم في قِصَر الحياة وزوال الدنيا وقِصَر أجلِها لاشتغلَ بصالح العمل، ولَما ألهَاه الأمل.

قال الله تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ) [يونس: ٤٥].

فما نسبةُ عُمرك في هذه الساعة التي ذكرَها الله؟!

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ». رواه البخاري.

وهذه الدارُ ليست بدار قرار، إنما هي دارُ ممرّ وعمل، إنما دارُك هي الآخرة: إما نعيمٌ مُقيم، وإما عذابٌ أليم.

فلا تنسُوا -عباد الله- أن تعمَلوا لأنفسكم، وأن تُقدّموا لأنفسكم لداركم الأخرى وحياتكم الأبديّة.

فصلُّوا وسلِّموا على سيّد الأولين والآخرين وإمام المرسلين.



عبودية الكائنات لله رب العالمين

إعداد/
الشيخ عبدالمحسن بن محمد القاسم
إمام المسجد النبوي في المدينة المنورة

منبر الحرمين

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فاتقوا الله -عباد الله- حقَ التقوى؛ فمن اتقى ربَه ارتقى درجات، وطابَ مآله بعد الممات.

لله سبحانه الجمال والكمال والعظمة:

أيها المسلمون: اتصف الله تعالى بصفات الكمال والجمال، وتنزّه من كل عيب ونقص، هو غنيٌ عما سواه من المخلوقات وهي مُفتقرةٌ إليه، قال -سبحانه-:(إِن تَكْفُرُوا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ) [إبراهيم: ٨].

ذو الجلال والكبرياء، ذلّ له كل شيء وأسلمَ طوعًا وكرهًا، استسلمَ له المؤمنُ بقلبه وظاهره، والكافرُ مُستسلمٌ له كرهًا بالتسخير والقهر، قال -عز وجل-: (وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [آل عمران: ٨٣].

دانَ الجميعُ لله، فمن في السماوات والأرض والطير كلُها تُصلي لله وتعبُد بحسب حالها اللائق بها، قال -عز وجل-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ) [النور: ٤١].

وتدخلُ الملائكةُ كل يوم البيتَ المعمور في السماء تُصلي فيه لله، قال -عليه الصلاة والسلام- في حديث الإسراء: "فرُفِع لي البيتُ المعمور، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المعمورُ يُصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملَك إذا خرَجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم". متفق عليه.

سجود المخلوقات لرب الأرض والسماوات:

وجميعُ الكائنات تسجُد خاضعةً ذليلةً لله، قال -عز وجل-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ) [الحج: ١٨].

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: "ولا يجبُ أن يكون سجود كل شيءٍ مثلَ سجود الإنسان".

والدوابُ والملائكةُ تسجُد خوفًا من الله، قال تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) [النحل: ٤٩، ٥٠].

والشمسُ تذهبُ كل يوم تحت العرش وتسجُد لله، قال -عليه الصلاة والسّلام- لأبي ذر حين غربَت الشمسُ: "أتدري أين تذهب؟!". قلتُ: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنها تذهبُ حتى تسجُد تحت العرش". متفق عليه.

قال ابن العربي -رحمه الله-: "ولا مانعَ من قُدرة الله أن يُمكّن كل شيءٍ من الحيوان والجمادات أن يسجُد له".

بل كلُ ما له ظلٌ في الكون يسجُد لله، قال -سبحانه-: (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ) [النحل: ٤٨].

ومع صلاة المخلوقات لله وسُجودهم له فإنهم يُسبحونه، قال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ) [الإسراء: ٤٤].

والرعد يُسبح بحمده وجلاً منه، والنملُ يُقدسُ الله ويُنزهُه عن الشريك والمثيل، قال -عليه الصلاة والسلام-: "قرصَت نملةٌ نبيًا من الأنبياء، فأمرَ بقرية النمل فأُحرقَت، فأوحَى الله إليه: أن قرصَتك نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تسبح؟!". متفق عليه.

والنباتُ يُسبح الله وحده، قال ابن القيم -رحمه الله-: "فتبارك الله ربُ العالمين الذي يعلمُ مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرجُ منها ورقةٌ إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهَدها العبادُ على كثرتها وتنوّعها وهي تُسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهَدوا من

جمالها أمرًا آخر، ولرأوا خلقتها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم خُلقت".

وكان الصحابة -رضي الله عنهم- وهم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- يسمعون تسبيح الطعام، قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: "ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل". رواه البخاري.

نماذج من عبودية الكائنات لله تعالى:

وكلُّ ذرة في الكون توحدُ الله، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤].

قال ابن كثير -رحمه الله-: "وهذا عامٌ في الحيوانات والجمادات والنباتات".

وكيفية التسبيح لا يعلمُها إلا الله، قال -عز وجل-: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومع تسبيح الحجارة لله تهبط من علوها خشيةً لله خاضعةً مُنكسرةً له، قال -عز وجل-: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

والسماءُ والأرضُ مُطيعةٌ لله مُمتثلةٌ أمْره، قال لهما: استجيبا لأمري طائعتَين أو مُكرهتَين ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

ولما عُرض عليها وعلى الجبال حملُ الأمانة التي هي التكاليف الشرعية ولهنَّ ثوابٌ إن فعلن ذلك، وإن لم يقُمن بها فعليهنَّ العقاب، أبَيْن حملَها خوفًا ألا يقُمنَ بما حُملنَهنَّ لا عصيانًا لربهنَّ.

وجماداتٌ تحبُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم-، وكانت تُسلم عليه في حياته، قال -عليه الصلاة والسلام-: "إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليَّ قبل أن أُبعَث، إني لأعرفه الآن". رواه مسلم.

وجذعُ نخلة فارقَه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحنَّ له الجذعُ وبكى؛ قال جابرٌ -رضي الله عنه-: "كان المسجدُ مسقوفًا على جُذوع من نخل، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا خطبَ يقومُ إلى جذعٍ منها، فلما صُنع له المنبر وكان عليه -أي: وتركَ الجذع-. قال: سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار -أي: النُوق الحوامل- حتى جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فوضعَ يدَه عليها فسكنت". رواه البخاري.

وكان الحسنُ البصريُ -رحمه الله- إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: "يا معشر المسلمين: الخشبةُ تحنُ إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- شوقًا إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه".

واتباعُ هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- من غير غلوٍ ولا تفريطٍ من صدقِ محبَته.

وصخرةٌ تحرَكت حين صعد عليها النبي -صلى الله عليه وسلم- وأكابرُ صحابته، قال أبو هريرة -رضي الله عنه-: كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- على حِراء -جبل بمكة- هو وأبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌ وطلحةُ والزُبير، فتحرَكت الصَخرةُ، فقال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "اهدأ فما عليك إلا نبيٌ أو صديقٌ أو شهيدٌ". رواه مسلم.

بل اهتزَ جبلٌ بأكمله لما صعدَه النبي -صلى الله عليه وسلم- مع خلفاء راشدين، قال أنسٌ -رضي الله عنه-: صعد النبي -صلى الله عليه وسلم- أُحُدًا ومعه أبو بكر وعُمر وعُثمان، فرجَفَ بهم، فضربَه برجله، قال: "اثبُت أُحُد، فما عليك إلا نبيٌ أو صديقٌ أو شهيدان". رواه البخاري.

قال ابن المُنير -رحمه الله-: "وهذه هزةُ الطرَب، ولهذا نصَ على مقام النبُوَة والصديقيَة والشهادة التي تُوجبُ سُرورَ ما اتصَلت به".

ومن أطاعَ الله ورسولَه وهو مؤمنٌ فإن جبلَ أُحُد يُحبُه، قال -عليه الصلاة والسلام-: "أُحُدٌ جبلٌ يُحبُنا ونُحبُه". رواه البخاري.

قال النووي -رحمه الله-: "أُحُدٌ يُحبُنا حقيقةً، جعلَ الله تعالى فيه تمييزًا يحب به".

وكان عند آل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيوانٌ وحشيٌ إذا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- بيتَه لم يتحرَك الحيوان لئلا يُؤذي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قالت عائشة -رضي الله عنها-: "كان لآل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحشٌ، فإذا خرجَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لعبَ واشتدَ وأقبلَ وأدبرَ، فإذا أحسَ برسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد دخلَ ربضَ -أي: جلسَ- فلم يترمرَم -أي: لم يتحرَك- ما دامَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- في البيت كراهيةَ أن يُؤذيَه". رواه أحمد.

وجميعُ المخلوقات سوى العاصي من الثَقَلين يعلمُ أن محمدًا رسول الله، قال جابرٌ -رضي الله عنه-: أقبَلنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من سفَر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجَّار، إذا فيه جملٌ لا يدخلُ الحائطَ أحدٌ إلا شدَ عليه -أي: هاجَ عليه-.

فذكروا ذلك للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فجاء حتى أتى الحائط، فدعا البعيرَ فجاء واضعًا مِشفره -وهي كالشَفَة من الإنسان-، وضعَ مِشفره إلى الأرض حتى برك بين يدي النبي -صلى الله

عليه وسلم-، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "هاتُوا خطامَه"، فخطمَه ودفعَه إلى صاحبه، ثم التفتَ النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس وقال: "إنه ليس شيءٌ بين السماء والأرض إلا يعلمُ أني رسولُ الله إلا عاصِي الجن والإنس". رواه أحمد.

ومن كان من علماء الإسلام فإن مَنْ في السماوات والأرض والحيتان تدعُو له بالمغفرة، قال -عليه الصلاة والسلام-: "وإن العالِم ليستغفرُ له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء". رواه أبو داود.

والشجرُ والحجر يُوالي المُؤمنين وينصُرُهم، قال -عليه الصلاة والسلام-: "لا تقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ" [صحيح مسلم ٤/ ٢٢٣٩].

ومنا ما يُلبي بتلبيَة المُسلم، قال -عليه الصلاة والسلام-: "ما من مُسلم يُلبي -أي: في الحج أو العُمرة- إلا لبَى من عنْ يمينه أو عن شماله من حجرٍ أو شجرٍ أو مَدَرٍ -أي: طين- حتى تنقطع الأرضُ من ها هُنا وها هُنا". رواه الترمذي.

وتبكي السماءُ والأرضُ حُزنًا على فراق المؤمن، قال -سبحانه- عن قوم فرعون: (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ) [الدخان: ٢٩].

قال ابن عباس -رضي الله عنه-: "إذا فقدَ المؤمنُ مُصلاه من الأرض التي كان يُصلي فيها ويذكُر الله فيها بكَت عليه السماءُ والأرض".

تأذي المخلوقات من العصاة:

وأما العُصاةُ فإن المخلوقات تتأذى منهم، وإذا ماتوا استراحَت منهم؛ مُرَّ على النبي -صلى الله عليه وسلم- بجنازةٍ فقال: "مُستريحٌ ومُستراحٌ منه". قالوا: يا رسول الله: ما المُستريحُ والمُستراحُ منه؟! قال: "العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه البلاد والعباد والشجرُ والدوابُّ". متفق عليه.

والشرك بالله أعظمُ الذنوب، وإذا سمعَت الجمادات شركًا به تعالى فزِعَت عظمةً لله لانتقاص حقه في الألوهية، قال -سبحانه-: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) [مريم: ٨٨- ٩٠].

قال ابن كثير -رحمه الله-: "أي: يكادُ يكونُ ذلك عند سماعهنَّ هذه المقالة من فجَرة بني آدم إعظامًا للرب وإجلالًا؛ لأنهم مخلوقاتٌ ومُؤسَساتٌ على توحيده".

ونطقَ طائرٌ بالإنكار على المُشركين من بني آدم لشركهم بالله، ودعاهم إلى التوحيد، قال الهدهُد لسليمان -عليه السلام-: (وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) [النمل: ٢٢- ٢٥].

ولما كان الهُدهُد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له؛ "نُهي عن قتله". رواه أحمد.

أيها المسلمون: فالكلُ من الملائكة والجمادات والنباتات والحيوانات نطقَ بتنزيه الله وتوحيده، وسجدَ لله وأطاعَه، وحقيقٌ ببني آدم أن يكون كذلك.

وإذا حقَق الإنسانُ العبوديةَ كان أشرفَ المخلوقات، ومن أشرك به كانت الدوابُّ أتم منه، قال -سبحانه-: (أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) [الأعراف: ١٧٩].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الزمر: ٦٧].

أيها المسلمون: المخلوقاتُ ذليلةٌ لله قانتةٌ له، ويحرُم أن يُدعَى شيءٌ منها من دون الله، قال -سبحانه-: (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [فصلت: ٣٧].

ومع قُنوتها لله فهي مُسخرةٌ لنا لنستعينَ بها على طاعته، قال -عز وجل-: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ) [الجاثية: ١٣].

ومن أطاعَ ربَه رفعَه الله وأعلى مكانته.

ثم اعلموا أن الله أمرَكم بالصلاة والسلام على نبيه، فقال في مُحكَم التنزيل: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وزد وبارك على نبينا محمد، وارضَ اللهم عن خلَفائه الراشدين الذين قضَوا بالحق وبه كانوا يعدلون: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعلي، وعن سائر الصحابة أجمعين، وعنا معهم بجُودِك وكرمِك يا أكرم الأكرمين.



الأُخُوَّة بين المسلمين

فضيلة الشيخ/
إعداد/ حسين بن عبد العزيز آل الشيخ
إمام المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة

الحمد لله وليِّ المؤمنين، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن نبيَّنا محمدًا عبدُه ورسوله النبيُّ الأمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فيا أيها المسلمون: أوصيكم ونفسي بخير وصيَّة، ألا وهي: تقوى الله- جل وعلا- ؛ فهي خيرُ زادٍ ليوم المعاد.

تحقيق الأخوة من أصول الإيمان:

إخوة الإسلام: من أصول الإيمان وقواعد الإسلام: تحقيقُ الأُخُوَّة الإيمانيَّة بين المسلمين، ونشر المودَّة في مُجتمعات المؤمنين، قال- جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال- صلى الله عليه وسلم-: «المسلم أخو المسلم».

معاشر المسلمين: وإن هذا الأصل العظيم والمبدأ المتين يقتَضي حقوقًا وواجبات، ويتطلَّبُ مسؤوليَّات والتزامات، يقول ربُّنا- جل وعلا-: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

إنها أُخُوَّة تقتَضِي أن يسيرَ المسلم في حياته تجاهَ المسلمين بكل مسلك كريم وفعل قويم، قال- صلى الله عليه وسلم-: «لا يُؤمنُ أحدُكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه».

إنها الأُخُوَّة التي تحملُ الصدقَ من القلب في جلب المصالح والمنافع إلى المسلمين، ودرء الشرور والأذى عن المؤمنين، قال- جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وقال- صلى الله عليه وسلم-: «المسلمُ من سلمَ المسلمون من لسانه ويده».

فضائل الأخوة بين المؤمنين:

إخوة الإيمان: إن الأُخُوَّة الإيمانية أصلٌ كبيرٌ في الإسلام، يُزاوله المسلمُ في علاقته بإخوانه المسلمين ومُجتمعه المسلم مُزاولةً عباديَّة، ويُمارسُها كشعيرة من شعائر الإيمان، يقومُ بها المسلم كفريضة عظيمة لا يدفعُه غرضٌ نفعيٌّ ولا مصلحةٌ ذاتيَّة.

وبهذا يصيرُ المُجتمع المسلم كما أرادَه الشرعُ العظيم كالبُنيان الواحد يشدُّ بعضُه بعضًا، كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «المؤمنُ للمُؤمن كالبُنيان يشدُّ بعضُه بعضًا». وشبَّك بين أصابعه.

إنها أُخُوَّة تتطلَّبُ التضحيَةَ والفداء، والتعاطُفَ والتراحُم، واللُّطف والرِّفق، وغيرها من المعاني والمسالك الكريمة التي دعا إليها المُصطفى- صلى الله عليه وسلم- في قوله: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم كمثَل الجسَد الواحد، إذا اشتكَى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسَد بالسهَر والحمَّى».

معاشر المسلمين: ومن مُنطلقات هذه الثوابت الإيمانية والأصول الإسلامية فإن أمة الإسلام مُطالبَةٌ أن تحافظَ على وحدتها الإسلامية، وصفِّها الإيمانيِّ، وأن تحذَر من مكر الأعداء ومُخططاتهم في تفريق الصُّفوف، وتمزيق وحدة المسلمين، وبث وسائل العداوة بينهم، ونشر عناصر البَغضاء في مُجتمعاتهم: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

إن ما تعانيه أمة المسلمين اليوم من تفرُّق المُجتمع الواحد، وانتشار ثقافة العداوَة والبَغضاء في مُجتمع واحدٍ حتى آلَ الأمرُ إلى حمل بعضهم السلاحَ على بعض لأمرٍ جليل لا يُرضي ربَّ العالَمين، ولا يستقيمُ مع أحكام الدِّين، ولا يتَّفق مع وصايا سيِّد الخلق- عليه أفضل الصلاة والتسليم- .

يقول- صلَّى الله عليه وسلم-: «من حمل علينا السلاح فليس منَّا»، ويقول في حديث آخر: «لا يُشيرُ أحدُكم على أخيه بالسِّلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزَعُ في يده فيقَع في حُفرة من النَّار».

التحذير من أسباب التفرق وعوامل الفتن:

أمة الإسلام: احذَروا من أسباب التفرُّق، تجنَّبوا عوامل الفتن، احذَروا من أفعال تُؤدِّي إلى مفاسد لا تُحصَى، وشرور لا تتناهَى من سفك الدماء، وهَتك الأعراض، وإفساد المكاسب، وخَلخَلة الصفِّ، وزوال هيبَة مُجتمع المُسلمين، والأعداءُ ينظرون فرحين مُستبشرين.

فذلكم ما يقعُ في الأمة، ذلك هو بُغيةُ الأعداء وهدفُهم ومقصدُهم وغرضُهم: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) [التوبة: ٤٧].

تكفير عامة المسلمين بلا دليل من أعظم أسباب الفتن:

إخوة الإسلام: من أعظم أسباب الفتن التي يجبُ الحذرُ منها والبُعد عنها: السعيُ بالتكفير لعامة المُسلمين بدون بُرهان ربَّانيٍّ ولا سُلطانٍ نبويٍّ، إنما من جرَّاء عاطفةٍ دينيَّةٍ لا تحملُ دليلاً شرعيًا، ولا بُرهانًا ربَّانيًا.

فما حلَّت النكبَات ولا وقعَت المثُلات في المسلمين عبر التاريخ إلا بمثلِ تلك المسالك الهَوجاء، والمناهج العَوجاء.

يقول- صلى الله عليه وسلم- مُخاطبًا بخطاب صريح يفهمُه كلُّ أحد: «من صلَّى صلاتَنا، واستقبلَ قبلتَنا، وأكلَ ذبيحَتنا فذلك المسلم الذي له ذمَّةُ الله وذمَّةُ رسوله». والحديثُ في صحيح البخاري.

ويقول- صلى الله عليه وسلم-: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذُلُه ولا يحقِره، كل المُسلم على المسلم حرامٌ دمُه ومالُه وعِرضه».

حرص المؤمنين على سلامة صدورهم تجاه إخوانهم:

معاشر المسلمين: من أمارات التوفيق، وعلامات السعادة: أن يكون المسلم سببًا للألفة وعاملاً لجمع الكلمة ووحدة الصف.

وإن من الخُذلان وأمارات الخُسران: السعيَ بالإفساد بين المسلمين، ونشرَ أسباب العداوة بينهم، يقول ربُّنا- جل وعلا-: (لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) [النساء: ١١٤]، (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) [الحجرات: ١٠]، (وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) [الأنفال: ١].

ويقول- صلى الله عليه وسلم-: «ألا أخبرُكم بأفضل من درجَة الصيام والصدقة والصلاة؟!». قالوا: بلى. قال: «إصلاحُ ذات البَيْن».

إخوة الإسلام: إن الإسلام وهو يؤكِّدُ على تحريم الأُخوَّة الإيمانية ليُحرِّم تحريمًا أكيدًا أن يحمل المسلم البغضاءَ للمؤمنين والعداوةَ للمسلمين، مما يُثيرُ فتنًا لا تُحصَى، قال- صلى الله عليه وسلم-: «لا تباغَضُوا، ولا تحاسَدوا، ولا تدابَروا، ولا تقاطَعوا»، وقال- صلى الله عليه وسلم-: «تُفتَحُ أبوابُ الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفَرُ لكل عبدٍ لا يُشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شَحناء، فيُقال: أنظِروا هذين حتى يصطلحَا».

فينبغي لكل مسلم أن يحرص على سلامة قلبه من الغل لإخوانه المسلمين، مهما اختلفَ معهم في وجهات النظر.

يجبُ عليه أن يُحبَّ لهم كل خير وصلاح ونفع، فنبيُّنا- صلى الله عليه وسلم- يقول: «من أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النار ويُدخَل الجنة فلتأته منيَّتُه وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحبُّ أن يُؤتَى إليه».

الحج الذي مر من قريب:

يا أيها المسلمون: إن فريضةَ الحجِّ فريضةٌ تبرُزُ فيها مقاصدُ الشريعة في تحقيق الأُخوَّة بين المسلمين، وإشاعة المودَّة بين المؤمنين، فانتهزوا- أيها الحُجَّاج- ، انتهزوا- أيها المسلمون- هذه الفريضةَ العظيمة لتحقيقِ الإخاء بينكم.

فعلى الحاجِّ أن يُظهر في هذه الفريضَة الحرصَ على التخلُّق بكل خُلُقٍ كريم ومسلكٍ قويم، عن جابرٍ عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «أفضل الإيمان عند الله- عزَّ وجل-: إيمانٌ بالله، وجهادٌ في سبيل الله، وحجٌّ مبرورٌ»، فسُئِل عن الحجِّ المبرُور. فقال: «إطعامُ الطعام، وطِيبُ الكلام». رواه أحمد. وهو حديثٌ حسنٌ عند العلماء.

وفي خُطبة حجَّة الوداع ذكَّر النبي- صلى الله عليه وسلم- المُسلمين بمقاصد عُظمَى وغاياتٍ كُبرى، من أهمِّها: العنايةُ بتحقيق الأُخُوَّة بين المسلمين، «إن أموالَكم وأنفسَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمة يومِكم هذا، في بلدِكم هذا، في شهركم هذا».

فالأذيَّةُ بالمسلم والضَّجَرُ بالمؤمن أمرٌ كبيرٌ عند الله- جل وعلا- ، ومما يُضادُّ مقاصد هذه الفريضة العظيمة.

وردَ في حديثِ أنس قال: سمعتُ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو مُنافقٌ، وإن صامَ وصلَّى وحجَّ واعتمرَ وقال: إني مُسلم؛ إذا حدَّث كذب، وإذا وعدَ أخلَف، وإذا اؤتُمِن خان». رواه أبو يعلى، وحسَّنه جمعٌ من المحقِّقين.

ثم إن الله- جل وعلا- أمرَنا بأمرٍ عظيم، ألا وهو: الصلاةُ والسلامُ على النبي الكريم، اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك وأنعِم على نبيِّنا محمد، وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين.

البشارة في القرآن والسنة

إعداد/
فضيلة الشيخ
عبد الباري الثبيتي
إمام المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة



الحمد لله، الحمد لله المُتفضل على عباده بالخير والبشائر، أحمده -سبحانه- وأشكرُه على جُوده وكرمه ونعمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعلمُ خائنةَ الأعيُن وما تُخفي السرائر، وأشهد أن سيدَنا ونبيَنا محمدًا عبدُه ورسولُه من اتبع هُداه فهو إلى الجنة صائر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الفضل والبصائر.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢].

كلمات تبعث الأمل:

"البشارةُ" و"البُشرى" و"المُبشرات" كلماتٌ معانيها تبعَثُ الأمل، وتشحَذُ الهمَم، تُعالجُ القنوطَ واليأسَ، وهي عاملُ ثقةٍ بموعود الله، تُذهبُ الهمومَ والغمومَ.

والبشارةُ المطلقةُ لا تكونُ إلا بالخير، وإنما تكونُ بالشر إذا كانت مُقيَدة، وفي القرآن صُورٌ من المبشرات، وميدانٌ فسيحٌ تملؤه البُشريات.

أنزل الله القرآنَ تبيانًا لكل شيء، (وَهُدًى وَرَحۡمَةً وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ) [النحل: ٨٩]، (يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا) [الإسراء: ٩].

آياتُ القرآن تسكُبُ في قلب المؤمن السَكينة، ويستروحُ بها البُشرى، قال جبريل -عليه السلام- لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-: "هذا بابٌ من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملَك، فقال: هذا ملَك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورَين أوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُعطيتَه". أخرجه مسلم.

النبي يدعو للتبشير وينهى عن التنفير:

والرسول -صلى الله عليه وسلم- مُبشر، وهو بشيرٌ ونذيرٌ، قال الله تعالى: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا) [الفرقان: ٥٦].

دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى التبشير، ونهى عن التنفير، فقال: "بشروا ولا تُنفروا، ويسروا ولا تُعسروا". وأمرَ أصحابَه فقال: "ادعُوا الناس، وبشروا ولا تُنفروا، ويسروا ولا تعسروا".

التوازن بين التبشير والتخويف:

والتوازُن بين التبشير والتخويف هديُ سيد

المُرسلين، وهو المنهجُ الوسَط: نرجُو رحمةَ الله، ونخشَى عقابَه.

سماعُ المُبشرات يزيدُ من الاجتهاد والحرص على الطاعة؛ عثمانُ -رضي الله عنه- قال عنه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "ما ضرَ عُثمانَ ما عمِلَ بعد اليوم". وما زادَه ذلك إلا خيرًا وبرًا وطاعة.

أثر المبشرات في رفع الروح المعنوية:

التبشيرُ دعمٌ معنويٌ وتثبيتٌ لا غنى عنه، يتجلَى هذا في موقف خديجة -رضي الله عنها- تقول لزوجها -صلى الله عليه وسلم-: "أبشِر، فوالله لا يُخزِيك الله أبدًا".

فما أنبلَ أن يسمع الزوجان من بعضهما، والجنديُ من قائده، والمرؤوسُ من رئيسه كلمةَ التأييد والتثبيت، تزُف له البُشرى عند الخوف والحزن.

المُنيبُون لهم البُشرى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ [الزمر: ١٧].

والمُتقون بشارتُهم الفوز، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣، ٦٤].

والمُجاهدون بشارتُهم الرَخاءُ والرضوانُ، قال الله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠، ٢١].

أما الصابرون، فيقول الله -تبارك وتعالى- فيهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

والبشارةُ للمشائين إلى المساجد، قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "بشِر المشائين في الظُلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة".

ومَن ابتُلي بمرض، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "أبشِر، فإن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار في الآخرة".

وقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُبشِر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصَب لا صخَبَ فيه ولا نصَب.

وبشَر رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- عمّار بن ياسر -رضي الله عنه- فقال: "أبشِر عمّار، تقتُلك الفئة الباغية".

وأولياءُ الله لهم البُشرى في الدنيا والأخرى، قال الله -تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

عاجل بُشرى المؤمن:

ومن عاجل بُشرى المؤمن: ثناءُ الناس على أعماله التي أخفَاها فأظهرها الله، عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أرأيتَ الرجل يعمل العملَ من الخير ويحمَدُه الناسُ عليه. قال: "تلك عاجلُ بُشرى المؤمن".

والرؤيا الصالحةُ من صُور البُشرى، قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "لم يبقَ من النبُوّة إلا المُبشرات". قالوا: وما المبشراتُ يا رسول الله؟! قال: "الرؤيا الصالحة". رواه البخاري ومسلم.

الاستبشارُ بالولد والتبشيرُ به سُنةٌ مشروعةٌ، وذمَ الله تعالى من تبرَم من الأنثى واستثقَلها، ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

والرياحُ مُبشرات، قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

علامة إرادة الله الخير بعبده:

وهناك علاماتٌ لأولياء الله وأصفيائه تدلُ على أن الله -سبحانه وتعالى- أراد بهم الخير، يدخُل فيه: ما يُشاهدونَه من اللُطف والتوفيق، والتيسير للُيسرى، وتجنيبُهم العُسرى؛ لأن الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ



وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ) [الليل: ٥- ٧]، ويقول: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا) [الطلاق: ٤].

فإذا رأيتَ الأمورَ مُيسَرةً لك ومُسهَلةً، وأن الله يُقدِر لك الخيرَ حتى وإن كنتَ لا تحتسب؛ فهذه لا شك أنها بُشرى.

واللطفُ من ذلك: أنه يجعلُ الشدائدَ مُبشرةً بالفَرَج، والعُسرَى مُؤذنًا باليُسر. وهذا ما قصَه القرآنُ عن أنبياء الله وأصفيائه، وكيف أنه لما اشتدَت بهم الحالُ، وضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبَت، جاءَهم الفرَجُ، (وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤].

وتنكشفُ للمؤمن عند موته بعضُ البشائر في تغسيله، وتكفينه، وحال النزع، وأما البُشرى عند مُفارقة الدنيا فيقول الله -تبارك وتعالى-: (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى) [الفجر: ٢٧- ٣٠].

من صور البشرى:

ومن المُبشرات العظيمة: البشارةُ بقول التوبة، يتجلى ذلك في توبة كعب بن مالك -رضي الله عنه-، فبعد أن أمضى الثلاثةُ الذين خُلفُوا خمسين ليلةً في عُزلة عن مُجتمع المدينة، يقول كعبُ بن مالك: فبينَا أنا جالسٌ على الحال التي ذكرَ الله -عز وجل- منا، قد ضاقت عليَ نفسي، وضاقت عليَ الأرض بما رحُبَت، سمعتُ صوتَ صارخ أوفى على سَلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك: أبشر. قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أن قد جاء فرَجٌ، فتلقاني الناسُ فوجًا فوجًا، يُهنئُونني بالتوبة، ويقولون لي: لتهنك توبةُ الله عليك.

قال كعبٌ: فلما سلمتُ على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال وهو يبرُقُ وجهُه من السرور: "أبشر بخير يوم مرَ عليك مُنذ ولدَتك أمُك". قال: فقلتُ: أمن عندكَ يا رَسول الله، أم من عند الله؟! فقال: "لا، بل من عند الله".

وكان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سُرَ استنارَ وجهُه كأنَ وجهه قطعة قمر. قال: فأنزل الله -عز وجل-: (لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ). [التوبة: ١١٧] الآية.

من المُبشرات -عباد الله-: الثوابُ الجزيلُ على العملِ اليسير، ومن ذلك: صيامُ يوم عاشوراء، قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "أحتسبُ على الله أن يُكفر السنةَ التي قبلَه". رواه مسلم.

وقال: "لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصُومنَ التاسعَ". رواه مسلم.

وصحَ عن ابنِ عباس -رضي الله عنهما- موقوفًا: "صيامُ يوم قبله ويوم بعدَه".

ألا وصلوا -عباد الله- على رسول الهُدى؛ فقد أمرَكم الله بذلك في كتابه، فقال: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعلي، وعن الآل والصَحب الكرام، وعنا معهُم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أرحَمَ الراحمين.

اللهم أعزَ الإسلامَ والمُسلمين، اللهم أعزَ الإسلامَ والمُسلمين، اللهم أعزَ الإسلامَ والمسلمين، وأذل الكفرَ والكافرين، ودمر اللهم أعداءَك أعداءَ الدين.

اللهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم انصُر من نصر الدين، واخذُل اللهم من خذل الإسلام والمسلمين، اللهم انصُر دينَك وكتابَك وسُنة نبيك وعبادَك المؤمنين.

اللهم إنا نسألُك الجنةَ وما قرَبَ إليها من قول وعمل، ونعوذُ بك من النار وما قرَبَ إليها من قولٍ وعملٍ.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي فيها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير، والموتَ راحةً لنا من كل شر يا رب العالمين.





منبر الحرمين

الفرق بين النصيحة والتعيير

الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله المُتوحِّد في الجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، المُتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتدبيرًا، المتعالي بعظمته ومجده الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله أرسله الله إلى الثقلين الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا مُنيرًا، فصلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن الوصيةَ المبذولةَ لي ولكم -عباد الله- هي تقوى الله -سبحانه-، تقوى الله في الغيب والشهادة، والغضب والرضا، والمنشط والمكره، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

صفاء السر والعلانية خصلة تعيي الكثيرين:

عباد الله: صفاءُ السر والعلانية خصلةٌ يُعيي الكثيرين طلابُها، وهكذا هي الأشياءُ النَّفيسة يعزّ وجودُها، ويرتفعُ ثمنُها، ومن أراد أن يُفتش عن مثل هذا المعدنِ النَّفيس في زمنٍ كثُرت فيه الأتْرة، وأُحضرَت الأنفس الشُحّ؛ فإنه سيفتحُ عينَه حين يفتحُها على كثيرٍ، ولكن لا يرى أحدًا إلا من رحِم الله، وقليلٌ ما هم.

إن صور المظهَر ينبغي أن تكون ترجمةً صادقةً لحقيقة المخبَر؛ لأن الظاهر لا قيمةَ لها إذا كانت ستارًا لبواطنَ مَعيبة، فإن الماءَ قد يكدُرُ طعمُه وإن كان لونُه أبيضَ صافيًا.

قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله لا ينظر إلى أجسَامكم ولا إلى صُوركم، ولكن ينظُر إلى قلوبكم وأعمالكم». رواه مسلم.

إن أمَتنا أحوجُ ما تكون في أزمنة الشُح وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه إلى الألفة، واعتذار بعضهم لبعض، وغض الطرف عما يمكنُ غضُ الطرف عنه، مما سببُه الاجتهاد المقبولُ شرعًا، إذا كان مرجوحًا، أو الخطأ إن كان مبنيًا على اجتهادٍ سائغ حسبَ الاستطاعة.

فينبغي ألا يغيبَ عنا كرمُ جلال الله -جل وعلا-، حينما يمنَحُ المُجتهدَ المُخطئ أجرَ الاجتهاد، ويغفر له خطأه.

إن الحقَ أبلَج، مهما أُسدلَت دونَه ستُور الباطل، وقلبَت لأجله الأمور، وإن الباطلَ لجلَج، مهما زوقت له الألفاظ، ورُقشت له الحجَج: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

إن الحقَ الذي من ظنَ أن بملكه أن يستُرَه، فإنه كمن يستُر ضوءَ الشمس بغربال، إذا عُلم ذلكم -عباد الله- فإن على كل مسلم أن يُحسن القصدَ تُجاه ربه ثم تُجاه الناس، وأن يجعلَ لإحسان الظن بالآخرين من السَعَة والانشراح ما لا يجعلُه لسُوء الظن بهم؛ فإنه إن أخطأ في حُسن ظنه لم يكُن عليه من الإثم ما يكونُ في خطئه بسُوء ظنه.



ومن هنا يستطيع المرءُ الصادقُ أن يزنَ نفسَه بميزان الشرع في تعامُله مع أخطاء الآخرين؛ بحيث يُلجمُ نفسَه إلجامًا عن أن تقعَ في أتُون تصيُّد الأخطاء، وتتبُّع العورات، يقودُه في ذلك: العلمُ والعدل.

الحاجة إلى الألفة واعتذار بعضنا لبعض:

بَيْدَ أن هناك فرقًا بين

تصيُد الأخطاء وبين تصحيحها؛ فالأولُ إنما هو من باب التعيير والتشهير والتشفي، والثاني من باب بيان النصح بالحق والدعوة إليه، فالبَونُ شاسِعٌ بين التعيير والنُصح، كما هو شاسِعٌ أيضًا بين ما كان لحظ النفس وما كان لله، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

ثم إن من المُجرَبَ المشاهَدَ: أن المُعيرين الذين يُشهرون غيرَهم بالأخطاء تدورُ عليهم الدوائر، فيقعون في الحفر التي حفَرُوها للمُعيَرين؛ لأن التعيير داءٌ مُنصِفٌ يفعل بالمعير فعلَه بالمعَير، والجزاءُ من جنس العمل.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «مَن عيَر أخاه بذنب لم يمُتْ حتى يعمله».

ولأن في التعيير شماتةً ظاهرةً تَحيدُ بالمرء عن معالي الأمور إلى مُنادَمَة سفسافها؛ في الحديث الذي حسَنه بعض أهل العلم: «لا تُظهر الشماتةَ بأخيك، فيرحمُه الله ويَبتَليك». رواه الترمذي.

إنه ليُدرك كلُ ذي لُب وبصيرة أن ما يسمعه ويراه عبرَ الرَائي أو الأثير أو مواقع التواصُل، ليُدرك بوضوح عِظَم الحاجة إلى أدب الحديث والمحاوَرَة، وحِفظ الحقوق والحرُمات، والنأي بالنفس عن تتبُع العورات والشماتة وبذاءَة اللسان.

فكما أن في تلك المواقع فوائد عُظمَى لنشر الخير، والدعوة إلى الحق على بصيرة، وأن الكلمة الطيبة التي تسمعها ألفُ أذن، وتقرؤها ألفُ عين، أعظمُ أجرًا مما يسمعه أقل من ذلك، فكذلك الكلمة الخبيثة تكونُ أعظمَ إثمًا، وأثقلَ وزرًا إذا كثُر مُستمِعُوها وقارِئُوها؛ فإن اللسانَ بريدُ القلب، والقلمَ بريدُ اللسان.



ولقد صدقَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- حينَ قال: «وهل يكُبُ الناسَ في النار على وجوههم -أو على مناخِرهم- إلا حصائدُ ألسنتهم». رواه الترمذي.

الفرق بين تصيد الأخطاء وتصحيحها:

إن العقلَ الناضِجَ لا ينتابُه شكُ البتَة في أن لسانَ المرءِ وقلمَه هما شِعارُ حقيقته ومخبَره، فكما أن في البشر لسانَ صدقٍ وعِفةٍ وأناةٍ، فإن فيهم لسانَ كذبٍ وتطفُلٍ وطيشٍ.

فلأجل ذلكم قال النبيُ -صلى الله عليه وسلم-: «تُصبِحُ الأعضاءُ تُكفِرُ اللسان، تقول: اتَقِ اللهَ فينا، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوجَجتَ اعوجَجنا». رواه أبو يعلى بسند حسن.

المعير تدور عليه الدوائر:

عباد الله: لقد عُلِم بدليل الواقع أن تتبُع المرء زلات الآخرين إنما يصدُرُ منه بسوءِ علم أو بسوءِ قصد؛ فالأولُ فسادٌ في الفهم، والثاني فسادٌ في القلب، وهو الأخطرُ والأعظمُ إثمًا وخطيئةً، فإن النيَةَ إذا فسَدَت لم يُصلِحْها اللسان، لكنَ صلاحَ النيَة والقصد يجبُرَان زلَةَ اللسان.

فكم من عائبٍ قولاً صحيحًا
وآفتُه من الفهم السقيم

الحاجة إلى أدب الحديث والحوار:

أيها الناس: إن العُمرَ أقصَرُ مما يُؤمِلُه الواحدُ منا، وإن من ظلم المرء نفسه أن يستقطع جُزءًا كبيرًا من وقتِه في تعقُب الآخرين بما قد يضُرُ ولا ينفع، ويفقأُ العينَ ولا يقتُل الصيدَ، وبما يزيدُ إثمَه ويقِلُ أجرُه، فيكثُرُ بذلك الالتفاتُ أثناءَ المسير، ومن كثُر التفاتُه تأخَر وصولُه، ومن تتبَع الصيدَ غفَل، ومن أحدقَ بعينيه في عيوب غيره عمِيَ عن عيوبِ نفسِه، فجمع على نفسِه خطيئتَين.

ثم إن الناسَ بشرٌ ليسوا معصُومين ولا ملائكة، وإنما هم يأكُلون الطعامَ ويمشُون في الأسواق، يُخطئون ويُصيبُون، وغالبًا ما يكونُ صوابُهم أكثرَ من خطئهم. فلماذا يُصِرُ أقوامٌ على أن يكونوا كالذُباب لا يقعُ إلا على الجُروح، أو كالبَعوضة لا يُرويها إلا الدماءُ؟! ولربما أدمَت مُقلةَ الأسد.

لماذا لا يأنسُ أقوامٌ إلا بالغيبة والنَميمة، والوشاية، والهَمز واللمز، واتهام النوايا والشقِ عن القلوب؟!

لماذا يُفضِلُ أقوامٌ أن يعيشُوا مُفلسين بألسنتهم وأفئدتهم، لا أن يعيشوا أغنياءَ بها، وقد وصفَهم لسانُ القائل:

ولو أن واش باليَمامة دارُه

وداري بأعلى حضرَموت اهتدَى ليَ

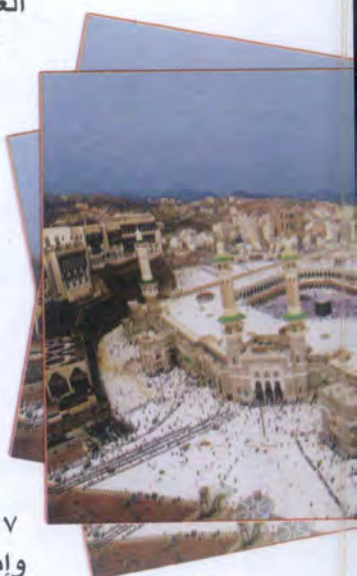
قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «أتدرُون من المُفلس؟!». قالوا: المُفلسُ فينا من لا درهَمَ له ولا متاع. فقال: «إن المُفلسَ من أمَتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتَمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكل مَال هذا، وسفَك دمَ هذا، وضربَ هذا. فيُعطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَت حسناتُه قبل أن يُقضَى ما عليه أُخِذَ من خطَاياهم فطُرِحَت عليه، ثم طُرِح في النار». رواه مسلم.

فيا لله! ما أكثر المُفلسين. ويا لله! ما أشقاهم في الدنيا، وما أعظم حسابهم في الأخرى: (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

فاتقوا الله -عباد الله- واعلموا أن الأمر بحفظ اللسان، وستر عورات الناس، وعدم تتبُّع زلاتهم لا يعني -بداهةً- عدمَ النُصح لهم، إذا ظهر منهم الخطأ بأوجُه النُصح المعروفة، الخارجة عن معنى التعيير والتشهير.

لا خيرَ فيمن لا ينصح ولا فيمن لا يقبل النصح:

فلا خيرَ فيمن لا ينصَح، ولا خيرَ فيمن لا يقبَلُ النُصح، فكل ابن آدم خطاءٌ، وخيرُ الخطائين التوابُون، وليس عيبًا أن تُخطئ؛ فالخطأ من طبيعة البشر؛ إذ الكمال لله، والعصمة لرسُله، ولكنَ العيبَ كل العيب ألا تقبَلَ النُصحَ على الخطأ.



كما أن خطأ بشرٍ ما ليس مُبررًا فيَّ أن تجلبَ عليه بخيلك ورَجلك، وتسُنَ له سيُوفَ النُصح كأنك في نِزال مع العدو؛ فإن الرفقَ ما كان في شيءٍ إلا زانَه، وما نُزِع من شيءٍ إلا شانَه، (فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ) [الرعد: ١٧].

وإياك إياكَ والانتصارَ للنفس وإن كنتَ مُحقًا؛ فإنه يمحَقُ النيةَ الصادقة ويأكلُها كما تأكلُ النارُ الحطَبَ. وحَذارِ أن تكرَه النُصحَ والناصح؛ فإنه سبيلُ أعداء الرُسُل.

ولقد أحسنَ الإمام أبو عبد الله بن بطَة؛ حيث قال: «اغتمامُك بصواب غيرك غشٌ فيك، وسُوءُ نيَة في المسلمين. فاعلَم أن من كرِهَ الصوابَ من غيرِه، ونصرَ الخطأَ من نفسه، لم يُؤمَن عليه أن يسلُبَه الله ما علمَه، ويُنسيَه ما ذكرَه، فمن سمع الحقَ فأنكرَه بعد علمِه له فهو من المُتكبرين على الله».

وقال ابن القيم: «ذمَ الله تعالى من يرُدُ الحقَ إذا جاء به من يُبغضه، ويقبَلُه إذا جاء به من يُحبُه، فهذا خُلُق الأمة الغضبيَة».

ويزيدُ الأمرُ تأكيدًا -عباد الله- على كل من له سهمٌ في العلم والدعوة، ومنابر الإعلام المرئيَة والمقروءَة والمَسموعَة أن يتقُوا اللهَ فيما يأتُون ويذرُون، وأن يتقُوا الزلات الفادحَة، وألا يتتبَعوا الزلات المعفُو عنها؛ فإن ذلكم هو الوسطُ الذي خصَ به أمَتَنا من بين سائر الأمم.

ألا أيها العُقلاء احذرُوا

لئلا يزِلَ بنا عالمٌ

فإن بزلَته عثرةٌ

يزِلُ على إثرها عالَمُ

هذا؛ وصلُوا -رحمكم الله- على خير البرية، وأزكى البشرية: محمد بن عبد الله، صاحب الحوض والشفاعة؛ فقد أمركم الله بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنَى بملائكته المُسبحة بقدسه، وأيه بكم -أيها المؤمنون-، فقال -جل وعلا-: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، واخذُل الشركَ والمشركين، اللهم انصُر دينَك وكتابَك وسُنةَ نبيك وعبادَك المؤمنين.

اللهم فرِّج همَ المهمومين من المُسلمين، ونفس كربَ المكرُوبين، واقضِ الدَيْنَ عن المَدينين، واشفِ مرضانا ومرضَى المُسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أصلِح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم أصلِح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم انصُرهم في سوريا، وفي بُورما، وفي سائر بلاد المسلمين يا رب العالمين.

التفاؤل والتشاؤم

إعداد/ الشيخ سعود بن إبراهيم الشريم
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينُه، ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضلَ له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢]، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء: ١]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهُدى هُدى محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشرَ الأمور مُحدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المُسلمين؛ فإن يدَ الله على الجماعة، ومن شذَ عنهم شذَ في النار: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء: ١١٥].

تزايد المحن والمصائب يدفع الإنسان لليأس والتشاؤم:

أيها المسلمون: في مُعترَك هذه الحياة وهمومها وغمومها، وعُجَر الإنسان وبُجَره التي تغلي بفؤاده غليَانًا، لا يحتمل معه هواءً ولا وقودًا يزيدُه اشتعالاً، ولا ماءً يزيدُ طينَه بلة، حتى يكون حرَضًا أو يكون من الهالكين.

إنها صُروفُ حياةٍ مُوجعة ترى الناسَ فيها يغدُون، فبائعٌ نفسَه منهم فمُعتقُها أو مُوبقُها، هكذا هم الناسُ مع الغِير والمحَن التي تُصيبُهم أو تحُل قريبًا من دارهم، إلا من رحِم الله، وقليل ما هم.

إننا لنُشاهد بأعيُننا ونسمعُ بآذاننا المصائبَ إثرَ المصائب، والأحزانَ إثرَ الأحزان لإخوانٍ لنا في الدين، أو جيرانٍ أو قرابة، أو لنا نحن قبلَهم أو بعدهم -عافانا الله وإياكم منها-، فنقفُ أمامَها مُحدقِي الأبصار، نخبطُ في التعامُل معها خبطَ عشواء، يغلبُ علينا بسببها اليأسُ والقنوطُ والتشاؤم الذي لا يزيدُ الكربَ إلا ضيقًا، ولا الضيقَ إلا حرجًا، كأنما يصَعَّدُ أحدُنا في السماء، فلا يزيدُ الجرحَ إلا إيلامًا.

كل ذلكم يعترينا على فترةٍ من الفَأل والأمل بالله؛ إذ كلُنا أحوجُ ما نكونُ في المضائق والمُدلهمَات إلى استحضار طيف السَعَة، وفي الكُروب إلى استحضار طيف الفرَج.

إن أيَ مُجتمع لم تطلْه نيرانُ الحروب والتدمير من الداخل والخارج لهُوَ في عافيةٍ وسلامة، فليرْعَها وليستجلِبْ أسبابَ أمنه الفكري والغذائي والصحي والمالي والجنائي على حد سواء، وليبذل قوتَه وجُهدَه لدفع أسباب الفوضى والتفرُق والتشرذم قبل ألا ينفعَ حولٌ لنا ولا قوة.

وإن الوقايةَ خيرٌ من العلاج، والدفعَ أولى من الرفع، وإذا لم يُغبر حائطٌ في وقوعه فليس له بعد الوقوع غُبار.

أحسنُ أدوية المحَن والملمات وأنفعها في الحال والمآل:

إن أحسنَ أدوية المحَن والملمات، وأنفعها في الحال والمآل: هو حُسنُ الظن بالله، من خلال وجودِ الفأل الحسن في داخلة المرء؛ إذ بالفأل يحسُنُ ظنُك بربك وتقتدي بهدي نبيك -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنه -صلى الله عليه وسلم- كان يُعجبُه الفألُ الحسنُ، ويكرهُ الطيرَة -وهي

التشاؤُم- لأنها سُوءُ ظنٍ بالله تعالى بغير سببٍ مُحقَق.

فإن الله -جل وعلا- يُجري للعباد بالمصائب الأجورَ، ويرفعُ الدرجات، ويُكفِرُ السيئات، ثم يُتبعُها الفرجَ وحُسنَ العواقب. فكم مَن المحَن في طيَاتها منَح!! وكم من العُسر أتبعَه اليُسرُ! ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، ولن يغلبَ عُسرٌ يُسرَيْن.

غير أن بدايةَ طريق الوُصول من العُسر إلى اليُسر هو الفأْلُ وحُسن الظن بالله؛ فإنه يجعلك تُحسُ بالنور ولو كنت أعمَى البصر؛ لأن التشاؤُم لا يُريك إلا الظلام ولو كنتَ أبصرَ الناس.

حياةُ المُصطفى -صلى الله عليه وسلم- مليئة بالفأل والتفاؤل

ولذا فإن من سبَرَ حياةَ المُصطفى -صلى الله عليه وسلم- وجدَها مليئةً بالفأل والتفاؤل، حتى في لقائه مع عدوه اللدُود؛ فإنه -صلى الله عليه وسلم- لما كان في صُلح الحُديبية، وأقبلَ عليهم رجلٌ من قُريش -هو سُهيل بن عمرو-، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لقد سهُلَ أمرُكم».

حب رسول الله للفأل الحسن:

ولقد كان من حُبه -صلى الله عليه وسلم- للتفاؤل لما فيه من حُسن الظن بالله، والصلة بين العبد وبين ربه بهذا الظن، أن راعَى حُسنَ تسمية المرء واختيارَ ما يبعثُ على التفاؤل منها على ما يبعثُ على التشاؤم.

فقد قدمَ علي النبي -صلى الله عليه وسلم- جَدُ سعيد بن المسيَب -واسمُه حَزْن-، فقال -صلى الله عليه وسلم-: «ما اسمُك؟!». قال: اسمي حَزْنٌ، قال: «بل أنت سَهلٌ». قال: ما أنا بمُغيرٍ اسمًا سمَانيه أبي. قال ابن المُسيَب: «فما زالَتْ فينا الحُزُونَة بعدُ». رواه البخاري.

ولم يقتصر تفاؤل النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما يكون في أرض الواقع؛ بل إنه يستحضره حتى في تعبير الرُؤَى المنامية؛ فقد جاء عند مسلم في صحيحه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «رأيتُ ذات ليلةٍ فيما يرَى النائمُ كأنا في دارِ عُقبَةَ بن رافع، فأُتينا برُطَبٍ من رُطَبِ ابنِ طاب، فأوَلتُ الرفعةَ لنا في الدنيا، والعاقبَةَ لنا في الآخرة، وأن ديننَا قد طابَ».

فلله! ما أعظم الفأل في سيرة حبيبنا وقُدوتنا -صلى الله عليه وسلم-، إنه لا يُريد لأمَته أن تيأسَ أو أن تتشاءَم؛ لأنه لم يُبعَث إلا رحمةً للعالمين، يُقربُهم إلى الله، ويُحيي روحَ التفاؤل، وحُسنَ الظنِ به، حتى في حالِ الدعاءِ بين العبدِ وبين ربه.

يُذكرُنا -صلى الله عليه وسلم- بالفأل فيقول: «ادعُوا اللهَ وأنتم مُوقِنون بالإجابة». رواه الترمذي.

وإني لأدعُو اللهَ حتى كأنما أرَى بجميلِ الظن ما اللهُ صانِعُ

تربيته للأمة على الفأل الحسن:

ويُربي أمَتَه -صلوات الله وسلامُه عليه- حتى وإن اشتدَت بهم المضائق، وأنَت أنَتُهم، وحنَت حانَتُهم، وانصاحَت جبالُهم، واغبرَت أرضُهم؛ فإن الفرجَ في الفأل والسَعَة في الأمل بالله؛ فقد كان -صلى الله عليه وسلم- إذا استسقَى بأصحابه قلَبَ رداءَه تفاؤلًا في أن يُغيرَ الله حالَهم من الشدَة إلى الرخاء، ومن الجدبِ إلى الغيث والإنبات.

فإذا كان هذا في انحباس المطر عنهم؛ فكيف بانحباس النصر والتمكين؟! وتغيُب عزَتهم وكرامتهم بعد أن سُلبَت منهم؟!

ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أن عليًا -رضي الله تعالى عنه- عندما أرادَ المسيرَ لقتال الخوارج، عرَضَ له مُنجمٌ، فقال له: يا أميرَ المُؤمنين: لا تُسافر؛ فإن القمرَ في العقرَب، فإنك إن سافرتَ والقمرُ في العقرَب -أي: في بُرج العقرَب- هُزم أصحابُك. فقال عَليٌ -رضي اللهَ تعالى عنه-: «بل نُسافر ثقةً بالله، وتوكُلًا على الله، وتكذيبًا لك». فسافرَ، فبُورك له في ذلك السفر، حتى قتلَ عامَةَ الخوارج. وكان ذلك من أعظم ما سُرَ به -رضي الله تعالى عنه-.

إنه الفأل والأمل بالله الذي تعلَمَه من حبيبه وقُدوته -صلوات الله وسلامُه عليه-.

الله بيده ملكوت كل شيء فلم الجزع؟!:

إنك -أيها المرءُ- مُخيرٌ في حياتك وما يعتريك

فيها بين اليأس والأمل، والتفاؤل والتشاؤم؛ فالأمل والتفاؤل لك مع الله، واليأس والتشاؤم لك مع الشيطان: (لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) [المجادلة: ١٠]، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي». رواه البخاري ومسلم.

فها هُما طريقان وبابَان أمامَك -أيها المرء-، فانظُر أيَ الطريقين أو أيَ البابَيْن تختارُ؟! (كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ) [المدثر: ٣٨، ٣٩].

الفأل علاج للتشاؤم:

واعلموا أيها الأحبة أن للمرء أن يعجبَ كلَ العجَب حينما يرَى مصارع أهل المصائب والابتلاءات، أفرادًا وجماعات، كيف سفُلَت نفوسُهم، وخارَت هِمَمهم، فلم يطلُبُوا رفعةً، ولم يستجلبُوا فألاً، وإنما خيَمَ على أفئدَتهم جيوش اليأس والقنوط والحطة، فلم يجعَلوا للأمل بريقًا، ولا للفأل طريقًا.

أما لو أدرك هؤلاء جميعًا أن الله بيده ملكُوتُ كل شيء، وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه، وأن ما شاءَ كانَ وما لم يشأ لم يكُن؛ لما أمكنَ -مع ذلك- أن يتحكم فيهم اليأس، أو تغتالَهم غائلةُ القنوط التي تُودي ببعضِهم إلى حُزنٍ وقلَقٍ واكتئاب، ولربَما كانت حبلاً ممدودًا لانتحَال الهلكَى منهم، أعاذَنا الله وإياكم من ذلك.

الفأل -عباد الله- فيه معنى الصبر والرضا، والنصر والعِزّة والرجاء. واليأسُ والتشاؤم فيهما معنى السَخَط والهزيمة والذلة والقلق.

الفأل لا يعني تحقُق الأشياء بالضرورة، لكنَه أُسُ علاج التشاؤم واليأس، ففي جو الفأل يتعافَى الفكرُ والبدنُ، ويكونُ العبدُ أقربَ إلى الله ورسولِه -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهما أمرَا به. وفي جو اليأس يبعُدُ العبدُ عن الله، وعن رسولِه -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهما قد نهَيَا عنه.

الفأل -عباد الله- أُولَى خُطوات العمل، والتشاؤم أُولَى خُطوات الكسَل والإخلاد إلى الأرض واتباعِ الهوَى. الفأل -عباد الله- كالمرهَم على الجُرح، والتشاؤم كالملح على الجُرح. فالفأل -عباد الله- ثقةٌ بالله، وإيمانٌ بقضائه وقدره، وفي التشاؤم سُوءُ ظن بالله وريبةٌ في قضائه وقدره. الفأل حياة، والتشاؤم وفاة.

الفأل نورٌ للفتى وسعادةٌ

فاهنَأ بدربٍ يستضِيءُ بفالِكَا
ما الشُؤمُ إلا ظُلمةٌ وشقاوةٌ
من نالَ منه الشُؤمُ أصبحَ هالِكَا

هذا؛ وصلُوا -رحمكم الله- على خير البرية، وأزكى البشرية: محمد بن عبد الله، صاحب الحوض والشفاعة؛ فقد أمركم الله بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنَى بملائكته المُسبحةً بقُدسه، وأيه بكم -أيها المؤمنون-، فقال -جل وعلا-: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وارضَ اللهم عن خُلفائه الأربعة: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعلي، وعن سائر صحابة نبيك محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعن التابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وجُودك وكرمك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، واخذُل الشرك والمشركين، اللهم انصُر دينَك وكتابَك وسُنةَ نبيك وعبادَك المؤمنين.

اللهم فرج همَ المهمومين من المُسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين، ونفس كربَ المكرُوبين، واقضِ الدَيْنَ عن المَدينين، واشفِ مرضانَا ومرضَى المُسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم كُن لإخواننا المُستضعَفين في دينهم في سائر الأوطان، اللهم كُن لهم ولا تكُن عليهم، اللهم انصُرهم على من بغَى عليهم يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، اللهم اجعل شأنَ عدوهم في سِفال، وأمرَه في وَبال يا حي يا قيوم، يا سميع الدعاء.

الحياة الإيمانية والحياة المادية

إعداد/ الشيخ الدكتور/صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة







الحمد لله ذلّ كل شيء لعزّته، وتواضعَ كل شيء لعظَمته، لا إله إلا هو، يجري كل شيء بقدَره وقُدرته، أحمده -سبحانه- واشكرُه؛ عمّنا بجُوده وفضله ونعمته، ووعدَ الشاكرين من فضله بزيادته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لا شريكَ له في أسمائه وصفاته، وفي ربوبيّته والوهيّته، وأشهد أن سيدَنا ونبيّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله منَ علَينا ببعثته، وجعل خاتمةَ الرسالات في رسالته، صلى الله وسلم وبارَك عليه، وعلى أصحابه وعترته، والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ والتزَمَ نهجَه وسارَ على سُنّته، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ نالَ السعادةَ من باتَ مُعافى في بدنه، آمنًا في سربه، عنده قُوتُ يومه، عابدًا لربه، وبلغَ السيادةَ من كان غِناه في قلبه، راضيًا بكسبه، علمَ أنّ الدنيا غرّارةٌ خدّاعة، لا تُساوي همَ ساعة، فجعلَها لربه عملاً وطاعة. له قلبٌ قانعٌ بالعطاء، ونفسٌ مُطمئنةٌ بالقضاء، لم يكن صاحبَ هوى فتنَه هواه، ولا صاحب دُنيا أهمَته دُنياه، غلبَ حلمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

الإنسان محور المسؤولية:

معاشر المسلمين: اقتضَت حكمةُ الله -عزّ شأنُه- أن يجعل الإنسان في هذه الدنيا محورَ المسؤولية، ومحل التكليف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

غاية الإنسان التي خلق من أجلها:

وغايةُ الإنسان التي خُلق من أجلها، ويحيا في سبيلها هي غايةٌ إيمانية، وعقليةٌ فكرية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ

بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) [الحج: ٤٦]، (وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ) [النحل: ٧٨].

ولا تستقيمُ إنسانيةُ الإنسان، ولا تصلُحُ حياتُه إلا بالإيمان والعمل الصالح: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا) [الكهف: ٣٠].

وهو -أي: الإنسان- إن تخلَّى عن ذلك فهو كمثَلِ الحمار يحمِلُ أسفارًا، وكمثَلِ الكلبِ إن تحمِل عليه يلهَث أو تتركه يلهَث.

إن الإنسان الصالح هو إنسانُ الإيمان والأخلاق، والقيَم والمبادئ، والشرَف والفضيلة، والكرامة والنزاهَة، والصدقِ والاستقامة والمسؤولية.



خطأ النظرة المادية للعالم:

العقلُ الإنسانيُ وحدَه -أيها الإخوة في الله- لا يستطيعُ أن يستقلَ بالقرارات الصحيحة والأحكام الصائبَة: (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ) [المؤمنون: ٧١]؛ ذلكم أن الإنسان ذو نزَعَات نفعيَة ضيقة؛ بل إنه بعقله واستبداده وهواه يُحاوِل أن يغتصبَ ما يستطيعُ اغتصابَه، وينهَبُ ما يقدِرُ على انتهابه.



الإنسان بعقله المجرَد، وهواه الطاغي تجلى وتجسَد في كثيرٍ من مظاهر حضارَة اليوم، فلا اعترافَ بعالم الغيب، ولا بما وراء الطبيعة -كما يُعبرون-، وإنما هو العالمُ المحسوسُ المنظورُ ولا شيء غيرُه.



بل لقد جعَلوا الإنسان هو الصانع لقيَمه، فاتَخذَ لنفسه نهجًا ومسارًا ابتعَدَ فيه عن الدين والإيمان، وما جاءَت به الرُسُل وتنزَلَت به الكتب، حتى قالوا: لا توجد حقائق ثابتةٌ للعدل والحرية، ولا معاييرُ ضابطةٌ للأخلاق والمصالح، ولكنها النسبيةُ القاتلةُ، فلا عداوات وصداقات، ولا صدقَ في العلاقات؛ بل هي مصالحُ الأقوى، وأحكام الأظلَم، وهوَى الأطغَى.

مغبة طغيان النظرة المادية:

معاشر الأحبَة: بسبب تحكيم العقل -بل تحكيم الهوى- ضعُفَت القيَم، وطغَت النظرةُ الماديةُ؛ بل برزَت العنصرياتُ، وتجسَدَت العصبيات.

وإنك لترَى المُنتسبَ للتقدُم والعلم وهو يحمِلُ التعصُبَ المقيتَ للونه وقوميَته رغم ما حقَقَه من تقدُم مادي، بل لقد حاربَ الدينَ والتديُنَ، حتى أصبحَ أسيرًا للماديات والمحسوسات، فحقق فيها نجاحًا لا يُنكر، ولكنَه فشل في الحفاظ على كرامة البشر من غير أجناسهم وقومياتهم.

بل لقد عَوْلموا الحروبَ والصراعات والتظالُم، ولسوف يكون الوضعُ أكثرَ حدَةً، وأشدَ قسوةً، وأقسَى وحشيَةً، كلما تعاظمَت وسائلُ قوَته وأدواته في جشَع المادة، واستعظام القوة، ولقد تضاعَفَ تعدادُ الضعفاء والبُؤساء من ملايين الثكلى، والجوعَى، والعُراة، والمرضَى، والمعدَمين.

وإنك لترَى المُخترع في اختراعه، والمُكتشف في اكتشافه، والصانعَ في صناعته يهدفُ نفعَ الناس في ميادين الطعام والغذاء والكساء والدواء من أجل مزيدٍ من الصحة والعافية والسلامة، غيرَ أن معامَلهم هذه ومُختبراتهم ومصانعهم هي التي تُنتجُ -وبشكل أكبر وأفظَع وأثرَى- تنتجُ الغازات السامَة القاتلة، والأسلحة الفتاكة المُدمرة، وهي التي تُهدد بالحروب الجرثوميَة، والكيميائية، والنووية.

وسباقُ التسلح لا سقفَ له ولا حدود، وصدقَ الله العلي العظيم: (يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ) [الروم: ٧]، (وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ) [الرعد: ٣١].

إفراغ العلوم من الإيمان والقيم مؤذن بالهلاك:

معاشر المسلمين: إن إفراغَ العلوم من الإيمان والقيَم والمُثُل العُليا أصابَ دُنيا هذا العصر بالعُقَم والانحطاط، وأوصلَ إلى الطريق المسدود، فالحريةُ لا حدود لها، والعدل لا ضابط له، والمصالح لا معايير لها، والغايةُ تُبررُ الوسيلة!

وما كان ذلك -وربكم- إلا بسبب قيام هذه القيَم على الفصل بيْن العلم والإيمان، والدين والحياة، والعلوم والأخلاق، فلا صداقات ولا عداوات، ولكن مصالح يُديرُها الأقوى، ويتحكم فيها الأغنى.

فالعلمُ فروضٌ ونظريّاتٌ وظواهرُ لا شأنَ لها بالقيَم، وتكون القاصمة حين يتقرّر أنه لا علاقة لها بالدين والحياة.

الارتباط الوثيق بين الإيمان والحياة:

أيها العقلاء: العلمُ من غير دين فاقدُ البصيرة، بل هو وحشٌ ضارٍ يُهلك الحرث والنسل، والإنسانُ من غير إيمان حيوانٌ بهيمٌ، مفترسٌ شرسٌ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

نعم، حين توجّه العلمُ إلى هذا المسار المادي اتّجهت نتائجُه إلى هذا التوجُّه التخريبي الذي أرعبَ الإنسانيّة جمعاء، في كلا مساريْه: العملي والنظري. ومن هنا؛ فإن كل قوانين البشر ومواثيقها واتفاقياتها سُرعانَ ما تتلاشى، وتظهر عيوبُها وثغراتُها وظلمُها وانحيازها.

ليتَ أهل الحضارة يعلمون أن هناك ارتباطًا وثيقًا، بل ميثاقًا غليظًا لا انفكاك عنه بين الإيمان والحياة، والإيمان والعلم، والعقيدة والعمل، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

إن القيَم العظيمة من البر والإحسان، والصدق والإخلاص والوفاء، واحترام كرامة الإنسان، والتواضع والتعاون، ونكران الذات، وحب الخير للناس، والصبر في الشدائد والكروب وغيرها، كل أولئك لا يمكن أن تُقام على وجهها إلا بسياج من الإيمان بالله وتقواه وخشيته، وحُسن عبادته، والرغبة والرهبة فيما عنده في الدنيا والآخرة.

نماذج مما مسخه الماديون من شعائر الدين:

معاشر العقلاء، أيها المسلمون: ومما يُجلي ذلك ويُبرزه: هذه المقارنة في قيمة من القيَم، كيف هي في الميزان الصحيح، وكيف آلت إليه في هذا العصر؟! إنها قيمة الزواج وغايته.

الزواجُ في الميزان الصحيح ميثاق غليظ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١].

نسبٌ وصهرٌ، وبناءُ أسرة، ورباطُ عشيرة، وأهلون وأقربون، وحُسن عشرة، وإحسانٌ ومودّة، وإمساك بمعروف، وتحمُّل ومسؤوليّة. الأسرةُ مأوى ومدرسة، وحِضنٌ دافئٌ، ودارُ رعاية حانيَة.

أما في هذا العصر وما يُريده ماديُو هذا العصر بقيَمهم المادية، ونظرتهم الأنانية والعُنصرية؛ فالزواجُ عقدٌ باهت، وارتباطٌ مهزوز، وعلاقةٌ جامدة، تفتقدُ كل وظائف الأسرة، يلتقي فيها الشبَحان (الزوج والزوجة) في تواصُل بارد، حتى استبدَلوا الأولادَ بحيواناتٍ استأنسوها وتألفوها.



أما وظائفُ الأسرة فقد أُنيطت بمُؤسّسات وهيئات مُختلفة؛ فزادَت دورُ الرعاية لرعاية اللُقطاء، والمسنين والعَجَزة، والضمانُ الاجتماعيُ في رعاية الدولة أو الهيئات الاجتماعيَة.



في الأسرة المُعاصرة إذا بلغَ الأبوانِ مرحلةَ العجز والشيخوخة، فالحل هو إيداعُه في إحدى هذه الدُور، حتى يبلغ الكتابُ أجلَه، لا يزُورُ ولا يُزار، وقد يُحسنُون إليه في بعض المناسبات بزيارة أو وردة أو بطاقة.

وأما الأولادُ فإذا بلغوا سِنَ الرُشد عندهم فلا علاقةَ لهم بأسرتهم، ولا والديهم، ولا مسؤوليَة ولا رحم ولا صِهر، ومع الأسف فإن هذه الصورة من المقارنة لم تعُد قاصرةً على إقليم دون إقليم، إلا من رحِمَ ربُك.



وإن شئتُم صورة أخرى، أو قيمةً أخرى يُمكن التمثيل بها؛ فهي قيمة العفاف، أو خُلق العفة، وهل للعفاف وُجودٌ في الحياة العادية المعاصرة؟!

العفةُ -حفظكم الله- هي ضبطُ النفس واعتدالُها في لذاتها الجسميَة والنفسيَة، أكلاً وشُربًا، وكسبًا واتصالاً وعواطف.

والمسارُ المعاصر مُنهمكٌ في الملذات بنَهَم لا ينتهي، وظمأ لا يرتوي. لماذا؟! لأن الحياةَ عندهم لا تتجاوزُ عالمَ الأرض، في ارتماء مقيت في أحضان المادّة لا قعرَ له، ناهيكم بقانون: (الغاية تُبرِرُ الوسيلة) حينما يُكشِرُ عن أنيابه

البشعة، يجرفُ كل ما بين يديه وما خلفه.

ومن خلال ذلك: ترى صورة الإنسان المعاصر فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول المظهر، مُظلم المخبر، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس. عيونٌ لا تعف عن الحرمات، وقلوبٌ لا تزجرُها القوارع، كل ما عندهم من علم وفن، وسياسة وتربية، وعقل وقلب يطوف حولَ الماديات.

وبعد -حفظكم الله-:

لقد قُتل الإنسان من غير حرب، وعُذب من غير ضرب، آنَ لأهل الفقهِ والنظر أن يعرفوا معالمَ التحضر الحقيقي، وأين هي مساراتُ التقدم المنشود؟! وأين هي آثارُ القيم؟!



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].



الدين لا يقف عند الدعوة إلى مكارم الأخلاق:

أيها المسلمون: إنها سُنةُ التدافع بين الحق والباطل، والخير والشر، والعدل والجور، ونحن -المسلمين- لسنا نشك لحظة واحدة بأن القادر -بإذن الله- على تخليص البشرية من شقوتها، وتزويدها بمنهج الحياة الصالح هي هذه الأمة بدين الحق: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].



إن الطريق واضحٌ، والنهج أبلج، إنه الاعتصامُ بحبل الله والتمسك بشرعه. والإيمانُ هو الآصرةُ التي تجمعُ القلوب، والأخوةُ الحقةُ هي الأخوة الإيمانية.

الدين لا يقف عند الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وعدد القيم وتمجيدها؛ بل هو الذي يُرسيها، ويُحددُ معالمها، ويضبط مقاييسَها، ويضعُ الجزاءَ لها ثوابًا وعقابًا.

واعلموا -حفظكم الله- أن خزائنَ الإسلام لم تنفد، وجدةَ الإسلام لم تخلق. إن سرَ بقاء هذا الدين وعصيانه على الذوبان، وقوة مقاومته؛ لأنه حقٌ من عند الله، ومحفوظٌ بحفظه، ربانيٌ كاملٌ شاملٌ في عقائده وتشريعاته وقيمه وأخلاقه، وكلها قيمٌ عُظمَى، ومُثلٌ عُليا مُتماسكةٌ بقوة تجعلها -بحفظ الله وحكمته- العقبةَ على كل من يُحاولُ النيلَ منها، أو عصرَها أو قهرَها.

ويكفيكم عزةً وقوةً وأملاً: ما يُحققه دينُكم من انتشار في كل أصقاع الدنيا قويها وضعيفها، شمالها وجنوبها، رغم حملات التشويه والتجني. دينٌ عظيمٌ عزيزٌ إذا تطاولوا عليه اشتدَ، وإذا تركوه امتدَ، فلله الحمدُ والمنة.

والمسلمون حين يعودون إلى دينهم، ويعتزون بقيمهم، ويتمسكون بشريعتهم سوف لن يُنقذوا أنفسَهم وحدَهم، ولكنهم سوف يُنقذون البشريةَ كلها التي تئنُ من وحشيةِ الغاب، وتعاظم الدمار والخراب.

فدينُنا هُدًى للناس أجمعين، ونبيُنا محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- هو رحمةُ الله للعالمين، وجميل أن يُوقنَ أهلُ الحق أن ما يرونه من صراع مصالح ما هو إلا صراعُ مبادئ، صراعٌ بين الحق والباطل، صراعٌ بين ما جاء به هذا الدين ومن يُريدون إطفاءَ نور الله، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وليُؤثرَ دينه على الدين كله ولو كره المشركون.

هذا؛ وصلوا وسلموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُكم، فقال -عزَ قائلاً عليمًا-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد الحبيب المصطفى، والنبي المُجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعلي، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَ الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، واخذل الطغاة والملاحدة وسائر أعداء الملة والدين.



منبر الحرمين

الأسباب الجالبة للرزق

إعداد
الشيخ الدكتور / صالح بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام
بمكة المكرمة

الحمد لله، الحمد لله عنَت الوجوه لجلال وجهه، لا إله إلا هو عجَزت العقول عن إدراك كنهه، وقامَت البراهين على نفي مثله وشبهه، أحمده -سبحانه- وأشكرُه، الفضلُ والخيرُ بيديه، والعملُ والرغباءُ إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له صرَّف شؤون الخلق بحكمته، وعمَّهم بجُوده ورحمته، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه بعثَه بالإيمان مُناديًا، وإلى جنة الله ورضوانه داعيًا، صلى الله وسلم وبارَك عليه، لا خيرَ إلا دل عليه، ولا شرَّ إلا حذَّر منه، وعلى آله وأصحابه أفضل صحب وخير آل صلاةً وسلامًا يُبلغان من ربنا الآمالَ، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا مزيدًا إلى يوم المآل.

أما بعد: فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، واعلموا أن لكم علمًا فانتهوا إلى علمِكم، ولكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم.

محدودية مراحل عمر البشر:

أيها الإخوة: أيام العُمر مراحل معدودة، إلى وجهة مقصودة، للنفوس مواعيد تطلبُ آجالَها، وأعمارٌ مُقدَرةٌ لآمالها، وآجالٌ مُؤخرةٌ لميعادها، فلا استزادةَ ولا استنقاص، ولا فواتَ ولا مناصَ، إنما هي آمادٌ مَضروبة، وأنفاسٌ محسوبة، لله وحده البقاء، وللخلائق الفناء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين:

أيها المسلمون: اعملوا؛ فكلٌ مُيسَرٌ لما خُلق له، أرأيتم لو أن أرزاقَ الناس بأيدي البشر؛ فكم سيقع من الظلم والتظالم، والبغي والفساد. تالله لو تُرك ذلك إليهم لظلَمَ بعضهم بعضًا، ولبغَى بعضهم على بعض؛ بل لنسِيَ بعضُهم بعضًا، ولغفَل بعضهم عن بعض!

فسبحان الرزاق الكريم ذي القوة المتين، لا يظلمُ ولا يبغي، ولا ينسَى ولا يغفَل؛ بل يتفضَل ويُنعم، ويُحسن ويرحم، وهو اللطيف الخبير: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢١- ٢٣].

معاشر المسلمين: إن همّ الرزق قد أكل قلوبًا، وأشغل عقولاً. في بعض الناس هلعٌ وجزعٌ حينما يسمع بالتغيُرات الاقتصادية، والتقلبات المالية، والمُشكلات في أمور المعاش، وكأنهم لا يعلمون أن الله -عزّ شأنه- قد تكفل بالرزق لجميع خلقه إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، قويهم وضعيفهم، كبيرهم وصغيرهم: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

انشغال عقول الناس بطلب الرزق:

عباد الله: لا يستبطئنّ أحدٌ رزقه، فلن يخرج من هذه الدنيا أحدٌ حتى يستكمل رزقه وأجله، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب.

لقد كتب الله رزق ابن آدم وقدّره قبل أن يأتي إلى هذه الدنيا؛ عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حدّثنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق-: «إن أحدكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يومًا نُطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملَك فينفخُ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكَتب رزقه، وأجله، وشقي وسعيد...». الحديث. متفق عليه.

الأسباب الجالبة للرزق:

معاشر المسلمين، ومعاشر الأحبّة: وهذا عرضٌ في بعض الأسباب الجالبة للرزق، هدى إليه الربُ، ودل عليها الشرع:

١- أما أول ذلك وأولاه: فتقوى الله -عز وجل-؛ فمن اتقى الله ولزمَ مرضاته رزقه من حيث لا يحتسب، وعدٌ من الله حقٌ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

يرزقه من جهة لا تخطُر له على بال، ومن حيث لا يرجُو ولا يُؤمل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يتقي العبدُ ربّه ظاهرًا وباطنًا، يتقي الله في نفسه وأهله وماله وعمله وفي شأنه كله.

ومن الأسباب -حفظكم الله-:

٢- كثرةُ الاستغفار والمُداومة عليه، يقول -عزّ شأنُه- مُخبرًا عن نبيه نوح -عليه السلام-: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾[نوح: ١٠- ١٢]، ويقول عن هود -عليه السلام-: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وورد في الحديث: «من أكثرَ الاستغفار جعل الله له من كل هم فرَجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب». رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

يقول القرطبيُ -رحمه الله-: «وهذا دليلٌ على أن الاستغفار يُستجلَبُ به الرزق، ويُستنزَل به الغيث».

استغفارٌ يتواطأ فيه القلبُ مع اللسان غيرَ مُصرٍ على ذنب، ولا عازم على عود.

ومن الأسبابَ الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٣- حُسن التوكل على الله:

ومن أعظم الأسباب -عباد الله-: حُسن التوكُل على الله، فيتعلّقُ القلبُ بمولاه، ويُفوضُ أمرَه إليه؛ فمن توكّل على الله كفاه ما أهمّه، ودفع عنه ما ضرّه وأغمّه، ورزقه من حيث لا يحتسب، وفي الحديث: «لو أنكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزُقُ الطيرَ تغدُو خِماصًا وتروحُ بطانًا». رواه أحمد، والترمذي، وهو صحيح الإسناد.

يقول الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: «هذا الحديث أصلٌ في التوكّل، وأنه من أعظم الأسباب التي يُستجلَبُ بها الرزق».

قال بعضُ السلف: «توكّل تُسَق إليك الأرزاق بلا تعب ولا تكلف».

ومما ينبغي أن يُعلم في هذا المقام -عباد الله-: أن التوكّل لا يُعارضُ الأخذ بالأسباب، والاجتهاد في الطلب؛ بل قال أهل العلم: «إن السعيَ في الجوارح واقتفاء الأسباب طاعةٌ لله، والتوكّل بالقلب إيمانٌ به -سبحانه-».

وقد قال -عزّ شأنُه- في طلب الأسباب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وقال -عزّ شأنه-: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

يقول القرطبيُ -رحمه الله-: «سوّى الله في هذه الآية بين درجة المُجاهدين والمُكتسبين المال الحلال للنفقة على النفس والعيال والإحسان والإفضال»، قال -رحمه الله-: «فكان دليلاً على أن الكسبَ بمنزلة الجهاد؛ لأنه جمعَه معه».

وعُمر -رضي الله عنه- يقول: «لا يقعُدُ أحدُكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزُقني؛ فقد علِمتُم أن

السماءَ لا تُمطرُ ذهبًا ولا فضة».

والتوكل محلّه القلب، والسعي وظيفة الجوارح، وما تعسّر من شيءٍ فبتقديره، وما تيسّر من شيءٍ فبتيسيره، ولما قال رجلٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أُرسل ناقتي وأتوكل؟! قال له: «اعقلها وتوكل». أخرجه الحاكم في مستدركه، قال الذهبي: «إسناده حسن».

ومن الأسباب الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٤- صلة الرحم:

ومن الأسباب الجالبة للرزق والمُباركة فيه -حفظكم الله-: صلة الرحم؛ ففي الحديث الصحيح: «من سرّه أن يُبسَط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أجله، فليصل رحمَه». رواه البخاري.

وفي حديث عند أحمد: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامَكم؛ فإن صلة الرَحِم محبّة في الأهل، ومثراة في المال، ومنسأة في العُمر». صحّحه الألباني -رحمه الله-.

فلصلة الرَحِم آثارٌ عجيبة، وثمارٌ مشهودةٌ من بسط الرزق، وزيادة العُمر، ودفع ميتة السُوء، وغرس المحبّة، وفي الحديث عند ابن حبّان -وسنده صحيحٌ بشواهده-: «إن أعجل الطاعة ثوابًا: صلةُ الرَحِم، حتى إن أهل البيت ليكونون فجَرَة فتنمُو أموالُهم، ويكثر عددُهم إذا تواصَلوا، وما من أهل بيت يتواصَلون فيحتاجُون».

٥- من الأسباب الجالبة للرزق والمُباركة فيه: الإنفاق في سبيل الله:

معاشر المسلمين: ومن عجائب حكمة الله وفضله: أن جعل الإنفاقَ من أسباب جلب الرزق وسَعَته؛ فمن أنفق أخلف الله عليه، وبارك له فيما عنده: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. يُخلفُه عليه في الدنيا بالبدل والبركة، وفي الآخرة بحُسن الجزاء وعظيم الثواب، وفي التنزيل العزيز: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: «اثنان من الله، واثنان من الشيطان؛ الشيطان يعدُكم الفقرَ ويقول: لا تُنفقه وأمسكه لك فإنك تحتاج إليه، ويأمرُكم بالفحشاء، والله يعدُكم مغفرةً منه على المعاصي والذنوب، وفضلاً في الرزق».

وفي الحديث القُدسي: «يا ابن آدم: أنفِق أُنفِق عليك». رواه مسلم.

وفي الحديث الصحيح: «ما من يوم يُصبحُ فيه العباد إلا وفيه ملَكان ينزلان، فيقول أحدُهما: اللهم أعطِ مُنفقًا خلَفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمسكًا تلَفًا». رواه البخاري.

فأنفقوا -عباد الله-، وأبشروا بالخلَف الواسع من فضل الله؛ بل لقد قال -عزّ شأنه-: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ومن الأسباب الجالبة للرزق والمباركة فيه:

٦- الإحسان إلى الضعفاء والمحتاجين:

معاشر المسلمين: ومن أسباب الرزق وأسباب سعَته: الإحسان إلى الضعفاء والمحتاجين، وتفقّد أصحاب الحوائج، وفي الحديث: «وهل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضُعفائكم!!». رواه البخاري.

وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «ابغُوني في ضُعفائكم؛ فإنما تُرزَقون وتُنصَرون بضُعفائكم». رواه أبو داود، والترمذي.

وهذا يشمل أصناف ذوي الحاجات؛ من الفقراء، والمساكين، والمرضى، والغرباء، ومن لا عائل له.

وإن أوضاعَ الأمة ومآسيها قد أوقعَت كثيرًا من إخواننا وجيراننا في أحوال وشدائد؛ فتفقّدُوهم، وأحسنوا إليهم، وأنفقوا يُخلِف الله عليكم، ويُبارك لكم؛ بل إنكم بهذا تستجلبون نصرَ الله وعونَه وتأييدَه.

و من الأسباب الجالبة للرزق والمُباركة فيه:

٧- الاستقامة على دين الله:

أيها المسلمون: وإن من أعظم أسباب جلب الرزق وبركته؛ بل لعلّه هو جماعُ الأسباب كلها: الاستقامة على دين الله، والعملُ بطاعته، واجتنابُ معاصيه ومناهيه؛ فما استُجلبَت الأرزاق إلا بالطاعات، وما مُحقَت إلا بالمعاصي والذنوب، وإن العبد ليُحرَم الرزقَ بالذنب يُصيبُه.

فالذنوبُ والمعاصي من أكبر الأبواب التي تُغلقُ موارد الأرزاق على الفرد وعلى الأمة، بالذنوب والمعاصي تتعسّر الأسباب، وتضيقُ الأبواب، وتُمحقُ البركات: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

إن نعَم الله ما حُفظ موجودُها بمثل الطاعة، ولا استُجلب مفقودُها بمثل الطاعة، فما عند الله لا يُنال إلا بالطاعة، فمن أراد السَعة في الرزق، والرَغَد في العيش، والبركة في المال فليحفظ نفسَه عما يُؤثمُه، وليمتثل أوامر ربه، وليجتنب نواهيَه، وليصُن نفسَه عن مواضع سخَط الله.

خطورة الجرائم الخلقية







الشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حميد
إعداد/
إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة

الحمد لله، الحمد لله ليس لفضله مُنتهى، (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) [طه: ٥- ٨]، أحمده -سبحانه- وأشكرُه، نعمُه لا تحصَى، وجودُه لا يُستقصَى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمدُ في الآخرة والأولى، وأشهد أن سيدَنا ونبيَنا محمدًا عبدُ الله ورسوله المبعوث بالرحمة والهُدى، صلى الله وسلم وبارك عليه، سلم عليه الشجر، وسبح بين يديه الحصَى، وعلى آله السادة الطيبين النجبَاء، وأصحابه الغر الميامين الأصفياء، والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ وسارَ على نهجهم فاهتدَى.

أما بعد:

فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) [البقرة: ٢٨١].

إن في القيامة لحسَرات، وإن في الحشر لزفرات، وإن عند الصراط لعثرات، والظلمُ يومئذٍ ظلمات، والهول كل الهول حين تُعرضُ الحسناتُ والسيئاتُ، فمن زُحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فازَ ونالَ عالِيَ الدرجات.

فاتَق الله -يا عبد الله-؛ فما ثبَت المواعظَ إلا العملُ بها، (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) [النساء: ٦٦- ٦٩].

غيرة الله على عباده المؤمنين:

أيها المسلمون: إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرةُ الله أن يأتي المؤمنُ ما حرَم الله، من أجل ذلك حرَم الفواحش.

الغيرة أسمى سمات الرجل الحر والمرأة الكريمة:

الغيرةُ -وربكم- أسمَى سمات الرجل الحُر الكريم والمرأة الحُرة الكريمة -فضلاً عن المُسلم الصالح الغيور، وأنى الغيور من الديُوث؟! شقاء البشرية وتعاستُها، وفسادُ المجتمعات وتفككها في ذهاب الغَيرة، واضمحلال الكرامة.

نعم -عباد الله- حينما يكون المُجتمع صارمًا في نظام أخلاقه، وضوابط سُلوكه، غَيورًا على كرامته وكَرامة أمَته، مُؤثِرًا رضا الله على نوازع شهواته، حينئذٍ تستقيمُ في طريق الصلاح مساراته، وترتفعُ في منهج الإصلاح مناراته.

بصيانة العِرض يتجلَى صفاءُ الدين، وجمالُ الإنسانية، وبتدنيسه وهوانه ينزِلُ الإنسانُ إلى أحط الحيوانات بهيميَة، ومن حُرم الغَيرة حُرم طُهر الحياة، ولا يُمتدَحُ بالغيرة إلا كرامُ الرِجال وكرائمُ النساء.

ابتلاء العصر بانحرافات مقيتة:



معاشر المسلمين: لقد ابتُلي أهلُ هذا العصر بانحراف مقيت، يُريد تجريد الإنسان من إنسانيَته، ومن أعلى خصائصه التي أكرمَه الله بها، وفضَله فيها على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً.



وإن مما يُخيفُ ويُرعب: مُستوى المُجاهَرة في هذا الانحراف الذي أصبحَت تتبنَاه مُنظماتٌ وقوانين وتشريعات -نسأل الله السلامة والعافية- ليُضفُوا الشرعيَةَ والإباحيَةَ على ما حرَمه الله، وحرَمته جميعُ الديانات، وأبَتْه الفِطرُ السليمة، والنفوسُ السويَة.

الفواحش تستعبد النفوس المريضة:



أتدرون ما المقصودُ -يا عباد الله-؟! إنه اللواط والسحاق، إنه الجنسُ الثالث والمثليُون، في أسماء ونعوت يستحيي الكريمُ أن يلفظَها، ويأنَفُ ذو المروءة أن يتفوَه بها، فضلاً عن أن يُؤذي بها الأسماع.

فتنةٌ وبلاءٌ وفواحش تستعبدُ النفوسَ المريضة، يعيشُون عيشةَ الهوَان، أسرى أهوائهم، انحرَفوا عن مسالك الرُشد وسبيل القصد، شُذوذٌ يُخرج الإنسان عن طبعه إلى طبع لم يطبَعه الله عليه، حتى الحيوان البَهيم لا يسلُك هذا المسلَك.

بل هو ذو طبع منكوس، وإذا انتكَسَ الطبعُ انتكَسَ القلبُ والعملُ والهُدى، فيستطيبُ الخبيثَ، ويفسُدُ حالُه وكلامُه وعملُه.

اللواط -عياذًا بالله- يجلبُ الهمَ والغمَ، والنُفرةَ من الفاعل والمفعول به، ويُظلمُ الصدرَ، ويكسُو النفسَ وَحشةً، يظهرُ على صاحبه كالعلامة، يعرفُها من له أدنى فِراسَة.

بل لقد قال ابن القيم -رحمه الله-: «إنه يُفسدُ حالَ الفاعل والمفعول فسادًا لا يكادُ يُرجَى بعده صلاحٌ، إلا أن يشاءَ الله بالتوبة النَصُوح».

يذهبُ بالحياء، والحياءُ هو حياتُه وحياةُ القلوب، ومن فقدَ الحياءَ استحسنَ القبيحَ، واستقبَحَ الحسنَ، وذهبَ ماءُ وجهه، وحينئذٍ يستحكمُ فيه الفسادُ والانحراف، عياذًا بالله من مقت الله.

أثر الابتلاءات على نفسية الإنسان:

معاشر المسلمين: لم يبتل الله -سبحانه- بهذه الكَبيرة قبل قوم لُوط أحدًا من العالمين، وعاقبَهم عقوبةً لم يُعاقِبْها أحدًا غيرَهم، وجمعَ عليهم أنواعَ العقوبات، منها: الهلاك، وقلب الديار، والخسف، والرَجم بالحجارة من السماء، فنكَل بهم نَكالاً لم يُنكله بأمة سِواهم، وذلك لعظيم فسادهم، وفظاعَة جُرمهم.

يقولُ الحافظُ ابن القيم -رحمه الله-: «لما كانت مفسدةُ اللُوطيَة من أعظم المفاسد، كانت عقوبتُه في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات».

وقد لعنَ نبيُنا محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- مُرتكبَ هذه الفاحشة، فقال: «لعنَ الله من عمل عملَ قوم لُوط، لعنَ الله من عمل عملَ قوم لُوط، لعنَ اللهُ من عمل عملَ قوم لُوط». قالها ثلاثًا. رواه أحمد في مسنده، والنسائي في سننه، والحاكمُ في مُستدركه، وقال: «صحيحُ الإسناد ولم يُخرجاه».

ويقول -عليه الصلاة والسلام-: «من وجدتُموه يعمل عملَ قوم لُوط فاقتُلوا الفاعلَ والمفعولَ به». رواه أحمدَ، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وصحَحه.

وعند الترمذي: «ملعونٌ من عمل عملَ قوم لُوط». رواه ابن حبان وغيره، وإسنادُه على شرط البخاري.

معاشر الأحبَة: ثم تأمَلُوا هذا الحديث عن نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-: عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: أقبلَ علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال: «يا معشر المُهاجرين: خمسُ خِصال إذا ابتُليتُم بهنَ -وأعوذُ بالله أن تُدركُوهنَ-: لم تظهَر الفاحشةُ في قوم حتى يُعلنُوا بها، إلا فشا فيهم الطاعُون والأوجَاعُ التي لم تكن مضَت في أسلافهم...». الحديث.

المجاهرة بالفواحش وأثرها في المجتمع:

ثم انظُروا ما تقولُه الإحصاءات العالميَة، تقول:

«إن مُعدَلات انتشار مرض نقص المناعَة «الإيدز» تظهرُ في المُخنَثين من الرجال والمُسترجلات من النساء بنسبةٍ تزيدُ على عشرين مرَّة عن غيرهم».

كما ذكرَت المُنظمة ظهورَ أوبئة جديدة من هؤلاء الشواذ اللوطيين والسحاقيَّات في مناطق عديدة من العالَم، كما تتراوحُ الإصابة فيما بين هؤلاء المخنَثين والمُسترجلات إلى نسَب تصل إلى ثمانية وستين بالمائة.

ومن الأمراض التي يُبتلَى بها هؤلاء الشُذاذ: الوباءُ الكبديّ، ومرض مُتلازمة أمعاء الشواذ، والحمَى المُضخمة للخلايا، مع أمراض عصبيَة، واضطرابات نفسيَة، وقلق واكتئاب، وشعور بالنقص، قد يقودُ إلى القتل والانتحار -عياذاً بالله-.

أما قولُ نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-: «حتى يُعلنُوا بها». فإن الأمرَ مُخيف.

نعم، إن مما يُخيفُ ويُرعب: مُستوى المُجاهَرة الذي أصبحَت تتبناه مُنظماتٌ وقوانينُ وتشريعات -نسأل الله السلامة والعافية- ليُضفوا الشرعيَة والإباحيَة على ما حرَم الله، وحرَمته جميع الديانات، وأبَتْه الفطرُ السليمة والكرامات العُليا، في خروج صارخ على تعاليم الشرع المُطهَر، والأخلاق الرَفيعة، والفضائل العُليا، والقيَم الساميَة.

قال بعضُ أهل العلم: إن الجُرأة على الفواحش تُجرئُ على قطيعة الرَحم، وعقوق الوالدَين، وكسب الحرام، وظُلم الخلق، وإضاعة المال والأهل والعيال.

هل الحريةُ تعني المُجاهَرة والمُفاخرة والتباهي -عياذاً بالله- بالأفعال الشاذة والمُنحرفة والمحرَمة؟!

ومما يُؤسَفُ له: أن هذه المُنظمات الدوليَة المؤتمَنة على الصحَة في العالَم لم تُفكر أو تُوص بمنع هذه الجرائم، وإنما اشتغلَت بإيجاد ما أسمَتْه «الطرق الآمنة التي تُؤمنُ احتياجات هؤلاء الشواذ واللوطيَة المخنَثين»، مع اعترافها بقولها: «إنها لم تتمكن من كبح جماح انتشار فيروس الإيدز»!!

أيُّ انتكاسة أعظم ممن يدَعي أنه يُحافظُ على حقوق الإنسان وهو يُحوله إلى بهيمة أو أحط من البَهيمة؟! فليس في البهائم من يعلُو فيها الذكرُ على الذكر، أو الأنثى على الأنثى.

أيُّ حمايةٍ لهؤلاء الشواذ؛ بل أيُّ حقوقٍ لمن ينتهكُ حُرمات الله، ويقتلُ العفَة، وينحَرُ الفضيلة؟! إنها مسالكُ الجاهليَة المُظلمة.

أسباب الوقوع في الفواحش:

أيها الإخوة في الله: ولتعلَموا أن من أسباب الوقوع في مثل هذه القاذورات والفواحش: الإعراض عن الله. من عرف ربَه وأقبل عليه جمعَ عليه قلبَه، وانتظمَ أمرُه، وطابَت نفسُه، واستقامَت فطرتُه، وصلُحَ أمرُه.

ومن أسباب الوقوع والانحراف: الفراغ، يقول ابن عقيل -رحمه الله-: «وما تكون هذه الفواحش إلا لأرعَنَ بطَال، وقل أن يكون في شُغلٍ من عبادةٍ أو صناعةٍ أو تجارة».

وقال حكيمٌ: «هو سُوء اختيار صادف نفسًا فارغة».

وأعظمُ الفراغ: فراغُ القلب من محبَة الله وخشيَته ولذة القرب منه وحُسن عبادته، والنفسُ لا تقعُدُ فارغة، فمن لم يشغلَها بما ينفع شغلَتْه بما يضُرُ.







ومن أسباب الانحراف: وسائلُ الإعلام المُنحرفة، فلها تأثيرُها البالغ في جر الناس والنفوس إلى الهاوية، في صُورها، وكلماتها، وانفعالاتها، وقصصها، ومُسلسلاتها، مما يُبعدُ عن الحياء والحشمة، والوقار، والعفَة، والغيرة، والمروءة.

ويكثُرُ في ذلك بعضُ الكتابات، والمقالات المُنحرفة، والروايات الساقطة، وسيَر المُنحرفين والشاذين، وما يُسمُونه بمُغامراتهم العاطفيَة، ومُراهقاتهم الشائنة.

لا بُدَ من الرقابة الصارمة على هذا الإعلام المُنحرف، وعدم التهاوُن في بث ما يُروج له أو يُهون من وقعه من القصص الخليعة، أو التمثيليَات الساقطة، والروايات الإباحيَة، والشُذوذ الممقوت، نسأل الله الحماية والعافية.

ومن أسباب الانحراف: التهتُك، والتبرُج، والسُفور، وما يدعُو إليه من إطلاق البصر، والنظرُ بريدُ الفواحش، وهو سهمٌ من سهام إبليس.

والحشمةُ والسترُ لا يبعثُها إلا دينٌ أو خُلُق، والسترُ والاحتشام مُنسجمٌ مع الغيرة، والعُريُ والتهتُك مُنسجمٌ مع الشهوة؛ فالغيرةُ تبعَث

على الحجاب، والشهوةُ تبعَثُ على السُفور؛ بل لقد ضحَوا بالغيرة من أجل المُتعَة، أخرَجوهنَ كاسياتٍ عاريات في مُقابل أن تنازَلوا عن غيرتهم على أزواجهم وبَناتهم وأخواتهم.

ومن أسباب الانحراف: سُوءُ استخدام أدوات التواصُل من الهواتف، والشبكات، والمواقع، وما يجُرُه ذلك من سُوء القول والعمل، مما يُوقِع في سُوء العواقب وسُوء الفعال.

عباد الله: فإن من ضَعُفت غيرتُه على دينه ضعُفَت غيرتُه على عِرضه لا محالَة، وقد قالوا -وبئسَ ما قالوا-: إن الحجابَ والحشمة والمُحافظة هي التي تدعُو إلى الكَبت والحرمان! وقد كشفُوا كلَ شيء، وأباحُوا كلَ شيء، وما زادَهم ذلك إلا سَعارًا وجنونًا في الجري وراء الشهوات، وإشباع الغرائز في الحرام، فاحلُوا ما حرَم الله، وحرَموا ما أحلَ الله، حتى كادُوا أن يقولوا لأهل العفة والحشمة والكرامة: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨- ٣٠].

أسباب الوقاية والسلامة من الفواحش:

أيها المسلمون: انتشارُ الفواحش من أكبر أسباب زوالِ النعَم وحُلولِ النِقَم؛ فإنها تُوجِبُ سخَطَ الله ومكرَه وإعراضَه عن الواقع فيها، فأيُ خيرٍ يُرجَى وأيُ شرٍ يُؤمَن من عبدٍ حلَت عليه لعنةُ الله وسخطُه؟! وكيف تكونُ حياةُ من مقتَه ربُه وأعرضَ عنه ولم ينظُر إليه؟!

عباد الله: أما أسباب الوقاية والسلامة من هذه الفواحش المُنكَرة؛ فأولُها: الإخلاصُ لله، واللُجوء إليه، والعياذُ بجنابه -عز شأنُه-، وقد قال الله في نبيه يوسف -عليه السلام-: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «إن العبدَ إذا ذاقَ طعمَ الإخلاص لم يكُن عندَه شيءٌ قط أحلَى من ذلك، ولا ألذَ ولا أمتعَ ولا أطيبَ».

فالله يصرفُ عن عبده ما يسوؤُه من المَيل إلى هذه الفواحش وأصحابِها والتعلقِ بها بإخلاصه لربه.

ومن ذلك: غضُ البصر؛ فغضُ البصر يُورِثُ الراحةَ والطُمأنينة، يقول -عز شأنُه-: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

فجعلَ غضَ البصر وحفظَ الفَرْج أقوى تزكيةً للنفوس، وزكاءُ النفوس يتضمَنُ زوالَ جميعِ الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغيرها، يقول بعضُ السَلَف: «ما غضَ أحدٌ بَصرَه عما حرَم الله إلا أوجدَ الله له نورًا في قلبه يجدُ حلاوةَ ذلك».

وغضُ البصر يُورِثُ ثلاثَ خِصال: حلاوةَ الإيمان ولذَتَه، ونورَ القلب وفراسَتَه، وقوةَ القلب وثباتَه وشجاعتَه.



وسُئل الجُنَيد -رحمه الله-: بمَ يُستعانُ على غض البصر؟! قالَ: «بعلمك أن نظرَ اللهِ إليك أسبقُ إلى ما تنظُرُه».



من الأسباب المانعة الحافظة -بإذن الله وعونه-: البُعدُ عن مواطن الفواحش، وبيئاتها، وأماكن الرِيَب، فإذا ابتعَدَ البدنُ ابتعَدَ القلبُ.

ومن ذلك: الاشتغالُ بما ينفع، فإذا كان الفراغُ يُوقِعُ في المصائب؛ فإن الاشتغال بما ينفع يحفَظُ العُمر، ويُثمِرُ البرَ والخير، وما ينفعُ لا يقعُ تحت حصر؛ من خدمة الأهل، وطلب المعاش، والصناعات، والتجارات، والصُحبة الطيبة.



ومن ذلك: الاجتهادُ في أنواع الطاعات والعبادات، وقد قال -عز شأنُه-: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال في الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، ولاسيَما الاشتغالُ بالذكر والدعاء والاستغفار وحُسن العبادة.

ومن الوصايا: الحرصُ التامُ على تماسُك الأسرة، وبذل المزيد من الرعاية والعنَاية، في الأبناء والبنات، وحُسن تربيتهم ووقايتهم من البيئات الموبوءَة، الحمد لله رب العالمين.



مكفرات الذنوب

منبر الحرمين

الحمد لله رب الأرض والسماوات، يقبل التوبة عن عباده ويعفُو عن السيئات، من تقرّب إليه- سبحانه- أفاضَ عليه الخيرات، ووقاه المُوبقات، أحمدُ ربي وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وليُ الكلمات، ومُجيب الدعوات، وأشهد أن نبيّنا وسيّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه المُؤيّد بالمُعجزات، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه السابقين إلى الحسنات، الناهين عن المُحرّمات.

الشيخ الدكتور

إعداد/ علي عبد الرحمن الحذيفي

إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف

أما بعد: فاتقوا الله تعالى وأطيعُوه؛ فهي خيرُ أعمالكم، وأفضل زادِكم الذي يُحِل به ربُكم عليكم مرضاته، ويقيكم عقوباته.

خير الخطائين التوابون:

عباد الله: أقيموا وجوهَكم لمُكفرات الذنوب، وستر العيوب؛ فمن تقرّب إلى الله تقرّب الله إليه، ومن أعرض عن الله أعرض الله عنه، ولن يضرّ إلا نفسَه، ولن يضُرّ الله شيئًا، قال النبي- صلى الله عليه وسلم «كل بني آدم خطّاء، وخيرُ الخطائين التوابُون». رواه الترمذي من حديث أنس- رضي الله عنه- .

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده؛ لو لم تُذنبوا لذهبَ الله تعالى بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفرُ لهم». رواه مسلم.

خلق اللهُ ابنَ آدم بهذه الصفات، فيُطيع وقد يعصي، ويستقيمُ وقد يكبُو، ويتذكّرُ وينسَى، ويعدِل وقد يظلم، وليس بمعصوم إلا الأنبياء- صلى الله وسلم عليهم أجمعين- .

فطر الله الخلق على الإسلام:

وقد منّ الله تعالى على كل مولود بخلقه على الفطرة- وهي الإسلام- ، فمن بقيَ عليها وقبل ما جاءَت به الرُسُل والأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- اهتدَى، وتقبّل الله منه الحسنات، وتجاوزَ له عن السيئات، ومن غيّرت فِطرتَه الشياطين من الإنس والجن، والهوى والشهوات، والبدع والشرك ضلّ وخابَ وخسِر، ولم تُقبل منه الحسنات، ولم تُمحَ عنه السيئات.

عن عياض بن حمار- رضي الله عنه- قال: خطبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن ربي- عز وجل- أمرَني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني في يومي هذا: كلُ مالٍ نحلتُه عبادي حلال، وإني خلقتُ عبادي حُنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاضلّتهم عن دينهم، وحرّمَت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزل به سُلطانًا». رواه مسلم.

فمن غيّر فِطرتَه التي فطرَه الله عليها بالكُفر لا يقبلُ الله منه حسنة، ولا يغفرُ له سيئة إن مات على كفره بلا توبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

لكن من حفظَ فطرتَه التي فطرَه الله عليها، فاتّبَع الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وآخرُهم سيّدُ



البشر محمدٌ صلى الله عليه وسلم، فذلك هو الذي يقبل الله منه الحسنات، ويُكفِّرُ عنه السيئات، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

المُسلمُ هو الذي يتغمَّدُه الله برحمته، فيقبَلُ طاعاته، ويمحُو بالتوبةِ والمُكفِّرات سيِّئاتِه، ويُدخِلُه في الآخرة جناته.

من مكفِّرات الذنوب والخطايا:

ومُكفِّراتُ الذنوب كثيرة، وأبوابُ الخيرات مُفتّحة، وطُرُقُ البرِّ مُيسّرة؛ فطُوبَى لمن سلكَها وعمِلَ صالحا، **وأولُ مُكفِّرات الذنوب: توحيد الله تعالى بإخلاص العبادات للربِّ- عز وجل-**، والابتعاد عنْ أنواع الشركِ كلِّه، فذلك جماعُ كل خيرٍ في الدارَين، وأمانٌ من كلِّ شرٍّ.

عن عُبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «من شهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ له، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، وأن عيسَى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، والجنة حقٌ، والنار حقٌ أدخلَه الله الجنةَ على ما كان من العمل». رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي ذرّ- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «قال لي جبريل- عليه السلام- : بشِّر أمّتَك: من مات لا يُشرِك بالله شيئًا دخلَ الجنةَ». رواه البخاري ومسلم.

وعن أم هانئ- رضي الله عنها- قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «قولُ: لا إله إلا الله لا يترُك ذنبًا، ولا يُشبِهها عمل». رواه الحاكم وضعفه الألباني.

ومن مُكفِّرات الذنوب: التوبة إلى الله تعالى؛ فمن تابَ من أيِّ ذنبٍ تابَ الله عليه، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من تابَ قبل طلوع الشمسِ من مغربِها تابَ الله عليه». رواه مسلم.

والله يفرحُ بتوبة عبده ويُعظمُ له بها أجرًا، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

والوضوءُ بإخلاص وإحسانٍ ومُتابعةٍ للنبي صلى الله عليه وسلم منَ المكفِّرات، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا توضّأ العبدُ المُسلمُ- أو المؤمن- فغسلَ وجهه خرجَ من وجهه كلُ خطيئة نظرَ إليها بعينيه مع الماء- أو مع آخر قطر الماء- ، فإذا غسلَ يديه خرجَ من يديه كل خطيئة بطشَتْها يداه مع الماء- أو مع آخر قطر الماء- ، فإذا غسلَ رجليه خرجَت كلُ خطيئة مشتْها رجلاه مع الماء- أو مع آخر قطر الماء- ، حتى يخرُج نقيًا من الذنوب». رواه مسلم والترمذي.

ومُكفِّراتُ الذنوب كثيرة، وأبوابُ الخيرات مُفتّحة، وطُرُقُ البرِّ مُيسّرة؛ فطُوبَى لمن سلكَها وعمِلَ صالحًا.

والصلاة من أعظم مُكفِّرات الذنوب، عنْ عُثمان- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يتوضأُ رجلٌ فيُحسنُ وضوءَه، ثم يُصلّي الصلاة، إلا غُفِر له ما بينَه وبين الصلاة التي تليها». رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصلواتُ الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان مُكفِّراتٌ لما بينهنّ إذا اجتُنِبَت الكبائر». رواه مسلم والترمذي.

وعن عُثمان- رضي الله عنه- أنه توضأ ثم قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحوَ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحوَ وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّثُ فيهما نفسَه غُفِر له ما تقدّم من ذنبه». رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن مسعودٍ- رضي الله عنه- عن النبي صلى

الله عليه وسلم قال: «تابعوا بين الحجّ والعُمرة؛ فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد». رواه النسائي والترمذي، وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ».

وطلبُ المغفرة من الله تعالى من مُكفّرات الذنوب، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أذنبَ عبدٌ ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال الله تعالى: أذنبَ عبدي ذنبًا، علمَ أن له ربًّا يغفرُ الذنب، ويأخُذ بالذنب، ثم عاد فأذنبَ، فقال: ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تعالى: أذنبَ عبدي ذنبًا، فعلمَ أن له ربًّا يغفرُ الذنب، ويأخُذ بالذنب، ثم عاد فأذنبَ، فقال: ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تعالى: أذنبَ عبدي ذنبًا، فعلمَ أن له ربًّا يغفرُ الذنب ويأخُذ بالذنب، اعمَل ما شئتَ فقد غفرتُ لك». رواه البخاري ومسلم.

وعن بلال بن يسار بن زيد قال: حدّثني أبي عن جدّي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قال ثلاث مرّات: أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه، غُفر له وإن كان قد فرّ من الزّحف». رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني.

واستغفارُ المسلم لأخيه بظهر الغيب أسرعُ إجابةً للداعي والمدعُو له؛ فإنه إذا دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب قال الملَك: آمين، ولك بمثله.

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن إبليس قال لربّه- عز وجل- : وعزّتك وجلالك لا أبرحُ أغوي بني آدم ما دامت الأرواحُ فيهم، فقال الله تعالى: فبعزّتي وجلالي لا أبرحُ أغفرُ لهم ما استغفروني». رواه أحمد، وأبو يعلى الموصلي، والحاكم، وقال: «صحيحُ الإسناد».

ومن المكفّرات: أنواعُ الذكر لله تعالى، وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال: سُبحان الله وبحمده مائة مرّة، حُطّت خطاياه ولو كانت مثلَ زبَد البحر». رواه مسلم.

والصدقة من المُكفّرات، عن مُعاذ- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «والصدقة تُطفئُ الخطيئة كما يُطفئُ الماءُ النارَ». رواه الترمذي.

ومن المكفّرات: الإحسانُ إلى الأهل والبنات، قال صلى الله عليه وسلم: «خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي». رواه الترمذي من حديث عائشة.

وعن عائشة- رضي الله عنها وعن أبيها- قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «من ابتُلي من هذه البنات بشيء فأحسنَ إليهنّ، كُنّ له سترًا من النار». رواه البخاري ومسلم. ومثلُهنّ الأخوات.

والإحسانُ إلى الخلق يُعظمُ الله به الأجور، ويدفعُ به الشرور.

احرص- أيها المسلم- على المبادرة على فعل الحسنة التي تتيسّرُ لك، ولا تحقرنّ من الخير شيئًا، فإنك لا تدري فلعلّ هذه الحسنة اليسيرة هي التي تسعدُ بها.

ومن المكفّرات: الاستكثارُ من الحسنات بعد السيّئات، وحُسن الخُلق، عن مُعاذ- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «اتّق الله حيثُما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناسَ بخُلُق حسَن». رواه الترمذي.

واحرص- أيها المسلم- على المبادرة على فعل الحسنة التي تتيسّرُ لك، ولا تحقرنّ من الخير شيئًا، فإنك لا تدري فلعلّ هذه الحسنة اليسيرة هي التي تسعدُ بها؛ فقد روى البخاريُّ ومسلمٌ من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينما رجُلٌ يمشي بطريق، وجدَ غُصنَ شوكٍ على الطريق فأخّره فشكرَ



الله له، فغفرَ له».

وعن أبي هريرة أيضًا قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «بينما رجلٌ يمشي بطريقٍ اشتدَّ عليه العطشُ، فوجدَ بئرًا فنزل فيها فشربَ، ثم خرجَ، فإذا كلبٌ يلهَثُ يأكل الثرَى من العطشِ، فقال الرجلُ: لقد بلغَ هذا الكلبُ من العطش مثل الذي كان نزلَ بي، فنزلَ البئر فملأ خُفَّه ماءً، ثم أمسكَه بفيه، ثم رقِيَ فسقَى الكلبَ، فشكرَ الله له فغفرَ له». فقالوا: يا رسولَ الله: إن لنا في البهائم أجرًا؟! فقال: «في كل كبدٍ رطبةٍ أجرٌ». رواه البخاري ومسلم.

ومن المُكفِّرات: الصلاةُ والسلام على سيِّد البشر محمدٍ صلى الله عليه وسلم،

عن أنس- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرَ صلوات، وحطَّ عنه بها عشرَ سيئات، ورفعَه الله بها عشرَ درجات». رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وقال: «صحيح الإسناد».

ومن مُكفِّرات الذنوب: المصائب التي تنزلُ بالمُسلم إذا صبرَ عليها واحتسبَ ولم يتسخَّط عن أبي سعيدٍ الخُدري- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ما يُصيبُ المؤمنَ من وصَبٍ ولا نصَبٍ ولا غمٍّ ولا همٍّ ولا حُزنٍ، حتى الشوكةُ يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه». رواه البخاري ومسلم.

ضرورة عدم الاستهانة بصغائر الذنوب:

عباد الله: وكما أن مُكفِّرات الذنوب كثيرة، فالأخطارُ عظيمة، والذنوبُ لا يُستهانُ بها، سواءٌ أكانت صغيرةً أم كبيرةً؛ فإن لها من الله طالبًا وكاتبًا، والمُسلمُ يجبُ عليه أن يكون بين الخوفِ والرَّجاء، فإن الأمنَ من مكرِ الله علامةُ الخذلان والخُسران، قال تعالى: (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) [الأعراف: ٩٩].

والقُنوطُ من رحمة الله ضلالٌ مُبينٌ، قال الله تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [المائدة: ٩٨].

وقد تكونُ المعصيةُ التي صغُرَت في عينيك سببًا في شقاوةٍ أبديّة، عن ابن عُمر- رضي الله عنهما- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دخلَت امرأةُ النارَ في هرّةٍ ربطَتها فلم تُطعمها ولم تدَعها تأكلُ من خشاشِ الأرض». رواه البخاري ومسلم.

وعن عبد الله بن عمرو- رضي الله عنهما- قال: كان على ثقَل النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ يُقال له: كركرة- يعني: على متاعه- ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هو في النار». فذهبوا ينظرون إليه، فوجَدوا عليه عباءةً قد غلَّها. رواه البخاري.

وفي غزوة خيبَر أن نفرًا من الصحابة مرُّوا على رجُلٍ فقالوا: فُلانٌ شهيدٌ. فقال صلى الله عليه وسلم: «كلا، إني رأيته في النار في بُردةٍ غلَّها- أو عباءةٍ- «. رواه مسلم من حديث عُمر- رضي الله عنه- .

وفي الحديث: «إن الرجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوان الله لا يظنُّ أن تبلغ ما بلغَت يرفعُه الله بها درجات، وإن الرجُل ليتكلم بالكلمة من سخَط الله لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب».

وأخطرُ شيء على الإنسان: الظلمُ والعُدوان على الناس، أو منعُهم حقوقهم، فشرُّ ما في الإنسان هو البُخل بالخير، وأذيّة الناس بالشرور.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم وأذِلَّ الكفرَ والكافرين يا رب العالمين.

وكما أن مُكفِّرات الذنوب كثيرة، فالأخطارُ عظيمة، والذنوبُ لا يُستهانُ بها، سواءٌ أكانت صغيرةً أم كبيرةً؛ فإن لها من الله طالبًا وكاتبًا، والمُسلمُ يجبُ عليه أن يكون بين الخوفِ والرَّجاء، فإن الأمنَ من مكرِ الله علامةُ الخذلان والخُسران.

فقه التعامل مع الأزمات

الشيخ الدكتور
عبد الرحمن السديس
إعداد
إمام وخطيب المسجد الحرام

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

أمّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله الملك الرزّاق، ففي تقواه سبحانه أوفرُ الخلاق، وبها النَّجاة يومَ التَّلاق، فكونوا في تحقيقها في تنافس واستباق، واحذروا التفريط فيها، فعاقبة أهله المثلات التي لا تطاق، ومَا لهم من الله من وليّ ولا واق.

حاجة الأمة إلى فقه التعامل مع الأزمات:

أيّها المسلمون، في ظلّ النوازل والأزمات وفي خضَمّ تداعيات الأحداث والنّكبات تتعاظم حاجة الأمّة إلى الفقه العميق والنّظر الدقيق والمنهج الوثيق المتمثّل في فقه التعامل مع الأزمات والنّوازل حتى لا تختلط الأوراق وتنقلبَ الموازينَ وتنعكسَ المعايير، ولكيلا تزلّ الأقدام وتضلّ الأفهام وتكلّ الأقلام ويختلّ الإعلام.

خطورة النوازل والأزمات:

في النّوازل والأزمات يتعاظم الخطرُ على الهويّة والثوابت، وتحتاج سفينة الأمّة إلى رُبّان مهرة يحسنون قيادةَ دفتها إلى شاطئ السلامة والنجاة وساحل الأمن والأمان؛ حتى تحفظ للأمة حقوقها العقديّة والأمنيّة في تحقيق لكلمة التوحيد وتوحيد الكلمة عليها، لأنّهما صمامُ الأمان أمام العواصف الهوجاء التي تمرّ بها أمّتنا، وتكاد لخطورتها تنسيها كلّ الأزمات التي مرّت عليها في تأريخها المعاصر.

سنة الابتلاء:

معاشرَ المسلمين، لما كانت هذه الدنيا دارَ اختبار وابتلاء وممرًا إلى الآخرة دار الحساب والجزاء شاء المولى جلّ وعلا لحكمته أن يتقلّب فيها النّاس بين السراء والضراء والشدّة والرّخاء، وأن يتعرّضوا للمصائب والمحن، ولا تخلو حياتهم من نوائبَ وأزمات وفتن، ولله في ذلك كلّه الحكمة البالغة.

نعمة الشريعة الإسلامية:

ومن رحمته جلّ وعلا بعباده أن منحهم شرعةَ غرّاء تحكمهم في جميع الظروف والأوقات، تنير لهم الطريق في السراء والضراء وحين البأس والأرزاء، وتأخذ بأيديهم أيّامَ المحن والشدائد والأزمات، وهذا السّنن الربانيّ تنزّه عن الحسَب والنّسَب وأقام في البرايا الذهول والعجب، وهو بلا شكّ مسبار للأفراد وعلل القلوب ومصقلة لأدواء الأمم والشعوب، ومن ثبت في التمحيص بلغ من الظفر والتمكين كل الذرى، ومن تسخّط وجزع باءَ بالخسار عياذا بالله وارتكس في أوحال الثرى.

> في ظلّ النوازل والأزمات وفي خضَمّ تداعيات الأحداث والنّكبات تتعاظم حاجة الأمّة إلى الفقه العميق والنّظر الدقيق والمنهج الوثيق المتمثّل في فقه التعامل مع الأزمات والنّوازل.

من حكم الابتلاء:

ولا يظنّنّ ظانّ أنّ الابتلاء بالضراء نقص كله وشرّ كلّه، كلاّ، بل تضمّن من الحكم والأسرار والمنازل عليّة الأقدار ما لا يخفى على ذوي البصائر والأبصار.

فمنها الرجوعُ والاستكانة والتضرّع إلى الله سبحانه واليقين بأنّ ما يحدُث في هذا الكون فبتقديره وتدبيره، «وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ» [الأنعام:١١٢]، وأنّ إليه الملجأ والمعاذ والمهربَ والملاذ، وقد عاب سبحانه على من لم يستكن إليه ويتضرّع عند الشدائد، «وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ» [المؤمنون:٧٦].

ومنها التمحيص والاصطفاءُ وترويض النفوس على مرّ الابتلاء.

وفي الجملة فلا تخلو المصائب والأزمات من عبر لأهل الإيمان، ففيها تنبيهُ الغافل، وتعليم الجاهل، وتقوية الروابط على الاتحاد والوئام، ونبذ التنازع والتشتت والخصام، «وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» [الأنفال:٤٦].

أمّة الإسلام، قضاء الباري بالغ النفوذ، وليس إلاّ عليه نتوكل وبه نلوذ، وها هي الأمّة الإسلاميّة لا تزال تحتسي القلق والضّنى، وتقتات الويلات والعنا، جرّاءَ الكرب المتفاقم والخطب المتعاظم في أرضنا أرض العراق.

مطالبة بالإنهاء الفوري للحرب:

أجل، لا بدَّ أن يُرفعَ عن سماء الأمّة هذا الكابوس، وهذه الحرب الضروس التي لا زال مشتعلاً فتيلها، حاميا وطيسُها، بالحلول السّريعة السّلمية المتّئدة القائمة على الحكمة والعقل وبُعد النّظر في العواقب، تحتَ مظلّة الشريعة الغرّاء والدساتير العالميّة والأنظمة الدوليّة لحقوق الإنسان والأعراف والمواثيق المحترمة لسيادة الأوطان.

مفاسد الحروب وأضرارها:

إنّنا باسم الشعوب الإسلاميّة والإنسانيّة نوجّه النداءَ الحارّ إلى الرّأي العامّ العالميّ وصنّاع القرار للوقف الفوريّ لهذه الحرب الطاحنة، واستمرار أعمال العنف والشّغب والفوضى التي تقود المنطقةَ إلى أنفاقٍ مظلمة وسراديبَ معتمة ومجهولة النهايَة.

فمن الضروريّ المبادرة إلى إطفاء فتيلها حتى تضع الحربُ أوزارَها، ويُكفى المسلمون شرَّها وأوارَها، وحمايةً للمدنيّين الأبرياء، وتفادياً للخسائر في الأرواح والممتلكات، وحفاظاً على أمن الشعوب والمجتمعات، وإبقاءً على المعالم الحضارية والتاريخية للعواصم العلميّة والحواضر الإسلامية، وسدّاً للطريق أمام القوى الصهيونيّة الغاشمة التي استغلّت انشغال العالم بهذه الحوادث والمستجدات، فعملت على توسيع نفوذها في أرض الرسالات ومهد البطولات على ثرى فلسطين المجاهدة.

دعوة لأخذ الدروس والعبر:

أربابَ السلام ، دعاةَ الحريّة والإنسانيّة، يا شرفاءَ العالم في كلّ مكان، هُبّوا سراعاً إلى الحلّ الناجز والتحرّك الإيجابيّ السريع، لإنهاء هذه القضيّة المأساويّة والكارثة الإنسانية، قبل أن تُسلَب أرسان الثقة والمصداقيّة من كثير من الهيئات الدوليّة والمنظمات العالميّة، واعلموا أنّه ما ضاق شيء إلا اتّسع بالمساعي الحثيثة خطوُه، وما ظهر فتق إلا أمكن بالعهود والمواثيق رَفوُه، والله المستعان، «قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ» [التوبة:٥١]، «سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا» [الطلاق:٧]، وإن في طيّات المحن لمنحًا، وفي ثنايا النّقم لنعمًا، (واعلم أنّ النصرَ مع الصبر، وأنّ الفرَجَ مع الكرب، وأنّ مع العسر يسرا) [صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠٤٣)].

> في النّوازل والأزمات يتعاظم الخطرُ على الهويّة والثوابت، وتحتاج سفينة الأمّة إلى رُبّان مهرة يحسنون قيادةَ دفّتها إلى شاطئ السلامة والنجاة.

إخوة الإيمان، ها أنتم أولاء تلقاء محن نجمت، وخطوب مُريعة هَجَمت وجَثَمت، فتبصّروا في هذه الحوادث والسير، وانتزعوا منها الدروس والعبر، لا سيّما في التوحيد والوحدة، «إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ» [الأنبياء:٩٢].

التحذير من المتنكرين لأمتهم:

أمّة الإسلام، وفي غمرة هذه الأحداث الدامية والأوقات المستعرة الحامية تلجأ بعضُ النّفوس الضعيفة التي خلت من المروءة وتعرّت من الوفاء والنّبل لتشرَحَ تلاحمَ الأمّة ووحدتها، ولتلبّس على النّزهاء والبرآء زعوماً ودعاوى بشائعات باطلة وأكاذيب ملفّقة، هي جراثيم قاتلة وفيروسات مُهلكة وجراحات مدمّرة وحربٌ نفسية خطرة وتحطيم للمعنويّات ووأد للطموحات، والله عز وجل يقول: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ» [الحجرات:٦]، ويقول سبحانه: «وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» [الأحزاب:٥٨].

وكلما اتّسعت رقعة الشائعات الباطلات والأراجيف الذائعات التي يروّجها ذو قحة وغلالة صفيقة كان إثمه عند الله أعظم، فعلى المسلم العفّ أمامَ هذه الإفرازات النفسيّة الداكنة أن يتمثّل قولَ الحقّ جلّ

جلاله:

«وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ» [النور:١٦].

أيها المسلمون، مَن كان كلامه رسلاً وهذرا فليتذكر قول الباري سبحانه وتعالى: «مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» [ق:١٨]. ومن سَرَى في خلده أنه نائل بالسفاسف والترهات من ترابطنا الذهبيّ البديع وتآلفنا المتألق المنيع فيقال له: هيهات هيهات، فالطود أشمّ، والوفاق بحمد الله أتمّ.

التحذير من الإشاعات:

فالحذرَ الحذر - عباد الله - من تناقل وتداول الشائعات المغرضة التي غدت سلاحاً فتاكاً ومعولاً هداماً يقوّض وحدة الصف، ويفسد العلاقة بين الرعاة والرعية والعلماء والعامّة والشباب والشيوخ، ويزرع الشكّ وسوءَ الظنّ بين أبناء المجتمع، وبخاصّة مع انتشار وسائل الاتصال الحديثة التي أضحى بعض مواقعها ومنتدياتها مراحيضَ إلكترونية تُزكم الأنوفَ بعفنها ونتنها أجلكم الله، فكم أشهرَت من قبائح، وأعلنت من فضائح، وأظهرت من معائب، ونشرت من سوآت ومثالب، يترفع منها العقلاء والشرفاء.

الشائعات المغرضة غدت سلاحاً فتاكاً ومعولاً هداماً يقوّض وحدة الصف، ويفسد العلاقة بين الرعاة والرعية والعلماء والعامّة والشباب والشيوخ، ويزرع الشكّ وسوء الظنّ بين أبناء المجتمع.

واجب المسلم عند الأزمات

والواجب على المجتمَع المسلم أن يكون حصنًا حصينا ضدّ الشائعات المغرضة، فالرسول يقول: ((كفى بالمرء كذباً أن يحدّث بكلّ ما سمع)) [أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (٥)].

فليُعرض المسلم ويَربأ بنفسه عن سماعها وترويجها، فالركون إليها وتناقلها يؤدّي إلى مفاسدَ خطيرة، تهدّد بنيانَ المجتمع، وتقوّض بناءَ الأمة، وتقضي على البقيّة الباقية من تلاحمها وتعاونها.

أمّة الإسلام، إنّ من الفقه عند الأزمات أن يُنظر إليها برؤية شرعية، تحليلاً وتطبيقا، فالإسلام يحرّم الظلمَ والعدوان، ويوجب على المسلمين التناصرَ والتآزر حسَب ما تقتضيه الظروف والأحوال، فعلى المسلم أن لا ينسى إخوانه المسلمين من دعائه، «أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» [النمل:٦٢].

في الأزمات حيث خريف تساقط القيَم يتعيّن على المسلم الأخذ بأسباب الثبات على صحيح المعتقد وسلامة المنهج عند غياب صحيح المنهج، والتقيّد بالضوابط الشرعيّة من لزوم الرّفق والسّكينة، والتثبّت والأناة وعدم العجلة، وحفظ اللسان، والتبصّر في عواقب الأمور، والقرب من نصحاء الأمة وصلحاء المجتمع، وعدم الاستشراف للفتن، فمن يستشرفْ لها تستشرفه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين[٤]، وأن لا يُتكلف في لَيّ أعناق النّصوص الشرعيّة لتنزيلها على الوقائع العصريّة بلا أثارة من علم، وكذا عدمُ تداول الأحاديث الضعيفة والموضوعة، كما ينبغي تغليبُ العقل على العاطفة والرويّة والمنطق على التشنّج والانفعالات، وتقديمُ الرأي والمشورة على ما يُظنّ من الإقدام والشجاعة، والبعد عن الغوغائية والغثائية التي لا تصيب صيداً ولا تنكأ عدوا، والحذر من الانسياق وراءَ ما يُدّعى من جهاد موهوم لم تتبيّن له رايَة، ولم تظهر له غايَة، ولم تتحقّق فيه الشروط الشرعيّة والمقاصد المرعيّة، ومنها المحافظة التامّة على لحمتنا الاجتماعيّة، وجبهتنا الداخليّة، وقيادتنا الشرعيّة والعلميّة، من أولي الأمر المسلمين والعلماء الربانيين، وحسن الظنّ بهم، وعدم تصديق الدّخلاء والمرجفين الذين يظهرون في الأزمات، خفافيش ظلمات، وطفيليات زرع ونبات، يصطادون بالمياه العكرة، وينفذون في الطّرق الوعرة، «وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ» [النساء:٨٣].

المستقبل للإسلام:

إخوةَ العقيدة، ومهما اربدّت الآفاق في مرأى العين، فإنّ دينكم بحمد الله دينُ الثبوت والبقاء، محالٌ أن يعتريَه الزوال والفناء، روى الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح أن رسول الله قال: ((ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل)) [أخرجه أحمد (١٠٣/٤)، وصححه الألباني على

شرط مسلم في تحذير الساجد (ص١١٨-١١٩)].

وقد أعطى المولى حبيبَه ومصطفاه وخليله ومجتباه محمّداً أن لا يُهلك أمته بسنة بعامّة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها. [أخرجه مسلم في الفتن (٢٨٨٩)].

دعوة لدراسة أسباب النصر والهزيمة:

ألا ما أحوجَ الأمّة أن تدرُسَ أسبابَ النصر والهزيمة بمنظور جديد ورأي سديد وموقف رشيد ومنهج حميد، وأن تدقق في المقاصد والغايات والنتائج لاعتلاء شرفنا السامق ومجدنا الشامخ بإذن الله، وحذار حذار من اليأس والقنوط والإحباط، وإلى مزيد من التفاؤل والاستبشار، فالنصرُ للإسلام وأهلِه، والقوة لله جميعاً، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

حفظ الله أمّتنا من كيد الكائدين وحقد الحاقدين وعدوان المعتدين، وأصلح أحوالَ المسلمين في كلّ مكان، وكشف الغمّةَ عن هذه الأمّة، وأعاذنا والمسلمين من مضلّات الفتن ما ظهر منها وما بطن، إنّه جواد كريم.

> ما أحوجَ الأمّةَ أن تدرُسَ أسبابَ النصر والهزيمة بمنظور جديد ورأي سديد ومنهج حميد، وأن تدقّق في المقاصد والغايات والنتائج لاعتلاء شرفنا السامق ومجدنا الشامخ بإذن الله.

الدرعان الواقيان:

أيها الإخوة في الله، إنّ على شباب الأمّة الفطن الواعي - وفقهم الله - بل والمسلمين عامّة في هذه الأحداث والأزمات قصيرة العمُر بحول الله أن يتدرّعوا بدرعين واقيين بإذن الله هما درع الأوبة إلى الله وصدق الالتجاء إليه، والإلحاح في الدعاء، فهو سهام الليل التي لا تخطئ، والسلاح الخفيّ الذي لا يُخيب، ودرعُ الالتفاف حول القيادة المسلمة وكوكبة العلماء الربانيين، استرشاداً بتوجيهاتهم واستنارةً بإرشاداتهم، كيف لا؟! وهم مسَاك الدين وملاكه وأنصاره وهداته، وبهم يُحفظ الدين، وهم الموقّعون عن ربّ العالمين، ومن صدر أو وَرَد عن غير رأيهم وبصيرتهم فيُخشى عليه المزلّة والعطب.

دور العلماء والدعاة:

وإنّ علماءَ الشريعة ودعاة الإصلاح - وفقهم الله - لمدركون مدى الأمانة المناطة بأعناقهم، سيّما في الشدائد والأزمات، وإنّ المنصفَ لواجدُهم أشدَّ الناس حرصاً على توجيه الأمّة وبيان الحقّ بالهدي النبويّ المتضمّن للحكمة والكياسة والأناة والحصافة، مصطحبين القواعدَ الشرعيّة والمقاصد المرعيّة، من دفع المفاسد والشرور وجلب المصالح والخيور، عملاً بالقاعدة الذهبيّة: التصرُّف في الرعيّة منوط بالمصلحة الشرعيّة، وخصوصاً إذا اتّقدت العواطف والتهبت المشاعر، ووقتئذ فالأمّة أحوجُ ما تكون إلى الدليل المخلص والربان الماهر والهادي الرشيد بالرأي الحصيف والقول السديد، وإذا كثر الملاّحون غرقت السفينة، فلا بدّ من تجاوُز الخلافات والمعارك الوهمية والحوارات العقيمة الهامشيّة، لا بدّ من تفعيل الدور التربويّ للوسائل الإعلاميّة وعدم التضخيم والإثارة والبلبلة والتهويل والتهويش والتحريش والتشويش، والحذر من الاجتهادات الفرديّة والتصرّفات الأحاديّة وبثّ الفتاوى الطائرة وإصدار الأحكام الجزاف الجائرة التي تدَع الأفهامَ حائرَة، وتجرّ البلاد والعباد إلى فتن عمياء، لا يعلم عواقبَها إلاّ الله سبحانه.

وللأمّة في تاريخها المجيد نماذجُ باهرة في الحزم والحكمة، فهذا أبو بكر يومَ الردّة، وهذا الإمام أحمد يومَ المحنة، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله جميعاً، وغيرهم كثير. إنّنا بهذا لا نلغي المشاعرَ والعواطف المتدفقة لدى شباب الأمّة غيرةً على الدين والملّة، فبُوركت غيرتهم، وسُدّدت خطاهم، بل نحمدُها لهم، ونستبشر بها الخيرَ إن شاء الله، ولكنّنا ندعو إلى حسن توظيفها، والاستبصار بعواقبها، والتحليق بجناحَي العقل والعاطفة، إذ الاستقلال بأحدهما مفسدة وشطط عن سواء الحقّ، وفي التواؤم بينهما تحقيقٌ للوسطية والاعتدال، ونزوع إلى الطريق السويّ بإذن الله، ويعلم الله وحدَه أنّ هذا محضُ الحُب والنصح لهم والمودّة والحدب عليهم[أي: العطف عليهم والرفق بهم].

اللهم أعز الإسلام والمسلمين...



محبطات الأعمال

منبر الحرمين

الحمد لله، الحمد لله الذي خلق وبرا وأبدع كل شيءٍ وذرا، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦]، أحمدُه - سبحانه - وأشكرُه على نعم تتوالى وآلاء تترى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ حقٍّ ويقينٍ سالمةً من الشك والامتراء.

وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه المبعوثُ بالهُدى ودين الحقِّ ما كان حديثًا يُفترى، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه سادَة الورَى وأُسد الشَّرى، والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا مزيدًا متكررًا.

إعداد

د. صالح بن حميد

إمام وخطيب المسجد الحرام

أما بعد: فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -؛ فالعبدُ مطلوب، والعملُ مكتوب، وقد آذَنَت الشمسُ بالغروب؛ فاحذَروا الذنوب، وقسوةَ القلوب.

إنكم لم تُخلقوا عبثًا، ولن تُتركوا سُدًى، الدنيا خُلقَت لكم، وأنتم خُلقتُم للآخرة، وليس في الآخرة إلا الجنة أو النار، وما بعد الموت من مُستعتَب، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقفةٌ مع آيةٍ من كتاب الله:

ولمزيدٍ من المُحاسَبة ورفع الهِمَّة، والأخذ بالعزائم؛ فهذه وقفةٌ مع آيةٍ من كتاب الله.

آيةٌ في كتاب الله تُلين القلوبَ القاسية.. وتُوقظُ النفوسَ الغافلة.. آيةٌ تستدعي التأمُّل، وتدعُو إلى التفكر.. آيةٌ في كتاب الله شابَت منها رؤوسُ الأتقياء.. ووجلت لها قلوبُ الأولياء.. وذرفَت لها دموعُ الخائفين.. واقشعرَّت منها جلودُ الوجلين.

فلله درُّهم! ما أعظمَ تدبُّرهم للقرآن.. وأشدَّ تأثُّرهم بمواعظه.. ووقوفهم عند زواجره.

إنها قولُ الله - عزَّ شأنه -: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

عظمُ خوف السلف:

لقد عظُمَ خوفُ السلف منها؛ فهذا محمد بن المُنكدر لما حضَرته الوفاة جزِع، فدعَوا له أبا حازم ليُخفِّف عنه من جزَعه، فقال له ابنُ المُنكدر: "إن الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾، فأخاف أن يبدُو لي من الله ما لم أكن أحتسب. فجعلا يبكيان". فقال أهل ابن المُنكدر: دعوناك لتُخفِّف عنه، فزِدتَه جزَعًا.

وقيل لسُليمان التيميّ: أنت أنت، ومن مثلك؟! فقال: "مَهْ! لا تقولوا هذا، لا أدري ما يبدُو لي من الله، سمعتُ الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾".

وعن سُفيان أنه قرأها، فقال: "ويلٌ لأهل الرياء، ويلٌ لأهل الرياء، هذه آيتُهم! هذه قصَّتهم".

وقال مُقاتل: "ظهر لهم حين بُعثُوا ما لم يحتسبُوا في الدنيا أنه نازلٌ بهم في الآخرة".

وقال السُّديّ: "ظنُّوا أن أعمالَهم حسنات فبدَت لهم سيئات".

وقال أهل العلم: "إن من الذين يبدُو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبُون: قومٌ عمِلوا أعمالاً صالحة، ولكن كانت عليهم مظالم، فظنُّوا أن أعمالَهم الصالحة ستُنجيهم، فجاء الحسابُ، فبدَا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبُون".

وقال ابن عطيَّة: "كانت ظنونٌ في الدنيا مُتفرِّقةً مُتنوِّعة حسب ضلالاتهم وتخيُّلاتهم فيما يعتقدون، فإذا عايَنوا العذابَ يوم القيامة، وقصَّرت بهم حالاتُهم،

ظهر لكل واحد ما كان يظنُّ".

كم من موقف خزي يوم القيامة لم يخطر على بالك قط:

واستذكروا - رحمكم الله -، استذكروا حديثَ المفلس الذي يأتي بحسنات أمثال الجبال، ويأتي وقد ضرب هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا.

يقول بعض السلف: "كم من موقف خزي يوم القيامة لم يخطر على بالك قط، ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ [ق: ٢٢]".

يا عبد الله! ما ظنُّك بعبد عمل أعمالاً ظنَّها صالحة، ونسيَ ما كان منه من معاصٍ، حسبَه هيِّنًا، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب.

التحذير من ذنوب الخلوات ومن محبطات الأعمال:

معاشر الإخوة.. احذروا ذنوبَ الخلوات؛ فقد جاء في "سنن ابن ماجه" عن ثوبان - رضي الله عنه -، عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «لأعلمنَّ أقوامًا من أمَّتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباءً منثورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا وجلهم، لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال: «أما إنهم إخوانكم، قومٌ من جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنَّهم أقوامٌ إذا خلَوا بمحارم الله انتهكوها»؛ قال في "الزوائد": "إسناده صحيح، ورجاله ثقات".

قال سالم مولى أبي حُذيفة - مُعلِّقًا على هذا الحديث -: "خشيتُ أن أكون منهم"، ثم قال: "لعلَّهم كانوا إذا عرض لهم شيءٌ من الحرام أخذوه، فأذهب الله أعمالهم".

احذروا الغرورَ والأماني، ومدَّ الجبال في المعاصي.. إياكم واستصغارَ الذنوب.. إياكم ومُحقِّرات الذنوب، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

يقول أنس - رضي الله عنه -: "إنكم تعملون أعمالاً هي في أعيُنكم أدقُّ من الشعر، كنَّا نعُدُّها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المُوبقات"؛ رواه البخاري.

معاشر الأحبَّة: تأمَّلوا - رحمكم الله -، تأمَّلوا فيما يُحبِط الأعمال، ويأكل الحسنات؛ من الحسد، والرياء، والسُّمعة، والغيبة، والنَّميمة، والكبر، والظلم، والعُجب، وأكل الحرام، وتقطيع الأرحام، والإسراف في المآكل والمشارب والولائم والمطاعم، وإدمان السهر على غير طاعة الله، والإغراق والانهماك في وسائل الإعلام ومواقع التواصل بما لا يُفيد، والتكلف في تصنيف الخلق؛ مما يُمرِئ الأبدان، ويُهلك القلوب، ويُفسد العقول، ويُشقي النفوس، ويُشغل عن الطاعة، ويصرف عن النافع، ويُبعد عن الجادَّة، ويُضيِّع المسؤوليَّات.

من مظاهر الانحراف والغلو في العصر الحديث:

معاشر المسلمين: إن من العقل والحكمة والحصافة وحُسن المحاسبة: النظرَ الجادَّ في هذا الزمان ومُستجداته، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. زمنٌ كثرت فيه المُشغلات، وتنوَّعت فيه الصوارف، وتكاثرت فيه المُلهيات؛ بل لقد التبَسَ الحقُّ بالباطل لدى بعض الفئام، ولاسيَّما في ميادين الفكر والثقافة.

> يا عبد الله! ما ظنُّك بعبدٍ عمِلَ أعمالاً ظنَّها صالحة، ونسيَ ما كان منه من معاصٍ، حسبَه هيِّنًا، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب؟!

نعم، حفظكم الله: يموجُ العصرُ بألوانٍ من المُخالفات، وما تبثُّه وسائل الإعلام والتواصل بمقروئها ومسموعها ومُشاهَدها من أنواع المحرَّمات؛ في العقائد والسلوك، وألوان الجرائم والإجرام، ممن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسنًا، وممن ضلَّ سعيُه في الحياة الدنيا وهم يحسَبُون أنهم يُحسنون صُنعًا.

إن من أعظم المظاهر الصارفة والصادَّة: الانبهارَ بمظاهر المادَّة والعُمران، والانصرافَ والزُّهدَ في حقائق الإيمان، وعلوم القرآن والسنَّة.

والغلوُّ المدنيُّ ينبوعُ الانحراف الثقافيِّ والفكريِّ، ومن أعرضَ عن وحي الله سوف يبقى مُرتكسًا في الظلمات، مهما أوتي من العلوم والمدنيَّات، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومن مظاهر الانحراف والغلوِّ: أن بعض المُعاصرين لانبهاره بالمكتشفات والمُستجدَّات ووسائل التحضُّر، حين يُنبِّه إلى مواطن الضعف والنقص في صور الضلال



والانحراف، والانحلال، والفُجور، والفواحش، يتورَّمُ أنفه، ويظهرُ عليه التبرُّم، ويبدو عليه القلق.

ويأبى الله أن تكون الرذيلة سبيلاً للفضيلة، والإسفافُ طريقًا للعفاف.

كيف وقد صرَّح القرآنُ الكريمُ بأن التمكين المادِّيَّ لا يُغني عن أهله شيئًا، إذا قارنه جحودٌ بآيات الله، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ويقول - عزَّ شأنه -: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

الأصل الأصيل والتمكين الممكن:

الأصلُ الأصيلُ - عباد الله - هو عمارة النفوس والقلوب بالله وتوحيده، وذكره وشكره، وحُسن عبادته.

أما التمكينُ الأمكن فهو مدلولٌ عليه لقوله - عزَّ شأنه -: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وقوله - جل وعلا -: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وبعد، حفظكم الله:.. فما تنفعُ زينة الحياة الدنيا وماديَّاتها، إذا لم تُعمِّر النفوسُ بالضراعة إلى الله، والإخبات إلى ذي الجلال والعزَّة، ولم تتزكَّ بالعلم بالله وتوحيده، وحُسن مُعاملته، والتعلق به، والاعتماد عليه؟! ولم يقدُر الله حقَّ قدره من هانَ عليه أمرُه فعصاه، ونهيُه فارتكبَه، وكان هواهُ أثَرَ عنده من رضا ربه.

جعل الله الفضلةَ من قلبه وعلمه وعمله وماله.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٤- ٥٨].

من أحسن الظنَّ بالله أحسن العمل:

يا أيها المسلمون: من أحسنَ الظنَّ بالله أحسنَ العمل.

يقول ابن عون - رحمه الله -: "لا تثق بكثرة العمل؛ فإنك لا تدري أيُقبَل منك أم لا، ولا تأمَن ذنوبَك؛ فإنك لا تدري هل كفرت أم لا، عملك مُغيَّبٌ عنك كله لا تدري ما الله صانعٌ فيه".

والعاجزُ من أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله الأماني، يطلبُ المغفرة من غير توبة، ولا أخذ بأسباب الغفران.

يقول معروفٌ الكرخيُّ: "رجاؤك لرحمة من لا تُطيعُه من الخذلان، ومع المعاصي يضعُف الوازع".

ويقول بعضُ السلف: "ربَّ مُستدرَج بنعَم الله وهو لا يعلم، وربَّ مغرور بستر الله وهو لا يعلم، وربَّ مفتون بثناء الناس وهو لا يعلم. فيا لله! ما ظنُّ الظلمة إذا لقوا ربَّهم، ومظالمُ العباد تُطوَّقُ أعناقهم".

ولْيحذَر من يُريد الخلاص لنفسه الانصياعَ للهوى والملذات، والانكبابَ على موائد المُشتهيات، لا يُبالي مخرَجها من مدخلها، ولا طيِّبها من خبيثها.

ألا فاتقوا الله - رحمكم الله -، وأطيعُوا الله وأطيعُوا الرسول واحذَروا، واجتهدوا - رحمكم الله -، فهذا أوان الطلب، واحذَروا الغفلة، والغفلة طريق العطب.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُّكم في مُحكم تنزيله، فقال - وهو الصادق في قيله - قولًا كريمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عما يصفون، وسلامٌ على المُرسلين، والحمدُ لله رب العالمين.

> من لم يقدُر الله حقَّ قدره هانَ عليه أمرُه فعصاه، ونهيُه فارتكبَه، وكان هواهُ أثَرَ عنده من رضا ربه.



منبر الحرمين

الفتن والاضطرابات.. معالم ووقفات

إعداد
د. صالح بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام



الحمد لله المُتفرِّد بكل كمال، والمُتفضِّل بجزيل النوال، فله الحمدُ على كلِ حال، وفي كل حال، أحمدُه - سبحانه - وأشكرُه، وأثني عليه بما هو أهله يبتدئ بالإحسان قبل السؤال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تنزَّه عن الأشباه والأنداد والأمثال، وأشهد أن سيِّدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه المنعوتُ بعظيم الخُلق وشريف الخِصال، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى أصحابه الغُرِّ الميامين خير صحب، وآله السادة الطاهرين الطيبين خير آل، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المآل، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله -، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

حاذروا -رحمكم الله- عيونًا إلى زهرة الدنيا قد مُدَّت، ونفوسًا في طلب العاجلة قد جدَّت، وآذانًا عن سماع الذكر قد سُدَّت، وقلوبًا لكثرة المعاصي قد اسودَّت.

إن في كتاب الله لأعظم زاجر، وفي مواعظ الأيام عبرةً لذوي البصائر. ركائب الأموات تَنقُل من مقصورات القُصور إلى مضائق القبور.. نواعم أبدان في مدارج أكفان.. فكفى بالموت واعظًا! ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

عالم يموج بالفتن والضلالات:

معاشر المسلمين: يموجُ العصرُ بمتغيِّرات في أحوال مُضطربات، وتقلبات مُفاجئات.. فتنٌ يُشعلها الأعداء. إنه الإشعال من أجل الإشغال؛ إشغال المنطقة بإشعال الحروب الطائفية، والنِّزاعات الحزبيَّة، والصِّراعات الإقليمية، والفتن الداخلية.

فتن تُهدِّد العالم بأسره، بما تحمله من خطر الإرهاب والإرهابيين، وتشويه دين الإسلام، وتقطيع أوصال أهله، وتمزيق دياره، من أجل المزيد من الضياع والفقر، والتشريد واليأس.

إرهابٌ هو صنيعة استخبارات دوليَّة وإقليمية، يحظى بالرعاية والتسليح والتمويل. وقودُه خوارجُ ضالُّون، وعُملاءُ مُحترفون ممن ارتهَنوا أنفسَهم لأعداء الدين والأمة والأوطان. إرهابٌ يُكفِّرُ المُجتمعات المُسلمة، ويستبيحُ الدماءَ المعصومة.

هذه الفتنُ والأحداث كشفَت أوراقًا، وفضحَت أقوامًا، وأسقطَت رموزًا، وأظهَرت عوارَ الاتفاقيات والمواثيق الدولية ودعاوَى السلام.

شدة المعاناة من نوعَين من الإرهاب:

أيها الإخوة: ولمزيد من الإيضاح والبيان؛ فإن أمام المُتأمِّل نوعَين من الإرهاب: إرهابَ هيئات ومُنظَّمات، وإرهابَ دول.

أما إرهابُ الهيئات والمُنظَّمات؛ فيأتي في مُقدِّمة ذلك: خوارجُ العصر الذين يقتُلون أهلَ الإسلام، ويدَعون أهلَ الأوثان، من حُدثاء الأسنان، وسُفهاء الأحلام.

وصف السلف للخوارج:

اسمَعوا - رحمكم الله - إلى هذا التحليل العجيب، والتشخيص الدقيق من هذا الإمام التابعي الجليل من الطبقة الثالثة، وهو من رُواة «الصحيحين» وأصحاب «السنن»، قال تحليله ذلك قبل ما يزيد على ألف ومائتَي عام. إنه: وهبُ بن مُنبِّه.

يقول - رحمه الله -: «لقد أدركتُ صدر الإسلام، فوالله ما كانت الخوارج جماعةً قطُّ إلا فرَّقها الله على شرِّ حالتها، وما أظهرَ أحدٌ منهم قولَه إلا ضربَ الله عُنقَه، ولو مكَّن الله لهم لفسدَت الأرضُ، وقُطِعَت السُّبُل، وانقطع الحجُّ، ولعادَ أمرُ الإسلام جاهليةً، وإذا لقام جماعةُ كل منهم يدعو لنفسه بالخلافة، مع كل واحد منهم عشرةُ آلاف يُقاتِل بعضُهم بعضًا، ويشهَدُ بعضُهم على بعضٍ بالكفر، حتى يُصبحَ المؤمنُ خائفًا على نفسه، وعلى دينه، ودمه وأهله وماله، لا يدري مع من يكون!». اهـ كلامُه - رحمه الله -.

أيها الإخوة في الله: وهل رأيتُم أدقَّ من هذا التشخيص، وأوضحَ من هذا التحليل؟!

ويقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في الخوارج: «لو قوِيَ هؤلاء لأفسَدوا الأرضَ كلها عراقًا وشامًا، ولَم يترُكوا طفلاً ولا طفلةً، ولا رجُلاً ولا امرأةً؛ لأن الناسَ عندهم قد فسَدوا فسادًا لا يُصلحُهم إلا القتلُ جملةً!».. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

انحراف الخوارج واضطرابهم وسوء مسالكهم:

أيُّ دينٍ وأيُّ عقيدةٍ يستبيحُون بها عداوةَ إخوانهم المسلمين، وعدوانَهم على أوطانهم وديارهم، يعيثُون فيها فسادًا وتقطيعًا وتمزيقًا، وتمكينًا للأعداء - أعداء الملَّة والعقيدة -، يقفون خلفَ شعاراتٍ تتربَّصُ بالإسلام وأهله.

سُذَّجٌ مغرورون ومُغرَّرٌ بهم من أبناء أهل الإسلام، يُقتادُون إلى المهالك بسبب حماسهم وجهلهم، دخلُوا في هذا المُخطَّط الشرير، وارتمَوا في أحضان قاطع الرؤوس ومُمزِّق الأجساد ظُلمًا وعُدوانًا.

يُصاحبُ ذلك - أيها المسلمون - صمتٌ رهيبٌ، ازدهرَت فيه سوقُ المُخابرات الإقليمية والدولية، لمزيد من التغرير والتوظيف للسُّذَّج من أبنائنا.. في إذكاءِ للصراع الطائفي، والتمزيق الإقليمي، والتفريق الحزبيِّ.

فيقعُ هؤلاء السُّفهاء الحُدثاء، يقَعون ضحيةً لهذه المخطَّطات الاستخباريَّة، وهم بين مُنفِّذ غبيٍّ، أو مُستبشر أغبى، أو مؤيد أغبَى وأغبَى.

وما علمَ هؤلاء أنهم يخدمون أعداءَهم، ويهدمون بيوتَهم، ويُفرِّقون جماعتَهم، ويقضُون على وحدة أمَّتهم، ويُزعزعون مُجتمعاتهم، ويُضيِّعون روابطَهم؛ بل يُشكِّكون في ثوابت أمَّتهم وأصولها ومبادئها، ومن ثمَّ دفعُها إلى التنازُع والتناحُر والاقتتال، واستنزاف الموارد، وتبديد الطاقات البشرية والمادية، وإضعاف الولاء للدين والوطن والأمة.

معاشر الأحبَّة: صمتٌ عالميٌّ رهيبٌ على جرائم القتل والإرهاب والإبادات الجماعية في سُوريا، وفي العراق، وفي اليمن، ومواطن أخرى، في مواقف مُخزية مُحزنة لا تلُوحُ بوادرُ نهايتها. تُمارسُها هذه الفئاتُ الشاذَّة في دمويَّة التكفيريين المُنحرفين.

إنه استغلال الإرهاب وتوظيفٌ من أجل أهداف سياسية، وخُطط عُدوانية، ومصالح ضيِّقة. أيُّ مُصيبة أدهَى من أن يُحارِبَ الأخُ أخاه داخل الدولة الواحدة؛ بل داخل الفئة الواحدة؟!

لم يتأذَّ بعداوتهم ولا عُدوانهم إلا إخوانُهم وأهلُهم وساكنُ ديارهم، أما العدو الحقيقي اليهوديُّ الغاصب المحتلُّ ومن شايعَه فهو في سلامة وعافية!

الكيان الصهيوني نموذج لإرهاب الدولة:

أيها المسلمون: هذه صورةٌ من إرهاب المُنظَّمات والتحزُّبات.. أما إرهابُ الدول؛ فيأتي العدوُّ الصهيونيُّ في موقع الريادة، فعُدوانُه وجرائمُه تُمثِّل قيمةَ الإرهاب والعُدوان على الحقوق

المشروعة لإخواننا في فلسطين المُحتلَّة. وهل ثمَّة صورة تتجسَّدُ فيها صورةُ الإرهاب أكثر مما يُعانيه إخوانُنا في فلسطين، في نسائهم وأطفالهم ومدارسهم ومساجدهم ومُستشفياتهم وملاجئهم وأنفاقهم؟!

إسرائيلُ دولةٌ مُحتلَّة، تنتهجُ نهجَ هذه الجماعات الإرهابية، فتجعلُ العُنفَ والقتلَ والإرهابَ والتشريدَ طريقَها؛ لتحقيق غاياتها.. ترتكبُ أشنعَ المجازر، وتُمارسُ أفظعَ صُور الإرهاب، وتمتلكُ أسلحةَ الدمار الشامل.

وقد كشفَ الإعلامُ الجديد المزيدَ من وحشيَّة الهجَمات الهمجيَّة على السكان العُزَّل الأبرياء في قصف المساجد، والمدارس، والملاجئ، والمُستشفيات، والأسواق. في إرهاب على مرأى من العالَم ومسمَعه. عُدوانٌ يكشفُ الهمجية والهيجان.

انتصار المقاومة في غزة على العدو الصهيوني:

معاشر الأحبَّة: انتصرَت فلسطين، وانتصرَت غزَّة؛ لأنها كشفَت عُدوانَ العدو وافكه وهمجيَّته، والتحيَّةُ والتقدير لكل من وقفَ مع الحق، وانتصرَ للمظلوم، ووقفَ في وجه الظالم.

غزَّة صمدَت بعزم، وصبرَت ببأس، وأوقدَت الحجر، وسخرَت من كثير من البشر وأشباه البشر. فلا نامَت أعينُ الجُبناء والمُخذِّلين، والحياةُ كما هي مُفاوضات، هي جهادٌ وتضحيات.

إن الدافع وراء المُخذِّلين والمُتخاذلين مصالحُ وقتية، أو مُخطَّطاتٌ مشبُوهة، أو مكاسبُ سياسيَّة محدودة، وليعلَم أن كل من صمَت عن الإرهاب في دوله أو جماعاته ومُنظَّماته أنه سوف يكتوي بناره.

وليعلَم يهودُ أن الحق لا يضيع؛ فالدفاعُ حقٌّ مشروع، والمقاومة شامخة، والمُنتصرُ هو الحق والعدل، طالَ الزمانُ أو قصُر، وقضيةُ فلسطين هي قضية المُسلمين الأولى مهما كان عبَثُ السياسة، ومهما عظُمَت التضحيات، فلا تفريط، ولا مُساومَة.

ولو أن العالَم تخلَّى عن الازدواجية في معاييره، وغابَ النفاقُ السياسيُّ في مُداولاته لما سالَت هذه الدماء، ولما سادَت سوق الإرهاب.

عباد الله: أيُّ عار سيلحَق بهذا العالَم في مُنظَّماته، وحقوق إنسانه، ومجالس أمنه وأممه؟! أيُّ عار وقد أصبحَ الدمارُ شعارًا، والإرهابُ سياسة، والسياسةُ مصالح؟!

أجواء الفتن والمِحَن:

وبعد - وقاكم الله شرَّ الفتن -: ففي أجواء الفتن والمِحَن يتبيَّن من ينصرُ الحقَّ، ومن يفي بالعهد، ومن يصدقُ الوعد. في أجواء الفتن والمِحَن الصمتُ يقتُل، والكلامُ يفضح، والخُذلان ينكشفُ ويُكشف.. وفي بطن المآسي يكونُ الفرجُ والمخرَج، (فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) [النساء: ١٩].

معالم منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة:

أما بعد، فيا أيها المسلمون: في أجواء الفتن وخضَمِّ الاضطرابات يحسُن التذكيرُ ببعض معالم منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة. فمن معالم هذا المنهَج:

- أنهم يلتزمون مُقتضَى الدليل، والمصلحة الشرعيَّة في جهادهم ودعوتهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، ومواقفهم من أهل البدع، بداعي النُّصح لله ولرسوله ولجماعة المؤمنين، وليس بداعي الانتقام والتشفِّي والتشهير.

- يستُرون عيوبَ المُسلمين، ولا يتتبَّعون عوراتهم، ولا يذكرون أخطاءَ أهل العلم إلا لبيان الحق، مع لزوم الأدب، وحفظ حقِّ كل ذي حق، ويلتمسُون العُذر ما أمكن؛ ذلكم أن من قلَّة الدين والفقه والورع وقصَر النظر الظنَّ بأن المُخالف تسقُطُ حقوقه الشرعية، أو أن العدل معه ضعف.

وإن من المُستقرِّ لدى أهل السنة والجماعة قد يُؤيِّد الدينَ بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خلاقَ لهم، ولاسيَّما في حال الاضطراب والفتن.

- ومن معالم منهجهم - منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة -: أن البدع كسائر الذنوب، فيها الصغير والكبير، والظاهر والمشتبه، والمحفوظ من حفظَه الله. أما المُخالفةُ بالتأويل والخطأ والجهل فسيمةُ أكثر الخلق.

- وإن من الدين والورع - حفظكم الله -: أن يتَّهم المرءُ نفسَه، ولاسيَّما ذوو الصلاح والعلم والفضل، ويُفتِّش في عيوبه، وينشغل بها؛ حفاظًا على إيمانه، وخوفًا على نفسه، ويقبل الحقَّ ممن جاء به.

نعم، إن أهل السنة والجماعة هم أكثرُ الناس ازدراءً لأنفسهم، وأبعدهم عن الكمال، لا يُزكُّون

أنفسَهم لا بالألقاب، ولا بالشِّعارات، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

- يقبَلون توبةَ التائب، واعتذارَ المُعتذر، ويرجُون للمُحسن، ويخافون على المُسيء، ولا يفرَحون لعثَرات العاثرين، ولا يُحبُّون وقوعَ العُصاة في المعاصي، ويدعُون لصاحب المعصيَة بالهداية.

- ويفقَهون معنَى الجهاد مع كل برٍّ وفاجر في جهاد الميدان، وجهاد السياسة، وجهاد العلم، وجهاد الدعوة؛ لأن المقصود النِّكايةُ بالعدو المُستبين.

- لا يبخَسون الناسَ أشياءَهم.

- يرتكبون أخفَّ الضررين، ويجتنبون أكبرَ المفسدتَين، ويصبرون على أهوَن الشرَّين، ويختارُون أيسرَ الأمرَين.

- والمُوالاةُ والمُعاداةُ في منهَجهم تكونُ على حقائق، لا على الدعاوَى والأسماء. لا يشقُّون عن القلوب، ولا يُنقِّبون عن السرائر، ولا يُسيئون الظُّنون، ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا.

- أقوياء في الحق من غير غلوٍّ، ورُحماءُ بالخلق من غير تهاوُن، وأشدَّاءُ على أهل الضلال من غير تعسُّف ولا جَور.

- أهل السنة والجماعة مُتَّحدون في منهَجهم وغاياتهم ومسلكهم، مُتنوِّعون في مقاماتهم ومنازلهم. فيهم العالم، وفيهم المُجاهد، وفيهم رجل الدعوة، وفيهم المُحتسب، وكل من لم يلتبس ببدعة فهو منهم.

وسبيل الاتباع أقوَمُ السُّبل وأهداها، وهو أرحبُها وأوسعُها، وقد وسع ذلك السابقين من المهاجرين والأنصار والأعراب، ومُسلمة الفتح، والطُّلقاء. وفي ذلك مراتبُ من مقامات الإيمان ما لا يعلمُه إلا الله، قال عزَّ شأنُه -: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

فيحمل بعضُهم بعضًا على هذا السبيل، كلُّهم - بفضل الله ورحمته - إلى حُسن العاقبة صائرون.

موقف المسلم عند حلول الفتن:

ألا فاتقوا الله - رحمكم الله -، واعلَموا أن الفتن لا يتكلَّم فيها إلا أهلُ العلم والبصيرة؛ فإنهم إذا تكلَّموا فيها ورجَع الأمرُ إليهم انطفأَت - بإذن الله - واضمحلَّت، أما إذا خاضَ فيها الجُهَّال من حُدثاء الأسنان وسُفهاء الأحلام فسوف يزدادُ خطرُها، ويعظُمُ شرُّها، ويستطالُ شررُها.

ومن هنا حذَّر السلفُ الخوضَ فيها؛ يقول الإمام أحمد - رحمه الله -: "الإمساكُ في الفتن سنةٌ ماضية، وأحبُّ لُزومَها؛ فإن ابتُليتَ فقدِّم نفسَك دونَ دينك، ولا تَعن على فتنة بيد ولا لسان، ولكن اكفُف يدكَ ولسانَك وهواك، والله وحدَه هو المعين".

ويقول الإمام سُفيان الثوريُّ: "هذا زمانُ السكوت، ولُزوم البيوت، والرضا بالقُوت إلى أن تموت".

ويقول عبد الله بن هُبَيرة: "من أدركَ الفتنةَ فليكسر رجلَه؛ فإن انجبَرَت فليكسر الأخرى".

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربُّكم، فقال عزَّ قائلاً عليمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد، وعلى آله وأزواجه وذريَّته، وارضَ اللهم عن الخلفاء الراشدين الأربعة: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن سائر الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وأذلَّ الشرك والمشركين، واحم حوزة الدين، وانصُر عبادَك المؤمنين، واخذُل الطغاة والملاحدة وسائر أعداء الملَّة والدين.

اللهم انصُر دينَك وكتابَك وسُنَّة نبيِّك محمد - صلى الله عليه وسلم -، وعبادَك الصالحين.

اللهم آمنَّا في أوطاننا، اللهم آمنَّا في أوطاننا، وأصلِح أئمَّتنا وولاةَ أمورنا، واجعل اللهم ولايتَنا فيمن خافَك واتَّقاك، واتَّبع رضاك يا رب العالمين.

كيف تتذوق حلاوة الإيمان؟

إعداد/ عبدالباري الثبيتي
إمام وخطيب المسجد النبوي

الحمد لله، الحمد لله الذي جعل للإيمان طعمًا وحلاوة، أحمده - سبحانه - وأشكرُه وقد تفضَّل لمن شكرَه بالزيادة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل: « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » [يونس: ٢٦ ، وأشهد أن سيِّدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه بيَّن لأمَّته مسالكَ الزَّيغ وطريقَ السعادة، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه أولي الفضل والرِّيادة.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ » (آل عمران: ١٠٢).

عن عبَّاس بن عبد المُطَّلب - رضي الله عنه -، أنه سمع رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «ذاقَ طعمَ الإيمان من رضيَ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمُحمَّد نبيًّا ورسولاً». إن من رضيَ بالله ربًّا أحبَّه، وتوكَّل عليه، واستعانَ به، واكتفَى به - سبحانه -، ولم يطلُب غيرَه؛ لأن الكل غيرَه عاجزون ضعاف، ومن لم يكفه الله لم يكفه شيء، ومن رضيَ بالله حازَ كل شيء، ومن استغنَى بالله لم يكن فقيرًا إلى أي شيء، ومن اعتزَّ بالله لم يذلَّ لأي شيء، قال الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) [الزمر: ٣٦ .

ومن رضيَ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - رسولاً اكتفَى به قُدوةً وقائدًا ومُوجِّهًا، وأقبلَ على سيرته دارسًا، وعلى سُنَّته مُمتثلاً. ومن رضيَ بالإسلام دينًا قنعَ به، والتزمَ واجباته، وترك ما نهَى عنه. للإيمان طعمٌ، وله حلاوة، لا يتذوَّقها إلا من كان لذلك أهلاً. فالإيمان إذا باشرَ القلبَ وخالطَتْه بشاشَتُه ورَّثَ ذلك في القلب لذَّةً، وفي الحياة سُرورًا، وفي الصدر انشراحًا، ومن ذاقَ طعمَ الإيمان استلذَّ الطاعات، وتحمَّل المشاقَّ في رضا الله، وتفانَى في سبيله، وضحَّى بكل شيء من أجله، قال الله تعالى: « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » (يونس: ٥٨) .

إذا خالطَت حلاوةُ الإيمان بشاشةَ القلوب جعلَت صاحبَها مع الله - سبحانه - في كل وقت وحين، في حركات العبد وسكَناته، في ليله ونهاره، مع الله خالقه وبارئه ومُوجده وناصره. ولذلك أمرَنا سولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أن نقول دائمًا: «رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمُحمَّد - صلى الله عليه وسلم - نبيًّا».

ترك المعصية لله يُورِّث في القلب حلاوةَ يجدُ طعمَها من فعل ذلك خوفًا من الله واستحياءً منه، قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «النظرةُ سهمٌ من سهام إبليسَ مسمومة، فمن تركَها من خوف الله أثابَه - جلَّ وعزَّ - إيمانًا يجدُ حلاوتَه في قلبه». عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكرَه أن يعودَ في الكُفر كما يكرهُ أن يُقذَف في النار».

حلاوةُ الإيمان لها ثمنٌ باهظ، ولها آثارٌ مُباركة. ثمنُ حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، أن يكون الله في قُرآنه والرسول في سُنَّته أحبَّ إلى المؤمن مما سواهما. وحينما تتعارَضُ مصلحتُك مع الشرع تُقدِّمُ



الشرعَ ورضا الله، وتختارُ طاعةَ الله ورسوله على هوى النفس وغيرها، فيكونُ الله تعالى عنده هو المحبوبُ بالكلية، وعند ذلك تصيرُ النفسُ مُتعلقةً بالله. محبةُ الرسول - صلى الله عليه وسلم - تعني: ألا يتلقَّى المُسلمُ شيئًا من المأمورات والمنهيَّات إلا من مشكاته، ولا يسلُكُ إلا طريقتَه، حتى لا يجدَ في نفسه حرجًا مما قضاه، ويتخلَّق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها. ثمنُ حلاوة الإيمان: أن يحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، وهذا يعني: أن يبنيَ المؤمنُ علاقاته على أساس الإيمان؛ يُوالي المؤمنين ولو كانوا ضعافًا وفُقراء، ويُبغضُ العُصاة والمُشركين ولو كانوا أقوياء وأغنياء. حقيقةُ الحبِّ في الله: ألا يزيدَ بالبرِّ ولا ينقُصَ بالجفاء، والحديث يُعمِّق معاني الأُخوَّة في الإسلام التي لا تكونُ خالصةً إلا حين تكونُ في الله وفي مرضاة الله.

الأُخوَّة الإسلامية الحقَّة لا تتذوَّقُ حلاوةَ الإيمان إلا إذا كانت مُلازمةً للتقوى، قال الله تعالى: « ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ »[الزخرف: ٦٧ . «وأن يكرَهُ أن يعودَ في الكفر كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النار» هنا من يعبُد الله على حرف؛ إن أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه خسرَ الدنيا والآخرة. إذا أقبلَت الدنيا آمَن، وإذا أدبَرت تبرَّأ من الإيمان وعاد لما كان عليه.

المُؤمنُ الحقُّ لا يتأثَّرُ بإقبال الدنيا ولا بإدبارها، ثابتَ الجَنان، صاحبَ عطاء في المنشط والمكرَه، في الفقر والغنى، في الصحة والمرَض. الذين ذاقُوا حلاوةَ الإيمان وصَفُوا هذه اللذَّة؛فهذا أحدُهم يقول: "إنه ليمُرُّ بالقلب لحظات، أقولُ: إن كان أهلُ الجنَّة في مثل هذا إنهم لفي نعيم". ويقول آخر: "إن في الدنيا جنَّةً من لم يدخُلها لم يدخُل جنَّةَ الآخرة". ويقول ثالث: "فإن للإيمان فرحةً ولذَّةً في القلب؛ فمن لم يجدها فهو فاقدُ الإيمان أو ناقصُه، وهو من القسم الذين قال الله - عز وجل - فيهم: « قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ » (الحجرات: ١٤).

من الذين ذاقُوا حلاوةَ الإيمان: خُبيبُ بن عديٍّ - رضي الله عنه -، قيل له: أتحبُّ أن يكون محمدٌ مكانَك وأنت مُعافًى في أهلك، وكان على وشك أن يُقتلَ صلبًا، فقال: "والله ما أحبُّ أن أكون في أهلي وولدي، وعند عافيةُ الدنيا ونعيمُها، ويُصابُ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - بشوكة". التي ذاقَت حلاوةَ الإيمان بلَغها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد قُتل في أُحُد، فانطلقَت إلى ساحة المعركة، فإذا أبوها مقتول، وأخوها مقتول، وابنُها مقتول، وزوجُها مقتول، فقالت: ما فعلَ رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -؟ فلما وقعَت عينُها على شخص النبي - صلى الله عليه وسلم -، اطمأنَّت وقالت: يا رسول الله! كلُّ مُصيبة بعدَك جلَل. الذي يذوقُ طعمَ الإيمان لو تُقطَّعُه إربًا إربًا لا يتزحزَح عن دينه. وضَعُوا على صدر بلال - رضي الله عنه - صخرةً ليكفُر، فكان يقول: "أحدٌ أحد، فردٌ صمد".

هرقلُ ملكُ الرُّوم الذي عاصرَ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم -، سألَ أبا سُفيان: هل يرتدُّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه؟ فقال: لا، فقال هرقل: كذلك الإيمانُ إذا خالطَت حلاوتُه بشاشةَ القلوب. إذا ذاقَ المُسلمُ حلاوةَ الإيمان غدَا إنسانًا آخر، لحياته طعمٌ آخر، يَبنيها على العطاء، يسعَدُ بما يُعطي لا بما يأخُذ، يُقدِّمُ الخيرَ للآخرين.

ومن علامات حلاوة الإيمان: أن يعتقدَ المؤمنُ من سُويداء قلبه أن الأرزاقَ بيد الله، وأن ما بسطَه الله على عبدٍ لم يكُن لأحد أن يمنعَه، وأن نفسًا لا تموت حتى تستوفيَ رزقَها وأجلَها، قال الله تعالى: « مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » [النحل: ٩٧ .



حلاوةُ الإيمان - عباد الله - تُضفي على العبادات لذَّة. قال أحدُهم: "كل ملذوذ إنما له لذَّةٌ واحدةٌ إلا العبادة، فإن لها ثلاث لذَّات؛ إذا كنتَ فيها، وإذا تذكَّرتها، وإذا أعطيتَ أجرَها".

في الصلاة لذَّةٌ حين يُؤدِّيها المُسلمُ بخشوع وحُضور قلب، فتغدُو قُرَّة عينه، ونعيمَ رُوحه، وجنَّةَ قلبه ومُستراحَه في الدنيا، فما يزالُ في ضيق حتى يدخُلَ فيها، ولذلك قال إمامُ المُتقين - صلى الله عليه وسلم -: «أرحنا بها يا بلال».

ولقيام الليل عند الصحابة والسَّلَف منزلةٌ عظيمةٌ ولذَّةٌ لا تُبارَى. يقولُ أحدُهم: "والله لولا قيامُ الليل ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا، والله إن أهلَ الليل في ليلهم مع الله ألذُّ من أهل اللهو في لهوهم".

والصيام يتلذَّذُ به السلفُ والصالحُون أيَّما لذَّة.

أما الحجُّ فإن لذَّته تدفعُ أصحابَه إلى ركوب المطايا وتجشُّم المشاقِّ حنينًا إلى البيت العتيق وشوقًا إليه.

ولذكر الله لذَّةٌ وأيُّ لذَّة! قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولقراءة القرآن وتلاوته لذَّة، يقول عُثمانُ بن عفَّان - رضي الله عنه -: "لو طهُرت قلوبُكم ما شبعَت من كلام الله - عز وجل -". قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩).

ألا وصلُّوا - عباد الله - على رسول الهُدى؛ فقد أمركم الله بذلك في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريَّته، كما صلَّيتَ على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريَّته، كما باركتَ على إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، وارضَ اللهم عن خلفائه الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن الآل والصَّحب الكرام، وعنَّا معهُم بعفوك وكرمك ومنِّك يا أرحم الراحمين. اللهم أعزَّ الإسلامَ والمُسلمين، اللهم أعزَّ الإسلامَ والمُسلمين، اللهم أعزَّ الإسلامَ والمُسلمين، وأذلَّ الكفرَ والكافرين، ودمِّر اللهم أعداءَك أعداءَ الدين، واجعل اللهم هذا البلدَ آمنًا مُطمئنًّا وسائر بلاد المسلمين.

اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسُوء فأشغله بنفسه، واجعل تدبيرَه تدميرَه يا سميعَ الدعاء، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسُوء فأشغله بنفسه، واجعل تدبيرَه تدميرَه يا سميعَ الدعاء، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسُوء فأشغله بنفسه، واجعل تدبيرَه تدميرَه يا سميعَ الدعاء.

اللهم انصُر وأنجِ المستضعَفين من المسلمين في كل مكان، اللهم إنهم جياعٌ فأطعمهم، وحُفاةٌ فاحملهم، وعُراةٌ فاكسُهم، ومظلومون فانتصر لهم، ومظلومون فانتصر لهم، ومظلومون فانتصر لهم.

اللهم ألِّف بين قلوب المُسلمين، ووحِّد صفوفَهم، واجمَع كلمتَهم على الحقِّ يا رب العالمين.

اللهم مُنزِل الكتاب، مُجريَ السحاب، هازمَ الأحزاب، اهزم أعداءَك أعداءَ الدين وانصُر المسلمين عليهم يا رب العالمين.

اللهم إنا نسألُك الجنةَ وما قرَّب إليها من قول وعمل، ونعوذُ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل.

اللهم أصلِح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلِح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلِح لنا آخرتَنا التي فيها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير، والموتَ راحةً لنا من كل شرٍّ يا رب العالمين. اللهم إنا نسألُك الهُدى والتُّقى والعفاف والغنى، اللهم إنا نسألُك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه، وأوله وآخره، وظاهره وباطنه، ونسألُك الدرجاتِ العُلى من الجنة يا رب العالمين.



الصراع بين الحق والباطل

إعداد/ الشيخ أسامة بن عبدالله خياط
إمام وخطيب المسجد الحرام

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، أحمدُه - سبحانه - على نِعَمِه العظام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملكُ القدوسُ السلام، وأشهد أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه وخيرتُه من خلقه سيِّدُ الأنام، اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه صلاةً وسلامًا دائمَين ما تعاقبَت الليالي والأيام.

أما بعد: فاتقوا الله - عباد الله - وراقبوه، واذكُروا أنكم موقوفون عليه (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء: ٨٨، ٨٩).

عباد الله: يغفُلُ كثيرٌ من الناس عن حقيقة واضحة وضوحَ الشمس في رابعة النهار، وتدلُّ عليها دلائلُ التاريخ وعِبَرُ الأيام، تلك هي: أن الصراعَ قديمٌ في حياة الإنسان، وأنه لا مناصَ من وجود عدوٍّ له يُناصبُه العداء، ويتربَّصُ به الدوائر، ويسعَى إلى بلوغ الغاية في النصر عليه، أو استلاب نعمة يرى آثارَها ظاهرةً عليه، أو لمُجرَّد تعكير صفوه، أو الإزراء عليه.

وهو واقعٌ لم تخلُ منه حياةُ أنبياء الله ورُسُله، وهم خيرةُ الخلق وصفوةُ المُخلَصين من عباد الله، فانظُر كيف وقعَ عليهم من عداء قومهم الذين أعلنوا عليهم حربًا عوانًا لا هوادةَ فيها، بلغَت من الكيد والأذى والتكذيب ما لا نظيرَ له.

إنها سُنَّةٌ من سُنن الله في خلقه، لا تتخلَّفُ ولا تتبدَّل، (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا) (الأنعام: ١١٢).

وبذلك يُعلمُ أنه لا مطمعَ لبشر في أن يسلَمَ من عداوة عدوٍّ يكيدُ له، ويتربَّصُ به، ويتحيَّنُ الفُرَصَ للنَّيل منه والقضاء عليه، وقد جاء بيانُ هذه الحقيقة في كتاب الله تعالى؛ حين أوضحَ - سبحانه - ضرورةَ الاختلاف وحَتميَّةَ وقوعه بين عباد الله، (وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) (النحل: ٩).

ومعناه - كما قال ابن جرير - رحمه الله -: «ولو شاءَ ربُّك لجعلَ الناسَ كلَّهم جماعةً واحدةً على ملَّة واحدة، ودين واحد، ولا يزالُ الناسُ مُختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملَل وأهواء، إلا من رحمَ ربُّك فآمَنَ بالله وصدَّقَ رُسُلَه؛ فإنهم لا يختلفون في توحيد الله وتصديق رُسُله، وما جاءَهم من عند الله، وعلى علمه النافذ فيهم قبل أن يخلُقَهم أنهم يكون فيهم المؤمنُ والكافرُ، والشقيُّ والسعيدُ، على علمه هذا خلقَهم». اهـ.

وإن هذا الاختلافَ - يا عباد الله - هو منشأ الصراع، به يثور، وله يتعادَى الخلقُ، ولأجله يختصمُون.

وإذا كان الصراعُ أمرًا حَتميًّا لا مناصَ منه، ولا سبيلَ إلى السلامة من غوائله، فإن على اللَّبيب الفطن أن يُحدِّدَ عدوَّه تحديدًا دقيقًا، وأن يعرفه حقَّ المعرفة؛ لئلا يغترَّ به فيتَّخذَه صديقًا يمحَضُه خالصَ الوُدِّ، ويُفضي إليه بمكنُون سرِّه، ويُظهرُه على دَخيلَة نفسه. فيكونُ بذلك قد سعَى في الإعانة على نفسه، وتمكين عدوِّه منه.

ولقد حذَّرَ - سبحانه - عبادَه المؤمنين أن يتَّخذُوا من عدوِّهم

> إذا كان الصراع أمرًا حتمًا لا مناص منه، فعلى اللبيب الفطن أن يحدد عدوه تحديدًا دقيقًا، وأن يعرفه حق المعرفة لئلا يغتر به فيتخذه صديقًا.

أولياءَ وأوصياءَ يكونون خواصَّ لهم، يُظهِرُونهم على أسرارهم، وخفيِّ أحوالهم؛ لأنهم لا يتوانَون ولا يُقصِّرون في السعي إلى كل ما فيه الشرُّ والفسادُ والإضرارُ بالمؤمنين، فقال - عزَّ من قائل -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران: ١١٨).

ولقد كان من مَنِّ الله على بني آدم: أنه - سبحانه - لما خلقَ أباهم آدم ونفخَ فيه من رُوحه، وأسجَدَ له ملائكتَه أبانَ له شخصَ عدوِّه، وحذَّرَه من طاعته واتِّباعه، وذلك هو إبليسُ الذي أمرَه الله بالسجود لآدم فأبَى واستكبرَ حسدًا وبغيًا، ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ (طه: ١١٧).

وكان من مَنِّ الله أيضًا على عباده من ذريَّة آدم: أن بيَّن لهم أن الشيطانَ عدوُّهم؛ ليأخذُوا منه حذرَهم، وليأمَنُوا مكرَهم، ويُحبِطوا كيدَه، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦)، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٠).

وكما يتعيَّنُ على اللَّبيب معرفةُ عدوِّه حقَّ المعرفة، فكذلك يجبُ عليه تصحيحُ النيَّة في التصدِّي له ومُقاومته، فلا يكونُ ذلك لمُجرَّد الغلَبَة، أو لإظهار القوَّة وشدَّة البأس، أو للحميَّة، أو للفخر والمُباهاة؛ بل يكون مقصودُه ومُبتغاه: رضوانُ الله تعالى، وأن تكون كلمتُه - سبحانه - هي العُليا.

ولما كان الشيطانُ يعلمُ أن فلاحَ الإنسان وصلاحَه وسعادتَه في الحياة الدنيا ونجاتَه وفوزَه بالنعيم المُقيم عند ربِّه يوم القيامة، متوقِّفٌ على اتِّباع ما جاءَه من ربِّه بالبيِّنات والهُدى، وامتثال أمره واجتناب نهيه، كان حرصُه شديدًا وسعيُه دائبًا في صرفه عن طاعة ربِّه بتزيين المعصية في قلبه، وبإغوائه له بألوان وضُروب الغوايَة.

كما فعلَ مع آدم - عليه السلام - حين زيَّن له الأكلَ من الشجرة التي نهاه ربُّه عن الأكل منها، مما قصَّ تعالى عليه خبرَه في قوله - عزَّ اسمُه -: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ١٩- ٢٢).

وبذا يستبينُ أن الناسَ في هذا مُنقسمون إلى فريقَين: فريق يتولَّى الله ويحبُّه ويُطيعُه في أمره ونهيه، وفيما جاءَت به عنه رُسُله. وفريق آخر يتولَّى الشيطانَ ويُطيعُه ويأتمرُ بأمره، الذي أوضحَه ربُّنا - سبحانه - بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٦٩).

وأصحابُ هذا الفريق الذي يتولَّى الشيطانَ ويُطيعُه هم الخارجون على منهَج الله، الحائدُون عن صراطه المُستقيم، ودينه القويم، المائلُون عنه إلى اتِّباع السُّبُل التي تفرَّقَت بهم عن سبيله على اختلاف مشاربهم، وتنوُّع نحَلهم ومذاهبهم، وتعدُّد فِرَقهم وأحزابهم، التي يجمعُ بينَها جامعٌ واحدٌ، هو عاملُ الانحراف الأكبر، ورُوحُه وعمادُه، وهو الحَيدَةُ عن منهَج أهل السُّنَّة والجماعة وطريق سلَف الأمة، والمُخالفةُ عنه إلى غيره من مناهج أهل البدع والأهواء. تلك المُخالفَة التي أورثَت أهلَها ضلالاً بعيدًا، وأعقبَت أصحابَها إثمًا مُبينًا.

> إذا كان الشيطان يعلم أن فلاح الإنسان وصلاحه وسعادته في الدنيا ونجاته في الآخرة تتوقف على اتباع ما جاء من ربه بالبينات والهدى، كان حرصه شديدًا وسعيه دائبًا في صرفه عن طاعة ربه بتزيين المعصية في قلبه.

وكفَى بمُشاقَّة الرسول - صلوات الله وسلامُه عليه -، وباتِّباع غير سبيل المُؤمنين شُؤمًا ووبالاً وسُوءَ مُنقلَب، وقُبحَ مآل، ومن يشاقق.. مصيرا.

عباد الله: قال بعضُ أهل العلم - في بسط مدلول قوله - سبحانه

-: (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ) (الأعراف: ٢٧) الآية: «لا يدعُ الشيطانُ أمرًا يُحبُّه الله إلا زيَّن للعبد مُخالفته، ولا أمرًا مكروهًا لله إلا زيَّن له مُقارفته، (إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ).

والإنسانُ في صراع دائم في نفسه مع الشيطان، يقوم الإنسانُ يُصلِّي فيأتي فيُذكِّرُه من الدنيا ما لم يكن يذكُرُ قبل الصلاة، فيصرفُه عن صلاته ويشغلُه عنها، وقد وقعَ مثلُ هذا للصحابة - رضوانُ الله عليهم -؛ فقد أخرج الإمام مسلمُ بن الحجَّاج - رحمه الله - في «صحيحه» بسنَده عن عُثمان بن أبي العاص - رضي الله عنه -، أنه أتى النبيَّ - صلى الله عليه وسلم -، فقال: يا رسولَ الله! إن الشيطانَ قد حالَ بيني وبين صلاتي يُلبِّسُها عليَّ، فقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «ذاك شيطانٌ يُقال له «خنزَب»، فإذا أحسستَه فتعوَّذ بالله منه، واتفُل على يسارك ثلاثًا». قال: ففعلتُ فأذهبَه الله عنِّي.

وأخرج الإمام مسلمٌ في «صحيحه» بسنَده عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -، أنه قال: سمعتُ النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن الشيطان إذا سمع النداءَ بالصلاة ذهبَ حتى يكون بالرَّوحاء» وهي من المدينة على ستَّة وثلاثين ميلاً.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «إذا نُودِيَ للصلاة أدبرَ الشيطانُ وله ضُراط، حتى لا يسمعَ التأذين، فإذا قُضيَ التأذينُ أقبل، حتى إذا ثُوِّبَ بالصلاة أدبَرَ، حتى إذا قُضيَ التثويبُ أقبلَ حتى يخطرَ بين المرء ونفسه يقول له: اذكُر كذا، واذكُر كذا، لما لم يكن يذكُرُ من قبل، حتى يظلَّ الرجلُ ما يدري كم صلَّى».

فمجالُ الصراع الأول الخطير الذي يحرصُ الشيطانُ على السيطرة عليه هو قلبُ المؤمن، فإذا ملكَه ملكَ صاحبَه، وسيَّره وفقَ ما يُريد، وجعلَه وليًّا من أوليائه، فإذا أبَى العبدُ فإنه لا يزالُ يُهاجمُه ويُداوره، ويهتبلُ منه لحظةَ ضعف وغفلة، ولكنَّ المؤمنَ الحقَّ لا يكادُ الشيطانُ يُلِمُّ به في مثل هذه اللحظات، حتى تتداركُه رحمةُ الله فيُبصر، (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ) (الأعراف: ٢٠١).

فهو طائفٌ عارضٌ يتجلَّى سريعًا، عندما يعودُ العبدُ إلى الله ومنهَجه، أما إخوانُ الشياطين فإنهم غرقى في ضلالهم لا يجدون خلاصًا، وسيفُ المؤمن في مُحاربَة الشيطان في مجال نفسه ودائرة قلبه - يا عباد الله - هو الالتجاءُ إلى الله، والاحتماءُ به، وكثرةُ ذكره.

فاتقوا الله - عباد الله -، وجاهدوا النفسَ والهوى والشيطان، ومن معه من أتباع وأعوان؛ تحظوا بالغُفران والرِّضوان، ونُزول رفيع الجنان.

واذكُروا على الدوام أن الله تعالى قد أمركم بالصلاة والسلام على خير الأنام، فقال في أصدق الحديث وأحسن الكلام: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦).

اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن خُلفائه الأربعة: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن سائر الآل والصحابة والتابعين، ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وكرمك واحسانك يا أكرمَ الأكرمين.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، واحم حوزةَ الدين، ودمِّر أعداء الدين، وسائرَ الطُّغاة والمُفسدين، وألِّف بين قلوب المسلمين، ووحِّد صفوفهم، وأصلح قادتَهم، واجمَع كلمتَهم على الحقِّ يا رب العالمين.

اللهم انصُر دينكَ وكتابكَ، وسُنَّةَ نبيِّك محمد - صلى الله عليه وسلم -، وعبادكَ المؤمنين المُجاهدين الصادقين.

مجال الصراع الخطير الذي يحرص الشيطان على السيطرة عليه هو قلب المؤمن، فإذا ملكه ملك صاحبه، وسيّره وفق ما يريد، وجعله وليًا من أوليائه.



التفكر في الحياة الدنيا

إعداد/ الشيخ/ علي عبد الرحمن الحذيفي
إمام وخطيب المسجد النبوي

منبر الحرمين

الحمد لله العزيز الغفار، يُقلِّبُ الليلَ على النهار ويُقلِّبُ النهارَ على الليل وكل شيءٍ عنده بمقدار، أحمدُ ربي وأشكرُه على نعمه وفضله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الواحدُ القهّار، وأشهد أن نبيَّنا وسيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه المُصطفى المُختار، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه الأخيار أما بعد.

فاتقوا الله تعالى وأطيعُوه؛ فإن طاعتَه أقومُ وأقوى، وتزوَّدوا لآخرتكم فإن خيرَ الزاد التقوى.

عباد الله!! تفكَّروا في مُدَّة الدنيا القصيرة، وزينتها الحقيرة، وتقلُّب أحوالها الكثيرة؛ تُدركوا قدرَها، وتعلَموا سرَّها. فمن وثِق بها فهو مغرور، ومن ركَن إليها فهو مثبُور.

فقصرُ مُدَّة الدنيا بقصَر عُمر الإنسان فيها، وعُمرُ الفرد يبدأ بساعات، ويتبعُ الساعات ساعات، وبعدَها الأيام، وبعد الأيام الشهور، وبعد الشهور العام، وبعد العام أعوام، ثم ينقضي عُمر الإنسان على التمام، ولا يدري ماذا يجري بعد موته من الأمور العظام.

وهل عُمرُ من بعدَك - أيها الإنسان - عُمرٌ لك؟! فعُمرُ المخلوق لحظة في عُمر الأجيال، بل الدنيا متاع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (غافر: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (الكهف: ٤٥).

وأخبرَنا ربُّنا عن قِصَر مُدَّة لُبث الناس في قُبورهم إلى يوم بعثهم للحساب، بأن هذه المُدَّة الطويلة كساعة، قال الله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ (يونس: ٤٥)، وقال -جل وعلا-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ (الروم: ٥٥)، وقال -سبحانه-: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

فما عُمرُك - أيها الإنسان - في ساعة؟! وما نصيبُك من هذه الساعة؟!

فطُوبَى لمن فعل الأعمال الصالحات، وهجَر المُحرَّمات، ففازَ برضوان الله في نعيم الجنات. وويلٌ لمن اتَّبعَ الشهوات، وأضاعَ الصلوات والواجبات، فهلَك في الدَّركات.

يا من أطغَتْه صحَّتُه فعصَى.. يا من أفسَدَه فراغُه فلهَى.. يا من فتَنَه مالُه فتردَّى.. يا من اتَّبعَ هواه فهوَى.. يا من غرَّه شبابُه فنسيَ البلى.

يا من جرَّأه على ربِّه فُسحةُ الأجل.. وبلوغ الأمل.. حتى اختطفَه الموتُ.. فأنَّى له أن

يرجعَ إلى الدنيا!!

وفي الحديث: «اذكُروا هاذمَ اللذَّات؛ فإنه ما ذُكر في كثيرٍ إلا قلَّله، ولا في قليلٍ إلا كثَّره»، وفي الحديث أيضًا: «كفَى بالموت واعظًا».

أما آن لك - أيها الغافل المُعرِض العاصي - أن تتوبَ إلى ربِّك وتُنيب؟! أما آن لك أن تستيقظَ من هذه الغفلة المُطبقة وتستجيب؟! ألا تعتبرُ بالقرون الخاليَة والمساكن الخاوية.. كيف صارُوا بعد عينٍ أثرًا، وبعد عزٍّ خبرًا؟!

إن في إقبالِ عامٍ وإدبارِ عامٍ عبرًا.. فيومٌ تُخلِّفه، ويوم تستقبلُه، حتى ينقضيَ الأجل، وينقطعَ الأمل، قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النجم: ٣٩- ٤٢).

فاعمَل لدار الخُلد التي لا يفنَى نعيمُها ولا ينقُص ولا يَبيد، قال الله فيها: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق: ٣٤، ٣٥).

واتَّقوا النارَ التي لا يُفتَّرُ عن أهلها العذاب، بامتثال أمر الله الأكيد، واتِّقاء غضبه الشديد، ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (الحج: ١٩- ٢٢).

قال الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣).

عباد الله: إن الله قد فتَحَ لكم أبوابَ الرحمة بما شرعَ لكم من فعل الخيرات وترك المُنكَرات، فلا يُغلق أحدٌ على نفسه بابَ الرحمة بمُحاربَة الله بالذنوب، فقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٦).

واغتنم - أيها العبد - زمن العافية؛ فإن يومًا يمضي لن يعودَ أبدًا. فاستودِع أيامَك بما تقرُّ عليه من الحسنات.. واحفَظ صحيفتَك من السيئات.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغ».

وعن ابن عُمر - رضي الله عنهما -، قال: قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «كُن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل». وكان ابن عُمر - رضي الله عنهما - يقول: "إذا أصبحتَ فلا تنتظِر المساء، وإذا أمسَيتَ فلا تنتظِر الصباح، وخُذ من صحَّتك لمرضِك، ومن حياتك لموتك".

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرًا»، فصلُّوا وسلِّموا على سيِّد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين.

اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، اللهم بارك على محمدٍ وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.

اللهم وارضَ عن الصحابة أجمعين، وعن الخلفاء الراشدين، الأئمة المهديين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن سائر أصحاب نبيِّك أجمعين، وعن التابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، اللهم وارضَ عنَّا معهم بمنِّك وكرمِك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وأذلَّ الكفر والكافرين يا رب العالمين، اللهم انصُر دينَك وكتابَك وسُنَّة نبيِّك محمدٍ - صلى الله عليه وسلم -.

اللهم أظهِر أنوارَ الإسلام في كل مكان يا رب العالمين، اللهم أظهِر عزَّ الإسلام في كل مكان يا رب العالمين.



منبر الحرمين

الفرق بين التوكل والتواكل

إعداد/ الشيخ سعود بن إبراهيم الشريم
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

إن الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ باللهِ من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسولُه.

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ) (آل عمران: ١٠٢)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا) (النساء: ١)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا)(الأحزاب: ٧٠، ٧١).

المال قوام الحياة وزينتها:

أما بعد، فيا أيها الناس: إن من المعلوم بداهةً: أن المالَ قِوامُ الحياة وزينتُها، وأن الناسَ يستقبلون صباحَهم في كل يوم وشؤونُ الرزق مُستوليةٌ على أفئدتهم، مُستحوذةٌ على أفكارهم. المُقل منهم يريدُ سَعَةً، والمُوسِعُ يريدُ مزيدًا.. فإما غَنيٌّ فيه طمع، أو فقيرٌ عنده قلق، وقليلٌ من هم بين ذلك.

وللناس مع الرزق في هذه الحياة مذاهبُ شتَّى، ودروبٌ مُتفاوتة، كلٌ بحسب ما يحمله قلبُه واعتقادُه عن مفهوم الرزق ومفهوم طلبه، واستيعاب الواجب تحقيقُه من الوسائل المُؤدِّية إليه.

بسم الله الرحمن الرحيم: (وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ) (الليل: ١- ٤).

فمن الناس قلقٌ مُتوجِّسٌ.. لا يهنأُ بنوم لو أغمضَ عينيه، ويتجرَّعُ طعامَه وشرابَه على شَرَقٍ ولا يكادُ يُسيغُهما؛ لأن هاجسَ الرزق مُستولٍ عليه، وجاثمٌ بقلبه. فهو لا يثقُ بوعد، ولا يستحضرُ قدرًا قدَّره الله، ولا يأمَنُ سبيلاً..

يرى نفسَه بين الحياة والموت إن لم يلهَثْ وراءَ الرزق بلا شرط ولا قيد؛ بل تستوي عنده وسائلُ التحصيل حلالاً كانت أم حرامًا ما دامَت غايتُه المُشوَّشة تُبرِّرُ الوسيلة.

ومثلُ هذا - عباد الله - إذا رأى أولَ الرزق سالَ لُعابُه لآخره حتى يأكلَ ولا يشبَع، ويشربَ ولا يرتوي؛ ليصدُقَ عليه قولُ المُصطفى - صلى الله عليه وسلم -: «لو كان لابنِ آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدم إلا التراب، ويتوبُ اللهُ على من تاب»؛ رواه مسلم.

ومن هذه حالُه.. يستبدُّ به الجشعُ والشراهة، فيجعلانه لا يكتفي بقليل، ولا يشبَعُ من كثير، لا يكفيه ما عنده فيمتدُّ إلى ما عند غيره،

فيُصيبُه سَعارُ الكانز.وإذا كان النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - قد نهَى عن منع وهات؛ فإن شعارَ هذا وأمثاله هو: "هات وهات"!.وفي الناس من هو عكسُ ذلكم تمامًا، قد أخلدَتْ نفسُه إلى الراحة.. وآثَرَ الدَّعَة.. وجلسَ حلسَ بيته، لا يهُشُّ ولا ينُشُّ، ينتظرُ السماءَ أن تُمطرَ ذهبًا أو فضةً، يرى أن القاعدَ كالساعي أو خيرٌ منه؛ بل يرى أن السعيَ لطلبِ الرزقِ جُهدٌ مُهدَر، وثُلْمٌ لقدَحِ التوكل والقناعة.

والواقعُ - عباد الله - أنه قناعٌ وتواكُل، وليس قناعةً وتوكلاً. والغرُّ من هؤلاء من إذا حاجَجتَه قال لك: ألم تسمَعْ قولَ النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لو أنكم توكلون على الله حقَّ توكُّله لرزقَكم كما يرزُقُ الطيرَ، تغدُو خِماصًا وتروحُ بِطانًا»؛ (رواه أحمد والترمذي).

فهم أعوج مبتور للنصوص الشرعية

فانظُروا - يا رعاكم الله - إلى استدلال القعَدَة من المُتوكلين، كيف أخذُوا من الحديث توكُّل الطير، ولم يأخذُوا منه غُدوَّها ورواحَها!لقد ظلمَ فئامٌ من الناس القناعةَ؛ فحسبُوها الرِّضا بالدُّون، فعَمُوا وصمُّوا عن غير هذا المعنى، ثم عَمُوا وصمُّوا عن تصحيحه، فضعُفَت الهمَم عن طلب معالي الأمور، وعلتْ همَّةُ تمجيد الفقر والجوع. وهؤلاء وإن كانوا همُ القلَّة في المجتمعات في سائر العُصور، إلا أنهم يرفعون عقيرتهم بهذا أحيانًا كثيرة.

وقد رأى الفاروقُ - رضي الله تعالى عنه - قومًا قابعين في رُكن المسجد بعد صلاة الجمعة، فسألهم: "من أنتم؟". قالوا: نحن المُتوكلون على الله! فعلاهم عُمرُ - رضي الله تعالى عنه - بدرَّته، ونهَرَهم وقال: "لا يقعُدَنَّ أحدُكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزُقني، وقد علمَ أن السماءَ لا تُمطرُ ذهبًا ولا فضةً، وإن الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠)".

وكان سُفيانُ الثوريُّ - رحمه الله - يمُرُّ ببعض الناس وهم جُلوسٌ بالمسجد الحرام، فيقول: "ما يُجلسُكم؟"، قالوا: فما نصنَعُ؟ قال: "اطلُبُوا من فضل الله، ولا تكُونوا عِيالاً على المُسلمين".

تأملات في مسألة الرزق:

إن المُسلمَ السعيدَ هو الذي تعتدلُ أمامَه مسالكُ الحياة في طلب الرزق، فيعملُ ويتصبَّبُ منه عرقُه ليتطهَّر من فضلات الكسَل، وجُمود النفس، ويكسبَ الكسبَ الحلالَ الطيبَ؛ إذ المُسلمُ ليس راهبًا في دَير لا عملَ له ولا كسب؛ لأن الإسلام لا يعرفُ المؤمنَ إلا كادحًا عاملاً في هذه الحياة، آخذًا منها، مُعطيًا لها، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥).ولقد تعوَّذَ النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - من الفقر، وأمرَ بالتعوُّذ منه؛ لأن الإسلام يريدُ من أهله أن يكونوا أقوياء أغنياء، لا مهازيلَ ضُعفاء.ومعنى أن يكونوا أغنياء؛ أي: ليسُوا عالةً يتكفَّفُون الناس.

فالإسلامُ لا يُريدُ الفقرَ المُذلَّ لأتباعه، كما أنه لا يُريدُ الغنى المُطغيَ لصاحبه، فلا هو مع الكسُول المُحتال باسم التكسُّب، ولا هو مع الذين يُحبُّون المالَ حُبًّا جمًّا، ويأكلُون أموالَ الناس أكلاً لمًّا، يُعميهم ذلك عن دينهم وأخلاقهم.

ثم إن المالَ - عباد الله - غادٍ ورائح، ومُقبلٌ ومُدبر، يغتني بحُصُوله أقوام، ويفتقرُ بعدمه آخرُون، ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ (النحل: ٧١).

> الإسلامُ لا يُريدُ الفقرَ المُذلَّ لأتباعه، كما أنه لا يُريدُ الغنى المُطغيَ لصاحبه، فلا هو مع الكسُول المُحتال باسم التكسُّب، ولا هو مع الذين يُحبُّون المالَ حُبًّا جمًّا، ويأكلُون أموالَ الناس أكلاً لمًّا، يُعميهم ذلك عن دينهم وأخلاقهم.

وما على العبد المؤمن إلا أن يبذُلَ الأسباب، ويبتغي عند الله الرزقَ، فلا يدري أين خبَأَ الله له رزقَه؛ فمصادرُ الرزق ليست سواءً، والناسُ يتناوَبُون على معايش الحياة، يطلُبُونها على صُورة تناوُب لا يقدرُ عليه إلا الله - سبحانه -، ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ

لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف: ٣٢).

ولهذا مكَّن الله للناس في الأرض؛ لتتنوَّع مصادرُ أرزاقهم، كما قال - جل شأنه -: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (الأعراف: ١٠). فالله - جل وعلا - قسَمَ المعاش وقدَّرَ الأرزاق، والناسُ أجمعون لا يملكون لك - أيها المرء - عطاءً ولا منعًا، وإنما الناسُ وسائط؛ فما أعطوك فهو بقدَر الله، وما منعُوك فهو بقدَر الله، وما كان لك فسوف يأتيك على ضعفك، وما كان لغيرك فلن تناله بقوَّتك، (وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج: ٧٣).

وما عليك - أيها المسلم - إلا أن تجدَّ وتعملَ، وتضربَ في آفاق الأرض، وتأخُذَ بأسباب الرزق؛ فمن جدَّ وجَد، ومن زرَعَ حصَد، فلا كسبَ بلا عمل، ولا حصادَ بلا زرع.

روى الإمامُ أحمدُ عن رجُلَين من الصحابة - رضي الله تعالى عنهما -، أنهما دخلا على النبيِّ - صلى الله عليه وسلم -، فأعاناه على شيء كان يُصلحُه، فقال لهما: «لا تيأسَا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسُكما؛ فإن الإنسانَ تلدُه أمُّه أحمر ليس عليه قشرة، ثم يرزُقه الله - عز وجل -».

ومسألةُ الرزق - عباد الله - أدقُّ من أن يفهمَ الناسُ أغوارَها، وأعظمُ من أن يُدركوا عُمومَ حكم الله فيها؛ لأن الله هو الرزاقُ ذو القوَّة المتين.

صور من حكمة اللطيف الخبير في أرزاق البشر:

ولننظُر إلى شيء من مطالب الرزق على وجه التدبُّر، واستحضار حكمة اللطيف الخبير فيها؛ لنجدَ أن من الناس من لم يُكتب له رزقه إلا في أعماق البحار؛ كالغوَّاصين، أو في ثبج الهواء بين السماء والأرض؛ كالطيَّارين والملاَّحين، أو تحت الأرض يجدُون لُقمةَ عيشهم في كسر صخر صلد؛ كأصحاب المناجم.

والعجبُ كلُّ العجَب فيمن رزقُه كامنٌ بين فكَّي الأسود وهو مُروِّضُها، أو بين أنياب الفيَلة وخراطيمها وهو يسُوسُها، أو مثل بهلوان يمشي على حبل ممدود في الهواء؛ ليجدَ لُقمةَ عيشه بالمشي عليه، في مخاطرة تُدهشُ العقول، وترعدُ الفرائص.

هل لنا - عباد الله - أن نتصوَّرَ أرزاقَ أناس مرهونة بمرض السرطان - أعاذنا الله وإياكم منه، وعافى من ابتُلي به -؟! أوليس للسرطان طبيب؟! أوليس له حُقنة؟! أوليس للطبيب هذا رزقٌ بهذا الدواء؟! وذلك المُمرِّض مرهونٌ بمثل هذا المرض القاتل.

أفلا نعلم أن من الناس من قُوتُهم مُناطٌ بالبَرد القارس؛ ليَبيعَ مدفأةً أو ملحفةً؟! أو من قُوتُه مُناطٌ بالحرِّ الشديد؛ ليَبيعَ ثلجًا أو آلة تبريد؟! أليس هناك من رزقه مُناطٌ بفرَح زوج وزوجة ليؤجِّر لهما وسائل الفرح؟! أوليس هناك من رزقُه مُناطٌ بأتراح الناس وأحزانهم.. فيحفُر قبرًا لفلان، أو يَبيعَ كفنًا لعلان؟! وقولوا مثل ذلكم في رزق الجلاد، والسجَّان، ومُنفِّذ القصاص، وقاطع يد السارق.

إنها حكمةُ الله وعظمتُه، وتسخيرُ عباده بعضهم لبعض، (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ) (المائدة: ١). وقد قال الصادقُ المصدوقُ - صلواتُ الله وسلامُه عليه -: «وجُعل رزقي تحت ظل رُمحي».

أهمية الرضا والقناعة وكسب الحلال:

ألا رحمَ الله عبدًا كسَبَ فتطهَّر، واقتَصَدَ فاعتَدل، وذكَرَ ربَّه ولم ينسَ نصيبَه من الدنيا، ويا خيبةَ من طغا مالُه ورزقُه عليه، وأضاعَ دينَه وكرامتَه، وكان من الذين قال الله فيهم: (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا) (الجمعة: ١١)، فإن النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - قد وصف بعضَ الرِّجال في آخر الزمان، أن أحدَهم «يَبيعُ دينَه بعَرَض من الدنيا»؛ (رواه مسلم).

قال أنسُ بن مالك - رضي الله تعالى عنه -: "رأيتُ من باعَ دينَه بدرهم"، عافانا الله وإياكم.

المؤمنُ الحقُّ - عباد الله - هو الراضي بما قسَمَ الله له من رزق،

> الله - جل وعلا - قسم المعاش وقدَّر الأرزاق، والناس أجمعون لا يملكون لك - أيها المرء - عطاءً ولا منعًا، وإنما الناس وسائط؛ فما أعطوك فهو بقدَر الله، وما منعُوك فهو بقدَر الله.

وهو المُوقِنُ بعدل الله فيما قسَمَ من أرزاق لحكمة يعلمُها - سبحانه -، (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) (البقرة: ٢٥٥).

ذكر ابنُ الجوزيُّ - رحمه الله - عن ابن الراوَنديِّ الضالِّ الذي اشتهَرَ بالذَّكاء في القرن الثالث الهجريِّ، أنه قد جاعَ يومًا واشتدَّ جوعُه، فجلسَ على الجسر وقد أمضَّه الجوعُ، فمرَّت خيلٌ مُزيَّنةٌ بالحريرِ والدِّيباج، فقال: لمن هذه؟ فقالوا: لعليِّ بن بلتَق - غُلام الخليفة -. فمرَّت جوارٍ مُستحسَنات، فقال: لمن هذه؟ فقالوا: لعليِّ بن بلتَق - غُلام الخليفة -. فمرَّ به رجُلٌ فرآهُ وعليه الضُّرُّ، فرمَى إليه رغيفَين، فأخذَهما ابنُ الراوَنديُّ ورمَى بهما، وقال: هذه الأشياء لعليِّ بن بلتَق، وهذان لي؟!

وما علمَ هذا الجاحدُ أنه بهذا الاعتراض أهلٌ لهذه المجاعة! قال الحافظُ الذهبيُّ - رحمه الله - مُعلِّقًا: "فلعَن الله الذكاءَ بلا إيمان، ورضيَ الله عن البَلادَة مع التقوى".

فالرزقُ - عباد الله - لا يُردُّ إلى كَياسَة المرء وعقله؛ فربَّما رأينَا أكيَسَ الناس من أفنَى عُمرَه في الكسب، قد يفوقُه في الغنى من هو أجهلُ منه، وأقلُّ عقلاً وذكاءً. وقد أحسَنَ الشافعيُّ - رحمه الله - حين قال:

ومن الدليل على القضاء وكونه
بُؤسَ اللبيب وطيبُ عيش الأحمق

فما الذكاءُ - عباد الله - سببٌ في الغنى، كما أن الفقرَ ليس سببُه الغباء، (قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سبأ: ٣٦).

عباد الله اعلموا أن الإسلام دينُ وسَطٍ بين الغالي والجافي، والمُفرِط والمُفرِّط؛ فهو يأمرُ بطلبِ الرزقِ، ويحُضُّ على السعي فيه، وفي الوقت نفسه يذُمُّ القعودَ عنه والإخلادَ إلى الاتِّكال وتكفُّف الغير. ولقد قال النبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: «اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى»؛ (رواه الشيخان).

يقول ابنُ قتيبة - رحمه الله -: "اليدُ العُليا هي المُعطية. فالعجَبُ عندي من قوم يقولون: هي الآخذة، ولا أرى هؤلاء القوم إلا قومًا استطابُوا السؤال".

إن العملَ - عباد الله - مهما كان حقيرًا فهو خيرٌ من البطالة؛ لأن العزَّة بلا سُؤال خيرٌ من ذلَّة بسُؤال.

وإن الإسلام نظرَ إلى المُكلَّف نظرَ اعتبار؛ حيث دعاه إلى نُزول ميادين العمل على أنواعها، إما مأجورًا، أو حُرًّا مُستقلاً، أو مُشاركًا في المال إن استطاع.

وقد سُئل النبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: أيُّ الكسب أفضل؟ قال: «عملُ الرجل بيده، وكلُّ بيع مبرور»؛ (رواه الطبراني).

وقال - صلوات الله وسلامُه عليه -: «ما أكلَ أحدٌ طعامًا خيرٌ من أن يأكلَ من عمل يده، وإن نبيَّ الله داوُد كان يأكلُ من عمل يده»؛ (رواه البخاري).

والحاصل - عباد الله -: أنه يجبُ على المُسلم أن يسعَى في الرِّزق ويبذُل وُسعَه، وأن يرضَى بما يقسمُ الله له، وأن يجعلَ الغنى والقلَّة مطيَّتين لا يُبالي أيهما قُسم له؛ فإن كانت القلَّة فإنها قد تسمُو كما سمَتْ قلَّةُ المُصطفى - صلوات الله وسلامُه عليه -، فإن فيها الصبرَ والاحتساب. وإن كانت الغنى، فإن الغنى قد يدنُو كما دنَا غنى قارُون.

كما أنه في الوقت نفسه محلٌّ للبَذل والإنفاق من فضل الله، وجماعُ ذلكم كلِّه محكومٌ بما قالَه المُصطفى - صلى الله عليه وسلم -: «إن روحَ القُدُس نفَثَ في رُوعي أن نفسًا لن تموتَ حتى تستكملَ أجلَها وتستوعبَ رزقَها، فاتقوا الله وأجملُوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدَكم استبطاءُ الرِّزق أن يطلُبَه بمعصية الله؛ فإن الله تعالى لا يُنالُ ما عنده إلا بطاعته»؛ (رواه الطبراني والحاكمُ وصحَّحه).

الرزقُ لا يُردُّ إلى كَياسَة المرء وعقله؛ فربَّما رأينَا أكيَسَ الناس من أفنَى عُمرَه في الكسب، قد يفوقُه في الغنى من هو أجهلُ منه، وأقلُّ عقلاً وذكاءً.

(رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) (البقرة: ٢٠١). عباد الله: اذكُروا الله العظيم يذكركم، واشكُروه على آلائه يزدكم، ولذكرُ الله أكبر، والله يعلمُ ما تصنعون.



وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

منبر الحرمين

إعداد/ الشيخ سعود بن إبراهيم الشريم
إمام المسجد الحرام

الحمد لله الوليّ الحميد، ذي العرش المجيد، الفعّال لما يُريد، أحمدهُ سبحانه وأشكره وأتوبُ إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُ الله ورسوله ذو الخُلق اللّين والسَّمت الهيّن، بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فأوصيكم أيها الناس ونفسي بما وصى الله به نبيه - صلى الله عليه وسلم- وما وصى به الأولين والآخرين إذ قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (النساء: ١٣١).

ألا فاتقوا الله - عباد الله - وراقبوه في السرّ والعلن والغضب والرضا والمنشط والمكره فإن التقوى عهدٌ بين المرء وبين ربه فمن وفّى به أحبه الله ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٧٦).

صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الأذى:

أيها الناس إنه لم يُعرف على هذه البسيطة أحدٌ تواطأ خصومه على ظلمه والبطش به والتضييق عليه في نفسه وأهله وماله ودعوته مثلُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه.

فقد نُصب له العداء الجسدي والمعنوي فأُوذي باليد وأوذي باللسان.. اتُّهم بالكذب وهو أصدق الناس.. وبالجنون وهو أعقل الناس.. وبالعرض وهو أعفُّ الناس.. أُلقيَ عليه سَلا الجزور وكُسرت رباعيته وشُجَّ وجهه حتى سَال الدمُ عليه ورُمي بالحجارة..

فما ظنكم - ياعباد الله - بصادقٍ يكذبه قومه؟!

وما ظنكم برءوفٍ يقسو عليه قومه؟!

وما ظنكم بطاهرٍ عفيفٍ يقذفهُ قومه في عرضه؟!

وما ظنكم بمن جمع الله فيه خير خصال البشر فيكيد له قومه كيدًا ويُبرمون له أمرًا فيطردونه من داره ويُخرجونه من أرضه؟!

أليس هذا كله كفيلاً لأي أحد من البشر في أن يولّد في نفسه مبدأ الانتقام، ويُذكيَ فيه روح الغضب والعنف ويجعله يرى من فعلوا به تلكم الأفاعيل.. هم شرار الخلق.

بلى! إنه لكفيلٌ بذلك، ولكن لنستمع لحظات إلى ردَّة فعله -صلى الله عليه وسلم- تُجاه كل من أذاه من قومه في كلمات يسيرات.

تأملات في رحمة النبي صلى الله عليه وسلم:

ففي الصحيحين أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أحد؟

فقال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عَرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب - أي

لم أفطن لنفسي من الهم إلا وأنا بقرن الثعالب، -وهو ميقات أهل نجد- قال: فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل؛ فناداني فقال: إن الله - عزَّ و جلّ - قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

قال: فنادى ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلان بمكة -؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».

فلا إله إلا الله والله أكبر

أيُّ معدنٍ هذا الذي اتصف به سيد البشر -صلوات الله وسلامه عليه-؟!

والله أكبر أيُّ حلم تدثَّر به -صلى الله عليه وسلم-؟!

والله أكبر أين نحنُ جميعًا عمن أمرنا الله تجاهه بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

أترون - عباد الله - أن يأمرنا ربنا بالاقتداء بأحدٍ يستحيلُ الاقتداء به؟!

ألا يستطيعُ أحدنا أن يعفو عمن ظلمه؟!

ألا يستطيعُ أحدنا أن يدفع الغضب بالحِلم والجهل بالعلم؟!

إنه ما بيننا وبين أن نُحقق الاقتداء برسولنا -صلى الله عليه وسلم- إلا أن نرجو الله واليوم الآخر وأن نذكر الله كثيرًا.

هذا هو ما اشترطه ربنا لمن أراد أن يقتدي بسيده وسيِّد ولد آدم -صلوات الله وسلامه عليه- الذي بذل عمره ونفسه ووقته وجهده في محوِ الجاهلية، وقطع ظلامها بأنواع المعرفة والإرشاد ومنع الفساد فيها بحلمه وعلمه ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

هكذا تتجلى رحمة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأمته، حتى أصبحت سِمةً بارزةً في دعوته وجهاده ضدَّ ألدِّ أعدائه وخصومه..

ولا عجب في ذلكم - عباد الله - فإن الذي أرسله رحمنٌ رحيم غفورٌ ودود،

وقد أخرج مسلمٌ في صحيحه أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا قول الله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم: ٣٦)، وتلا قول عيسى -عليه السلام-: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨).

فرفع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يديه، وقال: «اللهم أمتي أمتي، وبكى».

فقال الله - عزَّ وجل - يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يُبكيك؟

فأتاه جبريل -عليه السلام- فسأله، فأخبره - عليه السلام- بما قال -وهو أعلم-، فقال الله: «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنُرضيك في أمَّتك ولا نسؤوك».

بمثل هذا - عباد الله - فتح الله لنبيه وأمته مشارق الأرض ومغاربها..

وبمثل ذلكم دَان له العرب والعجم، كل ذلك حين جعلت أمته دين الإسلام دين العلم والرحمة واليسر والرفق والسعة.. إذ هكذا أوصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمته بقوله: «إنما بُعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين» (رواه البخاري).

ومن هذا المنطلق حصل لأمة الإسلام من الانتشار والتوفيق في دعوتها إلى الله بمثل ذلكم ما لم يحصل بغيره، وذلك مصداق لقوله -صلى الله عليه وسلم-: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف، وما لا يُعطي على ما سواه» (رواه مسلم).

ثم لقد دارت رحى الأيام بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ليأتي اليوم الموعود الذي يفتحُ الله به عليه مكة فيطوق بلد من طردوه وشتموه وآذوه وقاتلوه..

وزلزل بهم المؤمنون زلزالاً شديدًا، ويدخل المسجد الحرام ويطوف به ثم يجلسُ بالمسجد والناس من حوله والعيون شاخصةٌ إليه،

والقوم مشربون إلى معرفة صنيعه بأعدائه شروخهم وشيوخهم، فلربما فعل بهم الأفاعيل،

فقال كلمته المشهورة: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟!»

قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخ كريم..

قال: فإني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٢) اذهبوا فأنتم الطُّلقاء».

فيُسلم حينها العظماء ويتوبون كأمثال: هند بنت

عتبة، وعكرمة بن أبي جهل، ويئوب إليه الشعراء الذين هجوه فيعتذرون إليه، كابن الزِّبعرى وكعب بن زهير، فلا ينال الجميع منه إلا العفو والتغاضي -رضي الله عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين-.

هذا هو نبي الإسلام يا من تدعو إلى الإسلام..

وهذا هو رسول الجهاد يا من تدعو إلى الجهاد..

وهذا هو الحبيب يا مُحبّ..

وهذا هو رسول العلم يا من تنشدُ العلم..

وهذا هو رسول الرحمة يا من بُليتَ بالعنف والغلظة..

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة: ١٢٨).

خلق الرحمة عند سلفنا الصالح:

عباد الله: اعلموا أن خُلق الرَّحمة والرفق والحِلم في النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بدا ظاهرًا جليًا في أسلافنا عبر التاريخ، في سلمهم وحربهم وسرَّائهم وضرَّائهم، فهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- المؤمن إن قَدر عدل وأحسن، وإن قُهر وغُلب صبر واحتسب.

كما قال كعب بن زهير أمام النبي -صلى الله عليه وسلم- مُنشدًا

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهمُ
يومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلُوا

وقد سئل بعض العرب عن شيءٍ من أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «رأيته يَغلب ولا يَبطر ويُغلب فلا يَضجر».

وبمثل هذا - عباد الله - سار خلفه من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فقد صح عن أبي بكر -رضي الله تعالى عنه- وصيته لجيوشه قائلاً: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً صغيرًا ولا امرأةً ولا مريضًا ولا راهبًا، ولا تقطعوا مثمرًا، ولا تخربوا عامرًا ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرةً إلا لمأكل، ولا تغرقوا نحلاً ولا تحرّقوه، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحبُّ المُحسنين».

لا تنزع الرحمة إلا من شقي:

فكانوا - رحمهم الله - يدركون أن الجهاد في سبيل الله، إنما شُرع لرحمة الخلق ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، فلذلك أيقنوا أن تلكم الأشياء تنافي ما شرع لأجله بخلاف فعل أعداء الإسلام بالمسلمين في حروبهم؛ حيث أوجزه الله في قوله: (كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً) (التوبة: ٨).

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: بعثنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعث وقال لنا: «إن لقيتم فلانًا وفلانًا - لرجلين من قريش سماهما - إذا لقيتم فلانًا وفلانًا فحرّقوهما بالنار، قال: ثم أتيناه نودعه حين أردنا الخروج، فقال: إني كنت أمرتكم أن تحرقوا فلانًا وفلانًا بالنار، وإن النار لا يُعذّبُ بها إلا الله». الحديث..

تلكم -عباد الله - هي مدرسة محمد -صلى الله عليه وسلم- وذلكم هو ميراثه، ولن يصلُح حال هذه الأمة إلا بما صلح به حال أولها..

لا تنتصر أمة يقودها الجهل والقسوة وحب الانتقام؛ وإن أمةً يقودها الجهل والشح والقسوة والأثرة وحب الانتقام لحريٌّ بها أن تؤخرَّ يوم النصر ولا تُقدمه، وأن ترجع بنفسها القهقرى لا أن تبلغ المقدمة، وما لم يكن العلم قائدها فسيوردها الجهل غياهب الذّل والصَّغار حتى تكون كالقصعة تتداعى عليها الأكلة..

فما من صلاحٍ وإصلاحٍ إلا والعلمُ رائده
وما من فسادٍ وإفسادٍ إلا والجهلُ موقده

إذ هو غاية الأعداء في الأمة وهو المنحة التي يمنحها لهازمُ أمتنا لأعدائها على طبقٍ من ذهب!

ولقد صدق من قال:

ما يبلغُ الأعداء من جاهلٍ
ما يبلغُ الجاهلُ من نفسه

هذا وصلوا رحمكم الله على خير البرية وأزكى البشرية محمد بن عبد الله صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته المسبحة بقدسه، ثم بكم أيها المؤمنون فقال جل وعلا: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦).

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارض اللهم عن خلفائه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن سائر صحابة نبيك محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين.







علاج القلق والهموم

الحمدُ لله، الحمدُ لله تعالى في عظمَته وملكُوته وكبريائه، وتقدَّس في مجده وعزَّته وعليَائه، حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه، أفاضَ علينا من كرمه وجُوده ونعمائه، أحمدُه - سبحانه - وأشكرُه وأسألُه المزيدَ من فضله وآلائه.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أرجُو بها الفوزَ يوم لقائه، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أفضلُ رُسُله وخاتمُ أنبيائه، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه وأوليائه، والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مُباركًا مزيدًا إلى يوم جزائه.. أما بعد:

فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله - رحمكم الله ، اتَّقُوه؛ فتقواهُ خيرُ واقٍ، وفيها التنافسُ والسِّباق، واعلَموا أن لكل أجلٍ كتابًا، ولكل غائبٍ إيابًا، ولكل عملٍ جزاءً وثوابًا. وأنتم إلى ربِّكم صائرُون، وعلى طريقٍ من سبَقكم سائرُون، وعلى من لا تخفَى عليه خافيةٌ سوف تُعرَضُون، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ١).

أيها المسلمون:

خلقَ الله الناسَ من نفسٍ واحدة؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء: ١)، نفسٌ واحدة تكتسبُ بحكمة الله وقُدرته أوصافًا، وتحمِلُ سماتٍ، وتعيشُ أحوالاً تتنازعُها الشهواتُ والشُّبُهات، والمحبُوبات والمكرُوهات، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧- ١٠)، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ٨- ١٠).

عباد الله:

لقد اعتنَى القرآنُ الكريمُ بهذه النفسِ الإنسانيَّة غايةَ العناية؛ لأن الإنسانَ هو محلُّ التكليف، وهو المقصودُ بالهداية والتوجيه والإصلاح.

ومن شرحَ الله صدرَه للإسلام، وعمرَ قلبَه بالإيمان اطمأنَّت نفسُه، وهدأت سريرتُه، وتنزَّلت عليه السَّكينة، وامتلأ بالرِّضا قلبُه، ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ

إعداد/ الشيخ صالح بن حميد
إمام المسجد الحرام بمكة المكرمة

السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ (الفتح: ٤)، ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨). وفي الحديث: «الإيمانُ قيِّدُ الفَتْك، لا يفتكُ المؤمن» (رواه أبو داود). والفَتْك: هو البَطش.

الله أكبر.. عباد الله! كم من مُسلم تكالَبت عليه الهُموم، فتوضَّأ وتطهَّر، ثم قصدَ إلى زاويةٍ من بيته، أو مشَى إلى مسجده فتلا من كتاب الله ما تيسَّر له، أو صلَّى ما كُتبَ له فانزاحَت هُمومُه، وقامَ كأنَّما نشطَ من عقال؟!

وكم من مُسلم اضطجَعَ على جنبه الأيمن في منامه، وقرأ بعضَ آيات أو تلا بعضَ أوراد، فنامَ قريرَ العين محفوظًا بحفظ الله؟!

وكم من مُسلم أصابَه قلقٌ أو وحشةٌ فاستأنَس بآياتٍ من كتاب ربِّه، فوجدَه نعمَ الأنيس وخيرَ الجليس؟!

وكم من مُسلم نالَه فقرٌ أو مسَّه جوعٌ، فوجدَ في كتاب الله شبَعَه وغناه؟!

وكم من غنيٍّ كادَ أن يُطغيَه غناه، فأنقذَه مولاه بآياتٍ من كتابه، فانكشفَ له السِّتار، وتذكَّر النِّعَم، وابتغَى ما عند الله؟!

الصالحون الطيِّبُون المُحسنون، المشَّاؤُون للمساجد هم المُطمئنُّون بذكر الله، وهم الأقوَى والأقدرُ على مصائب الحياة وتقلُّباتها، لا تُعكِّرُ





التقلُّبات طُمأنينَتَهم، ولا تستثيرُ المُنغصاتُ سكينتَهم.

معاشر المسلمين:

هذا هو حالُ أهل الإيمان والصلاح، بينما يتعذَّبُ ملايين البشر اليوم يلهَثون وراءَ المُسكِّنات والمُنوِّمات، والعيادات والمُستشفَيات، ويبحَثُون في الكتب والمؤلَّفات والمقالات. أقلقَهم القلق، وفقدَت نفوسُهم الأمن، قلقُون من الموت، يخافُون من الفشل، جزعُون من الفقر، وجلُون من المرض، إلى غير ذلك مما تجري به المقاديرُ على جميع الخلائق.

القلقُ - حفظكم الله وسلَّمكم - انفعالٌ واضطرابٌ داخلَ النفس يُعاني منه الإنسانُ حين يشعُرُ بالخوف أو الخطر من حاضر أو مُستقبَل.

والإنسانُ القلقُ يعيشُ حياةً مُظلمة، مع سُوء الظنِّ بمن حولَه وبما حولَه. تغلُبُ عليه مشاعرُ الضيق والتشاؤم والتوتُّر والاضطراب وعدم الثقة؛ بل يرَى الناسَ عُدوانيين حاقدين حاسدين، حتى قالوا: «إن وراءَ مُرتكب الجريمة قلقًا دفعَه إلى اقترافها»، إما خوفٌ من موت، أو خوفٌ من جُوع، أو خوفٌ من فقر، أو خوفٌ من مرض، أو فشل، أو غير ذلك من الدوافع والهواجس التي تمتلئُ بها هذه الحياة.

هذا القلقُ المُضطربُ غلَبَت عليه الدنيا، فكانت أكبرَ همِّه فزادَ قلقُه، وطالَ أرقُه، «ومن كانت الدنيا همَّه جعلَ الله فقرَه بين عينَيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له».

ثم تذكَّر - حفظكم الله ورحمكم - هذا الدعاء: «اللهم لا تجعَل الدنيا أكبرَ همِّنا». أين الراحة إذا كانت الدنيا هي مُنتهَى الأمل؟! وأين الطُّمأنينةُ إذا كانت الدنيا هي غايةَ السعي؟!

هدوءُ النفس وراحةُ البال - عباد الله - نعمةٌ عظيمةٌ لا يعرفُ قيمتَها إلا من فقدَها، ومن أصابَه الأرَق أو دبَّ إليه القلق عرفَ معنى هذه النعمة، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ (الروم: ٢٣).

من فقدَ راحةَ البال تدلهمُّ أمامَه الخُطوب، وتجثُمُ على صدرِه الهُموم، فيتجافَى عنه النوم، ويفقدُ الراحة، وتُظلمُ الدنيا في عينَيه.

معاشر المسلمين:

مساكينُ أهل هذا العصر حين يدرُسُون النفسَ الإنسانيَّة مقطوعةَ الصِّلة بالله خالقها ومُدبِّرها، ومُقدِّر أحوالِها وشُؤونها، يتكلَّمون عن أثر البيئة، وعن أثر الأسرة، وعن أثر الاقتصاد، ولا يتكلَّمون عن الهُدى والضلال، والكُفر والإيمان، والطاعة والعبادة.

فانقلَبَت عندهم المعايير، واضطرَبَت لديهم المقاييس، وذهبَت الفضائل، وضاعَت القيَم، وانحلَّت الأخلاق، فلم تُفد حلولُهم، ولن تُجدي اختباراتُهم ولا مُختبراتُهم، من ضلالهم وانحرافاتهم؛ أن عَدُّوا ضبطَ الشهوات كبتًا، والإحساسَ بالذنب تعقيدًا؛ بل المرأةُ عندهم إذا لم تتَّخذ صديقًا يُعاشرُها بالحرام فهي مريضةٌ شاذَّة، ونعوذُ بالله من انتكاس الفطر.

وفي كلمة مُنصفة: فقد انتقَدَ عُقلاؤُهم هذا الانحرافَ المُهلك في مبادئ هذه الحضارة وفكرها ونظرتها للإنسان ونفس الإنسان؛ فقال قائلٌ منهم: «إن بيننا وبين الله رابطةً لا تنفصل، فإذا خضَعنا لله تحقَّقَت آمالُنا وأمنيَّاتُنا، وحقَّقنا أمنَنا وطُمأنينَتنا».

وقال آخر: «إن أعظمَ علاج للقلق هو الإيمان».

ويقولون: «الإيمانُ والاستقامةُ كفيلان بإبعاد القلق والتوتُّر، والشفاء بإذن الله من الأمراض النفسيَّة».

ويقولون: «الصلاةُ أقربُ طريق لبثِّ الطُّمأنينة في النفوس، وبثِّ الهُدوء في الأعصاب».

نعم، عباد الله:

لا حصانةَ للنفس ولا حفظَ للمُجتمع أعظمُ وأنجعُ وأسرعُ من الإيمان بالله والسَّير على هُدى الله؛ الإيمانُ ينشُرُ الأمان، ويبعثُ الأمل، والأملُ يبعثُ السَّكينة، والسَّكينةُ تُورثُ السعادة. فلا سعادةَ بلا سَكينة، ولا سَكينةَ بلا إيمان، فالإيمانُ

هو الغذاءُ، وهو الدواء، وهو الضياء.

صاحبُ الإيمان راسخُ العقيدة، حسنُ العبادة، جميلُ التوكل، كثيرُ التبتُّل، عظيمُ الخُضوع، طويلُ الخُشوع، مُديمُ الذِّكر، عميقُ الفكر، مُلازمٌ للعمل الصالح، واسعُ الصدر، عظيمُ الأمل، كثيرُ التفاؤل. لا يتحسَّرُ على ماضيه باكيًا، ولا يعيشُ حاضرَه ساخطًا، ولا ينتظرُ مُستقبَلَه خائفًا قلقًا.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «لا تُفسد فرحَك بالقلق، ولا عقلَك بالتشاؤم، إنك لو تأمَّلتَ حالَك لوجدتَّ أن الله قد أعطاك أشياءَ دونَ أن تطلُبها، فثق أن الله لم يمنَع عنك حاجةَ رغبتَها إلا ولك في المنع خيرٌ تجهله».

معاشر الأحبَّة:

المُؤمنُ مُؤمنٌ بأقدار الله ومقاديره، فما شاءَ الله كان، وما لم يشأ لم يكن، (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (الحديد: ٢٢، ٢٣).

والله هو الرزَّاق، ورزقُ الله لا يجُرُّه حرصُ حريص، ولا تردُّه كراهيةُ كاره، والمُسلمُ يجمعُ بين التوكل والأخذ بالأسباب، (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) (الذاريات: ٢٢، ٢٣)، «فاتَّقوا الله وأجمِلوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموتَ حتى تستوفيَ رزقَها وأجلَها»؛ (رواه ابن ماجه).

المُؤمنُ يعيش وذكرُ الله شعارُه، والتوكُّلُ على الله دثارُه، وما تلذَّذَ المُتلذِّذون بمثل ذكر الله. وعجبًا لمن ابتُلِيَ بالغمِّ كيف ينسى: (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) (الأنبياء: ٨٧).

رُوِي عن جعفر الصادق - رضي الله عنه ورحمه -: «عجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزَع إلى قوله تعالى: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) دِعوة ذي النُّون - عليه السلام - فإني سمعتُ الله يُعقبُها بقوله: (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء: ٨٨).

وعجبتُ لمن أصابَه الحزَن ولم يفزَع إلى قوله تعالى: (حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) (آل عمران: ١٧٣)، فإني سمعتُ الله يقول: (فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ) (آل عمران: ١٧٤).

وعجبتُ لمن أحاطت به المكائد ولم يفزَع إلى قوله تعالى: (وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ) (غافر: ٤٤)، فإني سمعتُ الله يُعقبُها بقوله: (فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟) (غافر: ٤٥)».





ويُصدِّقُ ذلك ويُجلِّيه: قولُ نبيِّنا محمد - صلى الله عليه وسلم -: «دعوةُ ذي النُّون إذ دعا ربَّه وهو في بطنِ الحُوت: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، لم يدعُ بها رجلٌ مُسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استُجيبَ له» (أخرجه أحمد في «مسنده»، والترمذي في «جامعه»).

ومن الدَّقيقِ اللطيف - عباد الله -: ارتباطُ دعوات المكروب بتحقيق التوحيد؛ يقولُ - عليه الصلاة والسلام -: «اللهم رحمتَك أرجُو، فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين، وأصلح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت» (رواه أبو داود).

وقال لأسماء بنت عُميس: «ألا أُعلِّمُك كلماتٍ تقولينَهنَّ عند الكرب؟ اللهُ ربِّي لا أُشرِكُ به شيئًا»؛ (رواه أبو داود).

معاشر المُسلمين: الالتجاءُ إلى الله والتوكُّل عليه وحُسنُ الظنِّ به من أعظم مُفرِّجات الهُموم، وكاشفات الكروب، وطاردات القلق، (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: ٣)، (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (هود: ١٢٣).

والتعلُّقُ بالله ودُعاؤُه من أعظم السُّبُل يُعفي القلق؛ كيف وقد كان نبيُّكم محمدٌ - صلى الله عليه وسلم - إذا أكربَه أمرٌ قال: «يا حيُّ يا قيوم،





برحمتك أستغيث»؛ (رواه الترمذي).

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه -، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «ما من مُؤمن يُصيبُه همٌّ أو غمٌّ أو حَزَنٌ فيقول: اللهم إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أمَتك، ناصيَتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألُك اللهم بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك، أن تجعلَ القرآن الكريمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حَزَني، وذهابَ همِّي وغمِّي؛ إلا فرَّج الله عنه»؛ (رواه أحمد في «مسنده»).

وبعد، عباد الله:

فيجمعُ لكم ذلك كلَّه كتابُ الله؛ فهو الشفاءُ لما في الصدور، والشفاءُ لكل الأمراض البدنيَّة والنفسيَّة، والظاهرة والباطنة، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧)، بتلاوته تطمئنُّ القلوبُ فلا اضطراب، وبالاستمساك به تطمئنُّ فلا قلق، وبتدبُّره تطمئنُّ فلا وسوسة.

معاشر المسلمين:

أما ما كان من القلَق حافزًا إلى الخير، وباعثًا على العمل، فهو قلقٌ محمود؛ بل هو خيرٌ وفضلٌ ونعمةٌ، اقرأوا إن شئتم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠، ٦١)، فالمحاسبةُ والقلقُ خشيةَ التقصير من صفات المُؤمنين المُخلصين. أما عدمُ الاكتراث والمُبالاة فمن صفات المُنافقين.

يقولُ الحسنُ - رحمه الله -: «المُؤمنُ أحسنُ الناس أعمالاً، وأشدُّ الناس خوفًا؛ فالمُؤمنُ لا يزدادُ صلاحًا وبرًّا وعبادةً إلا ازدادَ خوفًا ويقول: لا أنجُو، إنه يخشَى عدمَ القبول».

المؤمنُ لا يخافُ إلا الله، يخافُ أن يكون فرَّط في حقِّه، ويخافُ أن يكون قد اعتدَى على خلقه، كما قال أبو الأنبياء - عليه السلام -: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٨١).

ألا فاتَّقوا الله - رحمكم الله -، واعمَلوا مُشفقين، وجِدُّوا حذرين، واستحضرُوا مقالةَ عباده المُؤمنين: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (الطور: ٢٦).

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله، فيومُكم هذا هو سيِّدُ الأيام، ونبيُّنا محمدٌ - صلى الله عليه وسلم - هو سيِّدُ الأنام، فللصلاة عليه في هذا اليوم قُربةٌ ليست لغيره، وكلُّ خيرٍ نالَتْه هذه الأمة في الدنيا والآخرة فإنما نالَتْه على يده - عليه الصلاة والسلام -.

فجمعَ الله لأمَّته به خيرَي الدنيا والآخرة، وقد أمركم بالصلاة والسلام عليه ربُّكم - عزَّ شأنُه - في مُحكَم تنزيله، فقال - وهو الصادقُ في قوله - قولاً كريمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك سيِّدنا ونبيِّنا محمد الحبيب المُصطفى، والنبي المُجتبى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وأذلَّ الشرك والمشركين، واخذُل الطغاةَ والملاحدةَ وسائرَ أعداء الملَّة والدين.

اللهم آمنَّا في أوطاننا، وأصلح أئمَّتنا وولاةَ أمورنا، واجعل اللهم ولايتَنا فيمن خافَك واتَّقاك، واتَّبَع رضاك يا رب العالمين.






كيف ينال العبد رضا الله؟

الحمد لله، الحمد لله الذي كتبَ على الدنيا الفناء، ومن سلكَ الهُدى كتبَ له الرِّضا، أحمدُه -سبحانه- وشكرُه علامةُ الصدقِ والوفاء، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهٌ في الأرض وفي السماء، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالرحمة والهُدى، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفَى.

إعداد/ الشيخ عبدالباري بن عواض الثبيتي
إمام المسجد النبوي

أما بعد: فأُوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

رضا الله هو أعلى المطالب وأعظمُها:

رضا الله هو أعلَى المطالب وأعظمُها؛ بل هو غايةُ مطلَب سُكَّان الجنان؛ قال الله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢).

فلا أحبَّ ولا أكرَمَ ولا أكبرَ من رضوان الله؛ بل هو الأمنيةُ الجليلة التي من أجلها بكَت عيونُ الخاشعين، وتقرَّحت قلوبُ الصالحين، وانتفضَت الأقدامُ في جوف الليل.

هذا الرِّضا جعلَه الله فوقَ الجنة، زيادةً على الجنَّة؛ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله يقولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة! يقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسعدَيك. فيقول: هل رضيتُم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضَى وقد أعطيتَنا ما لم تُعط أحدًا من خلقك. فيقول: أنا أُعطيكُم أفضلَ من ذلك، قالوا: يا ربُّ! وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخَطُ عليكم أبدًا".

طلبُ مرضاة الله عليها مدارُ حياة الأنبياء والصالحين:

طلبُ مرضاة الله عليها مدارُ حياة الأنبياء والصالحين؛ فموسَى - عليه السلام - يُسارعُ إلى ما يُرضِي الله، فيقول: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ (طه: ٨٤).

وسُليمانُ - عليه السلام- يشكُرُ ربَّه بالعمل في رضاه: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النمل: ١٩).

ونرَى هذا الأدبَ الرفيعَ من صاحب الأدب العظيم رسولنا الكريم -صلى الله عليه وسلم- وهو يتأدَّبُ في الألفاظ مع ربِّه وقتَ الحزن ابتغاءَ مرضاته، عندما مات ولدُه: "تدمعُ العين، ويحزنُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يرضَى ربُّنا، واللهِ يا إبراهيمُ إنا بك لمحزُونون".

الهدفُ الأسمَى لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - طلبُ مرضاة الله، وحياتُه تدورُ حول إرضاء الله؛ يسألُ ربَّه أن يُوفِّقَه إلى العمل الذي يُرضيه - سبحانه - فيقول: "أسألُك من العمل ما ترضَى"، ويقول: "وأرضِنا وارضَ عنَّا". (أخرجه الترمذي).

والحياةُ - عباد الله - في ظلِّ هذا الهدف وتربيةُ النفس عليه يجمعُ الدنيا والدين، ويُؤسِّسُ لتنمية شاملة، ونجاحٍ مُستمرٍّ لجميع مشروعاتنا وأعمالنا، حين نجعلُ هدفَنا الأعلى رضوانَ الله.



ولا يستوي من طلبَ رِضوانَ الله ومن باءَ بسَخَطه، في مسيرة الحياة ونمائها، وفي المآل والمصير. فمن طلبَ رضا الله يتَّبعُ أوامرَه ويتجنَّبُ نواهيَه، يسلُكُ سبيلَ الأبرار، يعملُ عملَ من يراه ربُّه ويُبصرُه، فيُقبلُ على طاعة ربِّه، ويُسخِّرُ في سبيله دُنياه، ويُعمِّرُ الأرضَ بإتقان وإحسان، قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٦٢).

قانونٌ عادل، لا يستوي من يتَّبعُ رضوانَ الله مع من يبُوءُ بغضبِ الله؛ فمنِ اختارَ الشرَّ سبيلاً خالفَ أمرَ الله، وانتهَكَ حُرُماته، وتضرَّرَت الأرضُ بشُؤم معصيته وعاقبتها، وباءَ بسخَط الله.

يسعَى المؤمنون لطلبِ مرضاة الله بإخلاص العمل له - سبحانه - الذي يرفعُ قيمةَ العمل، ويُحسِّنُ فُرصَ الإنجاز، ويُقوِّي كفاءَةَ الإنتاج؛ قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل: ١٩- ٢١).

وقال - صلى الله عليه وسلم -: "من فارقَ الدنيا على الإخلاص لله وحدَه لا شريكَ له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فارقَها والله عنه راضٍ". (أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٣١).

والسعيُ في طلبِ مرضاة الله علامةُ الصدق مع الله، وهو الذي ينفعُ يومَ القيامة؛ قال الله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (المائدة: ١١٩).

نالَ الصادقون هذه المزيَّة السنيَّة؛ لأن أفعالَهم صدَّقت أقوالَهم. فما قيمةُ صلاح الظاهر من أجل أن يراهُ الناس فيحمَدُونه، فإذا خلا بنفسه بارَزَ الله بمُخالفة أمره.

تقديمُ رضا الله على ما سواه سلامةٌ من خِصال النِّفاق؛ قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ٦٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩٦)، فمن طلبَ رضا الله فعليه أن ينخلعَ من النِّفاق والتمرُّد على أوامر الله.

الولاءُ والبراءُ أساسُ رضوان الله:

الولاءُ والبراءُ أساسُ رضوان الله، وهو: أن يُحبَّ المسلمُ لله، ويُحبَّ من أحبَّ الله وأحبَّ دينَه، ويُبغضَ من أبغضَ الله ومن حاربَ دينَه، يُوالي المؤمنين وينصُرُهم، يكرَه المُنافقين ويُبغضُهم؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (المجادلة: ٢٢).

ومما يعين على رضا الله تعالى:

إن من شكرَ الله بقلبه وجوارحه نالَ رضاه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧)، وقال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الله ليرضَى عن العبد أن يأكلَ الأكلةَ فيحمَدَه عليها، أو يشربَ الشَّربةَ فيحمَدَه عليها". (أخرجه مسلم).

والرُّكَّعُ السُّجود الوضَّاءةُ وجوههم بالوضوء، والمُشرقةُ بنور الصلاة يفوزون برضا ربِّهم؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الفتح: ٢٩).

ومن تركَ شهَواته لله، وقدَّم رضا مولاه على هواه نالَ الرِّضا، وتحقَّق له ما تمنَّاه؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - عن الصيام: "قال ربُّكم - عز وجل -: عبدي تركَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه



ابتغاءَ مرضاتي، والصومُ لي وأنا أجزي به".

أما ذكرُ الله فهو أرضى الأعمال لله، وإن الذاكرَ يجدُ الرِّضا في نفسه، والطُّمأنينة في صدره، والسعادةَ في قلبه.

تأمَّل قولَ الله تعالى مُخاطبًا نبيَّه -صلى الله عليه وسلم-، وهو خطابٌ للمؤمنين: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (طه: ١٣٠).

وللكلمة الطيبة جلالٌ في معناها، وجمالٌ في مبناها، وأثرٌ بالغٌ في النفوس، يرفعُك الله بها من حيث لا تحتسب؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن العبدَ ليتكلَّم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً، يرفعُه الله بها درجات". (أخرجه البخاري).

وهل ينسَى المُسلمُ أقصرَ الطرق للرِّضا وأقواها وأعظمَها وأجلَّها وأجملها؟! إنه رضا الوالدَين.

وأبلغُ من هذا: أن رضا الأم والأب مُقترنٌ برضا الربِّ؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "رضا الربِّ في رضا الوالد، وسخطُ الربِّ في سخط الوالد". وقال: "رضا الله في رضا الوالدَين، وسخطُ الله في سخط الوالدَين". (أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما).

ومن رضيَ الله عنه نالَ السعادةَ والطُّمأنينة؛ قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩).

نالَ السعادة وقرَّت عينُه بمرضاة ربِّه، فلن يسلُك سبيلاً إلا سهَّله الله له، ولن يقرَعَ بابًا من الخير إلا فتَحه الله له، وبارَكَ له فيه. وإذا رضيَ الله عن العبد قبلَ اليسيرَ من عمله ونمَّاه، وغفَرَ الكثيرَ من زلله ومحاه.

ومن رضيَ الله عنه نالَ الشفاعةَ يوم القيامة؛ قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ (طه: ١٠٨، ١٠٩).

هل للفقر والغنى علاقةٌ برضا الله أو بسخطه؟!

عباد الله: يُخطئُ من يظنُّ أن للفقر والغنى علاقةً بالرِّضا أو السَّخط، فالله - عز وجل - يُعطي المالَ للمؤمن والكافر؛ قال الله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٠).

فتضييقُ الرِّزق ليس دليلاً على السُّخط، والغنى لا يعني الرِّضا. فهذا قارُون أُوتيَ المالَ الكثير والكُنوز، ولم يكُن ذلك دليلاً على رضا الله، فقد خسَفَ الله به وبداره الأرض؛ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ (الفجر: ١٥، ١٦).

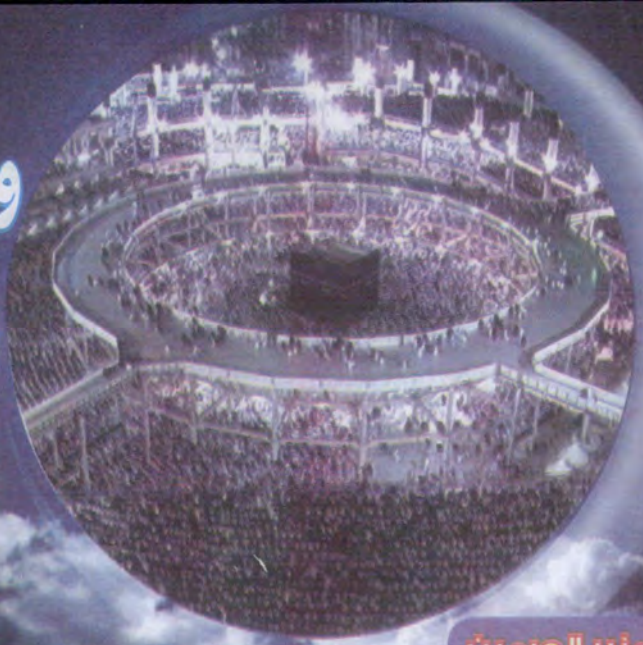
سوء عاقبة من التمس رضا الناس بسخط الله تعالى:

ومن الآفات -عباد الله-: حبُّ الظهور بالعمل، وابتغاءُ مرضاة الناس.

وأخطرُ من هذا: التماسُ رضا الناس بسَخَط الله، ومُسايرَةُ الناس على ضلالهم وفسقهم، وقد يرتكبُ مُحرَّمًا خوفًا من الناس، وقد يقعُدُ في مجلس مُنكر حتى لا يُغضبَ قريبًا أو صديقًا، أو يترُكُ فريضةً حرَجًا من كلامهم؛ قال رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: "ومن التمَسَ رضا الناس بسَخَط الله سخطَ الله عليه وأسخطَ عليه الناس". (أخرجه ابن حبان في صحيحه).

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير، والموتَ راحةً لنا من كل شرٍّ يا رب العالمين.

واقع المسلمين وكيفية تغييره



إعداد/ الشيخ / سعود الشريم
إمام المسجد الحرام

منبر الحرمين

الحمد لله، الحمد لله الرحيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرحمن: ١- ٤)، له مقاليدُ السماوات والأرض - سبحانه - كل يوم هو في شأن، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه سيِّد ولد آدم أجمع، وخيرُ من صلَّى لله وركَع، وأبلغُ من دعا إلى الله فأسمَع، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهاتِ المُؤمنين، وعلى الصحابة والتابعين، ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فأُوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوَى الله - سبحانه -؛ إذ بها المغنَم، وعليها المُعوَّل والمُعتصَم، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٢- ٦٤).

أيها المسلمون!!

إن الهيمَنة لنَزعَة الشهوة والأَثَرة، وحبِّ الدنيا وكراهية الموت، قد ولَّدت في كوامن كثير من المُجتمعات المُسلمة قسطًا وافرًا من القُنوط واليأس، وذوَبان الأمل، والشعور المُستحكم بأن سيادتَها في الأرض وريادتَها فيهما نوعُ استحالة تجعلُ القناعةَ بمثل ذلكم لونًا من ألوان الرِّضا بالواقع، والاستسلام للمُستجدَّات والمُدلهمَّات أيًّا كان نوعُها، حتى لو كان فيها ظُلمُ الإنسان وقهرُه، وإهدارُ كرامته، ومحوُ هويَّته.

مع أن حقيقةَ الإسلام وواقعَه يُؤكِّدان أنه لا انفصال بين العمل للدنيا والعمل للأخرى، وأن ليس ثمَّة تغليبٌ للجسَد على حساب الروح، ولا للروح على حساب الجسَد. إنما هناك تنظيمٌ دقيقٌ يجعلُ همَّة الإنسان المُسلم والمُجتمع المُؤمن في أن يتولَّى القيادة ويُمسك بالزِّمام، فلا هي رهبانيَّة تقتُل نداءَ الفطرة والجِبلَّة، ولا هي ماديَّة جوفاء، وأفئدةٌ هواء، تتجاهل سَناءَ الروح وتطلُّعاتها إلى الرِّفعة والتمكين.

وهذا الحقُّ - عباد الله - هو ما يجبُ أن يعرفَه عامَّةُ المُجتمعات المُسلمة بجلاءٍ ووضوح، وأن تَبُحَّ له حناجرُ الباحثين عن الصالح العامِّ لأمَّتهم ومُجتمعاتهم؛ فإن الله - جل وعلا - سخَّر آفاق السماء، وفجاجَ الأرض، وجعلَها في خدمة الإنسان؛ ليعمُر أرضَه، ويخلُف فيها بالإصلاح والعبودية له وحده، وليكون عزيزًا مُطاعًا، لا ذليلاً مُهانًا، وليكون متبُوعًا من قِبَل أمم الأرض، لا تابعًا.

فإن الله - سبحانه وتعالى - قد قال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا

هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ) (لقمان: ٢٠).

ولذا - عباد الله - فإن هذا التسخيرَ الإلهيَّ لم يكُن عبثًا بلا حكمة، ولا نعمةً لا تقتضي شكرًا يُشاهَدُ على أرض الواقع، من خلال إقامة شرع الله في أرضه، وإعلاء كلمته لتكون هي العُليا على هذه البسيطة، (إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ) (الزمر: ٧).

ومن هذا المنطلَق - عباد الله - كان لزامًا على أمة الإسلام أن تُدرِكَ أمرَين جدُّ عظيمَين، تحمل عليهما الضرورةُ تارةً، ويهدي إليهما الدينُ تارات أخرى؛ بل كلٌّ منهما يستلزمُ الآخر ويستصحبُه استصحابًا حثيثًا.

والأمران - عباد الله - هما: التآخي والائتلاف بلا تفرُّق واختلاف، وعلوُّ الهمَّة لبلوغ الأرَب في الرِّفعة والزِّيادة، دون استكانة أو خُنوع لغير الله - سبحانه وتعالى -. بهذين الأمرَين - عباد الله - تنمُو الأمم، فتعظُم فتسُود ما شاء الله أن يحيَا فيها هذا الأمران.

وإنه متى رُئيَ من أمة الإسلام مَيْلٌ صادقٌ إلى الوحدة والتمكين؛ فإن العاقبَة لها ما من ذلك بُدٌّ، فتلك هي السنةُ الكونية والدينية.

ومن تصفَّح تاريخَ الأمم والشعوب، وتأمَّل واقعَها من خلال كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -، ومصادر التأريخ المُسطَّرة؛ وجدَ أن حظَّ الأمم والشعوب من الوجود على مقدار حظِّها من الوحدة، ووجدَ مبلغَها من العلوِّ والهيمَنة على قدر تطلُّعها إلى التمكين في الأرض لإثبات وُجودها.

ولوَجَد أيضًا أنه ما انحرَفَ قومٌ عن بُلوغ ما ذُكر، فألهاهم بما بين أيديهم، وأوقفَهم على أبواب ديارهم ينتظرون طريقَهم بالسوء، إلا بعد ما رُزئُوا بالاختلاف والافتراق، ودنُوِّ الهمَّة، والحطَّة، والشِّقاق، والرِّضا بالحياة الدنيا من الآخرة، (فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) (التوبة: ٣٨).

الاتِّحادُ والاتفاقُ والائتلاف - أيها المسلمون - يُحدثُه شعورُ كل فرد من أفراد أمة الإسلام، بما ينفعُها وما يضُرُّها. شعورٌ يبعَثُ كلَّ واحد منَّا على التفكُّر في أحوال أمَّته، ويجعلُ لهذا التفكُّر جُزءًا من زمنه وهمِّه، وألا يكون هذا التفكُّر أقلَّ من همِّه بمعاشه ورزقه، فضلاً عن أن يكون مُجرَّد تفكُّر لا يُجاوزُ جُدرانَ مُخيِّلة المرء نفسه؛ بل تفكُّرٌ يتبَعُه عمل، وعزيمةٌ يخلُفُها إصرار.

ولهذا جاء حثُّ النبي - صلى الله عليه وسلم - على التماسُك والتآخي بين المُؤمنين، وذلك في قوله - صلوات الله وسلامُه عليه -: «المؤمنُ للمُؤمن كالبُنيان يشُدُّ بعضُه بعضًا» - ثم شبَّك بين أصابعه - صلواتُ الله وسلامُه عليه - (رواه البخاري ومسلم).

وفي مثل قوله - صلى الله عليه وسلم -: «مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم مثَلُ الجسد، إذا اشتكَى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسَد بالسَّهر والحُمَّى» (رواه مسلم).

ففي الحديث الأول: جعلَ موضع المُسلم بين إخوانه المُؤمنين كالبُنيان، الذي لا يقومُ بعضُه إلا على البعض الآخر، من خلال تراكُم اللَّبِنات وتشابُكها.

وفي الحديث الآخر: أنزلَ المؤمنَ من أخيه منزلةَ أحد الأعضاء في الجسَد، إذا مسَّه ألَمٌ استنفَرَت بسببه سائرُ الأعضاء.

فلله! أيُّ تشبيه للأُخُوَّة أعظمُ من هذا التشبيه، الذي نطقَ به من أوتي جوامع الكلم - بأبي هو وأمي - صلواتُ الله وسلامُه عليه -؟!

إن هذا الترابُط والتآخي، والحضَّ عليه من قبَل الشارع الحكيم، لم يُترَك هكذا دون سياج يُحاطُ بتحذير وتخويف؛ بل أُتبِعَ بالنهي عن ضدِّه، وهو: الاختلاف، والتدابُر، والخروجُ من دائرة المؤمنين الجامعة؛ حيث توعَّد الله الواقع في ذلكم بقوله: (وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا) (النساء: ١١٥).

هذا هو موقفُ الدين الإسلاميِّ من العُنصر الأول، الذي هو عنصرُ الائتلاف والتآخي المُوافقَين للهدي السماوي الإلهيِّ.

وثمَّ عنصرٌ آخر - عباد الله -، وهو: عنصُر الهمَّة نحو بلوغ العزَّة والرِّفعة والتمكين في الأرض، من خلال السعي الصادق لبثِّ دين الإسلام والتمكين له، والإعلاء لكلمة الله في أرضه، وعمارتها بالعدل والقسط.

وإن آيات القرآن وأحاديث النبي - صلى الله

عليه وسلم - حافلةٌ بذكر ذلكم، داعيةً إليه، جاهرةً بالحضِّ عليه، حاظرةً عليهم أن يستكينُوا أو يتخاذَلوا أو يتوانَوا في المفروض والقيام به.

إن كل الرَّزايا التي تحُلُّ بأقطار المُسلمين وتضعُ من أقدارهم ما كان قاذفُهم ببلائها، ورامِيهم بسهامها إلا افتراقُهم وتدابُرُهم، الذي نهاهم الله عنه، ونهاهم عنه رسولُه - صلى الله عليه وسلم -.

ولو أنهم أدَّوا تلك الحقوق التي تُطالِبُهم بها كلمةُ الله العُليا، وتطمئنُّ قلوبُهم بذكرها، لما كان للغريب مجالٌ لأن يُمزِّق شملَهم كلَّ مُمزَّق، أو أن يُفرِّقهم شذَر مذَر، أو أن يُلمِّع سلاحَه عُدوانًا وظُلمًا في وجوههم، بعد أن كانت أقدامُهم في صياصي أعدائهم، وأيديهم على نواصيهم رَدحًا من الزمن.

هل يودُّ المُسلمون أن يعمُروا مئات السنين في الضعف والدُّون، وهم يعلَمون أن ازدراء الحياة وزُخرفها والزُّهد فيها هو دليلُ النفس المُؤمنة؟!

أيرضَى المُسلمون وقد كانت كلمتُهم هي العُليا، أن يُضربَ عليهم الخوف والجوع، وأن يُقذَف في قلوبهم الرُّعب، وتبلُغ قلوبُهم الحناجر، ويظنُّون بالله الظُّنونا؟!

وأن يستبدَّ في ديارهم وأموالهم وأرضهم التي استنشقُوها من هو أجنبيٌّ عنهم دينًا وخُلُقًا وسياسةً، أو من لا يرقُبُ فيهم إلًّا ولا ذمَّة؛ بل أكبرُ همِّه العبَثُ والتشريدُ والتفريقُ، والقتلُ والظُّلمُ، حتى يُخلِيَ منهم أوطانَهم التي خُلقوا فيها، وربَوا على ثراها، ثم يضرب القُرعة بين المقتسمين أرضَهم وأموالَهم.

إن الوحدة والتطلُّع إلى الغلَبَة، وصدقَ الرَّغبة في حفظ حوزة الإسلام، كلُّها صفاتٌ كامنة في نفس كل فرد وكل مُجتمع مُسلم، إلا من شاء الله. بَيْدَ أنهم دهاهم ما يُلهيهم عن استصحاب ذلكم واستصحاب حُكمه، فذُهِلوا عن سماع أصوات الساعين إلى العدل والحقِّ، فسَهَوا وما غوَوا، وزلُّوا وما ضلُّوا، ولكنهم دُهشُوا وتاهُوا وسطَ زوابع الدنيا وزخارفها وأطيافها الزائلة، حتى أصبَحوا يطلُبُون العونَ وهو معهم، ولكنهم لا يهتَدون إليه سبيلاً، فصاروا

كالعيس في البَيداء يقتُلُها الظَّما
والماءُ فوقَ ظُهورها محمُولُ

إن علينا جميعًا أن نُدرك حجمَ عداوَة من لا يُحبُّنا، ولا يهمُّه أمرُنا، كما أن علينا جميعًا أن نُدرك السُّبُل والوسائل التي يتربَّصُ بها عدوُّنا، وأن نُذكيَ محلَّها الوسائل الإيجابيَّة، مع الرجوع إلى الله، والألفة، والعزيمة، والتغلُّب على الهوَى والرغبة الشخصية، وتقديم مصلَحة الإسلام والمُسلمين على كل مصلحة دونَها، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٧، ١٤٨).

إن إدراكَ حجم الوسائل التي يُحارِبُنا بها أعداءُ بُلداننا أو ديننا أو ثقافتنا، لهو من الضرورة بمكان، وألا يضيقَ فهمُنا وإدراكُنا على تفسير قوَّتهم وغلبَتهم بوسيلة الحرب فحسب؛ كلا، فتلك نظرةٌ ضيقة، وفهمٌ قاصر لهذا الواقع المُؤلم.

بل لقد تعدَّى مدى الوسائل حتى شمَلَ آفاقًا مُتعدِّدةً، نراها ماثلةً في الثقافة، والمشاعر، والإعلام، والفكر. بل لقد أصبحَت الكلمةُ والصورةُ والخبرُ والصحيفةُ والبثُّ الفضائيُّ أدقَّ الوسائل إلى غاياتهم المرسُومة؛ إذ تفتك بالأمة فتكَ السِّهام بلا قوس ولا وتَر، فتطعنُ بغير سكِّين، وتقتُل بغير سلاح، وتأسر بلا حرب، وتحكُم بلا مبدأ.

إذا كانت هذه هي وسائلهم السلبيَّة.. فأين نحن من الوسائل الإيجابيَّة؟! وإذا كانت هذه هي هَمَمهم الدَّؤوبة.. فلماذا هَمَمنا خواء، وغاياتُنا هواء، وعزائمُنا غُثاء؟! لما تمسُّ أصابعُهم الأشياء فتنجَح، وتمسُّها أصابعُنا فتضطرب؟!

إن مُستقبَل المُسلمين ينبغي أن يُزرَع في بلادهم وعلى أرضهم، بأخلاقهم، وفكرهم، وقوَّتهم، وأن يكفُّوا عن صفات التسوُّل بكل صُنُوفه في طاقاتهم وإعلامهم وثقافتهم، وألا يضيعُوا في تيه العقل الذي يشحَذ ولا يُؤسِّس! فيُنحَّى حينئذٍ عن القيادة والرِّيادة قسرًا، ولاتَ ساعةَ حيلة.

ولقد صدقَ الله - جل شأنُه -: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩، ١٤٠).

وآخر دعوانا أن رب العالمين.

سلام عليك يا رمضان

منبر الحرمين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.أما بعد:

إعداد/ الشيخ/ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس
إمام المسجد الحرام

فيا عباد الله: اتقوا الله -تبارك وتعالى- واشكروه على ما منَّ به عليكم من التوفيق للصيام والقيام وحلول عيد الفطر المبارك، أعاده الله على أمة الإسلام بالخير واليمن والسرور، والبركات والرضا والحبور.

في وداع رمضان:

أيها المسلمون!! بالأمس القريب ودَّعت الأمة الإسلامية شهرًا عظيمًا، وموسمًا كريمًا، تحزن لفراقه القلوب المؤمنة، ألا وهو شهر رمضان المبارك، فقد قوَّضت خيامه، وتصرَّمت أيامه، وقد كنَّا بالأمس القريب نتلقَّى التهانيَ بقدومه ونسأل الله بلوغَه، واليوم نتلقَّى التعازيَ برحيله ونسأل الله قبولَه، بالأمس نترقَّبه بكلّ فرح وخشوع، واليوم نودّعه بالأسى والدموع، وتلك سنّة الله في خلقه، أيّامٌ تنقضي، وأعوام تنتهي، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

مضى هذا الشّهر الكريم وقد أحسن فيه أناسٌ وأساء آخرون، وهو شاهد لنا أو علينا، شاهدٌ للمشمِّر بصيامه وقيامه، وعلى المقصّر بغفلته وإعراضه، ولا ندري -يا عباد الله- هل سندركه مرةً أخرى أم يحول بيننا وبينه هادم اللذات ومفرّق الجماعات؟! فسلامُ الله على شهر الصيام والقيام، لقد مرّ كلمحة برقٍ أو غمضة عين، كان مضمارًا يتنافس فيه المتنافسون، وميدانًا يتسابق فيه المتسابقون، فكم من أكفٍّ ضارعة رُفعت، ودموع ساخنة ذُرفت، وعبراتٍ حرَّاءَ قد سُكبت، وحُقّ لها ذلك في موسم المتاجرة مع الله، موسم الرحمة والمغفرة والعتق من النار.

- معاشر المسلمين!! لقد مرّ بنا هذا الشهر المبارك كطيف خيال، مرّ بخيراته وبركاته، مضى من أعمارنا وهو شاهد لنا أو علينا بما أودعناه فيه، فليفتحْ كلّ واحد منا صفحة المحاسبة لنفسه: ماذا عمل فيه؟! ماذا استفاد منه؟! ما أثره في النفوس؟! وما ثمراته في الواقع؟! وما مدى تأثيره على العمل والسلوك والأخلاق؟!

الأخذ بأسباب القبول بعد رمضان:

إن السؤال المطروح الآن بإلحاح: هل أخذنا بأسباب القبول بعد رمضان وعزمنا على مواصلة الأعمال الصالحة؟! أم أنَّ واقع كثير من الناس على خلاف ذلك؟! هل تأسَّينا بالسلف الصالح -رحمهم الله- الذين توجل قلوبهم وتحزن نفوسهم عندما ينتهي رمضان لأنهم يخافون أن لا يُتقبّل منهم عملهم؟! لذا فقد كانوا يكثرون الدعاءَ بعد رمضان بالقبول.

ذكر الحافظ ابن رجب -رحمه الله- عن معلّى بن الفضل أنهم كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يتقبله منهم، كما كانوا -رحمهم الله- يجتهدون في إتمام العمل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمُّون بعد ذلك بقبوله ويخافون من ردّه، سألت عائشة -رضي الله عنها- الصديقةُ بنت الصديق رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عن قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون:٦٠): أهُم الذين يزنون ويسرقون ويشربون الخمر؟!

قال: "لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدّقون ويخافون أن لا يُتقبَّل منهم".

ويقول علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: "كونوا لقبول العمل أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل، ألم تسمعوا إلى قول الله -عز وجل-: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (المائدة:٢٧)؟!، وعن فضالة بن عبيد قال: "لو أني أعلم أن الله تقبَّل مني مثقالَ حبة خردل أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأن الله يقول: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)".

وقال عطاء: "الحذرُ الاتقاءُ على العمل أن لا يكون لله". وقال ابن دينار: "الخوفُ على العمل أن لا يُتقبَّل أشدُّ من العمل".

الاستقامة في سائر الشهور:

إخوةَ الإيمان!! وماذا بعد شهر رمضان؟! ماذا عن آثار الصيام التي عملها في نفوس الصائمين؟! لننظر في حالنا، ولنتأمَّل في واقع أنفسنا ومجتمعاتنا وأمتنا، ولنقارن بين حالنا قبل حلول شهر رمضان وحالنا بعده، هل ملأت التقوى قلوبنا؟! هل صلحت أعمالنا؟! هل تحسَّنت أخلاقنا؟! هل استقام سلوكنا؟! هل اجتمعت كلمتنا وتوحَّدت صفوفنا ضدَّ أعدائنا وزالت الضغائن والأحقاد من نفوسنا؟! هل تلاشت المنكراتُ والمحرمات من أسرنا ومجتمعاتنا؟!

أيها المسلمون!! يا من استجبتم لربكم في رمضان، استجيبوا له في سائر الأيام: (اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ) (الشورى:٤٧)، أما آن أن تخشع لذكر الله قلوبنا، وتتوحَّد على الصراط المستقيم دروبنا؟!

أيها الإخوة في الله!! لقد جاءت النصوص الشرعية بالأمر بعبادة الله والاستقامة على شرعه عامةً في كل زمان ومكان، ومطلقةً في كل وقت وآن، وليست مخصَّصة بمرحلة من العمر، أو مقيَّدة بفترة من الدهر، بل ليس لها غاية إلا الموت، يقول الحسن البصري -رحمه الله-: "لا يكون لعمل المؤمن أجلٌ دون الموت". وقرأ قوله سبحانه: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (الحجر:٩٩)، ولما سئل بشر الحافي -رحمه الله- عن أناس يتعبَّدون في رمضان ويجتهدون، فإذا انسلخ رمضان تركوا قال: "بئس القوم لا يعرفون الله إلا في رمضان".

إخوةَ العقيدة!! إنه إن ودَّعت الأمة الإسلامية شهرَ رمضان المبارك بعد الإقبال على الله والإكثار من الأعمال الصالحة، فينبغي أن لا يودِّع المسلمون صالحَ العمل بعد رمضان، بل يجب أن تبقى آثار الصيام شعارًا متمثلاً في حياة الفرد والأمة، وما أعطاه الصيام من دروس في الصبر والتضحية والإذعان لأمر الله، والوحدة والتضامن والألفة والمودة بين أفراد هذه الأمة، يجب أن يستمرَّ عليه المسلمون، وتُرى متجسِّدةً في حياتهم العملية بعد رمضان، وما تدنَّى واقع الأمة وأصيب المسلمون بالوهن في أنفسهم والضعف أمامَ أعدائهم إلا لما تخلَّوا عن أعزِّ مقوِّمات نصرهم وسيادتهم، وهو الدين الإسلامي الحق، ولما أساء بعضُ أبناء الإسلام فهمَه، فجعلوا للطاعة وقتًا وللمعصية أوقاتًا، وللخير والإقبال زمنًا وللشر والإدبار أزمانًا، عند ذلك لم تعمل مناسباتُ الخير والرحمة ومواسمُ البر والمغفرة عملَها في قلوب كثير من الناس، ولم تؤثِّر في سلوكهم وأخلاقهم، ولم تُجد في حلِّ مشكلاتهم وقضاياهم إلا من رحم الله.

المداومة على الطاعة:

أيها الإخوة المسلمون!! إن من شكر الله -عز وجل- على نعمة توفيقه للصيام والقيام أن يستمرَّ المسلم على طاعة الله -عز وجل- في حياته كلها، فالإله الذي يُصام له ويُعبد في رمضان هو الإله في جميع الأزمان، ومن علامة قبول الحسنة الحسنةُ بعدها، وإن من كُفر النعمة وأمارات ردِّ العمل العودةَ إلى المعاصي بعد الطاعة، يقول كعب: "من صام رمضان وهو يحدِّث نفسَه أنه إذا خرج رمضانُ عصى ربَّه

فصيامُه عليه مردود، وباب التوفيق في وجهه مسدود".

وان الناظر في حياة كثير من المسلمين اليومَ في رمضان وبعد رمضان يأسفُ أشدَّ الأسف لما عليه بعضُ الناس (هداهم الله) بعد شهر الصيام من هجرِ المساجد، وترك الجماعات، والتساهل في الصلوات، واعتزالِ الطاعات، من قراءة القرآن والذكر والدعاء، والبذل والإحسان والصدقة، والإقبال على أنواع المعاصي والمنكرات، واستمراء الفواحش والمحرمات، وما ذاك - أيها الإخوة في الله - إلا من قلة البصيرة في الدين، وسوء الفهم لشعائر الإسلام، وما إضاعةُ الصلوات واتباع الشهوات والإغراق في الملذّات والعكوف على المحرَّمات عبرَ السهرات والسمرات والخروج إلى الشواطئ والمنتزهات ومتابعة الأفلام وعفن القنوات والفضائيات إلا دليلٌ على ضعف الإيمان في نفوس فئام من الناس، فاتقوا الله عباد الله، ولا تهدموا ما بنيتم من الأعمال الصالحة في شهر رمضان، اتقوا الله يا من عزمتم على المعاصي بعد رمضان، فربُّ الشهور واحد، وهو على أعمالكم رقيب شاهد، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١).

واعلموا أن الموت يأتي بغتة، وما مرور الأعوام بعد الأعوام وتكرار الليالي والأيام إلا مذكِّر بتصرّم الأعمار وانتهاء الآجال والقدوم على الكبير المتعال.

أيها المسلمون!! أنسيتم أنَّ الله افترض عليكم طاعتَه وألزمكم عبادتَه في كل وقت؟! ألا فليعلم ذلك جيدًا من ودّعوا الأعمال الصالحة بوداع رمضان، أفأمن هؤلاء أن ينزل بهم الموت ساعةً من ليل أو نهار وهم على حال لا ترضي العزيزَ الجبار، ولا تنفعهم يومَ العرض على الواحد القهار؟! ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (النحل:٩٢)، نعوذ بالله من الحور بعد الكور. أما آن لنا -أمة الإسلام- أن ندرك أن ما أصابنا من ضعف وهوان إنما هو من عند أنفسنا، ونتيجة لعدم استفادتنا من مواسم البر والإحسان؛ إذ لم تعمل هذه المواسم عملَها في القلوب فتحييها بعد موات، وعمَلَها في الأمة فتجمعها بعد فرقة وشتات، ولم تُجد في حلّ ما استعصى من مشكلات، وعلاج ما استفحل من معضلات، فإنَّ ذلك دليل على عدم الوعي وقصور الفهم للإسلام.

أما إذا استقامت الأمة على العبادة، ولم تهدم ما بنته في مواسم الخير، ولم يستسلم أفرادها وأبناؤها لنزغات الشيطان وأعوانه ولم يبطلوا ما عملوا في رمضان، فإن الأمة بإذن الله تمسك بصمام الأمان وحبل النجاة، لتصلَ إلى شاطئ الأمان وبرّ السلام بإذن الله.

العيد.. حكم وأسرار:

ولنتذكر -يا أمة الإسلام- ونحن نعيش فرحة العيد بالأمن والأمان إخوانًا لنا في العقيدة يحلّ بهم العيد وهم يعانون الحروب الطاحنة والمآسي المستمرة، بأيِّ حالٍ يعيش المسلمون في الأرض المباركة فلسطين -أولى القبلتين ومسرى سيد الثقلين- هذه الأيام ويستقبلون العيد؟! وكذا إخوانكم في بقاع أخرى، فتذكّروا كيف يعيشون العيد مع حياة القتل والتشريد، والملاجئ والتهجير والتهديد، فلا تنسوهم -رحمكم الله- في دعمكم ودعائكم.

ونداءٌ ملؤه الحنان والإشفاق إلى الذين عزموا على العودة إلى المعاصي بعد رمضان أن يتقوا الله سبحانه، فالعمر قصير، والآجال معدودة، والأنفاس محدودة، كفى مخادعةً للرحمن، وانزلاقًا في طريق الشيطان، وعبثًا بشعائر الإسلام، إلى متى الاسترسال في الغفلة؟! فلتعلنوها -عباد الله- توبةً صادقة نصوحًا، لا رجعة بعدها إلى الذنوب والمعاصي، فهذا -والله- هو الشكر الحقيقيُّ لنعمة الصيام.

وهمسةٌ في آذان شباب الإسلام أن يتقوا الله -تبارك وتعالى- ويُقبلوا عليه، ويحفظوا أوقاتهم بعد رمضان، ويشغلوها بطاعة الله، فلا يغترّوا بعمل المفتونين بمعصية الله، وليحذروا ما يسيء إلى دينهم وقيَمهم، ويضعف الإيمان في نفوسهم،

ويئدُ الأخلاقَ في قلوبهم وأعمالهم وواقعهم، مما يثير الغرائز، ويهيِّج المشاعر، مما يُرى ويُسمع ويقرأ عبر وسائل الإعلام من معصية الله -عز وجل-، وعليهم الحذر من قرناء السوء.

وعلى المرأة المسلمة أن تتقيَ الله -عز وجل-، وتستمرَّ في طاعة ربِّها بعد رمضان حجابًا وعفافًا وحشمة، وأن تحذرَ كلَّ الحذر من دعاة الضلال والفتنة.

وعلى أرباب الأسر وأولياء الأمور أن يتقوا الله -عز وجل- في مسؤولياتهم، ويحافظوا على أماناتهم بمتابعتهم وتربيتهم والعناية بهم، تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ (التحريم:٦).

اتقوا الله -عباد الله- حقَّ التقوى، وراقبوه في السّر والنجوى، واشكروه -جل وعلا- أن هداكم للإسلام، ووفَّقكم للصيام والقيام، وعلى ما تنعمون به في هذه الأيام من أيام عيد الفطر المبارك.

واعلموا -رحمكم الله- أن السعيد في العيد ليس من لبس الجديد، وانما السعيد بالعيد من خاف يومَ الوعيد، وسلم من العذاب الشديد.

وتذكَّروا أنَّ العيد في الإسلام له حكم وأسرار، وكم له من مغزًى عميق بتحقيق شكر الله -عز وجل- قولاً وعملا، فتذكَّروا الأطفالَ اليتامى، والنساءَ الأيامى، والمعوزين والأراملَ والمساكين، وليتحرَّك فيكم شعور الأخوَّة الإسلامية، والتزموا طاعةَ ربكم في هذه الأيام، وتحذروا من جعلها أيامَ غفلة واسترسال في اللهو والمعاصي وتوسّع في المباحات، ولتكن فرصةً لمحاسبة النفوس، وصفاء القلوب، وتجريدها من الضغائن والأحقاد، والقيام بعمل البر وصلة الأرحام والمودة بين المسلمين.

مرَّ وُهَيب بن الورد -رحمه الله- على أناس يلهُون ويلعبون أيامَ العيد فقال لهم: "عجبًا لكم! إن كان الله قد تقبَّل صيامَكم فما هذا عملُ الشاكرين، وإن كان الله لم يتقبَّله منكم فما هذا عمل الخائفين".

واعلموا -رحمكم الله- أنَّ رسولَكم -صلى الله عليه وسلم- ندبكم لصيام ستةِ أيامٍ من شوال، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي أيوب -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "من صام رمضان وأتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر".

فلا تفوّتوا -رحمكم الله- على أنفسكم هذه الفضيلة العظيمة، فإنَّ أحدنا لا يدري أيدرك رمضان مرة أخرى أو لا يدركه، وكلّنا بحاجة إلى سدّ ما نقص من صيامنا بصيام التطوع، ويجوز لمن أراد صيامَ ستة أيام من شوال أن يتابعها أو يفرقها في الشهر، ولا بأس في ذلك كله بحمد الله.

ألا فحاسبوا أنفسكم -رحمكم الله- بعد صيام شهركم، إذا كان أربابُ الأموال وأصحاب التجارات الدنيوية ينظرون في أرباحهم بعد مواسم التجارة، فأصحابُ المتاجرة مع الله أولى وأحرى أن ينظروا في أرباحهم، فانظروا ماذا قدمتم لأنفسكم في رمضان، واستمرّوا عليه بعده، وضاعفوه، وتقرَّبوا إلى الله بأنواع الطاعات، فتلك -والله- هي التجارة الرابحة في أسواق الآخرة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ (محمد:٣٣).

ألا وصلوا وسلموا -رحمكم الله- على الهادي البشير والسراج المنير كما أمركم بذلك اللطيف الخبير فقال -عز من قال-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (الأحزاب:٥٦).

اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله، وارض اللهم عن خلفائه الراشدين...

الإسلام دين الأخلاق

منبر الحرمين

إعداد/ الشيخ د. صالح بن حميد
إمام المسجد الحرام

الحمد لله، الحمد لله مُنشئ الأمم ومُبيدها، وباعث الرِّمَم ومُعيدها، أحمده سبحانه شاكرًا طائعًا، وأستعينه وأستغفره عابدًا خاضعًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مُوحِّدًا مُخلصًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله، بعثه ربُّه بدين الحقِّ داعيًا وهاديًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً وسلامًا كثيرًا دائمًا مُتواليًا.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله -عز وجل-، فاتقوا الله -رحمكم الله-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، بالعلم يصحُّ العمل، وبالعمل تُنالُ الحكمة، وبالحكمة يقومُ الزُّهد، وبالزُّهد تُعرفُ الدنيا، ومن عرف الدنيا رغبَ في الآخرة، ومن رغبَ في الآخرة نالَ المنزلة، والتوفيقُ خيرُ قائد، ومن رضيَ بقضاء الله لم يُسخطه أحد، ومن قنع بعطاء مولاه لم يدخله حسَد، ومن فُتح له بابُ خيرٍ فليُسرع إليه؛ فإنه لا يدري متى يُغلق دونه.

واعلموا أن الموتَ يعمُّنا، والقبورَ تضمُّنا، والقيامةُ تجمَعُنا، والله يحكمُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

أيها المسلمون!! قواعدُ السلوك ومعايير الأخلاق وآداب التعامُل مقياسٌ جليٌّ من مقاييس الالتزام بدين الإسلام، وعنوانٌ من عناوين الرُّقيِّ الحضاريِّ، ومَعلَمٌ من معالم السموِّ الإنساني، إنها القواعد والآداب التي تحكم العلاقات بين الناس من كل فئاتهم وطبقاتهم، قواعدُ وآدابٌ تبعَثُ على الشعور بالأمان والمحبَّة وحُسن المعاشرة وسعادة المجتمع.

والمسلمون في تجمُّعاتهم تتجلَّى فيهم هذه المظاهر السلوكية، والتخلق بأخلاق دينهم، والالتزام بتعاليم شرعهم، ومن تحبَّبَ إلى الناس أحبُّوه، ومن أحسنَ مُعاملتهم قبلوه.

الدماثة وحُسن الخُلق هي اللغةُ الإنسانيةُ المُشتركة التي يفهمُها كل أحد، وينجذبُ إليها الكريم، ويُحسنُ الإنصاتَ إليها الحكيم.

الوجهُ الصبوح خيرُ وسيلة لكسب الناس، وحُسن البشر يُذهبُ السَّخيمة. وذو المروءة الحكيم من يُخاطبُ الناسَ بأفعاله قبل أن يُخاطبهم بأقواله.

أيها المسلمون!! وفي ديننا من التوجيهات والتعليمات ما يبني شبكةً واسعةً من العلاقات المتينة مع الدائرة الأُسريَّة والمجتمعية، والدائرة الإسلامية الأوسع، ثم الدائرة الإنسانية الأشمل.

وفي ديننا كذلك: "أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا". أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وفي الحديث: "إنكم لن تسَعُوا الناسَ بأموالكم، وليسَعْهُم منكم بسطُ الوجه وحُسن الخُلق". رواه الترمذي، والحاكم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- بإسناد صحيح.

وفي الحديث عند مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "من أحبَّ أن يُزحزَحَ عن النار ويدخُل الجنة فلتأته منيَّتُه وهو يُؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحبُّ أن يُؤتى إليه".

والناسُ معادن وطبقات ومنازل، ومُعاملتُهم معاملةَ

واحدةً أمرٌ في الحياة لا يستقيم؛ فما يُلائمُ هذا لا يُلائمُ ذاك، وما يُناسبُ هذه الفئة لا يُناسبُ تلك، ويحسُن مع هذا ما لا يجمُل مع الآخر.

والناس يُخاطبون بما يعرفون؛ فالعقولُ مُتفاوتة، والفُهومُ مُتباينة، والطباعُ مُتغايرة، ولله في خلقه شؤون؛ من والد وولد، وزوج وأخ، ورئيس ومرؤوس، وسريع الفهم وبطيئه، وحادّ الطبع وباردِه، وقريب الصلة وغريبها، في أشخاص وصفات وأحوال؛ من شدّة ورخاء، وحُزن وسُرور، والأرواحُ جنودٌ مُجنّدة.

وقد قالت الحكماء: "إذا أردتَ اصطيادَ السمك فضع في سنّارتك ما يُلائمُ من طعام، وقد تُلائمُ الديدان لا فاخرُ اللحوم".

أيها المسلمون!! وهذا عرضٌ لبعض ما حفلت به السيرة المُصطفوية والهدي المُحمّدي والسنة النبوية من أنواع المعاملات والتوجيهات لمختلف الطبقات والشخصيات؛ كيف وهو المصطفى الهادي البشير، واصطفاه ربُه بقوله -عزّ شأنه-: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، وقال -جل وعلا-: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وأول ما يُواجهُ المتأمّلُ في هذه السيرة النبوية الكريمة والهدي المُحمّدي: مُعاملته مع أهله، وسلوكه في بيته -عليه الصلاة والسلام-.

لقد كان حبيبُنا ونبيُّنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم- بشرًا من البشر؛ يفلي ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخدمُ نفسَه، وكان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة. أخرجه البخاري، والترمذي.

وكان يقول -عليه الصلاة والسلام-: "خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي". أخرجه الترمذي، وابن ماجه.

ويظنُّ بعضُ الناس أن الرجولة والشخصية في عُبوس الوجه، وتقطيب الجبين، واصدار الأوامر والنواهي، وتجنُّب المباسطة في الحديث مع الأهل، ومُبادلة المسرّات وحُسن الإصغاء.

وحديثُ أم زرع الطويل كان مُسامرةً بين عائشة -رضي الله عنها- وزوجها محمد رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- مُؤانسةً ومُباسطة.

ومن حُسن المعاملة: المُشاورة في الشؤون الأسريّة وغيرها: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ (البقرة: ٢٣٣)، وشاورَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- زوجَه أمَّ سلمَة في شأنٍ كبير، وهو: شأنُ صُلح الحديبية، وأخذ بمشورتها.

وشاورَ بريرَة في قصة الإفك -وهو حدثٌ عظيمٌ مُزلزل-.

بل تأمّلوا وتفقّهوا كيف كان تعامُله -عليه الصلاة والسلام- مع أخطاء الناس وغيرة النساء؛ فحين كسرت إحدى زوجاته صحفة صاحبتها المملوءة طعامًا، ما كان من النبي الكريم ذي الخُلق العظيم -عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم- إلا أن تعامل برفق، مُقدّرًا طبائع النساء قائلاً: "غارَت أمُكم"، فجمعَ الطعامَ المُتناثر، وقال: "طعامُ بطعام، وإناءٌ بإناء". أخرجه البخاري، والترمذي.

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وفيه: عدمُ مُؤاخذة الغيراء بما يصدرُ منها؛ لأنها في تلك الحالة يكونُ عقلُها محجوبًا لشدّة الغضب بسبب الغَيرة".

يا هذا!! القوةُ والعنفُ والضربُ والشدّة يقدرُ عليها كلُ أحد، أما الحِلمُ والرِّفقُ والصفحُ والعفوُ والتسامُح فليس إلا لذوي الإرادات القوية والمُروءات العالية والأخلاق الرفيعة، "وما ضربَ نبيُّكم محمد -صلى الله عليه وسلم- امرأةً ولا خادمًا إلا أن يُجاهدَ في سبيل الله". أخرجه أحمد، وأبو داود.

أما الأطفالُ والصِّبيانُ؛ فحدِّث عن هدي نبيِّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في ذلك ولا حرَج؛

ومن دقيق المُلاحظة في التعامُل مع الصغار: أنهم لا يُفرّقون بين أوقات الجدّ وأوقات اللعب؛ فالطفلُ يظنُّ أن الوقتَ كلَّه له، وقد قدّر الإسلامُ هذه المشاعر؛ فها هو رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يحملُ بنتَ بنته في الصلاة، فإذا ركعَ وضعَها، وإذا قام رفعَها. متفق عليه.

والحسنُ أو الحُسين -رضي الله عنهما- يرتحلُ النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- ويركبُ على ظهره وهو في الصلاة، فيُطيلُ السجود حتى يقضيَ الطفلُ نُهمَتَه. أخرجه أحمد، والنسائي.

بل وهو يخطبُ على المنبر جاء الحسنُ -رضي الله عنه-، فصعد المنبَر، فضمَّه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ومسحَ رأسَه وقال: "ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلحَ على يديه بين فئتين عظيمتين من المسلمين". أخرجه أبو داود.

أيها المسلمون!! والطريقُ الأيسر والأقصرُ والأمتعُ إذا قُوبلَ الأطفال والصغار هو مُلاطفتُهم ومُمازحتُهم وحُسن رعايتهم ومنحُهم الحنان والاهتمام، وما كان أحدٌ أرحمَ بالعيال من محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

وزحمةُ الواجبات وكثرةُ المسؤوليات لا يجوزُ أن تشغلَ عن مثل هذا، فهذا من جُملة المسؤوليات والواجبات.

يقول أنسٌ -رضي الله عنه-: "كان إبراهيمُ ابن الرسول -صلى الله عليه وسلم- مُسترضَعًا في عوالي المدينة، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينطلقُ ونحنُ معه، فيدخلُ البيت ويأخذه ويُقبِّلُه ثم يرجع". رواه مسلم.

مُفردات التعامُل مع الصغار: قبلةٌ حانية، وحضنٌ دافئ، ولعبٌ بريء، وهي لغةٌ سهلةٌ يسيرةٌ في تكاليفها، عظيمةٌ في تأثيرها.

مسكينٌ هذا الغليظ القاسي حين يُصوِّره ذلك الرجل الذي رأى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يُقبِّلُ سبطَه الحسن -رضي الله عنه-، فقال: أتُقبِّلون أطفالكم؟! إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ أحدًا منهم، فكان الجوابُ النبوي: "من لا يرحَمُ لا يُرحَم"، وفي الصورة الأخرى: "أوَأملك أن نزعَ الله الرحمةَ من قلوبكم".

بل إنه -عليه الصلاة والسلام- إذا سمعَ بكاءَ الصبيِّ وهو في الصلاة خفَّفَ مُراعاةً لأمِّه أن تفتتن.

معاشر الأحبة!! أما التعامُل مع الخَدَم والأُجَراء والعُمَّال فيُجسِّدُه تمام التجسيد مقولةُ أنس -رضي الله عنه- مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "خدمتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عشرَ سنين، فما قال لي لشيءٍ فعلتُه لمَ فعلتَه، ولا لشيءٍ لم أفعله لم لم تفعله".

وتأمَّلوا هذه الحادثة مع أنسٍ نفسه -رضي الله عنه-: خرج أنسٌ في حاجةٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فرأى الصبيانَ يلعبون في السوق فانشغلَ معهم؛ لأنه كان صغيرًا في سنِّهم، فاستبطأَهُ النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخرج يبحثُ عنه فوجدَهُ يلعبُ مع الصبيان.

يقول أنس: فإذا رسولُ الله -صلى الله عليه وآله وسلم- قد قبضَ بقفايَ من ورائي، فنظرتُ إليه وهو يضحَك، فقال: "يا أُنيس: أذهبتَ حيثُ أمرتُك؟!". فقلتُ: نعم، أذهبُ يا رسول الله!

هذا هو الدرس؛ إنسانية، وتلطُّف، ورقَّة في النداء: "يا أُنيس"، من غير نَهْر، ولا نفضِ يدين، فضلاً عن الصُّراخ والضرب والتعنيف.

وحين شكا رجلٌ خادمَه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائلاً: إنه يُسيءُ ويظلم، أفأضربُه؟! فقال: "تعفُو عنه كلَّ يومٍ سبعين مرَّة". أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

نعم، أيها المسلمون: إن من أعظم ما يتجلَّى فيه آدابُ التعامُل وكريمُ الأخلاق: مواقف الناس في مُعاملاتهم وبياعاتهم ومُداياتهم: "رحمَ الله عبدًا سمحًا إذا باعَ، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى". أخرجه البخاري.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨٠).

"ومن سرَّه أن يُنجيَه الله من كرب يوم القيامة فليُنفِّث عن مُعسرٍ أو ليضَع عنه". أخرجه مسلم.

أما التعامُل أمام مكر الماكرين، وخيانات الخائنين، وكُفر الكافرين؛ فقد قال الله لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).

ولو نظرَ المسلمُ إلى المُعاهَدات التي عقدَها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع غير المسلمين، لرأى فيها من

صُنوف التسامُح وحُسن الجِدال وضُروب العفو والصفح ما لا ينقضي منه العجَب: "من دخل دارَ أبي سُفيان فهو آمن، ومن أغلقَ عليه بابَه فهو آمن، ومن ألقى السلاحَ فهو آمن".

وقال لقريش يوم الفتح، وهم من هم في ماضيهم الأسود، وتاريخهم المُظلم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وتعذيب المُستضعَفين، وإيذاء المؤمنين، لقد قال لهم: "ما تقولون أني فاعلٌ بكم؟!". فقالوا: أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريم، فقال: "أقولُ كما قال أخي يوسف: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف:٩٢)، اذهبُوا فأنتمُ الطُّلقاء".

وحين قيل له: ادعُ على المشركين. فقال -صلى الله عليه وسلم-: "إني لم أُبعَث لعَّانًا، وإنما بُعثت رحمةً". أخرجه مسلم.

وبعد:

عباد الله!! إليكم ميزانًا لا يختلف، ومعيارًا لا يُطفِّف، أحبُّوا لغيركم ما تُحبُّون لأنفسكم، واكرهوا لغيركم ما تكرهون لأنفسكم، وأحسنوا كما تُحبُّون أن يُحسَن إليكم، وارضَوا من الناس ما ترضَونه لأنفسكم، ولا تقولوا ما لا تُحبُّون أن يُقال لكم، ولا تظلموا كما لا تُحبُّون أن تُظلَموا، وافعلوا الخيرَ مع أهله ومع غير أهله؛ فإن لم يكونوا من أهله فأنتم من أهله.

يا عبد الله!! كم من بليَّة مُقبلة دفعَها معروفٌ لمسلم بذلتَه، أو همٌّ لمهموم فرَّجتَه، أو مُحتاجٌ في ضائقة أعنتَه، ومن قاسَ هجيرَ صنائع المعروف في الدنيا استظلَّ في ظلال النعيم في الجنَّة، وخيرُ الناس أتقاهُم وآمرُهم بالمعروف وأنهاهُم عن المنكر، وأوصلُهم لذي رحمه، ومن يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم خيرٌ ممن لم يُخالط الناس ولم يصبر على أذاهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٤- ٣٦).

ومن حُسن التعامُل وآدابه: اليقين الجازم بأنه لا أحد يخلو من العيوب؛ يقول سعيد بن المسيّب -رحمه الله-: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيوبٌ".

لكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكَر عيوبُه؛ فمن كان فضلُه أكثرَ من نقصه ذهبَ نقصُه لفضله، وكم من الناس تنقُدُهم، فإذا رأيتَ غيرَهم حمدتَّهم.

وقد قال نبيُّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في العلاقات الزوجية: "لا يفرَكْ مؤمنٌ مُؤمنةً، إن كرهَ منها خُلُقًا رضيَ منها آخر". رواه مسلم.

والناسُ -رحمك الله- يكرهون من لا ينسَى زلاَّتهم، ويُذكِّرهم بأخطائهم، ومُواجهة الناس بأخطائهم هي أقصرُ طريق للعداوة، ومن ستر مسلمًا ستَرَه الله، والمُتَّقون هم الكاظمون الغيظَ والعافون عن الناس.

وقدِّر غيرَك تفُز بتقديره، وابتسم للناس يبتسموا لك، وتبسُّمُك في وجه أخيك صدقةٌ، إن استثارة العواطف النبيلة من نفوس الناس طريقٌ كريمٌ حكيم لكسبهم والتأثير فيهم.

وفي التعامُل -حفظك الله- اجتنب الحديثَ عن نفسك ونسبَ الفضائل لها، وإلقاء التبعَة على الآخرين، فما تتفاخَرُ به قد يراه الناسُ نقصًا وشذرًا، وأحسن الإنصات، والمُقاطَعة في الحديث تجرحُ المشاعرَ، ومن لم يشكُر الناسَ لم يشكُر الله، ولا تظُنَّنَّ بكلمة خرجَت من أحد سُوءًا وأنت تجدُ لها في الخير محملاً. فإن الناسَ -وأنت منهم- عواطفُ أولاً، ثم عقولٌ ثانيًا.

فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فمن حسُنَ خُلُقُه بلغَ درجةَ الصائم القائم، والمؤمنُ يألَفُ ويُؤلَف، ولا خيرَ فيمن لا يألَفُ ولا يُؤلَف، وخيرُ الناس أنفعُهم للناس.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد الحبيب المصطفى، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.



الشباب وأزمة الفكر والسلوك

إعداد/ الشيخ د. عبدالرحمن السديس
إمام المسجد الحرام

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، نحمدُه - سبحانه - حمدًا يتردَّدُ أنفاسَ الصدور والمكنون، ويتكرَّرُ عددَ لحظات العيون.

فالحمدُ لله حمدًا على الآلاءِ حمدًا كثيرًا جلَّ عن إحصاءِ

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريمُ الوهاب، منَّ علينا بدينٍ حفيٍّ بالنشءِ والشباب، وأشهدُ أن نبيَّنا وسيِّدنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه المُصطفى الأوَّاب، خيرُ قُدوةٍ للمُتقين الفرائد، وأمثَلُ أُسوةٍ للسالكين وقائد، صلواتُ ربي عليه، وعلى آله وصحبِه الخِيَرة الأماجد، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ ما تعاقَبَ الجديدان وأضاءَت الفراقد، وسلِّم يا ذا العُلا تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن أهل الحِجَى يأتون ما هو أحرَى بهم وأحجَى، ألا وإن الأجدَى أن يلُوذَ المرءُ بالرُّكن الأقوَى، ولا رُكنَ أقوَى. من رُكنِ التقوَى؛ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ١٠٠).

لن يُجدِكَ الحسَبُ العالِ
بغيرِ التُّقَى شيئًا فحاذِر واتَّقِ اللهَ
وابغِ الكرامةَ في نَيل الفخارِ
فأكرمُ الناسِ عند الله أتقاها

الشباب هم كنز الأمة الثمين:

أيها المسلمون!!

من استكنَهَ حقَبَ التاريخ تحقيقًا، وسبَرَ أغوارَه فهمًا وتدقيقًا، وشدَّ إليه الركائبَ والرِّحال، ونافسَ فيه العلماءَ الأقيال، ألفَى بين جماهيرِ الأقوال ومضاربِ الأمثال حقيقةً شاخصة، باسمةً غيرَ عابسَة، وهي: أن الشبابَ في الأمة كنزُها الثمين، ورُكنُ حضارتها الرَّكين.

فحضاراتُ الأمم لا تُشادُ إلا بسواعد أبنائها، ولا تستكِرُّ إلا بعزَمَات شبابها؛ فالشبابُ الريحانةُ الشريَّة، والسواعدُ الفتيَّة، والأملُ المُشرق، والجبينُ الوضَّاءُ.

أهدِي الشبابَ تحيَّة الإكبار
هم كنزُنا الغالي وسرُّ فخارِ

هل كان أصحابُ النبيِّ محمد
إلا شبابًا شامخَ الأفكار
الشباب مرحلةُ الفُتُوَّة والعُنفُوان:
معاشر المسلمين !!

مرحلةُ الشباب مرحلةُ الفُتُوَّة والعُنفُوان، والقوة والحماسَة، فإذا لم تُرشَّد هذه الحماسة انقلبَت إلى غوغائيَّة وفوضويَّة، وجرَّت على صاحبها الآهات والحسَرات، وعلى الأمة الفتنَ المُوبقات، والبلايا المُهلكات.

لذا أولَى الإسلامُ الشبابَ كاملَ العناية، والاهتمام والرعاية؛ لأنهم قلبُ الأمة النابض، وشريانُها المُتدفِّقُ عطاءً ونماءً.

فهذا عليٌّ - رضي الله عنه - يحملُ الرايةَ يوم بدرٍ وهو ابن عشرين سنة.

وأسامةُ يقودُ الجيشَ وهو ابن ثمانية عشر عامًا.

والبحرُ الحَبرُ عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - مات النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - وعمرُه ثلاث عشرة سنة.

وزيدُ بن ثابت كان عُمرُه إحدى عشرة سنة حين قدِمَ النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة، فكان كاتبًا للوحي.

ومُصعبُ بن عُمير الشابُّ الداعيةُ الذي ترك الدنيا كلَّها لله ورسوله، والحسنُ والحُسينُ سيدا شباب أهل الجنة - رضي الله عن جميع الصحب الأخيار وأرضاهم -.

كذلك أخرجَ الإسلامُ قومي
شبابًا مُخلصًا حُرًّا أمينًا
وقد دانُوا بأعظمهم يقينًا
وعلمًا لا بأجرأهم عيونًا

وجوب الاهتمام بالشباب ورعايتهم:
أمة الإسلام !!

ولئن كانت قضيةُ الاهتمام بالشباب ورعايتهم، وتحصينهم وحمايتهم مهمةً في كل زمانٍ ومكانٍ، فإنها تزدادُ أهميةً وتأكيدًا في هذه الأعصار المُتأخرة؛ حيث غلَبَ الانفتاحُ والتساهُل، وتتابَعَ الغزوُ الفكريُّ والأخلاقيُّ، وتعدَّدت قنواتُه، وتنوَّعَت وسائلُه وآليَّاته. وكم أسهمَ الإعلامُ المفتوحُ لاسيَّما الفضائيُّ منه في إذكاء نار الخلَل الفكريِّ، وتفنَّن في جذب الأنظار، والتأثير على الرأي العام، مما جعلَ أمنَ الأمة الفكريَّ عُرضةً للاهتزاز ومهبَّ الأخطار.

لقد أوحَت هذه الفضائيَّات وشبكاتُ التواصُل والمعلومات للناظرين وكأن هذه الدنيا أصبحَت هدفًا للفوضَى الفكريَّة والأخلاقيَّة، ومسرحًا للضياع في مباءَات الإغراءات والرذيلة والإباحيَّة، مما لا يحكمُه دينٌ ولا قيَم، ولا يضبطُه خُلُقٌ ولا مُثُل.

وقنواتٌ أخرى لا تفتأُ في إذكاء نار الفتنة بين الرعيَّة والرُّعاة، بدعوَى الإصلاح زعمُوا، وبين الشباب والعلماء، بدعوَى النُّصح والبصيرة، وهم أحوَجُ ما يكونُون إليها.

وأخرى بدعوَى الإثارة والبلبَلَة، تدعُو الموتُورين إلى أن تكون منبرًا لهم؛ حيث لا منبَرَ لهم، في افتعال لفتن إرهابيَّة وطائفيَّة، وهكذا مُنتَدَيات الفضائح والمثالب، والطُّعون والمعائب؛ حيث يُشكِّكون في الثوابت والمُحكَمات، ويطعَنون في الأصول والمُسلَّمات، ويتأوَّلون الآيات البيِّنات، ويتَّبعون المُتشابهات.

فظهر بسُوء فعالهم موجاتٌ من التشكيك وفكر الإلحاد، وعاثُوا في الأرض بالإفساد، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١١، ١٢).

مفاسد الخلل الفكري في حياة الشباب:
معاشر المؤمنين !!

الخلَلُ في الأمن الفكريِّ طريقٌ إلى الخلَل في الجانب السلوكيِّ والاجتماعيِّ، وما سلكَت فئامٌ في الأمة مسالك العُنف والإرهاب، والقتل والتدمير والتفجير والإرعاب، إلا لما تشبَّعَت أفكارُها، وغُسلَت أدمغتُها بما يُسوِّغُ لها تنفيذَ قناعاتها، وتحسينَ تصرُّفاتها.

وأنَّى لمُسلم عاقل أن ينتهجَ تكفيرَ الخلق، فيُكفِّرُ المُعيَّن بالشُّبهة والظنِّ؟! ولا يلجُ هذا البابَ إلا صاحبُ خلَلٍ فكريٍّ وسلوكيٍّ واجتماعيٍّ.

والفكرُ التكفيريُّ يسري بقوة في صفوف فئة من شباب هذا الزمان، وهو مُحيطٌ ملغُوم، ومركبٌ مثلُوم، ومُستنقعٌ محمُوم، وخطرٌ محتُوم، زلَّت فيه أقدام، وضلَّت فيه أفهام.

وما نراهُ في زماننا من بعض الخوارج ممن شوَّهوا صورةَ الإسلام بنقائه وصفائه



وإنسانيَّته، وانحرفُوا بأفعالهم عن سماحته ووسطيَّته إلا صورا ممسُوخة ممن ولَجَ البابَ فأوغَلَ الولوج، وأُرخصَت لديها الأعمار، فقامَت بسفك الدماء، وقتل الأبرياء، وجلب الدمار، والحاق العار والشَّنار. فالله المُستعان، وما أشبَهَ الليلةَ بالبارحة!

أمة الإيمان !!

إن وجودَ أجيال من الشباب دون حَصانة حقيقيَّة فاعلة، جريمةٌ في حقِّهم وحقِّ المجتمع، وجنايةٌ على الأمة بأسْرها، لذلك كان حقًّا على أهل الإسلام أن يقوموا بمسؤوليَّاتهم في تحقيق هذا الأمر بكل ما أوتوا من إمكانات، وأن يغرسُوا في نفوس شباب الأمة التوحيدَ الخالص لله، والعقيدةَ الصحيحة، والاعتصامَ بالكتاب والسنة، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠١).

الحث على تحصين الشباب وحراستهم:

كما أن على الآباء والمُربِّين أن يُسهمُوا في تحصين الشباب، وترغيبه في طلب العلم الشرعيِّ من أهله الموثوقين، ويحُثُّوهم على الالتفاف حول علماء الأمة الراسخين، ويُحذِّروهم من الفتاوى الشاذة المحرِّضة على العُنف وسفك الدماء المعصُومة.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «فأئمة المُسلمين والذين اتَّبعوهم وسائل وطرقٌ وأدلة بين الناس وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم -، يُبلِّغونهم ما قاله، ويُفهِّمونهم مُراده، بحسب اجتهادهم واستطاعتهم».

كما يتحتَّمُ - يا رعاكم الله - توعيةُ الشباب بالتحديات التي تُواجههم في عصر رفعِ الصهاينة المُعتدون عقيرتَهم في انتهاك حُرمة المسجد الأقصى واستفزاز مشاعر المُسلمين.

وفي زمن طغت فيه فتنُ الشهوات من الفضائيات والإلكترونيات، وشبكات المعلومات ومواقع التواصُلات، والتي جرَّت الفتنَ إلى الأسَر والبيوت والمُجتمعات، فقوَّضت أركانَها، وصدَّعت شامخ بُنيانها.

وفتن الشُّبُهات التي غزَت عقولَ كثير من أبناء هذه الأمة، لتتركهم وقد صارُوا مُسوخًا لأعداء الدين، وأبواقًا تنشرُ دعوات المُرجفين، مع انتشار التنظيمات الإرهابية الخطيرة التي تُزعزعُ الأمن، وتروِّعُ الآمنين، وتبعثُ الخلل والفوضى.

لذا كان لزامًا على الشباب أن ينتقلُوا من أزمَات الوعي إلى وعي الأزمَات، حتى يقوموا بالمسؤولية المنُوطة بهم، ويحذَروا التحديات المُحيطة بهم.

فيا شباب الأمة وعمادَ حياتها، وقلوبها النابضة، وعقودَها المُتلألئة.. يا بُناةَ الحضارة، وصُنَّاع الأمجاد، وثمرات الفؤاد، وفلَذات الأكباد.. تمسَّكوا بقيَم الدين، وخُلقه الرَّصين، ولا تغُرَّنكم الثقافاتُ المُستوردَة الهجينة، والأفكار الدَّخيلة، والمناهجُ الهَزيلة.

ولا تنشغلُوا بالأسماء عن المُسمَّيات، وتحرَّوا تحريرَ المُصطلحات على منهج السلَف الأثبات؛ كالولاء والبراء، والجهاد والردَّة والتكفير والحريات. فالإسلامُ الحقُّ هو صانعُ الحضارة، وموئلُ القيَم والفضائل، والمهدُ البديعُ لشَمِّ المُثُل والشمائل، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وليس بخافٍ عليكم ما يتناوَشُ الأمةَ من محَنٍ وخُطوب ورزايا، وفتنٍ وكُروب وبلايا، أزَّتها نحو المآسي أزًّا.

وإن أمتكم الإسلامية لفي لهَف إلى وثبتكم الرشيدة لإقالتها من هذه الوهاد، فلا تغتروا بالشِّعارات الزائفة البرَّاقة، والمناهج الضالَّة المرَّاقة، وليسَعكم ما وسِعَ سلفَكم الصالحين، وعلماءَكم الربَّانيين.

أمة الإسلام !!

يُساقُ ذلك كلُّه بعد أن ضربَت الفتنةُ بكَلكَلها الظالم، فأسفرَت عن الفواجع والعظائم، والدواهي والجرائم، التي قطَّعَت الأكباد، وبخعَت النفوس، وأدرَّت ماءَ الشُّجون. فنُحورُنا منها بدمُوعنا تتخضَّبُ.

ومن الأسَى العميق أن كان وقودُها شبابًا أغرارًا، مما أهاجَ الغيورَ إلى القول بوجوب تحصين المُجتمع بالأمن الفكريِّ، وفي المقام الأعلى فئةُ الشباب الغالية؛ لأنهم الصايصي الشاهقة للأمة، وحُصونُها المنيعة، ولأن مرحلة



الشباب كما أنها من أبهى وأزهى مراحل العُمر، فهي من أخطرها وأمضاها. والله المُوفقُ والهادي إلى سواء السبيل.

واجب المجتمع والعلماء والآباء نحو الشباب:

إخوة الإيمان !!

إن من أولى ما يجبُ الاهتمامُ به وإيلاؤه أوفرَ العناية في هذا المُنعطف التأريخ المهم؛ تحصينَ مدارك الشباب وثقافتهم بأحكام الحُدود الشرعيَّة؛ كتحريم قتل النفس المعصُومة، وحكم الاعتداء على المُعاهَدين وأهل الذِّمَّة، وخُطورة أمر التكفير والغُلُوّ والتطرُّف، وإطلاق الأحكام جُزافًا، وترويع الآمنين وانتهاك حُرماتهم، وسلب أموالهم.

والتحذير من آفة العصر المُخدِّرات وتعاطيها وترويجها، حمايةً لهم ولمُجتمعاتهم وأوطانهم وأمَّتهم من أنصاف المتعلِّمين، وسِهام المُغرضين، وشِباك الخُصوم الحاقدين.

والعبءُ في ذلك يقعُ على عاتق العلماء والدعاة، ورجال التربية والفكر والإعلام، وحمَلَة الأقلام، انتشالًا للجيل من حومَة الضياع ومسالك الضلال، وأخذًا بُحجزهم عن الهُوِيِّ في سراديب الأفكار النَّشاذ، وإحباطًا لخطط الخُصوم، الذين يتَّخذون الأحداثَ غرضًا وهدفًا لتحقيق مآربهم المشبُوهة.

وبالتوجيه الرَّقيق، والترشيد اللطيف الرَّفيق، وتلاحُم أفراد الأُسرة والمُجتمع مع أبنائهم وتراحُمهم، وفتح قنوات الحوار الهادئ الهادف، وملئ فراغهم بالبرامج النافعة المُفيدة، وتهيئة الفُرص الوظيفية لهم حمايةً لهم من الفراغ والبَطالة، وتعاوُن الجهات المسئولة مع ذوي اليسار ورجال الأعمال في ذلك، والتكامُل بينها في تعزيز الوحدة الدينية واللُّحمة الوطنية.

يتحقَّقُ للمُجتمع ما يصبُو إليه من تحصين الشباب وحراستهم من المُؤثِّرات العقدية، واللَّوثات الفكريَّة، والتجاوُزات الأخلاقية والسلوكية، حفاظًا على دينهم، وصيانةً لعقيدتهم وسلامة أخلاقهم، والعمل على وضع خُطط حازمة لترشيد التعامُل مع وسائل التواصُل، والاستثمار الإيجابيِّ الأمثل لها.

ومهما يكُ من شيءٍ فإن شبابَ الأمة في خير والي خير بحمد الله، ولن يُؤثِّر جمعٌ أصيبَ باليأس والإحباط، ووقعَ في الغُلوِّ والجفاء، على المجمُوع المُعتدل المؤثِّر للإعمار والبناء والنَّماء.

حيُّوا الشبابَ الحُرَّ يُحييه الأمل
قد لوَّن التأريخَ فخرًا بالعمل
هم يصنَعون غدًا بروح فريقه
هم يبعَثون حياةَ فخرٍ مُكتمَل

حمَى الله شبابَنا وشبابَ المُسلمين من كل سُوءٍ ومكروه، وحفظَ علينا أمنَنا وأمانَنا، وعقيدتَنا وقيادَتنا، إن ربي قريبٌ مُجيب.

هذا وصلُّوا وسلِّموا - رحمكم الله - على خير الورَى، كما أمرَكم بذلك ربُّكم - جل وعلا -، فقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

وقال - صلى الله عليه وسلم - فيما أخرجَه مُسلمٌ في «صحيحه» -: «من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشرًا».

فصلاةُ الله مع تسليمه
ما جرَى فلكٌ له في البحر سَبْحُ
أبدًا تُهدى إلى خير الورَى
من له في كُتب الرحمن مدحُ

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وأذلَّ الشركَ والمُشركين، ودمِّر أعداءَ الدين، واجعل هذا البلد آمنًا مُطمئنًّا، وسائر بلاد المسلمين.

اللهم وفِّق جميع ولاة أمور المسلمين لتحكيم شرعك، واتباع سُنَّة نبيِّك - صلى الله عليه وسلم -، اللهم اجعَلهم رحمةً على عبادك المُؤمنين.

اللهم ادفَع عنَّا الغلا والوبَا، والرِّبا والزِّنا، والزلازل والمِحَن، وسُوءَ الفتن ما ظهر منها وما بطَن، عن بلدنا هذا وعن سائر بلاد المُسلمين يا رب العالمين.

اللهم أصلِح شبابَ المُسلمين، اللهم أصلِح شبابَ المُسلمين، اللهم ارزُقهم الوسطيَّة والاعتدال إنك أنت الكبير المُتعال.

اللهم انصُر إخواننا المُجاهدين في سبيلك في كل مكان، اللهم انصُرهم في فلسطين على اليهود الغاصبين المُحتلِّين، اللهم عليك بالصهاينة المُعتدين الذين انتهَكوا حُرمةَ مُقدَّسات المُسلمين، واستفزُّوا مشاعر المُؤمنين، اللهم عليك بهم فإنهم لا يُعجزونك، اللهم شتِّت شملَهم، وفرِّق جمعَهم، واجعَلهم عبرةً للمُعتبرين.



الإسلام في زمن الفتن

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد؛ فيا أيها الناس!!

إن شريعة الإسلام شريعة غراء، سمتُها الجلى أن يعبد الله وحده في الأرض ولا يشرك به، مُتبعة بقواعد فرضها رب البرية، هي خيرٌ كلها، ونورٌ كلها، وسلامٌ كلها، وفرحٌ كلها، « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » (آل عمران:١٩)، « وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » (آل عمران:٨٥).

إعداد/ د. سعود الشريم

محاسن الدين الإسلامي:

الدين الإسلامي - عباد الله - هو شريعة الله العادلة للعالم أجمع، وما إرساله لخاتم رسله إلا للناس كافةً بشيراً ونذيراً، من أجل أن يدخل الناس في دين الله وصبغته، « صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ » (البقرة:١٣٨).

الدين الإسلامي - عباد الله - هو شريعة مبناها على الاتباع لا الابتداع، وعلى الاقتداء والتأسي لا على النكوص والتنسُّي، ودين المرء لن يكون ديناً حقاً إلا إذا كان الخضوع فيه للحق سبحانه دون سواه.

وان خير هدي ينتهجه الناهجون هو هدي رسوله صلى الله عليه وسلم، وهيهات هيهات أن يأتي الناس في أعقاب الزمن بأهدى منهما حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا » (النساء:٨٢)، « قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » (القصص:٤٩).

إنه في أعقاب الزمن - عباد الله -، ووسط عصور الانتقال تتعدد مسالك الحياة، وتتزاحم تداعياتها، هبوطاً وصعوداً، بمدى قرب الناس من دينهم أو بعدهم عنه، ومكان رسالة خاتم النبيين بين ذلك كله أنها دعوة كمال وعدل، فكلما تردد الإنسان عبر هذه العصور التي تُسمى عصور الانفتاح بين طريقين اثنين، أو حارت نفسه في اختيار أحد مسلكين، فإن السنة تدعوه - ولا شك - إلى خيرهما، وإذا تردد العقل في خضم هذه النوازل المدلهمة بين الحق والباطل، والزَّين والشَّين، دعته السنة إلى الحق والزَّين ؛ لأن الحق أبلج، والباطل لجلج.

وبهذا يُعلم أن دعوة السنة وسط هذه الزوابع إنما تكون لأصعب الطريقين، وأشق الأمرين بالنسبة لأهواء البشر، المحاطة بعالم أصبح عبر وسائله المختلفة كالكتلة الواحدة، ولا غرو في ذلك فإن النار حُفَّت بالشهوات، والجنة حُفَّت بالمكاره.

ويبدو ذلك بوضوح في أن الانحدار مع الهوى سهل يسير، ولكن الصعود إلى العلو من الصعوبة والمشقة بمكان، ألا ترون - حماكم الله - أن الماء ينزل وحده حتى يستقرَّ في عمق الوادي، ولكنه لا يصعد إلى العلو إلا بالجهد والمضخات.

أيها المسلمون!! إن البعد عن زمن النبوة مظنة - ولا شك - (للبعد) عن تعاليمها وآدابها، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٢)، ويقول أيضاً: «إنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً» (أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وصححه الألباني)، ويقول أيضاً: «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم» (أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦٨).

وجوب التمسك بالثوابت الشرعية:

ولأجل هذا - عباد الله - فإن الثوابت الشرعية من توحيد الله، والإيمان به، والدعوة إليه، والحب والبغض فيه، قد يذوي

أكثرها أو بعضها مع مرور الزمن، وغلبة الأهواء، وشيوع الهزل، حتى إنها لتحتاج إلى من يردّ لها الحياة بعدما اعتراها ما اعتراها من ذبول، إذ لدينا كتاب الله لا تخلق جلدته، ولا تفنى ثروته، ولدينا نور نبوة مُلهمَ السيرة، نقيَّ السنن.

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تعمى النفس المؤمنة مع هذا الإشعاع؟! بل كيف يستوحش المرء في هذا العالم المَوّار، ومصدر الأمن والطمأنينة فوق ظهره محمول؟! شريطة أن لا يغفل عن قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢).

إنه رغم الدمار البالغ الذي تصاب به المجتمعات حيناً بعد حين، والوكزات التي تتلقاها أمة الإسلام فجأةً، ثم هي تصرع أمامها إثر تقويض الرابطة الإسلامية الجامعة الحقة، وعلى الرغم من المكانة الملحوظة التي وفّرها الإسلام للمجتمعات الإسلامية بأسرها، من خلال تعاليمه المحكمة، وثوابته التي لا تتغير، بل يخضع لها كل عصر، وليست تخضع هي لكل عصر، إنه رغم ذلك كله إلا أن ثمة خللاً ما، يؤكد أن تلك المجتمعات أحوج ما تكون إلى أن تلتمس لطف الله وعفوه، وترتقب رحمته وإحسانه، وتلزم اللجوء إليه، عاملةً بما دعا به المصطفى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤). فلا إله إلا الله، أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (آل عمران:٨٣).

مصدر عزتنا وسر قوتنا:

إنه ينبغي علينا - معاشر المسلمين - أن ندعو إلى دين الله جل وعلا، الذي هو مصدر عزتنا، وسر قوتنا، من خلال التحدث عنه على حقيقته وصورته التي ارتضاها الله جل شأنه، دون استحياء ولا تخوف ولا استجداء، مُتبعين ذلك على أنه دين العبودية لله وحده في كل شيء، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم، وحذار حذار من أن يخطئ أحد حال التحدث عنه فيعدل عن الوجه الصحيح.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام برمتها أشبه ما تكون بالقضية العادلة، غير أنها - وللأسف الشديد - قد تقع بين أيدي محامين عنها يفشلون في عرض حقيقة الدفوع، وإيضاح البينات، وما ذلك إلا من خلال التنازل عن ثوابتها وأسسها، بحثاً لعرض أو خوفاً من عرض. ولا غرو في ذلك - عباد الله!! فلربما نسمع كثيراً لمتحدثين عن الإسلام يحامون عنه، ويودّ المرء منا لو أنهم سكتوا فلم ينبسوا بحرف واحد - إن أمثال هؤلاء - ولا ريب - لم يفهموا الإسلام بكماله كما تنزل من عند الله، والنزر اليسير ممن يتحدث عنه، ويدّعي فهمه قد لا يحسنون الإبانة عنه من خلال الخلط والمزج بين ما يصحّ وما لا يصحّ. ومن هنا يعظم الخطر؛ لأننا في أزمنة خداعة، تحتاج إلى المهرة من ذوي الأفهام، عبر عصور يتزين فيها القبيح من المبادئ، فتعرض نفسها على الناس في تزاويق خادعة كما تتوارى الشمطاء وراء حجب من الأصباغ والحلي.

إن الإسلام دواء ، لا يحتمل أن يجتهد فيه كل محتس له، كما أن الدواء لا يكون دواءً لأن مادته تحوي أسباب الشفاء فحسب، كلا، بل لا بد من تناوله بطريقته التي يشير بها الطبيب على الوجه الذي وُضع له الدواء، ومن تكلّف طريقة من عنده لم يقل بها الطبيب، فلا يلومن (أحداً) حينئذ إذا استفحل الداء، ولات ساعة استشفاء، وهيهات هيهات أن تصلح المجتمعات، وقد وهت فيها حبال مقوماته الشرعية الحقة، وأسس الحياة المحكومة بصبغة الله وشرعته دون اكتراث بما يرضي الله وما يسخطه، فكيف إذا كانت الحال إذاً في التشكيك في تلك المقومات، أو السعي الدءوب في إماتتها، أو بث ما من شأنه اتهام المسلمين، أو بذر الفرقة بينهم، أو التطلع إلى إرساء قواعد التراجع عن الدين، أو على أقل تقدير إشعار الغير بأن من يتجرع الإسلام بآدابه وكماله فإنه لا يكاد يسغيها إلا متهوّعاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

من خصائص رسالة المصطفى:

أيها المسلمون!! من خصائص رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه ما من خير إلا ودلّ الأمة عليه، وما من شر إلا وحذّر الأمة منه، وقد كان مما حذر الأمة منه الفتن التي تكون في آخر الزمان وتكاثرها، والغواسق

التي تحيط بالأمة من كل جانب، فتموج بهم كموج البحر، حتى إنها لتدع الحليم حيران، بل ولربما تستمرئها النفوس الضعيفة، وتستشرف لها رويداً رويدا إلى أن تلغ في حمئها وهي لا تشعر، فإذا ألفتها لم تكد تتحول عنها إلا في صعوبة بالغة بعد أن تفقد خصائصها، ومن ثم تموع وتذوب، ثُمَّتَ ما لجرح بميت إيلام، وإذا لم يغبِّر حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار، حتى تقع النفس في أتون الفتن فتحترق بلا لهب. ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه» الحديث(أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٨١)، يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: "معنى قوله: «من تشرف لها» أي تطلع لها بأن يتصدى ويتعرض لها، ولا يعرض عنها" (فتح الباري (٣١/١٣)».

وفي الصحيحين أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج» قالوا: يا رسول الله، وما الهرج؟ قال: «القتل، القتل» (أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦١).

ما النجاة في خضم هذه الأحداث؟

عباد الله!! إننا في زمن تداعت فيه الفتن كداهية دهياء، فقلّت فيه الأمانة، ونزعت فيه الخشية من الله، وتنافس الناس فيه على الدنيا، وحظوظ النفس، وكثر فيه القتل، وبلغ أوج صوره، على اختلاف تنوعه، حتى لربما لا يدري القاتل فيم قَتَل، ولا المقتول فيم قُتل، كما قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم (أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٠٨)، ولكن لمستفهم أن يقول: ما النجاة في خضم هذه الأحداث، وما موقف المؤمن من متغيرات زمانه، وفجاءة النقمة فيه؟ فالجواب على هذا بيّن بحمد الله، فإن لكل داء دواء، علمه من علمه وجهله من جهله، والدواء في مثل هذا كثير التنوع، فمن ذلك: أولاً: حمد الله على العافية مما ابتلى به كثيراً من الناس من الفتن والرزايا، والحروب المدمرة، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة، والإيمان بأن ما يريده الله كائن لا محالة، وأن ما أصاب الناس لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (الرعد:٤١).

عند مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» (أخرجه مسلم في القدر (٢٦٥٣)، وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (الأنعام:٥٩).

فلا إله إلا الله ما أوسع علم الله، انظروا إلى الأحداث والمستجدات. عباد الله!! كيف تحل بنا فجأة على حين غرة دون أن تقع في ظن أحدنا، أو يدور بخلده أن أحداثا ما ستكون يوما ما، مما يؤكد الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله، واللجوء إليه، وخشيته وحده، بالتوبة والإنابة، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة، وبذل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا ملجأ من الله إلا إليه.

ألا إن من خاف البشر فر منهم، غير أن من خاف الله فإنه لا يفر إلا إليه، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (الذاريات:٥٠).

ولقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يردّ القدر إلا الدعاء» (أخرجه أحمد (٦٨/٣٧) (٢٢٣٨٦)، وابن ماجه في المقدمة (٩٠) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٤).

ألا وإن ما يحدث في هذه الأزمنة من كوارث تحل بنا بغتة ليذكرنا باليوم الذي تقوم فيه الساعة، والناس في غفلة معرضون، مع ما يتقدمها من أمارات وأشراط تدلّ عليها، فقد جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يُليط حوضه فلا يسقي منه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» (أخرجه البخاري في الفتن (٧١٢١)، كل ذلك عباد الله دليل على فجاءة النقمة، وأن نفسا لا تدري ماذا تكسب غدا، ولا تدري بأي أرض تموت.

وجوب الحذر من مشاعر القنوط واليأس:

ثم اعلموا - رحمكم الله - أنه ينبغي للمرء المسلم في خضم الأحداث الرهيبة والمتغيرات المتنوعة ألا يصاب بشيء من الاسترسال مع مشاعر القنوط واليأس، وألا

يحبس أنفاسه مع الجانب الذي قد يكلح في وجهه على حين غفلة من جوانب الخير الأخرى في حياته، دون التفات إلى المشوشات من حوله، والتخوفات التي ليس لها ضريب، فليس بلازم عقلاً أن تكون تلك المخاوف صادقة كلها، فلربما كانت كاذبة إذ قد تصح الأجسام بالعلل، وقد يكون مع المحنة منحة، ومع الكرب فرج، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح:٥، ٦). ولن يغلب عسر يُسْرَيْن، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧).

يا أيها الناس!! إن مما لا شك فيه أن كثرة الفتن تزلزل كيان الناس، وأن فتيل الحروب إذا اشتعل عسر انطفاؤه، وأن التهويش والتشويش، والقيل والقال، والظن والخرص، لما يزيد الأمر سوءاً وتعقيداً، والنار اشتعالا واضطراماً، ولا جرم فإن النار قد تذكى بالعيدان، كما أن في مبدأ الحرب كلام اللسان.

ولقد كان السلف الصالح أحرص الناس على اتقاء الفتن، والنأي بأنفسهم عن أن يقعوا في شَرَكها، بل يستعيذون بالله منها، وكلما لاحت لهم في الأفق فتنة تمثلوا بما رواه البخاري في صحيحه عن خلف بن حوشب أن السلف كانوا يقولون عند الفتن:

الحرب أوّل ما تكون فتية
تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشبَّ ضرامها
ولّت عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء يُكره لونها وتغيرت
مكروهة للشم والتقبيل

من أدب الإسلام في الفتن:

ثم اعلموا - أيها المسلمون - أن من أدب الإسلام في الفتن كفّ اللسان وحبسه وعدم الزج به فيما لا يعني، وزمّه عن الفحش والتفحش، أو الوقوع في الظن والخرص، فإن إطلاق اللسان، وسيلان الأقلام، خائضةً في المدلهمات، ولاتّة في المتشابهات، والقضايا المزعجات دون زمام ولا خطام لمن شأنه أن يضعف إيمان المرء المسلم، ويوقعه مواقع الزلل، غير آبه بوصية النبي صلى الله عليه وسلم لعقبة بن عامر حينما سأله: ما النجاة؟ قال: «أملك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» (رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٦) وهو في السلسلة الصحيحة (٨٩٠، ٨٩١).

إن اللهث وراء كل حدث وخبر باللسان تارة، وبالأقلام أضعافها، في البيت وفي السوق، والمجالس والمنتديات، وعبر شبكات تقنية يكثر فيها اللغط دون تروٍّ أو توثق أو محصّلة من العلم والفهم لمَا يقلل العافية والسلامة من الخطأ، فضلاً عن أن يقدِّم حلا عاجلا سوى الخلط والجهل والتضليل، ولله در أبي حاتم البستي حين قال: "إن العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في السكوت" (كشف الخفاء (٢/٨٤)، وهو في ضعيف الجامع (٣٨٣٨)، لأن من الناس من لا يكرم إلا بلسانه، ولا يهان إلا به، فالواجب على العاقل أن لا يكون ممن يهان به.

ثم اعلموا - عباد الله - أن الحوارات الشفهية، والمطارحات الورقية، لا ينبغي أن تكون لكل راكب، ولا علكا يلوكه الكل، وأمور الناس بعامة لا ينبغي أن يتصدى لها أي أحد كيفما اتفق، دون تمييز بين الغث والسمين، وبين ما يعقل وما لا يعقل، وإنه لمن المستكره أن يكون مقدار لسان الإنسان أو قلمه فاضلاً على مقدار علمه، ومقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله، فلقد روى البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه قال: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!)(أخرجه البخاري في العلم (١٢٧)، فمن هرف بما لا يعرف فهو ممن قال الله فيهم: قتل الخراصون (الذاريات:١٠)، قال قتادة - رحمه الله -: "هم أهل الغرة والظنون"(أخرجه ابن جرير عنه في تفسيره (١٣/١٩٢)».

وروى الإمام أحمد وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن أمام الدجال سنون خداعات، يكذّب فيها الصادق، ويصدّق فيها الكذوب، ويخوَّن فيها الأمين، ويؤتمَن فيها الخائن، ويتكلم الرويبضة»، قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه يتكلم في أمر العامة» (أخرجه أحمد (٢١/٢٤-٢٥) (١٣٢٩٨)، وقال الحافظ في الفتح (١٣/٨٤). "سنده جيد").

فعلى حملة الأقلام وذوي اللسان أن يتقوا الله سبحانه، وألا يستخفوا بأحد، وأن لا يبغوا على أحد من المسلمين، يقول ابن عبد البر - رحمه الله -: "أحق الناس بالإجلال ثلاثة: العلماء والإخوان والسلطان، فمن استخف بالعلماء أفسد مروءته، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، والعاقل لا يستخف بأحد" (جامع بيان العلم (٩٩٦).

والحمد لله رب العالمين.

وقفات في سورة الحجرات

إعداد/ الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس
إمام المسجد الحرام



إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، نزَّل الفُرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، نحمدُه- سبحانه- جعلَ الحمدَ فاتحةَ أسراره، وخاتمةَ تصاريفه وأقداره، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جعلَ القرآنَ تبيانًا لكل شيءٍ وهُدًى ورحمةً وبُشرى للمُسلمين، وأشهدُ أن نبيَّنا وسيِّدنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أيَّده ربُّه بكتابه المُبين الذي ظهرَت مُعجزاتُه، وبهرَت الخلقَ آياتُه، وقهرَت ذوي العناد بيِّناتُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نُصرَت بهم ألويةُ الحق ورايَاتُه.

صلاةً تندَى طيوبًا ومسكًا سُحبُها ديمًا
تُمنَى بها للمُنَى غاياتُها شكرًا
تُضاحِكُ الزهرَ مسرورًا أسرَّتُها
مُعرِّفًا عرفُها الآصالَ والبُكَرا

أما بعد:

فاتقوا الله- عباد الله-؛ فالتقوى خيرُ نبراس، وأعظمُ معيارٍ ومقياس، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

واعلَموا أن خيرَ الحديث كتابُ الله، فهو الهُدى والنور، ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

معاشر المسلمين!!

إن أولَى ما أُعمِلَت فيه القرائح، وعلقَت به الأفكارُ اللواقح: الكشفُ عن حقائق التنزيل، وسَبرُ أغوار التأويل، وتبيُّن أسرار الكتاب الجليل. فيه تقومُ المعالم، وتثبُت الدعائم، وهو العصمةُ الواقيَة، والنعمةُ الباقية، والحُجَّةُ البالغة، والدلالةُ الدامغة. وهو شفاءُ الصدور، والحكَمُ العدلُ عند مُشتبهات الأمور.

فسبحانَ من سلكَه ينابيعَ في القلوب،

وصرَّفه بأبدعِ معنًى وأعذَبِ أسلوب، لا يستقصي معانيَه فهمُ الخلق، ولا يُحيطُ بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطَّلق. فالسعيدُ من صرفَ همَّتَه إليه، ووقفَ فكرَه وعزمَه عليه، والمُوفَّقُ من وفَّقه الله لتدبُّره، واصطفاهُ للتذكير به وتذكُّره، فهو يرتَعُ منه في رياض، وينهَلُ منه في حياض.

أندَى على الأكبادِ من قَطر النَّدى
وألذُّ في الأجفانِ من سِنَة الكرَى
يملأ القلوبَ بِشرًا، ويبعثُ القرائحَ شذًى ونشرًا، يُحيي القلوبَ بأوراده، ولهذا سمَّاه الله روحًا، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى: ٥٢).

أمة القرآن!!

إن فضلَ القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.

يقول الإمام الشاطبيُّ- رحمه الله-: "والقرآنُ الكريمُ هو كليةُ الشريعة، وعُمدةُ الملَّة، وينبُوع الحكمة، وآيةُ الرسالة، ونورُ الأبصار والبصائر، فلا طريقَ إلى الله سواه، ولا نجاةَ بغيره. فمن رامَ الاطلاعَ على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللِّحاق بأهلها، لزمَه ضرورةً أن يتَّخذَه سميرَه وأنيسَه، وأن يجعلَه قعيدَه وجليسَه، على مرِّ الأيام والليالي نظرًا وعملاً".

الله أكبر!!

الله أكبر إن دينَ محمد
وكتابَه أقوَى وأقومُ قيلا
طلعَت به شمسُ الهداية للورَى
وأبالَها وصفُ الكمال أفولا

لا تذكروا الكُتُبَ السوالفَ عنده
طلعَ الصباحُ فأطفؤُوا القنديلا

أمة الإسلام!!

وفي هذا العصر الزاخر بالصراعات المادية والاجتماعية، والظواهر السلوكية والأخلاقية، والمفاهيم المُنتكسة حيالَ الشريعة الربانيَّة، لا بُدَّ من الفَيئَة إلى أخلاق القرآن وآدابه؛ ففيه حقائقُ التربية الفاضلة، وأُسس المدنية الخالدة. ولذلك كانت سُنَّةُ رسولِ الله- صلى الله عليه وسلم- كثرةَ موعظة الناس بالقرآن، بل كان كثيرًا ما يخطُبُ الناسَ به، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: ٤٥)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٥٧).

وإن كتابَ الله أوثقُ شافعٍ
وأغنَى غناءً واهبًا مُتفضِّلاً
وخيرُ جليسٍ لا يُمِلُّ حديثُه
وترداده يزدادُ فيه تجمُّلاً

فما أجملَ أن نعيشَ أفضلَ لحظات في عصر التحديات، في رحاب آيات بيِّنات، نستلهمُ النفحاتِ والعظات، ونجني أطايبَ الثمرات، من سُورة الآداب والأخلاق "سورة الحجرات"، التي تُؤسِّسُ للأدب مع الله تعالى، ومع رسوله- صلى الله عليه وسلم-، بإدراك العبد حدوده، فيلزمُها ولا يتجاوزُها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجرات: ١)، وهذا مقصدٌ من أعظم مقاصد الشريعة الغرَّاء: إخراجُ العبد من داعي الهوَى المُطاع إلى تحقيق العبودية وتمام الاتباع؛ إذ المقصد الشرعيُّ من وضع الشريعة: إخراجُ المُكلَّف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ لله اضطرارًا.

وما الحضارةُ الإسلاميةُ القَعساء التي وطَّدتها شريعتُنا الغرَّاء، وسعدَت بها الدنيا عبر التأريخ، إلا صُوَّةٌ وقَّادةٌ من التزام أوامر الله تعالى وهدي نبيِّه- صلى الله عليه وسلم-.

وإذا كانت المآسي تلفَحُ وجهَ الأمة في كل شِبر وواد، وفي مُختلف الأصقاع والوهاد، فليس أرجَى ولا أنجَى من تلمُّس العقيدة والمقاصد الشرعية، واتِّباع السُّنَّة المُحمديَّة، فهما مناط العزِّ والنصر، وأجلَى لُغات العصر؛ حيث يُوصِّلان للأمة العلوَّ والتمكين، واسترداد سابق عزِّها وتليد مجدها.

أمة الفُرقان!!

وإذا كانت سُورةُ الحُجرات قد بدأت بتأصيل هذا الأساس المكين من العبوديَّة، فإنها توَّجت هذا الأصلَ بأدبٍ رفيع، وخُلُقٍ سام مع نبيِّ الإنسانيَّة- عليه الصَّلاة والسلام-، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢).

وقد أجمعَ أهلُ العلم على أن الأدبَ مع النبي- صلى الله عليه وسلم- حالَ موته كالأدب معه في حياته.

يقول الإمام ابن مُفلح- رحمه الله-: "ولا تُرفعُ الأصواتُ

عند حُجرته- عليه الصلاة والسلام-، كما لا تُرفعُ فوق صوته؛ لأنه في التوقير والحُرمة كحياته".

وقال الإمام مالكٌ- رحمه الله- لمن رفعَ صوتَه في مسجد رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "يا هذا! لا ترفع صوتَك في مسجد رسول الله- صلى الله عليه وسلم-؛ فإن الله- عز وجل- أدَّب قومًا فقال: (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)، ومدحَ قومًا فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ) (الحجرات: ٣)، وذمَّ قومًا فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (الحجرات: ٤)، وإن حُرمته ميتًا كحُرمته حيًّا".

إخوة الإيمان!!

وإن من أعظم الآداب التي جاءَت بها سُورة الحُجرات، والتي هي بحقٍّ منهجٌ لاستقامة الأفراد والمجتمعات: التثبُّت وحُسن الظنِّ بالمُسلمين، في قول الحقِّ- سبحانه-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) (الحجرات: ٦).

وقد قال نبيُّنا- صلى الله عليه وسلم-: «إياكم والظنَّ؛ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث» (متفق عليه).

وإن في غَمرة الأحداث المُتسارعة الدامية، والأوقات المُستعرة الحامية، تُحاولُ بعضُ النفوس الضعيفة شرخَ تلاحُم الأمة، وثَلْم وحدتها، وتُلبِّسُ على النُّزهاء البُرآء زعومًا ودعاوَى، بشائعات باطلة، وأكاذيبَ مُلفَّقة، يفترون على الناس الكذب، ويُقبِّحون كل رائق عذب، وتناسَوا قولَ النبي- صلى الله عليه وسلم-: «المُسلمُ من سلمَ المُسلمون من لسانه ويده» (متفق عليه).

وكلما اتَّسعت رُقعةُ الشائعات الباطلات، والأراجيف الذائعات التي يُروِّجُها ذو قحة وغلالة صفيقة، مُستغلِّين تقانات العصر فيما هو أطمُّ، فكان إثمُه عند الله أعظم.

فعلى المُسلم العضّ أمام هذه الإفرازات النفسية الداكنة، أن يتمثَّل قولَ الحقِّ- جل جلالُه-: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) (الحجرات: ١٠). تحقيقًا للأخوَّة الإسلامية، وسعيًا في دُروب الصُّلح والإصلاح بين المُسلمين، لاسيَّما عند الأزمَات، للبُعد عن الصراعات، ومُجافاة التحديات.

كما يتمثَّلوا قولَه- سبحانه-: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا) (الحجرات: ١٢)، وقولَه- جل وعلا-: (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (النور: ١٦).

عن حمَّاد بن زيد- رحمه الله- قال: "بلغني أن محمدَ بن واسع كان في مجلس فتكلَّم رجلٌ فأكثرَ الكلام، فقال محمد: ما على أحدكم لو سكَت، فتنقَّى وتوقَّى".

وقال الإمام أحمد- رحمه الله-: "ما رأيتُ أحدًا تكلَّم في الناس إلا سقَط".

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "والكلامُ في الناس يجبُ أن يكون بعلم وعدل، لا بجهل وظُلم، والوَقيعةُ في أعراض الناس أشدُّ من سرقة أموالهم".

أمة الإيمان!!

وفي عصر الفضائيات، وشبكات المعلومات، ووسائل التواصُل الاجتماعيّ، يجبُ أن نكون أكثر ثقة، فلا نُعطي آذانًا للمهازيل الأغرار، وخفافيش الظلام الذين ينشرُون الإفكَ والبُهتان، والأقاويل المُفسدة بين المُسلمين، بالتدابُر والهُجران والغيبة والنَّميمة، وقد شبَّه المولَى المُغتابَ والنمَّام بوصف تقشعرُّ منه الأبدان، فقال- سبحانه-: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) (الحجرات: ١٢).

كما يجبُ ألا نُجاريَهم في سُخريتهم من أهل الفضل والإيمان: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ) (الحجرات: ١١).

وفي عصرنا غدَا فئامٌ من الناس- وخصوصًا مع زمجَرة الإعلام الحديث- أصبَحوا لا يسكُنُ لهم قرار، أو هدأةٌ واصطبار إلا بتمزيق الأعراض بصواعق الألفاظ،

وهمَزات الألحاظ، واستهامها كالأغراض، وبِئسَت الغايات والأغراض!

يكتبون الزُّور وبه تجري أقلامُهم، ويكتُمون الحقَّ وبه تأمرُهم أحلامُهم، يلمزون الشرفاءَ الأطهار، ويسخرون من الصالحين الأبرار، في تفتيت لوحدة الأمة الإسلامية، والأُخوَّة الإيمانيَّة، واللُّحمة الوطنية.

فاحفظ لسانك من طعن على أحد
من العباد ومن نقل ومن كذب
وانصف ولا تنتصف منهم وناصحهم
وقُم عليهم بحقِّ الله وانتدب

إخوة الإيمان!!

وقد ختمَ اللَّه- سبحانه- آيةَ التحذير من السخرية بقوله: (وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ) (الحجرات: ١١).

فإذا كان هذا في مُجرد السخرية.. فكيف بسفك الدم الحرام، والعتوّ في الأرض والإجرام، والتطاوُل على بيوت اللَّه، والإضرار بالمساجد ودُور العبادة وانتهاك حُرماتها، وترويع الساجدين الآمنين؟!

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (البقرة: ١١٤).

إنها أضاليلُ أناس تهصرُ مساكَ المُجتمعات، وتصهرُ ملاكَ القيم الرضيَّات، بمسالك نافُوقاء مُعوَجَّة، ورعونات سَحماء فجَّة، يُخالفون صريحَ قول ربِّ العزَّة: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا) (الحجرات: ١٣).

أي: ليعرف بعضُكم بعضًا، لا لتتناكفوا وتتناحروا وتتباغضوا وتتشاحنوا وتتقاتلوا وتتصارعوا.

وهنا يُؤكِّدُ على أنه لا علاقةَ للإسلام بالإرهاب بكل صُوره وأنماطه المُعاصرة؛ إذ الإرهابُ لا دينَ ولا وطنَ ولا جنسيَّةَ له، والإسلامُ دينُ الرِّفق والرحمة واليُسر والحوار، والتعايُش والتسامُح والسلام.

وإن التفجيرات والاعتداءات والهجَمات والأعمال الإرهابية الدموية لا يُقرُّها دينٌ ولا عقلٌ ولا نظرٌ سديد، وهي تتنافى مع كل الشرائع والأعراف والمواثيق، والإسلامُ بريءٌ من هذه التصرُّفات الشائنة التي لا تتماشَى مع أصوله العادلة، وقيمه الإنسانيَّة السامية التي جاءَت رحمةً للعالمين.

والدعوةُ مُوجَّهةٌ لتكثيف الجهود في مُحاربة الإرهاب بكل صُوره وأشكاله، ومُكافحته بحزم وعزم وقُوَّة، فكرًا وتمويلاً ومُمارسة، وتجفيف منابعه، واستئصال شأفته، لإحلال الأمن والسِّلم العالميَّيْن.

وهنا يُحذِّرُ من إلصاق تُهمة الإرهاب بالإسلام وأبنائه المُتَّصفين بالاعتدال والوسطيَّة، ولا عبرةَ بالتصرُّفات الشاذَّة، والمُمارسة الخاطئة.

وأخطرُ من ذلك: الإرهابُ الصهيونيُّ ضدَّ المسجد الأقصَى، وإرهابُ إلقاء براميل التفجير والتدمير من طاغية الشام ضدَّ إخواننا في سُوريا.

فالإسلامُ بتعاليمه إنما يُتمِّمُ نُبلَ الأخلاق والمكارم تتميمًا، ويعضدُ الأخُوَّة والتآلف أغرَّ وسيمًا، ونشرُ التسامُح بين أبناء المُجتمع جاء مُؤكَّدًا فيه لزيمًا، والحبُّ الرباني على صفحات القلوب بين تعاليمه أضحَى مُدبَّجًا رقيمًا.

أمة القُرآن!!

وتُختتمُ السورة بذكر صفات المُؤمنين، ثم النهي عن منِّ المنَّانين، فالمنُّ لله وحده، كما قال النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- للأنصار يوم حُنين: «ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي؟! وكنتم مُتفرِّقين فألَّفكم الله بي؟! وعالةً فأغناكُم الله بي؟!»، كلما قال شيئًا قالوا: "الله ورسولُه أمنُّ" (رواه البخاري ومسلم).

(بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحجرات: ١٧، ١٨).

ألا فاتقوا اللَّه- عباد اللَّه-، وتدبَّروا آيات كتابه، وطبِّقوها في حياتكم واقعًا ملمُوسًا، مُشاهَدًا محسُوسًا؛ تُحقِّقوا خيرَي الدنيا والآخرة.

ثم صلُّوا وسلِّموا على النبي المُصطفى الكريم، ذي القدر الجليل العظيم، كما أمركم المولى الرحيم في التنزيل الحكيم، فقال- جل جلاله-: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦).

منبر الحرمين

العدل.. من مقاصد الشريعة

إعداد/ الشيخ د. خالد بن علي الغامدي
إمام المسجد الحرام



الحمد لله، الحمد لله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنةَ عرشه، ومداد كلماته، حمدًا يليقُ بجلاله وعظمته وكبريائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فاتقوا الله- عباد الله-، وراقبوه في السرِّ والعلانية، وإن استطعتُم أن تلقَوا ربَّكم وأنتم خفيفةٌ ظهورُكم من دماء الناس، خميصةٌ بطونُكم من أموالهم، كافَّةٌ ألسنتُكم عن أعراضهم، مُلازمون لأمر جماعتهم.. فافعَلوا، فوالله الذي لا إله غيره؛ إن ذلك لهو الفوزُ العظيم، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ (النور: ٥٢).

أيها المسلمون!!

عالمُنا اليوم تتجاوزُ فيه صورٌ من الظلم والجور والعُدوان حدودَ الزمان والمكان، وتظهرُ فيه ألوانٌ من البغي وانتقاص الحقوق الإنسانية المشروعة بدوافع عُنصرية، وموروثات طائفية، وخلَل عقديٍّ وفكريٍّ. مما يُؤكِّدُ الحاجةَ الماسَّةَ إلى إصلاح النفوس والعقول، وتهذيبها بصالح الأخلاق ومكارم الصفات التي جاء النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- لإكمالها ورعايتها، والتي تُقوِّمُ السلوك، وتُصلِحُ فسادَ القلوب.

وإن من أعظم تلكم الأخلاق وأشملها لجميع نواحي الحياة: قيمةً إنسانيَّةً إسلاميَّةً كبرى، ومبدأً رفيعًا بديعًا، غدَا مقصدًا من أجلِّ مقاصد الشريعة وكليَّاتها، ألا وهو: «الإنصافُ والعدل».

الإنصافُ والعدلُ الذي ما بعثَ الله الرسل وأنزل الكتب إلا من أجل تحقيقه في الأرض، ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) (الحديد: ٢٥).

وأمر الله تعالى النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- وأمّته بالإنصاف والقسط، في الأقوال والأفعال والحُكم بين الناس، كما قال الله: (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ) (الشورى: ١٥)، وقال: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) (الأنعام: ١٥٢)، وقال: (وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ) (النساء: ٥٨).

وامتثل النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- أمرَ ربِّه وتوجيهه، وطبَّق العدل والإنصاف في كل أحواله وأيامه. وسُنَّته الشريفة وسيرته العطرة خيرُ مثال وشاهد، وتربيته- صلى الله عليه وآله وسلم- لأصحابه على الإنصاف والعدل مع المُوافق والمُخالف لا تُحصى شواهدُه، ولا تُعدُّ نماذجُه.

أمة الإسلام!!

مرَّ عُمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه وأرضاه- بشيخ كبير من أهل الذمَّة وهو يتكفَّف الناسَ ويسألهم، فوقف عليه وقال مقولته الشهيرة: «ما أنصفناك، أن كنا أخذنا منك الجزية في شَبيبَتك، ثم ضيَّعناكَ في شَيبَتك»، ثم أمر له برزق دائم.

عدلٌ وإنصاف لا يقفُ عند حدود وأعراف، يشملُ القريبَ والبعيدَ، والمُسلمَ والكافرَ.

هذا العدلُ والإنصافُ هو الذي جعل شيخَ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- لما سعى في فكاك أسرى المُسلمين عند التَّتر، وعلم أنهم لن يُطلقوا معهم أسرَى أهل الذمَّة، أصرَّ- رحمه الله- على إطلاق الأسرَى كلِّهم وقال- في سُمُوِّ نفس وإنصاف لا نظيرَ له، قال-: «بل جميعُ من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهلُ ذمَّتنا، فإنا نفُكُّهم ولا ندَعُ أسيرًا لا من أهل الملَّة ولا من أهل الذمَّة».

أيها المسلمون!!

إن الإنصافَ حليةُ الشريعة وزينةُ الملَّة، وركيزةُ الإصلاح، وهو خُلُق الأنبياء والنُّبلاء، وواسطةُ عقد السعادة وصلاح الأحوال، وما تحلَّى به أحدٌ إلا دلَّ ذلك على سلامة صدره، وطهارة قلبه، وجودة عقله.

وإذا ضيَّعت الأمةُ الإنصاف، فلا تسَل عن فُشوِّ الأنانية والأثَرة والإجحاف، وبخس الناس أشياءَهم، فتفتُرُ هممُهم عن تحقيق الأمانة والجودة في الأعمال والمُنجَزات، ويذوقُ المُجتهدُ والناجحُ والمُخلصُ مرارةَ الجحود والنُّكران، وإخفاء المحاسن وإبراز المساوئ. مما يُضعفُ في المُجتمع روحَ الجدَة والابتكار، والعمل المُثمر البنَّاء.

إن الإنصافَ ثمرةُ العدل ورونقُه وبهاؤه، ولا يُمكن أن يستفيدَ العبدُ من علمه بالحق حتى يُقيمَ العدلَ والإنصاف، كما قال الله: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ) (الأعراف: ١٨١)، وقال- سبحانه-: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ) (النساء: ١٣٥)، وقال: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) (المائدة: ٨)، وقال: (وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ) (هود: ٨٥).

ولقد أنصفَ القرآنُ أهلَ الكتاب حينما قال: (لَيْسُوا۟ سَوَآءً) (آل عمران: ١١٣)، وقال: (مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) (آل عمران: ١١٠).

ولذلك كان الواجبُ على العبد أن يزن الأمورَ بميزان العدل والإنصاف، حتى يحيا حياةً كريمةً هانئة؛ فإن لربِّه عليه حقًّا، ولوالديه عليه حقًّا، ولأهله عليه حقًّا، ولوُلاة أمره عليه حقًّا، ولإخوانه عليه حقًّا، والإنصافُ أن يُعطي كل ذي حقٍّ حقَّه. «وإن المُقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين. الذين يعدلون في حُكمهم وأهليهم وما وُلُّوا».

أمة الإسلام!!

إننا في زمنٍ أحوَجُ ما نكون فيه إلى فهم حقيقة الإنصاف والتأدُّب بآدابه. فليس من الإنصاف في شيء أن يُعامَل به قومٌ لمحبَّة أو قرابة، ويُغضَّ الطرفُ عنه في مُعاملة قوم آخرين، وليس من الإنصافِ أن تسُوءَ العلاقات الأسرية والاجتماعية بمُجرَّد زلَّة أو هفوَة؛ بل الواجبُ أن تُلتمَس الأعذارُ، ويُغلَّبَ جانبُ المحاسن الكثيرة، ويُقبَلَ العفوُ من

أخلاق الناس، ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

وما أعظمَ قول نبيِّنا- صلى الله عليه وآله وسلم- في تأسيس هذه القاعدة التي هي من أهم قواعد الإنصاف؛ حيث قال- بأبي هو وأمي- صلى الله عليه وآله وسلم-: «لا يَفرَك مؤمنٌ مُؤمنة» يعني: لا يُبغِض ولا يكرَهُ زوجٌ مؤمنٌ زوجتَه المؤمنة، «إن سخط منها خُلُقًا رضيَ منها آخر» (رواه مسلم وغيره).

وقال سعيدُ بن المسيَّب- رحمه الله-: «ليس من شريف ولا عالم ولا ذي سُلطان إلا وفيه عَيبٌ، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكرَ عيوبُه؛ فمن كان فضلُه أكثرَ من نقصه وُهِبَ نقصُه لفضله».

إن هذه النظرة المُتوازنة الحكيمة يجبُ تطبيقُها في التعامُل مع الحكَّام والوُلاة والعلماء وذوي الهيئات والشرف وسائر الناس، ومع المُخالفين كذلك، فيُعامَلون جميعًا بهذا الميزان النبوي الذي يحفظُ لهم حقوقَهم ومحاسنَهم، مع الإصلاح والتقويم والنصيحة لهم.

وإن من أبهَى صور الإنصاف ألا تفسُد علاقتُك بالمُسلمين بسبب اختلاف وجهات النظر، فهو لا يُفسدُ الوُدَّ والمحبَّة عند التجرُّد والإنصاف، ولا تأخذهم بلازم قولهم، فهو ليس بلازم لهم، وتُحسنُ الظنَّ بهم، وتضعُ أمرَهم على أحسَنه ما لم يأتك ما يغلبُ ذلك، وإياك أن تظنَّ سُوءًا بكلمة خرجَت من أخيك المُسلم وأنت تجدُ لها في الخير محمَلاً ومخرَجًا.

أمة الإسلام!!

إن مما يخدشُ الإنصافَ ويخرمُه: أن يتورَّط المرءُ في نشر أخطاء وزلات مُسلم ظاهر العدالة والسلامة، ويكتُمُ حسناته ومحاسنَه، ولعلَّه قد حطَّ رحلَه في الجنة، والقادحُ لا يشعُر.

كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم- عن حاطب بن أبي بلتعَة- رضي الله عنه-: «لعلَّ الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعلموا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم».

وإن المُنصف إذا انتقَدَ فإنه ينقُدُ الأقوال لا القائلين، فيكونُ نقدُه للرأي والفعل هادفًا بنَّاءً، بنيَّة طيبة وأدب حسن، لا بقصد الإسقاطَ والتجريح والتوبيخ، والدخول في النيَّات والمقاصد.

فالقرآنُ حينما نقَدَ إنما نقَدَ الأقوال والأفعال، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ﴿وَمِنْهُمْ﴾، ولم يُسمِّ أصحابَها.

وتمثَّل ذلك النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- فكان يقول: «ما بالُ أقوامٍ يفعلون كذا وكذا».

وإن من أجلِّ عُرى الإنصاف: التثبُّت والتأنِّي في تصديق الأخبار وبناء الأحكام عليها، وما ثبتَ لمُسلم من العدالة والفضائل فلا تُنفى عنه ولا تُزال إلا بيقين مثله أو أقوَى منه، لا بالظنُّون والشكوك، وزعموا، وقالوا، فبئسَ مطيَّة الرجل: زعموا، و﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

أيها الناس!!

أخذُ الناس بظواهرهم وتركُ سرائرهم إلى ربِّهم- سبحانه وتعالى-، وقبول الحقِّ من الحبيب والبغيض، والاعتراف بالخطأ، وكلامُ الأقران بعضهم في بعض يُطوَى ولا يُروَى ولا يُشاع، هو عينُ الإنصاف والتسامي.

ومُراعاةُ اختلاف علماء مذاهب المُسلمين المتبُوعة واجتهاداتهم السائغة، والإعذارُ لهم، وعدم التشنيع والذمِّ، والسعيُ في جمع الكلمة على وُلاة الأمور، ونبذ الفُرقة والاختلاف المذمُوم.

كلُّ ذلك من أهم الأسس التي يُبنى عليها الإنصافُ والعدل، والتي تُشيع الأمن والاستقرار في المُجتمعات، وتبعثُ الطمأنينة وتُهيِّئُ النفوسَ والعقولَ للإنتاج والعمل المُثمر البنَّاء.

إن الإنصافَ فطرةٌ ربَّانيَّةٌ سويَّة، وقيمةٌ خُلُقيَّةٌ نبويَّة، من أخذ بها وتحلَّى سعد وفازَ وعلا وترقَّى، والله يُحبُّ المُقسطين.

ومَن خالفَ ذلك، واتبعَ منهجَ المُطفِّفين الذين يأخذون الذي لهم وافرًا

كاملاً، ويُخسرون ويُنقصون في حقوق غيرهم وفي الذي عليهم. فما أبعدَه من منهج، وما أجدرَهم بقول ربِّنا- سبحانه-: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: ١).

وبعد، أيها المسلمون!!

الإنصافُ عزيز، وكلُّ الناس مُحتاجٌ إليه، وهو شاقٌّ على نفوس كثير من الناس، الذين تلبَّسُوا بآفات قلبيَّة وسُلوكيَّة منَعَتهم من التجرُّد لله والتحلِّي بحلية الإنصاف العظيمة. ذلك أن كثيرًا من الناس يحملُهم هوى النفوس، والغضب، والغيرة، والحسد، والكبر على عدم الإنصاف والتمادي في الإجحاف، وغمط الحق، وازدراء الناس وبخسهم محاسنَهم وكتمها، وتمنِّي زوال النعمة عن إخوانهم حسدًا من عند أنفسهم.

وإن عينَ الرِّضا عن كل عيبٍ كليلةٌ

ولكنَّ عينَ السُّخط تُبدي المساويا

ومن أكثر ما يمنعُ العبدَ من أن يكون مُنصفًا عادلاً التعصُّب المقيتُ لغير الحق، والتحزُّب لغير الله ورسوله- صلى الله عليه وآله وسلم-، والاستبدادُ بالرأي.

هذا وإن الغلوَّ والتطرُّف لا يمنعُ المرءَ من الإنصاف فحسب؛ بل يحملُه على سفك دماء المُسلمين وتكفيرهم وتفسيقهم بغير حقٍّ، واستحلال دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

ولذلك كانت الخوارجُ كلابَ النار، كما أخبر النبي- صلى الله عليه وآله وسلم-؛ لأنهم من أشدّ الفرَق ظُلمًا وعُدوانًا وبُعدًا عن العدل والإنصاف، وتراهم لفساد رأيهم وعقلهم ينهَشُون ويتعاوَون ويتهارَشُون على المُسلمين والمُصلين، وقد سلم منهم أهلُ الأوثان، كما هو الحالُ في بعض بُلدان المُسلمين الذين ابتُلوا بأهل الغلوِّ والعُنف والتشدُّد.

أمة الإسلام!!

إن كثيرًا من قضايا المُسلمين المُعاصرة ومُشكلاتهم لا يُنظرُ إليها بعدلٍ وإنصاف، مما يزيدُ الجراحَ اتساعًا، والآلام إيلامًا، فتطولُ المحنةُ، وتتعاظمُ المؤونةُ على بعض بلاد المُسلمين.

ولكن- بفضل الله ونعمته- تتضافرُ جهودُ المملكة وإخواننا المُسلمين في الدول الإسلامية لردِّ العُدوان ورفع الظُّلم الواقع على إخواننا في فلسطين وسوريا واليمن، ودحر أفكار التطرُّف والإرهاب بعاصفة حزم تارةً، وبتحالُف إسلاميٍّ تارةً أخرى، وسعيٍ حثيث لكشف المُعتدين والحاقدين، وردِّ كيدهم، وإبطال مكرهم.

كما بيَّن ذلك بوضوح ولاء خادم الحرمين الشريفين- أيَّده الله- في خطابه الضافي، الذي أكَّد فيه حرصَ المملكة على الدفاع عن قضايا العرب والمُسلمين في المحافل الدولية.

الواجبُ على المُسلمين جميعًا هو نُصرةُ المظلومين، وغوثُ المُستغيثين، ونجدةُ الملهُوفين، والوقوفُ مع كل صادقٍ وناصح قام لله في سبيل تحقيق ذلك.

والحذرَ الحذرَ من تخذيل المُخذِّلين، وإرجاف المُرجفين الذين يفتُّون في عضُد المُخلصين، ويفتلون ضدَّهم في الذروة والغارم، لكي يُشتِّتوا جهودَهم، ويُبعثروا نجاحاتهم.

وإن على أصحاب الأقلام والكتَبة في وسائل الإعلام المُختلفة، وشبكات التواصُل الاجتماعي واجبًا شرعيًّا بالقيام بالعدل والإنصاف، فيكونون صفًّا واحدًا مع حُكَّامهم وعلمائهم وبلادهم ضدَّ أهل البغي والعُدوان والظُّلم، فترتقي الجهودُ وتتكامَل، وتشتدُّ اللُّحمةُ وتتعاوَن في الوقوف مع حُكَّامنا وعلمائنا والمُخلصين في مثل هذه الأحداث والفتن والمُدلهمَّات، وأن يمتثل الجميعُ قولَ ربِّنا- سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٨٣).

اللهم أصلح أحوال المُسلمين في كل مكان، اللهم أصلح أحوالهم في فلسطين، وفي سُوريا، وفي العراق، وفي اليمن، وفي كل مكانٍ يا رب العالمين.

العلم.. فضائله وثماره

إعداد/ الشيخ د. عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام المسجد النبوي



إن الحمد لله، نحمده ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فاتَّقوا الله- عباد الله- حقَّ التقوى؛ فتقوى الله نورُ البصائر، وبها تحيَا القلوبُ والضمائر.

أيها المسلمون:

عبادة الله وحدَه هي حكمةُ الخلق والأمر، ولأجلها بُعثَت الرُّسُل وأُنزلَت الكتب، وبها شرفُ الخلق وسعادتُهم وفلاحُهم ونجاتُهم، ومنازلُ العباد عند الله بحسب منازلهم فيها، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (الحجرات: ١٣).

ومن فضل الله وكرمه أن نوَّع العبادات ليُنوِّع لخلقه اللذَّات، ويُعليَ لهم بها الدرجات، وعبادةٌ في الدين عظيمةٌ سابقةٌ لغيرها، ومُصحِّحةٌ لما سواها، الظافرُ بها فائزٌ، والمُفرِّطُ فيها نادم.

امتدحَ الله أهلَها وفضَّلهم لأجلها، تهدي العبدَ إلى ربِّه وتُنيرُ له دروبَ حياته، كمالُ الإنسان ونجاتُه مُتوقِّفٌ عليها، وما عُبد الربُّ بمثلها، فبها يُعرفُ ويُعبَدُ ويُذكرُ ويُمجَّد، ويُعلَمُ حقوقُ الخالق والمخلوقين، ويُميَّزُ الحلالُ من الحرام.

تُؤنسُ صاحبَها في الخلوَة، وتُذكرُه عند الغفلة، طلبُها طاعةٌ، وبذلُها قُربةٌ، زينةٌ لأهلها وأمانٌ لأصحابها، تُنيرُ القلوبَ والبصائر، وتُقوِّي الأذهانَ والضمائر، أهلُها للأرض كالنجوم للسماء، فبهم يُقتدى، وهم

زينةٌ للبريَّة وجمالُها، وحصنُ الأمة ودِرعُها، ولولاهم لطُمِسَت معالمُ الدين.

بها صلاحُ الأمة ورفعتُها، واستقامةُ النفوس وزكاتُها، وهدايةُ البشريَّة وسعادتُها، وتحصينُ الأجيال وسلامتُها.

الحاجةُ إليها فوقَ كلِّ الحاجات، وبدونها خرابُ العالَم وفسادُه.

قال الإمام أحمد- رحمه الله-: «الناسُ أحوجُ إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليوم مرَّةً أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كل وقت».

أمَّتُنا أمةُ علم، أولُ آية أُنزلَت في الحثِّ عليه: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١).

قال ابن كثير- رحمه الله-: «فأولُ شيءٍ نزلَ من القُرآن هذه الآياتُ الكريماتُ المُبارَكاتُ، وهنَّ أولُ رحمةٍ رحمَ الله بها العبادَ، وأولُ نعمةٍ أنعمَ الله بها عليهم».

سمَّى الله ذاتَه بالعليم، ووصفَ نفسَه بالعلم، وتعرَّف إلى خلقه به، فقال: (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ × عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق: ٤، ٥).

والرسالةُ كلُّها علمٌ وعمل، فالعلمُ شطرُها، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى) (التوبة: ٣٣) أي: بالعلم النافع (وَدِينِ الْحَقِّ) أي: بالعمل الصالح.

لا شيءَ أطيبُ للعبد وأصلحُ لقلبه من محبَّة الله ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بالعلم، هو الحكمةُ التي يُؤتيها الله من يشاءُ من عباده، قال- سبحانه-: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ) (البقرة: ٢٦٩).

امتنَّ الله على آدم- عليه السلام- وأظهرَ فضلَه على الملائكة بعلم: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: ٣١).

واصطفى الله- سبحانه- بالعلم أنبياءَه ورُسُلَه ومن شاءَ من خلقه، فبشَّرَت الملائكة امرأةَ إبراهيم بإسحاق غُلام عليم.

ويُوسُف- عليه السلام- قال الله عنه: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (يوسف: ٢٢)، وتحدَّث بنعمة الله قائلاً: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (يوسف: ٥٥).

ومُوسى- عليه السلام- أُكرِم بذلك، فقال الله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) (القصص: ١٤).

وقال عن داود وسليمان- عليهما السلام-: (وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) (الأنبياء: ٧٩).

وذكَّر به عيسى- عليه السلام- فقال: (اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ) (المائدة: ١١٠).

والخضرُ لما فضَّلَه الله بعلم ليس عند غيره، رحلَ إليه نبيٌّ من أُولي العزم، (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) (الكهف: ٦٥).

وجنودُ سُليمان- عليه السلام- كان أعلمُهم أقواهم، (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) (النمل: ٤٠).

وعدَّد الله نعَمَه على رسوله- صلى الله عليه وسلم- وجعلَ العلمَ من أجلِّها قدرًا، فقال: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) (النساء: ١١٣).

ولم يأمُره- سبحانه- بالاستزادة من شيءٍ إلا من العلم، فقال: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه: ١١٤).

العلمُ ميراثُ الأنبياء، والوارثون لعلمهم خيرُ الخلق بعدَهم، وأقربُ الناس إليهم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم، فمن أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافر» (رواه الترمذي).

استشهدَ- سبحانه- أهلَ العلم على ألوهيَّته، فقال: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (آل عمران: ١٨).

وبالعلم يُخشَى الله ويُطاع، (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر: ٢٨).
قال الزُّهريُّ- رحمه الله-: «ما عُبِد الله بمثل العلم».
نَيلُه خيرٌ وفلاح: «من يُرِد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين» (متفق عليه).
وخيارُ الناس أعلمُهم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «خيارُهم في الجاهليَّة خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا»؛ متفق عليه.
العلمُ ميزانُ تفاوُت الأعمال ودرجاتها، وبه صلاحُ العلم وزكاتها، ولن تصفُو للمرءِ عقيدتُه ويُحقِّق الإخلاصَ لربِّه إلا بالعلم، قال- سبحانه-: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ) (محمد: ١٩)، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.
وما دامَ العلمُ باقيًا في الأرض فالناسُ في هُدًى، ومن عبَدَ الله بغير علم كان ما يُفسِدُ أكثرَ مما يُصلِحُ، وما فشَا الشركُ والبدعةُ إلا لقلَّة العلم والبُعد عن أهله، والضلالُ ثمارُ الجهل، ولذا أمرَنا الله بالاستعاذة من طريق أهل الضلال في كل ركعة من صلاتنا: (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) (الفاتحة: ٧).
والله نفَى التسويةَ بين أهل العلم وغيرهم، فلا يستوُون كما لا يستوي الحيُّ والميِّتُ، والأعمَى والبصيرُ، قال- سبحانه-: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٩).
بالعلم حياةُ العباد ونورُهم، (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام: ١٢٢).
وحُسنُ السَّمت والفقه في الدين من أخصِّ صفات المُؤمنين، فصُدورُهم مُستنيرةٌ بالعلم: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) (العنكبوت: ٤٩).
وخصَّ الله أهلَ العلم بتعقُّل أمثال القرآن العظيم وإدراك معانيها، (وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ) (العنكبوت: ٤٣).

الرحمةُ تغشَى مجالسَ العلم، والسَّكينةُ تتنزَّلُ عليهم، والملائكةُ تحُفُّ أهلَها، «وإن الملائكةَ لتضَعُ أجنحَتَها رِضًا لطالبِ العلم» (رواه الترمذي).
قال ابن القيِّم- رحمه الله-: «ولو لم يكُن في العلم إلا القُربُ من ربِّ العالَمين والالتحاقُ بعالَم الملائكة وصُحبةُ الملأ الأعلى، لكفَى به فضلاً وشرفًا، فكيف وعزُّ الدنيا والآخرة منُوطٌ به ومشرُوطٌ بحُصوله».
أهلُ العلم بالله وبأمره ونهيه هم للأمة خيرُ قُدوة، نفعُهم مُتعدٍّ إلى الغير بعد نفع أنفُسهم، ولهذا الكلُّ يُثني عليهم ويدعُو لهم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «إن الله وملائكتَه وأهلَ السماوات والأراضين، حتى النَّملة في جُحرها، وحتى الحُوت ليُصلُّون على مُعلِّم الناس الخير» (رواه الترمذي).
السعيُ في تحصيله من العمل في سبيل الله، قال أبو الدرداء- رضي الله عنه-: «من رأى الغُدوَّ والرَّواح إلى العلم ليس بجِهاد فقد نقَصَ في عقله ورأيه».
التنافُسُ فيه محمودٌ، فلا حسَدَ إلا في اثنتَين: مُحسنٍ بعلمه أو ماله، وما عداهُ لا يُغبَطُ أهلُه عليه؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «لا حسدَ إلا في اثنتَين: رجلٍ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلَكَته في الحقِّ، ورجلٍ آتاه الله حكمةً فهو يقضِي بها ويُعلِّمُها»؛ متفق عليه.
وقد تظاهَرَ الشرعُ والقدرُ أن الجزاءَ من جنس العمل، والعلمُ يدلُّ على الله من أقرَبِ الطريق إليه؛ فمن سلَكَ طريقَ العلم وصل إلى الله وإلى الجنة من أقرب الطُّرق وأسهَلها؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «ومن سلَكَ طريقًا يلتمِسُ فيه علمًا سهَّل الله به طريقًا إلى الجنة» (رواه مسلم).
العلمُ الشرعيُّ حصنٌ للأمة من الفتن؛ قال الإمام مالكٌ- رحمه الله-: «إن أقوامًا ابتغَوا العبادةَ وأضاعُوا العلمَ، فخرجوا على أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- بأسيافهم،

ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك».

ولعظيم نفعه جاء الأمرُ بإبلاغ ولو شيءٍ منه ونشره في الآفاق؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «بلِّغوا عنِّي ولو آية» (رواه البخاري).

والله أمرَ بسُؤال أهل العلم والرجوع إليهم: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (النحل: ٤٣).

ودعا النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- لأهله بالنَّضارة، وهي البهجةُ وحُسن الوجه، والفرحُ، وانشراحُ الصدر، فقال: «نضَّر الله امرأً سمع منَّا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فربَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع» (رواه الترمذي).

ودعا النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- لمن يحبُّه أن يكون من أهل العلم، فقال لابن عباس- رضي الله عنهما-: «اللهم فقِّهه في الدين» (رواه البخاري).

بالعلم رفعةُ الدرجات في الحياة وبعد الممات، قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) (المجادلة: ١١).

قال ابن القيِّم- رحمه الله-: «من علمَ وعملَ وعلَّم فذلك يُدعَى عظيمًا في ملكوت السماء». ونفعُه يلحقُ صاحبَه بعد الموت؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عملُه إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفعُ به، أو ولد صالح يدعُو له» (رواه مسلم).

وأفضلُ العلم وأجلُّه وهو الممدوحُ في النصوص: ما نبعَ من الكتاب والسنَّة، وأعظمُه العلمُ بالله وأسمائه وصفاته، وهو الغايةُ من خلق الله وأمره؛ قال- سبحانه-: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق: ١٢).

ويجبُ على كلِّ مُسلم السعيُ في تحصيل الفرض من العلم، والذي يُصحِّح به توحيدَه وعبادتَه من صلاته وصومه وغيرهما، وأن يبذُل زمنًا من وقته في ذلك، ولا يستثقلُ حلقَه ومجالسَه، وعلى طالبه تعظيمُ قدره، وسُؤالُ الله النافع منه، مع حُسن الظنِّ به- سبحانه- ومُلازمة التقوى فهي خيرُ عونٍ لنَيله.

وأن تكون نيَّتُه خالصةً لوجه الله، لا يُماري بعلمه السُّفهاء، ولا يُجادلُ به العلماءَ، ومن عملَ بما علمَ أورثَه الله علمَ ما لم يعلَم.

وبعدُ.. أيها المسلمون:

فقد وعدَ الله أن من طلبَ العلمَ يسَّره له وأعطاه منه ما لم يحتسبه بكرمه- سبحانه-، فقال: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) (العلق: ٣).

وطريقُ العلم سهلٌ يسيرٌ، حفظٌ لكتاب الله العظيم، وشيءٌ من سُنَّة النبي- صلى الله عليه وسلم-، ومُختاراتٌ من مُتون أهل العلم، مع فهم ما تقدَّم والعمل به، ومن زادَ في طلبه زادَت رفعَتُه. وبهذا ينالُ المرءُ رضا الله وأعالي الجِنان. أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (التوبة: ١٢٢).

أيها المسلمون:

العلماءُ بالله وبأمره ونهيه من السابقين واللاحقين لا يُذكرون إلا بالجميل، فحقُّهم على الأمة عظيم، بمحبَّتهم واحترامهم وتوقيرهم والرجوع إليهم والأخذ عنهم، وتعظيمُ أهل العلم من تعظيم الدين؛ فهم حمَلَتُه والمُؤتمَنون عليه، ومن حادَ عن هذا الطريق فقد ضلَّ سواءَ السبيل.

وبُغضُهم ومُعاداتُهم نقصٌ في العقل، وانحرافٌ عن الفطرة، وذاك مُؤذنٌ بحرب الله وعقوبته؛ قال الله تعالى في الحديث القُدسيِّ: «من عادَى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحرب» (رواه البخاري).

قال النوويُّ- رحمه الله-: «قال الإمامان أبو حنيفة والشافعيُّ- رحمهما الله-: إن لم يكُن العلماءُ أولياءَ الله فليس لله وليٌّ».

اللهم أعزَّ الإسلام والمُسلمين، وأصلح أحوالَ المُسلمين في كل مكان، اللهم رُدَّهم إليك ردًّا جميلاً، اللهم اجعَل ديارَهم ديارَ أمنٍ وأمانٍ يا قوي يا عزيز.

التعايش والوِفاق في المجتمع المَسلم



الحمدُ لله، الحمدُ لله خلقَ الإنسانَ في أحسن تقويم، وخصَّه بالتفضيل والتكريم، جعلَه أهلاً لدينه وشريعته، ومحلاً لتكليفه وأمانته، أحمدُه- سبحانه- وأشكرُه لا عزَّ إلا في طاعته، ولا غِنى إلا بالافتقار إلى رحمته.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُوصلُ إلى رضوانه وجنَّته. وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أعظمُ الخلق خُلُقًا، وأحسنُهم جوارًا، وأكرمُهم في عشرته، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله السادة الشرفاء عترته، والأخيار الحُنفاء صحابتِه، والتابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ وسارَ على نهجه وطريقته، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا مزيدًا لا مُنتهَى لغايته.

أما بعد: فأُوصيكم- أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله- رحمكم الله-، فجادَّةُ النجاة قليلٌ سُلاَّكُها، والقلوبُ الغافلةُ مخوفٌ هلاكُها.

فما للقلوب لا تتدبَّر.. وما للأبصار لا تتبصَّر.. أغرَّتها آمالُها؟!.. أم على قلوب أقفالُها؟!.. إن الله لم يخلُق الخلقَ عبثًا، ولم يتركهم سُدًى، كلا ثم كلا، فوربِّكم لتُسألُنَّ عن الرسول ومن أرسلَه، وعن القرآن ومن أنزلَه، وعما اجترحَه ابنُ آدم في الدنيا وما عملَه، ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ

إعداد/ الشيخ د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام

مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٦- ٩).

اختلافُ البشر سنة ربانية

معاشر المسلمين: إن من سُنَّة الله في البشر: اختلافُ أذواقهم وفُهومهم وإدراكاتهم وحدَّة طباعهم وهدوئهم وذكائهم وقناعاتهم، فلكل إنسانٍ قناعاتُه ورُؤيتُه وفهمُه وإدراكُه، فلا يُحجَرُ عليه، ولا يُجبَرُ على تغيُّر مفاهيمه، وما يصلُحُ لهذا قد لا يصلُحُ لذاك.

وإن من عباد الله من لا يُصلحُه إلا الغنى، ولو أفقرَه الله لكفَر، وإن من عباد الله من لا يُصلحُه إلا الفقر، ولو أغناه الله لبطَر.

وكم أعطى اختلافُ الألوان جمال الصُّورة، فلدرجات الألوان أهميتُها من أجل اكتمال الصورة وجمالها، وكلٌّ مهمٌّ بقَدر أهمية صاحبه، وما اختلفَت أصابعُ اليدين إلا لاختلاف الوضع فيها.

ومن هنا- عباد الله- فإن اختلافَ الناس ليس اختلاف تفاضُل وتمايُز بين أعراقها وقبائلها وطبقاتها، ولكنَّه اختلافٌ من أجل المنافع والإبداع، وتعدُّد طُرق المعرفة والثقافة، والتسابُق في الخيرات، والمُسارَعة إلى المكرُمات، ومن أجل أن يتعارَفُوا وليتَّخذَ بعضُهم بعضًا سُخريًّا. أما ميزانُ التفاضُل فهو التقوى والعملُ الصالح ليس إلا.

سبل التعامل مع حقائق التنوُّع الاجتماعي

معاشر الإخوة: إن المسلكَ الحكيم هو في التعامُل مع ما قضَته سُنَّةُ الله من حقائق التنوُّع الاجتماعيّ، والتفكيرُ بطريقة مُنفتحة غير ضيِّقة؛ لأن الأُطُر الضيِّقة لا تُنتِجُ إلا خياراتٍ ضيِّقة، وفهمُ الآخر لا يلزمُ منه القناعة بما يقول، ولو لم تكُن أنت مُختلفًا لما كان الآخرُ مُختلفًا، وإذا اتَّفقَ اثنان في كل شيءٍ فلا حاجةَ لأحدهما.

معاشر الأحبَّة: الانسجامُ والتعايُش شعورٌ داخليٌّ جميلٌ في النفس الإنسانيَّة، يُبرزُ العلاقةَ الإيجابيَّة والانتماء بين أفراد المُجتمع، فيكونُ كالبُنيان يشُدُّ بعضُه بعضًا، وكالجسَد الواحد إذا اشتكَى منه عضوٌ تداعَى له سائرُ الجسَد بالسَّهر والحُمَّى.

الانسجامُ والتعايُش ينطلقُ من الأُخُوَّة، وصلاح النفس، وسلامة الصدر، والمُساواة، والمحبَّة، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر وبالمرحمة.

والمُساواةُ بين الناس ليست مُساواةَ تماثُل؛ بل مُساواةُ تكامُل. مُساواةٌ تنفي العصبيَّة والحزبيَّة، وحميَّة الجاهليَّة، ودعوَى الجاهليَّة، وتُؤكِّدُ السمعَ والطاعةَ، ولُزوم الجماعة وعدم الشُّذوذ عنها أو الخروج عليها.

الانسجامُ والتعايُش هو الاعترافُ بحقِّ العيش في مُجتمع واحد، وبلد واحد. والناسُ يتعايَشُون بالدين وبالمروءة وبالحياء وبالرغبة وبالرهبة.

التعايُش هو الوجودُ المُشترَك بين الناس، على اختلاف طبائعهم ومقاصدهم، وهو لا يعني الإلغاء، وإنما يعني الاعترافَ بالآخر. التعايُش هو تنظيمُ وسائل العيش بين الناس.

إخوتي في الله: الانسجامُ والتعايُش ينشرُ الأُلفة والتعاوُن والترابُط، ويُنمِّي روحَ العمل والإبداع، ويحمي البلادَ من الانحراف، والأفكار المُنحرفة، والاتجاهات العُدوانيَّة، ويُقلِّلُ من أثر الشائعات المُوهنة للعزائم، والمُفرِّقة للجماعة.

معاشر الأحبَّة: كسبُ القلوب مُقدَّمٌ على كسب المواقف، ووحدةُ القلوب مُقدَّمةٌ على وحدة الآراء. تأمَّلُوا- حفظكم الله- قولَ موسى لأخيه هارون- عليهما السلام-: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه: ٩٢، ٩٣)، فأجابَ هارونُ مُحافظًا على الوحدة ومُبتعدًا عن الفُرقة: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه: ٩٤).

معاشر المسلمين: أما في ديننا فلم تُشرع شرائع الدين، ولم تُفرض فرائضُ الإسلام، ولم تتنزَّل الأحكام إلا بعد أن استقرَّ المُسلمون المُهاجرون والأنصار في مُجتمع المدينة بمُكوِّناته وتنوُّعه.

ولقد ذكرَ بعضُ أهل العلم أن من غايات الهجرة: تكوينَ الوحدة الإسلاميَّة في ظلِّ الدولة الإسلاميَّة.

لقد كان مُجتمعُ المدينة مُجتمعًا مُتعايشًا، وهم يضُمُّ: المُؤمنين، والمنافقين، واليهود، والمُشركين، وغيرهم.

وقد قيل للمُؤمنين في مكَّة قبل الهجرة: ﴿كُفُّوٓا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ٧٧)، ولما انتقَلوا إلى المدينة عاشُوا مع أهلها، قيل لهم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ﴾ (الممتحنة: ٨).

وقد وجَّه الله نبيَّه محمَّدًا- صلى الله عليه وسلم- في شأن أهل الكتاب بقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣).

والعفوُ: تركُ المُؤاخذة بالذنب، والصَّفحُ: تركُ أثره في النفس.

ولما قال المُنافقون مقالتَهم التي سجَّلها عليهم القرآنُ العزيز: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨)، طلبَ الصحابةُ- رضوانُ الله عليهم- من النبي-

صلى الله عليه وسلم- أن يأذَنَ بقتلهم، فقال- عليه الصلاة والسلام-: «لا يتحدَّثُ الناسُ أنه كان يقتلُ أصحابَه».

ما أعظمَها من كلمة، وما أوضحَه من توجيه. فأين هذا- عياذًا بالله- من الذين يقتلُون آباءَهم وأمهاتهم وأقاربَهم، فضلاً عن إخوانهم المُسلمين؟!

الاجتماع ووحدة الكلمة من أعظم الخيرات

معاشر الإخوة: لقد كان الصحابةُ- رضوانُ الله عليهم- يرَون الاجتماع من أعظم الخيرات، وأكبر الصالحات، لذا تراهم قد ائتَمُّوا بكل من حقَّت له الإمامة.

يقول الإمامُ ابن حزم- رحمه الله-: "وما امتنعَ قطُّ أحدٌ من الصحابة- رضي الله عنهم- ولا من خيارِ التابعين من الصلاة خلفَ كلِّ إمام صلَّى بهم، حتى خلفَ الحجَّاج بن يوسف، وحُبيشِ بن دُلجَة، ونجدَة الحَروريِّ، والمُختار بن أبي عُبَيد، وكلٌّ مُتَّهمٌ بالكُفر".

والمُسلمون يرَون أن من صلَّى صلاتَهم، واستقبلَ قبلتَهم، وأكلَ ذبيحتَهم، فهو منهم، والسرائرُ إلى الله، والحسابُ على الله، فلا شقَّ عن القلوب، ولا غلَّ على سابقِ بالإيمان، ولا تفريقَ بين المُسلمين بالأسماء والألقاب ولو كانت أشرفَ الألقاب والأسماء، مثل: المُهاجرين والأنصار، وإنما تُقالُ على سبيلِ الثناء والتأليف والتعريف.

والمُسلمون يحرصون على هداية الخلق، ويستُرون العيوب، ولا يتتبَّعون العورات، ولا يذكُرون أخطاءَ أهل العلم إلا لبيانِ الحقِّ، وعلى سبيل الترجيح لا على سبيل التجريح، ويلتمسُون العُذرَ ما أمكَن.

يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "إن المُتأوِّل الذي قصدُه مُتابعةُ الرسول- صلى الله عليه وسلم- إذا اجتهدَ فأخطأَ لا يُكفَّر، بل ولا يُفسَّق، وهذا مشهورٌ عند الناس في المسائل العلمية، وأما مسائلُ العقائد فكثيرٌ من الناس كفَّر المُخطئين فيها. وهذا القولُ لا يُعرفُ عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة الإسلام، وليس فيهم- يعني: الأئمة الأربعة- من كفَّر كلَّ مُبتدع.

بل المنقُولات الصريحةُ عنهم تُناقضُ ذلك، ولكن قد يُنقلُ عن أحدهم أنه كفَّر من قال بعضَ الأقوال، ويكونُ مقصودُه: إن هذا القولَ كُفرٌ ليُحذَّر.

ولا يلزمُ إذا كان القولُ كُفرًا أن يكفُر كلُّ من قالَه مع الجهل والتأويل؛ فإن ثبوتَ الكفر في حقِّ الشخص المُعيَّن، كثبُوت الوعيد في الآخرة بحقِّه، وذلك له شروطٌ وموانع". اهـ كلامُه- رحمه الله-.

ومن منقُولات السلف: "لو كان كلُّ ما اختلفَ مُسلمان في شيءٍ تهاجَرا لم يبقَ بين المُسلمين عصمةٌ ولا أُخوَّة".

وما أجملَ الوقوفَ عند قوله- صلى الله عليه وسلم-: «شهدتُ بدار عبد الله بن جُدعان حلفًا ما أحبُّ أن لي به حُمر النَّعَم، ولو دُعيتُ لمثله في الإسلام لأجبتُ».

إنه حلفٌ يحفظُ الحقوق، وينصُر المظلُوم، ويُعينُ المحرُوم، ويحفظُ المصلحةَ العامَّة، ويدفعُ التصادُم.

وقد قال الإمام البغويُّ- رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ (النساء: ١٤٠)، قال: "وإن خاضُوا في حديث غيره فلا بأسَ في القعُود معهم مع الكراهة".

عباد الله: إن الإسلام يسَعُ أهلَه كلَّهم، لسعَته وسماحته، عاشُوا في كنَفه وتعايَشُوا على أرضه القرونَ تلوَ القُرون، وعونُ الله لا يتنزَّلُ على المُتعصِّبين والمُتحزِّبين، ولا ينصُر الله أقوامًا مُتفرِّقين.

إن الجفاءَ والتباعُد النفسيَّ والاجتماعيَّ هو الذي يقضي على الوحدة، وينبُذ التعايُش، والعاقلُ المُنصفُ من اغتفرَ قليلَ خطأ أخيه في كثير صوابه، فلا يبخَسُ الناسَ حقوقَهم، ولا أشياءَهم؛ بل يُعاملُ الناسَ بما يحبُّ أن يُعاملوه به، فلا يقفُ عند الألفاظ والكلمات؛ بل يقبلُ ما يقولُه صاحبُه في تفسير مُراده.

وبعدُ- عبادَ الله-:

القولُ الحسنُ والتعامُلُ الحسنُ لا يتوقَّفُ على دين أو مذهَب؛ بل هو حقٌّ لكل الناس، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).

والوسيلةُ في ذلك: الرِّفقُ والإنصافُ، والحبُّ والابتسامةُ، وحُسنُ الظنِّ، وطيبُ القلب، وسلامةُ الصدر، والاحترامُ والتقديرُ.

ولا تستطيعُ حمايةَ نفسك ما لم تحمِ إخوانَك،

فالمرءُ قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، والحياةُ قائمةٌ على الزوجيَّة والثُّنائيَّة، وليس على الأُحاديَّة والفرديَّة، وتسويةُ الناس بفكرٍ واحدٍ خلافُ سُنَّة الله، والحوارُ هو للتعارُف والتعايُش والتفاهُم ومزيدٍ من الثقافة، وليس للإلزام والإقناع.

الفرق بين التعايُش والردّ على المُخالف

معاشر المُسلمين:

ينبغي التفريقُ بين التعايُش والردّ على المُخالف؛ فالردُّ على المُخالف بابٌ واسعٌ مفتوح، يُسلَكُ فيه مسالكُ المصلحة والحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن في بيان الحق، وتزييف ما عداه.

فالنبي- صلى الله عليه وسلم- في المدينة قبلَ تنوُّعها وتعدُّد سُكَّانها، في حين أن القرآن كان ينزلُ لبيان الحقّ وفضح المُخالف.

كما ينبغي التفريقُ بين المُسالم والباغي والخائن؛ فالذي يبغي ويُهدِّدُ السِّلم العام، ويُريدُ تفريقَ المُسلمين، ويُعملُ السَّيفَ على رقابهم، فلا بُدَّ من إيقافه عند حدِّه، والضربِ على يده كائنًا من كان.

والذي يخُونُ وطنَه، ويخذُلُ أهلَه، ويتواطأُ مع الأعداء ويُمالئُهم يجبُ الحزمُ معه، وفضحُ أمره، واتخاذُ الموقف الرَّادع الصارم له ولأمثاله.

وقد قال عليٌّ- رضي الله عنه- في الخوارج: "لكم علينا ألا نمنَعَكم حقَّكم من الفَيء، ولا نمنَعَكم من المساجد، ولا نُقاتلَكم حتى تُقاتلوا".

فلما استحلُّوا دماءَ المُسلمين وأموالَهم، فقتَلُوا عبد الله بن خبَّاب، وأغارُوا على صَرح المُسلمين، فحينئذٍ قاتلَهم- رضي الله عنه-.

ألا فاتَّقوا الله- رحمكم الله-؛ فإن وحدةَ الصفِّ واجتماع الكلمة غاياتٌ مطلُوبةٌ في كل حين، وهي عُنوانُ قوَّة الأمة، وسرُّ حفظ البلاد، ولكنَّها في هذه الظروف التي يتربَّصُ بها الأعداءُ، ويتطاوَلُ فيها المُغرِضون، ويجتَرئُ فيها الخوَنةُ، تكونُ أشدَّ إلحاحًا وأعظمَ حاجة.

فيجبُ على كل مسئُولٍ أيًّا كانت مسؤوليَّتُه، سياسيًّا أو إعلاميًّا أو تعليميًّا أو غيرَهم، في قطاعٍ عامٍّ أو في قطاعٍ خاصٍّ، أن يتأمَّل في الأوضاع، ويعيشَ الواقع، ويستوعبَ النوازل المُحيطة، وبخاصَّة في هذا البلاد المُبارَكة القائمة على شرع الله الرافعة لراية التوحيد، وقد أدركَ العالَمُ ذلك فيها، ووحدة صفِّها، وتماسُك جبهتها الداخليَّة، ومَصداقيَّتها، وحُسن علاقاتها. ومن هنا، كانت الثقةُ بها، والقبولُ بدعواتها، والالتفافُ حولَها، والتحالُف معها.

يجبُ على كل مسئُولٍ الالتزامُ بكل ما يُؤكِّدُ روابط الوحدة، وتلاحُم المُجتمع، بعيدًا عن المُزايَدات وعن كل نقاش أو مسائل لا تُناسب المرحلة، والحذَر من إثارة ما يُفسِدُ ولا يُصلِح، ويُفرِّقُ ولا يجمَع من مقالاتٍ أو تغريداتٍ أو رسومات.

باعثُ ذلك: حُسنُ التديُّن، والحبُّ، والإخلاصُ، والعقلُ والحكمة، والغيرةُ على الدين، وعلى الوطن، وعلى الأهل، حرصًا على المصلَحة العامَّة، واجتماع الكلمة، والالتفاف حول القيادة، وإغاظة العدوِّ المُتربِّص.

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عما يصفون، وسلامٌ على المُرسَلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

تهنئة

تهنئ أسرة تحرير المجلة واللجنة العلمية والمركز العام ابنًا من أبنائها وهو الباحث أيمن أحمد عبد المنعم المسلمي؛ لحصوله على درجة الماجستير في النحو والصرف بعنوان: «الجهود النحوية لابن الملقن في كتابه التوضيح شرح الجامع الصحيح»، من جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، وقد حصل الباحث على درجة الماجستير بتقدير ممتاز.

وقد أشرف عليها: أ. د. أحمد محمد عبد الدايم (وكيل كلية دار العلوم سابقًا)

وناقشه فيها:

- أ. د. عصام عامرية (وكيل كلية دار العلوم - الفيوم)

أ. د. مصطفى أحمد عبد العليم (أستاذ النحو والصرف بكلية دار العلوم - القاهرة)

وأسرة تحرير المجلة تتمنى له مزيدًا من التوفيق والسداد.

الأمن الاجتماعي وكيفية تحقيقه



اعداد/ د. خالد بن علي الغامدي
امام المسجد الحرام

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فاتقوا الله- عباد الله-، واعلَموا أن التقوَى أساسُ كلِّ خيرٍ ومنبَعُ كل فضيلة، والله تعالى لا ينظرُ إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظُر إلى قلوبكم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨). فأصلحوا قلوبَكم بالتقوى تصلُح لكم أعمالُكم.

معاناة البشر من الصراعات:

أيها المسلمون!! تُعاني البشريَّةُ من موجات عنيفة من الصِّراعات الفكريَّة والثقافيَّة، والثورات المحمُومة، والحروب النفسيَّة والعسكريَّة، التي نتَجَ عنها ألوانٌ من الخوف والجوع وسَفك الدماء، ونقصٍ من الأموال والأنفُس والثمرات.

وتُؤثِّرُ هذه الصِّراعات المُختلفة على كثير من الناس في عقائدهم وتصوُّراتهم وأخلاقهم، مما كان سببًا في اختلالات ظاهرة في الأمن الاجتماعيِّ، الذي أصبحَ تحقيقُه في المُجتمع والحفاظ عليه يُشكِّل الهاجسَ الأكبرَ في حياة الأفراد والمُجتمعات اليوم، وتسعَى كل الممالك والأمم إلى إرسائه؛ ليعيشَ المُجتمعُ حياةَ الهُدوء والاستقرار والعمل المُنتج البنَّاء، وليأمَنَ الفردُ على نفسه وأسرته ومعيشته.

فضائل الأمن الاجتماعي وأهميته:

إن الأمنَ الاجتماعيَّ غايةٌ من أجلِّ الغايات الشرعيَّة، ومقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الدين، وهو منَّةٌ إلهيَّةٌ كُبرى يضربُ الله به الأمثال، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ (النحل: ١١٢). وهو فريضة ربَّانيَّة، وضرورة من ضرُورات العُمران البشريِّ والاستخلاف والنُّهوض الحضاريِّ، ولذلك قرَنَ الله بين نعمة العيش ونعمة الأمن، وامتنَّ بهما على عباده، وجعلهما من أهمِّ أسباب التمكين من عبادة الله، ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ (قريش: ٣، ٤).

إن شُعور كل فرد في الأمة بالطمأنينة والسَّكينة في غُدوِّه ورَواحه، وسفره وإقامته، وتمكنه من عبادة ربِّه، وهناءه بالاستقرار النفسيِّ والأسريِّ والمعيشيِّ، فلا خوفٌ ولا فزَع، ولا تفرُّق ولا تناحُر، من أعظم نعم الله وأجل كرائمه، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧).

وقد جعل النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- الشُّعورَ بالأمن في المُجتمع أحد مُقوِّمات السعادة والقناعة؛ حيث قال- عليه الصلاة والسلام-: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، مُعافًى في بدنه، عنده قُوت يومه، فكأنَّما حيزَت له الدنيا بحذافيرها» (أخرجه الترمذي وابن ماجه).

وهذا كله- يا عباد الله- أثرٌ من آثار شُيوع الأمن الاجتماعيِّ، فينعكسُ ذلك إيجابًا على الأمة، وتظهرُ بمظهَر العزَّة والقوَّة، بسبب تلاحُم أفرادها وترابُطهم، وتعايُشهم فيما بينهم بالحبِّ والمودَّة، والتناصُح والتبادُل، والتعاوُن والسَّتر، والصَّفح والعدل والإنصاف والعفو عن المسيء.

أسس تحقق الأمن الاجتماعي:

إن أمنَ المُجتمع ضرورةٌ حياتيَّة للعيش الهنيء الرَّغيد، والسعادة والسُّلوك الحسَن، والتقدُّم والرُّقيِّ، فلذلك توالَت النصوصُ من القرآن والسنَّة في التأكيد على الأمن الاجتماعيِّ والحرص عليه؛ لينعمَ المجتمعُ بأسره بالهُدوء والاستقرار، ويتمكَّنُ من إقامة شرع الله، وتسخير الأرض وعُمرانها في تحقيق الخير والصلاح.

ولن يحصُل لهم ذلك- يا عباد الله- إلا بالتعاوُن على البرِّ والتقوى، والحذَر من التعاوُن على الإثم والعُدوان، وهو أساسٌ عظيمٌ من أُسس بناء الأمنَ الاجتماعيِّ، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

إن من أجل ما يُبنى عليه أمنُ المُجتمع: أن يقوم على قاعدة راسخة ثابتة من الأخوَّة الإيمانيَّة، التي تُؤسِّسُ العلاقات بين أفراد المُجتمع تأسيسًا قويًّا ثابتًا.

فتشيعُ بينهم أواصرُ المحبَّة والإيثار والتناصُر والتعاوُن، وحبِّ الخير بعضهم لبعض، وتنتشرُ بينهم صُورُ الإحسان والبرِّ للوالدَين والأرحام والجيران، والتكافل الاجتماعيِّ، ورعاية الأيتام والأرامل والمساكين، والسعي في تفريج كُربات وحوائج الناس، وقضاء دُيونهم، وانظار مُعسرهم، والسَّتر على مُخطئهم، وغير ذلك من صُور الإحسان والأخوَّة الإيمانية، التي هي من أعظم مُقوِّمات المُجتمع الآمن.

كما قال- سبحانه-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، وقال- سبحانه-: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١).

وقال- عليه الصلاة والسلام-: «أفضلُ المُسلمين إسلامًا: من سلم المُسلمون من لسانه ويده» (أخرجه الطبراني بسند حسن).

وقال- عليه الصلاة والسلام-: «المؤمنُ من أمنَه الناسُ على دمائهم وأموالهم» (أخرجه أحمد والترمذي).

وقال- عليه الصلاة والسلام-: «أحبُّ الناس إلى الله أنفعُهم، وأحبُّ الأعمال إلى الله سُرورٌ تُدخلُه على مُسلم، أو تكشفُ عنه كربَة، أو تقضي عنه دَينًا، أو تطرُدُ عنه جُوعًا» (أخرجه الطبراني بسند حسن).

إن الأخوَّة الإيمانيَّة الصادقة من أهم أُسس فشُوِّ الأمن الاجتماعيِّ، فيشعُرُ كلُّ مُسلم أنه في مُجتمع أفرادُه برَرَة رُحماء، مُتعاطفون مُتحابُّون، هيِّنون ليِّنون، مُشفقون مُتباذلُون، يُكرمون المُحسن ويُعينُونه، ويستُرون على المُخطئ ويرحَمونه، ولا يُقابلونه بالتشهير والتعنيف والإقصاء، ولا يُعينُون عليه الشيطان، فهو ما زال أخًا لهم.

فينشأ من ذلك كله مُجتمعٌ آمنٌ، مُستقرٌّ مُتماسكٌ قويٌّ، كما قال النبيُّ- صلى الله عليه وآله وسلم- في وصف هذا المُجتمع الآمن: «مثَل المُؤمنين في توادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم كمثَل الجسَد» (أخرجه أحمد ومسلم).

صورةٌ مُشرقةٌ من محاسن الإسلام:

وهذا الشُّعور- يا عباد الله- بالاستقرار والأمن والمُعاملة الحسَنة لا يختصُّ بالمُسلمين فقط؛ بل هو حقٌّ مكفولٌ لكل من يعيش بينهم من أهل الأديان الأخرى؛ كاليهود والنصارى، والمعاهَدين والمُستأمَنين. فقد ضمن لهم الإسلامُ الأمنَ والعيشَ والاستقرارَ، وأن يُعامَلوا بالعدل والإنصاف

والرحمة والإحسان، كما قال- سبحانه-: (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ) (الممتحنة: ٨).

وقد كان لابن عُمر- رضي الله عنهما- جارٌ يهوديٌّ، فكان أولَ ما يبدأ بالإطعام والهدايا يبدأ به، وكان يُوصي به دائمًا.

وهذه صورةٌ مُشرقةٌ ناصعةٌ من محاسن الإسلام، وحرصه على شُيوع الأمن الاجتماعيِّ لكل أفراده ولمن يعيش تحت كنَفه. فأين من يتَّهمُ الإسلام بالإرهاب، ويُحاولُ وصمَ أهله بذلك زُورًا وبُهتانًا؟!

إن أمنَ المُجتمع لن يتحقَّق ويسُود بين جميع شرائحه إلا إذا كانت شريعةُ الله هي الحاكمةَ والمُهيمنة، وكان لها من قُوَّة السُّلطان والدولة ما يجعل لها الثَّباتَ والشُّمولَ والهيبَة، فتطمئنُّ النفوسُ وتهدأ الخواطرُ، ويشعرُ كل فرد أنه آمنٌ على دينه ونفسه وأهله، فيعيش بحريَّةٍ وكرامةٍ وعزَّة.

ولذلك جاءَت الشريعةُ بحفظ مكانة وهيبة الحاكم والأمير المسلم، وأمرَت بطاعته في المعروفِ وإجلاله وإكرامه، وحرَّمَت عصيانه والخروجَ عليه، وإظهار عيبه والتشهير بأخطائه تشغيبًا وتأليبًا عليه، ورغبةً في زعزعة أمن المُجتمع، وفشوِّ الفوضَى والاضطراب، وانفراط قاعدة من أهمِّ قواعد بناء الأمنِ الاجتماعيِّ.

إن المُجتمعَ الآمن هو الذي يقومُ على طاعة الله وطاعة رسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- وأُولي الأمر، ومن أطاعَ الأميرَ فقد أطاعَ الرسولَ- صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن أطاعَ الرسولَ فقد أطاعَ الله، وإن الله ليَزَعُ بالسلطان ما لا يزَعُ بالقرآن.

والشريعةُ تحُثُّ وتأمرُ أن تنشأَ المحبَّةُ والوئامُ والثِّقةُ بين الرَّاعي والرعيَّة، والحاكمِ والمحكوم، فتعيشُ الأمةُ في أمنٍ وارفٍ، وظلٍّ ظليلٍ من الاستقرار والتمكين والثبات.

دور الأفراد في أمن المجتمعات:

أيها المسلمون!! أمرٌ آخرُ في غاية الأهمية، له أثرُه البالغُ في أمنِ المُجتمع، وهو أن يعلَمَ الواحدُ منَّا أنه لا يعيش لوحده في المجتمع، ولا يحيا لذاته أو لتحقيق مصالحه الشخصيَّة فقط؛ لأن المُسلمَ الواعيَ الصادقَ يشعُرُ بصدق أنه مسؤولٌ عن نفسه وأهله ومُجتمَعه وأمَّته ووطنه، مسؤولٌ عن الأمن والاستقرار، مسؤولٌ عن كل ما يحفظُ للأمة عقيدتَها وعزَّها ومكانتَها، خاصَّةً في ظلِّ الهجَمات المُتوالية، والحمَلات الإعلاميَّة المحمُومة من أعداء الأمة، التي تُهاجِمُ عقيدةَ الأمة وثوابتَها، وتُشوِّهُ صورةَ القائمين عليها في بلاد الحرمَين وغيرها من بلاد المُسلمين.

إن إحساسَ كل فردٍ في الأمة أنه مسؤولٌ مسؤوليَّةً مُباشرةً عن الحفاظ على عقيدته وكيان أمَّته ووطنه، يجعلُه عُنصرًا إيجابيًّا نافعًا ومُفيدًا لنفسه ولمُجتمعه، ومُدركًا للأخطار والمكائد المُحدقة بدينه ووطنه وأمَّته.

ويرتقي بوعيه، فلا يغشُّ أمَّته ولا يخونُها، ولا يكونُ عينًا وظهيرًا لأعدائها، وتُكأةً للمُفسدين والحاقدين؛ بل يكون مُساهمًا مُساهمةً فاعلةً في الحفاظ على أمن المُجتمع، ليردَّ عُدوانَ كلِّ مُعتدٍ وكائدٍ في الداخل والخارج.

إن الشُّعورَ بالمسؤوليَّة الفرديَّة والجماعيَّة من أهم أُسس بناء مُجتمع آمن مُستقرٍّ واعٍ مُتماسك، وسوف يُسألُ الناسُ جميعًا عن نعمةِ الأمن: هل شكَروها وحافظُوا عليها أم لا؟ (ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ) (التكاثر: ٨). قال ابن عباس- رضي الله عنهما- وقتادةُ: "هو الأمنُ والصحَّة".

وثبتَ في "الصحيحين": عن النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: «كلكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته، فالإمامُ راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، والرجلُ راعٍ في أهله وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها وهي مسؤولةٌ عن رعيَّتها، والخادمُ راعٍ في مال سيِّده وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، والرجلُ راعٍ في مال أبيه وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته».

إن من كمال الشريعة: أنها تتشوَّفُ دائمًا إلى تحقيق الأمن واستقرار المُجتمع؛ لما في ذلك من المصالح الكبرى والمنافع العُظمى في الدين

والدنيا،
ولذلك حرَّمَت الشريعةُ جُملةً من الأعمال المنافية لهذه المصالح والمُناقضة لأمن المُجتمع واستقراره؛ كالظُّلم والبغي والخيانة، وعقوق الوالدَين وقطيعة الأرحام، وأكل أموال الناس بالباطل بالرِّبا والرِّشوة، والسرقة والاحتيال.

كما حرَّمَت الشريعةُ قتلَ النفس بغير حقٍّ، وشُربَ الخمر، والزِّنا، والتبرُّج والسُّفور، والاعتداء على الناس باللسان والقول من الغيبة والنَّميمة والسُّخرية والاستهزاء، والتنابُز بالألقاب، وشهادة الزُّور، والتجسُّس، وتتبُّع العورات، والظُّنون الكاذبة، وغير ذلك مما يُشيعُ الفاحشةَ في المُجتمع، ويُسبِّبُ شرخًا مُهلكًا في بناءِ المُجتمع الآمن ووحدته وتماسُكه.

وجوب وقاية الأمة من فتنة الشُّبهات والأفكار الضالَّة:

ومن أعظم ما حرصَت عليه الشريعةُ لبناء المُجتمع الآمن: الحصانةُ والصيانةُ الفكريَّةُ للأمة من فتنة الشُّبهات والأفكار الضالَّة، وأفكار التطرُّف والغلوِّ التي تُسبِّبُ العنفَ والقسوةَ والجُنوحَ في التعامُل مع المُجتمع.

وهذا من أخطر ما تواجهُه المُجتمعات الآمنة، فتُحيلُها إلى مُجتمعاتٍ ثوريَّة فوضويَّة مُتمزِّقة مُتناحرة مُتقاتلة، مما يُشكِّلُ أعظمَ مُناقضة لمقصد الشريعة العظيم: أن تكون الأمةُ جسدًا واحدًا قويًّا مُتماسكًا.

إن من أهم وسائل الشريعة في حفظ الأمن الاجتماعيِّ وبنائه: نظامَ العُقوبات وإقامةَ الحدود والتعزيرات، وتمكين القضاء العادل، وتقوية الحرس والجيوش والشُّرط، والعنايةَ بذلك، والعملَ بالإجراءات التي تردَعُ الظالمَ والمُعتدي، وتأخذ الحقَّ للمظلوم والضَّعيف، فيعيشُ المجتمع آمنًا مُستقرًّا، مكفولةً حقوقُه، مُحاطًا بسياج العدل والرحمة والإحسان.

هذا وإن من أفخم أسس بناء مُجتمع آمن: أن يتعاوَنَ الجميعُ على بناء اقتصاد قويٍّ مُتنوِّع مُزدهر، يُشاركُ في بنائه كلُّ من له قُدرة وطاقة ومعرفة لتحقيق القوَّة الاقتصاديَّة والرُّقيِّ الحضاريِّ، لتكون الأمةُ آمنةً مُطمئنَّةً يأتيها رزقُها رغدًا من كل مكان، ولتكون مُهابةً مرهوبةَ الجناب بين الأمم.

إن صناعةَ الأمن الاجتماعيِّ من الضَّرورات التي لا تقبلُ المُساومَة والمُراجعَة، وهي ليست مسؤوليَّةَ جهةٍ دون جهة، ولا فردٍ دون فرد؛ بل هي مسؤوليَّةُ الجميع؛ لتتضافرَ جهودُ الأفراد والمؤسَّسات، والعلماء والمُصلحين، وذوي الرأي والمكانة، والمُثقَّفين والإعلاميِّين، وأصحاب الأقلام في الصحافة وشبكات التواصُل الاجتماعيِّ، خاصَّةً في ظلِّ التحدِّيات الداخلية والخارجية التي تمرُّ بها الأمة.

لا بُدَّ أن يعرفَ المُسلمون صديقَهم من عدوِّهم، وتتكاتفَ جهودُهم للحفاظ على أمن المُجتمع في جميع بلاد المُسلمين، وبالأخصِّ هنا في بلاد الحرمين، أرض النبُوَّة والوحي، والأمن والأمان.

أهمية الحفاظ على أمن بلاد الحرمين:

إن الحفاظَ على أمن بلاد الحرمَين فريضةٌ واجبةٌ على كل مُسلم ومُسلمة؛ فقد جعلَها الله قيامًا للناس، وأمنًا للعالمين، ومهوَى أفئدة المُسلمين، والحفاظُ عليها وعلى أمنها تحقيقٌ لدعوة إبراهيم الخليل- عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والتسليم-؛ حيث قال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ (إبراهيم: ٣٥).

فلا يجوزُ بأي حال من الأحوال- يا عباد الله- إثارةُ الفوضى، والتفرُّقَ والخُصومات، أو الفتُّ في عضُد وُلاة الأمر القائمين على أمنها بكل ما يستطيعُون، ولا يجوزُ الطَّعنُ في عقيدتها ومناهجها التي مصدرُها الكتاب والسنَّة، أو تشويهُ صُورتها بالأكاذيب والتُّهم الباطلة والدعاوَى المُضلِّة.

لأن قيامَ الأمن- يا عباد الله- في بلاد الحرمين هو في الحقيقة أمنٌ للأمة كلِّها، واستقرارٌ وثباتٌ لمُجتمعات المسلمين، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٩٧)، وقال- سبحانه-: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ (البقرة: ١٢٥)، وقال- سبحانه-: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

سبحان ربِّك ربِّ العزَّة عما يصفون، وسلامٌ على المُرسَلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على نبيِّنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.



أحوال الناس بعد رمضان

الشيخ الدكتور
سعود بن إبراهيم الشريم
إمام المسجد الحرام

الحمد لله مُقلِّب الأيام والشهور، والسنين والدهور، كريمٍ ودود، غفورٍ شكور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله الحريص الصبور، دعا فأبلغ، وبشَّر وأنذر، وبلَّغ رسالة ربه في جميع الأمور، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الميامين البدور، وعلى أصحابه أهل البرِّ والأجور، ومن تبعهم بإحسان ما سطع ضياءٌ، ولاح نور.

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله سبحانه، والثبات على دينه، والعزيمة على الرشد، والغنيمة من كل برٍّ، وإياكم والقصور والفتور؛ فإنهما يُهلِكان العبد ويُقعدانه عن التزوُّد بمعالي الأمور: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

أيها المسلمون: الفرص الثمينة ما لفواتها عِوَض، وإن انتهازها لدليلٌ جليٌّ على قوة الإرادة النابعة عن عزمٍ مُوفَّق، ومن فرِح بالبطالة جَبُن عن العمل، ولا يغُرنَّ المرء رغباتُه الصالحة مُجرَّدة عن العمل، فإنه لن يستفيد منها إلا إذا انتهز كلَّ فرصة سانحة له، وعموم الأعمال الصالحة لا تُكلِّف المرء وقتًا طويلاً ما لم يشُقَّ على نفسه ويُرهِقها عُسْرًا.

ولذا -عباد الله- فإن الميدان سباق، والأوقات تُنتَهَب، وما فات ما فات إلا بالخلود إلى الكسل، ولا نِيلَ خيرٌ إلا بالجِدِّ والعزم، وثمرة الأمرَيْن -عباد الله- أن تعب المُحصِّل للفضائل راحةٌ في المعنى، وراحة المُقصِّر في طلبها تعبٌ وشيءٌ يُعاب عليه إن كان ثَمَّ فهمٌ وإدراك.

والدنيا كلها إنما تُراد لتُعبَر لا لتُعمَر، وسيُودَع كلُّ واحدٍ منَّا قبره ولما يقضِ لُبانتَه منها، ومن ثَمَّ يأسف على فقد ما وُجودُه أنفع له في حين إن تأسُّفه ربما يكون نوع عقوبة عاجلة على تفريطه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الزمر: ٥٦-٥٨).

وما هذه الدنيا -عباد الله- إلا كمائدةٍ شِبَعها قصير، وجوعها طويل، ومن سلك الطريق

الواضح دون فتورٍ أو ملل وردَ الماء فنَهَلَ منه ريًّا، ومن خالفَ فقد وقع في التيه ولاتَ ساعة ارتواء.

أيها المسلمون: إن شهر رمضان قد انصرم وانمَحَق، وتفرَّق نظامُه بعد أن كان اتَّسَق، وانطوَت صحيفةُ ذلك السوق بعد عرضٍ وطلب، وبيعٍ وشراء، وربحٍ وخسارة، وغبنٍ وغِبطة، وصارت أحوال الناس في رمضان وبعد رمضان ثلاثة أضرب:

فضَربٌ من الناس ظنُّوا أن الله لا يُعبَد إلا في رمضان، ولا يُطاع إلا في رمضان، ولا محارم له إلا في رمضان، فبئس القوم هؤلاء الذين لا يعرفون الله إلا في رمضان، وبئس القوم هم إذ لم يربحوا من صومهم إلا الجوع والعطش، ولا من صلاتهم إلا التعب والسهر: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (فصلت: ٢٣).

وضَربٌ آخر من الناس حمَّلوا أنفسهم ما لا تُطيق، فأثقَلوا عليها في العبادة فوق ما أراده الله لهم، وراغَموها دون تلطُّف، وإن مما لا شكَّ فيه أن الرواحل إذا قطَعَت مرحلتين في مرحلة واحدة فهي خَليقةٌ بأن تقِف، والطريق الشاقُّ ينبغي أن يُقطَع بألطف ممكن، ولذا فإن أخذ الراحة للجدِّ جِدٌّ، وغوصُ البحَّار في طلب الدُّرِّ صعودٌ له، ومن أراد البيِّنة على ذلك فليستمِع إلى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إن هذا الدين متين، فأوغِلوا فيه برِفق؛ فإن المُنبَتَّ لا أرضًا قطَع، ولا ظهرًا أبقى". رواه أحمد.

وفي الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "يا أيها الناس: خذوا من الأعمال ما تُطيقون، فإن الله لا يمَلُّ حتى تمَلُّوا، وإن أحبَّ الأعمال إلى الله ما دامَ وإن قلَّ".

أما الضَّربُ الثالثُ -عباد الله-: فهم أولئك المؤمنون المُلهَمون، الخائفون الراجُون، الراغبون الراهبون، الذين توسَّطوا يوم تباين آخرون، واعتدلوا يوم شدَّ مغرورون، بواطنُهم كظواهرهم، رجالٌ مؤمنون ونساءٌ مؤمنات من عُبَّاد ربِّ الشهور كلها، فهم يعبدون الله في كل حين، ويعلمون أن الله اختصَّ رمضان بزيادة فضلٍ وعملٍ لا يُلغِي عملَ الشهور كلها، ولا يستهينُ بالعمل في غيره، يعلمون أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جَوادٌ في كل حِينه، وإنما يزداد جُوده في رمضان.

ولأجل هذا -عباد الله- فإن هناك عباداتٍ هي من الثوابت التي لا تتغيَّر بعد رمضان؛ كالصلاة، والزكاة، والحجّ، وصوم النوافل، والصدقة، والدعاء، وأمرٍ بمعروفٍ، ونهيٍ عن منكر، وغير ذلكم كثير.

ناهيكم -عباد الله- عن ثابت التوبة الذي لا يتغيَّر؛ بل هو مطلوبٌ في كل حينٍ وآن، كما قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١)، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتأوَّلها بقوله: "إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة".

ألا فاعلموا -عباد الله- أنكم قد علمتم ما سمعتم، ولقد أحسن من انتهى إلى ما سمع أو علم، ولقد ذُقتُم طعم العبادة في رمضان، ولذَّة القُرب من الله، فلا تُعكِّروا هذا الصَّفوَ بالكَدَر، والهناءَ بالشقاء، والقُرب بالبُعد: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ (النحل: ٩٢).

فاتقوا الله -عباد الله-، ولا ترجعوا بعد رمضان إلى ارتضاع ثدي الهوى من بعد الفِطام، فما الرَّضاع إلا للطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، وعليكم بالصبر على مرارة الفِطام، والعقد على العافية والمعافاة؛ لأن النكسة أصعب من المرض، والحَوْر بعد الكَوْر بلاءٌ وانهيار.

ولذا فإن من أعظم ما يُعين المرء على الثبات، وحصد الأجور الكبيرة في مُقابل العمل

الصغير؛ ما جاء في أجور صيام النوافل التي يعلم المُقصِّر من خلالها أنه سيكون حِلْسَ تفريط يجعله من القَعَدة المتخلِّفين إذا هو لم يُبادر ويتدثَّر بفضلها ونورها، فقد روى مسلم في صحيحه أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: "من صام رمضان وأتْبَعه بستٍّ من شوال كان كصيام الدهر كله"، ووجه ذلك-عباد الله- أن الله-جل وعلا- جعل الحسنة بعشر أمثالها، فصيامُ رمضان يُعدُّ مُضاعفًا بعشرة شهور، وصيام الستّ بستين يومًا، فيتحصَّل من ذلكم أجر صيام سنةٍ كاملة.

وفي الحديث الآخر: أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال عن صيام ثلاثة من كل شهر-وهي أيام البيض-: "إنها كصيام الدهر"، وعدد أيام البيض في السنة مع ستٍّ من شوال اثنان وأربعون يومًا، فمن صام رمضان، وستًّا من شوال، وأيام البيض في سنةٍ واحدة صار كمن صام سنتين كاملتين، فيتحصَّل بذلكم اثنان وسبعون يومًا بأجر سبعمائة وعشرين يومًا: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الحديد: ٢١)، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

هذا؛ وصلُّوا-رحمكم الله- على خير البرية، وأزكى البشرية: محمد بن عبد الله صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنَّى بملائكته المُسبِّحة بقُدسه، وأيَّه بكم أيها المؤمنون، فقال-جل وعلا-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦).

اللهم صلِّ وسلِّم وزِد وبارِك على عبدك ورسولك محمد صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وارضَ اللهم عن خلفائه الأربعة: أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، وعن أمهات المؤمنين-رضي الله تعالى عنهن أجمعين-، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعِزَّ الإسلام والمسلمين، واخذل الشرك والمشركين، اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك وعبادك المؤمنين.

اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوءٍ فاشغَله بنفسه، واجعل كيده في نحره يا سميع الدعاء.

اللهم فرِّج همَّ المهمومين من المسلمين، ونفِّس كرب المكروبين، واقضِ الدين عن المدينين، واشفِ مرضانا ومرضى المسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم آمِنَّا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك، واتبع رضاك يا رب العالمين.

عزاء واجب

أسرة تحرير مجلة التوحيد واللجنة العلمية بها يتقدمان بخالص العزاء والمواساة إلى الزميل / أحمد رجب في وفاة والدته، رحمها الله رحمة واسعة، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

منبر الحرمين

الجزاء من جنسِ العمل

الشيخ الدكتور
إعداد/ خالد بن علي الغامدي
إمام المسجد الحرام



الحمد لله الذي حكمَ وقدَّر، وبشَّر وأنذَر، أقامَ هذا الكونَ على الميزان والعدل، وامتنَّ على من شاءَ من عباده بالفضل، أحمدُه- سبحانه- حمدًا يليقُ بحكمته البالغة وقدرته الباهرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسع كلَّ شيءٍ رحمةً وعلمًا، وأحاطَ بكل شيءٍ قدرةً وحُكمًا.

أما بعد: فاتقوا الله- عباد الله- وراقبُوه، واعلَموا أنكم إن تتقُوا الله يجعل لكم فُرقانًا ونورًا تمشُون به، ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم.

من قبَسات عدل الله وحكمته وقُدرته:

إن الله-سبحانه وتعالى- قد أودعَ في هذه الحياة سُننًا ثابتةً لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، والعاقلُ السعيدُ هو الذي يتعرَّفُ على هذه السُّنن الإلهية ليعمل بمُقتضاها، ولا يُصادمُها ولا يُخالفُها، فيعيشُ في هذه الحياة عيشةَ الكرام المُوفقين السُّعداء، وله في الآخرة الأجورُ والنَّعماء.

ومن تلكُم السُّنن العظيمة: سُنَّةٌ طالما كان لها الأثرُ الكبيرُ في حياة الناس، وعاقبة أمورهم ومآلهم، ألا وهي: سُنَّة أن «الجزاء من جنس العمل»، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

إنها سُنَّة إلهيَّة كُبرى، وقبسٌ من قبَسات عدل الله وحكمته وقُدرته التي لا حدودَ لها، وقاعدةُ الجزاء الربَّاني في هذا الكون القائم على العدل والميزان الذي لا يعولُ ولا يميلُ ولا يُحابي أحدًا.

ولو تفكَّر الناسُ جميعًا في ظاهر أمرهم وباطنه، وما هم عليه؛ لوجدُوا هذه السُّنةَ تتجلَّى لهم في كل شُؤون حياتهم، ولفقهُوا طرفًا من حكمة الله البالغة في أقداره وأحكامه، فالبرُّ لا يبلَى، والإثمُ لا يُنسَى، والدَّيانُ لا يموتُ، وكما تدينُ تُدان، وكما تُجازي تُجازَى.

أليس من العجيب أن يرحمَ الله بغيًّا؛

لأنها رحمَت حيوانًا كادَ أن يهلك فروَّت عطشَه؟! أليس من المُدهش أن يخسفَ الله بقارون وكنوزه الأرض، ويُجرجرَه فيها؛ لأنه طغَى وبغَى، وكادَ أن يفتنَ الناسَ ويُزلزلَ إيمانَهم بربِّهم؟!

وإن تعجَبُوا.. فعجَبٌ ما أصابَ الصحابةَ يوم أُحُد، حتى قالوا: (أَنَّى هَـٰذَا) (آل عمران: ١٦٥)، فجاء الجوابُ من الحكَم العدل- سبحانه- فاصلاً قاطعًا: (قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ).

الجزاءُ بالعدل وبالفضل المماثل لعمل العبد ومن جنسه سنة ربانية:

إن هذه السُّنة الربَّانيَّة هي محورُ الجزاء بالعدل وبالفضل المُماثل لعمل العبد ومن جنسه، وهي مُطَّردةٌ شرعًا وقدرًا وزمانًا ومكانًا، دلَّت عليها أكثر من مائة آيـة في كتاب الله، وتكاثَرت النصوصُ النبويةُ في تقريرها وترسيخها في النفوس.

فهل سمعتُم أن الله يقول: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن: ٦٠)؟! وهل قرأتُم قولَه- سبحانه-: (مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (النساء: ١٢٣)؟!

ولقد توالَت الآياتُ تلوَ الآيات في بيان أن الله يُجازي أهلَ الإيمان والتقوى بالحياة الطيبة، فيفتحُ لهم بابَ الأنس به ومعرفته والفرح به- سبحانه-، ويُيسِّر لهم أمورَهم، ويكشفُ كروبَهم ويُنجِّيهم، ويحفظهم في أنفسهم وذُرِّيَّاتهم ويكفيهم، وينصُرُهم ويُكرمُهم جزاءَ بما كانوا يعمَلون.

ومن اتَّقى الله وأخلصَ له، وعفَّ عن المحرَّمات؛ صرفَ الله عنه السوءَ والفحشاءَ، وجعلَ له لسانَ صدقٍ في الآخرين، (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف: ٢٤).

ومن صدقَ مع الله، وأحسنَ في قوله وعمله؛ صدقَه الله وآتاه علمًا وحكمًا، وأقبلَ عليه بقلوب الخلق، وجعلها تفدُ إليه بكل الوُدِّ والمحبَّة والرحمة.

وأما عبادُ الله المُستضعَفون المظلومون المغلُوبون، فاسمَعوا بماذا يُجازيهم الله: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ × وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) (القصص: ٥، ٦).

أيها المسلمون:

حُسنُ العاقبة، وطيبُ المآل من الجزاء الحسن؛ فقد ترى الرجلَ في شيبَته يعيش حياةً طيبةً هنيئةً رضيَّة، وما ذاك إلا لأنه كان لله في شبابه، مُحافظًا على طاعات ربِّه ورضاه، فحفظَه الله في الكِبَر، كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «احفَظ الله يحفَظك، احفَظ الله تجِده تُجاهَك» (أخرجه الترمذي وغيرُه).

وقد يُبتلَى المرءُ بمُصيبة فيرضَى ويُسلِّم، فيهدي الله قلبَه، ويرضَى عنه، وتكونُ له العاقبةُ الحسنة، ويُؤتيه الله خيرًا مما أخذَ منه، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمُؤمن، والعاقبةُ للتقوى.

صور من تطبيقات القاعدة الربانية:

واعتبِروا- يا عباد الله-، اعتبِروا بأولئك الذين يُظلُّهم الله الكريمُ في ظلِّه، كيف أنهم لما صبَروا لله في هذه الدنيا، وتحمَّلوا المشاقَّ في سبيله؛ كانت عاقبةُ أمرهم: سُرورًا وحُبورًا، وظلالاً وارفةً باردةً، والناسُ في هولٍ وكربٍ وشمسٍ لاهبة، (وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) (الإنسان: ١٢).

ومن غضَّ بصرَه، وحفظَ سمعَه ولسانَه عن الحرام؛ جازاه الله وعوَّضَه بأن يُطلقَ له نورَ بصيرته وقلبه، ويفتحَ له من الفهم والعلم وسَدادَ القول ما هو أعظمُ لذَّةً وفرحًا من هذه اللذَّات المُحرَّمة.

والكلمةُ الطيبةُ من رِضوان الله، يتكلَّمُ بها العبدُ؛ يكتبُ الله له بها رِضوانَه إلى يوم القيامة.

ومن برَّ والدَيه، ووصلَ رحِمَه؛ وصَلَه الله برحمته وكرمه.

ومن استغفرَ للمُؤمنين والمُؤمنات؛ كتبَ الله له بكل مُؤمن ومُؤمنة حسنة. ومن سترَ مُسلمًا سترَه الله، ومن يُنفق يُنفَق الله عليه، ومن كان في عَون أخيه كان الله في عَونه، وإنما يرحمُ الله من عبادِه الرُّحماء.

وذلك كلُّه أثرٌ من آثار هذه السنَّة الربانيَّة، فالجزاءُ من جنس العمل.

كما جازَى الله تعالى خليلَه ونبيَّه إبراهيم- عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام- بأن جعلَه إمامًا وأمةً يُقتدَى به، ونورًا يُستضاءُ بقوله وفعله، بعد أن اختبرَه الله بكلماتٍ فأتمَّهنَّ، ووجدَه صابرًا حليمًا أوَّاهًا مُنيبًا.

وهذا يُوسف- عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام- جرَت له من الخُطوب والكُروب، ما كان سببًا لأن مكَّن الله له في الأرض، وكانت له العاقبةُ الحسنة.

وسيِّدُ الأولين والآخرين نبيُّنا محمدٌ- صلى الله

عليه وآله وسلم- ابتُلي البلاءَ العظيم، وكمَّل لله مقامات العبودية كلَّها، فكمَّله الله وجمَّله، ورفعَ له ذكرَه في العالمين، وجعله إمامَ الخلق كلهم، في كل المقامات الشريفة في الدنيا والآخرة.

وزوجتُه الصفيَّةُ الرضيَّةُ خديجةُ- رضي الله عنها-، بشَّرها الله ببيت من الجنة من قصَب؛ لأنها كانت أسرَع الناس إلى الإيمان برسول الله، فحازَ قصبَ السبق والشرف، لا صخَبَ فيه ولا نصَبَ، لأنها أحسنَت صُحبتَه، وواسَته بنفسها ومالها، وقامَت بحقوقه- صلى الله عليه وآله وسلم- بلا مملٍ ولا كللٍ ولا رفع صوتٍ ولا ضجَر.

وتتكاثرُ الشواهدُ والأدلةُ والقصص؛ ليعلَم الناسُ كلُّهم أن الجزاءَ من جنس العمل، (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ × وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (الزلزلة: ٧، ٨).

من عجائب البيان لهذه السُّنَّة الإلهيَّة:

أيها المسلمون:

ومن عجائب البيان لهذه السُّنَّة الإلهيَّة: أن من نسيَ الله نسيَه الله، فلا يُبالي به، ومن سمَّع بعمله سمَّع الله به مسامعَ خلقه وصغَّره وحقَّره، ومن راءَى يُرائي الله به، ومن تتبَّع عورات المسلمين تتبَّع الله عورتَه وفضحَه، ومن زاغَ عن الهُدى أزاغَه الله ومدَّ له من العذاب مدًّا، ومن أعرضَ عن ذكر الله عاشَ ضنكًا ونكدًا.

ومن عرَّض المؤمنين والمؤمنات للفتنة والعذاب والقتل والتحريق؛ صرعَه الله شقيًّا ذليلًا مبغوضًا، وله في الآخرة عذابُ الحريق، (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) (البروج: ١٠).

والذين نافقُوا وأجرَموا، لما سخروا من الذين آمنوا وكانوا منهم في الدنيا يضحَكون ويتغامَزون؛ كان الجزاءُ من جنس العمل، (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ × عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ × هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (المطففين: ٣٤- ٣٦).

وقد تحايلَ قومٌ على شريعة الله وأحكامه، ففيَّروا وبدَّلوا وحرَّفوا اتباعًا لأهوائهم وأهواء الذين ظلَموا؛ فغيَّر الله صُورَهم وأشكالَهم، ومسخَهم قردةً خاسئين، وطبَعَ على قلوبهم فلا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرون مُنكرًا إلا ما أُشرِبَ من هواهُم.

وتوعَّد- سبحانه- مانعي الزكاة بكيَّات ثلاث في جباههم وجُنوبهم وظُهورهم، وهي كيَّاتٌ مُناسبةٌ لسُوءِ عملهم، جزاءً لهم بنقيض قصدهم.

ومن كتمَ شرعَ الله، وأخفَى العلمَ الذي يجبُ أن يظهرَ للناس ولم يتُب من ذلك؛ فأولئك يعلنُهم الله ويلعنُهم اللاعنون، ويُلجمُهم الله بلجام من نار يوم القيامة، جزاءً وفاقًا.

وحين نتأمَّل -يا عباد الله-، حين نتأمَّلُ العقوبات التي أنزلَها الله بمن عاندَ أمرَه وخالَفَ رُسُلَه، نجدُ أنها مُناسبةٌ أيَّما مُناسبَة لذنوبهم وأعمالهم، كما قصَّ الله علينا هلاكَ قوم نُوح، وعاد، وثَمُود، وأصحاب الأيكة، وقوم لُوط، وفرعون، وسبأ، وغيرهم، (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (العنكبوت: ٤٠).

قالَ ابنُ عُمر- رضي الله عنهما-: «كان بالمدينة أقوامٌ لهم عيوبٌ، فسكَتُوا عن عيوب الناس، فأسكتَ الله الناسَ عن عيوبهم، فماتُوا ولا عيوبَ لهم، وكان بالمدينة أقوامٌ لا عيوبَ لهم، فتكلَّموا في عيوب الناس، فأظهرَ الله عيوبَهم، فما زالُوا يُعرَفُون بها إلى أن ماتُوا».

وقال إبراهيمُ النَّخعيُّ- رحمه الله-: «إني لأرَى الشيءَ مما يُعابُ، فما يمنَعني أن أتكلَّم فيه إلا مخافةَ أن أبتلَى بمثله».

الجزاء من جنس العمل:

إن استشعار سُنَّة أن الجزاء من جنس العمل، واستحضارها في كل المواقف والأحداث، يمنَحُ العبدَ اليقينَ بعدل الله وحكمته، وأنه القادرُ على كل شيء، الذي لا تخفَى عليه خافية، ويجعل العبدَ يتوقَّعُ الخيرَ من الله، فيُحسنُ الظنَّ بربِّه، ويرجُو رحمتَه وكرمَه وحُسن ثوابه، ويشعُر بالطمأنينة والرِّضا؛ لأنه يعلمُ علمَ اليقين أنه سوفَ يُجازَى الجزاءَ الأوفَى، فلا ييأسُ ولا ييأس، والله لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملًا.

ومن جازاه الله الجزاءَ الحسنَ، فلا يغترَّ بذلك

ولا يفخَر؛ بل عليه أن يشكُر الله ويسأله المزيدَ، لكي يستديمَ هذه النعمة، (لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم: ٧).

ومن جازاه الله جزاءَ السُّوء، فلا يقنَط من رحمة الله وعفوه، وعليه بالتوبة والاستغفار والبُعد عن مساخط الله وغضبه، فما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفع إلا بتوبة.

وإن قوم يُونس- عليه السلام- لما آمَنوا كشفَ الله عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا ومتَّعهم إلى حين.

إن سُنَّة الجزاء من جنس العمل سُنَّةٌ عامَّةٌ على البشريَّة كلها، لا تُحابي أحدًا، ولا تستثني أحدًا، وهي تحلُّ وتنزلُ بمن يستحقُّها في الوقت المناسب في علم الله وحكمته.

فقد كان بين دعوة مُوسَى- عليه الصلاة والسلام- على فرعون وقومه: (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (يونس: ٨٨)، كان بين هذه الدعوة وبين استجابة الله لها وهلاك فرعون وقومه أربعُون سنة، كما ذكرَ ذلك المُفسِّرون، فلا (تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ) (إبراهيم: ٤٢).

وقد يُمهِلُ الله الظالمين المُعتدين، ولكنه لا يُهملهم، وقد يفرَحون بقتل الأبرياء وسفك دمائهم، ويظنُّون كلَّ الظنِّ أنهم أفلتُوا من عقاب الله، فتفجؤهم سُنَّةُ الله من حيث لم يحتسِبُوا.

أيها المسلمون:

إن هذه السنَّة الربَّانيَّة تُربِّي المُسلمَ على التسليم المُطلَق لله الذي بهرَت حكمته العقول، وهي تُؤكِّد على أن بني آدم كلَّهم لا يُحيطون به- سبحانه- علمًا، ولا يُدركون أسرارَ قضائه وقدَره وتدبيره العجيب لأحداث الكون.

فقد يعترِض بعضُ بني آدم ويسخَطون، وقد يشُكُّون حينما يرَون بعض أقدار الله وكيف يرفعُ الله أقوامًا ويضعُ آخرين، ويفتحُ أبوابًا ويُغلِق أخرى، ويُعطي ويمنَع، ويبتلي ويُعافي، ويُغني ويُفقر، ويُكرِمُ ويُهين، ويُعزُّ ويُذلُّ، وأنَّى لابن آدم أن يُدرِك حكمةَ الله وعلمَه؟!

فيا ابنَ آدم! إنك إن أسلمتَ قلبَك لله، وسلَّمتَ لأمر، ورضيتَ بما قسمَ الله لك، واشتغلتَ بما فرضَ الله عليك، وتركتَ ما لا يعنيك؛ أرحتَ قلبَك وسعدتَّ في حياتك، وكنتَ عند ربِّك محمُودًا. وإن لم ترضَ بما قسمَ الله لك، وضيَّعتَ ما فرضَ الله عليك، واشتغلتَ بما لا يعنيك؛ أحاطَت بك الهُمومُ والغُمومُ، وأعرضَ الله عنك، ثم لا يكونُ لك من الدنيا إلا ما قسمَه الله لك، وكنت عند ربِّك مذمُومًا، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (الكهف: ٤٩).

إن بينَك وبين الله خطايا وذنوبًا، وبينَك وبين الناس هفَوات وهَنَات، فإن أحببتَ أن يغفرَ الله لك ويتجاوَز عنك، فأقبِل على الله وتُب إليه، وتجاوَز عن عباده وسامحهم، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! إنك مهما ظلمتَ واستكبرتَ وعلوتَ، واعتديتَ وآذيتَ، فلن تُفلتَ من العدالة الإلهيَّة، وإن ربَّك لبالمرصاد، إذا أخذَ الظالمَ لم يُفلتْه، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! إن أنت بررتَ والديك، ووصلتَ رحمَك، ورحمتَ أهلَك وعيالَك، وأحسنتَ للناس كافَّة؛ وجدتَّ حلاوةَ ذلك وثوابَه، ورأيتَ بعينيك جزاءَ صنيعك وإحسانك، وإن أبيتَ إلا العقوقَ والبغيَ والقطيعَة، وأذَى الناس بالحسَد والحقد والخصومة، فاعلَم أن الجزاءَ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! من أطابَ مطعمَه استجابَ الله دعوتَه، ومن عزمَ على ترك الذنوب ذاقَ حلاوةَ الإيمان وأتتْه الفتوحُ، ومن أصلحَ سريرتَه أصلحَ الله علانيتَه، ومن أصلحَ ما بينَه وبين الله، أصلحَ الله ما بينَه وبين الناس، ومن ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه، ولم يجد حسرةَ فقده، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

يا ابنَ آدم! إنما هي أعمالٌ يُحصيها الله ويكتبُها، وسوف تقرؤها في صحيفة أعمالك يوم تلقاه؛ فمن وجدَ خيرًا فليحمَد الله، ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسَه، فالجزاءُ من جنس العمل، (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وانصُر دينَك، وكتابَك، وسُنَّة نبيِّك، وعبادَك الصالحين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على نبيِّنا محمدٍ، وآله وصحبِه أجمعين.

ذم الإسراف

إعداد/ د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام

الحمدُ لله، الحمدُ لله الذي خلقَ الخلقَ وبرأ، وأحسنَ كلَّ شيءٍ خلقَه وذرَا، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ (طه: ٦)، أحمدُه- سبحانه- وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، على نعمٍ تتكاثرُ، وآلاءٍ تترى.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ الحقِ واليقينِ والإخلاص، بلا شكٍ ولا امتراء، وأشهدُ أن سيدَنا ونبيَّنا محمداً عبدُ الله ورسولُه، المبعوثُ من أمِ القرى، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِ الميامين، وأزواجه أمهاتِ المؤمنين، خيرِ القرونِ وسادةِ الورى، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ، وسلم تسليمًا كثيرًا ما صبحُ أقبل، وليلٌ سرى.

أما بعد: فأوصيكم- أيُها الناس- ونفسي بتقوَى الله، فاتقوا الله- رحمكم الله-، فالميزانُ عند الله التقوَى، وليس الأغنَى وليس الأقوى.

فانظُر- يا عبدَ الله- مقامَك عند ربك لا عند البشر؛ فكم من مشهورٍ في الأرض، مجهولٍ في السماء، وكم من مجهولٍ في الأرض، معروفٍ في السماء!

أخفَى الله القبول، لتبقَى القلوبُ على وجَل، وأبقى بابَ التوبة مفتوحًا، ليبقَى العبدُ على أمَل، وجعلَ العبرةَ بالخواتيم، لئلا يغترَّ أحدٌ بالعمل، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ (الزمر: ٥٣- ٥٥).

معاشرَ المسلمين:

لقد جعلَ الله حياةَ ابن آدم قائمةً على المال، في بقائها، وكمالها، وعزِها، وسعادتها، وعلمها، وصحَّتها وقوَّتها، واتساعِ عُمرانها، وسُلطانها، لقد جعلَه- سبحانَه- قوامَ الناس والحياة، فقال- عزَّ شأنُه-: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ (النساء: ٥)، أي: يستقيمُ بها المعاش، وتقومُ عليها المصالحُ العامَّةُ والخاصَّة.

ووصفَه- سبحانه- بأنه زينةُ الحياة الدُّنيا، فقال- جل وعلا-: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ (الكهف: ٤٦).

وحِفظُ المال في الإسلام هو أحد الضروريات الخمس، التي يقومُ عليها الدِّين، وتقومُ عليها الدنيا.

يقولُ الحافظُ ابن القيِّم- رحمهُ الله-: «واعلَم أنَّ الله جعلَ المالَ قِوامًا للأنفُس، وأمرَ بحفظه، ونهَى أن يُؤتَى السفهاء من الرجال والنساء والأولاد وغيرهم».

يقولُ بعضُ السلف: «لا مَجدَ إلا بفِعال، ولا فِعالَ إلا بمال».

ومن هنا قال عمرُ- رضي الله عنه-: «الخَرَقُ في المَعيشة أخوفُ عندي عليكم من العَوَز، ولا يقلُّ شيءٌ مع الصَّلاح، ولا يبقَى شيءٌ مع الفَساد».

والشريعةُ لم تحرِّم اكتسابَ المال، وتنميتَه وحفظَه؛ بل حثَّت على ذلك، وحضَّت عليه، ولكنَّها حرَّمت الطرقَ الممنوعة في كسبه وإنفاقه.

معاشرَ الإخوة:

تعظُمُ الأمةُ وترقَى في سماء العزَّة والمَنَعة بخِصالٍ، من أكبرها وأظهرها: حفظُها



لمالها، واقتصادُها في معاشها، وترشيدُها في إنفاقها، لا فضلَ لأمة أن تضعَ على موائدها ألوانَ الأطعمة، وصنوفَ المأكل، إنما فضلُها أن يكون لها رجالٌ سليمةٌ أبدانُهم، قويَّةٌ عزائمُهم، نيِّرةٌ بصائرُهم، عاليةٌ طُموحاتُهم، عظيمةٌ قممُهم.

إنَّ الإغراقَ في ملذَّات المطاعم، والتَّكالُبَ على حُطام الدُّنيا، أنزلَ قدرًا من أن يُتهافَت عليه على نحو ما يظهرُ على بعض أبناء هذا الزمان.

معاشر الأحبة:

الإسراف يُفضي إلى الفقر والفاقة، المُسرفُ يُطلقُ يدَهُ في الإنفاق إرضاءً لشهواته، واتباعًا لنزَواته، وكم من بيوت أسَّسها آباءٌ مُقتدرُون، وفي إنفاقهم راشدُون، فورثَهم أبناءٌ مُسرفون، أطلقُوا لشهواتهم العَنان، فتهدَّمت بيوتُهم، وتبدَّدت ثرواتُهم، وتلك عاقبةُ المسرفين، ومآلاتُ المُترفين.

التعلُّقُ بلذائذ العيش، ومُشتهَيات النفوس يُقوِّي الحرصَ على الحياة، ويُقصي عن مواقع الفداء والعَطاء، والعزَّة وعُلوِّ الهمَّة. النفوسُ المُسرفة يضعُفُ طمُوحُها، تصرفُها لذَّاتُها عن الاهتمامات الجادَّة، وتصُدُّها عن طرُق الإبداع والابتكار.

إن من البيِّنِ المعلوم أن النبوغ والعبقريَّة، والتطلُّعَ إلى المعالي لا تُدرَكُ إلا باحتمال المكاره، وركوب المصاعب، واقتحام الأخطار، والمُسرفُ ضعيفُ العزيمة، هزيلُ التطلُّع، ومن ربطَ همَّتَهُ بطمُوح كبير واشتغلَ لتحصيله، انصرفَ عن فنون اللهو، وألوان الملذَّات، ولا يَنالُ المُنَى إلا من هَجَرَ اللذائذ.

إن الذين يُبالغُون في التَّشبُّع والامتلاء، وابتكار أفانين الطهي وضُروب التلذُّذ، لا يصلُحُون للأعمال الجليلة، ولا تُرشِّحُهم هممُهُم القاعدة لعزَّة وتضحية.

أيها الإخوة في الله:

الإسرافُ يُجرِّئُ النفوسَ على ارتكاب الجور والمظالم؛ لأن همَّ المُسرف إشباعُ شهوته، فلا يُبالي أن يأخُذَ ما يأخُذ، من طُرقٍ مشروعةٍ أو غير مشروعة، فيمُدُّ يدَه إلى ما في يد غيره بطرقٍ مُلتوية، ووسائل مُريبة. الغارقُ في ملذَّاته تضعُفُ أمانتُه، فاتباعُ الشهواتِ عنده طاغٍ، والميولُ للملذَّات لديه غالب.

الإسرافُ يدفعُ بصاحبه إلى الإمساك عن بَذل المعروف، وفعل الخير، فملذَّاتُه أخذَت عليه مجامعَ قلبه، فهمُّه وهمَّتُه، إعطاءُ نفسه مُشتهَاها، في مطعومه وملبوسه ومركوبه وأثاثه. المُسرفُون يقبضُون أيديهم، والكرامُ يبسُطُونها لذوي الحاجات، من الفقراء والمنكوبين والمُشرَّدين، ابتغاءَ رضوان الله، وشعورًا بالمسئولية، واعترافًا بفضل الله ونعمائه، مع ما يستبطِنُونه من بواعث المروءة، وحقوق الأخوَّة، ونُبل المشاعر.

أيها المسلمون:

والسَّرَفُ- حفظكم الله ورعاكم- يعارضُ حفظَ المال، وقد قيل: «مَن حفظَ المالَ حفظَ الأكرَمَين: الدِّينَ والعِرض».

ولما بلغَ بشرَ بنَ الحارث أن أسرةً أسرَفَت في الإنفاق من تركة ورثَتها، قال لهم: «عليكم بالرِّفق والاقتصاد في النفقة؛ فلأن تبيتُوا جياعًا ولكم مالٌ، أحبُّ إليَّ من أن تبيتُوا شِباعًا لا مالَ لكم».

ويقول أبو الدرداء- رضي الله عنه -: «إن من فقه الرجل: رفقَه في معيشته».

والإنسانُ يطغَى إذا استغنَى، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧)، ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (العلق: ٦، ٧).

معاشر المسلمين:

لقد ظهرَ السَّرَفُ في العصور المتأخرة بشكلٍ مُزرٍ، فالواجدُ يُسرف، والذي لا يجد يقترضُ من أجل أن يُسرف، ويلبِّي كماليات هو في غِنىً عنها، وهذا من ماديات هذا العصر، وثقافته في غرائزه وشهواته، وغفلته.

معاشر الإخوة:

للإسراف آثارٌ في الصحة وانحرافها، وفي حديث المقداد بن معد يكرب- رضي الله

عنه- قال: سمعتُ رسولَ الله- صلى الله عليه وآله وسلم- يقول: «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنه، بحسْبِ ابنِ آدمَ لقيماتٌ يُقِمْنَ صلبَه، فإن كان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه» (رواه أحمد، والترمذي، والنَّسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: «حديثٌ حسَنٌ»).

الإفراطُ في المأكل والشِّبَع، وإدخالُ الطعام على الطعام، والخضوعُ لمُشتهَيات النفوس، كل ذلك إيذاءٌ للنفس، وانحرافٌ في الصحَّة، وإضاعةٌ للمال، وقعودٌ في الهمَّة، والمؤمنُ يأكلُ بأدب الشرع، فيأكلُ في معيٍّ واحد، وغيرُ المؤمن يأكلُ بمُقتضَى الشهوة والشَّرَه والنَّهَم، فيأكلُ في سبعة أمْعاء. بالحفاظ على اللُّقمة، يكونُ الحِفاظُ على الصحَّة، والحِفاظُ على الثروة.

ومن توجيهات علماء الإسلام: ما قاله ابنُ هُبَيرَة- رحمه الله-، يقول: «لا يَنبغي للمُسلم أن يتناوَل فوق حاجته؛ لأنه قوتُه وقوتُ غيره، فالقسمةُ بينَه وبين غيره لم يُمكن تقديرُها إلا بالإشارة بحسب الاحتياج، فإذا أخذَ شيئًا هو مُشاعٌ بينَه وبين غيره أكثرَ من حاجته فقد ظلمَ غيرَه بمقدار التفاوُت».

وقالوا: إن من السَّرَف أن يُلقَى على مائدة من الخبز أضعافُ ما يحتاجُ إليه الآكلون، ومن السَّرَف أن يضعَ لنفسه ألوانَ الطعام.

ويقول الإمام أحمد: «المرءُ يأكلُ بالسُّرور مع الإخوان، وبالإيثار مع الفقراء، وبالمروءة مع أبناء الدُّنيا، وبالتعلُّم والاتِّباع والأدب مع العلماء».

معاشر الإخوة:

يسير عالَمُ اليوم بالإسراف، في استهلاكه في طريق هلاكه. قُطعانٌ من البشر لا يمتدُّ بصرُها ولا بصيرتُها أبعدَ من التراب وما يُشبهُ التراب، تلتهمُ كل ما يُتاحُ لها من خلال ما عُرف بـ «حُمَّى الاستهلاك»؛ بل هو: سَفَهُ الاستهلاك.

إسرافٌ في الملابس والأزياء، وجريٌ وراء أدوات الزينة، ومُحدَثات الأزياء ومُبتكَراتها، في نفقات مُرهقة، ومسالك مُهلكة، وتصرُّفات سيئة. إسرافٌ في المناسبات الاجتماعية، في الأفراح وفي الأتراح، مُغالاةٌ في المُهور والنفقات، والاحتفالات والمأكولات، وأغلبُ ما يُنفقُ يذهب إلى صناديق القمامة، ومُوقَ النفايات. فنعوذُ بالله من كُفران النِّعَم.

إسرافٌ في السفر ونفقاته، ناهيكم إذا كان السفرُ مُحرَّمًا- عياذًا بالله-، فيجتمعُ بلاءٌ إلى بلاء. إسرافٌ في استخدام المرافق من الماء والكهرباء، في الإنارة والتكييف وغيرها، والماءُ أرخصُ موجود وأعزُّ مفقود، ويُهدرُ بلا حساب. فاتَّقُوا الله في نِعَم الله- حفظكم الله-.

وكما يُنكَرُ سَرَفُ الأفراد، فيُنكرُ سَرَفُ الجماعات، والهيئات والمؤسسات، والشركات والدُّوَل، وهو يحملُ آثارًا وخيمةً، وأبعادًا خطيرةً على اقتصاد الدول وثرواتها، مما يؤدِّي إلى خسائرها، وإعلان إفلاسها- عياذًا بالله-، وهل غايةُ الإسراف إلا الحسرةُ والندامة؟! ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

وبعدُ.. عباد الله:

فدينُكم يُربِّي على الاستغناء عن الأشياء، وليس الاستغناءُ بها، حتى لا يكونَ الناسُ عبيدَ الدِّرهَم والدِّينار، والاستهانة بالقليل تجُرُّ إلى الاستهانة بالكثير، ومن ضيَّعَ القليلَ أضاعَ الكثيرَ، يكسبُ في الدُّنيا ذمًّا، وفي الآخرة إثمًا.

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٦، ١١٧).



معاشر المسلمين:

إن للبدن مطالبَ اتفقَ العُقَلاءُ على أن انتقاصَها إضرارٌ به، والمذمومُ الممقُوت هو مسلكُ المُسرفين، فالإسرافُ المذمومُ غيرُ قصد الزينة، والملاذ في حدود الاعْتدَال، المدلول عليه في قوله- سبحانه-: (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ) (الأعراف: ٣١)، وفي قوله- عزّ شأنه-: (قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ) (الأعراف: ٣٢).

وسلوكُ الوسَط هو مَسلكُ عبادِ الرحمن، المدلولُ عليه في قوله- عزَّ شأنه-: (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا) (الفرقان: ٦٧).

والمذمومُ ما أُخِذَ من غير حلِّه، ووُضِعَ في غير محلِّه، واستعبَدَ صاحبَه، وملَكَ عليه قلبَه، وشغَلَه عن الله والدار الآخرة، وعن حقوق أهله وإخوانه.

وحينما قالوا: «لا خيرَ في الإسراف»، قالوا: «لا إسرافَ في الخير».

ويقولُ سفيانُ بن عُيينة- رضي الله عنه-: «ما أنفقتَ في غير طاعة الله إسرافٌ، وإن كان قليلاً». ويقول شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة- رحمه الله-: «الإسرافُ في المُباحَات هو مُجاوزةُ الحدِّ، وهو من العُدوان المُحرَّم، وتركُ فُضُولها من الزُّهد المباح».

بل قالوا: «إن ما صُرِف فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي، فهو إسرافٌ مذمُوم».

وويلٌ لمن أبطَرته النعمةُ وسَعَةُ العيش، فطغَى واستغرقَ عُمرَه في الشهوات.

ألا فاتَّقُوا الله- رحمكم الله-، واعلَمُوا أنَّ على الإعلام بأنواعه ودِعاياته كفلاً كبيرًا، ومسئوليةً عُظمى، بالتوجيه والتوعية، والترغيب والترهيب. والإعلاناتُ التجارية، والاستهلاكية غيرُ الراشدة تتولَّى في ذلك كذلك كِبرًا عظيما، فيجبُ ترشيدُها وتهذيبُها، ومُساعدةُ الناس على حفظ أبدانهم وأموالهم.

هذا، وصلُّوا وسلِّموا على الرحمة المُهداة، والنِّعمة المُسداة: نبيِّكم محمد رسول الله؛ فقد أمرَكم بذلك ربُّكم، فقال- عزَّ قائلاً عليمًا-: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا) (الأحزاب: ٥٦).

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد، النبيِّ الأميِّ الحبيبِ المُصطفى، والنبيِّ المُجتبَى، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمَّهات المؤمنين، كما صلَّيتَ على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وكرمك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

اللهم أعزَّ الإسلامَ والمسلمينَ، اللهم أعزَّ الإسلامَ والمسلمينَ، اللهم أعزَّ الإسلامَ والمسلمينَ، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وأذلَّ الشرك والمشركين، واخذُل الطغاةَ والملاحدةَ وسائرَ أعداء الملَّة والدين.

اللهم آمنَّا في أوطاننا، وأصلح أئمَّتنا وولاةَ أمورنا، واجعَل اللهم ولايتَنا فيمن خافَك واتَّقاك، واتَّبَع رضاك يا رب العالمين.

اللهم أصلح أحوال المُسلمين، اللهم أصلح أحوال المُسلمين في كل مكان، اللهم احقن دماءَهم، واجمَع على الحقِّ والهُدى والسنَّة كلمتَهم، وولِّ عليهم خيارَهم، واكفِهم أشرارَهم، وابسُط الأمنَ والعدلَ والرخاءَ في ديارهم، وأعذهم من الشُّرور والفتن ما ظهرَ منها وما بطَن.

اللهم اغفِر ذنوبنا، اللهم اغفِر ذنوبنا، واستر عيوبنا، ونفِّس كروبَنا، وعافِ مُبتلانا، واشفِ مرضانا، وارحَم موتانا.

(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ) (الأعراف: ٢٣).

سُبحان ربِّك ربِّ العزَّة عما يصفون، وسلامٌ على المُرسَلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

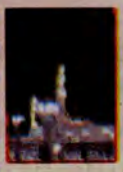
منبر الحرمين



التفكُّر في آيات الله: الشمسُ نموذجًا

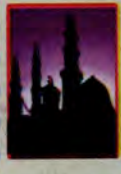
إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن نبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد: فاتَّقوا الله- عباد الله- حقَّ التقوى، وراقِبُوه في السرِّ والنجوَى.













إعداد/ د. عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام المسجد النبوي

أيها المسلمون:

أحسنُ ما أُنفقَت فيه الأنفاسُ هو التفكُّرُ في آيات اللهِ وعجائبِ صُنعه، والانتقالُ منها إلى تعلُّق القلبِ والهمَّة به دون شَيءٍ من مخلوقاته.

وآياتُ الربِّ هي دلائلُه وبراهينُه التي بها يعرفُ العبادُ ربَّهم بأسمائه وصفاته وأفعاله وتوحيده، والتفكُّر في مخلوقات الله عبادةٌ وهداية، وهو مبدأ الخيرات ومفتاحُها، فبه يُعظِّمُ العبدُ ربَّه ويزدادُ إيمانًا ويقينًا، ويفتَحُ بصيرةَ القلب ويُنبِّهُه من غفلته، ويُورثُه حياةً وتدبُّرًا ومحبَّةً لله وتذكُّرًا.

التفكُّرُ في آيات الله من أفضل أعمال القلوب وأنفعها، يدعُو إلى العمل ويُلزِمُ صاحبَه الاستسلامَ لله.

قال سُفيانُ بن عُيينةَ- رحمه الله-: «التفكُّرُ مفتاحُ الرحمة، ألا ترَى أن المرءَ يتفكَّرُ فيتوبُ؟!».

وهو من خير ما يُوعَظُ به العباد، قال- سبحانه-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ (سبأ: ٤٦).

وإذا المرءُ كانت له فكرةٌ، ففي كل شيءٍ له عبرة، والقرآنُ العظيمُ مملوءٌ بدُعاءِ الخلقِ إلى التفكر في الآيات والنظر في المخلوقات، قال- عز وجل-: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وفي مخلُوقات الله عِبَرٌ وعِظاتٌ أمرَ الله بالتفكر فيها، فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

قال شيخُ الإسلام- رحمه الله-: «والنظرُ إلى المخلوقات العُلويَّة والسُّفليَّة على وجهِ التفكر والاعتبار مأمورٌ به مندوبٌ إليه».

والعقولُ التامَّةُ الذكيَّةُ هي التي تُدرِكُ الأشياءَ بحقائقها، والله أثنَى على المُتفكرين في خلقه وأنهم من أولي الألباب، قال- سبحانه-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

وذمَّ اللهُ المُعرضين عن التفكُّر، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (يوسف: ١٠٥).

ومن عقوبات الله: صَرفُ آياته عن المُستكبرين، قال- سبحانه-: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٤٦).

قال الحسنُ البصريُّ- رحمه الله-: «أمنَعَهم التفكر فيها».

والشمسُ من آيات الله اليوميَّة العظيمة، قال- سبحانه-: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ (فصلت: ٣٧).

جعلَها الله للكونِ ضياءً وهي في السماءِ سراجٌ وهَّاج، تجري بلا صوتٍ مع كِبَر حجمِها بحساب دقيق في فلكٍ واسعٍ إلى أجلٍ مُسمًّى، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠).

سخَّرها الله لعباده، فبطُلوعها وغرُوبِها قيامُ الليل والنهار، ولولا وجودُها لبَطَل أمرُ هذا العالم، ففيها من الحِكَم والمصالح ما يعجزُ الخلقُ عن الإحاطة به، جعلَها الله دليلاً على وحدانيَّته وألوهيَّته، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ (العنكبوت: ٦١).

وهي آيةٌ لأرباب العُقول، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢).

ودعا العبادَ إلى النظر في عجيب تسخيرها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ (لقمان: ٢٩).

وبها يحسُبُ الخلقُ أوقاتَهم ويعرفون معالمَهم، قال- سبحانه-: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ (الأنعام: ٩٦).

وخلقَ الله الظلَّ وجعلَ الشمسَ عليه دليلاً.

قال البغويُّ- رحمه الله-: «ومعنى دلالتها عليه: أنه لو لم تكُن الشمسُ لما عُرِفَ الظلُّ، ولولا النورُ لما عُرِفَت الظُّلمةُ، والأشياءُ تُعرفُ بأضدادها».

علَّق الله على مسيرها كثيرًا من العبادات والأحكام؛ ففي الصلاة قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ (الإسراء: ٧٨)، وعن أفضل أوقات الذكر قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ (ق: ٣٩).

وفي الصيام يُفطرُ الصائمُ عند غُروبها.

ومن أمارَة ليلةِ القدر: «تطلُع الشمسُ صبيحةَ يومِها بيضاءَ لا شُعاعَ لها» (رواه مُسلم).

وفي أيام التشريق بعد زوالِها يرمِي الحاجُّ الجمَرات.

وزمنُ انقضاءِ عبادة التوبة ينقضي بطُلُوع الشمس من مغربِها؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «إن الله يبسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويبسُطُ يدَه بالنهار ليتوبَ مُسيءُ الليل، حتى تطلعَ الشمسُ من مغربِها» (رواه مسلم).

وبصلاة قبل طُلوع الشمس وقبل غُرُوبِها رتَّب الله عليها ثوابًا عظيمًا؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «إنكم سترَون ربَّكم كما ترَون هذا القمرَ لا تُضامُون في رُؤيته، فإن استطعتُم ألا تُغلَبُوا على صلاة قبل طُلُوع الشمس- أي: صلاة الفجر-، وقبل غُروبها- أي: صلاة العصر- فافعَلُوا» (رواه البخاري).

وخسوفُها تخويفٌ من الله لعباده؛ قال- عليه الصلاة والسلام-: «إن الشمسَ والقمرَ لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما من آياتِ الله يُخوِّفُ الله بهما عبادَه، فإذا رأيتُم كُسوفًا فاذكُروا الله حتى ينجَلِيَا» (رواه مسلم).

ولعظيم خلقها وكثرة منافعها أقسمَ الله بها، فقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ (الشمس: ١).

ومع هذه العظَمة، فالله هو الذي يُسيِّرُها وهي تُسبِّحُ له، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الحج: ١٨).

وكل يوم بعد غُروبها تسجُدُ لله، قال- عليه الصلاة والسلام-: «يا أبا ذرٍّ! أتدري أين تغرُبُ الشمسُ؟»، قلتُ: الله ورسولُه أعلم، قال: «فإنها تذهبُ حتى تسجُدَ تحت العرش، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨)» (رواه البخاري).

وهي مخلوقةٌ فلا تُعبَدُ، ومن الشرك السجودُ لها، قال- سبحانه-: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟









للشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (فصلت: ٣٧).

وغروبُها أسلوبُ اتَّخَذَهَا الأنبياءُ من أساليب الدعوة إلى الله؛ احتجَّ إبراهيمُ- عليه السلام- على ألوهيَّة الله وبُطلان عبادته بمَغيبها، قال تعالى: (فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: ٧٨، ٧٩).

وقد فُتن بها بعضُ الخلق فعبَدُوها من دون الله، قال الهُدهدُ لسُليمان- عليه السلام- حاكيًا عن ملكة سبأ وقومها: (وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) (النمل: ٢٤).

والمُسلمُ لا يتحرَّى بصلاته عند طلُوع الشمس أو غروبها؛ فإنها حينئذٍ يسجُد لها بعضُ الكفَّار.

ولسُجود بعض الناس لها ينتصبُ الشيطانُ لها عند طُلوعها وعند غروبها، يُوهمُ نفسَه أنهم يسجُدون له، ولسَدِّ ذريعة عبادتها نُهيَ المُسلمُ أن يتحرَّى صلاةً قبل طُلوع الشمس أو غُروبها، قال- عليه الصلاة والسلام-: «لا تحرَّوا بصلاتكم طُلوعَ الشمس ولا غُروبَها؛ فإنها تطلُعُ بقَرني الشيطان» (رواه مسلم).

وعند زوال الشمس كل يوم موعظةٌ للمُؤمن؛ فإن النار تُسجَّرُ- أي: تُملأ وتُوقَدُ- في هذا الوقت، فتُكرَهُ الصلاةُ حينَها، قال- عليه الصلاة والسلام-: «فإن حينئذٍ تُسجَّرُ جهنَّم» (رواه مسلم).

وطُلوعُ الشمس من غير مجراها أمارةٌ على قرب الساعة وإذنٌ من الله بخَراب العالَم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «لا تقومُ الساعةُ حتى تطلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلَعَت ورآها الناسُ آمَنُوا جميعًا، وذلك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها» (متفق عليه).

وأولُ الآيات خُروجًا: طُلوعُ الشمس من مغربها، وخروجُ الدابَّة على الناس ضُحًى، وأيُّهما كانت قبل صاحبَتِها فالأخرى إثرُها قريبًا.

وفي المحشر يجمعُ الله الناسَ الأولين والآخرين في صَعيد واحد، يُسمعُهم الداعي ويُنفذُهم البصر، وتدنُو الشمسُ من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل.

قال- عليه الصلاة والسلام-: «فيكونُ الناسُ على قَدر أعمالهم في العَرق، فمنهم من يكونُ إلى كعبَيه، ومنهم من يكون إلى رُكبتَيه، ومنهم من يكون إلى حَقوَيه، ومنهم من يُلجمُه العرقُ إلجامًا» (رواه مسلم).

أيها المسلمون:

اقتضَت حكمةُ الله أن جعلَ للشمس ارتفاعًا وانخفاضًا ينتُجُ عنه الحرُّ والقرُّ، وفي حرِّ الصيف عظةٌ للمُؤمنين، فشدَّتُه من فَيح جهنَّم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «اشتكَت النارُ إلى ربِّها، فقالت: ربِّي! أكلَ بعضي بعضًا، فأذنَ لها بنفَسَين: نفس في الشتاء، ونفَس في الصيف، فأشدُّ ما تجِدُون من الحرِّ، وأشدُّ ما تجِدُون من الزَّمهَرير» (متفق عليه).

والدنيا مشوبةٌ بالألم والنعيم؛ فألمُها يُذكِّرُ بألَم النار، ونعيمُها يُذكِّرُ بنعيم الجنة، واختلافُ أحوالها من حرٍّ وبردٍ، وليلٍ ونهار، يدلُّ على انقضائها وزوالها.

والمؤمنُ لا يقطعُه عن الله شيءٌ؛ فلا يمنَعُه الحرُّ عن صلاة، وصوم، وبرٍّ، وخير، والله ذمَّ القائلين: (لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ) (التوبة: ٨١)، وتوعَّدهم بقوله: (قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ).

وعجَبًا لمن اتَّقى حرَّ النار، كيف لا يتَّقي نارَ الجحيم؟!

اللهم أصلح أحوالَ المُسلمين في كل مكان، اللهم اجعَل ديارَهم ديارَ أمنٍ ورخاءٍ يا ذا الجلال والإكرام.

(رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (الأعراف: ٢٣).



العنف الأسري.. صوره وأسبابه وعلاجه

اعداد/ د. سعود بن إبراهيم الشريم
إمام المسجد الحرام

الحمدُ لله الوليِّ الحميد، الغفور الودود، ذي البطش الشديد، الفعَّال لما يُريد، وأشهد أن محمداً عبدُ الله ورسوله صلوات الله وسلامُه عليه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى أصحابه الغرِّ الميامين، وسلِّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الوصيَّةَ المبذُولةَ لي ولكم- عباد الله- هي تقوَى الله في الغيب والشهادة، والغضب والرِّضا، والمنشط والمكرَه، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

مكانة الأسرة في الإسلام:

أيها المسلمون: الأسرةُ المُسلمةُ رُكنٌ رئيسٌ من أركان المجتمع المُسلم المُتكامل، وعليه فإن كل ما يطرأ على تلكم الأسرة؛ من استقرار واضطراب، وخفَّة وأناة، ورفق وعُنف سينعكسُ بالضرورة على المجمُوع، بقدر ما لتلكم الأسرة من مكانة وأثر في المجتمع، قل ذلكم أو كثُر.

لذلكم كله أكَّد الإسلامُ أهميَّةَ الأُسرة، ومدَى تأثيرها البالغ على المُجتمع المُسلم إيجابًا وسَلبًا، كيف لا والأسرةُ هي أساسُ النشء والتكاثُر؛ فلا أسَر بلا توالُد، ولا مُجتمع بلا أسَر، لذلكم أقسمَ الله- جل شأنه- بأصل الأسرة؛ إذ قال- جل وعلا-: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ١- ٤).

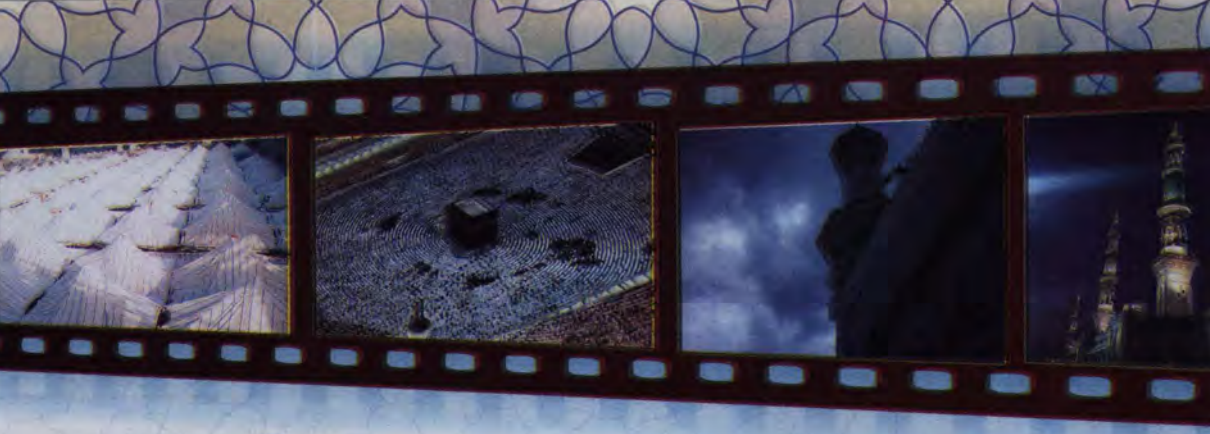
قال بعض المُفسِّرين: "إن المقسَمَ به في الآية: آدمُ- عليه السلام- وما ولَدَ من ذريَّته؛ فإن الله- جل شأنه- لما أقسمَ بالبلَد الذي هو أصلُ الساكن، أقسمَ بعدَه بساكن البلَد، فكأنه أقسمَ بأصول الموجُودات".

وبهذا القَسَمُ يظهرُ الوالدُ والولَد الذين تتكوَّنُ منهم الأسرة، وقد قال النبيُّ- صلى الله عليه وسلم-: «والرَّجُل راعٍ في أهل بيته ومسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيَّتها» (رواه البخاري ومسلم).

خطورة العنف الأسري:

إذا تبيَّن ذلكم- عباد الله-، فلنعلَم أن العُنفَ الأُسريَّ من أعظم ما يُهدِّدُ كيانَ الأسرة المُسلمة، ويثلمُ لُحمَتها، ويُبدِّدُها شذَرَ مذَر، لتنتقلَ عدواها إلى ما يُجاورُها من أسَر وبيُوتات، فتنشأ حالةٌ من الوُجوم والاضطراب، تتجاذبُهما حاضناتٌ من التهوُّر والقسوة، والجهل بالحقوق والواجبات والمسؤوليَّات.

العُنفُ- عباد الله- شرٌّ كله، والرِّفقُ خيرٌ كله، وما كان العُنفُ في شيء إلا شانَه، وما نُزِعَ من شيء إلا زانَه، وإنه ما كان الرِّفق في شيء إلا زانَه، وما نُزِعَ من شيء إلا شانَه.



العُنفُ- عباد الله- داءٌ لا خيرَ فيه البتَّة، وهو قبيحٌ يعظُمُ قُبحُه وضررُه حينما يطال ذوي القُربى، فإن العُنفَ ظُلمٌ ووقعُه على ذوي القُربَى أشدُّ مضاضةً على النَّفس من وَقع الحسام المهنَّد.

العُنفُ- عباد الله- سُلوكٌ مَشينٌ مُتعمَّدٌ، يُلحقُ الضَّررَ بالمُعنَّف به، جسديًّا أو ماليًّا أو نفسيًّا، وهو يصلُ في بعض المجتمعات والبيئات إلى شبه ظاهرة؛ لتكاثُر وقوعها، وفداحة مغبَّاتها، فإن ضحاياها كُثر، وأحاديث الإعلام ومواقع التواصُل عنها في ازدياد ملحُوظ، وهو يُمثِّل خطرًا غيرَ هيِّن على استقرار المجتمع، اجتماعيًّا وسُلوكيًّا، ما يستدعي وجوبَ شحذ الهمَم في التصدِّي له، ببيان أسبابه وحاضناته، وبَذل الدراسات والاستشارات التي تحدُّ منه، إن لم تقضِ عليه بمرَّة.

وهو وإن لم يكُن بدعًا من المُجتمعات، إلا أنه لا يُبرِّرُ التكاسُل تجاهه، أو إعطاءَه أقلَّ الاجتماعيَّة. وإنه ما من داءٍ اجتماعيٍّ إلا وله دواءٌ، علمَه من علمَه، وجهلَه من جهلَه.

وإن ديننا الحنيفَ لم يدَعْ لنا خيرًا إلا دلَّنا عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرنا منه، وإن أولَ عُنفٍ أسريٍّ وقعَ في البشريَّة قد قصَّه علينا ربُّنا- جلَّ وعلا- في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، فقد قال الله في مُحكَم التنزيل عن أول عُنف أسريٍّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢٧- ٣٠).

هذه صورةٌ واحدةٌ من صُور العُنف الأُسريِّ، وهي أعلاها خطرًا وجُرمًا؛ لبُلوغها درجةَ إزهاق النفس بغير حقٍّ، وما دُون ذلكم من الصُّور لا يُمكنُ حصرُه، غيرَ أن من أهمِّها: الضربَ المبرِّح، أو التهديدَ بالطلاق، أو الحرمانَ من النَّفقة، أو الظُّلمَ في العطيَّة بين الأولاد أو بين الزوجات، ونحو ذلكم. هذا إذا كان العُنفُ صادرًا من قِبَل الزوج.

أما إن كان من قِبَل الزَّوجة، فمن صُوره: التربُّصُ بالزوج من خلال هَدر حُقوقه، وتأليب الأولاد على عُقوقه جسديًّا ونفسيًّا وماليًّا. وقُولوا مثلَ ذلكم في العُنف الصادر من الأولاد تُجاه الوالدَين أو أحدهما.

أسباب العنف الأسري:

إذا عُلمَ ذلكم- عباد الله-، فاعلَمُوا أن للعُنف الأُسريِّ أسبابًا كثيرةً، يأتي في مُقدَّمتها:

ضعفُ الوازع الدينيِّ لدَى كثيرٍ ممن يُمارِسُون العُنفَ الأُسريَّ.

يُضافُ إلى ذلكم: جهلُ المُعنِّف بالحقوق والواجبات التي ينبغي أن يُؤدِّيَها على ما كُلِّف به منها.

كما أن تعاطيَ المسكرات والمُخدِّرات وغيرها من أنواع الكُيُوف القتَّالة سببٌ مُنتشر انتشارَ النار في الهَشيم، لدَى من أُصيبُوا بلوثة العُنف الفتَّاكة.

ولربَّما كان من أسباب العُنف: ما يتلقَّاهُ المُشاهدُ من إسقاط إعلاميٍّ، عبرَ الأفلام، والمسلسلات التي يُستعمَلُ فيها العُنفُ، حتى توَّزُ المُشاهدَ أزًّا على مُحاكاتها أو التطبُّع بطبعها؛ لما لها من أثرٍ بالغٍ في التلقين الذهنيِّ الأسر.

يُضافُ إلى ما مضَى- عباد الله-: الأمراضُ النفسيَّة والاجتماعيَّة، كذاك اضطرابُ أحد الزَّوجين أو كليهما في العلاقة الزَّوجية.

وبمثل تلكم الأسباب تبرُزُ آثارُ العُنف على الأُسرة ثم المُجتمع، فلا تسألوا حينئذٍ عما يُحدثُه العُنفُ الأسريُّ من الشَّرخ العَميق لحِصن الأسرة المُستقرِّ، المبنيِّ على أساس السَّكن والمودَّة والرحمة، كما قال



الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

ناهيكم- عباد الله- عن تفلُّت الفتيَات والفتيان من البُيُوت، فرارًا من ذلكم العُنفَ المقوت بعد الاكتواء بلهيبه، وما ينتُجُ عنه من جرائم ووقوع في المُسكرات والمُخدِّرات هروبًا من الواقع المؤلم.

وقد يتعدَّى الأمرُ إلى أبعدَ من ذلكم، ليصلَ درجةَ الانتحار بقتل المُعنِّف نفسه، ولربما تشرَّبَت الأسرةُ خُلُقَ العُنف من مُمارسة الوالدَين؛ ليُكرِّرَ الطفل ذلكم حينما يكبُر، فتُصبحُ وراثة خُلقيَّة، أو أن يُصابَ الأولادُ بالقلق المُزمن والاضطراب النفسيِّ خوفًا من المُستقبَل، فيكرَهُون الزواجَ، ويكرَهُون الأسرة، فينقلبُون عبئًا ثقيلاً على المجتمع، أمنيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وتربويًّا، والله- جل وعلا- قد قال لسيِّد الخلق وأكرمهم وأحلمهم: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وسائل الحد من العنف الأسري:

وإن مُعضلة العُنف الأسريِّ لجديرة بأن تكون من أولويَّات اهتمامات المجتمع المسلم؛ لأن استقراره الاجتماعيَّ والنفسيَّ لا يُمكنُ أن يتحقَّق بمنأى عن استقرار الأسرة التي هي أسٌّ في المجتمع، فكان لزامًا على المؤسَّسات التعليمية والإعلامية والاجتماعي- العامِّ منها والخاصِّ- أن تُعنى بتلكم المُعضلة أيَّما عناية، وذلكم بالتوعية الفكريَّة المُنضبطة لقيمة الأسرة في المجتمع، وتحصيل سُبُل استقرارها، ودَفع سُبُل تفكُّكها قبل الوقوع، أو برفعها بعد الوقوع.

وتقديم الدراسات والدورات الصفيَّة والمدياتيَّة، التي تقضي على العُنف الأسريِّ أو تحدُّ منه بنسبة كبيرة على أقل تقدير.

كما أنه ينبغي للجهات المُشرِّعة أن تُولي اهتمامًا بالغًا في سَنِّ ما من شأنه ضبطُ الأسرة، وسنِّ ما يُمكنُ من خلاله اتخاذُ الإجراءات اللازمة للمُمارسات اللامسؤولة، من قبَل الأولاد تُجاه الأبوَين، أو من الأبوَين تُجاه الأولاد، أو من الزَّوجَين تُجاه أحدهما، أو التعسُّف والانحراف عن أمر الله، بإبراز الفتوَّة في استخدام الولاية؛ لتنقلبَ من إرفاقٍ بالأسرة إلى شقاقٍ بها.

كما أن على المؤسَّسات التعليمية مسؤوليَّةً كُبرى في استحداث الموضوعات الدراسيَّة التي تعنَى بشأن الأسرة، في كافَّة مراحل التعليم، من مُنطلَق أن الوقاية خيرٌ من العلاج.

فإن مثل تلكم الاهتمامات الجادَّة تمنَحُ الأسَرَ والبُيُوتات وعيًا مُلازمًا، يُمكنُ بمُوجبه الخروجَ من زوبعة ذلكم الطبع الشارخ سياج الأسرة واستقرار المجتمع، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦).

هذا وصلوا- رحمكم الله- على خير البريَّة، وأزكى البشريَّة: محمد بن عبد الله صاحب الحوض والشفاعة؛ فقد أمركم الله بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنَّى بملائكته المُسبِّحة بقُدسه، وأيَّه بكم- أيها المؤمنون-، فقال- جل وعلا-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، واخذُل الشركَ والمشركين، اللهم انصُر دينَكَ وكتابَكَ وسُنَّةَ نبيِّك وعبادَكَ المؤمنين.

اللهم فرِّج همَّ المهمُومين من المسلمين، ونفِّس كربَ المكرُوبين، واقضِ الدَّيْنَ عن المدينين، واشفِ مرضانا ومرضَى المسلمين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم آمنَّا في أوطاننا، وأصلِح أئمَّتَنا وولاةَ أمورنا، واجعَل ولايتَنا فيمن خافَكَ واتَّقاكَ واتَّبعَ رضاكَ يا رب العالمين.



التحذير من الغفلة

الحمدُ لله الذي يُحيي ويُميت وهو على كل شيءٍ قدير، تقدَّسَت أسماؤُه وجلَّت صفاتُه، لا إله إلا هو الحكيمُ الخبير، أحيَا القلوبَ بالقرآنِ والمواعظ، والحكمةِ والعملِ الصالحِ المشكُور، ووكَلَ المُعرِضَ عن الحقِّ إلى نفسه فهو في خُسرانٍ وغفلةٍ وغُرور، أحمدُ ربي على نعمه كلِّها، وأشكُرُه على فضله الكبير.

إعداد/ د. علي بن عبد الرحمن الحذيفي
إمام المسجد النبوي

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له السميعُ البصير، وأشهد أنَّ نبيَّنا وسيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه البشيرُ النذير، والسِّراجُ المُنير، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، القُدوة لكل مُؤمن بدينه بصير.

أما بعد؛ فاتَّقُوا الله بفعل كل عمل يرضَاه، والبُعد عن كل عمل يُبغضُه ويأباه؛ فتقوَى الله سعادةُ الدينا، والفوزُ بجنَّة الخُلد في الأخرى، فطُوبَى لمن تمسَّك بها، وويلٌ لمن جانبَها فلم يعمَل بها.

عبادَ الله: أصلِحُوا قلوبَكم بما يُصلِحُ القلوبَ، وراقِبُوها من الواردات عليها المُفسدة للقلوب، فالقلبُ ملكُ الجوارح، كما قال النبيُّ- صلى الله عليه وسلم-: «ألا وإنَّ في الجسد مُضغة، إذا صلُحَت صلُحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسَدَت فسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ» (رواه البخاري ومسلم من حديث النُّعمان بن بشير- رضي الله عنهما).

وهل تعلَمُون أعظمَ أمراض القلوب التي يُحرَمُ من ابتُلِيَ بها من الخير كله؟ أو يُحرَمُ من ابتُلِيَ بها من كثير من أبواب الخير؟

ألا إنَّ أعظمَ أمراض القلوب: هي الغفلة، فالغفلةُ المُستحكمةُ هي التي شقِيَ بها الكفارُ والمنافقون، وهي التي أوجَبَت لهم الخلودَ في النار، قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ (النحل: ١٠٦- ١٠٨).

وقد تكونُ الغفلةُ من المسلم عن بعض أعمالِ الخير، وعن الأخذ بأسباب المنافع والنجاة من الشُّرور، فيفُوتُه من ثواب الخير بقَدر ما أصابَه من الغفلة، ويُعاقَب بالمكرُوهات والشرِّ بقَدر غفلَتِه بتَرك أسباب النجاة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٩)، وقال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴾ (النجم: ٣٩- ٤١).

وقال- صلى الله عليه وسلم- عن ربِّه تعالى: «ادخُلوا الجنةَ برحمَتي، واقتسِمُوها بأعمالكم».

وقال- عليه الصلاة والسلام-: «لا يزالُ قومٌ يتأخَّرونَ حتَّى يؤخِّرَهمُ اللهُ، وإن دخلوا الجنَّة».

وقال تعالى في عقوبة الغفلة عن الأخذ بأسباب النجاة: (أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: ١٦٥)، وقال تعالى: (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ) (الشورى: ٣٠).

والعفوُ هنا للمُسلم وليس للكافر؛ لأن الكافرَ لا يغفرذنبُه إلا بالتوبَة.

الغفلةُ هي: عدمُ إرادةِ الخيرِ قَصدًا، وعدم محبَّته مع خُلوِّ القلبِ من العلم النافع، والعملِ الصالح، وهذه هي الغفلة التامَّةُ المُهلكة، وهي غفلةُ الكفارِ والمنافقين، التي لا يُفلحُ المرءُ معها إلا بالتوبةِ إلى الله.

ولا يتَّبعُ الإنسانُ- إذا استولَت عليه- إلا الظنَّ وما تهوَاه نفسُه، ويُزيِّنُه له شيطانُه، ويُحبُّهُ هواهُ من الشهَوَات.

وهذه الغفلةُ هي التي عاقَبَ اللهُ بها الكفارَ والمنافقينَ في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ) (الأعراف: ١٧٩)، وقال تعالى: (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ) (الأعراف: ١٣٥)، وقال تعالى: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ) (يونس: ٩٢).

وقال عن المنافقين: (صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)، وقال- سبحانه-: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم: ٣٩).

عن أبي سعيد الخُدري- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم-: «إذا دخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ، ودخَلَ أهلُ النارِ النارَ، يُؤتَى بالموت كهيئةِ كَبشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّة! فيشرئِبُّون وينظرُون، فيقولُ: هل تعرفُون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، ويقولُ: يا أهلَ النارِ! فيشرئِبُّون وينظرُون، فيقولُ: هل تعرفُون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، فيُذبحُ بين الجنة والنار، فيقالُ: يا أهلَ الجنَّة! خلودٌ بلا موتَ، ويا أهلَ النارِ! خلودٌ بلا موتَ»، وقرَأَ هذه الآية: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (مريم: ٣٩)» (رواه البخاري ومسلم).

وفي بعض الروايات: «فلولا أنَّ اللهَ كتَبَ الحياةَ لأهْلِ الجنَّة، لماتُوا فرَحًا، ولولا أنَّ اللهَ كتَبَ الحياةَ لأهْلِ النَّارِ، لماتُوا حُزنًا وحسرةً».

ومعنى قولِه تعالى: (وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ) أي: في الدنيا؛ إذ الآخرةُ لا غفلةَ فيها.

فغفلةُ الكفار والمنافقين غفلةٌ مُستحكمةٌ تامَّة، تُخلِّدُ صاحبَها في النار، وهي عدمُ إرادةِ الخير قصدًا، وعدم محبَّته، وخلُوُّ القلبِ من العلم النافع والعملِ الصالح، مع اتِّباع الهوى.

قال الله تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا) (الكهف: ٢٨).

قال أهلُ التفسير: «ولا تُطع من جعَلنا قلبَه غافلاً عن القرآن والإسلام، وكان أمرُه ضياعًا وباطلاً».

وأما غفلةُ المسلم، فهي غفلةٌ عن بعض الأعمال الصالحة التي لا يُضادُّ تركُها إسلامَه، أو الوقوع في بعض المعاصي التي لا تُكفِّر، والغفلة عن عقوباتها.

والغفلةُ من المسلم شرٌّ عليه كبيرٌ، وضررٌ خطيرٌ، تُوردُه المهالك، وتسُدُّ عليه من الخير مسالك.

وللغفلة مضارُّ كثيرة، وشرورٌ مُستطيرة، قال الله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) (الحشر: ١٩)، وقال تعالى: (نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ) (التوبة: ٦٧)، وقال- عزَّ وجل-: (وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ) (الأعراف: ٢٠٥).

بالغفلة عن معرفة كمال التوحيد يقعُ المسلمُ في نقص كمال التوحيد، قال الله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) (يوسف: ١٠٦).

وبالغفلة عن تعلُّم أركان الصلاة وواجباتها يقعُ الخللُ في الصلاة، كما في حديث أبي هُريرة- رضي الله عنه-، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- رأى رجُلاً يُصلِّي فخفَّف صلاتَه، فسلَّم على النبي-

صلى الله عليه وسلم-، فقال: «ارجع فصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ»، فعَلَ ذلكَ ثلاثًا، فعلَّمَه النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- الطُّمأنينةَ في أفعال الصلاة. (رواه البخاري ومسلم).

وبالغفلَة عن تذكُّر صلاة الجماعة، يجُرُّ إلى التساهُل في الجماعة، قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «أثقَلُ الصلاة على المنافقينَ: صلاةُ العشاء وصلاةُ الفجر، ولو يعلَمونَ ما فيهما لأتَوْهُمَا ولو حَبْوًا» (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة).

وبالغفلَة عن ثواب الزكاة، والغفلَة عن عقوبة مانعها، يكونُ التفريطُ في أدائها، ففي الحديث: «ما من صاحب كَنز لا يُؤدِّي زكاتَه، إلاَّ مُثِّل له يومَ القيامة شُجاعًا أقرَعَ يأخذُ بلهزِمَتَيه، فيقولُ: أنا كنزُك، أنا مالُك» (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة).

أي: صارَ هذا الكَنزُ ثُعبانًا يمصُّ شِدقَيه، ويُفرغُ فيه السُّمَّ.

وبالغفلَة عن تذكُّر عقوبات عقوق الوالدَين، يقترفُ الولدُ العقوقَ، فيحقُّ عليه ما قال عليه النبي- صلى الله عليه وسلم-: «وثلاثةٌ لا يدخُلون الجنةَ: العاقُّ لوالدَيه، والدَّيُّوثُ، والرَجِلَةُ من النساء» (رواه النسائي والحاكم، وقال: «إسنادُه صحيحٌ» عن ابن عُمر).

والدَّيُّوث: الذي يُقِرُّ أهلَه على الزِّنا. والمُتشبِّهةُ بالرِّجال.

وبالغفلَة عن عقوبة قطيعَة الرَّحم، يقَعُ الوعيدُ على القاطع، في حديث جُبَيرِ بن مُطعم- رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: «لا يدخُلُ الجنةَ قاطع» (رواه البخاري).

وبالغفلَة عن عقوبات الظُّلم، يكثُرُ الظلمُ في الأرض، فيُسفكُ الدم، ويُؤخذُ مالُ الغير، ويُعتدَى على الأعراض، ويصيرُ العمرانَ خرَابًا، والأرضُ يَبابًا، ويهلِكُ الحرثُ والنَّسلُ، وينتشرُ الخوفُ، ثم تنزلُ العقوبةُ بالظالم، كما قال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «إن اللهَ ليُملي للظالم، حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه»، وقرأ الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢) (رواه البخاري ومسلم من حديث أبي مُوسى).

فالغفلَةُ مفتاحُ شُرور، ويُحرَمُ بها المسلمُ من كثير من الأجُور، وما يدخُلُ النقصُ على المسلم إلا من بابها، فالنجاةُ منها هي السعادةُ، والبعدُ عنها رُقِيٌّ في درجات العبادة، والحذَرُ منها حِصنٌ من العقوبات في هذه الدنيا، وفوزٌ بالنعيم بعد الممات.

ولا يكون الاعتصامُ من الغفلَة والنجاة منها، إلا بالابتعاد عن أسبابها، وعدم الرُّكون إلى الدنيا، التي تغُرُّ المرءَ عن آخرَته.

ومما يُعينُ المسلمَ على تجنُّب الغفلَة: المُحافظةُ على الصلوات جماعةً، بخشُوع وحضور قلب، فالصلاةُ تتضمَّنُ حياةَ القلوب، لما فيها من المعاني العظيمة، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه: ١٤).

ومما يُنجي من الغفلَة: ذكرُ الله على كل حال؛ فالذِّكرُ يُحيي القلوبَ، ويطرُدُ الشيطانَ، ويُزكِّي الروحَ، ويُقوِّي البدنَ على الطاعات، ويُوقِظُ من نوم النسيان، ودوامُه يحفظُ العبدَ من المعاصي.

عن أبي مُوسى- رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: «مثَلُ الَّذي يذكُرُ ربَّه، والَّذي لا يذكُرُه مثلُ الحيِّ والميِّت» (رواه البخاري ومسلم).

ومما يحفظُ العبدَ من الغفلَة: تلاوةُ القرآن؛ ففيه العجائب، وفيه الرغائب، وفيه شفاءُ القلوب، وفيه الحثُّ على كل خير، والزَّجرُ عن كل شرٍّ، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ومما يحفظُ العبدَ من الغفلَة: مُجالسةُ العلماء والصالحين؛ لأنهم يُذكِّرون بالله، ويُعلِّمون العلمَ الشرعيَّ، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٢٨).

ومما يُنجي من الغفلَة: الابتعادُ عن مجالس اللَّهو والفسق وجليس السوء، قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٠).

وفي الحديث: «ومثَلُ جليس السوءِ كنافخِ الكير».

ومما يُنجي من الغفلة: معرفةُ حقارة الدنيا وزوالها، وعدم الاغترار بزخرُفها عن الآخرة؛ فهي التي صدَّت أكثرَ الناس عن الآخرة، واتِّباع الهُدى.

ومما يُنجي من الغفلة: مُجانبةُ الذنوب والمعاصي؛ فكلُّ معصية وقَعَ فيها العبدُ كان ذلك بسبب الغفلة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝٢٠١ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢).

عباد الله: إن من أعظم ما يُنقذُ المُسلمَ من الغفلة وآثارها الضارَّة: ذكرَ الموت وما بعده، فهو واعظٌ بليغٌ، مُشاهَدٌ مسموعٌ، يقينٌ طعمُه، قريبٌ لقاؤه، واقعٌ أمرُه.

عن أبي هُريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: «أكثِروا من ذكرِ هازمِ اللذَّات» -يعني: الموت- (رواه الترمذي، وقال: «حديثٌ حسنٌ»).

ومن أكثَرَ من ذكرِ الموت صلُح قلبُه، وزكَا عملُه، وسلِمَ من الغفلة، وعند الموت يفرَحُ المؤمنُ، ويندَمُ الفاجرُ ويتمنَّى الرجعةَ، وهيهاتَ أن يُستجابَ له، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٠).

وعُمرُ الإنسان ما مضَى في الطاعات، وما مضَى في المعاصي فهو خسارةُ عُمره.

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: «من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرًا». فصلُّوا وسلِّموا على سيِّد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهم بارِك على محمد وعلى آل محمد، كما بارَكتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، وسلِّم تسليما كثيرًا.

اللهم وارضَ عن الصحابة أجمعين، وعن الخلفاء الراشدين المهديِّين: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن سائر الصحابة أجمعين، وعن التابعين ومن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، اللهم وارضَ عنَّا معهم بمنِّك وكرمِك ورحمتِك يا أرحم الراحمين.

اللهم أعزَّ الإسلام والمُسلمين، وأذلَّ الكفرَ والكافرين، وأذلَّ البدعَ التي تُضادُّ دينَك يا رب العالمين، اللهم أذلَّ البدَع التي تُضادُّ دينَك الذي بعثتَ به محمدًا -صلى الله عليه وسلم-، وأذلَّ المُبتدِعين إنك على كل شيءٍ قدير.

اللهم وارزُقنا وثبِّتنا، اللهم ارزُقنا التمسُّك بسنَّة نبيِّك محمد -صلى الله عليه وسلم- كما تُحبُّ وترضَى، اللهم وارزُقنا التمسُّك بسنَّة نبيِّك محمد -صلى الله عليه وسلم- كما تُحبُّ وترضَى يا رب العالمين، وتوفَّنا على ذلك وأنت راضٍ عنَّا يا أكرمَ الأكرمين.

اللهم إنا نسألُك الجنةَ وما قرَّبَ إليها من قولٍ وعمل، ونعوذُ بك من النار وما قرَّبَ إليها من قولٍ وعمل.

اللهم اغفر لنا ما قدَّمنا وما أخَّرنا، وما أسرَرنا وما أعلَنَّا، وما أنت أعلمُ به منَّا، أنت المُقدِّم وأنت المُؤخِّر لا إلهَ إلا أنت.

اللهم أحسن عاقبتَنا في الأمور كلِّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم إنَّا نسألُك العفوَ والعافيةَ، اللهم إنَّا نسألُك العفوَ والعافيةَ في ديننا ودُنيانا وأهلِنا يا رب العالمين، وفي جميع أمورنا.

اللهم تولَّ أمرَ كل مُؤمنٍ ومُؤمنة، وتولَّ أمرَ كلِّ مُسلمٍ ومُسلمة يا رب العالمين.

اللهمَّ ألِّف بين قلوب المُسلمين، اللهم ألِّف بين قلوب المُسلمين، اللهم أطعِم جائعَهم، اللهم اكسُ عاريَهم، اللهم أمِّن خائفَهم، اللهم إنا نسألُك يا ذا الجلال والإكرام أن تنتقمَ ممن ظلَمَهم، اللهم انتقِم ممن ظلَمَ المُسلمين في دينِهم، اللهم انتقِم يا رب العالمين وعجِّل عقوبتَك على من تسلَّط عليهم يا رب العالمين في دمائهم وأموالهم وأرضِهم وشرِّدهم من أرضِهم يا رب العالمين.

الاستغفار في الكتاب والسنة

إعداد/ الشيخ علي عبد الرحمن الحذيفي
إمام المسجد النبوي

الحمد لله، الحمد لله الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، ذي الفضل العظيم، أحمدُ ربي وأشكرُه، وأتوبُ إليه وأستغفرُه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش الكريم، وأشهد أن نبيَّنا وسيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسوله ذو الخُلق العظيم، اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه الدعاة المهتدين إلى الصراط المستقيم.

أما بعد: فاتقوا الله بالعمل بمرضاته، وهجر مُحرَّماته؛ لتفوزوا برضوانه ونعيم جناته، وتنجُوا من غضب عقوباته.

أيها المسلمون: إن ربَّنا- جل وعلا- كثَّر أبوابَ الخير وطُرق الأعمال الصالحات، تفضُّلاً ورحمةً وجُودًا وكرمًا من رب العزَّة والجلال، ليدخُل المسلم أيَّ باب من الخيرات، ويسلُك أيَّ طريق من طُرق الطاعات، ليُصلح الله دُنياه، ويرفعَه درجات في أُخراه، فيُكرمه المولى- سبحانه- بالحياة الطيبة، والسعادة في حياته، وينالَ النعيم المقيم، ورضوان الربِّ بعد مماته.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٤٨)، وقال- سبحانه- عن الأنبياء قدوة الناس- صلى الله وسلم عليهم أجمعين-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وقال النبي- صلى الله عليه وسلم- لمُعاذ- رضي الله عنه-: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّة، والصدقةُ تُطفئُ الخطيئة كما يُطفئُ الماءُ النار، وصلاةُ الرجل في جوف الليل»، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٦، ١٧). ثم قال: «ألا أخبرُك برأس الأمر وعمُوده، وذروة سنامه؟»، قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروة سنامه الجهادُ في سبيل الله» (رواه الترمذي وصحَّحه).

فمن أبواب الخير، ومن طُرق الصالحات والطاعات، ومن الأسباب لمحو السيئات: الاستغفار؛ فالاستغفارُ سُنَّة الأنبياء والمُرسلين- عليهم الصلاة والسلام-، قال الله تعالى عن أبوَي البشر- صلواتُ الله ورحمتُه وبركاته عليهما-: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

وقال عن نُوح- عليه السلام-: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (نوح: ٢٨)، وقال- عزوجل- عن الخليل- عليه السلام-: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: ٤١)، وقال تعالى عن موسى- عليه الصلاة والسلام-: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٥١)، وقال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص: ٢٤).

وقال تعالى آمرًا نبيَّه- صلى الله عليه وسلم-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد: ١٩).

وكان هديُ نبيِّنا- صلى الله عليه وسلم-: كثرةَ الاستغفار، مع أن الله تعالى غفرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؛ فعن ابن عُمر- رضي الله

عنهما- قال: كنا نعُدُّ لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- في المجلس الواحد مائةَ مرَّة: «ربِّ اغفر لي وتب عليَّ، إنك أنتَ التوابُ الرحيم» (رواه أبو داود، والترمذي، وقال: "حديثٌ حسنٌ صحيح").

وعن عائشة-رضي الله عنها- قالت: كان رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- يُكثر أن يقول قبل موته: «سبحان الله وبحمده، أستغفرُ الله وأتوبُ إليه» (رواه البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: "لم أرَ أحدًا أكثرَ أن يقول: "أستغفرُ الله وأتوبُ إليه" من رسول الله- صلى الله عليه وسلم-" (رواه النسائي).

وكان- صلى الله عليه وسلم- يقول بعد الصلاة: «أستغفرُ الله» ثلاثًا؛ رواه مسلم من حديث ثوبان- رضي الله عنه-. ثم يقول الأذكار المشروعة بعد الصلاة والاستغفار.

والاستغفارُ دأبُ الصالحين، وعملُ الأبرار المتقين، وشعارُ المؤمنين، قال الله تعالى عنهم: (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) (آل عمران: ١٩٣)، وقال تعالى: (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (آل عمران: ١٦، ١٧)، قال الحسن: "مدُّوا الصلاةَ إلى السَّحر، ثم أقبَلوا على الاستغفار".

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (آل عمران: ١٣٥)، قال ابن رجب- رحمه الله-: "وأما الاستغفارُ من الذنوب، فهو طلبُ المغفرة وسؤالُها، والعبدُ أحوج شيءٍ إليه؛ لأنه يُخطئُ بالليل والنهار، وقد تكرَّر في القرآن ذكرُ التوبة والاستغفار، والأمرُ بهما والحثُّ عليهما". اهـ كلامُه.

وطلبُ المغفرة من الربِّ- جل وعلا- وعدَ الله عليه الاستجابةَ والمغفرة.

ويُشرعُ أن يطلُب العبدُ المغفرة للذنب المُعيَّن؛ لقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: «إن عبدًا أذنبَ ذنبًا، فقال: يا ربِّ! إني عملتُ ذنبًا فاغفر لي، فقال الله: علم عبدي أن له ربًّا يغفرُ الذنبَ، ويأخذُ به، قد غفرتُ لعبدي»؛ رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه-.

كما يُشرع أن يطلُب العبدُ المغفرةَ مُطلقًا، فيقول: ربِّ اغفر لي وارحَمني، قال الله تعالى: (وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) (المؤمنون: ١١٨).

وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- يُعلِّم الرجلَ إذا أسلمَ أن يدعُو بهذه الكلمات: «اللهم اغفر لي، وارحَمني، واهدني، وعافني، وارزُقني» (رواه مسلم من حديث طارق بن أشيم- رضي الله عنه-).

كما يُشرعُ للعبد أن يطلُب من ربِّه- سبحانه- مغفرةَ ذنوبه كلِّها، ما علم منها وما لم يعلَم، فإن كثيرًا من الذنوب لا يعلمُها إلا الله، والعبدُ مُؤاخَذٌ بها.

عن أبي موسى الأشعري- رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه كان يدعُو بهذا الدعاء: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنتَ أعلمُ به منِّي، اللهم اغفر لي جِدِّي وهزلي، وخطأي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخَّرت، وما أسررت وما أعلنتُ، وما أنت أعلمُ به منِّي، أنت المُقدِّم وأنت المُؤخِّر، وأنت على كل شيء قدير» (رواه البخاري ومسلم).

ولقول النبي- صلى الله عليه وسلم-: «الشركُ في هذه الأمة أخفى من دَبيب النمل». فقال أبو بكر- رضي الله عنه-: فكيف الخلاصُ منه يا رسولَ الله؟ قال: «أن تقول: اللهم إني أعوذُ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرُك من الذنب الذي لا أعلَم» (رواه ابن حبان من حديث أبي بكر- رضي الله عنه-، وأحمدُ من حديث أبي موسى).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه كان يدعُو: «اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه، دقَّه وجلَّه، خطأه وعمدَه، سرَّه وعلانيتَه، أوَّلَه وآخرَه» (رواه مسلم وأبو داود). فإذا سألَ العبدُ ربَّه مغفرةَ ذنوبه ما علم منها وما لم يعلَم، فقد وُفِّق توفيقًا عظيمًا.

ودُعاءُ العبد ربَّه بمغفرة الذنوب دُعاءَ إخلاص وإلحاح، وسُؤال تضَرُّع وتذلُّل، يتضمَّن التوبةَ من الذنوب، وسُؤالُ التوبة والتوفيقُ لها يتضمَّنُ الإستغفار، فكل من الاستغفار والتوبة إذا ذُكر كلٌّ منهما بمُفرده تضمَّن الآخر، وإذا اجتمعَا في النصوص كان معنى الاستغفار طلبَ محو الذنب وإزالة أثره، ووقاية شرِّ ما مضَى من الذنب وسَتره. والتوبة الرجوعُ إلى الله بترك الذنوب، ووقاية ما يخافُه في المُستقبل من سيئات أعماله، والعزمُ على ألا يفعلَه.

وقد جمعَ بين الاستغفار والتوبة: قولُه تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود: ٣)، وغيرُ ذلك من الآيات.

وقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: «يا أيها الناس! تُوبوا إلى ربِّكم واستغفروه؛ فإني أتوبُ إليه وأستغفرُه كل يوم مائةَ مرَّة» (رواه النسائي من حديث الأغرِّ المزني- رضي الله عنه-).

والعبدُ مُحتاجٌ إلى الاستغفار دائمًا أشدَّ الحاجة، ولا سيَّما في هذا الزمان؛ لكثرة الذنوب والفتن، ليُوفِّقه الله في حياته وبعد مماته، ويُصلح شأنَه.

فالاستغفارُ بابُ خيرات، ودافعُ شرور وعقوبات، والأمةُ بحاجة شديدة إلى دوام الاستغفار، ليرفعَ الله عن الأمة العقوبات النازلة، ويدفَع العقوبات المُستقبَلة، ولا يزهَدُ في الاستغفار إلا من جهلَ منافعَه وبركاته.

وقد استفاضَ بفضائله القرآنُ والسنَّة؛ قال الله تعالى عن صالح- عليه السلام-: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل: ٤٦). فبالاستغفار تُرحمُ الأمةُ.

وقال تعالى عن نُوح- عليه الصلاة والسلام-: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (نوح: ١٠-١٢).

وقال تعالى عن هُود- عليه السلام-: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ٥٢). وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣).

قال أبو موسى- رضي الله عنه-: "كان فيكُم أمانان؛ فأما النبي- صلى الله عليه وسلم- فقد مضَى، والاستغفارُ باقٍ فيكُم إلى يوم القيامة".

فكثرةُ استغفار الأمةِ رافعٌ ما نزل ووقع، ودافعٌ ما سينزلُ؛ لأنه ما نزلَ بلاءٌ إلا بذنب، وما رُفِع إلا بتوبةٍ واستغفار.

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: قال رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم-: «من لزم الاستغفارَ جعلَ الله له من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل همٍّ فرَجًا، ورزقَه من حيث لا يحتسب» (رواه أبو داود).

وقد وردَ عن النبي- صلى الله عليه وسلم- كلمات محفوظة مُباركة في الاستغفار، ففي قولها الثوابُ العظيم، من ذلك:

قولُه- صلى الله عليه وسلم-: «من قال: أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه، غُفرت ذنوبُه وإن كان قد فرَّ من الزحف» (رواه أبو داود والترمذي والحاكم، وقال: "حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري ومسلم").

وعن أبي سعيد الخُدري- رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه ثلاث مرات،

غفرَ الله له ذنوبَه وإن كانت مثلَ زبَد البحر» (رواه الترمذي).

وفي الحديث أيضًا: «من قال قبل فجر يوم الجمعة: أستغفرُ الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه ثلاثًا، غُفِرَت ذنوبُه وإن كانت مثلَ زبَد البحر».

وعن شدَّاد بن أوس- رضي الله عنه-، أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: «سيِّد الاستغفار أن يقول العبدُ: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتَني وأنا عبدُك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. من قالها في النهار مُوقنًا بها فماتَ من يومه قبل أن يُمسي دخلَ الجنة، ومن قالها من الليل وهو مُوقِنٌ بها فمات قبل أن يُصبح، فهو من أهل الجنة» (رواه البخاري).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسولَ اللهَ- صلى الله عليه وسلم- يقول: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدم! لو بلغَت ذنوبُك عنانَ السماء، ثم استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي» (رواه الترمذي، وقال: "حديثٌ حسن").

كما يُشرع الاستغفارُ عند القيام بالطاعة وبعدَها، لجُبران ما كان فيها من نقص، والابتعاد عن العُجب والرياء، قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٩٩)، وقال- سبحانه-: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المزمل: ٢٠). فأمرَ بالاستغفار مع هذه الطاعات وبعدَها.

كما يُشرعُ أن يستغفرَ المُسلم للمُؤمنين والمؤمنات، والمُسلمين والمُسلمات، الأحياء منهم والأموات، إحسانًا وحبًّا وسلامةَ صدر، ونفعًا للمُسلمين، وشفاعةً لهم عند الله، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠).

وعن عُبادة بن الصامت- رضي الله عنه-، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «من استغفرَ للمُؤمنين والمُؤمنات، كتبَ الله له بكل مُؤمن ومُؤمنة حسنة»؛ قال الهيثميُّ: "إسنادُه جيِّد".

وهذا كالاستغفار لهم في الجنائز، والاستغفار لهم في المقبرة إذا زارَهم، واقتداءً بحمَلة العرش والمُقرَّبين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر: ٧)، وهذا من أعظم النُّصح والمحبَّة للمُؤمنين.

عباد الله: استَجيبُوا لأمر ربِّكم، قال الله تعالى في الحديث القُدسي: «يا عبادي! إنكم تُخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفرُ الذنوبَ جميعًا، فاستغفرُوني أغفر لكم» (رواه مسلم من حديث أبي ذرٍّ).

فأقبلوا على ربِّكم بالاستغفار، ترَوا كرمَه وجُودَه وفضلَه وبركاتِه، وتجِدوا محوَ السيئات، ورفعَ الدرجات.

عباد الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقد قال- صلى الله عليه وسلم-: «من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرًا»، فصلُّوا وسلِّموا على سيِّد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، اللهم وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميدٌ مجيد، وسلِّم تسليمًا كثيرًا.



العمل الصالح في رمضان

إعداد/ د. عبد المحسن بن محمد القاسم
إمام المسجد النبوي

منبر الحرمين

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فاتَّقوا اللهَ- عبادَ اللهِ- حقَّ التقوى، وراقِبُوه في السرِّ والنجوَى.

أيها المسلمون: شرفُ الإنسانِ في استسلامِه لأوامرِ اللهِ وتحقيقِ العبوديَّةِ له دُونَ ما سِوَاه، وهو ميزانُ التفاضُلِ بينَ العباد، ومن أرادَ السعادةَ الأبديَّةَ فليلزَمِ العبوديَّةَ للهِ.

والزمانُ ميدانٌ فسيحٌ للتنافُسِ فيها، ولله في أيامِه نفَحَاتٌ يمُنُّ فيها على عبادِه، والمؤمنُ يتعرَّضُ لها لعلَّه أن تُصيبَه نفحَةٌ لا يشقَى بعدَها أبدًا.

وها هو رمضانُ سيِّدُ الشهورِ نعيشُ لحظاتِه، موسمُ الخيراتِ والسُّباقُ في القُرُبات، تكثُرُ فيه المِنَحُ والبركاتُ، وتزدادُ فيه العطايا والهِبات، يُضاعفُ اللهُ فيه الأجرَ ويُجزِلُ المواهبَ ويفتَحُ أبوابَ الخيرِ لكلِّ راغب.

خصَّه اللهُ بالفضلِ دُونَ سائرِ الشهور، واختصَّت أمَّتُنا بصيامِ شهرٍ تامٍّ على سائرِ الأممِ في الدُّهور.

السعيُ فيه مشكُورٌ، والمؤمنُ فيه محبُورٌ. حلَّ بنا وهو عن قليلٍ راحلٌ عنَّا، شاهدٌ لنا أو علينا، ومُؤذِنٌ بسعادةِ أقوامٍ وشقاءِ آخرين.

رمضانُ شهرٌ مُبارَكٌ أنزلَ اللهُ فيه أعظمَ كُتُبِه، قال- سبحانه-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وفيه تُفتَّحُ أبوابُ الجنةِ، وتُغلَّقُ أبوابُ النيران، وتُصفَّدُ الشياطين ومردَةُ الجان. محفوفٌ بالرحمةِ والمغفرةِ والرِّضوان، وفيه ليلةُ القدرِ ليلةٌ مُبارَكةٌ هي خيرٌ من ألفِ شهر، ولشرفِها تنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها، وفيها الخيرُ والسلامُ حتى مطلعِ الفجر.

شهرٌ تُكفَّرُ فيه الذنوبُ والآثام، قال- عليه الصلاة والسلام-: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان مُكفِّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجتنَبَ الكبائر» (رواه مسلم).

و«رغِمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليه رمضان ثم انسلَخَ قبل أن يُغفَرَ له» (رواه الترمذي).

ونصرُ المسلمين كثيرًا ما يكونُ فيه؛ كيوم الفتح ويوم الفُرقان.

وفيه تجتمِعُ أصولٌ من العباداتِ ويكثُرُ الخيرُ ويُجدِّدُ فيه الإيمان، شرعَ اللهُ فيه من الأعمالِ ما به يثقُلُ الميزان.

وكان من هديه- عليه الصلاة والسلام-: الإكثارُ فيه من أنواعِ العبادة، ويجتهِدُ في أيامِه ولياليه ما لا يجتهِدُ في غيره.

وعلى هذا كان سلَفُ الأمةِ والصالحون:

لما حضرَ الموتُ عامرَ بن عبد القيس بكَى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: "ما أبكي جزعًا من الموتِ، ولا

حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الليل".

وأفضلُ القُربات: إخلاصُ العمل لله وتوحيده، ومُتابعةُ سُنَّة النبي- صلى الله عليه وسلم-.

والصلاةُ عامُود الدين ونورُ المُؤمنين، وبها صلاحُ العمل وقبولُه، وهي أولُ ما يُحاسَبُ عليه العبدُ من دينه، ومن نامَ عن فرضها لم يعرف رمضان، ومن تكاسَلَ عن سُنَنها ورواتبها فقد غفَلَ عن فضل رمضان.

وصومُ رمضان شعارُ الطاعة فيه، فرضَه الله على الأنام، وجعلَه أحدَ أركان الإسلام، قال- سبحانه-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ (البقرة: ١٨٣).

خصَّه الله لنفسه دون سائر الأعمال، وجعلَ ثوابَه بغير عدٍّ ولا حساب، قال- عليه الصلاة والسلام-: «كل عمل ابن آدم يُضاعَفُ الحسنةُ إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله- عز وجل-: إلا الصومَ فإنه لي وأنا أجزي به» (رواه مسلم).

وهو عبادةٌ في الإسلام عظيمة، قال أبو أمامة- رضي الله عنه-: أتيتُ النبيَّ- صلى الله عليه وسلم- فقلتُ: مُرني بأمرٍ آخُذُه عنك. قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثلَ له» (رواه النسائي).

و«من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه» (متفق عليه).

«وفتنةُ الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يُكفِّرُها الصيام» (متفق عليه).

وهو فديةٌ لبعض الأعمال أو كفَّارةٌ لها، وبه يستر العبدُ نفسَه من الآثام والنار، قال- عليه الصلاة والسلام-: «الصوم جُنَّة» (رواه الترمذي).

و«لخُلُوفُ فم الصائم أطيَبُ عند الله من ريح المسك» (متفق عليه).

وفي تعجيل الفطر وتأخير السحُور خيريَّةُ الأمة، ويوم القيامة يأتي الصوم شفيعًا لأصحابه فيقول الصيام: «أيْ ربِّ! منعتُه الطعامَ والشهواتِ بالنهار فشفِّعني فيه، ويقولُ القرآن: منعتُه النومَ بالليل فشفِّعني فيه»، قال: «فيُشفَّعان» (رواه أحمد).

والجنةُ أعدَّها الله لمن أطابَ الكلامَ، وفيها بابٌ يُقال له "الريان" لا يدخلُ منه إلا الصائمون، وإذا دخلُوها يُقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ (الحاقة: ٢٤).

قال مُجاهدٌ- رحمه الله-: "نزلت في الصائمين".

في الصيام حلولُ الفرح والسُّرور، قال- عليه الصلاة والسلام-: «للصائم فرحَتان يفرحُهما: إذا أفطرَ فرِحَ، وإذا لقيَ ربَّه فَرِحَ بصومه» (رواه البخاري).

وكلُّه خير، قال- سبحانه-: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ (البقرة: ١٨٤).

وللصوم مقاصدُ وحِكَمٌ عظيمة: فبه يمتثلُ العبدُ مُراقبةَ ربِّه في سرِّه وإعلانه، ويتَّقيه ليفوزَ بجنَّته ورضوانه، ويقيه سخطَه ونيرانَه.

وفيه تحقيقُ الصبر على طاعة الله وأوامره، وعن نواهيه وعصيانه. واصلاحُ النفس وتزكيتُها يكمُل في الصيام.

وحفظُ الجوارح وتهذيبُ الأخلاق عاجلُ بُشرى الصائم، قال- عليه الصلاة والسلام-: «فإذا كان يومُ صوم أحدكم فلا يرفُث ولا يصخَب، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتَلَه فليقُل: إني صائم» (متفق عليه).

والشهواتُ تنكسرُ بالصيام، وإلى ذلك أرشدَ- عليه الصلاة والسلام- من عجزَ عن الزواج، فقال: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجاء» (متفق عليه).

وبه صحَّةُ الأبدان وسلامةُ الأذهان، ورِقَّةُ القلب، والقُربُ من الرحمن، كما أنه يصُونُ الجوارحَ عن المعاصي ويخذُلُ الشيطانَ.

وبه يعرفُ العبدُ نعمَ الله عليه فيشكُرُها، قال تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

بالصيام يعرفُ العبادُ ضعفَهم وحاجتَهم إلى ربِّهم، وفيه يتجلَّى يُسرُ الإسلام وسماحتُه؛ فنهَى عن الوصال واستحبَّ السحورَ وتأخيرَه، وتعجيلَ الإفطار، ورخَّصَ في الفِطر للمُسافر والمريض والحامل والمُرضع.

وفي رمضان يتأكَّدُ استحباب القيام، ومن صفات أهل الجنة: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ (الذاريات: ١٧)، ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ (السجدة: ١٦).

قال- عليه الصلاة والسلام-: «من قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه» (متفق عليه).

و«من قامَ مع الإمام حتى ينصرفَ كُتِبَ له قيامُ ليلة» (رواه الترمذي).

وكان- عليه الصلاة والسلام- إذا دخلَت العشرُ شدَّ مئزَرَه، وأحيَى ليلَه.

وفيها ليلةُ القدر، من قامَها «إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه» (متفق عليه).

والصدقةُ بُرهانٌ، وأفضلُها ما كان في رمضان، وإذا

أصابَك الجوعُ والظمأُ فتذكَّر إخوانًا لك يُكابدون دهرَهم ذلك، واللهُ كريمٌ يُحبُّ الكرم، ونبيُّنا- صلى الله عليه وسلم- أجودُ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضان حين يلقَاهُ جبريلُ فيُدارسُه القرآن، فلهو أجودُ بالخير من الرِّيح المُرسَلة، ولا يُسألُ شيئًا إلا أعطاه.

فأنفقُوا من طيِّب كسبكم، واحتسبُوا عند الله أجرَكم، فبالصدقة بركةُ الأموال وطهارةُ الأنفُس، وكلُ امرئٍ في ظلِّ صدقتِه يوم القيامة، وممن يُظلُّهم الله في ظلِّ عرشه: «ورجلٌ تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلَمَ يمينُه ما تُنفقُ شمالُه» (متفق عليه).

والمُؤمنُ لا يستقلُّ شيئًا، فرُبَّ درهمٍ سبقَ ألفَ درهَم.

ومن الصدقات: سُقيا الماء وإطعامُ الطعام، و«مَن فطَّر صائمًا كان له مثلُ أجره غيرَ أنه لا ينقُصُ من أجر الصائم شيئًا» (رواه الترمذي).

وكان ابنُ عُمر- رضي الله عنهما- يصومُ ولا يُفطِرُ إلا مع المساكين.

والجمعُ بين الصدقة والصيام من مُوجبات الجنة، ومن جادَ على عبادِ الله جادَ الله عليه بالفضلِ والعطاء، والجزاءُ من جنس العمل.

قال- عليه الصلاة والسلام-: «إن في الجنة غُرفًا تُرى ظهورُها من بُطونها، وبُطونُها من ظهورها». فقام أعرابيٌّ فقال: لمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «لمن أطابَ الكلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وأدامَ الصيامَ، وصلَّى بالليل والناسُ نيام» (رواه الترمذي).

وعُمرةٌ في رمضان تعدلُ حجَّة. وأعظمُ الناس أجرًا في هذا الشهر أخلصُهم لله وأكثرُهم له ذكرًا، وخيرُ الذكر تلاوةُ القرآن العظيم، قال- سبحانه-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ (فاطر: ٢٩-٣٠).

ومن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالها، والماهرُ به مع السَّفَرَة الكرام البرَرَة.

وفي كل ليلة من رمضان كان جبريلُ- عليه السلام- يُدارسُ نبيَّنا- صلى الله عليه وسلم-، وفي العام الذي تُوفي فيه دارسَه مرتين.

وكان الزُّهريُّ- رحمه الله- إذا دخلَ رمضانُ قال: "إنما هو تلاوةُ القرآن وإطعامُ الطعام".

ومن الفوز: الإقبالُ على كتاب الله بقلوبٍ حاضرة، وتدبُّر آياتِه، والعملُ بمُحكَمه.

وليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء، وهو حبلٌ ممدودٌ بين العبد وربِّه، لا واسطةَ فيه ولا حائل، قال- سبحانه-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦).

ودعوةُ الصائم لا تُردُّ، وأسمعُ الدعاء: جوفُ الليل الآخر ودُبُر الصلوات المكتوبات.

وفي برِّ الوالدَين وصلة الأرحام رفعةُ الدرجات، وفي الأيام الفاضلة يزدادُ الابنُ الصالحُ قُربًا من والديه وخدمةً لهما.

ومن دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعَه إلى يوم القيامة، ولئن يهدِيَ اللهُ بك رجُلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النَّعَم.

والصُّحبةُ الصالحةُ عونٌ وقوةٌ وثباتٌ، ولا غنى لعاقلٍ عنها، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠).

وأمارةُ الصلاة: حفظُ اللسان ولُزومُ العمل، وإذا أرادَ اللهُ بقومٍ شرًّا ألزمَهم الجدلَ ومنعَهم العملَ، والتوبةُ بابُها مفتوحٌ وعطاءُ الله ممنوح، والموفَّقُ من طرقَ بابَها وأكثرَ الإلحاحَ على ربِّه، وطُوبَى لمن وجدَ في صحيفته استغفارًا كثيرًا.

عباد الله: ففي الطاعات لذَّةُ المُؤمن وسُرورُه وفلاحُه وحُبورُه، والتقوَى لا تُفارقُ ليلَه ونهارَه، والمُسلمُ لا يقعُدُ فراغًا؛ فإن الموتَ يطلُبُه. ومن حاسبَ نفسَه ربِحَ، ومن غفَلَ عنها خسر، ومن نظرَ العواقبَ نجا، وطُوبَى لمن ترك شهوةً حاضرةً لموعدٍ غُيِّبَ لم يرَه.

أيها المسلمون:

التقرُّبُ إلى الله بالصيام لا ينفَعُ مع ترك الفرائض، وإذا صُمتَ فليصُم معكَ سمعُك وبصرُك ولسانُك ويديك، ولا تجعَل يومَ صومك كيومِ فطرك.

فاحفَظُوا صيامَكم من القوادِح والمنغِّصات، واحذَروا انتهاكَ الحُرُمات وسماعَ المُحرَّمات، وإياكُم والنظرَ إلى المُحرَّمات، قال- عليه الصلاة والسلام-: «من لم يدَع قولَ الزُّور- أي: الكذبَ- والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طعامَه وشرابَه» (رواه البخاري).

ومن أطلقَ بصرَه في المُحرَّمات دامَت حسرتُه وطالَ ندمُه.

والمرأةُ الصالحةُ عليها جلبابُ الحياء وجمالُ السِّتر، بعيدةٌ عن مُخالطةِ الرِّجالِ الأجانب ووُلوجِ الأسواق والبُروز لغير حاجة.

اللهم تقبَّل منا صيامَنا وقيامَنا.

والحمد لله رب العالمين.



حال المسلم بعد رمضان

منبر الحرمين

إعداد/ د. خالد بن علي الغامدي
إمام المسجد الحرام

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفُسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتَّقوا الله- عباد الله- وراقِبُوه، واعلَموا أن تقوَى الله أكبرُ وأجلُّ أسباب النصر والتمكين والتوفيق الإلهيِّ، وما سبقَ مَن سبَق، ولا ارتفعَ من ارتفعَ، ولا عزَّ من عزَّ إلا بما وقرَ في القلوب ورسَخ؛ من تعظيم الله وإجلاله وتقواه، وسلامة الصُّدور وسخاوَة الأنفُس، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ (الطلاق: ٢، ٣).

أمة الإسلام: ها نحن قد فارَقنا عن قريب أيامًا من أعظم أيام الله المشهُودة، وشهرًا هو خيرُ شهُور السنة، وقد كنا من قبلُ نُهيِّئُ النفوسَ لاستقباله والإعداد له، ثم في سرعة عجيبة انقضَت أيامُه ولياليه المُباركة بما حمَّلناها من أعمال، خُتم عليها فلا تُفتَحُ صحائفُها إلا بين يدَي العليم الخبير يوم العَرض الأكبر عليه- سبحانه-.

فمن وجدَ خيرًا فليحمَد الله، وهنيئًا له القبولَ والرِّضا، والدخولَ من باب الريَّان إلى جنات النعيم؛ حيث يُوفَّى الصائمون الصابرون أجرَهم بغير حساب، ومن وجدَ غيرَ ذلك فلا يلُومنَّ إلا نفسَه، ولا يُعاتبُ إلَّا ذاتَه، فالله تعالى قد بلَّغه الشهرَ المُبارَك، وفتحَ له فيه أبوابَ رحمته وفضله، ولكنه أبَى واستحبَّ العمَى على الهُدى، وكلكم يدخلُ الجنةَ إلا من أبَى.

رجاء المسلم أن يتقبل الله عمله:

عباد الله: إن من أهم الأمور عند المُسلم بعد انتهائه من العبادات والأعمال: أن يتقبَّلها الله منه، فتراه يعمل ويتقرَّبُ إلى الله بصدق وإخلاص، لا رياءَ ولا سُمعةَ، ولا حُبًّا في مدح أو ثناء، ثم هو يخافُ ألا يتقبَّلَ الله منه؛ لأن الله طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا، والله- سبحانه وتعالى- يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، يعني: الذين اتَّقوا الله في ذلك العمل، وعمِلوه بإخلاص وصدق، على وفق السنة، وهم مع ذلك في خوف وإشفاق ألا يقبَلَه الله منهم.

ولذلك كان من وصف عباد الله المُؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

وقد سألت عائشة- رضي الله عنها- النبيَّ- صلى الله عليه وآله وسلم- عن هذه الآية: من هم أهلُها؟ أهمُ الذين يشرَبون الخمرَ ويسرقون ويزنون؟ فقال- عليه الصلاة والسلام-: «لا يا ابنةَ الصدِّيق، ولكنَّهم الذين يُصلُّون ويصُومون ويتصدَّقون، ويخافون ألا يُقبَل منهم» (أخرجه أحمد والترمذي).

وقال الحسنُ البصريُّ- رحمه الله-: «يعمَلون ما عملوا من أعمال البرِّ، وهم يخافُون ألا يُنجِيَهم ذلك من عذاب ربِّهم، إن المؤمن جمعَ إحسانًا وخشية، وإن المنافقَ جمعَ إساءةً وأمنًا».

إن المسلم الصادقَ يمشي في دُروب الحياة سائرًا إلى الله على جناحَي الرجاء والأمل، والخوف والحذر، فيعملُ الصالحات، ويرجُو من الله القَبول، ويأمَلُ في رحمة أرحم الراحمين وكرمه، وهو مع ذلك يخشَى عذابَ الله وسخطَه، ويخافُ من تقلب الأحوال، وفُجاءَة النِّقَم، وزوال النِّعَم، وأن يحُولَ الله بينَه وبين قلبِه فلا يقبَل منه أعماله.

ورُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجُوعُ والعطَش، ورُبَّ قائم وقارئٍ للقرآن ليس له إلا التعبُ والسهر، ورُبَّ مُلبٍّ يُقالُ له: لا لبَّيكَ ولا سعديك. فقَبولُ الأعمال عند الله ورِضاه عنها، وإثابتُها عليها هو أمنيةُ الصالحين، وبُغيةُ العابدين، وسلوَة السائرين إلى الله- سبحانه-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٤، ٢٥).

آفات تعترِضُ المسلمَ في سَيره إلى الله تعالى:

أيها المسلمون: إن من أخطر الآفات التي تعترِضُ المُسلمَ في سَيره إلى الله: أن يُصابَ بداء الفُتور والكسَل، ويُبتلَى بآفة الخُمول والانقطاع عن العمل، وقد نعَى الله- سبحانه- على قوم أنهم لا يأتون الصلاةَ إلا وهم كُسالَى، ولا يُنفقُون إلا وهم كارهون. فكيف بمن تفتُر همَّتُه عن العبادة وينقطعُ عنها؟!

وحذَّرنا- سبحانه وتعالى- من حالة أولئك الذين يُشيدُون بُنيانَ أعمالهم، ويتقرَّبُون إلى الله، ثم ينقطعون وينقُضُون بُنيانَهم، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ (النحل: ٩٢).

وفي «الصحيحين»: أن النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- قال لعبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما-: «يا عبدَ الله! لا تكُن مثلَ فُلان، كان يقومُ من الليل، فترك قيامَ الليل».

سبل النجاة من الفُتور:

إن الفُتورَ والانقطاعَ يُصيبُ العابدين والعاملين أثناءَ العمل والعبادة وبعدَها، وهو اختبارٌ من الله، وابتلاءٌ لعباده، حتى يعلمَ الصادقَ المحبَّ من غيره، ويتبيَّن من يعبُدُ الله على حرف؛ فإن أصابَه خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابَته فتنةٌ انقلبَ على وجهه.

والسعيدُ المُوفَّق هو من يكونُ فُتورُه عارضًا مُؤقَّتًا، وهو في أثناء ذلك مُقيمٌ على السنة والطاعة والاتباع، يُسدِّدُ ويُقارِبُ، ويُعالِجُ نفسَه بحكمة وبصيرة، حتى يعودَ مرةً أخرى إلى العمل والطاعات والقُربات بانشراح صدر، وقوة وثبات. هذا هو الصادقُ مع الله الذي علمَ الله إخلاصَه وصدقَه، فوفَّقه وثبَّته، ولم تزلَّ قدمُه في وقت فُتوره، ولم تتبدَّل مفاهيمُه وتتغيَّر علاقتُه بربِّه، ولم تَسُؤ ظنونُه بربِّه- سبحانه-.

وأما الهالكُ حقًّا فهو الذي كان فُتورُه وانقطاعُه عن العبادة والعمل بوابةً نفَذَ منها إلى التخفُّف من الواجبات والفرائض، والتساهُل في المحرَّمات، قد نقَضَ ما بناه، وانهدَمَ عُراه، وتفسَّخت عزائمُه، واعتَرَته شياطينُ الإنس والجنِّ، واتبَعَ هواه، فمالَت به الدنيا ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، فإما أن يقَعَ في بدعة أو تبديل وتحريف، أو غلُوٍّ وتطرُّف، أو تفريط وتساهُل.

وقد قصَّ الله- سبحانه وتعالى- علينا موقفَ عالم بني إسرائيل، الذي آتاه الله علمًا بآياته، ثم بهَرَته مَباهجُ الدنيا وزينتُها، فاتَّبَع هواه وأخلَدَ إلى الأرض، وفترَت همَّتُه عن الحق، وخرجَ عن سَمت العلماء ووقارهم، وانسلَخَ من آيات الله، فوقَعَ في التحريف والتبديل والغواية، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦).

عباد الله: إن المُسلم حقًّا من تكونُ تقوَى الله شعارَه طيلةَ عُمره، ودثارَه مُدَّة حياته، ويكونُ عمَلُه بالطاعات واجتنابُه المعاصي والخطيئات ديدَنًا له ومنهَجًا وسُلوكًا، يغتنمُ الأوقاتَ والمواسمَ الفاضلةَ في التعبُّد والتقرُّب، ويُعوِّدُ نفسَه الخيراتِ حتى تُصبحَ له عادةً حميدة، وخُلقًا وسجيَّة، فإذا انقضَت مواسمُ الخير لم تجده بعدَها غافلًا لاهيًا، أو ناقضًا عزمَ الجِدِّ والاجتهاد ساهيًا.

فالله تعالى لم يجعَل لانتهاء وقت العبادة والتقرُّب إليه أجلًا دون الموت، كما قال- عز وجل-: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩).

وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

مقاصد الحج

اعداد/ د. عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس
إمام المسجد الحرام







إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، نحمدُه سبحانه على فضلِه الدائم، ونشكرُه على نِعَمِه العظائم.

لَكَ الحمدُ حمدًا نستلذُّ به ذكرًا
وإنه لا نُحصي ثناءً ولا شُكرًا
لك الحمدُ حمدًا سرمديًا مُباركًا
يقلّ مدادُ البحرِ عن كُنهِه حصرًا

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، شرعَ أركانَ الإسلام على أثبَتِ الدعائم، وأشهدُ أن نبيَّنا وسيِّدَنا محمدًا عبدُ اللهِ ورسولُه رفعَ الله به مَنارَ الحقِّ ونكَّس أعلامَ ذوي الجرائم، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، أئمةِ الهدى لكلِّ مُريدٍ رائم، ومَن تبِعَهم بإحسانٍ في بديعِ الشمائلِ وأسمَى الكرائم، وسلَّم تسليمًا دائمًا ديمَ الغمائم.

أما بعد: فاتَّقُوا الله- عبَادَ الله-، وسارعُوا باغتنامِ المواسمِ والنسائم، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ **(البقرة: ١٩٧).**

عليكَ بتقوى الله سرًّا وجهرةً
ففيها جميعُ الخيرِ حقًّا تأكَّدَا
لتُجْزَى من الله الكريمِ بفضلِه
مُبوَّأَ صِدقٍ في الجِنانِ مُخلَّدَا

واجتهِدُوا- رَحِمكُم الله- في تعظيمِ الشعائرِ والمشاعرِ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ **(الحج: ٣٢).**

معاشرَ المسلمين، ها هي فريضةُ الحجِّ الزَّهراء قد أضاءَتْ في سماءِ الأمةِ أنوارُها، وتلألأَت لياليها وأشرقَ نهارُها، وعَبَقَتْ بالبشائرِ أزهارُها، وبالخيراتِ والبركاتِ ثمارُها، وسَطعَتْ في أفئدةِ الحجيجِ فضائلُها وآثارُها، وها هي طلائعُ وفودِ بيتِ الله الحرام قد أناخَتْ مطاياها، وحطَّت ركائبَها.

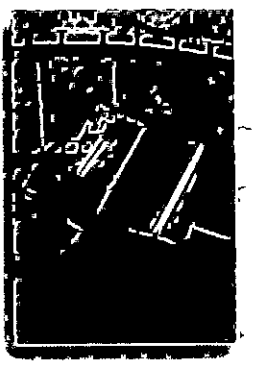
حطَّت مواكبُ للحَجيجِ متاعَها
والكلُّ من فَرطِ السعادةِ يجأرُ

أهلاً بكم ومَرحبًا وفودَ الرحمنِ في مهدِ الدينِ والإسلام، في مَوئلِ الإجلالِ والإعظام، في مكةَ المكرَّمة، أقدَسِ الديارِ والبقاع، وأطهرِ الأرجاءِ والأصقاع.

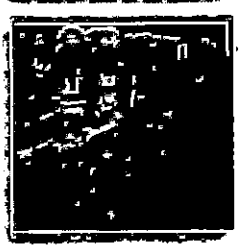
مرحبًا بالوفودِ من كُلِّ طائفٍ
والمُلبِّين بين بادٍ وعاكفِ



مرحبًا بالإخاء في ألق الشمس
وبالطهر في نقيّ المعاطف
أنتم- يا حُجَّاجَ بيت الله الحرام- في مكة البلد الحرام، وما أدراكم ما مكةُ البلدُ الحرام! بها الكعبةُ الغرّاء المعظمة، والقبلةُ المُيمّمة، على ذراها أشرقَتْ شمسُ الهداية، وعلى رُباها رُفعَت للحقّ أعظمُ رَاية. قِبْلةُ الأمن والأمان، بيتُ الله الحرام،



تَهفُو له النفوسُ وتشتَاق،
وتفديه بالمُهَج والأحداق.
إذا عايَنَتْه العينُ زالَ ظلامُها
فلا يعرفُ الطرفُ المعاينُ
حُسنَه
إلى أن يعودَ الطَّرفُ والشوقُ
أعظمُ
فمن أجل ذا كلُّ القلوب تُحبُّه
وتخضَعُ إجلالاً له وتُعظِّمُ



أيُّها الحجاجُ الميامين: اشكُرُوا الله على ما منَّ به من سلامة الوصول، وحُصول المأمول، واستحضرُوا دومًا عظمةَ المكان وحُرمَتَه، وطهارتَه وقداسَتَه. فأنتم في رحاب البيت العتيق؛ حيث تُسكبُ العبَرَات، وتُجابُ الدَّعوات، وتُغفرُ الزلّات، وتُقالُ العَثرات، فليكُن حالُكم ذكرٌ وترتيل، وتلبيةٌ، وقنوتٌ، وخشوعٌ، ورجاءٌ، وخُفوت، ودعاءٌ، ونداءٌ، وتضرعٌ بأبهَى النُّعُوت، ودموعٌ تتحدَّرُ على الوَجنَاء، واستغفارٌ للذنوب والحوبَاء، واستمناحٌ للعفو وكريم الفضل والجزاء.

معاشرَ المؤمنين: هذا البلدُ المبارَك اختصَّهُ الباري- جلَّ في عُلاه- بخصائص وفضائل عظام، من أهمِّها: إضافتُه إلى ذاته العَليَّة، قال- جل وعلا-: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (الحج: ٢٦).

والمَاعًا بفضله وإشادةً بنُبله، أقسَم به في مواضعَ من كتابه العزيز، وما تعدُّدُ الأسماء لهذا المكان المبارَك، إلا دَلالةٌ على فضل المُسمَّى، وطيب المَعنَى والمَغزَى، وسموِّ المُسمَّى. واعلَم بأنَّ كثرةَ الأسامي دلالةٌ أن المسمَّى سامي.

وفي قَسَم يَهمي حُبًّا ووُلوعًا، ويزخَرُ شوقًا ونُزُوعًا، يقول- صلى الله عليه وسلم- عن مكة شرَّفها الله: «والله إنَّك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله» (أخرجه الترمذي، وقال: «حديث حسنٌ صحيح»).

أمة الإيمان: وهذه العَرَصَات، والبِطاحُ المُبارَكات قد سوَّرَها الباري بالأمن والتَّحريم، فهي منطقةٌ آمنةٌ حرامٌ إلى يوم القيامة، يقول- جل شأنُه-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧)، ويقول- سبحانه-: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ (القصص: ٥٧)، ويقول- سبحانه-: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥).

يطمئنُّ فيه المُضطربُ القَلق، ويأمَنُ في جنَبَاته الفَزِعُ الفَرِق، يقول- صلى الله عليه وسلم-: «إنَّ هذا البلدَ حرَّمَهُ الله يومَ خلق السماوات والأرض، فهو حرامٌ بحُرمَة الله إلى يوم القيامة» (متفقٌ عليه).

وهذا الأمنُ المكين، والأمانُ المَتين لم يثبُت بالتقرير والتأصيل فحَسب؛ بل استقرَّ واشمَخَرَّ بالوعيد والزَّجر الشديد الأكيد لمن حاوَل خَرقَه، أو رامَ فتقَه، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).

ذلك لمن همَّ، فكيف بمن يُباشر؟! فالأمرُ أنكرُ وأخطر.

الله أكبر! إنها دعوةُ الخليل إبراهيم- عليه السلام-: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥).

تلكُم هي مكةُ المكرَّمة، مكةُ الإسلام والإيمان والتاريخ والشموخ، مكةُ التوحيد والأمن والأمان والرُّسُوخ، وذلك غيضٌ من فيض عظَمَة أم القُرَى، وأشرفِ بقاع الوَرَى.

سأعشقُ موطنَ القُربى وإني
على حُبِّ القَداسَة لن أُلامَا
فتلك مواطنُ الذِّكرَى سَنَاها
على الآفاق يكتسحُ الظلامَا

أمة الإسلام: الحجُّ عبادةٌ من أعظم العبادات، له من المقاصد والمنافع، والحِكَم والآداب ما ينبغي لكل حاجٍّ أن يستشعرَه، ليَحصُلَ له بِرُّ الحجّ، ويعودَ بشيءٍ من منافعه وآثاره.

فأهمُّ المقاصد والغايات، وأعظم الحِكَم والواجبات: أن يكون الحجُّ مُنطلَقًا لتحقيق التوحيد الخالص لله، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا﴾ (الحج: ٢٦).

والتَّجافي عن كل ما يُخالفُ الكتابَ والسنَّة، ومن كل عقيدة لم يكن عليها سلَفُ هذه الأمة.

لقد آنَ لنا أن نأخُذَ من هذا التجمُّع الإسلاميّ

العظيم الدروسَ والعبَرَ في الوَحْدَة والتضامن، والبُعد عن الفُرقة والتعصُّب، والتشاحُن والتحزُّب، وتجاهُل المُزايَدات والشائعات، والتصدِّي للمَقُولات الكاذبات.

وإنَّ على الأمة الإسلامية جميعًا أن تكون مُدركةً واعيةً لحمَلات استهدافها من وسائل إعلام مُعادية، ومَن دُعاة الشرِّ والفتنة، مما يتطلَّبُ توخِّيَ الدقَّة، والتثبُّت والحكمة، واجتماعَ الكلمة.

ألا فلتكُن الانطلاقةُ لحلِّ مُشكلات الأمة المتأزمة ضَعفًا وانقسامًا، فُرقةً واختلافًا، من هذا المكان المبارك، مهبط الوحي، ومنبَع الرسالة، وعلى رأس هذه القضايا المتأزمة: قضية الزمان، قضية العقيدة والإيمان، قضية فلسطين، والمسجد الأقصى الأسير؛ حيث اعتادَ الصهاينةُ المُعتَدون رفعَ عقيرته في انتهاك حُرمَته، والمحاولات المتكررة للنَّيل من شمُوخه وعزَّته.

وكذا بلادُ الشامُ الصابرة، وقد لاحَت بُشريات النصر- بإذن الله- وهبَّت نَسائمُه من دمشق الصامدة، وحلَب الشُّهباء. وأين نحن من مُسلمِي بُورما وأراكان، وإخواننا في العراق واليمن؟!

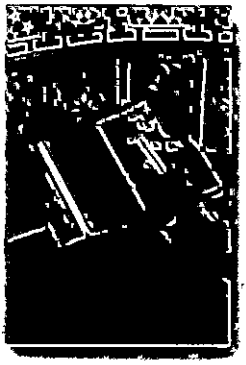
أليست لهذه الأمصار حقوقٌ على عموم المسلمين قبل خاصَّتهم؟! فها هو الزمانُ والمكانُ وقد تُوِّجا بمناسبة المناسبات: فريضة الحج، فاجعَلُوها- يا رعاكم الله- انطلاقةً للوحدة على أساس التوحيد؛ فإن شعائر الإسلام تَجْمَعُ ولا تُفرِّق، وتؤلِّف ولا تُشتِّت، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

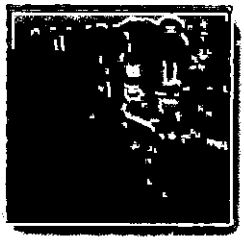
معاشرَ الحُجَّاج الكرام: ما أروعَ أن يستشعرَ الحاجُّ والزائرُ مكانةَ هذا البيت العتيق، وقداسَة هذه البقاع المُباركة، وما أُحيطت به من التعظيم والمهابَة، فلا يُسفَكُ فيها دم، ولا يُعضَد فيها شجَر، ولا يُنفَّرُ فيها صيد، ولا تُلتقَطُ لُقطتُها إلا لمن عرَّفها، ولا يجوزُ أبدًا أن يُحوَّلُ هذا المكان إلى ما يُنافي مقاصدَ الشريعة ومنهجَ الإسلام، ولا تكونُ فيه دعوةٌ إلا لله وحده، ولا يُرفعُ فيه شعارٌ إلا شعارُ التوحيد لله والتلبية: «لبَّيْكَ اللهُمَّ لبَّيْكَ، لبَّيْكَ لا شَريكَ لَكَ لبَّيْكَ، إنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والمُلْكَ، لا شَريكَ لَكَ».

وفي «صحيح مسلم»، من حديث جابر- رضي الله عنه- في سياق حجَّة النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: «أهلَّ رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم- بالتوحيد».

ولا يحلُّ لمن يُؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يُؤذيَ فيه المسلمين، أو يُروِّعَ الآمنين، أو يصرِفَ الحجَّ إلى ما يُخالفُ سُنَّةَ سيد المرسلين؛ فالحجُّ فريضةٌ وعبادةٌ وتقديس، ليس محلاً للشعارات والتسييس، ولا مجالاً للسياسة والشعارات، أو المسيرات والمُظاهرات، أو المناظرات والمُزايَدات، أو الجدال والمُناسبات، ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧).







لا وألفُ لا لمن يريدُ تحويلَ الشعائر والمشاعر إلى تسجيل مَواقف، أو تصفيَة حسابات.

إن أمن الحرمين وقاصديهما خطٌّ أحمر لا يجوزُ تَجاوُزُه، ولا يُسمَحُ بانتهاكه، أو زَعزَعَة أمنه، أو إحداث أي نوع من الفوضَى والتشويش فيه، والإثارة والبَلبَلَة، أو مُخالَفَة الشرع والنظام.

الحجُّ فريضةٌ من أعظم الفرائض، وهي ليست شعارات سياسية، ولا دعوات عنصرية وطائفية، وإنما هي رحلةٌ إيمانية، مُفعَمةٌ أجواؤها بالمعاني السامية، والأهداف النَّبيلَة، وفُرصةٌ عظيمةٌ للتوبة إلى الله، والإقبال عليه- سبحانه-، ولُزوم صراطه المستقيم بعيدًا عن اللوثات العقدية والفكرية، والمخالفات المنهجية والسلوكية.

فاغتنِمُوا- يا رعاكم الله- فيه الأوقات، ولا تُضيِّعُوها في الجدالات والمُساجَلات، فلعلَّ بعضَكم لا يتمكَّنُ من تكرار المجيء، فيندمُ حيثُ لاتَ ساعةَ مندَمُ.

وإن من المقاصد الشريفة، والحِكَم المنيفة، التي تغيَّاها الإسلامُ من شرعة الحج، ما عَمَدَ إلى الروح وما أكنَّت من رُعُونَات كي يُرقِّيَها، وشَخَص إلى الجوارح وما اجترَحَت من آثام ليُزكِّيَها، وإلى المدارك والحواسِّ، وما احتقَبَت من أوزار فيُجلِيَها، وأشراطُ هاتيك المعاني: ما وصَّى به النَّبيُّ العدنان- صلى الله عليه وسلم-؛ حيث قال: «من حجَّ هذا البيتَ فلم يرفُثْ ولم يفسُقْ؛ رجَعَ كيومِ ولدَتْه أمُّه» (متفقٌ







عليه).

ألا وإن من فضل الله وعظيم آلائه، وجزيل نعمائه، ما مَنَّ به على هذه الأمة من تمكين الحرمَين الشريفَين، وما ينعَمان به وقاصدُوهما من أمن وأمان، واستقرار واطمئنان، وما هيَّأ لهما من قيادة حكيمة تشرُف بخدمتهما ورعايتهما، وتُقدِّمُ لقاصديهما منظومةً مُتكاملةً من بديع الخدمات، لتحقيق جليل الآمال والطموحات.

فيا حُجَّاج البيت الحرام:

كونُوا عونًا لإخوانكم من رجال الأمن الأماجد، الذين يحفظُون النظام، ويُوجِّهُون الجُهُودَ لمنع التزاحُم والتدافُع، والمُرابطين على الثُّغُور والحدود لحفظ المقدَّسات، بالدعاء لهم، وتثمين دَورهم.

وتعاوَنُوا مع القائمين على خدمَتكم من الجهات الإشرافيَّة على الحرمَين الشريفَين، إداريًّا وأمنيًّا، فإنهم يعمَلون بدأب واجتهاد. فكم أعدُّوا ورتَّبُوا، ونسَّقُوا وخطَّطُوا لخدمتكم، وإنهم ليُضحُّون لراحَتكم، ويبذُلُون الغالي والنفيسَ من أجل سلامَتكم، فلا تتردَّدُوا في الرجوع إلى جهات الإرشاد والفتوَى الموثوقة، إذا أشكَل عليكم أمرٌ من أمور دينكم، وشعائركم، ومناسككم، فهي- بفضل الله- مُنتشرةٌ في الأرجاء والساحَات.

عبادَ الله.. حُجَّاج بيت الله:

اجعَلُوا من حُسن أخلاقكم عُنوانًا لكم، ساعِدُوا الضعيفَ والمُحتاجَ، وأرشِدُوا التائهَ بلُطف وابتهاج، وعليكم بالسَّكينة والوَقار، والرأفة والتراحُم، وتجنَّبُوا الإيذاءَ والتزاحُمَ، وسدِّدُوا وقارِبُوا، واشكُرُوا ربَّكم أن ذلَّل لكم الصِّعاب، ومكَّنكم من الوصول إلى بيته الحرام في أمن وأمان، ويُسر وسلام، فالحجُّ عبادة وسلوك حضاريٌّ، وهو رسالةُ أمن وسلام، ومحبَّة ووئام، ومودَّة واعتصام، لا فُرقة وانقسام.

يا أمَّتي استقبِلوا حجَّكم بروح تُقَى

وتوبةِ الصِّدق فالتأخيرُ إغواءُ

رِيَّاهُ عفوًا وتوفيقًا ومغفرةً

وجُدْ بنصرٍ فإن النصرَ عليَاءُ

حفظَ الله حُجَّاج بيته الحرام، وأدامَ أمنَهم وأمانَهم، ورخاءَهم واستقرارَهم، وأتمَّ عليهم مناسكَهم بكل يُسر، وكتَبَ لهم عظيمَ المثوبة والأجر، وجعَلَ حجَّهم مبرورًا، وسعيَهم مشكورًا، وذنبَهم مغفورًا، وأعادَهم إلى بلادهم سالمين غانمين، مأجُورين غير مأزُورين، إنه جوادٌ كريم.

هذا وصلُّوا وسلِّموا- رحمَكم الله- على النبيِّ المصطفى، والحبيب المُجتبَى، كما أمرَكم بذلك ربُّكم- جل وعلا- ، فقال تعالى قولًا كريمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقال- صلى الله عليه وسلم-: «من صلَّى عليَّ صلاةً صلَّى الله عليه بها عشرًا».

يا ربِّ صل وسلِّم كلما لمَعَت

كواكبٌ في ظلام الليل والسَّحَر

وآله وجميع الصحب قاطبةً

الحائزين بفضل أحسنَ السِّيَر

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وارضَ اللهم عن الأئمة الخلفاء، الأربعة الخلفاء الحنفاء، ذوي الشرف الجليِّ، والقدر العليِّ: أبي بكر، وعُمر، وعُثمان، وعليٍّ، وعن سائر الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

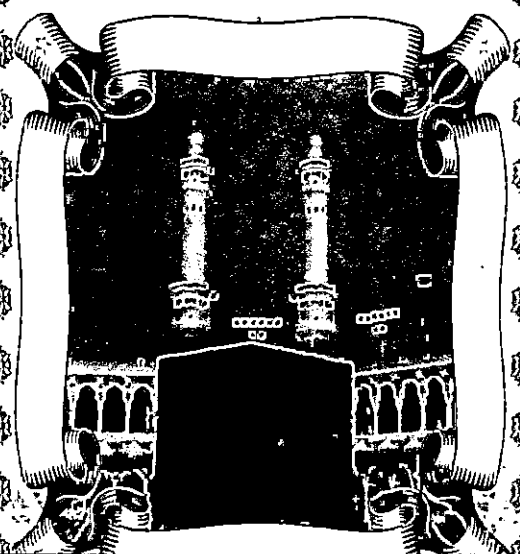
اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وسلِّم الحجَّاج والمعتمرين، وسلِّم الحجَّاج والمعتمرين، واحم حَوزةَ الدين، واجعَل هذا البلد آمنًا مُطمئنًّا وسائرَ بلاد المسلمين.

اللهم آمنَّا في أوطاننا، اللهم آمنَّا في أوطاننا، وأدم الأمنَ والاستقرارَ في رُبُوعنا، ووفِّق أئمَّتَنا وولاةَ أمورنا، وأيِّد بالحق إمامَنا وولي أمرنا، اللهم وفِّقه لما تحبُّ وترضى، وخُذ بناصيته للبرِّ والتقوَى، وهيِّئ له البطانةَ الصالحةَ وأجزِه خير الجزاء على ما قدَّم للحرمين الشريفين، وللحُجَّاج والمعتمرين، ولقضايا الإسلام والمسلمين في كل مكان يا حيُّ يا قيُّوم، يا ذا الجلال والإكرام.

منبر الحرمين

مظاهر تعظيم البيت الحرام

إعداد/ د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام



الحمدُ لله، الحمدُ لله أنارَ بهديه قلوبَ العارفين، وأقام على الصراط المستقيم أقدامَ السالكين، أحمدُه- سبحانه- وأشكرُه أسبغَ علينا نعمًا، وأفاضَ علينا إحسانًا جعلنا الله لها من الشاكرين، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مُخلصين له الدين، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه سيدُ المرسلين وإمام المتقين، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين ومن تبعَهم بإحسانٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مزيدًا إلى يوم الدين.

أما بعد: فأوصيكم- أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله- رحمكم الله-، وتأملوا في العواقب بعين الفكر، وخذوا زادًا كافيًا لبُعد السفر، ولا تكونوا في مواطن الجِدِّ لاعبين، ولا عن طريق الرُّشد ناكبين.

اغسلوا القلوب بفيض المدامع، وتنبَّهوا لمُفاجآت المصارع، فلسوف تخلو المنازل من أربابها، وتُؤذن الديارُ بخرابها، وتقومُ الخلائق لحسابها، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ) (الحج: ١، ٢).

أيها المسلمون.. حُجَّاج بيت الله: حللتُم أهلاً، ووطئتُم سهلاً، وقدمتُم خير مقدَم. هذه مكة المُكرَّمة، وهذه الكعبةُ المُشرَّفة، وهذا بيت الله يستقبلُكم ويحتضنُكم.

مكة المُكرَّمة- زادَها الله تكريمًا وتشريفًا، وتعظيمًا ومهابةً وبرًّا-، أعظمُ مُدن الأرض مكانة، وأعلى عواصمها شُهرة. باركَها الله، وجعلها مكانًا لبيته، ومورد نبيِّه محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- ومَبعثه ومُتنزَّل وحيه، وقبلة المُسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، (وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ) (الحج: ٢٦).

أحبُّ البلاد إلى الله، وخيرُها عنده، اختارها لمناسك عباده، وجعلَ قصدَها فرضًا من فروض الإسلام. أولُ الحرمين، وثاني القبلتين، اعتنى العلماءُ بتاريخها، وتوثيق أخبارها، وبيان

أحكامها، يُنفقُ في الوصول إليها نفيسُ الأموال، وتُقتحمُ من أجل بلوغها عظيمُ الأهوال.

معاشر المسلمين.. ضيوف الرحمن: بتعظيم بيت الله يعظُم الدين، ويتمُّ الإسلام، وتستقيمُ الدنيا، وتُشهَدُ المنافع. مكة هي أم القرى جميع القرى بحواضرها وقراها، وكل معموراتها، وهي أم الثقافة والتاريخ، أقسم الله بها وبأمنها، فقال- عزَّ شأنه-: (وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ) (التين: ٣).

معاشر الأحبَّة: وهذه وقفاتٌ مع ما ينبغي من تعظيم هذا البيت، ومظاهر هذا التعظيم، وإشاراتٌ لهذا الشرف والتكريم الإلهي، والاصطفاء الرباني.

أيها الإخوة في الله.. حُجَّاج بيت الله: وهل أعظمُ إجلالاً وتكريمًا من أن أضافَ الحقُّ- عزَّ شأنه- البيتَ إلى نفسه، فقال: (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ) (الحج: ٢٦). فكم تقتضي هذه الإضافة الخاصة من الإجلال والتعظيم والاصطفاء والمحبَّة؟!

ونبيُّنا محمد- صلى الله عليه وآله وسلم- يقفُ على الحَزْوَرَة مُودِّعًا البلد الطاهر، مُكرَهًا غير مُختار، ثم يُقسم بقوله: «والله إنك لخيرُ أرض الله، وأحبُّ أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجتُ منك ما خرجتُ».

وهي حبيبةُ نبيِّنا محمد- صلى الله عليه وسلم-، يقول- عليه الصلاة والسلام-: «ما أطيبَكِ من بلد، وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرك» (أخرجه الترمذي في «سننه»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وصحَّحه ابن حبان والحاكم والألباني).

وهل رأيتم أعظمَ من قوله- صلى الله عليه وسلم- في صُلح الحديبية: «والذي نفسي بيده؛ لا يسألوني خطةً يُعظِّمون فيها حُرمات الله إلا أعطيتُهم إياها»؟!

أيها المُسلمون: ومن مظاهر عظمة هذا البيت وتعظيمه: ما وضعَ الله فيه من الآيات البيِّنات والهُدى، فقال- عزَّ شأنه-: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا) (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

يقول ابن جرير- رحمه الله-: «الآيات البيِّنات منهن: المقام، ومنهن: الحجَر، ومنهن: الحَطيم».

ويقول البغوي: «ومن تلك الآيات: الحجر الأسود، والحطيم، وزمزم، والمشاعر كلها».

أما الكعبة المُشرَّفة- يا عباد الله- فهي من أعظم الآيات البيِّنات؛ ففي الحديث: «لا تزالُ هذه الأمة بخيرٍ ما عظَّموا هذه الحُرمة حقَّ تعظيمها، فإذا تركوها وضيَّعوها هلَكوا»؛ حسَّنه الحافظ ابن حجر.

ومن أعظم الغرائب في سُنن الله: أن جعلَ نهايةَ العالَم بنهاية هذا البيت وخرابه واستحلاله، والجُرأة عليه، فأمانُ العالَم كلِّه قَدَّره الله مُرتبطًا بأمن مكة وتعظيمها وعُمرانها. ومن هنا، قال- جَل وعلا-: (جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ) (المائدة: ٩٧).

ومن الآيات البيِّنات: الرُّكنُ والمقام، قال- عزَّ شأنه-: (وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى) (البقرة: ١٢٥)، وقال: (فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ) (آل عمران: ٩٧). قال قتادةُ ومُجاهد: «مقامُ إبراهيم من الآيات البيِّنات».

وفي الخبر: «إن الرُّكن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمسَ الله نورَهما، ولو لم يُطمس نورُهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب» (أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم، وهو صحيحٌ لغيره).

ومن الآيات البيِّنات: ما جاء في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما-، قال: قال رسولُ الله- صلى الله عليه وآله وسلم-: «ليأتينَّ هذا الحجرُ يوم القيامة وله عينان يُبصر بهما، ولسانٌ ينطقُ به يشهدُ على من يستلمُه بحقٍّ» (أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصحَّحه ابن خزيمة وابن حبان والألباني، وقال الترمذي: «حديثٌ حسن»).

وكان ابن عُمر يُقبِّل الحجر ويلتزمُه ويقول: «رأيتُ رسولَ الله- صلى الله عليه وآله وسلم- كان به حفيًّا».

يقول الحافظ ابن القيم- رحمه الله-: «ليس على وجه الأرض موضعٌ يُشرعُ تقبيلُه واستلامُه، وتُحط الخطايا والأوزار فيه غيرَ الحجر الأسوَد والرُّكن اليماني».

والمُلتزَمُ من آيات البيت البيِّنات، يقول ابن عباس- رضي الله عنهما-: «المُلتزَمُ بين الرُّكن والباب».

قال جمعٌ من أهل العلم: «يلتزمُ بين الرُّكن والباب، فيضعُ وجهه وصدرَه وذراعيه ويدعُو ويسألُ الله حاجتَه».

أما ماءُ زمزم فخيرُ ماء على وجه الأرض، فيه طعامٌ من طُعم، وشفاءٌ من السُّقم، بذلك صحَّ الخبرُ عن رسولِ الله- صلى الله عليه وسلم-. وهو لما شُرب له،

وهو هَزمةُ جبريل، وسُقيا إسماعيل.
يقول مُجاهد: «إن شربتَه تُريد الشفاء شفاكَ الله، وإن شربتَ تُريدُ أن تَقطعَ ظمأَك قطعَه الله، وإن شربتَه تُريدُ أن يُشبعَك أشبعَك الله».
معاشر الحُجَّاج: وهذا البيت هُدًى للعالمين؛ فهو هُدًى في العمل، لما جعلَه الله فيه من أنواع التعبُّدات المُختصَّة به، وهو هُدًى في العلم والمعرفة، فيه من آيات العلم البيِّنات والأدلة الواضحات، والبراهين القاطعات على أنواعٍ من العلوم الربانيَّة، والمطالب العاليَة، من الأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وتشريعه وأحكامه، وما منَّ به على أنبيائه وأوليائه والصالحين من عباده.
وكلُّ هُدًى مُقتبَسٌ منه، فهو قبلةٌ في الحق، وقبلةٌ في الاتجاه.
ومن أعظم خصائص هذا البيت، ومظاهر تعظيمه، هذا الأمن العظيم الذي جعلَه الله أحدَ أوصافه، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ (البقرة: ١٢٥)، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧).
وإن من مظاهر الأمن في هذا البيت المُعظَّم: ما يعيشُه الحرمان الشريفان وأهلُهما وقاصدُوهما في هذا العهد المُبارَك، من أمنٍ وافرٍ، وخيرٍ مُتكاثرٍ، ولعلَّه يتجلَّى ذلك في هذه الأيام في شكلٍ أظهر؛ حيث تخوضُ الدولةُ مع التحالُف حربًا حازمة لإعادة الأمل لإخواننا وجيراننا، ومع ما يتطلَّب كلُّ ذلك من استعدادات وأعمار واحتياطات.
ولكنَّ المُشاهَد أن الناس مُواطنين ومُقيمين ووافدين يتقلَّبون في معاشهم، العاملون في أعمالهم، والمُسافرون في أسفارهم، والمُجازُون في إجازاتهم.
كما تستقبلُ هذه البلاد وهذا البلد الأمن، تستقبلُ إخوانَها الفارِّين من مواقع الفتن الاضطرابات في بلادهم، وتفتحُ أبوابَها لتُعاملهم كما تُعامِلُ إخوانهم المواطنين والمُقيمين.
ما تستقبلُ الملايين من حُجَّاج بيت الله الحرام وقاصديه، وهي- ولله الحمد- مُوفَّقةٌ في سياساتها واقتصادها وعلاقاتها، على الرغم من الاضطرابات المالية، وتقلُّبات الأسعار.
كيف وهي- ولله الفضلُ والمنَّة- ترفعُ رايةَ الكتاب والسنة، وتُحكم الشرعَ المُطهَّر، وشعائرَ الإسلام فيها ظاهرة، تُعطي المُحتاج، وتُواسي المكلوم، وتُحاسبُ المُقصِّر، في رحمة وحزم وشفافية. فلله الحمدُ والمنَّة.
بمُلاحظة ذلك كلِّه- أيها الإخوة- يُدرك المُتأمِّل هذا الأمنَ الوارف، وحفظَ الله لأهل حرمِه ورُعاة بيته، وخُدَّام ضيوفه.
معاشر الإخوة: هذا هو بيت الله، وهذا هو حرمُه، الصلواتُ فيه مُضاعفَة، الصلاةُ الواحدةُ بمائة ألف صلاة فيما سواه، والإيمانُ يارزٌ بين المسجدين مكة والمدينة كما تَارِزُ الحيَّةُ إلى جُحرها. وهي محفوظةٌ محروسةٌ من الدجال، ليس نقبٌ من نقابها إلا عليه الملائكةُ صافِّين يحرُسونها، والرِّحالُ تُشدُّ إليه مع شقيقيه المسجد النبوي والمسجد الأقصى.
والوعيدُ الشديدُ لمن همَّ بالمعصية فيه، ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥).
يقول ابن مسعود- رضي الله عنه-: «ما من رجُل يهمُّ بسيئة فتُكتبُ عليه، ولو أن رجلاً بعدن أبين همَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت إلا أذاقه الله العذابَ الأليم».
معاشر الأحبَّة.. حُجَّاج بيت الله: هذه إشاراتٌ لبعض هذه الآيات البيِّنات.
أما تعظيمُ البيت وإجلالُه وإكرامُه، فأولُ مظاهر التعظيم وأولاها: فعلُ ما يحبُّه الله ورسولُه، وتركُ ما لا يُحبُّه الله ورسولُه. تعظيم البيت بتعظيم شعائر الله، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢).
وأولُ ذلك وأولاه: الحرصُ على تحقيق التوحيد، وسلامة المُعتقد، والبُعد عن كل مظاهر البدع والتعلق بغير الله، فضلاً عن المعاصي والمخالفات، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم: ٣٥)، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ (الحج: ٢٦).
فهذا البيت المُعظم بُني لتوحيد الله وعبادته، والتقرُّب إليه بما شرَع، وتحرِّي بركته بالأعمال الصالحة.
وفي الخبر الصحيح، عن ابن عُمر- رضي الله عنهما-، قال: قال رسولُ الله- صلى الله عليه وسلم-: «استمتعوا بهذا البيت، فقد هُدم مرتين، ويُرفع في الثالثة» (أخرجه ابن أبي شيبة والبزار، وصحَّحه ابن خزيمة والألباني).
وجاء في الأثر: «استكثروا من الطواف بهذا البيت ما

استطعتُم من قبل أن يُحال بينكم وبينه».

معاشر المسلمين، ومعاشر الأحبَّة: ومن التعظيم: إكرامُ الوافدين- ضيوف الرحمن- حُجَّاجًا وعُمَّارًا وزوَّارًا، في رحمةٍ وحُسن معشر، واستقبالٍ وبشاشة، وطلاقة وجه، وتقديم ما يُستطاع من خدمة. الجاهلُ يُعلَّم، والفقيرُ يُواسَى، والكبيرُ يُوقَّر، والصغيرُ يُرحَم، والمُقصِّر يُدعَى. في تيسير للأمور، وتفريج للكروب، وأقربُ الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقه.

وبعدُ- حفظكم الله ورحمكم-: هذا بلدُ الله، وهذا بيتُه، عظَّم حُرمته، فجعل حرمَه آمنًا، لا يُسفك فيه دم، ولا يُضرب فيه أحد، ولا يُنفَّر فيه صيد، ولا يُعضَد فيه شجر، ولا يُختلَى خلاه، ولا تُلتقطُ لُقطتُه إلا لمُعرِّف.

وإن أعظم التعظيم: لزومُ جادَّة الشرع، والإحسان إلى الناس، وطهارة النفس ونقائها، وحبها للخير ولعباد الله، ولبقاع الله الطاهرة.

أما بعد، معاشر المسلمين: لئن كان هذا الحديثُ عن المسجد الحرام ومكة- شرَّفها الله-، فإن هذا يقودُ ويدعُو ويُذكِّر بالحديث عن شقيقه وتوأمه: المسجد الأقصَى، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء: ١).

إنه الربطُ الرباني بين المسجدين، والمسرَى النبوي بين البلدتين. فما هو حالُ المسجد الأقصى هذه الأيام؟!

إنه يعيشُ اعتداءات آثمة، ومُمارسات وحشيَّة، وسياسات عُنصريَّة. اعتداءات يهوديَّة تشهَدها ساحاتُ المسجد الأقصى، إنها إعلانُ حربٍ على هويَّة المسجد الإسلامية، وهي امتدادٌ لهذا الاغتصاب الظالم الآثم الجائر لفلسطين المُحتلَّة كلِّها، أمام صمت العالَم وعجزه.

اعتداءاتٌ تحملُ المسجد من المُعاناة على إخواننا الفلسطينيين عامَّة، وعلى المقدسيين خاصة، وتُظهر ما يطمعُ إليه هؤلاء الصهاينة من تقسيم للمسجد، خيَّب الله مسعاهم، وأبطلَ كيدَهم، وجعلَه في نحورهم.

لقد اختارَ هؤلاء الصهاينة هذا التوقيت استغلالاً لما تعيشُه أمة الإسلام عامة، والمنطقة خاصة من تنافُرٍ وفُرقة وفتن، وتناحُر إرهابيٍّ وطائفيٍّ.

معاشر المسلمين.. حُجَّاج بيت الله: ولكن لعل في هذا الحدث الجلَل الذي يتعرَّض له المسجد الأقصَى المُبارَك ما يُوقِظُ المُسلمين. فالأقصَى هو المُلتقَى الذي يلتقي عنده المُسلمون، بكل مذاهبهم وانتماءاتهم واهتماماتهم.

وإن من الواجب المُتعيِّن أخذ الدروس والعِبر إلى أبعَد مدى، والاستفادة من أن هذه الفُرقة وهذا التناحُر لم يستفد منه إلا هذا العدوُّ المُشترَك.

نعم، أيها المسلمون.. الأقصَى المُبارَك هو الذي يجبُ أن تنتهي عنده الخلافات، فهو الذي يُوحِّد بين المسلمين عامة، والفلسطينيين خاصة، ولا يُمكن أن يُترَك إخواننا المُقاومون وحدَهم أمام هذا العدو المُتسلِّط. إنها قضيَّةُ أهل الإسلام جميعًا، والانتصارُ لها وتأييدها مسؤوليَّةُ كل مُسلم.

معاشر الأحبَّة: إن الدعوة مُوجَّهةٌ لجميع المُسلمين، وبخاصَّة الساسَة منهم وأصحاب القرار، دُولاً ومُنظَّمات وهيئات، لبذل كل ما يستطيعون من قوة سياسيَّة ومادية ونظامية ودولية.

ونقول- وبكل ثقة-: إن إنقاذ المسجد الأقصَى ليست مهمةً عسيرةً، إذا صحَّت النوايا، وصدقَت العزائم، وتوحَّدَت الجهود، واستُوعِبَت الدروس.

فالمُسلمون كلُّهم يدٌ على من عاداهم، والأمةُ الحيَّة هي التي تخرُج من ظلام الخُذلان إلى نور الأمل. إن هذه الأمة حيَّةٌ لا تموت، حيَّةٌ بقوة الله، ثم بقوة هذا الدين، وامتلاء القلوب بالثقة بالله- عزَّ شأنه-.

والخلافُ مع الصهاينة خلافُ عقيدة، وصراعٌ بين وعد الحق ووعد مُفترَى. وهذه مسؤولية الجميع، شعوبًا وحكومات وهيئات ومُنظَّمات.

إن نُصرة القدس وفلسطين تكون ببُروزها حيَّةً في القلوب، وفي الكتب، والكتابات، وفي المناهج، وفي الإعلام، وفي كل السياسات. ثم بتأييد إخواننا المُرابطين في بيت المقدس وأكناف بيت المقدس، فهم في مُقاومة شريفة، في قوتها وإرادتها وثباتها وتحمُّلها، وسيبقَى الرِّباطُ والمُرابطون- بإذن الله وحوله وقوته-، والنصرُ قادمٌ- بإذن الله-، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧).

نسأل الله أن ينصر الإسلام ويعز المسلمين.



منبر الحرمين

كيف نحيا حياة طيبة ؟

الحمدُ للهِ الذي كتبَ السعادةَ والسُّرورَ لعبادِه الطائعين، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له إلهُ الأولين والآخرين، وأشهدُ أن نبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ الأنبياء والمُرسَلين، اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.أما بعد..

إعداد الشيخ حسين بن عبد العزيز آل الشيخ

فيا أيها المُسلمون: أُوصيكُم ونفسي بتقوَى اللهِ- جلَّ وعلا-؛ ففيها السعادةُ والحُبُور.

عباد اللهِ: راحةُ البالِ واطمئنانُ النفسِ وسعادةُ القلوبِ مطالبُ لجميعِ الإنسانية، وغاياتٌ لكلِ البشرية، يسعَون لإيجادِها، ويتنافَسُون في تحصيلِها.

ألا وإنه مهما سعَوا إلى ذلك بشتَّى زخارفِ الدنيا وشهواتِها، فلن يجِدُوا إلى ذلك طريقًا، ولَن يهتَدُوا إلى ذلك سبيلاً؛ ذلكم أن السببَ الحقيقيَّ للحياةِ الطيبةِ بمُختلَفِ صُورِها يكمُنُ فيما بيَّنه خالقُ البشريةِ بقولِه- جلَّ وعلا-: «مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ» (النحل: ٩٧).

والحياةُ الطيبةُ عند المُحقِّقين من المُفسِّرين في هذه الآية: هي الحياةُ الدنيا، فضلاً عمَّا في الآخرة من السُّرور، والحُبُور، والبهجَة، والنَّعيم.

إنه الإيمانُ باللهِ- جلَّ وعلا-، المُتضمِّنُ الاستسلامَ للهِ بالطاعة الخالصَة، والخُلُوَّ من الشركِ، ذلكم الإيمانُ الذي يجعَلُ الإنسانَ سعيدًا ظاهرًا وباطنًا، مُنشرحَ الصدرِ مُطمئنَّ القلب، حتى ولو أصابَتْه الضرَّاءُ والبأساء، قلبُه دائمًا في نعيمٍ وبهجةٍ وسُرورٍ، بالإيمانِ باللهِ- جلَّ وعلا-، ومعرفتِه ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه، والتوكُّلِ عليه، والإقبالِ على طاعتِه.

قال ربُّنا- جلَّ وعلا-: «وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ» (التغابن: ١١).

وقال- صلى الله عليه وسلم-: «عجبًا لأمرِ المُؤمن، إن أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذلك إلا للمُؤمن؛ إن أصابَتْه ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه

سرَّاءُ شكَر فكان خيرًا له»؛ رواه مسلم.

إنه الإيمانُ باللهِ- جلَّ وعلا- الذي يجعلُ الإنسانَ سعيدًا بما أُعطِيَ في هذه الدنيا، راضيًا بما رزقَه اللهُ- جلَّ وعلا-، قانعًا بما آتاه- تبارك وتعالى-.

يقولُ- صلى الله عليه وسلم- مُذكِّرًا بهذه الحقيقة: «مَن أصبحَ منكم آمنًا في سربه، مُعافًى في جسَده، عنده قوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَت له الدنيا بحذافيرِها»؛ رواه الترمذي وابن ماجَه.

فالفلاحُ للعبدِ بما يتضمَّنُه هذا الفلاحُ من السُّرور والنعيم لا يكونُ إلا بما أخبرَ به- صلى الله عليه وسلم- بقوله: «قد أفلحَ مَن أسلَمَ ورزقَه اللهُ كفافًا، وقنَّعَه اللهُ بما آتاه»؛ أخرجه مسلم.

وفي هذا المعنى يقولُ أحدُ الصالحين: "واللهِ إنا في سعادة لو علِمَها أبناءُ المُلوك لجالَدُونا عليها بالسيُوف".

ويقولُ آخر: "إنه لتمُرُّ بي أوقاتٌ أقولُ: إن كان أهلُ الجنَّة في مثلِ هذا إنهم لفي عيشٍ طيب".

معاشرَ المُسلمين، في قلوبِ العباد شعَثٌ لا يلُمُّه إلا الإقبالُ على اللهِ- جلَّ وعلا-، وفي قلوبِهم وحشةٌ لا يُزيلُها إلا الأنسُ به- جلَّ شأنُه-، وفيها حزَنٌ- في هذه الدنيا- لا يُذهبُه إلا السُّرورُ بتوحيده ومعرفته- عزَّ وجل-، وفيها نيرانُ حسرات لا يُطفئُها إلا الرِّضا بأمرِه ونهيه، وقضائه وقدَرِه، وهكذا هي الدنيا.

وفي القلوبِ فاقةٌ لا يسُدُّها إلا محبَّتُه- سبحانه-، والإنابةُ إليه، ودوامُ ذكرِه- سبحانه وتعالى-، يقولُ- جلَّ وعلا-: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

ويقولُ- صلى الله عليه وسلم-: «أرِحنا يا بلالُ بالصلاة!»؛ رواه أبو داود بسندٍ صحيح.

إنه معنى «أرِحنا بالصلاة» لا "أرِحنا من الصلاة".

ويقولُ- صلى الله عليه وسلم-: «وجُعِلَت قُرَّةُ عيني في الصلاة»؛ رواه النسائي، وصحَّحه جمعٌ من الحُفَّاظ.

فمَن أرادَ السعادةَ الدائمةَ، والراحةَ التامَّةَ ظاهرًا وباطنًا، في القلبِ وفي الجوارح، فعليه أن يضبطَ نفسَه بأوامرِ اللهِ- سبحانه-، وأن يعيشَ بطاعةِ اللهِ- جلَّ وعلا- في جميعِ حياته، وشتَّى تصرُّفاته؛ فإنه سينقلبُ من نعيمٍ إلى نعيمٍ في هذه الدنيا، وفي دارِ البرزَخ، وفي الدارِ الآخرة، وعليه دلالةُ قولِه- جلَّ وعلا-: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣).

واحذَر- أيها المُسلم- من العصيان؛ فوبالُه حسرةٌ وخُسرانٌ.

قال ابنُ القيِّم- رحمه الله تعالى-: "إن العبدَ إذا عصَى اللهَ سلَّط اللهُ عليه أمرَين لا ينفكَّان عنه حتى يتُوبَ إلى اللهِ- جلَّ وعلا-: الأول: الغمُّ، الثاني: الهمُّ، قال- جلَّ وعلا-: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه: ١٢٤)".

فعلِّق قلبَك- أيها المُسلم- باللهِ- جلَّ وعلا-، أحسِن الظنَّ بربِّك، وكُن عبدًا نقيًّا تقيًّا طائعًا؛ تكُن سعيدًا فرحًا مسرُورًا، فربُّنا- جلَّ وعلا- يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الزمر: ٢٢). جعلَنا اللهُ وإياكم في سُرورٍ وحُبُورٍ.

أيها المسلم: إن المحبوسَ مَن حُبِسَ قلبُه عن ربِّه، والمأسُورَ مَن أسَرَه هواه، والمهمُومَ مَن ضيَّع نفسَه في المعاصي، والمغمُومَ مَن غمَّ نفسَه بظُلُماتِ المعاصي والمُوبقات.

قال بعضُ العارفين: "مساكينُ أهل الدنيا خرَجُوا منها وما ذاقُوا أطيبَ ما فيها"، قالوا: وما هو؟ قال: "محبَّةُ اللهِ، والأنسُ به، والشوقُ إلى لقائه، والإقبالُ عليه، والإعراضُ عمَّن سِواه".

يقولُ ربُّنا- جلَّ وعلا-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣).

اللهم ألِّف بين قلوبِ المسلمين واجمع كلمتهم على الحق والتقوى.

معرفة الله تعالى والصلة به

الحمدُ للهِ الذي كتبَ السعادةَ والسُّرورَ لعبادِه الطائعين، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له إلهُ الأولين والآخرين، وأشهدُ أن نبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ الأنبياء والمُرسَلين، اللهم صلِّ وسلِّم وبارِك عليه وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين. أما بعد..

الشيخ الدكتور: خالد بن علي الغامدي
إمام المسجد الحرام

أيها المُسلمون: إن لله تعالى جنَّتَين: جنَّة مُعجلة في الدنيا، هي وسيلةٌ وطَريقٌ إلى الجنَّة الأخرى جنَّة عرضُها السماواتُ والأرضُ، وكثيرٌ من الناسِ خَرَجُوا من الدنيا وهم لم يذوقُوا طعمَ جنَّة الدنيا المُعجَّلة، ولم يعرفُوا لها رَسمًا ولا وَسمًا، مما كان سببًا لجفافِ الأرواحِ، وصدأِ القلوبِ، وتناكُرِ النفوسِ، واستيلاءِ أمراضِ الشَّهواتِ والشُّبُهاتِ على العُقولِ والقلوبِ.

إن هذه الجنَّة المُعجَّلة في الدنيا هي جنَّةُ المعرفةِ باللهِ والصِّلة به، تلك المعرفةُ الحقَّةُ الحيَّةُ النَّابضةُ، إنها جنَّةٌ - واللهِ - وأيُّ جنَّة؟!

مَن ذاقَها، وتنعَّمَ بها، وارتشَفَ رحيقَها لم يَبغِ عنها حِوَلاً، ولم يطلُب غيرَها بدَلاً، إنها أُنسُ المؤمنين، وبَهجةُ المُوحِّدين، ولذَّةُ الصادقين.

ومَهما سعَى الناسُ في طلبِ اللذَّة والسعادةِ والطُّمأنينة فلن يجِدُوها على الحقيقةِ والدوامِ إلا في معرفةِ اللهِ والأُنسِ به، واستحضارِ قُربِه ومعيَّتِه -سبحانه-، التي تَفيضُ على العبدِ ألوانًا من الحُبُورِ والسُّرورِ والرِّضا، وفرحِ القلبِ، ونَشوةِ النَّفسِ، حتى إنه ليعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه، فيكونُ اللهُ تعالى سمعَه الذي يسمَعُ به، وبصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورِجلَه التي يمشِي بها.

فأيُّ حياةٍ يعيشُها هذا العبدُ؟! وأيُّ سعادةٍ يتلذَّذُ بها مَن وصَلَ إلى هذه المرحَلَة من الإيمانِ والمعرفةِ والإحسانِ؟!

أمةَ الإسلامِ: إن معرفةَ اللهِ هي بابُ التوحيدِ الأعظَمِ، ومنشُورُ الوِلايةِ الأقوَمِ، ومَن رسَخَت في قلبِه هذه المعرفةُ، وعرَفَ اللهَ بأسمائه وصفاتِه وربوبيَّتِه وأفعالِه، دخلَت قلبَه أنوارُ التوحيدِ ولا بُدَّ، فلا يعبُدُ إلا اللهَ، ولا يسألُ إلا اللهَ، ولا يصرِفُ ألوانَ العبوديَّةِ كلَّها إلا للهِ وحدَه.

ولن يصلَ عبدٌ إلى تحقيق التوحيد الخالص لله إلا بالمعرفة الحقّة به -سبحانه وتعالى-، وهذه هي طريقةُ القرآن في تقرير توحيد الألوهيَّة، أنه يستدلُّ بمعرفة الله وأسمائه وصفاته وربوبيَّته على توحيد الألوهيَّة والإلزام به، كما في قوله:

(ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ) (الأنعام: ١٠٢)، وكما في الآيات التي في سُورة النَّمل التي يُعدِّدُ الله فيها نعَمَه وبديعَ مخلوقاته، ثم يُقرِّرُ مُلزمًا: (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ) (النمل: ٦٠)؟!.

ويقولُ -سبحانه-: (إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (يونس: ٣)، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا.

إن امتلاءَ القلوب بمعرفة الله وتوحيده وإجلاله يُخرجُ منها فسادَها وأمراضها وكبرَها وعلوَّها، ويُزكي النُّفوسَ والأرواحَ، ويُؤسِّسُ فيها معاني الإيمان، وحقائقَ اليقين، والتوكل، والإخلاص، والصِّدق، فيُصبحُ العبدُ ويُمسي في نعيم لا يُشبهُه نعيمٌ، واثقٌ بربِّه، غنيٌّ بمولاه، عزيزٌ بسيِّده، راضٍ بأفعاله، مُطمئنٌّ لأقداره، قد تحرَّرَ من عبوديَّة الخلق والدِّرهم والدِّينار، وحُظوظ الشَّرف والجاه، وصارَ عبدًا لله وحدَه الذي عرفَه وعرفَ أنه الذي بيده مفاتيحُ كلِّ شيء -سبحانه-، وهو الغنيُّ له مقاليدُ السماوات والأرض.

أيها المسلمون: إن توحيدَ الربوبيَّة والأسماء والصِّفات الذي هو توحيدُ المعرفة والإثبات هو أساسُ اليقين والإيمان، ومُحرِّكُ القلوب إلى علاَّم الغيُوب، وإفراده بالعبادة والتوجُّه والقصد، وهو الوَقودُ الحيُّ الفعَّال لحياة النفوس وثباتها، وسعادة الأرواح، والعاصمُ لها من وساوس الشيطان وأفكار الرَّدى والضلال.

ولذلك فإن الله -سبحانه- يُحبُّ من عباده أن يعرفُوا، وينظُروا في بديع صُنعه وأفعاله، ويتفكَّروا في مخلوقاته، ومن هنا كان القرآنُ كلُّه في تعريف الخلق بربِّهم -سبحانه-، والحديث عنه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وتشريعاته الحكيمة، وربط القلوب به -سبحانه-؛ لكي تُشرقَ عقولُهم وأرواحُهم بإفراد ربِّهم -سبحانه وتعالى- بالقصد والطلب، الذي هو توحيدُ العبادة والألوهيَّة، فهما مُتلازمان - ولا بُدَّ -: توحيدُ المعرفة والإثبات، وتوحيدُ العبادة والطلب، لا ينفكَّان عن بعضهما.

وهذا هو الطريقُ، هذا هو السَّبيلُ - عباد الله -، هذا هو المنهجُ الصحيحُ في تربية الناس ودعوتهم، والأصلُ في المبتدأ والمنتهى في كل خطاب دعوي.

ولقد أخطأ كلَّ الخطأ مَن سلكَ غيرَ هذا السَّبيل في التربية والدعوة، وظنَّ أنه يُمكنُ إصلاحُ قلوب الناس وعقولهم بفلسفات وأفكار لا طائل تحتَها إلا الحيرةُ والقلقُ، أو بلُعاعة من الدنيا ومادِّياتها، أو بنَعَرات وعصبيَّات جاهليَّة حزبيَّة.

ألا ليتَ الدُّعاةَ والمُصلحين وأربابَ الأقلام في وسائل الإعلام وغيرها يستشعرُون فداحةَ الخطب، وحَمَ الخسارة حينما ينشغلُوا بأمور جُزئيَّة فرعيَّة، ويغفلُون عن هذا الأصل العظيم الذي به حياةُ القلوب والعقول واستقامتُها وفلاحُها، وهو السِّياجُ المَنيعُ لكلِّ المجتمع ضدَّ أفكار التطرُّف والشُّبهات وأمراض الهوى والشَّهوات.

ووالله الذي لا إلهَ غيرُه لن تصلُحَ أمَّتُنا إلا بالتوحيد الصحيح، وقوَّة المعرفة بالله تعالى والتعلُّق به، وما انتكسَ المُنتكسُون وتنكَّبُوا طريقَ الهُدى، وارتدُّوا على أدبارهم إلا بسبب ضَعف المعرفة بالله، وهَشاشة العلاقة به -سبحانه-، مما كان سببًا لتزلزُل القلوب، وتغيُّر المبادئ، وانسلاخ اليقين من القلوب لأول عارض، ولبارق طمَع، ولشوب غرض ومصلحة.

أمة الإسلام: إن تحقيقَ المعرفة بالله، وقوَّة التعلُّق به -سبحانه-، وامتلاءَ القلوب بجلاله وعظَمته هو ينبوعُ التوحيد الصحيح ومادَّتُه الكُبرى.

فلا إله إلا الله! ما أعظمَ الله! ولا إله إلا الله! ما أجلَّ الله! له -سبحانه- الكمالُ والجلالُ والجمالُ المُطلقُ في أسمائه وصفاته وأفعاله، واحدٌ أحدٌ، مُدبِّرٌ حكيمٌ، وربٌّ قديرٌ، لا شيءَ يعدلُه، ولا شيءَ يُشبهُه، وليس كمثله شيءٌ، ولا يَؤُودُه شيءٌ، ولا يتعاظمُه شيءٌ، وكلُّ شيءٍ عليه هيِّنٌ ويسيرٌ، لا تبلغُه الأوهام، ولا تُدركُه الأبصارُ والأفهامُ، حيٌّ لا يموتُ، قيُّومٌ لا ينامُ، يُمسكُ السماوات والأرضَ أن تزولا، خلقَ الخلقَ كلَّهم بلا حاجةٍ إليهم، ورزقَهم كلَّهم بلا كلفةٍ ولا مشقَّة، ثم يُميتُهم ولا يُعجزونه، ثم يبعثُهم ويُحاسبُهم كلَّهم وهو أهونُ عليه.

هو الملكُ -سبحانه- يُؤتي مُلكَه مَن يشاءُ بفضله، وينزعُه ممَّن يشاءُ بعدله، ذلَّت له الرِّقابُ، وسجدَت لعظمته الجباهُ، وانكسرَت لقُوَّته الجبابرةُ والطُّغاةُ، يُمهلُ الظالمين، ويُمدُّهم في طُغيانهم يَعمَهُون، حتى إذا بغَوا وأسرَفُوا أخذَهم أخذةَ أسفٍ لا تُبقي منهم ولا تَذر، ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢).

كلَّ يومٍ هو شأنٌ، ومراسيمُ قضائه وقدَره نافذةٌ نازلةٌ، لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّبَ لحُكمه، ولا غالبَ لأمره، قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسَبَت، وقائمٌ على هذا الكونِ بأسره، يحفظُه ويُدبِّرُه ويُصرِّفُه بعلمه وقُدرته وحكمته.

هو الجبَّارُ -سبحانه-، المنَّانُ اللَّطيفُ الرَّحمنُ، جبَرَ قلوبَ أوليائه، ومَنَّ على الذين استُضعِفُوا في الأرض ومكَّنَ لهم، والله لطيفٌ بعباده؛ فكَم من شدَّةٍ فرَّجها الله؟! وكم من نازلةٍ كان لها الله؟! وكم من كُرُباتٍ وأهوالٍ درأَ شرَّها الله ذو العزَّة والجبَروت والملكوت؟!

صغُرَ دُونَ جلاله كلُّ كبيرٍ، وذلَّ مع كبريائه كلُّ عزيزٍ، وتهاوَى أمامَ عظَمَته كلُّ عظيمٍ، يسمعُ دبيبَ النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّمَّاء، ويرَى مَدَّ البَعُوض جَناحَها في ظُلمة الليل البَهيم الأليل، لا تشغلُه أصواتُ الدَّاعين، ولا تُعجزُه حاجاتُ السَّائلين على تفنُّن مطالبهم، واختلاف ألسنتهم، يعلَمُ ما يُسرُّون وما يُعلنُون في كل الأحوال، وحين يستَغشُون ثيابَهم، إنه عليمٌ بذات الصُّدور.

هو الله القادرُ القديرُ المُقتدر، الخافضُ الرافعُ، المُعطي المانع، لا ينفعُ مع منعه سعيٌ وبَذلُ مجهُود، فكَم من مُجتهد حريص لكنَّه محرُومٌ؟! ولا يمنَعُ مع إعطائه عَجزُ عاجزٍ، ولا مَنعُ مانع، فكَم من عاجزٍ ضعيفٍ لكنَّه مرزُوقٌ وافرُ المقسُوم.

هو الله الرحمنُ الرحيم، ذو الرَّحمة الشاملة العامَّة لكلِّ مخلُوقاته، وذو الرَّحمة الخاصَّة لأوليائه وأحبابه، يفتحُها عليهم ولا مُمسكَ لها، فتَطيبُ حياتُهم، وتَحلُو معها مرارةُ الأقدار، وتتنعَّمُ بها أرواحُهم التي مسَّها تعَبُ الحياة ووهَجُها.

ألا إنه هو الله الذي لا إله إلا هو المُستحقُّ للثَّناء والحمد والمدح، لا نُحصي ثناءً عليه.

أيها المسلمون: لا شيءَ أحلَى من الحديث عن الله، ولا خطابَ أشهَى من أن يكونَ في مدحة الله؛ فهو الذي يَشفي النفوسَ ويُسعدُها، ويُذهبُ حُزنَها وخوفَها.

فيا لله! كم ضاعَت منَّا الأعمارُ في بُنيَّات الطريق؟! وكم ذهَبَت منَّا الساعاتُ في لهو وقيل وقال؟! ويا لله! ما أشدَّ غفلتَنا عن ذكر ربِّنا ومعرفته؟! وما أعظمَ حسرتَنا على نقص حظِّنا من الأُنس به والعيش معَه -سبحانه-؟!

وما سبَقَنا السابقُون المُقرَّبُون الأبرارُ بكثرة صيام ولا صلاة ولا صدقة، ولكنَّه بشيءٍ وقَرَ في قلوبهم، ورسَخَ في نفوسهم، هو قُوَّةُ المعرفة، قُوَّةُ معرفتهم بربِّهم -سبحانه-، وشدَّةُ تعلُّقهم به، وحُبِّهم له، فذاقُوا أطيبَ وأحلَى وأشهَى ما في هذه الدنيا، حتى إن القلبَ ليهتزُّ فرَحًا بهذا النَّعيم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢١).

أيها المُسلمون: معرفةُ الله نوعان: معرفةُ إقرارٍ واعترافٍ فحسب، وهذا اشتَركَ فيها النَّاسُ كلُّهم حتى المُشركُون، لكنَّها لم تنفعهم في النجاة والفلاح؛ لأنها معرفةٌ باردةٌ هامدةٌ، لم تُثمر لهم التوحيدَ، ولم تُحرِّك قلوبَهم إلى الله تعالى حُبًّا وإخلاصًا.

والنوعُ الثاني: هي معرفةٌ خاصَّةٌ زائدةٌ على مُجرَّد الإقرار بامتلاء القلب بتعظيم الله وإجلاله، الذي يستلزمُ إفرادَ الله بالتوحيد والعبادة والمحبَّة والخشيَة والتوكل.

فيشعُرُ العبدُ بالقُرب من فاطره ومولاه، فلا يخشى إلا الله، ولا يخافُ إلا ربَّه، ولا يرجُو إلا الله، ولا يتذلَّل إلا لمالك أمره، وليس له همٌّ ولا شُغلٌ إلا في رضا ربِّه-سبحانه-، فتصفُو له الحياة، ويَطيبُ له العيش، ولا يأسَفُ على فائت، ولا يفرحُ بآت، ولا تُزعجُه الأحداث، ولا تُقلقُه الكروبُ، ولا يستخفُّه الذين لا يُوقنُون.

قال ابنُ رجب - رحمه الله-: «أفضلُ العلم العلمُ بالله، وهو العلمُ بأسمائه وصفاته وأفعاله التي توجبُ لصاحبها معرفةَ الله وخشيتَه ومحبَّته، وهيبتَه وإجلاله، وعظمَته، والتبتُّل إليه، والتوكل عليه، والرِّضا عنه، والانشغال به دُون خلقه».

عباد الله: إن أعظمَ ما يُعينُ العبدَ على تحقيق المعرفة بالله، وقُوَّة التعلق به، ورُسُوخ الإيمان واليقين أمورٌ ثلاثة، أجمَعَ العُلماءُ بالله على عظيم أثرها على القلوب لمن حرصَ عليها وداوَمَ واستمرَّ؛ حتى يُفتحَ له البابُ، فيجتبيه ربُّه ويصطفيه.

أولُ هذه الأمور-يا عباد الله-: دوامُ النَّظر والتدبُّر والتفكُّر في آيات الله المتلوَّة المسمُوعة آياتِ القرآن العظيم، فهي من أجلِّ أسباب حُصول الإيمان واليقين والمعرفة، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩).

والمُفيدُ النَّافعُ هو إحضارُ القلب حين تلاوة القُرآن على مُكث وترتيل، وتدبُّر الآيات والتفكُّر في معانيها، وحُسنُ الفهم لمقاصدها ودلالاتها، فهذا أنفعُ ما يكونُ للقلوب والأرواح.

والأمرُ الثاني-يا عباد الله-: دوامُ النَّظر والتأمُّل والتفكُّر في آيات الله الكونيَّة المُشاهَدة في ملكُوت السماوات والأرض، وبَديع خلق الله في الأنفُس والآفاق؛ فإن ذلك يُورثُ للعبد اليقينَ، وقُوَّة الإيمان والمعرفة بالربِّ-سبحانه-.

وقد سلَكَ هذا الطريقَ أنبياءُ الله ورُسُله، والصالحُون من عباده، كما قصَّ علينا-سبحانه- طريقةَ إبراهيم - عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسلام - في نظره وتأمُّله في آيات الله الكونيَّة، واستدلاله بذلك على توحيد الله، واستحقاقه للعبادة، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥).

ثم قال إبراهيمُ - عليه السلام - بعد ذلك: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩).

والأمرُ الثالثُ-يا عباد الله-: دوامُ ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والاستغفار في كل الأوقات؛ فإنه الحِصنُ الحصينُ الذي يحمي العبدَ من الآفات والشُّرور، ويُثمرُ في القلوب محبَّةَ الله، والإنابةَ إليه، والإخلاصَ له-سبحانه-، واستحضارَ قُربه ومعيَّته، ويُثمرُ للعبد أيضًا قُوَّةً في بدنه وقلبه وعقله، ونشاطًا وحيويَّةً في جوارحه وعمله، فإن ذكرَ الله حياةُ القلوب والأرواح والأبدان، والذي لا يذكُرُ الله كالميِّت، وكالبيت الخرب.

وقد كان النبيُّ-صلى الله عليه وآله وسلم- لا يفترُ لسانُه عن ذكر ربِّه، يذكُرُ الله في كل أحيانه. ولا يزالُ العبدُ رَطبًا لسانُه بذكر ربِّه، فيمُدُّه الله بعَونه وتأييده ونصره، والدِّفاع عنه؛ فإن الله مع عبده إذا ذكَره وتحرَّكت به شَفَتاه، ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢).

وقد جمَعَ الله - سبحانه وتعالى - هذه الأمورَ التي تحصُل به قوَّةُ المعرفة به، ورسُوخُ اليقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

اللهم أصلح أحوالَ المُسلمين في كل مكان، اللهم أصلح أحوالَ المُسلمين في كل مكان، اللهم أصلح أحوالهم في فلسطين، والشام، وفي العراق، واليَمن، وفي كل مكانٍ يا رب العالمين.



العبودية في السراء والضراء

إعداد: د/خالد بن علي الغامدي
إمام المسجد الحرام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فاتَّقُوا الله -أيها المُسلمون-، واتَّقُوا النارَ ولو بشقِّ تَمرة، ولو بكلمة طيبة؛ فإنَّ الجنةَ حُفَّت بالمكارِه، وإن النارَ حُفَّت بالشَّهَوات.

واعلَموا أن البرَّ لا يَبلَى، والإثمَ لا يُنسَى، والديَّانَ لا يموت، وكما تَدِينُ تُدان، (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (البقرة: ٢٢٣).

معاشرَ المُسلمين: ما من إنسانٍ في هذه الحياة إلا وهو يتقلَّبُ بين حالتَين لا ينفَكُّ عنهما؛ فإمَّا أن يكسُوَه الله لباسَ النِّعمة والسرَّاء، وإما أن تُنزعَ منه فتُصيبُه حالةُ الضرَّاء والبُؤس والباساء.

ولا يخلُو أحدٌ من بني البشر من هاتَين الحالتَين حتى يقضيَ أجلَه في هذه الحياة، كما قال الله: (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (الأنبياء: ٣٥).

فيَومٌ علينا، ويومٌ لنا، ويومٌ نُساءُ، ويومٌ نُسَرُّ.

وليس الشأنُ في هذا التقلُّب بين السرَّاء والضرَّاء فهو حَتمٌ لا مناصَ منه، إنما الشأنُ كلُّ الشأن في كيفيَّة التعامُل معهما، ومدَى استثمار العاقلِ المُوفَّق، واغتنامِه لحالتَي النَّعماء والبَلواء بما يُقرِّبُه من ربِّه ويُرضيه عنه، وبما ينفَعُه في حياته ودُنياه وآخرته.

ولقد بيَّن لنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- كيفيَّة تعامُل الإنسان من حيث طبيعتُه الإنسانيَّة مع حالتَي النَّعماء والضرَّاء، فقال -سبحانه-: (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ) (هود: ٩، ١٠)، وقال -سبحانه-: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) (فصلت: ٥١).

فالإنسانُ من حيث هو إنسان يُسرِفُ في الفرَح بالنَّعماء والسرَّاء، ويظنُّ أن الله -عزَّ وجلَّ- قد اختصَّه بها لكرامته عنده؛ حتى يصلَ إلى حدِّ الأشَر والبطَر والفخر، وينسَى أنها نعمةٌ لله، ولو شاءَ الله لنزَعَها منه في لمح البصر، (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ) (الزمر: ٨).

وفي المُقابل نجد أنه يجزَع ويتسخَّط ويقنَط من رحمةِ الله إذا ابتُلِيَ بالضرَّاء،

ونُزِعَت منه العافيةُ والرحمةُ؛ حتى يصلَ به الحالُ إلى اتِّهام الله في قَدَره، والاعتراض عليه في قضائه، كما قال -سبحانه-: (وَإِن تَمَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ) (فصلت: ٤٩)، وقال: (وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ) (الفجر: ١٦).

وتلك فتنة.. وأيُّ فتنة؟! ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُون!

هكذا هو الإنسان، وهذه هي طبائعُه، إلا صنفًا مُوفَّقًا من الناس استثنَاه الله بقوله: (إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) (هود: ١١).

إنهم المُؤمنون الصادقُون الذين صدَقُوا مع الله، وشكَرُوا وصبَرُوا في حالتَي السرَّاء والضرَّاء، فوفَّقهم ربُّهم لأحسن الأقوال والأعمال والأخلاق، وعلِمُوا أن لله -تعالى- عليهم عبوديَّةً في حالة النَّعماء والسرَّاء، كما له -سبحانه- عبوديَّةٌ في حالة الضرَّاء والبَلواء.

فسعَوا وبذلُوا جُهدَهم في تكميلِ هاتَين العبوديَّتين حتى سُعِدُوا في حياتهم، وهنئُوا في عَيشهم، ورضُوا عن الله في الحالتَين، فرضِيَ الله عنهم وأرضاهم، وما كان ليُوفِّق إلى تلك العبوديَّة إلا المُؤمن.

كما ثبَتَ في "صحيح مسلم"، عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال: "عجَبًا لأمرِ المُؤمن إن أمرَه كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمُؤمن؛ إن أصابَتْه سرَّاء شكَرَ فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضرَّاء صبَرَ فكان خيرًا له".

فالمُؤمنُ الصادقُ هو أسعَدُ الناس حظًّا بربِّه، وأكمَلُ الناس استمتاعًا بهذه الحياة ولذَّاتها، وأعقَلُ الناس وأحسَنُهم تصرُّفًا في حالتَي الضرَّاء والسرَّاء التي لا ينفَكُّ عنهما أحدٌ من البشر.

أيها المُسلمون: إن لله -تعالى- على عبده عبوديَّةً في حالة الضَّرَّاء وما يُحبُّ، وله عبوديَّةٌ في حالة السرَّاء وفيما يكرَه، وهاتان العبوديَّتان هما رُكنا السعادة وقطبَا رحاها، ومَن كمَّلَهما وأتى بهما فلا أسعَدَ منه، ولا أشرَحَ صَدرًا، ولا أكمَلَ طُمانينةً وسَكينةً منه.

إن نعمَ الله على عباده كثيرةٌ ومُتنوِّعةٌ، وهي تدورُ بين نوعَين:

أعظمُهما وأجلُّهما قَدْرًا: النِّعمُ الدينية الشرعيَّة، والعطايا القلبيَّة الإيمانيَّة، والمِنَحُ الرُّوحيَّة والأخلاقيَّة، وأعظمُها: نعمةُ التوحيد والإيمان، ونعمةُ العلم والبصيرة والفقه في الدين، ونعمةُ الاجتماع والألفة والاعتصام بالكتاب والسنَّة.

والنوعُ الثاني: النِّعمُ الدنيويَّة والمُتَعُ الماديَّة والمعنويَّة التي تُعينُ العبدَ على النِّعم الدينيَّة، وتُكسِبُه بهجةَ الاستمتاع بالمُباحات والطيِّبات؛ كنعمة العافية في الأبدان، والأمنِ في الأوطان، وعدلِ السُّلطان، ونِعمة الأزواج والأولاد والأموال، وغير ذلك.

وكلا النَّوعَين نعمٌ من الله إيجادًا وابتداءً وامدادًا، (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ) (النحل: ٥٣)، (وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ) (إبراهيم: ٣٤).

فالمؤمنُ الصادقُ أمامَ نعم الله المُترادفة عليه يقومُ لله بعبوديَّة الشُّكر والحمد والاعتراف له بأنَّها منه وله، وأنَّها محضُ تكرُّم منه -سبحانه-، وتفضُّلٌ على عباده، ثم يشكُرُ الله -سبحانه- بلسانه وجوارحه، ولا يستعملُ هذه النِّعم إلا فيما يُرضِي الله -سبحانه وتعالى-؛ فمَن فعلَ ذلك فقد أدَّى شُكرَ النِّعمة، وقامَ لله بعبوديَّة السرَّاء، واستحقَّ جزاءَ الشاكرين الحامدين الذي جاءَت النُّصُوصُ مُتكاثرةً ببيانه وبيانِ فضلِ الشُّكر ومكانته، وأنه فريضةُ الله على عباده.

كقوله -سبحانه-: (كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ) (سبأ: ١٥)، وقوله: (وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ) (الأنعام: ٥٣).

أيُّها المُسلمون: إنَّ عبوديَّة الشُّكر هي قَيدُ النِّعم، وسرُّ بقائها وديمومتها وزيادتها، (وَإِذْ

تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم: ٧).

وما حُفظت النِّعم ولا قُيِّدت بمثل الشُّكر والحمد، ولا فرَّت ونفرَت وشردَت ومُحقت بركتُها بمثل البطر والأشر، واستعمالها فيما حرَّم الله. وهذا هو عينُ كُفران النِّعم، كما قال- سبحانه-: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: ١١٢).

وتلك سُنَّةُ الله التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، وكما قصَّ الله علينا نبأ قارون الذي آتاه الله من الكُنوز والأموال ما لا يُوصَف، فجحَدَ نعمةَ الله عليه غُرورًا وبطرًا، ونسيَ كيف كان قبلَ نعمة الله عليه، وقال: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي) (القصص: ٧٨)، فخسَفَ الله به وبداره الأرض، وجعلَه عِبرةً للمُعتبرين.

وإن من أقسَى صُور السَّلب بعد العطاء وأمرُّها: أن يُسلَبَ الإنسانُ في حياته لذَّةَ الطاعة والإنابة، وخُشوعَ القلب وزكاةَ النَّفس، والفرحَ بالله، وقُرَّةَ العين بالحياة مع الله- سبحانه وتعالى- والأنس به.

ويبلُغ السَّلبُ بعد العطاء ذروتَه حين يُسلَبُ العبدُ الإيمان وشهادة الحقِّ في ساعة الاحتضار، وعند سكَرات الموت، فيُعاقَبُ بسُوء الخاتمة، وشناعة النِّهاية، وموتة الأسَف، ولا يُوفِّقُه الله لخاتمةٍ حسنةٍ وميتةٍ مرضيَّةٍ سويَّة.

ولعَمرُ الحقِّ! إنها لمن أعجَب صُور سَلب النِّعم بعد العطاء، كحال فرعون الذي طغَى وبغَى وكفَرَ بالله ونعمه، ثم لما أدرَكه الغرقُ وعايَنَ الموتَ ذهَبَ ليُؤمن، فقيل له: (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (يونس: ٩١)؛ إنها لعِبرة.. وأيُّ عِبرة؟! ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون!

أمة الإسلام: وإن من العطايا الربَّانيَّة والمِنَن المرعيَّة التي تستوجبُ الشُّكرَ والحمدَ: نعمةَ الأمن والأمان التي امتنَّ الله بها على عباده، (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش: ٤)؛ ولفَتَ إليها الأنظارَ والعُقول بقوله: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) (العنكبوت: ٦٧).

إن شُيُوعَ الأمن في مُجتمعات المُسلمين عامَّةً ضرورةٌ شرعيَّة وحياتيَّة؛ لتستقيمَ حياةُ الناس، ويقُوموا بعبادة ربِّهم.

أيها المُسلمون: قال أنس - رضي الله عنه-: "إن الإيمانَ نِصفان: نِصفٌ شُكرٌ، ونِصفٌ صبرٌ".

وهذا يدلُّ على أن تحقيقَ هاتَين العبوديَّتين علامةُ الإيمان الصحيح، وكما أن لله عبوديَّةً على عبده في حالة السَّراء والنَّعماء بالشُّكر والحمد، فكذلك له -سبحانه- على عبده عبوديَّةٌ بالصبر والرِّضا في حالة البلاء والضرَّاء، تلك الحالةُ التي لا ينفكُّ عنها إنسانٌ أبدًا.

فمَن ذا الذي لم يُبتلَى بمرض وسُقم، أو فقر وذُلٍّ، أو نقص في الأموال والأنفُس والثَّمَرات، أو تغيُّرِ حالٍ وهمٍّ وغمٍّ وحُزن، أو أذيَّة حاسد وحاقد، أو إدالة الأعداء وانتصارهم على المُسلمين؟!

ولو نجَا من ذلك أحدٌ لنجَا الأنبياءُ والمُرسَلون الذين هم أكرَمُ الخلق على الله، وهم أشدُّ الناس بلاءً وامتحانًا، والرجُلُ يُبتلَى على قَدر دينه.

إن الابتلاءَ بالضرَّاء والبأساء سُنَّةٌ ماضية، وحتميَّةٌ قَدَريَّة، والمُسلمُ العاقلُ لا يملكُ أمام ذلك إلا أن يرضَى ويُسلِّم أمرَه لله ويصبر، وهو يعلَمُ أن لله في ذلك الابتلاء حِكَمًا وغاياتٍ ظاهرةً وخفيَّة.

ثم هو أيضًا لا يكتَفي بالرِّضا والصبر فحسب؛ بل يتَّخذُ كلَّ الوسائل المُمكنةَ المشرُوعة لدَفع ذلك الابتلاء ورفع الضرَّاء، فيدفَعُ قدَرَ الله بقَدَر الله بالأسباب الشرعيَّة، ويتوكَّلُ على الله ويستعينُ به، ولا يتواكَلُ ولا يتخاذَلُ ولا يضعُفُ؛ فالمُؤمنُ القويُّ أحبُّ إلى الله من المُؤمن الضَّعيف.

واللهُ -تعالى- يُحبُّ من عبده أن يسعَى في رفع الضَّرر وإزالة البلاء؛ حتى لا يقع فريسةَ اليأس والقُنُوط من رحمة الله، فيضعُفُ عن مُواجهة البلاء، فيجزَعُ ويختَعُ وينهَزِمُ، ويستَولي عليه الشيطان.

إن المُؤمنَ الصادقَ تظهرُ عبوديَّتُه لربِّه -سبحانه- أعظمَ ما تظهَر حين يُصابُ ببلاءٍ وكرب، فتجدُه عظيمَ الثِّقة بربِّه -سبحانه-، شديدَ التعلُّق بمَولاه، دائمَ الاستغاثة والتضرُّع لسيِّده، مُتحليًا بالصبر والمُصابَرة، لا يشكُو، ولا يُظهرُ الشكايةَ لأحد، ينتظرُ الفرَجَ من الله، ولا ييأسُ من رَوح الله، ولا يشكُّ في أن الله هو فارجُ الهمِّ، وكاشفُ الكرب، ومُجيبُ دعوةِ المُضطرِّين، (قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ) (الأنعام: ٦٤).

وتعظُمُ الثِّقةُ بالله والرَّغبةُ في فرَجه حين يطُولُ أمَدُ البلاء، ويستَطيرُ شررُ الفتنة، ويمتدُّ زمنُ الضرَّاء، (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة: ٢١٤).

أيها المُسلمون: إن عبوديَّة الضرَّاء بالصبر والمُصابَرة يُثمرُ للعبد أفانينَ الرِّضا والحُبُور والسَّكينة في صحراء البلاء، ووَهَج الضرَّاء، وتستَمطرُ رحمات السماء، وغيثَ اليقين والرَّوح؛ لتُروِّيَ جَفافَ الباساء، وقَحطَ المِحَن والبلاء.

إن المُسلمَ إذا صدَقَ مع الله في تحقيق عبوديَّة الضرَّاء، فإن المِحَن تكونُ في حقِّه مِنَحًا، وتنقلبُ الآلامُ آمالاً، والأحزانُ أفراحًا، ويجعلُ الله له من كلِّ ضيقٍ مخرَجًا، ومن كلِّ همٍّ فرَجًا، وربما صحَّت الأجسادُ بالعلَل، ورُبَّ ضارَّة نافعة، ورُبَّ بلاءٍ كان سببًا لأن يلِجَ العبدُ ملَكُوت السماء.

وكم بدَّدَت شُعلةُ الأمل ظُلمات اليأس! وكم نبَتَت الأزهارُ من خُلَل الصُّخُور الصمَّاء! فعلامَ يحملُ العبدُ الهُمومَ، والله بيده كلُّ شيء؟! وعلامَ يحزَن وهو يعلَمُ أن هذه الدنيا دارُ كبَد والْتواء لا دارُ استقرار واستواء، وأنَّ دوامَ الحالِ من المُحال، وأن كلَّ عُسرٍ فهو مُحاطٌ بين يُسرَين.

لقد سطَّر أنبياءُ الله ورُسُلُه أفخمَ الرَّوائع في إظهار العبوديَّة الحقَّة لله في حالة البلاء والضرَّاء، كما قصَّ الله علينا من نبأ نُوح، وابراهيم، ومُوسَى، وهود، وصالح، ويُونُس -عليهم السلام-، وكيف قامُوا لله المقامات العالية في مُواجهة البلايا ومِحَن الطريق.

وتنثني خواصرُ المهمُومين إجلالاً، وتفيضُ دُموعُ المكرُوبين استرواحًا لصبر يعقُوب -عليه السلام- على فقد ولده الحبيب، وتفجُّعه ووَلَهه، وتوكُّله على الله، وقوله: (إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ) (يوسف: ٨٦).

وأعجَبُ منه، صبرُ أيوب -عليه السلام- على المرض والبلاء قُرابةَ ثماني عشرة سنة -كما قال المُفسِّرون-، حتى ملَّ منه الصَّديقُ والقَريبُ، وفقَدَ ماله وأهلَه.

وما كان الله ليَذَرَهم على ما هم عليه حتى يُنجِيَهم ويكشفَ كَربَهم، وما كان الله ليتخلَّى عنهم وهم قد قامُوا له -سبحانه- بعبوديَّة الضرَّاء، فجاءَهم الفرَجُ، ونجَّاهم الله من الهمِّ والغمِّ والبلاء، (وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء: ٨٨).

أيها المُسلمون: من أعجَب الحوادث التي وقَعَت بالنبيِّ -صلى الله عليه وآله وسلم-، وأشدُّها ألمًا وابتلاءً، حادثةُ الإفك الشَّهيرة التي اتُّهمَت فيها عائشةُ -رضي الله عنها- حبيبةُ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-، وبقَدر شدَّة هذه الحادثة وألَمها، إلا أنها كانت تحملُ في طيَّاتها الخيرَ والبشائر، كما قال الله: (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) (النور: ١١).

ولذلك فقد يُقدِّرُ الله، ويُجري على عباده بعضَ المقادير التي في ظاهرها الشرُّ والضَّرر، ولكن في ثناياها الخيرُ، وتكونُ عاقبتُها إلى خير. فلا يأسَ مع رحمة الله وحُسن تدبيره، ولا قُنُوطَ مع لُطف الله وحكيم تقديره.

نسأل الله أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه.



نداء القدس ودروس التاريخ

إعداد: د. صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام

الحمد لله لم يزل بالإنعام منعماً، وبالإحسان محسناً، أحمده سبحانه وأشكره يغفر ذنبنا، ويجبر كسرنا، ويغيث لهفنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو ربنا ومولانا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله.

أيها المسلمون: إن التاريخ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة، وما أكثر العبر وأقل الاعتبار!

إن الأمة التي لا تقرأ تاريخها ولا تستفيد من ماضيها لحاضرها ومستقبلها لهي أمة مقطوعة بتة؛ فالماضي والتاريخ ليس مفتاحاً لفهم الحاضر فحسب، بل هو أساسٌ من أسس إعادة صيغة الحاضر وبناء المستقبل، وكتاب ربنا قد بسط لنا في أحوال الماضين، وقص علينا من قصص الغابرين؛ لأخذ الدروس واستلهام العبر.. (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف:١١١) .. (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) (يونس:١٤).

أيها الإخوة: إن سجل التاريخ هو المنار المرشد الذي يهدي -بإذن الله- ربان السفينة فيجنبه الصخور المدمرة في قاع البحار، ويقيه الأمواج العاتية فوق سطح المياه.

إن واقع الأمة اليوم في كثير من بقاعها وأصقاعها وأحوالها وأوضاعها يستدعي النظر والاعتبار، والتفكر والادكار، ولو أن المسلمين استوعبوا دروس الماضي لما أخطؤوا في كثير مما أخطؤوا فيه، والذي ينظر في تغيرات الأمم في مللها وأخلاقها، ويتأمل في تقلبات الدول في سياساتها واقتصادها هو أقدر على تفهم الحوادث الماضية، والتي هي صورة مشابهة لكثير من الوقائع المعاصرة...

أيها الإخوة: ويسهل الدرس، وتتضح العبرة، وتتجلى الصورة حين تنظر الأمة في ماضي تاريخها، لا في تاريخ غيرها، وحين تكون التجربة قد مرت بها لا بغيرها.

ومن أجل هذا فهذه دروس ووقفات مع تاريخ عجيب ودرس ثقيل، وتجربة مرة في فردوس مفقود؛ في أرض بقي فيها المسلمون ثمانية قرون، ثم خرجوا منها بل أخرجوا، وكأن لا أثر لهم فيها ولا عين .. ما الذي أدخلهم؟ وما الذي أخرجهم؟

ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار! وتوشك أن تشبه الليلة البارحة؛ إنهم أسلافنا وأجدادنا في بلاد الأندلس .. دخلوها بالإسلام فاتحين، وبالعقيدة مستمسكين، ومن عالي الأخلاق متمكنين .. لأوامر ربهم متبعين، وعن مناهيه ومساخطه متباعدين .. كيف دخلوا؟ يقول أحد النصارى في رسالة بعث بها إلى ملكه يصف فيها جيش المسلمين الذين عبروا إلى بر الأندلس بقيادة طارق بن زياد: لقد نزل بأرضنا

قومٌ لا ندري أهبطوا من السماء، أم نبعوا من الأرض؟

فها هو عبد الرحمن الداخل صقر قريش، ينزل من البحر فتهدى إليه جارية بارعة الجمال، فينظر إليها ويقول: إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وأنا إن لهوت عنها بهمتي وبمهمتي ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت همتي ومهمتي، ثم قال: والله لا حاجة لي بها.

لقد سار المسلمون في الأندلس في عزة وقوة ومنعة ووحدة وتماسك على هذا النهج.

يذكر ابن تغري بردي: أن المنصور بن أبي عامر كان يسهر على مصالح رعيته، وكانت متابعته لأمور رعيته تستنفذ كل وقته، حتى أنه كان لا ينام إلا سويعات متفرقات، فقيل له: لقد أفرطت في السهر وبدنك يحتاج إلى نوم أكثر من هذا. فأجاب: إن الراعي لا ينام إلا إذا نامت الرعية، ولو استوفيت نومي لما كان في بيوت هذا البلد العظيم عينٌ نائمة.

هذه هي صورة القوة، وحسن الرعاية، وصدق الحماية، وحفظ البلاد، ولقد بقوا على ذلك قروناً طوالاً محافظين على دينهم، معتزين بإسلامهم، متوحدين في كلمتهم، يجسد ذلك قول بعض المؤرخين من المسلمين: بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله، وضاعت الأندلس منا لما أضعنا دين الله.

لقد بدت وبدأت عوامل الضعف، وانحلت الدولة الأموية الواحدة الكبرى إلى دويلات وملوك وطوائف .. تنافس فيها أصحابها على السلطة، وتناحروا من أجل كراسي الحكم؛ فانتشر بينهم الغدر المستحكم، والخصام الدائم، والكيد المستمر؛ فلا همَّ لأحدهم إلا تحقيق مصالحه الذاتية، وإشباع أنانيته المفرطة، وكأن الأندلس إنما وجدت لمصلحته الخاصة مهما كان ذليل المكانة مهزوز القواعد.

إن كل تقدم حضاري، وسمو فكري، وثقل سياسي، وارتفاع معنوي، وعز سلطاني، إنما مرده إلى التمسك بدين الله، وهو مرهون بمقدار الالتزام بشرع الله والبعد عن الحياة اللاهية والمجون السافر والحقوق المهدرة .. يقول ابن خلدون: إذا تأذن الله بانقراض الملك في أمة حملهم على ارتكاب المذمومات، وانتحال الرذائل، وهذا ما حدث في الأندلس وأدّى إلى ضياعها.

بل قد أدرك ذلك كاتبٌ من الخصوم يدون لذلك العصر فهو يقول: العرب هووا وسقطوا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، أصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات.

ألا ما أكثر العبر وأقل الاعتبار! وماذا عملت كثيرٌ من وسائل الإعلام الإسلامية اليوم؟ وكتاب ربكم يقول: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً) (الإسراء:١٦).

أيها الإخوة: إن سنن الله في الأمم لا تتخلف، لقد انحرف هؤلاء الأسلاف عن دين الله، ووالوا أعداء الله، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وقعدوا عن الدفاع عن حرمات المسلمين، وابتعدوا عن أسباب التآلف والاتحاد، وحلت الأثرة محل الإيثار؛ ثم من بعد ذلك تكالبت عليهم القوى المعادية، فتمكنت منهم ومزقتهم شر ممزق.

أيها الإخوة: إن نصوص الشرع ودروس التاريخ تقول: إن العرب والمسلمين بغير الإسلام لا قيام لهم، وإنهم بغير الدين لا عز لهم، فإن الإسلام وحده ولا شيء غيره هو الذي يربي ويبني ويزكي ويقوي ويزرع العزة والمسئولية (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ) (المنافقون: ٨) ولقد جسد ذلك عمر رضي الله عنه في مقولته المشهورة: "لقد كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله"

يا قومنا: لقد ابتغى طوائف من قومنا العزة والنصر والوحدة بغير دين الله؛ ابتغوها في القوميات والوطنيات، وفي البائد الفاسد من الأحزاب والانتماءات، فماذا كانت النتيجة؟ إنها الذل-ولا أبلغ من كلمة الذل- وواقع الذل في كثير من الأنحاء والجنبات.

إن قضايانا في قدسنا وفلسطيننا وكشميرنا ومواقع أخرى اختزنت الذل في ظل نداءات غير إسلامية، وما واقع هذه القضايا إلا شاهدٌ عليه .. أبواقٌ كانت تنفخ كاذبة، وتتاجر بهذه القضايا خاطئة .. ترعد وتزبد، وتحذر وتخبر بالوعود

الوهمية حينما كانوا يقولون ويتنادون: تحرير كل شبر من الأرض، وتحرير كل حبة من الرمل، والنضال حتى آخر قطرة من الدم .. في نداءات وادعاءات صرخوا بها ونفخوا فما رأيت إلا هباءً ورماداً.

إن العرب والمسلمين حين ينبذون الإسلام وراءهم ظهرياً؛ فإنهم-والله الذي لا إله غيره- لينتحرون انتحاراً، ويطرحون سعدهم ومجدهم وطاقتهم وقوتهم.

ومن أجل استيعاب الدرس والوقفة الصادقة من أجل انطلاقة مثمرة فلنتأمل: إن كثيراً من الكتاب والمفكرين والمحللين والإخباريين الذين يتحدثون عن قضايانا في قدسنا وفلسطيننا وكشميرنا وكل حقوقنا.. هل سمعتم أحداً منهم يتحدث عن الله وعن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم؟!

ما تحدث متحدثٌ منهم عن أصلنا الديني وتاريخنا الإسلامي .. لا يتحدثون إلا عن كنعان وميراث كنعان .. ألا بعداً لكنعان كما بعدت ثمود.

إن خصومنا هم بنو إسرائيل وأتباع التوراة! وأما بنو قومنا هؤلاء فيا ترى هم بنو من؟!

إن كثيراً من بني قومنا لا يتنادون إلا باسم الأرض وحق كنعان، وبالله الذي لا يحلف بغيره إن إدارة المعركة على هذا النحو ما هو إلا ضلال استعماري مرسوم وقع فيه من وقع، في محنة نفسية وعسكرية وسياسية، لن ينالوا-والله- من ورائها خيراً..

إن بني إسرائيل يديرون المعركة ويعقدون ويبرمون باسم الدين، وباسم التوراة، وباسم التلمود، ويتنادون إلى أرض الميعاد، وثلة من بني قومنا يتنادون بعلمانية وكنعانية .. إنهم لا يذكرون محمداً صلى الله عليه وسلم، ولا عمر الفاروق، ولا صلاح الدين، ولا محمداً الفاتح، ولا التاريخ المجيد كله .. مسحورون بالاستعمار العالمي الذي ألغى الدين وجعل الشعوب تتنادى بالقومية والوطنية، وما جنوا من ورائها نقيراً ولا قطميراً .. يخرجون الإسلام من الميدان، ويبقى الذين يتنادون بالتوراة وحدود التوراة وآمالها ووعودها.

نظرة إلى الواقع الأليم في كثير من أجزاء الأمة وبقاعها، وفي رءوس كثير من مفكريها ومثقفيها وساستها ومنظريها، تكشف كم بعدت الشقة بين هؤلاء وبين شريعة ربهم، ومناهج التربية تفرض عليهم من وراء حدود، ويتحكم فيها أعداء الإسلام كما يشاءون، وإعلامهم لا يهتم إلا بإثارة الغرائز، وبث الفرقة، ونقل كفاءات الغرب ومجونه .. فهل على الفيلم الخليع، والغناء الوضيع، والرقص الماجن تربى أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟!

إنهم مفكرون ومثقفون ومنظرون لا يعتمدون على الدين في تربية، ولا يتبنونه بتشريع، ولا يوثقون به رباطاً، ولا ينطلقون منه في تضحية.....

ودرس آخر ثقيل، وموقف من الذلة شديد- أيها الإخوة- فلقد أصابنا يهود في ديننا، ونبينا، وقرآننا، ومقدساتنا، وأنفسنا وديارنا، فكلما تقدم المفاوضون معهم خطوة باتجاه السلام المرفوع زاد منهم توجيه الإهانات، وألوان الاحتقارات، وصور الإذلال للمشاعر والشعائر والمقدسات .. لقد حرقوا المسجد الأقصى، وحفروا من تحته الأنفاق، وصادروا الأراضي، وبنوا مغتصبات سموها مستوطنات، ثم تطاولوا وتطاولوا حتى داسوا القرآن ومزقوه تحت أقدامهم، وأهانوا نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بصورهم ورسومهم .. إنه درس التاريخ القديم والحديث، وإن نصوص شرعنا الذي تزيدنا تمسكاً بكتاب ربنا وصحة طريقنا وإيقاناً بوعد القرآن ووعيده .. (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) (النساء:٤٥).

هؤلاء هم اليهود بطبعهم وخلقهم، وهم شاهدون على أنفسهم في الماضي والحاضر، ولا يقال هذا تجنياً، ولا تزيداً ولا ادعاءً، ولا استعداءً، فلقد آذوا موسى عليه السلام من قبل، ورموا مريم البتول عليها السلام بالإفك والبهتان، وقتلوا الأنبياء، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، وحاولوا قتل نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وتآمروا عليه، وما انفكوا طوال تاريخهم يكيدون للشعوب، فقد أحلوا الربا، وروجوا الفسوق، وأكلوا أموال الناس بالباطل، واسمعوا إلى كتاب ربكم وهو يحدثكم عنهم: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا

غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ..) إلى قوله سبحانه: (.. فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) (النساء:١٥٥-١٦١).

نعم؛ لقد أصابونا في ديننا، ونبينا، وقرآننا، ومقدساتنا، وأنفسنا، وديارنا .. وإن العقل والمنطق والحكمة يقتضي أن يراجع ذوو الشأن من قومنا هذه المماطلات والمماحكات في المفاوضات، ويعلنوا موقفاً واضحاً من السلام الشامل العادل الذي يعيد المغتصب ويخرج المحتل ويرد المشردين ويخرج المعتقلين .. لا بد من ربط السلام بالإسلام؛ فبالله نحلف أنه لن يقوم سلامٌ ما لم يحترم الإسلام ويعرف له قدره في الماضي والحاضر والمستقبل، أما أن يستمر اليهود المحتلون، يحرثون ويزرعون ويمتدون، ويغتصبون تحت وابل القذائف اللفظية العربية الثقيلة التي لا تحرر أرضاً، ولا تعيد حقاً، ولا تحمي طفلاً، ولا تبني بيتاً، ومجلس الأمن الذي يضرب بحق النقض كل ما يعارض مصالح المحتلين، فهذا ما لا يمكن أن يحقق سلاماً.

ومن جانب آخر فإن الإنصاف يقتضي القول الجازم العاقل أنه لا يمكن أن يكون القتل العشوائي طريقاً للسلام، ولا يكون الاعتداء على غير الغاصبين المحتلين طريقاً للسلام، لكن لابد أن يعلم أن الكبت لابد أن يولد انفجاراً، وأن طمس الحقائق لابد أن يولد عنفاً.. إنها ليست ورقة باهتة يلقى بها على موائد المفاوضات.. إنها قضية كبرى تتمرد على الوقت الذي تحصره كتابة سياسية أو تحليل آلي، إنها بقعة مباركة من أرض الله وديار المسلمين تمتد في تاريخ الأمة الإسلامية جمعاء، وتتصل بجذورها وضمائر أجيالها .. إنْ قصَّر مسئول أو تقاعس جيل فإن القضية أكبر من ذلك وأكبر، إنه نداء متصل من أجل إنصاف القضية وإقرار العدل على الأرض والشعب والقضية .. (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) (آل عمران:١٣٨-١٤١).

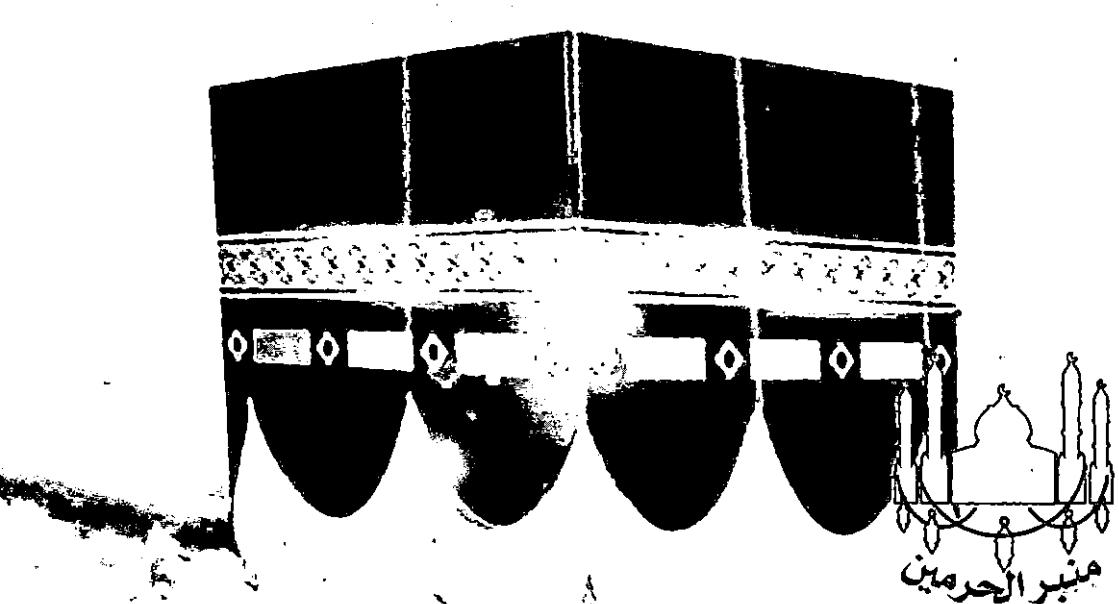
أمل رغم الألم

فيا أيها الإخوة؛ رغم مظاهر القساوة والعتاوة التي توحي بها مشاهد الحاضر المهزوم، والمستقبل الغامض المأزوم، ورغم تكدُّس معالم الفشل في كثير من الأنحاء، وفي ظل الانحراف الفكري المنهزم .. رغم كل هذا فإن المسلم المتعلق بربه، المؤمن بوعيده ووعده، والمتبصر بالسنن ونواميس الكون، يرى من وراء ذلك كله فتحاً قريباً، وليس هذا تحدثاً من سياسة قاصرة، ولا من منطق وهم زائل، ولا هو من معطيات واقع مرير، ولكنها روح الأمل الدافع، والفأل الدافق الذي تغرسه في أهل الإسلام حقائق الوحي، وهداية النبوة المحمدية الخاتمة، وشواهد التاريخ .. فلن تضيع بإذن الله قدسنا، ولا فلسطيننا، ولن تضيع قضايانا، ولن تضيع قضايا وراءها مسلمون مؤمنون.

إن القرآن الكريم والسنة المطهرة والتاريخ المحفوظ، يحدثوننا وينبئوننا أن أمة الإسلام أمة متجددة وعودة، كالغيث لا يدرى الخير في أوله أو في آخره، إنها أمة غير منقطعة بل متصلة مستمرة بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقول صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى" فلا تضعف في جانب إلا وتقوى في جانب، ولا تنهزم في ناحية إلا وتنتصر في أخرى، واستقراء التاريخ يؤيد ذلك.

عباد الله: هذا هو التاريخ، وهذه دروسه، وتلك هي سنن الله في الغابرين والحاضرين، فأبشروا وأملوا، وبدينكم فاستمسكوا، وربكم غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

اللهم وفق ولاة أمور المسلمين للعمل بكتابك وبسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم، واجعلهم رحمة لرعاياهم، واجمعهم على الحق يا رب العالمين.



منبر الحرمين

التحذير من الهلع

إعداد الشيخ د. سعود بن إبراهيم الشريم
إمام المسجد الحرام

الحمد لله، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله.

أما بعد: فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله جل شأنه؛ إذ بها المغنم والنجاة من المغرم، ما خاب من تمسَّك بها ولا رشد من نأى عنها، هي زاد المسافر، وسلوان الحاضر، وثمرة المهتدي، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ (مُحَمَّد: ١٧).

عباد الله: إن النسيم في هذه الحياة لا يهب عليلا على الدوام، والماء الجاري لا يدوم صفوه، فكم من نسيم اعترته العواصف، وكم من صفو عكَّره الكدرُ، فإن صروف الحياة وتداول الأيام يعتريها خليط من المد والجزر والزَّيْن والشَّيْن واليُسْر والعُسْر، والفرح والتَّرح، فإن من عاش لم يَخْلُ من المصيبة، وقلما ينفكّ عن عجيبة، وما النفس إلا كدر وصفو، طعم له مُرّ وطعم حلو، لا سرمدية في هذه الحياة، لا سرمدية في هذه الحياة لشيء دون ضده، فتلك هي سُنَّةُ الله التي لن نجد لها تبديلا ولا تحويلا، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (القَصَص: ٧١-٧٢)، إنه إذا ما اشتدت الخطوب على المجتمع المسلم وادلهمت عليه سهامُ الأعداء والخصوم الحاقدين والحاسدين، فإن من أوجب الواجبات عليه توحيد صفه، ونبذ فُرْقته، والتنازل عن اختلافات فرقائه التَّنوُّعيَّة، وتأجيل اختلافاتهم التَّضادُّيَّة، ما دامت الخطوب أعظم والتربص بمجتمعه من خارجه أدهى وأمَرّ، وإنه لا يثلم مثل ذلك المفهوم ويقطع سياجه أحدٌ من أفراد ذلكم المجتمع المعنيّ كشخص التّاث بصفة الإرجاف، أو التخذيل المولِّدَيْن الهلعَ والإرباك في أوساط المجتمع، فإن هذين الصنفين من الناس أخطر على لُحْمَة مجتمعهم من عدوه الخارجي؛ لأن التهويل وهو الإرجاف كفيلٌ ببَثّ الهلع واليأس والإرهاب مما هو قادم أو مجهول، وقولوا مثل ذلكم عن التهوين الذي هو التخذيل؛ فإنه كفيلٌ كذلكم ببث الكسل واللامبالاة وعدم الاكتراث بالخطر وسُبُل دفعه، أو سُبُل رفعه.

ومن هذا المنطلق -عباد الله- يجدر بنا أن نمر مرورَ الكرام على طبعٍ مذموم ينتاب الفردَ والمجتمعَ كلما صرَخ صارخٌ وَأَنَّ مُتَوَجِّعٌ، وأرجف مرجفٌ، ذلكم الطبع المريك الذي يصيب الناس بالتَوجس والإحباط وعدم الاستقرار؛ إنه طبع الهلع المؤسف عبادَ الله، الهلع بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، الهلع القاتل الصامت، الذي يُنشئ حالةً من التوتر والقلق والاضطراب تجاه مشكلة يظن الهلوعون بأنها تمثل تهديدا داهما للفرد أو المجموع في الأخلاق والأسرة والأمن والاقتصاد والسياسة، وهو؛ أي الهلع؛ طبع جبليٌّ من حيث قابلية المرء له في الأصل، إذا لم يحَصِّن نفسَه بما يضاده من السُبُل التي تدفعه قبل وقوعه أو ترفعه بعد الوقوع، (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا) (المَعَارج: ١٩-٢١)، والهلع-عباد الله- له مصدر وناقل وَمُتَلَقٍّ، يمثلون بمجموعهم الأثافي الثلاث لقدر الهزيمة النفسية والإحباط العملي وغياب الوعي للفرد والمجتمع، فمصدر الهلع فِئامٌ لا يرجون الخير للمجتمعات ولا تحمل قلوبهم أيًا من معاني السكينة والجِدّ والفأل وحُبّ الاستقرار، فإن لبَثّهُمُ الهلعَ في نفوس العامة مَوْرًا أكثر من مَوْر خصومهم وأعدائهم، فكم تسبَّب بثُّهم الهلع في الهزائم، وكم أحبط من الهمم، وكم اغتال من الآمال، وأمثال هؤلاء لا يحمون وطنًا ولا ينشدون مصلحته، ولا يرفعون مضرته بعد وقوعها، فضلاً عن أن يدفعوها قبل أن تقع، بل إنهم يختصرون طريقَ العَدُوّ ويتطوعون عنه بمعاول الهدم النفسي الذي لا طمأنينة معه ألبتة.

وأما ناقلوه؛ فهم دهماء الناس وَلَهازِمُهُمُ الذين هم كالأقماع لا تدري ما يُصَبّ فيها أَلَبَنٌ هو أم خمر؟ أَحُلْوٌ هو أم مُرٌّ؟ فإنما هم سمَّاعون حمَّالون مُرَوِّجُونَ (وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ) (النِّسَاء: ٨٣)، ومن هذا المنطلق فإن على ذوي الإعلام والمشاركين بوسائل التواصل مسئولية بالغة في إذكاء الهلع في المجتمعات أو في إخماده.

وأما المتلقون -يا رعاكم الله- فهم ضحايا ما مضى؛ إذ هم أسارى لمروجي الشائعات وحمَّالي القيل والقال، يحسبون كلَّ صيحة عليهم، فَيَسْتَسْمِنُونَ ذا الورمَ ويظنون كل سوداء تمرةً، يَفْرَقُونَ من الهمس ويجزعون من اللَّمْز، ليس لديهم من الوعي والتمحيص وقراءة ما بين السطور والعصف الذهني والتصفية ما يميِّزون به بين المصلحة والمفسدة، ولا بين الصدق والكذب، ولا بين التهويل والتهوين، ولا بين الواقع والوهم، وأن التثبُّت في الشائعات ليس كالتسليم في تلقِّيها، وهذا شرّ ما في الإنسان، الذي قد عناه المصطفى-صلى الله عليه وسلم- بقوله: "شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ" (رواه أحمد وأبو داود)، والنبي-صلى الله عليه وسلم- إنما بُعث في أسوأ أحوال العرب في الدِّين والأسرة والأخلاق والأمن والسياسة، فكانت رسالته في السماحة لا الفضاضة، والتيسير لا التعسير والفأل لا القنوط والتبشير لا التنفير والعمل لا القعود، والوعي لا الغفلة.

ثم اعلموا-يا رعاكم الله- أن الهلع هلعان، أحدهما: هلع أمام وَهْم، والآخر هلع أمام حقيقة، فالهلع الذي أمام الوهم من شأنه أن يؤصِّل في النفوس فصل الأمور عن عللها وبناء المواقف سلبًا وإيجابًا على ما لا حقيقة وراءه؛ إذ حَجَبَتْ فيه سحبُ الأوهام شمسَ الحقيقة فيطغى حينئذ العزوف عن بذل ما يمكن معه اكتشاف وهمية هذا الخوف والهلع واستفزاز الشيطان وإجلابه عليها بخَيْله وَرَجِله، وتظهر بِنَاءً على ذلكم مواقف لا علاقةَ لها بالهلع الوهمي ولا هي من بابته، فينشأ الغلط في ردة الفعل من الغلط في التقدير، (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا) (النِّسَاء: ٨٣).

وأما الهلع أمام الحقيقة فإنه إذا لم يُلجَم بلجام الحكمة والأناة فإن من شأنه أن يولِّد إحباطًا نفسيًا وشعورًا مبكِّرًا بالهزيمة؛ وَمِنْ ثَمَّ يُضفي القناعةَ باستحالة جدوى المدافعة والمزاحمة للتغلب على هذا الهلع الطارئ، وكما أن للهلع حقيقة ووهما فكذلك ثمت هلع منطقيّ وهلع مبالَغ فيه، وبما أننا نعيش زمنَ انتشار الوسائل المعرفية والتقنية التي لم تكن من قبلُ، فإن الهلع قد أصبح صناعة يَمتهن ترويجها المرجفون الذين يريدون تقويض الاستقرار

الفرديّ والأسريّ والمجتمعيّ، وهذا الصنيع قرَنَه الله بصنفين من الناس؛ هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض، فقد قال الله في كتابه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦١).

إن الهلع إذا دبَّ في قوم جعلهم كالمتلفِّت في سيره كثيرًا يضيع بصره بين الالتفات وبين إبصاره طريقه ومواضع خطاه، فيسبب التفاته بطأ في السير وتعثرًا في الخطى فيتأخر وصوله دون ريب ولا ثمرة للهلع إلا مثل ذلكم بقطع النظر عما يُحدثه الهلع من قلق يُفقد الثقة بالنفس والمجتمع، وعَدُوًّا يُفرِّق ولا يجمع، وتقلُّب مزاج لا يمكن التعامل معه بصورة مطردة واتخاذ مواقف لا تتناسب مع سبب الهلع نفسه؛ بحيث تكون ردَّة الفعل أكبر من الهلع بمراحل كثيرة، ولا جرم فإن الهلع هو سرطان الفأل، وجُذام السكينة وحمَّى الطمأنينة، كما أن توهُّمه يُورث الهمَّ والوهنَ والهوانَ، والله جل وعلا يقول لمن لامَس الإيمانُ قلبَه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

اتقوا الله عباد الله واعلموا أن التحذير من الهلع والأمر بمدافعته أو رفعه لا يعني أبدا التقليل من شأنه ولا أنه وهم على الدوام، فمن الهلع ما يُوجب الحيطةَ والحذرَ وبذلَ أسباب الوقاية منه لئلا يجتُم التخذيل مكانه ولا الاستسلام ولا القعود أو يصبح عنصرا سلبيًّا في المجتمع بأقصى درجات السلبية المبنية على احتقار الفرد ما يأتيه من الخير، وعلى الاضطراب والجزع إثر كل بلية تحل به، وإن صغرت ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (المعارج: ١٩-٢٢)... الآيات.

فالله-جل شأنه- قد استثنى من آفة الهلع في تلك الآية المُصلِّينَ والمتصفينَ بلوازمها في الآيات التي تليها، فإن مجتمعًا يداوم على الصلاة ويُنفق مما آتاه الله ويصدِّق باليوم الآخر ويشفق من عذاب ربه ويحفظ أعراض ذويه، ويؤدي أماناته ويقوم بشهاداته إن مجتمعا كهذا لن يحل الهلعُ به بعامَّة، ولن يكون من بَابَتِه في وِرْد ولا صَدَر، ولن يبدل الله أمنَه خوفًا فكيف يشقى قومٌ أكرمهم الله بهذا الكتاب فتمسكوا به؟ وكيف يقع في التيه من اهتدى بهديه واستنار بنوره؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩).

ألا إن الحياة بلا أمل قنوط جاثم، والأمل بلا عمل تمنٍّ كاذب وديننا الحنيف إنما يدعو إلى الفأل والأمل اللذين يستصحبان الجدَّ والعمل وبذلَ الأسباب، والحذرَ كلَّ الحذر من مرجف يُذكي بإرجافه الهلعَ ويؤصِّل قناعةَ وهمية بأن الزمانَ قد فَسَدَ برُمَّته، والمجتمعات قد هلكت وخراب دنياهم قاب قوسين أو أدنى، وأنه لا خير بات يُرْجَى ليصدق فيه قول الرسول-صلى الله عليه وسلم-: "إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ" (رواه مسلم).

ألا فاتقوا الله-عباد الله- واعملوا وأَمِّلُوا واستبشروا بقول الباري-جل شأنه-: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ (طه: ١-٢).

إِذَا الْمَرْءُ جَارَ عَلَىٰ نَفْسِهِ
وَأَسْرَفَ فِي خَوْفِهِ وَالْهَلَعْ
أَتَاحَ لِأَنْفَاسِهِ حَسْرَةً
تَجَلْجَلُ فِي قَلْبِهِ فَانْخَلَعْ

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، واخذُلِ الشركَ والمشركين، اللهم انصُر دينَك وكتابَكَ وسنةَ نبيِّك وعبادَكَ المؤمنين.

اللهم فرِّج همَّ المهمومين من المُسلمين، ونفِّس كربَ المكروبين، واقضِ الدَّيْن عن المدينين، واشفِ مرضانا ومرضَى المُسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم انصر إخواننا المُستضعفين في دينهم في سائر الأوطان، يا حي يا قيوم.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١).

سبحان ربِّنا رب العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



دوام ذكر الموت يرقق القلب

إعداد الشيخ د. علي عبد الرحمن الحذيفي
خطيب وإمام المسجد النبوي الشريف

الحمد لله، الحمد لله الحي القيوم الذي لا يموت، ذي الملك والملكوت والعزة والجبروت، أحمد ربِّي وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، القاهر فوق عباده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأشهد أن نبينا وسيدنا محمدا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد المجتَبَى وعلى آله وصحبه الحنفاء.

أما بعد: فاتقوا الله -تعالى- بطلب رضوانه، والبُعْد عن عصيانه، فتقوى الله صلاح أحوالكم في حياتكم والعُدَّة لما أمامكم مما تخافون وما تحذرون، هي الحصن من المهلِكَات، وبها وعد الله الجناتِ.

عباد الله: كلٌّ يسعى في هذه الحياة لمنافعه وإصلاح أموره ومطالب معاشه، فمنهم مَنْ يُصلح دِينه مع إصلاح دنياه، وهؤلاء الذين آتاهم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاهم عذاب النار، ومنهم مَنْ يسعى للدنيا ويضيع نصيبَه في الآخرة، وأولئك الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم.

وكلُّ هَمٍّ وعمل له أجل ينتهي إليه، قال الله -تعالى-: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (النَّجْم: ٤٢)، فسبحان الرب الذي جعَل في كل قلبَ شغلا، وأودع في كل قلب همًّا، وخلَق لكل أحد إرادةً وعزمًا، يفعل إذا شاء وأراد ويترك إذا شاء، وإرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته فوق كل إرادة ومشيئة، قال الله -تعالى-: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (التَّكْوير: ٢٩)، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والموت غاية كل مخلوق على الأرض، والموت نهاية كل حي في هذه الدنيا، وقد كتبه الله -تعالى- حتى على الملائكة؛ جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم الصلاة والسلام، وملك الموت يموت قال الله -تعالى-: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ (الرَّحْمَن: ٢٦-٢٧).

والموت آخر الحياة الدنيا، وأول الدار الآخرة؛ إذ به ينقطع متاع الحياة الدنيا، ويرى الميتُ بعد موته إما النعيم العظيم أو العذاب الأليم، والموت آية من آيات الله الدالَّة على قدرة الله -عز وجل- وقهره لمخلوقاته،



قال الله-تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام: ٦١)، والموت عدل من الله-سبحانه-؛ تستوي المخلوقاتُ فيه، قال الله-تعالى-: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٧)، والموت يقطع اللذات وينهي من البدن الحركات، ويفرق الجماعات، ويحول دون المألوفات، تفرَّد الله به مع الحياة، قال الله-تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٠).

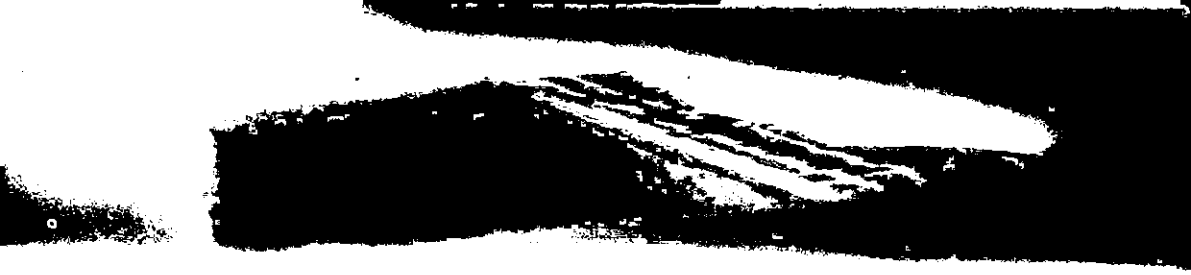
الموت لا يمنعه بوَّاب، ولا يدفعه حُجَّاب، ولا يُغني عنه مالٌ ولا ولدٌ ولا أصحابٌ، لا ينجو منه صغيرٌ ولا كبيرٌ ولا غنيٌّ ولا فقيرٌ ولا خطيرٌ ولا حقيرٌ، قال الله-تعالى-: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (النساء: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجمعة: ٨)، والموت يأتي بغتة بأجل؛ قال الله-تعالى-: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون: ١١)، ولا يستأذن على أحد إلا الأنبياء؛ فإنه استأذن لكرامتهم على الله-عليهم الصلاة والسلام-؛ فاستأذن على كل أحدٍ منهم، وفي الحديث: "مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ الْخُلُودِ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ الْجَنَّةِ أَوِ الْمَوْتِ فَيَخْتَارُ الْمَوْتَ".

وشاء الله-تعالى- أن يُخرج ابن آدم من الدنيا بالموت ليقطع علائقه منها؛ فلا تحنّ شعرة منها إليها إذا كان مؤمنا، عن أنس-رضي الله عنه- أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: "مَا أَحَدٌ لَهُ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةٌ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ" (رواه البخاري ومسلم).

والموت مصيبة لا بد منها، وألم الموت لا يقدر أحدٌ أن يصفه لشدته، فالروح تُنزع به من العروق واللحم والعصب، وكل ألم شديد فهو دون الموت؛ عن عائشة-رضي الله عنها- قالت: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْمَوْتِ وَعِنْدَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ وَهُوَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْقَدَحِ، ثُمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ، وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ" رواه الترمذي، وفي بعض الروايات: "إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ".

قال رجل لأبيه في الاحتضار: صِفْ لي ألمَ الموت للعبرة؛ فقال: يا بُنَيَّ: كأن شوكا معقوفا يجري في جوفي، وكأني أتنفس من ثقب إبرة، وقيل لمحتضر آخر: "كيف تجد؟ فقال: كأن الخناجر تختلج في جوفي". وقيل لآخر: كيف ألم الموت؟ فقال: كأن نارا تشتعل في جوفي".

ومن أدام ذكرَ الموت رقَّ قلبُه، وصلح عمله وحاله، ولم يتجرأ على المعاصي، ولم يضيع الفرائض ولم تغره الدنيا بزخرفها، واشتاق إلى ربه وإلى جنات النعيم، ومن نَسِيَ الموتَ قَسَا قلبُه وركن إلى الدنيا وساء عملُه، وطال أملُه، فتذكر الموتِ أعظمُ المواعظ، عن أبي هريرة-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ: الْمَوْتِ" (رواه الترمذي والنسائي وصححه ابن حبان)؛ ومعنى الحديث: قاطع اللذات ومُزيلها، وعن أُبَيّ بن كعب-رضي الله عنه- قال: كان رسول الله-صلى الله عليه وسلم- إذا ذهب ثُلُثُ الليل قام فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ" (رواه الترمذي وقال: حديث حسن)، وعن أبي الدرداء قال: "كفى بالموت واعظا، وكفى بالدهر مفرقا، اليومَ في الدُّور وغدا في القبور" (رواه ابن عساكر).



والسعادة كل السعادة، والتوفيق كل التوفيق، والفوز كل الفوز في الاستعداد للموت؛ فالموت أول باب للجنة، أو أول باب للنار، والاستعداد للموت بتحقيق التوحيد لله رب العالمين؛ بعبادة الله وحده لا يُشرك به شيئا، ومجانَبَة الشرك كله، عن أنس-رضي الله عنه- قال: "سمعتُ رسولَ الله-صلى الله عليه وسلم- يقول: "يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً" (رواه الترمذي وقال: حديث حسن).

الاستعداد للموت بحفظ الحدود والفرائض، قال الله-تعالى-: (وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (التَّوْبَة: ١١٢)، والاستعداد للموت باجتناب الكبائر من الذنوب والآثام، قال الله-تعالى-: (إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) (النِّسَاء: ٣١)، والاستعداد للموت بأداء حقوق الخَلْق وعدم تضييعها أو المماطَلَة بها؛ فحقُ الله قد يعفو فيه عما دون الشرك، وأما حقوق الخَلْق فلا يعفو الله عنها إلا بأخذها من الظالم وإعطاء المظلوم حقَّه، أو بالاستعفاء من المظلوم.

والاستعداد للموت بكتابة الوصية وألا يفرط في ذلك، والاستعداد للموت بأن يكون متأهبًا لنزوله في كل وقت، لمَّا نزل قول الله-تعالى-: (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ) (الأَنْعَام: ١٢٥)، قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: "نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي الْقَلْبِ" قالوا: ما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: "الإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِلِقَاءِ الْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ".

والسعادة أن يُختم للميت بخير؛ ففي الحديث: "الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ"، عن معاذ-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ"، (رواه أبو داود والحاكم بإسناد صحيح).

ومما يتأكد العمل به: تلقين المحتضر الشهادةَ برفق ولُطف؛ بأن يذكر الشهادة عنده يتذكرها ولا يُضجره فإنه في كرب شديد؛ عن أبي سعيد الخدري-رضي الله عنه- قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ" (رواه مسلم).

والشقاوة هي الذهول عن الموت ونسيانه، وترك الاستعداد له، والجرأة على المعاصي والذنوب، وتضييع توحيد الرب-جل وعلا- والعدوان والظلم بسفك الدم الحرام، وأخذ المال الحرام وتضييع حقوق الخلق والانغماس في الشهوات، والملذات المحرمات حتى ينزل الموت فلا ينفع الندم ولا يتأخر الأجل قال الله-تعالى-: (لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (الْمُؤْمِنُونَ: ١٠٠).

وبعد الموت ويوم القيامة تعظم الحسرة والندامة، قال الله-تعالى-: (وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ) (الزُّمَر: ٥٥-٥٩).

أيها المسلمون: حافظُوا على أسباب حُسْن الخاتمة؛ بإقامة أركان الإسلام الخمسة، واجتناب المآثم والمظالم، ومن أعظم أسباب حُسْن الخاتمة عن الموت:

دوام الدعاء بحسن الخاتمة، وقد قال



سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غَافِر: ٦٠)، فالدعاء جماع الخير كله، عن النعمان بن بشير-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ" (رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح)، وفي الحديث: "مَنْ أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِ: اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، وَأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ الْبَلَاءُ".

وأسباب سوء الخاتمة عند الموت: تضييع حق الله وحقوق الخَلْق، والإصرار على الكبائر والآثام، والاستخفاف بعظمة الله، والركون إلى الدنيا ونسيان الآخرة.

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (الأَحْزَاب: ٥٦).

وقد قال-صلى الله عليه وسلم-: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا"، فصلوا وسلموا على سيد الأولين والآخرين وإمام المرسلين.

اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وسلم تسليما كثيرا.

اللهم وارضَ عن الصحابة أجمعين وعن الخلفاء الراشدين، الأئمة المهديين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن سائر أصحاب نبيك أجمعين، وعن التابعين ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم وارضَ عنا معهم بمَنِّكَ وكرمك ورحمتك وفضلك يا أرحمَ الراحمينَ، ويا أكرم الأكرمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين يا رب العالمين، اللهم أذلَّ الكفر والكافرين يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك محمد-صلى الله عليه وسلم-، اللهم أظهر هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون يا رب العالمين.

اللهم إنا نسألك أن ترفع ما نزل بالمسلمين من الشدائد والكرب، اللهم ارفع ما نزل بالمسلمين من الشدائد والكرب يا أرحم الراحمين، اللهم ارفع ما نزل بالمسلمين من الشدائد والكرب في اليمن وفي فلسطين وفي الشام وفي سوريا وفي كل مكان يا رب العالمين، ظلم فيه المسلمون من أعداء الدين إنك على كل شيء قدير يا أرحم الراحمين، اللهم أطعم جائع المسلمين، اللهم واكسهم من عري يا رب العالمين، اللهم أوهم من تشرد إنك على كل شيء قدير، اللهم أنزل الأمن والطمأنينة والإيمان في بلاد المسلمين يا رب العالمين، اللهم إنا نسألك أن تغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم ارحمنا، اللهم لا تمنع عنا فضلك بسبب منا أو بسبب من غيرنا يا رب العالمين، أنت أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البَقَرَة: ٢٠١).

عباد الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النَّحْل: ٩٠)، واذكروا الله العظيم الجليل يذكركم واشكروه على نعمه وفضله يزدكم، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.



علاج القلق والهموم بذكر الله تعالى

إعداد: د. صالح بن عبد الله بن حميد
خطيب المسجد الحرام

الحمدُ لله، الحمدُ لله تعالى في عظمَته وملكُوته وكبريائه، وتقدَّس في مجده وعزّته وعليائه، حمدًا كثيرًا طيبًا مُباركًا فيه، أفاضَ علينا من كرمه وجُوده ونعمائه، أحمدُه - سبحانه - وأشكرُه وأسأله المزيدَ من فضله وآلائه. وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أرجُو بها الفوزَ يوم لقائه، وأشهدُ أن سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسولُه أفضلُ رُسله وخاتمُ أنبيائه، صلَّى الله وسلَّم وبارَك عليه، وعلى آله وأصحابه وأوليائه، والتابعين ومن تبعَهم بإحسان، وسلَّم تسليمًا كثيرًا مُباركًا مَزيدًا إلى يوم جزائه.

أما بعد: فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، اتَّقُوه ما استَطعتُم؛ فقد أفاضَ عليكم من نعمه وفضله ما عن شُكره قد عجَزتُم، وجاءَكم النذيرُ، وأبلغَ في إنذاره لو سمعتُم. اتَّقُوه؛ فتقواهُ خيرُ واقٍ، وفيها التَنافُسُ والسِّباق، واعلَموا أن لكل أجَلٍ كتابًا، ولكل غائبٍ إيابًا، ولكل عملٍ جزاءً وثوابًا. وأنتم إلى ربِّكم صائرُون، وعلى طريقٍ من سبَقكم سائرُون، وعلى من لا تخفَى عليه خافيةٌ سوف تُعرَضُون، (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء: ١).

أيها المسلمون: خلقَ الله الناسَ من نفسٍ واحدة؛ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) (النساء: ١)، نفسٌ واحدة تكتسبُ بحكمة الله وقدرته أوصافًا، وتحمِلُ سماتٍ، وتعيشُ أحوالاً تتنازعُها الشهواتُ والشُّبُهاتُ، والمحبُوبات والمكرُوهات، (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس: ٧- ١٠)، (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (البلد: ٨- ١٠).

عباد الله: لقد اعتنَى القرآنُ الكريمُ بهذه النفس الإنسانيَّة غايةَ العناية؛ لأن الإنسانَ هو محلُ التكليف، وهو المقصودُ بالهداية والتوجيه والإصلاح. ومن شرحَ الله صدرَه للإسلام، وعمَرَ قلبَه بالإيمان اطمأنَّت نفسُه، وهدأت سريرتُه، وتنزَّلت عليه السَّكينة، وامتلأ بالرِّضا قلبُه، (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) (الفتح: ٤)، (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: ٣٨). وفي الحديث: "الإيمان قيِّد الفَتْك، لا يفتِكُ المؤمن" (رواه أبو داود).

والفَتْكُ: هو البَطشُ. الله أكبر.. عباد الله! كم من مُسلم تكالَبَت عليه الهُموم، فتوضَّأ وتطهَّر، ثم قَصَدَ إلى زاوية من بيته، أو مشَى إلى مسجده فتلا من كتاب الله ما

تيسّر له، أو صلّى ما كُتب له فانزاحت هُمومُه، وقامَ كأنّما نشط من عقال؟! وكم من مُسلم اضطجعَ على جنبه الأيمن في منامه، وقرأ بعض آيات أو تلا بعض أوراد، فنامَ قريرَ العين محفوظًا بحفظ الله؟! وكم من مُسلم أصابَه قلقٌ أو وحشةٌ فاستأنسَ بآيات من كتاب ربّه، فوجدَه نعمَ الأنيس وخيرَ الجليس؟! وكم من مُسلم نالَه فقرٌ أو مسّه جوعٌ، فوجدَ في كتاب اللهَ شبَعَه وغناه؟! وكم من غنيٍّ كادَ أن يُطغيَه غناه، فأنقذَه مولاه بآيات من كتابه، فانكشفَ له السّتار، وتذكّر النّعَم، وابتغى ما عند الله؟! الصالحون الطيّبُون المُحسنون، المشاؤون للمساجد هم المُطمئنّون بذكر الله، وهم الأقوى والأقدرُ على مصائب الحياة وتقلّباتها، لا تُعكّرُ التقلّبات طُمأنينَتَهم، ولا تستثيرُ المُنغّصاتُ سكينتَهم.

معاشر المسلمين: هذا هو حالُ أهل الإيمان والصلاح، بينما يتعذّبُ ملايين البشر اليوم يلهَثون وراءَ المُسكّنات والمُنوّمات، والعيادات والمستشفَيات، ويبحثون في الكتب والمُؤلّفات والمقالات. أقلقَهم القلق، وفقدَت نفوسُهم الأمن، قلقون من الموت، يخافون من الفشل، جزعُون من الفقر، وجِلون من المرض، إلى غير ذلك مما تجري به المقاديرُ على جميع الخلائق.القلقُ - حفظكم الله وسلّمكم - انفعالٌ واضطرابٌ داخلَ النفس يُعاني منه الإنسانُ حين يشعُرُ بالخوف أو الخطَر من حاضر أو مُستقبَل.والإنسانُ القلقُ يعيشُ حياةً مُظلمة، مع سُوء الظنّ بمن حولَه وبما حولَه. تغلبُ عليه مشاعرُ الضيق والتشاؤم والتوتّر والاضطراب وعدم الثّقة؛ بل يرى الناسَ عُدوانيين حاقدين حاسدين، حتى قالوا: "إن وراءَ مُرتكبِ الجريمةَ قلقًا دفعَه إلى اقترافها"، إما خوفٌ من موت، أو خوفٌ من جُوع، أو خوفٌ من فقر، أو خوفٌ من مرض، أو فشل، أو غير ذلك من الدوافع والهواجس التي تمتلئُ بها هذه الحياة.هذا القلقُ المُضطرب غلبَت عليه الدنيا، فكانت أكبرَ همّه فزادَ قلقَه، وطالَ أرقُه، "ومن كانت الدنيا همّه جعلَ اللهُ فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له".

ثم تذكّر-حفظكم الله ورحمكم- هذا الدعاء: "اللهم لا تجعَل الدنيا أكبرَ همّنا". أين الراحة إذا كانت الدنيا هي مُنتهَى الأمل؟! وأين الطّمأنينةُ إذا كانت الدنيا هي غايةَ السعي؟! هدوءُ النفس وراحةُ البال-عباد الله- نعمةٌ عظيمةٌ لا يعرفُ قيمتَها إلا من فقدَها، ومن أصابَه الأرَقُ أو دبَّ إليه القلَق عرفَ معنى هذه النعمة، (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ) (الروم: ٢٣).

من فقدَ راحةَ البال تدلهمُّ أمامَه الخُطوب، وتجثُمُ على صدره الهُموم، فيتجافى عنه النوم، ويفقدُ الراحة، وتُظلمُ الدنيا في عينيه.

معاشر المسلمين: مساكينُ أهل هذا العصر حين يدرُسُون النفسَ الإنسانيّة مقطوعة الصّلة بالله خالقها ومُدبّرها، ومُقدّر أحوالها وشؤونها، يتكلّمون عن أثر البيئة، وعن أثر الأسرة، وعن أثر الاقتصاد، ولا يتكلّمون عن الهُدى والضلال، والكُفر والإيمان، والطاعة والعبادة.

فانقلبَت عندهم المعايير، واضطرَبَت لديهم المقاييس، وذهبَت الفضائل، وضاعَت القيَم، وانحلّت الأخلاق، فلم تُفد حلولُهم، ولن تُجدي اختباراتُهم ولا مُختبراتُهم، من ضلالهم وانحرافاتهم؛ أن عدُّوا ضبطَ الشهوات كبتًا، والإحساسَ بالذنب تعقيدًا؛ بل المرأةُ عندهم إذا لم تتّخذ صديقًا يُعاشرُها بالحرام فهي مريضةٌ شاذّة، ونعوذُ بالله من انتكاس الفطر.وفي كلمة مُنصفة: فقد انتقدَ عُقلاؤهم هذا الانحرافَ المُهلكَ في مبادئ هذه الحضارة وفكرها ونظرتها للإنسان ونفس

الإنسان؛ فقال قائلٌ منهم: "إن بيننا وبين الله رابطةً لا تنفصل، فإذا خضعنا لله تحققت آمالُنا وأمنياتُنا، وحققنا أمننا وطمأنينتنا". وقال آخر: "إن أعظمَ علاج للقلق هو الإيمان".

ويقولون: "الإيمانُ والاستقامةُ كفيلان بإبعاد القلق والتوتر، والشفاء بإذن الله من الأمراض النفسيَّة".

ويقولون: "الصلاةُ أقربُ طريق لبثّ الطُّمأنينة في النفوس، وبثّ الهُدوء في الأعصاب".

نعم، عباد الله: لا حصانةَ للنفس ولا حفظَ للمُجتمع أعظمُ وأنجعُ وأسرعُ من الإيمان بالله والسَّير على هُدى الله؛ الإيمانُ ينشرُ الأمان، ويبعثُ الأمل، والأملُ يبعثُ السَّكينة، والسَّكينةُ تُورثُ السعادة. فلا سعادةَ بلا سَكينة، ولا سَكينةَ بلا إيمان، فالإيمانُ هو الغذاءُ، وهو الدواء، وهو الضياء.صاحبُ الإيمان راسخُ العقيدة، حسنُ العبادة، جميلُ التوكل، كثيرُ التبتُّل، عظيمُ الخُضوع، طويلُ الخُشوع، مُديمُ الذكر، عميقُ الفكر، مُلازمٌ للعمل الصالح، واسعُ الصدر، عظيمُ الأمل، كثيرُ التفاؤل. لا يتحسَّرُ على ماضيه باكيًا، ولا يعيشُ حاضرَه ساخطًا، ولا ينتظرُ مُستقبَلَه خائفًا قلقًا.يقولُ ابن القيم-رحمه الله-: "لا تُفسد فرحَك بالقلق، ولا عقلك بالتشاؤم، إنك لو تأمَّلتَ حالَك لوجدتَّ أن الله قد أعطاك أشياء دونَ أن تطلُبها، فثق أن الله لم يمنَع عنك حاجةَ رغبتَها إلا ولك في المنع خيرٌ تجهلُه".

معاشر الأحبَّة: المُؤمنُ مُؤمنٌ بأقدار الله ومقاديره، فما شاءَ الله كان، وما لم يشأ لم يكُن، (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (الحديد: ٢٢، ٢٣).

والله هو الرزَّاق، ورزقُ الله لا يجُرُّه حرصُ حريص، ولا تردُّه كراهيةُ كاره، والمسلمُ يجمعُ بين التوكل والأخذ بالأسباب، (وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ) (الذاريات: ٢٢، ٢٣)، "فاتَّقُوا الله وأجملُوا في الطلب؛ فإن نفسًا لن تموتَ حتى تستوفيَ رزقَها وأجلَها"؛ (رواه ابن ماجه).

المُؤمنُ يعيشُ وذكرُ الله شعارُه، والتوكُّلُ على الله دثارُه، وما تلذَّذَ المُتلذِّذون بمثل ذكر الله.

وعجبًا لمن ابتُليَ بالغمِّ كيف ينسَى: (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) (الأنبياء: ٨٧).

رُوي عن جعفر الصادق-رضي الله عنه ورحمه-: "عجبتُ لمن اغتمَّ ولم يفزَع إلى قوله تعالى: (لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ منَ الظَّالمينَ) دعوةَ ذي النُّون - عليه السلام- فإني سمعتُ الله يُعقبُها بقوله: (فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء: ٨٨).

وعجبتُ لمن أصابَه الحزَن ولم يفزَع إلى قوله تعالى: (حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ)(آل عمران: ١٧٣)، فإني سمعتُ الله يقول: (فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ)(آل عمران: ١٧٤).

وعجبتُ لمن أحاطت به المكائد ولم يفزَع إلى قوله تعالى: (وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ) (غافر: ٤٤)، فإني سمعتُ الله يُعقبُها بقوله: (فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟) (غافر: ٤٥)".

ويُصدِّقُ ذلك ويُجلِّيه: قولُ نبيِّنا محمد - صلى الله عليه وسلم-: "دعوةُ ذي النُّون إذ دعا ربَّه وهو في بطن الحوت: (لا إلهَ إلَّا أنْتَ سُبْحانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالمينَ)، لم يدعُ

بها رجلٌ مُسلمٌ في شيءٍ قطُّ إلا استُجيبَ له" (أخرجه أحمد في "مسنده"، والترمذي في "جامعه").

ومن الدَّقيق اللطيف - عباد الله-: ارتباطُ دعوات المكروب بتحقيق التوحيد؛ يقول - عليه الصلاة والسلام-: "اللهم رحمتَك أرجُو، فلا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين، وأصلح لي شأني كلَّه، لا إله إلا أنت" (رواه أبو داود). وقال لأسماء بنت عُميس: "ألا أعلِّمُك كلمات تقولينَ عند الكرب؟ اللَّه ربِّي لا أشركُ بهِ شيئًا"؛ (رواه أبو داود).

معاشر المُسلمين: الالتجاءُ إلى الله والتوكُّل عليه وحُسن الظنِّ به من أعظم مُفرِّجات الهُموم، وكاشفات الكروب، وطارداتِ القلق، (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا) (الطلاق: ٣)، (وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (هود: ١٢٣).

والتعلُّقُ بالله ودُعاؤُه من أعظم السُّبُل يُعفي القلق؛ كيف وقد كان نبيُّكم محمدٌ - صلى الله عليه وسلم - إذا أكربَه أمرٌ قال: "يا حيُّ يا قيوم، برحمتك أستغيث"؛ (رواه الترمذي).

وفي الحديث الصحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه-، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "ما من مُؤمنٍ يُصيبُه همٌّ أو غمٌّ أو حَزَن فيقول: اللهم إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أمَتك، ناصيَتي بيدك، ماضٍ فيَّ حُكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسألُك اللهم بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسَك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقك، أو أنزلتَه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندَك، أن تجعل القرآن الكريمَ ربيعَ قلبي، ونورَ صدري، وجلاءَ حَزَني، وذهابَ همِّي وغمِّي؛ إلا فرَّج الله عنه"؛ (رواه أحمد في "مسنده").

وبعد، عباد الله: يجمعُ لكم ذلك كلَّه كتابُ الله؛ فهو الشفاءُ لما في الصدور، والشفاءُ لكل الأمراض البدنيَّة والنفسيَّة، والظاهرة والباطنة، (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (الإسراء: ٨٢)، (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)(يونس: ٥٧)، بتلاوته تطمئنُّ القلوبُ فلا اضطراب، وبالاستمساك به تطمئنُّ فلا قلق، وبتدبُّره تطمئنُّ فلا وسوسة.

معاشر المسلمين: أما ما كان من القلق حافزًا إلى الخير، وباعثًا على العمل، فهو قلقٌ محمود؛ بل هو خيرٌ وفضلٌ ونعمة، اقرءوا إن شئتُم: (وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ) (المؤمنون: ٦٠، ٦١)؛ فالمحاسبةُ والقلقُ خشيةَ التقصير من صفات المُؤمنين المُخلصين.

أما عدمُ الاكتراث والمُبالاة فمن صفات المُنافقين.

يقولُ الحسنُ- رحمه الله-: «المُؤمنُ أحسنُ الناس أعمالاً، وأشدُّ الناس خوفًا؛ فالمُؤمنُ لا يزدادُ صلاحًا وبرًّا وعبادةً إلا ازدادَ خوفًا ويقول: لا أنجُو، إنه يخشى عدمَ القبول».

المُؤمنُ لا يخافُ إلا الله، يخافُ أن يكون فرَّط في حقِّه، ويخافُ أن يكون قد اعتدَى على خلقه، كما قال أبو الأنبياء - عليه السلام-: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (الأنعام: ٨١).ألا فاتَّقوا الله - رحمكم الله-، واعمَلوا مُشفقين، وجِدُّوا حذرين، واستحضرُوا مقالةَ عباده المُؤمنين: (قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)(الطور: ٢٦).

والحمد لله رب العالمين.



رمضان مدرسة لتجديد الإيمان

إعداد
الشيخ د: عبدالرحمن السديس
إمام المسجد الحرام

أيها المسلمون: أرأيتم بماذا تقاس أفراح أهل الإيمان؟! إنها أفراح علوية، ومسرات روحية، تطلق النفوس من قيد المطامع الشخصية، وتحررها من أسر الأغراض المادية، وتحلق بها في آفاق أسمى وأولى، وتترقى بها في طموحات أرحب وأعلى، لذلك كانت أفراح أهل الإيمان عن الملذات تتسامى، وعن المشتهيات تترفع وتتعالى، أفراح المؤمنين تتجدد بتجدد مواسم الخير والعطاء، ومناسبات الطهر والصفاء، والمحبة والمودة والإخاء، والبر والسعادة والهناء.

تمر الأيام وما أسرعها! وتمضي الشهور وما أعجلها! ويطل علينا موسمٌ كريم، وشهر عظيم، ويفد علينا وافدٌ حبيب وضيف عزيز، فبعد ساعات معدودات يهل علينا شهر رمضان المبارك بأجوائه العبقة، وأيامه المباركة الوضاءة، ولياليه الغر المتلألئة، ونظامه الفريد المتميز، وأحكامه وحِكَمه السامية.

هو من فضل الله -سبحانه وتعالى- على هذه الأمة؛ لما له من الخصائص والمزايا، ولما أعطيت فيه أمة محمد صلى الله عليه وسلم من الهبات وخصت فيه من الكرامات، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وأغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين".

فيا لها من فرصة عظيمة، ومناسبة كريمة، تصفو فيها النفوس، وتهفو إليها الأرواح، وتكثر فيها دواعي الخير، تفتح الجنات، وتتنزل الرحمات، وترفع الدرجات، وتغفر الزلات، وتحط الأوزار والخطيئات، يجزل الله فيها العطايا والمواهب، ويفتح أبواب الخير لكل راغب، ويعظم أسباب التوفيق لكل طالب، فلله الحمد والشكر على جزيل نعمائه، وترادف مننه وآلائه.

معاشر المسلمين: إن الأفراد والأمم لمحتاجون لفترات من الراحة والصفاء لتجديد معالم الإيمان، وإصلاح ما فسد من أحوال، وعلاج ما جد من أدواء، وشهر رمضان المبارك هو الفترة الروحية التي تجد فيها هذه الأمة فرصة لاستجلاء تاريخها، وإعادة أمجادها، وإصلاح أوضاعها، إنه محطة لتعبئة القوى الروحية والخلقية التي تحتاج إليها الأمة، بل يتطلع إليها كل فرد في المجتمع، إنه مدرسة لتجديد الإيمان، وتهذيب الأخلاق، وتقوية الأرواح، وإصلاح النفوس، وضبط الغرائز، وكبح جماح الشهوات، إنه مضمار يتنافس فيه المتنافسون للوصول إلى قمم الفضائل، ومعالي الشمائل، وبه تتجلى وحدة

الأمة الإسلامية.

الصيام مدرسة للبذل والجود والبر والصلة، هو حقًا معين الأخلاق ورافد الرحمة، ومنهل عذب لأعمال الخير في الأمة.

فما أجدر الأمة الإسلامية وهي تستقبل شهرها أن تقوم بدورها! وتحاسب نفسها! وتراجع حساباتها! وتعيد النظر في مواقفها.

ما أحوجها إلى استلهام حكم الصيام، والاستفادة من معطياته، والنهل من معين ثمراته ونمير خيراته.

أمة الإسلام، بماذا عسانا أن نستقبل شهرنا الكريم، وموسمنا الأغر العظيم؟! إن الناظر في واقع الناس اليوم إزاء استقبال هذا الشهر الكريم يجدهم أصنافًا:

فمنهم من لا يرى فيه أكثر من حرمان لا داعي له، وتقليد لا مبرر له، بل قد يرفع عقيرته مدعيًا أنه قيودٌ ثقيلة وطقوسٌ كليلة، تجاوزها عصر الحضارة وتطور الثقافة وركب المدنية الحديثة.

ومنهم من لا يرى فيه إلا جوعًا لا تتحمله البطون، وعطشًا لا تقوى عليه العروق.

ومنهم من يرى فيه موسمًا سنويًا للموائد الزاخرة باللذيذ المستطاب من الطعام والشراب، وفرصة سانحة للسمر والسهر واللهو إلى هجيع من الليل، بل إلى بزوغ الفجر، ممتطين صهوةَ الفضائيات، وما تقذف به شتى القنوات، وما تعج به شبكات المعلومات، يتبع ذلك استغراق في نوم عميق نهارًا، فإذا كان من ذوي الأعمال تبرم بعمله، وإذا كان من أصحاب المعاملات ساءت معاملاته وضاق عطنه، وإذا كان موظفًا ثقل عليه الالتزام بأداء مسئولياته، وقلّ إنتاجه وعطاؤه، وغالب هذا الصنف هم من يملؤون الأسواق هذه الأيام تبضعًا وتخزينًا للمواد الغذائية المتنوعة، زاعمين أن ذلك يترجم الاستقبال الأمثل لرمضان.

وفي الأمة -بحمد الله وهم الأكثرون إن شاء الله- من يرى في رمضان غير هذا كله، وأجل منه جميعه، يرون فيه دورة إيمانية تدريبية لتجديد معانٍ عظيمة في النفوس، من الإيمان العميق، والخُلق القويم، والصبر الكريم، والعمل النبيل، والإيثار الجليل، والتهذيب البليغ، والإصلاح العام للأفراد والمجتمعات.

إن استقبالنا لرمضان -يا عباد الله- يجب أن يكون بالحمد والشكر لله -جل وعلا-، والفرح والاغتباط بهذا الموسم العظيم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس: ٥٨).

والتوبة والإنابة من جميع الذنوب والمعاصي، وأي عبدٍ لم يلم بشيءٍ منها؟! كما يجب الخروج من المظالم، وأداء الحقوق إلى أصحابها، وفتح باب المحاسبة الجادة للنفوس، والمراجعة الدقيقة للمواقف، والعمل على الاستفادة من أيامه ولياليه صلاحًا وإصلاحًا، بهذا الشعور والإحساس يتحقق الأمل المنشود، وتسعد الأفراد والمجتمعات بإذن الله.

أما أن يدخل رمضان ويراه بعض الناس تقليدًا موروثًا، وأعمالاً صورية محدودة الأثر ضعيفة العطاء، بل لعل بعضهم أن يزداد سوءًا وانحرافًا والعياذ بالله، فذلك انهزام نفسي، وعبثٌ شيطاني، له عواقبه الوخيمة على الفرد والمجتمع، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: "من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه". ألا فلتهنأ الأمة الإسلامية جميعًا بحلول هذا الشهر العظيم، وليهنأ المسلمون قاطبة بهذا الوافد الكريم.

إنه فرصة للطائعين للاستزادة من العمل الصالح، وفرصة للمذنبين للتوبة والإنابة، كيف لا يفرح المؤمن بفتح أبواب الجنان؟! وكيف لا يفرح المذنب بإغلاق أبواب النيران؟! يا لها من فرص لا يرحم فيها إلا مرحوم، ولا يحرمها إلا محروم! ويا بشرى للمسلمين بحلول شهر الصيام والقيام!

فالله الله -عباد الله- في الجد والتشمير دون استثقال لصيامه، واستطالة لقيامه، واستبطاء لأيامه، وحذار حذار من الوقوع في نواقضه ونواقصه، أو تعاطي مفطراته الحسية والمعنوية، وقد أخرج البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أنه صلى الله عليه وسلم قال: "من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".

إخوة الإيمان: إن شهر رمضان آتٍ بعد لحظات؛ جاء شهر الخيرات بالبركات

فأكرم به من زائرٍ هو آت

فالذين يستقبلونه على أنه شهر جوع ونوم، وحرمان نهاري، وشبع وسهر ليلي، وأعمالٍ وأقوالٍ لا تجاوز اللسان، ولا يعمر به جنان، لن يستفيدوا من معطياته، ولن ينهلوا من خيراته.

وأما الذين يستقبلونه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان، ومحطة لتهذيب الأخلاق والسلوك، وتقوية الضمائر والأرواح، وانطلاقة جادة لحياة أفضل، ومستقبلٍ أكمل، فهؤلاء هم المستثمرون على الحقيقة، قد أخذوا السير وأعدوا الحياة لتروح نسماته، والنهل من خيراته وبركاته، هؤلاء هم الخليقون بالرحمات، الحقيقون بالخيرات، الجديرون بالعطايا والهبات، المبشرون بروح الجنات، هؤلاء -بإذن الله- هم المعوّل عليهم -بعد الله- في صلاح الأوضاع، واستنزال النصر والعزة، وكسب الجولات، في إسعاد المجتمعات، ومواجهة التحديات.

وما أحوجنا إلى هذا الجيل الإيماني اليوم ونحن نواجه المؤامرات من قوى الشر والطغيان، وإن الغيور ليتساءل بحرقة وأسى: بأي حالٍ يستقبل إخواننا المسلمون في الأرض المباركة فلسطين شهر رمضان المبارك، وهم يواجهون العدوان اليهودي الغاشم ضد مقدسات الأمة ومقدراتها هناك؟! بأي حال يستقبل إخواننا في العقيدة على ثرى كشمير والشيشان وفي بقاعٍ كثيرة من العالم هذا الشهر الكريم؟!

وهمسة محب ناصح في أذن كل من يواقع معصية، أو يقترف خطيئة، فإن شهر رمضان فرصة للإقلاع والندم والتوبة والإنابة، وهو مدرسة الصبر والتحمل والقوة والإرادة، فلنبادر جميعًا إلى الكف عن الوقوع في أي لونٍ من ألوان المحرمات في حقوق الله أو في حقوق عباد الله، لاسيما والأجواء الإيمانية والأوقات الروحانية تعين على ذلك، كيف لا والعمر قصير، والأجل يأتي بغتة. والله المستعان.

كما أن الدعوة موجهة وبإلحاح إلى القائمين على وسائل الإعلام، والمسؤولين عن القنوات الفضائية، أن يتقوا الله في الأمة في هذا الشهر الكريم، فيبثوا الخير والفضيلة، ويكفوا عن الشر والرذيلة، تأدبًا مع قدسية الزمان، ورعاية لحرمة شهر رمضان، هذا إن رمنا الاستفادة من هذا الشهر الكريم، وإننا لفاعلون إن شاء الله.

فاتقوا الله -عباد الله- واشكروه على ما منّ به عليكم من قرب حلول شهر الصيام والقيام، واعلموا -يا رعاكم الله- أن إدراك شهر رمضان نعمة عظمى ومنة كبرى، فكم من أناس حال بينهم وبينه هادم اللذات ومفرق الجماعات، ولقد كان رسولكم صلى الله عليه وسلم يبشر أصحابه بقدوم شهر رمضان، يستحث بذلك عزائم المؤمنين، ويشرح صدور المسلمين للإقبال على طاعة رب العالمين، ويشوقهم ويرغبهم فيما عند الله من الفضل العظيم والخير العميم، فقد روى ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والبيهقي من حديث سلمان -رضي الله عنه- قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان فقال: "أيها الناس: قد أظلكم شهرٌ كريم مبارك، شهرٌ فيه ليلة خيرٌ من ألف شهر..". الحديث.

وفي الحديث الآخر: "أتاكم رمضان، شهر بركة، يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة، ويحط الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله -عز وجل-". رواه الطبراني وغيره، ورواته ثقات من حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه-.

وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة".

فيا أيها المسلمون: أروا الله من أنفسكم خيرًا، افتحوا صفحة جديدة من حياتكم، مسطرة بأحرف الخير والبر والتقوى والعمل الصالح.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل البر والصلاح.

والحمد لله رب العالمين.



خصائص شهر رمضان

إعداد: الشيخ د: أسامة بن عبدالله خياط
إمام المسجد الحرام

الحمد لله الكريم المنّان، واهب النِّعم كريم العطايا قديم الإحسان، أحمدُه - سبحانه-، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له منَّ على عباده بصيام وقيام هذا الشهر المبارَك رمضان، وأشهدُ أن سيِّدنا ونبيَّنا محمدًا عبدُ الله ورسوله خيرُ من صلَّى وصامَ وقامَ لعبادة ربِّه الملك الديَّان، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد: فاتَّقوا الله - عباد الله-، (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (البقرة: ٢٨١).

عباد الله:

إن من نعَم الله السابغة، ومِنَنه المُتتابعة، وآلائه الجليلة: أن جعلَ للأمة أوقاتًا تسمُو على أشباهها، وتمتازُ على نظائرها، وخصَّها بأزمنة هي غُررُ الزمان وتيجانُ الأيام، يُضاعَفُ فيها أجرُ العاملين، ويسمُو فيها قدرُ المجتهدين، الذين يستبقُون فيها الخيرات، ويهتبلُون فيها الفُرصَ السانحات. وتسمُو نفوسُهم إلى سنيِّ المراتب، وتنزعُ هممُهم إلى شريف المطالب، وتحفزُهم إلى حيازة الدرجات الرفيعة، والحظوة بالنعيم المُقيم في جنات النعيم.

وإن من هذه الأزمنة الشريفة: هذا الشهر المُبارَك رمضان، إنه سيِّد الشهور، الشهرُ الذي اختُصَّ من بين سائر شُهور العام بخصائص تبوَّأ بها مقامَ الصدارَة بينها، وارتقَى بها إلى رِفعة لا تُسامَى، وشرف لا يُضاهَى.

وحسبُك أنه الشهرُ الذي أُنزل فيه الهُدى والنور والشفاءُ لما في الصدور: القرآنُ حبلُ الله المتين، والنورُ المُبين، والشفاءُ النافع، والعصمةُ لمن تمسَّك به، والنجاةُ لمن اتَّبعه، كما قال - سبحانه-: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة: ١٨٥).

وأيُّ شرف يعدلُ هذا الشرف؟! وأيُّ فضيلة تعدلُ هذه الفضيلة؟!

لكنَّه اختُصَّ مع ذلك أيضًا بخصائص ازدادَ

بها شرفًا، وعلا بها قدرًا، وتضاعَفَ بها فضلاً، فمن هذه الخصائص:

أنه شهرٌ تُفتَّحُ فيه أبوابُ الجنة، وتغلَّقُ فيه أبوابُ النار، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في "صحيحيهما"، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إذا دخلَ شهرُ رمضان فُتِّحت أبوابُ الجنة، وغُلِّقَت أبوابُ جهنَّم، وسُلسِلَت الشياطين».

وهو تعبيرٌ بيِّنٌ عن سعَة رحمته - سبحانه-، وفيض جُوده بالعفو والمغفرة والعتق من النار، كما جاء في بعض طُرق هذا الحديث عند الشيخين: «إذا دخلَ شهرُ رمضانَ فُتِّحت أبوابُ الرحمة». وفي بعضها: «فُتِّحت أبوابُ السماء».

وكل أولئك مما يُشيرُ إلى تدفُّق العطاء الرباني، وغَمره العبادَ بألوان الإكرام وضُروب الإنعام، حتى لا يكادُ يُرى فيه موضعُ حَجبٍ، ولا مكانُ منع، ولا مقامُ حِرمان.

ومنها أيضًا: أن صيامَه وقيامَه سببٌ لغُفران ما تقدَّم من ذنوب العبد، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في "صحيحيهما"، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه».

وكما جاء في الحديث الذي أخرجه الشيخان في "صحيحيهما"، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «من قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه».

لكنَّه غُفرانٌ مخصوصٌ عند جُمهور أهل العلم بما دُون الكبائر؛ إذ لا تُكفِّرُها غيرُ التوبة، وردُّ الحقوق إلى أهلها إن كانت مُتعلِّقةً بحُقوق العباد، لقوله - صلى الله عليه وسلم-: «الصلواتُ الخمسُ، والجُمعةُ إلى الجُمعة، ورمضانُ إلى رمضان مُكفِّراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَت الكبائر» (متفق عليه).

وهو بكل حالٍ فضلٌ عظيمٌ، وخصيصةٌ جليلةٌ لهذا الشهر، يستبينُ بها رِفعةُ مقامه، وعلوُّ منزلته، وتفرُّدُه على غيره بمزيد الإكرام.

ومنها: أن فيه ليلةَ القدر التي هي خيرٌ من ألف شهر، كما قال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: (إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ) (القدر: ١- ٥).

وهي الليلةُ المُباركة التي ذكرَها - سبحانه - بقوله: (أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) (الدخان: ٣، ٤).

وهي الليلةُ التي من قامَها إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه"، عن أبي هريرة - رضي الله عنه-، أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «من قامَ ليلةَ القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه».

ومنها أيضًا: أنه شهرُ الصبر؛ إذ الصبرُ لا تظهرُ حقيقتُه، وتتَّضحُ صُورتُه أكثر من ظُهورها في الصيام؛ فإنه نصفُ الصبر، والصابرُ يُوفَّى أجرَه بغير حساب، كما قال - سبحانه-: (إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (الزمر: ١٠).

ومنها: أن فيه دعوةً مُستجابةً لكل مُسلم، كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في "مسنده" بإسناد جيد، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما-، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «لكل مُسلم دعوةٌ مُستجابةٌ يدعُو بها في رمضان».

وهذا باعثٌ قويٌّ للعبد يحملُه على اهتبال هذه الفُرصة، واغتنام هذه الفضيلة في الازدلاف إلى مولاه محبَّةً وشوقًا، تضرُّعًا وانكسارًا، واطراحًا على بابه - سبحانه-، والتجاءً إلى جنابه؛ أملاً في الحظوة عنده، وطمَعًا في الرُّفعة لديه.

ولا غرْوَ بعد هذا - يا عباد الله - أن يكون

صيامُ هذا الشهر سببًا لتحقيق العبوديَّة لله ربِّ العالمين؛ إذ لا إمساكَ ولا إفطارَ إلا على الصِّفة التي شرعَها الله ورسولُه - صلى الله عليه وسلم-، وفي الزمن الذي حدَّه؛ فإن الصائمَ عبدٌ لله لا تتحقَّقُ عبوديَّتُه إلا بعبادته - سبحانه - وحدَه بما شرَع.

فجماعُ الدين: ألا يُعبَد إلا الله، وألا يُعبَد إلا بما شرَع، ولن يصحَّ للصائم صيامٌ ولا عبادةٌ إلا إذا وُزِنَت بهذا الميزان الذي تقومُ كفَّتاه على الإخلاص لله والمُتابَعَة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم-.

ولذا كان الصومُ كلُّه - كما قال بعضُ العلماء-: "خُضوعًا للأمر الإلهيّ، فلا أكلَ ولا شُربَ ولا مُتعةَ بما حُظِر على الصائم بعد تبيُّن الخيط الأبيَض من الخيط الأسوَد من الفجر إلى غُروب الشمس، مهما جمَحَت النفسُ، وطغت شهوةُ الطعام والشراب.

ولا إمساكَ عن الطعام والشراب أيضًا وما حُظِر في النهار بعد غُروب الشمس، مهما جمَحَت طبيعةُ الزُّهد والتنسُّك.

فليس الحُكمُ للنفس والشهوة والعادة - يا عباد الله-، لكنَّ الحُكم لله وحدَه، وكلما كان الصائمُ مُتجرِّدًا عن هواه، مُنقادًا لحُكم الله، مُستسلمًا لقضائه وشرعه؛ كان أصدقَ في العبوديَّة، وأرسخَ قدَمًا". اهـ.

هذا وإن فضائلَ هذا الشهر المُبارَك - يا عباد الله - لا تكادُ تنحصرُ وكلُّها من الأدلَّة البيِّنة على سعَة رحمته - سبحانه - بعباده، وإرادته بهم اليُسر، ووضعه عنهم الإصْر.

ألا وإن تذكُّر الصائم لهذه الفضائل والخصائص العظيمة المُبارَكة لهذا الشهر المُبارَك، يَجبُ أن يكونَ باعثًا على كمال الشكر لله تعالى المُنعم بهذه الصفة، وذلك بتمام الحِرص على حُسن أدائها، ورعايتها حقَّ رعايتها، والحذر من إضاعَة فُرصتها وتفويت مَغنَمها، والتفريط في جَميل الموعُود عليها.

فاتَّقوا الله - عباد الله-، واهتبِلُوا هذه الفُرصةَ العظيمةَ فيما يعظمُ به قدرُكم، ويعظمُ به أجرُكم، ويرفعُ الله به ذِكرَكم.

عباد الله: لقد كان من السُّنَن النبويَّة العظيمة التي سنَّها رسولُ الهُدى - صلى الله عليه وسلم - في هذا الشهر: سُنَّةُ المُدارسة القُرآنية، كما جاء في الحديث الذي أخرجَه الشيخان في "صحيحيهما"، عن ابن عباس - رضي الله عنهما-، أنه قال: "كان رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكونُ في رمضان حين يلقَاهُ جبريلُ فيُدارسُه القرآن، فلرسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - أجودُ بالخير من الرِّيح المُرسَلَة".

وفي الحديث: دلالةٌ ظاهرةٌ على الفضل العظيم لمُدارسَة القرآن في شهر القُرآن، وعلى استحباب الإكثار من التلاوة في هذا الشهر، وأنها أفضَلُ من سائر الأذكار، وإلى توجيه الأنظار إلى ما بين المُدارسَة القرآنيَّة والجُود بالخير من وَثيق صِلة.

ذلك أنها - كما قال أهلُ العلم بالحديث-: تُجدِّدُ له العهدَ بمزيد غِنَى النفس، والغِنى - أي: غِنى النفس - سببُ الجُود الذي هو أعمُّ من الصدقة، وأيضًا رمضانُ موسمُ الخيرات؛ لأن نعَمَ الله على عباده فيه زائدةٌ على غيره.

فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يُؤثِرُ مُتابعَة سُنَّة الله في عباده، ولذا كان - صلى الله عليه وسلم - في الإسراع بالجُود أسرعَ من الرِّيح المُرسَلَة؛ أي: التي هيَ دائمةُ الهُبُوب بالرحمة. وهي إشارةٌ إلى عُموم النفع بجُوده - صلى الله عليه وسلم-، كما تعُمُّ الرِّيحُ المُرسَلةُ ما تهُبُّ عليه.

ووقعَ في رواية أحمدَ في آخر هذا الحديث: "لا يُسأل - أي: - صلى الله عليه وسلم - - لا يُسألُ شيئًا إلا أعطاه".

وهي كنايةٌ عن كمال الجُود ومُنتهاه.

وصلِّ اللهم وسلِّم على عبدك ورسولك نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمدُ لله رب العالمين.

الثبات على الطاعات وترك المنكرات بعد رمضان



إعداد الشيخ د: علي عبد الرحمن الحذيفي
إمام المسجد النبوي

الحمد لله العزيز الغفور، فمن اتقاه وقاه الله الشرور والمكروهات، وأسبغ عليه في الدارَيْن الخيرات.

أيها المسلمون: ألا أخبركم بخير الناس، وأعظم العابدين أجرًا، وأفضلهم عند رب العالمين ذكرًا؟! هو من أتبَع الحسنات الحسنات، وحفظ نفسه بحفظ الله ومعونته وتوفيقه من المحرمات، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

ويلي هذا في الفضل: من أتبَع السيئة الحسنةَ، فعملُ الحسنة بعد السيئة يمحوها ويقي من عقوباتها في الدنيا والآخرة، ويثقل بها ميزان العبد عند الله تعالى، فمن رحمة الله وفضله وعدله أن يحفظ لعباده مثاقيل الذرّ من فعل الخير والعمل الصالح، ويُضاعف لهم ذلك ليُعينهم ويُؤهلهم لدخول جنات النعيم، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧)، وقال -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله كتب الحسنات والسيئات، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبها الله عنده سيئة واحدة". رواه البخاري ومسلم.

عباد الله: اعلموا أن الله -عز وجل- لا يمحُو السيِّئَ بالسيِّئ، ولكن يمحُو السيِّئَ بالحسن، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: ١١٤)، وسبب نزول هذه الآية: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، فأتى النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- فذكر ذلك له، فنزلت هذه الآية، فقال: يا رسول الله: ألهذا خاصة؟! قال: "بل وللناس كافة". رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-.

وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "اتق الله حيثما كنتَ، وأتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالِق الناس بخُلُق حسن". رواه الترمذي.

ولله -عز وجل- الفضل والمَنُّ أن جعل دينَنا يُسرًا، وشرع لنا أبوابًا من الخير، وطرقًا للأعمال الصالحات كثيرة، ليستكثر المسلم من أعمال البرِّ بما يَقدر عليه، وما يُناسب استعداده وحاله بعد أداء الفرائض، كما قال النبي-

صلى الله عليه وسلم-: "إن هذا الدين يُسر، فأوغلوا فيه برفق، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقارِبُوا وأبشروا".

وكما أن الحسنة بعد الحسنة زيادة في الثواب، والحسنات بعد السيئات يمحُو الله بهنَّ الخطيئات، فكذلك السيئات بعد الطاعات قد تُحبط الحسنات، كما قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (التوبة: ٧٤)، وكما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (التوبة: ٦٥، ٦٦)، وقال-عز وجل-: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ٣).

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "إن بين يدي الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا". رواه أبو داود والترمذي.

فهذه الأدلة أفادت أن من المعاصي ما يُحبط العمل، فاحذر-أيها المسلم- من كل ما يُحبط الأعمال الصالحات، وحافظ على طاعتك بدوام الاستقامة، والله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٣).

وللمعاصي بعد الطاعات ضررٌ آخر دون إحباط الأعمال، وضررها: أنها تُنقصُ ثواب الأعمال الصالحة، كما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: "من اقتنى كلبًا نقص من أجره كل يوم قيراط إلا كلبَ صيد".

معشر المسلمين: كنتم في رمضان الذي أنعم الله عليكم فيه بكل الخيرات، وصفَت لكم فيه الأوقات، وحُزْتم فيه على أعظم الأجور، وتلذذتم فيه بطاعة ربكم الرحيم الغفور، فلا تُبدِّلوا صالح أعمالكم بالعصيان، ولا تنقصوا ثواب قُرباتكم بطاعة الشيطان، فقد كنتم في حصنٍ من شره بالصيام والقيام، وبعد الصوم يريد أن يدعو من استجاب له إلى هوان الذنوب والخسران، فادحروه بالاعتصام بالقرآن والالتجاء إلى الرحمن.

ومن كان مُحسنًا في شهر الصيام فليحمد الله كثيرًا، فلله الفضل والمنة أولاً وأخيراً على عباده، وليَدُم على طاعة ربه حتى الموت، فقد ذكروا عن السلف أنهم كانوا يسألون الله ستة أشهر أن يُبلغهم رمضان، ويسألون الله ستة أشهر أن يتقبَّل منهم رمضان، وكانوا على استقامة في جميع الشهور والأعوام على الدوام.

قيل لبشر الحافي-رحمه الله-: إن قومًا يجتهدون في رمضان، فإذا ذهب تركوا، فقال: "بئس القوم؛ لا يعرفون الله إلا في رمضان".

وأما من فرَّط وأساء فيما مضى من العُمر فليتقرَّب إلى ربه بالتوبة الصادقة، وليُقبل على عبادة الله تعالى، فهو ربُّ الشهور وربُّ العباد، ولا يحول بين العبد وربِّه زمانٌ ولا مكان، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (طه: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢)، وقال-تبارك وتعالى-: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر: ٥٤).

فاتقوا الله تعالى بامتثال أمره الأكيد، واعلموا-عباد الله- أن الشياطين في رمضان كانت عنكم مُصفدة، وبعد رمضان تتمكَّن في غيره ما لا تتمكن في رمضان، والشيطان خبيرٌ بطرق الخير وفضائل الأعمال، يدعو الإنسان بمكره وخداعه أن يأتي بما يُضادّ الأعمال الصالحة، أو يُنقص ثوابها، ولكن المسلم قويٌ بتوكله على الله، وإيمانه بوعد الله، والله قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٧٦)؛ فردُّوا الشيطان خائبًا حسيرًا، فهو حريصٌ أن يأخذ بثاره منكم ليجعل الأعمال هباءً منثورًا، واستديموا نعَم العبادات عليكم في أيام أعماركم كلها.

إخوة الإسلام: إن أوامر القرآن كثيرة في الدعوة إلى الاستقامة على التقوى، والاستمرار على الهُدى، يقول ربُّنا-جل وعلا-: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (هود: ١١٢).

وصايا عظيمة ربَّانية تتضمَّن الأمرَ بالإقامة على أمور الإسلام، والتزام منهج الدين، والاستمرار في التقيُّد بقيوده، والوقوف عند حُدوده، والاستجابة لأوامره والانتهاء

عن زواجره على الوجه الأكمل والطريق الأقوَم.

ورسولُنا-صلى الله عليه وسلم- يُوصي أمَّتَه بوصية عظيمة ذات عبارات وجيزة جميلة المعنى قليلة المَبنى، إنها وصيةٌ تقتضي لزومَ الاعتقاد الصحيح، والتمسُّك بالصبر على الطاعات واجتناب المنهيَّات.

جاء سُفيانُ بن عبد الله الثَّقفي إليه-صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله، أوصني، وقل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، فقال: "قُل: آمنتُ بالله، ثم استقم". والحديثُ في صحيح مسلم.

إنها وصايا في القرآن والسنة تكفل العيشةَ الرضيَّة، وتضمنُ الحياةَ الطيبة والسعادة الأبدية، يقول ربُّنا-جل وعلا-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣، ١٤).

فيا إخوة الإسلام، إنه ينبغي على من تفضَّل الله عليه بالمسارعة إلى الخيرات في رمضان أن يحمَد الله-جل وعلا- وأن يشكُره حقَّ الشكر، ثم عليه أن يسير على الطريق المستقيم، وأن يزداد تقرُّبًا إلى المولى العظيم، وأن يكون حذرًا أشدَّ الحَذَر من إهداء حسناته لغيره، أو أن يبُوءَ بفعله القبيح أن يبُوءَ بسيئات غيره، وذلك لا تحصُل السلامةُ منه إلا بأن يصُونَ لسانَه عن أعراض المسلمين، وأن يكون حذرًا أشدَّ الحَذَر من أذيَّة المؤمنين، وأن يتحلَّل من حقوق ومظالم المسلمين.

في صحيح البخاري عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: "من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه من عِرضِه أو من شيءٍ فليتحلَّلْه منه اليومَ قبل أن لا يكون درهمٌ ولا دينار، إن كان له عمل صالحٌ أُخذ منه بقدر مظلَمَته، وإن لم يكن له حسناتٌ أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه".

وفي صحيح مسلم أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: "إن المُفلِسَ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتَمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكل مالَ هذا، وضربَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنِيَت حسناتُه قبل أن يُقضَى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرِحَت عليه، ثم طُرِح في النار".

فالسلامةَ السلامةَ، والحَذَرَ الحَذَرَ-أيها المسلم-، فرسولُنا-صلى الله عليه وسلم- يقول: "المسلمُ من سلِمَ المسلمون من لسانه ويده".

ولهذا جاء في حديث سفيان-في رواية عند الترمذي، وقال: حديث حسنٌ صحيحٌ-، أن سفيان حينما طلبَ هذه الوصية من النبي-صلى الله عليه وسلم- قال له: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخاف عليَّ؟! فأخذ رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بلسان نفسه الشريفة، ثم قال: "عليك هذا".

فكُن-يا أيها المسلم- حافظًا لجوارحك، واحفَظ أعمالَك الصالحة حتى تلقَى الجزاءَ الحسن عند الله-جل وعلا-، وذلك لا يكون إلا بالاستقامة على طاعة الله، ولهذا أمر الله-جل وعلا- نبيَّه بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩).

أيها المسلمون، لقد تفضَّل عليكم ربكم سبحانه، فشرع لكم من النوافل ما هو من جنس الفرائض ليزداد المؤمنون من ثواب الله، فاشكروا الله على ما هداكم وشرع لكم من طرق هذا الدين ومن أحكامه، فإنه أعظم نعمة أنعم الله بها على الإنسان، فاعمُروا أوقاتَكم بطاعة الله-جل وعلا-، ولا تشغلنَّكم مطالبُ الحياة الفانية عن حقائق الآخرة الباقية؛ فإن الفلاحَ والظَّفَر إنما هو في الاستقامة على طاعة الله-جل وعلا- إلى الممات، كما كان عليه نبيُّنا محمد-صلى الله عليه وسلم-.

ثم إنه قد صحَّ عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "من صامَ رمضان ثم أتبَعَه ستًّا من شوَّال فكأنما صامَ الدهرَ كلَّه".

ولهذا ذهب جمهورُ أهل العلم إلى استحباب صيام ستٍّ من شوَّال، سواءٌ أكانت مُتفرِّقة أم مُتتابعة، إلا أنه من كان عليه صومٌ واجبٌ فإنه لا ينبغي أن يُقدِّم عليه غيرَه من التطوُّعات؛ لما عليه قاعدةُ الشريعة: أن الواجبَ أولَى وآكَد من غير الواجب.

عباد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقد قال-صلى الله عليه وسلم-: "من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه بها عشرًا". فصلُّوا وسلِّموا على سيد الأولين والآخرين، وإمام المرسلين.

والحمد لله رب العالمين.



خطورة التعصب وأضراره

الحمد لله، الحمد لله حمد الشاكر، سبحانه وبحمده، لا يُحصُر نعمَه حاصرٌ، خيرُه فائضٌ، وانعامُه وافرٌ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدخرُها ذخرًا لليوم الآخر، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبد الله ورسوله، خير حامد وأفضل ذاكر، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغُرّ الميامين، كُلُّهم لدين الله ناصرٌ، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسلم التسليمَ المزيدَ والمتكاثر.

الشيخ د: صالح بن عبد الله بن حميد
إمام المسجد الحرام

أما بعد: فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، ولا تكونوا من المتكلفين، فمن التكلف- حفظكم الله- التكلم بغير علم، ومنازعة المرء مَنْ فوقَه، والدخول فيما لا يعنيه، وَمَنْ دخَل فيما لا يعنيه لَقِيَ ما لا يرضيه.

ومن علامة إعراض الله عن العبد: أن يشغله فيما لا يعنيه، واختلاف المسلم مع صاحبه لا يُبيح عِرْضَه، ولا يحل غيبته، ولا يُجيز قطيعتَه، وقد قال العقلاء: «إن الآراء للعَرْض لا للفرض، ووجهة نظر للإعلام لا للإلزام».

وفرَّق الحكماء بين أدب الخلاف وخلاف الأدب، فالسعيد يا عبد الله من كان غنيا بقناعته، كبيرًا بتواضعه، عظيمًا بحسن أخلاقه، (قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ) (ص: ٨٦).

معاشر المسلمين: داء عضال، وخطر داهم يقضي على معاني الإنسانية، داء يصيب الفرد والأمة والمجتمع حينما يستفحل ويتفشَّى فإنه يفتك في الناس فَتْكًا، داء إذا ذَرَّ قرنُه فإنه لا يفرِّق بين متعلم وغير متعلم، ومتحضر وغير متحضر، ومتدين وغير متدين، هو أحد مصادر الغرور، ومنابع الظلم، وأسباب الكراهية، وطرق الفساد والإفساد؛ ذلك

يا عباد الله هو التعصب والعصبية، وكل ذلك دعوى الجاهلية وحمية الجاهلية.

التعصب غلو وتطرف وكراهية وفُرْقَة وضلال وشحناء، انقياد عاطفي مقيت لتصورات ومفاهيم ومسالك تتعارض مع الحق والعدل والموضوعية، التعصب حماس أعمى ومشاعر جارفة وأحكام مسبَقَة واستهانة بالآخرين، التعصب خضوع مطلق وسير من غير بصيرة مع الجماعة أو الفئة أو الحزب، أو القبيلة أو الطائفة أو العِرْق، التعصب غلو في التعلق بالأشخاص، والتمسك بالأفكار والإصرار على المبادئ، لا يدع مكانًا للتسامح، ولا مجالاً للتفاهم، ولا فرصةً للقبول، التعصب ينطلق من تصورات مسبَقَة في تصنيف الناس والمجتمعات إلى: فئات دينية، وعرقية، ومذهبية، وقبلية، وسياسية، وفكرية، ومناطقية، ورياضية، وغيرها.

معاشر المسلمين: حقيقة التعصب هو: عدم قبول الحق ممن جاء به، مع ظهور دليله بسبب ما في النفس من أغراض وأهواء وانحياز، التعصب دفاع بالباطل حينما يرى المتعصبُ أنه هو الذي على الحق دائمًا بلا حجة وبلا برهان، وغيره هو المخطئ دائمًا، وهو الذي على الباطل دائمًا، ولو كان معه الحجة والبرهان، والعناد والانغلاق والتحجر وعدم التوافق ورفض التعايش كلها أنواع من التعصب، وكلها تمد صاحبها بأسباب الكراهية والشحناء وتفوت فرص الاجتماع والتآلف وحل المشكلات والبناء والتعاون، والتعصب لا يجتمع مع التسامح والانفتاح وقبول الآخر.

معاشر الأحبة: التعصب والعصبية داء فتاك يقود إلى اللجاجة والتقليد الأعمى ويولد حجابًا غليظا يصد عن قبول الحق وقبول الجديد المفيد ويجعل القبيح حسنًا ويُقلب الحَسن قبيحًا، وقد قال بعض الحكماء: «التعصب عدو مستتر لم يدرك كثيرٌ من الناس خطورتَه الماحقةَ وآثاره المدمرة».

العصبية نعرة مهلكة تنمو في النفس البشرية في البيئة التي تحتضنها، يتربى عليها الصغير، ويهرم فيها الكبير، رجالاً ونساء، تمزق العلاقات الاجتماعية وتسلب روح الوحدة والألفة وتنشر بذور النفاق والفرْقة وتبدد الطاقات وتضعف القوى وتهدم البناء، وهل رأيت أعظم من متعصب يرى شرار قومه خيرًا من خيار الآخرين؟

التعصب يورث التمييز والانحياز والتصنيف ويبني حجابًا كثيفًا على العقل والبصر، ويمنع من إدراك الحق وابتغائه والتمييز بين المصلحة والمفسدة.

معاشر المسلمين: وللتعصب مظاهر؛ منها: احتقار الآخرين، وتنقُّصهم، وعدم الاعتراف بأحقيتهم وحقوقهم، ومِنْ أظهر مظاهر التعصب تقديمُ الولاءات على الكفاءات، وقد يظهر التعصب في سوء القول والتعبير، وقد يترقَّى إلى تجنُّب التعامل مع من يتعصب ضده ثم يترقى هذا المتعصب إلى أن يمنع جماعته وفئته من التعامل مع هذا المخالف، وقد يترقى إلى الاعتداء عليه، وقد يصل إلى قتله والتخلّص منه عياذًا بالله.

عباد الله: وكم أثارت النعرات العصبية من حزازات سياسية بشعارات عقائدية وتترست بنداءات دينية فأنبتت فرقة وتحزبًا وتشرذمًا، وكم أدى التعصب في درجات شديدة إلى التمييز والتصنيف والعدوان والقتل، وقد يصل إلى الإبادة الجماعية عياذًا بالله، كما يؤدي إلى التشريد والتهجير والنفي، التعصب

يقود التشويه وإساءة التفسير وتجاهل الحقائق والوقائع.

أيها الإخوة: إن أضرار التعصب وخسائره ومساوئه قد سوَّدت صحائف التاريخ، وكم وَاجَهَ الأنبياءُ-عليهم السلام- والمصلحون من عوائق في طريق هداية الناس، وإصلاح البشرية، وقائدُ ذلك ورائدُه التعصبُ، وقد قال إمامهم ورائدهم إلى النار: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩)، بسبب التعصب سُفكت الدماءُ، وضاعت الحقوق، وفشا الظلم، في التعصب هدرُ لطاقات الأمة عجيبٌ، بل هو من أعظم معوقات التنمية؛ فإذا دخلت العصبية خطط التنمية فَقُلْ: على أهلها السلام، وسواء في ذلك الاقتصادية، أو السياسية، أو التعليمية، أو الإدارية، أو الثقافية، أو الدينية، أو غيرها.

معاشر الأحبة: وقد يسلك بعضُ الناس مسلكَ التعصب لإشباع غروره ولستر نقص في نفسه، أو خبراته، أو قدراته، أو تسويغ فشله، وقد يوظِّفه ليجعل له مكانة أو مركزًا في الدين أو السياسة أو الثقافة سواء أكان ذلك في: كتابات، أو مؤلفات، أو تكوين أحزاب، وجماعات، وطوائف، ومؤسسات تقوم على الأساس العرقي، أو المذهبي، أو المناطقي، أو القبلي، أو الانتماء الفكري.

أيها المسلمون: إن تشخيص الداء والكشف عن المرض هو السبيل الأقوم والطريق الأنجع للعلاج ومحاصرة آثار المرض السلبية في المجتمع وفي الحياة؛ ومن أجل هذا-عباد الله- فلا بد من النظر في أسباب ظهور التعصب ومثيرات العصبية، يأتي في مقدمة هذه الأسباب-حفظكم الله- التربية والنشأة الاجتماعية، فمن نشأ في بيئة تغذي العصبية فإنها تنتج متعصبين؛ مما ينتج عنه الظلمُ والتطاولُ والفجورُ في الخصومة والإقصاء؛ فالإنسان لا يولد متعصبًا، الإنسان لا يولد متعصبًا، ولكنه يأخذ ذلك بالتقليد والتلقي والتربية.

ومن أسباب ظهور التعصب: غياب القيم والأخلاق من العدل، والإنصاف، والتجرد، والمساواة؛ مما يولد العدوانية والكراهية والانكفاء إلى الفئات والانحياز إلى الجماعات، ومن ذلك الغلو في الأشخاص من العلماء والمشايخ والكبراء ورؤساء المجتمع، ومن أعظم الأسباب وأكبرها: إثارة الخلافات المذهبية، والنعرات القبلية، والتمايزات المناطقية والإقليمية؛ ومن ثم تثار معها مشاعر الأحقاد والكراهية وبخاصة حينما يجترُّون أحداثًا تاريخية سالفة عفا عليها الزمن لم تكن في وقتها مما يُحمد أو يشرِّف، فكيف وقد دفنها الزمنُ ويريد هؤلاء غير الحكماء أو المغرضون المفسدون يريدون إحياءها وإثارتها، ويريدون إسقاط الحاضر على ذلك الماضي غير المجيد ولا الشريف، وهذا المسلك المنحرف يستنزف القوى ويهدر الطاقات ويفرق الأمة ويشتت الأهداف ولا ينتج إلا عصبية مقيتة وتوجهات متطرفة ومسالك موغلة في الغلو ويحرمون المجتمع من أن يجتمع على مودة ورحمة وأخوة؛ ومن هنا تذهب ريح الأمة وتستباح بيضتها، وتفتح الأبواب مشرعة للأعداء يدخلون عليها من كل باب، طعنًا في الدين وَغَمْطًا للمكان ونهبًا للخيرات وتقطيعًا للأوصال.

ومما يلفت النظر مع الأسف أن بعض القنوات الفضائية وأدوات التواصل الاجتماعي تتبنَّى مثلَ هذا بقصد أو بغير قصد في أطروحات وتغريدات ومن

خلالها تثور الخلافات المذهبية والعصبية القبلية والتمايزات المناطقية والفتن الحزبية وهؤلاء جميعًا مع الأسف لا ينقصهم إرث تاريخي يؤجج مثل هذا، بل إن الإعلام المشبوه هذه هي بضاعته، وهؤلاء هم جنوده.

معاشر الإخوة: أعظم وسائل العلاج تربية الأجيال في مناهج التربية على التسامح وحفظ حقوق جميع الناس واحترامهم، ومن أهم وسائل العلاج: سَنّ الأنظمة التي تَحُول دون التعصب، ووضع سياسات واضحة لمحاربة مختلف أشكال التمييز والتصنيف وتحقيق العدل وحفظ الحقوق مع التنبيه لعظم دور الأسرة والمدرسة والمسجد والإعلام بكل أدواته، ووضع الخطط في ذلك.

ومن أكبر وسائل العلاج: تحري الحق والتسليم له والسعي إليه وقبوله ممن جاء به.

وبعدُ -حفظكم الله-: فمتى كان اختلاف البشر في ألوانهم يعطيهم فضلاً على بعض؟ ومتى كان الميلاد فوق أرض يجعل أرضًا أرقى من أرض؟ وهل يكون جَنِين في بطن معيَّن يخلق نسبًا أشرف من نسب؟ وقد قال نبينا محمد -صلى الله عليه وآله وسلم-: "مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"، ويقول عليه الصلاة والسلام: "لَا يَأْتِينِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونَنِي بِأَنْسَابِكُمْ" (متفق عليه)، ويقول لابنته فاطمة وهي بُضْعَة منه وسيدة نساء العالمين -رضي الله عنها- وأرضاها: "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّد، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا" (متفق عليه).

وقد قال الله لنوح -عليه السلام- في ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ (هُود: ٤٦)، فالعصبيات -عباد الله- ما هي إلا غلبة أوهام يستكثر بها الصغار أمجادًا موهومة، إنها أمجاد لا تكلف ثمنًا، ولا تستغرق جهدًا ولا تُنتج ثمرًا، فالإنسان مسئول بنفسه عن نفسه، يقدمه ما اكتسب من خير، ويؤخره ما اكتسب من شر، ويرفعه لباس التقوى: ذلك خير.

وفي الحديث عنه -صلى الله عليه وسلم-: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّة، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّة". (رواه أبو داود)، وفي الحديث الآخر: "مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّة يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّتِهِ، وَيَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، وَيَدْعُو إِلَى عَصَبِيَّةٍ فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ" (رواه مسلم).

أيها المسلمون: ليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ووطنه؛ فالتعصب غير الانتساب إلى قبيلة، وغير الانتماء لمذهب، وغير حب الوطن، فهذه سُنَّةُ الله في خلقه؛ إذ جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا وحبَّب إليهم أوطانهم وديارَهم ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ (البَقَرَة: ٢٤٦).

ولكن العصبية التعصب للباطل، وغمط الحق والانحراف عن العدل والإقرار على الظلم والإعانة عليه والمفاخرة به من أجل القبيلة أو المذهب أو الفكر أو المبدأ أو التراب، فما نُقلت الخرافات والعادات السيئة والتقاليد المذمومة إلا بسبب العصبية والتعلق المذموم بالآباء والأجداد، وكلما تلاشت العصبية من الفرد والجماعة تعامل الناس بحكمة وعقل وعدل وهدوء ورحمة وديانة صحيحة، وفي نبذ العصبية سوف يزول كثير من أسباب الخلاف والنزاع، ويعيش المجتمع بطمأنينة ومحبة وأخوة، والمجتمعات تنهض على دعائم الخير والصلاح والتقوى لا على مزاعم الالتفاف الأجوف والعصبية العمياء.

والحمد لله رب العالمين.



الحج.. فضائل وأحكام

إعداد الشيخ د: علي عبد الرحمن الحذيفي
خطيب المسجد النبوي الشريف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين.

أما بعد: فاتقوا الله -أيها المسلمون-، فالتقوى خير زاد ليوم المعاد، وبها يصلح الله أمورَ العباد: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٤).

واعلموا -عباد الله- أن العبادة حق لرب العالمين على المكلَّفين، وفرضٌ محتوم على الإنس والجن؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

والعبادة أعظم كرامة يُكرم الله بها العابدين، ويرفع بها المتقين، بالعبادة تستنير القلوب، وتتهذَّب النفوس، وتتقوَّم الأخلاق، وتصلُح العقول، وتزكو الأعمال، ويرضى الرب، وتعمر الحياة بالصلاح والإصلاح، وتُرفَع الدرجات في الجنات، وتُكفَّر السيئات، وتُضاعف الحسنات.

ومن رحمة الله بنا وفضله علينا أن أرسل إلينا أفضل خلقه محمدًا، يبيِّن لنا ما يرضى به ربنا عنا، من الأقوال والأعمال والاعتقاد، ويحذرنا مما يغضب ربنا علينا من الأقوال والأفعال والاعتقاد، قال الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ (البقرة: ١٥١، ١٥٢).

ولولا أن الله أرسل الرسل وأنزل الكتب لكان بنو آدم أضلَّ من الأنعام، ولكن الله رحم العالمين، فشرع الدين، وفصَّل كلَّ شيء، وأقام معالم الصراط المستقيم، فاهتدى السعداء، وضل على بينة الأشقياء.

فمن رحمة الله وحكمته وكمال علمه أن الله تعالى شرع العبادة لإصلاح النفس البشرية، فشرع العبادات المتنوِّعة؛ الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك؛ لتتكامل تربية الإنسان وتطهيره من جميع الوجوه، قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦).

والحج ركن من أركان الإسلام، جمع الله فيه العبادة القلبية بالإخلاص وغيره، وجمع الله فيه العبادة المالية والقولية والفعلية، والحج وزمنه تجتمع فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أعظم ركن في الإسلام، وتجتمع فيه الصلاة وإنفاق المال، والصيام لمن

لم يجد الهدي، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر والحلم، والشفقة والرحمة، والتعليم للخير والبر، وجهاد النفس ونحو ذلك، واجتناب المحرمات.

والحج آية من آيات الله العظمى على أن ما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- هو الدين الحق، فلا تقدر أيّ قوة في الأرض أن تجمع الحجاج كل عام من أطراف الأرض ومن جميع أجناس البشر وطبقات المجتمعات وأصناف الناس بقلوب مملوءة بالشوق والمحبة، يتلذذون بالمشقات في الأسفار، ويفرحون بمفارقة الأهل والأصحاب والأوطان، ويحسّون أن ساعات الحج أسعد ساعات العمر، ويعظمون مشاعر الحج بقلوبهم، وينفقون الأموال بسخاوة نفس وطيب قلب، فلا يقدر على ذلك إلا الله -عز وجل- وتباركت صفاته وأسماؤه، وهو القائل لخليله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ (الحج: ٢٧، ٢٨).

ذكر المفسرون ابن جرير وابن كثير وغيرهما عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أن الله لما أمر خليله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أن يؤذّن في الناس بالحج قال: يا رب: كيف أبلّغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟! فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس: إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك».

أيها المسلم: أخلص النية لله تعالى في حجك، واقتد بسيد المرسلين في أعمال الحج، فقد قال -عليه الصلاة والسلام-: «خذوا عني مناسككم»، ليكون حجك مبرورًا، وسعيك مشكورًا، عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه». رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة». رواه البخاري ومسلم.

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قلت: يا رسول الله: نرى الجهاد أفضلَ العمل، أفلا نجاهد؟! فقال: «لا، ولكن أفضل الجهاد حج مبرور». رواه البخاري.

والحج المبرور هو الذي أخلص صاحبه النية فيه لله تعالى، وأدى مناسكه على هدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، واجتنب المعاصي وأذية المسلمين، ولم يجامع أهله في وقت لا يحل له، وحفظ لسانه من اللغو والباطل، وكانت نفقته حلالاً، وأنفق في الخير بقدر ما يوفقه الله تعالى، فإذا جمع الحجُّ هذه الصفات كان مبرورًا مقبولاً عند الله -عز وجل-، والحج يهدم ما قبله.

وعلى الحاج أن يتعلم ما يصح به حجه، ويسأل عن أحكام الحج العلماءَ، ولتحرص -أيها الحاجُّ- أشدَّ الحرص على الإتيان بأركان الحج؛ لأنه لا يصح الحج إلا بها، وهي الإحرام والمراد به الدخول في النسك، والوقوف بعرفة وهو أعظم أركان الحج، لقوله: «الحج عرفة»، وطواف الإفاضة، والسعي على الأرجح، وعليه أن يقوم بواجبات الحج، لا يترك منها شيئًا.

وواجبات الحج: الإحرام من الميقات المعتبر له، والوقوف بعرفة إلى غروب الشمس، والمبيت بمزدلفة، والرمي، والحلق أو التقصير، والمبيت بمنى، والهدي لمن يلزمه الهدي، وطواف الوداع.

ويوم النحر يجتمع فيه الرمي لجمرة العقبة والنحر والحلق أو التقصير وطواف الإفاضة

والسعي لمن لم يقدم السعي في الإفراد والقران، فإذا رمى الحاج جمرة العقبة وقصّر أو حلق حلّ له كل ما حرم عليه بالإحرام إلا امرأته، فإذا طاف بالبيت وسعى بعد الرمي والحلق حل له كل شيء إلا امرأته.

ويستحب للحاج الاستكثار من أفعال الخير، وكثرة التلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة، ويكثر من تلاوة القرآن، ويتضرع بالدعاء، ولاسيما يوم عرفة؛ لقوله: "خير الدعاء دعاء عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون قبلي يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير".

ويحفظ لسانه من الغيبة والباطل، فقد كان بعض السلف إذا أحرم كأنه حية صماء، لا يتكلم إلا بخير، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ويبتعد عن المشاجرات والخصومات والمجادلات والضوضاء، ويواظب المسلم على التكبير المقيد، ويبدأ وقته بعد فجر يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق، وللحاج يبدأ بعد ظهر يوم العيد إلى عصر آخر أيام التشريق، وصفته: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

ويستحب للحاج وغيره المسارعة إلى كل خير وعمل صالح وبر في عشر ذي الحجة، عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله من هذه الأيام"، يعني الأيام العشر، قالوا: يا رسول الله: ولا الجهاد في سبيل الله؟! قال: "ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله، فلم يرجع من ذلك بشيء". رواه البخاري.

أيها المسلمون: إن عشر ذي الحجة أفضل الأيام عند الله، سماها الله تعالى في كتابه الأيام المعلومات، كما فسّرها ابن عباس-رضي الله عنهما- بذلك، فالذكر لله فيها مستحب في المساجد والطرق والمجامع والأسواق والخلوات.

وفي هذه العشر يوم عرفة، فلئن فاتك-أيها المسلم- الوقوف بعرفة، فقد شرع الله لك صيامه، عن أبي قتادة-رضي الله عنه- قال: سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن صوم يوم عرفة، قال: "يكفر السنة الماضية والباقية". رواه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التسبيح والتكبير والتحميد". رواه أحمد.

وكان ابن عمر وأبو هريرة- رضي الله عنهما- يخرجان إلى السوق في هذه العشر ويكبران، فيكبر الناس بتكبيرهما. رواه البخاري.

أيها الحاج: يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ١٩٧).

تمسكوا بآداب الإسلام المثلى وأخلاقه العليا، واجعلوا الحج توبة لما بعده من حياتكم، وصلاحًا وتقوى لما يُستقبل من أمركم، وندمًا على ما فات من أعماركم، واحمدوا الله تعالى واشكروه على نعمة الأمن والإيمان، وعلى ما سخر من الأسباب وأدر من الأرزاق، وعلى ما سهل من الطاعات والعبادات، واشكروه على ما صرف من العقوبات والآفات.

عباد الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٥٦)، وقد قال: "من صلى عليّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا".

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وسلم تسليمًا كثيرًا...



وصايا نافعة

إعداد
د. صالح بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

الحمد لله، جَعَلَ لكل شيء قَدَرًا، وأحاط بكل شيء خُبْرًا، وأسبل على الخلائق من فضله سترًا، أحمده -سبحانه- على جزيل نعمائه شكرًا، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أدخرها ليوم العرض في الأخرى، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله للعالمين كافةً، عُذْرًا ونُذْرًا، فقام بالدعوة إلى الله سرًّا وجهرًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى أصحابه، ورضي الله عنهم وأرضاهم وأعظم لهم أجرًا، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا وتترى.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي -أيها الناس- بتقوى الله، فاتقوا الله -رحمكم الله-، فتقوى الله هي الوصية الجامعة، والموعظة النافعة، فاتقوه واعلموا أنكم ملاقوه، واحذروه واذكروه، واشكروا له واستغفروه، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢-٣).

أيها المسلمون: اغتنموا حياتكم، واحفظوا أوقاتكم، فالأيام محدودة، والأنفاس معدودة، وكل دقة قلب ينقص بها العمر، وكل نَفَس يُدني من الأجل، واعلموا أن هذا العمل القصير، هو السبيل إلى حياة الخلود، فإما نعيم مقيم، وإمَّا عذاب أليم، عياذًا بوجه الله الكريم، وإذا وازَنَ العاقلُ هذه الحياةَ القصيرةَ بالخلود المنتَظَر عَلِمَ أن كلَّ نَفَس من أنفاسه في هذه الدنيا يَعدِلُ أحقابًا وأحقابًا، وآلافًا مؤلَّفة من الأعوام والسنين لا تنقضي ولا تتناهى في نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، نسأل الله الكريم من فضله، فالعاقل لا يضيع نفيس عمره بغير عمل صالح، وإنه ليحزن على ما يذهب منه بغير عِوَض.

وإذا كان كذلك -يا عباد الله- فاعتَبِروا بقوارع العِبَر، وتدبَّروا بسوابق الخَبَر، وتفكَّروا في حوادث الأيام والغِيَر، ففيها المعتَبَر والمزدَجَر، واحذروا زخارفَ الدنيا المُضِلَّة، فمَنْ تَكَثَّرَ منها لم يزدد بها إلا قلةً، فأهل الدنيا ينظرون إلى الرئاسات ويحبون الجمع والثناء والمكاثَرات، ويقتلهم التحاسد والتنافس، والتهارج والتهارش، وأهل الآخرة لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، و ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا

رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(الْحَشْر: ١٠).

يا عبد الله: أيُّ نَفْس لم تحمل ظُلمًا؟! وأي جارحة لم تقترف إثمًا؟! فرقِّقُوا قلوبَكم- وفَّقني الله وإياكم- بذكر هاذم اللذات، فعلَّها أن تَلين، وعِظُوها بفتنة القبر، فهو حق يقين، وذكِّروها بيوم الحساب، فهو علم اليقين وعين اليقين، يوم خضوع الرقاب، وتقطع الأسباب وقطيعة الأنساب، (يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) (النَّبَإ: ٤٠)، (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)(الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩)، (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ)(الانْفِطَار: ١٩)، وإن ما توعدون لآت، وليس بين العبد وبين القيامة إلا الممات.

من علامات توفيق الله للعبد:

واعلموا-رحمني الله وإياكم- أن من علامات توفيق الله للعبد تيسير الطاعة وموافقة السُّنة وصحبة أهل الصلاح، وبذل المعروف، وحفظ الوقت، والاهتمام بشؤون المسلمين؛ فكن-يا عبد الله- سليم الصدر، نقي القلب، أحبَّ لأخيك ما تُحبُّ لنفسك، واعلم أن سعادة غيرك لا تأخذ من سعادتك، وغناه لا ينقص من رزقك، وصحتُه لا تُسلب عافيتك، ومن رَفَقَ بعباد الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن أحسن إليهم أحسن الله إليه، فالله- تعالى- لعبده كما يكون العبد لخلقه.

وتأمَّلْ قولَه-عز شأنه-: (وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ)(الْقَصَص: ٧٧)، فجميل أن يكون إحسانُكَ من جنس إحسان الله إليكَ، فإن كان رزقًا فتصدَّقْ، وإن كان علمًا فعلِّمْ، وإن سعادة فمَنْ حَوْلَكَ أَسْعِدْ.

والتغافل عن الزلات من أرقى شِيَم الكرام، فكلُّ الناس خطاؤون، ومن تتبع الزلات تَعِبَ وأتعب، والعاقل مَنْ ينصرف عن ذلك كله؛ لتصفوَ له عشرتُه، وتحلو له مجالسه، ويسلم له دينُه وعِرْضُه.

ومن حسب كلامه من عمله قلَّ كلامُه إلا فيما يعنيه، وأعظم ما يدخره العبد صدق الحديث، وترك ما لا يعني، وسلامة قلب، والورع في الخلوات، وحُسْن الخُلُق مع الديانة، وصدق الإخاء مع الأمانة.

من دلائل ذوق حلاوة الإيمان:

معاشرَ الأحبة: ومن دلائل ذوق حلاوة الإيمان وتذوق طعم الطاعات: طمأنينة القلب، وانشراح الصدر، والإقبال على الخير، وحُبُّ الدِّين، والغَيرة على الحرمات، ومودة أهل الصلاح، والسعي في عز المؤمنين، وقد سُئل النبي-صلى الله عليه وسلم-: ما خير ما أُعطيَ الإنسانُ، فقال: «حُسْنُ الخُلُقِ» (رواه البخاري في الأدب المفرد بإسناد صحيح).

من علامات حسن الخلق:

وإن من علامات حسن الخلق: قلة الخلاف وترك تطلُّب العثرات، والتماس الأعذار، واحتمال الأذى، وطلاقة الوجه، ولين الكلام، والانشغال بعيوب النفس.

والعلاقات تدوم بالتغاضي، وتزداد بالتراضي، وتمرض بالتدقيق، وتموت بالتحقيق، وليس عيبًا أن تُخطئ، ولكن من العيب ألا تتعلم من أخطائك، فإذا جهلتَ فاسأل، وإذا غضبتَ فأمسك، والكريم لا يمُنُّ، والمخلص لا يندم، ومن زرع الجميل حصد الجزيل.

وانْتَقُوا الإخوانَ والأصحابَ والمجالسَ، وخذوا بأحسن الحديث إذا حدَّثتُم، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّثتُم، وبأحسن البِشْر إذا لقيتُم، وبأيسَر المئونة إذا خلفتم.

ودعوا محادثة اللئيم ومنازعة اللجوج، ومماراة السفيه، واعلموا أن محادثة الرجال تغذي الألباب، وصنائع المعروف تقي مصارع السوء، فالتمسوها-رحمكم الله- في إطعام مسكين، وكسوة عار، وتأمين خائف، ورفع مظلمة، وكفالة يتيم، ومساعَدة مريض، وعون محتاج.

وبعدُ عبادَ الله: إذا أقبلت الفتنُ فلا تخوضوا

فيما لا يعنيكم، والزموا الصمتَ وتمسَّكوا بالسُّنَّة، وما أشكل عليكم فقفوا وقولوا: الله أعلَمُ، وإذا احتجتُم فاسألوا أهلَ العلم الثقات الأثباتَ، ولا تتجاوزوهم؛ فالمتعجِّل يقول قبل أن يعلم، ويُجيب قبل أن يَفهم، يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا عن أكابرهم وأمَنائهم وعلمائهم، فإذا أخذوا عن صغارهم وشرارهم هَلَكوا».

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾(العَادِيَات: ٩-١١).

أيها المسلمون: الزمان لا يثبت على حال، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾(آل عِمْرَانَ: ١٤٠)، فتارةً يُفلح الموالي، وتارةً يَشمت الأعادي، وطَوْرًا في حال فقر، وطورًا في حال غنى، ويومًا في عز، ومن طاوع شهوتَه فضَحَتْهُ، والسعيدُ في كل ذلك مَنْ لازَمَ أصلاً واحدًا؛ ألا وهو تقوى الله، فتقوى الله إن استغنى العبدُ زانَتْه، وإن افتقر فتَحَتْ له أبوابَ الصبر، وإن ابتُلِيَ حملته، وإن عُوفِيَ تمت عليه النعمةُ، ولا يضره إن نزل به الزمانُ أو صَعدَ؛ لأن التقوى أصل السلامة، وهي حارس لا ينام.

ألا فاتقوا الله ثم اتقوا الله، فتقواه -سبحانه- عُروة ليس لها انفصام، مَنْ تَعَلَّقَ بها كان له -بإذن الله- حُسنُ العاقبة، والحفظ من شرور كل نائبة. أسعدنا الله وإياكم بلزوم ما أمر به، وجَنَّبَنا وإياكم أسباب سخطه وغضبه.

هذا وصلوا وسلموا على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلكم ربُّكم في مُحكم تنزيله فقال -وهو الصادق في قيله قولاً كريمًا-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾(الأحْزَاب: ٥٦).

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد الحبيب المصطفي والنبي المجتبى وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين؛ أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعن الصحابة أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك، وجودك، وإحسانك، وكرمك، ولطفك يا أكرم الأكرمين.

عزاء واجب

توفي فضيلة الأستاذ الدكتور: علي الشريف، أستاذ التفسير وعلومه بكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، وقد كان رحمه الله من العلماء العاملين، نسأل الله أن يحشره مع الأنبياء والصديقين والشهداء، وأن يتجاوز عنه، وأن يبدله بالحسنات إحسانًا، وبالسيئات عفوًا منه وغفرًا، ومجلة التوحيد، وأعضاء مجلس إدارة الجمعية يتقدمون بخالص العزاء لأسرة المتوفى، رحمه الله تعالى.

عزاء واجب

بمزيد من الأسى ننعي الحاج محمد عبد الحليم عشوش، والد الأخ جودة محمد عشوش، إمام مسجد أنصار السنة ببلبيس، رحم الله المتوفى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.



الحياة الطيبة

إعداد: د: عبدالمحسن بن محمد القاسم
خطيب المسجد النبوي الشريف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فاتقوا الله-عباد الله- حق التقوى، فبها تُستجلب النِّعم، وتُستَدْفَع النقمُ.

راحة القلب وزوال الهم مطلب كل إنسان

أيها المسلمون: الدنيا دار بلاء وامتحان، طُبعت على كدر ونَصَب، ويكابد الإنسان فيها المتاعب والمشاق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (الْبَلَد: ٤)، وحياة المرء في الدنيا قصيرة وليس له من عمره إلا ما طاب، وراحة القلب وزوال الهم والغم مطلب كل إنسان، وبذلك تحصل الحياة الطيبة والعيش الهنيء، والخلق كلهم ينشدون السعادة ويسعون إلى تحصيلها، وأصل السعادة انشراح الصدر وطمأنينة القلب، وإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا شرح صدره، وذلك من أعظم أسباب الهدى وأجل النعم، قال ابن القيم-رحمه الله-: "شرح الصدر كما أنه سبب الهداية فهو أصل كل نعمة وأساس كل خير".

ولعظيم قدر هذه النعمة سأل موسى-عليه السلام- ربه أن يمن عليه بها أول ما أرسله إلى فرعون، ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٥)، وابتدأ سبحانه تعداد نعمه على نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم- بذلك، فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشَّرْح: ١).

من أعظم أسباب انشراح الصدر معرفة الله وأسمائه وصفاته:

وإذا عَظُمَ الشيءُ تعددت أسبابه وكان تحصيله أيسر، وأتم الأسباب وأكملها ما دلَّ عليه الشرعُ وأرشد إليه، ولا أعظم في تحقيق انشراح الصدور من العلم بالله وأسمائه وصفاته وتوحيده-سبحانه- بالعبادة، وعلى حسب كمال ذلك وقوته يكون انشراح صدر صاحبه وانفساحه، قال ابن القيم-رحمه الله-: "قال بعض أهل العلم: فكرتُ فيما يسعى فيه

العقلاء فرأيتُ سعيَهم كله في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله؛ رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه، بل ولعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده، ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلة إلاَّ الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء، فليس للعبد أنفع من هذه الطريق ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته".

وأكمل الخلق في كل صفة يحصل بها اتساع القلب نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم- وأكمل الخلق متابعةً له أكملهم انشراحًا ولذة ونعيمًا، ورأس الأسباب الجالبة لانشراح الصدر الإيمان والعمل الصالح، فبهما صلاح القلب والجوارح واستقامة الظاهر والباطن، وبذلك الحياة الطيبة والسعادة الدائمة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النَّحل: ٩٧).

وأشرح شيء لصدر العبد محبته-سبحانه- والإنابة إليه والتنعم بعبادته، قال شيخ الإسلام-رحمه الله-: "إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه؛ فإن الرب-تعالى- شكور".

اختيار الله للعبد خير من اختياره لنفسه:

واختيار الله للعبد خير من اختياره لنفسه، وهو-سبحانه- أرحم بالخلق من أنفسهم، ومن آمن بالقدر خيره وشره سكن قلبه وانشرح صدره، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ (التَّغابُن: ١١)، قال علقمة-رحمه الله-: "هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم".

والعباد يتقلبون في حياتهم بين السراء والضراء، ولا انفكاك لأحد عن ذلك بحال، والسعادة في الإيمان بالقضاء والشكر حال السراء، والصبر على الضراء، قال عليه الصلاة والسلام: "عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرًا له" (رواه مسلم).

ومن آمن بلقاء الله وثوابه تعلقت نفسُه بالفاضل عن المفضول، وتسلى بالموعود عن المفقود، وبهذا تصلح له دنياه وآخرته.

وحُسْن الظن بالله-تعالى- عبادة تورث صاحبَها أمنا وسعادة، وللعبد من ربه ما ظنه فيه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، قال تعالى في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي" (متفق عليه)، والفأل الحسن يشرح الصدر وهو من حسن الظن بالله، ومقاليد الأمور وأزمَّتُها بيد الله وحده، يقلب القلوب كيف يشاء، فسادًا وصلاحًا وضيقًا وانشراحًا، وسعادة وشقاء، والتوكل على من بيده ذلك وتفويض الأمور إليه والثقة به واجب شرعي، وهو جنة لأهله حاضرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطَّلاق: ٣).

وأرزاق العباد بيد الله ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فطِبْ نفسًا بما قسم الله لك، ولا تحزن على ما فاتك منه.

ومن لجأ إلى الله أعانه وكفاه، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عِمْرَان: ١٧٤).

ومن طمع في السعادة وابتغى انشراح الصدر فليكثر قرع باب الكريم؛ فإن الله قريب ممن دعاه، ولا يُخَيِّب مَنْ رجاه، فبالدعاء صلاح أمور الدنيا والآخرة، ومن دعاء النبي-صلى الله عليه وسلم-: "اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر" (رواه مسلم).

للذكر تأثير عجيب في انشراح الصدور

وللذِّكْر تأثير عجيب في انشراح الصدور

واطمئنان القلوب وزوال الهموم والغموم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرَّعْد: ٢٨)، وكان صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب: "لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم". (رواه البخاري).

والقرآن العظيم كلام الله فيه الهدى والشفا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يُونس: ٥٧)، وأولى الخلق بالسعادة مَنْ تلا القرآن وعمل بما فيه، قال سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ (طه: ١-٢).

وفي التسبيح والتحميد وكثرة السجود ودوام الطاعة سعة الصدر وذهاب الهم والضيق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ (الحِجْر: ٩٧-٩٩).

وبلزوم التقوى انفراج الهموم وانكشاف الكروب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ (الطَّلَاق: ٢)، وبها تتيسَّر الأمور، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ (الطَّلَاق: ٤).

والصلاة نور لصاحبها وعون على انشراح النفس وذهاب أحزانها، قال عز وجل: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ (البَقَرَة: ٤٥)، وكان من هديه- عليه الصلاة والسلام-: "إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة" (رواه أبو داود).

وإذا استفتح العبد يومه بالصلاة صلح له سائر نهاره، فمن صلى الفجر فهو في ذمة الله، ومن صلاها مع سُنَّتها كَفَاهُ الله آخرَ يومه، قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يقول: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكْفِكَ آخرَه" (رواه أحمد).

والعلم الموروث عن الله ورسوله المقترن بالعمل يشرح الصدور، وأهله أشرح الناس صدورًا وأوسعهم قلوبًا، وأطيبهم عيشًا، وأحسنهم أخلاقًا، وكلما اتسع علْمُ العبد ازداد انشراحًا في صدره، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢)، قال ابن القيم- رحمه الله- عن شيخ الإسلام: "ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قطّ، مع كل ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعم، بل ضدها، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسَرّهم نفسًا، تلوح نَضْرَةُ النعيم على وجهه".

والإحسان إلى الخلق خير ولا يأتي إلا بخير، فلا ترى الكريم المحسن إلا أشرح الناس صدرًا وأطيبهم نفسًا، وأنعمهم قلبًا، وقد ضرب النبي-صلى الله عليه وسلم- مثلا في انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه، ومثلًا لضيق صدرِ البخيل وانحسار قلبه فقال: "مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، قد اضطرت أيديهما إلى ثُدِيِّهما وتَرَاقِيهما، فجَعَلَ المتصدقُ كُلَّما تصدق بصدقة انبثقت عنه حتى تغشي أنامله وتعفو أثره، وجعل البخيل كلما هَمَّ بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة مكانها" (رواه مسلم).

ومَنْ عامل الناس لأجل الله استراح، فلا يتطلع لمدح ولا ينحسر من قدح، حاله كما في قوله- تعالى-: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: ٩)، ويتأكد هذا في معاملة الأقربين ومَنْ قَوِيَ الاتصالُ بهم.

وقد ترى من البشر ما تكره، والعاقل لا يبخس محاسنهم لنقص بَدَرَ منهم، ولا يقطع وصلهم لتقصير أو قصور فيهم، وبذلك يعيش المرء هادئ البال مطمئنا على كل حال، قال عليه الصلاة والسلام: "لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً-أي: لا يبغضها- إن كره منها خلقًا رضي منها آخر" (رواه مسلم).

وفي مجالسة الصالحين وأهل العلم والدين أنس وسعادة، وبها يكسب المرء علمًا وحكمة وتزكو نفسه وينبُل بين أقرانه، ومن رجع في أموره إلى أهل المشورة والعقل انشرح صدره وزال عنه

اللبس والتردد، قال عز وجل: (وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ) (النِّسَاء: ٨٣).

وعداوة الشيطان للإنسان لا تنقطع، وفي الاستعاذة طرد لوساوسه التي تكدر صفو كثير من الخلق، والإسلام يسعى لأسباب شرح صدر المسلم من حين استيقاظه، والشيطان يسعى لضد ذلك، قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "إن الشيطان يعقد على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد يضرب كل عقدة: "عليك ليل طويل فارقد" فإن استيقظ وذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان" (متفق عليه).

كلما اتسع علم العبد ازداد انشراح صدره

وقوة المؤمن مصدر عظيم لانشراح صدره، فلا ينساق مع الأوهام ولا يستسلم للأحزان ولا يضعف أمام المكاره، بل ثابت القلب واثق بأن مع العسر يسرًا، وإذا استحضر العبد فَضْلَ الله ونعمته عليه أوجب ذلك له إحداثَ شكر تطمئن له النفس وينشرح الصدر.

والقناعة رأس الغنى ومِنْ أنفع ما تُداوى به النفوسُ ما أرشد إليه النبي-صلى الله عليه وسلم- بقوله: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم" (متفق عليه).

ومن جمع قلبه على يومه وساعته اطمأنَّت نفسُه فلا يحزن على ما مضى ولا يغتم لما يستقبل، فالماضي لن يعود، والمستقبل غَيْبٌ مكتوبٌ، ومن دعائه-عليه الصلاة والسلام-: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن" (رواه البخاري).

وعدم الانتفاع بفراغ الوقت مصدر للهم والكَدَر، ومن عمَّر وقتَه بعمل صالح أو علم نافع زال عنه ذلك، وجماع السعادة في الاستعانة بالله على ما ينفع، والبعد عن كل ما يُوهِنُ العبدَ ويُضعف قلبَه وعملَه، قال عليه الصلاة والسلام: "احْرِصْ على ما ينفعُكَ، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان" (رواه مسلم).

والذنوب باب تَرِدُ منه المصائبُ على العباد، وما يجازى به المسيء من الهم والغم وضيق الصدر وقسوة القلب عقوبة عاجلة قبل الآخرة، والمَخْرَج من ذلك بالبعد عن المعاصي والتوبة إلى الله؛ ليحل مكان الضيق انشراح ومحل الوحشة أنس.

وتطهير القلب من أمراضه يشرح الصدر ويوسعه، ومن دعاء المؤمنين: (وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (الْحَشْر: ١٠)، وعلى هذا الوصف يكون أهل الجنة، قال سبحانه: (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ۖ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ) (الْأَعْرَاف: ٤٣).

وبعد أيها المسلمون: فالإسلام أصل كل خير ومصدر السعادة جميعها، أهله في جنة عالية ونعيم لا ينقطع، قال سبحانه: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ) (النَّحْل: ٣٠)، ومَنْ عَرَفَ شقاءَ الجاهلية وأهلها عَرَفَ فضلَ نعمة الإسلام وأهله، ولم يسعه إلا شكر الله على ذلك، والتمسك بدينه والاعتزاز به، والثبات عليه ودعوة الخَلْق إليه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (الْأَنْعَام: ١٢٥).

ويجب على المسلم الإعراض عن الأراجيف وإشاعات المغرضين، وعدم الإصغاء إليها وأن يشغل وقته بما ينفع.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.



منبر الحرمين

العادات والتقاليد وأثرها في المجتمعات

إعداد: د: صالح بن عبد الله بن حميد
إمام وخطيب المسجد الحرام

الحمد لله، الحمد لله عمَّت رحمتُه، أحمده- سبحانه- وأشكره، فهو الأحق أن تُشكر نعمته، وتُتقى نقمته، وتُخشى سطوته، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، الخَلْق خلقه، والأمر أمره، والمرتجى والمؤمل جنتُه، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله، خُتمت بالنبوات نبوته، وتمَّت بالرسالات رسالتُه، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، خير الآل عترته، وخير الأصحاب صحابته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وسلَّم تسليما كثيرًا مزيدًا دائمًا، لا منتهى لمدته، ولا حصر لعدته.

أما بعدُ: فأوصيكم-أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله-رحمكم الله-، فمن اتقى الله وقاه، ومن أقرضه جازاه، ومن شكره زاده، فاجعلوا تقوى الله نُصْبَ أعينكم، وجلاء قلوبكم، اتقوا الله الذي لا بد لكم من لقائه، ولا مفرَّ من حسابه، واعلموا-رحمكم الله- أن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء، وليس من تقوى الله خلف، فاجعلوها سبيلكم إلى كل خير، فقد تكفَّل الله- عز وجل- لأهلها بالنجاة مما يحذرون، والرزق من حيث لا يحتسبون، واخلطوا الرغبة بالرهبة، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

أيها المسلمون: جاء الإسلام لتحقيق مصالح العباد في الحال والمآل، وفي جميع الأحوال، في العقيدة والعبادة والمعاملات، والعادات والقيَم والأخلاق، والارتباطات الاجتماعية والعلاقات الإنسانية؛ مما يُنَظِّم حياةَ الإنسانِ كلها في الدنيا والآخرة.

معاشر المسلمين: وأعمال الإنسان إما عبادات يقوم عليها دينه، وإما عادات تصلح بها دنياه، والعادات مرتبطة بنية العبد، فحَسَنُها حَسَنٌ، وقبيحها قبيح، وفي الحديث الصحيح، عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" (مخرَّج في الصحيحين).

والموفَّق من عباد الله من اختار أفضل السبل واجتهد في تحصيل أكمل المثل، والعادات والأعراف لها سلطانها على النفوس، وتمكُّنها من حياة الناس، يشق نزعهم عنها، ويصعب التخلص منها، والفطرة الإنسانية تميل إلى الأُنس بما اعتادته، والركون إلى ما عرفته، فأعراف الناس وعاداتهم جزء من حياتهم، ورمز من رموز حضارتهم وثقافتهم، ومن هنا جاء الشرع المطهر مُقرًّا لهذه الأعراف ومعتَرِفًا بها، وهذا كله في الأعراف الصالحة المستقيمة، أما الأعراف الفاسدة فإن الشرع ينهى عنها ويأباها، والشاطبي-رحمه الله- يقول: "والعوائد لو

لم تُعتبر لأدًى بالناس إلى تكليف ما لا يُطاق، وقد قالوا: "الإنسان صانع العادات والأعراف وصنيعتها"، وقالوا: "الإنسان مجموع عادات تمشي على الأرض"، وقالوا: "الإنسان ابن عادته وليس ابن طبيعته".

حاجة الناس للعادات والأعراف:

أيها الإخوة: والأعراف تنشأ من البيئة، ونُظم الحياة الاجتماعية، جودةً ورداءةً، وغنى وفقرًا، وعلمًا وجهلًا، واستقامةً وانحرافًا، ففي الحياة الطيبة تتولد أعراف مجيدة، ومن الحياة الرذيلة تنشأ عادات سيئة مرذولة، فعادات كل مجتمع تعبِّر عن حاله؛ استقامةً وانحرافًا، وانفتاحًا وعصبيةً، فالصلاح يُنتج عادات صالحة، والجهل يُنتج عادات جاهلية، وكلما حَسُن تديُّن المجتمع، واستقامت تربيته وارتقت ثقافته وازداد وعيه، ارتقى في عاداته وأعرافه، وقلَّت فيه العادات السيئة.

والعادات تنشأ من معانٍ كريمة وأخلاق رصينة، وقِيَم عالية وكرم وشهامة تورثها عقائد مستقيمة وتديُّن صحيح، ورجال كرام، ومبادئ في الصلاح راسخة مما ارتضته النفوس السوية في أمور معاشها ومكاسبها وعلاقاتها، كما قد تنشأ العادات من سلوكيات منحرفة؛ من الخرافة والظلم والعصبية والاستكبار والتسلط والجاهلية.

والعادات والأعراف والتقاليد تعبر عن حياة الناس، فهي تجارب المجتمعات خلال مسيرة تاريخهم الحافل بالأحداث والتغيرات والتطورات، وللعادات تأثير بليغ؛ فهي تبني وتهدم، وترفع وتخفض، وتجمع وتفرق.

العادات والأعراف تعبر عن حالة المجتمع:

معاشر المسلمين: والعادات سلوك اجتماعي يسير عليها الناس ويبنون عليها تصرفاتهم في الأحداث والمواقف والمناسبات والأفراح والأتراح وتجري عليها أساليبهم في أقوالهم وتعاملاتهم وما يأتون وما يتركون في المآكل والمشارب والمساكن والمراكب واللباس والغذاء والحديث والألفاظ والتصرفات والخطط والأنظمة والمعاملات والبيوع والإيجارات والأوقاف والأيمان والنذور وغيرها؛ مما تقتضيه حوائج الناس وتدفع إليه مسالكهم في التدوير والإدارة والإصلاح، كما تبرز معاني الأعراف بعض المعاني الكريمة والقيم السامية من إكرام الضيف ومساعدة المحتاج وعون الغريب، وإغاثة الملهوف.

موقف الشريعة من العادات والأعراف

أيها المسلمون: وقد جاء تشريع الإسلام في أحكامه بمراعاة أحوال الناس وعوائدهم المستقرة وأعرافهم السائدة مما يلبي مطالبَهم ومصالحهم، بل إن هذا مما تركه النبي-صلى الله عليه وسلم- للناس، يسيرون فيه على ما يصلحهم ما دام أنه لا يعارض شرعًا، ولا يقر ظلما، فهو داخل في عموم قوله-صلى الله عليه وسلم-: "أنتم أعلم بأمور دنياكم" (أخرجه أحمد ومسلم وابن ماجه).

والقاعدة في ذلك أن كل ما تعارَف عليه الناسُ واعتادوه وساروا عليه ولم يكن فيه حكم شرعي مقرَّر فإنه يوزن بميزان المصلحة الشرعية بعيدا عن الأغراض والعصبيات، فإذا كانت العادة أو العرف يحقق للناس مصلحةً راجحةً أو يدفع عنهم مفسدة ظاهرة ولا يُخِل بالمجتمع فهو عُرْف مقبول وعادة نافذة، والإسلام أقر من الأعراف ما كان صالحا نافعًا لا يعارض أحكام الشرع المطهر وأصلح بعض الأعراف وقومها.

وقد قال عز شأنه مخاطبًا الأولياء والأوصياء: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ﴾ (النساء: ٦)، وقال عز شأنه في حق الأم من الرزق والكسوة: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، وقال النبي-صلى الله عليه وسلم- لهند بنت عتبة في أخذها من مال زوجها: "خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف" (متفق عليه).

ويقول الإمام القرافي-رحمه الله-: "إن جريان الأحكام التي مدركها العوائد مع تغيُّر العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين"، ويقول ابن فرحون: "إن الأحكام المترتبة على العوائد تدور معها كيفما دارت، وتبطل معها إذا بطلت، ومن أجل هذا فكل ما هو في الشريعة يتبع العوائدَ يتغير الحكم فيه عند تغيُّر العادة إلى ما تقتضيه العاداتُ المتجددةُ، والأعراف والعادات

تتغير وتتبدَّل وتتطور مع تطوُّر المجتمعات وتغير الثقافات وانتشار التعليم، فيقبل ما لم يكن مقبولا ويرفض ما كان مقبولا، فهي تتغير حسب الزمان والمكان والأحوال وطبائع الأمم وأخلاق الشعوب، ومن الحكم المأثورة: "برهان قوة الإرادة ترك ما عليه العادة"، وقد قال أهل العلم في قواعدهم: "المعروف عُرْفًا كالمشروط شرطا".

حكم العادات والأعراف

وبعد-رحمكم الله-: فالأصل في العادات والأعراف الإذن والإباحة، وقد تتحول العادة إلى عبادة وسُنَّة للفرد أو المجتمع، سواء كانت حسنة أو سيئة، وفي الحديث الذي (أخرجه مسلم في صحيحه) من حديث جرير بن عبد الله البجلي- رضي الله عنه- أن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: "مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء".

أيها المسلمون: الأعراف الصالحة والعادات المستقيمة تعزز الشعوب وتقويها وتشد منها، والعادات السيئة والأعراف المنحرفة تُضعفها وتحرفها، والتقليد الأعمى للآباء والأسلاف يضلها ويزعزعها، وقد جاء الإسلام بالتحذير والتنفير من الأعراف السيئة والعادات المستقبحة والجمود على ما عليه الأسلاف والتمسك بما عليه الآباء والأجداد، فقال سبحانه في معرض ذم أفكار هؤلاء: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزُّخرُف: ٢٣)، وقال عز شأنه: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ (الزُّخرُف: ٢٢)، فهي تبعية عمياء، وتعطيل للعقول والأفهام، وحرمان من الحرية البنَّاءة، أعراف سيئة تكلف الناسَ المشقةَ والعنتَ وتستنزف منهم الجهدَ والمالَ والوقتَ، يُلزمون بها أنفسَهم إرضاءً لغيرهم واتقاءً لنقدهم، يتكلفون ما لا يطيقون، ويفعلون ما لا يحبون، وينفقون وهم كارهون، فكيف إذا كانت عادات وأعرافا مخالفة للشرع، ضارة بالصحة والعقول، مسيئة للأخلاق والقيم؟!

يقول الحافظ ابن القيم-رحمه الله- فيمن يستمسك بالعادات والأعراف ويقدمها على أحكام شرع الله وما جاء به رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، يقول رحمه الله: "إنه يعرض لهم فساد في فِطرهم وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومَحْق في عقولهم فيتربَّى عليها الصغيرُ، ويهرم عليها الكبير".

أثر العادات والأعراف الصالحة والسيئة على الناس

أيها الإخوة: وتأملوا في بعض عادات المجتمعات السيئة؛ في الزواج والولائم والمآتم والمجاملات في تكاليف باهظة، ونفقات مرهقة، بل ديون متراكمة، ومن ثم يكون التواصل والتزاور وإجابة الدعوات عند هؤلاء هَمًّا وغَمًّا، بدلا من أن يكون فرحا وسرورا، فالتزاور بالأُنس والمباسطة ولذة المجالسة، وليس بالمفاخرة والتكلف وإظهار الزينة، والتفاخر والتباهي مما يجعل الحياة هما وشقاء وعبئا ثقيلا.

أيها المسلمون: ويتعين على كل عاقل-فضلا عن المسلم الصالح- أن ينبذ كل عادة وعرف يخالف أحكام الشرع، أو يقود إلى عصبية وجاهلية وفُرْقة وتمييز، وعليه أن يعرض ذلك كله على ميزان الشرع المُطهَّر؛ لينفر من قبيح العادات وسيئ الأعراف، ويفيء إلى ظلال الإسلام الوارفة، ودوحته الآمنة، وإلى مسالك الأخيار من أهل العقل والفضل والكرم والمروءة.

ومن قدَّم هذه العادات والأعراف والتقاليد على شرع الله وحكمه أو تحاكم إليها بدلا من التحاكم إلى شرع الله فهذا مُنكَر عظيم، قد يقود إلى الخروج من الملة عياذًا بالله.

ألا فاتقوا الله-رحمكم الله-، ألا فاتقوا الله-رحمكم الله-، فإن من قاوم العوائد السيئة بالنصح والبيان فهو من المصلحين الذين يسعون لإصلاح ما أفسده الجهلة، ومثل هذا وفقه الله وأعانه يواجه-عادةً- مقاومةً من الجهلة، وهذا نوع من الجهاد، ومن قصر في هذا وهو قادر على الإصلاح وبخاصة من أهل العلم والوجهاء فهو مفرِّط وعرضة للإثم، وأشد منه من يتقرب إلى العامة بمجاملتهم أو إقرارهم على فاسد أعرافهم وعوائدهم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



نصائح وتوجيهات

الحمد لله، الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، وأشهد ألا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، شهادةً هي الذخر ليوم تجد فيه كلُّ نفس ما عملت، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبد الله ورسوله، دعا إلى الملة الحنيفية سرًّا وجهرا، حتى ظهرت وعزت وانتشرت، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، والتابعين وَمَنْ تبعهم بإحسان، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

إعداد: د: صالح بن عبد الله بن حميد
خطيب المسجد الحرام

أما بعد: فأوصيكم-أيها الناس- ونفسي بتقوى الله، فاتقوا الله-رحمكم الله-، واجتَنبوا صحبةَ مَنْ إذا ائتُمِنَ خَدَعَ، وإذا اطَّلَعَ على السر فَضَحَ، وإذا استغنى تَرَكَ، الناس لا توزن بأموالها ومناصبها، وإنما توزن بطيب قلوبها، وحُسْن منطقها، وجميل صنائعها، وغض الطرف عن نقائصها، وفضل الإنسان بما يَمنح لا بما يملك؛ يا أهلَ الإسلام، تراحموا ولا تختلفوا، وترفقوا ولا تَجْفُوا، مَنْ حَفِظَه الله من الفتن كان أطيب نَفْسًا، وأشرحَ صدرًا، وأخلف ظَهْرًا، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (العَنْكَبُوت: ٦٩).

توجيهات للفوز بخيري الدنيا والآخرة

أيها المسلمون: مسئولية المسلم في هذه الحياة هي العملُ والجِدُّ، فمهما رأى في الزمن من قسوة، ومهما عانى في الظروف من شدة، فالحقُّ منصورٌ، والمؤمنون هم الأعلون، ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عِمْرَان: ١٣٩)، فلا ينبغي للعبد أن يعطي الأحداثَ والمتغيراتِ أكثرَ مما تستحقُّ، كما لا ينبغي له أن يجعلها عائقا ولا صادًّا، والموفَّق هو مَنْ يرى في كل عقبة فرصة للإقدام، وفي كل معوِّق منطلَقًا إلى الجِد والتجديد، الجنة-أيها المؤمن- بين شُكْر سليمانَ وصبر أيوب-عليهما السلام-، وقد قال الله-عز وجل- في هذين النبيين الكريمين كليهما: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠)، لا تنظر مكانك عند الخَلْق، بل انظر أين مقامك عن الخالق، لا تحمل هم الدنيا،

فلله الآخرة والأولى، ولا تحمل هم الرزق، فهو عند الله، ولا تحمل هم المستقبل، فهو بيد الله، خُذْ بالأسباب واستَقِمْ كما أمِرْتَ، لا كما رغبتَ، لن يقاسمك الوجعَ صديقٌ، ولن يتحمل عنك الألمَ حبيبٌ أو طبيبٌ، اعتَنِ بنفسكَ وقُمْ بمسئوليتكَ، ورزقك لا يأخذه غيرك واطمئن، وعملك لا يقوم به غيرُكَ فاجتَهِدْ، لا أحدَ يضع نفسَه مكانَكَ، فأنت المسئول عن أمرك وشأنك، واعلم أنه لن يكون للمؤثرات في الخارج أيُّ تأثير إلا إذا كان في الداخل قابلية، (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرَّعْد: ١١).

معاشر الأحبة: أما ميدان العمل وطريق الجنة فطويل واسع، وعريض مُيَسَّر، لا يُحَدُّ ولا يُحْصَرُ، فاعملوا فكلٌ ميسَّر لِمَا خُلِقَ له، المساجد مؤسسات، والمؤسسات مساجد، والبيوت محاضن، والآباء والأمهات والمعلمون وأهل الفضل والمرشدون كل هؤلاء رموز وقدوات.

والعامل المصلح لا ينوب عن الأمة، ولكنه يتقدمها، والأعمال الصالحة لا ينتهي عدُّها، ولا يُحصى فضلُها، ولا يُدرَك أثرُها، بالوضوء تتحاتُّ الخطايا وتُضاعف الحسناتُ، وبالخطى إلى المساجد تُمحى السيئاتُ وتُرفع الدرجاتُ، "وبشِّر المشَّائينَ في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التامِّ يومَ القيامة، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، فذلك الرباطُ".

اقْرَأْ وتَدَبَّرْ من الآيات ما تيسَّرْ، واجعل لكَ من أحاديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وِرْدًا ونصيبًا، لازِمْ حلَقَ العلم، أعْطِ محرومًا، أغِثْ ملهوفًا، بَرَّ والدًا، صِلْ رَحِمًا، صاحب تقيًّا، سَدِّدْ أخًا، زُر مريضًا، أدخل سرورًا، استر عيبا، انصر مظلوما، قَدِّمْ نصحا، أرشد ضالا، اسقِ ماءً، أمِطْ عن الطريق الأذى، تضرَّع إلى الله بالدعاء، الهج بالأذكار آناء الليل وأطراف النهار وفي الأسحار، كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أحيِ الحقَّ بفعله وذكره، وأمِتِ الباطلَ بالنهي عنه وتركه، اجتَنِبِ الجدَلَ، اجعل ما يخرج منكَ شاهدًا لكَ لا شاهدًا عليكَ، كن مفتاحا للخير مغلاقا للشر، واعلم أن أول المعوقات وأشد المثبطات ما ينبع من النفس، وقد قال عز شأنه: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) (آل عِمْرَان: ١٦٥).

ذم المتحدث عن مسؤوليات الآخرين فقط

معاشر الأحبة: ما يراه المسلم عسيرًا فهو عند الله يسير، وما يراه كبيرا فهو عند الله صغير، وما يراه شديدا فهو عند الله هَيِّنٌ، فما على العبد إلا قرع الباب، فهو -سبحانه- يجبر بحكمته الكسيرَ، ويقوِّي بحكمته الضعيفَ، وعند الله ما خاب رجاءٌ، وما من شدة إلا ويعقبها رخاءٌ، والمولى إذا فَتَحَ أبوابَه فهو جزيل العطاء، والمؤمن لا ينقطع رجاؤه، ولو تكاثرت مظاهرُ اليأس ليقينه بحكمة الله وإن لم تدركها العقولُ، بل لقد قال بعضُ السلف: "لولا مصائبُ الدنيا لَوَرَدْنَا الآخرةَ مَفَالِيسَ".

معاشر المسلمين: وإذا كان الأمر كذلك فلمزيد من النظر والتأمل تأمَّلُوا فيمن يرى نفسَه أنه يحمل هموم أمته، وهو لا يتحدث إلا عن مسؤوليات الآخرين، الكبار منهم والصغار؛ وَمِنْ ثَمَّ تراه يُحَمِّلُهُمْ أسبابَ ما يراه هو من قصور أو أخطاء وهو في هذه الغمرة الغامرة، والنظرة القاصرة يغفُل عن الحقيقة الكبرى ومسؤولية شرعية عظمى؛ يغفُل عن مسؤوليته وواجباته وقدراته وإمكاناته ووسائله وأدواته، يغفُل كلَّ الغفلة فلا يدرك أن تفريط الآخرين أو تقصيرهم

لا يعفيه أو يعذره عن القيام بمسؤولياته وأداء واجباته، بل إنه من شدة غفلته وغلَظ حجابه ينشغل بما لا يجب عليه، وما ليس بمسئولياته، ويفرِّط في مسؤولياته ويقصِّر في واجباته، كلكم راعٍ وكلكم مسؤول على رعيته، وكلكم على ثغر.

ثم انظر وتأمَّلْ كيف تزداد عنده الغفلة ويشتد التقصير لينشغل هذا المبتَلَى بالنزاعات والخلافات والمجادلات فهو بهذا ضائع مُضَيِّع.

يا عبد الله: أنتَ مسؤول عن تحرِّي الحقِّ، والسؤال عنه من الثقات الأثبات، واعلم أن انتشار الشيء وشيوعه وكثرة أخذ الناس به ليس مسوِّغًا لأن ترتكبه، وتجاري الناسَ فيه، أو تتهاون في طلب الحق وتحريه، لا تتساهل في متابَعة أدوات التواصل والمواقع وما تنضح به من مثبطات وتيئيسات وشكوك وشبهات ومشكلات، عليك بحفظ الوقت وأخذ النافع ولزوم العمل الصالح، الخصومات والمجادَلات التي تمتلئ بها الساحات لا ينبغي للمسلم أن يجري وراءها، أو يجعلها سُلَّمًا لينالَ من أعراض العلماء والمسؤولين وحقوقهم وإلقاء التَّبَعَة عليهم وحدَهم، فكل امرئ عليه مسؤوليته، غُلُوّ بعض الناس أو تساهلهم أو تفريطهم لا يسوغ النَّيْل من الدِّين وأحكامه وأهله، والطريق الوسَطيّ معروف ظاهر، لمن صلحت نيته وحَسُن قصدُه وصلُح عملُه، وصحَّ على الله توكلُه.

وبعدُ عباد الله: حصانة الثبات الإيمان، والصبر والتوكل، وإن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وما أجمل ما أوصى به الحبيبُ المصطفى-صلى الله عليه وسلم- عمَّه العباسَ بن عبد المطلب-رضي الله عنه- حين قال له: "يا عم، سَلِ الله العافيةَ في الدنيا والآخرة"، ومن عمل خيرًا فليشكر ليحصل له المزيدُ، ومن عمل سوءا فليستغفر وليتب، فالتوبة تَجُبُّ ما قبلها، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة: ٢١٤).

عظم الجزاء مع عظم البلاء

أيها المسلمون: إن ما يلاقيه المرءُ من شدائد وبأساء ومعاناة فإنها تُنسى كلُّها، فقد جاء في الحديث: "يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ".

دين الإسلام منتصر غالب رغم المحن

وما يُرى من تسلُّط الأعداء على هذا الدِّين في بعض الأزمان والبلدان وحرصهم على نشر باطلهم وظهوره فيظنون أنهم منتصرون إنما ذلك كله ليبتلي الله أهلَ الإيمان، وحينَها يعلم أهل الإيمان أنهم على الجادَّة ثابتون، وعلى طريق الجنة المحفوف بالمكاره سائرون، ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾(آل عمران: ١٤٠-١٤١).

ألا فاتقوا الله-رحمكم الله-، ثم صلوا وسلموا على الرحمة المهداة والنعمة المسداة نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلكم ربكم في محكم تنزيله فقال عز قائل كريما، في محكم تنزيله قولا كريما: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(الأحزاب: ٥٦).



منبر الحرمين

أسرار الحج وحكمه وكلمة للحجيج

الحمد لله مقدر الأزمان والدهور، مجري الأحداث والأعمال على قدرها المقدور، أحمده- سبحانه- هو أهل الحمد والمجد والكمال، لا يشغله حال عن حال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين، شهادة الحق واليقين، فيها النجاة والثبات يوم الدين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبد الله ورسوله الصادق الأمين المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله وسلم وبارك عليه ورفع درجته على الناس أجمعين، والصلاة والسلام على آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين وزوجاته أمهات المؤمنين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إعداد: الشيخ د: صالح بن عبد الله بن حميد
خطيب المسجد الحرام

أما بعد: فأوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله -عز وجل-، فاتقوا الله -رحمكم الله- فلله در أقوام امتثلوا ما أمروا، وزُجروا عن الآثام فانزجروا، جن الليل عليهم فسهروا واجتهدوا في المطلوب فجدوا ورغبوا وحرصوا، ربحوا وما خسروا، وعاهدوا فما غدروا، واعترفوا بنعم مولاهم فشكروا، لقد ذكروا بالذكر فذكروا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (المؤمنون:١١١).

أيها المسلمون حجاج بيت الله: تقبل الله حجكم وأحسن عملكم، وجعل حجكم مبرورًا وسعيكم مشكورًا، وأعادكم إلى دياركم سالمين غانمين موفورة أجوركم، متقبلة أعمالكم، صالحة شؤونكم، محفوظين في دينكم وأهلكم.

من أسرار الحج:

أيها المسلمون حجاج بيت الله: وأنتم تتطلعون لشهود منافع الحج وحكم التشريع وأسرار الشرائع، فهذا هو الحج فريضة محكمة، وركن من أركان الإسلام راسخ، من خصائصه أنه أكثر نفقةً وأكثر مشقةً وأعظم تضحيةً؛ ولذا كان الحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة، ومن حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

الحج رحلة العمر والحياة إلى بيت الله المحرم، يقترن به غالبًا زيارة مباركة إلى مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

حجاج بيت الله: تقبل الله منا ومنكم، وبلَّغنا منافع الحج، شعائر الإسلام الكبرى -الصلاة والصيام والزكاة والحج- تتجلى فيها جميعًا وحدة المسلمين واتحاد شعائرهم ومشاعرهم، تؤتى كلها في أوقات معلومة، وشعائر ظاهرة، ليس لأحد أن يزيد فيها أو ينقص؛ فالصلاة أوقاتها خمسة معلومة، والصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والزكاة في وقتها معلوم:

(وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ) (الأنعام:١٤١)، و(ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ) (البقرة:١٩٧).

إن شعائر الإسلام تجمع المسلمين على توجه واحد وتوحيد واحد وممارسة واحدة، يستشعرون معاني الإخوة والمشاركة، ويشعرون بعظمة التجمع في مسجد الحي، ومسجد الجمعة الجامع، والمسجد الحرام، والمشاعر العظام، والمسجد النبوي الشريف.

والحاج يجتمع له ذلك كله في رحلته المقدسة من صلاة ونفقة وسفر ورفقة، ينخلع عن أهله وولده وبيته وعمله وراحته، في أيام عظيمة، ونفحات إيمانية ومشاعر دفاقة، أيام إقبال على الله وابتغاء مرضاته في أماكن مقدسة طاهرة، يتجرد فيها عن الدنيا ومظاهرها، يطرق أبواب الرحمة والمغفرة، يتعرض لنفحات ربه في هذه المواقف الشريفة في عرفة والمشعر الحرام ورمي الجمار والطواف بالبيت المحرم وبين الصفا والمروة، أيام حج مباركة، وأعمال من الطاعات والقربات يتوافد فيها الحجيج، يحملهم الطهر ويحدوهم الأمل من رب كريم، في مظهر فريد في دنيا البشر لا نظير له ولا مثيل في أي مكان أو أي زمان إلا لأهل الإسلام وديار الإسلام.

ملايين البشر من المسلمين اعتزلوا ما ألفوا، الكل في موقف واحد، آوتهم الخيام، وتجردوا من ثياب الترف والزينة، لئن كانوا في ديارهم يمثلون أذواقًا مختلفة وأنماطًا متغايرة وعادات متباينة، وأصواتهم متفاوتة ولغات ولهجات متنوعة؛ فإنهم في يوم عرفة لونهم البياض، ولباسهم الإزار والرداء، ولغتهم التلبية والتسبيح والتكبير والتهليل والدعاء والاستغفار، ومشاعرهم مشاعر الضراعة والقرب، والابتهال في القلوب إيمانٌ وفي الألسنة ذكرٌ، وفي المشاعر رغباتٌ وآمال بالفوز والنجاة والقبول والمغفرة.

معاشر الإخوة حجاج بيت الله: ومن شهود منافع الحج والنظر في حكم التشريع وأسرار الدين ما أعلنه نبينا محمد-صلى الله عليه وسلم- في خطبته يوم عرفة في حجة الوداع من معالم الإسلام ومبادئه العظام، ومما تقتضيه المناسبة ما ذكروه من شأن المال ونظامه وتنظيمه، وعالم اليوم يعيش أزمة مالية خانقة، لقد قال-عليه الصلاة والسلام- فيما قال في هذا اليوم العظيم والمشهد الكبير: "كل ربا موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون". وفي نظرة موجزة فيما عليه نظام المال واقتصاده في الإسلام يتبين أين الخلل وأين المشكلة وأين الحل.

المال-عباد الله- له دائرتان: دائرة الكسب ودائرة الإنفاق:

أما دائرة الكسب: فهي إحدى صور العمل، ومنْ كَدَّ وعمل فهو حقيق بأن ينال جزاء عمله، وكسبه من جهده المبذول حسب قدرته وخبراته العلمية والبدنية والعقلية، وهذه القدرات والخبرات والقوى تختلف بين الناس اختلافا بيّنًا؛ ومن هنا فإن مكاسبهم ونتائج أعمالهم واستحقاقاتهم تختلف كذلك، وفي ميدان العمل والكسب كذلك؛ فإن الإسلام يفرّق بين الحلال والحرام، فكل درهم يأخذه الإنسان من غير وجهه فهو حرام وسحت، وكل لحم نبت عن سحت فالنار أولى به، منْ غشٍ وظلم وكذبٍ وتدليس وكتمان واحتكار، والمال لا ينتج مالاً، والزمن لا يمنح ربحًا، وإنما يُكسب المال بالعمل والجهد والجد والكسب.

وكل تعدٍ على الآخرين وارتكاب للحيل للاستحواذ على أموال الناس سحتٌ وحرامٌ وممنوعٌ في شرع الله ودينه، وجمع المال واكتنازه من غير أداء حق الله فيه مسلك في الشرع ممنوع، ناهيكم مما يجب التحلي به من الأخلاق العالية والقيم الرفيعة والصدقة والبذل والإحسان والرفق والسماحة في البيع والشراء وحسن الأداء والقضاء.

أما الدائرة الثانية: فهي دائرة الإنفاق؛ فدين الإسلام يدعو إلى الإنفاق من غير إسراف ولا تقتير، بل نهجه النهج القوام مما يبني ثقافة الصرح والاستهلاك الرشيد: (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

قَوَامًا) (الفرقان:٦٧)، (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا) (الإسراء:٢٩)، إنفاق يحارب البذخ والسرف والخيلاء والشح والتقدير مما يذهب بالمال من غير وجهه، ويورث الحسد والبغضاء ويوقع الفحشاء: (ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٦٨).

ليس الاقتصاد وحدات حسابيةً، أو تعظيمًا للربح والمنفعة العاجلةَ والنهم والجشع على حساب الحق والعدل والرحمة والصدق والرفق وحسن التعامل، ويكفي من مظاهر الظلم تسريح العمال وازدياد البطالة، وإذا زاد الإنتاج ألقوا بالفائض في البحر أو في النهر غرقًا وحرقًا حتى لا ترخص الأسعار وحتى لا يحل الرخاء، ولو مات العالم جوعًا وعريًا، ناهيكم بالعبث بالأسواق والأسعار وسوء استخدام أجهزة الإعلام في تحقيق المكاسب الحرام وخداع عباد الله.

وبعد: عباد الله: ماذا يصنع من يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه ورعٌ يحجزه عما حرَّم الله، وحلمٌ يضبط به جهله وحسن صحبةٍ لمن يصحب؛ فلا تحقرن من المعروف شيئًا، فجنات عدن أعدها الله للذين ينفقون في السراء والضراء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين.

أيها الحاج الكريم- وقد حفظك الله فأتم لك نسكك، ويسر لك طريق العبادة-: اعلم أن حفظ حقوق إخوانك والالتزام بآداب الإسلام يمحو آثار الذنوب وظلمة الآثام؛ يتحرى الحاج كل برٍ، ويتباعد عن كل منكرٍ؛ تقرُبا إلى الله وأخوةً للمؤمنين.

إن الحج في وفوده وحشوده تأكيدٌ لهذه الارتباطات، وتجسيدٌ لتلك المشاعر، صفوفٌ في الأبدان، وشهودٌ في الأفئدة، الحج رمز الوحدة والتوحيد، وعنوان البذل والتضحية، ملتقى المسلمين الأكبر يوم الحج الأكبر.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: (فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (البقرة:٢٠٠-٢٠٢).

الحج فرصة لتقوية أواصر الرابطة الإيمانية

أيها المسلمون حجاج بيت الله: مهما تنوعت سبل الاتصال وتعددت وسائل التعاون وتزايدات عوامل التأثير - فإن رابطة الإسلام لا يعدلها رابطة.. وأخوة الدين لا يماثلها أخوة، ومشهد الحج العظيم ومنافعه المشهودة تجسد هذه الأخوة وتبرز معالم الوحدة الإسلامية في المظهر والمخبر وفي اللباس والشعائر.. وحدة الصف ووحدة هدف.. شعار التوحيد لفظًا وعقيدة تهليلًا وتكبيرا وتلبيةً وتنزيها: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك.

معاشر الحجيج: والحديث عن مظاهر الوحدة وعن الشعائر والمشاعر التي ترسخ هذه الرابطة وتؤكد هذه الأخوة حديث ذو شجون وخبرٌ ذو شعب، والمسلمون من جميع أنحاء الدنيا حين يتوجهون إلى هذه الديار المقدسة يتمثلون وحدتهم الجامعة ويتطلعون إلى العمل الصالح والى ذكر الله وشكره وحسن عبادته.. يجسدون أخوتهم الإيمانية ويتناسون خلافاتهم، بل يتركون اهتماماتهم في شئون دنياهم وراءهم ليتفرغوا للعبادة ويستغلوا ثمين أوقاتهم لتحصيل فضل هذه البقاع المقدسة وبركات الحرمين الشريفين.

معاشر الإخوة: ومن التزام أخوة الدين وتأكيد رابطة الإسلام: إبعاد الحج عن أي مشوّش على مظهر الوحدة ومعكر على الغايات السامية؛ من ذكر الله والتزود من البر والتقوى: (لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ) (الحج:٢٨) (ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟

فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ) (البقرة:١٩٧)..

ومن حق أخوة الإسلام اجتناب أي صورة من صور الفوضى والبلبلة تحت أي دعوى، واستنكار أي محاولات للتشويش والمهاترات.. إن أهل الإسلام عمومًا وحجاج بيت الله خصوصًا يعلمون أن القصد إلى هذا التشويش والبلبلة يقود إلى الانشقاق والفرقة بين المسلمين.. يؤذي الحجاج وهم يؤدون مناسكهم.

نعم-ضيوف الرحمن-: لا يمكن أن يُحوَّل الحج إلى منابر سياسية تتصارع فيها الأفكار والأحزاب والطوائف والمذاهب وأنظمة الحكم؛ مما يعني-بلا شك ولا ريب- الانحراف الخطير والانجراف المدمر عن أهداف الحج وغاياته: (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ) (البقرة:١٩٧)..

الحج والديار المقدسة ليست ميدانًا لنقل الخلافات وتصفية الخصومات.. إنها فوق الخلافات السياسية والعصبيات المذهبية، إن الإقدام على مثل هذا يقود إلى الفتنة والعبث بأمن الحج والحجيج وشق لصف المسلمين وفتح لساحات الجدل العقيم.. لا يقول مسلمٌ بفصل الدين عن السياسة ولا بفصل الدين عن الدولة.. ولكن لا يجوز استغلال الدين ومواسم العبادة وتجمعات المسلمين في المشاعر المقدسة لأغراض مسيسة وصرف الأنظار عن معاناة يعيشها من يعيشها ومشكلات واقع فيها صاحبها.. يجب إبعاد الفريضة المقدسة عن مثل هذه الأغراض، إن الخوض في هذا والانشغال فيه إفسادٌ لمقاصد الحج الإيمانية وحرمانٌ لضيوف الرحمن من الأمن والأمان والتفرغ للعبادة واستشعار قدسية الزمان والمكان وافتعالٌ لقضايا خلافية تزيد من فرقة الأمة وتشرذمها.

ألا فاتقوا الله-رحمكم الله- واشهدوا منافع حجكم، وتأملوا أسرار التشريع وحكمه وأحكامه، واذكروا الله واشكروه على ما يسَّر من بلوغ بيته وقضاء النسك بأمن وأمان ويسر واطمئنان: (فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۖ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ) (البقرة: ٢٠٢).

ثم صلوا وسلموا على الرحمة المهداة والنعمة المسداة نبيكم محمد رسول الله؛ فقد أمركم بذلك ربكم فقال-عز قائلاً عليمًا- في محكم تنزيله قولاً كريمًا: (إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) (الأحزاب:٥٦). اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبيك محمد، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، والخلق الأكمل، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وارض اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين، والأئمة المهديين: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنا معهم بعفوك وجودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.

عزاء واجب

توفيت الي رحمة الله باذنه تعالي شقيقة الدكتور حمدي طه عضو اللجنة العلمية لمجلة التوحيد واسرة تحرير مجلة التوحيد يتقدم بخالص العزاء والمواساه داعين الله سبحانه ان يغفر لها ويرحمها وانا لله وانا اليه راجعون

رئيس التحرير